

الجامعة الأسمرية الإسلامية



كلية الدعوة وأصول الدين
FACULTY OF CALL & PRINCIPLE OF RELIGION

أصول الدين

مجلة علمية محكمة

تصدر عن كلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الأسمرية الإسلامية

(عدد خاص)

أعمال مؤتمر الهوية الدينية الليبية
صفر 1444 هـ / سبتمبر 2022 م

العدد السادس

جمادى الأولى 1444 هـ / ديسمبر 2022 م

رئيس التحرير

أ.د. حسين علي عكاش

مدير التحرير

د. بشير عبد الله القلعي

أعضاء هيئة التحرير

د. ناجي فرج التكري

د. حسين علي عون

د. مصطفى فرج زايد

د. إبراهيم عبد الله خليفة

تصميم وإخراج

أ. أحمد الطيف الكردي

الهيئة الاستشارية:

1. أ.د. عمر مولود عبد الحميد جامعة الزاوية.
2. أ.د. أحمد عمر أبو حجر الجامعة الأسمرية.
3. أ.د. علي سليمان الزوبي جامعة طرابلس.
4. أ.د. أحمد محمد رحومة الجامعة الأسمرية.
5. أ.د. الخضر عبد الباقي محمد جامعة الحكمة / نيجيريا.
6. أ.د. جمال فاروق الدقاق جامعة الأزهر / مصر.
7. أ.د. محمد بن الحسين الرزقي جامعة الزيتونة/ تونس.
8. أ.د. رمضان حسين الشاوش جامعة طرابلس.
9. أ.د. عبد الحميد سالم الجياش جامعة محمد علي السنوسي.
10. أ.د. جمعة مصطفى الفيتوري كلية الدعوة الإسلامية.
11. أ.د. حسين أحمد المنتصر جامعة طرابلس.

قواعد النشر في المجلة:

- يشترط لقبول البحوث ونشرها في المجلة ما يأتي:
1. ألا يكون البحث قد نشر من قبل، أو قدم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه ترقية علمية، على أن يقدم الباحث تعهداً بذلك.
 2. أن يتسم البحث بالجدة والأصالة والعمق، ويشكل إضافة نوعية في مجال اختصاصه، مع مراعاة السلامة اللغوية، والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في البحوث العلمية.
 3. أن يلتزم الباحث القيم الإسلامية، ومبادئ الحوار الراقى، بعيداً عن التجريح والإسفاف في القول، أو التعريض والتهمك بالآخرين.
 4. مراعاة البنية المنهجية المنضبطة، والاستخدام الأمثل للمصادر والمراجع، وترتيب المعلومات بنسق موحد في البحث، وترقيم الهوامش بأرقام مستقلة لكل صفحة. ووجود الملاحق من المقدمة والخاتمة، المتضمنة للنتائج والتوصيات، وقائمة المصادر والمراجع.
 5. تقدم البحوث لإدارة المجلة من نسختين، إحداها مطبوعة على ورق، من وجه واحد، والأخرى محفوظة في قرص حاسوب (CD)، ويمكن إرسالها على العنوان الإلكتروني للمجلة،
 6. ترسل المعلومات المتعلقة بالسيرة العلمية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث.
 7. ألا يقل البحث عن 15 صفحة، ولا يزيد على 25 صفحة من نوع: (A4)، ويكون حجم الخط (16) للهن، وأما الهوامش فتكون بخط (12)، على نظام ويندوز، وأن يكون نوع الخط (Simplified Arabic).
 8. يعرض البحث على مقوم متخصص، ومقوم لغوي، مع مراعاة السرية التامة؛ لرفع الحرج عن الباحث والمقوم، وتعول هيئة التحرير كثيراً على توصيات المقومين فيما يتعلق بنشر البحث من عدمه.
 9. يقدم المقوم تقريراً عن البحث يبين فيه تقييم البحث، على النحو الآتي:
أ- مقبول للنشر بدون تعديل. حاصل على 80% فأكثر.
ب- مقبول مع التعديل. حاصل على 70% فأكثر.
ج- مردود. حاصل على أقل من 70%.
 10. يعطي المقوم للبحث الدرجة النهائية من مائة في حالة قبوله للنشر -بملاحظات أبو بدونها- بناءً على ما توافر في البحث من معايير النشر، وتكون درجات التقييم موزعة على النحو الآتي:

أ- الإبداع والتجديد 30% . ب- المنهجية العلمية 25%.

ج- اللغة والأسلوب 25% . د- المصادر والمراجع 20%.

مقدمة العدد السادس (عدد خاص 2)

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على المبعوث بالحنيفية السمحة؛ رحمة للعالمين، سيدنا وحبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين،،، وبعد.

إنه لمن دواعي السرور والفخر لهيئة التحرير بمجلة أصول الدين، التي تصدرها كلية الدعوة وأصول الدين، أن تستضيف أعمال المؤتمر العلمي الدولي: (الهوية الدينية الليبية)، الذي نظّمته وأشرفت عليه كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية، بالاشتراك مع الزاوية الأسمرية ورابطة علماء ليبيا، خلال المدة: من 15 إلى 18 صفر، 1444هـ، الموافق: من 10 إلى 13 سبتمبر 2022م، تحت شعار: (الهوية الدينية دعامة أساسية للوحدة الوطنية)، وأن تصدره في (عدد خاص)، يكون هو العدد السادس من أعداد مجلة أصول الدين.

وبهذا نقرُّ لله بالفضل والمنّة، ونعلن ذلك قائلين: الحمد لله الذي فضله تمُّ الصالحات، فقد استهوى هذا المؤتمر العلمي، الذي انصبَّ البحث فيه على مرتكزات الهوية الدينية الليبية الأربعة: (قراءة الإمام نافع، والعقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف الإسلامي السني)، استهوى علماء متخصصين واساتذة جامعيين، من داخل البلاد وخارجها، أظهروا اهتمامهم بفكرة المؤتمر وموضوعه، وتجاوبوا معه، وأثروا محاوره بالبحوث العلمية المعمّقة، فشارك فيه عدد كبير من أساتذة الجامعات الليبية، أمّا من خارج البلاد فقد شارك لفييف من العلماء والمفكرين، من دول عدة، منها: المغرب، وتونس والجزائر، ونيجيريا، ومصر، وسوريا، ولبنان، والأردن، والسعودية، والعراق، وقد بلغ مجموع الملخصات: (156) ملخصاً، وصلت إلى اللجنة العلمية بوسائل عدة، منها ما أرسل عبر إيميل المؤتمر، ومنها ما تمّ تسليمه باليد، وبعد فحص تلك الملخصات، تقرر قبول: (103) ملخصاً، واستبعاد المشاركات التي لا تخدم محاور المؤتمر، أمّا البحوث المنجزة التي وصلت إلى اللجنة العلمية، فقد بلغت: (56) بحثاً فقط، موزعة على محاور المؤتمر، وقد تمت إحالتها إلى التحكيم من قبل مقيّمين مختصّين، فأجيز منها: (51) بحثاً، لباحثين من الداخل والخارج، منهم من شارك بالحضور الشخصي، ومنهم من لم يتمكن من الحضور فشارك عن طريق الزوم، واستمرت جلسات المؤتمر على مدى ثلاثة أيام متوالية،

عُقدت فيها: (13) ثلاث عشرة جلسة علمية، كانت حافلة بالمداخلات والمناقشات المستفيضة حول الورقات العلمية التي أُلقيت في المؤتمر، وإثرائها بالمزيد من تبادل وجهات النظر، والنقد والتمحيص.

هذا وقد تخلل تلك الجلسات العلمية، العديد من المناشط الأخرى، فعقدت ثلاث حلقات حوارية، نُوقش فيها العديد من القضايا العلمية والإشكالات الفكرية، كانت الحلقة الحوارية الأولى حول قضايا العقيدة، والثانية حول التصوف الإسلامي، والثالثة حول دور الإعلام في دعم الهوية والانتماء، وقد استُضيف في هذه الحلقات الحوارية كوكبة من العلماء والباحث المتخصصين، من الداخل والخارج، وأُلقيت في هذا المؤتمر أيضا - العديد من المحاضرات الثقيفة، فكان هذا المؤتمر تظاهرة علمية فريدة؛ لدعم هويتنا الدينية وتوطئتها واستقرارها في النفوس، وفي اليوم الثالث من أيام المؤتمر عقدت أمسية شعرية، شارك في إحيائها نخبة من الشعراء، جادت قرائحهم بقصائد ومقطعات شعرية رائعة، في أغراض شتى: دينية، ووطنية، واجتماعية، تخللتها بعض الدعابات والطرائف الأدبية، ما أبهج الحضور وأدخل عليهم السرور، بعد يوم حافل بالجلسات العلمية، وما أعقبها من مناقشات ومداخلات.

هذا، وقد خلص المشاركون في هذا المؤتمر الرائد، الذي سماه بعضهم: (المؤتمر الشجاع)، خلصوا إلى العديد من النتائج العلمية والرؤى المستقبلية، التي تحفظ هويتنا الدينية وخصوصيتنا الثقافية والروحية، وضمنوها في البيان الختامي للمؤتمر، ونحن نأمل بعون الله وتوفيقه أن تستوعب عقول أجيالنا الناشئة تلك النتائج، وتعدّها ثوابت أساسية لمجتمعنا، تدعم وحدتنا الوطنية، وأن تأخذ تلك التوصيات والرؤى المستقبلية طريقها نحو التطبيق العملي، لعلها تدرأ عنا وتجنّبنا ويلات الخلاف والتعصب، والتطرف والإرهاب الفكري. والجدير بالذكر أنّ مجلة أصول الدين إذ تستضيف أعمال المؤتمر المذكور وتتكفل بنشر البحوث المجازة فيه، فإنّ ذلك يتم وفقاً لشروط النشر وضوابطه المنصوص عليها في اللائحة الداخلية المعتمدة للمجلة، وبناءً عليه فقد تم استبعاد بعض البحوث التي جاءت غفلاً عن قائمة المصادر والمراجع، وكذلك البحوث التي خلت مصادرها ومراجعها عن معلومات النشر بها، وقد قدّم بعض الباحثين التماساً يعتذر فيه عن نشر بحثه لأسباب تخصّه، وبذلك يكون عدد البحوث المنشورة في هذا العدد: (36)، ستة وثلاثين بحثاً فقط.

وفي ختام هذه الافتتاحية يسرنا أن نضع بين أيدي القراء والباحثين والمهتمين، هذا العدد الخاص من أعداد مجلتنا، بما حواه من أبحاث ودراسات، تُبرز جهود علماء بلادنا، وإسهاماتهم الرائدة في ميادين العلم والمعرفة، والله نسأل أن ينتفع بها كلُّ من اطَّلَع عليها، وأن يجازي بالخير والبركة من كان سبباً في عقد هذا المؤتمر، ومن سعى وأسهم في إنجاحه بالدعم المادي والمعنوي، إنَّه سميع قريب، مجيب الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدير التحرير

د. بشير عبد الله القلعي

الثلاثاء الموافق 2022/10/18م

فهرس المحتويات:

الصفحة	الموضوعات	م
	افتتاحية العدد، بقلم: مدير التحرير، الدكتور: بشير عبد الله القلعي	
40-1	ارتباط العقيدة الأشعرية بالمذاهب الفقهية الأربعة. د. عبد الإله بن حسين العرجف.	-1
71-41	المخرج من الخارجية دراسة تأصيلية. د. فاضل يونس حسين البدراني.	-2
106-72	الهوية الدينية الليبية بين الاستتباب، والاستلاب. د. خالد إبراهيم المحجوبي.	-3
118-107	هوية رجال الإفتاء في ليبيا فقها، عقيدة، سلوكا. أ. خالد محمد بن سعيدان.	-4
132-119	دور المذهب الأشعري والتصوّف السنيّ في تشكيل ملامح الهوية الدينيّة في ليبيا.. أ.د. محمد الرزقي.	-5
157-133	جهود علماء المالكية في الحفاظ على الهوية الدينية لليبييا في ظل السيطرة الفاطمية. د. وليد أحمد حمود.	-6
179-158	الأسلاف من علماء ليبيا وجهودهم في هوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي. د حسن الصادق أحمد المرخي	-7
202-180	دخول قراءة الإمام نافع إفريقيّة. د. الهادي محمد روشو	-8
229-203	الرد على د. علي الصلابي، في كتابه "مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام أبي الحسن الأشعري". عبد الرحمن الفرجاني	-9
279-230	منهج ابن المنير الطرابلسي: (ت: 432هـ) في التأليف، وخصائصه العلمية» "كتاب الكافي في الفرائض أتمودجاً". د. مصطفى الصادق طابلة	-10
299-280	التصوف السني في ليبيا "الأسمر نمودجاً". أ. فرج الصديق شميلة.	-11
326-300	التنويه بمؤلفات وآثار الشيخ: محمد بن أحمد العالم، التاجوري أصلاً، المسلاقي موطناً. د. عصام علي مفتاح النجري.	-12
346-327	السلوكيات التي شوهت مفهوم التصوف في المجتمع، مثل (الجهل والفقر والبطالة) وسبل مواجهتها. أ. عز الدين سعيد عبد المولى أبوراس.	-13
383-347	الإعلام الجديد والحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي "دراسة تحليلية من المستوى الثاني". د. خالد سالم عبد الإله.	-14

403-384	أدبيات تحفيظ القرآن الكريم في الزوايا الليبية"، "زوايا مدينة زيتن في القرن العشرين أموذجا". د. أبو بكر محمد سوسي	-15
425-404	جهود علماء زيتن في خدمة المذهب المالكي. د. محمد شعبان مفتاح الوليد.	-16
436-426	دور الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية والانتماء. أ.د. انلخر عبد الباقي محمد.	-17
459-437	دور الشيخ أحمد الزوي في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية. د. الطاهر العياشي أبونوار.	-18
482-460	دور رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية" دراسة ميدانية ". د. مصطفى خليفة إبراهيم.	-19
515-483	الشيخ العلامة محمد الزالط" مسيرة علمية، و جهود فقهية". د. أحمد عثمان زايد إحميدة	-20
540-516	قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب، "من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجريين". أ. حنان مفتاح منصور عمران	-21
556-541	إسهامات الشيخ عثمان بن علي الحضيري وجهوده في المذهب المالكي، "كتاب نبراس الظلام أمودجا". د. عبد السلام سالم حمزة	-22
588-557	جهود الشيخ مصطفى أحمد قشقش في توطين رواية قالون والحفاظ عليها. د: مصطفى فرج محمد بن حميد.	-23
605-589	منهج أحمد بن محمد حمادي في كتابه: "منة الخالق على المخلوق، في إسقاط ما عليه من الحقوق". د. ضو عمر ضو جماعة.	-24
635-605	الشيخ عبد الله القراضي" تصوفه ودوره في تعليم القرآن الكريم". د: إبراهيم عمر علي الحواسي	-25
665-636	الخطاب الديني في مدرسة الشيخ محمد مفتاح احمودة" "مقاصد ومآلات". د. عبد المطلب الأمين الزائدي.	-26
685-666	المنهج الدعوي للحركة السنوسية في ليبيا، الإمام محمد بن علي السنوسي. أ. مروة مخزوم يحيى.	-27
714-686	الآداب والأخلاق الإسلامية من كتاب الشذرات الشذية على الدرر السنية، للشيخ الطيب المصراقي. د. مصطفى فرج زايد.	-28

749-715	الأسرة الحطّابية: أصولها، وجهودها في الفقه المالكي". د. عادل الصغبر وغيره، د. محمد أبو غندورة.	-29
771-750	الشيخ زروق ودوره في التقعيد لعلم السلوك" كتاب قواعد التصوف أئموذجا" أ. عبد الله مصطفى حديد.	-30
792-772	جهود الشيخ أحمد زروق في نشر المذهب المالكي من خلال كتابه: مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي لابن عسكر. أ. إجمحمد عبد السلام محمد دعبوش.	-31
809-793	دور أصول الفقه المالكي في دعم الهوية الوطنية"عمل أهل المدينة أئموذجا". د. الطاهر إجمحمد الحاج إجمحمد.	-32
830-810	دور زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمري في ترسيخ الهوية الفقهية المالكية في ليبيا. أ. عبد الرحمن الطيب دراه.	-33
846-831	الشيخ فاتح زقلام وجهوده في علم الأصول"عمل أهل المدينة" أئموذجا". أ. أحمد عبد إجمحمد الضبيع.	-34
866-847	الإمام محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، سيرته ومروياته. د. إبراهيم محمد يوسف عبد المطلب بودبوس.	-35
892-867	عمرو النامي ومنهجه في بيان ملامح النفاق وعلاجه، من خلال كتابه: "ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية". د. عبد العاطي إبراهيم الخذراوي.	-26

ارتباط العقيدة الأشعرية بالمذاهب الفقهية الأربعة

د. عبد الإله بن حسين العرجي/ المملكة السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بأعلى الكمال، المتصف بصفات الجلال والجمال، المنزه عن صفات النقص والزوال، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان الدائمان على خاتم النبيين، سيدنا ونبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وزوجاته أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا اللهم منهم وفيهم ومعهم يا رب العالمين، أما بعد.

مقدمة

فإن هذا البحث يتناول امتداد العقيدة الأشعرية على مستوى المذاهب الفقهية الأربعة، رحم الله أئمتها وعلماءها ومقلديها، وخصوصا المذهب المالكي والمذهب الشافعي، ويستعرض بعض نصوصهم في تقرير العقيدة الأشعرية، وينفي عنهم تهمة مخالفة أئمة مذهبهم في العقيدة.

لقد عاش الأئمة الأربعة في مدة امتدت منذ ولادة أقدمهم، وهو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت عام 80هـ، إلى وفاة آخرهم، وهو الإمام أحمد بن حنبل عام 241هـ. وخلال هذه المدة ظهرت بدع عقديّة، وتبنتها فرق ضالة، فتصدى لهم أولئك الأئمة وغيرهم من أئمة السلف بالرد والبيان، والحجة والبرهان، فاتضح الطرق، وتبينت السبل، واندرست تلك الفرق الضالة، وارتفع منار أهل السنة والجماعة.

وكان من أبرز العلماء الذين نصرُوا عقيدة أهل السنة والجماعة الإمام أبو الحسن الأشعري (260-324هـ)، فقد عقد المناظرات، وألّف المؤلفات، فقمع الله به فرق الضلالة، وأزاح به ظلمات الجهالة، فارتضاه علماء المذاهب الفقهية، وخصوصا جمهور المالكية والشافعية، فالتزموا منهجه، وساروا على طريقته وتلذذوا على يديه، ومن أبرزهم:

- الإمام محمد ابن مجاهد المالكي (370-...هـ) الذي تلمذ عليه الإمام أبو بكر الباقلاني المالكي (338-403هـ).

• والإمام أبو الحسن الباهلي (370/361-400هـ) الذي نثله عليه الإمام أبو إسحاق الإسفراييني الشافعي (418-400هـ) والإمام أبو بكر ابن فورك الشافعي (406-400هـ) والإمام أبو بكر الباقلااني أيضا.

أما جمهور الحنفية فقد ارتضوا منهج الإمام أبي منصور الماتريدي (333-300هـ)، وساروا على طريقته، ومساحة الاتفاق بين الماتريدي والأشاعرة كبيرة جدا، وليس بينهما إلا خلاف يسير، لا تخرج به إحداهما عن أهل السنة والجماعة، مثل الإقرار باللسان ما بين شطريته وشرطيته في الإيمان، وزيادة الإيمان ونقصانه، والاستثناء في الإيمان، والتكليف بالعقل، وصفة التكوين.

أما الحنابلة، فإن المتقدمين منهم قبل الإمام ابن تيمية (661-728هـ) كانوا أهل أثر، فاختلّفوا مع الأشاعرة في طريقة تقرير مسائل العقيدة، واتفقوا معهم في نتائجها، إلا في مسائل يسيرة، أبرزها تأويل نصوص الصفات، وحقيقة كلام الله ﷻ، أما بعد ابن تيمية فقد اتسعت دائرة الخلاف بين الأشاعرة والحنابلة السائرين على منهجه، وسنسميهم السلفية كما يجب أن يُسموا.

بعض علماء الأشاعرة ومواقفهم:

ثم تسلسل جمهور فقهاء المذاهب الأربعة في اتباع طريقة الأشاعرة أو موافقتهم في الجملة، وهذه بعض أسماء المؤلفين منهم، مع الإشارة إلى مذاهبهم الفقهية، وعرض نص من مؤلفاتهم، يبين اعتقادهم في مسألة من أهم مسائل العقيدة، وهي مسألة التعامل مع نصوص الصفات الإلهية الموهمة للتشبيه¹:

1. الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي (229-321هـ)، له كتاب العقيدة المشهورة، ونص على أنها عقيدة الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، والإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، والإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، قال فيها: "ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه، فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات

1. يصعب استيعاب أسماء علماء المذاهب الأربعة السائرين على منهج الأشاعرة، أو الموافقين لهم، فتم الاختصار على بعضها، مع مراعاة تنوع المذاهب الفقهية، وتقدم زمان أصحابها بما لا يزيد عن قرنين من الزمان تقريبا بعد تاريخ وفاة الإمامين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي.

الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية، تعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات²³.

2. الإمام أبو بكر الباقلاني المالكي (338-403هـ)، تلميذ الإمامين محمد بن مجاهد وأبي الحسن الباهلي، له كتاب الإنصاف، قال فيه: "نص تعالى على إثبات أسمائه وصفاته ذاته، وأخبر أنه ذو الوجه الباقي بعد تقضي الماضيات،...، واليدين اللتين نطق بإثباتهما له القرآن،...، وأنهما ليستا بجارحتين، ولا ذوي صورة وهيئة، والعينين اللتين أفصح بإثباتهما من صفاته القرآن، وتواترت بذلك أخبار الرسول عليه السلام،...، وأن عينه ليست بحاسة من الحواس، ولا تشبه الجوارح والأجناس،...، وأن يعلم - مع كونه تعالى سميعاً بصيراً - أنه مدرك لجميع المدركات التي يدركها الخلق،...، وأنه مع ذلك ليس بذي جوارح وحواس توجد بها هذه الإدراكات، فتعالى الله عن التصوير والجوارح والآلات"⁴، وقال فيه: "اعلم أن الله متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم، ليس بمخلوق ولا مجعول ولا محدث، بل كلامه قديم، صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات، ولا يجوز أن يقال: كلام الله عبارة ولا حكاية⁵، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق"⁶.

3. الإمام عبدالوهاب البغدادي المالكي (362-422هـ)، له شرح على رسالة الإمام عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي (310-386هـ)، قال فيه: "(وأنه فوق عرشه، المجيد⁷ بذاته، وهو في كل مكان بعلمه،...، على العرش استوى)، هذه العبارة الأخيرة التي هي قوله: (على العرش) أحب إلي من الأولى التي هي قوله: (وأنه فوق عرشه استوى)؛ لأن قوله: (على عرشه) هو الذي ورد به النص، ولم يرد النص بذكر فوق،

2. رغم وضوح هذه الكلمة للإمام الطحاوي في تنزيهه الله عن الحدود والأعضاء والجهات، إلا أن السلفية فسروا هذه الجملة تفسيراً متكلفاً، فقولوا الإمام الطحاوي ما لم يقله، وألبسوه ثوباً غير ثوبه.

3. تخريج العقيدة الطحاوية للشيخ الألباني (44-45)، مع العلم أن الإمام الطحاوي معاصر للإمام الأشعري.

4. الإنصاف للإمام الباقلاني (23-25).

5. أي لا يجوز أن يقول القارئ: إني أعبر كلام الله، أو أحكي كلام الله، انظر الإنصاف له (106).

6. الإنصاف للإمام الباقلاني (71).

7. لفظ (المجيد) وصف لله، وليس وصفاً للعرش، فاستحق الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو أنه خبر ثان للحرف الناسخ، قال تعالى: "وهو الغفورُ الودودُ، ذو العرشِ المجيدُ" (البروج، 14-15).

وإن كان المعنى واحداً،...، واعلم أن الوصف له تعالى بالاستواء اتباع للنص، وتسليم للشرع، وتصديق لما وصف نفسه تعالى به، ولا يجوز أن يثبت له كيفية؛ لأن الشرع لم يرد بذلك،...، ولأن ذلك يرجع إلى التنقل والتحول وإشغال الحيز، والافتقار إلى الأماكن، وذلك يؤول إلى التجسيم، وإلى قدم الأجسام، وهذا كفر عند كافة أهل الإسلام، وقد أجمل مالك رحمه الله الجواب عن سؤال من سأله: الرحمن على العرش، كيف استوى؟، فقال: الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، ثم أمر بإخراج السائل⁸.

4. الإمام عبد القاهر البغدادي الشافعي (429-...هـ)، له كتاب الفرق بين الفرق، قال فيه: "وأجمعوا على أنه لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، خلاف قول من زعم من الهشامية والكرامية أنه مماس لعرشه، وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته، لا مكاناً لذاته، وقال أيضاً: قد كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان، وأجمعوا على نفي الآفات والغموم والآلام واللذات عنه، وعلى نفي الحركة والسكون عنه، خلاف قول الهشامية من الرافضة في قولها بجواز الحركة عليه"⁹، وفي عدة مواضع من كتابه وصف الأمام أبا الحسن الأشعري بأنه شيخه.

5. الإمام البيهقي الشافعي (384-458هـ)، له كتاب الاعتقاد، قال فيه: "وفي الجملة يجب أن يعلم أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج، ولا استقرار في مكان، ولا مماسة لشيء من خلقه، لكنه مستو على عرشه كما أخبر، بلا كيف، وبلا أين، بائن من جميع خلقه، وأن إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان، وأن مجيئه ليس بحركة، وأن نزوله ليس بنقلة، وأن نفسه ليس بجسم، وأن وجهه ليس بصورة، وأن يده ليست بجارحة، وأن عينه ليست بحدقة، وإنما هذه أوصاف جاء بها التوقيف، فقلنا بها، ونفينا عنها التكييف، فقد قال: (ليس كمثل شيء)، وقال: (ولم يكن له كفواً أحد)، وقال: (هل تعلم له سمياً)"¹⁰.

6. إمام الحرمين الجويني الشافعي (417-478هـ)، له كتاب العقيدة النظامية، قال فيه:

8. شرح عقيدة الإمام ابن أبي زيد القيرواني للإمام عبد الوهاب البغدادي (171-178).

9. الفرق بين الفرق للإمام البغدادي (321).

10. الاعتقاد للإمام البيهقي (116-118).

"وقد اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها، وإجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب أهل اللسان منها، فرأى بعضهم تأويلها، والتزام هذا المنهج في أي الكتاب، وما يصح من سنن الرسول ﷺ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقلاً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع، وترك الابتداع، والدليل السمي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم، على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الآي والظواهر مسوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم، وعصر التابعين، على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي دين أن يعتقد تنزه البارئ عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى"¹¹.

7. الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي (450-505هـ)، له كتاب إجماع العوام عن علم الكلام، قال فيه: "اعلم أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين، وها نحن نورد بيانه، وبيانه برهانه، فأقول: حقيقة مذهب السلف، وهو الحق عندنا، أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق، يجب عليه فيه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الكف، ثم الإمساك، ثم التسليم لأهل المعرفة، أما التقديس فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديق فهو الإيمان بما قاله ﷺ، وأن ما ذكره حق، وهو فيما قاله صادق، وأنه حق على الوجه الذي قاله وأراده،

11. العقيدة النظامية للإمام الجويني (32-33)، وهذا النص يبين المسلك الذي يريجه الإمام الجويني في تعامله مع نصوص الصفات، وهو تفويض معانيها إلى الله، وهذه هي العقيدة التي رجع إليها، وقد أكد طبيعة هذا الرجوع الإمام العراقي (762-826هـ) في "الغيث الهامع" (742)، والإمام الكمال ابن أبي شريف (822-906هـ) في "المسامرة" (1، 37)، والإمام السيوطي (849-911هـ) في "الإتقان" (3، 15)، والإمام الكرعي (...-1033هـ) في "أقاويل النقات" (51-67)، أما دعوى السلفية بأنه رجع عن طريقة الأشاعرة في التعامل مع نصوص الصفات إلى طريقتهم في الإثبات بمقتضى ظاهر اللغة العربية، فهذه مجرد دعوى بلا دليل.

وأما الاعتراف بالعجز فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته، وأما السكوت فألا يسأل عن معناه، ولا يخوض فيه، ويعلم أن سؤاله عنه بدعة، وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر، وأما الإمساك فألا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى، والزيادة فيه والنقصان منه، والجمع والتفريق، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه، من الإيراد والإعراب، والتصريف والصيغة، وأما الكف فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه، وأما التسليم لأهله فألا يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه، فقد خفي على الرسول ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء، فهذه سبع وظائف، اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام، لا ينبغي أن يظن بالسلف الخلاف في شيء منها¹².

8. الإمام البغوي الشافعي (436-510هـ)، له تفسير معالم التنزيل، قال فيه: "ثم استوى على العرش)، قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة: صعد، وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، فأما أهل السنة¹³ يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ، وروى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات¹⁴: أمرها كما جاءت بلا كيف، والعرش في اللغة: هو السرير، وقيل: هو ما علا فأظل، ومنه عرش الكروم، وقيل: العرش الملك¹⁵.

9. الإمام محمد بن رشد الجد المالكي (450-520هـ)، له كتاب المقدمات الممهديات، قال فيه: "وأما ما وصف به نفسه تعالى في كتابه من أن له وجهاً ويدين وعينين، فلا مجال للعقل في ذلك، وإنما يعلم من جهة السمع، فيجب اعتقاد ذلك، والإيمان به، من غير تكيف ولا تحديد، إذ ليس بذي جسم ولا جارحة ولا صورة، هذا قول

12. إجماع العوام عن علم الكلام للإمام الغزالي (49-50).

13. حكاية قول أهل السنة يدل على أن المذكورين قبلهم ليسوا من أهل السنة، وهو كما قال، فمحمد بن السائب الكلبي ومقاتل بن سليمان وأبو عبيدة معمر بن المثنى مطعون فيهم، انظر تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني، فقد ترجم للكلبي في (9، 178-181)، ولمقاتل في (10، 279-285)، ولأبي عبيدة في (10، 246-248).

14. تأمل وصفه آيات الصفات بأنها من المتشابهات.

15. معالم التنزيل للإمام البغوي (2، 197-198).

المحققين من المتكلمين، ...، واختلفوا فيما وصف به نفسه من الاستواء على العرش، فنههم من قال: إنها صفة فعل، بمعنى أنه فعل في العرش فعلا، سمي به نفسه مستويا على العرش، ومنهم من قال: إنها صفة ذات من العلو، وإن قوله: استوى بمعنى علا، ...، وأما من قال: إن الاستواء بمعنى الاستيلاء، فقد أخطأ؛ لأن الاستيلاء لا يكون إلا بعد المغالبة والمقاومة، والله يتعالى عن أن يغالبه أحد، وحمل الاستواء على العلو والارتفاع أولى ما قيل، ...، ولا يجوز عليه تعالى ما يجوز على الجواهر والأجسام، من الحركة والسكون والزوال والانتقال والتغير والمنافع والمضار، ولا تحويه الأمكنة، ولا تحيط به الأزمنة¹⁶.

10. الإمام نجم الدين النسفي الحنفي (461-537هـ)، له كتاب العقائد، قال فيه: "وله صفات قائمة بذاته، وهي لا هو ولا غيره، وهي العلم والقدرة والحياة والقوة والسمع والبصر والإرادة والمشية والفعل والتخليق والترزيق والكلام، وهو متكلم بكلام هو صفة له، أزلية، ليس من جنس الحروف والأصوات، وهو صفة منافية للسكوت والآفة"¹⁷.

موافقة متقدمي الحنابلة للأشاعرة

وإذا كانت النصوص السابقة مقتصرة على المذاهب الفقهية الثلاثة، فإن متقدمي الحنابلة اتفقوا مع الأشاعرة في كثير من المسائل، واختلفوا معهم في القليل منها، مثل تأويل نصوص الصفات، وحقيقة كلام الله ﷻ، وهذه بعض نصوصهم في مسألة نصوص الصفات:

1. سئل الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ) عن الأحاديث التي تروى: "أن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا"، و"أن الله يرى"، و"أن الله يضع قدمه"، وما أشبهه، فقال: "تؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى¹⁸، ولا نرد

16. المقدمات الممهدة للإمام ابن رشد (18، 504-511).

17. العقائد للإمام النسفي بشرح الإمام التفتازاني وحاشية القاضي زكريا الأنصاري (326-357).

18. رغم وضوح هذه الكلمة للإمام أحمد في تنزيه صفات الله عن المعنى والكيف، إلا أن السلفية فسروا هذه الكلمة تفسيراً منكلفاً، فقالوا: لا نكيف الصفات مع اعتقاد كيفية لها، ولا نثبت معنى يخالف ظاهرها، انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن عثيمين (4، 32-33).

منها شيئاً"19.

2. وقال الإمام أبو بكر الخلال (311-...هـ) عن اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ): "إن الله عز وجل واحد لا من عدد، لا يجوز عليه التجزؤ ولا القسمة، ...، وكان يقول: إن الله تعالى يدين، وهما صفة له في ذاته، ليستا بجارحتين، وليستا بمركبتين، ولا جسم ولا جنس من الأجسام، ولا من جنس المحدود والتركيب والأبعض والجوارح، ...، ويفسد أن تكون يده القوة والنعمة والتفضل، ...، وكان يقول في معنى الاستواء: هو العلو والارتفاع، ولم يزل الله تعالى عالياً رافعاً قبل أن يخلق عرشه، فهو فوق كل شيء، والعالي على كل شيء، ...، ولا يجوز أن يقال: استوى بمماسة ولا بملاقة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والله تعالى لم يلحقه تغير ولا تبدل، ولا تلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش، ...، وأنكر على من يقول بالجسم، وقال: إن الأسماء مأخوذة بالشرعية واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف، والله تعالى خارج عن ذلك كله، فلم يجوز أن يسمى جسماً؛ لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجز في الشريعة ذلك، فبطل"20.

3. وقال الإمام الحسن البربهاري (233-329هـ): "وكل ما سمعت من الآثار شيئاً، مما لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله ﷺ: (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن)، وقوله: (إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا)، وينزل يوم عرفة ويوم القيامة، وأن جهنم لا تزال يطرح فيها حتى يضع عليها قدمه جل ثنائه، وقول الله تعالى للعبد: (إن مشيت إلي هرولت إليك)، وقوله: (إن الله تبارك وتعالى ينزل يوم القيامة)، وقوله: (إن الله خلق آدم على صورته)، وقول النبي ﷺ: (إني رأيت ربي في أحسن صورة)، وأشبه هذه الأحاديث، فعليك بالتسليم والتصديق والتفويض والرضا²¹، ولا تفسر شيئاً من هذه بهواك، فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئاً من هذا بهواه، أو

19. ذم التأويل للإمام الموفق ابن قدامة (22).

20. عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رواية الإمام الخلال (101-127)، طريقة السلفية في تقرير الصفات هي النفي = المجمال والإثبات المفصل، وها هو الإمام أحمد يخالفهم، فينفي التجزؤ والجارحة والمماسة والجسمية والحدود.

21. رغم تصريح الإمام البربهاري بوجوب التفويض، وهو اجتناب الخوض في معاني الصفات، إلا أن السلفية تكلفوا في تفسير كلامه بأنه يقصد تفويض الكيفية فقط.

رده، فهو جهمي²².

4. وقال الإمام ابن بطة العكبري (304-387هـ): "باب الإيمان بأن الله ﷻ خلق آدم على صورته بلا كيف، قال الشيخ: وكل ما جاء من هذه الأحاديث، وصحت عن رسول الله ﷺ، ففرض على المسلمين قبولها، والتصديق بها، والتسليم لها، وترك الاعتراض عليها، وواجب على من قبلها، وصدق بها، أن لا يضرب لها المقاييس، ولا يتحمل لها المعاني والتفاسير²³، لكن تمر على ما جاءت، ولا يقال فيها: لم؟ ولا كيف؟ إيماناً بها وتصديقاً، ونقف من لفظها وروايتها²⁴ حيث وقف أئمتنا وشيوخنا، وننتهي منها حيث انتهى بنا، كما قال المصطفى نبينا ﷺ، بلا معارضة، ولا تكذيب، ولا تنقيح، ولا تفتيش²⁵، مع العلم أن الإمام ابن بطة أول ظل الله ﷻ بالثواب²⁶، والهرولة بالإجابة²⁷.

5. وقال أبو الحسين ابن القاضي أبي يعلى الفراء (451-526هـ) عن معتقد والده القاضي أبي يعلى (380-458هـ): "فاعتقد الوالد السعيد وسلفه، قدس الله أرواحهم، وجعل ذكرنا لهم بركة تعود علينا، في جميع ما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، أن جميع ذلك صفات الله ﷻ، تمر كما جاءت، من غير زيادة ولا نقصان، وأقروا بالعجز عن إدراك معرفة حقيقة هذا الشأن، واعتقد الوالد السعيد ومن قبله ممن سبقه من الأئمة أن إثبات صفات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد، لها حقيقة في علمه، لم يطلع الباري سبحانه على كنه معرفتها أحداً من إنس ولا جان، ... واعتقدوا أن الباري سبحانه استأثر بعلم حقائق صفاته ومعانيها عن العالمين²⁸، وفارق بها سائر الموصوفين، فهم بها مؤمنون، وبحقائقها موقنون، وبمعرفة كيفيةها جاهلون، لا يجوز عندهم ردها كرد الجهمية، ولا حملها على التشبيه كما حملته المشبهة

22. شرح السنة للإمام البريهاري (65-68).

23. هذه هي عقيدة النفويض، وتعني اجتناب الخوض في معاني الصفات.

24. أي يجب قبول اللفظ الوارد، وقبول الرواية الواردة، والتوقف عن الخوض في معانيها.

25. الإبانة الكبرى للإمام ابن بطة (7، 244).

26. انظر الإبانة الكبرى للإمام ابن بطة (6، 193).

27. انظر الإبانة الكبرى للإمام ابن بطة (7، 336).

28. هذا نص صريح من القاضي أبي يعلى بأن معاني الصفات مما استأثر الله بعلمها.

الذي أثبتوا الكيفية، ولا تأولوها على اللغات والمجازات كما تأولتها الأشعرية²⁹، ...، مذهبهم حق بين باطلين، وهدى بين ضلالتين: إثبات الأسماء والصفات مع نفي التشبيه والأدوات، ...، وما ذكرناه من الإيمان بأخبار الصفات من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تفسير ولا تأويل، هو قول السلف بدءا وعودا، ...، ولا يوصف بصفات المخلوقين الدالة على حدثهم، ولا يجوز عليه ما يجوز عليهم من التغير من حال إلى حال³⁰، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض³¹، ...، يبين صحة هذا أن البارئ سبحانه موصوف بأنه حي عالم قادر مرید، والخلق موصوفون بهذه الصفات، ولم يدل الاتفاق في هذه التسمية على الاتفاق في حقائقها ومعانيها³²، هكذا القول في أخبار الصفات، ولا يلزم عند تسليمها من غير تأويل إثبات ما يقتضيه الحد والشاهد في معانيها، وبهذا ونظيره استدلال الوالد السعيد -رحمة الله عليه- في كتابه "إبطال التأويلات لأخبار الصفات"³³،

29. المسلك الأصل عند الأشاعرة هو التفويض، وإنما يؤولون عند الضرورة، أو عندما يكون التأويل قريبا.

30. أي أن الحوادث لا تقوم بذات الله.

31. هذا من النفي المفصل الذي تنكره السلفية.

32. أي أن الاتفاق بين صفات الله وصفات خلقه هو اتفاق في ألفاظ الصفات فقط، وليس اتفاقا في معانيها.

33. نص القاضي أبو يعلى في كتابه: "إبطال التأويلات لأخبار الصفات" على أن أخبار الصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فقال (59): "فصل في الدلالة على أنه لا يجوز الاشتغال بتأويلها وتفسيرها - أي أخبار الصفات - من وجوه: أحدها أن أي الكتاب قسمان: أحدهما محكم، وتأويله تنزيله، يفهم المراد منه بظاهره، وقسم هو متشابه، لا يعلم تأويله إلا الله، ولا يوقف على معناه بلغة العرب، بدليل قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله)، وقوله: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به)، فالواو ههنا للاستئناف، وليست عاطفة، كذلك أخبار الرسول ﷺ جارية هذا المجرى، ومنزلة على هذا التنزيل" انتهى، ولكن مشكلة الكتاب أنه احتوى على عدد من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات، ونتج عنها إثبات صفات غير لائقة بالله، كالذراع والصدر والحقو والفخذ والفم والأضراس واللهاوت والاستلقاء والاتكاء وصورة الشاب الأمرد وغيرها، وقد أنكر العلماء ما جاء في الكتاب، قال الإمام ابن الأثير (555-630هـ) في كتابه "الكامل في التاريخ" (7، 786): "وفيها - أي سنة 429 هـ - أنكر العلماء على أبي يعلى بن الفراء الحنبلي ما ضمنه كتابه من صفات الله سبحانه وتعالى، المشعرة بأنه يعتقد التجسيم"، وقال أيضا في (8، 208-209): "وفي شهر رمضان منها - أي سنة 458 هـ - توفي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي، ...، وهو مصنف كتاب "الصفات"، أتى فيه بكل عجيبة، وترتيب أبوابه يدل على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك، وكان ابن تيمية الحنبلي يقول: لقد خرى أبو يعلى الفراء على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء" انتهى، وقال الإمام ابن تيمية (661-728هـ) في كتابه "درء تعارض العقل والنقل" (5، 237-238): "وقد صنف القاضي أبو يعلى كتابه في إبطال التأويل، ردا لكتاب ابن فورك، وهو وإن كان أسند الأحاديث التي ذكرها، وذكر من رواها، ففيها عدة أحاديث موضوعة، كحديث الرؤية عيانا ليلة المعراج ونحوه، وفيها أشياء عن بعض السلف، رواها بعض الناس مرفوعة، كحديث قعود الرسول ﷺ على العرش، رواه بعض الناس من طرق كثيرة مرفوعة، وهي كلها موضوعة، وإنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف، وكان السلف والأئمة يروونه، ولا ينكرونه، ويتلقونه بالقبول، ...، ولهذا وغيره تكلم رزق الله التميمي وغيره من أصحاب أحمد في تصنيف القاضي أبي يعلى لهذا الكتاب بكلام غليظ" انتهى، ومن الجدير بالذكر أن أبا يعلى كان ينص على أنها صفات لا تعقل معانيها، أي أنه كان يفوض معانيها، ورغم ذلك فقد

فأما الرد على المجسمة لله فيرده الوالد السعيد بكتاب، وذكره أيضا في أثناء كتبه، فقال: لا يجوز أن يسمى الله جسما، قال أحمد: لا يوصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه، قال الوالد السعيد: فمن اعتقد أن الله سبحانه جسم من الأجسام، وأعطاه حقيقة الجسم من التأليف والانتقال، فهو كافر؛ لأنه غير عارف بالله ﷻ؛ لأن الله سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصفات"³⁴.

لمعة الاعتقاد بين حنبلية مؤلفها وسلفية شارحها

الإمام موفق الدين ابن قدامة (541-620هـ) عالم حنبلي، له مؤلفات في عدد من العلوم، ومن مؤلفاته العقديّة كتاب لمعة الاعتقاد، قال فيه: "وكل ما جاء في القرآن، أو صح عن المصطفى عليه السلام، من صفات الرحمن، وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل، والتشبيه والتمثيل، وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظا، وترك التعرض لمعناه"³⁵، ونزد علمه إلى قائله، ونجعل عهده على ناقله، اتباعا لطريق الراشدين في العلم، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين، بقوله سبحانه وتعالى: (والراشدين في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)، وقال في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله)، فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ، وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم، ثم حجبه عما أملاه، وقطع أطماعهم عما قصدوه، بقوله سبحانه: (وما يعلم تأويله إلا الله)"³⁶.

ورغم تصريح الإمام ابن قدامة بوجوب السكوت عن معاني الصفات؛ لأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ"³⁷، فقد اضطرب شارحو لمعته من السلفيين المعاصرين، كالشيخ محمد بن عثيمين (1347-1421هـ) والشيخ عبد الله بن جبرين (1349-1430هـ)، وكذلك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (1311-1389هـ) في بعض فتاواه، وتناقض بعضهم مع نفسه.

صرح محقق كتابه بخلاف ذلك، فقال: "بل الصواب أنه يعقل معناها، لكن لا يعلم كيفيةها، وهذا هو مذهب السلف، تفويض الكيفية لا تفويض المعنى"، وأقول: حاشا السلف أن يتفوهوا بهذا الخرف.

34. طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن القاضي أبي يعلى الفراء (2، 208-212).

35. هذه هي عقيدة التفويض، وتعني اجتناب الخوض في معاني الصفات، والاكتفاء بإثبات ألفاظها.

36. لمعة الاعتقاد للإمام ابن قدامة (5-6).

37. انظر أيضا ذم التأويل للإمام ابن قدامة (39)، وتحريم النظر في كتب الكلام له (55) و (59).

أما الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فإنه سئل عن قول الإمام ابن قدامة: "وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه، ونرد عليه إلى قائله"، فقال: "وأما كلام صاحب اللمعة، فهذه الكلمة مما لوحظ في هذه العقيدة، وقد لوحظ فيها عدة كلمات أخذت على المصنف؛ إذ لا يخفى أن مذهب أهل السنة والجماعة هو الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته، لفظاً ومعنى، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا على المجاز، وأن لها معاني حقيقية، تليق بجلال الله وعظمته، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر، ومعاني هذه الأسماء ظاهرة معروفة من القرآن وغيرها، لا لبس فيها ولا إشكال ولا غموض، فقد أخذ أصحاب رسول الله ﷺ عنه القرآن، ونقلوا عنه الأحاديث، ولم يستشكلوا شيئاً من معاني هذه الآيات والأحاديث؛ لأنها واضحة صريحة، وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة،... أما كنه الصفة وكيفيتها فلا يعلمه إلا الله سبحانه؛ إذ الكلام في الصفة فرع عن الكلام في الموصوف، فكما لا يعلم كيف هو إلا هو، فكذلك صفاته،... أما ما ذكره في اللمعة فإنه ينطبق على مذهب المفوضة، وهو من شر المذاهب وأخبثها³⁸، والمصنف رحمه الله إمام في السنة، وهو أبعد الناس عن مذهب المفوضة وغيرهم من المبتدعة³⁹40.

وأما الشيخ محمد بن عثيمين فقد قال عند شرحه للنص نفسه: "تنقسم نصوص الكتاب والسنة الواردة في الصفات إلى قسمين: واضح جلي، ومشكل خفي، فالواضح ما اتضح لفظه ومعناه، فيجب الإيمان به لفظاً، وإثبات معناه حقاً، بلا رد ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل؛ لأن الشرع ورد به، فوجب الإيمان به، وتلقيه بالقبول والتسليم، وأما المشكل فهو ما لم يتضح معناه؛ لإجمال في دلالاته، أو قصر في فهم قارئه، فيجب إثبات لفظه؛ لورود الشرع به، والتوقف في معناه، وترك التعرض له؛ لأنه مشكل، لا يمكن الحكم عليه، فنرد علمه إلى الله ورسوله⁴¹، وقد انقسمت طرق الناس في هذا المشكل إلى طريقتين: الطريقة الأولى طريقة الراسخين في العلم الذين آمنوا بالحكم والمتشابه،... وتركوا التعرض لما لا يمكنهم الوصول إلى معرفته والإحاطة به؛ تعظيماً لله ورسوله، وتأدباً مع النصوص

38. هنا يظهر التأثير بتقرير الإمام ابن تيمية بأن التفويض شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

39. هنا تظهر حيرة الشيخ محمد في الجمع بين متناقضين؛ إذ كيف يعتقد إمام من أئمة السنة عقيدة أهل البدع؟!.

40. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (1، 202-203).

41. هنا يقرر الشيخ ابن عثيمين وجود نصوص مشككة في الكتاب والسنة، ويوضح طريقة التعامل معها.

الشرعية، ...، الطريقة الثانية طريقة الزائغين الذين اتبعوا المتشابه؛ طلبا للفتنة، وصدا للناس عن دينهم، وعن طريقة السلف الصالح، فحاولوا تأويل هذا المتشابه إلى ما يريدون، لا إلى ما يريد الله ورسوله، ...، إن الوضوح والإشكال في النصوص الشرعية أمر نسبي، يختلف به الناس بحسب العلم والفهم، ...، والواجب عند الإشكال اتباع ما سبق، من ترك التعرض له والتخبط في معناه، أما من حيث واقع النصوص الشرعية فليس فيها بحمد الله ما هو مشكل⁴²، لا يعرف أحد من الناس معناه فيما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم؛ لأن الله وصف القرآن بأنه نور مبين، وبيان للناس وفرقان، وأنه أنزله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة، وهذا يقتضي أن لا يكون في النصوص ما هو مشكل بحسب الواقع، بحيث لا يمكن أحد من الأمة معرفة معناه⁴³، فتأمل تقريره أولا بوجود نصوص مشككة، ثم تراجع عن ذلك، وما هذا التناقض إلا فرار من تفويض معاني الصفات الإلهية.

وأما الشيخ عبدالله بن جبرين فقد قال عند شرحه للنص نفسه: "يقبل أهل السنة كل ما في القرآن والحديث النبوي، وما اشتمل من ذلك على شيء من الصفات قالوا به، واعتقدوا حقيقة تلك الصفات على ما يليق بالموصوف تعالى، وإذا أشكل شيء من ذلك قبلوا لفظه، وفوضوا العلم بالمعنى والكيفية إلى عالمها، وذلك كصفة النزول، وكيفية الاستواء، ونحوها، فإن النزول قد ثبت في الأحاديث الصحيحة، ولكن توقف العلماء عن التعرّف في كفيته، وهل يخلو منه العرش أم لا يخلو ... إلخ، فالتفويض للمعنى، أي للكنه والماهية، فأما المعنى اللغوي للنزول والاستواء، فهو معلوم عند أهل السنة، ولهذا جعلوهما من أدلة صفة العلو لله تعالى"⁴⁴، فتأمل تفويضه أولا للمعنى أي للكنه والماهية، ثم تراجع عن تفويض المعنى عندما أثبت المعنى اللغوي للنزول والاستواء، وجعلهما من أدلة العلو؛ بناء على معناه اللغوي، وما هذا التراجع إلا فرار من تفويض معاني الصفات الإلهية.

وليس هذا الموضع من كتاب لمعة الاعتقاد للإمام ابن قدامة الموضع الوحيد الذي اضطرب فيه شارحوها، فإن من المواضع الأخرى قوله: "ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم، يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة،

42. وهنا يقرر الشيخ ابن عثيمين عدم وجود نصوص مشككة في الكتاب والسنة.

43. شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن عثيمين (32-33).

44. شرح لمعة الاعتقاد للشيخ عبد الله بن جبرين (64).

وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله،...، ومن كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين،...، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف وكلهات⁴⁵، أي أن حروف القرآن ومعانيه قديمة غير حادثة.

ورغم تصريح الإمام ابن قدامة بقدم كلام الله ﷻ، فقد قرر شارحو لمعته أن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، وصرحوا بأن تقرير ابن قدامة يفيد قدم كلام الله نوعاً وآحاداً.

قال الشيخ محمد بن عثيمين: "الكلام صفة من صفات الله الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع السلف،...، وأجمع السلف على ثبوت الكلام لله، فيجب إثباته له، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وهو كلام حقيقي، يليق بالله، يتعلق بمشيئته، بحروف وأصوات مسموعة،...، وكلام الله تعالى قديم النوع حادث الآحاد، ومعنى قديم النوع أن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، ليس الكلام حادثاً منه بعد أن لم يكن، ومعنى حادث الآحاد أن آحاد كلامه، أي الكلام المعين المخصوص، حادث؛ لأنه متعلق بمشيئته، متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء، قوله: (متكلم بكلام قديم)، يعني قديم النوع حادث الآحاد⁴⁶، لا يصلح إلا هذا المعنى على مذهب أهل السنة والجماعة، وإن كان ظاهر كلامه أنه قديم النوع والآحاد⁴⁷48.

وقال الشيخ عبدالله بن جبرين: "بالغ السلف في إثبات صفة الكلام لله، وبينوا بطلان أقوال النفاة من الجهمية ونحوهم، وأثبتوا أن الله تعالى متكلم، ويتكلم إذا شاء بكلام يسمعه منه من شاء،...، وعند أهل السنة أن كلام الله قديم النوع متجدد الآحاد⁴⁹، ومعنى كونه قديم النوع أن جنسه قديم، فالله تعالى متصف في الأزل بكونه

45. لمعة الاعتقاد للإمام ابن قدامة (15-18).

46. هنا يقرر الشيخ ابن عثيمين أن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، وهو مخالف لتقرير الإمام ابن قدامة.

47. وهنا يقرر الشيخ ابن عثيمين أن ظاهر كلام الإمام ابن قدامة يختلف عن كلامه في تقرير كلام الله.

48. شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن عثيمين (71-74).

49. هنا يقرر الشيخ ابن جبرين أن كلام الله قديم النوع متجدد الآحاد، وهو مخالف لتقرير الإمام ابن قدامة.

متكلما، فإن الله بجميع صفاته ليس بحادث، ولكنه لا يزال يتجدد، ويحدث له كلام إذا شاء، وصفة الكلام من الصفات الفعلية الملازمة للذات متى شاء،... اتفق السلف والأئمة على أن القرآن كلام الله حقيقة، حروفه ومعانيه، تكلم به كما شاء، وكذا التوراة والإنجيل وسائر كتبه⁵⁰.

ويرجع سبب مخالفة السلفية لتقرير الإمام ابن قدامة إلى تقليدهم للإمام ابن تيمية (661-728هـ) في هذه المسألة، فقد قال ابن تيمية: "إن أردت بقولك: إنه كلام، تكلم الله به بمشيئته بعد أن لم يتكلم به بعينه، وإن كان قد تكلم بغيره قبل ذلك، مع أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإننا نقول بذلك، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهو قول السلف وأهل الحديث"⁵¹.

وهذا التقرير مخالف لما قرره متقدمو الحنابلة من أن كلام الله ﷻ قديم غير حادث، قال القاضي أبو يعلى الفراء (380-458هـ): "والله تعالى متكلم بكلام قديم، غير مخلوق، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، وهو موصوف به فيما لم يزل، وكلامه لا يشبه كلام الآدميين،... وأيضاً لو كان مخلوقاً لكان لا يخلو الباري جل وعز أن يكون خلقه في نفسه، أو قائماً بنفسه، أو قائماً بغيره، فيستحيل أن يحدثه في نفسه؛ لأنه تعالى ليس بمحل للحوادث، ويستحيل أن يحدثه قائماً بنفسه؛ لأنه صفة، والصفة لا تقوم بنفسها، ويستحيل أن يحدثه في غيره؛ لأنه لو خلقه لوجب أن يكون كلاماً لذلك الغير، لا كلاماً لله تعالى، فلها فسدت هذه الوجوه صح أنه غير مخلوق"⁵².

بل إن هذا التقرير مخالف لما قرره جمهور العلماء، فقد نقل الإمام الطبري (224-310هـ) كتاب أمير المؤمنين المأمون بشأن امتحان العلماء في مسألة خلق القرآن، وفيه: "وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظره ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، والاستضاء بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله،... وذلك أنهم ساووا بين

50. شرح لمعة الاعتقاد للشيخ عبد الله بن جبرين (88-96).

51. مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية (6، 161).

52. المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى الفراء (86-87).

الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين⁵³، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه⁵⁴.

شهادة تاريخية بارتباط المذاهب الفقهية بالعقيدة الأشعرية

ولذلك فإن المذاهب الفقهية الأربعة ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة الأشعرية، قال الإمام أبو القاسم ابن عساكر الشافعي (499-571هـ): "وأكثر العلماء في جميع الأقطار عليه - أي على مذهب الإمام الأشعري -، وأئمة الأمصار في سائر الأعصار يدعون إليه، ومنتحلوه هم الذين عليهم مدار الأحكام، وإليهم يرجع في معرفة الحلال والحرام،...، وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق له أو منتسب إليه، أو راض بحميد سعيه في دين الله أو مثن بكثرة العلم عليه، غير شرذمة يسيرة تضرر التشبيه، وتعادي كل موحد يعتقد التنزيه، وتضاهي أقوال أهل الاعتزال في ذمه، وتباهي بإظهار جهلها بقدره سعة علمه"⁵⁵.

وقال الإمام تاج الدين السبكي الشافعي (727-771هـ): "سمعت الشيخ الإمام رحمه الله - أي والده تقي الدين (683-756هـ) - يقول: ما تضمنته عقيدة الطحاوي هو ما يعتقد الأشعري، لا يخالفه إلا في ثلاث مسائل، قلت: أنا أعلم أن المالكية كلهم أشاعرة، لا أستثني أحدا، والشافعية غالبهم أشاعرة، لا أستثني إلا من لحق منهم بتجسيم أو اعتزال،...، والحنفية أكثرهم أشاعرة، أعني يعتقدون عقد الأشعري، لا يخرج منهم إلا من لحق منهم بالمعتزلة، والحنابلة أكثر فضلاء متقدميهم أشاعرة، لم يخرج منهم عن عقيدة الأشعري إلا من لحق بأهل التجسيم، وهم في هذه الفرقة من الحنابلة أكثر من غيرهم، وقد تأملت عقيدة أبي جعفر الطحاوي، فوجدت الأمر على ما قال الشيخ الإمام"⁵⁶.

فقد أفاد هذا النص المؤيد بالواقع التاريخي أن معظم فقهاء المذهب الحنفي والمالكي والشافعي ومتقدمي الحنابلة أشاعرة، أو متفقون مع الأشاعرة في الجملة، وأن قلة من فقهاء

53. وهذا يدل على إجماع علماء السنة في زمن المأمون على أن القرآن قديم غير حادث.

54. التاريخ للإمام الطبري (8، 632).

55. تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري للإمام ابن عساكر (410).

56. طبقات الشافعية للإمام السبكي (3، 377-378).

هذه المذاهب ليسوا أشاعرة.

ومما يؤكد هذا الاتفاق بينهم أنهم اتفقوا في مسائل العقيدة التي ميزت أهل السنة والجماعة عن غيرهم، وأبرزها تفويض الصفات، وامتناع قيام الحوادث بذات الله ﷻ.

أما مسألة تفويض الصفات فقد تقدمت نصوصهم بشأنها، ذلك أن الأشاعرة وموافقهم نظروا في منهج السلف الصالح عند تعاملهم مع نصوص الصفات الموهمة للتشبيه، كالوجه واليد الموهمة للأعضاء، والاستواء والنزول الموهمة للحركة، والضحك والغضب الموهمة للانفعال، فأوا أنهم قد أمسكوا عن تفسيرها، ولم يتفوهوا بكلمة تشرح معانيها إلا شيئاً يسيراً؛ لأن تفسيرها على ظاهرها يؤدي إلى التشبيه، فساروا على منهجهم، فلم يثبتوا معاني الصفات الموهمة للتشبيه بمقتضى ظاهر اللغة العربية، وإنما اكتفوا بإمرارها، وسكتوا عن معانيها، وفوضوها إلى قائلها.

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني (135-189هـ): "اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا، ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه قد وصفه بصفة لا شيء"⁵⁷.

وقال الوليد بن مسلم (119-195هـ): "سألت الأوزاعي والثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفات، فكلهم قال: أمروها كما جاءت بلا تفسير"⁵⁸.

وذكر عند الإمام القاسم بن سلام (157-224هـ) بعض أحاديث الصفات، مثل: "ضحك ربنا ﷻ من قنوط عباده"، و"الكرسي موضع القدمين"، و"أن جهنم لا تمتلئ، فيضع ربك قدمه فيها"، فقال: "هذه الأحاديث عندنا حق، يرويها الثقات بعضهم عن

57. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائي (3، 480).

58. الشريعة للإمام الأجرى (3، 1146).

بعض، إلا أنا إذا سئنا عن تفسيرها قلنا: ما أدركنا أحدا يفسر منها شيئا، ونحن لا نفسر منها شيئا، نصدق بها، ونسكت"⁵⁹.

وقال الإمام الترمذي (209-279هـ): "وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذا ما يذكر فيه أمر الرؤية، أن الناس يرون ربهم، وذكر القدم، وما أشبه هذه الأشياء، والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة، مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم، أنهم رووا هذه الأشياء، ثم قالوا: تروى هذه الأحاديث، وتؤمن بها، ولا يقال: كيف، وهذا الذي اختاره أهل الحديث، أن يرووا هذه الأشياء كما جاءت، ويؤمن بها، ولا تفسر، ولا تنوهم، ولا يقال: كيف، وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه"⁶⁰.

تلك كانت بعض النصوص التي تبين طريقة السلف الصالح في التعامل مع نصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة، وهي الاكتفاء بقراءتها وإمرارها، والإمسك عن تفسيرها، واجتناب الخوض فيها، وهذه الطريقة تسمى تفويضاً، أي تفويض معاني تلك النصوص إلى قائلها.

وعلى طريقة التفويض سار جمهور الأشاعرة والماتريدية ومتقدمي الحنابلة، فأثبتوا ما أثبت الله ﷻ لنفسه من الصفات، واعتقدوا أن لها معاني لائقة به، وفوضوا تلك المعاني إليه، مع نفي المعنى الظاهر الذي يلزم منه التجسيم والتجزؤ والتحيز والحركة وغيرها.

ولم يقع الخلاف بينهم إلا في تأويل نصوص الصفات، ويعني صرف معانيها الظاهرة إلى معان مجازية حسب ما تقتضيه معاني اللغة العربية المناسبة للسياق، فارتضاه الأشاعرة والماتريدية كعلاج لداء التشبيه⁶¹، وحرّمته الحنابلة.

واتفق الأشاعرة وموافقوهم على استحالة قيام الحوادث بذات الله ﷻ؛ لأن الذات

59. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائي (3، 581).

60. سنن الإمام الترمذي (4، 273).

61. قال الإمام الخطابي (319-388هـ): "ونحن أحرى أن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر منا علما، ...، ولكن الزمان الذي نحن فيه قد صار أهله حزبين: منكر لما يروى من هذه الأحاديث، ...، والطائفة الأخرى مسلمة للرواية فيها، ذاهبة في تحقيق الظاهر منها مذهباً، يكاد يفضي إلى القول بالتشبيه، ونحن نرغب عن الأمرين معا، ...، فيحق علينا أن نطلب لما يرد من هذه الأحاديث إذا صحت من طريق النقل والسند تأويلاً"، أقاويل الثقات للإمام الكرمي (178).

واجبة الوجود لا تقوم بها صفات حادثة، وهذه بعض نصوصهم:

قال الإمام أبو بكر الخلال الحنبلي (311-...هـ) عن جملة اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ): "وكان يقول: إن الله تعالى قديم بصفاته التي هي مضافة إليه في نفسه، وقد سئل: هل الموصوف القديم وصفته قديمان، فقال: هذا سؤال خطأ، لا يجوز أن ينفرد الحق عن صفاته، ومعنى ما قاله من ذلك أن المحدث محدث بجميع صفاته على غير تفصيل، وكذلك القديم تعالى بجميع صفاته"⁶².

وقال القاضي أبو يعلى الفراء (380-458هـ): "وهو سبحانه عالم بعلم واحد، وقادر بقدرة واحدة، وحى بحياة واحدة، ومريد بإرادة واحدة، ومتكلم بكلام واحد، ...، والدلالة على ذلك الإجماع؛ وذلك أن الأمة قائلان: منهم من يقول: ليس له صفات قديمة أصلاً، وقائل يقول: له صفات قديمة، ومن قال بذلك فلم يثبت له علمين وقدرتين وحياتين، وكذلك سائر الصفات"⁶³.

وقال الإمام أبو المظفر الإسفراييني (471-...هـ): "اعتقاد أهل السنة والجماعة السليم عن جميع ما ذكرناه من الضلالات، ...، وأن تعلم أن الحوادث لا يجوز حلؤها في ذاته وصفاته؛ لأن ما كان محلاً للحوادث لم يخل منها، وإذا لم يخل كان محدثاً مثلها"⁶⁴.

عقيدة الإمام الشافعي

رغم النصوص السابقة التي تدل على سكوت السلف الصالح عن تفسير معاني صفات الله ﷻ، والاكتفاء بتلاوتها عن تفسيرها، الأمر الذي يعني أنهم كانوا يفوضون معاني الصفات إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ، إلا أن السلفية ادعوا أن السلف الصالح أمسكوا عن تفسير كفياتها فقط، أما معانيها فقد كانت واضحة لهم حسب ظاهر اللغة العربية.

ثم شرع هؤلاء السلفيون في تتبع أئمة السلف الصالح عموماً وأئمة المذاهب الفقهية خصوصاً، فألبسوهم لباس العقيدة السلفية، ثم ادعوا أن علماء الأشاعرة المتمذهبين بالمذاهب الفقهية مخالفون لأئمة مذاهبهم في العقيدة، موافقون لهم في الفروع، ومن أولئك

62. عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رواية الإمام الخلال (101-127).

63. المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى الفراء (49).

64. التبصير في الدين للإمام الإسفراييني (129-137).

الأئمة الإمام محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ).

فمن النصوص التي اتكأ عليها السلفيون في نسبة الإمام الشافعي إلى عقيدتهم أنه سئل عن صفات الله ﷻ، فقال: "لله تبارك وتعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدا من خلق الله، قامت لديه الحجة أن القرآن نزل به، وضح عنده بقول النبي ﷺ فيما روى عنه العدل، خلافه، ...، ونحو ذلك إخبار الله ﷻ أنه سميع، وأن له يدين بقوله ﷻ: (بل يدها مبسوطتان)، وأن له يميننا بقوله ﷻ: (والسماوات مطويات بيمينه)، وأن له وجها بقوله ﷻ: (كل شيء هالك إلا وجهه)، وقوله: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، وأن له قدما بقوله ﷻ: (حتى يضع الرب ﷻ فيها قدمه)، يعني جهنم، وأنه يضحك من عبده المؤمن؛ لقوله ﷻ للذي قتل في سبيل الله ﷻ: (إنه لقي الله ﷻ وهو يضحك إليه)، وأنه يهبط كل ليلة إلى السماء الدنيا، بخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأنه ليس بأعور؛ لقول النبي ﷺ إذ ذكر الدجال فقال: (إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور)، وأن المؤمنين يرون ربهم ﷻ يوم القيامة بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر، وأن له أصبعا بقوله ﷻ: (ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ)، وإن هذه المعاني التي وصف الله ﷻ بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، لا تدرك حقيقتها تلك بالفكر والروية، ...، ولكن ثبتت هذه الصفات، ونفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره، فقال: (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)⁶⁵.

ولدى التأمل في هذه العقيدة المنسوبة للإمام الشافعي، فلن نجد فيها إلا إثبات نصوص الصفات، وتفويض معانيها إلى قائلها، بدليل قوله: "إن هذه المعاني التي وصف الله ﷻ بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، لا تدرك حقيقتها تلك بالفكر والروية".

والثابت عن الإمام الشافعي قوله: "آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله"⁶⁶، وهي عقيدة التفويض التي يقرها الأشاعرة، وأنه أول الوجه في قول الله ﷻ: "فأينما تولوا فثم وجه الله" بمعنى: "فثم الوجه الذي وجهكم الله إليه"⁶⁷.

65. طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن القاضي أبي يعلى الفراء (1، 283-284).

66. لمعة الاعتقاد للإمام الموفق ابن قدامة (7).

67. تفسير الإمام الشافعي (1، 220).

ثم إن هذه العقيدة لا يمكن الوثوق في صحتها؛ لأنها من رواية أبي طالب محمد بن علي بن الفتح العشاري (366-451هـ)، شيخ صدوق، قال عنه الإمام الذهبي (673-748هـ): "أدخلوا عليه أشياء، فحدث بها بسلامة باطن، منها حديث موضوع في فضل ليلة عاشوراء، ومنها عقيدة للشافعي"، ثم ذكر له حديثاً في فضل صوم يوم عاشوراء، ثم قال: "فبجح الله من وضعه، والعتب إنما هو على محدثي بغداد، كيف تركوا العشاري يروي هذه الأباطيل، ...، قلت: ليس بحجة"⁶⁸.

والراوي عن أبي طالب العشاري هو أبو العز أحمد بن عبيدالله بن كادش (432-526هـ)، قال عنه الإمام ابن النجار: "كان ضعيفاً في الرواية، مخلطاً كذاباً، لا يحتج به، وللأئمة فيه مقال"، وقال عنه الإمام السمعاني: "كان ابن ناصر يسيء القول فيه، سمعت ابن ناصر يقول: سمعت إبراهيم بن سليمان يقول: سمعت أبا العز بن كادش يقول: وضعت حديثاً على رسول الله ﷺ، وأقر عندي بذلك"، وقال عنه الحافظ ابن عساكر: "قال لي ابن كادش: وضع فلان حديثاً في حق علي، ووضعت أنا في حق أبي بكر حديثاً، بالله أليس فعلت جيداً؟"، قال الإمام الذهبي عنه: "هذا يدل على جهله، يفتخر بالكذب على رسول الله ﷺ"⁶⁹.

ومن النصوص التي اتكأ عليها السلفيون في نسبة الإمام الشافعي إلى عقيدتهم قوله: "القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عليهم، مثل سفيان بن عيينة ومالك وغيرهما، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ...، وأعقد قلبي على ما ظهر من لساني، ...، وأعقد قلبي ولساني على أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، والكلام في اللفظ والوقف بدعة، والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ...، وأن الله ﷻ على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء"⁷⁰.

وهذه العقيدة لا يمكن الوثوق في صحتها أيضاً؛ لأنها من رواية أبي الحسن علي بن

68. انظر ترجمة العشاري في ميزان الاعتدال للإمام الذهبي (3، 656)، ولسان الميزان للحافظ ابن حجر (5، 301).

69. انظر ترجمة ابن كادش في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (14، 386-387)، ولسان الميزان للحافظ ابن حجر (1، 218).

70. العلو للإمام الذهبي (165).

أحمد الهكاري (409-486هـ)، عابد زاهد، قال عنه الإمام ابن عساكر: "لم يكن موثقاً في روايته"، وقال عنه الإمام ابن النجار: "متهم بوضع الأحاديث وتركيب الأسانيد"، وقال عنه أيضاً: "كان الغالب على حديثه الغرائب والمنكرات"⁷¹، ووصف الإمام الذهبي سند هذه العقيدة بأنه واه⁷².

لكل قاعدة شواذ

تقدمت نصوص لبعض العلماء تؤكد أن معظم فقهاء المذهب الحنفي والمالكي والشافعي ومتقدمي الحنابلة أشاعرة، أو متفقون مع الأشاعرة في الجملة، وأن قلة من فقهاء هذه المذاهب ترنحوا بين الاعتزال والتجسيم.

ورغم ذلك فما إن يعثر السلفيون على عالم يخالف الأشاعرة من فقهاء الحنفية أو المالكية أو الشافعية إلا طاروا به، وجعلوه دليلاً على أن علماء المذاهب الفقهية مخالفون للأشاعرة في العقيدة، وأنهم متفقون مع العقيدة السلفية⁷³.

فن أولئك الفقهاء الذين خالفوا الأشاعرة الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي الشافعي (458-532هـ)، فقد هاجم الإمام الأشعري والأشاعرة في قصيدة له، وقد اختلف آراء العلماء في نسبة القصيدة إليه، فصحح بعضهم نسبتها، وأنكر بعضهم ثبوتها عنه، كلا أو بعضاً.

فن العلماء الذين أثبتوا نسبة القصيدة للإمام ابن السمعاني (506-562هـ)، وذكر أنها تبلغ نحو مئتي بيت، شرح فيها عقيدة السلف، وعنه نقل عدد من العلماء، منهم الإمام الذهبي (673-748هـ)⁷⁴، والإمام ابن كثير (701-774هـ)⁷⁵، والإمام ابن قاضي

71. انظر ترجمة الهكاري في تاريخ الإسلام (33، 184) وميزان الاعتدال (3، 112)، كلاهما للإمام الذهبي، ولسان الميزان للحافظ ابن حجر (4، 195).

72. انظر العلو للإمام الذهبي (165).

73. بل إن بعض السلفيين يستमित في إثبات نسبة الكتب المخالفة لعقيدة الأشاعرة إلى أئمة الفقه الحنفي أو المالكية أو الشافعية، كالجزء المنسوب - زورا - إلى الإمام النووي بعنوان: "جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف = الأصوات"، فإن هذا الجزء لا تصح نسبتها إليه؛ لعدة أسباب، منها أن كل من ترجم للإمام النووي لم ينسب له هذا الجزء ضمن مؤلفاته، ومنها أن هذا الجزء المنسوب ينقل معظم فصوله عن كتاب: "غاية المرام في مسألة الكلام"، لأبي العباس أحمد بن الحسن بن عثمان الأرموي الشافعي، وهذا العالم لا ذكر له في كتب التراجم عموماً وطبقات الشافعية خصوصاً، كما أن كتابه المزعوم لا ذكر له في فهرس الكتب.

74. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (36، 295-296).

75. طبقات الشافعيين للإمام ابن كثير (606-607).

شبهة (779-851هـ)⁷⁶، والإمام ابن العماد (1032-1089هـ)⁷⁷، ولم يذكر أحد منهم الأبيات التي هاجم فيها الإمام الأشعري والأشاعرة.

ومن العلماء الذين أنكروا ثبوت القصيدة عنه، كلها أو بعضها، الإمام تاج الدين السبكي (727-771هـ)، فقال: "قال ابن السمعاني: وله قصيدة بائية في السنة، شرح فيها اعتقاده واعتقاد السلف، تزيد على مائتي بيت، قرأتها عليه في داره بالكرج، قلت: ثبت لنا بهذا الكلام - إن ثبت أن ابن السمعاني قاله - أن لهذا الرجل قصيدة في الاعتقاد على مذهب السلف، موافقة للسنة، وابن السمعاني كان أشعري العقيدة، فلا نعترف بأن القصيدة على السنة واعتقاد السلف إلا إذا وافقت ما نعتقد أنه كذلك، وهو رأي الأشعري، إذا عرف هذا فاعلم أنا وقفنا على قصيدة تعزى إلى هذا الشيخ، وتلقب بعروس القصائد في شمس العقائد، نال فيها من أهل السنة، وباح بالتجسيم، فلا حي الله معتقدها، ولا حي قائلها كائنا من كان، وتكلم فيها في الأشعري أقبح كلام، واقترى عليه أي اقتراء، ...، وأقول أولاً: إني ارتبت في أمر هذه القصيدة، وصحة نسبتها إلى هذا الرجل، وغلب على ظني أنها إما مكذوبة عليه كلها أو بعضها، والذي يرحم أنها مكذوبة عليه كلها أن ابن الصلاح ترجم هذا الرجل، وحكى كلام ابن السمعاني إلا فيما يتعلق بهذه القصيدة، فلم يذكره، فيجوز أن يكون ذلك قد دس في كتاب ابن السمعاني؛ ليصحح به نسبة القصيدة إلى الكرجي، وقد جرى كثير مثل ذلك، ويؤيد هذه أيضاً أن ابن السمعاني ساق كثيراً من شعره، ولم يذكر من هذه القصيدة بيتاً واحداً، ولو كان قد قرأها عليه لكان يوشك أن يذكر ولو بعضها، ويحتمل أن يكون له بعضها، ولكن زادت الأبيات المقتضية للتجسيم وللكلام في الأشاعرة، ويؤيد ذلك أن القصيدة المشار إليها تزيد على المائتين وأربعين، وابن السمعاني قال: تزيد على المائتين، وظاهر هذه العبارة أنها تزيد بدون عقد، وأنها لو كانت مائتين وأزيد من أربعين لقال: تزيد على المائتين وأربعين، ويؤيده أيضاً أن أبياتها غير متناسبة، فإن بعضها شعر مقبول، وأظنه شعره، وبعضها - وهو المشتمل على القبائح - في غاية الرداءة، لا يرضى به من يحسن الشعر"⁷⁸.

76. طبقات الشافعية للإمام ابن قاضي شهبة (1، 310-311).

77. شذرات الذهب للإمام ابن العماد (6، 165).

78. طبقات الشافعية للإمام السبكي (6، 140-142).

ثم عرض الإمام السبكي بعض أبيات القصيدة، وعلق عليها تعليقات مفيدة، ثم قال: "والأغلب على الظن أنها ملفقة موضوعة، وضع ما فيها من الخرافات من لا يستحي، ثم أقول: قبح الله قائلها كائناً من كان، وإن يكن هو هذا الكرجي فنحن نبرأ إلى الله منه، إلا أنني على قطع بأن ابن السمعاني لا يقرأ هذه الأبيات، ولا يستحل روايتها، وقد بينت لك من القرائن الدالة على أنها موضوعة ما فيه كفاية"⁷⁹.

وأقول: لو ثبتت هذه القصيدة التي احتوت على التهجم على الأشاعرة للإمام الكرجي، فكان ماذا؟ عالم شافعي المذهب في الفروع، ولم يرتض مذهب الأشاعرة في العقيدة، وليس كل الشافعية أشاعرة، كما أن ليس كل الحنابلة سلفية.

ومن أولئك الفقهاء الذين توهم بعض السلفيين مخالفتهم للأشاعرة الإمام أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي (489-558هـ)، فإنه قال في مقدمة كتابه: "وقد أدخلت المعتزلة والقدرية على الإسلام وأهله شبة في الدين؛ ليموهوا بها على العوام، ومن لا خبرة له بأصولهم التي بنوا عليها أقوالهم، فاتبعوا متشابه القرآن، وأولوا القرآن على خلاف ما نقل عن الصحابة والتابعين المشهورين بالتفسير؛ لينفقوا بذلك أقوالهم، فهم أشد الفرق ضرارا على أصحاب الحديث، ثم بعدهم الأشعرية؛ لأنهم أظهروا الرد على المعتزلة، وهم قائلون بقولهم"⁸⁰⁸¹.

ولكن الإمام العمراني عندما بين عقيدة أصحاب الحديث التي يدين الله ﷻ بها وافق الأشاعرة في معظم عقيدتهم، كصفات المعاني، وتفويض الصفات الموهمة للتشبيه، وتنزيهه عن أوصاف الجسم والجوهر والعرض، وخالفهم في مسائل قليلة، تكاد تنحصر في تأويل الصفات الموهمة للتشبيه، وحقيقة كلام الله ﷻ، وهذه بعض نصوصه:

- "فصل في بيان عقيدة أصحاب الحديث التي أدين الله بها، وهي الإيمان بأن الله سبحانه واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، قديم لا أول له، موجد لا موجد له، باق لا انقطاع له، ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض"⁸²، ولا بجمل الأعراض والجواهر

79. طبقات الشافعية للإمام السبكي (6، 146).

80. يقصد الإمام العمراني بالأشعرية هنا أهل التأويل منهم.

81. الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار للإمام العمراني (1، 95-96).

82. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة وطريقتهم في تنزيه الله عن صفات النقص.

والأجسام⁸³، ولا يحلها، مستو على العرش كما أخبر، بلا كيفية، حي عالم قادر مرید سمیع بصیر متكلم، موصوف بصفات الكمال: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام⁸⁴، وأن هذه الصفات يستحقها لذاته، قديمة بقدمه، لا هي هو، ولا هو هي، ولا هي غيره، ولا هو غيرها، (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)، ...، وأن لله وجهها ويدين كما أخبر بكتابه، ولا يفسر ذلك بالجراحة ولا بالذات والنعمة⁸⁵، وتؤمن بأخبار الصفات الواردة عن النبي ﷺ في النزول وغيره، إيماناً مجملًا⁸⁶، ولا نفسرها، بل نمرها كما جاءت⁸⁷.

• "أسماء الله تعالى على ثلاثة أضرب: منها ما يرجع إلى ذاته، كقولنا: الله موجود وشيء قديم، ومنها ما يرجع إلى صفات ذاته، كعالم وقدير وحى وسميع وبصير ومرید ومتكلم⁸⁸، ومنها ما يرجع إلى صفات فعله، كخالق ورازق وقابض وباسط، وهذه الصفات لله سبحانه يستحقها في الأزل، وهو موصوف في الأزل بأنه سيخلق ويرزق ويقبض ويبسط قبل أن يخلق ويرزق⁸⁹، وعند المعتزلة أن أسماء الله كلها مخلوقة، والدليل على بطلان قولهم لو كانت أسماؤه مخلوقة لم يخل، إما أن يكون خلقها في ذاته، أو في ذات غيره، أو لا في ذاته ولا في ذات غيره، فبطل أن يكون خلقها في ذاته؛ لأن ذاته ليست بمحل للحوادث⁹⁰، ..."⁹¹.

• "مذهب السلف والعلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الأمصار، كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل، ينزهون الله عن الجسمية، والتصديق بما ورد من هذه الآي والأخبار، والسكوت عن تفسيرها، والاعتراف بالعجز عن علم المراد بذلك⁹²،

83. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في تنزيه الله عن قيام الحوادث بذاته.

84. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في إثبات صفات المعاني السبعة القائمة بذات الله، وتتفق أيضا مع عقيدتهم في قدم كلام الله.

85. هذه العبارة تنفي إثبات الصفات على ظاهرها، وتنفي تأويلها أيضا.

86. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في الإيمان المجمل بنصوص الصفات، وهو ما يسمى بالتفويض.

87. الانتصار للإمام العمراني (1، 98-100).

88. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في إثبات الصفات المعنوية السبعة.

89. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في نفي حوادث لا أول لها.

90. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في تنزيه الله عن قيام الحوادث بذاته.

91. الانتصار للإمام العمراني (2، 605-606).

92. تتفق هذه العبارة مع تفويض الأشاعرة لمعاني الصفات الموهمة للتشبيه، وقد رثيت لحال محقق الكتاب في محاولته البائسة اليائسة في أن مقصود المؤلف تفويض الكيف، فالمؤلف يعترف بالعجز عن علم المراد بها، والمحقق ينكر.

والتسليم والإيمان بذلك إيماناً جليلاً، كما آمننا وصدقنا بإثبات الذات من غير تكييف؛ لأن النبي ﷺ أعلم بما يجوز على الله من الصفات، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، فإذا سكتوا عن تفسير هذه الصفات وتأويلها وسعنا ما وسعهم⁹³ و⁹⁴.

• "عند أصحاب الحديث والسنة أن الله سبحانه بذاته، بائن عن خلقه، على العرش استوى فوق السموات، غير مماس له⁹⁵، وعلمه محيط بالأشياء كلها، وقالت الكرامية: إنه مماس للعرش، ...، وأما الأشعرية فقالوا: إذا قلت إنه على العرش أفضى إلى أنه يكون محدوداً، أو أنه يفتقر إلى مكان وجهة تحيط به، ...، والجواب أنا، وإن قلنا إنه على العرش كما أخبر بكتابه، وأخبر به نبيه ﷺ، فلا نقول: إنه محدود، ولا إنه يفتقر إلى مكان، ولا تحيط به جهة ولا مكان⁹⁶، بل كان ولا مكان ولا زمان⁹⁷، ثم خلق المكان والزمان، واستوى على العرش بلا كيفية"⁹⁸.

• "أخبر الله تعالى أنه على العرش استوى، وأخبر النبي ﷺ، فعللنا أن هناك معنى يختص به العرش دونه، فقلنا: هو على العرش استوى، ولا نكيف الاستواء، ولا نفسره، بل نصدق به، ونؤمن به إيماناً مجملًا، ...، حملنا قوله تعالى لموسى وهارون: (إني معكما أسمع وأرى) على النصر والتأييد، وإن كان يسمع كلام فرعون ويراه، كما يسمع كلامهما ويراهما، وليس كذلك هذه الآيات والأخبار التي وردت بصفات الذات، فإن العقول تقصر عن معرفة المراد بها⁹⁹، فلزمنا بالضرورة التصديق بها، والإمساك عنها"¹⁰⁰.

ومن المسائل التي خالف فيها الإمام العمراني عقيدة الأشاعرة حقيقة كلام الله ﷻ، حيث يرى أن كلام الله حرف وصوت قائم بذاته، فقال: "وأن هذه السور والآيات

93. يقرر الإمام العمراني وجوب السكوت عن تفسير نصوص الصفات وتأويلها، والاكتفاء بالإيمان المجمل، وهذا هو عين التفويض، وهو بهذا متفق مع الأشاعرة في التفويض، مختلف معهم في التأويل.

94. الانتصار للإمام العمراني (2، 633).

95. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في تنزيه الله عن مماسة العرش والاستقرار عليه.

96. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في تنزيه الله عن الجهة والمكان والحد.

97. تتفق هذه العبارة مع عقيدة الأشاعرة في نفي حوادث لا أول لها.

98. الانتصار للإمام العمراني (2، 607-622).

99. يكرر الإمام العمراني وجوب تفويض معاني الصفات إلى الله، ويكرر محقق الكتاب أن المقصود تفويض الكيف.

100. الانتصار للإمام العمراني (2، 634-635).

كلامه، تكلم به حقيقة، بحرف يكتب، وصوت يسمع، لا كحروفنا وأصواتنا، ومعنى يعقل، وأنه أنزله على نبينا محمد ﷺ، وأنه غير مخلوق، ولا عبارة عن القرآن¹⁰¹.

وهذه العقيدة تتفق مع عقيدة الحنابلة، ولا تتفق مع عقيدة السلفية؛ لأنهم يعتقدون أن كلام الله ﷻ قديم النوع حادث الأفراد، أما الإمام العمراني فيرى أن كلام الله قديم، فقال: "السنة فرع للقرآن؛ لأن نبوة النبي ﷺ إنما ثبتت بثبوت معجزته، ولا معجزة له فينا باقية إلى يوم القيامة إلا القرآن، الذي هو كلام الله القديم"¹⁰².

وبناء على ما سبق فإنه من الواضح أن معظم المسائل التي عرضها الإمام العمراني موافق لعقيدة الأشاعرة، وقليل منها موافق لعقيدة الحنابلة، وليس للسلفية من مسأله نصيب.

السلفية تبع لابن تيمية

تقدم اتفاق جمهور الأشاعرة والماتريدية ومتقدمي الحنابلة على قبول عقيدة التفويض للصفات الإلهية، أما التأويل فأجازه الأشاعرة والماتريدية، ورفضه الحنابلة، أما القول بإثباتها بمقتضى ظاهر اللغة العربية فلم يكن مقبولاً عندهم؛ لما يلزم عليه من التشبيه والتجسيم.

وتتابع العلماء على هذا إلى أن ظهر الإمام ابن تيمية (661-728هـ)، فأدخل القول بإثبات الصفات بمقتضى ظاهر اللغة العربية في عقيدة أهل السنة والجماعة، ونسبه إلى السلف الصالح، وقد أودى بسبب هذا القول وغيره مما خالف فيه ما استقر عند علماء زمنه.

قال الإمام ابن تيمية: "ثم هذا الرسول الأُمِّي العربي بعث بأفصح اللغات، وأبين الألسنة والعبارات، ثم الأمة الذين أخذوا عنه، كانوا أعمق الناس علماً، وأنصحهم للأمة، وأبينهم للسنة، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام، يريدون به خلاف ظاهره إلا وقد

101. الانتصار للإمام العمراني (1، 99).

102. الانتصار للإمام العمراني (1، 111).

نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره¹⁰³، ...، ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي، لا يستنبطه إلا أفراد الناس، ...؛ لأنه إذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى، ...، وخاطب به الخلق كلهم، ...، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه، ...، ثم أوجب ألا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئاً من ظاهره¹⁰⁴، ...، كان هذا تدليسا وتلبيسا، وكان نقيض البيان وضد الهدى¹⁰⁵106.

وقال الإمام ابن تيمية عن عقيدة التفويض: "وأما على قول أكابرهم: إن معاني هذه النصوص المشككة المتشابهة لا يعلمه إلا الله، وأن معناها الذي أراد الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها، فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة ولا السابقون الأولون، وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه، لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاماً لا يعقلون معناه¹⁰⁷، ...، ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء؛ إذ كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، ...، ومع هذا فأشرف ما فيه، وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، ...، لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بين الناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين، ...، فتبين أن قول أهل التفويض، الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف، من شر أقوال أهل البدع والإلحاد¹⁰⁸109.

وقد بلغ الأمر بالإمام ابن تيمية إلى إثبات الأعضاء لله ﷻ، وأن يد الله آلة عمله وفعله، وأنه لما كان مستغنياً عن الأكل والشرب استغنى عن أعضائهما، كالكبد والطحال

103. نعم، نصب لهم الدليل على منع حمل نصوص الصفات على ظاهرها، وهو قول الله: "ليس كمثله شيء"، وقوله تعالى: "ولم يكن له كفواً أحد"، وقوله تعالى: "فلا تضربوا الله الأمثال".

104. يكاد يفهم من هذا التقرير أن القرآن الكريم ليس فيه متشابه البتة.

105. يحمل هذا التقرير على الآيات المحكمات، وهي أكثر آيات القرآن، ولا يصح أن يحمل على الآيات المتشابهات.

106. الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة للإمام ابن تيمية (7).

107. يحتوي هذا النص على تهويل، فإن الله قال عن الآيات المتشابهات: "وما يعلم تأويله إلا الله"، فما المانع أن يستأثر الله بعلم حقائق صفاته؟ أما ما عدا ذلك فهي آيات محكمات، وهناك خلاف في الحروف المقطعة أوائل السور.

108. وهكذا تحول التفويض من كونه مذهب أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية ومتقدمي الحنابلة إلى كونه مذهب أهل البدع والإلحاد، وانسافت السلفية وراء هذا القول، وجعلته فيصلاً بين السنة والبدعة، وتقدمت حيرة بعض مشايخ السلفية أمام نص الإمام ابن قدامة في التفويض في كتابه "لمعة الاعتقاد".

109. درء تعارض العقل والنقل للإمام ابن تيمية (1، 204-205).

ونحوهما، فقال: "وقد تقدم أن كل كمال ثبت لمخلوق فخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فخالق أولى بتنزيهه عن ذلك، والسمع قد نفى ذلك في غير موضع، كقوله: (الله الصمد)، والصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهذه السورة هي نسب الرحمن، وهي الأصل في هذا الباب، وقال في حق المسيح وأمه: (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام)، فجعل ذلك دليلاً على نفي الألوهية، فدل ذلك على تنزيهه عن ذلك بطريق الأولى والأحرى، والكبد والطحال ونحو ذلك هي أعضاء الأكل والشرب، فالغني المنزه عن ذلك منزه عن آلات ذلك، بخلاف اليد فإنها للعمل والفعل، وهو سبحانه وتعالى موصوف بالعمل والفعل¹¹⁰، إذ ذلك من صفات الكمال، فمن يقدر أن يفعل أكل ممن لا يقدر على الفعل"¹¹¹.

إن الإمام ابن تيمية يقرر أن نصوص الصفات لا يجوز أن يراد بها خلاف ظاهرها إلا وقد نصب دليل واضح على منع إرادة ظاهرها؛ لأن الدليل لو كان خفياً على عامة الناس، ففهموا الظاهر غير المراد منها، لوقع اللبس والتدليس بسببها، ثم يقرر أن تفويض معانيها إلى الله ﷻ شر الأقوال البدعية؛ لأنها تنسب الجهل للأنبياء.

ومقتضى كلام الإمام ابن تيمية أنه يجب أن تكون كل نصوص القرآن والسنة ظاهرة، وإذا أريد بها غير ظاهرها فيجب أن يكون الدليل الصارف واضحاً لعامة الناس؛ لأنهم مطالبون بفهم نصوص القرآن والسنة.

ويمكن رد هذا الكلام بتقرير أن نصوص القرآن والسنة لو كانت كلها بالدرجة العالية من الظهور والوضوح لعامة الناس لما كان في الأمة الإسلامية علماء مجتهدون، وعامة مقلدون، ولكان الناس على درجة واحدة من العلم والفهم، ولما ظهر الخلاف بين العلماء، وهذا مخالف لما هو معلوم من واقع الأمة الإسلامية.

فقد سئل علي بن أبي طالب عليه السلام: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ فقال: "لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً، يعطيه الله رجلاً في القرآن،

110. تعالى الله عن أن يكون فعله وعمله بعضو أو آلة، قال تعالى: "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" (النحل، 40)، وقال تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" (يس، 82)، وقال تعالى: "هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" (غافر، 68).

111. التدمرية للإمام ابن تيمية (142-144).

وما في هذه الصحيفة"، فقيل: وما في هذه الصحيفة؟ فقال: "العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر"¹¹².

ولو كانت كل نصوص القرآن ظاهرة واضحة لكانت آياته كلها محكمات، ولما كان فيه آيات متشابهات، وهذا مخالف لقول الله ﷻ: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات" (آل عمران، 7).

ثم إن كلام الإمام ابن تيمية يوهم أن الدليل المانع من إرادة ظاهر نصوص الصفات دليل خفي، فهل كان دليلاً خفياً قولُ الله ﷻ: "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير" (الشورى، 11)، وقوله تعالى: "ولم يكن له كفواً أحد" (الإخلاص، 4)، وقوله تعالى: "فلا تضربوا لله الأمثال" (النحل، 74)، وقوله تعالى: "هل تعلم له سمياً" (مريم، 65)، وقوله تعالى: "سبحان ربك رب العزة عما يصفون" (الصفات، 180).

ثم إن فهم القرآن والسنة له أدوات اجتهاد، قال الإمام الشافعي (150-204هـ): "لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله: بنسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ: بالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وبما يحتاج إليه للعلم والقرآن، ويستعمل مع هذا الإنصاف وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف فقهاء الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا، فإن كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإن لم يكن هكذا فليس له أن يتكلم في العلم ولا يفتي"¹¹³.

إن الشبهة التي أثارها الإمام ابن تيمية يمكن ردها بما قاله الإمام الطوفي (657-716هـ): "لا بُد في أن يتعبد الله تعالى عباده بإنزال كتابه، عملاً وإيماناً، بأن ينزله محكماً يتعبدون بالعمل به، ومتشابهاً يتعبدون بالإيمان به، تسوية بين الأبدان والنفوس في التعب والتكليف؛ لأن التكليف إزام ما فيه مشقة كما سبق، فالمشقة على الأبدان بما تعانیه من حركات التكليف ونحوها، كالصلاة والحج والجهاد، ومشقة النفوس والعقول بما تعانیه

112. رواه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه.

113. الفقيه والمتفقه للإمام الخطيب البغدادي (157/2).

من التصديق بما لا يدركه، وهو أعظم المشقتين كما بينته في "القواعد الصغرى"، ولهذا قدم الله تعالى المؤمنين بالغيب في قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)، وأيضا فإن التكليف عملي واعتقادي، ثم العملي منه معقول، ومنه غير معقول، كالوضوء والغسل وأشباههما وأفعال الحج من رمل واضطباع وتجرد ونحوه، فما المانع أن يكون التكليف الاعتقادي أيضا مشتملا على ما يفهم وما لا يفهم، مع أن ذلك أجدر بحصول فائدة التكليف، وهي تبين المطيع من العاصي"¹¹⁴.

وقد رد كثير من علماء أهل السنة والجماعة على الإمام ابن تيمية، وكاد قوله في هذه المسألة يندرس، إلى أن تبنت السلفية المعاصرة قوله فانتشر، حتى شاع عندهم أن العقيدة الصحيحة في صفات الله ﷻ هي إثباتها بمقتضى ظاهر اللغة العربية، وأن عقيدة التفويض والتأويل عقيدة خلفية باطلة، يقول بها أهل البدع والإلحاد، ويقصدون بهم أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية.

ثم ادعى بعض السلفيين إجماع السلف على إثبات صفات الله ﷻ بمقتضى ظاهر اللغة العربية، فقد قال الشيخ محمد بن عثيمين (1347-1421هـ): "أما إجماع السلف فهذا أمر معلوم، وسبق أن عرفنا طريق العلم بمثل هذا الإجماع؛ لأنه قد يتعذر أن تجد نقلا عن السلف، وخصوصا الصحابة رضي الله عنهم، بأنهم أثبتوا اليد لله نصا، فيكون الطريق إلى الإجماع في هذا¹¹⁵ أن القرآن نزل باللسان العربي الذي يفهمه الصحابة، فإذا لم يأت عنهم ما يخالف هذا القرآن فهم مجمعون عليه؛ لأنهم لو فهموا أن المراد خلاف ما جاء به لنقل عنهم، فلما لم ينقل عنهم قول مخالف لما كانوا يتلون في الليل والنهار، علم أنهم يقولون به، فهذا وجه قولنا: إن السلف اجمعوا على ذلك، وإلا فقد يصعب علينا أن نجد نقلا في كل مسألة من مسائل العقيدة عن الصحابة، لكن تقرير الإجماع أن القرآن والسنة بلغة العرب التي يفهمها الصحابة رضي الله عنهم، وهم يمرون عليها ليلا ونهارا، ولم يوجد عنهم حرف واحد يخالف ما جاء فيها، إذا فهم مجمعون على القول بها"¹¹⁶.

114. شرح مختصر الروضة للإمام الطوفي (2، 46-47)

115. سيكرر الشيخ ابن عثيمين معنى كلام الإمام ابن تيمية المتقدم.

116. شرح العقيدة السفارينية للشيخ محمد بن عثيمين (256-257).

لقد أثار النص السابق للشيخ محمد بن عثيمين عجي لعدة أمور:

- أحدها اعترافه بأنه قد يتعذر وجود نقل عن السلف عموماً، وعن الصحابة رضي الله عنهم خصوصاً، بإثبات صفات الله ﷻ نصاً.
- وثانيها تأكيده أنه لم ينقل نص عن الصحابة بخالفة ما في القرآن والسنة من صفات الله ﷻ.
- وثالثها اعتقاده أن عدم نقل نص عنهم بإثبات صفات الله ﷻ دال على إجماعهم على إثباتها، أي أن فقد النص عنهم صار عنده كوجوده.
- ورابعها أنه توصل إلى إجماعهم بدلالة نزول القرآن باللسان العربي الذي يفهمونه، وفيه إثبات صفات الله ﷻ، فلما لم يصلنا نقل عنهم بخالفة ما في القرآن، فقد دل هذا على إجماعهم على إثباتها بمقتضى ظاهر اللغة العربية.
- لقد قرر الشيخ محمد أن الإجماع هو: "اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد النبي ﷺ على حكم شرعي"¹¹⁷، وأن الإجماع لا يعتقد مع وجود خلاف ولو من واحد¹¹⁸، وأن للإجماع شروطاً، منها أن يثبت بطريق صحيح، بأن يكون مشهوراً بين العلماء، أو يكون ناقله ثقة واسع الاطلاع¹¹⁹.

وفي دعوى الشيخ محمد إجماع الصحابة رضي الله عنهم على إثبات صفات الله ﷻ بمقتضى ظاهر اللغة العربية انتهى الشرط الذي ذكره لثبوت الإجماع، فليس هذا الإجماع المزعوم مشهوراً بين العلماء، ولم ينقله عنهم أحد من العلماء الثقات، وإنما الثابت عنهم السكوت غالباً عن تفسير ما في الكتاب والسنة من الآيات والأحاديث المتعلقة بصفات الله ﷻ، وتأويل القليل منها، والدليل هو ما قرره الشيخ محمد من عدم وجود نقل عنهم بهذا الخصوص، فكيف ادعى الإجماع عليه؟!

ثم إن دعوى الشيخ محمد بن عثيمين أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينقل عنهم نص في صفات الله ﷻ دعوى غير صحيحة، بل ورد عن بعضهم تفسير بعض آيات الصفات بما يخرجها عن كونها صفات لله تبارك وتعالى.

117. الأصول من علم الأصول للشيخ محمد بن عثيمين (64).

118. انظر الأصول من علم الأصول للشيخ محمد بن عثيمين (64).

119. انظر الأصول من علم الأصول للشيخ محمد بن عثيمين (66).

فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه (10 ق هـ-73 هـ) في تفسير قول الله عز وجل: "فثم وجه الله" قوله: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، وفيه نزلت: (فأينما تولوا فثم وجه الله)¹²⁰، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أن تصلي حيث ما توجهت بك راحلتك في التطوع"¹²¹.

وورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه (3 ق هـ-68 هـ) في تفسير قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق" قوله: "إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر: اصبر عناق، إنه شرباق، قد سن قومك ضرب الأعناق، وقامت الحرب بنا عن ساق"¹²².

وأول عبد الله بن عباس الإتيان في قول الله عز وجل: "هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك" (الأنعام، 158) بإتيان أمر الله فيهم بالقتل أو غيره¹²³، وأول الحسن البصري (21-110 هـ) المجيء في قول الله عز وجل: "وجاء ربك والملك صفا صفا" (الفجر، 22) بمجيء أمر الله وقضائه¹²⁴.

ولا يصح أن يرد اعتراض بأن الإجماع الذي قرره الشيخ محمد بن عثيمين إجماع سكوتي؛ لأن الإجماع السكوتي يثبت إذا "قال بعض المجتهدين قولاً، أو فعل فعلاً، واشتهر ذلك بين أهل الاجتهاد، ولم ينكروه مع قدرتهم على الإنكار"¹²⁵، فيحمل سكوتهم على موافقتهم.

وفي دعوى الشيخ محمد لم يشتهر قول لأحد الصحابة رضي الله عنهم بإثبات صفات الله عز وجل بمقتضى ظاهر اللغة العربية، بل سكتوا كلهم إلا بعض التأويل الذي سبق عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فلا يصح أن يحمل سكوتهم على إجماعهم بإثبات صفات الله عز وجل بمقتضى ظاهر اللغة العربية، بل إن صحت دعوى الإجماع السكوتي فينبغي أن تصح

120. رواه مسلم وأحمد والنسائي والترمذي.

121. رواه ابن خزيمة والحاكم.

122. رواه الحاكم.

123. انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (7، 144).

124. انظر معالم التنزيل للإمام البغوي (5، 252).

125. انظر الأصول من علم الأصول للشيخ محمد بن عثيمين (67).

على التأويل الوارد عن اثنين من علماء الصحابة رضي الله عنهم.

ثم ينبغي السؤال عن الفهم الذي استقر في عقول الصحابة رضي الله عنهم حول نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة باللسان العربي الذي يفهمونه ويتكلمون به، فإن كان واضحاً لهم فلماذا سكتوا عنه؟ ألم يقل عبدالله بن عباس رضي الله عنه: "إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب"؟ ثم استشهد بقول الشاعر: "قد سن قومك ضرب الأعناق، وقامت الحرب بنا عن ساق"¹²⁶، على تفسير الساق بالشدة في قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق"¹²⁷.

لقد كان الشيخ محمد بن عثيمين مدركاً أن إثبات الصفات بمقتضى ظاهر اللغة العربية يؤدي إلى التجسيم، فالتزمه مع نفي التشبيه بينه وبين الأجسام¹²⁸، فقال: "أما شبهة الذين ينكرون العين واليد والرجل والوجه وما أشبه ذلك، فإنهم يدعون بعقولهم أن إثبات هذا يستلزم التجسيم، وأن الله جسم؛ لأننا لا نعقل شيئاً له وجه ويد وما أشبه ذلك إلا جسماً، ونحن نقول لهم في الجواب عن ذلك: ومن قال لكم: إن الجسم منتف عن الله؟ من قال هذا؟ هل عندكم دليل على أنه منتف؟ فإن كان يلزم من إثبات هذه الصفات أن يكون الله جسماً فهو حق، ولكنه لا يشبه الأجسام، وإن كان لا يلزم فإن إلزامكم إيانا بما لا يلزم هو عين الجور والظلم"¹²⁹.

إن القول بالظاهر الذي يعتقده السلفية منهجاً للسلف الصالح، وهو إثبات معاني الصفات بمقتضى ظاهر اللغة العربية، يؤدي إلى شيء من التشبيه، وقد أقر الشيخ محمد بن عثيمين (1347-1421هـ) بهذا التشبيه بقوله: "فإذا قلت: ما هي الصورة التي تكون لله، ويكون آدم عليها؟ قلنا: إن الله تعالى له وجه، وله عين، وله يد، وله رجل، لكن لا يلزم أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان، فهناك شيء من الشبه، لكنه ليس على سبيل المماثلة، كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر، لكن بدون مماثلة"¹³⁰، انتهى،

126. رواه الحاكم.

127. جامع البيان للإمام الطبري (23، 554-560).

128. تقدمت نصوص لمنقضي الحنابلة بنفي الجسمية عن الله.

129. شرح صحيح البخاري للشيخ محمد ابن عثيمين (10، 333-334).

130. شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين (110-111).

فإن كان يقصد الشبه في الاسم فقط، فهذا الشبه صحيح؛ لأن الاشتراك في الأسماء لا يعني الاشتراك في الحقائق، أما إن كان يقصد الشبه في المعنى فقد حصل التشبيه في الحقيقة.

وزاد الشيخ محمد بن عثيمين الأمر وضوحاً عندما شرح قول الإمام ابن القيم (691-751هـ): "يتقدس الرحمن جل جلاله... عنها وعن أعضاء ذي جثمان"، فأثبت الأعضاء لله ﷻ، ونفى تشابهها مع خصائص أعضاء الإنسان، فقال: "كلام المؤلف رحمه الله هنا موهوم ما ليس بمراد له قطعاً؛ لأن قوله: (عن أعضاء ذي جثمان) يشمل الوجه واليد والعين والقدم والساق، فإن هذه من أعضاء الجسم، فهل الله منزّه عنها؟ الجواب: إن نظرنا إلى ظاهر كلام المؤلف قلنا: إنه يدل على ذلك، لكن لعلمنا بحال المؤلف، وأنه يثبت هذه الصفات لله ﷻ، وهي: الوجه والعين واليد والساق والقدم، لعلمنا بذلك كما نعلم الشمس في رابعة النهار، فإننا نقول: إنه لم يرد نفى هذا عن الله، وإنما أراد نفى خصائص هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان، فخصائص هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان يجوز أن تنفصل من جسمه وألا تنفصل، لكن اليد بالنسبة لله ﷻ والساق والقدم والعين لا يجوز أن يكون فيها هذا، ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن نطلق على يد الله أنها بعض الله؛ لأن البعض ما جاز انفصاله عن الكل، وهذا بالنسبة إلى الله أمر مستحيل،...، إذن كلام ابن القيم يجب أن يحمل على أعضاء ذي الجثمان، أي خصائص هذه الأعضاء، وهي جواز انفصالها عن الكل، فأعضاء الإنسان يجوز أن تنفصل عن الكل، أما بالنسبة لهذه الأسماء أو هذه الصفات بالنسبة إلى الله ﷻ فإنه لا يمكن أن يكون فيها ذلك"¹³¹.

إن كثيراً من علماء السلفية لا يتورعون عن إثبات المشابهة بين الله ﷻ ومخلوقاته، فقد قال الشيخ صالح آل الشيخ (1378هـ-...): "لم يطلق أكثر السلف نفى التشبيه، وإنما أطلقوا نفى التمثيل؛ لأن الله ﷻ قال: (ليس كمثل شيء)، ولفظ التشبيه لم يرد فيه النفي في الكتاب ولا في السنة،...، وفرق ما بين التمثيل وبين التشبيه، فالتمثيل معناه المساواة، هذا مثل هذا، يعني يساويه في صفة أو في صفات، أما التشبيه فهو من التشابه، وقد يكون التشابه كاملاً، فيكون تمثيلاً، وقد يكون التشابه ناقصاً، فيكون في كل المعنى أو في أصل

131. شرح الكافية الشافية للشيخ محمد ابن عثيمين (1، 392-393).

المعنى على نحو ما فصلت لك، فإذا إذا قيل: لا نشبهه، فلا يندرج في ذلك إثبات أصل المعنى، يعني التشابه في المعنى؛ لأنه لا يستقيم إثبات الصفات إلا بمشابهة في المعنى، ولكن ليس مشابهة في كل المعنى، ولا في الكيفية؛ لأن هذا تمثيل، فهذا لا يطلق النفي للتشبيه، ... بل يقال: التمثيل منتف مطلقاً¹³².

خاتمة:

كان المسلمون في العصر الأول من الإسلام في خلافة راشدة، وعلى عقيدة واحدة، ثم ظهرت بدع عقديّة، تسببت في ظهور فرق ضالة، فتصدى لهم علماء السلف بالرد والبيان، والحجة والبرهان، فاندurst تلك الفرق الضالة، وارتفع منار أهل السنة والجماعة. وقد أفرزت تلك العصور بروز علماء أجلاء، انضوى جمهور أهل السنة والجماعة تحت لوائهم، وكان من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ)، وإليه ينسب متقدمو الحنابلة، والإمام أبو الحسن الأشعري (260-324هـ)، وإليه ينسب الأشاعرة، والإمام أبو منصور الماتريدي (333-...هـ)، وإليه ينسب الماتريدية.

قال الإمام السفاريني الحنبلي (-1188هـ): "أهل السنة والجماعة ثلاث فرق: الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري، والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي، وأما فرق الضلال فكثيرة جداً"¹³³.

وقد كانت المذاهب الفقهية الأربعة ذات ارتباط وثيق بالمذاهب العقديّة السنية، فسار جمهور المالكية والشافعية على منهج الإمام الأشعري، وجمهور الحنفية على منهج الإمام الماتريدي، ومتقدمو الحنابلة على منهج الإمام أحمد بن حنبل، وبقيت بقية من علماء المذاهب الفقهية مترنحة ما بين اعتزال وتجسيم.

132. شرح العقيدة الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ (1، 281).

133. لواعم الأنوار البهية للإمام السفاريني (1، 73).

قائمة المصادر والمراجع

- الإبانة الكبرى، عبيد الله بن محمد ابن بطة، دار الراية، الرياض، ط 1، 1418.
- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394.
- الأصول من علم الأصول، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، 1426.
- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي بن يوسف الكرمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1406.
- الاعتقاد، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1401.
- إجماع العوام عن علم الكلام، محمد بن محمد الغزالي، دار المنهاج، جدة، ط 1، 1439.
- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحيى بن أبي الخير العمراني، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1419.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، محمد بن الطيب الباقلاني، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط 2، 1382.
- تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1413.
- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط 2، 1387.
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الإسفراييني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط 1، 1419.
- تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن ابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1404.
- تحريم النظر في كتب الكلام، موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة، عالم الكتب، الرياض، ط 1، 1410.
- تخریج العقيدة الطحاوية، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1414.
- التدمرية، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 6، 1421.
- تفسير الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، دار التدمرية، السعودية، ط 1، 1427.

- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1420.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384.
- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط 2، 1411.
- ذم التأويل، موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة، الدار السلفية، الكويت، ط 1، 1406.
- الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، مطبعة المدني، القاهرة، ط 6.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 1427.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد ابن العماد، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط 1، 1406.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله بن الحسن اللالكائي، دار طيبة، السعودية، ط 8، 1423.
- شرح السنة، الحسن بن علي البرهاري، لا توجد معلومات الطباعة والنشر.
- شرح صحيح البخاري، محمد بن صالح العثيمين، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط 1، 1428.
- شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، عبد الوهاب بن نصر البغدادي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط 1، 1424.
- شرح العقيدة الطحاوية، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار المودة، مصر.
- شرح العقيدة السفارينية، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض، ط 1، 1426.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط 5، 1419.

- شرح الكافية الشافية، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، عنيزة، ط 1، 1435.
- شرح متن لمعة الاعتقاد، عبد الله بن عبدالرحمن ابن جبرين، دار الصمعي، ط 1، 1416.
- شرح متن لمعة الاعتقاد، محمد بن صالح العثيمين، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط 3، 1415.
- شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبدالقوي الطوفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1407.
- الشريعة، محمد بن الحسين الآجري، دار الوطن، الرياض، ط 2، 1420.
- طبقات الحنابلة، محمد بن محمد ابن أبي يعلى الفراء، دار المعرفة، بيروت، 1371.
- طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شعبة، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1407.
- طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، هجر للنشر والتوزيع، ط 2، 1413.
- طبقات الشافعيين، إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة الثقافة الدينية، 1413.
- العقائد النسفية، عمر بن أحمد النسفي، دار الضياء الكويت، ط 1، 1434.
- العقيدة رواية أبي بكر الخلال، أحمد بن محمد بن حنبل، دار قتيبة، دمشق، ط 1، 1408.
- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، عبد الملك بن عبد الله الجويني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1412.
- العلو للعلي الغفار، محمد بن أحمد الذهبي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1416.
- الغيث الهامع، أحمد بن عبد الرحيم العراقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004.
- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ط 1، 1399.

- الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1977.
- الفقيه والمتفقه، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، الرياض، ط 2، 1421.
- لسان الميزان، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1390.
- لمعة الاعتقاد، موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ط 2، 1420.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدررة المضية في عقد الفرقة المرضية، محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة الخلفين، دمشق، ط 2، 1402.
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1416.
- المسامرة في شرح المسامرة، محمد بن محمد ابن أبي شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط 2، 2006.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البغوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1420.
- المعتمد في أصول الدين، أبو يعلى الفراء، دار المشرق، بيروت، 1974.
- المقدمات الممهديات، محمد بن أحمد بن رشد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1408.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1382.

المخرج من الخارجية

"دراسة تأصيلية في عقيدة أهل السنة والجماعة الأشعرية"

د. فاضل يونس حسين البدراني/ جامعة الموصل/ العراق

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

إن الخارجية لطخة سوداء في تاريخ الأمة الإسلامية وجبينها الوضاء، بحيث حذر منهم رسول الله ﷺ، وقد عمَّ خطرهم حياة المسلمين في جميع نواحي الحياة عقدياً وفقهياً وسلوكياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً وأمنياً، واليوم وقد برزوا في ثوب جديد بشعارات براقة خداعة ظاهرها الرحمة بخلاف باطنها، يغتر بها وبهم السذج من المغرر بهم، فاستلزم ذلك أن يتصدى لهم علماء الأمة الإسلامية المخلصون لبيان الحق وكشف الحقيقة، فكان هذا باعثاً للباحث ليكتب هذه الوريقات، وهو سبب وجيه وجدير بالقبول، كيف لا والموضوع من الأهمية بمكان؟! نخطره لم يغيب عن ساحة المسلمين اليوم في العديد من البلدان العربية؛ التي منها بلدنا الجريح العراق، وكذلك بلدنا الثاني ليبيا الأبية العزيزة.

على هذا الأساس بنيت فكرة البحث، باستعراض تأريخ التشريع الإسلامي السمع البعيد عن التطرف والغلو والجمود، الذي ازدان بشعار الأئمة الكرام: (رأيي هذا صواب يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب) (1). وهو كنز من كنوز الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة البقرة، الآية: 269. تدعو بصراحة إلى فسح المجال للغير حتى يقبل على الحوار الهادف البناء بغية الوصول إلى الحقيقة، وهي بشكل أو آخر قريب من تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، سورة سبأ، الآية: 24، بمعنى اتصاف أحد الفريقين من الموحدين والمشركين بأحد الأمرين: الثبات على الهدى كالجبال، أو الانغماس في دياجير الضلال، وهو عين الإنصاف، فكل من سمعه من موافق أو مخالف يلزمه القول للمخاطب به: إن صاحبك أنصفك حقاً (2).

(1) أبو حنيفة حياته وعصره، آراؤه وفقهه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ط 2: 205.

(2) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط 1: 8/ 268.

وفي مجال الدراسات السابقة نجد كتاب "الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين"، للدكتور أسامة السيد محمود الأزهرى، نشرت طبعته الثانية دار الفقيه، (1436هـ=2015م)، لكنه ضخيم كبير لا يجذب الجيل الحالي مطالعته، فهم يبحثون عن الأوراق المعدودة، وأحياناً يرغبون في المطويات، التي فيها خلاصة الخلاصات ورؤوس النقاط. ولا يغيب عن بالي أن أذكر أن الدكتور له أيضاً "الفهم المنير للآيات التي أخطأ في فهمها أهل التطرف والتكفير"، والذي نشرته الدار نفسها في العام نفسه، وهما من مصادر البحث المعتمدة. ومن البديهي أن البحث واجهته عقبات في مقدمتها قلة المصادر أو صعوبة الوصول إليها في عراقنا الذي عانى من الخارجية ولا يزال يئن من تلك الفتن والمحن والإحـن. وقد اعتمد البحث منهج الوصف والعرض والتحليل والمقارنة.

وتأطرت خطة البحث بمقدمة جمعت أركانها، تلاها تمهيد اعتنى بإيجاز غير مغل بشرح ما تضمنه العنوان من مفردتي المخرج والخارجية، دون تعرج على تعريف الأشعرية لأنها صلب الموضوع، فكان موضع دراستها في مباحث ثلاثة هي: الأول: مدخل إلى تأريخ التشريع الإسلامي في مطلبين أولهما: الخارجية والمذاهب، وثانيهما: نشوء المذاهب، وأما المبحث الثاني: ففي المخرج من الخارجية، في ثلاثة مطالب، أولها: الالتزام بالمذاهب الأربعة، وثانيها: الالتزام بعقيدة الأشعرية (والماتريدية)، وثالثها: الالتزام بالتصوف الإسلامي الخالص، المهذب للنفس والروح والمنور للعقل، والباعث على كسر شهوة النفس في حب الظهور القاصم للظهور، بحيث تصفو النفوس من كدوراتها ورعوناتها وهي صفة لازمة للخارجية لا تنفصم عنهم ولا تنفصل، ثم جاءت الخاتمة في نتائج البحث التي تخض عنها، مع تقديم المقترحات والتوصيات، لينتهي البحث بعدئذ بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

التمهيد: تعريف المخرج والخارجية:

يدعونا التمهيد أن نخوض في بيان ما انطوى عليه العنوان من المصطلحات، وهناك لفظا المخرج، والخارجية، في المطلبين الآتيين:

1. تعريف المخرج لغة واصطلاحاً:

المخرج بزنة مفعّل، اسم مكان ومصدر ميمي⁽¹⁾ من الفعل خرج، يخرج، خروجاً،

(1) وقد يكون اسم زمان، أو قد يكون اسم آلة أيضاً.

2. تعريف الخارجية لغة واصطلاحاً:

والخارجية في اللغة مشتقة من الفعل خَرَجَ، وهو المعنى المقابل للفعل دخل، جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ سورة النصر، الآية: 2، ويرى أستاذنا مصطفى البغا أن الخوارج جمع خارجة، أي طائفة مبتدعون خرجوا عن الدين القويم، وسموا بذلك لخروجهم على خيار المسلمين. فكل من خرج عن الجماعة، التي تعمل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة فهو خارجي⁽¹⁾. أما سبب تسميتهم بالخوارج فقد بين ذلك رسول الله ﷺ بنص قوله: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، ثم مات، مات ميتة جاهلية... ومن خرج من أمي على أمي، يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفني بذي عهدها، فليس مني)⁽²⁾. وعن حذيفة حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَا أَخْشَفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُبِّتَ بِهِجْتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِدْثًا لِلْإِسْلَامِ، غَيْرُهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشَّرْكِ، المَرْمِيُّ أَمْ الرَّامِيُّ؟ قَالَ: «بَلِ الرَّامِيُّ»⁽³⁾.

وقد عد الشيخ الدكتور أسامة الأزهرى هذا الحديث في غاية الأهمية وكأنه خارطة طريق للمسلمين في قادم الأيام من بعد وفاة النبي ﷺ، لوصفه حالة عجيبة ممن تمس للإسلام، تقلب في أطوار عجيبة، تبتدئ بالولع والشغف بالقرآن، فتبدو عليه أنواره، لكن تنتهي به وقد انغمس في التكفير، فهرع إلى حمل السلاح لسفك الدماء وإراقتها⁽⁴⁾. والتكفير جد خطير، قال حجة الإسلام الإمام الغزالي: ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم مسلم⁽⁵⁾. وسبب التسمية تحقيقاً فلخروجهم عن طاعة الخليفة الإمام وهو علي كرم الله وجهه، كما سميت المعتزلة بهذه التسمية لأن واصلاً بن عطاء كان من طلبة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه،

(1) ينظر: صحيح البخاري، بتحقيق: د. مصطفى ديب البغا: 1/ 2539. الهامش.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين: 3/ 1477 // 1848.

(3) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: 7/ 220؛ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: 1/ 282. وقد حسن

إسناده البزار، وجوده ابن كثير في تفسيره؛ تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة: 3/ 509.

(4) الفهم المنير للآيات التي أخطأ في فهمها أهل التطرف والتكفير، أسامة الأزهرى: 22.

(5) المنشور في القواعد الفقهية، الزركشي: 3/ 87-88.

فاعتزل مجلس الحسن البصري يقول: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فقال الحسن: "اعتزلنا واصل". فسموا بالمعتزلة، أما هم فسموا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد⁽¹⁾. وتعد الخارجية من أخطر ما يفرزه المجتمع الإسلامي باستمرار، لأن أقوالها وأفعالها قد تلتبس حيث تبدو في ظاهرها أرقى تطبيق للإسلام، لكن لا خير فيه، إذ لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء - كما يرى بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، فالاستقامة هي الحد الوسط الذي اختاره أهل السنة والجماعة، ولكن ومما يؤسف له تستر بعض أفكار الخوارج والوهابية بستر أهل السنة والجماعة⁽²⁾، لذلك كان من أهم واجبات دعاة الإسلام أن ينبهوا عليها. ولا بد من الإشارة إلى أن المنهج الخارجي يقوم على المسارعة في التكفير⁽³⁾.

المبحث الأول: مدخل إلى تأريخ التشريع الإسلامي:

المطلب الأول: الخارجية والمذاهب:

1. العهد النبوي الشريف:

ورد أن علياً -رضي الله عنه - وهو باليمن - بعث إلى النبي ﷺ بذهبية، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعيينة الفزاري، وزيد الطائي، وعلقمة العامري، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صنديد أهل نجد ويدعنا، قال: «إنما أتألفهم». فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، نأتى الجبين، كثر اللحية مخلوق، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: «من يطع الله إذا عصيت؟ أيا مني الله علي أهل الأرض فلا تأمنوني». فسأل رجل قتله - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولي قال: «إن من ضئضئ هذا، أو: في عقب هذا قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»⁽⁴⁾. والحديث يرينا دوامهم ومواظبتهم على تلاوة القرآن ليل نهار، وقال علي رضي

(1) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، دار الفكر - بيروت، 1414هـ: 1/ 102.

(2) اللغات، النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط 5، 2008م: 36.

(3) ينظر: الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط 1، 1414هـ: 1/ 450.

(4) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري؛ صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قول الله عز وجل... الحاقة: [6]:

33 / 1219 // رقم 3166؛ صحيح مسلم، في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم: رقم 1064. قال البغاف في

هامشه: (ضئضئ) هو الأصل والعقب، زاد في رواية أخرى: ناشر الجبهة، مشمر الإزار.

الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم، حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة»⁽¹⁾. فضلا عن ذلك صحَّ عن النبي ﷺ أنه أُنذر بخارجه تخرج من طائفتين من أمة، يقتلها أولى الطائفتين بالحق، فكان علي رضي الله عنه قاتل تلك الطائفة (أي الخوارج)⁽²⁾.

2. عهد الخلفاء الراشدين:

لقد عاش الصحابة ولا سيما الخلفاء المهديين -رضوان الله عليهم- في شمس النبوة ونهار الإسلام المشرق الوضاء، فلم تحتج نفوسهم الزكية إلى تفسير ولا تأويل، ولا توضيح ولا تعليل، فضلا عن سليقتهم العربية، ونقاء صدورهم، وإخلاصهم لدين الله، وصدقهم مع الله. ولما وجد في أواخر أيامهم الحديث عن البدع والأهواء وقفوا جبلاً شامخاً بوجه أرباب الفتنة، حتى قالت أمنا؛ أم سلمة؛ زوج رسول الله ﷺ لما سئلت عن الاستواء فيما رواه الحسن البصري عن أمه عنها أنها قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عنه، فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، وعلى الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم⁽³⁾، وكذلك سئل عنه مالك فأجاب بمثل ذلك وأضاف: من عاد إلى هذا السؤال أضرب عنقه. أولئك الرجال من الصحابة والخلفاء الراشدين ساروا بسيرة خير الخلق ﷺ لا يجيدون عن السنة، ويجهلون فيما لا نص فيه مما تحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم.

3. عهد أمير المؤمنين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب:

إلى أن وصل الأمر إلى خاتم الخلفاء سيدنا علي، فخرج عليه من كان من جنده من الشعوبيين فرسا كانوا أو حديثي دخول بالإسلام، خرجوا عليه لأنه رضي بتحكيم القرآن لما رفعت المصاحف على رؤوس الأسنة في معركة صفين. وطالبوه رضي الله عنه أن يقبل التحكيم زعما منهم أن كتاب الله ينبغي أن يحترم، فلما قبل قاطعوه وخرجوا وعادوه.

(1) متفق عليه من حديث قال علي رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: علامات النبوة في الإسلام:

3/ 1321 // رقم 3415؛ صحيح مسلم، في الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج: رقم 1066.

(2) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم: 2/ 745 // رقم 1064. عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق».

(3) فتح الباري، العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379: 13/ 406.

عن عبيد الله بن أبي رافع، مولى رسول الله ﷺ أن الحورية [الخوارج] لما خرجت، وهو مع علي، قالوا: لا حكم إلا لله. قال علي: "كلمة حق أريد بها باطل"، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، "يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز هذا منهم، (وأشار إلى حلقه)، من أبغض خلق الله إليه منهم أسود؛ إحدى يديه طُي شاة⁽¹⁾، أو حلقة ثدي". فلما قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا. فنظروا فلم يجدوا شيئاً، فقال: ارجعوا، فوالله! ما كذبت ولا كذبت، مرتين أو ثلاثاً، ثم وجدوه في خربة، فأتوا به حتى وضعوه بين يديه، قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم⁽²⁾. وكان الإمام علي يرى أن أمر الأمة لا ينتظم إلا بوجود أمير مهما يكن هذا الأمير؛ حيث لما سمع قوماً يقولون لا حكم إلا لله: قال: «نعم لا حكم إلا لله، ولكن لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل فيه المؤمن ويستمتع فيه الكافر ويبلغ الله فيها الأجل»، ونُقِل نحوه عن أبي بكر⁽³⁾ رضي الله عنه.

4. صفات الخارجية:

بأوجز عبارة تؤكد أن الخوارج اخترعوا وابتدعوا لأنفسهم معتقداً وديناً جديداً؛ يمتاز بكثرة الصلاة والصيام والقيام وقراءة القرآن، نعم صلوا حتى صارت ركبهم كركب المعزى، وصاموا حتى تشدقت شفاههم من الظمأ، وقرأوا القرآن حتى سمع لهم دوي كدوي النحل، لكن العجب عندهم القتل المهرج والمرج. بل شاع عنهم أعجب القصص وأغربها، فمنها: خرج أحد عمال سيدنا علي رضي الله عنه عن طاعته واسمه: "الخريت بن راشد"، معلنا عليه الحرب، وفي مسيرهم وجدوا "زاذان فروخ"، فسألوه: أمسلم أنت أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم. فلما سألوه عن علي فقال: إنه أمير المؤمنين، وسيد البشر، فقالوا له: كفرت يا عدو الله، ثم حملوا عليه، فقطعوه، ووجدوا معه ذمياً، فقالوا: ما أنت؟ قال: رجل من أهل الذمة، قالوا: أما هذا فلا سبيل عليه⁽⁴⁾. وحين بلغ علياً رضي الله عنه هذا الموقف الخاطيء منهم، أجاب عن كتاب عامله بجواب جاء فيه: (أولئك قوم استهواهم

(1) ضرع الشاة من باب المجاز، حيث أصله للسباع والكلاب. ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: 174 / 7؛

الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، السيوطي: 168 / 3.

(2) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د. ط، 1374هـ: 2 / 749 // رقم 1066.

(3) تعدد الخلفاء ووحدة الأمة فقهاً وتاريخاً ومستقبلاً، د. محمد خلدون، جامعة دمشق، 1431هـ: 43.

(4) ينظر: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (وصلة تاريخ الطبري، لعريب بن سعد القرطبي): 117 / 5.

الشیطان، فضلوا)⁽¹⁾. ومن عجیب أمرهم ما یأتی أنهم حين خرجوا من الكوفة منابذین لعلی -رضی الله عنه- إذا لقوا فی طریقهم مسلماً، وكافراً قتلوا المسلم وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم في الذمي⁽²⁾. وقد استراب من موقفهم هذا حتى من لا يدين بالإسلام من النصارى وغيرهم، فقد حدث أثناء سيرهم إلى النهروان أن مروا بنخل فساموا رجلاً نصرانياً جنى نخلة فوهبها لهم، ولكنهم استعفوا عن أكلها بالمجان وقالوا: ما كنا نأخذها إلا بثمن فتعجب النصراني وقال لهم: "ما أعجب هذا! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب"، ولا تقبلون مني جني نخلة إلا بثمن^{(3)؟!؟} ويذكر ابن الأثير من العجائب أنهم نزلوا تحت نخل مواقير⁽⁴⁾ فسقطت منه رطبة فوضعها أحدهم في فيه، فقال آخر: أخذتها بغير حلها وبغير ثمن؟! فألقاها، ثم مرَّ بهم خنزير لأهل الذمة، فضربه أحدهم بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه. ويصف المبرد بعض تلك المواقف الخاطئة بما يحكيه عن واصل بن واصل بن عطاء شيخ المعتزلة حينما واجه هو وصحبه الخوارج؛ فقال واصل لمن معه: اعتزلوا ودعوني وإياهم، نفرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم، قال: فامضوا مصاحبين، فإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة التوبة: الآية: 6، فأبلغونا مأمننا، فقالوا: ذلك لكم، وصاروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن⁽⁵⁾.

ومن هنا يتبين لنا أن أحمد أمين كان محققاً حين وصفهم بأنهم "محدودو النظر، ضيقوا الفكر في نظرهم إلى مخالفهم"⁽⁶⁾.

أبو حنيفة والخوارج في المناظرة النعمانية الخارجية:

ولأجل أن نطلع على حجم الكارثة ومدى الخطورة المستفحلة التي قوضت مضامع الناس يومئذ لا سيما العلماء والأئمة، يحسن أن نشير هنا إلى ما وقع على الإمام الأعظم

(1) م. ن.

(2) الكوكب الوهاج، الأرمي العلوي الهري، دار طوق النجاة، ط1، 1430 هـ: 248 / 12.

(3) العقد الفريد، ابن عبد ربه: 2 / 234؛ موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، مجموعة من الباحثين: 5 / 38.

(4) مواقير جمع موقرة، أي كثير الحمل، يقال: أوقرت النخلة: كثرت حملها. ينظر: تاج العروس: 14 / 375.

(5) الكامل في اللغة والأدب، المبرد: 3 / 122؛ الأذكياء، ابن الجوزي، مكتبة الغزالي: 120 - 121.

(6) ضحى الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م: 945.

أبي حنيفة النعمان من قصة غريبة مع الخارجية (الخوارج)، حيث جاءوه لينظروه لما علموا أنه لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب، فقالوا: هاتان جنازتان على باب المسجد، أما إحداهما فلرجل شرب الخمر فمات غرقاً في الخمر، والأخرى امرأة زنت حتى إذا أيقنت بالحمل قتلت نفسها. فقال لهم أبو حنيفة: من أي المملل كنا؟ أم من اليهود؟ قالوا: لا، أفمن النصارى؟ قالوا: لا، قال: أفمن المجوس؟ قالوا: لا، قال: من أي المملل كنا؟ قالوا: من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال: فأخبروني عن الشهادة كم هي من الإيمان؟ قلت أم ربع... خمس؟ قالوا: إن الإيمان لا يكون ثلثاً ولا رباعاً ولا خمساً، قال: فكم هي من الإيمان؟ قالوا: الإيمان كله، قال: فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين؟ فقالوا: دعنا عنك! أم من أهل الجنة هما أم من أهل النار؟ قال: أما إذا أبيتم، فإني أقول فيهما ما قال نبي الله إبراهيم في قوم كانوا أعظم جرماً منهم: ﴿رَبِّ إِنِّهِمْ أَضَلُّنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، سورة إبراهيم: الآية: 36، وأقول فيهما ما قال نبي الله عيسى في قوم كانوا أعظم جرماً منهما: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، سورة المائدة، الآية: 18، وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ سورة الشعراء، الآيات: 111-113، وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، سورة هود: الآية: 31، فألقوا السلاح وقالوا: تبرأنا من كل دين كفاً عليه، وندين الله بدينك فقد آتاك الله فضلاً وحكمةً وعلماً⁽¹⁾.

المطلب الثاني: نشأة المذاهب الإسلامية:

يعود تاريخ نشأة المذاهب الفقهية إلى عصر الصحابة، وهو العصر الذي يلي وفاة رسول الله ﷺ مباشرة. فقد كان فقهاء الصحابة، على الرغم من اتفاقهم في معرفة أكثر الأحكام الفقهية، يختلفون في فهم بعض يسير منها. فكانت الآراء التي يختص بها أحدهم تشكل مذهبه الفقهي الذي ينفرد به عن الآخرين.

(1) مناقب أبي حنيفة: 108-109؛ أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، الخميس: 13؛ موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد المغراوي: 2/ 332 - 333؛ موسوعة القصص (قصص جميلة)، إعداد: الأستاذ الشيخ ياسين طاهر الأغا: 7/ 40؛ مختارات ولطائف، عبد الملك القاسم: 165.

1. تحفيز الرسول لأصحابه بالاجتهاد وتدريبهم عليه:

نشأت المذاهب الإسلامية الفقهية كضرورة لا بد منها في فهم النصوص القرآنية والحديثية، وظهرت بوادرها لدى الصحابة رضوان الله عليهم، وتجلي ذلك يوم بني قريظة: فعن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدا منهم⁽¹⁾. وفي هذا دليل على التوسيع للأمة وعدم التضييق، قال الإمام النووي: (أما اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في المبادرة بالصلاة عند ضيق وقتها وتأخيرها فسببه: أن أدلة الشرع تعارضت عندهم؛ بأن الصلاة مأمور بها في الوقت، مع أن المفهوم من قول النبي ﷺ لا يصلين أحد الظهر أو العصر إلا في بني قريظة المبادرة بالذهاب إليهم، وأن لا يشتغل عنه بشيء، لا أن تأخير الصلاة مقصود في نفسه من حيث إنه تأخير، فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظرا إلى المعنى لا إلى اللفظ، فصلوا حين خافوا فوت الوقت، وأخذ آخرون بظاهر اللفظ وحقيقته فأخروها، ولم يعنف النبي ﷺ واحدا من الفريقين لأنهم مجتهدون، ففيه دلالة لمن يقول بالمفهوم والقياس ومراعاة المعنى، ولمن يقول بالظاهر أيضا، وفيه أنه لا يعنف المجتهد فيما فعله باجتهاده إذا بذل وسعه في الاجتهاد، وقد يستدل به على أن كل مجتهد مصيب)⁽²⁾.

بل كان ﷺ يبحث أصحابه وهم تلاميذه إلى الاجتهاد، في أمثلة كثيرة منها: الرجل الذي أخبر النبي ﷺ أن أباه أدركه الحج وهو شيخ كبير لا يثبت على راحلته، فإن شده خشى أن يموت، ثم سأله: أفحج عنه؟ قال: «أرأيت لو كان عليه دين فقضيته أكان مجزيا؟» قال: نعم، قال: «فحج عن أبيك»⁽³⁾. وامرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟» قالت: نعم، فقال: «اقضوا الله الذي له، فإن الله أحق بالوفاء»⁽⁴⁾. وقصة الأعرابي الذي أتى النبي ﷺ، فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود، وإني أنكرته،

(1) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، مسلم: رقم 1770، لكن ذكر الظهر، البخاري، كتاب الجمعة، باب: صلاة الطالب والمطلوب، بحاشية: المحدث أحمد علي السهارنفوري، تح: تقي الدين الندوي، مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، الهند، ط1، 1432هـ: 209/8.

(2) المنهاج، النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2: 98/12.

(3) جمع الجوامع، السيوطي، الأزهر الشريف، القاهرة، ط2، 1426هـ: من حديث ابن عباس.

(4) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، مكتبة الرشد - الرياض، ط2، 1423هـ: 361/10.

فقال له النبي ﷺ: «هل لك من إبل»؟ قال: نعم، قال: «فما ألوانها»؟ قال: حمر، قال: «هل فيها من أورك»؟ قال: إن فيها لورقا، قال: «فأنى ترى ذلك جاءها»؟ قال: يا رسول الله، عرق نزعها، قال: «ولعل هذا عرق نزعه». قال ابن بطل وهو يشرح هذا الحديث: قوله: من شبه أصلا معلوما بأصل مبین، فبین ليفهم السائل. هذا هو القياس بعينه⁽¹⁾. فالذي يتأمل في فعله ﷺ مع أولئك، أيقن أنه ﷺ رغب في تعليمهم الاجتهاد والقياس.

2. استعراض المذاهب لدى العلامة ابن خلدون:

وصف العلامة ابن خلدون الفقه بالكمال الذي صار صناعة وعلما، فبرز اسم الفقهاء والعلماء عوضا عن القراء، وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين (أو مدرستين): طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز. وبسبب قلة الحديث في العراق، استكثر أهله من القياس، ففهموا فيه فقيلا لهم أهل الرأي، لكن أنكر القياس أهل الظاهر الذين كان إمامهم داود بن عليّ وابنه وأصحابهما. وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة؛ وشدّ الخوارج ولم يعتن الجمهور بمذاهبهم بل أنكروه وقدحوا فيه، حتى اندرست الظاهرية بسبب ذلك الإنكار، مع انقراض أئمتهم، وزوال أثرهم، فلم يبق إلا في بطون الكتب المجلدة⁽²⁾. لكن صار إليه ابن حزم (ت 456هـ) الأندلسي، فبرع فيه ومهر، وخالف إمامهم داود، ولحده فيه وسلطة لسان تعرّض للكثير من أئمة المسلمين، فنقموا عليه، واستهجنوا مذهبه وأنكروه، وتركوا كتبه، وحظروا بيعها في الأسواق، بل تمزقت أحيانا، بل أحرقت في ساحة أشبيلية أمام الناس وعلى مسمع ومرأى منهم. ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز. وقد نشأت مذاهب كثيرة تفرعت منهما، كمذهب الأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان ابن عيينة والليث ابن سعد. لكنها انقرضت وبادت.

3. فضائل الأئمة الأربعة:

عاش الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت (80-150هـ)⁽³⁾. في ذكريات بيت النبوة ونور الإسلام في نبعه الصافي زمانا ومكانا، حيث لم يجر الكثير من التحوير والتبديل والتغيير في أمور المسلمين عموما، وهو أول الأئمة الأربعة، وهو التابعي الوحيد

(1) م. ن: 10 / 360-361.

(2) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المسمى تاريخ ابن خلدون: 1/564.

(3) ومثله جدنا الإمام جعفر بن محمد الصادق (80-148) هـ، اللذان تعاصرا ولربما التقيا.

بينهم بالاتفاق بل هو من أعيانهم⁽¹⁾، وقد لقي جماعة من صحابة رسول الله ﷺ⁽²⁾، وقد توفي -رحمه الله- فولد الشافعي في العام نفسه، وقيل في اليوم نفسه يوم الثلاثاء⁽³⁾، ولقي من الصحابة نفراً، وأخذ منهم مباشرة أو عن طريق تلاميذهم، بل هناك ما يشير إلى أنه لقي علياً -كرم الله وجهه-، حيث إن أباه ثابتاً ذهب إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، وقد رأى الناس تلك البركة الحاصلة من دعاء علي له في فقهه⁽⁴⁾. وذكر ابن حجر الهيثمي مناقب الإمام أبي حنيفة بأنه الإمام الأعظم فقيه أهل العراق، ومن أكابر التابعين المقدم على الأئمة المجتهدين الثلاثة تبركاً به، لعل مرتبته، ووفور علمه، وورعه، وزهده، وتحليته بالعلوم الباطنة فضلاً عن الظاهرة بما فاق فيه أهل عصره، وفاز بحسن الثناء عليه، وإذاعة ذكره⁽⁵⁾. وقد عاصره الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) إمام دار الهجرة صاحب الموطأ، وحصل بينهما لقاء. قال العلامة ابن خلدون: أمّا أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق، شهد له بذلك أهل جلده وخصوصاً الإمامان مالك والشافعي⁽⁶⁾.

وينبغي أن نعلم أن أبا حنيفة اختط القياس مع الفقه الافتراضي منهجاً له، ومال إلى القياس لسببين هما: بعده عن دار الحديث حيث قال ابن شهاب الزهري: (يُخْرَجُ الْحَدِيثُ مِنْ عِنْدِنَا شِبْرًا، فَيَعُودُ فِي الْعِرَاقِ ذِرَاعًا)⁽⁷⁾، وسبب ثان هو طبيعة سكناه التي فرضت عليه الاجتهاد في قضايا تستجد ليس فيها نصوص لاختلاط المشرقين خاصة أهل العراق بالفرس والهنود والروم أهل الحضارات والمدنية.

ومن الضروري أن نعلم أن الخلافات الفقهية التي تشكل العمود الفقري في تلك

(1) بل إن الأئمة؛ الأوزاعي، والسفيانيين ليسوا كذلك، فاهم من التابعين.

(2) الخيرات الحسان: 63؛ 80.

(3) وقد اتخذ العلماء عطلة لا يدرسون فيه طلبتهم إجلالاً للإمام الأعظم، وأضاف شيخنا العلامة د. أكرم عبد الوهاب في كتابه "الإمداد شرح منظومة الإسناد" لذلك علة أخرى وحكمة ثانية، ألا وهي: فسح المجال للطلبة أن يراجعوا ما تعلموه فيما سبق أو يستنسخوا ما يحتاجون إليه، ويثبتوا بالتدوين في دفاترهم.

(4) مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث، النعماني: 64؛ الدور المضية في تراجم الحنفية، الكحلّائي: 1/ 386.

(5) ينظر: م. ن.

(6) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: 1/ 564.

(7) قبول الأخبار ومعرفة الرجال، الكعبي: 2/ 162؛ المدخل إلى علم السنن، البيهقي: 1/ 355 // 755؛ سير أعلام

النبلاء، الذهبي: 5/ 344؛ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، السباعي: 160؛ السنة قبل التدوين، الخطيب: 1/

المذاهب، كانت خلافات تعاونية مبررة، ليس فيها خصومات أو شقاقات فكرية مجرّمة. ومعنى هذا أن نسيج الوحدة الاسلامية إنما تلاقت سداه ولحمته من هذه الخلافات التعاونية.

4. سر انتشار المذهب الحنفي والمالكي:

إن مذهب الإمام أبا حنيفة قد دونه تلاميذه بإملائه أحياناً، عندما دونوا آراءه وفتاويه بإشرافه ومراجعته، حيث كان يراجع أحياناً ما دونوه للإقرار أو التغيير⁽¹⁾. بل إن مذهبه دون بالشورى، حيث كان يطرح مسألة بعد مسألة، يقبلها لسمع ما لدى تلاميذه، ثم ليقول ما لديه هو، ويحاوهم مناظراً مناظرة الند للند، ليستقر قول من الأقوال في المسألة ثم بعدئذ يثبتها في الأصول تلميذه الملازم له أبو يوسف الأنصاري، وهكذا ثبتت أصول المذهب كلها⁽²⁾. بل إنه -رحمه الله تعالى- لم يمت حتى تصفح وطالع ما وضعه من المذهب متأملاً، مهذباً مقرراً، مصححاً مقوماً معدلاً...، ليس فيه وجوه من الأقوال، ولا اختلاف الأحوال، بل قطع وجزم فيه الجواب، وتحرى فيه عين الحقيقة والصواب⁽³⁾.

وأما سر انتشار المذهب المالكي فذلك واضح مما يضمه المسلمون من محبة صادقة لإمام دار الهجرة، الإمام الجليل مالك بن أنس، الذين أحبوه كما أحبوا قراءة الإمام نافع المدني، حبا بالمدينة المنورة وحبا بساكنها عليه الصلاة والسلام. وأما عن فضل مالك فيقول الإمام المجتهد عبد الله بن وهب (ت 197هـ) الذي لقي (360) عالماً: (لولا أن الله أنقذني بمالك والليث لضللت. فقيل له: كيف ذلك؟ قال: أكثرت من الحديث فخيرني. فكنت أعرض ذلك على مالك والليث، فيقولان لي: خذ هذا ودع هذا)⁽⁴⁾. وقال الإمام الأوزاعي: كما نسمع الحديث، فعرضه على أصحابنا، كما يعرض الدرهم الزائف، فما عرفوا منه أخذنا به، وما أنكروا تركنا⁽⁵⁾.

(1) أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه: 211 - 212.

(2) ينظر: مناقب أبي حنيفة: 2 / 57، 492؛ شرح صحيح البخاري: 213.

(3) ينظر: م. ن: 2 / 57.

(4) جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، د. قاسم علي سعد: 2 / 777. والإمام بن وهب لقي (360) عالماً.

(5) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي: 323.

5. النظام الفرقي في المشاريع العلمية الفقهية (الاجتهاد الجماعي):

من ينظر في مذهبه يجد أنه جهد جماعي في صورة عمل فرقي وهو ما يسمى اليوم بـ (استاف staff)، وليس جهداً منفرداً قابلاً لاحتمالات الخطأ المتكرر، والسهو والغفلة، ذلك أن الرأيين خير من رأي واحد، والثلاثة خير من اثنين، بل إن "يد الله مع الجماعة"⁽¹⁾. إن الدليل على جماعية اجتهاده قول وكيع، فإن رجلاً عنده قال: أخطأ أبو حنيفة، فقال وكيع: كيف يقدر أبو حنيفة يخطئ ومعه مثل أبي يوسف، وزفر في قياسهما، ومثل يحيى بن أبي زائدة، وحفص بن غياث، وحبان، ومندل في حفظهم الحديث، والقاسم بن معن في معرفته باللغة العربية، وداود الطائي، وفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما؟ من كان هؤلاء جلساءه لم يكذب يخطئ؛ لأنه إن أخطأ ردوه⁽²⁾. أي: كيف يخطئ وعنده أئمة الفقهاء، وأئمة الحديث، وأئمة اللغة، وأئمة الزهد والورع⁽³⁾!؟

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي (150-204هـ) رحمهما الله تعالى. رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم، وبرز طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب، وخالف مالكا رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه⁽⁴⁾. وقد دون كتابيه الفقهي "الأم"، والأصولي "الرسالة"، وهو أول كتاب وصلنا في أصول الفقه، وكان الإمام أبو يوسف قبله ألف كتاباً فيه لكنه لم يصلنا، فضلاً عن ذلك دون تلاميذ الشافعي مذهبه ونقحوه بل إن الإمام سأل الله تعالى أن ينسب مذهبه إلى أحد طلبته، واستجيب له في عمل الإمام المزني بخدمته العظيمة في المذهب.

والشافعي حامل لواء السنة والمجتهد في الفقه، له اجتهادان؛ فقه العراق وفقه مصر، لأن الحاجة ألجأته إلى النظر من جديد بمنظار ومعيار جديدين في أصوله وفقهه، ليستنبط من روح الشريعة مادة الحياة المتطورة الخاضعة لثوابت الإسلام الحنيف، والتابعة من

(1) حديث رواه الطبراني ورجاله ثقات على رأي الهيتمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 5 / 221 // 9118؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: 6 / 459 // 10004؛ ورواه الترمذي بسنده عن ابن عباس، وقال حسن غريب [حسن لغوي، ضعيف لذاته]. ينظر: جامع الأحاديث، السيوطي، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف: الشيخ الدكتور علي جمعة (مفتي الديار المصرية الأسبق): 24 / 97 // رقم 26711.

(2) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تح: د. بشار عواد معروف: 16 / 395 // 7510.

(3) ينظر: الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، ابن حجر الهيتمي: 81.

(4) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: 1 / 564.

قواعده الكلية المعروفة وأصوله المشهورة لدى العلماء الأعلام، والمولودة من رحم الشريعة الطاهرة. إن الإمام الشافعي هو حلقة الوصل الجامعة بين المدرستين، وكذلك بين الإمام أبي حنيفة والإمام مالك، والإمام أحمد من طرف والإمامين أبي حنيفة ومالك من الطرف الآخر.

ثم جاء من بعدهما أحمد بن حنبل (164-241هـ) -رحمه الله-. وكان من عليّة المحدثين - كما يرى ابن خلدون- وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر. ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم. وسدّ الناس باب الخلاف وطرقه، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما بن حنبل فمقلّده قليل: لبعده مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض⁽¹⁾.

6. الترابط بين المذاهب الأربعة كالروح في الجسد:

قلنا إن الإمام أبا حنيفة عاصره الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) وحصل بينهما لقاء، ومالك شيخ الإمام الشافعي (ت 204هـ)، والشافعي شيخ الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ)⁽²⁾، والشافعي من تلاميذ الإمام محمد ابن الحسن الشيباني (ت 185هـ)؛ تلميذ أبي حنيفة، فيكون أبو حنيفة شيخا له وأستاذا بالواسطة، وهو القائل: الحمد لله الذي أعانني على الفقه بمحمد بن الحسن⁽³⁾. فكلهم رضي الله عنهم عاشوا في خير القرون: (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)⁽⁴⁾. فهم سلسلة مباركة متعاقبة مترابطة متماسكة، بينهم المودة والأخوة، والإخلاص لدين الله، وهذا ما نراه بوضوح في ثناء أئمة المذاهب الأربعة بعضهم على بعض، وصلة الود والتقدير المتبادلين بين الإمام الشافعي والإمام أحمد، وإعجاب كل منهما بالآخر، وثناء الإمام الشافعي على الإمام الأعظم أبي حنيفة وتلميذيه محمد وأبي يوسف، وقول الشافعي عن الإمام مالك: "مالك معلبي وعنه

(1) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: 1/ 566.

(2) الرفعة في بعض متون فقه المذاهب الأربعة، جمعه: د. توفيق ضمرة: ٢٤؛ أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه:

74-73.

(3) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، دار الفكر، بيروت، ط1، ١٤٢٢هـ: 1/ 29.

(4) متفق عليه من حديث عمران بن حصين، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور: 2/

938 // رقم 2508؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل الصحابة: 4/ 1963 // رقم 2533.

أخذنا العلم"، وهذا بخلاف من خالفهم الذين ليس لهم سوى مخالفة عن الجماعة وبعثرة الأوراق، وهناك سبب ثان يعزز مكانة المذاهب الأربعة، ألا وهو أن فقهم وصلنا مدونا مخدوما من طلبتهم.

7. اختلاف منهج الإمام أحمد الأصولية:

ذكرنا من قبل رأي ابن خلدون في اعتماد الإمام أحمد على السنة اعتمادا كبيرا، فكان -رحمه الله- ما كاد يجد حديثاً جديداً بلغه حتى عمل به فوراً دون تردد ملتزماً في ذلك أصوله المعتمدة، وهذا سبب أنتج لديه أكثر من فتوى وولد أقوال عدة في المسألة الواحدة، لذلك كان أحياناً يفتي بفتاوى قد تبلغ العشرة في الموضوع الواحد، ثم إنه -رحمه الله- قد منع تلامذته أن يكتبوا عنه غير الحديث، فنع بذلك تدوين مذهبه الفقهي بخلاف ما كان عليه من قبله، لأنه (كان يكره كتابة العلوم الإسلامية ما عدا الحديث، حتى لا يكون شيء من المصادر الإسلامية مدوناً غير الكتاب والسنة، فلا يدون فقه أي مذهب)⁽¹⁾.

8. تعصب غلاة الحنابلة المتشددين:

صار قول الإمام أحمد أرضاً خصبة لعبث العابثين، من تلامذته غير المخلصين الذين أغراهم كل قول مخالف وغريب، لكن لم تظهر عليهم آثارها إلا بعد وفاة الإمام، لذا نقلوا عنه ما لم يقل، أو لم تعه عقولهم، وشرقوا وغربوا في المذهب، بل إنهم شأنوا هذا المذهب شيئاً قبيحاً لا يُغسل إلى يوم القيامة⁽²⁾، شينا لا يغسل بماء البحار⁽³⁾، ويخاطب ابن الجوزي⁽⁴⁾ أبا عبد الله بن حامد، وصاحبه القاضي وهو أبو يعلى، وابن الزاغوني، الذين تكلموا في الأصول بما لا يصلح، وألفوا كتباً مشينة للمذهب، بحيث نزلوا إلى مرتبة العوام، قائلاً: (لقد كسيتم هذا المذهب شينا قبيحاً، حتى صار لا يقال حنبلي إلا مجسم)⁽⁵⁾.

وظهر بعد أكثر من قرنين ابن تيمية الذي خالف إجماع الأمة في كثير من الأمور، بل إنه خطأً عمر وعلياً رضي الله عنهما، قال في "منهاج السنة النبوية" ما نصه حرفياً: (وعمر

(1) تراث الإنسانية، بأقلام الصفوة الممتازة من الأدباء والكتاب والعلماء، دار الرشد الحديثة: 190.

(2) نقله الإمام ابن الجوزي عن أبي محمد التيمي. ينظر: دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، ابن الجوزي: 102.

(3) وهذا منقول عن ابن الأثير وأبي الفداء. ينظر: م. ن: 102.

(4) ومن ابن الجوزي في مقاييس عصرنا؟! إنه بكل اختصار القائل: إذا صعد أحد على القمر فكيف يصلي؟! قال:

يتوجه إلى الأرض حيث فيها الكعبة بيت الله قبله المسلمين. ذكره عمر عبد الكافي، قناة المحبة يوم السبت 6/5/

2017م، الساعة 1230؛ بل إنه العالم الذي حصل ونتج من برائة أفلامه حطب كثير كفى لتسخين الماء الذي

غسل به عند موته، بل زاد. قيمة الزمن عند العلماء، عبد الفتاح أبو غدة: 63.

(5) م. ن: 97-99.

بن الخطاب أقل خطأ من عليّ، وقد جمع العلماء مسائل الفقه التي ضعف فيها قول أحدهما فوجدوا الضعيف في أقوال عليّ أكثر⁽¹⁾.

ثم جاء الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله الذي يعادل ويساوي الفقه الحنفي بالإنجيل بقوله: إن عيسى عليه السلام يحكم بشرعنا، ويقضي بالكتاب والسنة لا بغيرهما من الإنجيل أو الفقه الحنفي ونحوه⁽²⁾! والألباني لم يعرف له شيخ، ولا تلقى العلم من أحد، وصار له دعاة لا يقيمون وزنا لتراث الأمة في الحديث رواية ودراية، بحيث صاروا يحذفون أسماء جميع العلماء من المحدثين في رواية الحديث وتخريجه ونقده، ويكتفون بذكر "صححه الألباني"، والحق أن بركة العلم في نسبته إلى أهله، فإذا أهمل جهد المئات والآلاف من المحدثين، ونسبت كل جهودهم إلى رجل لم يبحث رتبة أمام عالم معتبر معروف، فأبي ميزان هذا، وأي إنصاف!؟

المبحث الثاني: المخرج من الخارجية

يوجد في الإسلام ما يسمى بالتكامل المعرفي، وتظافر العلوم والمعارف والفنون لإسعاد البشر، والإسلام يرفع حقوق الإنسان من حيث جسده وعقله وروحه، فيربي وينمي هذه المهارات كلها جميعاً، فالتربية العقلية بالعلوم والمعارف بعلمي الفقه والكلام، والتربية الروحية بالتصوف، والتربية البدنية يشارك فيها الفقه في الصلاة والحج والتصوف في حلقات الذكر.

المطلب الأول: المخرج الأول في الالتزام بالمذاهب الأربعة:

إن أي باحث لن يجد أية مشقة في الاهتداء إلى هذا المخرج بعد اطلاعه على تاريخ التشريع الإسلامي الذي مر ذكره مفصلاً غاية التفصيل، وبعد أن أيقن أن الأئمة ما كانوا مبتدعين مذهباً، ولا أتوا بجديد في الدين كما يروج له من المخالفين، ومن أعداء الإسلام، بل إنما جمعوا اجتهادات الصحابة وبينوا أصولها، وكيفية استنباطها.

وقد ذكرنا الخوارج الذين خرجوا من جيش سيدنا عليّ، بسبب سطحية في الفهم مع تسرع في الحكم وخطف الأحكام من النصوص خطفاً بلا تأمل ولا مقارنة، نتيجة لترك

(1) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية: 4 / 183.

(2) كشف النقاب عما في «كلمات» أبي غدة من الأباطيل والافتراءات، محمد ناصر الدين الألباني، ط2، 1398 هـ:

93، 95. وتجد هذا القول في كتبه الأخرى البخاري كمختصره لصحبي البخاري ومسلم.

المحكيات واتباع المتشابهات المحتملات، التي جعلتهم يسقطون في ورطة التكفير؛ تكفير من سواهم من المسلمين، بل على رأسهم سيدنا علي رضي الله عنه، لذا قاتلوه بالاستناد إلى أعجب الأفهام وأغرب الأوهام. ولكنه رضي الله عنه لم يقابل تكفيرهم بتكفير، وحين سئل عنهم، أهم كفار، قال: من الكفر فروا، وهم إختوتنا بالأمس بغوا علينا اليوم (1). قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: (من زعم أنه لا يرى التقليد، ولا يقلد دينه أحداً، فهو قول فاسق عند الله ورسوله ﷺ، إنما يريد بذلك إبطال الأثر، وتعطيل العلم والسنة، والتفرد بالرأي والكلام والبدعة والخلاف، وهذه المذاهب والأقويل التي: وصفت مذاهب أهل السنة والجماعة والآثار، وأصحاب الروايات، وحملة العلم الذين أدركناهم وأخذنا عنهم الحديث، وتعلمنا منهم السنن، وكانوا أئمة معروفين ثقات أصحاب صدق، يقتدى بهم ويؤخذ عنهم، ولم يكونوا أصحاب بدعة ولا خلاف ولا تخليط، وهو قول أئمتهم وعلمائهم الذين كانوا قبلهم. فتمسكوا بذلك رحمكم الله وتعلموه وعلموه، وباللَّه التوفيق) (2).

وقال الإمام أبو الحسن الميموني: قال لي الإمام أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن، إياك أن تشكلم في مسألة ليس لك فيها إمام (3). وقال ابن وهب: (كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال ولولا أن الله أنقذنا بمالك والليث لضلنا) (4).

إن من يرفض المذاهب ويدعي التمسك بالكتاب والسنة بمعزل عنها، ويقول حسبنا الكتاب والسنة، يفاجأ بأنه: (يحتاج إلى عيون مبصرة، فإن الأعمى لا يميز طريق السواء عن غيره، وإذا كانت له عيون؛ يحتاج إلى مدارس وممارسة، فإن الأعمى لا يقرأ المكتوب ولو كان مطلوب، وإذا كان دارساً ممارساً؛ احتاج إلى معرفة لغتهما، فإن القارئ الأعجمي لا يعرف معنى المكتوب العربي، وإذا كان عارفاً باللغة؛ احتاج إلى معرفة قواعدها ليفهم المقصود، فإن غير البليغ لا يعرف أسرار اللغة، ولا تتكشف عنده دلائل الإعجاز. وكثير من الذين يتصدون لتبني هذا الأمر جاهلون بالقواعد من الأساس) (5).

(1) ينظر: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي: 87، 156.

(2) طبقات الحنابلة، أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، تصحيح: محمد حامد الفقي: 31 / 1.

(3) مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي: 245.

(4) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني: 119.

(5) تنوير الطالبين بنور الدين المبين، العلامة عبد الكريم محمد المدرس الشهرزوري: 102 - 103.

المطلب الثاني: الالتزام بعقيدة الأشاعرة والماتريديّة:

من المعلوم أن أكثر المذاهب الاعتقادية التي يعبر عنها بالفرق، اندرست وانقرضت وبادت بعد انتشارها، فالمرجئة والقدرية والجهمية والحشوية والمجسمة والمعتزلة، كانت معبرة عن ذاتها وأفكارها بالجدل هنا وهناك حيناً من الوقت، حتى بدأت تضمحل لتذوب في تيار العقيدة الإسلامية الكبرى المتمثلة في أهل السنة والجماعة. وليس خافياً على أحد أن مرد ذلك إلى فضل إمامين كبيرين جليلين ظهرهما في زمن واحد، وهما الإمام أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري (261 - 331)، والإمام أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي (268-333). ولم يكن أي منهما صاحب مذهب، كما لم تكن دعوتهما بدعة جديدة، بل إن غاية ما عملاه الانتصار للقرآن والسنة، والعودة بالمسلمين إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وقد كان العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين في الحجاز وبلاد الشام والعراق في منأى عن الخصومات بين تلك الفرق البدعية المتصارعة، فقد عكف كل إمام على ما يهيمه من فقه أو حديث أو تفسير. لكن لما رأوا الإمام الأشعري سداً منيعاً في وجه تلك التيارات والفرق المخالفة، مدافعا عن حياض الشرع المتمثل في الكتاب والسنة، داعياً إلى منهج أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم، هبوا إليه مقبلين مسرعين من كل صوب وحذب مؤيدين داعمين منتصرين له، لذا لقبوه بـ "نصير أهل السنة".

وهذا بالضبط ما فعله الإمام الماتريدي في بلاد ما وراء النهر.

وهذه أقوال العلماء في فضله، وصدق نهجه، فقد بين ذلك الكثير منهم الأئمة: كالأصولي ابن السبكي، وسلطان العلماء، وابن خلكان، وابن العماد، وابن عساكر.

يقول تاج الدين السبكي -رحمه الله-: اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً، وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً⁽¹⁾.

وصرح سلطان العلماء العز بن عبد السلام أن عقيدة الإمام الأشعري اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من معاصريه

(1) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي: 3/ 365.

شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري⁽¹⁾. ويعلق على هذا القول شيخ الأزهر الشيخ د. أحمد الطيب بأن هذا المفهوم بهذا العموم الذي يشمل أئمة المسلمين كلهم، والأغلبية من المتكلمين والفقهاء والمحدثين وأهل التصوف والإرشاد، والنحاة وأهل اللغة والأدب⁽²⁾. ويقول ابن خلكان: (هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية)⁽³⁾. وقال عنه ابن العماد: (وقد بيض الله به وجه أهل السنة النبوية، وسودّ به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق)⁽⁴⁾.

ونقل ابن عساكر قول العارف بالله الشيخ أبي القاسم القشيري (ت 465هـ): اتفق أصحاب الحديث على أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري -رضي الله عنه- كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة⁽⁵⁾.

يقول محمد فريد وجدي الأشعري ارتاب في أمره الأولون، وطعن كثير منهم على عقيدته، وكفره الخنابلة واستباحوا دمه، ونصره جماعة من أكبر العلماء كإمام الحرمين والإسفراييني والباقلاني وغيرهم وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة⁽⁶⁾.

المطلب الثالث: الالتزام بالتصوف الإسلامي الخالص

الأحكام أنواع هي: العقلية: كالعلم بأن الجزء أصغر من الكل، والحسية: مثل: النار محرقة وأن العسل طيب المذاق، واللغوية أو الوضعية: كالفاعل مرفوع، أو نسبة أمر إلى آخر إيجاباً أو سلباً نحو زيد قائم، أو ليس قائماً، والشرعية⁽⁷⁾، وهذه ثلاثة هي: الأحكام العقدية: التي يدرسها علم الكلام، والأحكام العملية: التي يدرسها علم الفقه، والأحكام السلوكية: التي يدرسها علم التصوف، وبذا يكون التصوف ثلث الإسلام، فهو يعالج الأحكام السلوكية أو القيمية أو الأخلاقية، وهذا ما يقودنا إلى فهم السبب والحكمة في

(1) م. ن: 3/ 365.

(2) أهل السنة والجماعة، أحمد الطيب، دار القدس العربي، القاهرة: 21.

(3) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت: 3/ 284.

(4) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تح: محمود الأرنؤوط: 4/ 130.

(5) تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ابن عساكر: 123، أهل السنة والجماعة: 22.

(6) دائرة معارف القرن العشرين - الرابع عشر، العشرين، - محمد فريد وجدي: 10/ 652.

(7) الفقه الإسلامي، أ. د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق: 1/ 30.

جعل رسول الله ﷺ سورة الإخلاص ثلث القرآن؟ والجواب بكلمة واحدة، لأنها سورة التوحيد وهي صلب العقيدة الإسلامية. وثمة دليل آخر على وجوب علم التصوف، فالله تباركت أسماؤه نهانا عن الإثم بنص القرآن الكريم، ولكن النهي كان شاملاً، شمل ظاهر الإثم وشمل باطنه، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ سورة الأنعام: الآية 120. يقول السعدي: (نهي الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجبا متعينا على المكلف. وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة)⁽¹⁾. وكذلك بين رسول الله ﷺ لنا مراتب الإسلام في أقسام ثلاثة هي الإسلام والإيمان والإحسان الواردة في حديث جبريل، فالإسلام بأركانه الخمسة محلها الفقه، والإيمان بأركانه الست محلها العقيدة والإحسان محلها التصوف. ولو أن من خرجوا عن منهج أهل السنة والجماعة وعوا واستوعبوا هذه الأسطر المعدودة لوفروا على أنفسهم كثيرا من الشبهات التي يعيشون في ظلها، لكنهم آثروا الخوض فيما لا ينفع.

ما من علاج لتحطيم ما في النفس من مكابرة، أجدى من الإخلاص لدين الله وطلب مرضاته تعالى، عن طريق تدريب النفس على منهج تربوي، أساسه الإكثار من ذكر الله، فالمسلم باستقامته على استعمال هذا العلاج، تنامي بين جوانحه محبة الله التي ينبثق منها الإخلاص، وبسبب تلك المحبة تتلاشى حظوظ النفس وتزول، ويدوب الإحساس بالكبر والعجب، لتتكشف هذه الآفات على حقيقتها. وبذلك يتيسر التخلص منها، بالعودة إلى الرشاد الذي كان عليه أسلافنا، الذين كانت اختلافهم اختلافاً تعاونياً. (إنه العلاج الأعظم الأوحى لتزكية النفس وكنس كل ما قد يرسب فيها من آفات الأنانية والحقد والحسد والتعلق بالدنيا بكل صورها وأنواعها، وهو الأداة الوحيدة لتحويل

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي: 271.

النفس الأمانة إلى نفس لوامة راضية. وذلك هو السبيل إلى الإحسان الذي أمر به رسول الله ﷺ (1).

خاتمة البحث ونتائجه:

- في ختام هذا التطواف حانت ساعة عرض النتائج البحثية التي هي:
1. عرض البحث تاريخ التشريع الإسلامي، وبين مآثر علمائنا الفقهاء أئمة أهل السنة والجماعة، وذكر محاسنها المتأتمية من تدوينها بعد تنقيحها.
 2. ذكر البحث بعض صفات الخوارج بعد تعريف موجز لهم، وهي جرأتهم على سفك الدماء، مع كثرة صلاتهم وقيامهم الليل وقراءة القرآن.
 3. توصل البحث إلى المخارج من فتنة الخارجية.
 4. المخرج الأول بالتمسك بالمذاهب الأربعة التي سعت بجمع كلمة الأمة وتوحيدها.
 5. المخرج الثاني التمسك بعقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري ناصر السنة، وكذلك الإمام أبو منصور الماتريدي.
 6. المخرج الثالث سلوك طريق التصوف لتزكية النفس بالتربية الروحية وكسر شهواتها، وتصفية كدوراتها بكثرة ذكر الله تعالى بالصدق والإخلاص.

المقترحات والتوصيات:

يقترح الباحث نشر ورقته البحثية على نطاق واسع بين صفوف المسلمين، لكي يطلعوا على المخرج من الخارجية التي تهدد كيانهم الفكري والعقدي والفقهي. ويوصي بعقد لقاءات ومؤتمرات وندوات تعمل على نشر الفكر الوسط للأئمة الأربعة وإمامي أهل السنة في العقيدة الأشعري والماتريدي، وأئمة التصوف الصادقين.

(1) الظلاميون والنورانين، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق: 177-178.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ط2، 1366هـ = 1947م.
2. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م.
3. الأذكياء، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، مكتبة الغزالي، د. ط. د. ت.
4. الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوى (ت: 1409 هـ)، دار السلام، القاهرة، ط1، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م.
5. أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الصمعي، السعودية، د. ط. د. ت.
6. أهل السنة والجماعة، بقلم: أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف رئيس مجلس حكماء المسلمين، سلسلة محاضرات الإمام الأكبر (1)، الحكماء للنشر، الإمارات العربية المتحدة، دار القدس العربي، القاهرة، ط2، 1440 هـ = 2019م.
7. البدور المضية في تراجم الحنفية، محمد حفظ الرحمن بن محب الرحمن الكُمَلَّائي، دار الصالح، القاهرة، مكتبة شيخ الإسلام، دكا، ط2، ١٤٣٩ هـ = ٢٠١٨م.
8. تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي (ت: 1205 هـ)، تح: إبراهيم التريزى، بإشراف: لجنة فنية من وزارة الإعلام، مطبعة حكومة الكويت، 1392 هـ = 1972م.
9. تاريخ ابن خلدون؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت: 808 هـ)، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ.
10. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الآملي الطبري (ت ٣١٠ هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطي، (ت: ٣٦٩ هـ)، دار التراث - بيروت، ط2، ١٣٨٧ هـ.

11. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تح: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.
12. تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، ١٤٠٤.
13. تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تح: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، وزارة الأوقاف الكويتية، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.
14. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ط، د. ت.
15. تراث الإنسانية، (سلسلة تناول بالتعريف والبحث والتحليل روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية)، بأقلام الصفاة الممتازة من الأدباء والكتّاب والعلماء، دار الرشاد الحديثة، د. ب، د. ط، د. ت.
16. تعدد الخلفاء ووحدة الأمة فقهاً وتاريخاً ومستقبلاً، د. محمد خلدون أحمد نورس مالكي، رسالة: دكتوراة، قسم الفقه الإسلامي وأصوله، جامعة دمشق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.
17. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
18. تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التيمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط3، ١٤١٩هـ.
19. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (1431هـ)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1988م.
20. تنوير الطالبين بنور الدين المبين، العلامة عبد الكريم محمد المدرس

- الشهرزوري، تح: السيد عبد الوهاب أبو السعد، اعتنى به وقدمه للطبع: مركز الهاشمية للدراسات وتحقيق التراث، تركيا، بيروت، ط1، 1437هـ = 2016م.
21. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: 1376هـ)، تح: عبد الرحمن بن ملا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ.
22. الجامع الصحيح، البخاري، بحاشية: المحدث أحمد علي السهارنفوري (ت: 1297هـ)، [الذي قارن متن «الجامع الصحيح» بعشر نسخ معتمدة، منها نسخة الإمام الصّغاني (ت: 650هـ)، تح وتعليق: أ. د. تقي الدين الندوي، مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية - مظفر فور، أعظم جراه، يوبي، الهند، ط1، 1432هـ = 2011م.
23. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف بصحيح البخاري، الامام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة البخاري الجعفي، تح: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1407هـ = 1987م.
24. الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)، تح: محمد أبو الأجنان، عثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1403هـ = 1983م.
25. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (تفسير القرطبي)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت: 671هـ)، تح: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ.
26. جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، د. قاسم علي سعد، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 1423هـ = 2002م.
27. حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (نسبة إلى بني عدي، بالقرب من منفوط) (ت 1189هـ)، تح يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر - بيروت، د. ط، 1414هـ = 1994م.

28. الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين، أسامة السيد محمود الأزهرى، دار الفقيه للنشر والتوزيع - أبو ظبي، ط1، 1436هـ = 2015م.
29. الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري (ت 974 هـ)، تح: عبد الكريم موسى المحميد، دار الهدى والرشاد- دمشق، ط1، 1428هـ = 2007م.
30. دائرة معارف القرن العشرين- الرابع عشر، العشرين-، محمد فريد وجدي، دار الفكر- بيروت، د. ط، د. ت.
31. الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، تح: أبو اسحق الحويني الأثري، دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الخبر، ط1، 1416هـ = 1996م: 3/ 168.
32. الرفعة في بعض متون فقه المذاهب الأربعة (مجموع قيم يشتمل على أربع منظومات)، جمعه ورتبه وضبطه بالشكل: د. توفيق بن إبراهيم ضمرة، دار عمار للنشر والتوزيع، ط1، الطبعة: الأولى، 1441هـ = 2020م.
33. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: 977هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، 1285هـ.
34. السنة قبل التدوين، محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1400هـ = 1980م.
35. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي (ت 1384هـ)، المكتب الإسلامي: دمشق، بيروت، ط3، 1402هـ = 1982م.
36. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت: 748هـ)، تح: (د. بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، محمد نعيم العرقسوسي، مأمون صاغري، علي أبو زيد، نذير حمدان، كامل الخراط، صالح السمر، أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، د. محيي هلال السرحان، والجزء المفقود: حقه: خيري سعيد)، بإشراف: الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة

- الرسالة، ط 11، 1417هـ = 1996م.
37. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت 1089هـ)، تح: محمود الأرناؤوط، تخریج الأحاديث: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط 1، 1406هـ = 1986م.
38. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (743هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، ط 1، 1417هـ = 1997م.
39. شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ)، تح: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - الرياض، ط 2، 1423هـ = 2003م.
40. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ)، دار العلم للملايين - بيروت، ط 4، 1407هـ.
41. الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي، ديوان الوقف السني، بغداد، 1429هـ = 2008م.
42. ضحى الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د. ط، 2012م.
43. طبقات الحنابلة، أبو الحسين محمد ابن أبي يعلى، وقف على طبعه وصححه: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة (وصورتها دار المعرفة، بيروت)، د. ط، د. ت.
44. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هـ)، تح: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1413هـ.
45. الظلاميون والنورانيون - محاولة لمعرفة من خلال سلم العلم فالدين فالأخلاق - محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، دمشق، ط 1، 1431هـ = 2010م.

46. العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، ط 12، ١٤٠٤هـ.
47. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، 1379.
48. الفقه الإسلامي وأدلته (الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)، أ. د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط 4، المنقحة المعدلة بالنسبة لما سبقها (وهي ط 12، لما تقدمها من طبعات مصورة).
49. فهم القرآن ومعانيه، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)، تخ: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر - بيروت، ط 2، د. ت.
50. الفهم المنير للآيات التي أخطأ في فهمها أهل التطرف والتكفير، أسامة السيد محمود الأزهرى، دار الفقيه للنشر والتوزيع - أبو ظبي، ط 1، 1436هـ = 2015م.
51. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط 1، ١٣٥٦هـ.
52. قبول الأخبار ومعرفة الرجال، أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي (ت ٣١٩هـ)، أبو عمرو الحسيني بن عمر بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1421هـ = 2000م.
53. الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تخ: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ط 3، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
54. كشف النقاب عما في «كلمات» أبي غدة من الأباطيل والافتراءات، محمد ناصر الدين الألباني، ط 2، ١٣٩٨هـ.

55. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، (ت: 775هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ = 1998م.
56. اللغات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط5، 2008م.
57. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت 807هـ)، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، د. ط، 1414هـ = 1994م.
58. المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، تح: محمد محب الدين أبو زيد، دار الذخائر، ط1، 2016م.
59. المدخل إلى علم السنن، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت 458هـ)، تح: محمد عوامة، دار اليسر، القاهرة، دار المنهاج، بيروت، ط1، 1437هـ.
60. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري (ت 1414هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، ط3، 1404هـ = 1984م.
61. مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن نور الدين علي بن (سلطان) محمد الملا الهروي القاري (ت 1014هـ)، دار الفكر، بيروت، ط1، 1422هـ = 2002م.
62. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت 292هـ)، تح: محفوظ الرحمن زين الله (ج 1-9)، عادل بن سعد (ج 10-17)، صبري عبد الخالق الشافعي (ج 18)، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).
63. مسند الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي التيمي السمرقندي (ت 255هـ)، تح: حسين سليم أسد الداراني [ت 1443هـ]، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1412هـ = 2000م.

64. المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ؛ المشهور بصحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.
65. معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، بيروت، ط1، القاهرة، 1429هـ = 2008م.
66. المفاتيح في شرح المصايح، حسين بن محمود الزيداني الكوفي الضريُّ الشيرازي الحنفي المشهور بالمظهري (ت ٧٢٧ هـ)، تح ودراسة: لجنة بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، ط1، ١٤٣٣ هـ = ٢٠١٢م.
67. مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث، محمد عبد الرشيد النعماني الباكستاني (ت ١٤٢٠هـ)، اعتنى به: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط4، ١٤١٦م.
68. مناقب أبي حنيفة، الإمام الموفق بن أحمد المكي (ت ٥٦٨هـ)، دار الكتاب العربي- بيروت، د. ط، 1401هـ = ١٩٨١م.
69. مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط2، ١٤٠٩ هـ.
70. المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي (ت ٧٩٤ هـ)، تح: د تيسير فائق أحمد محمود، مراجعة: د عبد الستار أبو غدة، وزارة الأوقاف الكويتية (طباعة شركة الكويت للصحافة)، ط2، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م.
71. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم المشهور بابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، تح: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، ١٤٠٦ هـ.
72. موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، عداد: مجموعة من الباحثين بإشراف

- الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net
73. موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (أكثر من ٩٠٠٠
موقف لأكثر من ١٠٠٠ عالم على مدى ١٥ قرناً)، محمد بن عبد الرحمن
المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة، النبلاء للكتاب، مراکش،
ط1، د. ت.
74. نثر الورود شرح حائية ابن أبي داود، د. عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل،
مركز النخب العلمية، د. ب، ط4، 1439 هـ.
75. النكت والعيون المعروف بـ (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن محمد
البصري البغدادي الماوردي (ت: 450 هـ)، تح: السيد ابن عبد المقصود، دار
الكتب العلمية، بيروت، د. ط. د. ت.
76. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد
بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١ هـ)، تح: إحسان
عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: (الأجزاء: 1، ٢، 3، 6، الطبعة: ٠،
1900، الجزء الرابع - ط1، ١٩٧١، الجزآن: ٥، 7 - ط1، ١٩٩٤).

الهوية الدينية الليبية، بين الاستتباب والاستلاب

د. خالد إبراهيم المحجوبي/جامعة صبراتة

المقدمة

الحمد لله والصلاة على نبيه ومصطفاه، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحبه المخلصين. لكل إنسان هوية ذاتية يمتاز بها عن غيره، ولكل وطن هوية وطنية يختص بها عن سواه، ولا يغربُ عنا أن قيمة كلِّ ماكثة في مدى وضوح ورسوخ هويته، وأن معيار قوته وتميزه منوط بمدى استعصاء الهوية عن التشويه، واعتصامها عن الانتقاص، وتأبئها عن الاستلاب. فهاته الآفات الثلاث تصاب بها هويات الأفراد والأوطان، فتحيلها إلى أشباه وأشباح، تمور وتنوس مسرح الدنيا، مفعولٍ بها، غير فاعلة، ومجرورة غير جارة.

يقوم هذا البحث على تناول الثنائية التي تتاب الهوية الدينية الليبية، حيث ينطلق من فرضية أن الهوية الدينية لليبيين قد مرت بمرحلة استتباب وثبات استمرت لقرون طويلة، حتى شهدت مؤخراً قدراً من التأثير والتضعف المفضي إلى بؤادر حالة استلاب، صرنا نراها تدرُّ في خطواتها الأولى وسط بلدنا العزيز.

وقد اصطنعتُ هذا المسطور الذي بين يديك، لأجل دراسة تينك الحالتين للهوية الدينية الليبية، واهتممتُ بوضع تمهيد لأجل تشخيص للحالة الدينية بشكل عام في ليبيا. ثم رأيت من المهم والنافع تناول الركائز والعناصر الرئيسة التي قامت عليها الهوية الدينية في ليبيا، أعني الثلاثي العتيق الماكث والمتجذر في ليبيا على كل المستويات: تراثياً، وثقافياً، وتاريخياً، وعلمياً. ذاك الثلاثي هو: العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف المعتدل.

لأجل ذلك تناولت الوجود التاريخي، لكل عنصر من تلكم الثلاثة العتيقة العريقة. بمنهجية مزجت فيها كلاً من المنهج الاستردادي، والتحليلي. على نحو مكثف غير منبسط، بحكم ضيق البراح الزمني المتاح لدي في تناول هذا الموضوع.

كما أنني اهتمت -عقب ذلك- بالكلام عن الهوية الدينية الليبية من جهة كونها عاشت حالة استتباب، ومن جهة كونها مهددة بسنوح بؤادر الاستلاب، حيث ركزت على تبيان ما أراه من مظاهر، وبواعث، ومترتبات كلِّ من الحالتين.

بجمل ذلك كله سيتكون هذا البحث من العناصر التالية، التي تشكل بنيته الهيكلية، حيث أقمته على مقدمة، ومدخل، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة.

1-المقدمة.

2-مدخل مفاهيمي: ينطوي على أهم المصطلحات التي سيتم استخدامها في البحث. وسنتطرق فيه إلى مفهوم الهوية، وعناصرها، وحالاتها، ودورها في الاستقرار الفكري، والوطني.

3- التمهيد تشخيص الحالة الدينية في ليبيا.

- الفصل الأول: ركائز الهوية الدينية في ليبيا:
- الوجود المالكي في ليبيا.
- الوجود الصوفي في ليبيا.
- الوجود الأشعري في ليبيا

4- الفصل الثاني/ الهوية الدينية في ليبيا بين الاستلاب والاستتباب.

-استتباب الهوية الدينية الليبية: مظاهره، وضمانات ثبوته.

-الاستلاب: مظاهره، وبواعثه.

5- الخاتمة، والنتائج.

مدخل لغوي:

على المستوى اللغوي تأتي كلمة الهوية بوصفها كلمة محدثة لم يعرفها ولم يستعملها العرب وقت أزمنة الاحتجاج اللغوي، الممتدة إلى منتصف القرن الهجري الثاني.

وليس يستقيم نسبة الهوية بعزوها إلى كونها تصغير هوة، والهواة، وكتاتهما بمعنى ما بعد قعره كالبئر والمسقط، والهوة تجمع على هوايا. التي لها صلة بالفعل هوى يهوي هويًا إذا سقط سقوطاً والذي يتصرف إلى قولنا: هوى يهوي، أهو، هويًا وهواءً، وهو هاو. كما لا صلة للهوية -التي نقصدها - بالفعل هوي، بمعنى أحب وعشق. بل هي كلمة تنتسب للضمير الغائب (هو) الذي هو ضمير رفع منفصل، دال على المذكر المفرد الغائب. فهي

بذلك كلمة مكسورة الواو، هكذا هوية⁽¹⁾.

ولم أر للفظه الهوية ذكراً في كلام العرب وقت زمن الاحتجاج، وما ظهرت إلا وسط ما ولده واستحدثه علماء الكلام والمنطق، نحو أواخر القرن الثاني الهجري تقريباً، وذلك في سياق عدد ملحوظ من الألفاظ المستحدثة مما لم يسمعه العرب، أو يستعملوه. وفي هذا قال الجاحظ ((هم اصطاحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم. فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض، والجوهر، وأيس،... وذكروا الهاذية، والهوية، والماهية، وأشباه ذلك))⁽²⁾

وهي في انتمائها المعرفي الحديث تمكث-غالباً- وسط مصطلحات علم النفس الاجتماعي، وعلم الأنثروبولوجيا. لكن لم تزل أكثر التخصصات العلمية والمعرفية تستعمل هذا المصطلح على نحو متزايد غير محدود.

مما يقارب المعنى المراد اصطلاحاً من الهوية، كل من (الذاتية)، و(الكيان). فالهوية هي مجمل مظاهر الكيان المميز للشخص أو الأمة، والخصائص الذاتية التي ينطبع بها كيان الشخص أو الأمة.

وتعريفها الذي أقترحه هنا هو أنها: مجموع الصفات والخصائص التي يمتاز بها عن غيره، بحيث تصنع منه كياناً متميزاً عن غيره. وبعبارة أخرى هي مجمل مكونات شخصية الإنسان. وإذا أضيفت إلى جامد، أو شيء معقول فهي مجموع خصائصه وصفاته ومظاهره التي يمتاز بها عن غيره.

1 - للتوسع في الدلالة اللغوية ينظر لسان العرب. لابن منظور. دارالمعارف. مادة هوي. القاهرة. مادة (ه و ي)

ومقاييس اللغة لابن فارس. (هوي)) .

2 - البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، ومطبعة المدني. القاهرة ط7.

تمهيد

الحالة الدينية في ليبيا:

أعني بالحالة الدينية هنا الوضع الديني في مستواه التديني الممارسي، إنها حالة أصفها ب (أحادية الانتماء). ولتفصيل هذا يمكنني تحديد معالمها وقسماتها بالملاحظات الماثلة في الواقع التالي:

1- وحدة الدين:

حيث تمتاز ليبيا بواقع أنها ساحة لدين واحد، هو الإسلام، فلا دين غيره يشاركه إياها. وليس بها من أتباع الديانات الأخرى إلا أعداد محدودة من الرعايا والقاطنين بها مؤقتاً لأغراض العمل، أو السياحة.

2- وحدة المذهب:

حيث إن المذهب الرسمي الوحيد هو المذهب المالكي، وحين نوّكّد تميز ليبيا بوحدانية المذهب، فنحن نتكلم بأسلوب التغليب؛ حيث إن الغالبية العظمى من الليبيين يتبعون المذهب المالكي، ولا يمكننا إنكار وجود (الفرقة - المذهب الإباضي) الذي هو من مكونات المشهد الديني الليبي.

لكن شدة اتساع الفارق الكمي بين أتباع المذهبين لا يسمح بجعلهما في طرفي مقارنة، ولا تماثل، فالإباضيون لا يكادون يتجاوزون عشر المالكيين، على المستوى الكمي. وليس يغيب عنا أن الوضع التفاضلي كميّاً بين المذاهب، حال واقعي في كل الدول الإسلامية، فما من دولة إلا والغلبة المذهبية فيها لمذهب معين دون غيره، بإزاء مذاهب أخرى تحوز درجات أقل من المذهب الغالب، فمثلاً في تركيا نجد الغلبة الكمية للمذهب الحنفي، وفي مصر للمذهب الشافعي، وفي سلطنة عُمان للمذهب الإباضي، وفي السعودية للمذهب الحنبلي، وفي إيران للمذهب الجعفري، وفي تونس وليبيا للمذهب المالكي.

ويحسن - هنا - أن نشير إلى وجود أصوات شاذة ناشزة تحرض بجهالة وتعصب على منابذة واستعداد أتباع المذهب الإباضي، وتبشّعه في دعوة للفتنة خبيثة غير خبيثة، بين أبناء الوطن الواحد والدين الواحد. وفي استناد غير بريء إلى ما حفلت به المكتوبات التراثية القديمة للفرقة الإباضية، وبعض الأصوات الغالية الحديثة المنتسبة للإباضيين من بقايا غلاتهم.

أما فيما يتصل بدعاة اللامذهبية من الرافضين الالتزام بمذهب محدد، فوجودهم لم يصل بعد إلى درجة المعاينة، فهم أفراد معدودون محدودون على المستوى الكمي، والنوعي.

3- ظهور العلمانية:

مما يتصل بالكلام عن الحالة الدينية في ليبيا، الحديث عن النزوع العلماني. فقد علت أصوات بعض العلمانيين الليبيين، بعد ثورة فبراير، ولا سيما من بين بعض المعارضين الذين استطاعوا العودة إلى ليبيا بعد انهيار نظام القذافي، وحاول بعضهم تجسيد منهجه وسط مسودة الدستور الليبي، وبعضهم على منابر إعلامية مختلفة. لكن لم يزل الصوت العلماني الليبي في مرحلة خمود وخفوت. وليس له طروح ولا عروض ممنهجة، ولا قائمة على أصول علمانية ركيئة على النحو الذي نراه عند علماني مصر، والسودان، وسوريا مثلاً.

4- ظهور بوادر الإلحاد:

منذ نحو عشر سنين وجدت بعض الأصوات الإلحادية -المحدودة كميًا- متنفساً لها في ليبيا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والمدونات الخاصة على الأنترنت لتخاطب الليبيين، بخطاب إلحادي صادم مستبشع غير مألوف. لم يجد له قبولاً كميًا وسط أوساط الشباب والمفكرين، إلا بقدر محدود جداً لا يكاد يرى، حتى تطور الأمر إلى بعض الكتب الصريحة تصدر بأسماء باحثين ليبيين بعضهم لا تنقصه الشهرة. لكن يزال كل ذلك في مستوى كمي محدود، ودرجة تأثيرية قاصرة، بيد أنها مرشحة للزيادة. في ظل مؤسسات دينية غائبة عن الوعي بخطورة الوضع الديني، وفاقدة للأهلية والكفاءة، في معالجة أوازمه على المدى القصير، والمتوسط، والطويل.

الفصل الأول: ركائز الهوية الدينية في ليبيا

للهوية الدينية الليبية معالم وقسمات، تقوم على بناء ثلاثي الأركان تحت مظلة الإسلام الخالد. تلكم الأركان هي التي جمعها قول ابن عاشر الشهير في منظومته: (في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك)

المبحث الأول: الوجود المالكي في ليبيا

كانت بواكير امتداد المذهب المالكي خارج المدينة المنورة، قد توجهت تلقاء مصر حيث انطلق انتقال فقه مالك على نحو متدرج جزئي بنقل بعض مسائله وفتاواه عن طريق الفريق الريادي الأول من تلاميذ مالك فدخلت مسائله-أثناء حياته- عن طريق عثمان بن الحكم الجذامي (163هـ) وعبد الرحمان بن خالد الجمحي (163هـ).⁽¹⁾ ثم برز واشتهر في مصر في الحقبة نفسها عبد الرحمان بن القاسم 191هـ، وبعده أشهب بن عبد العزيز 230هـ

وكانت مصر نقطة انطلاق للمذهب نحو بلاد المغرب وبخاصة ليبيا. بعد أن سبقه إليها فقه الكوفيين حسب كلام القاضي عياض الذي ذكر أن بلاد المغرب ((كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين)).⁽²⁾ والمراد بمذهب بالكوفيين هنا مذهب أبي حنيفة النعمان.

دخلت ليبيا نطاق ما سمي بالمغرب الأدنى الذي عرف بعدُ بأفريقية، وهو الشامل ما بين مدينة سرت حتى مدينة تاهرت الجزائرية. دخل المذهب المالكي متدرجاً ليبيا مع النصف الثاني للقرن الأول، نحو سنة 150هـ قبل حقبة حكم الأغالبة، التي ملأت ما بين 184-296هـ.

في الحقبة نفسها بدأ ظهور أعلام المالكية المؤسسين لانتقال المذهب وتوطئه في ما كان يعرف باسم (أفريقية) وبخاصة في ليبيا مثل: علي بن زياد، والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات 231هـ. وسخنون 240هـ. وقد بلغ عدد تلاميذ مالك الرواد من أهل المغرب نحو ثلاثين شخصاً⁽³⁾. ولقد كان من أهم عوامل توطيد مكانة المالكية في المغرب العربي،

1- ينظر ترتيب المدارك. القاضي عياض. تحقيق: محمد الطالبي. 1968م تونس 54/3. والديباج المذهب لابن

فرحون. 187/2

2- ترتيب المدارك 15/1.

3- ينظر المذهب بالمغرب الإسلامي. الهنتاتي.

بواعث جاء في صدارتها ما يلي:

1- تبني الحكومات الرسمية للمذهب المالكي:

كانت أهم خطوة توطيئية وتمتينية للمذهب المالكي في الدول المغاربية قد تحققت بتبني دولة الأدارسة لمذهب مالك، وفي هذا يقول الكتاني ((وعلى مذهبه كان إدريس وجميع العلماء من أهل المغرب الأقصى))⁽¹⁾ وقد أمر المولى (إدريس) بنشر الموطأ وتدريسه، بعد أن جعله مذهباً رسمياً للدولة، وأصدر أمره لولاياته وقضاياه بذلك⁽²⁾ وكانت هاته نقطة عملية، وتقوية مباشرة للتوطن المالكي في بلدان المغرب العربي. وذلك فضلاً عن التبني الرسمي للمذهب من حكومات أخرى أهمها: الخليفة الأموي، هشام بن عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس⁽³⁾. والمعز بن باديس في تونس بعد إسقاط الدولة الفاطمية، في بلدان المغرب، أو ما يسمى بأفريقية⁽⁴⁾

(وكانت بأفريقية مذاهب الشيعة والصفوية والإباضية والنكارية والمعتزلة، وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك فظهر له (أي المعز بن باديس) حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه، حسماً لمادة الخلاف بين المذاهب، واستمر بذلك الحال إلى احتلال العساكر العثمانية لأفريقية)⁽⁵⁾

والملاحظ أن بلاد المغرب ومنها ليبيا قد امتلأت وتشبعت بالوجود المالكي، على نحو لم يسمح لأي مذهب آخر بالتوطن أو الانفساح إلى جواره، وهذا ما وكده الشاطبي بقوله في الموافقات: ((وَأَمَّا قُصِدَ هُنَا هَذَا التَّحْرِيرُ الْغَرِيبُ؛ لِقَلَّةِ الْإِطْلَاعِ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِهِ؛ إِذْ كُتِبَ الْحَفِيفَةُ كَالْمَعْدُومَةِ الْوُجُودِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَكَذَلِكَ كُتِبَ الشَّافِعِيَّةُ

- 1- الأزهار عطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس. الكتاني. 1889م. فاس. ص 130.
- نقلًا عن بحث أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي. وانكفاؤه في اليمن حتى القرن الرابع الهجري. محمد منصور علي. المجلة الأسمرية. زلوتين. ص 6. من أعمال مؤتمر الإمام مالك الدولي سنة. يقول صاحب الأزهار العاطرة وعلى مذهبه كان إدريس وجميع العلماء من أهل المغرب الأقصى بسبب تقليد إدريس لمالك وتحصيل كتابه الموطأ وحفظه له))
- 2- نفسه 136-137. وينظر الجذور الأولى للمذهب المالكي في المغرب. عمر الجيدي. بحث منشور بمجلة دعوة الحق. وزارة الأوقاف المغربية. العدد 273.
- 3 - المدارك 27/1.
- 4 - للتوسع في معرفة دور ابن باديس انظر: شجرة النور الزكية. محمد مخلوف. 148/2 وما تلاها
- 5 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. محمد بن محمد ابن مخلوف. طبع بتعليق: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية. بيروت 148/2. ينظر للتوسع كلامه عن سيرة المعز بن باديس 148/2 وما تلاها.

وغيرهم من أهل المذاهب)).⁽¹⁾

أحصى الذهبي نحو 1400 طالب علم أخذوا عن مالك، وقال ((كنت أفردت أسماء الرواة عنه في جزء كبير يقارب عددهم ألفاً وأربع مئة)).⁽²⁾ وفي هذا العدد الضخم يقول جلال الدين السيوطي ((الرواة عن مالك فيهم كثرة بحيث لا يعرف لأحد من الأئمة رواة كرواته)).⁽³⁾

وقد كان لأهل ليبيا في أولئك الرواة نصيب. وعلى ذروتهم (علي بن زياد) الذي رحل إلى المدينة وتلقى مباشرة عن مالك، حيث (سمع من مالك، ... وسمع منه سخون عبد السلام بن سعيد بن حبيب 240هـ، وأسد بن الفرات)⁽⁴⁾ ثم استقر الموطن للمذهب وبدأ عصر الرواد الناشرين كابن أبي زيد القيرواني 386هـ

أورد الذهبي أن (زياد بن عبد الرحمن اللخمي الأندلسي) المتوفى سنة 199هـ والمعروف بلقب (شبطون) هو أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، حين ذكر ((أنه أول من أدخل مذهب مالك إلى الجزيرة الأندلسية، وقبل ذلك كانوا يتفقهون للأوزاعي، وغيره)).⁽⁵⁾ وبواسطته انتشر... من الأندلس إلى فاس، بواسطة طائفة من العلماء. أما كتاب الموطأ فالذي حمله إلى المغرب هو (عامر بن محمد القيسي الأندلسي) قاضي المولى إدريس، وأحد تلاميذ مالك الناقلين عنه. ذلك فيما يتعلق بالأندلس والمغرب الأقصى، غير أن القاضي (عياض اليعصبي) ذكر أن علي بن زياد الطرابلسي، هو أول من أدخل الموطأ... إلى المغرب وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم، وهو معلم سخون الفقه.

وقد اختلف المؤرخون في أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، (ذهب ابن القوطية وتبعه السيوطي في البغية إلى أنه الغازي بن قيس، وذلك في خلافة عبد الرحمن الداخل. بينما يرى الجمهور أن أول من أدخله هو زياد ابن عبد الرحمن اللخمي

1- الموافقات 3/ 131 وقال ((إنَّ اغْتِيَادَ الإِسْتِدْلَالِ لِمَذْهَبٍ وَاحِدٍ؛ رَبِّمَا يُكْسِبُ الطَّالِبُ نَفُورًا وَإِنْكَارًا لِمَذْهَبٍ غَيْرِ مَذْهَبِهِ، مِنْ غَيْرِ إِطْلَاعٍ عَلَى مَاخِذِهِ؛ فَيُورِثُ ذَلِكَ حَزَانَةً فِي الإِعْتِقَادِ فِي الأَنْمَةِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى فَضْلِهِمْ وَتَقَدَّمَ فِي الدِّينِ، وَاضْطِلَاعِهِمْ بِمَقَاصِدِ الشَّارِعِ وَفَهْمِ أَعْرَاضِهِ، وَقَدْ وَجِدَ هَذَا كَثِيرًا))

2 - سير أعلام النبلاء: 8 / 52 .

3 - (تنوير الحوالك على موطأ مالك): 1 / 10.

4 - طبقات علماء أفريقيا، أبوالعرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، تح: علي الشابي، نعيم حسن، الدار

التونسية للنشر 1968م، ص 220.

5 - ينظر تاريخ الإسلام للذهبي. توفي شبطون في قرطبة، واختلفوا في سنة وفاته، فذكر الذهبي وابن فرحون أنه

مات سنة 193 هـ أو 199 هـ وقال ابن الفرضي أنه مات سنة 204 هـ

المعروف بشبطون. والجمع بين الرأيين ممكن، بالنظر إلى أن الغازي بن قيس أول من أدخله، وأنه لم يشتهر بين الناس على نطاق واسع، إلى بعد ما جاء زياد الذي تصدى لإقراءته وإسماعه الناس¹. فكلاهما رائد ومبادر.

وعن طريق تلاميذ علي بن زياد: سخون، وأسد بن الفرات، والبهلول بن راشد القيرواني 182هـ أخذ المذهب ينتشر في شمال أفريقيا، انطلاقاً من القيروان ليعم كافة الأقطار الأفريقية شمال الصحراء وجنوبها، حيث وضع الإمام سخون المدونة التي تجمع فقه المالكية من أقوال الإمام مالك، وابن القاسم وتعليقات سخون عليها. كما ألف أسد بن الفرات كتاباً أطلق عليه اسم (الأسدية) وهو مزيج بين فقه مالك، وآراء مدرسة العراق. ثم ما لبث أن تطور المذهب وزاد في الانتشار على يد علماء جاؤوا بعد الرواد الأوائل عكفوا على دراسة تراث المذهب، والحفاظ عليه، وإغنائه بالتصنيف على أصوله، وشرح أمهات كتبه، وتدريسها. وقد كان سخون قد عرض مدونته على ابن القاسم، ودخل ليبيا وأقرأ أهل اجدايا، ثم أقرأ بعض أهل طرابلس المدونة، وصارت تنقل عنه بسنده.⁽²⁾

ولقد اشتد وتمتن الوجود المالكي في بلدان المغرب العربي بعامة منذ قرون حتى قال الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ((لو أراد الطالب اليوم أن يذهب في المغرب لأبي حنيفة؛ لعسر عليه)).³ ويقوي هذا ما أكده الشاطبي من افتقاد كتب الحنفية وغيرهم، بعد دخول المذهب المالكي، في بلاد المغرب حين قال ((إِذْ كُتِبَ الْحَنْفِيَّةُ كَالْمَعْدُومَةِ الْوُجُودِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَكَذَلِكَ كُتِبَ الشَّافِعِيَّةُ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ))⁽⁴⁾.

وقمين بالذكر أنه لم يتم للمذهب المالكي الاستقرار والتوطن في المغرب العربي في مدة قصيرة، بل مر ذلك بزمان طويل ظل فيه المالكية ذوي وجود لكن غير كامل ولا شامل، حيث كانت الساحة محل تدافع وتجادب، استغرق وقتاً مع المذهب الحنفي من جهة، وبعض ممثلي الإباضية والمعتزلة من ذوي الخطوة في دولة الأغلبة من جهة مقابلة،

1 - الجذور الأولى للمذهب المالكي في المغرب. عمر الجيدي. بحث منشور بمجلة دعوة الحق. وزارة الأوقاف المغربية. العدد 273.. والثابت أنه كان مسبقاً بمذاهب أخرى. في هذا يقول المقرئ في نفع الطيب ((إن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ الفتح، ففي جولة الحكم بن هشام [يعني هشاماً بن الحكم] ابن عبد الرحمن وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً وذلك برأي الحكم واختياره..)) 3 / 230

2- تنظر طبقات أبي العرب، ص 54.

3- سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد الذهبي. دار ابن الجوزي. القاهرة. 2016م، 8/ 91

4- الموافقات 3 / 131

حتى أفضى الأمر إلى استظهار واستقواء وتمكن المالكية بفقهم المالكي وعقيدتهم السنية في أرجاء حكم الأغلبة في تونس، وأجزاء البلاد الليبية وقتها، نخلت لهم الساحة على التمام والشمول.

رواد وأعلام المالكية في ليبيا: هم المرسخون والخدمون والناشرون للمذهب، بعد حقبة علي بن زياد الطرابلسي، سجل لنا التاريخ منهم نخبة غزيرة. منهم من باب المثال لا الحصر، العلماء التالية أسماؤهم⁽¹⁾:

- عبد الكريم بن أبي يونس البرقي، متوفي 230هـ.
- إبراهيم بن محمد الغافقي الأطرابلسي، متوفى بطرابلس 253هـ، وقد تولى منصب قاضي طرابلس
- عبد الجبار بن خالد السرتي، متوفى 281هـ، ذكر في أغلب كتب طبقات المالكية، وقد سمع من سخون وعليه اعتماده.
- الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الطرابلسي الذي عاش في طرابلس ووضع فيها كتابه (النامي في شرح الموطأ) المتوفى بالجزائر سنة 402هـ.
- وعبد الحميد ابن أبي الدنيا الطرابلس⁽²⁾ ولد ونشأ في طرابلس، فقيه وأديب توفي سنة 684هـ
- الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الزليطني القروي المعروف بـ حلولو، له مجموعة من المؤلفات القيمة تولى القضاء بطرابلس ثم انتقل إلى تونس وفيها توفي عام 898هـ.
- الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التاجوري، العالم الفلكي الشهير له مؤلفات كثيرة في هذا المجال، وقصته مع قبلة جامع القرويين بفاس مشهورة، توفي عام 960هـ.
- الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، العالم الكبير، له مؤلفات في العقيدة والتفسير والتراجم وغيرها المتوفى بالجزائر عام 963هـ.
- الشيخ أحمد بن محمد المكيني. مفتي طرابلس المتوفى عام 1100هـ.

1- الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ناصر الدين محمد الشريف. دار البيارق للطباعة، عمان- الأردن. ط 1. 1999م. ومقال: تاريخ المذهب المالكي في ليبيا. بقلم: جمعة الزريقي. مجلة العلوم الإنسانية - الخمس - جامعة المرقب - مارس مجلة العلوم الإنسانية العدد 18 (مارس 2019)

2- (عبد الحميد ابن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا أبو محمد الصدي الطرابلسي قاض من علماء المالكية في طرابلس ليبيا وعالم محدث وفقه ولد ونشأ في طرابلس وانتقل إلى تونس وبها ولي القضاء والخطابة بالجامع الأعظم وتوفي فيها ومن كتبه: حل الالتباس في الرد على بغاة القياس - مذكي الفؤاد في الحض على الجهاد) توفي سنة 684هـ كتاب أعلام ليبيا - الشيخ الطاهر الزاوي . والأعلام للزركلي. 285/3

-الشيخ محمد بن محمد بن مقييل . مفتي طرابلس تميز بفتاواه واجتهاداته في الفقه، المتوفى عام 1101هـ.

-الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري له عدة مؤلفات من أشهرها "تذليل المعيار" وهو كتاب في الفتاوى يقع في ستة مجلدات توفي عام 1139هـ.

-الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودي له عدة مؤلفات من بينها (لوامع الغرر. على نظمه اللآلئ والدرر في مصطلح علم الأثر) المتوفى سنة 1288هـ.

-الشيخ عبد الرحمن البوصيري له مؤلفات منها كتابه (الآلئ والدرر في المحاكمة بن العيني وابن حجر) وهو كتاب في الحديث. توفي عام 1354هـ.

-الشيخ محمد بن محمد بن عامر. مؤلف كتاب (ملخص الأحكام الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية) المتوفى عام 1381هـ .

هذا وقد استمر الاستتباب والتمكث المالكي في ليبيا دون انقطاع ولا استبدال ولا تغيير من لدن بدايات دخوله في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، مروراً بزمان تسيده وقت الأغلبة، وصولاً إلى يوم الناس هذا. ولم تفلح محاولات توهين المذهب ولا الإزراء بأصوله، ولا الاستهانة بعلمائه، فبقي عنصراً مركزياً من عناصر الهوية الدينية الليبية.

المبحث الثاني: الوجود الأشعري في ليبيا

يرجح أن فرقة الأشاعرة في وجودها المغاربي قد تشكلت في القيروان في القرن الرابع الهجري على يد إبراهيم القلانسي، ثم وصلت إلى ليبيا، والأندلس، وبعدها إلى مصر، وهي خريطة مسير معاكسة لمسير المذهب المالكي.

وكان لجامع القرويين بعلمائه الدور الأبرز في نشر المذهب الأشعري -فضلاً عن دور بعض الحكام مما سنذكره بعد قليل- ومن هناك تمتنت واستقوت عقيدة الأشاعرة عبر الدول الإسلامية غرب أفريقيا، ثم انتشرت جنوب الصحراء حيث مملكة السنغاي، وماسينا، وكانم برنو، وصكتو⁽¹⁾.

أما بشأن مبدأ دخول العقيدة الأشعرية، فقد كان ذلك الدخول في وقت مبكر

1 - المذهب الأشعري بأفريقيا: التاريخ والواقع. بحث كتبه (جده حسن جمعة). بحث بمجلة العلماء الأفارقة. عن

مؤسسة محمد السادس بالمغرب. العدد 2. 2020م، ص 310-311

غير بعيد عن حياة الإمام الأشعري (ت260هـ)، فقد ورد في تبين (ابن عساكر)⁽¹⁾ أن أبا القاسم حجاج الطرابلسي من أهل طرابلس المغرب، قال إنه أخذ المعتقد الأشعري عن أبي بكر الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة، عن ابن مجاهد⁽²⁾، عن الإمام الأشعري⁽³⁾.

ومن النص السابق لابن عساكر يتضح لنا أن مدخلها لليبيا كان عن طريق بعض علماء تونس، وهو أبو بكر بن عزرة فيما نقله عنه أبو القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي⁽⁴⁾. والمزج في هذا المقام عدم عثوري على ترجمة تبين حال وواقع (أبي القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي)، حتى يمكننا سوق الكلام بطمأنينة.

وعلى كل حال يمكننا القول إن ابن مجاهد الطائي (ت370هـ) كان حلقة الوصل الأساسية الأقرب بين الأشعري وعلماء المغرب العربي، كما قد كان أيضاً واسطة نقل رئيسية بين الأشعري وأكابر علماء الأشعرية المشاركة. وفي هذا قال ابن خلدون: (وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتنى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني (ت304هـ) فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها... ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني، من أئمة الأشعرية إمام الحرمين أبو المعالي،... وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي - رحمه الله -، وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم)⁽⁵⁾.

- 1- تبين كذب المفترى فيما نسب فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري. ابن عساكر. تعليق محمد زاهد الكوثري. المكتبة الأزهرية للتراث. القاهرة. ص137
- 2- هو أبو عبد الله بن مجاهد الطائي البصري (ت360هـ) من أخص تلامذة الإمام أبي الحسن الأشعري، وهو من أهل البصرة، وسكن في بغداد. وعليه تتلمذ القاضي الباقلاني. انظر تبين كذب المفترى... لابن عساكر ص177-178 وله كتب في الأصول. قال محمد مخلوف: «الإمام الفقيه الأصولي، العالم النظار». وقال القاضي عياض: «وكان ابن مجاهد هذا مالكي المذهب، إماما فيه، مقدما غلب عليه علم الكلام والأصول». وقال ابن أبي زيد القيرواني: «وعندنا من أخبار الشيخ الطيبة، ما نعم مسرته، من نصرته في هذا المذهب، وذبه عنه.
- 3- العقيدة المعتمدة لدى الأشاعرة ما ضمها كتابه اللمع، لا كتابه الإبانة. وثم خلاف في أخروية أي منهما. وقد رجح باحثون أن الإبانة منتحل ومنسوب زورا للأشعري وهذا ما قرره مثلاً الباحث المغربي خالد زهري بقوله: ((الإبانة من تأليف أحد حشوية الحنابلة، ولا يمت بصلة إلى المصنفات صحيحة النسبة إلى أبي الحسن الأشعري)) انظر خالد زهري، «كتاب الإبانة عن أصول الديانة: تحقيق في نسبته إلى أبي الحسن الأشعري»، مقال منشور بمجلة «الإبانة» الصادرة عن مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، العدد 1، (رجب 1434هـ/يونيو 2013م)، ص123. وانظر منه ص128-129. وقد نسب للأشعري كثيرون كالبهيقي، وابن عساكر. من الأشاعرة. والذهبي، وابن تيمية وابن القيم من غير الأشاعرة.
- 4- حسب ما ورد في تبين كذب المفترى لابن عساكر ص137
- 5- مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمان بن خلدون. تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، الفصل العاشر. 1966م

ثم يظهر دورُ ثاني أقرب واسطة ثابتة بين الأشعري، وبين علماء المغاربة والأندلس، ومصدر العقيدة الأشعرية إليهم، وهو (أبو ذر عبد بن أحمد الهروي) المتوفى سنة 334هـ. (1)

ينبغي هذا على ما ذكره الذهبي من قوله في ترجمة (أبي ذر الهروي) ((أخذ الكلام ورأى أبي الحسن [الأشعري] عن القاضي أبي بكر بن الطيب، وبث ذلك بمكة، وحمله عنه المغاربة إلى المغرب، والأندلس)). (2)

من هذا النص يظهر أن حمل ووصول الأشعرية لبلاد المغرب، كانت في حدود أوائل القرن الخامس الهجري، وهو ما لا يتساقق ولا يتلاءم مع ما ذكره ابن عساكر في تبينه من أن الفقيه ابن عزرة قد أخذ الأشعرية عن شخص يدعى أبا القاسم حجاج الطرابلسي، الذي أخذها عن ابن مجاهد الطائي، ولا يكون هذا إلا قبل وفاة ابن مجاهد التي كانت سنة 360هـ أي أن الأخذ كان في حدود منتصف القرن الرابع الهجري.

وليس طبيعياً ولا متصوراً أن تمكث الأشعرية في حالة نحود وتكون أزيد من نصف قرن في بلاد المغرب العربي مع وجود جامعة القرويين المتأسسة 245هـ وعلمائها، حتى يأتي الركنان من مكة بالأشعرية إلى بلاد المغرب، منقولة عن أبي ذر الهروي، وذلك حسب ما ذكره شمس الدين الذهبي في سيره. (3)

وفوق هذا وجدناه يؤكد عدم اطلاع ولا معرفة المغاربة على علم الكلام والمعقولات قبل هذا الدخول للأشعرية بواسطة النقل عن الهروي، قال الذهبي: ((وقبل ذلك كانت علماء المغرب لا يدخلون في الكلام، بل يتقنون الفقه أو الحديث أو العربية، ولا يخوضون في المعقولات، وعلى ذلك كان الأصيلي، وأبو الوليد بن الفرضي، وأبو عمر الطلمنكي، ومكي القيسي، وأبو عمرو الداني، وأبو عمر بن عبد البر، والعلماء)). (4)

1- يلقب بشيخ الحرم . ويكنى بابن السماك. له كتاب مناقب الإمام مالك، هو من شيوخ ومجيزي أبي عمر ابن عبد البر، وأبي عمرو الداني. ومن شيوخه أبو بكر الباقلاني. له ترجمة في ترتيب المدارك للقاضي عياض 4/ 696. والديباج المذهب، لابن فرحون ص217.

2- سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد الذهبي. 557/17.

3- انظر سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد الذهبي. 557/17.

4- ينظر ذلك فيما وكده الذهبي في ترجمته لأبي ذر الهروي 557/17. وتتمام النص قوله: ((وقبل ذلك كانت علماء المغرب لا يدخلون في الكلام، بل يتقنون الفقه أو الحديث أو العربية، ولا يخوضون في المعقولات، وعلى ذلك كان

وهذه قضية تحتاج مزيد تحقيق وتحيص تضيق به صفحات هذا المسطور الموجز، لكنني لا أخفي عدم ارتياحي لما ذكره ابن عساكر؛ لانطواء سلسلة الناقلين على شخصية مجهولة لم أعر لها على ترجمة، ولا ما يؤكد وجودها ولا دورها وهي شخصية (أبي القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي)

الدعم السياسي للأشعرية:

ولقد وجدت العقيدة الأشعرية بعد وصولها بلاد المغرب عونا سياسياً بما نصرها به (المهدي) محمد ابن تومرت (520هـ) مؤسس دولة الموحدين، الذي كانت له جولات ورحلات منطلقاً من المغرب الأقصى، زار خلالها بلدان المغرب بدءاً من الأندلس، ثم طرابلس الليبية، ثم المهديّة بتونس، وكان ينصر العقيدة الأشعرية ويؤكد وجودها حيثما حل. (1)

ثم جاء زمن الرعاية الأمتن ولأؤكد حين تولّاها وتبناها - مع الماتريدية - سلاطين الدولة العثمانية وعلماؤها، طوال حكمهم لما تحت أيديهم من البلدان ومنها ليبيا.

ولا نغفل عن دور علماء القرويين جامعة القرويين التي امتازت منذ تأسيسها عام 245هـ/859م بأدوارها الدينية والاجتماعية والعمرائية وإشعاعها العلمي منذ العصر الإدريسي، وكذلك دور علماء الزيتونة فيما بعد في توطيد أركان العقيدة الأشعرية.

ولا نستبعد حدوث تواصل مباشر بين بعض علماء مملكة (كانم برنو) الإسلامية التي شاعت فيها العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، حال كونها قديماً قد شملت جزءاً من الجنوب الليبي فضلاً عن النيجر، وتشاد، والكامرون.

وقد تزامن دخول الأشعرية المغرب مع دخولها الممالك الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء حيث لم تعرف لديهم عقيدة غيرها. ترجم الشيخ إبراهيم صالح الحسيني في كتابه «الاستدكار لما لعلماء برنو من أخبار وآثار» لمئات من علماء المنطقة ما بين القرن

الأصيلي، وأبو الوليد بن الفرضي، وأبو عمر الظلمنكي، ومكي القيسي، وأبو عمرو الداني، وأبو عمر بن عبد البر،
والعلماء.)) 557/17

1 - ينظر للتوسع ابن زرع الفاسي . الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور . الرباط، سنة 1972، والمقدمة، لابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1966م. 2 / 810.

السادس عشر إلى يومنا هذا، وذكر أن هؤلاء الأعلام كلهم مالكيون، وأشعريون. وقد نشروا كتب المذهب، والعقيدة بين الناس في أرض مملكة (كانم برنو).⁽¹⁾

ومن هنا يظهر جلياً مدى تأصل العقيدة الأشعرية في مملكة «كانم برنو» بصفتها مملكة إسلامية، وفي علمائها وجميع مراكز التعليم فيها منذ القدم، وهذا أمر يوكد على انتشار العقيدة الأشعرية بين شعوب هذه المناطق التي لا زالت تتعلمها، وينشرها علماءها بين العامة والخاصة. وحقيق بالذكر (ابن عزرة) هو من أدخل كتاب (رسالة إلى أهل الثغر)⁽²⁾ إلى المغرب الإسلامي فانتشر حتى وصل إلى الأندلس. وهو كتاب تنازع الباحثون في تحديد صحة نسبه بين ابن مجاهد، وأبي الحسن الأشعري.

وعند دخول الأشعرية كانت قد سبقت بدخول الاعتزال، وعقيدة الإباضية، وظلت العلاقات مشوبةً بالسوء والخصومة بين الفرق الإسلامية في المغرب العربي، لكنها كانت بين المعتزلة والإباضية أشد منها بين الأشاعرة والإباضية. إلى أن استتب الأمر بسيدودة الأشعرية وصيرورتها العقيدة الرائدة في بلاد المغرب العربي، ومن بينها ليبيا.

والملاحظ أن العلاقة بين العلماء المعاصرين من الإباضية والأشاعرة في ليبيا قد سادها قدر كبير من اللطف وحسِن المعاملة، وجميل التعايش، برغم ما ظلت تحفل به كتب قدماء الطرفين، وبعض حدثائهم من شدة وجفوة لم تقصر عن التضليل والتكفير. لكن ظل ما في الورق مزاياً لما في الواقع.⁽³⁾ وبمنظرة واسعة، واستقراء شامل يمكننا

1 - المذهب الأشعري بأفريقيا: التاريخ والواقع. بحث كتبه (جده حسن جمعة). بحث بمجلة العلماء الأفارقة. عن مؤسسة محمد السادس بالمغرب. العدد 2. 2020م، ص310. وينظر ص311 عند كلامه عن سلطنة صكتو. علماً بأن مملكة كانم برنو كانت تضم النيجر ونيجيريا وتشاد والكامرون وجزء من جنوب ليبيا. دخلها الإسلام أوائل القرن الأول الهجري.

2 - كتاب للأشعري متنازع على نسبه له. وقد طبع بتحقيق: عبد الله شاكر الجنيدي، ط: 2002، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ونسبه بعض الباحثين إلى تلميذه أبي عبد الله بن مجاهد الطائي ت 370هـ. وأصل الكتاب رسالة كتبها أبو الحسن الأشعري بأجوبة موجهة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (مدينة تقع على بحر طبرستان) (فيما سألوه عنه من مذهب أهل الحق في أصول الدين، وما كان عليه سلف الأمة).

3- من مثالات الكتب العنيفة لدى الإباضية (الجوهر المقتصر). لأبي بكر أحمد بن عبد الله الكندي. ط وزارة التراث القومي والثقافة. سلطنة عمان. 1403هـ. ص121 الباب الخامس والعشرون قال: ((ونحن نشهد لمن مات من هؤلاء مصرأً على خلاف ما دانت به الإباضية، بالخزي والصغار والخلود في النار)). كذلك كتاب (العقود الفضية في أصول الإباضية) للشيخ سالم بن حمد سليمان الحارثي. ط وزارة التراث القومي والثقافة. عمان 1403هـ ص172: ((قال العلامة الرياني المبارك جاعد بن خميس بن مبارك الخروصي: إني لأقسم بالله قسم من بر في يمينه، فلا حنت إن مات على الدين الإباضي الصحيح غير ناكث لما عاهد الله عليه من قبل... أنه من السعداء،

توكيد أن التاريخ الثقافي والعلمي في ليبيا- بصفة غالبية- لم يشهد تبنياً راسخاً، ولا قبولاً واسعاً إلا للعقيدة الأشعرية. ولم تحظ أي عقيدة غيرها بما حظيت به من انتشار، وثبات، وقبول. وهي التي ظلت إلى يومنا هذا عقيدة الغالبية الكبرى من علماء البلاد الليبية⁽¹⁾.

ويخرج من عموم كلامي هنا ما يتعلق بعلماء الإباضية الذين هم من أهل ليبيا، ويتبنون عقائد فرقة الإباضية، في تعايش وانسجام مع علماء الأشاعرة، والمالكية الليبيين. وإلى أولئك وجد بعض أتباع عقائد إسلامية أخرى، يشابه وجودهم - كميّاً- الشعرة البيضاء في الثور الأسود.

مع ملاحظة أن السنوات الأخيرة شهدت قدراً من الجهود والمسامحي الهادفة إلى إزاحة العقيدة الأشعرية عن ساحة التعليم، وتنفير طلاب العلم عنها، لكن كل ذلك لا يزال في نطاق المحاولات الواهنة، التي لم تثمر، ولا إخالها تثمر في ليبيا ولا في البلاد المغربية، برغم ما تبذله بعض البلدان الخارجية، من جهود، ونقود.

ومن أهل الجنة... وإن من مات على خلافه؛ فليس له في الآخرة إلا النار، وبئس المصير)). وورد في (شرح كتاب النيل وشفاء العليل) للشيخ محمد بن يوسف طفيش. ط دار الفتح. بيروت. 431/7 ((الشاك في كونه صواباً وكون دين مخالفاً خطأ؛ منافق ولو كان منا... والشاك في كون دين مخالفاً خطأ منافق، موافقاً كان أو مخالفاً، ولو من أهل ذلك الدين ولا يشم رائحة الجنة ولو صلى حتى يخرج عظم جبهته، أو صام الدهر عمره كله، وتصدق بلا غاية... والجنة يوجد ريحها مسيرة خمسمئة عام)). ولم يخل الحال وقت الأغلبية من صدمات ومغالبة بين المالكية والأشاعرة من جهة وبين بعض الفرق الأخرى، وأما القول بخلق القرآن فإن هذا الأمر قد نقل إلى المغرب بتأثير من مركز الدولة وعاصمة الحكم ببغداد فقد كانت أروقتها تعج بالقائلين بهذا الرأي، وبلغ أوجه في وقت حكم المأمون؛ فانتحله أمراء بني الأغلب للتقرب من مركز الخلافة، وكانت المناظرات تدور في أروقتهم. وامتنح في ذلك فقهاء المالكية كسحنون. الذي كان شديداً مع مخالفيه من الإباضية والصفيرية، والحنفية بعد تقويه بتوليه قضاء القيروان (ينظر ترتيب المدارك 600/2، وطبقات علماء أفريقية 3/ 102 لابن العرب). وقد ألزم ابن طالب أهل القيروان بالقراءة على قراءة نافع لا غير (ترتيب المدارك 3/ 198) وفي هذا ما يكشف مدى العنف الذي كان مسيطراً على الأطراف المتخالفة.

1 - يمكننا بكل وضوح وسهولة ملاحظة مدى ارتباط العقيدة الأشعرية بالمذهب المالكي حيث إن الأشعرية حين دخلت ليبيا والبلاد المغاربية، كان المذهب المالكي قد سبقها، وظلت العلاقة بينهما علاقة ارتباطية، على نحو غالب. فالغلبية العظمى من فقهاء المالكية هم أشاعرة المعتقد، ولا يخرم هذا العلاقة الوطيدة بينهما وجود عدد ملحوظ من فقهاء المالكية اختاروا وتبنوا غير عقيدة الأشاعرة من أمثال أبي عمر ابن عبد البر. صاحب التمهيد، والاستنكار. ومنهم أبو عمر الظلمنكي ومنهم عبد الله بن إدريس الفاسي (1350هـ) الذي كانت له صدمات وخصومات مع علماء المغرب بسبب عقيدته. ومنهم عبد الله محمد بن أحمد السنوسي الدلائي، صاحب كتاب (جهد المقل القاصر في نصره الشيخ عبد القادر). والسultan الفقيه (محمد بن عبد الله العلوي) الذي صرح بأنه (مالكي المذهب حنبلي الاعتقاد)) حسب تعبيره، في كتابه الفتوحات الكبرى. ثم ابنه أبو الربيع سليمان. الذي كان له تواصل مباشر مع الأمير سعود نصير دعوة محمد بن عبد الوهاب بعد سيطرته على نجد.

المبحث الثالث: الوجود الصوفي في ليبيا

بوادر الظهور الصوفي في ليبيا

((لم نثفق آراء الباحثين والمؤرخين على تحديد التوقيت الزمني الذي شهد ظهور الوجود الصوفي في الساحة الليبية. من شبه المؤكد أن الظهور المرئي للصوفية الطرقية في ليبيا، كان في أوائل القرن التاسع الهجري، ولا يترجح عندنا قول بعض الباحثين بوجود تصوف طريقي قبل هذا التوقيت، لأنه في أحسن أحواله - لو وجد - غير مؤثر، ولا هو واقع في مجال نظر المؤرخين المحققين، والباحثين المدققين، وإن سلمنا بوجوده قبل القرن التاسع الهجري فما هو إلا إرهابات تمهيدية؛ لما تحقق له الظهور في القرن التاسع الهجري. وقد رأينا هذا الرأي بناء على:

- 1 -مراجعة واستطلاع كتب التاريخ، والآثار، والرحلات ؛ فلم نعثر على ما يؤيد القول بوجود تصوف شعبي طريقي قبل القرن التاسع الهجري، ومنتهى ما ظهر قبل هذا التاريخ هو ظهور بعض الزهاد، والصالحين على نحو فردي، دون أن ينظمهم تنظيم طريقي، ودون اصطناع وسائل تواصل مع الجموع.
- 2 -عدم وجود أية آثار لحياة صوفية طرقية في ليبيا قبل القرن التاسع الهجري، فلا نعلم بوجود زوايا ضمت شعائر وتجمعات صوفية، وكل ما وجد مجرد قبور لبعض الصالحين، وبعض الرباطات التي سكنها الزهاد، وكانت مؤثلاً للسابلة، والغرباء. إن هذا الحال يسوغ لنا أن نفى ظهور التصوف الطريقي قبل القرن التاسع الهجري في ليبيا.

لابد لنا من النظر في الحالة التي كان عليها المجتمع الليبي في الحقبة التي ظهرت فيها ثم توسعت الطرق الصوفية - أي من لدن بدايات القرن التاسع الهجري، وما تلاه في عهد الحكم التركي .

كانت الحقبة الزمنية التي شهدت بادرات ظهور الطرق الصوفية في ليبيا، هي نفسها الحقبة الزمنية التي شهدت بدايات انتقال العالم من مرحلة العصور الوسطى إلى مرحلة العصر الحديث -أي في القرن الخامس عشر الميلادي- ولا يخفى أن بحث هاته الحقبة - في مجالها المغاربي عامة، والليبي خاصة- أمر عسير، ومرهق؛ لكونها من أفقر الحقب على

مستوى التأريخ والتوثيق)) (1)

وعلى كل الظروف استقر الوجود الصوفي وتوغل عميقا داخل البنية الثقافية الدينية الليبية، ووسط الكيان الاجتماعي الليبي الذي ظل التصوف وتقاليدته وأعلامه وأفكاره وطقوسه مكونة لعناصر ثقافية رسيصة ركينة، في بعدها الفيلولوجي، قبل بعدها الديني. ويرغم مرور ليبيا بحقب متطاولة من المعاناة الاستعمارية، فإن التصوف لم يفقد وجاهته وحظوته في أغلب أوساط المجتمع الليبي، وظلت الطرق الصوفية، وزواياها متوطنة في أغلب المدن والقرى الليبية.

لقد وجد الحضور الصوفي في ليبيا وقتها بيئة مهيأة موطأة، لكل ما ينطوي عليه التصوف الطريقي من خصائص وتقاليد، وكان ذلك شاملاً كل ((قطاعات الشعب، سواء الخواص أو العوام، وهذا ما لا يخفى عند مطالعة عوائد، وتعايير، وتقاليد، واهتمامات الناس في تلك الحقبة، مما نقلته بوضوح كتب الرحالة، والمؤرخين، كالعياشي، والتيجاني مثلا⁽²⁾. فقد كانت النفوس والعقول مؤهلة، وموطأة لقبول وتبني أي توجه صوفي، ولا سيما إذا كان منضوياً ضمن سياقات منظمة، ماثلة في طرق وزوايا، على النحو الذي كاتته الطرق الصوفية التي انتشرت في ليبيا، من لدن القرن التاسع الهجري.

لقد سجل لنا بعض الرحالة - ولا سيما في رحلات الحجج - الملاحم الغالبة على العقلية الشعبية لليبين، حيث تأكد واضحاً أنهم مسكونون بمعاني التبرك، والإيمان العميق بالغيبات، ومولعون بتصديق غرائب الكرامات، وتقديس الأولياء والصلحاء، وحريصون على بناء مقاماتهم، وزيارتها والعناية بها.

حتى إن المناطق المهجورة لم يخل بعضها من مزارات تزار وتقصد عندها البركة. من ذلك ما رواه العياشي حين وصل إلى إقليم برقة شرق ليبيا، وهو وقتها شبه مهجور ولا أمان فيه، فذكر وجود قبر محوط بالحجارة يسمى قبر سيدي يونس، وكذلك قبر سيدي عزيز الذي يزوره أهل البادية الأعراب؛ يتبركون به، فضلاً عن زيارات الحجج له سنوياً⁽³⁾. إنه شأن

1- ينظر للتفصيل كتاب: الصوفية والتصوف في ليبيا - خالد إبراهيم المحجوبي. دار ليبيا المستقبل-طرابلس-ط 30 وما تلاها

2 - انظر مثلاً رحلة عبد الله التيجاني. ص 213- 219- 247- 259- 262- 317. وكتاب: الرحلة العياشية لأبي سالم عبد الله العياشي 1/ 94، وقد كتب رحلته سنة 1064هـ وتوفي سنة 1090هـ

3 - الرحلة العياشية: 1/ 200، 206. وقد أشار لكثير من قبور الأولياء التي تزار. انظر من ذلك 1/ 136، 141، 184، 182

عام شمل الحواضر والبوادي.(1)

ولا يخفى علينا أن التصوف كان منطلقهُ مشرقياً بدايةً من مدرسة بغداد، وجهود صوفية العراق، ثم مصر، قبل أن يصل التأثير إلى الأندلس، والدول المغاربية وينشأ فيها تصوف مواز له خصوصيته وأعلامه كحميي الدين بن العربي، وابن سبعين، وغيرهم ممن أرسنوا تصوفاً نظرياً فلسفياً بنكهة مشرقية، تطور من الصيغة الفردية، إلى صيغة جمعية شعبية، أعني إلى تصوف طريقي شعبي، في سياق ما يسمى بعملية مغربة التصوف.

وهي عملية تحققت بجهود أعلام من أهمهم: عبد السلام ابن مشيش، وأبي الحسن الشاذلي، ومحمد بن سليمان الجزولي؛ فصار منهجهم، وتصوفهم ينتشر شرقاً وجنوباً لا سيما في بلاد المغرب الأقصى(2). وليس يغرب عنا أن ساحة التصوف المغربي هي المصدر المباشر لأهم الطرق الصوفية التي انتشرت في ليبيا.

الفصل الثاني: الهوية الدينية بين الاستتباب والاستلاب

المبحث الأول: استتباب الهوية الدينية، مظاهره ومهدداته:

ما أعنيه باستتباب الهوية الدينية، هو ثبوت العناصر والمظاهر التدينية، ووضوح الانتماء الديني واستقراره، ضمن نسق تناغمي سلمي تعايشي بين أفراد المجتمع. بحيث تغيب وقائع التنازع والتدافع، المتعلقة بالدين اعتقاداً وممارسة.

ولقد بدا لي أن حالة الاستتباب للهوية الدينية، إذا تحققت، فإنها تستتبع عدداً من المظاهر تنشأ وتبدي منها، وهي المظاهر التالي:

- غياب الفتنة في المجال الديني:

من شواهد كون ليبيا بلداً غير مناسبة لشيوع الفتنة فيها، ولا للنزوع الغالي

1 - الصوفية والتصوف في ليبيا - خالد إبراهيم المحجوبي. ص 34-35

2 - مر التصوف في بلاد المغرب الأقصى بمرحلتين : الأولى : مرحلة التبعية؛ حيث تم إدخال التصوف ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي من قبل حجاج الأماكن المقدسة، ومن الصعب الحديث في هذه المدة عن تصوف ((مغربي ؛ لكون أهم الصوفية المغاربة -أمثال أبي يعزى بلنور، وابن عربي، وعلي بن حرزهم- كانت صوفيتهم شرقية قلباً وقالياً. والمرحلة الثانية: مغربية التصوف: التي دشنها عبد السلام بن مشيش، فبرغم أنه درس على يد أئمة الصوفية التابعين -كأبي مدين الغوث وعلي بن حرزهم- فإنه لم يسلك مسلكتهم؛ بل سعى إلى التميز عنهم، وقد أكمل تلميذه أبو الحسن الشاذلي مرحلة مغربية التصوف لتصل ذروتها مع محمد بن سليمان الجزولي)).

للتوسع ينظر : <http://ar.wikipedia.org>

والمتطرف، أنها قد استعصت عن أن تكون موطناً لأي حركة تخريبية، أو تنظيم متطرف، أو توجه تكفيري، أو كيان تخريبي، برغم نجاح بعض أفراد من تلك الأنواع التنظيمية في الدخول ليبيا واجتراح بعض الأعمال المحدودة، والأنشطة المعدودة، لكن لم يصل الأمر إلى أن تكون ليبيا حاضنة لأي تنظيم أو حركة من ذلك النوع.

والمثير للإعجاب والعجب هنا، أن هذا الواقع متحقق في حالة الاضطراب الأمني والتدهور المعيشي، وعدم وجود سلطة مركزية حقيقية موحدة، تجمع كل أطراف البلاد، مع تكرار الحروب الداخلية، وسوء الأوضاع المعيشية للشعب، وهذه أحوال تمثل وضعاً مثالياً لنمو وتسرب تلك التنظيمات التخريبية، لكن الأمر في ليبيا كان مختلفاً، فالبيئة البشرية، والفطرة التدينية لم تسمح بذلك. ولم تُنح للفتنة الدينية أن تُثور بين الليبيين، فكان هذا مظهراً ناهداً مؤكداً لحالة استتباب الهوية الدينية لديهم. وأن تربتها غير صالحة لنمو بذور الفتنة، فهي لا تنبت فيها ولا تثمر، وقد حدث - غير مرة - أن زرع بعضهم فيها بذوراً للفتنة، لكن الحصيصة أنها لم تثمر، وماتت تحت تربتها، وخاب سعي زارعها.

-وحدة المرجعية الانتمائية:

ظلت البلاد الليبية طوال قرون طويلة متمتعة باستقرار جلي على مستوى الانتماء الديني، فلم تُتغير فيها ديانة الإسلام منذ دخلها الإسلام، أوائل القرن الهجري الأول. ولم يتغير الاختيار الأشعري لغالب علماءها منذ دخول العقيدة الأشعرية، أواخر القرن الثالث الهجري، ولم يتبدل المذهب المالكي من لدن دخوله إليها، أوائل القرن الثالث الهجري. ولم يتغير النزوع الصوفي في مجتمعاتها السكانية، من لدن ظهور الطرق الأساسية فيها، وبخاصة العيسوية، والعروسية السَّلامية.

وبهذا تحقق فيها ما سمَّته وحدة المرجعية الانتمائية، التي هي مظهر من مظاهر استتباب الهوية الدينية الليبية.

-الانعصام عن المرجعيات والمؤثرات الخارجية:

بالنظر إلى تشبع ليبيا بما فيها من علماء، وما شمله تاريخها من تراث روحي، وموروث ديني، فإنها لم تكن عرضة -بنحو مؤثر- للمؤثرات الخارجية الممثلة في عقائد، ومذاهب، وتيارات دينية، مخالفة لما هو سائد ومستقر بها؛ لذلك استتب فيها ما دخلها أول مرة. واستقر شأنها الديني على تبني ذلك الثلاثي التاريخي المحوري الذي ذكره ابن عاشر في

منظومته، حين قال في بيتها الرابع: ((في عقد الأشعري وفقه مالك** وفي طريقة الجنيد (السالك)).⁽¹⁾

- مهددات استتباب الهوية الدينية الليبية:

إن ما أكدناه من ثبوت حالة الاستتباب للهوية الدينية بليبيا، في معزل سرمدي عن أخطار محتملة، وتهديدات متوقعة قد يكون من شأنها، قلب الحال من الاستتباب إلى الاستلاب. ونحن باطلاعنا على السنن التاريخية، وتاريخ العقائد والدول والشعوب، لا يمكننا الجرأة على الجزم بديمومة هذا الحال، إننا لا نأمن مكر الله تعالى القائل {أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}⁽²⁾.

1- الدعوة إلى اللامذهبية:

ما أعنيه باللامذهبية ما صار يعرف بمنهج فقه الدليل، وقد ثبت عملياً أنه -رغم ما فيه من صواب- منهج ضرره أكبر من نفعه حين يستعمل في غير محله، ومن غير أهله، وعلى غير وجهه ولا سيما في بلد كلييا حيث إن ساحة التعليم الديني والتلقي شبه جافة، بعد عقود طويلة من التصحر وتجفيف منابع.

وتجيء المذهبية بصفتها ردة فعل لما شهدته بعض التوجهات المذهبية من غلو في تقديس المذاهب، وشيوع ما عرف بعبارة (قفل باب الاجتهاد). وقد كان من مظاهر الغلو المذهبي قول بعضهم بتحريم القول بغير ما ضمته المذاهب الأربعة. على النحو الذي أصله ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-. في كتابه (الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة)⁽³⁾. حيث كان من بواعث منعه اتباع غير الأربعة؛ نظره إلى المصلحة بحيث خاف أن يتصدر للفقه والاجتهاد غير أهله؛ فيفسدوا ساحة الفقه والشريعة، وهذا تخوف وتحرز

1- (المرشد المعين عل الضروري من علوم الدين) لأبي محمد عبد الواحد بن عاشر. مكتبة القاهرة للطباعة. د ت.

ص 2. وهي منظومة في أصول الدين على مذهب الإمام مالك ضمت 317 بيتاً من بحر الرجز في فقه العبادات، وقد ابتدأها بمقدمة ضمت أساسات العقيدة، وطرفاً من مسائل علم أصول الفقه.

2- سورة الأعراف. الآية 99

3 - الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة. ابن رجب الحنبلي. المركز العربي للاستشارات التربوية. ط1. 2016م. وقد رد على القول بأن الأئمة قد نهوا عن تقليدهم ص 35 وما تلاها. وقد كتبت بعض الكتب في الرد على كتاب ابن رجب. ولا مجال هنا للاستفاضة في هذه الجزئية. قال صاحب مراقبي السعود: ((والمجمع عليه اليوم الأربعة** وفقو غيرها الجميع منعه. /حتى يجيء الفاطم المجدد* دين الهدى لأنه مجتهد)). وللشيخ محمد الحامد كتاب (لزوم اتباع مذاهب الأئمة؛ حسماً للفوضى الدينية) وممن رد على هذا المنزع وليد ابن سيف النصر في كتابه (الرد على ابن رجب في إلزام الناس اتباع المذاهب الأربعة).

واقعي ووجيه. كما أنه نظر إلى واقع عدم تمامية وعدم استقرار أكثر المذاهب الأخرى وعدم جمعها متكاملة منضبطة، وهذا أمر واقع في عصره، أواخر القرن الثامن، حيث توفي سنة 795هـ. وقد نفى وجود أي إمام غير الأربعة قد دون مذهبه، وضبط وحفظ، وقال ((هذا لا يعلم وجوده الآن))⁽¹⁾ لكنه تغير مع مرور القرون حيث ظهرت المصنفات الفقهية الضابطة لعدد من المذاهب غير الأربعة، واستقرت واتضحت أصولها وتبينت فروعها.

إن اللامذهبية أو انتهاج ما عرف بفقهِ الدليل، ليس أمراً منكراً بإطلاق، بل هو منهج واجب الأعمال والانتهاج بحق من بلغ في العلم درجة الاجتهاد، أو -على الأقل - درجة القدرة على الترجيح. لكنه يصير منهجاً منكراً وضاراً في حالتين:

الحالة الأولى: أن يعتدل في مرحلة طلب العلم، وأن يوجه إليه الطلاب المبتدئون في مراحل العلم الأولى، دون ضوابط؛ فترتبك معلوماتهم، وتختلط محصلاتهم.

الحالة الأخرى: أن يمارسه طلاب العلم الأغرار، ممن لم يعمروا في سوح العلم، ولم يتعلموا آداب الطلب، ومدارسة العلوم. حينها سيكون انتهاج (فقهِ الدليل) فتنة، على النحو الذي لا يخفى علينا، ولا يغرب عنا. ولقد رأينا ولا زلنا نرى ما آلت إليه أحوال هؤلاء من تخط في فقهِ الأدلة، وتسم لمراتب الأئمة، والتطاول على علماء الأمة، دون روية ولا تبصر، ولا اتقاء. على نحو أدى إلى اصطناع كثيرات من الخصومات والعداوات، التي كفا في غنية عنها لو سار طلاب العلم الحُدثاء على سنن أسلافهم في الطلب، والتحصيل، والتوصيل. لقد صار منهج اللامذهبية في زمننا أشبه بكلمة حق، أفضت إلى باطل.

أما المههد الثاني لاستتباب الهوية الدينية الليبية فهو:

2- إهمال الحكومات، وصناع القرار الليبي للشأن الديني، ومترقاته:

من ذلك إهمال الرقابة، والإشراف، والدعم المتبصر للمؤسسات القائمة بالشأن الديني، كوزارة الأوقاف، وشؤون الزكاة، والكليات والمعاهد الدينية، وزوايا تحفيظ القرآن، والبعثات الخارجية للدراسات العليا الخاصة بعلوم الشريعة.

(إن من شأن وزارة جدية وفاعلة في الشؤون الدينية، في أي بلاد مسلمة، أن تضبط

النسق التديني للناس؛ بما تقدمه من تنظيم، وترتيب، وإشراف، ودعم، لكل ما يتصل بالشأن الديني في الدولة، ضمن استراتيجيات مدروسة، منضبطة بقواعد الشرع من جهة، وبمقتضيات الحفاظ على الدولة وسكانها من جهة أخرى، كل ذلك تحت إشراف أناس ومسؤولين متوفرة فيهم الأهلية، ومختارين بمقتضى معيار الكفاءة، قبل أي معيار آخر. حتى يتم اجتناب التقهّل في إصلاح الخلل، والتمهل في دفع الفتن. إن تحقيق ما سلف التنبيه إليه، سيكون ضامناً لتقليص فرص إيقاد الفتن، وزاعماً لتحجيم مواطن انبثائها، ومعيناً على اصطناع نمط تديني اعتدالي، غير منجرٍ إلى مهاوي الشطاط، ولا مزلق الإفراط، سواء في ذلك ما كان إلى جهة اليمين، أو ما كان إلى جهة الشمال).⁽¹⁾

وأما المهدد الثالث لاستتباب الهوية الدينية، فهو:

عدم توقير علماء البلاد، والمورث العلمي لعلمائها السالفين:

انقلب التوقير إلى تحقير من لدن انتهاج القذافي نهج تهميش علماء الدين، وإقصائهم عن الحياة العامة لليبيين، وإلغاء منصب المفتي، ومنع إنشاء دار للإفتاء بليبيا، ومنع إنشاء المعاهد والجامعات المتخصصة في علوم الشريعة باستثناء جمعية الدعوة الإسلامية التي أنشأها وأخضعها لنهج غرضي محدد، ومتابعة خاصة؛ وبسبب كل أولئك عاش علماء الشريعة في ليبيا أبأس سنوات أعمارهم فمنهم من سجن، ومنهم من أعدم، ومنهم من ضاع مهاجراً، ومنهم من صمت مستحسراً، ومنهم من انجر في سياق الركون للحاكم والتزلف له. وبرغم صكوك الحكم السابق لم تحدث نقلة نعوض ما سلف، لعدم وصول البلاد إلى حالة استقرار أمني وسياسي. لأمر ليس المقام مناسباً لتناولها هنا.

كل ذلك استتبع حلول حالة فراغ في المشهد الديني الليبي، وحالة وهن للهوية الدينية الليبية، أقامت تهديداً جاداً للاستتباب الذي عاشته الهوية الدينية بليبيا، طوال قرون متطاولة.

وأما المهدد الرابع لاستتباب الهوية الدينية الليبية:

-ظهور جماعات من أدعياء العلم بدعم خارجي مشبوه:

في سنوات القحط الديني التي امتدت أربعة عقود ونيّف (1969-2011)، كان

1- (الليبيون والفتنة). خالد إبراهيم المحجوبي. مقال منشور بصحيفة الوطن الليبية. بتاريخ 23-9-2010م

كثير من الشباب الليبيين متعطشين لموارد علمية، ومصادر تعليمية متعلقة بعلوم الشريعة، لكن لم يجدوا ما يروي عطشهم، ولا ما يشبع نهمهم، إلا في بعض ما كانوا يتعاطونه خلسة، وخفية من رسائل قزمية، أو أشرطة تسجيلية، أو كتب مهربة وراء أنظار الرقيب الأمني، مما كان مصدره الأساسي اتجاه واحد ومنهج واحد مأثاه من السعودية، ومصر. ولم يتح لأكثر من جيل ليبي أن يتلقى علوم الشريعة على علماء البلاد، الذين تلقوا بدورهم ما أنك صبرهم، وأبهظ كواهلهم، وأقلق معيشتهم من التضيق والاضطهاد، على النحو الذي ذكرناه قبل قليل.

وقد ترتب عن تلك الأحوال والوقائع أن نشأ جيل من طلبة العلم الذين تلقوا عنهم الديني، مجزأً، مفتتاً، مشوهاً. فكانوا طليعة لجماعات تملأ المساجد، ومواطن التعلم بفهم مشوه للدين، وفكر معكّر للشريعة، وهم بهذا شكلوا خطراً على حالة الاستتباب للهوية الدينية التي توارثها الليبيون من لدن القرن الثالث الهجري. ليس غلواً منا نعت المستبدلين هويتهم الليبية، والمزدرين علماء بلادهم، وتاريخهم العلمي بأنهم يكرهون أنفسهم، وبلادهم. فهم بسلوكتهم يقتلعون من نفوسهم الخصوصية الليبية، التي هي جزء من الهوية لا تعارض فيه مع الانتماء العربي، والانتماء الإسلامي.

ولا يغرب عنا أن من أمارات قوة كل بلد شدة انتماء أهله إليه، وتمسكهم بثقافته بلباسه ولهجته، وعاداته، وأعلامه، وتاريخه، كما أن التحلل من كل أولئك أمارات من أمارات الوهن والهوان والذل والاستخاء.

ومن مثالات هذا أن تعرض مسألة تخص عرفاً أو عادة ليبية فيسارع أحدهم ليسأل عنها سعودياً يبعد آلاف الأميال، ولم يزر ليبيا في حياته، أو يسأل أردنياً لا يدري أين تقع ليبيا، أو يمينياً، لم يغادر جبال اليمن. ولا يلتفت إلى علماء بلده الذين عاشوا فيها وخبروا أهلها، وأعرافها، وخفاياها.

ليس في كلامي دعوة لتقديس أهلنا وأعلامنا وعلمائنا، ولا ادعاء عصمتهم. بل إن النقد الذاتي أداة تقوية للذات، لكن على نحو مستبصر هادف، لا مستبشع ناسف.

وهنا لا بد من الثناء على جهود دار الإفتاء الليبية في طرابلس، التي بذلت جهوداً للحفاظ على الهوية الدينية لليبي، وسخرت إمكانياتها لتوطيد ذلك، وقد ظهر ذلك في التمسك بالمرجعية المالكية في الفتوى، وانتهاج المفتين بها مذهب مالك في إفتاء العوام. وإلى هذا

لا تحفى جهود بعض أهل العلم المشرفين على بعض الزوايا الصوفية المستنيرة، الذين جعلوا زواياهم منارات علم نافع لهاته البلاد وأهلها. ولم يتركوها نهبة للجاهلين بالشريعة والدين. يسنح لنا هذا برغم قلة المعاضد، وكثرة المعاند، ممن ارتبطوا بعلاقات خارجية مريبة، بدول أخرى، همها بسط نفوها على بلاد المسلمين وفرض خياراتها الفقهية والعقدية، من منطلق الوصاية الموهومة لديهم على الدين وعلى المسلمين.

المبحث الثاني: استلاب الهوية الدينية ومظاهره:

استلاب الهوية الدينية، أعني به الإضعاف والتشكيك في ركائز الانتماء الديني الذي يتبناه المتدين المعتز بدينه.

إن استلاب الهوية الدينية هو شكل من أشكال الاستعمار الثقافي، ونتيجة من نتائج تزييف الوعي، ومسح الواقع، وعامل من عوامل أرباك الحاضر، وتهديد المستقبل.

إن من أخطر مقترنات هذا الاستلاب الوقوع في الشعور بالدونية، والضعف، والعجز عن الإبداع الفكري والعلمي. وإن له مظاهر غير خافية، تلبس بها كثير من حدثاء الأسنان، من شباب هذه البلاد، الذين استلبت هويتهم الدينية الخاصة بأهل بلادهم. أما تلكم المظاهر والأعراض فأرى أن أهمها ما يلي:

- ازدياد علماء البلاد، وإشاعة أن ليبيا مفتقرة للعلماء:

هذا أمر صار مشاهداً على نحو جلي في السنوات العشر الأخيرة، بجهود حثيثة من جهات خارجية دعمت أفراداً من شباب الليبيين، وأوهمتهم أن بلادهم خالية من العلماء، وأن الشريعة وعلومها لا مصدر صالحاً لها إلا في بعض بلاد الخليج العربي.

- حصر الاعتماد على علماء دول خارجية محددة:

لقد استقوى هذا التوجه ببعض طلبة العلم الذين هاجروا خلال مدة حكم القذافي حذراً من بطشه إلى اليمن، والسعودية، والأردن خاصة. ثم جاؤوا متصورين أنهم سيمثلون هذا الفراغ العلمي، وسيغنون العلم الشرعي بما يحتاجه. لكن ما حدث كان شيئاً آخر. حيث أضحى كثير منهم مجرد مطية لدول خارجية تستعملهم لبث أفكار، ومبادئ، وأحكام، لا تلائم خصوصية البلاد، ولا تراث علمائها، ولا طبيعة سكانها.

- ازدياد المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية:

رأينا ذلك في كثير من الجهود التي رمت إلى إشاعة أنه مذهب غير ملتزم بالدليل، ومخالف لأحكام السنة، وأن علماءه لا يؤلون الأحاديث قيمة مرجعية واستشهادية في كتبهم وفتاويهم. وأن الأشاعرة قوم مبتدعون، ذووا عقيدة منحرفة عن العقيدة القويمة، وعن الإسلام، الذي يدعي أولئك الأدعياء تمثيله والكلام باسمه.

يمكنني التوكيد على أن للأمر بعداً نفسياً، فقد أحس هؤلاء في أنفسهم وبلادهم ضعفاً في مجال العلم الديني-لأسباب ذكرنا بعضها- فأصاب أنفسهم انهزام داخلي، وقابلية للتطامن والخنوع، فوجدوا ضالتهم في ساحة أخرى رأوها مستقوية كميّاً بالمتخصصين في علوم الشريعة، تتفق بسخاء في هذا المجال؛ فوقعوا تحت تأثير تلك السنة التاريخية التي أشهرها ابن خلدون، وهي: أن (المغلوب مولع بتقليد الغالب)، وبعبارتي أقول: إن الضعيف مدعن لشروط القوي، والفاقد خاضع لشروط الواجد.

لقد استحال الأمر لدى كثير من شباب ليبيا إلى نوع مرذول مستشنع من التبعية، التي استتبعها نزوع مخجل إلى الانبئات عن تاريخ هاته البلاد، والازراء بعلمائها، وأعرافها، حتى وصل الأمر إلى اجتناب اللباس الشعبي الليبي، إلى اللباس الخليجي، وأقبح من ذلك نزوع كثير من أدعياء العلم إلى اللهج بنحو لهجة أهل السعودية، ونغماتهم الصوتية في الدروس والخطب، وتلاوة القرآن.

وبرغم كون هاته الأمثلة من قبيل القشور والثانويات فإنها تكشف مدى المطال الذي بلغه المد الاستلابي الذي بلغه كثير من شباب الليبيين. وهو قدر مؤثر في اكتمال الهوية، وتمام الانتماء الوطني.

ويزيد الأمر إيلاماً أن الطرف التابع-من أبنائنا- ينتمي إلى بلد كان منذ نحو ثلاثة آلاف عام مركزاً حضارياً وفكرياً⁽¹⁾. والطرف المتبوع كان وقتها مركزاً لكثبان الرمال

1- ورد أول ذكر لقبيلة ليبية في عهد الأسرة السادسة (2625-2456 ق م) ثم في عهد الفرعون بيبي الأول (2281-2241 ق م) وهي قبيلة التمحو. يحفل التاريخ بتسجيل معالم الحضارة الليبية القديمة في بواكير ظهورها ضمن النظام القبلي من لدن أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، من مظاهر تطور تلك الحضارة المدرسة القورينائية، فقد أسس المذهب القورينائي أرسطيوس (435-366 ق.م) الذي ولد في مدينة قورينا (شحات) في شمال شرق ليبيا عام 435 ق.م، ويبدو أن أرسطيوس قد تتلمذ في شبابه علي يد السوفسطائيين أولاً، واستلهم منهم النزعة الحسية في مجال السعادة، ثم تتلمذ علي يد سقراط، وأخذ عنه الكثير في مجال الحكمة. من المفيد مطالعة ما كتبه =الباحث عبد العزيز الصويعي، في كتابه (تاريخ الحضارة الليبية) الذي تناول فيه العادات والتقاليد الليبية القديمة. وقد نُشر سنة 2013م

المحرقة، وجثث الهالكين في الصحراء عطشا وجوعاً.

ولا يغيب عنا ملاحظة افتقاد الليبيين طوال عشرات السنين التي سلفت لوزارة فاعلة وجدية خاصة بالشؤون الدينية، أما ما مرّ بنا من وزارات، وإدارات سابقة للأوقاف، فلم يكن أداؤها متساوياً مع ما شهدته البلاد من تحديات، ومستجدات على المستوى الفقهي، والديني بعامة.

ويزيد الأمر مضاضة أن أناساً يمارسون هذا السلخ لهوية الليبيين، تصرف عليهم الدولة الليبية، وتدعمهم بعض المؤسسات الدينية لدينا ليمارسوا جرائمهم الانسلاخية، والازدرائية بحق ليبيا، وتاريخها وأعلامها، وعاداتها وهويتها وخصوصيتها.

إن الهوية الدينية هي إحدى أهم معاهد الانتماء في الوطن، إلى جانب معقد الانتماء الثقافي، ومعقد الانتماء العرقي، ثم الانتماء اللغوي. والمسّ باستقرارها فيه إضرار بالوطن كله: أرضه، وشعبه، وتاريخه، وماضيه، وحاضره، ومستقبله.

الهوية الليبية:

لقد لاحظنا أن امتزاجاً عفويًا قد حدث بين الهوية الدينية، والهوية الوطنية لليبيين، وذلك مع بداية التشكل الحديث لليبيا الحديثة بمجرد خسارة وخروج المحتل الإيطالي من ليبيا سنة 1943م فقد تكاثرت الكيانات السياسية من أحزاب وحركات نشطت في توطيد الشخصية الليبية الحديثة على الصعيد السياسي، في وقت ظهرت فيه معالم إحياء الهوية الدينية تحت مظلة الحركة السنوسية بقيادة محمد إدريس السنوسي حامل لواء السنوسية التي كانت أبرز كيانات دينية مؤثرة في ليبيا قبل وأثناء وبعد الاستعمار الإيطالي والإنجليزي.⁽¹⁾

ولقد نعلم أن بداية التأثير الديني المؤثر في تشكيل الهوية الدينية الحديثة لليبيا قد بدأ مع ظهور الشيخ محمد علي السنوسي 1787-1859م حيث تم توكيد الانتماء الثلاثي الوطيد التليد القائم على: التصوف العملي-العقيدة الشعرية- المذهب المالكي. وبهذا لم تكن ليبيا استثناء بين كل دول المغرب العربي.

لقد ظل المواطن الليبي البسيط موزعاً بين من يخاطبه مرة بهوية مغاربية في نطاق

1 - ينظر في شأن الدور السنوسي الكبير كتاب (الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا المالكية). ص 277، 284 وما تلاها.

إقليمي، وآخر يجذبه لهوية القومية العروبية في انحصارها الانتقائي، وثالث نحو هوية أمازيغية بمبررها الأسبقي، وتوطنها التاريخي، ورابع يحاول إقناعه بأنه مجرد فرد ضمن أمة الإسلام، بلا هوية خاصة به، وآخرون ينظرون لهوية ليبية فينيقية قديمة تنصرف عن مستجدات التاريخ، وواقع الحياة.

والواقع أن الفرد الليبي هو مزيج من كل أولئك، من أمشاج صهرها التاريخ، وأنضجتها الجغرافيا، واحتضنها الإسلام، حتى انسبكت ضمن كيان محدد ضمته هاته البلاد المباركة يلا دنا ليبيا.

نقاط ضعف الهوية في ليبيا:

لقيت الشخصية والهوية الليبية -بشكل عام- قدراً من الاهتمام محدود، ووسط دراسات صدرت بواكيرها قبل نحو نصف قرن، من أشهرها كتاب معنى الكيان لعبد الله القويري. الذي كان مؤكداً لواقع (هشاشة الكيان الليبي) حسب تعبير الأديب عمر الكدي⁽¹⁾

برغم ما أثبتناه في هذا المكتوب من استتباب الهوية الليبية، فإن هاته الهوية قد انطوت على بعض نقاط الضعف. وهي ما كتته في أمرين هما:

1- الطبيعة البدوية القبلية الغالبة على ليبيا ومجتمعها:

وذلك على نحو مغاير لما كانته الحواضر العربية والإسلامية في الأندلس، والعراق، والشام، ومصر مثلاً. وليس يغيب عنا أن التأثير القبلي لا يزال حاضراً ومؤثراً في حركة ليبيا نحو الاستقرار، حتى في وقتنا هذا ونحن نتكلم ونكتب في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

2- افتقاد قيادة مركزية شاملة طويلة المدى قوية التأثير:

لذلك كان من نقاط الضعف في حقبة الملك إدريس السنوسي -رحمه الله- أنها لم تتل ثقة كل الليبيين من جهة كونها مركزية شاملة، بل ظلت تلمز وتوصف بالجهوية والانحياز للشرق الليبي، من طرف بعض الفاعلين الليبيين وسط المشهد السياسي الليبي وقتها، وحتى

1- هشاشة الكيان. عمر الكدي. مقال بصحيفة (هنا صوتك) الإلكترونية-

<https://hunasotak.com/article/19791>

بعد وفاته - رحمه الله .

لقد ظل واقع هشاشة الكيان، مواجهاً لكل المؤثرين في التاريخ الليبي المعاصر من لدن يوسف باشا القره مانلي، ثم محمد بن علي السنوسي، مروراً بالقادة السياسيين لحركة الاستقلال الليبي، والمؤسسين لليبيا الحديثة، وصولاً إلى أشهر الحكام المعاصرين لليبيا معمر القذافي الذي استفاد من تلك الهشاشة في توطيد حكمه الاستبدادي، الذي أرسخ الهشاشة الكيانية، وأوهن الهوية الوطنية على نحو لا تزال تبعاته ماثلة في بلادنا.

وفي سياق مقارب يقدم باحث الاجتماع (عمر التير) وصفا (لمسيرة مجتمع كان الأكثر أهليةً لدخول عصر الحداثة والديمقراطية من أوسع أبوابه من ناحية الاقتصاد والكثافة السكانية إلا أنه ابتلي بدكتاتورية تشبه إلى حد بعيد الدكتاتوريات الأسطورية. والتي تتحكم تتحكم فيها الغرائز والأنانية وحب الذات، والسلوك الاستعراضي).⁽¹⁾

في الحالات التي أتيح للمفكرين والمنظرين، والمثقفين الليبيين الكلام عن مفهوم الكيان والهوية الليبية، لم يزد كلامهم المسألة إلا تشظياً وتبعثراً، فظل المواطن الليبي البسيط موزعاً بين من يخاطبه مرة بهوية مغاربية في نطاق إقليمي، وآخر يجذبه نحو القومية والعروبية في انحصارها الانتقائي، وثالث نحو الأمازيغية في توطنها الأسبق التاريخي، ورابع يحاول إقناعه بأنه مجرد فرد ضمن أمة الإسلام، بلا هوية خاصة به، وآخرون ينظرون لهوية ليبية فينيقية قديمة تنصرف عن مستجدات التاريخ، وواقع الحياة.

والواقع أن الفرد الليبي هو مزيج من كل أولئك، وأمشاج صهرها التاريخ، وأنضجتها الجغرافيا، واحتضنها الإسلام، حتى انسبكت ضمن كيان محدد، وانسبكت في إناء هاته البلاد المباركة يلاذنا ليبيا.

وهنا لا أتوقع الحصول على أوضاع طبيعية للثقافة بليبيا، والهوية الدينية بها، بعد مرور الدولة الليبية بنصف قرن من الضباب الانتمائي، والافتقاد المفتعل للاستقرار الوطني. فبعد أن وصلت الدولة الليبية لمرحلة استقرار سياسي، واقتصادي أواخر الستينيات من القرن العشرين، تحت مظلة النظام الملكي، أصيبت تلك الدولة الوليدة بكارثة طال جثومها على كيان ليبيا تمثلت في نظام حكم شمولي مضطرب، الذي لم تكن نهضة ليبيا ضمن

1- انظر مقدمة كتاب (صراع الخيمة والقصر: رؤية نقدية للمشروع الحدائي الليبي). عمر مصطفى التير. ط منتدى المعارف.

اهتماماته، ولا مصلحة الليبيين بين أولوياته.

وقد كان من أوضح معالم بؤس تلك الحقبة ما أصاب الحالة الدينية فيها، حيث صار التدين مجرماً، وعلوم الدين في ساحة التخوين، وعلماء الدين في ساحة التجريم؛ مما أصاب الهوية الدينية للدولة بقدر من التشويه، الممزوج بضبابية محيرة. والمفارقة أن كل ذلك كان نتاج شخص لقب نفسه بقائد القيادة الإسلامية العالمية.

ومع سقوط ذاك النظام الحاكم سنة 2011م ورغم ضخامة الآمال التي علقها أكثر الليبيين على ثورة فبراير؛ دخلت البلاد في نفق جديد من الاضطراب والفوضى التي لم يكن لها عنوان محدد، ولا وجهة معلومة، ولا هدف مقصود.

وليس يغرب عنا أن مثل تلك الأوضاع التي مرت وتمر بها ليبيا هي أوضاع اصطنعت بيئة تشكل خطراً حقيقياً محققاً بالهوية الدينية الليبية التي تم لها الاكتمال بنسق تراكمي طوال نحو 1422 سنة. وتمتعت بقدر من الاستتباب استمر إلى أواخر العقد السادس من القرن العشرين.

((الهوية في دولة ما تتجلى فيها سمات تميزها عن سواها، وينتمي أبناء الوطن كلهم إليها، ويعتزون بها، ولها عناصر تحدها، كالموقع الجغرافي، والتاريخ المشترك، والعملية المشتركة، والعلم، والحقوق ذاتها، والواجبات عينها، مما يجعل الجميع خاضعين لقانونها العام، ومدافعين عن أرضها، ولو تشنت هذه السمات فستنهار الوحدة الوطنية، ونغدو شعوباً لا شعباً واحداً))⁽¹⁾

يعترض بعض الباحثين والمفكرين على اتخاذ الدولة هوية دينية، ويصيغ هذا الاعتراض أحدهم بقوله ((إن الدراسات السوسولوجية تؤكد أن لكل جماعة هوية توضحها خصائص تاريخية واجتماعية ودينية تعبر عنهم، ولكن عندما نجعل للدولة المؤلف شعباً من مكونات متعددة، هوية ترمز إلى مكون واحد من مجموع المكونات، لتميزه دستورياً على الآخرين، هنا تصبح هوية الدولة حالة استعلائية لهذا المكون على الآخرين، وبذلك تهافت كل مقولات المواطنة، ويضعف الانتماء الوطني، وهذه عقبة تعرقل تحقيق المشروع الوطني، واستقرار الدولة. الهوية الدينية للوطن، مشكلة أم حل؟ الحقيقة أن الهوية الدينية

1- (الهوية الدينية للوطن. مشكلة أم حل؟) مقال لأحمد الريح.

<https://www.harmoon.org/reports/> الهوية-الدينية-للوطن-مشكلة-أم-حل؟/

مشكلة لا حل))⁽¹⁾.

والواقع أن الدولة الليبية لا ينسحب عليها هذا الكلام؛ لأجل كونها خالية من التعددية الدينية، فلا دين رسمياً فيها إلا الإسلام. وكل مواطنها يدينون رسمياً به؛ فلا محذور من اعتماد الهوية الدينية الإسلامية هويةً معلنة ومعتمدة لليبيين. ولا يستقيم هنا قول الباحث ((فالهوية الدينية، داخل الدائرة ذاتها ومع الآخر المختلف عنها، لغم للصراع وعدم استقرار الدولة)).⁽²⁾ هذا القول لا يعدو أن يكون خوفاً في غير مخوف، وحذر في غير محذر.

قد يكون لهذا الطرح نصيب من الوجاهة والواقعية في الدول الطائفية كالعهد، والعراق، ولبنان. أما في الدول الأحادية غير الطائفية كليبيا فإن إعلان وتبني ودعم هوية دينية محددة (الإسلام - السني) سيكون مصدراً من مصادر الاستتباب والرسوخ الأمني على مستوييه: الوطني، والقومي. فضلاً عن كونه من ضوامن الأمن الفكري، والسلوكي، في مستواهما التديني.

وليس بوجيه عندنا الطرح العلماني القائل بوجوب أن تتعالى الدولة عن إعلان هوية دينية محددة لها، بقدر تعاليها عن تبني الفروقات بين الأقليات، والأجناس. فما كانت الهوية الدينية يوماً مضادة لتطور الدول ولا معرقة لتحديثها، ولا عائقاً عن اندماجها في النظام العالمي والأسرة الدولية. كما أن القوانين الدولية وأعراف الأمم المتحدة لا تمنع إعلان أي دولة عن هويتها الدينية ضمن الصياغة والتسمية الرسمية لها، من ذلكم مثلاً اسم (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)، والجمهورية الإسلامية الإيرانية، و(جمهورية باكستان الإسلامية). و(جمهورية أفغانستان الإسلامية) (أفغانستان اسلامي جمهوريت) ولا تمنع اتخاذ الدول رموزاً دينية في أعلامها الرسمية من ذلك رمز الهلال الذي يملأ أعلام كثير من الدول مثل ليبيا، وتونس، وتركيا، وموريتانيا.

إن إعلان وتبني هوية دينية محددة من شأنه أن يمتن ويرسخ قوة الانتماء للمواطن في بلده، وذلك حين يحس ثم يلاحظ أنه عضو في مجموعة بشرية جمعتها هوية واحدة، وأنه في معزل عن أن يكون نبيداً لا يشاركه الانتماء للوطن أحد. الأمر شبيه بحالة يكون فيها الإنسان فرداً وسط أسرة واحدة لأبوين مترابطين. ويقابله في الجانب الآخر شخص لقيط

1- نفسه

2- نفسه

لا يعلم نفسه أباً ينتسب له، ولا أما يؤول إليها.

الخلاصة

هنا نختم جولتنا البحثية التي قضيناها في غضون وثنايا ما يتصل بالهوية الدينية الليبية. وما تكونت به من عناصر وركائز. وما اكتسها من حالة الاستتبات والرسوخ، ثم ما انتابها من بؤادر حالة الاستلاب والرضوخ. ولقد أفضى بنا النظر والبحث إلى نتائج هي التالية:

النتائج:

- لا ينسحب على الدولة الليبية خطر تعدد الانتماءات والمشارب الدينية؛ لأجل كونها خالية من التعددية الدينية، فلا دين فيها رسمياً إلا الإسلام. وكل مواطنها يدينون رسمياً به، فلا محذور من اعتماد الهوية الدينية الإسلامية هويّاً معلنة ومعتمدة لليبية.

- لم يكن اعتماد الهوية الدينية يوماً مضاداً لتطور الدول ولا معرقلاً لتحديثها، ولا عائقاً عن اندماجها في النظام العالمي، ولا اندغامها وسط الأسرة الدولية. كما أن القوانين الدولية وأعراف الأمم المتحدة لا تمنع إعلان أي دولة عن هويتها الدينية الخاصة بها. -إن إعلان وتبني هوية دينية محددة من شأنه أن يُمتن ويرسخ قوة الانتماء للمواطن في بلده، وذلك حين يحس ثم يلاحظ أنه عضو في مجموعة بشرية جمعتها هوية واحدة، وأنه في معزل عن أن يكون نبيداً لا يشاركه الانتماء للوطن أحد.

- أن بداية التأثير الديني -المؤثر فعلياً- في تشكيل الهوية الدينية الحديثة لليبية قد بدأ مع ظهور الشيخ محمد علي السنوسي 1787-1859م حيث تم توكيد الانتماء الثلاثي الوطيد التليد القائم على: التصوف العملي -العقيدة الشرعية- المذهب المالكي. وبهذا لم تكن ليبيا استثناء بين كل دول المغرب العربي.

-إن الهوية الدينية هي إحدى أهم معاهد الانتماء في الوطن، إلى جانب معقد الانتماء الثقافي، ومعقد الانتماء العرقي، ثم الانتماء اللغوي. والمسّ باستقرارها في إضرار بالوطن كله أرضه، وشعبه، وتاريخه، وماضيه، وحاضره، ومستقبله.

-إن التشكلات والكيانات الإسلامية الموجودة على الساحة الليبية في وقتنا ليست هي معقد الانتماء الديني لليبيين، ولا هي الممثلة الرسمية للهوية الدينية لليبيين، إنها لا تتجاوز كونها إما حركات سياسية ذات مرجعية دينية، وإما حركات دينية دعوية، اتخذت

السلوك الحركي بصفته مقتضى من مقتضيات نظامها وأهدافها التي تؤمن بها، وتسعى لتحقيقها في سياق ما تراه دعماً ونصرة للدين والمسلمين.

- للهوية الدينية الليبية معالم وقسمات، تقوم على بناء ثلاثي الأركان تحت مظلة الإسلام الخالد. تلكم الأركان هي: العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف السني المستبصر، على منهج الجنيد.

- كانت بواكير امتداد المذهب المالكي خارج المدينة، قد توجهت تلقاء مصر حيث انطلق انتقال فقه مالك على نحو متدرج جزئي بنقل بعض مسائله وفتاواه عن طريق الفريق الريادي الأول من تلاميذ مالك. وكانت مصر نقطة انطلاق للمذهب نحو بلاد المغرب وبخاصة ليبيا. بعد أن سبقه إليها فقه الأحناف.

- لم يتم للمذهب المالكي الاستقرار في المغرب العربي إلا بعد تدافعات وتجاذبات وصراعات مع المذهب الحنفي من جهة وبعض ممثلي الإباضية والمعتزلة من ذوي الخطوة في دولة الأغلبة، حتى أفضى الأمر إلى استظهار واستقواء وتمكن المالكية بفقههم المالكي، وعقيدتهم السنية في أرجاء حكم الأغلبة في تونس وما شملته دولتهم من أجزاء البلاد الليبية وقتها.

- افتقاد الليبيين طوال عشرات السنون التي سلفت لوزارة فاعلة وجدية خاصة بالشؤون الدينية، أما ما مرّ بنا من وزارات، وإدارات للأوقاف، فلم يكن أداؤها متساوياً مع ما شهدته البلاد من تحديات، ومستجدات على المستوى الفقهي، والعلمي، والديني بعامة.

- إن من شأن وزارة جدية وفاعلة أن تضبط النسق التديني للناس، بما تقدمه من تنظيم، وترتيب، ورقابة، وإشراف، ودعم لكل ما يتصل بالشأن الديني في الدولة، ضمن استراتيجيات مدروسة، منضبطة بقواعد الشرع من جهة، وبمقتضيات الحفاظ على الأمنين: الوطني، والقومي، من جهة أخرى. كل ذلك تحت إشراف أناس مسؤولين، متوفرة فيهم الأهلية، يتم اختيارهم بمقتضى معيار الكفاءة، قبل أي معيار آخر.

- إن اللامذهبية أو انتهاج فقه الدليل، ليس أمراً منكراً بإطلاق، بل هو منهج واجب الأعمال والانتهاج بحق من بلغ في العلم درجة الاجتهاد، أو درجة القدرة على الترجيح. لكنه مظنة فتنة، وضار في حالتين:

1- الأولى أن يُعتمَل في مرحلة طلب العلم، وأن يوجه إليه الطلاب المبتدؤون في مراحل العلم الأولى، فينشؤون في معزل عن التأسيس الفقهي العلمي، القائم على معرفة أصول استنباط المذاهب، ومعرفة الفقه المقارن، واختلافات الفقهاء المؤسسين.

2- الحالة الأخرى أن يمارسه طلاب العلم الأغرار، ممن لم يعمرُوا في سوح العلم والطلب ولم يدمنوا مدارس العلوم، حينها سيكون انتهاج منهج فقه الدليل فتنه، على النحو الذي لا يخفى علينا، ولا يغرب عنا. ولقد رأينا ولا زلنا نرى ما يعثي أبصارنا، ويصكّ آذاننا، مما آلت إليه أحوال هؤلاء من تخبط في فقه الأدلة، وتسم لمراتب الأئمة، والتطاول على علماء الأمة، دون روية، ولا تبصر، ولا وعي، ولا أدب.

نقاط الضعف:

لقد انطوت الهوية الليبية-بعامة- على بعض نقاط الضعف. التي من أوضاعها:

1- الطبيعة البدوية القبلية الغالبة على ليبيا ومجتمعها: وذلك على نحو مغاير لما كانته الحواضر العربية والإسلامية في الأندلس، والعراق، والشام، ومصر مثلاً.

2 - افتقاد قيادة مركزية شاملة طويلة المدى قوية التأثير.

في سنوات القحط الديني واضطراب الهوية الدينية، التي امتدت أربعة عقود ونيف (1969-2011) - ولا تزال حتى يومنا - كان كثير من الشباب الليبيين متعطشين لموارد علمية، ومصادر تعليمية متعلقة بعلوم الشريعة، لكن لم يجدوا ما يروي عطشهم، ولا ما يشبع نهمهم، إلا في بعض ما كانوا يتعاطونه خلسة، وخفية من رسائل قزمية، أو أشرطة تسجيلية، أو كتب مهربة وراء أنظار الرقيب الأمني ولم يتح لأكثر من جيل ليبي أن يتلقى علوم الشريعة -بنحو طبيعي منتج- على علماء البلاد، الذين تلقوا بدورهم ما أنك صبرهم، وأقلق عيشهم.

وقد ترتب عن تلك الأحوال والوقائع أن نشأ جيل من طلبة العلم الذين تلقوا عليهم الديني، مجزأً، مفتتاً، مشوهاً. فكانوا طليعة لجماعات تملأ المساجد ومواطن التعلم بسلوكٍ مشوهٍ للدين، وفكر معكّرٍ للشريعة، وهم بهذا قد شكّلوا خطراً على حالة الاستتباب للهوية الدينية التي توارثها الليبيون، إلى يوم الناس هذا، وستظل إلى ما شاء رب العالمين. { فلا رادّ لفضله. يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم }

المصادر والمراجع

- القرآن المجيد.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. القاضي عياض بن موسى السبتي تحقيق: محمد الطالبي. تونس 1968م
- الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ناصر الدين محمد الشريف. دار البيارق للطباعة، عمان-الأردن. ط1. 1999م
- الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع. كتاب مشترك لنخبة من الباحثين. طبع بإشراف: الحاج دواق. عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود. 2016م.
- الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة. ابن رجب الحنبلي. مركز المربي للاستشارات التربوية والتعليمية. ط1. 2016م.
- الرحلة العياشية (ماء الموائد). أبو سالم عبد الله العياشي. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. دار الكتب العلمية. بيروت. 2010م
- سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد الذهبي. دار ابن الجوزي. القاهرة. 2016م
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. محمد بن محمد بن مخلوف. طبع بتعليق: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية. بيروت. د ت
- الصوفية والتصوف في ليبيا - خالد إبراهيم المحجوبي. دار ليبيا المستقبل-طرابلس-ط1 2022م.
- طبقات علماء أفريقية. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، تحقيق: علي الشابي، نعيم حسن، الدار التونسية للنشر 1968م
- مقدمة ابن خلدون. تحقيق: عبد السلام الشدادى- بيت الفنون والعلوم والآداب- الطبعة الأولى/الدار البيضاء-2005م.
- الدوريات:
- مجلة العلماء الأفارقة. تصدر عن مؤسسة محمد السادس بالمغرب. العدد 2. 2020م
- مجلة دعوة الحق. عن وزارة الأوقاف المغربية. العدد 273.

هوية رجال الإفتاء في ليبيا، فقهاً، عقيدةً، سلوكاً

أ. خالد محمد بن سعيدان/جامعة طرابلس/ كلية التربية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد

فهوية علمائنا بتنوع تخصصاتهم وميلوهم ليست وليدة لحظة أو عقد من الزمان أو قرن، بل هي صبغة مورثة من أسلافهم بأسانيدهم كبراً عن كبر، فلا يخفى على أحد من الدارسين لتاريخ الفقه وتاريخ العقيدة أو الدارسين لكتب التراجم والموسوعات بأن علماءنا كانوا في السائد هم على مذاهب أهل السنة التي انتشرت غرباً وشرقاً، المجمع على صحتها وقوتها وأصولها وفرعها، فهم في العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، وفي الفقه فهم على مذهب عالم أهل المدينة الإمام مالك بن أنس، وفي التصوف فهم على مشرب الإمام الجنيد، رضي الله عنهم جميعاً، وأجمل ما قيل في هذا المعنى ما قاله العلامة ابن عاشر في المرشد المعين:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

وانطلاقاً من هذه القاعدة الجليّة، سأتكلم عن رجال الإفتاء في بلادنا، مع نقل لبعض رجال الإفتاء من المذهب الحنفي؛ وذلك لأنهم كانوا على رأس الإفتاء لقرون، وبما أن الإفتاء الرسمي في بلادنا انحصر فيما وقفت عليه -مع ندرة المراجع وتبعثرها في الخزائن الخاصة وكثير منها مازال حبيسها-، في الفقه الحنفي والفقه المالكي، فسأتكلم على رجال الفتوى من الفقه المالكي لسواده في بلادنا، وعن رجال الفتوى من الفقه الحنفي لأنهم مارسوه في بلادنا، وأعتذر عن رجال الفقه الإباضي لعدم وقوفي على رجاله المفتين رسمياً فيما اطّلت عليه من المراجع والمصادر، وسيكون البحث في ثلاث نقاط هي:

- 1- ترجمة للمفتين مع إدراج تاريخ توليهم لهذا المنصب.
- 2- إثبات عقيدتهم الأصولية، وذلك من خلال ما نقله تلاميذهم، أو ما ورد في مؤلفاتهم، أو فتاواهم.
- 3- ذكر الطريقة السلوكية التي كان عليها وعلى من أخذوها إن أمكن للمفتين المترجم

لهم.

وفي الخاتمة بإذن الله سنتعرف على هوية رجال الإفتاء في بلادنا فقهاً، وعقيدة، وسلوكاً.

إشكالية البحث:

تأتي هذه الورقة من أجل التعريف بهوية رجال الإفتاء في بلادنا العزيز ليبيبا، من هم؟ وما مذهبهم ومنهجهم وعقيدتهم؟

منهج البحث:

فرضت التراجع نفسها على هذه الورقات، فمن أجل التعريف بالمفتين نحنا بنا السياق لأن يكون أكثر البحث تراجعاً للسادة العلماء، وبذلك تكون الدراسة كالتالي:

تمهيد: ذكرت فيه بسطة تاريخية عن بعض ما تعرضت له بلادنا من فتن وحروب قد تؤدي إلى انسلاخ أهلها من هويتهم، وكيف تعاملوا مع تلك الظروف، وكيف انصهر الاختلاف بين أفراد البلاد من غير ضرر ولا فتن، ثم ذكرت أمثلة لهوية رجال الإفتاء من السادة المالكية، وأخرى لهوية رجال الإفتاء من السادة الحنفية، وختكت بحثي بأهم النتائج.

تمهيد:

الحمد لله الذي أصبغنا بالإسلام، وجعلنا خلفاً لسلف تربوا وانتهجوا سبل الرشاد، فانطبع في وجدانهم كمال الإيمان، وأصبحت هويتهم ظاهرة للعيان، فكانوا على المنهج النبوي أصولاً وفروعاً وتربية، فن خالطهم من غيرهم عرفهم كما هم عليه، فلم يكونوا متفردين عن جيرانهم، بل هم منهم وإن طالت المسافة، فحافظوا على هويتهم الدينية وأورثوها لمن بعدهم دون تكلف وعناء، بل كان انسياً بكجريان الجداول بالماء، لا يعكر عذبا شائب ولا حائل ولا غشاء، وكلما أراد مفسد كدر صفوها لم يفلح ولا تحقق له رجاء، فهي معين زلال شديد الصفاء.

وربما تتغير الهوية الدينية والثقافية للأوطان بدخول مؤثر قوي ثقافي أو حكم سياسي، ويقابله أيضاً ضعف شديد ثقافي وانتماء وطني لأهل البلاد وسكانه، وهذا كثير ومشاهد في تاريخ الأمم والبلدان، والناظر في تاريخ بلادنا يجد أنها تعرضت لهجوم ثقافي يسانده حكم سياسي ضيق على الناس في أمر دينهم ومنهجهم ومذهبهم، ومن أشهر تلك الهجمات

اثنتان:

الأولى: عندما استولى العبيديون على بلاد طرابلس وأجبروا الناس على اتباع المذهب الشيعي الفاطمي.

الثاني: استلمت منظمة فرسان مالطا - منظمة دينية صليبية - كرسي طرابلس بعد تشاور طويل سنة 1530م⁽¹⁾ فاستلموها خراباً من الأسبان بعد هجومهم عليها "في 25 يوليو 1510م"⁽²⁾.

وعلى الرغم من العذاب الذي وصل لحد القتل لمن يصلي ركعتي الضحى والتراويح أيام حكم العبيدين، ورغم القهر وعدم إدارة البلاد من إدارة سياسية وإدارية لأكثر من أربعين سنة في فترة فرسان مالطا، إلا أن الهوية الدينية ظلت ثابتة راسخة في عقول ووجدان أهل البلد، فلم ينسلخوا من دينهم الحنفي، ولم يبدلوا مذهبهم المالكي الذي عرفوه من "تلاميذ الإمام وهم علي بن زياد الطرابلسي دفين تونس سنة 183هـ، ومحمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي وغيرهم"⁽³⁾، وظل لسانهم رطباً بقراءة الإمام نافع بروايتها قالون وورش، ولم يشككهم أحد في سلامة العقيدة التي كانت منج الصحابة والتابعين وتابعيهم، والذي جمعها ورتب مسائلها ونقل نصوصها الإمام أبو الحسن الأشعري، وهم على ما تربوا عليه سلوكاً جليلاً مقتدين بأسلافهم من أمثال الشيخ عبد الله الشعاب (ت 243هـ)⁽⁴⁾، والشيخ أبي نزار خطاب البرقي (ت 373هـ)⁽⁵⁾، ولم تكن لأهل العلم والإفتاء هوية منفصلة عن هوية أهل البلد، وإن القارئ في عصرنا هذا ليعجب كل العجب وهو يقرأ في كتب الرحلات عن أوصاف أهلنا وأجدادنا خاصة من القرن العاشر وما بعده، فما قالوه وما خبروه لجليل جميل، وبهذا أنقل بعض ما ساقه في حقهم العلامة العياشي في رحلته: (.... إلى ما جمع لأهلها الأوصاف، وجميل الأنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، ولا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغواً إلا سلاماً، ولو لمن استحق ملاماً، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين،

1- ينظر: طرابلس تحت الحكم الأسبان وفرسان مالطا، ص 52-53، بتصرف.

2- المصدر السابق، ص 15.

3- ينظر: الجواهر الإكليلية، ص 34-43.

4- ينظر: المنهل العذب، ص 54.

5- ينظر: المصدر السابق، ص 73.

فإنهم يبالبغون في إكرامهم، ولا يؤلون جهداً في إفضالهم وإنعامهم...⁽¹⁾

فلا يخفى على أحد من المتخصصين أو من العامة أن بلادنا مالكية المذهب، وأن علماءها يدرسون ويدرسون هذا الفقه في زواياها ومدارسها وجوامعها، ومع دخول البلاد تحت حكم الخلافة العثمانية أصبح مذهب السادة الحنفية مذهباً رسمياً؛ وذلك لحاجة الوالي وحاشيته لهذا المذهب المتبع أو الملزم إفتاء وقضاءً، مع وجود نائب مالكي يفصل بين الناس في معاملاتهم وأحوالهم الشخصية، وكذلك مفت مالكي، فمن أراد فتوى أو قضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة فله ذلك، ومن أرادهما على مذهب الإمام مالك فله ذلك، حتى صدور القانون الجديد في وقت الاحتلال الإيطالي "بأن القاضي الشرعي يحكم حسب مذهب الإمام مالك، إلا إن كان المدعى عليه مقلداً مذهباً آخر، وطلب الحكم منه على مذهبه، وهذا ما جاء في المادة الثانية من أمر الولاية المؤرخ 1925/3/31م، رقم 4435، والمادة الخامسة عشرة من الأمر الملوكي المؤرخ 1923/8/27م، رقم 2484."⁽²⁾

وهذا العارض دخل في نسيج الهوية التاريخية والثقافية والدينية لبلادنا دون ضرر ولا إضرار، بل انصهر الفكر والمذهب والدم في بعضهما بعضاً، وأخذ علماء المالكية على الحنفية، وأخذ الحنفية عن المالكية دون غضاضة ولا نفار، فمثلاً كان للشيخ مفتي المالكية محمد بن مساهل اثنان من الطلبة وكانا على مذهب الحنفية، (وزوجهما الشيخ ابنتيه، فلم يزل حالهما في الرقي إلى أن تولى أكبرهما فتوى الحنفية)⁽³⁾، كما أخذ أشهر المالكية من رجال القرن الرابع عشر مثل: الشيخ محمد الضاوي⁽⁴⁾، والشيخ محمد العالم الكراتي⁽⁵⁾، والشيخ عبد الرحمن البوصيري⁽⁶⁾، والشيخ مختار الشكشوكي⁽⁷⁾، عن مفتي الحنفية محمد كامل بن مصطفى، وأيضاً آخر مفت للحنفية في بلادنا الشيخ إبراهيم بن مصطفى باكير "كان من شيوخه الذين تتلمذ عليهم الشيخ نصر القمي من أكبر علماء المالكية، والشيخ

1- الرحلة العياشية، ص 135.

2- ينظر: ملخص الأحكام الشرعية، ص 380-381.

3- ينظر: الرحلة العياشية، ص 139.

4- ينظر: أعلام ليبيا، ص 380.

5- ينظر: جريدة الرقيب العتيد، ص 1.

6- ينظر: أعلام ليبيا ص 213.

7- ينظر: محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا، ص 140.

أحمد بن عبد السلام مفتي المالكية، والشيخ محمد بن موسى مالكي المذهب أيضاً⁽¹⁾.
أمثلة لهوية رجال الإفتاء من السادة الحنفية:

الشيخ العلامة مفتي الحنفية محمد بن شعبان الطرابلسي الحنفي الملوحي طريقة صاحب التأليف الباهرة، قدم القسطنطينية في عام 1016هـ وتناظر مع علماءها فظهرت مزيته وروعي حقه، وأقبل عليه شيخ الإسلام "صنع الله أفندي بن جعفر" وأعطاه قضاء بلده باعتبار الطريقة المولوية الصوفية-نسبة إلى مؤسسها جلال الدين الرومي- وأضاف إليه الفتوى والتدريس، قال في خلاصة الأثر: وفتاويه كلها مسلمة، وتقلد منصب الإفتاء من سنة 1016هـ إلى أن توفي سنة 1020هـ⁽²⁾.

والمتمعن فيما فعله شيخ الإسلام صنع الله أفندي يرى أن الثقة رحمت الشيخ محمد بن شعبان مفتياً على طرابلس، والثقة جاءت من أن شيخنا من أهل التصوف من مردي الطريقة المولوية، فلما ظهر علماً على مناظريه، مع تصوفه المشهور، كان أحق الرجال بهذا المنصب الأمين.

ومن الحنفية أيضاً الشيخ أحمد بن أحمد الشكري الجزيري، "المدرس في جامع شايب العين بسوق الترك، المنتظم في السلك الوظيفي عضواً في مجلس الإفتاء، ثم رئيساً للمفتين في الفترة من (1259-1264هـ)، ثم فوض له القضاء"⁽³⁾، وقبل أن يكون مفتياً بعام التقى فضيلته بالمصلح والمربي الصوفي المشهور الشيخ محمد بن علي السنوسي (ت)، ولم يفوت مفتينا الفرصة بأن يطلب الإجازة منه، فأجازته الشيخ السنوسي بمروياته في كتب التفسير والحديث وغيرها، وأجازته في عدة طرائق صوفية، وهي أربعون منها: الطريقة القادرية، والرفاعية، والشاذلية، والصديقية، والقشيرية، والنقشبندية، والزروقية، والناصرية، والمدنية⁽⁴⁾، وساق أسانيدھا في خاتمة الإجازة⁽⁵⁾.

ومنهم العلم الشهير الذي دانت له البلاد ثقافة وتدریساً وفتوى مفتي الحنفية الشيخ محمد كامل بن مصطفى بن محمود الشاذلي الزاوي، تولى الإفتاء من عام 1311 إلى

1- ينظر: أعلام ليبيا، ص 58.

2- ينظر: خلاصة الأثر، ج 3، ص 474-475، وينظر: المنهل العذب ص 228.

3- ينظر: بجلات محكمة طرابلس الشرعية ص 97.

4- ينظر: إجازة السنوسي للشكري، لوحة رقم (5).

5- المصدر السابق، لوحة (18-28).

1315 هـ، اجتمع حوله الطلاب والأعيان، "درس ودرّس في مدرسة عثمان باشا ومدرسة أحمد باشا وكان صاحب كرسي الحديث في جامع قرجي"⁽¹⁾، ولا يحتاج الباحث منا وقتاً طويلاً، ولا بحثاً دقيقاً، لمعرفة هوية الشيخ الدينية، فعندما أشرف على طباعة كتابه الفتاوى الكاملة في الحوادث الطرابلسية، صدر كتابه بعد الحمدلة والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم- (فيقول العبد الفقير محمد كامل بن مصطفى بن محمود الطرابلسي الحنفي الأشعري الشاذلي)⁽²⁾، وقد استفتح مسائل الكتاب بمقدمة في مسائل العقائد وما يناسبها، جمع فيها خمساً وعشرين مسألة سئل عنها فأجاب فيها بما يوافق عقيدة أهل السنة الأشاعرة.

فقد أخذ الطريقة السنوسية على مريدي الشيخ محمد بن علي السنوسي، حيث صرح بذلك في كتابه المجموع: (الحمد لله، وقد من الله تعالى عليّ بالاجتماع بالعالم الفاضل السيد الورع الكامل الولي الصالح سيدي عبد الله السني، الذي هو من خلفاء الأستاذ الأكبر والقمر الأنور الشيخ سيدي محمد السنوسي مراراً عديدة، وفي الاجتماع الواقع سنة ثلاث وتسعين ومائين وألف لقني ذكر الطريق الشاذلية، وألبسني الخرقه، وناولني السبحة، وأطعمني الأسودين التمر والماء، وأجازني بالطريق المذكورة وبغيرها من الطرق الأربعين التي احتوى عليها السلسيل تأليف الشيخ السنوسي المذكور، وأجازني بجميع الكتب والعلوم التي احتوى عليها المنهل الرائق تأليف الشيخ المزبور بجميع مسموعاته ومروياته إجازة عامة مطلقة تامة بعد أن قرأت عليه الأوليات، وهو يسمع، ولمدة كم سنة مات الشيخ عبد الله المذكور عليه سحائب الرحمة والرضوان)⁽³⁾، ولم يكتف مفتينا بالأخذ عن شيخه السني فقط، بل زاد واسطتين من تلاميذ السنوسي فقد قال: "ومن أجازني بما في المنهل والسلسيل المذكورين الشيخ سيدي محمد الطاهر الغدامسي، والشيخ سيدي الحاج أبو القاسم العيساوي، وأجازني الشيخ الطاهر المذكور بكتاب الشفا للقاضي عياض مناولة عن شيخه الأستاذ الشيخ السنوسي المذكور عن شيخه سيدي أحمد بن إدريس عن شيخه شمهورس الجني عن سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم-".⁽⁴⁾

1- ينظر: أعلام من طرابلس ص 178، بتصرف.

2- الفتاوى الكاملة، ص 1.

3- الشيخ محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا، ص 76.

4- ينظر المصدر السابق، بالصفحة.

كما كان الشيخ حريصاً على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وتكريماً لهذه المناسبة كان بيته مقصداً لطلبة العلم والمدّاح والأعيان ورجال الدولة، لأزيد من أربعين عاماً في بيته العامر، ونقلت جريدة الترقّي هذا الخبر: (وتلي المولد الشريف النبوي بغاية التعظيم، وكمال الوقار، ثم صار ختام الحفلة بالأدعية الخيرية لصاحب المقام الأسنى، والخلافة العظمى، ثم دارت المرطبات، وخرج الجميع داعين بطول العمر لحضرة الشيخ المومى إليه، أبقاه الله للعلم آمين)⁽¹⁾.

إذا كان هذا العلم وأبرز المفتين، ونخر المتعلمين، لم يجد غضاضة وهو في سن النضوج في أن يأخذ الطريقة ويلبس الخرقة، بل كان سيره سير أسلافه من المفتين من قبله، طاعة لله ورسوله، ناصحين للمؤمنين، نشروا العلم محبة وكرامة، ووصلوا إلى علوم وقدر من المعرفة لم يصل إليه كثير من المتصدرين اليوم، ومع هذا نجدهم متمذهبين بأحد مذاهب أهل السنة المشهورة، وهم على عقيدة أهل السنة الأشعرية أو الماتريدية، وعلى مذهب أهل التربية والسلوك تصوفاً.

أمثلة لهوية رجال الإفتاء من السادة المالكية:

ومن المشهورين الشيخ محمد بن أحمد بن مساهل، قال عنه الزاوي: "العالم الجليل الأستاذ الفقيه الصالح من علماء طرابلس، ولد بها، وتفقه فيها على أساتذة عصره، وروى بها وروى عنه، وكان حريصاً على لقاء الوفود للأخذ عن أهل العلم منهم، وكان من الحفاظ الثقات، والمحدثين الرواة، وكان عالماً بالفقه، عليه سيما الصالحين، ولم تكن له رحلة لطلب العلم.

قال صاحب الرحلة الناصرية: ولما أعفني من الإفتاء لزم بيته ومسجده لقراءة العلم ونفع المسلمين، وشيخه في الطريقة الشيخ محمد الصيد، وكان يذهب إليه في المنشير كل يوم جمعة ليصليها معه"⁽²⁾، "ولم يزل على ذلك منذ أربعين سنة يذهب ضحى إلى المنشير، فيصلي الجمعة ويدرس هناك في مسجد الشيخ إلى أن يصلي العصر ويرجع إلى المدينة، ولا يترك ذلك دائماً"⁽³⁾.

1- المصدر السابق، ص 114.

2- ينظر: أعلام ليبيا، ص 321-322، بتصرف.

3- ينظر: الرحلة العياشية، ص 138، بتصرف.

لقيه العياشي وذكر: أن ولايته للفتوى بلغت الأربعين عاماً، وله مع ذلك ميل قوي إلى طريق القوم، وقد أخذ الطريق عن ولي الله بلا نزاع، بين تلك البقاع، سيدي محمد الصيد، الذي أخذ الطريق عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة، وهو عن الولي الكبير والعلم الشهير سيدي أبي عمر القسطلي المراكشي⁽¹⁾.

ومنهم سليل العلماء المفتين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المكني، فقيه متصوف، كان المفتي لطرابلس لقراءة اثنين وأربعين عاماً، التقى به في هذه المدة الطيبة جماعة من علماء المغرب وهم في رحلة الحج المبارك، منهم:

العلامة الحسن بن مسعود اليوسي عندما دخل طرابلس وهو قافل من الحج في الثامن عشر من شعبان 1101 هـ التقى بالشيخ، بل استبقاه الشيخ ضيفاً عنده في داره بالمنشية⁽²⁾، وقد استجاز شيخنا العلامة اليوسي في العلم والطريقة شعراً حيث قال:

أيا شيخنا اليوسي يا شيخ وقته وعمدة أقطاب الوجود بذا الدهر
مقيد هذا المكني محمداً محبكم سراً وفي ظاهر الأمر
يؤمل منكم أن تجيزوه بالذي رويم ورويم من العلم والذكر⁽³⁾

وقد استجاب الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي لطلب الإجازة وأجازهم شعراً بخمسة عشر بيتاً اخترت منها هذه الأبيات:

1- ينظر: الرحلة العياشية، تحقيق: د. سعيد الفاضلي، ود. سليمان القرشي ص 137، بتصرف.

2- ينظر: الرحلة اليوسي، ص 91.

3- ينظر: المصدر السابق، ص 93.

محمد المكني ابن عالم عصره محط رحال الفاضلين مدى الدهر
وقد بلغت تلك المعاني كأنها حلي زانها الصواغ من خالص التبر
أجزت لكم في كل ما قد رويته وما قلت قبل من نظام ومن نثر
على شرطها المعتاد في كل دورة من الفهم والتحصيل والصدق في الذكر⁽¹⁾

والذكر المقصود في أبيات الإجازة أورد التصوف، وهو ما ناسب قافية الرءاء في
طلب الإجازة وفي الإجازة.

وكذلك التقى به صاحب الرحلة الناصرية سنة 1122هـ، وهو مازال مفتياً كما صرح
عند رجوعه من الحج في غرة جمادى الآخرة، وفي مستهل رواحهم أشار إلى أن الشيخ
محمد بن مقييل يكون ابن أخته⁽²⁾.

وفي سنة 1139هـ التقاه ابن الطيب ووصفه بالمفتي محمد المكني، وفي المقابل وصف
ابن الأخت ابن مقييل بالمفتي صاحب الفتاوى العلمية⁽³⁾.

وابن الأخت المشار إليه من قبل الرحالة أحمد ابن ناصر الدرعي وابن الطيب هو
مفتي المجلس الشرعي محمد بن محمد بن محمد بن مقييل⁽⁴⁾، كان أبوه مفتي طرابلس في الفترة
من 1081هـ إلى 1100هـ ونقل له تلميذه عبد السلام بن عثمان فتاوى في كتاب تذييل
المعيار، وقد استل الدكتور جمعة الزريقي هذه الفتاوى من التذييل ومجموعها 358
فتوى⁽⁵⁾، ووضعها في كتاب سماه: فتاوى العلامة الشيخ محمد بن محمد بن مقييل الكبير
مفتي طرابلس الغرب.

ومن المفتين الشيخ يوسف بن محمد المسلاقي المفتي لواحات جالو وأوجلة، وكان

1 - ينظر: المصدر السابق، ص 95-96، بتصرف.

2 - ينظر: الرحلة الناصرية ص 662.

3 - ينظر: رحلة ابن الطيب ص 115.

4 - ينظر: آفاق ووثائق، ص 14.

5 - ينظر: فتاوى العلامة الشيخ محمد بن محمد بن مقييل الكبير، ص 54.

تعيينه بأمر من المشيخة الإسلامية بعد الامتحان وكان ذلك في ذي القعدة عام 1328هـ نوفمبر 1910م، وجاءت التزكية من نحو من ثلاثين إمضاء من الوجوه والأعيان، وعقبه توقيع أعلام الزاوية السنوسية وشيخها الشيخ السنوسي بن مفتاح وغيره⁽¹⁾.

ولأن الشيخ من مريدي الطريقة السنوسية فلم يتأخر شيخ الزاوية وأعيانها ومريدوها عن تزكية الشيخ مفتياً. وله فتوى أطلعني عليها أحد الأحباب نقل فيها أقوال المذهب من ابن فرحون والمواهب.

ومنهم الشيخ مصباح بن مفتاح البرغوثي مفتياً لقضاء مدينة بني وليد، واستمر شيخنا في هذا المنصب ما يناهز الثلاثين عاماً؛ إذ تولى هذه الوظيفة في 16/ رمضان 1301هـ واستمر بها إلى أن لقي وجه ربه عام 1331هـ، وقال مختار بن يونس: (لا يوجد بيت في بني وليد يخلو من حكم أو وثيقة بيع وشراء، أو فتوى أو فريضة من إعداده، وجل عمره قضاءه في التدريس)⁽²⁾، فقد صرح مفتينا عندما نسخ كتاب أم البراهين بهويته التي عرف بها والتي ارتضاها فقال: (الورفلي نسباً ومنشأً، الأشعري اعتقاداً، المالكي مذهباً)⁽³⁾

وختاماً: نجد أن المفتي أحمد المكني هو تلميذ المفتي محمد بن مساهل وتلميذ أبيه المفتي محمد المكني، والأخير أخذ عن أبيه المفتي عبد الله المكني، ومحمد بن مقيل الكبير أخذ عن المفتي أحمد بن محمد بن عبد الله المكني، وأخذ عن ابن مقيل المفتي محمد بن أحمد المكني الحفيد، وأخذ عنه المفتي أحمد بن محمد المكني الحفيد، وعنه أخذ محمد بن مقيل الحفيد، وأخذ عن أبيهما وهما المفتي أحمد بن محمد بن مقيل والمفتي مصطفى بن محمد بن مقيل، فهؤلاء مفتون على مذهب الإمام مالك أخذ بعضهم عن بعض فقها وعقيدة وسلوكاً.

النتائج:

- إن هوية المفتين في بلادنا ليبيا هي على مذهب السادة الحنفية تبعاً للنظام الإداري للدولة الإسلامية في فترة الحكم العثماني، وعلى مذهب السادة المالكية فقهاً مسلماً، وأصولاً، وفهماً راسخاً، وعلى مذهب السادة الأشاعرة عقيدة، وعلى مذهب الجنيد

1- جريدة الترقى، السنة الرابعة، العدد (163)، تاريخ 8/ ذي القعدة/1328هـ.

2- علماء الغلابة وآثارهم العلمية، هامش ص 79.

3- ينظر: الشيخ مصباح برغوث (حياته وآثاره)، علي محمد برغوث، ص 50.

سلوكاً وطريقة. فلا يوهمنا واهم، ولا يخدعنا مخادع ومدلس بأن الصواب والفقہ خلاف ما كان عليه هؤلاء الرجال الأطهار.

- مع اختلاف وجود المذاهب الفقهيّة والعقدية في بلادنا لم يكن هناك تصعيد وتبسيط وتكفير بين أهلها وسكانها، بل كانوا جيراناً يبيعون ويشترون ويتشاركون، وفي الغالب يتزوجون مع حق بعض من أهلنا في حفظ هذا الجانب في عرقهم الخالص بهم.
- حافظ أهل هذه البلاد على هويتهم الدينية رغم القوة السياسية التي أدارت مقاليد البلاد، فهم مالكيون أشعريون صوفيون.
- إن المفتين الذين شملتهم الدراسة كانوا من مردي الطرق الصوفية، ولم يكن هذا غريباً ولا عجباً، ولا كفراً ولا فجراً، بل كانوا ثققات على الدين.

المصادر والمراجع

1. أعلام ليبيا، تأليف: الطاهر أحمد الزاوي، الناشر: دار المدار الإسلامي، الطبعة الثالثة 2004م.
2. أعلام من طرابلس، علي مصطفى المصري، الناشر: دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الرابعة 1986م.
3. آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، عمار مجيدر، 1991، دار العربية للكتاب
4. تذييل المعيار، عبد السلام بن عثمان التاجوري، تحقيق: د. جمعة محمود الزريقي، الطبعة الأولى 2008، الناشر: جمعية الدعوة الإسلامية-طرابلس-ليبيا.
5. الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا المالكية، تأليف: ناصر الدين محمد الشريف، الناشر: دار البيارق-عمان-الأردن، الطبعة الأولى 1999م.
6. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المؤلف: محمد أمين بن فضل الله محبي، الناشر: المطبعة الوهبية 1868م.
7. الرحلة العياشية، عبد الله بن محمد العياشي، تحقيق: د. سعيد الفاضلي، ود. سليمان القرشي، الناشر: دار السويدي للنشر والطباعة، الطبعة الأولى: 2006م.
8. الرحلة الناصرية 1709-1710م، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي،

- حققتها وقدم لها: عبد الحفيظ ملوكي، الناشر: دار السويدية-أبو ظبي، الطبعة الأولى 2011م.
9. رحلة اليوسبي، لمحمد العياشي بن الحسن اليوسبي، تحقيق: أحمد الباهي، الناشر: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، الطبعة الأولى 2008م.
10. سجلات محكمة طرابلس الشرعية، محمد عمر مروان، منشورات: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 2003م.
11. الشيخ مصباح برغوث حياته وأثاره، جزء من متطلبات الحصول على الليسانس، كلية الآداب والعلوم بني وليد، إعداد الطالب: علي محمد برغوث، 1998م.
12. طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، تأليف: ايتوري روسي، ترجمة وتقديم: خليفة محمد التليسي، الناشر: دار العربية للكتاب، مارس 2003م.
13. علماء الغلابنة وآثارهم العلمية، تأليف: مختار الهادي بن يونس، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1991م.
14. فتاوى العلامة الشيخ محمد بن محمد بن مقييل الكبير مفتي طرابلس الغرب، جمع وتحقيق: د جمعة الزريقي، الناشر: دار الإفتاء الليبية، الطبعة الأولى 1434هـ-2013م.
15. الفتاوى الكاملة، محمد كامل بن مصطفى، طبعة حجرية، بلاط وت.
16. ملخص الأحكام الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية، محمد محمد بن عامر، المطبعة الأهلية بنغازي، الطبعة الثانية، 1392هـ-1972م.
17. المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، الطبعة القديمة، والطبعة العربية الأولى 2015م، مكتبة الفرجاني طرابلس-ليبيا.
18. جريدة الترقى، السنة الرابعة، العدد (163)، تاريخ 8/ ذي القعدة/1328هـ.
19. جريدة الرقيب العتيد، السنة (26)، العدد (781)، الخميس 10/ ربيع الثاني/1354هـ.

دور المذهب الأشعري والتصوف السني في تشكيل ملامح الهوية الدينية في ليبيا

أ.د. محمد الرزقي/جامعة الزيتونة/ تونس

تمهيد:

عرف العالم في الثلث الأخير من القرن الماضي تحولات عميقة، يُعدّ أبرزها سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفياتي، مما عجل بظهور نظام دولي جديد سعى للسيطرة على دول العالم وصرها في بوتقته دون مراعاة لخصوصيات الشعوب الثقافية والدينية والاجتماعية.

تمثل مسألة الهوية هاجسا فكريا لأغلب نخب العالم، وتحديا واقعا للكثير من الشعوب، ولعلّ سؤال الهوية يزداد إلحاحا في العالم الإسلامي وخاصة في الدول العربية التي شهد الكثير منها انتفاضات شعبية عارمة، استطاع بعضها الإحاطة بأنظمة عتية كما هو الحال في ليبيا.

وتنتمي ليبيا إلى دول المغرب العربي والتي تدين جميعها بالإسلام فقد تم فتحها مبكرا وتحديدًا في العشرية الثانية من القرن الأول للهجرة، مما أثر بعمق في الشخصية الليبية وصاغ جانبا هامًا من كينونتها.

وتدين الأغلبية الساحقة من سكان ليبيا بالإسلام، وقد ثبت منهج الإمام الأشعري (ت324هـ/936م) في العقيدة ومذهب مالك (ت179هـ/795م) في الفقه وطريقة الجنيد (ت297هـ/910م) السالك في التربية، لكن في السنوات الأخيرة وبعد سقوط نظام معمر القذافي (ت2011م). برزت بعض التيارات التي ناصبت العداء للأشاعرة والصوفية، ودعت إلى تأسيس هوية جديدة لليبيا. لذلك يطرح اليوم هذا المؤتمر إشكالية الهوية الدينية في ليبيا.

لكن ما علاقة سؤال الهوية بالنظام العالمي الجديد؟ وهل من علاقة بين الأوضاع الداخلية وسؤال الهوية الدينية؟ وما هي مشروعية خطاب كل منهما؟ وهل أن خطابهما اليوم قادر على مواجهة التحديات الراهنة؟ وهل من سبيل إلى تجديد المدرسة الأشعرية والمدرسة السنية؟.

- تعريف الهوية الدينيّة ودواعي طرح هذه الإشكاليّة (1) تعريف الهوية الدينيّة:

تعتبر كلمة الهوية، بضمّ أولها، كلمة حديثة لم تعرفها معاجم اللغة العربية وهي مقابلة لكلمة (Identite) وإن عرفت كلمة أخرى قريبة منها وهي الهوية والتي تمثل الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب

المطلق⁽¹⁾، ويرى محمد عابد الجابري (ت2010م) أنّ الهوية بالضمّ والهوية بالفتح تعني المعنى نفسه باعتبارها كلمة مولدة من الهو قد اشتقّها المترجمون القدامى لينقلوا بواسطتها إلى العربية المعنى الذي تؤدّيه "هيست" بالفارسية وكلمة "إستين" باليونانية، أي فعل الكينونة في لغات الهند أوروبية والذي يربط بين الموضوع والمحمول⁽²⁾.

والهوية تعني أساساً التمايز عن الأغيار مقارنة بالحقيقة الماهية. فالحقيقة تعني أنّ الشيء ثابت وجوده في الخارج والماهية تفيد المعنى العامّ "فالشيء باعتبار تحقّقه يسمّى حقيقة وداتا واعتبار تشخصه يسمّى هوية، وإذا أخذ أهمّ من هذا الاعتبار سميّ ماهية⁽³⁾.

وقد استقرّ معنى الهوية ليدل على ما به الشيء هو بوصفه وجوداً متميزاً عن غيره⁽⁴⁾، لذلك فكل فرد له هوية تتكون من سمات متعددة وله مشاعر وانتماء تجاه أسرته ودائرة أصدقائه وقوميته ومكان ولادته ومكان إقامته والمؤسسة التعليمية التي درس بها⁽⁵⁾.

أما الهوية الدينيّة فهي نمط من الهوية تتشكّل على قاعدة الانتماء إلى معتقد ديني أو فرقة أو مذهب حيث أن مقوم الدين هو العامل الحاسم في بناء وتكوين هذا النوع من الهوية⁽⁶⁾. وتشمل الهوية الدينيّة الأفراد والجماعات والأمم لكن ماهي دواعي طرح سؤال

1- الجرجاني، علي بن محمد الشريف: التعريفات مكتبة لبنان ط1 / 1990 ص278.

2- الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي ط1 / 1986، 821 / 1

3- م. ن 1 / 821

4- جماعة، محمد، الهوية متعدّدة الأبعاد الراصد التنويري عدد 5/2009، ص39

5- ابن دنيا، سعدية، الهوية الدينيّة وسؤال الاختلاف مجلة مقدمات جامعة وهران 2 الجزائر العدد 4 سبتمبر

2017م، ص70

6- الهزائمة، محمد عوض، قضايا دولية تركت قرن مضى وقرن آتى دار حوران الأردن 1994م، ص22

الهوية اليوم؟

(2) دواعي طرح إشكالية الهوية

أ- سؤال الهوية والعمولة.

مثّلت حرب الخليج الثانية منعرجاً هاماً في التاريخ المعاصر، إذ مكّنت الولايات المتحدة الأمريكية من زيادة سيطرتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية، فصارت تقوم بوظيفة توزيع الأدوار. وازدادت هذه الهيمنة ضراوة بعد أحداث 11 سبتمبر 2011م، وقد أفرزت هذه الهيمنة أدوات جديدة للسيطرة، لعلّ من أهمّها العمولة والتي تعدّ لحام لمجتمعات العالم... مهما تباعدت بينهما المسافات ويتشارك فيها كلّ البشري الرؤى والخبرات والتحدّيات⁽¹⁾، ممّا أدّى إلى تجاوز الحدود الوطنية أو حدود الدولة الأمر الذي جعل العالم يصبح مجالاً اجتماعياً واحداً لا حدود له نسبياً⁽²⁾ نظراً لسرعة نشر المعلومات والمكتسبات التقنية والهدف باختصار أن يعيش العالم كلّها مثلها تعيش أمريكا⁽³⁾، لذلك تسمّى العمولة بالأمركة⁽⁴⁾. وتسعى هذه القوة العظمى لنشر المفاهيم والقيم التي تخدم كما وتدعم تفوّقها ولا تظهر أي اهتمام بخصوصيات الشعوب الأخرى وقد عملت جاهدة على حصر الدين في بعده الفردي وإفراغ الأديان من محتواها العقائدي والتشريعي والروحي والأخلاقي تمهيداً لتوحيدها تحت ظل دين عالمي واحد فتم دعم نظرية التقريب بين الأديان والسعي لدمجها باعتبار وحدة أصلها وعودتها إلى الدين الإبراهيمي والذي يمثّل مجالاً رضاً تذوب فيه جميع الفروقات الجوهرية بين هذه الأديان.

ب- سؤال الهوية والأوضاع الداخلية.

مثّل القضاء على الدولة العثمانية واستباحة الأراضي الإسلامية من قبل القوى الأوروبية الصّاعدة أحد العوامل الرئيسية في طرح سؤال الهوية.

1- عامر، مصباح، الاتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية ديوان المطبوعات الجامعة الجزائر 2006 ط 2، ص 34

2- بليس، جون وسميت، ستيف، عمولة السياسة العالمية ترجمة مركز الخليج للأبحاث دبي 2004م، ص 306

3- تشومسكي، نعموم، ماذا يريد العم سام، ترجمة عادل المعلم دار الشروق ط 1 / 1998م، ص 101

4- راجع: إسماعيل، فضل الله محمد، العمولة السياسية وانعكاساتها وكيفية التعامل معها بستان المعرفة ط 1 مصر 1999م،

فقد عملت هذه القوى الأوروبية، سواء في المشرق أو المغرب، على طمس الهوية الإسلامية وتغيير طبيعة المكان وتحويل عقلية الإنسان مما جعل من هذه الإشكالية محورا قارا في فكر رجال النهضة والذي انبسطت بعهدتهم مهمة بلورة معنى للهوية وصياغة إجابات ما ينبغي للمجتمعات الإسلامية أن تبنّاه حتى تخرج من مرحلة الانكماش والتخلف وتعود للإسهام من جديد في الحضارة الكونية.

فوجد جمال الدين الأفغاني (ت 1897م) يدعو إلى فكرة مركزية في جلّ مؤلفاته والمتمثلة في المحافظة على الهوية الإسلامية والمستمدة من القرآن الكريم أساسا والتي تعدّ الضمان الوحيد للمسلمين حتى يستأنفوا دورهم الحضاري من جديد⁽¹⁾، لتمثّل الهوية الإسلامية حصن الدفاع ضدّ الاحتلال وأداة هامة بأيدي حركات التحرر.

وإزداد الاهتمام بمسألة الهوية الإسلامية خاصة بعد احتلال فلسطين سنة 1948 من قبل الحركة الصهيونية بعد تعاونها مع بريطانيا مما حول الدين إلى عنصر هام من عناصر المقاومة خاصة أن الحركة الصهيونية انبنت أيديولوجيتها على جملة من العقائد اليهودية، وقد تحصّلت الكثير من الدول العربية على استقلالها من المحتل بداية من منتصف القرن الماضي ونالت ليبيا مثلا استقلالها سنة 1949 على إثر صدور القرار الأممي رقم 289 وعقدت أول جمعية تأسيسية سنة 1950 برئاسة مفتي طرابلس وقاد هذا الأمر إلى إعلان استقلال المملكة الليبية المتحدة واختيار إدريس السنوسي (ت 1983 م) ملكا لها.

وقام مشايخ الطريقة السنوسية بدور عظيم في تحقيق هذا الاستقلال ويكفي أن نذكر الشيخ عمر المختار (ت 1931م) شيخ زاوية القصور بالجبل الأخضر والذي خاص ضدّ المحتلّ الإيطالي ما يزيد عن مائتين وخمسين معركة في أقل من سنتين بشهادة القائد العام للإيطاليين.

وتولّى أحد شيوخ العائلة السنوسية الحكم إلى أن تمكن معمر القذافي في (ت 2011م) من الانقلاب عليه وتأسيس نظام جديد استمر لأكثر من أربعين سنة ليتم إنهاء حكمه سنة 2011 وتعرف السنوات العشر الأخيرة بروز جملة من التيارات الإسلامية وعلى رأسهم المداخلة والدين أعلنوا صراحة ودون مواراة معادتهم للمنهج العقدي السائد في البلاد وهو

1- راجع: عمارة، محمد، بين حقائق التاريخ، دار السلام القاهرة 2009 ص 207

المنهج الأشعري واعتبروه من المناهج الفاسدة فضلا عن معاداتهم الشديد لسائر الطرق الصوفية.

فهل من السهل تغيير البلاد وإزالة أركانها؟.

- دعائم الهوية الدينية في ليبيا

(1) المدرسة الأشعرية:

ظهرت المدرسة الأشعرية خلال القرن الثالث للهجرة على يد مؤسسها الإمام أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ / 936م) وحافظت هذه المدرسة على وجودها إلى اليوم الناس هذا وقد انتشرت في أغلب أرجاء العالم الإسلامي.

وعرفت إفريقية هذا المنهج مبكرا على يد الإمام أبو بكر بن عبد المؤمن القيرواني (370هـ / 980م) لتتحول القيروان خلال القرن الرابع للهجرة إلى أحد أهم مراكز نشر الأشعرية⁽¹⁾. وتدعم هذا المؤمن أكثر بقيام الدولة الموحدية التي جعلت من الأشعرية المذهب الرسمي للدولة وألف رأس السلطة الموحدية في علم الكلام من خلال رسالة العقيدة المرشدة وتبنت بعد ذلك المؤسسات التعليمية الكبرى تدريس هذا المذهب من أمثال جامع الزيتونة والقرويين والأزهر فنشأت أجيال من علماء المغرب العربي على هذا المنهج بما فيهم علماء ليبيا والذين ألفوا في هذا الفن وأقروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم المتنوعة ويكفي أن نلقي نظرة على كتاب: (عناية علماء البلاد الليبية بالتأليف في المباحث الكلامية) لصاحبه محمد سالم العجيل لندرك مقدار تمكن هؤلاء العلماء من مباحث أصول الدين، أمثال الشيخ الصادق العبادي المالكي (ت 1138هـ / 1725م) صاحب الشرح الممتع على متن ابن عاشر والذي سماه "إرشاد المريدين لفهم معاني المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، والذي فصل في بدايته أهل الاعتقاد على مذهب الإمام الأشعري (ت 324هـ / 936م).

أما الشيخ عبد السلام الأسمر (ت 880هـ / 1475م)⁽²⁾. فقد اعتنى عناية خاصة بتدريس المذهب الأشعري وكان يخصص له مجلسه الأصل نظرا لأهميته فضلا عن مؤلفه

1- النجار، عبد المجيد، فصول في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1992، ص 28

2- الأسمر، عبد السلام، الوصية الكبرى ط 1 / 1976م، ص 3

في هذا العلم والذي يحمل عنوان ما يجب في حق الله عز وجل وحق رسله عليهم السلام وحق الملائكة ويقول الإمام عبد السلام الأسمر بخصوص علم التوحيد ومؤلفه هذا "أوصيكم أيها الإخوان ... فعليكم بالتوحيد... وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليكم عقائد الإيمان فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف فقد وضعت لكم عقيدة في التوحيد فتخرجكم من التقليد ففيها عشرون ورقة ولا زيادة عليها فإن لم تقدروا على فهمها فعليكم بعقائد الإمام السنوسي" داعياً إياهم إلى النظر ومعرفة الدليل والبرهان قائلاً: "فليس من مشايخنا مقلد ولا مشكوك في إيمانه"⁽¹⁾، مما يجعل البحث في الفكر الأشعري "ليس مجرد بحث تراثي فحسب ولكنه بحث يتداخل فيه الماضي بالحاضر وترتبط فيه الصناعات الإيمانية لكثير من مسلمي اليوم بقناعات كثيرة من مسلمي الأمس ... فهي ليست دراسة لماضي ولي وأدبر ولكنها قبل كل شيء دراسة لواقع ثقافي في ديني معيش"⁽²⁾.

فقد ساهمت هذه المدرسة في تشكيل العقائد الكبرى لأغلب الليبيين من خلال اعتمادها التنزيه منهجاً ثابتاً لها واتخاذها من قوله تعالى "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"⁽³⁾ أصلاً كلياً في باب التوحيد فترد هذه الأدلة على المشبهة والمجسمة الذي يشبهون الله بخلقه كما ثبتت الصفات التي نسبها الله لنفسه وتفند آراء النفاة والمعطلة لكن بالمقابل توحد بعض الصفات التي وصف الله بها نفسه مثل الوجه واليد والاستواء والتي يوحى ظاهرها بوحى شبهة التشبيه فقد أولوها مع يتوافق ومبدأ التنزيه رغم أن الصحابة والتابعين لم يؤولوا هذه الصفات بل كانوا يتلقون هذه المسائل بلا بحث ولا سؤال لأنهم علموا المقصد الإجمالي نظراً لتضلعهم في اللغة أولاً وعمق إيمانهم ثانياً زيادة على أن الانشغال بالبحث في هذه المسائل لم يألوه وإنما خوض فيه عند دخول أمم كثيرة للإسلام حملت معها ثقافتها السابقة⁽⁴⁾.

ولعل من عداء هذه التيارات المعاصرة للأشعرية هي مسألة التأويل بالذات وذلك إتباعها لما انتباههم شيخهم ابن تيمية (ت 728هـ/1328م) والذي يرفض القول بالمحار في القرآن معتبراً أن ألفاظ القرآن يراد بها حقيقتها التي يؤصل الكلام إليها فأثبتوا الله وجهاً

1- م. ن، ص 3

2- البختي، جمال علال، مقدمة تحقيق مقدمات المرشد في علم العقائد، مكتبة الثقافية الدينية ط 1 / 2011 ص 6

3- سورة الشورى: الآية 9

4- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير دار سخنون دت 163/8

حقيقيا ويدا حقيقية وعينا حقيقة وقبضة حقيقية وساقا حقيقية ونزولا حقيقيا ونحوها من الصفات فهي عندهم حقيقية لأن القرآن يفيد هذا المعنى أما الكيفية فلا يحدد دونها وتعد وسطية هذا المذهب من بين الأسباب التي كتب له القبول عند الخاصة والعامة فضلا عن عدم استسهاله مسألة التكفير ويكفي أن مؤسس المذهب في احتضاره قال " لا أكفر أحدا من أهل القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد وإنما هذا خلاف في العبارات⁽¹⁾، كما أنهم لا يكفرون أصحاب المعاصي فهم عداة وليسو كفار ولا يخرجهم ذلك من الإيمان.

2) المدرسة الصوفية السنية

شكل التصوف السني يختلف طرقة ملاذا روحيا آمنا وحصنا اجتماعيا ثابتا لأغلب فئات المجتمع الليبي وقد أثر التصوف بعمق في الشخصية الليبية وطبع سلوكياتها وفلسفتها في الحياة.

وقد عرفت ليبيا الكثير من طرف الصوفية مثل الشاذلية والقادرية والتيجانية إلا أن أكثر هذه الطرق تأثيرا نجد الطريقة الأسمرية المتفرعة عن الطريقة العروسية والتي مازالت فاعلة إلى يوم الناس هذا.

كما نجد الطريقة السنوسية والتي قادت الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإيطالي واستطاعت تأسيس حملة من الكيانات السياسية والروحية القوية وتمكنت أيضا من تطوير مفهوم الزاوية وإخراجها من الأدوار التقليدية والصور النمطية وجعلت منها مركزا معرفيا وسياسيا يعبر عن الهوية الإسلامية ويحفظ لليبيين وجودهم وكيانهم لم تعرف ليبيا عبر تاريخها الطويل انتشارا للتصوف الفلسفي ويعود ذلك إلى طبيعة المجتمع والذي يغلب عليه البداوة والبساطة وينفر عادة من التعقيد فضلا عن طبيعة التصوف الفلسفي ذاته والذي يعتمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية مستخدمين في التعبير مصطلحا فلسفيا استمدوه من مصادر متعددة⁽²⁾، واهتموا بمواضيع غامضة مثل حقائق الموجودات

1- الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء مكتبة الصفا، ط 1/2003 88/15

2- الموسوعة الفلسفية العربية 1/263

العلوية والسلفية⁽¹⁾، وولعوا بعلم أسرار الحروف وتصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة⁽²⁾.

وساهمت عدة عوامل في ترسيخ التصوف السني داخل المجتمع الليبي وتحويله إلى سميت عام وضرب من ضروب الثقافة الاجتماعية ولعل من أهم هذه العوامل الطابع السني للتصوف والذي تميزت به أغلب الطرق الصوفية في ليبيا والتي كانت حريصة على بث العلم والالتزام بحدود الشرع لذلك نجد الشيخ علي بن الصادق العيادي الجبالي (ت 1138هـ/1725م) يدعو إلى المحافظة على الصلوات الخمس في الجماعة فإن ذلك أصلاً كبيراً وفضلاً كثيراً⁽³⁾. مؤكداً على ضرورة إتباع السنة واجتناب البدعة والحذر من الاجتماع بالصبيان واستعمال آلات اللهو كالدف والمزمار وأن ذلك ليس من سنة النبي المختار⁽⁴⁾. يعتبر هؤلاء المشايخ أنّ الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمح في الدخول⁽⁵⁾، لذلك دعوا إلى تعلم العلم والعمل به ومن لم يعمل بعلمه فهو من الجهال⁽⁶⁾ ومحروم من دخول باب المعرفة.

كما يحرض مشايخ التصوف في ليبيا على تدعيم الأبعاد التربوية بالتأكيد على تحقق بصفات التواضع والمحبة لكل الناس فيقول الشيخ عبد السلام الأسمر (ت 880هـ/1475م) وعليكم بالتواضع لجميع الناس بار وفاجر فإن كان تقياً فاقبستوا منه نورا وبركة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه وتواضعوا ولا تتكبروا فإن التواضع طبع الأولياء والتكبر طبع الشيطان الرجيم⁽⁷⁾، معتبراً أنّ التأدب مع الجميع المسلمين هو طريق الحق والصواب⁽⁸⁾ داعياً إلى الرفق وإظهار المحبة والشفقة وعدم ظلم أي عبد من عباد الله ولو كان يهودياً

1- ابن خلدون، المقدمة، دار الجبل بيروت د ت ص 520

2- راجع ابن خلدون، شفاء السائل بتهذيب المسائل، دار العربية للكتاب تونس 2006 ص 215

3- ابن صادق، علي، إرشاد المريدين لفهم معاني المرشد المعين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ط 1/ 2001 ص 713

4- م. ن، ص 724

5- ابن عجيبة، أحمد بن محمد، الفتوحات الإلهية دار الكتب العلمية بيروت د ت ص 65

6- الأسمر، عبد السلام، الوصية الكبرى ص 14

7- م ن ص 7

8- م ن ص 8

أو نصرانيا⁽¹⁾. وساهم مثل هذا المنهج التربوي في تحقيق التماسك الاجتماعي خاصة في مجتمع قبلي يحرص على توقير الكبير وإنزال الناس منازلهم والمحافظة على قيم التضامن ومال إليكما يقوله الامام عبد السلام الأسمر في حق قبيلة القواتير التي ينتمي إليها وعليكم بالحبّة في الفواتير وتعظيمهم وزيارتهم والتواضع لهم فهم مني وأنا منهم⁽²⁾.

لكن اليوم هل المذهب الأشعري والتصوّف السنيّ قادران على مواكبة التحولات

الراهنة؟

- سُبُل تجديد مقوّمات الهوية الدينيّة في ليبيا:

يعدّ المذهب الأشعري والتصوّف السنيّ من المقوّمات الراسخة للهوية الدينيّة في ليبيا، ويصعب في حقيقة الأمر محوهما من النفوس لكن يمكن تشويهما من خلال تسليط الضوء على بعض الانحرافات واعتماد أسلوب المغالطات وإثارة التناقضات مما يمكن من تكوين أجيال مستقبلية معادية لمقوّمات هويتنا ومفصولة عن دينها منهجيا وعقديا وروحيا.

ويزداد الأمر تعقيدا مع غياب الاستقرار السياسي وتسرب الكثير من هذه التيارات المعادية للأشاعرة والصفوية إلى مؤسسات الدولة مثل وزارة الأوقاف مما يمكنها من توجيه الخطاب الديني والتأثير في القرار السياسي خاصة أن الأطراف المتصارعة والاستفادة منها. وتثوّف هذه التيارات على دعم مالي وإعلامي كبير يمكنها من الوصول إلى فئات واسعة من المجتمع الليبي وخاصة فئة اليافعين والشباب والذين يتميزون عادة بقوة العاطفة والرغبة الجارحة في تغيير واقعهم فيوهمونهم أن المبتدعة من الأشاعرة والصفوية هم من يشدون ليبيا إلى الوراء.

وأرى من خلال تجربتي المتواضعة في هذا الباب ضرورة الخروج بجملّة من التوصيات العملية المتعلقة بتحديد المذهب الأشعري وإصلاح التصوف السنيّ وتنقيتها مما علق بهما من الشوائب وتمكينهما من قدرة على مواكبة المتغيرات العالمية والمحليّة.

1- م ن ص 16

2- م ن ص 11

(1) سبل تجديد المذهب الأشعري

اقترن ظهور المدرسة الأشعرية في التاريخ الإسلامي بمسألة التجديد، فقد استطاع هذا الفكر الناشئ حل الكثير من المعضلات العقدية والفكرية مثل مسألة أفعال العباد وخلق القرآن ونبوة النساء.

أصيب هذا الفكر بالجمود مثله مثل الكثير من العلوم الإسلامية لذلك لا بد من تجديد هذا الفكر وأول مظاهر التحديد يجب أن تتعلق بالإنتاج المعرفي لهذه المدرسة والتي يغلب عليها تحقيق النصوص والتعلق بالمتون، ونادرا ما نجد مؤلفات تبسط مضامين هذا الفكر بلغة معاصرة، وأن وجدت هذه المؤلفات فإنها تسير على منهج الأوائل فتبدأ هذه المؤلفات بذكر الواجب العقلي والممكن والمستحيل، وأتذكر لما أصدرت كتابي السيد في أصول التوحيد قواعد عقيدة التوحيد عند الأشاعرة وكان خاليا من مثل هذه المقدمات فتلقاه البعض بالامتعاض واعتبروا هذه المقدمات قسم أصيل لا يمكن الاستغناء عنه .

كما يغلب على أساليب التدريس الموجهة للعامة الاهتمام بالشروح والحواشي والإسهاب في تتبع شروح الشروح مثال ذلك تعاملهم مع مؤلفات الإمام السنوسي (ت 895هـ/1496م) أحد أهم الأشاعرة المتأخرين.

واعتماد مثل هذه الطرق في التأليف والتدريس تنفر عامة الناس ويتم استقطابهم من قبل التيارات الأخرى التي تعتمد البساطة ويقوم خطابها أساسا على اعتماد الآية والحديث مجرداً عن الأدلة العقلية لذلك لا بد من تصحيح مناهج التأليف وتغيير أساليب الاستدلال وتجديد الأمثلة المضروبة وجعلها أمثلة مستقاة من الواقع مع الاستعانة بالعلوم الحديثة.

واعلم أنّ مضامين المذهب الأشعري هي في الأصل موجهة للخاصة وبعض أصناف العامة فيجب أن لا نشوش عليهم عقائدهم فإنه إذا تليت عليهم هذه البراهين وما عليها من الإشكالات وحلها لم يؤمن أن نعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات⁽¹⁾.

لذلك يجب صياغة مدونة أشعرية جديدة مبسطة ومفهومة وخالية من الاستطرادات في المسائل التفصيلية ويراعى فيها أذواق أهل العصر اللغوية وقدراتهم الفكرية.

وقد راعى علماء الأشاعرة مثل هذه الشروط في زمانهم فيورد صاحب المواهب القدسية واقعة تخص والده فيقول لما قرأ على الشيخ الإمام السنوسي عقيدته الصغرى وختمها عليه بالتفسير غير ما مرة رأى أنه قد ثقل عليه درسها وحفظها لكبيرة وكثرة همومه فطلب من الشيخ -رضي الله عنه- أن يجعل له عقيدة أصغر من الصغرى بحيث يمكن درسها وحفظها فعمل له هذه العقيدة وكتبها له بخطه⁽¹⁾.

ويجب أن توكل هذه المهمة لنخبة الأبرع في فهم مسائل المذهب الأشعري وفهم مقتضيات العصر لأب مدرس علم التوحيد في هذا الزمان مثله مثل الطيب إن لم يكن حاذقاً ثاقب العقل رصين الرأي كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه⁽²⁾، وهو ما نراه اليوم فنجد مدرسا يقرأ شرحا ولا يفهم معناها أو يعجز عن تبليغ هذه المعاني لعامة الناس، ونجد أكاديميا يتخفى خلق ألقابه وعاجز عن تقديم مشروع نقدي لجملة القضايا المستحدثة فالمطلوب في هذا الزمان إعادة دراسته المسائل الجديدة المدرجة تحت موضوع علم الكلام ونقدها وحصرها وتبعها فالمطلوب إضافة المسائل الجديدة وإعادة الاستفادة من البحوث المعاصرة⁽³⁾.

(2) طرق إصلاح التصوف السني

اعترت الممارسات الصوفيّة الكثيرة من الانحرافات ومرد ذلك التراجع الحاد لطرق السير والسلوك والسيطرة الكبرى لطرق التبرك وقد حولت هذه الطرق مهمة التربية إلى منصب بتوارثه الأبناء عن الآباء وغيّبوا تلك الشروط الصارمة المطلوبة في مشايخ التربية مثل العلم الصحيح والذوق الصريح والهمة العالية والحالة المرضية⁽⁴⁾ وتغاضوا عن شرط التضلع في علوم الشرعية والذي يعد من أهم الشروط فيقول الإمام عبد الوهاب الشعراني (ت 973هـ/1565م) وقد أجمع القوم على أنه لا يصح للتصدر في طريق الله عز وجل

1- الملائي، محمد بن عمر، المواهب القدسية في المناقب السنوسية مخطوط رقم 22668 بدار الكتب الوطنية، تونس، ص 211

2- الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص 14

3- فودة، سعيده عبد اللطيف: تنفيذ الأسس النظرية والعلمية للإلحاد، دار ضياء للنشر والتوزيع الكويت 2013م، ص 30

4- الحيري فلاح، العهد والبيعة عند السادة الصوفية دار الكتب العلمية بيروت ط 1/2002م، ص 89

إلا من تجر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها وتجر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعارتها (1).

كما يجب أن يكون هذا الشيخ قد تربى على يد غيره وعرف المسالك حتى يقي من يقتدي به المهالك وأن يكون له سياسة في التربية وإحسان وصبر ويوصلهم إلى الله برفق ولين وفوق هذا يرى نفسه دونهم (2). وقد أجمع الصوفية على أن من به خمسة لا تصح مشيخته وهي: جهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، ودخول ما لا يعني، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة (3). وللأسف هذا النوع من الشيخ نجد الكثير منهم اليوم يتصدر للتربية في ليبيا مما جعلهم أبعد ما يكون عن طريق السير فهجروا المجاهدات ومالوا إلى الراحة وتساهلوا مع أصحاب البدع والدعاوي، واعتقدوا أن قراءة الكتب الصوفية هي التي تصير المزيد صوفيا محققا، فيجيبهم جلال الدين السيوطي (ت 911هـ/1505م) بقوله: فالذي خلق الجنة وبرأ النسمة لو قرأت من هذه الكتب عدد رمل عاجل (4) في مدة عمر نوح لم تصر صوفيا حتى يلج الحمل في سم الخياط (5)، مما جلب للتصوف تهمة الزندقة والمروق من الدين، وولع هؤلاء أيضا بعلوم لا علاقة لها بالتصوف ولا بالدين مثل علوم الحرف والعدد وعلم الأوقاف واحترفوا كتابة الأجابة حتى عدوا كتاب شمس المعارف الكبرى لأحمد علي البوني (ت 622هـ/1225م) من أعمق كتب الحكمة وهو في الأصل كتاب سحر بامتياز وقد حذر شيخ عبد السلام الأسمر (ت 880هـ/1475م) من مثل هذه الانحرافات واعتبر أعمال السحر كفر وردة، وحرّم الخطّ والتقازة والكهانة والجدول والعزائم (6).

وفي الختام يمكننا القول أنّ مقومات الهوية الإسلامية في ليبيا والتي عنيدا بدراستها في هذا البحث والمتعلقة بالأشعرية والتصوف السني هي مقومات راسخة وعميقة لكن يجب

1- الشعراي، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى دار الكتب العلمية بيروت ط 1/ 1998 ص 10

2- راجع الشعراي عبد الوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، مكتبة المعارف بيروت 1993 ص 71

3- الشافعي، أحمد بن محمد، المفاخر العلمية في المآثر الشاذلية دار الكتب العلمية بيروت ط 1/ 2004 ص 112

4- عاجل: رمال معروفة في البادية وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه (لسان العرب 10/249)

5- السيوطي، جلال الدين، تأييد الحقيقة العلمية وتشييد الطريقة الشاذلية دار القلم العربي حلب ط 1/ 2002

ص 121.

6- الأسمر، عبد السلام الوصية الكبرى ص 17.

على النخب العلية التقليدية والأكاديمية والممثلة لهذه المدارس الابتعاد عن دعوى الكمال والتهورية والتسلح بالرغبة الصادقة في إزالة كل الشوائب وتطوير هذه المدارس العريقة من خلال ترسيخ النظرة النقدية.

كما يجب على هذه النخب أن تطوّر من نفسها وثقن أساليب الجدل والمناظرة وتستفيد من كل العلوم الحديثة استعدادا لطور آخر أكثر خطورة والمتمثل في ظهور موجات عالية من الالحاد بدأت طلائعها في الظهور منذ سنوات بمنطقة المغرب العربي فضلا عن الاستعداد لمناظرة القاديانية والبهائية فقد عرف كلّ منهما توسّعا وتمدّدا في كلّ من تونس والجزائر والمغرب وليبيا ليست بمنأى عن هذا الخطر.

المصادر والمراجع:

- 1- إسماعيل فضل الله محمد، العولمة السياسية وانعكاساتها وكيفية التعامل معها بستان المعرفة ط 1 مصر 1999.
- 2- الأسمر عبد السلام، الوصية الكبرى ط 1 / 1976.
- 3- البختي جمال علال، مقدمة تحقيق مقدمات المرشد في علم العقائد، مكتبة الثقافية الدينية ط 1 / 2011.
- 4- بليس جون وسميت ستيف، عولمة السياسة العالمية ترجمة مركز الخليج للأبحاث دبي 2004.
- 5- تشومسكي نعوم، ماذا يريد العم سام ط 1 / ترجمة عادل المعلم دار الشروق ط 1 / 1998.
- 6- الجرجاني علي بن محمد الشريف التعريفات مكتبة لبنان ط 1 / 1990.
- 7 - جماعة محمد، الهوية متعددة الأبعاد الراصد التنويري عدد 5/2009.
- 8- الحيري فلاح، العهد والبيعة عند السادة الصوفية دار الكتب العلمية بيروت ط 1 / 2002.
- 9- ابن خلدون، المقدمة، دار الجبل بيروت.
- 10- شفاء السائل في تهذيب المسائل، الدار العربية للكتاب تونس 2006.

- 11- ابن دنيا سعية، الهوية الدينية وسؤال الاختلاف مجلة مقدمات جامعة وهران 2 الجزائر العدد 4 سبتمبر 2017.
- 12- الذهبي، سير اعلام النبلاء مكتبة الصفا ط 2003/1.
- 13- السيوطي جلال الدين، تأييد الحقيقة العلمية وتشييد الطريقة الشاذلية دار القلم العربي حلب ط 1/2002.
- 14- الشافعي أحمد بن محمد، المفاخر العلمية في المآثر الشاذلية دار الكتب العلمية بيروت ط 1/2004.
- 15- الشعراي عبد الوهاب، الطبقات الكبرى دار الكتب العلمية بيروت ط 1/1998.
- 16- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، مكتبة المعارف بيروت 1993.
- 17- ابن صادق علي، إرشاد المريدين لفهم معاني المرشد المعين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ط 1/2001.
- 18- عامر مصباح، الاتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية ديوان المطبوعات الجامعة الجزائر 2006 ط 2.
- 19- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير دار سخون.
- 20- ابن عجيبة الفتوحات الإلهية دار الكتب العلمية بيروت.
- 21- عمارة محمد، بين حقائق التاريخ دار السلام القاهرة 2009.
- 22- الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية بيروت ط 1/2004.
- 23- فودة سعيدة عبد اللطيف، تفنيد الأسس النظرية والعلمية للإلحاد، دار ضياء للنشر والتوزيع الكويت 2013.
- 24- الملاكي، المواهب القدسية في المناقب السنوسية مخطوط رقم 22668 بدار الكتب الوطنية تونس.
- 25- النجار عبد المجيد، فصول في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1992.
- 26- الهزايمة محمد عوض، قضايا دولية تركة قرن مضى وقرن آتى دار حوران الأردن 1994.
- 27- الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإثاء العربي ط 1/1986.

جهود علماء المالكية في الحفاظ على الهوية الدينية لليبيا في ظل السيطرة الفاطمية (296-435هـ/908-1043م)

د. وليد أحمد حمود/الجامعة الإسلامية بمينسوتا/ أميركا

المقدمة

استطاع المذهب المالكي أن يُشكّل الهوية الدينية للمغرب العربي، مما جعله أحد أبرز وأهم ممثلي التوجه الديني السني في هذه البلاد، والمسلم الأكبر في رسم هويتها الدينية، الأمر الذي جعله خط الدفاع الأول في وجه الحركات الساعية لطمس الهوية الدينية وتغييرها لهذه المنطقة، ولعل من أبرز الحركات التي سعت لهذا الأمر عبر التاريخ المغربي هي الدولة الفاطمية الشيعية، التي انتهجت سياسةً تقوم على مواجهة المذهب المالكي المتجذّر في البلاد المغربية عامة والليبية خاصة، في محاولةٍ منها لاجتثاث هذا المذهب، لعلها تتمكن من فرض فكرها ومذهبها، مما أدخلها في صراعٍ مع علماء المالكية، الذين عملوا على مواجهة هذا المشروع والعمل على إسقاطه، فاستخدموا كل ما يملكونه من قدرات وإمكانات حتى استطاعوا أن ينجحوا في إسقاط هذا المشروع مع المعز بن باديس في سنة 435هـ، الأمر الذي دفعني لدراسة هذا الصراع وآثاره، مبيناً دور العلماء وجهودهم في الحفاظ على الهوية الدينية للبلاد الليبية.

المذهب المالكي وانتشاره في البلاد الليبية:

إن الحديث عن البلاد الليبية يفرض علينا قبل كل شيء فهم التاريخ الجغرافي لها، لأن إطلاق مسمى ليبيا على الكيان السياسي الذي نعرفه اليوم بحدوده المتفق عليها لم يكن كذلك في العصور الأولى⁽¹⁾، إذ إن ليبيا كانت فيما مضى تشكل جزءاً كبيراً من إفريقيا الشمالية، ولكن دون تحديد جغرافي لها⁽²⁾، ومع الفتوحات الإسلامية شهدت ليبيا أكبر تحول سياسي في تاريخها، فقد تم تحديد مصيرها ومستقبلها السياسي بانضمامها للدولة العربية

(1) أحمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية،

كلية التربية، 1391 - 1971م، ص 6.

(2) إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة محمد خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، مصر،

الطبعة الثانية 1411هـ - 1991م، ص 24.

الإسلامية الكبرى، وتؤكد تعريبها بعد عدة قرون، أثناء العصور الوسطى⁽¹⁾، ليتحول هذا الكيان عبر الحقب التاريخية المتتالية، وما يحتويه اليوم في حدوده السياسية، إلى دولة تتكون من ثلاثة أقسام طرابلس وبرقة وفزان⁽²⁾، وهذه هي الأقسام التي تدور حولها الدراسات التاريخية المتعلقة بالبلاد الليبية.

وقد امتازت هذه البلاد منذ القدم بكونها البوابة التي تعبر من خلالها التغيرات والتحويلات القادمة من المشرق إلى البلاد المغربية، نظراً لموقعها المميز، فهي طليعة بلاد المغرب العربي، وهي تتصل بها في وحدة جغرافية واحدة⁽³⁾، وهي أيضاً الصلة الرئيسية ما بين المشرق والمغرب فهي منذ القدم موطن لأي قادم من مصر إلى إفريقيا وبالعكس، ولهذا فقد شكّلت القاعدة الأمامية لتقدم الفتح العربي من مصر إلى شمال إفريقيا، كما وكانت القاعدة الأمامية لتقدم الفاطميين من شمال أفريقيا إلى مصر، مما جعلها محور الصراع ومنطلق الحملات بين المنطقتين⁽⁴⁾.

وبناءً على ما تقدم؛ فقد شكّل الموقع الجغرافي للبلاد الليبية محوراً أساسياً في دراستنا للمذهب المالكي وانتشاره فيها، وفي بقية بلاد المغرب، فعبر أراضيها ارتحل مئات من علماء المغرب والأندلس نحو المشرق، كذلك دخلها علماء مشاركة اتجهوا نحو المغرب، فكانت طرابلس المدينة الأهم في ليبيا محط جموع هؤلاء العلماء للراحة من أعباء السفر، مما أسهم في التفاعل الثقافي بينهم وبين أهل البلاد، حيث يلتف طلاب العلم حول هؤلاء الوافدين فيصبحون حلقة درس في علم معين⁽⁵⁾، فشكّل هؤلاء العلماء النواة الأولى لانتشار المذهب المالكي وتأصله في البلاد الليبية بشكل خاص والمغربية بشكل عام، إذ إن انتشار المذهب

(1) جمال حمدان: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية دراسة في الجغرافيا السياسية، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر، 1999م، ص 29.

(2) الطاهر أحمد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة 2004، ص 18، محمود شاكر: ليبيا، الدار العلمية، الطبعة الأولى، 1392 هـ - 1972م، ص 79.

(3) زكية بالناصر القعود: المكونات السكانية في الأقاليم الثلاثة الليبية تجسد الحممة الوطنية قبيلة بني سليم نموذجاً مجلة الإناسة وعلوم المجتمع، جامعة المسيلة، المجلد 6 العدد: 1، السنة 2022، ص 73.

(4) جمال حمدان: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية دراسة في الجغرافيا السياسية، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر، 1999م، ص 30-31.

(5) يوسف أحمد حوالة، الحياة العلمية في إفريقيا المغرب الأدنى جامعة أم القرى، مكة المكرمة سنة 2000م، ص 192.

إنما كان عن طريق طلبة العلم الذين قصدوا الحجاز للحج أو طلب العلم فالتقوا بالإمام مالك بن أنس إمام المدينة، وأخذوا عنه العلم⁽¹⁾، ثم عادوا إلى بلادهم في المغرب فعملوا على نشره فيها، فكان لهم الدور الأبرز في نشر المذهب.

وبما أن ليبيا كانت تتمتع بموقع جغرافي مميز بين بلاد المغرب، فإنها استفادت من موقعها بوصفها حلقة وصل بين المشرق والمغرب، فتفاعل طلبة العلم والعلماء الليبيون مع العواصم الثقافية التي جاورتهم شرقاً وغرباً⁽²⁾، والتي ازدهر فيها المذهب المالكي، ففي الناحية الشرقية استفادوا من المصريين، الذين كانت بلادهم من أوائل البلاد التي انتشر فيها مذهب مالك بعد المدينة وغلب عليها⁽³⁾، ومن الناحية الغربية استفادوا من القيروان التي كانت قد شهدت نهضة حضارية مبكرة، فأقاموا معها علاقات ثقافية وعلمية انعكست على المذهب المالكي وانتشاره في بلادهم، حيث وصفت العلاقة بين القيروان وطرابلس بأنها «وطيدة قديمة، يمثلها ثلة من العلماء الذي لا تستطيع أن تقول إنهم طرابلسيون دون أن تنسبهم إلى القيروان، ولا العكس، لكثرة الرحلات والسفر، بل تغير الإقامة إلى الوفاة»⁽⁴⁾، فكانت هذه النقاط من أبرز العوامل التي انعكست انتشاراً واسعاً للمذهب في تلك البلاد، حيث ظهر علماء عدة في البلاد الليبية التزموا وتبنوا المذهب المالكي وعملوا على نشره.

وبما أن ليبيا كانت تتمتع بهذه المميزات، فإنه لا يُستغرب أن يكون من أوائل من قدم بالمذهب المالكي إلى المغرب هو أحد أبنائها، إذ تذكر المصادر التاريخية، أن علياً بن زياد الطرابلسي (ت ١٨٣ هـ) هو صاحب الفضل الأول في نشر المذهب المالكي بالمغرب، مما جعله يتبوأ مكانة مهمة في التاريخ العلمي للمذهب المالكي في تلك المنطقة، فهو يعد من الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك من سكان إفريقية، كما ويعتبر أول من أدخل

(1) بن بوزيد نخضر: دور العلماء في تشكيل الهوية الدينية والمذهبية لبلاد المغرب خلال القرن الثاني والثالث الهجري، مجلة مدارات تاريخية، المجلد ١ عدد ٢، 2019م، ص 39.

(2) عبد الرحمن راشد الحقان: خدمة العلماء الليبيين للمذهب المالكي، حولية كلية الدعوة، جامعة الأزهر مصر، العدد 29، 2017م، ص 541.

(3) القاضي عياض بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، (1/37).

(4) حمزة أبو فارس: أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات ELGA بمالطا، 2001م، ص 94.

الفقه المالكي للمغرب، فأول كتاب ظهر بالمغرب بعد كتاب الله كان موطأ مالك الذي أدخله ابن زياد، فكان له شرف السبق في كونه أول من كتب مسائل في الفقه والفتاوى التي تكلم بها مالك بن أنس⁽¹⁾، وبذلك يكون هذا العالم هو من وضع أسس الثقافة الإسلامية بشكل عام في المغرب الإسلامي والفقه المالكي بشكل خاص وشيّد بنيانه حتى صار العمدة والمرجع في هذا القطر⁽²⁾، حتى أضحى المذهب المالكي مع الوقت هو الممثل للهوية الدينية للمغرب عامة وليبيا خاصة، مما يجعلنا نقر بأن لليبيين الدور الأهم في رسم هذه الهوية، خاصة وأن أشهر علماء المذهب المالكي كانوا قد تلقوا العلم على يد علي بن زياد⁽³⁾.

غير أن القطر الليبي لم يقتصر على هذا العالم، بل شهد بروز علماء كثر من المالكية، أسهموا في انتشار المذهب، وعملوا على تحديد الهوية الدينية للبلاد الليبية بمناطقها ومدنها، فقد وردت في كتب التراجم والطبقات الكثير من الأسماء والألقاب التي تدل على مدن ومناطق ليبية معروفة مثل: الطرابلسي، البرقي، الإجدابي، الزليطني، الغرياني، السرتي وغيرهم⁽⁴⁾، فمن أشهر علماء المالكية الطرابلسيين:

- 1- أبو سليمان محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي (ت القرن الثالث الهجري)، قال القاضي عياض: «وفي روايته في الموطأ، جامع الجامع. وليس ذلك عند غيره، من أصحاب مالك»⁽⁵⁾.
- 2- محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي من أصحاب الإمام مالك⁽⁶⁾.

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (80/3)، ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، وبه ملحق الفتاوى الزاوية على مذهب السادة المالكية للإمام المفتي العلامة الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، دار البيارق للطباعة والنشر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1990م-1420هـ، ص34-37، محمد الطالبي: تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية 1968م، 22-24.

(2) يونس محمد محمود موسى: جهود علماء ليبيا في التأليف في الفقه المالكي العلامة الشيخ أبو القاسم التواتي أنموذجاً 1905-1981م، المجلة الليبية العالمية، العدد 38، سنة 2018م، ص 6.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (80/3).

(4) محمد مصطفى المنتصر: الجذور التاريخية للمذهب المالكي في ليبيا، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة المرقب ليبيا، العدد 18 لسنة 2019م، ص100.

(5) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (323/3)، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 41-42.

(6) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (323/3)، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 42.

- 3- حبيب بن محمد الأطرابلسي من أصحاب الإمام مالك وله سماع منه⁽¹⁾.
- 4- الشيخ عبد الله الشعاب أبو محمد، كان نجاراً لا يأكل إلا من كسب يده، ولد في طرابلس ونشأ بها، وبقي فيها إلى أن توفي سنة 243هـ⁽²⁾.
- 5- إبراهيم بن محمد الغافقي الأطرابلسي قاضي أطرابلس، توفي سنة 253هـ، بالمغرب⁽³⁾.
- 6- أبو الحسن علي بن أحمد بن زكرياء بن الخصيب المعروف بابن زكرون الأطرابلسي الهاشمي⁽⁴⁾.

وأما برقة فقد اشتهر فيها من علماء المالكية:

- عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة بن أسعد السبائي البرقي قاضي برقة، أوضح الزاوي أنه من علماء القرن الثاني الهجري⁽⁵⁾.
- عبد الكريم بن أبي يونس البرقي (ت 230هـ)⁽⁶⁾.
- محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم ابن أبي زرعة البرقي (ت 249هـ)⁽⁷⁾.
- عبد الرحمن بن عمرو البرقي أبو الفياض (ت 245هـ)⁽⁸⁾.

أما سرت فقد اشتهر فيها من علماء المالكية:

- 1- عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي (ت 281هـ) أبو حفص الفقيه العالم العامل الصالح العابد⁽⁹⁾.
- 2- خلف السرتي (ت 331هـ)⁽¹⁰⁾.

ومن خلال استعراضنا لعلماء المالكية في البلاد الليبية، يتبين لنا أن المذهب كان

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1990م، (217/1)، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 42.

(2) الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 2004م، ص 247، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 44.

(3) الحموي: معجم البلدان، (217/1).

(4) الحموي: معجم البلدان، (121/7).

(5) الزاوي: أعلام ليبيا، ص 227-229، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 43.

(6) الزاوي: أعلام ليبيا، ص 239، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 44.

(7) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (4/ 180-181)، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 47.

(8) ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 46.

(9) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (4/ 384)، ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 51.

(10) ناصر الدين الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 65.

منتشراً في أكثر المناطق، ولكن بنسب متفاوتة، حيث نجد بأن طرابلس بقيت المنطقة الأكثر انتشاراً للذهب، وهذا عائد ربما لأسباب عدة، إما لكونها مسقط رأس عالم المالكية الأول في المغرب، وهو الليبي علي بن زياد، أو لكونها منطقة لتجمع الحجاج، والذين يصطحبون معهم علماء بلادهم، أضف إلى ذلك كله موقعها المميز الذي جعلها محطة رئيسة في الرحلات العلمية ما بين المشرق والمغرب.

قيام الدولة الفاطمية وموقف الليبيين منها:

إن الطموح الشيعي في المغرب كان قد بدأ قبل قيام الدولة الفاطمية بفترات طويلة، وهذا ما أشار إليه ابن حوشب أحد دعاة الإسماعيلية باليمن، عندما طلب من أبي عبد الله الشيعي التوجه للمغرب، حيث أخبره بأن أرض المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان⁽¹⁾، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهّدة لك⁽²⁾، فما كان منه إلا أن جهّز نفسه وخرج مع حجاج اليمن إلى مكة في سنة 259هـ، فوصلها في الحج ثم أخذ يسأل عن حجاج تكامة، حتى استدل عليهم فاجتمع بهم وأخذ يشاركتهم في حديثهم عن فضائل آل البيت فأعجبوا به⁽³⁾، ثم سأله عن وجهته فأخبرهم بأنه يريد أرض مصر، فرافقهم فأعجبوا به وأصروا عليه بضرورة مصاحبتهم إلى أرض المغرب وقالوا له: «فأما إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك، ولم يزلوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم»⁽⁴⁾، فأكرموا وفادته وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام خاصة بعد أن أخبرهم أنه البشير بالمهدي وأنه صاحب البذر الذي أخبر عنه الحلواني وأبو سفيان، فازدادت محبتهم

(1) ذكر المقرئ أن هذين الداعيين هما من تلاميذ جعفر الصادق بينما شيخه ابن خلدون يذكر بأن الشيعة هم من أخرجهم إلى هذه البلاد، مما يدفعنا إلى نفي علاقة الإمام بهذين الشخصين، خاصة لما علم عن هذا الإمام من اعتزال للعمل السياسي. انظر ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت - لبنان، = الطبعة: الثانية، 1408هـ- 1988م، (3/45)، المقرئ: اتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة مصر، الطبعة الثالثة 1425هـ- 2005م، (41/1).

(2) المقرئ: اتعاظ الحنفا، (55/1).

(3) هذا يبين مدى استغلال الكثير من الناس لهذا الموسم العظيم إن في الخير أو الشر، حيث نلاحظ أن الشيعة يستغلون هذا الموسم لتحقيق الكثير من أهدافهم الباطلة، وحتى أيامنا هذه، فلا يُقدرون له حرمة، بل يستغلونه لسياسات آنية وأهداف مذهبية.

(4) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثانية، ص 40-34، المقرئ: اتعاظ الحنفا، (56-55/1)

له وعظم أمره فيهم وأثنه القبائل من كل مكان⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي قدم فيه أبو عبد الله الشيعي كانت الدولة الأغلبية⁽²⁾، في مرحلة الاحتضار، مما أتاح لهذا الداعي وبعد حروب بينهما، إزالة هذه الدولة التي تمثل النفوذ العباسي في المغرب وذلك في سنة 296هـ⁽³⁾.

وبعد هذه الانتصارات التي حققها أبو عبد الله في المغرب، أرسل وفداً من كمامة إلى سلمية لدعوة عبید الله المهدي (ت 322هـ)⁽⁴⁾ "إلى بلاد المغرب"⁽⁵⁾، فخرج عبید الله من سلمية في زي التجار قاصداً بلاد المغرب، مروراً بمصر التي وصلتها كتب الخليفة العباسية تبين أوصافه وتطلب بالقبض عليه⁽⁶⁾، غير أنه استطاع أن يتفقت من كافة العوائق التي اعترضته في طريقه⁽⁷⁾، إلى أن وصل إلى سجلماسة⁽⁸⁾ من أرض المغرب، التي ألقى أميرها القبض عليه وأودعه السجن، ولكن أبو عبد الله الشيعي سرعان ما استطاع

(1) المقرزي: اتعاظ الحنفا، (70/1).

(2) حول نشأة هذه الدولة وبداياتها وأهم الشخصيات فيها. انظر ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر الجزء السادس: الدرّة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1380هـ-1991م، ص 24-43.

(3) المقرزي: اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 92.

(4) عبید الله بن الحسن المنعوت بالمهدي، اختلف في نسبه اختلافاً كبيراً، وهو أول الحكام الفاطميين ومؤسس دولتهم في شمال إفريقيا. انظر النوري: نهاية الأرب، ج 28، ص 100-115، المقرزي: المقفى الكبير، ج 4 ص 523-570، اتعاظ الحنفا، ج 1، ص 90-73، الزركلي: الأعلام، ج 4، ص 197، حسن إبراهيم حسن وطه شرف: عبید الله المهدي، ص 77-80.

(5) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 4 ص 44، المقرزي: اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 90.

(6) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 158-191، ابن الأثير: الكامل، تحقيق: عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ-1997م، ج 6 ص 589، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 419.

(7) حيث أنه تعرض لعدة عوائق منها أنه ألقى القبض عليه من قبل والي مصر، وتعرض له عدد من اللصوص وقطاع الطرق ولكنه استطاع التخلص من هذا كله بما كان ينفقه من الأموال على كل من يقف في وجه تحقيق هدفه. انظر المقرزي: الخطط، ج 1، ص 90-91.

(8) مدينة في جنوبي المغرب ثاني مدينة إسلامية تبني في المغرب بعد القيروان، اتخذها بنو مدرار عاصمة لهم وهي اليوم موقع أثري ضمن حدود مملكة المغرب. انظر البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1992م، ج 2 ص 835.

أن يخلصه من السجن بعدما حققه من انتصارات واسعة في المغرب⁽¹⁾، ليدخل به إلى رقادة عاصمة دولتهم في سنة ٢٩٧هـ حيث استقبله دعائه ومؤيدوه، وقاموا بمبايعته⁽²⁾.

ثم دُعي له بعدها بالخلافة في يوم الجمعة من ربيع الثاني سنة 297هـ، وتلقب بالمهدي لدين الله وبأمر المؤمنين⁽³⁾، وما إن استقامت له الأمور في البلاد، حتى قام بقتل أبي عبد الله الشيعي الذي تدين له الدولة الفاطمية بقيامها⁽⁴⁾، بعد أن أخذ يشكك في شخصية المهدي فتخلص منه هو وأخوه في جمادى الآخرة سنة 298هـ⁽⁵⁾، مما أثار حالة من الفوضى في تلك البلاد⁽⁶⁾ استطاع بعدها عبيد الله أن يتخذ سلسلة من الإجراءات هدأت الأوضاع، فقام بالاستعانة بولاية جدد وأسس عاصمة جديدة للملكة، ودون الدواوين وجبي الأموال واستعمل العمال، إلا أن حالة إفريقيا غير المستقرة وكثرة الثورات⁽⁷⁾ الراضية للوجود الفاطمي، كانت من أهم العوائق أمام هذه الدولة الوليدة.

وأما ليبيا، فإنها لم تكن بعيدة عن هذه الثورات، والتي أكد من خلالها الليبيون معارضتهم للدولة الفاطمية، ففي سنة ٢٩٨هـ ثارت قبائل وجماعات من زناته وملايئة، فزحفوا جميعاً على مدينة طرابلس وضربوا حولها الحصار، ولكن عبيد الله المهدي تمكن

(1) المقرئزي: الخطط، ج 1 ص 65.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1400هـ - 1980م، ج 1 ص 158، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م، ج 6 ص 598، الداعي إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت - لبنان السبع الخامس، ص 100.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج 6 ص 598، المقرئزي: الخطط، ج 1 ص 66.

(4) مما جعل المقرئزي يشبه المهدي بالسفاح من خلفاء بني العباس، فكلاهما قتل من عمل لقيام دولته، فالسفاح قتل أبا مسلم الخرساني، وأما المهدي فقتل أبا عبد الله الشيعي. انظر المقرئزي: اتعاظ الخفاء، ج 1 ص ٧٢.

(5) المقرئزي: الخطط، ج 1 ص 65.

(6) الداعي إدريس: عيون الأخبار، ص 122.

(7) ولعل من أهم الثورات التي قامت ضد هذه الدولة وكادت أن تقضي عليها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي.

حول هذه الثورة انظر ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1400هـ - 1980م، ج 1 ص 216-219، المقرئزي:

الخطط، ج 1 ص 75-86.

من تشتيت شمل الثوار فأخرج إليهم أحد قادة جيشه فأوقع فيهم مقتلة عظيمة، وبعث برؤوس القتلى وأذانبهم الى رقادة⁽¹⁾.

ولكن هذه الثورة لم تكن الأخيرة، بل إنها كانت تمهيداً لثورة المدينة نفسها بعد سنتين، ففي سنة ٣٠٠هـ، أعلن الطرابلسيون العصيان وقتلوا الحامية الكامية وانتخبوا قائداً منهم هو محمد بن إسحق المعروف بابن القرشي، فتوجه المهدي لمحاربتة بجيش جعل قيادته لابنه أبي القاسم⁽²⁾، الذي كان قد حضر لتوه من حرب العصاة في بلد كامة، كما وجه أسطولاً بحرياً مكوناً من 15 مركباً حريباً، فقاومت طرابلس مقاومةً شجاعةً استمرت أشهراً وأظهر أهلها ضروباً من البسالة والبطولة، فأن وصلت الحملة البحرية حتى أخرجوا إليها مراكبهم التي نجحوا في إحراقها والقضاء على من فيها من المقاتلة. أما أبو القاسم فإنه اتخذ طريق البر وعرج على منازل قبائل هوارة، الثائرة بالأمس، فأوقع بها ثم نزل على طرابلس وشدد الحصار عليها، ولم تستلم المدينة بالأمان إلا بعد أن نفذ منها القوت حتى أكل الناس الميتة، وقبض أبو القاسم على زعماء الثورة وعلى رأسهم محمد بن إسحاق، وصحبهم معه الى القيروان حيث شهر بهم⁽³⁾.

وفي الوقت عينه ثارت برقة، ولكن ضد حكم العباسيين الذين أنهوا حكم الطولونيين في مصر⁽⁴⁾، فتشجع عندها عبيد الله فأسرع بالاستعداد لغزو مصر مستغلاً هذا الحدث، حيث قام بإرسال قائد جيشه حُباسة بن يوسف على رأس قوات نحو المشرق، فدخل حُباسة مدينة سرت وأجدايا بالأمان ودون مقاومة بعد أن فر من كان بها من الجند العباسي، وأتبع ذلك بدخوله برقة التي عانت من العباسيين والفاطميين، فقتل حُباسة الفاطمي العديد من أهلها، وأغرم الأحياء مغارم ثقيلة بلغ بعضها مائة ألف مثقال في يوم واحد، وكانت حجته في ذلك انتقاماً من البرقيين لإهانتهم عبيد الله عند عودته من مصر، إذ ادعى عبيد الله أنهم سرقوا ماله وشتموه ولطموه⁽⁵⁾. ثم تابع حُباسة سيره فوصل إلى

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، (163/1).

(2) ابن الأثير: الكامل، (615/6).

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، (168-169/1).

(4) ابن الأثير: الكامل، (622/6).

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، (170/1)، المقرئزي: اتعاط الحنفا، (85-84/1).

الإسكندرية بعد أن هزم جيشاً عباسياً في حدود برقة، ولحق به أبو القاسم بن عبيد الله واتجه الاثنان نحو الفيوم ولكنهما اختلفا فعاد حباسة مخالفاً للأوامر وانسحب الأمير الفاطمي أمام قوات العباسيين⁽¹⁾.

وعند عودة أبي القاسم من حملته في سنة 302هـ، مر ببرقة فخرج أهلها لاستقباله فأشار لهم بأنه ما عاد من مصر إلا لطلب حباسة ومعاقبته على ما فعله بهم، ثم أمر بتجديد المدينة، وترك فيها حامية من كتامة ثم عاد إلى والده، ولكن ما إن عرف عامة الشعب بفشله في مصر، وباقتراب الجيش العباسي الذي كان يتعقبه، حتى قامت إلى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها وأعلنت الثورة⁽²⁾، مما اضطر عبيد الله المهدي إلى أن يسير بالجيوش من جديد ضد برقة بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصي، فبقيت المدينة طوال عام ونصف وهي محاصرة أشد الحصار، ولم تستسلم إلا بعد أن فني أكثر أهلها وذلك في سنة 304هـ، فصودرت أموالهم، وأرسل زعمائهم إلى المهدي فأمر بقتلهم⁽³⁾.

وظل أبو مدين بن فروخ والياً لبرقة إلى حين وفاته في سنة 309هـ، وهي السنة التي دخل فيها الجيش الفاطمي إلى مصر للمرة الثانية⁽⁴⁾.

وهكذا دخلت مدن ليبيا تحت الحكم الفاطمي وضمّت إلى أفريقية وعين لها العمال والجبابة والقضاة من الإسماعلية إلا أن خضوعها ظل مؤقتاً كالمعتاد، أما البوادي فرغم أن الفاطميين كانوا يكتفون منها بالركون إلى الهدوء والسكينة بعد دفع ما هو مقرر عليها من الأموال، فإنها عمدت كدأبها إلى إثارة الاضطراب ومهاجمة المدن والحضر كلها وجدت إلى ذلك سبيلاً. ففي سنة 310هـ، ثارت قبائل نفوسة في منطقتها الجبلية المنيعه، والخارجة أبداً على السلطان. وعندما سير إليهم عبيد الله قائده علي بن سليمان تمكنوا من مفاجأة قواته التي انهزمت أمامهم، واضطر القائد إلى الالتجاء إلى مدينة طرابلس، فسير المهدي أمداداً جديدة إلى علي بن سليمان الذي عاود ضرب الحصار حول المنطقة الثائرة،

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، (1/171).

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، (1/173).

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، (1/173).

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، (1/174).

ولكنه لم يصل إلى نتيجة حاسمة⁽¹⁾.

وفي سنة 316هـ اضطرب البربر في منطقة برقة فسار إليها أبو القاسم بن عبيد الله وضرب الحصار على حصنهم المعروف بأغزر وتمكن من هدم أسواره على المدافعين الذين أحرقوا أمتعتهم وعرقبوا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع البأس المستميت⁽²⁾ وبعد ذلك ظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة من القضاة والجبابة فلا تذكر النصوص اضطراب منطقتها إلا في سنة 322هـ، ففي هذه السنة توفي عبيد الله المهدي، مما دفع القبائل المحيطة بطرابلس للتحرك، فقد وجدت في موت عبيد الله فرصة مواتية للتحرك من سلطان الفاطميين، فقاموا بزعامة رجل من العرب يعرف بابن طالوت القرشي بثورة، فادعى أنه علوي وأنه ابن المهدي، فأسرعت قبائل البربر بتصديقه والتفوا حوله، وسار الدعي الفاطمي الجديد بأنصاره الكثيرين نحو مدينة طرابلس، ولكن نجحت حاميتها بمساعدة الطرابلسيين في رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة وأضعفت إيمانهم بالدعي فثاروا به وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الحاكم الجديد أبي القاسم⁽³⁾. والذي يظهر مما تقدم أن الليبيين بأكثريةهم كانوا غير راضين عن الحكم الفاطمي، ومما يؤكد ذلك كثرة الثورات التي أقاموها ضدها، إذ عمّت الثورات أكثر المناطق الليبية، في تحد لهذه الدولة التي وجدوا فيها خطراً على وحدتهم الدينية، والاجتماعية، بتقديمها لبعض العناصر دون بعض، بناء على تأييدهم لمعتقداتها.

موقف الفاطميين من المذهب المالكي ومساعدتهم في طمس وجوده:

إن قيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٧هـ، شكّل تحولاً سياسياً ومذهبياً خطيراً في هذه المنطقة، التي دخلت في صراع مع أخطر دولة شيعية عرفها التاريخ الإسلامي، وبما إن المالكية كانوا يعتبرون المغرب العربي من أهم مناطق تواجدهم، فقد أظهروا منذ اللحظة الأولى العداء تجاهها، حيث قاموا ومنذ بداية ظهور الدعوة الشيعية بتخريض الناس على قتال أبي عبد الله الشيعي والوقوف مع الأغلبية على الرغم من

(1) ابن عذراي: البيان المغرب، (175/1).

(2) ابن عذراي: البيان المغرب، (176/1).

(3) ابن عذراي: البيان المغرب، (201/1)، ابن الأثير: الكامل، (21/7)، ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر،

(51/4).

معارضتهم للأغلبية⁽¹⁾ فأعلنوا لعن الشيعي والبراءة منه⁽²⁾، مما جعل عبيد الله المهدي يشعر بعد نشوء دولته أنه يعيش في وسط مجتمع ينكر دعوته من خلال مقاومة عنيفة من المالكية السنية التي كانت قد أثبتت أقدامها في إفريقيا، فهم ينظرون إليه على أنه كافر مارق عن الدين، فأظهروا إنكار مذهبه وحرصوا الناس على ذلك⁽³⁾، ومما يبين شدة الصراع بين المالكية والفاطميين هو ما قام به الفقيه جبلة بن حمود (ت 298هـ)⁽⁴⁾، وذلك لما حضر خطبة الجمعة للفاطميين في جامع القيروان فسمع منها ما لا يجوز سماعه فكشف عن وجهه ومشى من المنبر إلى باب المسجد، وهو يقول قطعوها قطعهم الله فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم⁽⁵⁾، ثم اتخذ قراراً بمقاطعتهم، وترك المرابطة في وجه الروم للتفرغ لمواجهتهم⁽⁶⁾.

ولذا فإن الصراع بين الفاطميين والمالكية في إفريقية أخذ يتطور أكثر مع مرور الوقت، لتصبح المواجهة أكثر دمويةً وعنفاً⁽⁷⁾، خاصةً بعد أن تداخلت فيها الصراعات الفكرية والعقدية مع المواجهات العسكرية والثورات التي أنهكت كاهل الدولة، ولعل ذلك كان أحد الأسباب التي دفعت الفاطميين بعد ذلك لتوجيه جهودهم نحو مصر بدلاً من إفريقية المتمسكة بمذهبها السني المالكي⁽⁸⁾.

(1) هنا تظهر أهمية الفقيه من حيث تقديم المصالح ودرء المفاسد وتغليب مصلحة الأمة ووحدة كلمتها في وجه الأفكار المنحرفة والضالة، فالفقهاء أدركوا أن معارضتهم للأغلبية لا تبيح لهم الوقوف على الحياد في صراعه مع الشيعي بل الموقف المطلوب هو نصره الأمة والحفاظ على كيانها من الخطر الذي سيطل الجميع ولن يميز بين أحد منهم.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب (1/137).

(3) السيد محمد أبو العزم داود: الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1405هـ - 1985م، ص 182.

(4) انظر ترجمته القاضي عياض: ترتيب المدارك، (371/4-379)، ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1 ص 191، المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1414هـ - 1994م، (2/27-43).

(5) المالكي: رياض النفوس، (2/42-43).

(6) المالكي: رياض النفوس، (2/37)، القاضي عياض: ترتيب المدارك (2/201).

(7) حول صور القتل وقمع العلماء والعامّة في المغرب من قبل الفاطميين انظر ابن عذاري: البيان المغرب (1/182-187).

(8) السيد أبو العزم: الأثر السياسي والحضاري للمالكية، ص 210.

ونظراً للعداء الذي أظهره المالكية تجاه الفاطميين، فقد اتخذ الفاطميون مجموعة من الإجراءات تجاه المالكية، ففي الجمعة الأولى بعد سيطرتهم على القيروان أمر عبيد الله بذكر اسمه في الخطبة، وعمم أمره هذا على كافة المناطق الخاضعة له، وقد نص المرسوم الذي بعثه إلى مختلف المساجد بهذه المناسبة هو: «اللهم فصل على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين كما صليت على آباءه خلفائك الراشدين المهديين الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون...»⁽¹⁾، فكانت هذه الخطبة إيذاناً بتحول البلاد عن المفاهيم السننية القائمة فيها إلى طروحات شيعة، وهو ما يشكل تحدياً للمالكية، ولذلك فقد امتنع المالكية عن الصلاة خلف المهدي، وحضور خطبته ومواكبه، ولم يحضرها أحد من أهل السنة بعد هذا⁽²⁾.

ولكن عبيد الله لم يكتف بذلك، بل قام بحظر الفتوى بمذهب الإمام مالك، بل إنه أخذ بمعاقبة وتجريم كل من يتجرأ على ذلك⁽³⁾، في محاولة منه لعزل علماء المالكية عن رعيّتهم، فأمر الشيعي بأن لا يُفتى بمذهب مالك، وأن تقتصر الفتوى على مذهب آل البيت، ولذلك بقي من يتفقه على مذهب مالك إنما يتفقه خفية⁽⁴⁾، حتى إنه أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا لمن تشرق⁽⁵⁾ ثم قام بالتضييق على علماء المالكية، فمنعهم من التدريس، وإقامة مجالس السماع، واجتماع الطلبة فصارت الدروس تُقام خارج المساجد، فكان ربيع القطان قد عهد على نفسه أن لا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد، وهو مع ذلك ملتزم بحانوته يبيع فيه القطن فيأتيه الطلبة يدرسون عليه ويسألونه⁽⁶⁾، حتى إن بعض العلماء كان يخرج إلى المقبرة فيستتر بجائظ يقرأ على أصحابه ما عنده من علم، خوفاً من بني عبيد، لأنهم منعوا العلماء من نشر علومهم، وسجنوا في بيوتهم⁽⁷⁾.

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 293-294، المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، (65/1)

(2) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، (365/3)، المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، (66/1).

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، (159/1).

(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء، (216/4).

(5) المالكي: رياض النفوس، (56/2). التشرق المقصود به التشيع لأن الشيعة الفاطميين قدموا من المشرق.

(6) الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن علي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب

العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1429هـ، (30/3).

(7) الدباغ: معالم الإيمان (41/3).

كما وسعى الفاطميون إلى تغيير النظم والأحكام بما يتماشى وتعاليم المذهب الإسماعيلي، فكانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم الإسماعيلي، ولذلك فإن أي عالم يخالف مذهبهم، فإن مصيره العقوبة الرادعة، ومن ذلك أن الفقيه محمد بن العباس الهذلي كان قد أصر على الإفتاء وفق مذهب مالك فتعرض للضرب بالدرّة في المسجد، وجرّد من ملابسه وشفّع على قفاه حتى جرى الدم من رأسه، وشهّر به في الأسواق⁽¹⁾، وأما أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي فكان جزاؤه أكثر فداحةً، وذلك لأنه كتب عقد زواج على شروط مذهب مالك، ولم يمثل للأوامر الفاطمية باتباع مذهب الدولة في عقود الزواج⁽²⁾.

وحتى لا يبقى شعار أهل السنة مرفوعاً، ويتردد في أرجاء البلاد، وبغضاً منهم لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وإمعاناً منهم في معاداة كل من يرفع لواء السنة من المالكية وغيرهم، فقد أمر الفاطميون بإضافة حي على خير العمل، إلى الأذان وألزموا بها المؤذنين، فكان تركها سبباً لقتل العديد منهم، ومن ذلك أن المهدي قتل في سنة 307 هـ عروس المؤذن، بعدما ضربه وقطع لسانه، لأن جماعة من المشاركة شهدوا عليه بأنه أذن ولم يقل "حي على خير العمل"⁽³⁾، فكان الفاطميون أرادوا من قتل هذا المؤذن أن يكون عبرة لغيره، بفرض الالتزام بما يقررونه، فهم لن يتحاوروا أو يُقيموا الحجّة على الآخر، بل سيفرضون توجههم وآراءهم بالقوة، وخاصةً في الأمور الظاهرة.

ولهذا نجدهم قد اتخذوا من القتل منهجاً في تعاملهم مع مخالفيهم، وبخاصة المالكية، فقد أجبر الفاطميون الناس على الدخول في دعوتهم، فمن أجاب تركوه، وربما ولوه بعض المناصب ومن رفض قتل⁽⁴⁾، حتى إن القتل أضحي هو الوسيلة الأولى في مواجهة المخالفين لهم، فلا تجد عالماً ناقشهم أو أقام عليهم الحجّة، أو عارضهم في أمر، إلا كان مصيره القتل، فأعداد القتلى الذين ذهبوا لمعارضة الفاطميين فاقت الأربعة آلاف يقول أبو الحسن علي القاسبي « إن الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (339/9)، ابن عذاري: البيان المغرب، (188/1).

(2) ابن عذاري: البيان المغرب (204/1).

(3) ابن عذاري: البيان المغرب (182-183/1)، الدباغ: معالم الإيمان (3/3).

(4) مبروك بن عيسى: المذهب المالكي أيام الشيعة العبيدية في المغرب الإسلامي، مجلة متون كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، العدد 2 لسنة 2018م، ص 108-159.

آلاف رجل في العذاب ما بين عابد، وعالم، ورجل صالح»⁽¹⁾، ولذلك فقد مُدح علماء المالكية بقوة إيمانهم وصبرهم في مواجهة آلات القتل الفاطمية، فقليل عنهم بأنهم قوم إيمانهم مثل الجبال⁽²⁾.

ولكن قتل العلماء لم يكن وسيلة الفاطميين الوحيدة في مواجهة المالكية وطمس مذهبهم وعلومه، بل إن أيديهم امتدت إلى المصادر العلمية، والمراجع الفقهية، المؤلفة في هذا الجانب، فعمدوا إلى مصادرتها وإتلافها، محاولين بذلك القضاء على التراث العلمي لهذا المذهب، لعلهم بذلك يقضون على موروثه العلمي والفكري، تمهيداً للقضاء عليه، فقاموا بمصادرة مصنفات أهل السنة وإتلافها، ومنع الناس من تداولها، ومن ذلك أن أبا محمد عبد الله بن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) توفي وقد ترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها، «ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه»⁽³⁾، كما وقاموا بمصادرة كتب أحد العلماء لاتهامه بتآمره على الدولة⁽⁴⁾. فهذه المواجهة من قبل الفاطميين ضد علماء المالكية، إنما كانت تهدف لإضعافهم، وإسقاطهم، حتى يتمكنوا من السيطرة على البلاد، وتغيير هويتها الدينية، ومذهبها السني، ولعل هذا ما أشار إليه أحدهم بقوله «جزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت، وهذا يُضرب، وهذا يُسجن وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعةً واحدة»⁽⁵⁾.

جهود علماء المالكية في الحفاظ على الهوية الدينية لليبيا في وجه المساعي الفاطمية لفرض مذهبهم:

تعد الدولة الفاطمية من أخطر الدول التي انتشرت في المغرب الإسلامي، وذلك لما تحمله من أفكار وتوجهات مخالفة للمفاهيم الدينية والعقدية التي يدين بها أهل هذه البلاد، إذ إنها كانت تسعى بكل ما تمتلكه من قوة سياسية، وأساليب قمعية لتغيير المنهج القائم في المغرب، وتحويل المسلمين فيه من المذهب السني الذي جاء به الفاتحون إلى المذهب

(1) الدباغ: معالم الإيمان، (34/3). الكلام نقله القاسبي عن شيوخه وليس كلام القاسبي نفسه

(2) الدباغ: معالم الإيمان، (90/3). (91/3)

(3) المالكي: رياض النفوس (423/2)، عياض: ترتيب المدارك (331/5).

(4) المالكي: رياض النفوس (259/2).

(5) الدباغ: معالم الإيمان، (162/2).

الشيعة، القائم على الأفكار المنحرفة والبعيدة عن الإسلام الحق، وبما أن المالكية كانوا من أكثر المذاهب السنية المنتشرة في هذه البلاد، وهذا ما يؤكد القاضي عياض وأما أفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن أدخل علماء المالكية مذهبهم، فأخذ به أكثر الناس، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا⁽¹⁾، وبما أن المالكية هم الأقوى فإنهم بطبيعة الحال، سيكونون من أكثر المواجهين لهذا الفكر الدخيل، مما جعلهم يدخلون في صراع مع هذه الدولة، فكانوا من أكثر أهل البلاد معارضة لهم، فالمالكية يقولون بعدالة عامة الصحابة، وأن من سب الصحابة كفر، في حين أن بني عبيد يقولون بخلاف ذلك، ويسبون الصحابة جهرةً، ويأتون الكفر البواح. فكان علماء المالكية⁽²⁾ لهم بالمرصاد، بالشدة والحزم والتصدي وجهاً لوجه، لحفظ هوية الأمة وحماية الإسلام، وهذا ما جعلهم أصحاب مذهب وعقيدة وطنية⁽³⁾، يجتمع الناس عليها، وتُشكل مصدر وحدة لهم، في ظل الأزمات التي تعصف ببلدانهم.

فمحافظة المالكية على وجودهم وانتشارهم في المغرب لم يعد قضية مذهب فقهية فقط، وإنما أضحت هوية دينية يُحدد من خلالها توجه البلاد وانتمائها، ولهذا فقد واجه علماء المالكية، محاولات الفاطميين لتغيير الهوية الدينية للمغرب بكل الوسائل الممكنة، وبما أن ليبيا كانت جزءاً من بلاد المغرب، فقد كان للعلماء الليبيين نصيب في هذه المواجهة، إذ إن كتب التراجم تنقل لنا مواقف للعلماء الليبيين، أثبتوا فيها معارضتهم للفاطميين، ورفضاً لمنهجهم، فكانت مواقفهم تلك من أهم العوامل التي حافظت على الهوية الدينية للبلاد الليبية، ومن هذه المواقف:

1- رفض آراء الفاطميين الفقهية: كانت الدولة الفاطمية تركز في تشريعاتها وأحكامها على المذهب الشيعي، وخصوصاً في المسائل الفقهية الحساسة كالميراث وبعض أحكام

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (1/26).

(2) بالتأمل في تاريخ المذهب المالكي نجد بأنه من أكثر المذاهب قوةً وتأصيلاً في مواجهة الأفكار والآراء المنحرفة، وما يؤكد ذلك بلاد المغرب الإسلامي، فإنها خالية من التشيع وغيره من المعتقدات، وما ذلك إلا لالتزامها بهذا المذهب الذي نجد فيه جمعاً ما بين الطرح الفكري والسياسي والديني، بصورته الواقعية والعملية، فالطرطوشي والشاطبي بمؤلفاتهم كعلماء مالكية خير دليل على ذلك.

(3) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، صفحة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص 93-95.

العبادات كالصوم، والصلاة وغيرها، ولذا فإن الصراع مع الفقهاء السنة كان أمراً لا بد منه في ظل دولة تسعى لفرض هيمنتها، وسياساتها، وقناعاتها، فالفاطميون منذ قيام دولتهم حاولوا أن يعدّلوا ويبدّلوا في هذه المسائل متجاهلين القوة العلمية للفقهاء السنة؛ الأمر الذي أوجد صراعاً شديداً بينهم وبين العلماء السنة⁽¹⁾، ومن ذلك ما وقع مع أبي عبد الله محمد بن إسحاق الجبلي قاضي برقة (ت 341هـ)، إذ تولى القضاء فيها لعاملها الفاطمي، فأتى إليه هذا العامل فقال له: «إن غداً العيد فقال القاضي: إن رأي الهلال الليلة كان ما قلت، وإلا فلا يمكنني أن أمر الناس بالفطر في يوم رمضان، وأتقلد ذنوبهم؛ فقال له: بهذا وصل إلي كتاب مولاي، يعني إسماعيل، فالتمس الناس الهلال فلم يروه فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول، والبنود، وهيئة العيد. فقال القاضي: والله لا أخرج ولا أصلي ولا أفطر في يوم من أيام رمضان ولو علقتُ بيدي، ففضى العامل فجعل من خطب وصلى وكتب بما جرى إلى مولاه، فلما وصل إليه الخبر أمر برفع القاضي، فلما وصل إلى القيروان قال له: إما أن نتصل بنا ونعفو عنك أو نفعل بك ما قلت، فامتنع من الدخول في دعوته وقال: افعل ما شئت، فنصب له صاريّاً عند الباب الأخير من أبواب الجامع الذي يلي درب الهذلي، وعلق بيده إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحياً في شدة الحر يومه وليلته، فلما كان بالغد مات. ولسانه خارج من العطش وهو يطلب من يسقيه الماء فلم يسق خوفاً من عامل البلد، فلما مات أخذوه وصلبوه بباب أبي الربيع وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة - رحمة الله عليه ورضي عنه-»⁽²⁾، فهذا القاضي بتمسكه بمذهبه الفقهي القائم على الدليل، حفظ للناس دينهم، وحافظ على وحدتهم في عبادتهم التي هي رمز ودليل لوحدة هذه الأمة، وتآلفها.

٢- العمل على تغيير ما أحدثوه ورفضه، وإزالة تأثيره من نفوس العامة: إن الرفض للفاطميين، وإعلان ذلك يعد خطوة مهمة من قبل المالكية، حيث إنه يزرع في نفوس العلماء والعامة، الجرأة على معارضة سياستهم، والتصريح بخطورة أفكارهم، مما حصّن

(1) وليد أحمد حمود: أوضاع أهل السنة بمصر في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1435هـ، ص 420.

(2) المالكي: رياض النفوس (404/2)، الدباغ: معالم الإيمان، (52/3-53)، محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 66-68.

المجتمع من استساغة آرائهم وتوجهاتهم، فتعم حالة الرفض بين كافة أركان المجتمع، ولهذا فقد كان أبو الحسن علي بن محمد المنمر الطرابلسي المالكي (ت 432هـ)، من أوائل من أظهر السنة بطرابلس، لما كانت في إفريقية الواقعة المعروفة بواقعة الشارقة سنة سبع وأربعمائة والتي قتل فيها الشيعة وأتباعهم، إذ إنه حرض على قتل من كان بطرابلس منهم، وأمر بقطع الأذان (حي على خير العمل) وأذن في ذلك اليوم بأذان أهل السنة بنفسه، وأقام بطرابلس صلاة القيام، فقد كان رسم هذه الصلاة، مُحي من إفريقية، لما ظهر مذهب الشيعة وانتشرت بدعهم، ومنعوا صلاة التراويح، وصلاة الضحى، وأحدثوا في الأذان "حي على خير العمل"⁽¹⁾، فكان هذا الموقف من هذا العالم بمثابة إعلان لرفض وإزالة كل ما يمت للفاطميين بصلة، وهو بذلك يُحافظ على وحدة البلاد الدينية، بمنع كل ما يؤدي لظهور الفرقة بين أبنائها، بممارسات لا تمت للدين بصلة، وهي لا تتوافق مع ما كان عليه أهل البلاد لما أتاهم الفاتحون، وما عرفوه من المذاهب السننية المعمول بها وبخاصة مذهب الإمام مالك، فكان أهم قرار اتخذته هذا العالم هو أن أفقي ببطلان مذهبهم، ونبتد تقاليدهم، وبدعهم المضللة⁽²⁾.

٣- التشدد في الحكم على من ينتمي للفاطميين ويدخل في مذهبهم: إن تشدد المالكية في إصدار الأحكام تجاه كل من ينتمي لهذا المذهب، كان من أفضل الوسائل لمواجهة هذا الفكر المنحرف، حتى يتيقن الناس خطورة هذا الفكر، وأبعاده على عقيدتهم وانتمائهم الديني، فعلماء المغرب وسداً للذريعة أفتوا بكفر كل من يعتنق مذهب الفاطميين ولو مكرهاً وكان قلبه مطمئناً للإيمان، فقد جاء في "معالم الإيمان" فتوى فيمن دخل مذهب العبيديين بإكراه هل يكفر بذلك أم لا؟ فأجاب علماءهم بأنه لا يعذر أحد في ذلك، لأنه أقام بعد علمه بكفرهم، وكفرهم ارتداد وزندقة بخلاف غيرهم⁽³⁾، فكانت هذه الفتوى بمثابة رد على ما وقع من الليبيين في طرابلس من تساهل في التعامل مع المذهب المنحرف للفاطميين، وذلك لأن أهل طرابلس أظهروا لبني عبيد أن يدخلوا في دينهم عند الإكراه

(1) أحمد بن الحسين النائب الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق د محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ص 180، محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 85.

(2) الزاوي: أعلام ليبيا، ص 272.

(3) الدباغ: معالم الإيمان، (145/2).

ثم يرجعوا عن هذا الاعتقاد ليسلموا بأنفسهم فقال ابن زيد القيرواني: وهم كفار لاعتقادهم ذلك⁽¹⁾، ولكن هذا الحكم بتكفيرهم لمجرد هذا الفعل كان محط استغراب من صاحب معالم الإيمان إذ قال: «الأقرب أنهم ليسوا بكفار، وإنما صرح أبو محمد بما ذكر مبالغة لتفسير العامة، لأن المطلوب سد هذا الباب وأما فيما بينهم وبين الله فما قلناه، والله أعلم»⁽²⁾، فالتشدد مع المخالف، قد يكون هو الحل الأمثل لضمان أمن البلاد واستقرارها، وحفظ دين العامة ووحدهم.

4- التضحية بالنفس من أجل الحق: إن التضحية بالنفس، والقتل في سبيل الحقيقة، له وقع كبير في الأتباع، ويترك أثراً كبيراً في نفوسهم تجاه تضحيته، فيجعلهم يلتزمون بالطريق الذي سار عليه، ويتخذونه قدوة لهم في الحفاظ على ما استشهد لأجله، فيغدو رمزاً لأهل البلاد يحضون الناس من خلاله على الالتزام بما استشهد لأجله، على سبيل المثال استشهد مالك بن سعيد بن مالك القرافي (ت 405هـ)، الذي كان قاضي طرابلس الغرب، ثم تولى القضاء بمصر من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي، فأحضره مرةً عنده وأمره بأن يكتب سب الصحابة على أبواب المساجد، فلم يكتب على المساجد إلا قوله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار)، فأمر بضرب عنقه، فضربت وكان محموداً في ولايته، عفيفاً عن أموال الناس، ولا يخاف في الله لومة لائم⁽³⁾، فهذا القاضي، وإن كان قد استشهد في خارج أرضه، إلا إن شهادته جاءت من أجل قضية سامية يرفعها كل حر في بلاده، مما يدفعهم ليلتفوا حول المبادئ والقيم التي ينادي بها، فيزدادوا تمسكاً بها.

5- عنايتهم بعلوم الشريعة وشروح كتب الحديث: إن عناية العلماء بكتب أهل العلم وشرحها، سيبقي الناس متمسكين بما هم عليه من الحق، وذلك لأن نشر العلم وتوضيحه للناس سيرفع عنهم الجهل، ويمنع الأفكار المنحرفة من أن تتسلل إليهم، وقد برز في البلاد الليبية في هذه الفترة علماء اعتنوا بشروح كتب أهل العلم ونشرها، ومن هؤلاء أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالقطان (ت 306هـ) قاضي طرابلس، الإمام

(1) الدباغ: معالم الإيمان، (145/2).

(2) الدباغ: معالم الإيمان، (146/2).

(3) الأنصاري: نفحات النسرين، ص72، محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص89.

الحافظ، الفقيه على مذهب مالك⁽¹⁾، ومن العلماء أيضاً الذين برزوا بالعلم واشتهروا به في تلك الفترة، أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي (ت 402هـ) من أئمة المالكية بالمغرب، كان فقيهاً فاضلاً متفنناً مؤلفاً مجيداً، ألف كتاباً في شرح الموطأ⁽²⁾، فجهد هذا العالم مع غيره من العلماء كان لها الفضل في نشر العلم السني، وتأسيس العامة عليه، وربطهم برباط العلم الذي يبقى هو الرابط الأوثق في قيام الأمم، ووحدة الأوطان.

5- عنيتهم بعلم التاريخ والأنساب: إن علم التاريخ والأنساب، يعد من أهم العلوم التي تُسهم في الحفاظ على الهوية الدينية والوطنية للبلاد، وذلك لأنه ربط للماضي بالحاضر، واستعادة لمنهج السلف، باتخاذهم قدوةً ومثلاً، فأهميته تبرز بشكل أكبر عند وقوع الأزمات، وبرز قوى تسعى لطمس وتغيير هوية البلاد، وهذا ما يتأكد في ظل الدولة الفاطمية التي سعت لتغيير هوية البلاد الدينية بتحويلها للمذهب الشيعي، وادعائهم بالانتساب للنسب الشريف، ولهذا فإن علماء المالكية اهتموا بهذا الجانب وأولوه عنيتهم، وذلك لإدراكهم لأهمية التاريخ، من جهة كونه يربط أهل البلاد بما كانوا عليه من مذهب السلف، فيتمسكون به، ويحفظون به أنسابهم، ويدحضون أي انتساب مزيف، ومن العلماء الذين برزوا في البلاد الليبية، واعتنوا بهذا العلم، تميم بن حمدان بن تميم السرتي (ت 346هـ)، الفقيه العالم بأخبار إفريقية، وأنساب أهلها، فقد كانت له عناية بالوثائق والمناظرة عليها، وعليه كان يعتمد أهل القيروان في وقته⁽³⁾، فاعتماد أهل البلاد عليه تأكيد على أهمية ما يحمله من علم، وأثره في وحدة البلاد وقضاياها. وبهذا يتبين لنا أهمية دور العلماء في الحفاظ على الهوية الدينية للبلاد الليبية، وما قاموا به في سبيل ذلك من جهود، فلهم الفضل بعد الله في بقاء هذه البلاد منارة للعلم، وفق الكتاب والسنة، بعيداً عن الأهواء والآراء المنحرفة، وهذا الأمر لم يكن ليتم لولا تمسك الليبيين وعلمائهم بالمذهب المالكي السني، الذي شكّل منذ انتشاره في المغرب، مصدر وحدة يلتف حولها الجميع، بما يمتلكه من إمكانيات ومبادئ، تحمل بين طياتها الحق والحقيقة التي ينشدها كل عاقل، وقد عبر الدباغ عن أهمية المذهب المالكي وتأثيره في الحفاظ على الهوية الدينية بقوله «جزى الله مشيخة القيروان

(1) محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 90-91.

(2) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (7/102-103)، الزاوي: أعلام ليبيا، ص 92، محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 89.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، (6/18)، محمد ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية، ص 68.

خيراً، هذا يموت، وهذا يُضرب، وهذا يُسجن وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة»⁽¹⁾ كما يقول أحد الباحثين من باب التأكيد على دور المالكية «كانت المالكية المعقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة في عصر كادت ريح الشر تعصف بالمتجمع، صمدت المالكية للخارجية فأنت عليها، وصارعت المعتزلة، وانتصرت على العبيدين، وحفظت على المجتمع وحدته وقوته، وسلمته للأجيال التالية سليماً معافى»⁽²⁾، ولكن يبقى النجاح الأبرز لعلماء المالكية في مواجهة الفاطميين، هو بتحول المعز بن باديس من الولاء للفاطميين، إلى الولاء لأهل السنة، ولعن الفاطميين على المنابر والبراءة منهم، وهذا الإنجاز المهم والكبير لم يكن ليتم لولا الجهود العظيمة لعلماء المالكية الذين استطاعوا التأثير في المعز بن باديس وتحويله لمذهب أهل السنة⁽³⁾، وبذلك يكون للمالكية فضل على غيرهم من المذاهب السنية بأنهم المذهب الوحيد في التاريخ الإسلامي، الذي استطاع أن يُسقط دولة مخالفة لأهل السنة والجماعة من الداخل، وبدون أي عمل عسكري.

الخاتمة:

تُعد ليبيا بوابة المغرب، والمدخل الرئيسي للتغيرات التي تحصل فيه، لذلك فإن انتشار المذهب المالكي ووصوله إلى المغرب، إنما تم من خلال أحد العلماء الليبيين، وهو علي بن زياد الطرابلسي، والذي كان له الدور الأبرز في انتشار المذهب وعلومه، إذ انتشر المذهب المالكي في كافة المناطق والأقاليم الليبية التي تشكل اليوم دولة ليبيا، حيث وجد علماء ينتسبون لهذا المذهب في أكثر مناطقها، وبعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب على يد عبيد الله المهدي، ثار الليبيون ضد هذه الدولة وسياساتها، فخرجوا في ثورات، طالت أكثر المناطق الليبية، في تحدٍ لهذه الدولة، وما تمثله من طروحات فكرية واجتماعية، الأمر الذي دفع الفاطميين للمواجهة مع مكونات المجتمع، وبخاصة المالكية الأشد عداءً واعتراضاً على هذه الدولة وتوجهاتها، فسعى الفاطميون لطمس تعاليم المذهب المالكي،

(1) الدباغ: معالم الإيمان، (146/2).

(2) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 98.

(3) حول انتصار المالكية على التشيع في إفريقيا، وتحول الزيريين لأهل السنة. انظر نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، تبر الزمان تونس 2004م، ص 171-

والتضييق على علمائه، من خلال خطوات وأساليب انتهجوها لإزالة هذا المذهب الذي وجدوه أشد شراسةً وبغضاً لهم، وأمام تلك الهجمات الفاطمية على المذهب المالكي وعلمائه، فقد قام علماء المذهب باتخاذ مواقف وخطوات واجهوا بها الفاطميين الساعين للظن في الهوية الدينية لليبياء، وتحويلها لصالح المذهب الشيعي، فعمل علماء المالكية على تفعيل واستخدام كل ما يسهم في الحفاظ على الهوية الدينية السنية لليبيين، فبينت طبيعة مواقفهم حيث تحدثت عن رفضهم للعمل بآرائهم الفقهية، وتوجهاتهم المذهبية، كما وذكرت استشهاد أحد علمائهم لاعتراضه على آراء الفاطميين الضالة، ثم أشرت إلى تشدد المالكية في الحكم على من ينتسب لهذه الدولة، كما وبينت عناية العلماء بالعلوم الشرعية وعلم التاريخ والنسب، حيث توصلت إلى أن هذه المواقف والأساليب كلها قد أدت للحفاظ على الهوية الدينية لليبياء.

المصادر والمراجع.

1. ابن الأثير أبو الحسن علي (ت 630هـ) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.
2. ابن أبيك الدواداري، علي (بعد 736هـ) كنز الدرر وجامع الغرر الجزء السادس: الدرر المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1380هـ - 1991م.
3. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد (808هـ) ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م.
4. ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله (ت 695هـ) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1400هـ - 1980م.
5. إيتوري روسي ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة محمد خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، مصر، الطبعة الثانية 1411هـ - 1991م.
6. أحمد بن الحسين النائب الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق د محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع.

7. أحمد مختار عمر النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية، 1391 هـ - 1971 م.
8. جمال حمدان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية دراسة في الجغرافيا السياسية، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر، 1999 م.
9. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، صفحة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، بدون تاريخ
10. حمزة بو فارس: أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات ELGA بالطاء، 2001 م.
11. الداعي إدريس عماد الدين (ت 872 هـ) عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت - لبنان.
12. الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن علي (ت 699 هـ) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1426 هـ.
13. السيد محمد أبو العزم داود: الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1405 هـ - 1980 م.
14. الطاهر أحمد الزاوي (١٣٨٨ هـ): تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة 2004 م.
15. أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 2006 م
16. عياض بن موسى اليحصبي (ت 544 هـ) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية.
17. القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي التيمي (363 هـ) افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثانية.
18. المالكي أبو بكر عبد الله (474 هـ) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسآكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية

1414هـ-1994م.

19. محمد الطالبي: تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية 1968م.

20. محمود شاكر: لبيبة، دار العلمية، الطبعة الأولى، 1392هـ-1972م.

21. المقرئزي أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ): اتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة - مصر، الطبعة الثالثة 1425هـ - 2000م.

22. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1418هـ.

23. ناصر الدين محمد الشريف: الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، وبه ملحق الفتاوى الزاوية على مذهب السادة المالكية للإمام المفتي العلامة الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، دار البيارق للطباعة والنشر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1990م-2019م.

24. وليد أحمد حمود: أوضاع أهل السنة بمصر في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1435هـ.

25. ياقوت الحموي (626هـ) معجم البلدان، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1990م.

المجلات العلمية:

1. يوسف أحمد حوالة، الحياة العلمية في إفريقية المغرب الأدنى جامعة أم القرى، مكة المكرمة سنة 2000م.

2. بن بوزيد لخضر دور العلماء في تشكيل الهوية الدينية والمذهبية لبلاد المغرب خلال القرن الثاني والثالث الهجري، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 1 عدد (2) 2019م.

3. زكية بالناصر القعود المكونات السكانية في الأقاليم الثلاثة الليبية تجسد للحممة الوطنية قبيلة بني سليم نموذجاً مجلة الإناسة وعلوم المجتمع، جامعة المسيلة، المجلد 1 العدد 1، السنة 2022.

4. عبد الرحمن راشد الحقان: خدمة العلماء الليبيين للمذهب المالكي، حولية كلية الدعوة،

- جامعة الأزهر مصر، العدد 29، 2017م.
5. يونس محمد محمود موسى: جهود علماء ليبيا في التأليف في الفقه المالكي العلامة الشيخ أبو القاسم التواتي أنموذجا 1905-1981، المجلة الليبية العالمية، العدد 38، سنة 2018.
6. محمد مصطفى المنتصر: الجذور التاريخية للمذهب المالكي في ليبيا، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة المرقب ليبيا، العدد 18 لسنة 2019م.
7. مبروك بن عيسى: المذهب المالكي أيام الشيعة العبيدية في المغرب الإسلامي، مجلة متون كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، العدد 2 السنة 2018م.

الأسلاف من علماء ليبيا وجهودهم في هوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي
د: حسن الصادق المرخي/جامعة صبراتة/ كلية التربية

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه الكرام.

أما بعد:

فما يُميز منهج الأسلاف وجهود ما ترسخ على أيديهم في المجتمع الليبي عبر مراحل التاريخ وتطوره، أنه حافظ على روح التوازن بين البعد التربوي والاجتهاد الفقهي، وقد كان هذان البعدان سمة الاقتران فيما بينهما، من بدايات نشأة المدرسة المالكية، مما أنتج كلاً وتوازناً في هوية المجتمع الليبي بين أفراد وجماعاته، وفهماً صحيحاً لجوهر ولُبّ وسطية الشرع الإسلامي، وتيسيراً الأخذ به في تطبيقاته، مما عكس ذلك سلوكاً مثالياً طيلة الفترة التي كانت المؤسسات العلمية وروابطها وزواياها عامرة بهذا المنهج المتزن والمتكامل، فلم يسجل التاريخ الليبي في فترة حياة هذه المنهجية العلمية أي نتاج متطرف أو فكر منحرف، يحمل صوراً فكرية مشوهة أو مشبوهة، وقد تحققت هوية هذا الاعتدال بمنهجية الاقتران بين تزكية النفوس، والجانب الفقهي، فهذان الطريقتان بوجودهما معا يحققان المصلحة الكبرى في إيجاد ما تنبأ به النفوس بما يصلحها، ويصقل القلوب بما يطهرها؛ ليكون أصحابها على استعداد فطري سليم يحصن الفكر والعقل من كل التفسيرات الشاذة، والانحرافات المتطرفة التي أعيت المجتمعات في هذا العصر بما يحمل أصحابها من رعونات في النفوس، وقساوة في القلوب، وعصبية في الطباع، فظهرت تطبيقاتهم الدينية وتأويلاتهم الفكرية في غاية من التطرف والتشدد والتزمّت، لا يعرفون لمنهج الاجتهاد وقواعد اختلافه أي اعتبار، فضاق نطاق فكرهم بالألا يستوعبوا سماحة الدين ومساحة سعة رقعته الاجتهادية والعمل بمقاصده الشرعية إلى أن وصلوا بنطاقهم الضيق حد التكفير والتفجير لمن خالفهم ولم ينجر وراء انحذارهم التعصبي.

ومن خلال أهمية ما سبق تتجلى أهداف هذه الدراسة في الآتي ذكره:

1. إحياء مَدَارسة منهجية سلف ورموز وعلماء هذه البلاد، وجهودهم فيما شيدوه من

أسس وأبنية وقبابٍ لروابط وزوايا احتوت على أجل ما تركوه من تراث علمي منتفع

به عمّرت به البلاد، وصلح به العباد في ليبيا.

2. إبراز دور الشواهد العلمية والمنارات الإيمانية ذات الطابع المعتدل والمتزن في ترسيخ التعاليم التي تحمل بعداً تربوياً ومنهجاً فقهياً في المجتمع الليبي، وتعالج نوازل الحياة، والنفوس من زيغ الأهواء.

3. معالجة كيفية تجنب الفوضى الفكرية والانحرافات السلوكية التي خرجت تحت مظلة دعوى الالتزام والتدين، التي ناقضت الهوية العلمية المترسخة في المجتمع الليبي.

إشكالية البحث:

قد جاء هذا البحث في طرح محاوره الإجابة على عدة تساؤلات وإشكاليات تتمثل

في الآتي:

أولاً- ما مدى أهمية المنهج التربوي والإصلاحي بجانب المنهج العلمي والفكري لدى المذهب المالكي؟

ثانياً- ما انعكاس ذلك على مؤسسه وأتباعه؟ وما الجهود العملية التي تحققت على أيديهم وتطبيقاتهم، وأثره ذلك في المجتمع الليبي وكيفية تكونه؟

خطة البحث:

تكونت خطة هذه الدراسة من أربعة محاور وتحتها عناوين فرعية وهي كالاتي:

المحور الأول: أهمية الجمع بين الفكر الفقهي والإصلاح القلبي لدى المذهب المالكي

أولاً: تكوين المنهج الإصلاحي والفكر الفقهي في المذهب.

ثانياً: خطورة الفكر عند فقدان الإصلاح القلبي.

ثالثاً: الإمام مالك وجهود تلامذته في ترسيخ قواعد تركية النفوس.

المحور الثاني: الأسلاف المالكيون في ليبيا وجهودهم في تكوين هوية الصواب الفكري

والإصلاح القلبي

أولاً- المفهوم المتزن للزهد عند علماء الإصلاح من الأسلاف.

ثانياً- المجتمع الليبي وتأثره الإصلاحي بالهوية المدنية

المحور الثالث: الأسلاف ومنهجيتهم التطبيقية والتدرسية في إرشاد الفكر وإصلاح القلب

أولاً: الفكر الإصلاحي للشيخ زروق ومنهجيته التعليمية.

ثانياً: الفكر الإصلاحي للشيخ الأسمر وتطبيقاته التدرسية.

المحور الرابع: المجتمع الليبي وتأثره بمنهجية الصواب الفكري والإصلاح القلبي
أولاً: عبر النسيج العمراني القديم.

ثانياً: عبر مظاهر حياة التدين والالتزام بين طبقات الخواص.

ثالثاً: عبر مظاهر الحياة الاجتماعية بين عامة الناس.

المحور الأول: أهمية الجمع بين الفكر الفقهي والإصلاح القلبي لدى المذهب المالكي
أولاً: تكوين المنهج الإصلاحية والفكر الفقهي في المذهب

نجد لهذا التأسيس في التوأمة بين الطريقتين من بدايات نشأة المدرسة المالكية له وجوده وأهميته في حياة الإمام مالك من حين مرحلته التعليمية الأولى، حيث يذكر الإمام مالك أن أول نواة تربوية ابتدأها في طريق التعلم من جهة أمه لما وجهته إلى أبرز مشايخ المدينة في زمنه حيث يقول: "قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟" فقالت "تعال فلبس ثياب العلم". فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها. ثم قالت: "أذهب فأكتب الآن". وقال -رحمه الله-: "كانت أُمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه⁽¹⁾."

وهنا تبرز معرفة الأم وعلمها بأهمية هذه التوأمة بين الفقه والأدب، وهو ما يمثل الإصلاح القلبي، وذلك مبني على طبيعة البيئة المدنية التي ترسخ في عامها وخاصها هذا الامتزاج؛ لأنها البيئة التي ورثت علم رسول الله ﷺ بتمامه مقترنا بكامل أخلاقه وصفاته، والذي يعتبر هذا الكمال الخلقي منبع ومظهر لإصلاح القلوب، واستقامة السلوك بتعلم الأدب النبوي الذين كان لهم أعظم نصيب، وهذه هي الهوية الحقيقية للدين التي تربي عليها الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم، ولما كان عهد الإمام مالك قريب بزمان النبوة وحياته الدائمة في رحاب المدينة المنورة جعلته يستشعر شخصية النبي ﷺ ويستحضره وكأنه مائل أمام عينيه في غدوّه ورواحه وحضره وسفره، يتلّس آثار خطواته، وأنوار مشاهه فانصبغ ذلك في كل تلامذته وأتباعه، وصار لهم منهجا رصينا.

1 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (130/1) ن: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: الأولى.

ثانيا: خطورة الفكر عند فقدان الإصلاح القلبي:

وبهذا التوازن لم يحصل تطرف في الفكر، أو انحراف في السلوك كما وجد في بقية المجتمعات الأخرى من فرق عديدة ظهرت في غير المدينة المنورة، ضلت في فكرها وانحرفت في سلوكها وأكبر مثال على ذلك ظهور فئة الخوارج الذين يعرفون بكثرة علمهم وعملهم، ولكن فقدوا عنصر الأدب والاستقامة السلوكية القائم على حسن الظن، فقد أساءوا ظنهم في حق أفضل من صحب رسول الله ﷺ وأباحوا دماءهم، ونتج عن ذلك من انحراف الفكر بأنهم جعلوا قتل خيار الصحابة وسيلة من وسائل القربى إلى الله في معتقدتهم، ولعل العاقل يستغرب صدور مثل هذا السلوك الذي يحمل أصحابه على التجرؤ بقتل أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ كمثل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ الذي قتله الخوارج في ظنهم بأنهم أدوا أفضل قربي إلى الله بقتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولكن هذا الاستغراب والتعجب يزول سببه عندما تتكشف أسبابه وهو خطورة التفريق بين أهمية صواب الفكر القائم على صلاح القلب وبين الأدب النفوس وتطهيرها من الرعونات، وقد أشار النبي ﷺ إلى شدة هذه الخطورة، وشرها بحيث لا يغتر المرء بكثرة عمل ولا علم ما لم يستقم القلب أو تصلح النفس وتطهر من الصفات المذمومة حتى يتولد الفهم الصحيح والفكر السليم حول نصوص الوحي ومسائله العلمية، فعن جابر بن عبد الله، قَالَ أَنِّي رَجُلٌ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفُهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبٍ بِلَالٍ فَضَبَّهٗ وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اْعْدِلْ. قَالَ: " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ اْعْدِلُ لَقَدْ خَبِتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ اْعْدِلُ ". فَقَالَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ ﷺ دَعْنِي يَا رَسُوْلَ اللهِ فَأَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ . فَقَالَ " مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي اَقْتُلُ اَصْحَابِي إِنْ هَذَا وَاصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ " (1) وفي رواية " دَعَهُ فَإِنَّ لَهُ اَصْحَابًا يَحْتَرُّ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ " (2) وفي رواية أخرى " سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اِخْتِلَافٌ وَفِرْقَةٌ قَوْمٌ يَحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيَسِيئُونَ الْفِعْلَ " (3).

1 - صحيح البخاري رقم (3610) المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى 1422 هـ

2 - السنن الكبي للنسائي رقم (11156)، ن: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: الأولى، 1421 هـ - 2001 م

3 - سنن أبي داود رقم (4765) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ن: دار الفكر

ففي الرواية الأولى تصور لنا كيف تجرأ الرجل الذي سأل النبي ﷺ بإساءة الأدب وسوء ظنه في رسول الله ﷺ، وتهمته بأنه لا يعدل في القسمة، وما ذلك إلا لانحراف الفكر؛ لعدم الاستقامة القلبية والطهارة النفسية، فقد انخلع عن أدبه مع النبي ﷺ وانطمست بصيرته مع أنه كان هذا الرجل متمسكا بظاهر تعاليم الاسلام علما بأحكامه، ولكن لم يُجد عنه شيئاً؛ لفقدان الأدب، ولما كان في ظاهره عاملاً بالتكاليف الشرعية لم يترك النبي ﷺ عمر يقتله عندما همَّ بذلك.

وفي الرواية الثانية يبين كيف يكونون أمثال هذا الرجل على كثرة من عمل الجوارح دون أن يكون لها أثر قلبي، وصلاح سلوكي، وقد بين ﷺ أن السبب أنحجاب قلوبهم عن الفائدة القرآنية أنهم: يقرؤون القرآن "أي يداومون على تلاوته ويبالغون في تجويده وترتيله ومراعاة مخارج حروفه وصفاته" (1) ((فلا يجاوز حناجرهم))، يريد أنه لا يتخلص عن أسنتهم وآذانهم إلى قلوبهم وأفهامهم، وقال القاضي عياض: لا تتجاوز قراءتهم عن السنتهم إلى قلوبهم فلا تؤثر فيها" (2) لأنهم لم يهتموا بشأنها ولم يجعلوا من القرآن حضا من تنوير بواطنهم، وإنما الغاية تزيين أصواتهم به فينتج عن ذلك ما جاء في الرواية الثالثة في وصفهم "يحسنون القيل ويسئون الفعل) فلما لم يقع الانتفاع الباطني في ملامسة القلوب من الذوق القرآني ما تلتزم به النفوس بالأدب وقع منهم الانحراف الفكري الخطير إلى درجة شبهه النبي ﷺ بالمروق كمروق السهم من الرمية (يمرقون منه - أي الدين - كما يمرق السهم من الرمية) "أي يمرون عليه سريعا من غير حظ أو انتفاع به" (3)

ثالثا: الإمام مالك وجهود تلامذته في ترسيخ قواعد تزكية النفوس:

ومن هنا اهتم أسلاف المدرسة المالكية بل وحرصوا كل الحرص بالسير على ما كان عليه الإمام مالك في أول نشأته بأن قرن دراسة العلوم الشرعية بتعلم قواعد تزكية النفوس وصلاح القلوب وتصفيتها من الشوائب والكدورات حتى أثر عن الإمام مالك مقالته المشهورة التي أوضح فيها معالم التوازن ما بين هذين السبيلين بحيث لو فصل أحدهما

1 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام محمد التبريزي (3797/9) ن: دار الفكر، بيروت - لبنان ط: الأولى،

1422 هـ - 2002 م.

2 - المصدر السابق.

3 - المصدر السابق.

عن الآخر في مراحل التعليم لطلاب العلم ورواده لحدث خلل وانحراف عظيم فقال: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق"، ومن جمع بينهما فقد تحقق⁽¹⁾، وليس التصوف الذي ذكره الامام مالك في مقصوده منه إلا الأدب وتعلم الخلق فقد جاء في تعريفه بأن «التصوف خلق وأدب فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»²، وقال العارف بالله شيخ الجنيد سيدي أبو حفص الحداد -رضي الله عنه:- "التصوف كله آداب، لكل وقت آداب ولكل محل آداب"⁽³⁾، وعن سهل بن عبد الله أنه قال: "من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله تعالى بالإخلاص"⁽⁴⁾

لقد ربطت هذه المدرسة بين الفقه والأدب لأن القرآن الكريم قد قرن بينهما وجعل سبحانه وتعالى مهمة الأنبياء ودورهم يتلخص فيما استجابة من الله لدعاء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين ناجى ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾⁽⁵⁾.

ومرة أخرى يجمع القرآن بين التزكية والعلم مذكراً الأمة بهذه النعمة العظيمة فيقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽⁶⁾.

ونجد لتلامذة الإمام مالك الأثر الجلي في تأثرهم البالغ بشخصيته التي نشأت على الاستقامة في الصواب الفكري والصلاح القلبي.. ومن بين أبرز تلامذة الإمام مالك الشافعي حيث يثبت هذا في بيتين من شعره توضح الهوية الحقيقية لسلوك طريق العلم من غير انحراف فيقول⁽⁷⁾:

1 - نقله عنه (التتائي في شرحه على مقدمه ابن رشد).

2 - البحر المديد لابن عجيبة (24/5) المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة ط: 1419هـ

3 - شرح علي ملا قاري على آداب المريدين للسهروردي ص: 117، ن دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

4 - الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف ن: دار المعارف، القاهرة مصر.

5 - سورة البقرة، من الآية: 129.

6 - سورة الجمعة، الآية: 60.

7 - ديوان الشافعي الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ص: 46 تحقيق محمد إبراهيم سليم، ن مكتبة ابن سينا - القاهرة مصر.

فَقِيماً وَصُوفِيّاً فَكُنْ لَيْسَ وَاحِداً فَإِنِّي وَحَقُّ اللَّهِ إِلَيْكَ أَنْصَحُ
فَذَلِكَ قَاسٍ لَمْ يَذُقْ قَلْبُهُ تَقَى وَهَذَا جَهْلٌ كَيْفَ ذُو الْجَهْلِ يَصْلِحُ

يشخص الشافعي في شعره خطورة الانفراد بأحد الطريقتين، وتمثل الخطورة في الآتي:
أولاً: في تعلم الفقه ومسائله دون الاهتمام بترويض النفس بالآداب والأخلاق النبوية مما ينتج عن ذلك فقيها يحكم على الناس بقساوة قلبه، وعماوة بصيرته أحكاماً جائرة وقاسية دون أن يلتفت إلى ما فيه من عيوب ظنا في نفسه أنه على الاستقامة دونهم، وربما قادته هذه العماوة إلى اتهام وسوء ظن بمن شهد له بالخير والورع كمثل الرجل الذي اتهم عليه السلام بعدم العدل، وكما اتهمت الخوارج على بن أبي طالب عليه السلام بأنه لم يحكم بحكم الله.
ثانياً: فيمن سلك مسلك التخلق والآداب والتنسك دون علم ومعرفة بالأحكام وفقه بمسائلها فإنه يقع في كثير من الجهالات والضلالات لغياب علمه بالأحكام، وربما ابتدع سبلاً تخالف الأصول الشرعية، فالنجاة والصلاح والكمال تكمن في التوأمة بين الطريقتين، وهذا المنهج الذي استفاده الشافعي من شيخه الإمام مالك والذي يعتبر هوية المجتمع المدني.

وها هو أيضاً الإمام عبد الرحمن بن القاسم يلازم الإمام مالكا عشرين سنة معايشة ومرافقة يجني من أدبه، ويقتبس من سمته وهيبته ووقاره ويروض نفسه عليها... وعندما عاد ابن القاسم من المدينة إلى وطنه صعيد مصر بهر الأبواب وسحر العيون لعلمه الفياض ولسمته وسلوكه الإيماني وتأدبه بأدب القرآن في كل حركته وسكاته⁽¹⁾.

ثم شد الإمام سخون شيخ المالكية في القيروان رحاله إلى ابن القاسم ليرث عنه السمت المالكي ويحقق معه كتاب المدونة التي رواها عن أسد بن القرات. ولما رجع سخون إلى القيروان أقبل عليه اثنان من أئمة المذهب المالكي في المغرب وهما: محمد بن عبدوس، ومحمد بن سخون يلازمانه في حله وترحاله مقتبسين من أدب مالك وسمته ثم ورث هذا السمت الإمامان أبو العرب التيمي ومحمد بن اللباد ومعهم ثالث وهو الإمام أبو الفضل الممسي، واستمرت هذه السلسلة النورانية إلى أن آل الأمر إلى شيخ المدرسة المالكية في المغرب ابن أبي زيد القيرواني الذي كان يُسمى بمالك الأصغر لتشبهه بالإمام مالك في

1 - ينظر ترتيب المدارك للقاضي عياض (228/1).

سمته وأدبه رواية عملية علمية لا قولية شفوية⁽¹⁾.

ونجد أن الأثر التربوي الذي تشبع به الإمام سخنون من سمت الإمام مالك قد أثر تأثيراً مباشراً بتلامذته ونجد ذلك في أقربهم إليه ابنه الذي ورثه في العلم، وأخذ عنه تلك الآداب حتى ألف رسالة سماها بآداب المتعلمين وهي رسالة قيمة ونفيسة تعكس ذلك السلوك الذي وصل إليه من أبيه عن الإمام مالك⁽²⁾.

المحور الثاني: الأسلاف المالكيون في ليبيا وجهودهم في تكوين هوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

يقول التيجاني في رحلته "إن القارئ في تاريخ هذا القطر تطالعه أسماء أعلام بنوا حياتهم على الزهد في الدنيا، والانكباب على الآخرة، قال الإمام سخنون معبراً عن زهاد هذه البلاد: "رأيت رجالاً بطرابلس ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم"⁽³⁾.

أولاً- المفهوم المتزن للزهد عند علماء الإصلاح من الأسلاف.

وهذا الزهد والورع لا شك بأنه قام على قاعدة العلم والمعرفة في إدراك المسار الصحيح بين الفقه والأدب، بحيث لا يفهم منه ترك مسؤولية إعمار الأرض والقيام بواجب البناء والعمل، ففهوم الزهد ينحرف سلوكه - عند من لم يتسلح بالفقه والعلم - إلى مفهوم الانزواء والتواكل والضعف وتعطيل حركة الحياة، وهنا تأتي دور المعرفة العلمية في تصويب هذا المفهوم الفكري تجاه الزهد من خلال ما عرفته وبينته السنة النبوية، فقد ورد عن أبي ذر^{رضي الله عنه} عن النبي^{صلى الله عليه وسلم} قال: (الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِ اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أَصِيبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أَبْقِيَتْ لَكَ)⁽⁴⁾، ففسر الزهد في الدنيا بأشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح، ولهذا لا يفهم من هؤلاء الأعلام

1 - ينظر المصدر السابق (303/1).

2 - النسق التربوي عند ابن سخنون والقاسبي ص 27 د فيصل صلاح الرشيدى.

3 - ينظر: رحلة التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) ص: 251 - المطبعة الرسمية تونس د-ت

4 - سنن الترمذي، أبي عيسى الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» باب ما جاء في الزهادة في الدنيا رقم (2340) المحقق: بشار عواد معروف، ن: دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: 1998 م كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

الأسلاف بأن زهدهم كان على وجه تعطيل حركة حياتهم وأعمارهم ما أوجب عليهم فعله، وإنما صورة زهدهم مبنية على فقههم الصحيح بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾. وكذلك علمهم بسبب نزولها، فقد ورد "أنه أراد أناس من أصحاب النبي ﷺ أن يرفضوا الدنيا، ويتركوا النساء، ويترهبوا، فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع عبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا، واعتمروا، واستقيموا يستقيم لكم. قال: ونزلت فيهم: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"⁽²⁾.

ونري تمثل هذا الفهم الصحيح للزهد وتطبيقه بما يطابق تعاليم القرآن والسنة النبوية عند أشهر سلف أعلام ليبيا الشيخ عبد الله الشعاب أحد مشايخ القرن الثالث الهجري، ولد في طرابلس وبها توفي سنة (243 هـ)، فقد كان كما وصف متمسكاً بطريق السلف ومعروفاً بزهده وتصوفه، وبالإضافة إلى اعتناؤه بأمور الدنيا، فلم يفهم من الزهد معنى الركون وعدم القيام بواجب الإعمار، فقد كان يمتن حرفة التجارة فقد كان الزهد والورع عامراً به قلبه بينما جوارحه قائماً بوظيفة الإعمار والحركة في الحياة، مقتزنة بحال التوكل على الله في قلبه فقد عمر المسجد وبناه بنفسه إلى أن دُفن على بعد مسافة قصيرة جداً منه، وحمل اسمه (مسجد سيدي الشعاب) مقابل ميناء طرابلس⁽³⁾.

وهذا الجهد المبذول يعود فضله الأول لمن نشر الفكر المالكي ومذهبه مُشبعاً بمثل هذه القيم الصحيحة على مستوى أقطار المغرب العربي وهو الإمام الرائد علي بن زياد العبسي الطرابلسي (١٨٣ ت هـ) الذي قال عنه عياض: "ثقة مأمون متعبد بارع في الفقه ممن يخشى الله عز وجل مع علوه في الفقه. سمع من مالك وسفيان الثوري والليث ابن

1 - سورة المائدة، الآيتان 87، 88.

2 - الطبري جامع البيان في تأويل القرآن أبي جعفر الطبري (513/10) المحقق: أحمد محمد شاكر، ن: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

3 - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب أحمد بك النائب الأنصاري، ص 67، منشورات مكتبة الفرجاني - طرابلس الغرب - ليبيا.

سعد، وابن لهيعة وغيرهم⁽¹⁾، فقد وصفه بأنه متعبد بارع في الفقه مما يؤكد بأن هذا الزهد الذي بنوا به هؤلاء الأسلاف حياتهم في ليبيا قائماً على المعرفة الفقهية المستمدة من منهج علي بن زياد العبسي بعيداً عن الانحراف الفكري والتشدد المفتقر إلى قواعد الفقه العلمي. ثانياً: المجتمع الليبي وتأثره الإصلاح بالهوية المدنية

وهذا يدل بأن المجتمع الليبي قد تأثر مبكراً بهوية التوازن بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي من خلال منهج الإمام مالك الذي بفضل وجهود تلميذه ابن زياد اكتسب الليبيون الهوية المدنية ذات الطابع والبيئة المعتدلة التي احتضنت أحوال النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة في جانب وحي رسالته والتي سار الصحابة عليها ومن بعدهم من التابعين ثم حظي الإمام مالك بهذا الميراث النبوي باتفاق أهل زمانه بأنه اجتمع فيه علم وسمت من سبقه من خيار التابعين في المدينة، وقد شهد له بهذه الجمعية حديث النبي ﷺ الذي قال فيه (يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ) وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عِيْنَةَ، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا: سُئِلَ مَنْ عَالِمُ الْمَدِينَةِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ⁽²⁾، وفي رواية (يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة)⁽³⁾.

وبهذه الرواية يكون المجتمع الليبي قد حاز السبق الأول والفضل المتقدم على بقية بلاد المغرب الإسلامي بضرب أكباد الإبل إلى عالم المدينة من خلال ابن زياد الطرابلسي وهو من أبناء هذا الوطن، وبهذا تتحقق نبوءة النبي ﷺ، وهذه النقلة التي انتقل إليها علي بن زياد نشأت وتأسست على يديه مدرسة الإمام مالك على مستوى القطر الليبي خاصة وأقطار المغرب العربي عامة "فهو - كما قال عياض - أول من أدخل الموطأ ... إلى المغرب، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه"⁽⁴⁾، ولم يكتف المجتمع الليبي بإرسال سفير واحد إلى إمام دار الهجرة بل نتابع القاصدون لينهلوا من المعين المدني والنبوي كمثل أبي سلمان محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي فقد صحب مالكا وسمع منه الموطأ.

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض (80/1).

2 - سنن الترمذي رقم (2680).

3 - المصدر السابق.

4 - ترتيب المدارك للقاضي عياض (80/1).

وهو مشهور ثقة⁽¹⁾، وأيضا محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي كذلك شد الرحال إلى الإمام مالك واكتسب من علمه وأدبه⁽²⁾.

لقد اتم المجتمع الليبي بما كانت عليه الهوية المدنية من طابع الاعتدال والتوازن وتحقيق منهج خيار الناس، وهذا التأثير والتحول كان الفضل فيه سفراء الوطن الليبي وأسلاف هذه البلاد الذين كان لهم السبق والفضل عن غيرهم في إذاعة وإشاعة تعاليم الإمام مالك ومنهجه التربوي والفقهية.

ونحن نجد أن حركة هؤلاء الأعلام لم تتوقف عند هذا الحد من العطاء العلمي والإصلاح القلبي بين مجتمعاتهم، بل تمثل ذلك من بعدهم في أبرز تلامذتهم كأمثال الإمام سخون الذي هو من أبرز تلامذة علي بن زياد وهو من ينسب إليه جمع المدونة، فلما كان في طريق العودة إلى إفريقية (تونس) عرج على برقه سنة 191هـ، وزار تحديداً مدينة اجدايا وهي إحدى المدن الليبية المهمة خصوصاً في العصور الوسطى الإسلامية والتي كان لها دور مهم أثناء الفتوحات الإسلامية للشمال الأفريقي سنة 22هـ باعتبارها قاعدة عسكرية مهمة لجيوش الفتح المنطلقة أو المتراجعة بحسب الظروف. نزل بمدينة اجدايا عام 191هـ ضيفاً على أهلها، راغباً أن يستفيدوا من علمه وما كتبه في مدونته من فقه الإمام مالك، حيث أخذ يدرس أهلها العلم الشرعي ما يقرب من ثلاث سنوات في مسجد اجدايا الكبير، وهذا يشير إلى مدى الازدهار العلمي والعمرائي بمدينة اجدايا، خلال العهد العباسي الأول وهي الفترة التي زارها فيها سخون، وقد عرف عن الإمام سخون أنه كان يطرد أهل الأهواء والبدع وأصحاب المذاهب المنحرفة من المساجد في أي مكان حل به⁽³⁾.

1 - ترتيب المدارك (284/1).

2 - المصدر السابق (197/2).

3 - طبقات علماء إفريقية وتونس: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، ص: 184، تحقيق، علي الشابي، ونعيم حسن البافي، الدار التونسية للنشر 1968.

المحور الثالث: الأسلاف ومنهجيتهم التطبيقية والتدريسية في إرشاد الفكر وإصلاح القلب:

لقد توارث الأسلاف منهجية هذا الفكر والإصلاح وترسخ ذلك في مؤسساتهم التعليمية وزواياهم وبقي موروثا عليما نتوارثه الأجيال، وللاطلاع على هذه المنهجية في التدريس وطرق تطبيقها فإني أكتفي في هذا المحور بذكر أنموذجين إصلاحيين وتعليميين لأشهر علماء ليبيا اللذين ملأ أطباق الأرض علماً ومعرفةً، وشرفت بهما البلاد شرقاً وغرباً، وكان كل منهما مجدداً في زمانه ومصححاً عملياً لمدرسة الصواب الفكري والإصلاح القلبي، فشاع منهجها وبقي صيتها حياً موروثاً، وعلمها مدروساً منتفعا به في كل الأرجاء والأثناء.

أولاً: الفكر الإصلاحى للشيخ زروق ومنهجيته التعليمية:

وهو الشيخ أحمد زروق هو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، المعروف بزروق. ولد سنة 846هـ/1442م دفين مدينة مصراته، وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر صفر سنة 899هـ، لقي ربه في خلوته وعمره أربعة وخمسون عاماً، تاركاً وراءه تراثاً ضخماً ما يزال شاهداً على عظمة هذا الرجل وعلو كعبه، وسعة فكره، صاحب المدرسة التربوية والتزكوية، إمام الفقه المالكي في عصره، ومجدد عهدها بليبيا بعد رحلته العلمية الطويلة التي ابتدأها من مسقط رأسه وموطن مولده في مدينة فاس حيث كانت موئل العلماء خاصة في العصر المريني ثم استقر به المقام بضواحي طرابلس الليبية، واختار منطقة مصراته مقراً له، باعتبارها كانت تشكل أقرب نقطة من المسجد الذي كان يلقي فيه دروسه على مريديه وأتباعه⁽¹⁾.

وقد تميز فكره التربوي بالتوازن في بعده المصاعدي بإصلاح النفس الإنسانية وأخذها إلى طريق الكمال الخلقى على نهج الكتاب والسنة، مصححاً بذلك كل ما أدى به الانحراف والبعد عن منابع الشرع الكريم، فقد حافظ على الأصول الشرعية والآثار النبوية، وتجنب الانحرافات الفكرية والغلو السلوكي الذي شاب الفكر الصوفي وأدى به إلى الميل عن جادة

1 - ينظر: الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية تأليف ادريس عزوزي ص: 33 مطبعة فضالة المحمدية بفاس المغرب

الحق، وقد جعل في جانب ذلك للفقهاء أهمية كبيرة في حياة التزكية الروحية ليحقق للطريق توازنه الصحيح.

وبذلك يقرر منهجيته ويدون معالم طريقه على هذا السلوك القويم في كتابه عدة المرید فيقول فيه: "أعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه، إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله... ثم الفقه والأصول شرط فيه والمشروط لا يصح دون شرطه والشرط أن يكون بما يرضاه الحق... فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه بلا تصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل ولا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بالإيمان إذ لا يصحان دونه فهو بمنزلة الروح وهما بمنزلة الجسد، لا ظهور له إلا فيهما ولا كمال لهما إلا به وهو مقام الإحسان"⁽¹⁾.

لقد استطاع الشيخ زروق أن يرسم للتصوف بهذه المنهجية المتزنة مع تحقيق للفقه دوره الفعال، مما انعكس ذلك في ساحة دعوته بهذا الأسلوب على أتباعه ومريديه في الساحة الليبية ونجد ذلك جلياً ظاهراً في طابع المدارس والزوايا في منهجية تعليمها على نسق هذا التوازن الذي رسمه الشيخ أحمد زروق، ومن مظاهر هذه المنهجية التي تطبعت بها الزوايا الليبية في تحقيق التزكية الروحية الاعتناء بمدارسة العلوم النافعة، وقد قسمها الشيخ زروق إلى أربعة أقسام، وقال عنها هي: "العلوم المعينة على تنوير القلب وهي أربعة: أولها: علم التوحيد والإيمان، وأقل ما يجرى منه عقيدة مجردة عن البرهان، محررة في البيان، كترجمة العقيدة للإمام الغزالي وما جرى مجراها، وأوسطه ما في رسالته القدسية، وأعلاه معرفة أصول المذهب الحق وقواعده، وأضر ما فيه فرض الشبه والاشتغال بأنواع التأويل من غير احتجاج لذلك، لأنه مشتت للقلب، مشوش للذهن، موهن للإيمان، مضعف لحرمة الربوبية من القلب، إلا في حق كامل منتصر للشريعة بما أوتيته من العلم والبيان، فيقوم بذلك دفعا لأهل الاعتراض، ومداواة لذوي القلوب المرضى، لا نخلي سليم غير محتاج إليه، ولا قادر على القيام عليه، والله أعلم"⁽²⁾.

فارتسم بما قرره الشيخ زروق للزوايا الليبية قديماً في تعليمها الشرعي بمنهج دقيق في

1 - عدة المرید الصادق المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد الزروق (48/1)، المحقق: الصادق ابن عبد الرحمن

الغرياني الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م

2 - عدة المرید الصادق (ص: 181).

هذا الجانب من العلوم الشرعية، فكان اول ما يلتزم به الطالب حفظ المتون التي ترشده الى فهم مسائل التوحيد والإيمان الواجب معرفته بعيدا لما أشار اليه الشيخ زروق فيما هو (مشنت للقلب، مشوش للذهن، موهن للإيمان، مضعف لحزمة الربوبية من القلب) ولذلك لكثرة ما في هذا النوع من علم الكلام من الشبه والأغاليط الفكرية التي تشوش ذهن الطالب في بداياته العلية وبالتالي يدرس من المتون ما يحفظ عنه إيمانه وقلبه من الشتات بمسائل مقررة ومحركة ومن أهمها متن أم البراهين للإمام العلامة السنوسي وكذلك منظومة المرزوقي التي مسماها عقيدة العوام، وأيضا مقدمة ابن عاشر وغيرها.

الثاني: علم الفقه والأركان، وأقل ما يكفي فيه معرفة عقود الأبواب وشروطها، وأوسطه ما يتسع به النظر في الأحكام، وأعلاه ما ثبت به الحججة والمحنة من العلم، بالتوجيه والتنظير والدليل والتعليل، وأنواع التقسيم إلى غير ذلك، وأضر ما فيه التشديق في المجالس، وتشتيت، لذهن بالخلافات، واتساع التأويل في الحركات، ورؤية النفس بالتحصيل، مع مصاولة الأقران ومكائد الإخوان، والاشتغال بوجوه الهذيان، فتعلم مستمعا ساكنا، مقتصرًا على محل الفائدة، متبرئا من الدعوى ورؤية النفس، تسلم من آفاته، وبالله التوفيق⁽¹⁾.

ومن الملاحظ في هذا الجانب أيضا يرسم بعدا مقاصديا في ترسيخ المصلحة الفعلية من تدريس علوم الفقه والاجتهاد ومنبها عن الأضرار النفسية التي تلحق بمن لا يصحح النية الصادقة في عدم إصابة الهدف المرجو من تعلم هذا العلم، وعلى هذا المنوال نجد أن المدارس والزوايا في ليبيا تطبعت بهذا الطابع التوجيهي الذي يحفظ للفقه توازنه ومقاصده، فقد نشأت على تحفيظ الطلاب المختصرات التي أولا يكتفي بها الطالب في معرفة ما يتعين عليه من الأمور العملية ثم يتدرج ما يتسع به نظره في الأحكام، وما ثبت به حجته من أدلة هذه المسائل، فأول ما كان يقرأ المتون المختصرة وشروحها الميسرة كنظم ابن عاشر في فقه العبادات، ثم متن الرسالة لابن أبي يزيد القيرواني، وأيضا متن خليل ومختصره في الفقه، ثم ينتقل بالطالب إلى الشروحات الموسعة لنقولات العلماء واختلاف مسالك اجتهاداتهم.

"الثالث: علم التصوف والأحوال، وفائدته تحقيق العبودية، والنظر في وجه تعظيم الربوبية، بإقامة الحقوق، والإعراض بالحق عن كل مخلوق، وأقل ما يجزئ فيه (بداية

1 - عدة المرید الصادق (ص: 182).

الهداية) للغزالي، وأوسطه منهاجه أو بعض كتب المحاسبي، وأعلاه كتب ابن عطاء الله
ومن نحا نحوه...⁽¹⁾.

ثانياً: الفكر الإصلاحي للشيخ الأسمر وتطبيقاته التدريسية:

وهو عبد السلام الأسمر بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني. يُعدّ من أهم علماء
ودعاة الإسلام في القرن العاشر الهجري، فهو من فقهاء المالكية وعالم في عقيدة أهل
السنة والجماعة، ومن أبرز مشايخ التربية والسلوك على منهج أئمة التصوف. وأحد أهم ركائز
الحركة العلمية والدعوية في المغرب الإسلامي. تضمّن منهجه الدعوي والإصلاحي الاهتمام
بمختلف طبقات المجتمع ولم ينحصر في الطبقة المتعلمة، الأمر الذي جعله قائداً روحياً وبمثابة
حجر زاوية لرسوخ الإسلام في المغرب الإسلامي، وبعد مضي خمسة قرون على وفاته فإن
أثره ما يزال واضحاً ومؤثراً على الصعيدين العلمي والاجتماعي⁽²⁾.

وقد أسس مدرسته التي هي من أكبر الزوايا التي عمرت بها البلاد ليبدأ وقد تأثر في
أسلوبه التعليمي بها بمنهج شيخه أحمد زروق الذي هو بدوره أشار إلى تلميذه مُستبشراً بما
رآه فيه من النبوغ بعلو قدمه ونجاحه في مهمته الدعوية، متبنيًا في مسيرته ما وضعه الشيخ
زروق له من منهج متوازن، فقال: "... سيكون لهذا الولد - عبد السلام الأسمر - شأنٌ
عظيم بطرابلس إلى أن يفوق أهل عصره"⁽³⁾، وقد صدّق الله فراسته في تلميذه حيث
أسس زاويته في منهجها التعليمي وفق ما خطه الشيخ زروق من منهجية التقسيم في
العلوم النافعة، فتبع الشيخ الأسمر ذلك في تعليمه لتلاميذه بمنهج دقيق يوضح مدى تفانيه
في أدائه لرسالة الدعوة على هذا النهج المعتدل، فقسم اليوم الدراسي لتلاميذه على التقسيم
الرباعي:

فجعل في المحاضرة الأولى: تدريس علوم التوحيد من الضحى إلى صلاة الظهر.

وأما المحاضرة الثانية: ففي علوم الفقه من بعد صلاة الظهر إلى العصر، تنقسم هذه
المحاضرة إلى جزئين، الجزء الأول يخصص لدراسة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والجزء
الثاني لتدريس مختصر خليل، ومختصر خليل هو من أهم كتب المالكية ومن أشهر من

1 - المصدر نفسه.

2 - القطب الأنور عبد السلام الأسمر / الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني.

3 - تفتيح روضة الأزهار للشيخ كريم الدين البرموني (ص: 120) تهذيب محمد مخلوف مكتبة زهران القاهرة.

شرحه الإمام الخطاب تلميذ الشيخ عبد السلام الأسمر.
وأما المحاضرة الثالثة: ففي علوم التربية والسلوك، وتبتدئ من بعد صلاة العصر إلى المغرب، يتناول خلالها كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله الاسكندري.
وفي المحاضرة الرابعة: يتناول علوم النحو، والمعقول، وتبتدئ بعد صلاة المغرب إلى وسط وقت العشاء، تنقسم هذه المحاضرة إلى جزئين، الجزء الأول يخصص لدراسة النحو، والجزء الثاني لدراسة المعقول من علوم المنطق وغيرها⁽¹⁾.

وعلوم المحاضرة الرابعة هي ما أشار إليها الشيخ زروق في تقسيمه مبينا مهمة تعلم هذه العلوم فقال: "الرابع: علم الإيضاح والدلالة والبيان والتحقيق، كالعربية، لغة ونحواً، وما يجري مجراها، والمراد بها ما يقع به الفهم والتفهيم على أتم الوجوم بأقرب ما تحصل به، فهي كالملاح إن كثر ضرر، وإن قل فسد الطعام بنقص لذته، بل عدمها، والله أعلم⁽²⁾.
وقد سماها الشيخ زروق أصول هذه العلوم بالعلوم المنورة فقال: " وإذا علمت العلوم المنورة فقد بانت لك العلوم المكررة"⁽³⁾، فهذه المنهجية التدريسية الرائعة في تطبيقها حققت في الهوية الليبية الإصلاح والاعتدال بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي
المحور الرابع: المجتمع الليبي وتأثره بمنهجية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

إن هذه العلوم المنورة - كما سماها الشيخ زروق - لما اتسع نطاق تعليمها وتطبيقها بهذه المنهجية الرائعة في المدارس العلمية والزوايا والروابط التعليمية تركت الأثر العلمي والتربوي في سلوك المجتمع الليبي عبر مراحلها التاريخية، ويرجع هذه التأثير الواسع بسبب كثرة انتشارها في جميع الأرجاء، ومن خلال ذلك نلتمس تاريخياً هذا التكوين في هوية المجتمع الليبي، من عدة نواحي:

أولاً: عبر النسيج العمراني القديم: فنجد هذه الزوايا والروابط والمساجد غالباً ما تتوسط في بنائها مراكز هذه المدن مما تمثل النواة الأولى في تخطيطها وتأسيسها، والتي تكون فيها شوارع المدن الرئيسية صرة الالتقاء بها فتتصل بساحاتها؛ لتصبح هذه الشوارع بمثابة شريان الحياة بين عمران المدينة وهذه الروابط والمساجد أو المؤسسات العلمية المتمركزة فيها،

1 - ينظر: تنقيح روضة الأزهار ص: 207.

2 - عدة المريد الصادق ص: 183.

3 - المصدر نفسه.

كالقلب النابض بروح الحياة لهذه المدن، فهي تضخ لكل البيوت والمرافق المحيطة بها بنبضات الإيمان وروح العلم وصلاح القلب والفكر⁽¹⁾.

ثانياً: عبر مظاهر حياة التدين والالتزام بين طبقات الخواص: من رواد هذه المراكز الذين تشبعوا بروح الفكر الإصلاحية والفقهية، وحياة القلب النابض بنور الإيمان والتزكية من هذه المساجد والروابط، فكانوا رجال إصلاح وإرشاد لمجتمعاتهم، يقول د. إحسان عباس: "...اتخاذ هذه المساجد والرباطات في المجتمع الليبي كان مبكراً في تاريخها مما عكس ذلك على المجتمع الليبي بحبهم للتدين والعبادة والزهد والإيمان بمبادئ الدين وقيمه"⁽²⁾.

ونجد ذلك ما يشهد له قول الإمام سخنون بن سعيد بعد عودته من طرابلس عندما سئل عن أهلها فقال: "رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضيل بن عياض أفضل منهم"⁽³⁾. والفضيل هذا كان من أشهر العباد والزهاد في التاريخ الإسلامي حتى لقب بعباد الحرمين، وقال عنه عبد الله بن المبارك: "ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل"⁽⁴⁾. وهذا التميز في مظهر حياة العلم والمعرفة مع الزهد والاستقامة لدى الأعلام في ليبيا لم يكن حبيس العصور المبكرة التي عاشها الإمام سخنون ومن قبله بل نجده طابعا سائداً بين علمائها في كل مراحل التاريخ فهذا الرحالة التجاني كان قد زار ليبيا سنة 708 هـ / 1308م وأشار في رحلته إلى كثير من فضلاء طرابلس وصلحاءها الذين عرفوا بالبركة وإجابة الدعوة، والزهد في الدنيا، من أمثال: أبي عثمان الحساني، وسمدونة، والشعاب، وأبو نزار خطاب البرقي، وأبي محمد عبد الوهاب القيسي، وغيرهم. ويقول عن العالم والفقير ابن الأجدابي: كفي بهذا الرجل العظيم القدر نفراً لهذا القطر"⁽⁵⁾، ويعني بهذا القطر طرابلس وليبيا بأكملها، فقد كان من العلماء الكبار الذي جمع بين صواب الفكر وصلاح القلب.

1 - ينظر مدونة د أنتصار محمد ميلاد الزنان (السمات العامة للنسيج العمراني للمدن الليبية القديمة)

<https://portal.arid.my/ar-LY/Posts/Details>

2 - ينظر تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا للنشر والتوزيع ط 1 1967 ص 243.

3 - زهرة الأنظار للشيخ حسين بن محمد الورثاني (182/1)، ن - دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1971.

4 - تاريخ الإسلام الذهبي ج (12 / 335)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت ط:

الأولى: ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.

5 - رحلة التجاني ص 273-274.

ثالثاً: عبر مظاهر الحياة الاجتماعية بين عامة الناس، فلم يقتصر هذا التأثير الإيجابي والإشباع الفكري والوجداني عند طبقة خواص الناس من العلماء وطلاب العلم بل نجده قد شاع سلوكاً ومعاملة في عامة المجتمع، فشواهد المؤرخين تُدون ما كان عليه المجتمع اللببي من رُقِيٍّ في التعامل، وسموٍّ في الأخلاق وإكرامهم وتعظيمهم للهارين والنازلين بهم من الأضياف، وبالأخص العلماء منهم، فهذا التشبع الروحي والفكري المبكر اشتهرت بلادنا (ليبيا) عند الرحالة والمارين بها بأنها بلد العلم والمعرفة والكرم والجود، وبلد الصالحين والعلماء، ولذلك حرص الرحالة والجغرافيون والمجارج المغاربة على التوقف بها، ولقاء علماءها وزيارة أضرحة وقبور الصالحين من أهلها، وزيارة مساجدها. يقول المؤرخ أبو عبيد البكري عن أهل طرابلس (إن أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرته، وأجودهم معاملة، وأبرهم بغريب)⁽¹⁾، ونرى أن البكري أرخ هذه التزكية في أهل طرابلس آخر القرن الخامس وبداية القرن السادس. وكما نجد تزكية لمؤرخ آخر في الفترة التي تليها حوالي بثلاثة قرون، مما يدل على عمق تغلغل هذه الصفات الحميدة في أجيال المجتمع اللببي، وأن هذه الزوايا والروابط قائمة بدورها التعليمي والإصلاحي في المجتمع على أحسن وجه، يقول الرحالة الأندلسي أبو الحسن القلصادي عن طرابلس وكان قد زارها سنة 850 هـ / 1446م: "وبلغنا طرابلس فنزلنا وتلاقينا مع بعض الأصدقاء وحبونا بالبر والإكرام"⁽²⁾. وانظر إلى قول الرحالة العياشي الذي زارها سنة 1059هـ / 1649م حيث يذكر: "جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الأنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغواً إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاماً، سيما مع المجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وأنعامهم"⁽³⁾. وما يلفت الانتباه من قول العياشي ذكره في أهل طرابلس "... لا تكاد تسمع منهم كلاماً قبيحاً أبداً، حتى لمن استحق العقاب والتوبيخ، وهذا الوصف الرائع يني على عظيم

1 - المسالك والممالك للبكري (652/2) ن: دار الغرب الإسلامي عام النشر: 1992م.

2 - رحلة القصادي، (ص: 324). دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع.

3 - الرحلة العياشية (1/ 523)، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، 2006م.

الأخلاق التي كانوا يتسمون بها في سلوكهم ومعاملاتهم وإن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأثيرهم بتعاليم الأخلاق الروحية والآداب الرفيعة التي منشأها فيهم من تلك المدارس والزوايا والروابط التي استوعبت في تطبيقات علومها جل أفراد المجتمع دون بعضهم من المتعلمين مما يعكس أهمية ما قامت به هذه الروابط من دور فعال في تربية المجتمع على أحسن مثال، ونجد -أيضاً- الرحالة الناصري في مرحلة زمنية أحدث من سابقتها التي زارها سنة 1211هـ/ 1796م: له شهادة يفتخر بها لأهل البلاد فيقول: "والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الركبان وعلم علمائها ملاً الخلفين، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح"⁽¹⁾.

وفي عام سنة 1247هـ/ 1831م زار الرحالة الموريتاني ابن طوير الجنة تكلم عن كرم وجود أهل ليبيا بعد مروره بدرنة وبنغازي وطرابلس فقال "وأما ما فعل معنا أهل درنة وأهل بنغازي وأهل طرابلس من أنواع الإكرام وأنواع الإنعام فلا تحصيه الدفاتر، وتقصر عن عدده الأرقام والمحابر"⁽²⁾.

فهذا عرض لشهادات الرحالة والمؤرخين مختلفي الأشخاص ومتبايني الأزمنة، كل واحد منهم يركي طباع ومعاملات الناس في مرحلته التاريخية فنجد بأن المجتمع الليبي من مراحل التاريخ الأولى حينما استقرت تعاليم الإسلام السمحاء والمعتدلة ورسوخ الذهب المالمكي بشقيه الفقهي والأخلاقي بقيت تلك هي الهوية السائدة في المجتمع الليبي إلى العصر القريب وإن العلماء الربانيين لم ينقطع سعيهم في تطبيق العلوم المنورة كلما ذهبت طبقة من هؤلاء العلماء استخلفهم من بعدهم في إكمال المسيرة العلمية والتربوية مما عكس هذا الإشباع الفكري والخلقي في المجتمع الليبي، وأصبح الهوية السائدة فيه والذي بدور المؤرخين والرحالة عاينوا ذلك ودونوه فكان أخفر شهادة يعترف بها الليبيون في هويتهم التي شيدها فيهم هؤلاء الأسلاف.

الخاتمة:

من أهم النتائج التي نتلخص حول محتوى هذا البحث هي الآتي:

1. إن التوأمة بين صواب الفكر وصلاح القلب بدأ وجوده وأهميته في المذهب من حياة الإمام

1 - الرحلة الناصرية ص: 78، حققها وقدم لها عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، أبو ظبي، 2011م.

2 - رحلة المنى والمنة ص: 180، تحقيق حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، 2013م.

- مالك عند مرحلته التعليمية الأولى، وهي الهوية الحقيقية للدين التي تربي عليها مجتمع الصحابة ومن بعدهم من التابعين في المدينة المنورة.
2. بهذا التوازن بين السبيلين لم يحصل تطرف في الفكر، أو انحراف في السلوك كما وجد في بقية المجتمعات الأخرى من فرق عديدة ظهرت في غير المدينة المنورة، ضلت في فكرها وانحرفت في سلوكها.
3. إن التفريق بين أهمية صواب الفكر القائم على صلاح القلب، وبين أدب النفوس وتطهيرها من الرعونات يمثل خطورة بين الأفراد والمجتمعات المسلمة
4. إن المجتمع الليبي قد تأثر مبكراً بهوية هذا التوازن بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي من خلال منهج الإمام مالك الذي بفضل وجهود تلاميذه اكتسب الليبيون الهوية المدنية ذات الطابع والبيئة المعتدلة التي احتضنت أحوال النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة.
5. إن المجتمع الليبي قد حاز السبق الأول والفضل المتقدم على بقية بلاد المغرب الإسلامي وذلك بأن كان أول من ضرب أجداد الإبل إلى عالم المدينة أحد أبناء هذا الوطن وهو ابن زياد الطرابلسي.
6. بتحقيق هوية هذا الاعتدال لم يسجل التاريخ الليبي في فترة حياة هذه المنهجية العلمية أي نتاج متطرف أو فكر منحرف يحمل صوراً فكرية مشوهة أو مشوهة، ويهذين الطريقين بوجودهما معا -بين تزكية النفوس، والجانب الفقهي- يحققان المصلحة الكبرى في إيجاد ما تنهياً به النفوس بما يصلحها، ويصقل القلوب بما يطهرها.
7. بهذا التشبع الروحي والفكري المبكر التي اشتهرت بلادنا (ليبيا) عبر المنهجية الرائعة التي في المدارس العلمية والزوايا والروابط التعليمية تركت الأثر العلمي والتربوي في سلوك المجتمع الليبي عبر مراحل التاريخ مما خلف عند الرحالة والممارين بها انطبعا في مدوناتهم التاريخية بأنها بلد العلم والمعرفة والكرم والجود، وبلد الصالحين والعلماء فكان ذلك منهم أنخر شهادة يعتز بها الليبيون في هويتهم التي شيدها فيهم هؤلاء الأسلاف.

التوصيات:

لتجنب الفوضى الفكرية والانحرافات السلوكية في دعوى الالتزام والتدين في المجتمع الليبي يجب علاجها بإحياء مَدَارسةٍ منهجيةٍ سلف ورموز وعلماء هذه البلاد الذين طالما لمعت أسماءهم لدى العام والخاص؛ وترميم ما شيده من أسسٍ وأبنيةٍ وقبابٍ لربط وزوايا احتوت على أجل ما تركوه من تراثٍ علميٍ منتفع به عمَّرت به البلاد، وصلاح به العباد في ليبيا.

فهرس المصادر والمراجع:

1. البحر المديد لابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة ط: 1419هـ.
2. تاريخ الإسلام الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت ط: الأولى: 1407هـ/1987م.
3. تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا للنشر والتوزيع ط 1 1967 .
4. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: الأولى.
5. تنقيح روضة الأزهار للشيخ كريم الدين البرموني، تهذيب محمد مخلوف مكتبة زهران القاهرة.
6. ديوان الإمام الشافعي، محمد بن إدريس، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا - القاهرة مصر.
7. رحلة التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد، المطبعة الرسمية تونس د-ت
8. الرحلة العياشية، تحقيق، سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، 2006م.
9. رحلة القصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع.
10. رحلة المنى والمنة، تحقيق حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، 2013م.

11. الرحلة الناصرية، تحقيقها، عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، أبو ظبي، 2011م.
12. الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود، الدكتور محمود بن الشريف ن: دار المعارف، القاهرة مصر.
13. سنن أبي داود رقم (4765) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
14. سنن الترمذي، أبي عيسى الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الزهادة في الدنيا رقم (2340) المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
15. السنن الكبي للنسائي رقم (11156)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، 1421هـ/ 2001م
16. شرح ملا علي قاري على آداب المريدين للسهروردي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
17. الشيخ أحمد زروق آراؤه الاصلاحية تاليف ادريس عزوزي، مطبعة فضالة المحمدية بفاس المغرب 1419هـ 1998م.
18. صحيح البخاري رقم (3610)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى 1422هـ.
19. الطبري جامع البيان في تأويل القرآن أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ن: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420هـ - 2000م.
20. طبقات علماء إفريقية وتونس: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، تحقيق، علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر 1968.
21. عدة المريد الصادق المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد الزروق، تحقيق: الصادق ابن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم الطبعة: الأولى، 1427هـ/ 2006م.
22. القطب الأنور عبد السلام الأسمر، الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني.
23. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام محمد التبريزي، دار الفكر، بيروت - لبنان ط: الأولى، 1422هـ - 2002م.
24. المسالك والممالك للبكري، دار الغرب الإسلامي عام النشر: 1992م.
25. المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب أحمد بك النائب الأنصاري، منشورات مكتبة الفرجاني - طرابلس الغرب - ليبيا.
26. نزهة الأنظار للشيخ حسين بن محمد الورثلاني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971.

دخول قراءة الإمام نافع إفريقية

د. الهادي محمد روشو/جامعة الزيتونة/مدير المعهد الأعلى للشريعة بتونس

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد، فإن الله تعالى قد أنزل كتابه العزيز على قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بواسطة الأمين جبريل عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء: 192-195. فكان النبي الأمي عليه أتم الصلاة وأزكى التسليم يحفظه، ويبلغه حال تنزله عليه، بل يأمر بكتابه زيادة في التوثيق. فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس عن عثمان قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا⁽¹⁾.

لقد كانت تلك الكتابة مجرد زيادة في توثيق النص القرآني، أما العرب وقت تنزل القرآن فلم يكونوا بحاجة إلى كتابة، إذ الفطرة سليمة، ومتطلبات الحياة بسيطة، وخبرتهم بلغتهم تفوق كل تصور، حتى كانوا يحفظون القصيد الطويل من سماع واحد ومن سماعين اثنين، فما بالك بحفظ القرآن الكريم الذي أعجز الفصحاء وأسكت البلغاء.

لقد وصف الله تعالى هذا القرآن الكريم بأنه محفوظ في صدور الذين أوتوا العلم فقال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت: 49، لذلك كان النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- يعلم أصحابه القرآن الكريم، ويأمرهم بتعليمه للناس، فكان يقول: "بلغوا عني ولو آية"⁽²⁾، ويبين لهم أنهم إن فعلوا ذلك كانوا أفضل الناس، فقال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"⁽³⁾، فكان الصحابة الكرام -رضي الله تعالى عنهم- يتسابقون في تعلم القرآن الكريم وتعليمه لغيرهم، بدءاً بأبنائهم وأقاربهم، وصولاً إلى أبعد

(1) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 1/ 323.

(2) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الحديث رقم 3274.

(3) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، الحديث رقم 4739.

ما يصل إليه سمعهم من أبناء آدم على وجه البسيطة. نخرجت بحافلهم تنشر راية التوحيد، وتعلم كتاب الله تعالى لما فيه من خير وصلاح لكل صنف من أصناف البشر، كان لإفريقية منهم نصيب وافر.

ولقد عرفت إفريقية - وعاصمتها القيروان - أجيالا متعاقبة من قراء كتاب الله المبين، منذ جيل الصحابة إلى وقتنا الحاضر، واشتهرت فيها قراءة نافع بن عبد الرحمن المدني، حتى لم يعد يعرف أهلها في بعض الحقب التاريخية سواها، فكيف دخلت قراءة نافع إلى القيروان؟ من كان أول من أتى بها؟ ومن أين جاء بها؟ ومتى كان ذلك تحديدا؟ هل صحيح أن ابن خيرون الأندلسي المتوفى في القرن الرابع الهجري هو الذي كان وراء ذلك كما ذكر الذهبي في معرفة القراء الكبار؟ هل يمكن أن نسلّم بكلام الذهبي إذا وجدنا نصوصا صحيحة تثبت وجود هذه القراءة في القيروان قبل ابن خيرون؟ وكيف يمكن أن نوفق بين تلك المعطيات التاريخية التي تبدو متعارضة متناقضة؟

1 - معنى القراء: أعني بالقراء من اشتهر بالقرآن قراءة أو إقراء. والقارئ لغة اسم فاعل من قرأ، فكل من قرأ شيئا سمى قارئاً. قال تعالى: "اقرأ كتابك" (الإسراء: 14)، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في قصة بدء الوحي: ما أنا بقارئ. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح المشهور: "بل أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك"⁽¹⁾. القارئ اصطلاحاً: جرت العادة في لسان أهل القراءات بأن يطلقوا أحيانا عبارة قارئ ويريدوا بها المعنى اللغوي كقول ابن خاقان في رائيته المشهورة في التجويد⁽²⁾:
أيا قارئ القرآن أحسن أداءه يضاعف لك الله الجزيل من الأجر⁽³⁾.

كما أننا نجدهم أحيانا أخرى يطلقون لفظة قارئ على قسم من ناقل الإسناد، فإن كان الأمر متعلقاً بأحد الأئمة السبعة البدور أو الثلاثة المتممين للعشرة، فهذا يسمونه قارئاً، أما إذا تعلق الأمر بمن قرأ على الإمام البدر القارئ أحد العشرة فهذا لا يسمونه قارئاً، بل يسمونه راوياً. ويطلقون على من قرأ على الراوي "صاحب طريق"، ويعبرون عن ذلك

(1) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسّمة، الحديث: 152، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 1513.

(2) هو موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان أبو مزاحم الخاقاني (ت 325 هـ)، وهو من أول من صنف في التجويد، وقصيدته شرحها أبو عمرو الداني وغيره.

(3) الجرمي (إبراهيم): معجم علوم القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1422 هـ/ 2001 م، 157 - 158.

بعده طرق، فيقولون مثلاً: قراءة نافع من رواية قالون من طريق أبي نسيط، أو يبدؤون بأبي نسيط عن قالون عن نافع، وقد يقولون: رواية قالون عن القارئ نافع من طريق أبي نسيط... والمقرئ هو ما يتبادر إلى الذهن من معناها اللغوي، ولكن محصوراً في كتاب الله تعالى، أي أن المقرئ هو كل من أقرأ غيره كتاب الله تعالى، سواء اشتغل بذلك، أو قام به تطوعاً لوجه الله تعالى. ولا أقصد بالقارئ المعنى الاصطلاحي أي أحد البدور العشرة، بل سأسير على المعنى الثاني عند أهل القراءات، أعني المعنى اللغوي، فالقارئ هو كل من عرف بقراءة القرآن الكريم بين الناس، سواء أكان إماماً شدد الناس بحسن صوته، أو علم القرآن للناس، أو أقرأهم بأي رواية من الروايات.

2 - الصحابة القراء الذين دخلوا إفريقية:

أ - بشير بن عبد المنذر الأوسي، أبو لبابة الأنصاري، أحد الصحابة الذين أنزل الله تعالى فيهم قرآناً يتلى إلى آخر الزمان. دخل إفريقية، وأشير إليه بالبنان. من أشهر أحاديثه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن"⁽¹⁾.

والمتواتر لدينا أنه دخل إفريقية وأنه قد توفي بها، وضحيه معروف إلى اليوم بقابس، وكذلك مسجده. غير أن ابن حبان ذكر أنه توفي بالمدينة المنورة⁽²⁾ خلافاً للدّبّاغ ومخلاف وأبي المطرف الخزومي، الذين أجمعوا على أنه سكن قابس فترة من الزمن، وتولى قضاءها، بعد انتقاله من الأندلس إلى إفريقية. وقد اختلف في تاريخ موته، فقيل: مات في خلافة عليّ. وقال خليفة بن خياط: مات بعد مقتل عثمان. وقيل: عاش بعد عام 50هـ/ 670م⁽³⁾.

ب - الحسن بن عليّ بن أبي طالب، أبو محمد، سبط رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. كان حافظاً لكتاب الله تعالى، محفظاً له، عاملاً به، قدم إلى إفريقية سنة سبع وعشرين في

(1) أبو داود: السنن: 75-74/2، الحديث 1471، والبيهقي: السنن الكبرى: 54/2، وله شواهد كثيرة صحيحة عن أبي هريرة وغيره في الصحيحين.

(2) ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار، ص 37.

(3) ابن قانع: معجم الصحابة، 98/1، ابن عبد البر: الاستيعاب، 167/4، ابن الأثير: أسد الغابة، 195/1، الدّبّاغ: معالم الإيمان، 12/1، التجاني: رحلة التجاني، 90، المزني: تهذيب الكمال، 1641/3، ابن حجر: الإصابة، 168/4، وتقريب التهذيب، 467/2، وتهذيب التهذيب، 214/12، مخلوف: شجرة النور الزكية، 45/1...

غزوة ابن أبي سرح⁽¹⁾. توفي حوالي سنة 50هـ/ 670م.

ت - الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله، سبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وريحانته وشبهه من صدره إلى قدميه، أصغر من أخيه الحسن بسنة واحدة. أخرج الخطيب في تاريخ بغداد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني"⁽²⁾. حفظ القرآن الكريم، وأكثر من تلاوته وتجويده، وروى الحديث عن أبيه وأمه وخاله هند بن أبي هالة وعن عمر، وروى عنه أخوه الحسن، وبنوه علي بن زين العابدين، وفاطمة، وسكينة.. وفد على القيروان في غزوة العبادلة. وقتل في موقعة كربلاء من أرض العراق في يوم عاشوراء سنة 61هـ/ 680م.

ث - سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي. كان من أشرف قريش وأجوادهم وفصحائهم. وصف بأنه كان أشبه الناس لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم. هو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان. اعتزل الفتنة بين الصحابة. وقدم إلى القيروان في محافل الصحابة والتابعين. توفي بالمدينة المنورة سنة 59هـ أو 58هـ/ 679م أو 678م⁽³⁾.

ج - هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، يُعرف بأبي جعفر. له صحبة. أمه أسماء بنت عميس الخثعمية أخت ميمونة بنت الحارث لأمه. ولد بأرض الحبشة. قدم مع أبيه المدينة. وهو أخو محمد بن أبي بكر الصديق، ويحيى بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لأمه، وتزوج من زينب بنت علي بن أبي طالب، شقيقة الحسن والحسين. كان متقنا لقراءة القرآن الكريم، حافظا له، كريما جوادا، ظريفا خليقا، عفيفا سخيا، يسمّى بحر الجود وقطب السخاء. دخل إفريقية في غزوة العبادلة سنة سبع وعشرين للهجرة. توفي سنة

(1) ابن عبد البر: الاستيعاب، 328/1، ابن الأثير: أسد الغابة، 9/2، ابن عذاري: البيان المغرب، 9/1، ابن حجر: الإصابة، 328/1، السلاوي: الاستقصاء، 85/1.

(2) الخطيب: تاريخ بغداد، 141/1.

(3) ابن سعد: الطبقات، 30/5، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 48/4، ابن حبان: كتاب الثقات، 276/4، ومشاهير علماء الأمصار، 109، ابن عبد البر: الاستيعاب، 9.8/2، ابن عساكر: تاريخ دمشق 107/21، ابن الأثير: أسد الغابة، 481/2، النووي: تهذيب الأسماء، 218/1، المزي: تهذيب الكمال 501/10، ابن حجر: الإصابة، 47.46/2، وتهذيب التهذيب 48/4، مخلوف: شجرة النور الزكية 98/2.

84هـ / 703م (1)

ح - هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشيّ الأسديّ. أمه أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق. حفظ القرآن الكريم، وكان أحد أعضاء لجنة كتابة المصحف العثمانيّ. كما حفظ شيئاً كثيراً من الحديث عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير. وهو أحد العبادة، وأحد الشّجعان من الصّحابة. غزا إفريقية مرتين، الأولى مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حدّج، وشهد فتح جلولاء مع عبد الله بن عمر بن الخطّاب. توفّي سنة 73هـ / 692م (2).

خ - عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حبر الأمة، وترجمان القرآن، كان له مصحف خاصّ يقرأ منه، اتّبع فيه قراءة زيد بن ثابت، ما عدا ثمانية عشر حرفاً اتّبع فيها قراءة ابن مسعود (3). توفّي بالطائف سنة 68هـ / 688م للهجرة (4).

د - عبد الله بن عمر بن الخطّاب، أبو عبد الرحمن القرشيّ العدويّ. شهد فتح مصر، ثمّ غزا إفريقية مرتين: الأولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حدّج. كان شديد التمسك بكتاب الله تعالى، مداوم على قراءته وتعليمه، كثير الولوج بسنة النبيّ -صلى الله عليه وسلم-. قدم إلى القيروان، فعمل على نشر القرآن والسنة، وتلمذ عليه ميسرة الزروديّ القيروانيّ وخالد بن أبي عمران التونسيّ... وأفتى في الإسلام ستين سنة. توفّي سنة 73هـ أو 74هـ / 692م أو 694م (5).

ذ - عبد الله بن عمرو بن العاص القرشيّ. أسلم قبل أبيه، وكان فاضلاً، عالماً. كان محباً للقرآن الكريم، مولعاً بقراءته، حتّى أنّه كان يصوم النهار ويقوم به في الليل، وبلغ ذلك

(1) ابن عسّاكر: تاريخ دمشق، 248/27، المزيّ: تهذيب الكمال، 367/14، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 456/3، ابن حجر:

الإصابة، 280/2، وتقريب التهذيب، 406/1، مخلوف: شجرة النور الزكية، 93/2..

(2) البخاريّ: التاريخ الكبير، 6/5، أبو العرب: الطبقات، 74-75، ابن حبان: الثقات، 212/3، ومشاهير علماء الأمصار،

55، ابن عبد البر: الاستيعاب، 291/2، المالكيّ: رياض النفوس، 63/1، ابن عسّاكر: تاريخ دمشق، 140/28،

النوويّ: تهذيب الأسماء واللغات، 374/1، المزيّ: تهذيب الكمال، 508/14، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 363/3، ابن

حجر: الإصابة، 301/2، الدبّاغ: معالم الإيمان، 112/1..

(3) ابن الجزريّ: غاية النّهاية، 426/1.

(4) ابن عبد البر: الاستيعاب، 138/4، ابن حجر: الإصابة، 322/2، والمالكيّ: رياض النفوس، 60-66، الدبّاغ: معالم

الإيمان، 107/1، أبو العرب القيروانيّ: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 17، السّلاوي: الاستقصاء، 86/1.

(5) ابن حجر: الإصابة، 338/2، ابن عبد البر: الاستيعاب، 333/2، المالكيّ: رياض النفوس، 60/1، الدبّاغ: معالم

الإيمان، 79/1، أبو العرب: الطبقات، ص 73، السّلاوي: الاستقصاء، 87/1..

للنبيّ -صلى الله عليه وسلم- فقال له: اقرأ القرآن في كل شهر⁽¹⁾. اختلف في تاريخ وفاته، والراجح منها أنه توفي سنة 63هـ / 683م⁽²⁾.

ر - عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، أبو عبد الرحمن الهذليّ. وأمّه هي أمّ عبد الله بنت ودّ بن سواة، صحابيّة جليّة. كان من أكابر الصحابة فضلا وعقلا وقربا من الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومن السابقين إلى الإسلام، وأوّل من جهر بقراءة القرآن بمكّة.

3 - من التابعين القراء الذين دخلوا إفريقيّة:

أ - إسماعيل بن عبيد، وقيل في اسم والده أيضا "عبد الله"، وهو مولى الأنصار. بنى مسجد الزيتونة خارج سور القيروان سنة إحدى وتسعين، ويبدو أنه انتهى من بنائه سنة ثلاث وتسعين⁽³⁾، وعمل فيه على نشر القرآن الكريم، وكان مصحفه لا يفارقه. توفي -رحمة الله عليه- في غزوة عطاء بن رافع في البحر سنة سبع ومائة حسب المالكيّ والديبّاغ، وهو متقلّد المصحف، وختم الله عمله بالشهادة⁽⁴⁾.

ب - إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، أبو عبد الحميد القرشيّ المخزوميّ الدمشقيّ. ومن تلاميذه القيروانيّين: زياد بن أنعم، وابنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. أرسله عمر بن عبد العزيز سنة تسع وتسعين إلى إفريقيّة، على رأس عشرة من خيار علماء المسلمين، كيّ يعلموا البربر القرآن الكريم والسنة النبويّة واللغة العربيّة، فاتخذ كلّ واحد منهم دارا لسكناه، ومسجدا للعبادة، وكتابا للتعليم. توفي سنة 131هـ، وقيل سنة 132هـ / 749م أو 750م⁽⁵⁾.

ت - بكر بن سواة بن ثمامة، أبو ثمامة الجذاميّ المصريّ. كان ثقة، صالحا، جليلا، فقيها، مفتيا، مقرئا، صاحب حديث. سكن القيروان أكثر من ثلاثين سنة. توفي - على الأشهر

(1) مسلم: المسند الصحيح، كتاب الصوم، الحديث رقم 2787.

(2) أبو العرب: الطبقات، ص 73، ابن عبد البر: الاستيعاب، 338/2، المالكيّ: رياض النفوس، 15/1، ابن الأثير: أسد الغابة، 233/3، الديبّاغ: معالم الإيمان، 116/1، ابن حجر: الإصابة، 343/3، السلاويّ: الاستقصاء، 87/1.

(3) المالكيّ: رياض النفوس، 107/1، والديبّاغ: معالم الإيمان، 176/1.

(4) أبو العرب: الطبقات، 85-84، المالكيّ: رياض النفوس، 106/1، الديبّاغ: معالم الإيمان، 176/1، ابن حبان:

الثقات، 20/4، شواطئ: مدرسة الحديث في القيروان، 523/2.

(5) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، 37/2، المالكيّ: رياض النفوس، 115/1، ابن عذاري: البيان المغرب، 48/1، الديبّاغ: معالم الإيمان، 184/1، المزّي: (يوسف): تهذيب الكمال، 143/3، والذهبيّ: سير أعلام النبلاء، 213/5، وابن حجر: تهذيب التهذيب، 277/1...

- بالقيروان، سنة 128هـ / 745م⁽¹⁾.

ث - تباع بن عامر الحميري الكلاعي الحمصي، ابن امرأة كعب الأحبار⁽²⁾ قال ابن عساكر: "قرأ القرآن على مجاهد بأرواد - جزيرة في البحر قريبة من القسطنطينية - وكانا غازيين بها"⁽³⁾. قال ابن يونس في تاريخ مصر: "توفي بالإسكندرية سنة إحدى ومائة" 101هـ / 720م⁽⁴⁾.

ج - هو جعل بن هاعان أو عاهان⁽⁵⁾ بن عمرو بن اليثوب، أبو سعيد الرعيني ثم القتباني المصري قاضي إفريقية. ووهب ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى لما قال: اسمه "جعيل"⁽⁶⁾. كان محدثاً فقيهاً مقرئاً. بث في القيروان علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً روى عنه من أهل القيروان عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سودة، وهو مرافقه في البعثة العلمية. توفي سنة 115هـ / 733م⁽⁷⁾.

ح - هو حبان بن أبي جبلة، أبو النضر القرشي. وحبان: بالباء، ومن قال بالياء فقد وهم⁽⁸⁾. من تلاميذه: زياد بن أنعم، وأبو شيبه عبد الرحمن بن يحيى الصدي، وعبد الله بن حرب الليثي، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح. ذكر ابن يونس في تاريخه

(1) البخاري: التاريخ الكبير، 89/2، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 386/3، ابن حبان: الثقات، 76/4، المالكي: رياض النفوس، 112/1، الحميدي: جذوة المقتبس، 169، الضبي: بغية المتتمس، 232، الدبّاغ: معالم الإيمان، 189/1، المزني: تهذيب الكمال، 214/4، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 250/5، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 424/1، العيني (محمود): مغاني الأخيار، 114/1، السيوطي: حسن المحاضرة، 298/، المقري: نفع الطيب، ...56/3

(2) البخاري: التاريخ الكبير، 159/2، الدارقطني: المؤلف والمختلف، 48/1، ابن ماكولا: إكمال الكمال، 492/1، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 413/4، ابن حجر: توضيح المشتبه، 12/12.

(3) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 26/11.

(4) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، 50/2، أبو العرب: الطبقات، 81، المزني: تهذيب الكمال، 312/4، الذهبي: تاريخ الإسلام، 36/7، والكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، 278، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 446/1، الخزرجي: الخلاصة، 47، السيوطي: حسن المحاضرة، 86/1 ...

(5) هي عند ابن ماكولا بالهاء أولاً، ثم بالألف فالعين فالألف. انظر الإكمال، 107/2، وكذا في الكاشف للذهبي: ص 292، وكنى الدولابي: 581/2 وغيرها. وفي تاريخ يحيى بن معين 464/4: بالعين أولاً. وهو المشهور أكثر بين المغاربة.

(6) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 542/2.

(7) البخاري: الكنى، 35/9، المالكي: رياض النفوس، 114/1، الدبّاغ: معالم الإيمان، 183/1، ابن حجر: تقريب التهذيب، 128/1، وتهذيب التهذيب، 79/2، السيوطي: حسن المحاضرة، 298/1، الخزرجي: الخلاصة، 65، الهندي: المغني في ضبط أسماء الرجال (دار الكتاب العربي 1979م)، 60، و207، شلي (هند): القراءات بإفريقية، 138، شواط: مدرسة الحديث في القيروان، 517/2..

(8) ابن حبان (محمد): كتاب الثقات، 181/4.

بصيغة التمرّض أنّه توفّي بإفريقيّة سنة اثنتين وعشرين ومائة. لكن جزم ابن الفرضيّ في تاريخ علماء الأندلس أنّه غزا مع موسى بن نصير حين افتتح الأندلس حتّى انتهى إلى حصن من حصونها يُقال له: قرقشونة⁽¹⁾، فتوفّي بها. وجزم الذهبيّ في تاريخ الإسلام بأنّه توفّي سنة 125هـ / 743م⁽²⁾.

د - حنش بن عبد الله الصنعانيّ. بنى في القيروان مسجداً ينسب إليه، مازال قائماً إلى اليوم من تلاميذه من أهل إفريقيّة: بكر بن سواده، وخالد بن أبي عمران، عبد الرحمن بن يزيد، وعليّ بن رباح... توفّي بالقيروان سنة 100هـ / 718م. وذكر ابن بشكوال أنّه توفّي بسرقسطة، وأنّه دفن بباب القبلة، وأنّه قد دفن قربه ابن الحذاء محمّد بن يحيى التميمي⁽³⁾.

ذ - سعد بن مسعود، أبو مسعود الصّديّ التّجبيّ. سكن سعد القيروان، ونشر فيها القرآن والحديث والفقّه والرّقائق، فكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغ من تلاميذه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقيّ، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد الإفريقيّ. ذكر الدّبّاغ أنّه توفّي بالقيروان بعد أن بثّ فيها علماً كثيراً. ونصّ ابن ماكولا أنّه توفّي في خلافة هشام بن عبد الملك الذي بويع سنة خمس ومائة، وتوفّي سنة 125هـ / 743م⁽⁴⁾.

ر - عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، أبو محمّد القرشيّ المخزوميّ. كان من فضلاء المسلمين وخيارهم علماً وديناً. كان أحد كتبة المصحف، وأحد من شهد الدّار مع عثمان وأصابه فيها جرح. وهو والد أبي بكر بن عبد الرحمن أحد الفقهاء السبعة في المدينة

(1) قرقشونة: مدينة حصينة توجد اليوم بجنوب فرنسا، في الجنوب الشرقيّ لمدينة تولوز، تعرف اليوم بمدينة كركسون:

"Carcassonne". ينظر: ياقوت: معجم البلدان، 1/ 344، والزركليّ: الأعلام، 5/ 91.

(2) أبو العرب: طبقات علماء إفريقيّة وتونس، 86، الدّارقطنيّ: المؤتلف والمختلف، 1/ 96، ابن الفرضيّ: تاريخ علماء = الأندلس، 1/ 146، المالكيّ: رياض النفوس، 1/ 111، ياقوت: معجم البلدان، 4/ 328، الدّبّاغ: معالم الإيمان، 1/ 187، الذهبيّ: تاريخ الإسلام، 8/ 71، السيوطيّ: حسن المحاضرة، 1/ 190، المقرّيّ: نفع الطيب، 3/ 9... (3) البخاريّ: التاريخ الكبير، 3/ 99، العجليّ: الثقات، 136، ابن أبي حاتم: الجرح والتّعديل، 3/ 291، أبو العرب: الطبقات، 80، ابن حبان: الثقات، 4/ 183، المالكيّ: رياض النفوس، 1/ 121، الحميديّ: جذوة المقتبس، ص 182، الدّبّاغ: معالم الإيمان، 1/ 173، ابن عسّاكر: تاريخ دمشق، 5/ 10، ابن عميرة الضّبيّ: بغية الملتبس، 263، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (تحقيق الدّقّاق) 4/ 324، ابن كثير: البداية والنهاية 9/ 187، المزيّ: تهذيب الكمال، 1/ 342، الذهبيّ: الكاشف، 1/ 195، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 3/ 57، الخزرجيّ: الخلاصة، 95، المقرّيّ: نفع الطيب، 1/ 278، 3/ 7..

(4) ابن ماكولا: الإكمال، 4/ 97، وانظر أيضاً: أبا العرب: طبقات علماء إفريقيّة وتونس، 87، ابن حبان: كتاب الثقات، 4/ 297، المالكيّ: رياض النفوس، 1/ 66، الدّبّاغ: معالم الإيمان، 1/ 171، ابن الأثير: أسد الغابة، 3/ 295، ابن حجر: الإصابة، 2/ 34...
34/2

المنورة (راهب قریش). توفي عبد الرحمن في خلافة معاوية⁽¹⁾.
 ز - عبد الرحمن بن رافع التنوخي. دخل القيروان مع موسى بن نصير سنة ثمانين، فكان
 أول قاض فيها بعد بنائها، وذلك على عهد حسان بن النعمان⁽²⁾، ثم أعاده عمر بن عبد
 العزيز ضمن الوفد العلمي استمر عبد الرحمن يبيت العلم في القيروان نحو من ثلاث وثلاثين
 سنة، وانتفع به خلق كثير من أهلها. من تلاميذه من أهل القيروان: عبد الرحمن بن زياد
 الإفريقي، وعبيد الله ابن زحر الكنائي، وبكر بن سودة الجذامي وغيرهم. توفي سنة 113هـ/
 731م⁽³⁾.

س - عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن الحلبلي المعافري، المعروف بعبد الرحمن المقرئ.
 عينه عمر بن عبد العزيز مع أفراد البعثة العلمية لتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية وأحكام
 الدين، عبادات ومعاملات، وكان أكثر اشتغاله بإقراء القرآن الكريم، حتى نسب إليه،
 وعرف به، فقليل: أبو عبد الرحمن المقرئ. من تلاميذه: بكر بن سودة، وربيع بن سيف،
 وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وعبد الله بن أبي جعفر، وعبد الله بن هبيرة،
 وعقبة بن مسلم، وعيَّاش بن عباس القتباني، وقيس بن الحجاج، ويزيد بن عمر
 المعافري⁽⁴⁾. توفي بالقيروان سنة 100هـ/720م، ودفن بباب تونس حسب أبي العرب
 القيرواني والمالكي. أما ابن خلفون فذكر أنه توفي بقرطبة⁽⁵⁾.
 ش - عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي. يقال: إن له صحبة، ولم يصح ذلك.

(1) البخاري: التاريخ الكبير، 272/5، العجلي: الثقات، 75/2، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 224/5، ابن حبان: الثقات، 253/3، ابن عساکر: تاريخ دمشق، 265/34، المزي: تهذيب الكمال، 39/17، ابن حجر: الإصابة، =66/3، مخلوف: شجرة النور الزكية، 99/2...

(2) المالكي: رياض النفوس، 110/1.

(3) ابن خياط: الطبقات، 195، البخاري: التاريخ الكبير، 280/5، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 232/5، أبو العرب: الطبقات، 20، الفسوي: المعرفة والتاريخ، 306/2، ابن حبان: الثقات، 95/5، ومشاهير علماء الأمصار، 121، الخشني: الطبقات، 234، الخطيب البغدادي: غنية الملتمس، 263، ابن ماكولا: الإكمال، 110/1، الدبّاغ: معالم الإيمان، 198/1، المزي: تهذيب الكمال، 43/17، الذهبي: تاريخ الإسلام، 412/7، والمغني، 379/2، وميزان الاعتدال، 560/2، ابن حجر: تقريب التهذيب، 479/1، وتهذيب التهذيب، 168/6، السيوطي: حسن المحاضرة، 260/1.

(4) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 511/7، البخاري: التاريخ الكبير، 226/5، ابن ماكولا: الإكمال، المزي: تهذيب الكمال، 316/16، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 74/6.

(5) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، (طبعة تونس/الجزائر)، ص 78، 99، 163، المالكي: رياض النفوس، 99/1-101، ابن الفرزي: تاريخ علماء الأندلس، 250/1، الدبّاغ: معالم الإيمان، 180/1، الذهبي: تاريخ الإسلام، 6/533، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 74/6.

شهد فتح مصر، واختط بها. كان شديد الحرص على تحفيظ القرآن، وكثرة تردادها، بل روي عنه أنه كان ينهى عن كل ما يشغل عن القرآن، فكان يقول: لا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن. من تلاميذه: بحير بن زاجر، وعلي بن رباح، ابنه مرة بن عقبة... قتله البربر بتهودة من أرض الزاب بالجزائر سنة 63هـ/ 683م⁽¹⁾.

ص - علي بن رباح والد موسى بن علي بن رباح. عالم محدث بارع في القراءات. دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير سنة ست وثمانين، وسكن القيروان، واختط بها دارا ومسجدا عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج، وطال مقامه بها في نشر القرآن والحديث⁽²⁾. عمّر مائة، وتوفي سنة 114هـ/ 732م. وقيل غير ذلك⁽³⁾.

ض - أبو منصور الفارسي والد يزيد بن أبي منصور. كان مقرئا للقرآن الكريم، وكانت فيه حدة يعتز بها، حتى أنه لما روجع فيها قال: "ما أحبّ أنّها أخطأتني". من تلاميذه: عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، ودويد بن نافع، وموسى بن وردان المصري، والنعمان بن عامر المعافري، وعبد الله بن الوليد. سكن القيروان، وطال مقامه حتى توفي بها. وقد كان يعلم أهلها، ويفقههم ويقرئهم القرآن ويفتيهم ويصلي بهم⁽⁴⁾.

ط - أبو المهاجر دينار التهودي الزابي⁽⁵⁾. أحبه البربر، فأسلموا على يديه، وحفظوا القرآن عليه. قتل أبو المهاجر مع عقبة بن نافع في تهودة من بلاد الزاب سنة ثلاث وستين⁽⁶⁾.

(1) ابن يونس: تاريخ ابن يونس المصري، 349/1، الترجمة عدد 953.

(2) المالكي: رياض النفوس، 119/1، والذبّاغ: معالم الإيمان، 99/1.

(3) انظر أيضا: ابن سعد: الطبقات، 512/7، "أبو" العرب: الطبقات، 82، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 232، ابن الفرزي: تاريخ العلماء بالأندلس، 355/1، النووي: تهذيب الأسماء واللغات، 352/1، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 101/5، ابن حجر: تهذيب التهذيب 318/7...

(4) ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل، 441/9، المالكي: رياض النفوس، 185/1، ابن عبد البر: الاستيعاب، 181/4، ابن الأثير: أسد الغابة، 307/4، الذبّاغ: معالم الإيمان، 137/1، الذهبي: تجريد أسماء الصحابة، 218/2، ابن حجر: الإصابة، 187/4، السيوطي: حسن المحاضرة، 115/1...

(5) ضبطت كثير من المصادر كلمة "التهودي" هكذا بالنون والذال، والصواب ما أثبتناه، نسبة إلى قرية تهودة من بلاد الزاب. انظر: السمعاني: الأنساب، 547/5، ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، 339/3، ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه، 182/7، ابن حجر: تبصير المنتبه، 1509/4...

(6) ابن خياط: طبقات خليفة، 56، ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، 213، أبو العرب: الحن، 290، ابن عساکر: تاريخ دمشق، 532/40، ياقوت: معجم البلدان، 328/5، ابن عذاري: البيان المغرب، 17/1، الذبّاغ: معالم الإيمان، 52/46/1، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 169/1، مقديش: زهة الأنظار، 71/1، الناصري: الاستقصا، 136/1...

4 - هل ذُكرت قراءة نافع في القيروان قبل دخول ابن خيرون إليها؟

أ - تذكر بعض المصادر أن صقلاب بن زياد الهمداني القيرواني قرأ على نافع وأنه أحد تلاميذه. وقد ضبط في بعض المصادر "سقلاب"، بكسر السين، ورجح ابن الشاط في "صلة السَّمط" أنه اسم أعجمي، وذلك أن هذا الاسم يطلق أيضا على أرض متاخمة لأرض الخزر في أعالي جبال الروم، قال القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد: والصقالب قوم كثيرون، صهب الشعور، حمر الألوان، ذوو صولة شديدة⁽¹⁾.

كان صقلاب إماما، مقرئا، محدثا، فقيها، ثقة مأمونا، من أهل الفضل والعبادة، معروفا بالخير والاجتهاد. وقد ذكرته في طبقات القراء بتونس (ص 57 الترجمة عدد 40) لأنبه على احتمال وقوع خطأ من الشيخ مخلوف صاحب شجرة النور الزكية الذي نص على أنه قرأ على الإمام نافع المدني، وأن من تلاميذه المقرئ المحدث يونس بن عبد الأعلى وأبا يعقوب الأزرق. وقد ذكر غيره أن صقلاب بن زياد توفي بالقيروان سنة 193هـ، ودفن بباب سلم. ولم يذكروا عن ثلذه لنافع شيئا، ولا عن مشيخته لابن عبد الأعلى ولا للأزرق.

والذي يبدو، أن الشيخ محمد مخلوف قد خلط ترجمة رجلين متعاصرين من المتفق المفترق فجعلهما واحدا، الأول: هو صقلاب بن زياد القيرواني، وهو الإمام الزاهد المحدث الفقيه المتوفى سنة 193هـ، والذي كان من دُررِ كلامه رحمة الله تعالى عليه: "نحنُ إلى قليلٍ من الأدبِ أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم". والثاني: هو سقلاب بن شنيعة، (بالسين ثم بنونين كما ضبطه ابن ماكولا في الإكمال، وابن حجر في تبصير المنتبه) أبو سعيد المصري، المقرئ صاحب نافع المدني، وروى عنه كتاب التمام، وكان يقرئ في أيام ورش، قرأ عليه يونس بن عبد الأعلى، وأبو يعقوب الأزرق وغيرهما، توفي سنة 191هـ. وقد ترجم الذهبي وابن الجزري لسقلاب المصري، ولم يشيرا إلى قيروانيته، كما أن تاريخ الوفاة مختلف⁽²⁾.

ب - عثمان بن سعيد "ورش": هو عثمان بن سعيد الملقب بورش، أبو سعيد القيرواني

(1) القزويني (ذكرياً): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص 614.

(2) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 62، المالكي: رياض النفوس، 230/1، الترجمة عدد 88، عياض: ترتيب المدارك، 192/2، الدبّاغ: معالم الإيمان، 256/1، الترجمة عدد 81، مخلوف: شجرة النور الزكية، 92/1، الترجمة عدد 81.

الأصل⁽¹⁾، القبطي، المصري المقرئ. ولد سنة عشر ومائة، وقرأ القرآن وجوده على نافع عدة ختمات، في حدود سنة خمس وخمسين ومائة، ولقبه بورش لشدة بياضه، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه. قرأ عليه أحمد بن صالح المصري، وداود بن أبي طيبة، وأبو يعقوب يوسف الأزرق، وعبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم، ويونس بن عبد الأعلى الحافظ، وعامر بن سعيد الخرشبي، وسليمان بن داود المهري، وسمع منه عبد الله بن وهب، وإسحاق بن حجاج وغير واحد. اتخذ لنفسه رواية مما قرأ به على نافع⁽²⁾، وقد قرأ عليه ختمات قبل أن يخرج من المدينة. وكان جيد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز، ويمد، ويشدد، ويبين الإعراب، لا يملّه سامعه. توفي ورش بمصر سنة 197هـ/ 812م ولم يثبت لدينا أنه دخل القيروان أو تونس.⁽³⁾

ج- كردم بن خالد: هو كردم بن خالد، أبو خالد التونسي، وقيل: كردم بن خلود، أبو خلود. ذكره الذهبي وابن الجزري نقلاً عن أبي عمرو الداني في طبقات القراء. قال ابن الجزري في "غاية النهاية في طبقات القراء": "كردم بن خالد المغربي التونسي أبو خالد وقيل: كردم بن خلود أبو خلود، قدم المدينة وعرض على نافع، وكان زاهداً عابداً فاضلاً". فهذا قارئ تونسي تلميذ نافع قرأ عليه مباشرة، ثم رجع إلى بلاده ينشر قراءته فيها حتى اشتهر بها، بل عرف في الأندلس كما عرف في بغداد⁽⁴⁾ وقد توفي الإمام نافع المدني سنة 169هـ..

روى عنه أحمد بن جبير الأنطاكي. قال أبو عمرو الداني: ولا أعلم روى عنه أحد غيره. ووصفه ابن مجاهد في "السبعة" وابن الجزري في طبقاته بكونه صاحب الإمام نافع، وقال ابن مجاهد: رجل من أهل المغرب.⁽⁵⁾

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 155/2 - 156.

(2) ابن الجزري (محمد): غاية النهاية في طبقات القراء، 224/1.

(3) الذهبي: م، ن، 93-91/1.

(4) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء: 32/2.

(5) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات، ص 64، الذهبي: معرفة القراء الكبار، 64/1 (ترجمة الإمام نافع)، ابن

الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 42/1، و32/2.

د - زكريّا بن يحيى الوَقَّار: هو أبو يحيى زكريّا بن يحيى بن إبراهيم بن عبد الله الوَقَّار، المعروف في مصر بلقب "البرطنج"⁽¹⁾. قدم إفريقية سنة 225هـ فرارا من محنة القول بخلق القرآن. كان من أصحاب ابن غانم، سمع من سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وإدريس الخولانيّ المصريّ، وخالد بن عبد الدائم، ورزق الله بن عبد الرّحيم الكلاعيّ وغيرهم.

ذكرت أغلب المصادر أنّه قرأ القرآن على نافع المدنيّ، وروى عنه قراءته. وشكك عياض في سماعه الحديث من مالك⁽²⁾. تصدرّ للتدريس بإفريقية، فكان مقرّنا فقيها محدّثا. وذكرت مراجع ترجمته ومصادرها أنّ من تلاميذه في القراءات: أبا عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المكيّ المقرئ، وأبا عبد الله محمد بن برغوث المقرئ. فكان في القراءة ثبنا متقنا، أمّا في الحديث، فلم يكن حاله بذلك، لاشتغاله بالقرآن. وهذا شأن الكثير من القراء المتقطعين للقراءة، والفقهاء المتقطعين للفقهاء، وأهل السير المتقطعين لسيرهم. قال ابن يونس: "كان فقيها صاحب حلقة"⁽³⁾، وقيل: كان من الصّالحاء العبّاد الفقهاء، خرج عن مصر أيام محنة القرآن إلى طرابلس الغرب. عاش حميدا ومات فقيرا.

ودفع عنه ابن عديّ تهمة الكذب فقال: رأيت مشايخ مصر يثنون على أبي يحيى في العبادة والاجتهاد والفضل وله حديث كثير بعضها مستقيمة"⁽⁴⁾. توفيّ حسب أغلب المصادر سنة 254هـ/ 868م، بل حدّد ابن بلده المؤرّخ ابن يونس المصريّ تاريخ وفاته وسنّه عند الوفاة فقال: "توفيّ في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين. عاش ثمانين سنة"⁽⁵⁾. وذكر البعض حسب القاضي عياض وضعّفه أنّ وفاته كانت في سنة 263هـ.

(1) برطنج: (بالفارسية برتنك): حزام مقدم السرج. كذا عند رينهارت دوزي في كتابه: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطّبعة الأولى، من 1979 - 2000م، 1/ 294. وفي بعض المراجع: البرطيج. كما عند ابن حجر: زهرة الألباب في الألقاب، 1/ 118. ولقد عجبت لمحقّق الكتاب عبد العزيز السديري عندما قام بخطأ مرّكب، فكتب "البرطيج" عوض "البرطنج"، ثمّ جعلهما رجلين اثنين: الأوّل هو زكريّا بن يحيى الوَقَّار ودوّنه تحت عدد 355 في كتابه، والثاني هو أبو يحيى المقرئ صاحب نافع، ودوّنه تحت عدد 356، وهما نفس الرجل كما لا يخفى عليك.

(2) عياض: ترتيب المدارك، 12/1.

(3) ابن يونس: تاريخ ابن يونس المصريّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، 1421هـ، 1/ 187.

(4) ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرّجال، 4/ 176.

(5) ابن يونس: تاريخ ابن يونس المصريّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، 1421هـ، 1/ 187.

وكان الدكتور بشارا أراد أن يأخذ فسحة تاريخية لتحديد سنة وفاته فكتب في تحقيقه لكتاب تاريخ الإسلام للذهبي: 254 - 260 هـ⁽¹⁾ ولكن أسأدتنا في جامعة الزيتونة كالدكتور المحقق محمد الحبيب الهيلة - رحمه الله - يرفضون ذلك ويقولون هو تحكّم، والأولى ذكر التواريخ المتعارضة، فإن كان لدينا دليل الترجيح قوينا، وإلا اكتفينا بالأرقام التاريخية المنقولة، فربما تجد الأجيال القادمة مرجحاً ما⁽²⁾.

ه - محمد بن برغوث: هو محمد بن برغوث، أبو عبد الله القروي، المقرئ المتصدر بجامع عقبة بن نافع بالقيروان. أخذ القراءة عرضاً عن أبي يحيى الوقار المتوفى سنة 254 هـ، وذكرت مصادر ترجمته أنه روى القراءة عن الإمام نافع بن أبي نعيم (ت 169 هـ)، ولعلّ الصواب أن يقال: روى قراءة نافع⁽³⁾، كما اشتهر عند أهل القيروان بإتقان قراءات أخرى غير قراءة نافع. وأخذ الحديث والفقه على أسد بن الفرات (ت 213 هـ). من أشهر من روى عنه القراءة المؤرخ الفقيه أبو تميم محمد بن أحمد أبو العرب التميمي القيرواني المتوفى

(1) بشار (عواد معروف): تحقيق تاريخ الإسلام للذهبي، 6/ 84.

(2) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 3/ 601، أبو العرب: الطبقات، 182، ابن حبان: الثقات، 8/ 253، ابن يونس:

تاريخ ابن يونس، 1/ 187، عياض: ترتيب المدارك، 1/ 335، الذهبي: المغني في الضعفاء، 1/ 240، وميزان

الاعتدال، 3/ 113، وتاريخ الإسلام، 19/ 141 - 142، ابن حجر: لسان الميزان، 2/ 485، ابن فرحون: الديباج

المذهب، ص 120، السيوطي: حسن المحاضرة، 1/ 448. (ترتيب المدارك 2/ 578)؟

/ [4] انظر عن (زكريا بن يحيى المصري) في: الضعفاء الكبير للعقيلي 2/ 87، 88 رقم 541 وفيه «الوقاد» بتشديد

القاف، ودال، وهو وهم، والجرح والتعديل 3/ 606 رقم 2716، والثقات لابن حبان 8/ 253، والكمال في

ضعفاء الرجال لابن عدي 4/ 176، وطبقات الفقهاء للشيرازي 151، وترتيب المدارك للقاضي عياض 2/ 578،

والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي 1/ 296 رقم 1280، والمغني في الضعفاء 1/ 240 رقم 2204، وميزان

الاعتدال 2/ 77، 8، رقم 2892، والكشف الحثيث 184 رقم 295، ولسان الميزان 2/ 485، 486 رقم

1950، وتنزيه الشريعة 1/ 61. وكان مولده سنة أربع وسبعين ومائة ومات سنة أربع وخمسين ومائتين كذا في

الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لأبي نصر علي ابن ماكولا، دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1411 هـ / 1990 م، 7/ 304 -

(3) الثابت أن ابن برغوث أخذ قراءة نافع عن زكرياء الوقار. أما أن يكون قرأ على نافع مباشرة فهذا مما يمكن أن يكون

مصدر شك. لأن ابن برغوث توفي عام 272 هـ، بينما توفي نافع عام 169 هـ، أي يجب أن لا يقل عمر ابن برغوث

عند وفاته عن (72 + 31 = 103) من الأعوام، نضيف إلى ذلك سنّ الطلب ليعقل القراءات ويتقنها على شيخه

أي من خمس إلى عشر سنوات أخرى (أي يكون عمره يوم وفاته ما بين 108 و113 سنة على الأقل). فهل من

السهل تصديق ذلك؟ ولو كان ذلك كذلك لكان خبراً حرياً بالتنبؤ به في كتب التراجم، وما وسع أحد السكوت

عن مثله. لذا نقول: الصواب أن يقال: قرأ لنافع وأقرأ له. أما قرأ عليه أو روى عنه فبعيد. والله أعلم.

سنة 333هـ، وذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك أنه قرأ عليه "السبع أفراداً"⁽¹⁾، كما قرأ عليه غير أبي العرب⁽²⁾...

وقد أصدر إليه قاضي القيروان أبو العباس عبد الله بن طالب أمراً بأن لا يقرئ الناس في جامع القيروان إلا بقراءة نافع المدني⁽³⁾. توفي ابن برغوث سنة 272هـ / 885م⁽⁴⁾.

و - عبد الله بن يزيد المقرئ: هو عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن المكي، المقرئ العدوي، المعروف بالقصير، مولى آل عمر بن الخطاب. أصله من البصرة، سكن مكة. تلمذ في القراءة على نافع المدني (ت 169هـ). من مشايخه في الحديث حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وعبد الله بن عون، وعبد الله بن لهيعة، والليث ابن سعد، وموسى ابن أيوب الغافقي...

من تلاميذه: أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، وإسحاق بن راهويه (ت 238هـ)، وأبو خيثمة زهير بن حرب النسائي، وعبد الملك بن حبيب السلمي، وعلي بن المديني، وعمرو

(1) عياض: ترتيب المدارك، 5/ 326. وزاد في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف: (1/ 125) "مولده سنة 250 هـ وتوفي في ذي القعدة سنة 333 هـ ودفن بباب سلم من القيروان". وفي الأعلام لخير الدين الزركلي (5/ 309): ولد سنة 251 هـ / 865 م. وفي تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ: (3/ 359): "ولد ما بين 250 و260 هـ". فلعل القاضي يعني أنه بدأ أفراد السبع عليه، أو لعله تقدم في ذلك بشوط هام، لأن هذه السن التي ذكرها لا تسمح عادة بإفراد القراءات السبع كلها.

(2) من غرائب ما في بطون الكتب التي بين أيدينا أن نجد ابن الجزري في غاية النهاية: 2/ 409 يترجم لقارئ اسمه "أبو يحيى البطنج وأصر على شكلها بالحروف فقال: بفتح الموحدة وياء آخر الحروف وحاء مهيمة، وهو مجهول، ذكر أنه روى القراءة عن محمد بن برغوث القروي". واختلل هنا مضاعف، لأنه ليس "البطنج" وإنما هو "البرنج" وأبو يحيى البرنج ليس مجهولاً، وإنما هو زكرياء الوقار الذي ترجم له ابن الجزري نفسه في موضع آخر من كتابه. ثم وجدت أن ابن الجزري هنا مجرد ناقل لكلام أبي عمرو الداني ورد عليه عياض في مداركه فقال: (4/ 37): "ويحيى هذا المجهول عند أبي عمرو، هو أبو يحيى الوقار. ولم يذكر أبو عمرو الوقار جملة. وأراه لم يبلغه خبره. أو لم يعلم أن البرنج هو الوقار".

(3) أرى من الضروري أن أنه القارئ الكريم إلى مراجعة ترجمة أبي يحيى زكرياء الوقار، فيما يتعلق بانتشار قراءة نافع بإفريقية.

(4) المالكي: رياض النفوس (طبعة مصر، 1951م)، 1/ 378، ابن الجزري: غاية النهاية، 2/ 104.

بن عليّ الفلاسّ (ت 249هـ)، وابنه محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ⁽¹⁾، ومحمد بن يحيى الذهليّ، ونصر بن عليّ الجهضميّ، وهارون بن عبد الله الجمال...⁽²⁾
 سُمع يقول: أنا ما بين التسعين إلى المئة، وأقرأت القرآن بالبصرة ستاً وثلاثين سنة، وها هنا بمكة نحسباً وثلاثين سنة.

ذكر أبو العرب التميميّ القيروانيّ أنّ عبد الله بن يزيد المقرئ قدم القيروان سنة ست وخمسين ومائة⁽³⁾ وأخذ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشّعبانيّ المعافريّ كما في التاريخ الأوسط للبخاريّ⁽⁴⁾. قال ابن الجزريّ: "إمام كبير في الحديث ومشهور في القراءات لقن القرآن سبعين سنة، ثقة، وله اختيار في القراءة، كان بعد أبي عمرو في البصرة يقرئ"⁽⁵⁾. قال البخاريّ: مات بمكة سنة 212هـ أو 213م / 827م أو 828م⁽⁶⁾.

هذا هو القدر الذي يمكن أن نثق به من ترجمة أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد نزيل القيروان. فما علاقته بزكريّا الوقار القيروانيّ

الذي ذكرته بعض الكتب المختصّة في التراجم كترتيب المدارك للقاضي عياض أنّ أبا عبد الرحمن المتوفى سنة 212هـ أو 213هـ قد أخذ قراءة نافع المتوفى سنة 169هـ على زكريّا الوقار المتوفى سنة 254هـ. وكلام القاضي يضعنا أمام إشكالات كثيرة تحتاج إلى حلول. فالثابت أنّ أبا عبد الرحمن قرأ على نافع، وتاريخ وفاة أبي عبد الرحمن ثابتة، وعمره وقتها ما بين التسعين والمائة، في حين أنّ عمر الوقار وقتها في حدود الثلاثين سنة، أو أقلّ من ذلك أو أكثر بقليل. فمن الأولى أن يكون قد أخذ القراءة عن الآخر؟ الواقع أنّه من

(1) قال عنه ابن الجزري: 3188- "ج" محمد بن أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد أبو يحيى المكي، ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن "ج" أبيه وروى عنه اختباره، قرأ عليه "ج" محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني وقال: قرأت عليه ختمة بمكة سنة ثلاث وخمسين ومائتين في المسجد الحرام، فأمر جماعة أن يقرءوا علي فكنتم أقرئهم في المسجد الحرام بحضرته.

(2) المزيّ: تهذيب الكمال، 16/320 - 323.

(3) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، ص 81.

(4) البخاري: التاريخ الأوسط، 2/122.

(5) ابن الجزريّ: غاية النهاية في طبقات القراء، 1/463 - 464.

(6) البخاريّ: التاريخ الصغير، 2/297، التاريخ الكبير، 5/228، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، 5/201، أبو العرب:

الطبقات، 163، ابن حبان: الثقات، 8/342، المزيّ: تهذيب الكمال، 16/318، الذهبي: تذكرة الحفاظ

(العلية)، 1/269، ابن حجر: تهذيب التهذيب، 6/83 - 84، سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، دار البحوث

للدراستات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م، 1/487 - 488.

الصَّعب التَّسليم بأنَّ أبا عبد الرَّحمن يأخذ القراءة عن نافع مباشرة ثمَّ يأخذ تلك القراءة عنها عمَّن يحيل العقل والعادة أن يكون قد قرأ على صاحبها.

ولا يستقيم ذلك لا من حيث العمر، إذ توفِّي الوقار سنة 254 ابن ثمان

ز - محمد بن سخنون: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن سعيد التَّنوخي، ابن الإمام سخنون. حفظ القرآن الكريم على مؤدِّب خاص. وكانت له عناية خاصَّة بقراءة نافع تأثراً بوالده. الذي أخذ عنه فقه مالك والحديث وعلومه، وكان يتعهده بالنصيحة. ومعلوم أنَّ الإمام سخنون نقل عن مالك أنَّ قراءة أهل المدينة سنَّة، فسئل: قراءة نافع؟ قال: نعم. لذلك دوَّن ابن سخنون في كتابه "آداب المعلمين" أنَّ المعلم "يلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة وهو مقراً نافع"، ولكن ذلك لم يمنع ابن سخنون من القراءة لغير نافع، كما لم يمنع المعلم من تلقين الأطفال قراءة غير نافع، فقال: "ولا بأس إن أقرأهم لغيره وكلَّ ما قرأ به أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"⁽¹⁾. أمَّا شيوخه وتلاميذه وحاله في الحديث فقد تمَّ بيانهم في كتاب طبقات المحدِّثين بالقيروان⁽²⁾.

عاد إلى القيروان، وجلس للطلبة في حياة والده، وحدث في مجلسه، فإذا جاء الوالد سمع الابن مع الطلبة، وكانا كثيراً ما يتناظران مناظرة العلماء النقاد. ولم يكن سخنون يبخل على ابنه بالنصيحة، فقد دخل عليه يوماً فوجده يؤلِّف كتاباً في تحريم المسكر، ردّاً على مذهب من يجيز شرب النبيذ، فقال له: "يا بني إنَّك تردُّ على أهل العراق، ولهم لطافة أذهان، وألسنة حداد، فأياك أن يسبقك قلبك لما تعتذر منه". قال المالكي: أدرك من جميع العلوم ما لم يدركه غيره من أهل عصره"، وقال الذهبي: كان محدثاً بصيراً بالآثار، واسع العلم، متحريراً، متقناً، علامة، كبير القدر⁽³⁾. كما عرف بالخروج إلى قصور الرباط لتحقيق ثلاثة أهداف: عبادة الله، وتعليم أحكام الدين وحراسة المسلمين من الأعداء

(1) ابن سخنون (محمد): آداب المعلمين، ص 102 - 103.

(2) الشَّوالي (عزَّوز) وروشو (هادي): طبقات المحدِّثين بالقيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس

الهجري، ص 243 - 244، وانظر تفصيل ترجمته: أبو العرب: الطبقات، ص 100، 158، 168، والحن، ص 472، الخشني: الطبقات، ص 129، 227، الشَّيرازي: طبقات الفقهاء، ص 157، الذهبي: سير أعلام النبلاء، 60/13، ابن العماد: شذرات الذهب، 2/150 البغدادي: هدية العارفين، 6/17، الزركلي: الأعلام، 7/76،

كحالة: معجم المؤلِّقين، 10/169، محفوظ: تراجم المؤلِّقين التونسيين، 3/19.

(3) المالكي: رياض النفوس، 1/443، عياض: ترتيب المدارك، 3/104، الدبَّاح: معالم الإيمان، 2/122، ابن فرحون:

الديباج المذهب، ص 234، ابن حجر: لسان الميزان، 5/259، مخلوف: شجرة النور الزكية، 1/105، الترجمة عدد

المتربصين.

توفي بالساحل سنة 256هـ/870م، ودفن في القيروان⁽¹⁾. كما ساهم في إثراء المكتبة الإسلامية، فلم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه، وقد بلغت مؤلفاته مائتي كتاب في الحديث، والرجال، والتاريخ، والسير، والمناظرة، والفقه، وعلوم القرآن...

من مؤلفاته: آداب القضاة. آداب المعلمين واسمها حسب مخطوط الأصل: "تعليم القرآن الشريف"⁽²⁾. أحكام القرآن. الحجّة على النصارى. رسالة في آداب المتناظرين. رسالة في الردّ على أهل البدع. رسالة في السنّة. رسالة فيمن سبّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم-. شرح موطأ مالك. كتاب التاريخ. كتاب الجامع (فيه أصناف العلوم الشرعية). كتاب السير. كتاب الطبقات. كتاب غريب الحديث. المسند في الحديث...⁽³⁾.

5 - ابن خيرون ودخوله بقراءة نافع إلى إفريقية:

أ - من هو ابن خيرون؟ هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون، وهو والد المؤرخ أبي جعفر ابن خيرون⁽⁴⁾ المعافريّ الأندلسي، ثم القيرواني، شيخ القراء بالقيروان، وله مسجد فيها منسوب إليه، قائم إلى اليوم يسمّى "مسجد الأبواب الثلاثة" عليه كتابة بالخط الكوفيّ منقوشة في الحجارة⁽⁵⁾. أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر بن سيف المختصّ في رواية ورش، وإسماعيل النّحاس الذي أخذ القراءة عن أربعة من تلاميذ ورش (هم: الأزرق، وبشار بن سنان، وعبد الصّمد بن عبد الرّحمن، وعبد القويّ بن كمونة)، ومحمد بن سعيد الأنماطيّ تلميذ الأزرق، وعبيد بن محمد البرّاز المعروف برجال. كان إماماً في قراءة نافع، ثقة مأموناً. كما سمع الحديث من عيسى بن مسكين. روى القراءة عنه ابنه: أبو جعفر محمد وأبو الحسن

(1) الذهبيّ: تاريخ الإسلام، 163/20، والعبر في خبر من غير، 381/1.

(2) الكعبي (المنجي): موسوعة القيروان، ص 85، ومنه نسخة في المكتبة الوطنية بتونس، رقمها 5/8787.

(3) البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين، 17/6، ابن خير: فهرسة ابن خير، ص 254، 301، 302، الزركلي:

الأعلام، 76/7، سيزكين: تاريخ التراث العربي، 156/3/1، شواط: مدرسة الحديث في القيروان، 705/2 -

713.

(4) هو أبو جعفر محمد بن محمد بن عمر بن خيرون الأندلسي. مؤلف كتاب "نسب الشيعة وأخبارهم". ينظر كتاب رياض

النّفوس للمالكيّ 2/ 52، والمحمديّ: جذوة المقتبس، 54، والضبيّ: بغية الملتبس، ص 74. وقد خلطت أغلب

المصادر ترجمة الولد بالوالد، وجعلوهما واحداً، والتفرقة بينهما ضرورية. فالابن قتله رفساً بالأقدام سنة 301هـ،

بينما تأخرت وفاة الوالد إلى ما بعد هذا التاريخ. وممن فرق بين الرجلين: ابن عميرة الضبيّ في بغية الملتبس: ص 74

و113، وابن الأبار في التكملة 1/ 288. واستدرك محفوظ على نفسه 175/5.

(5) يسمّى اليوم باللهجة العامية التونسية في القيروان: جامع ثلاث بيان. ينظر: الكعبي: موسوعة القيروان، ص 77-78.

عليّ، كما روى عنه أبو جعفر أحمد بن أبي بكر، وأبو بكر الهواريّ المعلم، وعبد الحكم بن إبراهيم القرويّ ثمّ البجائيّ، وعليّ بن محمّد البجائيّ، ويحيى بن خلفون المؤدّب الهواريّ.

انتقل إلى سوسة فأوطنها، ونفع الناس بعلمه، حتّى توفّي فيها يوم الاثنين في نصف شعبان من سنة 306هـ/ 918م. من آثاره: الابتداء والتّمام، وهو كتاب في فنّ القراءات. الألفات واللامات، وهو كتاب في رسم المصحف. كتاب في الأداء، وهو كتاب في رواية ورش عن نافع... أمّا كتاب "نسب الشيعة وأخبارهم" فهو لابنه أبي جعفر⁽¹⁾.

ب- عبارات المؤرّخين في علاقة قراءة أهل القيروان بابن خيرون:

تذكر المصادر التي بين أيدينا أنّ أبا الوليد عبد الله بن محمّد المعروف بابن الفرضيّ القرطبيّ المتوفّي سنة 403هـ هو أوّل من تحدّث عن هذا الموضوع فقال في كتابه تاريخ علماء الأندلس: "قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلّا خواصّ، حتّى قدم ابن خيرون فاجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق"⁽²⁾.

وتناقلت المصادر المتأخّرة بعد ابن الفرضيّ هذه المعلومة، فقد نقل غير واحد عن عتيق بن خلف القيروانيّ أنّه قال في كتاب أطلق عليه اسم "الافتخار بمناب شيوخ القيروان وما تعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار" متحدّثاً عن ابن خيرون: "أوّل من قدم بتحقيق قراءة نافع... ولم يكن يقرأ أهل إفريقية بحرف نافع إلّا خواصّ، حتّى قدم ابن خيرون فاجتمع عليه الناس"⁽³⁾. وقال ابن الأبار المتوفّي سنة 658هـ في التكملة: "قدم القيروان واستوطنها وأقرأ بها في مسجده المنسوب إليه بالزيادة... أوّل من قدم بتحقيق قراءة

(1) ابن الفرضيّ: تاريخ علماء الأندلس، 112/2، المالكي: رياض النفوس، ابن عميرة (الضبيّ): بغية الملتبس، ص 102، ابن الأبار: الحلة السّراء، 95/1، الذهبيّ: معرفة القراء الكبار، 227/1، ابن الجزري: غاية النّهاية، 217/2، السّلاوي: الاستقصاء، 62/1، مخلوف: شجرة النور الزّكية، 121/1، التّرجمة عدد 184، وكالة: معجم المؤلّفين، 11/ 214، محفوظ: تراجم المؤلّفين التّونسيّين 264/2، وقد وهم كالكثير من المعتمدين بالتّراجم، نخلط ترجمة الوالد بترجمة الابن، وانظر: شلي (هند): القراءات بإفريقية، ص 284، الكعبي: موسوعة القيروان، ص 77.

(2) ابن الفرضيّ (أبو الوليد): تاريخ علماء الأندلس، السيّد عزّت العطار الحسيني، مكتبة الخالجي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، 1408هـ/ 1988م، 2/ 112.

(3) محفوظ: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، 3/ 2302.

نافع" (1). وقال الذهبي المتوفى سنة 748 هـ في كتابه القراء الكبار: ولم يكن يقرأ أهل إفريقية بحرف نافع، إلا خواص، حتى قدم ابن خيرون، فاجتمع عليه الناس" (2). وقال ابن الجزري المتوفى سنة 833 هـ في غاية النهاية: قلت: وهو الذي قدم بقراءة نافع على تلك البلاد، فإنه كان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ولم يكن يقرأ لنافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء من الآفاق" (3). ونقلها محمد محفوظ أيضا عن ابن الفرضي، ثم قال: "ومن ذلك التاريخ أصبحت قراءة نافع هي الشائعة عند أهل إفريقية إلى الآن" (4).

مناقشة هذا الرأي تتطلب جهودا مضاعفة؛ لأن الكلام المتقدم عليه ملاحظات مهمة لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار:

الملاحظة الأولى: أن صحة الرأي من عدمه ليست رهينة تناقلها في الكتب. ولذلك فإن ورود هذا الرأي عند ابن الفرضي ومن نقل عنه كعتيق وابن الأبار والذهبي وابن الجزري لا تعني بالضرورة أنها مسلمة تاريخية، وإنما هي معلومة تحتمل الصواب والخطأ.

الملاحظة الثانية: أن هذا الرأي لم يصدر عن أهل القيروان الأصليين، وإنما صدر أول مرة عن ابن الأندلس وتناقله المؤرخون بعده. فإن قال قائل: إن عتيقا قيرواني، قلنا: بل هو نزيل القيروان كما هو مدون في ترجمته. وانحطاً على الغرباء وارد، بل احتمال الخطأ مقدم على احتمال الصواب.

الملاحظة الثالثة: أن أبا عمرو الداني ابن الأندلس لم يسمع بانتشار قراءة نافع بالقيروان عن طريق أحد أشهر كبار قراءها وصلحاءها وهو أبو يحيى زكرياء الوقار، فلما وصل إلى ترجمته قال عنه: مجهول. واعتنى القاضي عياض بالرد عليه في ترتيب المدارك، ولكن ابن الجزري لم يطلع على رد عياض، فسار في طبقاته على نهج الداني فجهل أبا يحيى.

الملاحظة الرابعة: أن أهل القيروان على مذهب الإمام مالك، بل يتعصب علماءها أحيانا

(1) ابن الأبار (محمد) التكملة لكتاب الصلة بتحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1415 هـ / 1995 م، 288 / 1 - 289.

(2) الذهبي: معرفة القراء الكبار، ص 161.

(3) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 2 / 217. ونقلها عنه معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد محيسن، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ / 1992 م، 1 / 228.

(4) محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، 2 / 264.

للمذهب المالكيّ. وقد ثبت لديهم النقل الصحيح عن مالك أنّ قراءة أهل المدينة سنة، فسئل: قراءة نافع؟ قال: نعم⁽¹⁾. وهذا يجعل من مالكيّة إفريقيّة على مذهب نافع في القراءة. علماً وأنّ مالكا نفسه قد تلمذ في القراءة على نافع المدنيّ أخذ عنه القراءة عرضاً حسبما ورد في طبقات ابن الجزريّ⁽²⁾. بل لم يكونوا ينتظرون مجيء ابن خيرون بقراءة الإمام نافع، قارئ المدينة المنورة، وأستاذ إمامهم.

الملاحظة الخامسة: أنّ استقراء هذه التواريخ يدلّ على أنّ قراءة نافع دخلت القيروان سنة 156 للهجرة، والذي أتى بها من المدينة إلى إفريقيّة هو عبد الله بن يزيد المعروف بالقصير، وهو تلميذ نافع دون واسطة وقد أقرأ القرآن مدة سبعين سنة. بينما دخل ابن خيرون القيروان عام 252 أو 255 أو 256 هـ حسب اختلاف المصادر، ولكنّ الفارق الزمنيّ بين ابن يزيد وابن خيرون لا يسمح بتأويل، إنّه نحو قرن كامل.

الملاحظة السادسة: أنّ عبارة ابن الفرضيّ لا تنفي وجود قراءة نافع في القيروان قبل ابن خيرون، وإتّما تنفيذ أنّها كانت قراءة خواصّ الناس، حيث قال: "قدم بقراءة نافع على أهل إفريقيّة، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلاّ خواصّ"⁽³⁾. لكنّ بعض الناقلين لكلام ابن الفرضيّ كأنّهم لم ينتبهوا إلى هذا الاستثناء، أو لم يولوه ما يستحقّ من قيمة، ومن هؤلاء ابن الجزريّ في طبقات القراء حيث قال ما نصّه: "وهو الذي قدم بقراءة نافع على تلك البلاد"⁽⁴⁾. نعم قد ذكر ابن الجزريّ بعد ذلك ما ذكره ابن الفرضيّ وغيره من أنّه لم يكن يقرأ لنافع إلاّ خواصّ الناس، ولكنّ عبارة ابن الجزريّ توهم ما لا توهمه عبارة ابن الفرضيّ.

الملاحظة السابعة: ما المقصود من عبارة: "خواصّ" أو "خواصّ الناس" هذه، والتي جاءت على لسان ابن الفرضيّ وتناقلها المؤرّخون بعده؟ هل المقصود منها أمير القيروان وحاشيته؟ أم أراد بذلك كبار فقهاء القيروان فقط؟ أم شيوخ القيروان وطلبة العلم؟ إنّ اختيار أيّ جواب من هذه الأجوبة الثلاثة أو غيرها من الأجوبة يحتاج إلى دليل. لأنّ الثابت لدينا أنّ الإمام سخنون المتوفّي سنة 240 هـ / 854 م كان يلزم معلّمي القرآن والطلّبة إلى الاعتناء

(1) أبو شامة (شهاب الدّين): إبراز المعاني، ص 6.

(2) ابن الجزريّ (محمّد): غاية النّهاية في طبقات القراء، 2 / 36.

(3) ابن الفرضيّ: تاريخ علماء الأندلس، 2 / 112.

(4) ابن الجزريّ: غاية النّهاية في طبقات القراء، 2 / 217.

بقراءة نافع والاكتفاء بها في بداية الدراسة. وقد سجّل ذلك عنه ابنه محمد (المتوفى سنة 256هـ / 870م) في كتابه "آداب المعلمين" حيث نصّ على ضرورة تقيّد المعلم بقراءة نافع، فقال متحدّثاً عن المعلم: "ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة، وهو مقراً نافع"⁽¹⁾. والكتاب في الواقع نقل لآراء والده الإمام سخون المالكي القيرواني. وبناء عليه فعبارة "خواص" تبقى رهن الإثبات، بل الأدلة لا تساعد على ذلك.

الملاحظة الثامنة: أنّ القاضي عياض ذكر في ترتيب المدارك أنّ قاضي القيروان أبا العباس عبد الله بن طالب - وهو تلميذ سخون، وتلميذ تلاميذ نافع، مثل: يونس بن عبد الأعلى، وسقلاب بن شيبه، ومعلّى بن دحية، وهو أيضاً صاحب كتاب: الردّ على من خالف مالكا - قد أصدر أمراً قضائياً للمقرئ محمد بن برغوث أن لا يُقرئ الناس بجامع القيروان إلاّ بحرف نافع⁽²⁾. وقد تولّى ابن طالب القضاء مرّتين: الأولى من سنة 257هـ إلى سنة 259هـ، والثانية من سنة 267هـ إلى سنة 275هـ. لذا نستبعد جدّاً أن يكون محمد بن عمر بن خيرون الأندلسي ثمّ القيرواني المتوفى سنة 306هـ هو من قدم بقراءة نافع إلى إفريقية.

وهذا يصل بنا إلى نتيجة هامّة، وهي أنّ إفريقية لم تنتظر قدوم ابن خيرون لتعرف قراءة نافع، كما اشتهر عند أغلب أهل الاختصاص، إنّما وجدت هذه القراءة في عصر مبكّر، بل وفي حياة الإمام نافع نفسه، ما دام عبد الرحمن المقرئ أحد تلاميذه الثلاثة المذكورين، وقد قدم إفريقية سنة 156هـ. أي والإمام نافع ما زال على قيد الحياة يقرئ الناس في المدينة المنورة حيث كانت وفاته سنة 169هـ / 785م.

وقد حاولت أستاذتنا هند شلبي في كتابها القراءات بإفريقية أن توفّق بين هذه الآراء المختلفة، بفهم كلمة "الخواص" التي أطلقها ابن الفرضي على معنى عدم انتشارها، ولكنها لم تتف أيضاً أنّه ربّما أراد بالخواص العلماء الذين تسنى لهم الوقوف على تلك القراءة، إمّا بوسائلهم الخاصّة، أو بالجلوس إلى من ذكر من تلاميذ نافع⁽³⁾.

خاتمة:

هذه إحدى الصفحات التاريخية الناصعة لسلف أمة وعَت دورها في الحياة، وتركت

(1) ابن سخون: آداب المعلمين، (طبعة تونس 1972م)، ص 102.

(2) عياض: ترتيب المدارك، 4 / 313.

(3) شلبي (هند): القراءات بإفريقية، ص 223.

انخلافات المفرقة والأحقاد التاريخية المخدلة، ووهبت حياتها في سبيل نشر كتاب الله
والحرص على تعليمه للأجيال اللاحقة، حتى تُواصل تلك المهمة الحضارية التي أوكلها الله
تعالى إليها، وهي إسعاد البشرية وضمان نجاتها في الدنيا والآخرة.

وما خاب قوم سعوا إلى مثل هذه الغاية النبيلة، إرضاء لله تعالى مخلصين له الدين.
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

سيرة الإمام الأشعري بين الأوهام والحقائق "تعليق على كتيب علي الصلابي المسمى: مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام أبي الحسن الأشعري"

عبد الرحمن الفرجاني/باحث بجامعة لودفيغ ماكسيميليان/ بميونخ، ألمانيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، ناصر الحق بالحق والهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحبه أجمعيه، وبعد:

صدر مؤخراً كتيب للكاتب الليبي الدكتور علي الصلابي حول الإمام الأشعري ومدرسته، فطلب مني من لا تسعني مخالفته أن أُنَبِّه بإيجاز على أهم ما ورد فيه من الخطأ والتدليس، فأجبت له لذلك. ونظراً لأهمية مذهب الإمام الأشعري للهوية الدينية في المغرب الإسلامي عامة وليبيا خاصة، فإنه يجب أن نعني بمعرفة ترجمته وسيرته ومدرسته وتطورها. وهذا التعليق الموجز ينقسم إلى المباحث الآتية:

المبحث الأول: ملخص كتيب الصلابي.

المبحث الثاني: في الأخطاء المنهجية.

المبحث الثالث: في الأخطاء والتدليس في المحتوى.

وأخيراً الخاتمة.

وهذا أوان الشروع في المقصود وبالله التوفيق.

ملخص الكتيب:

بالإمكان أن نقسم الكتيب إلى قسمين: الأول فيه ترجمة مختصرة للإمام الأشعري وفق تقرير ابن تيمية ومدرسته، ولا يكاد يخرج عن قول لهم في شيء؛ والقسم الثاني عبارة عن مدح لابن تيمية في إنصافه لبعض الأشاعرة كالقاضي الباقلاني وحجة الإسلام الغزالي، إذ قال على سبيل المثال بأنهم أهل السنة "في مقابل" الشيعة والمعتزلة، وإن كانوا في الحقيقة مخالفين لعقيدة أهل السنة، ويريد بأهل السنة: من وافق التيمية في الاعتقاد. وهذا مدح باطنه ذم، ومع ذلك، استوجب وصف ابن تيمية بالإنصاف. ومن أنصف علم أن الإنصاف إنما يعلم بالنظر إلى

الصدق في الكلام والاحتكام إلى الأدلة، لا بالأوصاف الفارغة التي تعود إلى الانطباعات والأوهام.

وأهم ما ادعاه الصلابي في ترجمة الإمام الأشعري:

1 - أن الأشعري مرّ بثلاثة أطوار في حياته: طور اعتزالي، ثم طور كلابي، وأخيراً طور سنيّ. وجعل الفرق الأساسي بين الطور الكلابي والطور السني في القول بالتأويل في بعض الصفات الخبرية عند ابن كلاب وعدمه عند أهل السنة.

ولم يذكر الصلابي أن ثمة خلاف كبير بين الباحثين في هذه المسألة، وأن جمهور العلماء والمؤرخين قديماً وحديثاً يقولون بأن ليس ثمة إلا تحوّل واحد - إن صح أن ثمة تحوّل أصلاً - للإمام الأشعري وهو من الاعتزال إلى مذهب أهل السنة. وليس من الإنصاف أن يأتي شخص بقول مخالف لجمهير الباحثين قديماً وحديثاً، ولا يذكر وجود الخلاف فيه، بل مع دعواه في أول الكتاب بأن بحثه هذا يلتزم المعايير العلمية والإنصاف بعيداً عن التعصب المذهبية.

2- أن آخر كتاب كتبه الإمام الأشعري هو كتاب الإبانة، وثبت هذا الكتاب للأشعري هو دليلاً على صحة انتقاله من مذهب ابن كلاب إلى "مذهب أهل السنة" على زعمه، مع أنه ليس شيء في هذا الكتاب يدل على أنه يعلن انتقاله من مذهب ابن كلاب إلى "مذهب أهل السنة"، ولا شيء منه أيضاً يدل على أنه آخر ما كتب. ولم يذكر لنا الصلابي أن ثمة خلاف في هذه المسألة، أي في ثبوت كتاب الإبانة للإمام الأشعري؛ ثم خلاف آخر يتفرّع عليه، أي إن ثبت الكتاب له، فهل النسخ الموجودة بين أيدينا الآن صحيحة النسبة كاملة للإمام الأشعري؟ أم هل هنالك فقرات وفصول كثيرة في الكتاب غير ثابتة النسبة إليه؟.

ثم بعد ذلك يأتي السؤال: إن ثبت الكتاب للإمام الأشعري ولو ببعض الفصول فقط، هل كان هذا الكتاب أول ما كتب بعد الانتقال، أم آخر ما كتب؟ وجمهير العلماء والباحثين على أنه من أوائل ما كتب بعد الانتقال، بل هذا منصوص عليه في بعض المصادر التي اعتمد عليها الصلابي، إلا أنه لم يذكر شيئاً قط من هذا الخلاف، تحقيقاً للإنصاف المزعوم.

3 - أن الأشاعرة والحنابلة ("أهل السنة" حسب تعبير الكاتب) كانوا على وفاق حتى وقعت "فتنة القشيري" في منتصف القرن الخامس الهجري، وفيما بعد كان الخلاف، وكان المذاهب الإسلامية تختار أقوالها وفق السياسات اليومية. وهذه الفتنة أيضاً فيها كلام، غير

أن لا علاقة لتفاضيلها بالخلاف الواقع بين أهل السنة، وأن العقيدة المقررة عند الحنابلة حينها هي المسماة بالاعتقاد القادري، وسنقل شيئاً عنه إن شاء الله لنبين أن ما عليه الصلابي وأمثاله من أتباع ابن عبد الوهاب وابن تيمية مخالف لأصول ذلك الاعتقاد.

وفيما يلي سنقوم بالتعليق على كتيب الصلابي من جهتين: المنهج والمحتوى. أما المنهج، فسنبين فيه الخلل الظاهر في اختيار المصادر، وإخفائه للأقوال التي تخالف ما يريد من نفس المصادر التي اعتمد عليها، ومع ذلك يصف نفسه بالإنصاف في هذا الكتاب وبأنه بعيد عن التعصب المذهبية. وأما المحتوى فالأخطاء والتناقضات في ترجمة الأشعري، خاصة دعواه أن الأشعري مرّ بثلاثة أطوار في حياته: اعتزالية وكلاوية وسنية.

الفصل الأول: الخلل في المنهج

قال الصلابي عن نفسه ص 6: (وجاء كلامنا في هذا البحث حول مدرسة من المدارس الإسلامية الكلامية الكبيرة، التي لها اتجاه، وفهم خاص في تناول بعض فروع¹ العقيدة، وهي المدرسة الأشعرية، التي تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري - رحمه الله - وقد أثير قديماً وحديثاً حول هذه المدرسة كثير الانتقادات والجدل، لا سيما في عصرنا هذا، الذي زادت فيه بعض المفاهيم غموضاً والتباساً، فجاء هذا الكتاب - بمنهج وسطي، بعيد عن التعصب الأعمى والميول الذي لا يبنى على الحقائق العلمية الثابتة - متحدثاً عن أبي الحسن الأشعري وأكبر أعلام مدرسته من بعده).

كان المتوقع ممن يدعي مثل هذه الدعوى العريضة أن يكون له رأي خاص ونظر خاص في ترجمة الإمام الأشعري وأصحابه، وفي منهجهم وعقيدتهم، بعد النظر في كلام العلماء والباحثين في المسألة ومناقشة أدلة جميع الأطراف، إلا أن الذي وجدناه في كتابه هذا هو تقليد أعمى لما قرره ابن تيمية وأتباعه في المسألة مع عدم ذكره لكثير من الإشكالات الواردة عليها والتي عليها الخلاف المذكور في كلام الصلابي نفسه. ولا أقول إن الصلابي لم يذكر شيئاً من المصادر

1- لا يخفى على أحد من الأشاعرة والتيمية أن الخلاف الحاصل بينهما ليس في مجرد فروع العقيدة بل في أصولها الكبرى، ومن ذلك أن الأشاعرة ثبت وجود موجود مجرد ومنزه عن المكان والزمان، والتيمية تنفي إمكان ذلك؛ ومنه أن الأشاعرة تنفي كون الصانع ذا أجزاء وأبعاد، والتيمية ثبت ذلك وتصريح بأن هذه الأجزاء هي التي تقابل الأجزاء والأعضاء في الإنسان. ومن له فهم لهاتين المسألتين يعرف تماماً أن الخلاف جذري وليس بفرعي.

الأشعرية عن الإمام، ولكنه لم يعتمد عليها ولم يعطها حقها، بل ذكر مقتبسات منها على سبيل الاستئناس، وبذلك وقع في التناقض أيضاً، علاوة على فقدان الأمانة العلمية والإنصاف. وقد ذكر الصلابي 25 كتاباً في قائمة المصادر والمراجع، إلا أنني عدت المصادر في هوامش الكتاب نفسه وعددها 34، وهي الآتي وقد قسمتها إلى قسمين:

عدد الهوامش	مصادر غير تيمية (أشعرية وغيرهم)	عدد الهوامش	مصادر تيمية ووهابية
3	1. تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقيدة لمحمد أبو زهرة	17	1. سير أعلام النبلاء للذهبي
6	2. تبين الكذب المفترى لابن عساكر	16	2. شعبة العقيدة بين الأشعري والمنتسبين إليه - خليل الموصلي
3	3. وفيات الأعيان	11	3. موقف ابن تيمية من الأشاعرة - عبد الرحمن المحمود
1	4. الخلط للمقرئ	16	4. مجموع الفتاوى لابن تيمية
1	5. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي	1	5. موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية
1	6. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي	2	6. اجتماع الجيوش الإسلامية - لابن قيم
1	7. تحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي	1	7. جلاء العينين - لابن الألوسي
1	8. الذب عن الأشعري لابن درباس	1	8. غاية الأمان في الرد على النبهاني - الألوسي
1	9. الديباج المذهب لابن فرحون	1	9. المنتقى للذهبي
8	10. رجال الفكر والدعوة لابي	1	10. تذكرة الحفاظ للذهبي

	الحسن الندوي		
1	11. ذيل طبقات الخنابلة لابن رجب الحنبلي	1	11. البداية والنهاية لابن كثير
		1	12. مختصر العلو للذهبي
		1	13. رجوع الأشعري إلى مذهب السلف لحما الأ نصاري
		7	14. الرسائل الشمولية - د عبد العزيز الحميدي
		1	15. اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث، محمد عبد الرحمن الخميس
		3	16. الجواب الصحيح لابن تيمية
		1	17. النبوات لابن تيمية
		2	18. شرح الأصفهانية لابن تيمية
		11	19. درء التعارض لابن تيمية
		1	20. الإيمان لابن تيمية
		1	21. القاعدة المراكشية لابن تيمية
		1	22. منهاج السنة لابن تيمية
		1	23. شرح الصفدية لابن تيمية
		1	24. الاستقامة لابن تيمية
27	المجموع:	100	المجموع:

فيلاحظ القارئ الكريم أن عدد المصادر المخالفة للأشاعرة هي 24، والمصادر غير المخالفة لهم 11؛ ثم بالنسبة للهوامش نفسها، تعد 75% من المصادر المذكورة في الكتاب مصادر مخالفة للأشاعرة، وتعتمد إلى إبطال مذهبهم بحق أو بباطل، في مقابل 25% منها للأشاعرة وموافقهم، ومع هذا كله يدعي الوسطية والإنصاف في بحثه.

ثم لم يقف عند هذا الحد في التدليس. بل لم ينقل شيئاً من المصادر الأشعرية مما يخالف رأيه، بل جاء بكلامهم استثناساً بل تدليساً أي ليظهر وكأنه يعتمد على جميع المصادر بشكل موضوعي. ولكن هنالك كماً كبيراً من المعلومات الموجودة في هذه المصادر مما يبطل قول رئيس مذهبهم ابن تيمية بخصوص ترجمة الأشعري وعقيدته، وكان الواجب عليه أن يذكر هذا الكلام من هذه المصادر، فإما أن يوافقه وإما أن يبين بطلانه؛ أما إخفاءه من الكتاب وعدم ذكره له البتة، فلا يجوز في الميدان العلمي الرصين. وسأضرب مثلاً واحداً على هذا، وسيأتي المزيد من التفاصيل إن شاء الله.

فمثلاً، يحاول الصلابي تبعاً لمذهب ابن تيمية أن يثبت أن كتاب الإبانة هو آخر ما كتبه الإمام الأشعري؛ وقد نقل هذا عن ابن تيمية ومن تبعه في هذا كالذهبي وابن كثير وجميع الوهابية المعاصرين، وقد نقل هذا الكلام أيضاً عن المرتضى الزبيدي في الإتحاف. وقد اعتمد الصلابي في بعض الفصول على كتاب الشيخ محمد أبو زهرة والشيخ أبي الحسن الندوي، وكلاهما يقولان: إن الإبانة من أوائل ما كتبه الإمام الأشعري، تبعاً للدراسات العلمية الوثيقة في هذا الباب.¹ فقد قال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه "رجال الفكر والدعوة" ما يلي ص. 192 من الجزء الأول: "يقول في كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" وهو أول ما صنّفه بعد الخروج من الاعتزال".

وقال الشيخ محمد أبو زهرة في كتاب "تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقيدة" ص. 157، ما يلي:

وقال الأشعري يده يد تليق بذاته الكريمة، وليست يد جارحة كأيدينا، بل يده يد صفة كالسمع والبصر، وهذا ما جاء في كتاب الإبانة، فإنه قد صرح بالتفويض بأن فوض اليد، ونفى التشبيه، ولكن يظهر أنه قد رجع عن هذا الرأي الذي أبداه متحمساً

1 - انظر: رجال الدعوة والفكر لأبي الحسن الندوي، تحقيق وتقديم مصطفى النخ، 4 أجزاء، (دمشق: دار ابن كثير، 2007)،

لمناقضة المعتزلة، إذ جاء في اللمع أن قرّر تأويل اليد بالقدرة، كما فعل المعتزلة وغيرهم.¹ وهذا يدلّ على أن الشيخ أبا زهرة يرى أن الإبانة ليس هو آخر كتاب للأشعري. وهذا موافق لما أثبتته الدكتورة فويزة محمود في تحقيقها لكتاب الإبانة أيضاً، وكذلك قال عدد من الباحثين المتخصصين في ترجمة الإمام الأشعري.² والسؤال الذي يهمننا ههنا ليس هو تحقيق المسألة، ولكن: لم يذکر لنا الدكتور الصلابي هذا الخلاف؟ لا شك أنه قرأ هذه الكتب، فإنه ينقل عنها الكثير من النقول، بل أحياناً يأتي بكلامهم بعبارتهم تماماً ولا يزيد عليه فكرة واحدة، ومع ذلك، لم يذکر لنا هذه المعلومات التي هي عين المنازع فيه.

ثم إن كتاب الصلابي ينقصه كثير من المصادر والمراجع المهمة في ترجمة الإمام الأشعري ومعرفة مذهبه، على رأسها كتاب مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، الكتاب الذي صنّفه تلميذ تلميذه الإمام أبو بكر بن فورك (ت. 406)، والذي اعتمد فيه على كتب الإمام الأشعري الموجودة عنده، وهي أكثر من 20 كتاباً. فالصلابي أهمل هذه المصادر الهامة في معرفة مذهب الإمام وتقريره، واعتمد فقط على ما يوافق ما قد أثبتته ابن تيمية في كتبه وتبعه على ذلك الفرقة الوهابية. وكان بإمكانه أن يقول: نعم إن ثمة كتاب ألف في تقرير مذهب الإمام الأشعري بقلم أحد كبار أئمة مذهبه المتقدمين وهو ابن فورك، إلا أن ابن فورك كان مخطئاً لسبب أو لآخر؛ ولكن لم يفعل الصلابي ذلك، ولم يناقش شيئاً مما يخالف تقريره، لأن ذلك يحتاج بحثاً حقيقياً وطلباً للحق. ولو قرأ ذلك الكتاب، لعرف بكل وضوح أسطورة المراحل الثلاثة، وأنه كان معتزلياً ثم كلايياً ثم "سنيّاً سلفياً"، بناء على فرق وهمي بين مذهب السلف ومذهب ابن كلاب.

ويظهر لمن تتبع كلام الصلابي أنه اعتمد على بحوث الوهابية المعاصرين، ولعله لم يقرأ المصادر الأصلية لترجمة الإمام الأشعري. ولذلك تراه مثلاً يذكر شيئاً مما قاله القاضي عياض من غير ذكر المصدر (ص. 14-15)، ولعله لا يعرف أن القاضي قد أفرد للإمام الأشعري ترجمة مفصلة في كتابه ترتيب المدارك، وهي من أقدم التراجم المفصلة للإمام الأشعري. وأما على فرض علمه بهذه الترجمة، فمعنى ذلك أنه تركها لما فيها من مناقضة ما يريد أن يثبت في هذا الكتاب، وهذا نوع من أنواع التدليس. وكان الأولى بمن يدعي الإنصاف أن يذکر رأي المخالف

1- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقيدة، (القاهرة: دار الفكر العربي، بدون تاريخ)، 157.

2- مقدمة تحقيق فويزة محمود لكتاب الإبانة عن أصول الديانة للإمام الأشعري، (القاهرة: دار الأنصار، 1977)، ص. 79-

ويبين وجوه ضعفه مثلاً، لا أن يخفي كلامهم بالمرّة.

وكذلك لم يذكر الصلابي في كتابه مجموعة كبيرة من البحوث المعاصرة عن حياة الإمام الأشعري، الأكاديمية وغيرها، عند المتخصصين في هذا الموضوع، ومنه: مقدمة تحقيق كتاب الإبانة للدكتورة فوقية محمود؛ مقدمة كتاب اللمع لمحموده غرابه؛ كتاب رفع الغمام عن تحوّل الإمام للدكتور محمود عطية؛ بحوث مؤتمر الإمام أبي الحسن الأشعري الذي عقد في جامعة الأزهر سنة 2010 والتي طبع في 4 مجلدات، فيه بحوث قيّمة عن ترجمة الإمام الأشعري وتفصيل مذهبه الكلامي وعن نسبة الكتب إليه وعن المخطوطات والمطبوعات وغير ذلك مما لا يسع الجهل به لمن يقوم بدراسة حياة الإمام. فهل يقال بعد ذلك إن الصلابي قد حقق المعايير العلمية والأخلاقية في كتابه هذا، بعيداً عن التعصبات المذهبية، وأزال الغموض وأوضح المقصود؟ أم جاء وزاد على التدليس تديليساً والغموض غموضاً، خدمةً لنفسه وفرقة؟

فلنلخص التحليل المنهجي في هذه النقاط:

- 1- الاعتماد الكامل على المصادر المعادية والمخالفة لمدرسة الأشاعرة، مما يدلّ على فقدان الموضوعية في الكتاب؛ ولا أدعي أنه لم يذكر مصادر أخرى البتة، لكن ذكرهم فيما لا يمسّ غرضه، وهذا عين التدليس.
- 2- إخفاء الأقوال والآراء التي تخالف رأيه في المصادر التي ذكرها، كما سبق أنفاً.
- 3- عدم ذكره لبعض أهم كتب الإمام الأشعري والتي لا خلاف في نسبتها إليه، ككتاب (اللمع) الذي ليس فيه خلاف أبداً لا على ثبوته للإمام ولا على محتواه - بل كان محلّ بحث المتقدمين من الأشاعرة وشرحه الباقلاني شرحاً مستفيضاً، ثم حرّره وحشاه الإمام الجويني وسماه الشامل وهو مطبوع بهذا الاسم وباسم "تحرير شرح اللمع"؛ وعدم ذكره لبعض أهم المصادر عن مذهبه على الإطلاق وهو كتاب ابن فورك الذي يمثل أهم مصدر على الإطلاق لمعرفة مذهب الإمام الأشعري. ولا شك أن مثل هذا لا يجوز في البحث العلمي الرصين، لا سيما لمن يدعي البعد عن التعصب والبناء على "الحقائق العلمية الثابتة".
- 4- عدم ذكره للمصادر العلمية المعاصرة عن ترجمة الإمام الأشعري كما سبق، وهي لا تحصى كثرة.

وكل ذلك يدلّ على عدم استيفاء هذا الكتاب لشرائط البحث العلمي، وسيأتي المزيد عن تدليس هذا الكاتب والرد على أهم الأخطاء التي روج لها عن حياة الإمام الأشعري.

الفصل الثاني: التدليس والخلل في المحتوى

قد أشرنا إلى النقائص المنهجية التي تعترى كتاب الدكتور الصلابي، والآن نتعرض للمحتوى وما وقع فيه من تدليس وخطأ وتناقض، لا سيما أن كثيرا مما كتبه في الكتاب ليس من كلامه، بل من كلام علماء وباحثين من مشارب مختلفة وآراء متضادة، فلا جرم أنه يظهر في كلامه التناقض. وهنا سأقتصر على ثلاث مسائل حاول أن يثبتها الصلابي في كتابه:

- (1) أن الأشعري مرّ بثلاثة أطوار في حياته: معتزلية، وكلاية، و"سنية".
- (2) أن كتاب الإبانة - كاملا - ثابت للإمام الأشعري، وأنه آخر ما كتب.
- (3) أن الحنابلة والأشاعرة كانوا على وفاق حتى وقعت فتنة القشيري. وهذا قول ضعيف جدا لا يمكن أن يقول به أحد له دربة في العلوم أو في التاريخ. ويجدر بالذكر أيضاً أن الذي كان عليه الحنابلة في بغداد حينها هو "الاعتقاد القادري"، وأتباع ابن تيمية اليوم لا يوافقون عليها.

هل مرّ الأشعري بثلاث مراحل؟

قال الصلابي (تلخيصاً لما في كتاب شعبة العقيدة لأبي بكر الموصلي):
"مرّ أبو الحسن الأشعري بأطوار ثلاثة في حياته الاعتقادية:

الطور الأوّل: تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه [1] عاش طوره الأوّل في ظلّ المعتزلة ولاعتزال، وأنه [2] بقي فيه ملازماً شيخه، [3] وزوج أمه الجبائي، حتى [4] بلغ أربعين سنة من عمره.

الطور الثاني: بعد خروجه على المعتزلة، سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، وبدأ يردّ على المعتزلة، معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب. يقول ابن تيمية - رحمه الله -: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع عن الاعتزال، سلك طريق أبي محمد بن كلاب، وهذا الطور يمثله كتاب (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)، وكان ابن كلاب يرد على المعتزلة والجهمية ومن تبعهم بطريقة يميل فيها إلى مذهب أهل السنة والحديث، ولكن لما كثّر جداله معهم وردده عليهم ومناظرته لهم بالطرق القياسية، سلّم لهم أصولاً هم واضعوها، فمن هنا دخلت البدعة في طريقته، وكان ابن كلاب قد أحدث مذهباً جديداً فيه ما يوافق السلف، وفيه ما يوافق المعتزلة والجهمية.

وفي هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله - : كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين: فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها¹، والجهمية من المعتزلة² وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيتته وقدرته من الأفعال وغيرها، ووافق على ذلك أبو العباس القلانسي، وأبو الحسن الأشعري، وهذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب دفع الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السلف إلى أن يحذروا منه ومن أتباعه الكلابية، وهذه الطريقة التي أحدثها ابن كلاب البصري لم يسبقه إليها غيره، ووافق عليها الأشعري وردّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة.

الطور الثالث: مكث الأشعري زمنًا على طريقة ابن كلاب يردّ على المعتزلة وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة، ولكن الله منّ عليه بالحق، فنور بصيرته وذلك بالرجوع إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتزام طريقتهم، واتباع منهجهم، ومسلكتهم، وكان هذا الذي أراده من أن يلقي الله تعالى متبرئًا من المذاهب التي عاشها وداعيًا إلى طريقة السلف ومذاهبهم، ومنتسبًا إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.³

هذا كلام الصلابي بطوله. فلنلخص ونذكر بعض الملاحظات:

- 1- في المرحلة الأولى، كان الأشعري معتزليًا ملازمًا "لشيخه وزوج أمه" أبي علي الجبائي (ت. 303هـ) حتى بلغ الأربعين من عمره (أي إلى سنة 300 هجرية).
- 2- خرج عن الاعتزال إلى مذهب عبد الله بن سعيد بن كلاب (ت. 241)، وإن كانت هذه المرحلة قبل المرحلة الأخيرة، فكان تحوُّله إلى مذهب ابن كلاب سنة 300 تقريبًا، ثم بقي "زمنًا" على هذا المذهب، ولم يذكر لنا الصلابي كم كان هذا

1 - المقصود من هذا الكلام أنه يحدث في ذات الله تعالى صفات لم تكن ثم كانت، يفعلها الله تعالى في نفسه بحسب قدرته وإرادته، ويلزم على هذا الكلام مفسد كثيرة ليس هذا موضع بسطها، منها حدوث الذات والإلحاد، ومنها التقصان والكمال بالغير، تعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيرا.

2- وهذا الكلام لابن تيمية غريب، إذ مذهب الجهمية معروف في أن صفات الله تعالى حادثة في ذاته بعد أن لم تكن، فهم موافقون لابن تيمية في قوله "الأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها" وما هذا إلا القول بحلول الحوادث بذاته. انظر مثلا، الكعبي، كتاب المقالات والعيون والمسائل، (تحقيق الكردي الخ) ص. 254، حيث نقل: "وقال جهم: إن علم الله محدث، هو جلّ ذكره أحدثه فعله به، وإنه غير الله" إلى آخر ما قال من قبائح، ولا يخفى على متأمل أن هذا المذهب هو ما ينسبه ابن تيمية إلى "أهل السنة"، ويدعي أن الجهم ينكره؛ والحق هو العكس.

3- علي الصلابي، مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله، ص. 16-21.

الزمن ولو تقديراً، ولهذا السكوت أثر كبير في تصوّر سيرة الإمام الأشعري. 3- ابن كلاب كان متأثراً بالمعتزلة، وأحدث مذهباً جديداً لم يسبق إليه، وتحديدًا وافقهم في أنه كان ينبغي قيام الأفعال التي يشاؤها الله تعالى ويقدر عليها بذات الله تعالى. وهذه المسألة معروفة بقيام الحوادث بالذات الإلهية، أي كون الله بحيث تحدث فيه أشياء لم تكن ثم كانت، وهكذا، وباختصار: كونه متغيراً من حال إلى حال - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

4- أن هذه المرحلة الثانية يمثلها كتاب اللمع للأشعري. ولم يذكر لنا شيئاً عن بقية كتبه، كالعشرات التي ذكرها الإمام الأشعري في كتابه العمدة المؤلف سنة 320، قبل وفاته بأربع سنوات مثلاً، وليس فيها كتاب الإبانة.

5- ثم تاب مرة ثانية وانتقل من مذهب ابن كلاب إلى "مذهب السلف"، والمفهوم من ذلك أنه صار يثبت الحوادث في الذات الإلهية التي يسميها رئيسهم ابن تيمية "الأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها"، وهذا إن صح، فهو ليس توبةً عن مذهب الجهمية، بل موافقة لهم.

وقبل الشروع في الوجوه التي استدلت بها الصلابي على دعواه الأساسية أي أن الأشعري مرّ بثلاث مراحل، بدأ بالإعتزال ثم إلى الكلاية ثم إلى مذهب أهل الحديث، أريد أن أشير إلى بعض الإشكالات الواردة على ترجمة الإمام الأشعري لا سيما بخصوص العلاقة بينه وبين أبي علي الجبائي (ت. 303). وهناك أمارات تدلّ على حصول بعض المناقشات أو المناظرات بينهما، لكن كونه تلميذاً له، فضلاً عن كون الجبائي زوج أمه، مستبعد جداً. ولهذا الاستبعاد أسباب أختصرها في نقاط:

1- مصادر ترجمة الجبائي غير متسقة مع ما قيل عن الأشعري. فيذكر في تراجم الجبائي (ولد 235هـ - ت 303هـ) كما هي عند المعتزلة (مقالات البلخي، فضل المعتزلة للقاضي عبد الجبار، وطبقات المعتزلة للحاكم الجشمي، وطبقات المعتزلة لابن المرتضى)، لا تذكر تلمذة الأشعري عليه، فضلاً عن كون الجبائي زوج أم الأشعري.¹

2- إن الجبائي من جُبا في بلاد فارس، وأخذ الكلام عن معتزلة البصرة كأبي يعقوب

1- انظر القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، ص. 277 - 288.

يوسف بن عبد الله الشحام، وخرج منها بين سنة 871-873م\257هـ - 259هـ، وذهب إلى بغداد، أي، قبل أن يولد الأشعري، ثم بقي في بغداد إلى سنة 890\892م (277هـ\279هـ)، حيث انتقل إلى عسكر مُكرّم في خوزستان (أهواز)، حيث بقي حتى مات، وأوصى بدفنه بها، إلا أن ابنه أبا هاشم حمله إلى مقبرة كان فيها أم أبي علي وأم أبي هاشم، فدفنه بها. فإذا كان الأشعري ولد بالبصرة بعد خروج الجبائي منها، وخرج الجبائي من بغداد قبل مجيء الأشعري إليه بأكثر من 30 سنة، ولا يعرف للأشعري وقت قط في عسكر مكرم، متى التقى الجبائي بأهل الأشعري حتى تزوج أمه؟

3- ثم لا تذكر لنا مصادر المعتزلة أي شيء عن الأشعري في طبقاتها، مع أنهم يذكرون بعض من كان على مذهب الاعتزال ثم ترك المذهب، كابن الراوندي، ولكن لا ذكر للأشعري البتة. وهذا غريب جدا وقد ادعي أنه كان على مذهب الاعتزال 40 سنة.¹

4- ثم هناك قرائن أخرى تدلّ على أن الأشعري لا علاقة له بأسرة الجبائي. منها أن الأشعري لا يكاد يذكر أبا هاشم الجبائي، والمفترض أنهما كانا معاً مع أبي علي 40 سنة. وقصة زواج أم الأشعري بأبي علي غريبة. فإن أم الأشعري إما عربية أو أعجمية. إن كانت عربية، فمن المستبعد بل من المحال عرفاً في ذلك الوقت أن يسمح لها بالزواج من أعجمي لعدم كفاءته لها. وإن كانت أعجمية، وأبو علي أعجمياً أيضاً، وتربى الأشعري عندهم، فكيف حصل على ملكة اللغة، حتى كان يتهم الجبائي في لغته في أوائل تفسيره، كما نقله ابن عساكر. ولا شك أن مثل هذه الكلمات الجارحة لا يمكن أن تصدر من شخص تربى عنده 40 سنة، وكأنه لا ودّ بينهما البتة، ولا فضل.

5- وكذلك ما روي في المشهور عن مناظرات بين الأشعري والجبائي واضحة الضعف، إذ لا سند لها أصلاً، ثم إن تلك العبارات موجودة بعينها عند المتقدمين من مذهب

1- نعم يذكر الإمام الأشعري في كتابه العمدة كما نقله عنه ابن عساكر أنه ألف كتاباً في الصفات على مذهب المعتزلة، ثم نقضه، وهذا لعله أقوى دليل على أنه كان على مذهب الاعتزال فترة ما، إلا أنه لا يلزم، لأنه من المحتمل أنه كتب ذلك الكتاب تحقيقاً لمقاصدهم، وليس معتقداً له. وهذا كثير الحصول عند المتكلمين. وعلى كل حال، لا يدل هذا الكلام على شيء من تفاصيل علاقته بالجبائي.

الأشاعرة لكن باعتبارها أمثلة عادية لا على أنها رواية لمناظرة بين الجبائي والأشعري، كالبغدادي والغزالي مثلاً، فتحوّلت فيما بعد إلى قصة مختلفة، مع ما فيها من إشكالات في نقل مذهب الجبائي في الصلاح والأصلح. فلا ينبغي أن يسلم مثل هذه الأمور بدون تحقيق في الروايات والأخبار ومقارنتها بعضها ببعض، لا سيما في البحث التاريخي الرصين. والظاهر أن مثل هذه القصص والقول بأن الأشعري كان ربيب الجبائي إنما اختلقت في زمن اشتد الكلام فيه بين المدرستين، فقيل إن الأشعري تربى عند أقوى أئمة المعتزلة وهو أبو علي، فعرف المذهب تمام المعرفة، ولدقة معرفته بمذهبه، تركه ورده، إلزاماً للمعتزلة وتشجيعاً عليهم.

نعود إلى أصل دعوى الصلابي، وذلك أن الأشعري مرّ بثلاث أطوار. وهذه الوجوه تدلّ على عدم كون الأشعري معتزلياً أصلاً، فضلاً عن كونه تاب عنه، فيجب أن لا نسلم كل ما قيل عن الأشعري بدون التحقق في المصادر. فهذا مما يخصّ الطور الأول. وفيما بعد يذكر الصلابي أدلته على هذه الدعوى، فقال (ص. 21 وما بعده):

"وهذا الطور نظراً لأهميته في المجال الاعتقادي فقد أثبتناه له - بعد توفيق الله

- بثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أقوال العلماء. لقد شهد كثير من العلماء والأئمة برجوع الأشعري الرجوع التام إلى مذهب السلف الصالح، وهؤلاء الأئمة ما قالوا هذه الشهادة إلا بعد أن سبروا حياته، وعرفوا ما كان عليه، وما استقرّ عليه؛ ومن هؤلاء العلماء:

1- شيخ الإسلام ابن تيمية (ت. 728هـ)

2- تلميذه الحافظ ابن القيم (ت. 751هـ).

3- الحافظ ابن كثير (ت. 774هـ)¹، وقد قال رحمه الله: "ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة

1- وهو أيضاً تلميذ لابن تيمية إلا أنه لم يوافق في التجسيم والقول بحلول الحوادث.

والسمع والبصر والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك.

الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكيف، ولا تشبيه، جرياً على منوال السلف، وهي طريقته في (الإبانة) التي صنّفها آخراً.

4- الشيخ نعمان الألوسي (ت. 1317هـ\1899).

5- الشيخ محمود الألوسي (ت. 1342هـ\1924).

6- العلامة محب الدين الخطيب (ت. 1389هـ\1969). وقال رحمه الله في بيان أطوار الأشعري ورجوعه التام إلى مذهب السلف: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل من كبار أئمة الكلام في الإسلام، نشأ أول أمره على الاعتزال وتلمذ فيه على الجبائي، ثم أيقظ الله بصيرته هو في منتصف عمره وبداية نضجه، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور نشيطاً يؤلف ويناظر ويلقي الدروس في الرد على المعتزلة، سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل، وطريقة السلف، ثم محّص طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغير التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها، وكتب بذلك كتبه الأخيرة، ومنها في أيدي الناس كتاب (الإبانة)، وقد نصّ مترجموه على أنه آخر كتبه، وهذا ما أراد أن يلقي الله عليه، وكل ما خالف ذلك مما يُنسب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فإن الأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب (الإبانة) وأمثاله.¹

قبل التعليق على الوجه الأول: قد أضفت سنة الوفاة لكل شخص ذكره في هذا الوجه، ليرى القارئ أن أقدمهم هو ابن تيمية، وكل من جاء بعده فهو مقلد له في ذلك؛ وابن تيمية توفي بعد وفاة الأشعري بنحو 400 سنة. ولا شك أن ابن تيمية ليس محايداً في هذا النقاش، بل أفنى حياته في الردود على الأشاعرة، وكثيراً ما كان يلجأ إلى مثل هذه القصص "التاريخية"، ومحاولة إلزام الأشاعرة بمخالفة إمامهم.

ثم الذي تبعه في ذلك تلميذه الوفي ابن القيم، وتلميذه الآخر ابن كثير، إلا أن الصلابي لم يطلع على كتاب ابن كثير في طبقات الشافعية، بل نقل عن المطبوع لكتاب الإتحاف للمرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى، وبين الأصل والمنقول منه فرق مهم نشير إليه فيما بعد.

أما الآلوسيان ومحب الدين الخطيب، فجميعهم على درب ابن تيمية مقلدون له فيما قرره عن الأشعري وعلم الكلام، وكان غرضهم من ذلك ظاهراً لكل منصف: معارضة الأشاعرة بأن يقولوا إن الأشعري نفسه ليس على ما أنتم عليه، فإن كنتم أشاعرة حقاً فعليكم أن تقلدوه. وإنما قالوا ذلك لجهلهم بكلام الأشعري، وجهلهم بعلم الكلام، لأن من فهم كلام الأشعري في الصفات، عرف أنه مخالف لقول ابن تيمية وأتباعه؛ ومن عرف حقيقة علم الكلام، عرف أيضاً أن التقليد فيه لا يجوز أصلاً، فعلى فرض صحة قصتهم عن رجوع الأشعري الثاني، فليس الأشاعرة ملزمين به من حيث ذاته، بل من حيث هو مؤسس لمدرسة قويت أدلتها العقلية والنقلية. والعجيب من أمر الوهاية أنهم ينكرون التقليد في الفروع، ثم يلزمون الأشاعرة بالتزام التقليد في الأصول.

والحاصل أن قائمة العلماء التي أتى بها الصلابي بمثابة قول رجل واحد، إذ كلهم مقلدون لابن تيمية؛ وابن تيمية أتى بعد الإمام الأشعري بـ 400 سنة. فهل هنالك أحد قبله من قال بأن الأشعري له 3 أطوار وبين كل طور توبة ورجوع عما سبق؟ الجواب: لا. بل هنالك من شكك أيضاً أنه مرّ بطور معتزلي أصلاً، ولهذا القول أدلة قوية ذكرنا بعضها أعلاه. ونلخصت في الجدول الآتي المترجمين للإمام الأشعري وعدد المراحل التي ادعوا أنه مرّ بها:

عدد المراحل في حياة الأشعري	صاحب الترجمة
ذكر ابن النديم تحولا واحداً فقط؛ أي أن الأشعري كان معتزلياً ثم تاب منه. ¹	1- ابن النديم (ت. 380هـ) في الفهرست.
لم يذكر أي تحوّل من مذهب إلى مذهب، لا من اعتزال إلى كلاية ولا كلاية إلى غيره، مع وفور الكتب عنده وحرصه على تحقيق مذهبه.	2- ابن فورك (ت. 406هـ) في كتابه: مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري.

1- انظر ط. دار المعرفة، ص. 257. ويبدو أن الترجمة غير كاملة، وغير متسقة بمذهب المؤلف ابن النديم.

3- أبو منصور عبد القاهر البغدادي (ت. 429هـ) (الفرق بين الفرق؛ أصول الدين، الأسماء والصفات)	لم يذكر أي تحوّل، لا في كتاب أصول الدين ولا في كتابه الفرق بين الفرق
4- أبو بكر الخطيب البغدادي (ت. 463هـ) (تاريخ بغداد)	لم يذكر أي تحوّل.
5- القاضي عياض (ت. 544هـ) (ترتيب المدارك)	ذكر التحوّل عن مذهب الاعتزال بصيغة التضعيف مشككاً في صحتها: "ويروى أنه كان في ابتداء أمره معتزلياً ثم رجع إلى هذا المذهب، وهذا إن صحّ لا ينقصه..." ¹
6- الحافظ ابن عساكر (ت. 571هـ) (تبين كذب المفترى)	أن الأشعري انتقل من مذهب الاعتزال إلى مذهب أهل السنة، ولم يذكر لنا أي تحوّل آخر البتة.
7- ابن الجوزي الحنبلي (ت. 597هـ)	أثبت تحوّلًا واحدًا فقط.
8- ابن خلكان (ت. 681هـ)	أثبت تحوّلًا واحدًا فقط. ²
9- أحمد اللبلي (ت. 691هـ)	لم يذكر أي تحوّل. ³
10- الياضي (ت. 768هـ) في مرآة الجنان 225-232	لم يتعرّض للتحوّل، فضلاً عن تحوّلين. ⁴
11- تاج الدين السبكي (ت. 771هـ) في طبقات الشافعية الكبرى.	ذكر تحوّلًا واحدًا.
12- ابن فرحون (ت. 799هـ) في الديباج المذهب.	ذكر تحوّلًا واحدًا.

فهذه جملة من العلماء ممن ترجم للإمام الأشعري، ولم يذكر أي واحد منهم أن الأشعري

1- ترتيب المدارك، الجزء 5، ص. 27؛ وانظر الترجمة كاملاً من 24 - 30.

2- وفيات الأعيان، ط. دار صادر، ص. 284-287.

3- فهرست اللبلي، ص. 73-122.

4- وقد أورد ترجمة وافية للإمام الأشعري ومدرسته، واختصر كلاماً من عدة كتب ورسائل، انظر الجزء 2، ص. 225 -

مرّ بثلاثة أطوار، وإنما أحدث هذا القول من قبل ابن تيمية تشغيلاً على الأشاعرة، وهي سنته التي سنّها لفرقتة، وهم على دربه سائرون إلى يومنا هذا. وهؤلاء الأعلام من مدارس وأقطار وأزمنة مختلفة، بين شافعية ومالكية وحنابلة، ومغاربة ومشاركة، والكل إما قال إن الأشعري خرج عن مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل السنة، أو قال إنه كان على مذهب واحد فقط أي مذهب أهل السنة؛ ولم يقل أحد منهم أنه انتقل أولاً إلى مذهب ابن كلاب، ثم ثانياً إلى مذهب أهل السنة. وهذا الأمر محل اتفاق حتى مع بعض المبغضين للإمام الأشعري، كما تجده عند محقق كتاب "مثالب ابن أبي بشر". وكذلك ليس فيما نقل عن الحافظ البيهقي أو ابن فورك ما يدلّ على اعتزال الأشعري وانتقاله إلى مذهب أهل السنة. وهو المشهور والموجود عند جمهور المؤرخين والمترجمين له، ولم يخالف في هذا إلا ابن تيمية نظراً لخصومته مع الأشاعرة في وقته، فتبعه بعض تلامذته من بعده كابن القيم وابن كثير، ونقل ذلك صاحب الإتحاف والوهابية في العصر الحديث. وكان الأولى أن يذكر ذلك الصلابي، ولكن حاول أن يطمس قول الجماهير ويكبر قولاً شاذاً لأنه يوافق غرضه وهواه.

ثم هناك أمر آخر يجب التنبيه عليه، وهو أن ابن كثير لم يقل أن الفرق بين المرحلة الكلابية والمرحلة السلفية هو "إثبات ما يقوم بالله من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها"، بل قال: تغير مذهبه في أنه امتنع عن تأويل ما كان يؤوله سابقاً، وشتان بين التفسيرين. فإن عدم التأويل مذهب صحيح عند الأشاعرة قديماً وحديثاً، وهذا الخلاف بينهما يعدّ من المسائل الفرعية. أما ما يدعيه ابن تيمية من قيام الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها، فعني حلول الحوادث بذات الله تعالى، أي حصول الفعل والانفعال والتغير واكتساب صفات وكالات لم تكن ثم كانت - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالتحقيق أن ابن كثير وإن كان مذهبه يشبه تفسير ابن تيمية في الظاهر فقط، وأما في الحقيقة فليس كذلك، لأن حينئذ يكون ليس تحولاً عن مذهب إلى آخر بل مجرد ترجيح مسألة فرعية واحدة على الأخرى. فتبين سقوط وضعف الوجه الأول الذي ذكره الصلابي.

ثم قال الدكتور الصلابي في بيان الوجه الثاني:

"الوجه الثاني: التقاؤه الحافظ زكريا الساجي (ت. 307هـ)¹

بعد خروجه عن الاعتزال، ومن التخلص من طريقة ابن كلاب، لجأ إلى الأئمة من

1- سنة الوفاة إضافة من المؤلف.

أهل الحديث ممن عرفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء منهجهم؛ ليأخذ منهم مقالة السلف وأصحاب الحديث، ومن أشهرهم الحافظ الثبت محدث البصرة زكريا الساجي، يقول ابن تيمية عن الأشعري: وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى، وذلك آخر أمره، كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم. "وقال الذهبي عندما ترجم للحافظ الساجي يقول: وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف." وقال في مكان آخر عن الساجي: أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات، واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تأليف. "ومن الذين أثبتوا للأشعري اللقاء مع المحدث الحافظ زكريا الساجي وجعلوه نقطة تحوّل كبيرة عند الأشعري: الإمامان: ابن القيم وابن كثير، وغيرهما.¹

هذا الوجه الثاني بتمامه. ويلاحظ القارئ أن هذا الوجه، كالوجه الأول، ليس بدليل على دعوى الدكتور. فالدعوى هي أن الأشعري مرّ بثلاث مراحل: اعتزالية، وكلائية، وسلفية. والوجه الأول يرجع إلى دعوى ابن تيمية، وأسند القول إلى "أصحاب الأشعري" بدون ذكر المصدر، والبقية ينقلون عنه. وهذا الوجه الثاني إن دلّ على شيء فقد دلّ على أن الساجي كان ممن أخذ عنه الشيخ الأشعري، ولكن أين الدليل على وجود توبتين أو حتى توبة واحدة؟ والدكتور هنا يقفز قفزة كبيرة لا مبرر له فيها، إذ كون الشيخ الأشعري أخذ عن الساجي لا علاقة له بكونه أخذ أولاً بطريقة ابن كلاب ثم تاب منها. والذي نبحت عنه هو الدليل على كون مرّ بثلاثة مراحل، وما نقله ههنا لا يدلّ على شيء منه؛ بل أقصى ما يمكن أن يقال إن هذا الكلام قد يصلح قرينة على تحوّل واحد فقط.

ثم يرد على هذا الفرض أمور: إذا كان كلامه صحيحاً فعلاً، وكان الساجي في البصرة وتوفي بها سنة 307، والأشعري حسب الروايات تاب وهو في البصرة أيضاً قرب سنة 300، والتقاؤه بالساجي هو الذي أدخله إلى مذهب السلف حسب تعبير الصلابي، فمتى كان الشيخ الأشعري كلائياً؟ إذا قدرنا أنه تاب سنة 300، ولقي الساجي وأخذ عنه قبيل وفاته سنة 307، فيكون الأشعري قد مضى 7 سنوات على مذهب ابن كلاب، إلا أنه لا دليل على هذا الكلام البتة.

ثم لا دليل البتة على أن الأشعري قد انتقل عن مذهب إلى مذهب بعد أن ترك الاعتزال

- على فرض صحة تلك الرواية - وقد ذكر الأشعري في كتابه العمدة الذي ألفه سنة 320، وذلك قبل وفاته بأربع سنوات فقط، عددا كبيرا من المؤلفات التي ألفها وهو راضٍ عنها، ولم يذكر فيها كتاب الإبانة ولا التبيين، وكلها على المذهب المعروف منه عند مدرسته إلى يومنا هذا. إلا إذا كان للأشعري توبة أخرى بعد سنة 320 وقبل وفاته سنة 324، فحينئذ لا يكون للساجي مدخل في الموضوع، إذ توفي قبل ذلك ب 13 سنة على أقل تقدير.

ونقل الحافظ ابن عساكر تلك القائمة المذكورة في كتاب العمدة بنصها، وهي طويلة ذكر فيها عشرات الكتب.¹ ومنها كتاب اللمع الذي يعده الوهابية كالصلاحي من الكتب التي ألفها الأشعري على مذهب ابن كلاب (والتي على حسب فرض الصلاحي، قد ألفها بين سنة 300-307)، ومعنى ذلك أن الإمام الأشعري كان راضياً بكتاب اللمع إلى سنة 320هـ، بعد وفاة الساجي ب 13 سنة على أقل تقدير، فأين دليل التحول الثاني؟² بل علق الشيخ ابن فورك - وهو من كبار المحققين لسيرة الإمام الأشعري ومذهبه - على هذا الكلام كما نقله ابن عساكر، وذكر الكتب التي ألفها الإمام الأشعري بعد سنة 320 حتى وفاته، وأيضا، لم يكن فيها أي إشارة إلى أي تغيير أو تحول أو توبة البتة، وليس فيما كتب كتاب في آخر سنوات حياته كتاب الإبانة!³ بل كلها على الطابع الكلامي العلمي الرصين، وإليك كلام ابن فورك كما نقله الحافظ ابن عساكر:

قال أبو بكر محمد بن فورك: هذا هو أسامي كتبه التي ألفه إلى سنة عشرين وثلاثمائة، سوى أماليه على الناس والجوابات المتفرقة عن المسائل الواردة من الجهات المختلفة، وسوى ما أملاه على الناس مما لم يذكر أساميه ههنا، قد عاش بعد ذلك إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وصنف فيها كتباً منها (كتاب نقض المضاهاة على الإسكافي) في التسمية بالقدر، وكتاب (العمدة في الروية)، وكتاب في معلومات الله ومقدوراته أنه لا نهاية لها على أبي الهذيل، وكتاب على حارث الوراق في الصفات فيما نقض على ابن الراوندي، وكتاب على أهل التناسخ، وكتاب في الرد في الحركات على أبي الهذيل، وكتاب على أهل المنطق، ومسائل سئل عنها الجبائي في الأسماء والأحكام، ومجالسات في خبر الواحد وإثبات القياس، وكتاب في أفعال النبي صلى

1- وللأشعري أكثر من 120 كتاب، انظر مقدمة تحقيق فوقية محمود للإبانة، ص. 38 - 80.

2 - ابن عساكر، تبيين الكذب المفترى، تحقيق محمد زاهد الكوثري، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، 2010)، ص. 105 - 110.

3- ابن عساكر، تبيين الكذب المفترى، ص. 109-110.

الله عليه وسلم تسليماً، وكتاب في الوقوف والعموم، وكتاب في متشابه القرآن جمع فيه بين المعتزلة والملاحدين فيما بطعنون به في متشابه الحديث، ونقض كتاب التاج على ابن الراوندي، وكتاب فيه بيان مذهب النصارى، وكتاب في الإمامة، وكتاب فيه الكلام على النصارى مما يحتاج به عليهم من سائر الكتب التي يعترفون بها، وكتاب في النقض على ابن الراوندي في إبطال التواتر، وفيما يتعلقون به الطاعنون على التواتر، ومسائل في إثبات الإجماع، وكتاب في حكايات مذاهب المجسمة وما يحتجون به، وكتاب نقض شرح الكتاب، وكتاب في مسائل جرت بينه وبين أبي الفرج المالكي في علة الخمر، ونقض كتاب آثار العلوية على أرسطوطاليس، وكتاب في جوابات مسائل لأبي هاشم استملاها ابن أبي صالح الطبري، وكتاب الذي سماه (الاحتجاج)، وكتاب (الأخبار) الذي أملاه على البرهان، وذلك آخر ما بلغنا من أسامي تصانيفه؛ وله كتاب في دلائل النبوة مفرد، وكتاب آخر في الإمامة مفرد.¹

فكما هو ظاهر جداً لمن أنصف وكان "بعيدا عن التعصب المذهبية"، فإن الأشعري لم يغير مذهبه، وبقي على درب أهل السنة إلى آخر عمره، يناضل ويحاج المذاهب والأديان المختلفة بالمنهجية الأصولية الرصينة. وكما يلاحظ القارئ أيضاً أنه لا يوجد في كلامه ذكر لكتاب الإبانة. فالواضح على كل حال أن هذا الكتاب - مهما صحت نسبته جزئياً أو كلياً أو لم تصح أصلاً - لم يكن ذا أهمية للمدرسة الأشعرية، لا في القديم ولا في الحديث، وإنما ظهرت أهميته فقط في بعض المناطق التي كثر فيها الحنابلة كدمشق وبغداد ولفترات زمنية محدودة.

وعلى كل تقدير، الوجه الثاني للدكتور هنا ساقط كالأول، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

ثم قال الدكتور الصلابي:

"الوجه الثالث: تأليفه كتاب (الإبانة) وإثباته له: إن آخر الكتب التي ألفها الأشعري رحمه الله هو كتاب (الإبانة)، وقد ذكر في هذا الكتاب انتسابه للإمام أحمد رحمه الله، والتزامه بعقيدة السلف الصالح، واتباع أئمة الحديث، وذكر بعد هذا عقيدة السلف الصالح في أمور الدين، ولقد أثبت هذا الكتاب للأشعري جمع كثير من الأئمة من المتقدمين والمتأخرين، وأقرب العلماء زمناً بزمان الأشعري هو ابن النديم (ت. 385هـ)، فقد ذكر في كتابه الفهرست ترجمة للأشعري،

1- ابن عساکر، تبیین الکذب المفتری، ص. 109=110.

وذكر جملة من كتبه التي ألفها، ومنها كتاب (التبيين عن أصول الدين)، وجاء بعده ابن عساكر وانتصر للأشعري، وأثبت له كتاب (الإبانة)، ونقل منه كثيراً في كتابه (التبيين)؛ للإشادة بحسن عقيدة الأشعري، قال ابن عساكر عن الأشعري: وتصانيفه بين أهل العلم مشهورة معروفة بالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة، ومن وقف على كتابه المسمى (الإبانة) عرف موضوعه من العلم والديانة.

ثم جاء ابن ورباس (هكذا) (ت. 659هـ)، وألف كتاباً في الذب عن الأشعري، وأثبت له كتاب الإبانة. وقال: أما بعد: فاعلموا معشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم، وهدانا جميعاً للصرط المستقيم، بأن كتاب (الإبانة عن أصول الديانة) الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو الذي استقرّ عليه أمره فيما كان يعتقد، وما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعده رجوعه عن الاعتزال، بمنّ الله ولطفه، وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها، وتبرأ إلى الله سبحانه منها، كيف وقد نصّ فيه على أنه ديانتها التي يدين الله سبحانه بها..."

ثم قال الصلابي:

"ثم ذكر [ابن درباس] رحمه الله جماعةً من هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا كتاب (الإبانة) للأشعري، منهم:

- 1- إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي (ت. 446هـ)
- 2- الحافظ أبو عثمان الصابوني (ت. 449هـ)
- 3- الفقيه الحافظ أبو بكر البيهقي (ت. 458هـ)
- 4- الإمام أبو الفتح نصر المقدسي (ت. 490هـ)
- 5- الفقيه أبو المعالي مجلي بن نجا الأرسوفي صاحب كتاب (الذخائر في الفقه) (ت. 550هـ)

وهناك جمع كثير من العلماء ممن أثبت كتاب (الإبانة) للأشعري غير هؤلاء، ذكرهم ابن درباس، ومنهم:

- 1- الإمام ابن تيمية رحمه الله (ت. 728هـ)
- 2- الحافظ الذهبي (ت. 748هـ)، وقال: وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهّره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي.

3- الإمام ابن القيم (ت.571هـ) (هكذا والصواب 751هـ)

4- الحافظ ابن كثير (ت.774هـ)

5- العلامة ابن فرحون المالكي (ت.799هـ)

وهناك جمع كثير لا يحصى عددهم من العلماء والأئمة من الذين أثبتوا كتاب (الإبانة) للأشعري، وأنه آخر ما صنّف.

انتهى كلام الدكتور الصلابي.

وفي هذا الوجه تدليس كثير أيضا. فيلاحظ القارئ أن دعوى الصلابي هي أن كتاب الإبانة "آخر الكتب التي ألفها." ثم أتى بالنقول التي ثبت هذا الكتاب للأشعري، مثل ابن النديم وابن عساكر؛ ولكن لا أحد من هؤلاء أي ابن النديم وابن عساكر والبيهقي وابن فرحون والقاضي عياض ممن قال: إنه آخر كتاب له. فالأدلة ههنا لا تدلّ على دعواه، وهذا تدليس واضح. وأما كلام ابن درباس، فليس إلا مجرد دعوى أن الكتاب يمثل ما "استقر عليه" الأشعري، لكن أين الدليل على أنه آخر كتاب له، فضلاً على كونه يمثل توبة عن مذهب ابن كلاب؟ وهذا يبين سقوط كلام الصلابي وبعده عن المنهج العلمي في البحث.

وقد أشرنا سابقاً إلى الإشكالات الأخرى التي تعترى هذه الدعوى، منه أنه إذا كان كتب هذا الكتاب بعد أن لقي الحافظ الساجي، فعنى ذلك أنه كتبه في أوائل القرن الرابع أي ما بين سنة 300-307. وإذا كان آخر ما كتب، كان ينبغي أن يكون فيما بعد سنة 320، إذ الأشعري لم يذكر الإبانة فيما كتب قبل تلك السنة، ولم تذكر فيما ألف بعد 320.

وقد أشرنا أيضاً إلى أن كثيراً من الباحثين أثبت كتاب الإبانة متقدماً على بقية كتبه، بل قالوا إن هذا الكتاب هو أول ما كتبه على مذهب أهل السنة، كالمحققة الدكتورة فوقية محمود، والشيخ محمد أبي زهرة، والشيخ أبي الحسن الندوي، وقد سبق أنه أخفى أقوالهم (والحال أنه يستبعد أن تخفى هذه الأقوال على مثله). ثم إن هنالك بعض الباحثين المسلمين والمستشرقين ممن أنكر نسبة الكتاب للإمام الأشعري، كالدكتور خالد زهري، وقد ذكر هناك انخلاف بين الباحثين.¹

1- كما تقدم: رجال الدعوة والفكر لأبي الحسن الندوي، تحقيق وتقديم مصطفى الخن، 4 أجزاء، (دمشق: دار ابن كثير، 2007)، 1: 19؛ محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقيدة، (القاهرة: دار الفكر العربي، بدون تاريخ)، 157؛ مقدمة تحقيق فوقية محمود لكتاب الإبانة في أصول الديانة للإمام الأشعري، (القاهرة: دار الأنصار، 1977)،

ثم هنالك جانب آخر أخفاه الصلابي، وهو محل نقاش كبير ومعروف بين الناظرين إلى نسبة كتاب الإبانة إلى الإمام الأشعري، وهو أنه على تسليم ثبوت الكتاب له، فهل الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم هو نفس الكتاب المذكور في التراجم؟ وبتعبير آخر: هل صورة الكتاب الموجود اليوم بجميع تفاصيله ثابت للإمام؟ أم الأمر كما قال العلامة محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، إذ ذكر أن هذه الصورة "...قد تلاعبت بها أيادي أئمة"¹. وقد ثبت لدى الباحثين أن جميع المخطوطات لهذا الكتاب نسخت بعد سنة 1084هـ\1673م (وهو تاريخ أقدم نسخة اعتمدت عليها الدكتور فوقية محمود)، ومعنى ذلك أنها نسخت في ظل أجواء مشحونة بين الحنابلة المتصوفة من جهة والأشاعرة من جهة أخرى، لا سيما في الشام والحجاز ومصر، حيث ظهر بعض العلماء كالقشاشي (ت.1071هـ\1661م) وإبراهيم الكوراني (ت.1101\1689م) القائلين بوحدة الوجود معتمدين على أقوال ابن تيمية وابن عربي، في الرد على أهل السنة الأشاعرة.

وقد أشار بعض الباحثين إلى كثير من الفقرات من كتاب الإبانة التي لا يمكن أن تصدر عن الأشعري، إذ فيها بعض الأخطاء الواضحة في معرفة مذهب المعتزلة، وفيها ذم وتكفير للإمام أبي حنيفة، وغير ذلك مما لا يخفى على عارف بنفس الإمام الأشعري وطريقته في تقرير المسائل، كما يظهر من خلال كتابه اللع الثابت له بلا أدنى شك، وكما يظهر من كتاب مجرد مقالاته لابن فورك، ومقالات الإسلاميين. ومن أراد شيئا من التفصيل فلينظر البحث القيم للباحث فتحي عبد الرازق "نظرات في كتاب الإبانة عن أصول الديانة" المطبوع ضمن بحوث مؤتمر "الإمام أبو الحسن الأشعري" (جزء 1، ص.279). هذا والنصوص الصحيحة المعنى في كتاب الإبانة لا يوافق عليها التيمية أصلا، كالقول بنفي الكيف والحد وغير ذلك.

الوفاق المزعوم بين الأشاعرة والحنابلة وفتنة ابن القشيري

ثم ادعى الصلابي أن الأشاعرة والماتريدية كانوا مقبولين عند أهل الحديث حتى وقعت فتنة ابن القشيري، فتحولت العلاقة إلى شقاق ونزاع. قال ص.58-59:

"وكان هؤلاء مقبولين عند أهل الحديث من بداية القرن الرابع إلى ما بعد منتصف القرن

ص.79-80، وقد أنكر هذه النسبة الدكتور خالد زهري، "كتاب الإبانة عن أصول الديانة: تحقيق في نسبه إلى أبي الحسن

الأشعري"، مجلة الإبانة، العدد الأول، رجب 1434، ص.116 - 131.

1- انظر تعليق الكوثري في هامش ص.35، من كتاب تبين الكذب المفترى لابن عساكر.

الخامس، لدفاعهم عن السنة ووقوفهم القوي ضد الجهمية والمعتزلة، ولم يتجاوز الخلاف بينهم حدود الحوار العلمي مع التورع عن الاتهام في العقيدة، والحكم بالضلال أو البدعة، وإنما كانوا يعتمدون على مبدأ الحكم بالخطأ على المخالف إذا كان من أهل الاجتهاد، إلى أن ظهر ابن القشيري، وكان متعصباً لمذهبه إلى حد الغلو والتشدد، فحوّل الخلاف الدائر بين طائفتين من أهل السنة إلى شقاق ونزاع.

وهذا الكلام ضعيف جداً، وفي الحكم على مئات العلماء بل الآلاف بأن خلافهم مع بعض المجسمة أو الحشوية قد نشأ عن نزاع وقع في القرن الخامس الهجري. لا يعيننا الآن التحقق من تفاصيل تلك القصة، لكن السؤال الأهم والواقعي هو: هل فعلاً يمكن أن يفسر الخلاف بين مذهب الأشاعرة، بمدارسهم المختلفة، وكتبهم المطولة والمتوسطة والمختصرة، عبر ألف سنة من التأليف، وبين بعض الحنابلة والمجسمة، بالإشارة إلى خلاف جزئي وقع بين أفراد الناس في القرن الخامس الهجري ثم لم يسمع به جل هؤلاء العلماء، ولم ذكروها في كتبهم؟ ثم ما طبيعة ذلك الوفاق المزعوم الذي كان عليه الأشاعرة والحنابلة، والذي انقطع نتيجة تعصب رجل واحد؟ وههنا أشير إلى بعض ما ورد في الاعتقاد القادري الذي كانت حنابلة بغداد يصرون عليه، وكان يستتوبون بعض الحنابلة بناء عليها، هل يوافق عليه الصلابي والوهابية اليوم أم لا؟ وقد نقلها بكاملها الحافظ ابن الجوزي الحنبي في كتابه المنتظم في التاريخ، في أحداث سنة 433، بما يلي:

يجب على أن الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل وحده لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم ين له شريك في الملك، وهو أول لم يزل، وآخر لا يزال، قادر على كل شيء غير عاجز عن شيء، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون؛ غني غير محتاج إلى شيء؛ لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم يطعم ولا يطعم، لا يستوحش من وحدة ولا يأنس بشيء، وهو الغني عن كل شيء، لا تخلفه الدهور والأزمان، وكيف تغيره الدهور والأزمان وهو خالق الدهور والأزمان، والليل والنهار، والضوء والظلمة والسماوات والأرض وما فيها من أنواع الخلق والبر والبحر وما فيهما وكل شيء حي أو موات أو جماد. كان ربنا وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه، فخلق كل شيء بقدرته، وخلق العرش لا لحاجته إليه، فاستوى عليه كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق؛ وهو

مدبر السموات والأرضين، وما مدبر ما فيهما ومن في البر والبحر ولا مدبر غيره...¹

وهذا الكلام واضح في نفي التغيير عن الله تعالى، ونفي كونه في مكان. وذلك لأنه قال: لا يتغير المولى تبارك تعالى مع الزمان، وأن الله تعالى خلق الأزمان وليست هي ظرفاً له. وكذلك لا يحويه مكان قط. فكونه استوى على العرش كيف شاء وأراد، فإنه إشارة إلى إثبات ما جاء به ظاهر النصوص، ولم يأت به القائل ههنا نقضاً لما سبق، ولم يفسر ذلك الاستواء بأن قال: ثم صار في مكان هو العرش استقر فيه، أو أنه أحدث في نفسه صفة لم تكن في زمان سابق ثم كانت في زمان لاحق مثلاً، كما يدعيه ابن تيمية وأتباعه اليوم. والذي يهمننا ههنا هو التدليس الذي يتكرر من الصلابي وهذه الفرقة الضالة المضلة، حيث ساق الكلام عن هذا الوفاق المزعوم، والوحشة التي وقعت فيما بعد، وبهذا تجاوز ألف سنة من التاريخ، وكأن الكل كان على مذهب الوهابية قبل منتصف القرن الخامس. ثم بالرجوع إلى الاعتقاد القادري الذي كان عليه الحنابلة، يتبين أنه إن كان ثمة وفاق وقتها، فلم يكن على ما هو عليه الوهابية اليوم، أمثال الصلابي نفسه.

الخلاصة

قد عنون الصلابي كتابه "مدرسة الأشاعرة سيرة الإمام أبي الحسن الأشعري" وكان الأولى به أن يسميه "رواية ابن تيمية لتاريخ مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام الأشعري" إذ غاية ما فعله الصلابي هو جمع لتدليسات وخرافات عن الأشعري ومدرسته بناء على أقوال ابن تيمية وأتباعه، ومع ذلك لا يستحي أن يفوه بأنه كتب كتابه هذا مبتعداً جداً عن التعصبات المذهبية. وقد أشرت إلى تدليسه في عدة مواضع، ولم أتبع جميعها مخافة الإطالة. والحاصل أن الصلابي حاول أن يثبت أن الأشعري مرّ بثلاث مراحل، وإنما قال ذلك تبعاً للمدرسة التيمية التي تريد أن تبطل جميع ما كتبه الإمام الأشعري بهذه القصة: لأنه إن كان الأشعري قد مرّ بثلاث مراحل، ورجع عن أفكاره التي تبناها في المرحلتين السابقتين، ثم كتب الإبانة آخراً، سهل عليهم حينئذ أن يقولوا: "إذن عليكم يا أشاعرة أن تنفوا كل ما خالف هذا الكتاب". ثم حاول أن يثبت ذلك عبر بعض الشبهات الواهية جداً، مع إخفائه لكثير من المصادر الهامة، مع دعواه الإنصاف.

1 ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم، 15: 279-280.

والحق أن هذا ليس ينجيهم، لأن ما صحّ من كتاب الإبانة مخالف لعقائدهم. ثم إن مدرسة الأشاعرة ليست مبنية على تقليد الإمام الأشعري، وليس المعتمد في علم الكلام هو ما قاله الإمام، بل هو ما دلّ عليه الدليل، والانتساب إلى الأشعري من باب التشریف له، إذ له قدم سبق والإمامة في هذا العلم على قواعد أهل السنة والجماعة.

وقد بينت أن بحث الصلابي كان أبعد ما يكون من الإنصاف، فقد وقع في عدد من الأخطاء القادحة في المنهجية، حيث لم يعتمد إلا على المصادر الموافقة لرأيه، وبند كثيراً من المصادر المعتمدة في تأريخ سيرة الشيخ الأشعري. ثم ما جاء به من المصادر التيمية لم يف بمطلوبه أصلاً. والله المستعان.

والله أعلم والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر

- الأسدآبادي، القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996.
- الأسدآبادي، القاضي عبد الجبار بن أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، جزء 8، تحقيق توفيق الطويل، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، 1960.
- الأنصاري، أبو القاسم سلیمان بن ناصر، شرح الإرشاد، 3 مجلدات، تحقيق خالد العدواني، الكويت: دار الضياء، 2022.
- الباقلاّني، القاضي أبو بكر بن الطيب، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية، 2000.
- الباقلاّني، القاضي أبو بكر بن الطيب، كتاب التمهيد، تحقيق يوسف مكارثي، بيروت: المكتبة الشرقية، 1957.
- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، عيار النظر في علم الجدل، الكويت: أسفار لنشر نفيس الكتب والرسائل العلمية، الطبعة الأولى، 2020.
- ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن، مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، تحقيق دانيال جيماريه، بيروت: دار المشرق، 1987.
- الندوي، أبو الحسن، رجال الدعوة والفكر، تحقيق وتقديم مصطفى الخن، 4 أجزاء،

- دمشق: دار ابن كثير، 2007.
- أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقيدة، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- الأشعري، أبو الحسن، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق الدكتورة فؤدة محمود، القاهرة: دار الأنصار، 1977.
- الكعبي، أبو القاسم، كتاب المقالات والعيون والمسائل، تحقيق الدكتور راجح الكردي، عمان: دار الفتح، 2018.
- ابن النديم، الفهرست، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، 21 مجلد، دار الغرب الإسلامي، 2001\1422.
- القاضي عياض، ترتيب المدارك، 8 أجزاء، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983\1403.
- الحافظ ابن عساكر، تبين الكذب المفترى، تحقيق وتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، 2010.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1978\1397.
- اللبلي الفهري، أحمد بن يوسف، فهرست اللبلي، تحقيق ياسين يوسف عياش وعود عبد ربه ابو زينة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988\1408.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تحقيق خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997\1417.
- ابن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق الدكتور محمد الأحدي أبو النور، القاهرة: دار التراث، 1972.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995\1410.
- القاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرفية في بيروت، دار الفارابي، 2017\1439.

منهجُ ابن المنمّر الطرابلسي: (ت: 432هـ) في التأليف، وخصائصه العلمية

"كتابه الكافي في الفرائض نموذجاً"

د. مصطفى الصادق طابله/الجامعة المفتوحة/قسم الدراسات الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد، فبالإشارة إلى الدعوة الكريمة الصادرة عن اللجنة العلمية للمؤتمر العلمي الدولي الأول، بعنوان: (الهوية الدينية الليبية) تحت شعار: (الهوية الدينية دعامة أساسية للوحدة الوطنية)، الذي تنظمه كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية، بالاشتراك مع رابطة علماء ليبيا، خلال الفترة (10-12 سبتمبر 2022م)، بمدينة زليطن/ليبيا.

وفي الوقت الذي أشكر فيه الجهود المبذولة في الإعداد لهذا المؤتمر، وحسن اختيار العنوان ومحاوره، يشرفني أن أشارك في أعمال هذا المؤتمر المبارك بورقة يندرج موضوعها ضمن المحور الثاني للمؤتمر: (المذهب المالكي ببلادنا، وجهود الليبيين في المحافظة عليه)، واخترت للمشاركة العنوان التالي:

(منهجُ ابن المنمّر الطرابلسي: (ت: 432) في التأليف، وخصائصه العلمية "كتابه الكافي في الفرائض
أ نموذجاً")

وسبب اختياري لهذا الموضوع هو إبراز جانب من جوانب جهود الليبيين في خدمة المذهب المالكي، وبيان بصمتهم في المذهب، من خلال رصد منهجية أحد المؤلفين الليبيين المتقدمين الذين حازوا سبق التأليف في باب من أبواب الفقه المالكي، وهو علم الميراث، وهو الشيخ الجليل الأستاذ أبو الحسن علي بن المنمّر الطرابلسي، من خلال كتابه الكافي في الفرائض.

وأما أهمية الموضوع فتكمن في أنه يشارك مع غيره من البحوث في محاولة حل الإشكالية التي طرحها المؤتمر، وانعقدت عليها محاوره، وهي التعرف على جهود علماء بلادنا في حفظ الهوية الدينية لبلادنا، القائمة على مرتكزاتها المترابطة (العقيدة الأشعرية والمذهب

المالكي والتصوف السني ومقرأ الإمام نافع المدني)، وإبراز جهودهم ومواقفهم الحازمة في الحفاظ على تلك الهوية، وأن لهم بصمه تؤكد دورهم الفاعل في تثبيت مركزاتها وتنشئة الأجيال على التمسك بها.

وبخصوص الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، فقد تناول ابن المنمر عدد من المؤلفين، وذاع اسمه بكتب التراجم والسير والرحلات، غير أنني سأركز على دراستين- حسبما انتهى إليهما علمي- انطلقت منهما هذه الدراسة، وعليهما تركزت ملاحظتها العامة، مع محاولة إضافة إليهما ما يسر الله جمعه وتقريره، على ما سيظهر بمباحثها، ونتائجها وتوصياتها: الدراسة الأولى للشيخ الأستاذ الدكتور حمزة أبو فارس، الأستاذ بجامعة ليبيا، وعضو في عدد من المجالس والجامع الفقهية، نشرها في مجلة العلوم الإنسانية الصادرة عن كلية الآداب والتربية بجامعة ناصر بزلتين/ العدد الثاني 1991م، وهي منشورة كذلك على شبكة الانترنت، بواسطة موقع المنظومة <http://search.mandumah.com>، وقد تناول فيها ترجمة وافية للشيخ ابن المنمر، وتعريفاً لكتابه الكافي في الفرائض، وهذه الدراسة نقلها الشيخ حمزة ضمن مقدمته لتحقيق الكتاب المذكور، وزاد عليها مباحث مهمة، تتعلق بحياة ابن المنمر وكتابه الكافي، غير أنه لم يتناول منهج ابن المنمر في تأليفه، وهذا ما تحاول هذه الدراسة أن تدارك شيئاً منه.

الدراسة الثانية للأخت/ سميرة حمودة، الأستاذة بكلية الآداب، بجامعة ابن زهر - أغادير - المغرب، وهي بعنوان: جهود الإمام ابن المنمر في خدمة المذهب المالكي، منشورة بمجلة الجامعة الأسمرية، العدد الخاص رقم: 2019/2م، تناولت فيها ترجمة ابن المنمر، وجهوده في خدمة المذهب المالكي، وذكرت منها: موقفه ضد الفكر الشيعي، وأثره في السياسة من خلال جهوده الإصلاحية، ووقوفه ضد الاستبداد وتسلط الحكام، ومحنته التي انتهت إلى نفيه من مدينة طرابلس، ثم تناولت كتابه الكافي بالتعريف، وتعرضت لبيان منهجه ونماذج من المسائل التي تناولها، وجاء هذا البيان مقتضباً، وهو ما تحاول هذه الدراسة زيادة بيان عليه.

وقد اعتمدت في جمع مادته على مصادر متنوعة، أهمها كتاب الكافي لابن المنمر الطرابلسي، الذي حققه فضيلة الدكتور حمزة أبو فارس، وطبعته دار الميمان للنشر

والتوزيع، وكذلك مصادر هذا الكتاب، وغيره من المصادر التي لها علاقة بمادته العلمية. واخترت في تحريرها المنهج الوصفي التحليلي، بتتبع منهج المؤلف في جمع موضوعات الكتاب وتبويبها، وترتيبها، وتصوير المسائل، وبحثها، والاستدلال لأحكامها، وموقفه من الخلاف النازل والعالي واختياراته، مبرزاً الخصائص العلمية للكتاب، من حيث مصادره، وتوثيق نقولاته، وتأثره وتأثيره، وقد انتظمت بحول الله تعالى وعونه في خمسة عناصر أساسية، هي:

- مقدمة: بينت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته والدراسات السابقة، ومنهجية بحثه، ومصادره، وهيكلته تقسيماته.
 - تمهيد: خصصته للتعريف بابن المنمر، وآثاره العلمية.
 - المبحث الأول: منهج ابن المنمر في كتابه الكافي في الفرائض، وتناولته في مطلبين:
 - المطلب الأول: منهجه في جمع مادة كتابه، وترتيبها.
 - المطلب الثاني: منهجه في نقل المسائل والاستدلال لها.
 - المبحث الثاني: الخصائص العلمية للكتاب، وتناولته في مطلبين:
 - المطلب الأول: مصادر الكتاب وأثره في غيره.
 - المطلب الثاني: الخلاف عند ابن المنمر واختياراته.
 - الخاتمة: وفيها نتائج المشاركة وتوصياتها.
- والله أسأل أن يكلل الجهود المبذولة في هذا المؤتمر بالتوفيق والقبول، وأن يحقق الأهداف المرجوة منه، وأن ينفع بأعماله وتوصياته النفع العميم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} «سورة الصافات، الآيتان: 180 - 182».

تمهيد

التعريف بابن المنمر وبآثاره العلمية

أتناول في هذا التمهيد التعريف بابن المنمر في عدد من النقاط تبين باختصار: اسمه، ونشأته، ورحلاته، وتصدره للدرس والإفادة، وآثاره العلمية، ومحنته ووفاته⁽¹⁾:

أولاً: اسمه وموطنه ونشأته:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي، ولد بمدينة طرابلس الغرب سنة ثمان وأربعون وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة، وسكن وسط المدينة، وبيته قريب من الجامع الأعظم بها، وبها حفظ القرآن الكريم، وأخذ عن مشايخها، منهم أبو الحسن علي بن أحمد بن الخصيب، يعرف بابن زكرون الطرابلسي، سمع من أبي عبد الله الجيزي، وابن المنذر، وابن شعبان، وابن الأعرابي، وابن الجارود، وروى عنه أبو الحسن القاسبي، وأبو علي الحسن بن المثني قاضي طرابلس، وعبدوس بن محمد الطليطي، وغيرهم من العلماء، وانتفع به أهل طرابلس، وتعلموا منه الفقه والحديث والنسك، وكان رجلاً صالحاً متعبداً ناسكاً، له في الفقه والفرائض والحديث والرقائق تأليف كثيرة، أقام خمسين سنة لم يحلف بالله تعال، توفي سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة.

ثانياً: رحلاته العلمية:

لابن المنمر رحمه الله رحلات علمية، مستفادة من بعض الإشارات التي تروىها لنا كتب الرحالة والتراجم، ومن رحلاته:

1. رحلته إلى القيروان: رحل ابن المنمر بعد وفاة شيخه ابن الخصيب سنة سبعين وثلاثمائة إلى القيروان، وأخذ عن مشايخها، ومن أبرزهم: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، إمام المالكية في وقته وقدمتهم، صاحب التصانيف المعروفة، منها الرسالة، والنوادر والزيادات، وشهرته تغني عن ذكره، وتوفي -رحمه الله- سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وأبو الحسن علي بن محمد القاسبي المعافري القيرواني، كان حافظاً للحديث وعلمه ورجاله، فقيهاً أصولياً، له تصانيف، منها: الممهد في الفقه، والرسالة في أحوال المعلمين والمتعلمين، توفي سنة ثلاث وأربعمائة.

(1) تنظر ترجمته في: رحلة التجاني: 250 و257، و265، و266، و267، وفي الديباج المذهب لابن فرحون: 2/ 103، ومقدمة كتاب الكافي للشيخ الأستاذ الدكتور حمزة أبو فارس: 9 وما بعدها.

2. رحلته إلى مصر: ثم سافر ابن المنمر -رحمه الله- بعد عام 385هـ إلى مصر، فأخذ عن أبي القاسم عبد الرحمن الجوهري، وهو فقيه مالكي، كثير الحديث، توفي سنة خمس وثمانون وثلاثمائة، كما أخذ أثناء إقامته بمصر عن محمد بن أحمد بن عبيد الوشاء، أبو عبد الله المصري المالكي، المتوفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.
 3. رحلته إلى الحجاز: ثم سافر رحمه الله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة تسع وثمانون وثلاثمائة، والتقى بعدد من علماءها، وسمع من أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن رزيق البغدادي، وكان من العلماء المحدثين الثقات الأثبات، المتوفى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، رجع ابن المنمر من مكة إلى بلده طرابلس ويغلب على الظن أنه عاد بعد عام 391هـ.
- وعند التأمل في رحلات ابن المنمر، يمكن استنتاج الآتي:

1. تميزت رحلاته بالتنوع، فسافر للمغرب، وللمشرق، بقي بمصر أربع سنوات، وبمكة سنتين، وتنوع هذه الرحلات ومدتها أكسبته كثرة في شيوخه، وتنوعا في معارفه، وعلاوا في أسانيده⁽¹⁾.
2. مدة رحلته إلى القيروان يعثرها غموض وتساؤلات، هل أطال الإقامة بها؟ أم أنه ذهب إليها مرة واحدة؟ أم كان يذهب إليها ويعود المرة تلو الأخرى؟ المدة بين ذهابه إليها وبين رحلته لمصر قرابة خمس عشرة سنة! ويظهر لي أن رحلته إليها لم تطل، لسببين: الأول أن التجاني نقل في رحلته عن الشيخ أبي عبد الله الخشاب القاضي أنه خرج مع أبي الحسن بن المنمر من طرابلس لزيارة الفقيه أبي محمد بن أبي زيد القيرواني وسماع العلم عنه، فوصف الرحلة -وهي الرواية التي عليها المعتمد- بالزيارة، وعادة الزائر لا يطيل المقام⁽²⁾، والثاني قرب المسافة بين طرابلس والقيروان تبعث في الإنسان عدم الاستقرار.
3. لابن المنمر أكثر من رحلة للحج، والتي أسعفتنا بها المراجع أن إحداها كانت قبل رحلته للقيروان، فقد روى قصة عند إقامته بالقيروان بمجلس الفقيه أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، جاء فيها: أن أبا عثمان الحساني أراد الحج فاتفق مع جماعة من إخوانه من أهل الدين والفضل، وكنت معهم (أبو الحسين بن المنمر)، فخرجنا على الوحدة،

(1) ينظر: مقدمة كتاب الكافي للشيخ الدكتور حمزة أبو فارس: 9، 10، 11، 12 وما بعدها.

(2) ينظر: المصدر السابق، ورحلة التجاني: 250.

وقطعنا صدرا من الطريق...⁽¹⁾، والأخرى عند سفره رحمه الله إلى الحجاز سنة تسع
وثمانين وثلاثمائة، على النحو ما تم بيانه عند ذكر رحلاته.
ثالثا: آثاره العلمية، والعملية:

بعد رجوع ابن المنمر إلى موطنه - طرابلس، تنوعت آثاره العلمية والعملية، فجلس
للتصنيف والتدريس، ورواية العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة الفاعلة
في شؤون مجتمعه وحياته الاجتماعية والسياسية، وفيما يلي مجمل هذه الآثار:

1. التصنيف: يذكر من ترجم لابن المنمر أن له مؤلفات في الحساب والأزمنة والفرائض،
غير أنهم لم يسموا من مصنفاته إلا كتابه (الكافي في الفرائض)، قال الزركلي: (له
تأليف في الحساب والأزمنة، اشتهر منها الكافي في الفرائض)⁽²⁾ وهو من الكتب
المعروفة في بابه، اشتهر بين العامة والخاصة، ذكر التيجاني أن الرحالة كانوا يحرصون على
سماعه عند مرورهم وإقامتهم بطرابلس⁽³⁾، كما عده ابن بشكوال من أحسن التأليف
على مذهب الإمام مالك⁽⁴⁾، كما ذكر ابن مجاهد عند ترجمته لأبي الفضل أحمد بن عمر
التيجاني الفرضي، قال عنه: انفرد برواية كتاب الفرائض لابن المنمر، حدث به عن
أبي القاسم خلف بن محمد بن الحسين الطرابلسي، ولذلك يعد الأخير من تلاميذ ابن
المنمر⁽⁵⁾.

2. التدريس: جلس ابن المنمر للتدريس بمساجد طرابلس، وبث العلم في صنوف المعرفة
التي اكتسبها، وكان لمكانته العلمية يقصده من يمر على طرابلس للسمع وأخذ العلم
عنه، جاء في كتاب الصلة: (يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حماد: من أهل
مجريط، يكنى: أبا يعقوب... لقي بأطرابلس أبا الحسن بن المنمر، وصحبه مدة، وقرأ
عليه كتابه في الفرائض، وكان أبو يعقوب هذا ثقة فيما رواه، توفي رحمه الله بمجريط

(1) ينظر: رحلة التيجاني: 250. وفيها: (أقنا ثلاثا لم نطعم، فأتي الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فسح وجهها بيده، وجعل
يأخذ من ترابها ويجعله في إناء كان معه، شيئا، ثم ثراه بشيء من ماء، وقرأ عليه وسمى، وقال لنا: سمو الله وكلا،
قال: فجعلنا نأكل ونطعم طعم السويق، فأطرق الشيخ أبو عبد الله بن أبي زيد ساعة، ثم رفع رأسه وقال: هذا داخل
في الإمكان...).

(2) الزركلي - الأعلام: 327/4.

(3) ينظر: رحلة التيجاني: 257.

(4) ينظر: ابن بشكوال - الصلة: 642، الزركلي - الأعلام: 327/4.

(5) ينظر: ابن مجاهد - توضيح المشتبه: 35/5.

سنة ثلاث وسبعين وأربع مائة⁽¹⁾، وقد استقر بابن المنمر المقام للتدريس بطرابلس بعد رجوعه من مكة، وتصدر للإفادة ونشر العلم ونفع العباد بها مدة تقارب 39 سنة، لأنه يغلب أنه -رحمه الله- عاد من رحلته من مكة عام 391هـ وبقي بطرابلس حتى تاريخ محنته التي وقعت له عام 430هـ، نخرج من طرابلس إلى منطقة غنيمة، فسكن بها حتى وفاته عام 432هـ⁽²⁾.

3. الإسناد: وهو من خصائص هذه الأمة، به تحفظ الشريعة من الزيادة أو النقص، أو التحريف والتبديل، وبه تنال البركات وتواصل الأنفاس⁽³⁾، وابن المنمر رحمه الله- كان مسنداً، يروي العلم بسنده عن مشايخه، ويرويه لتلاميذه، ومن آثاره في هذا الشأن أنه يروي حديث صفة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بسنده إلى الإمام مالك رحمه الله، يرويه عن شيخه أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن رزيق البغدادي بمكة عن القاسم بن إسماعيل المحاملي عن أحمد بن إسماعيل المدني عن مالك بن أنس⁽⁴⁾، ويرويه عنه أبو الفضل أحمد بن عمر بن علي التيغاني الفرضي، عن أبي القاسم خلف بن محمد بن الحسين الطرابلسي⁽⁵⁾، ويروي أيضاً عن شيخه بالقيروان أبي الحسن القاسبي عن أبي زيد محمد بن أحمد المروزي شيخ الشافعية، عن محمد بن يوسف الفريري المحدث الثقة عن محمد بن إسماعيل البخاري شيخ المحدثين⁽⁶⁾، ومن آثاره أيضاً في هذا الشأن أنه يروي كتابه الكافي بإسناده لتلاميذه، ذكر صاحب توضيح المشتبه أن: (الفضل أحمد بن عمر بن علي بن شيبه الاسدي التيغاني الفرضي انفرد برواية كتاب الفرائض لابن المنمر حدث به عن أبي القاسم خلف بن محمد بن الحسين الطرابلسي

(1) ابن بشكوال- الصلاة: 642.

(2) ينظر: رحلة التجاني: 265.

(3) ينظر: علاء الدين مغلطي- إكمال التهذيب: 6/1، ومحمد زكي إبراهيم- أجدية التصوف الإسلامي: 43 و44.

(4) ويرويه الإمام مالك عن نعيم بن عبد الله المجرم أن محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري في حديث عبد الرحمن وعبد الله بن زيد هو الذي كان أرى النداء بالصلاة أخبره عن أبي مسعود الأنصاري أنه قال أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد أمرنا الله أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنا لم نسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم. ينظر: موطأ الإمام مالك- كتاب قصر الصلاة في السفر- باب ما جاء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

(5) ينظر: الأصبهاني- معجم السفر: 29.

(6) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 408.

عن مؤلفه أبي الحسن علي بن محمد ابن المنمر الفرائضي⁽¹⁾، كما يروي أحكام الفرائض والمواريث بسنده عن أشياخه، ومن ذلك ما رواه في معنى الموالي وأنهم العصابات، قال: (حدثنا محمد بن عبيد الوشاء، عن بكر بن العلاء القاضي، عن إسماعيل القاضي، أنه قال: الموالي هم العصابات: الولد، والأب، والإخوة...⁽²⁾).

4. المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية: كانت طرابلس في زمن ابن المنمر تعج بالفتن والصراعات السياسية والدينية، فكانت له مشاركات في الذود عن السنة، ومناخفة البدعة، والتعامل مع القضايا التي يعيشها مجتمعه، ومن أبرزها مواجهة المد الشيعي بعد أن تمكن العبيدون في عصره من الاستيلاء على طرابلس، وتحركوا فيها بقوة لتمكين مذهبهم، ونشر أباطيلهم، منها سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقطع صلاة الضحى، ومنع تراويح رمضان، وإضافة (حي على خير العمل) في الأذان، فوقف ابن المنمر يحافظ على هوية بلده، يدعو إلى التثبيت بمذهب أهل السنة، وتطبيق فروع المالكية، وأعلن رفض مذهب العبيديين، وكان أول من قطع (حي على خير العمل) من الأذان، وأول من أذن أذان السنة بعدها، وأول من أقام للناس صلاة القيام، بعد أن محي رسمها من أفريقية، ومن مشاركاته السياسية - كما يذكر التجاني وابن خلدون- أن أمر طرابلس تولاه سعيد بن خزرون، ولم يزل واليا عليها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة، فدخلها خليفة بن خزرون بعد أن أمكنه منها ابن المنمر، وبايع له، وتأسس مجلس للشورى برئاسة ابن المنمر، وتولى أمر طرابلس خليفة بن خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمائة، بعدها دخلها المنتصر بن خزرون في ربيع الأول منها، ومعه عساكر زناتة، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس محتفيا، وملكها المنتصر، ونكل بأتباع خليفة، ومنهم ابن المنمر⁽³⁾.

سادسا: محنته ووفاته ومكان ضريحه:

بعد أن صرح ابن المنمر لأهالي طرابلس بالتعاون مع خليفة بن خزرون لدخول طرابلس، وتمكن الأخير من دخول المدينة وتقلد الأمور بها، غير أنه لم يستتب بها الأمن

(1) ابن مجاهد- توضيح المشتبه: 5/ 351).

(2) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 87 و88.

(3) ينظر: رحلة التجاني: 265، وديوان المبتدأ والخبر أو تاريخ ابن خلدون: 58/7، وشوقي ضيف- تاريخ الأدب العربي:

والأمان بسبب المنازعات بين أفراد عائلة بني خزرون، فأغار على المدينة شخص يدعى المنتصر بن خزرون مع عساكر زناته، وتقلد أمرها، وأظهر المنتصر العدا لمن كان قبله ولمؤيديه، ومن بينهم ابن المنمر، فقبض عليه وأوقع به مكروها، فاستباح أملاكه، وعذب كثيرا من أقاربه، ونفاه من البلد إلى مكان يعرف بغنيمة⁽¹⁾، فأقام بها ابن المنمر حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وقبره فيها معلوم حتى عهد قريب، يقع بمكان غير أهل بالسكان على ربوة عالية تحيط به الأشجار، يراه من يسير على الطريق المؤدية إلى شاطئ البحر، المعروف حاليا بشاطئ النقازة، وكان معلما معروفا، يقصد بالزيارة والاعتبار والتبرك، غير أن هذا العلم الذي أحيا السنة وأمات البدعة، جوزي من فكر لا يقدر فضل العلماء الأحياء منهم ولا الأموات، فهدم قبره، ونبش رفاتة، ومحى رسمه، في موجة هدم الأضرحة ونبش القبور التي بليت بها بلادنا بسبب انفلات الأمن عقب ثورة 17 فبراير 2011م، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم⁽²⁾.

المبحث الأول: منهج ابن المنمر في كتابه الكافي في الفرائض

توطئة:

المنهج لغة مصدر مشتق من الفعل (نهج)، ومعناه سلك واتبع، ومنه: طريق نهج^{٥٠}: أي بين واضح^{س٥}، وفي الاصطلاح الأسلوب العلمي الذي ينتهجه العالم ويضمن له أيسر الطرق الموصلة إلى المعرفة المتبغاة، من خلال عدد من العمليات التي تبدأ بجمع مادة البحث، وتبويبها، وتحليلها، واستخراج النتائج والتوصيات منها، مع توفير الوقت والجهد⁽³⁾، وأتناول منهج الفقيه ابن المنمر الذي انتهجه في كتابه الكافي في الفرائض، في مطلبين،

(1) غنيمة: قرية تقع شرق مدينة طرابلس بمسافة تقدر بـ (70 كلم)، يحدها غربا مدينة قصر الأخيار، وجنوبا مدينة مسلاتة، وشرقا مدينة الخمس، وشمالا ساحل البحر، اعتمد سكانها على الزراعة وتربية المواشي، وفي الآونة الأخيرة بدأت فيها الأنشطة الاقتصادية المتنوعة، خصوصا في المجال السياحي، نظرا لطبيعة موقعها، وساحلها البحري، قال الشيخ الطاهر الزاوي: كتبت في بعض الكتب (غائمة) بالألف، وهو خلاف ما ينطق به السكان، وقال: بها قبر الأستاذ أبي الحسن بن المنمر. ينظر: الطاهر الزاوي- معجم البلدان الليبية: 245.

(2) ينظر: مقال كتبه د. جمعة الزريقي بعنوان: (هدم قبر ابن المنمر العالم الذي قضى على البدعة، فانتقم منه بعد ألف عام من وفاته!)، منشور بموقع المنارة للإعلام بشبكة الانترنت.

(3) ينظر: ابن منظور- لسان العرب: (نهج)، وعبد الرحمن العيسوي وآخر- مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي: 13.

الأول: منهجه في جمع مادة كتابه، وتبويبها، والثاني في نقل المسائل والاستدلال لها.
المطلب الأول: منهجه في جمع مادة كتابه وتبويه

المتأمل في الموضوعات التي ضمنها ابن المنمر كتاب الكافي في الفرائض، يلحظ المنهج المتميز الذي انتهجه مؤلفه في الجمع والترتيب، وبيان ذلك في فقرتين، هما:
الفقرة الأولى: منهجه في جمع مادة الكتاب:

اتسم منهج ابن المنمر -رحمه الله- في جمع مادة كتابه بعدد من المزايا والخصوصيات تظهر ملامحها في اسم الكتاب ودلالته واستهلاله:
أولاً: اسم الكتاب ودلالته: كل من ترجم لابن المنمر يذكر أن له كتاباً في الفرائض، وورد اسمه مصرحاً به في بعض نسخ الكتاب بـ(الكافي في الفرائض والحساب على مذهب مالك بن أنس...)⁽¹⁾، وسبق النقل عن الزركلي أنه اشتهر بكتاب: (الكافي في الفرائض)، المؤلف اختار هذا العنوان لكتابه (الكافي في الفرائض) ليكون جامعاً لكل ما يتعلق بفقه الفرائض وحساب المسائل على مذهب الإمام مالك، وقد حقق ذلك بنسبة كبيرة، كما سيظهر في البنود التالية من هذه الفقرة.

ثانياً: حسن الابتداء وبراعة الاستهلال: كل مؤلف يختار بداية مؤلفه، بما يفتح به عن مقصود مؤلفه وموضوعه، وابن المنمر رحمه الله استهل كتابه باستهلال لطيف، ضمنه عدداً من المسائل، يستدل بها على مكاتته العلمية، وحسن صنعته، والإلماح إلى موضوع كتابه، ابتدأها بالبسملة، تبركا وطلباً للاستعانة بالله تعالى، عملاً بحديث: (كل عمل ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أبتى)⁽²⁾، ثم ثنى بالصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، امثالاً لأمر الله تعالى⁽³⁾، وتبركا بهذا الذكر المبارك، وجرياً على ما عليه عمل

(1) ينظر: مقدمة الشيخ الدكتور حمزة أبو فارس لكتاب الكافي لابن المنمر: 32.

(2) هذا الحديث يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ"، وفي رواية: "بِحَمْدِ اللَّهِ". وفي رواية: "بِالْحَمْدِ فَهُوَ أَقْطَعُ". وفي رواية: "كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمٌ". وفي رواية: "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ". قال النووي: روي هذه الألفاظ كلها في كتاب "الأربعين" لحافظ عبد القادر الرهاوي، وهو حديث حسن، وقد روي موصولاً كما ذكرنا، وروي مرسلًا، ورواية الموصول جيدة الإسناد، ينظر: النووي- الأذكار: 112.

(3) الوارد في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

المصنفين، وقد صرح به في بعض النسخ، وأشار إليها في بعضها بحديث صفة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم ثلث بحديث أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحديث صفته -صلى الله عليه وسلم-، ثم أورد أحاديث في فضل المدينة المنورة، والحديث الذي جاء في عالم المدينة، ثم ذكر بعض الآثار الواردة في مذاهب العراق وما جاء عن إنكارها، ثم ختم استهلاله بما جاء في وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- وميراثه، واستهلال ابن المنمر يعبر عن مقصد تأليفه، ومكاتبته العلمية، وشدة ارتباطه بالمذهب المالكي، واعتزازه به، نلح ذلك من عدة وجوه، منها:

1. الأحاديث التي وردت باستهلاله بعضها يرويها ابن المنمر عن بعض شيوخه، منها حديث صفة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، الذي يروي عن شيخه بمكة ابن رزيق، وحديث ما جاء في عالم أهل المدينة، الذي يروي عن شيخه بمصر الجوهري، وهذا يدل على رسوخ ابن المنمر في العلم، وروايته بالسند المتصل.
2. اعتمد رواية الإمام مالك في جلّ الأحاديث التي ذكرها ضمن استهلاله، منها ما جاء في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما جاء في أسمائه وصفته -صلى الله عليه وسلم-، وما جاء في فضل المدينة، وما جاء في المشرق ومذاهبه، وما جاء في وفاته -صلى الله عليه وسلم- وميراثه، مع أن تلك الأحاديث مروية بالبخاري ومسلم، لكن اختيار ابن المنمر رواية الموطأ، يدل على مكانة الموطأ عنده، وتقديمه على الصحيحين.
3. ذكر عددا من الأحاديث والآثار للاستدلال بها على فضل المذهب المالكي ومكانة مؤسسه، وأن أصوله كلها مستمدة من السنة المؤيدة بالعمل، ونلح هذا بذكره فضل المدينة ومن ورد بها من آثار، وبالمقابل ذكر مذاهب المشرق، وإنكار الصحابة رضوان الله عليهم مذاهب أهل العراق، ومقصده من إيراد ذلك هو بيان مكانة المذهب المالكي، وأنه تأسست أصوله وفروعه على فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولا يجوز صرف المعنى إلى القدح في مذاهب بعض التابعين من أهل الحديث الذين تأسست عليهم المذاهب السنية الأخرى مذاهب الأحناف والشافعية والحنابلة، بل إلى ذم التنطع واعتماد الغريب.

ثالثا: مصادر الكتاب: سيأتي بعون الله، بيان هذه المصادر ضمن المبحث الثاني، وما يهمنا هنا أن منهج ابن المنمر في جمع مادة كتابه اعتمد على أمهات المذهب المالكي، واعتمد في الغالب على النقل الحرفي، مع تدخله أحيانا في النص بالاختصار أو الحذف أو النقل

بالمعنى، وقد يشاركه النساخ في هذا الأمر، وقد تولى المحقق الأستاذ حمزة أبو فارس بالتنبيه على ذلك عند توثيقه لنصوص الكتاب وتخريجها⁽¹⁾، وفي ذات الأمر فإن نقول المؤلف رحمه الله أظهرت فوائد مهمة إضافة إلى توثيق نصوص الكتاب، فقد أظهرت جوانب من التصحيح والسقط في الكتب المطبوعة والمحققة بمعرفة علماء مشهود لهم بالخبرة في تحقيق التراث، وقد نبه عنها المحقق جزاه الله خيرا⁽²⁾، ومن ذلك كله يظهر منهج ابن المنمر في هذا الجانب الملاحم التالية:

1. جمع ابن المنمر مادة كتابه من أمهات المذهب المالكي، ولم يتجاوزها، فجاء كتابه على المذهب المالكي، ولم يدخل فيه الخلاف العالي.
 2. لم يرد من مصادره كتب متون الحديث ولا شرحها، ولا كتب اللغة ولا الغريب، وانعكس هذا على كتابه، فلم ترد فيه نقولات حديثة ولا لغوية، ولا تعريفات لبعض المصطلحات، ولعل ذلك راجع إلى مكانة ابن المنمر العلمية، وكذلك إلى طبيعة ندرة هذه الكتب في عصره وبلده.
 3. توسع ابن المنمر في مسائل الحساب وتأصيل المسائل وتصحيحها، ولم يوثقها في الغالب من كتاب، مع الإحاطة بكل ما يتعلق بها من عول، ووصايا، وادعاء، وإقرار، وإنكار، وتسوية ديون الغرماء في تركة الميت، فكان له منهجه المستقل في هذا الباب، ولا يبعد أن تكون مسائل هذا الجانب أعني الحساب من تأليفه وصنعه، ولا عجب فهو البارع في الحساب، صاحب التصنيف فيه.
- الفقرة الثانية: منهجه في ترتيب مادة الكتاب وتبويبها:

اتسم منهج ابن المنمر -رحمه الله- في جمع مادة كتابه وتبويبها بعدد من المزايا والخصوصيات وبعض المآخذ، تظهر ملامحها في الآتي:

أولاً: ترتيب موضوعات الكتاب: كتاب الكافي طبع لأول مرة عن خمس نسخ خطية⁽³⁾، وقد ذكر محققه كثرة تحريف جميع النسخ وتصحيحها بحيث يصعب معه اعتبار إحداها

(1) ينظر نماذج من تنبيهات المحقق د. حمزة أبو فارس: كتاب الكافي لابن المنمر: الهامش الرابع والخامس من صفحة: 72، والهامش الثالث، من صفحة: 121.

(2) ينظر نماذج من تنبيهات المحقق د. حمزة أبو فارس: كتاب الكافي لابن المنمر: الهامش الثالث من صفحة: 114، والهامش الرابع، من صفحة: 127، والهامش الثاني من صفحة: 134.

(3) ينظر: مقدمة تحقيق كتاب الكافي- الأستاذ الدكتور حمزة أبو فارس: 31.

النسخة الأم، لذلك اعتمد طريقة النص المختار، فأثبت ما رآه صواباً في صلب الكتاب، وما رآه غير ذلك أثبته في الهامش، وبمطالعة الكتاب وتبع موضوعاته وترتيبها، يظهر تأثر ابن المنمر بمصادر كتابه، وذلك من خلال اعتماده عليها في ترتيب موضوعاته، وتراجم أبوابها، ويكاد تكون ترتيب أبوابه متفقة مع ترتيب الموطأ، خصوصاً في أبواب الفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، وأصحابها، وأبواب الحج، والتعصيب، كما اعتمد بشكل كبير في بقية أبواب الكتاب على تراجم المدونة لسحنون، وتهذيبها للبراذعي، والعتبية للعتبي، ومواطن الاتفاق والاختلاف تظهر بينة واضحة من خلال توثيق المحقق لنصوص الكتاب من المصادر المذكورة، جزاه الله خيراً، وقد قدم ابن المنمر كتابه بأسباب الميراث، والفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، وأصحابها، والميراث بالتعصيب، وجهاته، والحج عن الميراث، ثم دخل في أصول المسائل، وما يعول منها وما لا يعول، ثم تصحيح المسائل، والمناسخات، ثم بين أحكام الوصية وطرق استخراجها، ثم بين مسائل الادعاء والإقرار والإنكار، ثم مسائل الولاء، ثم موانع الميراث، ثم مسائل الميراث بالتقدير، وتوارث أهل الملل، ثم ختم بميراث الخنثى، ومما اختص به ابن المنمر في الترتيب:

1. استهل كتابه بحديث صفة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبيان فضل المدينة المنورة، وذم ما في المشرق من تنطع والجهل بالسنن، ثم بين مكانة الإمام مالك ومذهبه، وما جاء في وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وميراثه (1).
2. خصص أبواباً للحساب والعمل، وقد أطل فيها النفس، فاستأثرت بأكثر من ربع الكتاب، ويظهر أن جل ترتيبها وتراجمها من تأليفه وصنعه، وكذلك وضع الأمثلة وتصميم المسائل، واستخراج أصولها، وتصحيحها، وتوزيع سهامها، وقد بناها على المسائل الواردة بمصادره، كالمدونة، والواضحة، والعتبية، واستوعب رحمه الله الحلول الموصلة لبيان الأنصبة والوصول إلى الحقوق مع الوقوف عند شروط الوصايا والألفاظ المقرين والمنكرين، وعمله رحمه الله له يتسم بتتبع دقائق دلالات الألفاظ حتى يشكل على القارئ تصور مراحل المسألة وحساباتها! (2).

ثانياً: تقسيمات الكتاب: بمطالعة الكتاب وتبع فهرس موضوعاته يتضح بجلاء اضطراب

(1) ينظر: ابن المنمر- كتاب الكافي: من صفحة 57 حتى 83.

(2) ينظر المرجع السابق: من صفحة 145 و291.

منهج المؤلف في تقسيمات الكتاب، ولم يظهر لي مصدر هذا الاضطراب، هل هو من عمل النساخ أم من المؤلف؟ لكن المؤكد أن ابن المنمر قسم كتابه بحسب موضوعاته، كما هي عادة العلماء في التصنيف، غير أن تسميات هذه التقسيمات جاءت مختلفة بين النسخ، وجرى المحقق على اثباتها مع اختلافها، لذلك خرج الكتاب بتقسيمات غير مطردة تجمع أبوابه، ومن ذلك:

1. تقسيم الكتاب إلى أسفار، حيث أنهى آخر باب الوصية للوارث بقوله: (كمل السفر الأول من الكافي في الفرائض... يتلوه في الثاني باب حساب الوصية للوارث)، لكن استفتح باب حساب الوصية للوارث بعنوان آخر، ورد نصه هكذا: (أول النصف الثاني من الكافي في الفرائض)، فلم يعقب السفر الأول السفر الثاني، ولم يتقدم النصف الثاني النصف الأول (1).
 2. تقسيم الكتاب إلى خمسة أجزاء، ابتدأها بالجزء الثاني، وتلاه ببقية الأجزاء، غير أن الجزء الأول سقط، ولم يذكر ببداية الكتاب (2).
 3. تقسيم مسائل فقه الميراث وحساب المسائل وما يتعلق بهما من أحكام إلى أبواب، ابتدأها بباب الوجوه التي يجب بها الميراث بين أهل الإسلام، وختمها بباب ميراث الخنثى (3).
 4. ترجمة الأبواب وتقسيمها لم يكن مطردا كذلك، فالغالب أنه يكتفي بسمى الباب وترجمته، مثلا: باب الحجب وتفسيره، باب ميراث الإخوة للأم، باب تعصيب النساء، باب ميراث المفقود...، غير أنه أحيانا يخرج عن هذا التقسيم، من ذلك قوله: (الباب الأول من العول - فصل وهو العول بالثلث - كتاب الولاء)، وأحيانا يترجم للموضوع، ولا يدرجه تحت باب ولا فصل ولا كتاب، كما فعل في موضوع: (القضاء في الادعاء)، استفتح به الجزء الرابع (4).
- ثالثا: الالتزام بتراجم الأبواب: التزم ابن المنمر بتراجم تقسيمات الكتاب خصوصا الأبواب، فيجمع مسائل كل باب حسب ما ترجم له، فلا يدخل فيه غيره، ويستوعب

(1) ينظر المرجع السابق: من صفحة 259 و261.

(2) ينظر المرجع السابق، الصفحات: 143 و227 و293 و355.

(3) ينظر المرجع السابق: من صفحة 75 حتى صفحة 418.

(4) ينظر المرجع السابق، الصفحات: 101 و114 و139 و155 و293 و337.

مسائله بذكر نقول العلماء، وما يضيفه من تعليقات وتوضيحات، خصوصا في مسائل العمل والحساب، كما أنه أحيانا يتعرض لمسألة في غير بابها، ثم يحيل إلى بابها لمزيد بحثها وبيانها، مثلا قوله: (وسنينه في وجوه الاختصار إن شاء الله- تذكر في باب الجد إن شاء الله - يأتي بعد هذا مشروحا إن شاء الله- ولا بن ليل في هذا المعنى قول حسن نذكره في إقرار الوارث بوارث)⁽¹⁾، وهذه السمة الغالبة في منهجه، وفي بعض الأبواب يخرج عن هذا المنهج، فيذكر مسائل لا علاقة لها بترجمة الباب، كذكره مسائل ميراث الأم للثالث الباقي بباب ميراث الإخوة للأب والأم⁽²⁾، كما أنه أحيانا يهمل بعض مسائل الترجمة، ومن ذلك: ترجم بابا بعنوان: (ميراث الحمل ومن أسلم من قبيلة ولا تعرف عصبته منهم)⁽³⁾، وبمطالعة مسائل هذا الباب تبين أنه لم يذكر فيه مسائل ميراث الحمل، ولا أقوال العلماء فيها، وهي من المسائل المعروفة في باب الفرائض، واختلاف العلماء في تعجيل قسمة التركة، أو تأجيلها حتى يستبين حال الحمل بالوضع، وطرق الاحتياط للحمل... الخ

المطلب الثاني: منهجه في نقل المسائل والاستدلال لها:

المتأمل في كتاب الكافي يلحظ منهج ابن المنمر في نقل المسائل والاستدلال لها، وبيان ذلك في فقرتين:

الفقرة الأولى: منهجه في نقل المسائل:

اعتمد ابن المنمر في جمع مادة الكتاب على النقل الحرفي من المصادر التي اعتمدها، وقد أكثر النقل عن الموطأ للإمام مالك، وكذلك عن المدونة لسحنون، وعن العتبية للعتبي، ويجد المطالع أبوابا كاملة نقلها ابن المنمر عن مصادره، وهذا ظاهر في غالب أبواب الجزئين الرابع والخامس، غير أن منهجه في بقية أجزاء الكتاب لم يكن مقتصرًا على النقل، بل جمع مع النقل التحليل والنقد والاستدراك، ويمكن استظهار منهجه في نقل مسائل الكتاب في النقاط التالية:

أولا: تصوير المسائل: يكثر ابن المنمر من تصوير المسائل بتوضيحها وذكر حدودها ومعاني

(1) ينظر المرجع السابق: 167 و 401 و 306 و 320.

(2) ينظر المرجع السابق: 116. وينظر أيضا: 121،

(3) ينظر المرجع السابق: 401.

كلماتها، وصورة وقوعها في واقع الناس، وكل ما يحررها عن غيرها، ويسهل الحكم فيها، وهي من الأمور المهمة التي تبني عليها الأدلة والأحكام، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وابن المنمر يكثر من ذلك، ويستعمل غالبا عبارة: (يريد)، وأحيانا: (وتفسير ذلك)، ومن نماذج تصويره للمسائل وتوضيحها:

1. (قال مالك: الأُمُّ الْمُجْتَمَعُ عَلَيْهِ عِنْدَنَا، وَالَّذِي أَدْرَكْتُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ بِلَدْنَا فِي فَرَائِضِ الْمَوَارِيثِ، أَنَّ مِيرَاثَ الْوَلَدِ مِنَ الْوَالِدِ، أَوْ وَالِدَتِهِمْ، أَنَّهُ إِذَا تَوَفَّى الْآبُ أَوْ الْأُمُّ، وَتَرَكَهَا وَلَدًا رَجُلًا وَنِسَاءً، فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ، فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مَا تَرَكَ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)، قال ابن المنمر: (يريد: لو أن رجلا توفي وترك ابنا فله المال، فإن كانوا جماعة بنين، فالمال بينهم بالسواء، وإن ترك بنين وبنات، فلبنت سهم، وللابن سهمان، فإن ترك المتوفى ابنة واحدة فلها النصف، وإن ترك ابنتين فصاعدا فلهن الثلثان، لا يزدن عليه، وما بقي للعصبة، فإن لم يكن عصبة فلهموالي، فإن لم يكن موالي فبيت مال المسلمين، فإن لم يكن بيت مال، تصدق به) (1)، ويلاحظ أن تصويره للمسألة، فيه توضيح وزيادة فائدة، رحمه الله تعالى.
 2. (قال مالك: الأُمُّ الْمُجْتَمَعُ عَلَيْهِ عِنْدَنَا، الَّذِي لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، وَالَّذِي أَدْرَكْتُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ بِلَدْنَا: أَنَّ مِيرَاثَ الْآبِ مِنْ ابْنِهِ أَوْ ابْنَتِهِ، أَنَّهُ إِنْ تَرَكَ الْمَتَوَفَّى وَلَدًا، أَوْ وَلَدَ ابْنٍ ذَكَرًا، فَإِنَّهُ يَفْرُضُ لِلْآبِ السُّدُسَ فَرِيضَةً)، قال ابن المنمر: (يريد: لو أن رجلا توفي وترك أبا وابنا، أو ابن ابن، فللأب السدس، وما بقي للابن، أو ابن الابن) (2).
 3. (قال مالك: فَإِنْ لَمْ يَتْرِكِ الْمَتَوَفَّى وَلَدًا وَلَا وَلَدَ ابْنٍ ذَكَرًا، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِمَنْ شَرَكَ الْآبَ مِنْ أَهْلِ الْفَرَائِضِ. فَيُعْطُونَ فَرَائِضَهُمْ. فَإِنْ فَضَلَ مِنَ الْمَالِ السُّدُسَ، فَمَا فَوْقَهُ كَانَ لِلْآبِ. وَإِنْ لَمْ يَفْضَلْ عَنْهُمْ السُّدُسَ فَمَا فَوْقَهُ، فَرُضَ لِلْآبِ السُّدُسُ، فَرِيضَةً)، قال ابن المنمر: (يريد: لو أن رجلا هلك وترك أبا وزوجة، فللزوجة الربع، وما بقي للأب، وإن تركت زوجا وأبا وابنتين، فلبنتين الثلثان، وللزوج الربع، ويفرض للأب السدس، لأن الذي بقي أقل من السدس، فتعول الفريضة بنصف السدس) (3).
- ثانيا: مناقشة المسائل: من منهج ابن المنمر في نقل الأقوال، أنه لا ينقلها ويلقيها على

(1) ينظر المرجع السابق: 104.

(2) ينظر المرجع السابق: 109.

(3) ينظر المرجع السابق: 109.

عواهنها، بل يتأملها، ويناقشها ويقيد مطلقها، ويحكم عليها، بما يرويه من الآثار، وبالقواعد والتعليل، ومن نماذج ذلك:

1. (قال ابن القاسم: في الأخوين يقران بأخ آخر، ولهما إخوة، يثبت نسبه بشهادتهما)، قال أبو الحسن: (يريد إذا كانا عدلين، ويكون وارثا وموروثا، فإن كانا غير عدلين، أو رجلا وامرأة، أو امرأتين، لزمهما ما بأيديهما من نصيب المقر له، ولم يلزم غيرهما من الورثة شيء، ولم يثبت له بذلك نسب) (1).

2. بعد أن ساق الخلاف بين ابن القاسم وأشهب في الفرق بين المنافق والزنديق، وأن ابن القاسم يرى أنهما سواء، وأن مال الزنديق لورثته، مستدلا بعمل النبي صلى الله عليه وسلم، بينما يرى أشهب أن المنافق ماله لورثته، بينما الزنديق ماله للمسلمين، وأنه يسن بأمواله سنة دمه. قال ابن المنمر مستدلا لقول أشهب: (لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، والناس لا يعلمون منهم ما يعلمه النبي، فلذلك ينكرون قتلهم...، ومع ذلك فإن الإمام لا يحكم بعله... ومما بين ذلك أن رواية ابن نافع أحسن من رواية ابن القاسم ما حدثنيه أبو الحسن علي بن محمد بن القاسبي...) (2).

3. نقل الخلاف فيمن شقت جوفه أو أنفذت مقاتله ثم مات له ولد قبل موته، هل يرثه؟ وأن ابن القاسم يرى أن من تأخرت وفاته يرث من تقدمت وفاته، فيرث في الأب ولده، ويرى سخنون أنه لا يرث ولده، لأنه في حكم الجنين الذي يتحرك ولا يستهل، وأن الميراث يدفع بالشك. قال ابن المنمر: قول ابن القاسم هو الصواب، إن شاء الله، لأن عمر رضي الله عنه نفذت مقاتله، وأجاز الناس وصاياه (3).

4. وفي مسألة استفادة الوارث من التركة بحكم نصيبه فيها، وفات بتصرفه فيه، ثم أقر بوارث، قال ابن المنمر: يضمن إذا كان عالما به قبل إقراره، وإلا فليس يلزمه شيء. قال ابن المنمر: (وقد قال بعض أصحابنا وبعض أهل الفرائض: إذا استفاده بحكم الحاكم لا يضمن، وإلا ضمن. وهذا فاسد، لأنه إن كان عالما بالثاني فسكت عنه عند الحاكم،

(1) ينظر المرجع السابق: 316.

(2) ينظر المرجع السابق: 408.

(3) ينظر المرجع السابق: بتصرف: 360 و361.

فلا يبرئه حكم الحاكم، وإن كان غير عالم به، فكيف يلزمه ضمان ما لم يتعمد تلفه(1).
ثالثا: تكملة المسائل وبيانها: ومن منهج ابن المنمر في نقل المسائل أنه يكمل ما اعترها من
نقص، أو يزيد في بيان حكمها، ومن أمثلة ذلك:

1. (قال مالك: ... أن تتوفى امرأة، وتترك زوجها، وأبويها، فيكون للزوج النصف، وللأم الثلث الباقي، وهو السدس من رأس المال)، قال ابن المنمر: (يريد: وللأب ما بقي)(2).
 2. (قال مالك: مضت السنة أن الإخوة اثنان فصاعدا)، قال ابن المنمر: (يريد: يحجبان الأم عن الثلث، فإن كان أخا واحدا، أو أختا فللأم الثلث كاملا)(3).
 3. قال مالك: فيمن ارتد في مرضه فقتل - قال ابن المنمر: يريد: أو مات، لم ترثه زوجته، ولا ورثه المسلمون - قال ابن المنمر: يريد: ولا الكافر، وميراثه للمسلمين(4).
- رابعا: توثيق المسائل: توثيق النقول تعزز صحة الحكم المنقول، وتؤدي حق الأمانة العلمية، وتحيل من يريد الاستزادة إلى مظانها، وقد التزم ابن المنمر بهذه المسألة، وأدى الأمانة فيها، فمن منهجه - رحمه الله - في نقل المسائل، أنها يوثقها في الغالب بنسبتها إلى قائلها، وأحيانا إلى المصدر التي اعتمد عليها، ويندر جدا أن ينقل قولاً دون توثيقه، والكتاب حافل بأعلام المالكية، وفيما يلي نماذج من توثيقه:

1. نماذج من التوثيق بنسبة القول إلى قائله: (قال مالك...)- (ومن قول مالك:..)-
(قال ابن القاسم:...) - (قال ابن مزين: ...)- (قال سخون: ...)- (قال ابن سخون:...)- (قال: علي بن زياد:...)- (قال: محمد بن المواز: ...)- (قال: يحيى بن عمر: ...)- (قال: أصبغ: ...)- (قال: عيسى بن دينار: ...)- (وذكر العتيبي عن سخون:...)-
(قال يحيى: سئل ابن القاسم عن ...)، والمؤلف - رحمه الله - يذكر العلم ولا يترجم له، وقد تولى المحقق - جزاه الله خيرا - ترجمة من وقف على ترجمتهم، وبقيت أعلام بلا ترجمة لعدم التعرف على المقصود منها(5).

(1) ينظر المرجع السابق: بتصرف: 324.

(2) ينظر المرجع السابق: بتصرف: 111.

(3) ينظر المرجع السابق: 111.

(4) ينظر المرجع السابق: 409.

(5) ينظر: حمزة أبو فارس - مقدمة كتاب الكافي: 36. والهامش الأول من صفحة: 312

2. نماذج من توثيق ابن المنمر بنسبة القول الذي ينقله إلى الكتاب، وهي قليلة جدا، ومن ذلك قوله: (والذي ذكرت لك في كتابي هذا هو في المجموعة، وسماع ابن حبيب، وغيرهما) - (وهو قول مالك في موطنه) - (معنى قول مالك في موطنه:...) (1).

الفقرة الثانية: منهجه في الاستدلال:

بتتبع نماذج من استدلالات ابن المنمر ومن صيغ التوثيق عنده سواء بنسبة القول إلى قائله، أو إلى الكتاب الذي اعتمده، تبين أنه لم يخرج منهجه في الاستدلال على ما عليه طريقة العلماء غير المجتهدين في اعتماد أقوال المجتهدين، واعتبارها في حكم النصوص، وعدم التجرؤ على نصوص الكتاب والسنة في استنباط الأحكام منها مباشرة، وإذا ذكروا نصوصا من الكتاب والسنة فيكون ذلك تبعا لما عليه مجتهدو المذهب، وتقليدا لهم، وهذا الأصل سار عليه ابن المنمر، وبيانه في الآتي:

أولا: منهجه في الاستدلال بأقوال مجتهد المذهب:

سبق القول أن منهج ابن المنمر في تبويب كتابه الكافي وجمع مادته، أنه يترجم للباب، ثم يجمع مسأله، ويذكر أحكامها، واعتمد في ذلك على نقلها في صورة أقوال كما وردت عن مجتهد المذهب، وأدلته في ذلك هي نقول مجتهد المذهب ذاتها، وعلى رأسهم إمامه الإمام مالك - رحمه الله -، ثم تلاميذه، فتلاميذ تلاميذه، وهذا المنهج عام في كتابه، طائفة به مسأله، فلا يستنبط حكما من آية ولا حديث، ولا يذكر نصا منهما إلا تأييدا لنقله، ولم أعثر له على موضع يرد فيه قول أحد مجتهد المذهب بآية أو حديث، وإن رأى وجها للرد، أيده بطريق الاختيار وفق أصول المذهب، وهذا المنهج مضطرد عند ابن المنمر في كل أبواب كتابه، ومن نماذج ذلك:

1. الاستدلال بنقول عن أئمة المذهب، واعتبارها حجة فيما ينقل، فمثلا في باب إقرار الورثة بوارث أو بدين على الميت، بين أحكام مسائل هذا الباب واستدل لها بنقول فقهية، استهلها بالآتي: (قال مالك... قال ابن القاسم... قال علي بن زياد... قال سخون... قال أصبغ... قال محمد بن المواز... وروى العتي عن سخون) (2).

2. ومن نماذج استدلاله بدواوين فقهاء المذهب: (قال أبو الحسن: ... وقد ذكر ابن شعبان

(1) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 271 و 311.

(2) المرجع السابق: 273 و 274 و 275.

في هذه المسألة عملاً غير هذا، وقال: هذا على مذهب مالك.. والذي قال هو قول أهل العراق، والذي ذكرت لك في كتابي هذا هو في المجموعة، وسماع ابن حبيب، وغيرهما (1).

3. ومن نماذج تصويباته لآراء علماء المذهب، أن ابن حبيب في باب الوصية بالنصيب وثلاث ما بقي أو إلا ثلاث ما بقي، ذكر مسألة الموصي فيها أوصى لشخص بمثل نصيب أحد بنيه، وهم أربعة، ولآخر بثلاث ما يبقى من الثلث، فرضاً أن الموصي قال: إلا ثلاث ما يبقى من الثلث، فأجرى عملياتها الحسائية، وختم ابن حبيب قوله: وهذا تفسير قول مالك. عقب ابن المنمر بقوله: (وهذا الذي ذكر ابن حبيب صحيح...) (2).

4. ومن نماذج رد بعض الأقوال بأقوال أخرى، ما نقله عن رد قول ابن القاسم بقول سخنون، ففي امرأة هلك زوجها فادعت أن زوجها أقر بأن فلانا ابنه... قال ابن القاسم: فإن لم يكن له ولد ردت إلى الثمن، والثمن الآخر يكون بين ورثة زوجها. اعترض ابن المنمر على ذلك، وبني اعتراضها بنقل قول سخنون، ونصه: (قال سخنون: إن الثمن بين ورثة الميت خطأ، ولا سمعت أحداً من أصحابنا يقوله، وإنما هو للولد أو المستلحق وحده) (3).

5. ومن نماذج ذبه على أهل المدينة، الذي يرجع إليهم المذهب المالكي بإمامه وأصوله، قال رحم الله في مسألة سئل عنها سخنون: فيها رجل توفي عن ابنتين، فأقر أحدهما بابنتين معاً، وصدقه الآخر في أحدهما، وبعد أن بين ابن المنمر جواب سخنون بالعمل، قال: (وقد قال أهل العراق في هذه المسألة قولاً نسبوه إلى أهل المدينة، وليس كما قالوا، وهكذا أهل العراق يحكون أبداً عن أهل المدينة ما لم يقولوه، وينسبون إليهم ما لم يعتقدوه) (4).

6. وسيأتي منهجه في الاستدلال بالأصول الكلية للمذهب، بالبند الموالي لهذا البند، بإذن الله.

ثانياً: منهجه في الاستدلال بأصول المذهب المالكي:

(1) المرجع السابق: 271.

(2) المرجع السابق: 273.

(3) المرجع السابق: 310 و311.

(4) المرجع السابق: 318.

لهذه الأهل الإسلامية أصول متفق عليها في الاعتبار والترتيب، وهي الكتاب، والسنة، والإجماع، وانفرد الفقه المالكي باعتبار عمل أهل المدينة، وعدوه من الحديث المتواتر فيما مجاله النقل لا الرأي، وقدموه على خبر الآحاد، واعتمدوا لأنفسهم ترتيباً في اعتبار بقية الأدلة الأخرى وتقديم بعضها على بعض، كالقياس، وقول الصحابي، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع... وآخرها مراعاة الخلاف⁽¹⁾، ولم يخرج ابن المنمر عن هذه الأصول، ومع ذلك فهو لا يستدل بها بمقتضى اجتهاده، ولكن بمقتضى اختياراته القائمة على تقديمه بعض أقوال مجتهد المذهب على بعض، وفيما يلي نماذج من استدلالاته:

1. استدلاله بالقرآن الكريم: خصص ابن المنمر باباً ترجم له ب (ذكر الفرائض في كتاب الله عز وجل)، واستهله بقول مالك عن ربيعة: (من تعلم الفرائض بغير علم بها من القرآن، فما أسرع ما ينساها)، ثم شرع ابن المنمر في بيان الفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، وهي: الثلثان، والثلث، والسدس، والنصف، والربع، والثلث، ثم ذكر مواضعها في كتاب الله تعالى، ثم بين أصحابها، مستدلاً لكل فرض بما ورد بشأنه من القرآن الكريم، فمن ذلك قوله: فالثلثان في موضعين، أحدهما للبنات، وذلك قوله: {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ} [النساء: 11]، والآخر للأخوات، وذلك قول الله عز وجل: {فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ} [النساء: 176]⁽²⁾.
2. استدلاله بالسنة: ومن نماذج ذلك أنه ذكر حديث البخاري الذي رواه في كتاب الفرائض- باب ميراث ابنة ابن مع ابنة، وفيه قضاء ابن مسعود رضي الله عنه في مسألة عرضت عليه، فيها: بنت، وبنت ابن، وأخت، قال: أقضي فيها بما قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، (للبنات النصف، ولبنات الابن السدس تكلمة الثلثين، وما بقي فلأخت). قال ابن المنمر: (فقد ثبت بهذا الحديث الثلثان للابنتين، وتوريث ابنة الابن، وتعصيب الأخوات مع البنات)⁽³⁾، ويلاحظ أن استدلاله بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ليس من باب الاستنباط بل من باب التقرير.
3. استدلاله بعمل أهل المدينة: من المعلوم أن الرد على ذوي الفروض، وتوريث ذوي الأرحام من مسائل الخلاف في الموارث، وأن المتقدمين من المالكية يرون أن التركة

(1) ينظر: القرافي: شرح تنقيح الفصول: 445.

(2) ينظر: المرجع السابق: 85.

(3) ينظر المرجع السابق: 90.

أو الباقي منها يؤول إلى بيت المال، وابن المنمر رحمه الله مع أنه من المتأخرين، إلا أنه أيد قول المتقدمين، واحتج في ذلك بعمل أهل المدينة، قال بعد أن نقل قول مالك: «الأمُّ المُجتمَعُ عليه عندنا، الذي لا اختلاف فيه، والذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، أن ابن الأخ للأم، وأجد أبا الأم، والعم أخا الأب للأم، وأخال، وأجد أم أبي الأم، وأبنة الأخ للأب والأم، والعممة، وأخاله، لا يرثون بأرحامهم شيئاً»⁽¹⁾، قال ابن المنمر: (فأهل العلم الذين أدرك مالك هم التابعون، فيبعد أن يجهلوا السنن مع قرب عهدهم من الرسول -عليه السلام-، وجمهور الصحابة، ويعلمها غيرهم ممن لم يكن بينهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم ينزل عليهم الوحي، إلا أن يقول زائع: إنهم علموا ذلك وخالفوه، ولا يظن بهم هذا سليم الدين)⁽²⁾.

4. استدلاله بالإجماع: ذكر ابن المنمر أن الورثة من الذكور والإناث منهم من يرث بكتاب الله تعالى، ومنهم من يرث بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يرث بإجماع الأمة، ثم بين فرض كل وارث ودليله، وذكر بأن الأمة أجمعت على توريث الجد للأب، وأنه قام مقام الأب في التسمية بالإجماع⁽³⁾.

5. استدلاله بالقياس: اعتبار القياس مصدراً من مصادر الفرائض محل خلاف بين العلماء، فمنهم من اعتبره، بحجة أن أغلب النصوص الواردة بشأنها في الكتاب والسنة وردت عامة مبنية على القياس وإلحاق النظير بالنظير، ومنهم من منع ذلك وأنه لا مجال للقياس فيها، لعدم وجود ما يدل على علة أحكامها⁽⁴⁾، ويظهر أن ابن المنمر يأخذ بالقول الثاني، وآية ذلك أنه لما ذكر الأسباب التي يجب بها الميراث بين أهل الإسلام، وهي القرابة والزوجية والولاء، وبين من يرث بهذه الأسباب، وهم خمسة وعشرون وارثاً من الذكور والإناث، قال: (فمن هؤلاء المذكورين من يرث بكتاب الله تعالى، ومنهم من يرث بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومنهم من يرث بإجماع الأمة)، ولم يذكر القياس ولا غيره من أدلة الأحكام، فدل على أنه لا يأخذ به في أحكام

(1) رواه مالك في الموطأ: كتاب الفرائض - باب من لا ميراث له.

(2) ينظر: ابن المنمر - الكافي: 98 و99.

(3) ينظر: المرجع السابق: 89.

(4) ينظر: ابن العربي - أحكام القرآن: 331/1، وابن عبد البر - التمهيد: 410/10، ومقدمة كتاب المدد الفاضل في خلاصة

علم الفرائض، د. مصطفى طابله: 21 و22.

الفرائض⁽¹⁾.

6. الاستدلال بعمل الصحابة: المعلوم من مذهب الإمام مالك فيما اشتهر عنه أن قول الصحابي المجتهد وعمله فيما للرأي فيه مجال حجة في حق غير الصحابة، كالتابعين ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين، وبالموطأ تطبيقات كثيرة في مسلك أخذ الإمام مالك بهذا الدليل⁽²⁾، ولم يخرج ابن المنمر رحمه الله عن مسلك إمامه، ما لم يعارضه أصل أقوى منه كعمل أهل المدينة، ومن نماذج استدلاله بقول الصحابي: قال مالك في مسألة امرأة هلكت وتركت: زوجها، وأمها، وإخوتها لأبها، وإخوتها لأبيها، وجدها، قال: لزوجها النصف، ولأمها السدس، والباقي للجد، لأن الجد يقول: لو لم أكن كان للإخوة لأم الثلث. قال ابن المنمر: الصواب ما روي عن زيد بن ثابت أن للجد السدس، وللإخوة لأب ما بقي، وهو السدس⁽³⁾. وقوله أيضا: قال مالك: ولا يؤخذ إلا بقول قائلين، وقال ابن القاسم: يؤخذ بقول واحد إن كان عدلا. ورح ابن المنمر قول ابن القاسم، وقال: قد دعا عمر بن الخطاب قائفا واحدا، وأخذ بقوله في الولد المشترك⁽⁴⁾.

المبحث الثاني: الخصائص العلمية للكتاب

توطئة:

تميز كتاب الكافي في الفرائض لابن المنمر الطرابلسي بعدد من الخصائص إضافة إلى كونه أقدم المصادر التي وصلت إلينا في باب، خصوصا في المذهب المالكي، وأنه يمثل مصدرا موسعا في علم الموارث لما اشتمل عليه من وفرة في مادته العلمية المحيطة بجوانب فقه الميراث وحساب المسائل، وما يرتبط بهما من عمل وأحكام، وأحاول في هذا المبحث بيان بعض خصائص كتاب الكافي في مطلبين، الأول: في مصادر الكتاب وأثره في غيره،

والثاني: الخلاف في الكتاب واختيارات ابن المنمر.

المطلب الأول: مصادر الكتاب، وأثره في غيره.

مصادر كل مصنف علامة على قيمته العلمية، ومكانة مؤلفه ورسوخه في العلم، وهي تربط الحاضر بالماضي، وتشير إلى تراث الأمة وتبعث للبحث على ما فقد منها، ولبیان

(1) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 98 و99.

(2) ينظر: القرافي- شرح تنقيح الفصول: 445، وابن جزى- تقريب الوصول: 184.

(3) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 124 و125.

(4) ينظر: المرجع السابق: 295.

مصادر ابن المنمر أقسم هذا المطلب إلى ثلاث فقرات، أبين في الأولى مصادر كتاب الكافي الفقهية، وفي الثانية مصادره غير الفقهية، ومنهج ابن المنمر في الاستفادة منهما، والثالثة في أثر كتاب الكافي في غيره.

الفقرة الأولى: المصادر الفقهية لكتاب الكافي:

اعتمد ابن المنمر -رحمه الله- على أمهات الفقه المالكي، وقد صرح ببعضها عند توثيق أقواله، بقوله: (والذي ذكرت لك في كتابي هذا هو في المجموعة، وسماع ابن حبيب، وغيرهما)⁽¹⁾، كما جاء ذكر بعضها في خاتمة بعض نسخ كتابه: (تم الكتاب الثالث من الكافي في الفرائض والحساب على مذهب دار الهجرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، مجموع من الموطأ للإمام مالك -رضي الله عنه-، والمدونة، والعتبية، وغيرها من كتب أصحاب مالك...)⁽²⁾، وبتتبع نقول المؤلف تبين أنه -رحمه الله- اعتمد على عدد من أمهات مصادر في الفقه المالكي، وأهم دواوينه المتقدمة، وفيما يلي بيانها، ومنهج ابن المنمر في الاستفادة منها⁽³⁾:

أولاً: مدونة سخون وتهذيبها للبراذعي:

مدونة سخون، أصل الفقه المالكي وعمدته، وهي مجموعة من الأسئلة والأجوبة عن مسائل فقهية وردت للإمام مالك، رواها عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسخون (240هـ) عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي (191هـ) عن الإمام مالك بن أنس، رحمهم الله جميعاً، وهذبها خلف بن أبي القاسم محمد، الأزدي القيرواني، أبو سعيد ابن البراذعي المالكي (ت372هـ) بكتابه المعروف بـ (التهذيب في اختصار المدونة)، قصد فيه مؤلفه تيسير فهم عبارة المدونة وتقريب مسألتها، وتحيص رواياتها المتعددة، وسماعاتها المختلفة، وجمع ما تفرق منها، وترتيب ما تناثر واختلط، وتميز منهج ابن المنمر في النقل من هذين المصدرين، بالآتي:

(1) ينظر: ابن المنمر -الكافي: 271.

(2) ينظر: المرجع السابق: الهامش: 291/2.

(3) أذكر الموطأ ضمن مصادر ابن المنمر غير الفقهية، المخصص لها الفقرة الثانية من هذا المطلب، لأمرين، الأول أن الموطأ كتاب حديث وفقه، والثاني للتوازن الكمي بين الفقرتين.

1. صرح ابن المنمر بالأخذ من المدونة، ونقل عنها في مواطن كثيرة من كتابه⁽¹⁾، ومنهجه في الاعتماد عليها يقوم على نقل عبارة المدونة أحياناً بالنص وأحياناً بالمعنى، ونقله لا يكون حشواً ولا تزيدياً، بل لتخريج أثر، أو تأكيد قول، أو زيادة وجه، أو الاستدلال للحكم، ومن نماذج ذلك: قوله: (أن عمر - رضي الله عنه - قال: لا نرث أهل الملل، ولا يرثونا)⁽²⁾، وقوله ابن شهاب ومكحول وربيعة)⁽³⁾، وقوله: (عن الشعبي أن مولى لبنت حمزة بن المطلب مات، وله بنت، فقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ميراثه بين ابنته وبين بنت حمزة نصفين)⁽⁴⁾، وقوله: (وقال مالك في أهل الذمة إذا تظالموا بينهم في مواريتهم: لا نحكم بينهم إلا أن يرضوا بذلك، فيحكم بينهم بحكم الإسلام)⁽⁵⁾.

2. وأما اعتماده على تهذيب المدونة فلم يصرح به، ولم يذكر مؤلفه ضمن الأعلام الذين نقل عنهم، لكن لما رأيت المحقق الدكتور حمزة أبو فارس يوثق بعض نقول ابن المنمر من التهذيب، وبتتبع مواضع من نقول ابن المنمر ومقارنتها بعبارة التهذيب، وجدت العبارة متطابقة، وفي ذات الوقت هي غير موجودة بلفظها بالمدونة، ولا في العتبية مع البيان والتحصيل، فترجح لي أن ابن المنمر رجع إليها مباشرة، دون وسيط، ومنهجه في الاستفادة منها لا يخرج عن منهجه في الاستفادة من المدونة، ومن نماذج ذلك: قوله: (والمطلقة في المرض لو تزوجت أزواجاً كل يطلقها في مرضه، لورثت كل من مات منهم، وإن كانت الآن تحت زوج)⁽⁶⁾، وقوله: (وإذا قامت بينة بالقتل العمد، وله بنون وبنات، فإن عفا البنون على الدية دخل فيها النساء، وكانت على فرائض الله)⁽⁷⁾، وقوله: (قال مالك: وإذا ماتت المرأة بعد التعان الزوج،

(1) ينظر: ابن المنمر - الكافي: الهامش: 291/2.

(2) ينظر: المرجع السابق: 396. وعبارة المدونة: (وَلَقَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: لَا نَرِثُ أَهْلَ الْمِلَلِ وَلَا يَرِثُونَا). ينظر: سخون - المدونة: 567/2.

(3) ينظر: المرجع السابق: 88. ورد كلامه في سياق تأكيد ما روي عن النبي عن بيع الولاء وهبته وصدقته، وأنه كالنسب. وعبارة المدونة: (وَقَالَ ابْنُ شَهَابٍ وَمَكْحُولٌ وَرَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ). ينظر: سخون - المدونة: 572/2.

(4) ينظر: المرجع السابق: 92. وسخون - المدونة: 590/2.

(5) ينظر: المرجع السابق: 414. وعبارة المدونة: (قُلْتُ: أَرَأَيْتَ أَهْلَ الذِّمَّةِ إِذَا تَظَالَمُوا فِي مَوَارِيثِهِمْ هَلْ تَرُدُّهُمْ عَنْ ظُلْمِهِمْ فِي قَوْلِ مَالِكٍ؟ قَالَ: لَا يُعْرَضُ لَهُمْ، قُلْتُ: وَنَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: إِذَا رَضُوا بِذَلِكَ حَكَمْتُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ). ينظر: سخون - المدونة: 598/2.

(6) ينظر: المرجع السابق: 375. وهي ذاتها عبارة تهذيب المدونة. ينظر: البراذعي - تهذيب المدونة: 362/2.

(7) ينظر: المرجع السابق: 357. وعبارة تهذيب المدونة: (وإذا قامت بينة بالقتل عمداً، وللمقتول بنون وبنات، فعفو البنين جائز على البنات، ولا أمر لهن مع البنين في عفو ولا قيام، فإن عفوا على الدية دخل فيها النساء، وكانت على فرائض الله عز وجل، وقضي منها دينه). ينظر: البراذعي - تهذيب المدونة: 605/4.

أو بعد أن بقي من لعانها مرة واحدة، ورثها، وإن مات الزوج بعد التعانه، قيل للمرأة: التعني، فإن أبت، ورثته ورجمت، وإن التعنت لم ترثه⁽¹⁾.
ثانيا: الواضحة في الفقه والسنن:

لعبد الملك بن حبيب القرطبي (ت238هـ)، رتبها على أبواب الفقه، يأتي بترجمة الباب، ويورد أحاديث بسنده، ثم يتولى شرح بعض الألفاظ الواردة في الحديث، ويورد الأحكام والاختيارات، وكانت عند أهل الأندلس المعتمد في التفقه والتنظير، قبل أن يتحولوا عنها إلى العتبية، وهي من الكتب المفقودة، إلا أجزاء منها في الطهارة والوضوء، وجزء كبير من مسائلها محفوظ بكتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني، وقد اعتمدها ابن المنمر وعدها ضمن مصادر كتابه الكافي⁽²⁾، غير أنه لم يصرح باسم الواضحة إلا مرة واحدة وليس باسمها وإنما ب (سماع ابن حبيب)، والسماع مضاف للواضحة، وجزء منها⁽³⁾، وكان تصريحه ليس من باب التوثيق منها، وإنما في معرض بيان مصادره، ونقوله عن ابن حبيب، بل ذكر في بعض مسائل الوصية أنه لم يتكلم فيها أحد من أصحاب مالك غير ابن حبيب خاصة⁽⁴⁾، غير أنه ينقل رواية يظهر أنها من الواضحة، قال ابن المنمر: (وروى ابن حبيب عن ابن شهاب، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: المولى أخ في الدين ونعمة، فأولى الناس بهم أقربهم بالمعق. قال عبد الملك: ولذلك لم ينبسط ميراث الولاء انبساط ميراث القرابة في اقتسامه على الفرائض)⁽⁵⁾، نخلص إلى صعوبة الجزم بأن ابن المنمر نقل عن الواضحة مباشرة أم بواسطة، لكن القدر المتيقن أن كتاب الواضحة إحدى مصادر كتابه الكافي، لكثرة نقله فيه عن ابن حبيب، بل إن بعض أبوابه كانت عبارة عن نقول عن ابن حبيب⁽⁶⁾، ومنهجه في النقل عن ابن حبيب له ملامح عدة، منها أنه يعلل بقول ابن حبيب، ويبين به وجوه المسألة التي نقلها، وأحيانا ينتقد قول ابن حبيب ولا يسلم قوله، وغير ذلك من وجوه التحليل والنقد والحكم، ومن ذلك: أنه نقل قول ابن

(1) ينظر: المرجع السابق: 383. وهي ذاتها عبارة تهذيب المدونة: ينظر: البراذعي- تهذيب المدونة: 338/2.

(2) المرجع السابق: 271، وينظر: الجيدي- مباحث في الفقه المالكي بالمغرب: 69.

(3) قال ابن أبي زيد القيرواني: (والكتب المسماة الواضحة والسماع المضاف إليها المنسوبة إلى ابن حبيب). ينظر: ابن أبي زيد القيرواني- النوادر والزيادات: 10/1، وابن المنمر- الكافي: 271.

(4) المرجع السابق: 275.

(5) المرجع السابق: 343. والحديث رواه الدامي (3049)، وقال محققه حسين الداراني: إسناده صحيح.

(6) باب الوصية بالنصيب وتلت ما بقي أو إلا تلت ما بقي. ينظر: المرجع السابق: 273 حتى 275.

القاسم: (فإن ضرب الزوج بطن امرأته، فألقت جنينا ميتا، فالغرة للأم، ولمن ترك الجنين من عصابة، ولا يرث الأب فيها، ولا يحجب، ويرثها من سواه)⁽¹⁾، فهذا القول المجمل أعقبه ابن المنمر بقول ابن حبيب، الذي بين مجمله، وفصل وجوهه، ونصه: (قال ابن حبيب: لأنه قاتل، ولا يحجب، وهي مورثة على كتاب الله، فإن لم تكن للجنين إخوة فللأم الثلث، وما بقي للعصابة، وإن كان للجنين إخوة فليس للأم إلا السدس، وما بقي فللإخوة، إلا أن يكونوا إخوة لأم فقط، فيكون لهم الثلث، وما بقي فللعصابة من قبل الأب، فإن لم يكن عصابة من قبل أبيه فما بقي لجميع المسلمين)⁽²⁾، ومن نقده لقول ابن حبيب، وعدم تسليمه له، أنه نقل عن ابن حبيب مسألة الوصية بمثل نصيب أحد الورثة: (قال ابن حبيب: وإذا كان بنوه أربعة، فقال: فلان وارث معهم، ولفلان ثلث ما بقي من الثلث...)، ثم عقب ابن المنمر: (فذكر في ذلك أعمالا، زعم أنها تفسير قول مالك، وليس كما قال، لأنه ساوى بين المورث والورثة، وأدخل عليه الضرر مع الورثة...)، ثم بين وجه الصواب، فقال: (ووجه العمل في ذلك...)⁽³⁾.

ثالثا: كتاب الموازية:

وهي لمحمد بن إبراهيم بن زياد الأسكندري، المعروف بابن المواز، (ت269هـ)، وهو كتاب فقهي اعتنى فيه مؤلفه ببناء فروع أصحاب المذهب على أصوله، وهو من أجل كتب المالكية، وأصحها مسائل، وقد اختفى عن أنظار الدارسين، ولم يبق منه إلى قطع ورقية صغيرة، لكن الجزء الأكبر منه محفوظ في كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد⁽⁴⁾، وقد اعتمد ابن المنمر الموازية ضمن مصادر كتابه الكافي، لكنه لم يسمها باسمها، وإنما نقل عن مؤلفها في مواضع عدة، ولكن ليست بالكثرة كالمدونة والعتبية، ويسند القول في الغالب إلى مؤلفها، يقول: (قال ابن المواز، قال محمد، قال محمد بن المواز)⁽⁵⁾، ومنهجه في النقل عنه لا يختلف عن منهجه في النقل عن بقية مصادر الفقهية، فهو يأتي بالنقل لوجوه عدة، وأغلبها لبيان الحكم، وأحيانا للتعقيب على حكم سابق، بالرد أو التقييد أو زيادة وجه... الخ، ومن نماذج نقله لبيان حكم: (قال ابن المواز والمدبر في المرض، ومن أوصى

(1) ابن المنمر- الكافي في الفرائض: 363.

(2) المرجع السابق: 363.

(3) المرجع السابق: 274.

(4) ينظر: الجيدي- مباحث في الفقه المالكي بالمغرب: 72.

(5) ينظر: ابن المنمر- الكافي: الصفحات: 230، 310، 311.

لقوم بثلثه، قم قتل خطأ، فإن اختلست نفسه، ولم تعرف له...حياة، في تدخل الوصايا في ديته، وإن كان معه-بعد الضرب- عقله ما يعرف بهما هو فيه، فلم يغير وصاياه، فإنما تدخل في ديته⁽¹⁾، ومن نماذج نقل ابن المنمر عن ابن المواز لزيادة وجه في المسألة، قوله: (قال محمد بن المواز: وقال غيره عن مالك: يدفع ما يؤخذ من المقر إلى المقر له خاصة. قال محمد: وبه نأخذ، وهو قول مالك في الموطأ، وعليه جماعة من أصحابه...)⁽²⁾.

رابعا: العتبية أو المستخرجة:

وهي لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي (ت 254هـ)، ولذلك تسمى بـ (العتبية) نسبة إليه، وتسمى بالمستخرجة لأن مؤلفها استخرجها من الأسمعة التي رويت عن الإمام مالك بواسطة تلاميذه وتلاميذهم، وأغلبها من سماع ابن القاسم العتقي وأشهب وابن نافع عن مالك، ومن سماع عيسى بن دينار وسخنون وغيرهما عن ابن القاسم، وقام بالجمع بين رواياتها وتهذيبها ابن رشد في كتابه البيان والتحصيل، وقد اعتمدها ابن المنمر ضمن مصادره، وأكثر من النقل عنها أكثر من المدونة وتهذيبها، وقد صرح ابن المنمر في كتابه أنها من مصادره⁽³⁾، وهذا يدل على أنه رجع إليها مباشرة ونقل عنها دون وسيط، ومنهجه في النقل منها لا يختلف عن منهجه في النقل من المدونة وغيرها من المصادر التي سبق ذكرها، فهو يأتي بالنقل لوجوه عدة، وأغلبها لبيان الحكم، وأحيانا للتعقيب على حكم سابق، بالرد أو التقييد أو زيادة وجه...الخ، والغالب أنه ينقل نص العتبية بمعناه، ويتدخل في بعض العبارات بالتغيير والتأخير والتقديم، ومن نقله لبيان الحكم، مع النقل بالمعنى: (مالك: وأما قوم تحملوا، فإن كان لهم عدد وكثرة فإنهم يتوارثون، وكذلك الحصن يفتح، قال: وإن كانوا لا عدد لهم فإنهم لا يتوارثون بذلك، إلا أن تقوم بينة عادلة على الأصل... قال ابن القاسم وأصبغ: وأرى العشرين عددا يتوارثون، وأما اليسير مثل السبعة والثمانية فلا أرى أن يتوارثوا، وقال سخنون: ولا أرى العشرين يتوارثون⁽⁴⁾، ومنه كذلك: نقله لبيان حكم من

(1) المرجع السابق/ 230 و231. والعبارة فيها غموض، ووردت بالمعنى في مواضع من كتاب النوادر والزيادات. ينظر:

ابن أبي زيد القيرواني- النوادر والزيادات: 197/2، و398/11 و405.

(2) ابن المنمر- الكافي: 311. وهذا القول أورده ابن المنمر للرد على أصبغ، أن قول مالك في رجل هلك وترك أمه وأخاه، فأخذت الأم الثلث، ثم ادعت أخا آخر للبيت، فيكون لها السدس، وترد السدس، فيكون بين المستلحق والأخ الوارث. فرده ابن المواز، وذكر أن للإمام مالك قولاً آخر، وهو قوله في الموطأ، وعليه الجماعة من أصحابه.

(3) ينظر: ابن المنمر- الكافي: الهامش: 291/2.

(4) ينظر: المرجع السابق: 402، وعبارة العتبية: (قال ابن القاسم: وقال لي مالك: لو أن أهل حصن أسلبوا أو جماعة لهم

أوصى بنصيب أحد بنيه أو ورثته: (وإن كان ورثته ولده فقط، فسهم من عدد سهامهم، مثل أن يكونوا ابنين وابنتين، فله سهم من ستة، فعلى هذا فاحسب، قلوا أو كثروا، قال: فإن لم يكن له وارث، فله سهم من ستة)⁽¹⁾، ومنه: (سئل ابن القاسم عن نصراني هلك وأوصى بجميع ماله في الكنيسة، ولا وارث له؟ قال: يدفع إلى أسقفهم ثلث ماله، فيجعل حيث أوصى، ويكون ثلثاه للمسلمين)⁽²⁾.

خامسا: المجموعة:

كتاب المجموعة من الكتب المعتمدة في مذهب الإمام مالك وأصحابه، وهو من تصنيف الإمام محمد بن إبراهيم بن عبدوس، من كبار أصحاب سخنون، كان حافظاً لمذهب مالك والرواة من أصحابه، إماماً مبرزاً، صنف تأليف عدة، منها كتابه المجموعة، وقد أجملته المنية قبل اتمامه، وهو أشهر مؤلفاته، وأكثرها تداولاً في المذهب، واعتبر خامس دواوينه، لما تميز به من صحة النقل، وجودة العبارة، وقد وُصف بأنه (كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه)، وابن المنمر اعتمد المجموعة ضمن مصادر كتابه، وسماها باسمها، وذكر بأن كتابه مجموع من كتب المالكية المعتمدة، وأن الأقوال الواردة به منقولة عن المجموعة، وسماع ابن حبيب، وغيرهما من كتب المالكية المعتمدة⁽³⁾، غير أنني لم أعثر على نقل لابن المنمر عن ابن عبدوس، ولا عن كتابه المجموعة، مع طول مطالعة ونظر في متن الكتاب، وتعليقات المحقق، خصوصاً في الأعلام الذين نقل عنهم ابن المنمر، وتعليقات المحقق، وهنا تظهر أهمية الفهارس للكتب المحققة، خصوصاً منها فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والإعلام والكتب الواردة بالنص المحقق، ولعل الله ييسر إلحاقها بطبعات الكتاب اللاحقة.

الفقرة الثانية: المصادر غير الفقهية لكتاب الكافي:

عدد فتحملوا إلى بلد المسلمين، رأيت أن يتوارثوا بأنسابهم؛ وأما النفر اليسير مثل الثمانية والسبعة، فلا أرى = أن يتوارثوا، قال ابن القاسم: والعشرون عندي عدد يتوارثون، قال سخنون: لا أرى العشرين عدداً يتوارثون). ينظر: ابن رشد- البيان والتحصيل: 228/14.

(1) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 269. وعبارة العتبية مع البيان: (وإن كانت ورثته أولادا فقط، فإن كان رجلاً وابنة أعطى سهماً من ثلاثة، وإن كان رجلاً وامرأتين فسهم من أربعة، وإن كانا رجلين وامرأتين، فسهم من ستة أسهم، فعلى هذا فاحسب، قلوا أو كثروا، وإن لم يكن إلا ولداً واحداً، فله سهم من ستة؛ لأنه أدنى ما يقوم منه سهم أهل الفرائض). ينظر: ابن رشد- البيان والتحصيل: 124/13.

(2) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 415. وهي متفقة مع عبارة العتبية مع البيان. ينظر: ابن رشد- البيان والتحصيل: 327/13.

(3) ينظر: المرجع السابق: 271.

اعتمد ابن المنمر مصادر أخرى غير التي ذكرت بالفقرة السابقة، وفيما يلي بيان بمصادر ابن المنمر غير الفقهية، ومنهجه فيها:

أولاً: كتاب الموطأ:

وهو للإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ)، وهو كتاب المذهب الأول، وقد جمع فيه بين الفقه والحديث، وبناه على تمهيد الأصول للفروع، وله روايات عدة، اشتهرت عند المغاربة رواية يحيى بن يحيى الليثي (ت 234 هـ)، وتميز منهج ابن المنمر في النقل من الموطأ بالآتي:

1. نقل منه جُلّ مقدمة الكتاب، وكل أبواب أحكام الفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، وأصحابها، والإرث بالتعصيب، والحجب عن الميراث، كما نقل منه كتاب الولاء بأبوابه الأربعة، وأغلب آخر أبواب الكتاب: ابتداء من باب ميراث الجنين، حتى باب ميراث الخنثى⁽¹⁾.

2. لا يعزو عند نقله من الموطأ إلى الكتاب ولا إلى الباب، وإذا كان المنقول من كلام الإمام مالك، صدره بـ (قال مالك)، وإن كان من روايته صدره بـ (مالك)، ويذكر سنده، وهذا المنهج اعتمده في كل نقوله عن الموطأ مع كثرتها، فلم يخالفه، ومن نماذج ذلك: (قال مالك: الأَمْرُ الْمُجْتَمَعُ عَلَيْهِ عِنْدَنَا، أَنَّ الإِخْوَةَ لِلْأُمِّ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْوَلَدِ، وَلَا مَعَ وَلَدِ الأَبْنَاءِ ذُكْرَانًا كَانُوا أَوْ إِنَاثًا شَيْئًا)⁽²⁾، (مالك، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، عَنِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَتَيْنِ مِنْ هَذِيلٍ رَمَتِ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، فَطَرَحَتْ جَنِينَهَا، «فَقَضَى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَغْرَةَ عَبْدِ أَوْ وَلِيدَةَ»⁽³⁾).

3. يختصر في الغالب عبارة الموطأ من أجل إبراد موطن الشاهد من النقل، واختصاره على وجوه: منها: الاختصار في السند، وفي أسماء الرواة ومثاله: (مالك، عَنِ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَانَ «لَا يَفْرِضُ إِلَّا لِلْجَدَّتَيْنِ»، وفي الموطأ: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ)⁽⁴⁾، ومنها ذكر المتن بالمعنى، ومثاله: (قال

(1) ينظر: المرجع السابق: من صفحة: 57 حتى 83، ومن صفحة: 104 حتى 140، ومن صفحة: 337 حتى: 418.

(2) ينظر: المرجع السابق: 114.

(3) ينظر: المرجع السابق: 362.

(4) ينظر: المرجع السابق: 132. وينظر تنبيه المحقق بالهامش الثاني من ذات الصفحة.

مالك: فإن وجدتهم كلهم يلقونها إلى أب واحد، كلهم يجمعهم أب واحد، فانظر أقعدهم في النسب، فإن كانوا بني أب واحد فقط، أو بني أب وأم كلهم، فاجعل الميراث بينهم بالسواء)، وفي الموطأ: (فإن وجدت أحداً منهم يلقي المتوفى إلى أب لا يلقاه أحد منهم إلى أب دونه. فاجعل ميراثه للذي يلقاه إلى الأب الأدنى، دون من يلقاه إلى فوق ذلك. فإن وجدتهم كلهم يلقونه إلى أب واحد يجمعهم جميعاً، فانظر أقعدهم في النسب. فإن كان ابن أب فقط، فاجعل الميراث له دون الأطراف. وإن كان ابن أب وأم. وإن وجدتهم مستوين، [ص:518] ينتسبون من عدد الآباء إلى عدد واحد. حتى يلقوا نسب المتوفى جميعاً، وكانوا كلهم جميعاً بني أب، أو بني أب وأم. فاجعل الميراث بينهم سواءً) (1).

4. يعقب ابن المنمر في الغالب على كلام الموطأ المنقول، بزيادة بيان، أو تقييد، أو تعليل، أو زيادة وجه، أو غير ذلك من وجوه التعقيب، وتعقيبه يكون بنقل آخر من أحد مصادرهم، أو من كلامه هو وإنشائه، ومثال ذلك: (قال مالك: وأحب إلي أن يرث من ماله، ولا يرث من ديته. قال ابن المنمر: لأنه لا يهتم أن يكون قتله ليرثه وليأخذ ماله. قال إسماعيل القاضي: ولم نقس الخطأ على العمدة، لأن الله فرق بين حكمهما) (2).
5. اعتمد ابن المنمر رواية يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ)، باعتبارها الرواية التي اشتهرت عند المغاربة، وقد تحقق ذلك من خلال الأحاديث التي نقلها عن الموطأ، فهي كلها متفقة مع رواية يحيى الليثي، رغم اختصاراته وتدخلاته في العبارة، كما سبق التنبيه على ذلك، ويظهر أن ابن المنمر اعتمد رواية أخرى أو أكثر من روايات الموطأ، ومن بينها رواية أبي مصعب الزهري (ت241هـ)، بدليل أنه نقل عن الإمام مالك قولاً لم أعتز عليه في رواية يحيى الليثي، وهو مثبت بلفظه برواية أبي مصعب الزهري (3).
- ثانياً: كتب متون الحديث:

كتاب الكافي تضمن عدداً من الأحاديث النبوية، والآثار عن بعض الصحابة رضوان

(1) ينظر: المرجع السابق: 136 وينظر تنبيه المحقق بالهامش الثامن من ذات الصفحة، وصفحة 137 وينظر تنبيه المحقق بالهامش الثاني من ذات الصفحة.

(2) ينظر: المرجع السابق: 355. والكلام في من يقتل مورثه خطأ.

(3) ينظر: المرجع السابق: 338. ونص القول الذي ذكره ابن المنمر: (قال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا في المرأة الحرة إذا ولدت من العبد ثم عتق العبد بعد ذلك، أنه يجر ولاء ولده إلى من أعتقه)، وهذا القول مثبت بموطأ أبي مصعب الزهري: كتاب العتق - باب جر الأب الولاء إذا أعتق.

الله عنهم أجمعين، التي لها حكم المرفوع، ولم يروها الإمام مالك بالموطأ، وهي مخرجة بالصحيحين، أو أحدهما، أو غيرهما من كتب متون الحديث، كابن ماجه (273هـ)، وأبي داود (275هـ)، والترمذي (279هـ)، ويظهر منهج ابن المنمر في نقله واستفادته منها- في الملاحم التالية:

1. ينقل ابن المنمر عنها بواسطة، وهذه الوسطة هي كتب الفقه التي اعتمدها، بدليل أنه لم يعز حديثا واحدا إلى كتب الحديث غير الموطأ، ولم يصرح باسم كتاب من كتبها، ولعل مرجع الأمر هو اعتماد مصادره الفقهية على الرواية، فاستغنى بذلك عن كتب الحديث.

2. ينقل الحديث مسندا في الغالب عن شيوخ المذهب الذين ينقل عنهم المسائل، كحديث الميراث بسبب الولاء نقله عن سخون عن ابن وهب، عن عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، أن مولى لبنت حمزة بن المطلب مات وله بنت، (فقسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ميراثه بين ابنته وبنت حمزة نصفين)⁽¹⁾، وحديث (العلماء ورثة الأنبياء)⁽²⁾، وأحيانا يرويه بسنده، كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- في فضل عالم المدينة، فهو يرويه عن شيخه أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الجوهري، أحد مشايخه بمصر، والحديث رواه الإمام أحمد (ت241هـ) في المسند، والترمذي (ت279هـ)⁽³⁾.

3. يستدل بالأحاديث على المسائل التي يذكرها، ومن ذلك استدلاله بعدد من الأحاديث على فضل المدينة وعالمها⁽⁴⁾، واستدلاله على الأحكام الفقهية موضوع كتابه، مثل: تورث بنت الابن مع البنت الصلبية الواحدة، وتعصيب الأخوات للبنات، وفضل طلب العلم وتعلمه، وميراث الجنين، ومنع التوارث باختلاف الدين⁽⁵⁾.

ثالثا: مرويات ابن المنمر وسماعاته:

(1) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 91 و92. والحديث بالمدونة من رواية سخون: 89/8، وبسنن الدارمي في كتاب الفرائض- باب الولاء.

(2) المرجع السابق: 83. والحديث رواه أبو داود في كتاب العلم- باب الحث على طلب العلم.

(3) المرجع السابق: 66 و67. وينظر: مسند الإمام أحمد: 75/4. حديث رقم: (8095)، والترمذي: كتاب العلم- باب ما جاء في عالم المدينة.

(4) المرجع السابق: ينظر صفحة: 67 وما بعدها.

(5) المرجع السابق: ينظر الصفحات: 89 و90 و143 و362 و413.

مما تميزت به مصادر كتاب الكافي أن مؤلفه اعتمد على مرويات يرويها بسنده وسماعاته عن مشايخه، ولم يذكرها مشايخه بكتبهم التي وصلت إلينا، وهذا الأمر يضيف فائدة أخرى لكتابه وهي الإسهام في حفظ تراث الفقه المالكي، ومن نماذج ذلك:

1. ينقل ابن المنمر عددا من الأحكام الفقهية عن شيخه ابن أبي زيد القيرواني، وقد صرح باسمه كاملا في أول نقل بقوله: (قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد)، ومن الأحكام التي نقلها عنه: بيان معاني أحاديث فضل المدينة وعالمها، وما ورد في ذم البدع التي ظهرت بالمشرق والعراق⁽¹⁾.

2. ينقل معنى المصطلحات الفقهية بسنده عن مشايخه، ومن ذلك ما رواه في معنى الموالي وأنهم العصباء، قال: (حدثنا محمد بن عبيد الوشاء، عن بكر بن العلاء القاضي، عن إسماعيل القاضي، أنه قال: الموالي هم العصباء: الولد، والأب، والإخوة...)⁽²⁾.

3. ينقل عن مصادر في حكم المفقودة، كالواضحة، والمجموعة، كما ينقل عن نسخة من الموطأ، تبين أن بها زيادات، وقد سبق الإشارة إلى بعض هذه الأمور بهذه الفقرة والتي قبلها، وهذا أمر في غاية الأهمية في مجال تحقيق التراث.
رابعا: الحساب وعمل المسائل:

علم الفرائض مكون من ثلاثة علوم: الفقه، والحساب، والعمل، وابن المنمر له القدم الراسخة في هذه العلوم، وله تأليف فيها، والناظر في أبواب الحساب والعمل من كتابه الكافي يلحظ أنه محاسب من الطراز الأول، ولديه عقلية في الحساب وتأسيس المسائل وتصحيحها واستخراج السهام وقسمة التركات النقدية منها والعينية، وهذه القدرات جعلته يتعقب كبار الفقهاء في عدد من المسائل، وتصحيح العمل، وبيان وجوه مسائل أشكلت عليهم، ومنهج الحساب والعمل عنده تجمل في الآتي:

1. ابتداء كتابه ببيان الفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، وهي ستة: (الثلاثان، والثلاث، والسدس، والنصف، والرابع، والثلث)، ومن يرث هذه الفروض، وشروط إرثهم، ثم بين من يرث من العصبية، وأنواعهم، وترتيب إرثهم، ثم الحجب عن الميراث، وبين أهميته، ووصفه بأنه أصل الفرائض⁽³⁾، وهذه الأبواب هي خلاصة فقه الفرائض،

(1) المرجع السابق: 68.

(2) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 87 و88.

(3) ينظر: المرجع السابق: من صفحة 85 حتى 142.

وعليها يقوم الحساب وعمل المسائل، ولذلك قدمها ابن المنمر.

2. بين طريقة استخراج أصول المسائل السبعة، وهي: الاثنان، والثلاثة، والأربعة، والستة، والثمانية، والاثنا عشر، والأربعة والعشرون، ووضح ذلك بذكر الفروض التي يخرج منها كل أصل، من ذلك قوله: (ما يخرج من اثنين.. إذا كان في الفريضة نصف، أو نصف وما بقي)، ثم يذكر أمثلة لذلك، من ذلك قوله: (امرأة توفيت وتركت زوجا وأخا شقيقا)، ثم بين ما يعول من هذه الأصول، وهي أربعة: الستة، والاثنا عشر، والأربعة والعشرون، مع الإكثار من الأمثلة وتصوير المسائل⁽¹⁾.
3. ثم بين طريقة تصحيح المسائل، واختصارها، وذلك إذا حصل فيها انكسار بين سهام الورثة وعدد رؤوسهم، وما إذا كان الانكسار على فريق، أو أكثر، كما خصص للمناخنة بابا، سماه أصول حساب المناخات، ثم بين طرق استخراج الجامعة فيها، بواسطة النظر بين سهام الميت الثاني وما صحت منه مسألته⁽²⁾.
4. ثم خصص بقية كتابه في مسائل جامعة بين الفقه والحساب والعمل، ابتدأها بباب الأمر بالوصية وتغييرها وقصرها على الثلث وختمها بباب ميراث الخنثى، وهي أبواب حافلة بالمسائل الفقهية والحساب والعمل، وقد استوعبت نصف الكتاب تقريبا⁽³⁾.
5. ينقل عن مصادره طرقا للحساب والعمل، ويعقب على بعضها بالاعتراض تارة، وبالتوضيح أخرى، ومن نماذج اعتراضه: أنه اعترض على ابن حبيب في طريقة العمل في مسألة، وقال: (إنه ساوى بين المورث والورثة، وأدخل عليه الضرر مع الورثة..، ثم بين وجه الصواب، فقال: (ووجه العمل في ذلك...)⁽⁴⁾، ومن نماذج توضيحه: أنه نقل عن الإمام مالك مسألة أوصى فيها رجل بثلث ماله لرجل، ولآخر بربعه ولآخر بسدسه... ولم تجز الورثة، قال مالك: أسلم الثلث لأهل الوصايا، فيتحصون فيه على الأجزاء. فعقب ابن المنمر بقوله: (على تسعة أسهم من اثني عشر، لصاحب الثلث أربعة، ولصاحب الربع ثلاثة، ولصاحب السدس سهران...)⁽⁵⁾.
6. اعتمد رحمه الله في أبواب الحساب والعمل على عدد من القواعد، منها:

(1) ينظر: المرجع السابق: من صفحة 145 حتى 166.

(2) ينظر: المرجع السابق: من صفحة 167 حتى 225.

(3) ينظر: المرجع السابق: من صفحة 227 حتى 418.

(4) المرجع السابق: 274.

(5) المرجع السابق: 229.

- العمليات الحسابية الأربعة، وهي: (الجمع والطرح والضرب والقسمة)، واستخراج المضاعف البسيط المشترك بالأنظار الأربعة (التماثل والتداخل، والتوافق، والتباين)⁽¹⁾.
- عدم تجزئة السهام، مع الاختصار في أصول المسائل وجوامع تصحيحاتها ومناسخاتها، قال -رحمه الله-: (واعلم بأن المراد من حساب الفرائض أن تخرج الفريضة من سهام صحاح لا كسر فيها، وأن تكون من عدد لا يمكن لأحد أن يأتي بها من عدد صحيح أقل منه)⁽²⁾.
- يحرص على مراجعة العمل، والتأكد من صحته، فيقول: (فقد صحت من الثلاث فرائض من أربعة ونحسين... وإن أردت امتحانها فقل: للأب من الأولى ثلاثة في ثلاثة ثمن الثانية... وللبن من الأولى أربعة في ثلاثة... ولابنة الابن من الفريضة الثانية... ولزوجة الابن من الثانية... ولأم الأم من الثالثة... فذلك أربعة ونحسون)، ويقول في موضع آخر: (وإن أردت معرفة صحة المسألة...)⁽³⁾.
- 7. منهج ابن المنمر في الحساب والعمل يعتره شيء من الغموض والتداخل خصوصاً في حساب مسائل أبواب الوصايا والولاء والادعاء والإقرار والإنكار، والعمل في استخراج أصولها وسهامها، لأنه يعتمد -رحمه الله- عمل عدد من المسائل، ثم يدمجها في جامعة واحدة، فيصعب الوصول إلى مصادر الأعداد، وطريقة استخراج الحصص، وقد أشار المحقق الأستاذ حمزة أبو فارس إلى ذلك، وهو المتضلع في فقه الفرائض وحساب مسائلها⁽⁴⁾، وأقول: إن ذلك المنهج قد أدى فوائده في زمن ابن المنمر وقرون مديدة بعده، وعالج نوازل وقضايا تعج بها تلك العهود، وأما في زمن الناس هذا فقد صارت تلك المسائل من ترف العلم والغازه، بعد انتهاء عهد الرق، وظهور أنظمة يقينية لتوثيق واقعات الزواج والطلاق والمواليد والوفيات، لا يتصور معها ادعاء ولا إنكار. ويلحظ المتأمل في المصادر التي اعتمد عليها ابن المنمر، عدداً من الملاحظات، تجمل في اقتصارها على الكتب الفقهية، وغياب مصادر أخرى مساندة ومكملة، منها: كتب تفسير القرآن وعلومه، وكتب أصول الفقه وقواعده، وكتب الغريب والمعاجم، بل إن المنمر لم يتحفظاً بنقل من أهم الكتب التي ألقت ببلده طرابلس، وهو قريب عهد به، وهو

(1) ينظر: المرجع السابق: 169 و170.

(2) ينظر: المرجع السابق: 168.

(3) ينظر: المرجع السابق: 216 و285.

(4) ينظر: مقدمة تحقيق كتاب الكافي: 36.

كتاب النامي في شرح الموطأ، للمحدث المالكي الطرابلسي أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي الأُسدي، المالكي (ت402هـ)⁽¹⁾، ولعل هذا الأمر سببه ومرجعه تأثر المؤلف بالمصادر التي اعتمد عليها، المؤلفة على نقل المسائل الفقهية وتحرير الأقوال فيها على مذهب الإمام مالك، دون العناية بالقضايا الأصولية أو اللغوية.

الفقرة الثالثة: أثر كتاب الكافي في غيره:

تبين مما سبق أن ابن المنمر اعتمد في جمع مادة كتابه على مصادر عدة من أمهات المذهب المالكي، وأن تلك المصادر كان لها الأثر الكبير في ترتيب أبوابه وترجمتها وجمع مادتها، وأن منهجه كان بين النقل الحرفي والنقل بالمعنى، مع الشرح والتعليل والنقد والاستدراك، وهذه الفقرة مخصصة لبيان أثر كتاب الكافي على الكتب اللاحقة عليه، ومن يبحث في كتب التراجم والرحلات يلحظ أن كتاب الكافي لابن المنمر حاضر وموجود بها، ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك، ووصفه بأنه كتاب مفيد مشهور⁽²⁾، وذكره التجاني في رحلته أن الرحالة يحرصون على قراءته أثناء إقامتهم بطرابلس⁽³⁾، كما عدّه ابن خلدون من المصنفات المتميزة في علم الفرائض⁽⁴⁾، وقال ابن مجاهد في ترجمة الفضل أحمد بن عمر التيغاني الفرضي انفرد برواية كتاب الفرائض لابن المنمر، وأنه حدث به عن أبي القاسم خلف بن محمد بن الحسين الطرابلسي عن مؤلفه أبي الحسن علي بن محمد ابن المنمر الفرائضي⁽⁵⁾، والمقصود أن كتاب الكافي مشهور معروف، حال حياة مؤلفه، وبعد مماته، يتدارسه العلماء، ويروونه بالسند، وذكر الرصاع صاحب شرح حدود ابن عرفة (ت894هـ) في فهرسته أنه قرأ كتاب الكافي على بعض مشايخه⁽⁶⁾، وهذا يلزم أن نسخه طافت بالأقطار، غير أن هذه الشهرة اقتصر على كتب التراجم والمشیخات، والرحلات، بينما ذكره خافت مقارنة بكتب الفرائض التي ألفت بعده، خصوصاً على المذهب المالكي، كمنحصر الحوفي (ت588هـ)، و متن التلمسانية في المواريث لأبي إسحاق بن التلمساني (ت690)، و متن

(1) ينظر: ابن فرحون- الديباج المذهب: 166/1.

(2) ينظر: القاضي عياض- ترتيب المدارك: 274/7.

(3) ينظر: رحلة التجاني: 257.

(4) ينظر: ابن خلدون- ديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون): 638/1.

(5) ينظر: ابن مجاهد- توضيح المشتبه: 351 / 5.

(6) ينظر: مقدمة كتاب الكافي للشيخ الدكتور حمزة أبو فارس: 30.

الدرة البيضاء لعبد الرحمن الأخرى (ت983هـ)، فوجد لهذه المصنفات شروحا وذكرها بكتب الفقه اللاحقة عليها، سواء الجامعة للكتب الفقهية، أو التي أفردت علم الفرائض بالتصنيف، وكتاب (تحفة الإخوان البية على المقدمة الرحبية)، تصنيف محمد بن خليل بن محمد بن خليل بن أحمد غلبون الطرابلسي، (كان حيا سنة 1208هـ)، نجده ينقل عن الكتب المتأخرة عن الكافي كالحوفي والتلمساني والأخضري ولم ينقل عن الكافي، ومن خلال المطالعة المتواضعة في عدد منها لم أعثر على من ينقل عنه، اللهم إلا السطحي (ت750هـ)، صاحب كتاب شرح الحوفي، فقد نقل عنه في ثمانية مواطن، ومن صيغ نقوله: (وزاد الطرابلسي...، وقال الطرابلسي: للموصي له... - والطرابلسي جعله يتضرر...⁽¹⁾)، ولعل السبب يرجع إلى أن نسخ الكتاب لم تكن بالكثرة والانتشار التي تجعله في متناول المصنفين والشراح، كذلك ظهور كتب أخرى أيسر وأخصر، كمختصر الحوفي، و متن التلمسانية.. الخ فالتفت الناس إليها، وتركوا المطولات، ومع ذلك فإنه من الواجب أن نحمد الله أن وفق الشيخ الدكتور حمزة أبو فارس، لجمع نسخ الكافي، وأخرجه إلى النور محققا، بعد أن اعتبر منذ وقت ليس بالطويل في عداد الكتب المفقودة، ولعل الله يوفق من يتولى شرحه، ويفك عبارته، وييسر الاستفادة منه.

المطلب الثاني: الخلاف عند ابن المنمر واختياراته.

تبين مما سبق أن منهج ابن المنمر في جمع مادة كتابه اعتمد في الغالب على النقل الحرفي من مصادره، وأن نقله تميز باستيعاب المادة العلمية، وحسن ربطها وتبويبها، وكانت له بصمات مهمة في ترتيب موضوعات الكتاب وجمع شتات مادتها، كما أنه جمع مع النقل تحليل النقول، والتعقيب عليها بالبيان والاستدلال، والتعليل والتوجيه، والنقد والاستدراك، وفي هذا المطلب أحاول بيان جهود ابن المنمر في بعض تلك الجوانب، من خلال ذكره للخلاف واختياراته في بعض المسائل، والخلاف كما هو معلوم نازل وعالي، ولذلك تعين تقسيم هذا المطلب إلى فقرتين:

الفقرة الأولى: الخلاف النازل عند ابن المنمر واختياراته:

المراد بالخلاف النازل هو الخلاف داخل المذهب، وقد تعرض له ابن المنمر، غير أن منهجه لم يكن مطردا، فمرة يذكر الخلاف ولا يذكر وجوهه، ومن ذلك قوله في ميراث

(1) ينظر: السطحي - شرح مختصر الحوفي: 450/1 و451 و454 و456 و457، و882/2 و883 و971.

الجد للأب: (واختلف في قدر ميراثه بالتعصيب)⁽¹⁾، وأحيانا يذكر الخلاف، ويذكر وجوهه وأدلته، كما فعل في الميراث من الزنديق والمنافق⁽²⁾، والخلاف الذي يذكره ابن المنمر في الغالب ليس مرده للدليل، لكن لاختلاف الرواية والأقوال فيها، وفيما يلي نماذج من مسائل هذا الخلاف، وترجيحات ابن المنمر فيها:

1. الميراث من الزنديق والمنافق:

الزنديق كما في اللسان: القائل بقاء الدهر ودوامه، والمنافق هو الذي يستتر كفره ويظهر إيمانه، وفي القاموس الفقهي: يطلق الزنديق على من ينفي الباري تعالى، وعلى من يثبت الشريك، وعلى من ينكر حكمته، والمنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وفي تاج العروس: الفرق بين الزنديق وبين المنافق مشكل جدا، وقيل الزنديق معترف بنبوّة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، على خلاف المنافق، وقيل هما سواء، كان يسمى في عصر النبوة منافقا، فصار في العرف الشرعي زنديقا، ولعل هذا هو الصواب، والذي يمنع من استعمال مصطلح الزنديق في أغراض سياسية تشرع للاستبداد والتضييق على الناس في اختياراتهم المشروعة، قال ابن حجر: قال مالك: الزندقة ما كان عليه المنافقون، وكذا أطلق جماعة من الفقهاء الشافعية وغيرهم أن الزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر⁽³⁾. والمسألة التي ذكرها ابن المنمر هي في ميراث الزنديق والمنافق، فنقل عن ابن القاسم وأصبغ أن الزنديق كالمنافق يرثه ورثته من المسلمين، وأما سخنون وأشهب فكان يرى أن ميراث الزنديق فيئا للمسلمين، واستدل أصحاب القول الأول بأنه لا فرق بين الزنديق والمنافق، وأن المنافقين على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وكانوا مع كفرهم يوارثون المسلمين ويناكحهم، واستدل أنصار القول الثاني بأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقر المنافقين على ما هم عليه من الكفر، وقد عرفه الله إياهم بأعيانهم، وأما الزنديق إذا عرف فينا اليوم حلّ دمه، وكان فرضا على

(1) ابن المنمر- الكافي: 89. والمراد ميراث الأب والجد مع الفرع الوارث المؤنث، فالأب يرث معه السدس فرضا والباقي تعصيبا، إجماعا، وأما الجد فقيل كالأب، وقيل بل يرث الباقي تعصيبا، ولا يفرض له، وثمرة الخلاف في العول، فالقول بالفرض، يعال له، والقول بأنه يرث تعصيبا لا يعال له، وقد يسقط إذا استغرقت الفروض التركة، كزوج وبنين وأم وجد. ينظر: التسولي- البهجة في شرح التحفة: 677/2، وأحمد بن حمادي- المدد الفائض: 201.

(2) ينظر: ابن المنمر- كتاب الكافي: 404 وما بعدها.

(3) ابن حجر: فتح الباري: 271/12. وينظر: ابن منظور - لسان العرب، والزبيدي- تاج العروس: (نفق)، وسعدى أبو حبيب: القاموس الفقهي: 160 و357.

الإمام قتله، واختلفت الرواية عن مالك في الزنديق، فابن القاسم قال: بلغني عن مالك أن من صلبه أمير المؤمنين من الزنادقة أن يورث منهم ورثتهم من المسلمين، ورأهم كالمنافقين. وعن نافع قال: سمعت مالكا يقول في ميراث المرتد والزنديق: ميراثهما للمسلمين، يسن بأموالهما سنة دمائهما⁽¹⁾.

واختار ابن المنمر القول الثاني، وأن ميراث الزنديق فيئا للمسلمين، ووجه القول الأول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهي عن قتل أصحابه، حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه⁽²⁾، ورجح رواية نافع عن مالك، وقال هي أحسن من رواية ابن القاسم، وبني ترجيحه على ما يرويه عن شيخه القابسي، أن حذيفة رضي الله عنه قال: إنما كان النفاق على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما استدل ابن المنمر بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يرث المسلم الكافر)⁽³⁾، قال: وكيف يجوز للمسلم أن يرث ميتا يعلم بأنه في باطنه على غير الإسلام⁽⁴⁾.

2. الميراث بعقد الزواج المختلف فيه:

عقد الزوجية الصحيح المستجمع للأركان والشروط يتوارث به الزوجان، ولو مات أحدهما قبل الدخول، وأما المتفق على فساده، وهو ما ورد تحريمه بنص من الكتاب والسنة، وكان الزوجان مغلوبين على فسده، فلا يقع به التوارث ولو بعد الدخول، وأما المختلف على فساده، فالتوارث به محل خلاف بين علمائنا، وقد ذكر ابن المنمر مسألة تدخل في المختلف فيه بسبب يرجع إلى فساد صداقه، وصورة المسألة: (قال مالك: من تزوج على أنه إن لم يأت بالمهر إلى أجل كذا فلا نكاح له، فذلك فاسد، ولا يتوارثان، ويفسخ، دخل أو لم يدخل، وقاله أصبغ، وابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: إن دخل لم يفسخ)⁽⁵⁾. وساق ابن المنمر الخلاف، ولم يرحح، والمسألة مبنية على الرواية عن الإمام مالك، فابن المنمر نقل إنه قال: (ويفسخ، دخل أو لم يدخل)، بينما عبارة المدونة خلت من هذه العبارة، وقد حررها المواق بقوله: (قال في المدونة: من تزوج على إن لم يأت بالمهر

(1) تنظر المسألة في: ابن يونس- الجامع لمسائل المدونة: 275/22 وما بعدها، وابن رشد- البيان والتحصيل: 407/16 وما بعدها.

(2) رواه مالك في الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر- باب جامع الصلاة.

(3) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الفرائض، باب ميراث أهل الملل، وهو متفق عليه.

(4) ينظر: ابن المنمر- الكافي: 404 وما بعدها.

(5) ابن المنمر- الكافي: 369.

إلى أجل كذا فلا نكاح. فسخ نكاحه، وفرق بينهما. ولم يقل مالك: دخل أم لا، ولو دخل لم أفسخه، وما فسد لصداقه، فيها: من نكح على آبق أو شارذ أو جنين في بطن أمه أو بزرع لم يبد صلاحه أو على دار فلان فسخ النكاح في ذلك كله قبل البناء وثبت بعده ولها صداق المثل⁽¹⁾.

وفصل في النواذر الأقوال فيها، ولم يذكر القول بالفسخ دخل أم لا، وهذه الأقوال: قال مالك هذا نكاح ليس بحسن، واختلف قوله في فسخه، فروى عنه ابن القاسم أنه يفسخ ما لم يبين، وروى عنه أشهب أنه نكاح جائز. وقال ابن القاسم يفسخ قبل الدخول، ويثبت بعده بمهر المثل. وقال سخنون وأصبخ: إنه جائز، بنى أو لم يبن. وقال أشهب: يبطل الشرط ويصح النكاح⁽²⁾.

3. ميراث قاتل العمد غير العدوان:

من موانع الميراث القتل، وهذا القتل مختلف في نوعه، فقييل مطلقاً، وقيل ما يوجب قصاصاً، وقيل ما يوجب قصاصاً أو دية أو كفارة، وعند علمائنا ما كان قصداً عدواناً⁽³⁾، وابن المنمر نقل خلافاً في المسألة بين علماء المالكية، قال: (قال أبو إسحاق بن شعبان⁽⁴⁾: قال رجل من كبار أصحاب ابن القاسم: القاضي يقضي على أبيه بالقود أو الرجم، أنه لا يرثه... قال أبو إسحاق: ولا أقول به، ولا أختره، لأن الحق قتله، وهما يتوارثان)⁽⁵⁾.

وابن المنمر نقل الخلاف، ولم يبين دليل القولين، ولم يرحح، ومشهور المذهب المالكي أنه يرثه، لأن القتل المانع من الميراث هو العمد العدوان، سداً للذريعة الموصلة إلى القتل لطلب الميراث، ولأن القتل بمبرر لا يوجب قصاصاً ولا دية ولا كفارة، فلا يوجب كذلك حرماناً من الميراث، قال خليل في قتال البغاة: (وكره للرجل قتل أبيه، وورثته)⁽⁶⁾.

(1) المواق- التاج والإكليل: 82/5.

(2) ابن أبي زيد القيرواني- النواذر والزيادات: 549/4، وتنظر المسألة في: المدونة: 201/3، وابن يونس- الجامع: 768/12، والمواق- التاج والإكليل: 82/5.

(3) ينظر: الدردير الشرح الكبير: 486/4، وابن قدامة- المغني: 291/6.

(4) أبو إسحاق بن شعبان، هو محمد بن القاسم بن شعبان، ابن القرطي، يقال له ابن شعبان، من نسل عمار بن ياسر: رأس الفقهاء المالكيين بمصر في وقته، توفي عام 355 هـ. الزركلي: 335/6.

(5) ابن المنمر- الكافي: 358.

(6) ينظر: الدردير- الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي عليه: 300/4.

الفقرة الثانية: الخلاف العالي عند ابن المنمر واختياراته:

المراد بالخلاف العالي هو الخلاف بين المذاهب، ولم يتعرض ابن المنمر كثيرا لهذا النوع من الخلاف، والسبب في ذلك راجع إلى مصادره التي اقتصت بالمسائل الفقهية داخل المذهب، وتحرير الأقوال فيها، وفيما يلي نماذج من مسائل الخلاف التي ذكرها ابن المنمر:

1. مسألة الرد على ذوي الفروض وميراث ذوي الأرحام:

الرد في اللغة: صرف الشيء ورجعه، وفي الاصطلاح نقصان في سهام المسألة، وزيادة في أنصبة الورثة، والرد يكون على ذوي الفروض أولا، فإن لم يكونوا آلت التركة إلى ذوي الأرحام، وذوو الأرحام هم أقارب الميت من غير ذوي الفروض ولا العصباء، كالعمة، وبنت الأخ، والنحال، والنخالة.

والرد على ذوي الفروض يتصور إذا بقي بعد أنصبتهم شيء من التركة ولم يكن عاصبا، وميراث ذوي الأرحام يتصور إذا لم يكن للميت وارث بطريق الفرض ولا بطريق التعصيب، واختلف الصحابة ومن بعدهم في الميراث بالرد وبالرحم، على قولين:

الأول: لا يرد الباقي على ذوي الفروض، ولا يرث ذوو الأرحام، بل يؤول المال أو الباقي منه إلى بيت المال، وهو قول زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقد انفرد به وحده من بين سائر الصحابة -رضوان الله عنهم أجمعين-، وإليه ذهب الشافعية والمالكية، لقوله -عليه الصلاة والسلام-: (أنا وارث من لا وارث له، أعقل عنه وأرثه)⁽¹⁾، ولعدم جواز الزيادة على نصيب الورثة المحدد بالنص، وأن ذلك تعديا على حدود الله تعالى، وقد قال الله تعالى في آخر آيات الموارث: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} [النساء: 13]، ولقوله -عليه الصلاة والسلام-: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث)⁽²⁾، ومما احتجوا به أيضا أن ابنة الأخ لم ترث مع أخيها، فلزم عدم ميراثها وحدها.

والقول الثاني: يرد الباقي على ذوي الفروض، فإن لم يكونوا آل المال ذوي الأرحام، وهو قول سائر الصحابة رضي الله عنهم، وإليه ذهب الحنابلة والأحناف، فالتركة أو الباقي منها لذوي السهام أو الأرحام، لقوله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ} [الانفال

(1) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(2) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

آية 75، ولحديث: (انخال وارث من لا وارث له) (1)، ومن حجتهم أن ذوي الرحم قد اجتمع فيهم سببان: القرابة والإسلام، فكانوا أولى من جماعة المسلمين، الذين لهم سبب واحد وهو الإسلام، وما يؤول إلى بيت المال من التركة هو من قبيل المال الضائع، يضعه الإمام حيث يرى، وليس من قبيل المال المستحق على وجه الميراث، واختار المتأخرون من المالكية والشافعية هذا القول لفساد بيت المال وعدم انتظامه (2).

وقد أشار ابن المنمر إلى الخلاف المذكور في الباب الذي خصصه لمن لا يرث من ذوي الأرحام، وبناه على أصل المذهب المالكي في عدم توريث ذوي الأرحام، واستدل له بالآثار الواردة في عدم ميراث العممة والخالة وبنت الأخ، ونقل عن القاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي إمام جليل فقيه ثقة صدوق (ت282هـ): (فتى كان للميت عصبة من ذوي أرحامه فهم أولى، فإن لم يكونوا فالولاء، فإن لم يكن ولاء فبيت مال المسلمين، وبيت المال يقوم مقام العصبة، لأن الميت لو كان قتل رجلاً خطأ ولم يكن له عصبة من ذوي أرحامه ولا مواليه، وجب أن يعقل من بيت المال) (3)، ثم ختم الباب بالإفصاح عن اختياره للقول بعدم الرد على ذوي الفروض، ولا توريث ذوي الأرحام، بقوله: (ولو كان ذوو الأرحام من غير العصبة يقومون مقام العصبة لوجب أن تكون التركة للرجال منهم دون النساء إذا أعطوا بالآية التي أعطوا بها أولئك، فإن لم يكونوا كذلك فبأي شيء يعطون، وعلى أي شيء يبني أمرهم! وقد رأينا الذين يوجبون الرد عليهم يختلفون في الرد عليهم ويضطربون في ذلك اضطراباً شديداً، يتبينون به - لو تدبروا - أنهم بنوا على غير أصل) (4)، وفي باب أصول الفرائض يطبق القول بعدم الرد على ذوي الفروض، فيقول: (وإن ترك ابنتين فصاعداً، فلهن الثلثان لا يزدن عليه، وما بقي فللعصبة، فإن لم تكن

(1) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي وقال: حسن غريب، وصححه الحاكم وابن حبان.

(2) ينظر: السرخسي - المبسوط للسرخسي: 19/29، و5/30، والدردير - الشرح الكبير وحاشية الدسوقي عليه: 468/4، والجويني - نهاية المطلب: 192/9، وابن قدامة - المغني: 20/6. وقد استقر العمل في القضاء الليبي بالقول الثاني، حيث ورد في أحد مبادئ المحكمة العليا ما نصه: (إن مبدأ الرد على أصحاب الفروض كان محل خلاف بين فقهاء المالكية أنفسهم، وإن ما جرى به العمل في ليبيا هو الرد على ذوي الفروض إذا كان هناك من يرد عليه منهم غير الزوج والزوجة، وإلا فعلى ذوي الأرحام لأنهم أولى ببعض). ينظر: الطعن المدني رقم: 9/1 ق، منشور بمجلة المحكمة العليا، العدد الأول - سنة 1970 م.

(3) ابن المنمر - الكافي: 98.

(4) المرجع السابق: 100.

عصبة فلهموالي، فإن لم يكن موالي فبيت مال المسلمين، فإن لم يكن بيت مال - تصدق به (1).

2. ميراث الجدات:

خصص ابن المنمر باباً ترجم له بـ (باب ميراث الجدات)، بين فيه مذهب المالكية في توريث الجدات، وأنهم لا يورثون إلا جدتين، واستفتح الباب برواية الإمام مالك عن أبي بكر بن عبد الرحمن أحد فقهاء المدينة السبعة (ت194هـ) أنه كان لا يفرض إلا لجدتين، ثم ذكر قول الإمام مالك: (لم نعلم أحدا ورث غير جدتين منذ كان الإسلام إلى اليوم) (2)، واللذان ترثان، أم الأم وأم الأب، وأمهما إذا لم يكونا، والثالثة التي لا ترث أم الجد أبي الأب وأمها، اختلف الصحابة رضي الله عنهم في ميراث الجدات، فمنهم من ورث جدتين فقط، واحدة من جهة الأم وواحدة من جده الأب، وهذا القول منقول عن عمر - رضي الله عنه -، وري عن زيد وعلي وابن عباس - رضي الله عنهم - أنهم ورثوا الجدة أم أب الأب، وإليه ذهب الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة، على خلاف بينهم في عدد الجدات الوارثات (3).

3. وجود الخنثى المشكل:

الخنثى من التخث أي الثني والانكسار، والجمع خنثي، وهو الذي له ما للرجال والنساء جميعاً أو لا يوجد له شيء منهما أصلاً، وهو نوعان، مُشكِلٌ: وهو من أشكل أمره فلم تعرف ذكورته من أنوثته، وغير مشكل: وهو من ترحت فيه صفة الذكورة أو الأنوثة (4)، واختلف في وجود الخنثى المشكل، قيل بإمكانية وجوده، وهو قول جمهور الفقهاء، وأن نوعه مجهول لنا معلوم عند الله تعالى، وعليه بنوا أحكامه في كل المسائل التي تختص بالذكور والإناث..، ومنهم الفراض فقد خصصوا له باباً لميراثه، ومسائل تخصيص سهامه وحصته، وشنع ابن العربي على المنكرين، بقوله: (أَنكَرَهُ قَوْمٌ مِنْ رُؤُوسِ الْعَوَامِّ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا خُنْثَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ الْخَلْقَ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى. قُلْنَا: هَذَا جَهْلٌ بِاللُّغَةِ،

(1) المرجع السابق: 104.

(2) الموطأ - كتاب الفرائض - باب ميراث الجدة. وينظر: لمرجع السابق: 134.

(3) ينظر: السرخسي - المبسوط: 165/29، والدردير - الشرح الكبير للدردير: 462/4، والجويني - نهاية المطلب: 70/9، والمغني لابن قدامة 206/6، وينظر: ابن المنمر: 132.

(4) ينظر: سعدي أبو جيب - القاموس الفقهي: 124، والزبيدي - تاج العروس: (خنث).

وَعَبَاوَةٌ عَنْ مَقْطَعِ الْفَصَاحَةِ، وَقُصُورٌ عَنْ مَعْرِفَةِ سَعَةِ الْقُدْرَةِ⁽¹⁾، وقيل بعدم وقوعه لأنه لا يخرج عن أحد النوعين الذكر والأنثى ولم يخلق الله سبحانه وتعالى غيرهما، قال تعالى: (وما خلق الذكر والأنثى) [الليل/آية 3]، قال السرخسي: (أعلم بأن الله تعالى خلق بني آدم ذكورا وإناثا... ثم بين حكم الذكور وحكم الإناث في كتابه، ولم يبين حكم شخص هو ذكر وأنثى، فعرفنا بذلك أنه لا يجمع الوصفان في شخص واحد، وكيف يجتمعان وبينهما مغايرة على سبيل المضادة!)⁽²⁾.

وابن المنمر -رحمه الله- خصص الباب الأخير لميراث الخنثى المشكل، وختم الباب بقول إسماعيل القاضي في المشكل: (إن ذلك لا يكون، وقال الله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} [النجم: 45]، وفرض الله للذكر فريضة، وللأنثى فريضة، ولم يخلق خلقا بينهما، فلا بد من علامة يستدل بها على أنه ذكر أو أنثى)⁽³⁾، ولم يعقب على الخلاف، لكن يظهر أنه يقدم القول بعدم وجود الخنثى المشكل، بدلالة نقله عن عدد من الصحابة والتابعين أن ميراثه لا يخلو أن يكون ميراث ذكر، أو ميراث أنثى، والفيصل في ذلك علامات يتبين بها أمره، كما ذكر أنه لم ينقل عن الإمام مالك شيئا في ذلك، ثم نقوله عن الصحابة -رضي الله عنهم- وعن التابعين وعن الأئمة المجتهدين، يشير إلى أنه مع القول بأنه لا إشكال في نوع الإنسان⁽⁴⁾، وعلى افتراض وجوده فالغالب مع تقدم الطب الحديث إنهاء إشكاله بإجراء عملية جراحية له تؤدي إلى إيضاح أمره، وإلا فهو المشكل⁽⁵⁾.

الخاتمة

بعد أن يسر الله تعالى الفراغ من تحرير هذه المشاركة، أختتمها بأهم ما ظهر لي فيها من نتائج وتوصيات، بحسب الحال والجهد.

أولا: النتائج:

1. الشيخ الأستاذ المسند أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي، شخصية علمية، له

(1) ابن العربي- أحكام القرآن: 162/6.

(2) السرخسي- المبسوط: 165/29.

(3) ابن المنمر- الكافي: 418.

(4) المرجع السابق: 418.

(5) ابن المنمر- الكافي: 418. أحكام الخنثى بين العلم والأحوال الشخصية: دراسة فقهية مقارنة، إعداد أ.د. حسن تيسير شموط، وآخرين، منشور بمجلة الدراسات الإسلامية والدينية، جامعة هاربير، باكستان. 2018م

- رحلات علمية، تنوعت بها معارفه، وعلى بها سنده، شارك في عدد من العلوم، تصنيفاً وتدريساً، أبرزها علوم الفرائض والحساب والأزمنة.
2. لابن المنمر جهود تذكّر فتشكر في الذب على هوية البلاد الليبية وصموده ضد المحاولات الدخيلة لطمس المذهب المالكي وتحريف أحكامه، وفي الأمر المعروف وتغيير المنكر، وقد طالته بسبب ذلك محن ومصائب في نفسه وأهله وماله.
3. كتاب الكافي في الفرائض أقدم الكتب التي أفردت بالتأليف في علم الفرائض، جمعه مؤلفه من أمهات المذهب المالكي، واستوعب جوانب الفقه والحساب والعمل، نجمه لامع عند أهل التراجم والطبقات، لكنه خافت عند الفقهاء.
4. لابن المنمر منهج متميز في جمع مادة كتابه الكافي، وفي توزيعها على أبوابه، فقد جمع مع دقة النقل براعة الترتيب، ومع حسن التحليل سلامة النقد.
5. لم يخرج ابن المنمر عن منهج العلماء في تقرير الأحكام، فهو يتتبع أقوال من تقدمه من علماء المذهب وحقايق المجتهدين، ولا يتجرأ عليها بالنقض بظواهر نصوص الكتاب والسنة.
- ثانياً: التوصيات:

1. عقد جلسات علمية للتعريف بابن المنمر وبآثاره العلمية والعملية، وتشيد بمواقفه تجاه حفظ هوية البلد الدينية.
2. البحث عن آثاره العلمية التي تشير إليها مواطن ترجمته، وهي في الحساب والأزمنة، والعمل على تحقيقها وإخراجها للنور.
3. شرح كتاب (الكافي في الفرائض)، مع جمع ما يتوفر له من نسخ أخرى، لتدارك التحريف والتصحيح الذي وقع بالنسخ التي اعتمدت عليها طبعته الأولى، ولاستكمال فهارسه ومفاتيح الاستفادة منه.
4. التعريف بمنهج ابن المنمر القائم على أصول المذهب في الفتوى وتقرير الأحكام، والتحذير من التجرؤ على أخذ الأحكام مباشرة من النصوص، وما يجره من محاذير على الأمن الفكري للمجتمع وترابطه.
5. البناء على مقامه مؤسسة دينية علمية، ومعاينة الجهات المسؤولة عن نبش قبره وطمس مقامه، مع تسمية معالم مهمة بمدن البلاد باسمه، تعريفاً به، ووفاء لحقه.
- انتهت المشاركة بتوفيق الله تعالى وحسن عونه، والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم (نسخة الكترونية معتمدة، ملحقه بالمكتبة الشاملة).

1. ابن المنمر- أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي (ت 432هـ)، الكافي في الفرائض، تحقيق د. حمزة أبو فارس، دار الميمان- الرياض، الطبعة الأولى 1435هـ/2014م.
2. ابن العربي- القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ)، أحكام القرآن، المحقق: علي محمد الجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة: الثالثة - 1392هـ = 1972م.
3. ابن بشكوال- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت 578هـ) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الثانية، 1374هـ - 1955م
4. ابن جزى: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت 741هـ)، قريب الوصول إلى علم الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
5. ابن حجر- أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ): فتح الباري شرح الجامع الصحيح للبخاري، تقديم وتحقيق عبد القادر شيبه الحمد، الطبعة الأولى 2001م، مطبعة العبيكان، الرياض/ السعودية.
6. ابن حمادي- أحمد بن محمد بن محمد بن حمادي (ت 1367هـ)، المدد الفاضل في خلاصة علم الفرائض، تحقيق د. مصطفى الصادق طابله، الطبعة الأولى 2006م، الخمس- ليبيا.
7. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م.
8. ابن رشد الجد- محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، (ت 520هـ): البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق د. محمد حجي

- وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية 1408هـ/ 1988م.
9. ابن عبد البر- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي، (ت463هـ): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق سعيد أحمد أعراب وآخرين، طبعة الأوقاف المغربية، نشر على أجزاء متتالية اعتباراً من سنة 1967م.
10. ابن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (المتوفى: 799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
11. ابن مجاهد- محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت 842هـ)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، المحقق: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1993م.
12. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، لسان العرب، المحقق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي، دار النشر: دار المعارف القاهرة.
13. ابن يونس: أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التيمي الصقلي (ت 451هـ)، الجامع لمسائل المدونة، المحقق: مجموعة باحثين في رسائل دكتوراه، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، توزيع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
14. أبو جيب- سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية 1988م، دار الفكر، دمشق/ سورية.
15. أبو زيد القيرواني- أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النَّفزي القيرواني، (ت386هـ): النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق عبد الفتاح الحلو وآخرين، الطبعة الأولى 1999م، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان.
16. أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد

- الشيبياني (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م.
17. الأصبهاني- صدر الدين، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني (المتوفى: 576هـ)، معجم السفر، المحقق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: المكتبة التجارية - مكة المكرمة، بلا تاريخ.
18. الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبهاني المدني (ت 179هـ):
- الموطأ، صححه ورقه وخرجه أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، عام النشر: 1406هـ - 1985م.
- المدونة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1415هـ - 1994م.
19. البراذعي: خلف بن أبي القاسم محمد، الأزدي القيرواني، أبو سعيد ابن البراذعي المالكي (ت 372هـ) التهذيب في اختصار المدونة، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، الناشر: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.
20. التجاني- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني (ت 717هـ)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس 1981م.
21. الترمذي- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، (ت 279هـ)، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد، الطبعة الثانية 1998م، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان.
22. التسولي- أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي، (ت 1258هـ)، البهجة في شرح التحفة، تحقيق محمد شاهين، الطبعة الأولى 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان.
23. الجويني- عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت 478هـ): نهاية المطلب في دراية المذهب، تحقيق عبد العظيم الديب، الطبعة الأولى 2007م، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة/السعودية.
24. الخطاب- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي، المعروف

- بالخطاب (ت 954هـ): مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، الطبعة الأولى 2002م، دار الفكر، بيروت/ لبنان.
25. الدارمي- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي، (ت 255هـ)، مسند الدارمي، المعروف بسنن الدارمي، تحقيق حسين الداراني، الطبعة الأولى 2000م، دار المغني للنشر، الرياض/ السعودية.
26. الدكتور عمر الجيدي- مباحث في الفقه المالكي بالمغرب، الطبعة الأولى 1993م، الرباط- المغرب.
27. الزاوي- الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، (ت 1986هـ): معجم البلدان الليبية، الطبعة الأولى، دار الاتحاد العربي للطباعة، الناشر مكتبة النور، طرابلس - ليبيا، 1968م.
28. الزبيدي- أبو الفيض محمد بن محمد مرتضي الحسيني الزبيدي، (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وآخرين، الطبعة الثانية 1987م، مطبعة حكومة الكويت.
29. الزركلي- خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي الدمشقي، (ت 1396هـ)، الأعلام، الطبعة الخامسة عشر 2002م، دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان.
30. السرخسي- محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، أبو بكر، (ت 483هـ)، كتاب المبسوط، لا يوجد رقم الطبعة، تاريخ الطبع 1409هـ/1989م، الناشر دار المعرفة، بيروت- لبنان.
31. السطي- أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي (ت 750هـ)، شرح مختصر الحوفي، دراسة وتحقيق د. يحيى أبو عرود، الطبعة الأولى 2009م، دار ابن حزم، بيروت لبنان.
32. شوقي ضيف: أحمد شوقي عبد السلام ضيف (ت 2005م)، تاريخ الأدب العربي، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: الأولى، 1960- 1995م.
33. القراني- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس الصنهاجي القراني (ت 684هـ): شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، طبعة 2004م، دار الفكر، بيروت/ لبنان.

34. القاضي عياض- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المحقق: محمد بن شريفة وآخرون، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى.
35. محمد زكي إبراهيم الخليل الشاذلي (ت 1998م)، أبجدية التصوف الإسلامي، منشورات العشيرة المحمدية- القاهرة، الطبعة الخامسة، بلا تاريخ.
36. مغلطاي- مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين (ت 762هـ)، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن محمد - أبو محمد أسامة بن إبراهيم، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2001م.
37. المواق- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري، الشهير بالمواق (ت 897هـ)، التاج والإكليل لمختصر خليل، مطبوع على هامش مواهب الجليل للخطاب، الطبعة الأولى 2002م، دار الفكر، بيروت/ لبنان.
38. النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)، الأذكار، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، طبعة جديدة منقحة، 1414هـ - 1994م.

التصوف السني في ليبيا "الشيخ الأسمر أنموذجاً"

أ. فرج الصديق شميلة

المقدمة

الحمد لله ثم الحمد لله، وما توفيتي ولا اعتصامي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب
حسبي الله، وأصلي وأسلم علي خير خلق الله، سيدنا محمد خاتم رسل الله، وعلى آله
وأصحابه أهل الله، ومن تبعهم وسار على نهجهم من عباد الله. وبعد.

بادئ ذي بدء أحمد الله تعالى وأشكره على ما من به علينا من حب العلم والعلماء
وسلوك طريقهم القويم، وإن المرء ليشرف بهذا المسلك بشرف أهله وذويه، وإن من بين
علماء الأمة وأعلامها علامة ليبيا فضيلة الشيخ عبد السلام الأسمر الرباني المصلح
الاجتماعي والمعلم النوراني الذي ذاع صيته واشتهر اسمه، وها نحن اليوم نكتب عنه وكأنه
بيننا، ولا شك أنه بيننا بعلومه النافعة وآثاره الطيبة المباركة، وإن الذكر الحسن للإنسان عمر
ثان له، وهذا من كرم الله لعباده المؤمنين ولورثة الأنبياء من العلماء العاملين حيث إن الله
تبارك وتعالى قال وقوله الحق إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ

ثم الشكر والتقدير والعرفان بالجميل موصل إلى كلية الدعوة أصول الدين زليتن في ليبيا
واللجان القائمة على هذا المؤتمر الدولي الأول للهوية الدينية الليبية على جهودهم المبذولة في
خدمة العلم وأهله، والتواصل الحضاري بين الشعوب.

ختاماً أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يتغمد عبده الأسمر برحماته، وأن
يسكنه فسيح جناته، وأن يحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقا... آمين.

أهداف البحث

- 1 التعرف على شخصية إسلامية ليبية رائدة، وإحياء تراثها الفكري بين الأجيال المعاصرة.
- 2 تحقيق أهداف المؤتمر العلمي الدولي الأول للهوية الدينية الليبية بإضافة إضاءة جديدة
وفق دراسات موضوعية عن الشيخ الأسمر وأثره في التصوف السني.
- 3 بيان ما نسب للشيخ الأسمر، وهو منه براء، وما قيل عنه ولم يصح.

أهمية البحث

تكن أهمية الموضوع في تناول شخصية تعتبر من أهم الشخصيات التي كان لها أثر بالغ في نشر العلم وإعداد العلماء في ليبيا والقطر الأفريقي وتزداد أهمية الموضوع بأن يكون مرجعا للأجيال المعاصرة والقادمة للتعرف على تصوف الشيخ وأثره في تنشئة المجتمع المسلم.

أسئلة البحث:

يحاول البحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

س1: ما هو التصوف السني؟

س2: ما هو التصوف الفلسفي؟

س3: ما الفرق بين التصوف السني، والفلسفي؟

س4: هل ما يشاع عن الشيخ الأسمر حقيقة؟

س5: هل طريقة الشيخ سنية؟

خطة البحث:

المبحث الأول يشمل تعريف التصوف، رأي ابن تيمية في التصوف، تبرئت ابن القيم للتصوف، أهم المبادئ التي يقوم عليها التصوف، التصوف السني والتصوف الفلسفي والفرق بينهما، تعريف التصوف السني، خصائص التصوف السني، تعريف التصوف الفلسفي، خصائص التصوف الفلسفي

المبحث الثاني يشمل اسمه، ونسبه، ومولده، تربيته ومن كفله، مؤلفاته، وفاته موقفه من أدعياء التصوف، قواعد التصوف

تعريف علم التصوف:

تعريف التصوف لغة: "تصوّف يتصوّف تصوّفاً، فهو متصوّف، وتصوّف الشخص أي لبس الصوف وصار صوفياً واتباع سلوك الصوفية وحالاتهم"⁽¹⁾

(1) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفار، دار العلم للملايين/بيروت، الطبعة الرابعة

1987 ج 4، ص 481.

تعريف التصوّف اصطلاحاً: تختلف تعريفات التصوّف وتباين، باختلاف مشارب القوم، وتجاربهم في الوصول إلى الله - سبحانه وتعالى-؛ فكلّ واحد منهم عرّفهم حسب الحال الذي هو فيه نذكر أهمّ التعريفات، "علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس، أي عيوبها وصفاتها المذمومة من الغلّ، والحقد، والحسد، ونحوها"⁽¹⁾ ويعرّف أيضاً بأنه "طريقة في السلوك تعتمد على التّقشّف ومحاسبة النفس، والانصراف عن كلّ ما له علاقة بالجسد والتحلّي بالفضائل تزكية للنفس وسعيّاً إلى مرتبة الفناء في الله تعالى إيماناً بالمعرفة المباشرة أو بالحقيقة الروحية"⁽²⁾

والتصوّف عقيدة وعلم وعمل، فلا تصوف إلاّ بفقّه، ولا فقّه إلاّ بعقيدة وإيمان؛ إذ لا يعرف حكم الله إلاّ به، وهو ما قاله الإمام مالك: "من تصوف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن تفقّه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق"⁽³⁾، وقد قال الجنيد: "من لم يحفظ ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأنّ علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"⁽⁴⁾ والتصوف هو جانب من جوانب الدعوة إلى الله تعالى، فمن شروط الدعوة أن تكون مبنية على كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا ما دعا إليه أبو الحسن الشاذلي (656هـ) حيث قال: "من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو بدعي"⁽⁵⁾

ويؤكد الشيخ زروق على ذلك إذ يقول: "اعلم أنّ الفقّه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه وتعالى... فلا تصوف إلاّ بفقّه؛ إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلاّ منه، ولا فقّه إلاّ بتصوّف؛ إذ لا حقيقة للعلم إلاّ بالعمل، ولا عمل إلاّ بصدق التّوجه، ولا هما إلاّ بالإيمان؛ إذ لا يصلحان دونه، فهو بمنزلة الرّوح، وهما بمنزلة الجسد، لا ظهور له إلاّ بهما، ولا كمال لهما إلاّ به، وهو مقام الإحسان."⁽⁶⁾

(1) شرح ميارة على ابن عاشر، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية/بيروت سنة 2000
179/2

(2) التعريفات، علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/بيروت، الطبعة الأولى 1405هـ، ص 115.

(3) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد عرفة الدسوقي، تحقيق محمد عيش، دار الفكر/بيروت، الطبعة الأولى،
178/2

(4) الرسالة القشيرية، للقشيري، تحقيق عبد الحلّيم محمود، دار المعارف الكبرى القاهرة، ص 67.

(5) قضية التصوّف، عبد الحلّيم محمود، ص 15.

(6) عدة المرید الصادق، الشيخ زروق، تحقيق الصادق الغرياني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ص 45

والتصوف هو دعوة أصحاب المذاهب الأربعة وقد مرّ معنا قول الإمام مالك حول حثّه على التصوف؛ أمّا ما يثار من بعضهم أنّ أحمد بن حنبل (240هـ) قد اعترض على تصوّف المحاسبي (243هـ) فالواقع فيما يذكره المؤرخون أنه عاد فأمن بموقفه، وإنما نصحه بالبعد عن الآراء الكلامية⁽¹⁾ وهذا ما نقله البغدادي في كتابه تاريخ بغداد بقوله: "وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام وتصانيف الكتب فيه أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب أنبأنا محمد بن نعيم الضبي... قال سمعت الإمام أبا بكر أحمد بن إسحاق يعني الضبي يقول: سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول: قال لي أحمد بن حنبل يوماً: يبلغني أن الحارث يكثر الكون عندك فلو أحضرتك منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه، فقلت السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله، وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله فقصدت الحارث، وسألته أن يحضرنا تلك الليلة، فقلت: وتساءل أصحابك أن يحضروا معك، فقال يا إسماعيل فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب -عصارة الدهن- والتمر، وأكثر منهما ما استطعت، فعلت ما أمرني به. وانصرفت إلى أبي عبد الله فأخبرته، فحضر بعد المغرب، وصعد غرفة في الدار فاجتهد في ورده إلى أن فرغ، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا الصلاة العتمة -العشاء- ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث وهم سكون لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث مسألة، فأخذ في الكلام وأصحابه يسمعون كأن على رؤوسهم الطير، فمنهم يبكي، ومنهم من يزعم وهو في كلامه. فصعدت الغرفة لأتعرّف حال أبي عبد الله -أحمد بن حنبل- فوجدته قد بكى حتى غشي عليه، فأنصرفت إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقاموا وتفرقوا فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغير الحال فقلت: "كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلم أنني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وقفت من أحوالهم فإني لا أرى لك صحبتهم، ثم قام وخرج"⁽²⁾

وأثنى الإمام الشافعي على أهل التصوف فقال: "صحبت الصوفية فما انتفعت منهم الا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته والا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق والا شغلتك بالباطل"⁽³⁾

(1) التصوف السني بين الوهم وسوء الفهم، حسين عكاش، مجلة الأسمرية، العدد الثاني والعشرون، ص 206، 207

(2) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق بشير عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، (104/9)

(3) مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقيه، دار الكتاب العربي/بيروت، الطبعة الثانية، 3/128

وسبب اختلاف أهل التصوف في تحديد مفهومه ووضع تعريف محدد له يرجع إلى أمرين⁽¹⁾:

الأول: أن كل واحد منهم عرف التصوف بما انكشف له من مهنه وما مر به من أذواق وأحوال ومقامات، وهذا من طبيعة الأشياء، فلو عبارة كل منهم ستختلف عن الآخر بحسب ما انكشف لكل منهم، من جمال هذا المنظر وروعة صوته وتوزيع ألوانه فكيف لا يختلف الصوفية في تحديد مفهوم التصوف، وهو أمر مداره على القلب والروح والتجربة الذاتية.

والأمر الثاني: أن اختلافهم في التعريف يرجع إلى الغاية من التصوف، فمن رأى أن الغاية من هي تهذيب النفس، وطهارة القلب، وضبط الإرادة، وإلزام الإنسان بالأخلاق الفاضلة، فإنه يأتي تعريفه للتصوف معبرا عن ذلك، فأصحاب هذه الغاية تدور كل تعريفاتهم على أن التصوف أخلاق وآداب وطهارة قلب، وهذا التصوف يتميز بأنه تربوي، وتغلب عليه الصبغة العملية، ومن تجاوز هذه الغاية إلى غاية أبعده، وهي معرفة الله تعالى فإن تعريفه للتصوف يأتي بحسب ما انكشف ل من المعرفة، فأصحاب هذه الغاية يعتنون بشكل خاص بالكلام علي مناهج المعرفة وأدواتها ويؤثرون بينهما بالكشف، ولا شك أن معرفة الله تؤدي بالإنسان إلى الالتزام بالآداب الشرعية والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والوقوف عند حدود الله أمرا ونهيا وفعلا وتركيا، وعلي هذا يظل هناك أساس واحد للتصوف لا خلاف عليه، وهو أنه أخلاقيات مستمدة من الإسلام، وهو ما أشار إليه ابن القيم - رحمه الله - قائلا: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق"⁽²⁾، وعبر عنه الكفاني بقوله: "التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء"⁽³⁾

وسئل أبو محمد الجريري عن التصوف فقال: "الدخول في كل خلق سني وانخروج من كل خلق دني"⁽⁴⁾

يقول الدكتور أحمد الشرباصي: وقد اهتم الصوفية أكبر الاهتمام بالأخلاق، بل لقد

(1) مفهوم التصوف في الإسلام، بشير القلعي، مجلة الجامعة الأسمرية، العدد السادس، ص 62.

(2) مدارج السالكين، ابن القيم، (3/133)

(3) الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، (1/57)

(4) السابق (1/78)

جعلوا الأخلاق في مناهجهم هي العماد والسناد، فهي عمود أمرهم كله بحيث لو رفعت كلمة ((التصوف)) ووضعت بدلها كلمة ((الأخلاق)) لما فارقت الحقيقة، ولما جانبت الواقع في قليل أو كثير، لأن العمدة في التصوف على مجاهدة النفس وتطهيرها، وتحليلها بكل جمال وكمال، وهذا جماع مكارم الأخلاق

ابن تيمية والتصوف:

يقول ابن تيمية في التصوف: "وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد بن محمد وأتباعه و مثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وتوصية بإتباع ذلك، وتحذيراً من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك وهذا هو الفرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه، والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على إتباع الأمور وترك المحظور والصبر على المقدور ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون إتباع الأمر والنهي"⁽¹⁾ وقال مادحا الإمام الجنيد: "فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى ونجا وسعد"⁽²⁾ وقال في بقية الأئمة: "أنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة، مثل سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، والشافعي، وأبي سليمان، وأحمد بن حنبل، وبشر الحافي، وعبد الله بن المبارك، وشقيق البلخي، ومن لا يحصى كثرة"⁽³⁾

ابن القيم يثني على الشيخ الهروي:

"والله يشكر لشيخ الاسلام "الهروي" سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مریده "ابن القيم" سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه ما فعل. كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من استاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحة يقظة ومناما، وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر، ولا يبادر الي

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد لكافة المصحف الشريف ص 8 / 369

(2) السابق، ص 14/355

(3) مجموع الفتاوى ص 2/425

الانكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له "احط بما لم تحط به" وليس شيخ الاسلام أعلم من نبي الله سليمان وليس المعترض بأجهل من هدهد، والله المستعان وهو أعلم" (1)

ابن القيم يبرئ أهل التصوف:

قال -رحمه الله تعالى-: فاعلم أن في لسان القوم "أي الصوفية" من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم، ولهذا يقولون: "نحن أصحاب اشارة ولا أصحاب عبارة، و"الاشارة لنا والعبارة لغيرنا".

وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه. وصار هذا سببا لفتنة طائفتين: طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدعوهم وضللوهم" (2)

أهم المبادئ التي يقوم عليها التصوف السليم

يقوم التصوف السليم البعيد عن الغلو والتطرف على مجموعة من الأسس والمبادئ التي تمثل الجانب الأكبر من فلسفته ومرتكزاته ومن أهمها ما يلي:

أولاً: إن التصوف السليم ينطلق من مقام الإحسان الذي يعني المراقبة لله في كل شيء، ولا يعني بأي حال من الأحوال الغلو في الدين أو المبالغة في الزهد.

ثانياً: يعتبر الزهد أحد الأركان الأساسية للتصوف الصحيح وهو مرتبط بالمعرفة والعبادة، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد زروق -رحمه الله تعالى- في القاعدة العاشرة من قواعده التي وضعها للتصوف السليم: ((فلا بد من للعارف من عبادة، وإلا فلا عبرة بمعرفه إذا لم يعرف معبوده، ولا بد من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده إذا لم يعرض عن سواه، ولا بد للعباد منهما، إذ لا عبادة إلا بمعرفة، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد، وإلا عاد بطلالة، نعم من غلب عليه العمل فعابد أو الترك فزاهد أو النظر لتصريف الحق فعارف، والكل صوفية...)) (3)

ثالثاً: الإيمان بأن الوصول إلى الله تعالى لا يستلزم الفناء التام في الله تعالى وبأن قرب

(1) مدارج السالكين، ابن القيم، 2/52

(2) مدارج السالكين، ابن القيم، 3/330

(3) قواعد التصوف، أحمد زروق، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ص 7، 8

الإنسان من الله عز وجل لا يقتضي أن يفني وجود الله، كما يقول أتباع الحركة الاشرافية، فالصوفي الحقيقي هو الذي يشيد بالذات القوية التي تعلو على الفناء، وتحفظ بإنسيتها حتى في أشد المراتب والمقامات الصوفية.⁽¹⁾

التصوف السني، والتصوف الفلسفي والفرق بينهما:
تعريف التصوف السني:

التصوف السني هو "قطع عقبات النفس، والتخلص إلى حرية التقوى، وتحقيق الحب لله تعالى، حالاً ومقاماً، فينتج عنه العلم والعمل على وجه الإخلاص، وتحديد الإرادة الصادقة لله.

خصائص التصوف السني:⁽²⁾

إن للتصوف السني خصائص تميزه عن التصوف الفلسفي من أهمها:

- 1 مصادر التصوف السني إسلامية أصلية، تتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية، وحياة الصحابة رضوان الله عليهم، والزهاد الأوائل من المسلمين.
 - 2 العناية بالجانب الأخلاقي، والتعمق في دراسته، والتأكيد على أهمية تصفية النفس من الآفات، ومذموم الخلاق للتوصل إلى تحقيق القيم الأخلاقية الخيرة.
 - 3 الفناء في التوحيد، والاتزان في التعبير عن دقائقه، والابتعاد عن الأقوال المنحرفة في الفناء.
 - 4 التصوف لا يحصل إلا بالذوق، فمن الأقوال المشهورة عندهم "من ذاق عرف" فمن لم يسلك طريق القوم لا يمكنه معرفة حقيقته والحكم عليه.
 - 5 اتباع التصوف السني يحقق السعادة والاطمئنان وراحة القلب؛ بمعرفة الله عز وجل، والمداومة على ذكره.
 - 6 استخدام الرمزية في التعبير، واصطناع لغة اصطلاحية خاصة بهم يعبرون من خلالها عن تجاربهم.
- ومن أبرز شخصياته: معروف الكرخي، ذو النون المصري، سهل التستري، الإمام

(1) غايات التصوف وأهم المبادئ التي يقوم عليها، ناصر الهنتقاري، مجلة الجامعة الأسمرية، ص 295، 296

(2) التصوف السني والتصوف الفلسفي، ياسر محمد جابر، خالد عبد الله العون، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص 6

الجنيد، والعز ابن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وقد صمد التصوّف السنّي في وجه كلّ التحديات والأفكار بفضل أبو حامد الغزالي.

تعريف التصوف الفلسفي:

التصوف الفلسفي شكل آخر من أشكال التصوف فهو غير التصوف السنّي من حيث المفهوم والجوهر، ويقصد به "هو التصوف النظري الذي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارتهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنه مصطلحاً فلسفياً ينتمي إلى الفلسفة وعلم الكلام أكثر مما ينتمي إلى التصوّف"⁽¹⁾، وقد ظهر التصوف الفلسفي في القرنين السادس والسابع الهجريين خصوصاً مع ظهور الشيخ محي الدين ابن عربي ت (638هـ)⁽²⁾، وقد نقد أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) هذا النوع من التصوف وعدّه من الانحراف؛ لأنّ رواه يقولون بالحلول والإباحة ورؤية الله في الدنيا، وكذلك سار على نهجه الفخر الرازي وهاجمهم بحجج قوية في كتابه (المسائل الخمسون)⁽³⁾.

ويمكن القول بأن التصوف والفلسفة بينهما صلة تتمثل في أنّ للمتصوفة نظرة خاصة في تحديد معاني الألفاظ ودلالاتها يمكن النظر فيها ومقارنتها مع الآراء الفلسفية المختلفة في هذا المجال⁽⁴⁾.

والتصوّف الفلسفي لا يمكن اعتباره فلسفة؛ لأنّه قائم على الذوق، كما لا يمكن اعتباره تصوّفًا خالصاً؛ لأنّه يختلف عن التصوّف الخالص في أنّه معبر عنه بلغة فلسفية، وينحو إلى وضع مذاهب في وحدة الوجود أساساً، فهو بين بين⁽⁵⁾.

ويرى الشيخ محمد زكي إبراهيم أنّ الذين اشتهروا بهذا الجانب عدد محدود، وسواء قبلت فلسفتهم التأويل والتوجيه أو لم تقبل، فهؤلاء قد انتهى أمرهم نهائياً، وليس لفلسفتهم اليوم معتقد، ولا دارس⁽⁶⁾.

(1) مدخل إلى التصوف الإسلامي، التفتازاني، ص 187.

(2) مدخل إلى التصوف الفلسفي، إبراهيم ياسين، كلية الآداب جامعة المنصورة، ص 19

(3) مدخل إلى التصوّف الإسلامي، التفتازاني، 145

(4) منهجية لدراسة التصوّف، عبد الله زروق، الحركة الإسلامية الطلابية، 1995م، ص 54

(5) مدخل إلى التصوّف الإسلامي، التفتازاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 191.

(6) أجدية التصوف الإسلامي، محمد زكي إبراهيم، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، الطبعة الخامسة، ص 16.

ومن رواد هذا التصوّف ابن سبعين والحلاج وابن عربي

موضوعات التصوف الفلسفي: (1)

- 1- إنّ عناية أصحاب التصوف الفلسفي كانت متجهة إلى موضوعات نظريات الوجود على دعائم من الذوق، ينطلقون منها إلى تلوين كلّ مسائل تصوّفهم الأخرى بلونها.
- 2- المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال.
- 3- الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح، وحقائق كل موجود غائب شاهد، وترتيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكوّنها.

4- التصرفات في العالم والأكوان بأنواع الكرامات، أو خوارق العادات.

- 5- صدور الألفاظ الموهمة والتي تعرف بالشطحات، وهي العبارات التي تستشكل ظواهرها، والناس لها بين لها بين منكر ومستحسن ومتأول.

مما سبق يمكننا أن نلخص الفرق بين التصوّف السنيّ والتصوّف الفلسفي فيما يلي:

- 1- يعتمد التصوّف السنيّ على الكتاب والسنة وحياة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، بينما يعتمد التصوّف الفلسفي على الفلسفة الوجودية وغيرها.
- 2- التصوّف السنيّ نشأ عنه طرق مازالت باقية إلى يوم هذا، ولها أتباع كثير ينهلون من مشايخهم ليصلوا إلى الله سبحانه وتعالى، بينما اندثرت واختفت الطرق التي نشأت عن التصوّف الفلسفي؛ بسبب ما أثير حول عقائد أصحابها.
- 3- التصوّف السنيّ تصوّف عملي يقوم على المجاهدة والمكابدة، بينما أتباع التصوّف الفلسفي أصحاب نظريات من الوجود بسطوها في كتبهم وأشعارهم.
- 4- التصوّف السنيّ تصوّف مفهوم لم يصل إلى الرمزية في الكلام ولم يصل إلى درجة الغلو، بينما أسرف أتباع التصوّف الفلسفي في الرمزية فأصبح كلامهم غير مفهوم.
- 5- عرف أتباع التصوّف السنيّ باللين والتواضع، بينما فلاسفة التصوف الفلسفي عرفوا بالتشديد على أنفسهم والغلظة.

المبحث الثاني: الشيخ الأسمر وأثره في التصوّف السنيّ:

علنا قبل الخوض في ذكر شيء من أثر الشيخ في التصوّف السنيّ نعرّف به ولو بالشيء

(1) مدخل إلى التصوّف الإسلامي، أبو الوفا التفتازاني، ص 189

اليسير؛ فقد تناولت حياته الكثير من البحوث.

اسمه ونسبه:

هو عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران بن محيا إلى سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

من جهة أمه:

هو عبد السلام بن السيدة التقية النقية الفاضلة سليمة الدرعية بنت الشيخ العالم العلامة سيدي عبد الرحمن الدرعي، إلى سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

مولده:

ولد الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في يوم الإثنين عشر من ربيع الأول سنة 880هـ - 1475م في مدينة زليتن.

تربيته ومن كفله:

كانت السيدة سليمة فاضلة جليظة حاذقة كيسة تصوم الأيام الكثيرة وتتلوا جزءاً من القرآن فكانت تحنوا على ولديها حنان الأم بطفلها وحتى لا يشعر الابن بمرارة اليتيم وفقدان عاطفة الأبوة.

وكفله عمه الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الفيتوري وكان يحبه وينصحه ويألفه إليه ويلبسه الثياب الثمينة ووضعه في المكتب يقرأ القرآن إلى أن حفظه ولا زال عمره سبع سنين وصار من الماهرين في قراءة القرآن وتجويده وكان عمه سيدي أحمد له باب في الفهم والحفظ وإتقان العربية وغيرها من العلوم وكان هو أول مشايخه في النحو والمنطق والتجويد والفقهاء وكان لا يرضى مفارقتها وقت الدرس.

ما سبب تسميته بالأسمر:

قالت والدته رحمها الله تعالى لما تزايد وكبر وبلغ أربعين يوماً من ولادته أمرت في المنام أن ألقبه بالأسمر وسيكون له سهراً طويلاً في الليالي السمر وقال الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في كتابه "العظمة في التحدث بالنعمة": سميت بالأسمر لمبتي الليالي سمراً في طاعة ربي -عز وجل-.

مؤلفاته - رضي الله عنه:-

- 1 - الوصية الكبرى.
 - 2 - الوصية الصغرى.
 - 3 - الوصية الوسطى.
 - 4 - العظمة في التحدث بالنعمة.
 - 5 - رسالة مختصرة في العقيدة الإسلامية وأصولها.
 - 6 - الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة "بالطريقة العروسية الشاذلية"، وهو الكتاب الذي نحن بصدد دراسته.
 - 7 - نصح التقريب في حق الفقراء والنقيب.
 - 8 - التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية.
- ولديه مجموعة أحزاب وأوراد ووظائف وقصائد وهي أكثر انتشاراً في الطرق العروسية.

وفاته - رضي الله عنه وأرضاه:-

ذكر صاحب تنقيح روضة الأزهار ما ملخصه: "أن سيدي عبد السلام الأسمر جمع الأحباب في خلوته ثم نظر إليهم وقال مرحبا بكم يا نعم الأصحاب والأحباب والأولاد وقال إن الرحيل قد قرب من دار الدنيا إلى دار الآخرة وقال - رضي الله عنه - أحملوني إلى بلاد جنسي الفواتير لمرض عندهم ونقبر في مقابرهم ثم قال إخواني أوصيكم بتقوى الله العظيم وبالإحسان للحاضر والغائب واعطوا لكل ذي حق حقه، وارحموا الفقراء والمساكين، واجبروا خاطر المجذوبين، وإذا مت يغسلني سالم بن طاهر، والذي يصب الماء على عمر بن حجا.

وهو يؤمكم في الصلاة يده فوق أيدي أولادي صلباً وأوصانا بأحزابه وأحزاب الإمام الشاذلي وأمر بإحضار ماء فتوضأ وشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فما زال يكررها حتى خرجت روحه الطاهر عصر يوم الخميس في العشرة الأواخر من رمضان 981 هـ، وبات مغسلاً في خلوته ودفن بعد صلاة الجمعة في زاويته المعروفة بزليتن - رضي الله عنه -

وبعد ذكر الشيء اليسير عن الشيخ نتكلم عن أثره في التصوّف السني، فهو من أبرز رواده فقد نهلنا على يده العديد من نشرات الدين القويم، وقاموا بواجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، على هدى ونور، نهلوا من علمه، وكان لهم الفضل في تبين الزيغ والضلال الذي وقع فيه المسلمون، ولعلنا في هذا البحث نبين كيف سار الشيخ -رحمه الله تعالى- على خطى الأوائل من علماء الأمة، وسأذكر قواعد التصوف عنده؛ لنخرج بشيء يعلم من خلاله القاصي والداني أنّ الشيخ الأسمر لمن يكن كما يشاع، وإنّما هو داعية إلى الله على بصيرة.

فالشيخ لم يكن يوماً يدعو إلى ضلال أو إلى دروشة؛ وإنّما كان دائماً يبدأ في رسائله ووصاياه بالدعوة إلى التوحيد أولاً ومن ثمّ اتباع الكتاب والسنة، والتزام الأخلاق المحمدية على صاحبها أشرف الصلاة والتسليم، وسأذكر أهم القواعد مدلاً بكلام الشيخ من رسائله ووصاياه والله من وراء القصد.

قواعد التصوف عند الشيخ:

العلم قبل العمل:

يرى الشيخ أنّه على المسلم أن يعلم حكم الله تعالى قبل أن يقدم على أي عمل حتى لا يقع في الزندقة كما قال الإمام مالك -رضي الله عنه- فقال: ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق" لذلك دعا الشيخ إلى تعلّم قبل العمل فقد قال: "وعليكم بإتقان الفاتحة وتجويدها وحفظها ومعرفة آياتها وعدتها ومعرفة مواقيفها والتفريق بين الضاد والطاء، وحفظ السور المفصّلات وما تصحّ الصلاة به، وعليكم بمعرفة فرائض الطهارة من الجنابة والوضوء والصلاة، وعليكم بمعرفة التيمم، وعليكم بمعرفة سجود السهو، وعليكم بمعرفة صلاة الخوف وصلاة السفر، وعليكم بمعرفة فرائض الحج وسننه وفضائله، وعليكم بمعرفة فرائض الصوم وما يصحّ به وما يبطله، وعليكم بمعرفة فرائض الزكاة من نصاب أو أكثر أو أقلّ كذهب أو فضة أو غير ذلك" (1)

وما يدلّ على أن الشيخ يدعو للعلم واتباع العلماء قوله: "وعليكم بحبة أهل العلم العاملين به، ومزاحمتهم والمشي معهم وزيارتهم، واعتقاد الخير فيهم، وهم مثل الذي يرفع علما

(1) الوصية الكبرى، الأسمر، الطبعة الأولى 1976، منشورات مكتبة النجاح ص 4

للناس يتبعونه، وهم أصحاب النور في الدنيا والآخرة" (1).
ذم الدنيا:

على المسلم ألا يكون همه الدنيا وجميع المال فيها؛ لأنها مطية المؤمن، وطريقه إلى الآخرة، وهذا ما يريّ العلماء عليه مرديهم حيث قال الشيخ: "اعلموا أرشدنا الله وإياكم أنّ الدنيا دار من لا دار له، وأنّها دار فناءٍ ولا إقامة لأحد فيها إلاّ الذي أنشأها من العدم، بها يفرح من لا يقين له، والله لا يحب الفرحين، وعليها يحرص من لا توكل له، عيشها مذموم، وبنائها مهدوم، وميتها إن كان من الذاكرين مرحوم، فهذا حال أهلها ولا يبقى إلاّ الحي القيوم" (2) فهذا هو كلام الشيخ ينبّه أبناءه للابتعاد عن حبّ الدنيا، ولا يجعلوها همهم. وقال أيضاً: "إياكم وحب الدنيا الدنيّة الجيفة متاع الكلاب والذئاب، فعمارها خلاء، وأسواقها بلاء، واتباعها شقاء، وهي ليست دار بقاء، فانبذوها وراء ظهوركم ولا تتبعوها فتغرقوا فيها، فهذه دنيا دنيّة الملاهي والدواهي تحلي قلوب الخلق وتتركهم عن طاعة الله سواهي، دار المحن والفتن والحزن فتركوها ولا تلتفتوا إليها، وهي خائنة غدارة غرورة؛ فضلّ الشيخ والكهل والشاب والصبي وتهلك الفارس بفرسه، وتنزع العالم بعلبه، وتدس العابد بعبادته، وتغرّ الصانع بصنعتة، كم أهلكت قبلكم من قرون" (3).

التزام الأدب:

قال الشيخ الأسمر موصياً مرديه بالأدب في كلّ حال من ذلك قوله: "وعليكم بالأدب مع الله، ومع رسوله، ومشايخكم، وجميع الخلق من بار وفاجر" (4) وقال أيضاً: "فمن جهل المرید أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول من جهله وانطماس بصيرته: لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب البعاد ولعجل لي بالعقوبة؛ لإساءة أدبي" (5) وقد نقل قول أبو حفص النيسابوري: "التصوّف كله أدب، لكلّ وقت أدب، ولكلّ حال أدب، ولكلّ مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّع الآداب

(1) الأنوار السنيّة، الأسمر، ص 7.

(2) الوصية الصغرى، وصية للشيخ الأسمر مخطوط (مركز الوثائق والمخطوطات بالزاوية الأسمرية) ص 1، 2.

(3) الوصية الكبرى، الأسمر ص 15.

(4) رسائل الأسمر إلى مرديه، الأسمر، تحقيق مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى 2004

ص 290.

(5) رسائل الأسمر إلى مرديه، الأسمر، ص 290.

فهو بعيد من حيث يظنّ القرب، ومردود من حيث يظنّ القبول⁽¹⁾، ومن الآداب التي أمر الشيخ بها أتباعه عدم التعالي على الخلق فقال: "ولا تحقروا أحداً من خلق الله، ولا تظلموا رجلاً من عباد الله ومن جميع الخلائق كلهم ولو كان يهودياً أو نصرانياً"

ومن الآداب التي دعا إليه الشيخ في تصوّفه حفظ اللسان عن قول القبيح ونحوه حيث قال: "ومن شروط التوبة: حفظ اللسان من الكلام القبيح، وجميع فواحشه، وحفظ القلب من الاعتقاد الفاسد في حقه سبحانه وتعالى، وفي حق رسله وأنبيائه، وفي حق ملائكته وأوليائه وجميع خلقه"⁽²⁾.

السلوك على يد شيخ:

يقول الشيخ: "أخذ العهد له أصل في الشرع العزيز؛ لأنّ الله تعالى أخذه من الأرواح قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا}"⁽³⁾ قال: هلموا أعهدكم، وإليه الإشارة بقول العلماء: يوم ألت

بربكم.⁽⁴⁾

يقال: "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"، ويقال: "من شيخه كتابه، غلب خطأه صوابه" ولا شك أنّ علم التصوّف هو أهمّ العلوم التي لا بدّ للطالب فيها من شيخ يأخذ بيده من مصائد الشيطان كما قال ابن عاشر:

يصحب شيخاً عارفاً المسالك يقيه في طريقه المهالك

لذا قال الشيخ عندما تكلم عن طلبه للعلم والتقائه بالشيخ الدوكالي: "والحال أن كل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن نفسه القناع؛ فهو في هذا الشأن كاللقيط لا أب له، ولا داع ينتسب إليه"⁽⁵⁾ وهنا الشيخ -رحمه الله تعالى- يردّ على من يقال إنّ أهل التصوف يأخذون عقائدهم وعباداتهم من أهواءهم؛ فكيف لم له شيخ يتبع الكتاب والسنة، ويتربّى عليهما أن يرضى بسواهما، وكذلك على أدياء الطريق،

(1) السابق، ص 293

(2) الوصية الكبرى، الأسمر، ص 6.

(3) الأعراف 172.

(4) رسائل الأسمر إلى مردييه، الأسمر ص 117.

(5) الأنوار السنية والذنن البهية في طريق أهل الله الصوفية، الشيخ الأسمر مكتبة سيدي حمودة، 1964، ص 4.

والدخلاء الجهال الذين يقولون لا نأخذ على أحد فنحن بنوا فلان وفلان قال الشيخ في حق هؤلاء: "والعجب مما رأيت من بعض الجهلة يزعمون أنهم فقراء فإذا رأوا أحداً يريد الانتساب إلى شيخ معين من شيوخ العصر يمنعون منه، ويقولون له بجهلهم أنت يا فلان لا تحتاج إلى شيخ فنحن نكفوك عنه فإن طريقتنا لا تحتاج إلى شيخ بل إذا اجتمع ثلاثة منا ولقنوك الذكر اكتفيت" وعقب ذلك قال الشيخ: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون"⁽¹⁾.

ويرى الشيخ أن الذي يلقي إليه المرید نفسه لا بد أن تتوفر فيه شروط خمس وهي: "علم صحيح، وذوق صريح، وهمّة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة"⁽²⁾ كما يؤكد الشيخ أن التربية لا يمكن أن تقطع في زمن من الأزمان حيث قال: "لا يحلّ لمسلم أن يقول التربية انقطعت مستدلاً بما ذكره مولانا زروق وغيره، وكم رأينا من مشايخ بعد مولانا زروق ومولانا عبد الواحد كالشيخ سيدي محمد بن حجلة، وسيدي عبد الحميد بن إجلال - وهما من أعظم المرين- وأضرابهما ومن سمعنا به أكثر فلا يصحّ حمل ذلك الكلام وإطلاقه ففي كل عصر سادة وقادة"⁽³⁾.

اتباع السنّة والنبي عن البدعة:

الخير كلّ في اتباع النبي، والشر كلّ في الابتداع لذا نجد الشيخ الأسمري يدعو أتباعه لاتباع سنة النبي، مهتدياً بقوله: "مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ"⁽⁴⁾ فيقول: "وعليكم بالأدب وحسن الجواب، واتباع السنّة والكتاب"⁽⁵⁾.

بنى الشيخ الأسمري تصوّفه على العقيدة الصحيحة فأول ما بدأ به وصيته لمريديه فالوصية الكبرى قوله: "عليكم بالتوحيد، وحفظ العلوم، واتباع السنّة والقرآن، وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليكم عقائد الإيمان؛ فلم يعرف العقائد فليس بعارف"⁽⁶⁾ ويردّف الشيخ

(1) السابق، ص 4.

(2) رسائل الأسمري إلى مردييه، الأسمري، ص 115

(3) السابق، ص 115.

(4) الجامع الصحيح، مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (4/1829/1337).

(5) الأنوار السنّة، الأسمري ص 6.

(6) الوصية الكبرى، الأسمري، ص 4.

قائلاً: "فعلَيْكُمْ بمعرفة الصفات وأضدادها وما يندرج تحتها، وما يجب في حقّ الرسل عليهم السلام وما يستحيل وما يجوز، وكذا في حقّ الملائكة عليهم السلام"⁽¹⁾ وقد عدّ الشيخ حفظ القلب من الاعتقاد الفاسد من شروط التوبة فلا يعتقد المسلم إلا ما يليق به سبحانه وتعالى ويليق بأبيائه وملائكته⁽²⁾ وقال "فلا تعتقدوا إلا ما يوافق الشرع العزيز"

مما دعا الشيخ وبني عليه تصوفه تصحيح الإيمان ومن ذلك قوله لمريديه راشد المقرحي: أوصيك بوصية رسول الله، لأصحابه وأمته وهي: معرفة الله تعالى والتمسك بالكتاب والسنة إذا علمت ذلك فاعلم أني أوصيك بتصحيح إيمانك على ما مرره الإمام الأشعري، والقدوة إمامنا السنوسي في عقائده.

وقد نهى الشيخ -رحمه الله- تعالى على اتباع أهل البدع والعقائد الزائفة من ذلك قوله: "واعلموا أن الله تعالى هو الفاعل في الحقيقة، وإياكم والأمر التي تؤدي إلى التعزل والتزندق وأفعال القدرية والجبرية وغيرهما من الفرق"⁽³⁾.

موقف الشيخ من أدعياء التصوف:

نجد أن بعض المنتسبين إلى التصوف والمدعين به غرضهم هو هدم هذه الطريقة، ونجدهم يتكلمون علماء التصوف ويفترون عليهم وهم بريئون منهم كل البراءة.

ف نجد بعض المنتسبين إلى الشيخ عبد السلام الأسمر يفعلون أشياء متبرئ منها الشيخ فمثلاً الضرب بالسكين في الحضرة ولحس المناجل وأكل الحديد والجمر وعدم الصلاة في وقتها والصراخ الذي في الحضرة فإن الشيخ برئ منهم كل البراءة، فدعنا من كل هذا الكلام ونترك الشيخ عبد السلام الأسمر ماذا قال؟

قال سيدي عبد السلام الأسمر: "من الجنون ومن عمل الشيطان ومن الاستدراج ومن مخالفة السنة الشريفة المطهرة أكل السمومات ولحس مناجل الحديد المحماة على النار والضرب بالسيوف والسكاكين عن اليمين وعن الشمال وفي بطنه وقال -رضي الله عنه:- حضرتنا صباغة غسالة تغسل جميع الأوساخ"⁽⁴⁾ "أي الذنوب وغيرها".

(1) السابق، ص 4.

(2) الوصية الكبرى ص 6.

(3) رسائل الأسمر لمريديه ص 134.

(4) السابق ص 11.

وقال أيضا: "حضرتنا قوية تنبت الأولياء كما ينبت البقل السيل والله الله" وقال أيضا: "والله والله ما من أحد افتخر علينا أو استهزأ بنا أو تكبر علينا بغيرنا لا تظهر له نتيجة ولا بركة ولا تفتح له شجرة، والله والله لا يرحم من عاندنا".

وقد يظهر من حين إلى آخر من يدعي أنه من أتباع الطريق؛ ولكنه يبغض من يتبع السنة أو يبغض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ظناً أنه ينتصر لآل البيت رضوان الله عليه، فالشيخ الأسمر يحذر من هذا الصنيع حيث قال: "واعلموا رحمكم الله أن محبته -صلى الله عليه وسلم- لا تصح إلاّ باتباع سنته ومن أحبه وادعى محبته ولم يتبع طريقه فليس محباً ولم يحب أصحابه وآله بمثل ذلك فهو كاذب في محبته؛ لأنّ حقيقة المحبة اتباع المحبوب وأن لا يخالف محبته في شيء وإلاّ فليس محب" (1).

كما أنّ هناك من يدعي أنه على منهج القوم ويتعامل بالسحر والشعوذة والأكاذيب واضعاً هذه المنكرات على شماعة القوم فنجد الشيخ يحذر من ذلك فيقول: "وإياكم والسحر والشعوذة فإنّه كفر وردة، وكذلك عقد الرجل عن امرأته، واستعمال الفراق بين المرأة وزوجها، وتحرم التجربة والتماريض والمحبة في غير طاعة الله سبحانه وتعالى" (2).

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث توصلت للنتائج الآتية:

- 1 للتصوف السني في ليبيا حضور قديم يقدم أعلامه وعلى رأسهم الشيخ عبد السلام الأسمر.
- 2 خالط التصوف السني في ليبيا بعض الأمور التي لم يوافق عليها أعلام التصوف في هذا البلد
- 3 متانة وقوة ركائز التصوف عند الشيخ عبد السلام الأسمر.
- 4 اعتماد الشيخ عبد السلام الأسمر في تصوفه على الكتاب والسنة.
- 5 تبرّء الشيخ عبد السلام من بعض أدياء التصوف الذين حاولوا أن يدخلوا بعض أعمال الدروشة على التصوف السني الحقيقي.

أهم التوصيات:

- 1 على الجامعات الإسلامية والمراكز البحثية تكثيف الجهود والدراسات والأبحاث حول

(1) السابق 9

(2) الوصية الكبرى ص 17.

التصوف الحقيقي في ليبيا.

2 أمل من زاوية الشيخ الأسمر والجامعة الأسمرية إقامة مؤتمر علمي حول تصوف الشيخ.

المصادر والمراجع

أولاً القرآن الكريم

ثانياً: المصادر الأساسية:

- 1 الوصية الكبرى، الأسمر، الطبعة الأولى 1976، منشورات مكتبة النجاح.
 - 2 الوصية الصغرى، وصية للشيخ الأسمر مخطوط (مركز الوثائق والمخطوطات بالزاوية الأسمرية).
 - 3 الأنوار السنية والمنز البية في طريق أهل الله الصوفية، الشيخ الأسمر مكتبة سيدي حمودة، 1964.
 - 4 رسائل الأسمر إلى مرديه، الأسمر، تحقيق مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى 2004.
- ثالثاً: المصادر الثانوية:
- 1 أبجدية التصوف الإسلامي، محمد زكي إبراهيم، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، الطبعة الخامسة.
 - 2 الجامع الصحيح، مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
 - 3 تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفار، دار العلم للملايين/بيروت، الطبعة الرابعة 1987.
 - 4 تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق بشير عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى.
 - 5 التعريفات، علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/بيروت، الطبعة الأولى 1405 هـ.
 - 6 التصوف السني والتصوف الفلسفي، ياسر محمد جابر، خالد عبد الله العون، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.
 - 7 التصوف السني بين الوهم وسوء الفهم، حسين عكاش، مجلة الأسمرية، العدد الثاني والعشرون.
 - 8 حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد عرفة الدسوقي، تحقيق محمد عليش، دار

- الفكر/بيروت، الطبعة الأولى.
- 9 الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، دار المعارف/القاهرة.
- 10 شرح ميارة على ابن عاشر، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية/بيروت سنة 2000.
- 11 عدة المرید الصادق، الشيخ زروق، تحقيق الصادق الغرياني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.
- 12 غايات التصوف وأهم المبادئ التي يقوم عليها، ناصر الهنقاري، مجلة الجامعة الأسمرية، العدد السادس.
- 13 قواعد التصوف، أحمد زروق، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
- 14 مدخل إلى التصوف الفلسفي، إبراهيم ياسين، كلية الآداب جامعة المنصورة، الطبعة الأولى.
- 15 مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقيه، دار الكتاب العربي/بيروت، الطبعة الثانية.
- 16 منهجية لدراسة التصوف، عبد الله زروق، الحركة الإسلامية الطلابية.
- 17 مدخل إلى التصوف الإسلامي، التفتازاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 18 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد لكتابة المصحف الشريف.
- 19 مفهوم التصوف في الإسلام، بشير عبدالله القلعي، مجلة الجامعة الأسمرية، العدد السادس.

التنويه بمؤلفات وآثار الشيخ: محمد بن أحمد العالم، التاجوري أصلاً، المسلاقي موطناً: 1354هـ/1935م

د. عصام علي مفتاح انجيري/الجامعة الأسمرية/كلية الشريعة والقانون

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه، أما بعد:
فهذا بحثٌ قدمته للمشاركة به في المؤتمر الدولي الأول الذي تنظمه كلية الدعوة وأصول
الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية؛ بالاشتراك مع رابطة علماء ليبيا؛ تحت عنوان: "الهوية
الدينية الليبية".

ولما كان المقصود بـ "الهوية" (1) الدينية في ليبيا في هذا المؤتمر: قراءة الإمام نافع
المدني، والعقيدة الأشعرية، والفقهاء المالكي، والتصوف - فإني رأيت المشاركة في هذا
المؤتمر؛ من خلال التعريف والتنويه بتراث أحد العلماء الليبيين، وهو الشيخ: محمد بن أحمد
العالم؛ المولود في مسلاته في حدود سنة: 1269هـ = 1853م، والمتوفى بها أيضاً في:
1354هـ = 1935م، وسميت هذا البحث: ((التنويه بمؤلفات وآثار الشيخ محمد بن أحمد
العالم؛ التاجوري أصلاً، المسلاقي موطناً)).

سبب اختيار الموضوع:

لما كان للشيخ محمد المذكور مصنفات وآثار في: العقيدة، والفقهاء، والآداب، والزهد،
والتربية - وهي أغلب مرتكزات هذا المؤتمر - فقد رأيت أن أنوه بهذه المصنفات، وأجذب
الأنظار إليها؛ حيث إنه لم يطبع منها شيء حتى الآن - حسب علمي -؛ رغم وجود بعضها
فعلاً، وإمكانية العثور على بعضٍ من باقيها. ولعل هذه البحث يكون مفتاحاً لذلك.

أهمية الموضوع:

تأتي أهميته من حيث إنه ينبه على تراث عالمٍ من علماء ليبيا؛ لا يعرفه الكثيرون،
ومن عرفه فإنما يعرف عنه النزر اليسير.

1 الأصل في معنى "الهوية" - بضم الهاء، وكسر الواو -: حقيقة الشيء أو الشخص، وما يميز به عن غيره. انظر: المعجم
الوسيط لمجمع اللغة العربية (2/998).

وإنَّ مما يميِّزُ به هذا الرجلُ عن كثيرٍ من أقرانه في ليبيا - في نظري - أمرين:

الأول: اهتمامه بالتصنيف في العلوم التي اتقنها: العقيدة، والفقه، واللغة؛ نظماً ونثراً، رغم أن كثيراً من علمائنا وعلماء المغاربة عموماً قليلو التصنيف، ويفضِّلون التدريس والتعليم على التأليف والكتابة. وقد جمع الشيخ - رحمه الله - بين الأمرين؛ فأفنى عمره في التدريس، وصنّف في عدّة علوم.

الثاني: عناية الشيخ بنظم العلوم، ومحاذاة العلماء الكبار في ذلك؛ فله أنظامٌ في العقيدة، وألفيةٌ في النحو والصرف، ونظمٌ في الآداب والنصائح، وأنظامٌ متفرقةٌ في التربية، وتزكية النفس.

الدراسات السابقة:

لم أرَ من أفرد للشيخ - رحمه الله - دراسةً خاصّةً به؛ إلا بحثاً جيداً مختصراً - كتبه الدكتور: عبد السلام الشريف العالم - رحمه الله - وهو من عائلة العالم التي ينتمي إليها صاحبنا -، ترجم فيه للشيخ، وذكر ما عرفه من مؤلفاته، وشيئاً من حياته العلمية⁽¹⁾.

ولم أقف بعد على أيّ دراسة اعتنت بتراث الشيخ الشرعي أو اللغوي، أو جمعت حياته وسيرته؛ على الرغم من تفوّقه على كثيرين - في نظري - ممن أفردوا بالبحث والدراسة.

علاقة البحث بالمؤتمر:

يندرج البحث تحت المحور الثاني والثالث من محاور المؤتمر.

منهجية البحث: سرت في البحث على المنهج التوثيقي الذي يقوم على جمع أجزاء البحث المتناثرة، وتحقيق وتوثيق نماذج من مادة البحث، وتاريخ حقبه البحث بحيث يعاد رسمها كما كانت.

خطة البحث:

حيث إنني قد ظفرت بشيء من آثار الشيخ؛ فقد رأيت أن أفيد القارئ من خلال الجمع بين الحديث عن الشيخ ومؤلفاته من جهة، وذكر نماذج وأمثلة لما احتوته هذه المصنّفات

(1) نُشر البحث في العدد (12) من مجلة كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس الغرب، سنة: 1995م.

مِمَّا أَمَكَنَ الْوَقُوفُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَجَاءَتْ خُطَّةُ الْبَحْثِ عَلَى الْوَجْهِ الْآتِي:
مُقَدِّمَةُ الْبَحْثِ: وتشمل أسباب اختيار الموضوع، وأهدافه، ومنهجية البحث، وخطته.

مدخل البحث: التعريف بالشيخ محمد بن أحمد العالم، وفيه خمسة فروع:

الفرع الأول: حياته الاجتماعية. الفرع الثاني: حياته العلمية. الفرع الثالث: أثره في المجتمع.
الفرع الرابع: تأسيسه لزاويته في مسلاته. الفرع الخامس: وفاته، وراثته.

المطلب الأول: التعريف بمؤلفات الشيخ وآثاره، وفيه أربعة فروع؛ الفرع الأول: آثاره في العقيدة، الفرع الثاني: آثاره في الآداب والتربية. الفرع الثالث: آثاره في الفقه. الفرع الرابع: آثاره في اللغة.

المطلب الثاني: نماذج من آثاره، وفيه ثلاثة فروع؛ الفرع الأول: نصوص من أنظامه في التوحيد. الفرع الثاني: نصوص من أنظامه في النصائح والآداب. الفرع الثالث: نصوص من فتاويه الفقهية.

خاتمة البحث: في أهم نتائج البحث، وتوصياته.

هذا وإني أسجل هنا شكري للإخوة القائمين على هذا المؤتمر، وأسأل الله لهم التوفيق والسداد، والأثر النافع.

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مدخل البحث: التعريف بالشيخ محمد بن أحمد العالم⁽¹⁾

اقتصرْتُ في هذا المدخل على أهم الجوانب في ترجمة الشيخ، ولم أستوفِها؛ لأن قصد البحث هو التعريف والتنويه بمصنفاته فحسب.

الفرع الأول: حياته الاجتماعية:

هو: محمد بن أحمد بن إبراهيم بن خالد بن عبد القادر بن "عبد السلام العالم" بن

(1) انظر ترجمته في:

- الشيخ محمد أحمد العالم؛ حياته وآثاره العلمية؛ بحث منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 12 (ص/222)؛ من إعداد: عبد السلام الشريف العالم.
- كتاب: مسلاته في العهد العثماني الثاني؛ لغيت العربي (ص/200-208).
- كتاب: مناقب علماء مسلاته الأخيار؛ لنصر الدين العربي (ص/39-48).

عثمان بن عري الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأشمري الفيتوري.

فجده الرابع "عبد السلام" هو الملقب بـ "العالم"، ومنه سرى هذا اللقب على جميع عقبه من بعده، وقد كان عالماً مفتياً في طرابلس، ذا مؤلفات أشهرها: (تذليل المعيار)⁽¹⁾؛ الذي جمع فيه فتاوى علماء طرابلس، وعلماء المغرب، وجاءت كالتكملة لكتاب "المعيار المعرب للونشريسي". توفي الشيخ عبد السلام هذا في تاجوراء سنة: 1139هـ.⁽²⁾

وجده الثامن: الشيخ عبد السلام بن سليم الأشمري، صاحب الزاوية المشهورة بزليتن، والمتوفى سنة: 981هـ، وقبره مشهور بجوار زاويته.⁽³⁾

وعائلة العالم هذه عرفت بالعلم منذ القدم، كما يقول الشيخ المفتي: الطاهر الزاوي.⁽⁴⁾ ولد المترجم له في قرية "الكراتية"، والتي عرفت بعد بـ "أولاد العالم" بمدينة مسلاتة سنة: 1269هـ = 1853م على وجه التقريب.

وليس لدي من معلومات الآن عن حياته الاجتماعية إلا أنه تزوج، وأنجب أولاداً ذكوراً وإناثاً، وأشهر أولاده: "أحمد"، وقد تخصص في العلم الشرعي مثل أبيه، وولي منصب "نائب المفتي" في عهد المملكة الليبية؛ نائباً للشيخ المفتي: عبد الرحمن القلهود. وتوفي الشيخ أحمد هذا سنة: 1967م⁽⁵⁾. كما أن للشيخ محمد أحفاداً، لا يزال بعضهم على قيد الحياة حتى الآن.

الفرع الثاني: حياته العلمية.

بدأ الشيخ محمد العالم طلبه للعلوم في مدارس طرابلس، فقرأ في زاوية أحمد باشا، ومدرسة عثمان باشا، وتلمذ لعلماء طرابلس آنذاك.

ومن أشهر شيوخه: محمد بن علي بن موسى - خال المترجم له -، ومحمد كامل بن

(1) طبع الكتاب بتحقيق الدكتور: جمعة الزريقي في جمعية الدعوة الإسلامية بطرابلس الغرب، سنة: 2008م، وجاء في خمسة مجلدات.

(2) انظر ترجمته في: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب (1/290)، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (1/318)، والتذكار لابن غلبون (ص/184)، وأعلام ليبيا للطاهر الزاوي (ص/227)، وعبد السلام بن عثمان التاجوري وتراجم شيوخه لعلمار مجيد؛ بحث بمجلة مجمع اللغة العربية بطرابلس الغرب، العدد 4 (ص/204).

(3) انظر ترجمته في: أعلام ليبيا للطاهر الزاوي (ص/222-225).

(4) أعلام ليبيا (ص/115).

(5) انظر ترجمته في: أعلام ليبيا (ص/115-116)، وانظر عنه أيضاً: مقدمة الدكتور: عبد السلام الشريف لرسالة:

حكم البسملة في الصلاة للشيخ أحمد العالم نفسه (ص/21-27).

مصطفى الطرابلسي الحنفي⁽¹⁾، ومحمد فاضل الشنقيطي، ولعلّه قرأ عليه حين مروره بطرابلس، والشيخ البغدادي؟

وبعد تخرجه بدأ في مهامه العلمية، والتي كانت على الوجه الآتي:

اشتغل بالتدريس في مدرسة رمضان ميزران بطرابلس.

درس أيضاً في مدرسة أحمد باشا بطرابلس.

درس العلم فترة لا بأس بها في زاوية يوسف الجعراي بمسلاته.

درس أيضاً في زاوية الدوكالي بمسلاته.

ولعلّ الأثر الأكبر للشيخ في حياته العلمية كان في مكانين: الأول في زاوية الشيخ يوسف الجعراي بمسلاته؛ حيث قرأ عليه كثير من الطلبة هناك، ومنهم: محمد الشوماني، والفيتوري كشيّدان، وابنه: أحمد العالم، وعليّ بن حسن العربي، وعبد السلام خليفة القندي، ومحمد بن عبد العالي اللواتي، وغيرهم.

وذكر في ترجمة الشيخ محمد الشوماني أنه ختم على الشيخ محمد العالم هذا في زاوية الجعراي: مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، وألفية ابن مالك في النحو والصرف.⁽²⁾

والمكان الثاني: في زاويته التي أنشأها في مسلاته، وسيأتي الحديث عنها قريباً -إن شاء الله-

الفرع الثالث: أثره في المجتمع:

الشيخ محمد العالم يعدُّ في كبار علماء مسلاته في وقته؛ بل ومن العلماء الكبار في القطر اللبنيّ كلّهم، والدليل على ذلك: هذا التراث العلمي الذي خلفه، والذي يظهر هذا البحث شيئاً من قيمته ومنزلته.

ومن آثاره النافعة في المجتمع عدا تأليفه:

تصدّره للإفتاء في قضايا الناس ونوازلهم، وله فتاوى كثيرة، وقد عثرت على بعض منها مكتوب بخطه.

(1) الفقيه الحنفي الطرابلسي المشهور؛ صاحب كتاب: الفتاوى الكاملة في الحوادث الطرابلسية. انظر ترجمته في: أعلام ليبيا (ص/383).

(2) انظر: من فتاوى الشيخ محمد الشوماني؛ بحث قيد النشر للباحث بمجلة الشيخ الطاهر الزاوي، العدد (8).

كان أحد الأعضاء المبرزين بـ "خلوة مسجد سيدي اخلفته" بمدينة مسلاته؛ حيث كان المشايخ يجتمعون فيها يوم السوق الأسبوعي بمسلاته -يوم الخميس من كل أسبوع-، فيأتي إليهم الناس للاستفتاء، وحل المنازعات، فكان المشايخ يتباحثون في هذه النوازل، ويخرجون بأجوبة جماعية في بعضها؛ حتى أصبحت هذه الاجتماعات المنتظمة منهم بمثابة المجالس العلمية، وهيئات الإفتاء. وقد دونت شذرات من تلك الاجتماعات والمباحثات العلمية، وما يتخللها من حديث الأدب والشعر والمساجلات، وطرح الألغاز.⁽¹⁾

عناية الشيخ بتربية الناشئة على الأخلاق الإسلامية الصحيحة، ومحاربة البدع والمخالفات الشرعية التي تحصل في المجتمع. ولم يكتف بوعظ الناس في هذا شفويًا؛ بل ألف أنظماً في إنكار العوائد السيئة السائدة في المجتمع في عصره، وفي الحث على حفظ القرآن والتخلق بأخلاقه.⁽²⁾

ولعلي أكتفي هنا بمثال على ذلك، وهو أنه كان يحذر من عادة (التدخين)؛ لما له من ضرر على الجسم، وما يترتب عليه من إتلاف المال، ويرى الشيخ أن هذه العادة تزيد قبحاً إذا فعلها طلبة القرآن الذين تطيب أفواههم بقراءة القرآن، أفيعقل أن ينتهوا براءة التدخين؟! ومما قاله:⁽³⁾

مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنْتَنِ الْفَمِ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ أَتَى بِالْإِثْمِ
وَشَارِبُ الدَّخَانِ بِالْإِثْمِ أَحَقُّ لِأَنَّهُ أَنْتَهُ بِغَيْرِ حَقِّ

الفرع الرابع: تأسيسه لزاويته في مسلاته:

أسس الشيخ محمد بن أحمد العالم زاوية للعلم في حياته بقريته "الكراتية"؛ التي عرفت فيما بعد بـ "أولاد العالم" في مدينة مسلاته، وألحق بها بعض الحجرات -خلاوي، وهي: جمع خلوة؛ لسكنى الطلاب الغرباء بها-، ((وأوقف عليها الأموال الكثيرة؛ لتتمكن من الاستمرار في تقديم الخدمات التعليمية، وتوافق على هذه المدرسة العديد من الطلاب من مختلف المناطق، وأصبحت نقطة إشعاع ثقافي واجتماعي في منطقة مسلاته، والمناطق

1) انظر بعض تلك الأخبار في: مسلاته في العهد العثماني الثاني لغيث العربي (ص/204-206)، (ص/221-222).

2) انظر فيما يأتي: المطب الأول، الفرع الثاني.

3) انظر: مسلاته في العهد العثماني الثاني (ص/203).

المجاورة لها إلى عهد قريب جداً. (1))

ولا يعرف تاريخُ البدء في بناء هذه الزاوية على وجه الدقة، ولكن يُرَّحَّ أن يكون في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة، وأواخر القرن التاسع عشر للميلاد؛ حيث إنه وجد بوثيقة تحييس على هذه الزاوية ما نصه: ((... أشهد على نفسه - وهو بحال صحة وطوع، وجواز أمر - أنه حبس كامل الربيط... على الزاوية التي أسسها سيدي الشيخ: محمد بن أحمد بن إبراهيم العالم - نفعنا الله ببركتهم - بالكراية... بتاريخ أواخر أولى الجمادتين سنة: 1314؛ أربع عشرة وثلاث مئة وألف (2)). وهذا التاريخ يوافق بالميلادي تقريباً: 1896م.

وقد كان الشيخ محمد العالم يُشرف بنفسه على هذه الزاوية، ولها برنامج مُطرد في طريقة تدريس القرآن بها. (3)

وبقيت الزاوية تُؤدِّي رسالتها في تحفيظ القرآن بعد وفاة مؤسسها إلى أن ضمت الزوايا إلى التعليم العام، ولا أدري متى كان ذلك؛ ولعله في منتصف ثمانينيات القرن الميلادي الماضي، فرفض القائمون عليها ضمها إلى التعليم، ثم أهملت بعد ذلك. (4)

1) بنصه من بحث: الشيخ محمد أحمد العالم؛ حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 12 (ص/222).
2) انظر صورة وثيقة التحييس هذه في: مسلاته في العهد العثماني الثاني "الملاحق" (ص/301).
3) انظره في: مسلاته في العهد العثماني الثاني (ص/184).

4) انظر بحث: الشيخ محمد أحمد العالم؛ حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 12 (ص/223).
قلت: زرت هذه الزاوية بقرية الكراية "أولاد العالم" بتاريخ: 8/محرم/1444هـ، الموافق: 6/08/2022م، وتقع في الجهة الغربية من القرية، وهي مكونة من: بيت الصلاة (مسجد أوقات فقط)، وبجواره سقيفة يُولج منها إلى ساحة الزاوية، وبها في الداخل أربع حجرات فقط (خلاوي)، تفتح جميعها جهة الغرب، وهناك حجرة كبيرة غرّب هذه الحجرات، أضيفت إلى الزاوية فيما بعد، مسقوفة بالاسمنت؛ أما المسجد والسقيفة فسقوفان باللوح والقناطر، وأما (الخلاوي) فسقفها مُسم على هيئة الظهر.

وأما قبر الشيخ محمد العالم - مؤسس الزاوية - فكانه بجوار الجدار الشرقي للزاوية، مبني بالاسمنت، ومُرتفع قدر متر تقريباً، وقد سلم من التّيش والعبث الذي فعله الغلاة لكثير من القبور بعد ثورة فبراير في: 2011م.

ولا يزال بناء هذه الزاوية متماسكاً، ومسجدها مفروش، وتقام فيه الآن صلوات الفرائض حين يكون أهل القرية موجودين بها؛ لأن معظم سُكّانها انتقلوا منها إلى مدينة تاجوراء - الموطن الأصلي لعائلة العالم -؛ بسبب صعوبة الطريق المؤدّي إلى هذه القرية. وبالقرية نفسها جامعُ جمعة عتيق، بُني قبل هذه الزاوية، وجدد بناؤه منذ مدة. وقد وجدت في زيارتي بعض سُكّان القرية، وأخبرني أنّ الحياة بدأت ترجع إلى هذه القرية من جديد؛ بعد أن أُعيد (تزييت طريقها بالقطران الحديث)، ولذا يأتيها عددٌ من سُكّانها الأصليين يوم الخميس من كل أسبوع،

الفرع الخامس: وفاته وراثته:

بعد عمر مديد قضاه الشيخ في العلم؛ دراسةً وتدريساً، وإفتاءً، ودعوةً إلى الله تعالى؛ أسلم الروح إلى بارئها في صباح يوم الأحد؛ الثامن من شهر ربيع الأول لسنة: 1354 هـ، الموافق: 1935/06/10 م؛ عن سنِّ تقارب الخامسة والثمانين، ودفن بمحاذاة زاويته المذكورة في "الكراتية - أولاد العالم" بمسلاته. (1)

وقد رثاه بعض تلامذته وأصدقائه بقصائد تنوه بفضله، وتتلّم لفقده.

ومن هؤلاء: تلميذه الشيخ محمد بن محمد الشوماني [ت: 1976 م]؛ فقد رثاه بقصيدة جاء في أولها: (2)

قَدْ أَمْنَا سِرْبٌ وَقَدْ حَامَ حَوْلَنَا غَرَابٌ دَلِيلُ الْبَيْنِ وَهُوَ نَذِيرٌ
وَصَاحَ عَلَيْنَا بَكْرَةً وَعَشِيَّةً بِمَوْتِ رَئِيسِ الْعِلْمِ يَا مَنْ يَعْبُرُ
لِي وَاسِطاً أَسْعَى إِلَى نَحْوِ قَبْرِهِ هُنَاكَ يَغَاثُ الْمُسْتَعِيثُ الْحَقِيرُ

كما رثاه آخر - ولم يعرف شخصه على وجه الدقة - بقصيدة، قدّم لها بقوله: هذه قصيدة مرثية لشيخ المشايخ، العالم العلامة المرحوم الشيخ سيدي محمد بن أحمد العالم الكراتي؛ مقدمة إلى ابن عمه الشيخ سيدي:

محمد بن حميدة العالم (3). كنت عزمت على جمعها ونظمها، والآن آن أو أن تقديمها،

والسلام ختام:

بَكَتْ عَيُونُ الْعُلَمَاءِ وَأَنْحَطَّتِ الرَّتَبُ وَمَرَّقَتْ شَمْلَهَا مِنْ بَعْدِهِ الْكُتُبُ
وَنَكَّسَتْ رَأْسَهَا الْأَقْلَامُ بَاكِئَةً عَلَى الْقَرَاطِيسِ لَمَّا نَاحَتْ الْخُطْبُ
وَأَنهَدَ لِلْعِلْمِ رُكْنَ كَانَ مُسْتَنْدًا وَكَأَدَ مِنْ بَعْدِهِ الْغَبْرَاءُ تَنْقَلِبُ

فيبقون بها إلى السبت، ويصلون الجمعة في جامعها العتيق، ثم يرجعون إلى تاجوراء في باقي أيام الأسبوع، وهكذا. وبالقرية مدرسة تعليمية قديمة، أهملت منذ أن انتقل السكان من القرية، ولا يزال بناؤها قائماً حتى الآن.

1 انظر: الشيخ محمد أحمد العالم؛ حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 12 (ص/219).

2 هي في عشرة أبيات، انظرها في: مسلاته في العهد العثماني الثاني (ص/206-207).

3 هو ابن عم الشيخ محمد بن أحمد العالم. وجدت له بعض الوثائق التي كتبها بخطه، ووثقت في محكمة مسلاته، وكانت بتاريخ: 1351 هـ = 1932 م، ووثقت له - حتى الآن - على ثلاث فتاوى مكتوبة بخطه. [ت: 1967 م]، ودفن بمنطقته: الكراتية - أولاد العالم بمسلاته.

وَنَعَتَ الشَّيْخَ بَعْضَ الصُّحُفِ المَحَلِّيَّةِ فِي لِيبيَا آنذاك، ومنها صحيفة: الرقيب العتيد في عددها رقم (781) الصادر في: 1935/07/11 م. (1)

رحم الله الشيخ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء.

المطلب الأول: التعريف بمؤلفاته وآثاره

قال الدكتور عبد السلام الشريف -رحمه الله- عن آثار الشيخ محمد العالم: ((وقد تعرّضت مؤلفاته للضياع في حياته؛ بعد فقده نعمة البصر؛ بسبب الغارات التي يشنها بعض الرعاع "الفلاقة" ليلاً بقصد السلب والنهب، والاستيلاء على أموال الناس وممتلكاتهم المنقولة؛ من أمتعة ودواب، وكل ما خف حملُه، وغلاً ثمنه. كان ذلك سنة: 1923-1924 م)). (2)

الفرع الأول: آثاره في العقيدة:

للشيخ عدة مصنفات في هذا الباب، ومما وقفت عليه منها: (3)
نظم في التوحيد: ذكر في آخره أنه سماه "عطيّة الإله".

وجاء أغلب هذا النظم في الحديث عن صفات الله تعالى، وأقسامها، ومعانيها، وما يجب علينا نحوها، وفيه ذكر لأركان الإيمان، وتفسير لما يدخل من العقائد تحت الشهادتين، ثم ختم بما يجب على المكلف معرفته من أحكام الأصول (العقائد)، وأحكام الفروع.

وعدد أبيات هذا النظم: مئة وواحد وأربعون (141) بيتاً تقريباً. وقد جاء بإثر آخر بيت منها: ((انتهت. نقلها كاتبها عن مملها؛ مؤلفها: سيدي الشيخ: محمد بن أحمد العالم - غفر الله له، وللوالدين، ولجميع المسلمين بمَنه وكرمه - آمين.))

ويُفهم منه أن كاتبها كتبها عن إملاء من مؤلفها، وإن كان الكاتب لم يذكر اسمه في أولها، ولا في آخرها. (4)

1) انظر بحث: الشيخ محمد أحمد العالم، حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة، العدد 12 (ص/227).

2) الشيخ محمد أحمد العالم، حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة (العدد 12/224).

3) سيأتي في المطلب الثاني ذكر نماذج من هذه الأنظمة التي تحصّلت عليها كاملة، ولم أذكر هناك ما نقلته بواسطة مصادر أخرى.

4) عثرت على هذا النظم مخطوطاً عند أبناء الشيخ: سالم بن محمد العربي اللواتي المسلاقي -رحمه الله- (ت: 1415 هـ = 1995 م)؛ حين كنت أجمع فتاويه، وقد نشرت هذه الفتاوى له -بمجد الله- في مجلة كلية الآداب والعلوم مسلاته؛

نَظْمٌ فِيمَنْ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُمْ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ تَفْصِيلاً: وقد جاء مُلْحَقاً بِنَظْمِهِ السَّابِقِ، وَهُوَ فِي سِتَّةِ (6) آيَاتٍ.

نَظْمٌ فِي نَسَبِ النَّبِيِّ * مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ، ثُمَّ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ: وقد جاء مُلْحَقاً بِالنَّظْمِ الْمَذْكُورِ أَيْضاً، وَهُوَ فِي تِسْعَةِ (9) آيَاتٍ

نَظْمٌ آخَرٌ فِي التَّوْحِيدِ: وقد نُقِلَ نَصْرُ الدِّينِ الْعَرَبِيِّ صُورَةً لِلصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ هَذَا النَّظْمِ، وَفِيهِ آخِرُ آيَاتِهِ:

فَتَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَدْعُو مَوْحِداً
"يُبَشِّرُ قَكَ" (1) الْإِتْمَامُ فِي صَفْرِ
لِجَنَّةِ فَرْدَوْسٍ وَرُؤْيَا رَبِّهِ
لِنَاظِمِهَا وَالشَّارِحِينَ لِنَظْمِهِ
ادْعُونَ وَالسَّامِعِينَ لِقَوْلِهِ
وَوَالِدِنَا وَالْأَقْرَبِينَ وَمَنْ دَعَا
أَقْرَبَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِبَعْثِهِ (2)
وَيَا رَبَّنَا اجْعَلْهَا لَوَجْهِكَ وَاخْتَمِنَ
بِحَقِّ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ

الفرع الثاني: آثاره في الآداب والتربية:

للشيخ عدّة أنظما في هذا الباب؛ مطوّلة وقصيرة، ومما وقفت عليه منها: قصيدة في الآداب والنصائح: وهي من خمسين (50) بيتاً.

العدد: 17 لسنة: 2021م. ويعدّ عندي أن يكون الشيخ سالم المذكور هو من كتب هذا النظم؛ لأنّ خطّه الذي في فتاويه مغاير لهذا الخطّ، والله أعلم. وقد ختم كاتب هذا النظم - ومعه أيضاً نظمان آخران صغيران للشيخ العالم نفسه - بقوله: ((تم الفراغ من كتب هذه المقدمة في شهر ذي الحجة، 13 من سنة: 1348 هـ)). ويوافق هذا التاريخ تقريباً: 1930م.

1) هذا رمزٌ لتاريخ إتمام النظم بحسب الجمل. فالياء: ب: 10، والباء: ب: 2، والشين: ب: 1000، والراء: ب: 200، والقاف: ب: 100، والكاف: ب: 20. ومجموعها كلّها: 1332، فيكون تاريخ إتمام القصيدة سنة: 1332 هـ، ويوافق: 1914م تقريباً.

2) في الورقة الأخيرة من النظم بعد هذا البيت: ((وكان الفراغ من تقييدها صبيحة يوم الاثنين الموافق: 23 من صفر الخير، سنة: 1332 هـ. ثم نقلت من القيد المذكور خيفة ضياعها؛ لدثور ورقه؛ صبيحة يوم عيد الفطر لسنة: 1340 هـ. كل ذلك على يد نجل ناظمها المسمى: أحمد بن محمد بن أحمد العالم - حمّاه الله من كلّ باع وظالم، وبلغه من الدارين أقصى المكارم...)). انظر هذه الصورة في: مناقب علماء مسلاته (الملاحق) (ص/298). قلت: لم أطلع على هذا النظم، ويظهر من خلال نقل الدكتور نصر الدين العربي المذكور أنه موجود عند الدكتور: عز الدين العالم، وهو من أبناء عائلة (العالم) نفسها.

حَثَّ الشَّيْخُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ عَلَى طَلْبِ الْعِلْمِ، وَبَيَّنَّ فَضْلَهُ وَرَفَعَهُ لِحَامِلِهِ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ أَوْصَى بِتَعْظِيمِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ *، وَأَتْبَاعِهِمْ، وَأَهْلِ الْعِلْمِ عُمُومًا. كَمَا حَذَّرَ فِيهَا مِنَ التَّفَاخُرِ بِالْأَنْسَابِ، وَمِنْ بَعْضِ الْعَوَائِدِ السَّيِّئَةِ فِي عَصْرِهِ. وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِهَا فِي الْمَطْلَبِ الثَّانِي.

كَتَبَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الشَّيْخُ سَالِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيُّ اللَّوَاتِي [ت: 1995م] بِخَطِّهِ، وَقَدَّمَ لَهَا بِقَوْلِهِ: ((هَذِهِ قَصِيدَةٌ جَامِعَةٌ لِلنَّصَائِحِ جَلِيَّةٍ، وَأَحْكَامِ عِلْمِيَّةٍ؛ لِلشَّيْخِ النَّحْرِيِّ، وَالْعَالِمِ الْعَلَامَةِ الْكَبِيرِ: مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ؛ الشَّهِيرِ بـ: الْكُرَاتِيِّ - أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رَحْمَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّةَ الْعِلْيَةِ - وَهِيَ هَذِهِ كَمَا تَرَاهَا، وَاللَّهُ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ حَسُودٍ يَرَعَاهَا)).

وَكَتَبَ الشَّيْخُ سَالِمٌ فِي آخِرِهَا: ((انْتَهَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ، ... حُرِّرَ بِتَارِيخٍ: 4 جُمَادَى الثَّانِيَةِ، سَنَةِ: 1394هـ، الْمَوْافِقِ: 24، يُونِيُو، سَنَةِ: 1974م. سَالِمُ مُحَمَّدُ الْعَرَبِيُّ - تَيْبَ عَنْهُ، آمِينَ - (1)).

لَهُ نَظْمٌ فِي فَضْلِ قَارِي الْقُرْآنِ: نَقَلْتُ بَعْضَ الْمَصَادِرِ أَنَّهُ كَانَ يُحْفِظُهُ لِطُلَّابِ الْقُرْآنِ فِي زَاوِيَتِهِ، فَيُرِدُّوهُ فِي نِهَآيَةِ كُلِّ دَرْسٍ، وَمَا جَاءَ فِيهِ: (2)

إِنَّ قَارِيَّ الْقُرْآنِ	شَافِعٌ فِي الْوَالِدِ
فَأَنْزَلُ يَوْمَ الْحِسَابِ	يَوْمَ يَنْجُو مَنْ أَنْابَ
بَعْدَ حِفْظِكَ الْقُرْآنِ	أَقْرَأَ الْعِلْمَ تَصَانُ
وَتَزِيدُ فِي الْبَيَانِ	وَحَلَاوَةَ الْإِيمَانِ

الفرع الثالث: آثاره في الفقه:

كَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ فَقِيهًا، مُتَمَكِّنًا، مَشْهُودًا لَهُ بِحُسْنِ تَنْزِيلِ الْوَقَائِعِ عَلَى النُّصُوصِ. وَمِمَّا وَقَفَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَسْمَاءِ تَأْلِيفِهِ وَكُتَابَاتِهِ فِي الْفِقْهِ:

حَاشِيَةٌ عَلَى شَرْحِ مُحَمَّدِ التَّأُوْدِيِّ عَلَى نَظْمِ تُخْفَةِ الْحُكَّامِ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَاصِمٍ (فِي الْفِقْهِ الْمَالِكِيِّ): نَسَبَ لَهُ هَذَا الْكِتَابَ: عَبْدِ السَّلَامِ الشَّرِيفُ الْعَالِمُ، وَلَمْ يَذْكُرْ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا أَوْ لَا.

1) وَجَدْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ عِنْدَ أَبْنَاءِ الشَّيْخِ سَالِمِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ فِي وَرَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ كُتِبَتْ فِيهَا فِي الْوَجْهِ وَالظَّهْرِ.
2) انظر بحث: الشَّيْخُ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ الْعَالِمُ، حَيَاتِهِ وَأَثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ، مَجَلَّةُ كَلِمَةِ الدَّعْوَةِ (العدد 12/222-223)، وَمَسَلَّتُهُ فِي الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ الثَّانِي (ص/201). وَأُظْنُّ أَنَّ هُنَاكَ خَلَاً فِي تَرْتِيبِ بَعْضِ الْآيَاتِ وَأَشْطَارِهَا فِي هَذَيْنِ الْمَصْدَرَيْنِ!

حاشية على نظم عبد الواحد بن عاشر (في العقيدة، والفقہ المالكي، والسُّلوك): ذكره أيضاً الشيخ عبد السلام الشريف، ولا أعلم عنه شيئاً، ولا أدري؛ هل هو حاشية على النظم نفسه، أو على بعض شروحه؟

فتاوى فقهية: وقد وقفتُ له حتى الآن على ثلاث فتاوى؛ أُملي على غيره اثنتين منها، والثالثة كتبها بخطه، وسأنتقل نصّ الثلاثة في المطلب الثاني - إن شاء الله -.

الفرع الرابع: آثاره في اللغة:

كان الشيخ محمد العالم ذا دراية واسعة بعلوم الآلة التي تساعد الفقيه في فهم النصوص، وتنزيل الوقائع عليها. وقد وجدنا له آثاراً في النحو وعلوم اللغة تدلُّ على علو كعبه فيها، ومما وقفتُ عليه منها:

الفية في النحو والصرف، وسمّاها: "زُبدة فن الآلة العلوم"، ومما جاء فيها:

كَلَامَنَا لَفْظٌ مَرَكَّبٌ مُفِيدٌ	قَدْ وَضَعُوهُ نَحْوًا: سَلَنِي تَسْتَفِيدُ
وَأَقْسَمَهُ لِلْخَيْرِ وَالْإِنشَاءِ	نَحْوًا: دَعَا زَيْدٌ وَهَلَّ يَرَائِي
وَجَزَّوهُ كَلِمَةً وَحَدَّهَا	مُفْرَدًا قَوْلَ جَعْفَرٍ مَثَلَهَا
وَمَا حَوَى الْأَجْزَاءُ قُلَّ فِيهِ كَلِمٌ	وَالْقَوْلُ لَفْظٌ مُبْهِمٌ مَعْنَى
	تَعْمٌ (1)

شرحان على الفية المذكورة: وقد قال في مقدّمة شرحه الصغير: ((هذا شرح مختصر لمنظومتنا المسماة بزُبدة فن الآلة العلوم، وهو: علم العربية، بعد أن وضعتُ عليها شرحاً مطوّلاً...))

وذكر الدكتور عبد السلام الشريف أنّ الشرح الكبير لم يقف عليه، وأن الشرح الصغير وجد منه نسخة مبثورة الآخر عند حفيد المؤلف (2).

رسالة مشتملة على ضوابط وحدود نحوية: وقد نقل الدكتور نصر الدين العربي في ملاحق كتابه صورة للصفحة الأولى من هذه الرسالة (3). ومن خلال مقارنتي لخطها

1 انظر بحث: الشيخ محمد أحمد العالم، حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة (العدد 12/224-225).

2 انظر بحث: الشيخ محمد أحمد العالم، حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة (العدد 12/224).

3 انظر: مناقب علماء مسلاته "الملاحق" (ص/297).

بفتاوى الشيخ محمد التي هي بخطه؛ يظهر لي أن هذه الرسالة بخط الشيخ نفسه.
ونسب له الشيخ عبد السلام الشريف - رحمه الله - أيضاً ثلاث منظومات أخر في
النحو، وذكر أن إحداها موجودة عند الشيخ سالم العربي - رحمه الله -⁽¹⁾. ولا أستبعد أن
يكون قد حصل له الوهم فيها؛ فلعل هذه المنظومات في التوحيد، وليست في النحو، وقد
وقفت عليها عند أبناء الشيخ سالم المذكور، وذكرتها قبل قليل، والله أعلم.

المطلب الثاني: نماذج من آثاره:

ذكرت هنا بعضاً مما وقفت عليه بنفسني من مؤلفات الشيخ وآثاره، ولم أنقل في هذا
المطلب ما ذكرته المصادر الأخرى منها، ولم أطلع عليه أصالةً.

الفرع الأول: نصوص من أنظامه في التوحيد:

هذا بعض ما في نظمه الذي سماه "عطية الإله"، وأبتدأه بقوله:

الحمد لله صلواتي والسلام	على النبي المصطفى خير الأنام
والله وصحبه ومن تبع	سنته ولم يزغ ويتبع
وبعد إن أول المحتم	على المكلف كافر ومسلم
أن يعرف الإله بالصفات	والمرسلين مع دليل آت
حصر صفات الله ذي الجلال	في واجب وجائز محال
فوجب الصفات ليس ينعدم	بل ثابت مثل الوجود والقدم
والمستحيل عنه نزه الإله	مثل الحدوث وهو وصف لسواه
وجائز الصفات كالإنعام	على ذوي الإيمان والإسلام
وهذه الثلاث في الرسل الكرام	عدتهم "سيد" ⁽²⁾ عليهم السلام
من وصف الله بعشرين صفة	مع دليل كلها قد عرفه
أولها نفسية وهي الوجود	لولا وجود الله ما نلنا الوجود
الدليل كاحتياجنا المعتاد	المعدوم لا يوصف بالإيجاد
وخمسة واجبة سلبية	أضدادها عن ربنا منفية
وهي القدم مع بقاء ربنا	قد سلبا عنه الحدوث والفناء

1) انظر بحث: الشيخ محمد أحمد العالم، حياته وآثاره العلمية، مجلة كلية الدعوة (العدد 12/225).

2) هي رمز لعدد الرسل، وهو: 314؛ بحساب الجمل. فالسین تعادل: 300، والياء تعادل: 10، والدال: 4.

لَوْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْقَدِيمُ الْأَوَّلُ
هُمَا مُحَالَانِ بِذَلِكَ قَدْ عَلِمَ
قُلُ الْقَدِيمِ الْأَزَلِيِّ مَا سَبَقَ
بَعْدَ ثَبُوتِ قَدَمِ الذَّاتِ فَلَا
سُبْحَانَهُ مُخَالَفٌ لِمَا سِوَاهُ
فَكُلُّ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ فَلَا
الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِهِ إِدْرَاكُ
لَا يَعْرِفُ الْإِلَهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ
فَيَبْلُغُ الْعِلْمُ: الْإِلَهَ ذَاتُ
لَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ
هُوَ الْغَنِيُّ مُطْلَقًا عَنِ الْمَحَلِّ
إِلَهِي غَنِيٌّ عَنِ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ
يَدْخُلُ فِي ذَا سَائِرِ الصِّفَاتِ
وَإِخْتِمَ بِوَحْدَانِيَّةٍ مَا لِلْسُّلُوبِ
مَنْ قَالَ غَيْرَ اللَّهِ يُوجِدُ الْأَثَرَ
فَلَيْسَ تَأْثِيرٌ لِنَحْوِ نَارٍ
لَدَى التَّقَاءِ حَادِثٌ بِحَادِثٍ
مَنْ يَعْتَقِدُ حُصُولَ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ
ثُمَّ الْمَعَانِي سَبْعَةٌ قَدِيمَةٌ
ثَابِتَةٌ عِنْدَ ذَوِي الْكَمَالِ
وَأَثَبُوا لِدَاتِهِ مَا قَدْ لَزِمَ
كَيْفَ يَكُونُ قَادِرًا مَعَ انْعِدَامِ
إِنْ لَازِمَ الْمَذْهَبِ مَذْهَبٌ كَفَرَ
فَلَيْسَ لِلذَّاتِ مَعَ الصِّفَاتِ
يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ رَبِّي الْقَادِرُ
وَبِالإِرَادَةِ يُخَصِّصُهَا بِمَا
دَلِيلٌ هَدِينٌ وَعِلْمٌ وَالْحَيَاةُ

لَلزِمَ الدَّوْرَ أَوْ التَّسْلُسَ
وَجُودٌ صَانِعٌ تَحَلَّى بِالْقَدَمِ
لِعَدَمِ وَلَا لِدَاتِهِ لِحَقِّ
يَصِفُهَا بِعَدَمٍ مِنْ عَقْلًا
فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْفِعْلِ الْإِلَهَ
يَمَثُلُ اللَّهُ تَجَلَّى وَعَلَا
وَبِحَثْنَا فِي ذَاتِهِ إِشْرَاكُ
سِوَاهُ نَدْرِيهِ بِإِدْرَاكِ الْجِهَةِ
عَظِيمَةٌ قَامَتْ بِهَا الصِّفَاتُ
وَلَا شَرِيكَ قُلُ بِذَا الشَّرْعِ وَرَدَّ
وَمُوجِدٌ سُبْحَانَهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَكُلُّهُمْ مُفْتَقِرُونَ لِلَّهِ
الْخَمْسِينَ إِنْ شَاءَ الْإِلَهُ تَاتَتْ
فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْفِعْلِ
أَجُوبُ

بِقُوَّةٍ أَوْ طَبَعِهِ فَقَدْ كَفَرَ
مَعَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
يَخْلُقُ رَبَّنَا الْقَدِيرِ ثَالِثُ
مَنْ فَعَلَ الْأَسْبَابَ وَتَرَكَهَ كَفَرَ
وَهِيَ صِفَاتُ ذَاتِهِ الْعَظِيمَةِ
وَقَدْ نَفَّاهَا حَزْبُ الْاِعْتِرَالِ
وَمَا دَرَوْا مَا قَدْ نَفَوْا لَا يَنْعَدِمُ
قُدْرَتُهُ تَبَّأً لِإِدْرَاكِ اللَّتَامِ
مَنْ قَدْ نَفَّاهَا فِيهِ خُلْفٌ اشْتَهَرَ
تَعَدَّدُ دَعْوَى مَذْهَبِ الْعُصَاتِ
وَفَعَلُهُ فِي الْمُمْكِنَاتِ ظَاهِرٌ
جَازٌ عَلَيْهَا عِنْدَ كُلِّ الْعُلَمَاءِ

كَلَامَهُ وَعَلِمَهُ تَعَلَّقَا
بِجَائِزِ أَمَّا حَيَاتُهُ فَلَا
يُوصَفُ مَوْلَانَا بِسَمْعٍ وَبَصَرٍ
دَلِيلُ ذِينَ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ
وَقِسْ عَلَى الْمَعَانِي الْمَعْنَوِيَّةِ
قُلْ عَالِمٌ حَيٌّ مَرِيدٌ وَقَدِيرٌ
وَوَاجِبٌ فِي حَقِّهِ نَفْيُ الْغَرَضِ
فَعَلِ الصَّلَاحِ لَيْسَ وَاجِبًا عَلَيَّ
وَمَا سِوَى الْإِلَهِ كُلُّهُ وَجِبٌ
وَجُودِ عَالِمٍ بِدِيَعِ كَالْجِهَاتِ
بِوَاجِبٍ وَمُسْتَحِيلٍ مُطْلَقًا
تَطْلُبُ غَيْرَ ذَاتِهِ جَلَّ عَلَا
تَعَلَّقَا بِكُلِّ مَوْجُودٍ كَذَرٍ
عَقْلٍ وَنَقْلِ فَاعْلَمَنَّ يَا سَاهِ
وَهِيَ صِفَاتُ ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ
وَمُتَكَلِّمٍ سَمِيعٍ وَبَصِيرٍ
نَفْيِ وَجُوبِ الْفِعْلِ أَيْضًا مُفْتَرَضِ
رَبِّ الْعِبَادِ جَلَّ شَأْنًا وَعَلَا
فِي حَقِّهِ الْخُدُوثُ خَالَفَ مَنْ
كَذَبَ

وفي آخرها:

قَدْ أَنْتَهَى نَظْمِي بِمُحَمَّدِ اللَّهِ
وَسَيِّدِ الْخَلْقِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبَّنَا وَسَلَّمَا
وَأَلِهِ وَصَحْبِهِ الْبُدُورِ
سَمِيَّتُهُ "عَطِيَّةُ الْإِلَهِ"
مُحَمَّدٌ خَيْرُ فُرُوعِ آدَمَ
مَا بَلَبَلَ الْوَرِشَانَ⁽¹⁾؛ أَي: تَرَنَّمَا
مَا حَرَسَ الْفُلُكُ بِكَالزَّمُورِ⁽²⁾

الفرع الثاني: نصوص من أنظامه في النصائح والآداب:

إِذَا سَبَّنِي شَخْصٌ صَفَحَتْ تَكْرَمًا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ
عَذُوبَةً نَطَقَ الْمَرْءُ تَوَرُّثُ حَبِهِ
فَكُنْ صَامِتًا إِلَّا بِمَا يَنْفَعُ الْفَتَى
لَكِي أَنْ أُنَالَ الْمَجْدَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ
إِذَا قَابَلَ الْأَنْدَالَ بِالسَّبِّ وَالْهَجْوِ
وَتَكَثُرُ إِخْوَانًا كَمَا قَالَ ذُو الْعَزْوِ
بِدُنْيَا وَأُخْرَى لَا تَصَاحِبَ ذَوِي الْعُرَى

1) جاء في لسان العرب لابن منظور: (6/372) ((الورشان: طائر شبه الحمامة، وجمعه: ورشان، بكسر الواو وتسكين

الراء، مثل: كروان جمع: كروان على غير قياس، والأثني: ورشانة)).

2) الفلك: السفينة، والزمور: الغلام الوضيء. انظر: المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية (701/2) فلك، (400/1)

فحامله كل الكمال له يحوي
به كل علم نيل كالصرف والنحو
لآبائهم مجد يقدمهم مروى
لآبائهم بالجهل كالوضع للدلو
به الفضل بين الناس يحسب
كال.. (2)

بصحراء من ماء وكالبرق في الجو
من الموضع الأعلى إلى أسفل
يهوي

كثير عظيم طيب الطعم مستوي
وتفقد أعواماً لفقد الذي يروي
هداة جميع الخلق من دمهم... (3)
فمبغضهم هو الذي في لظى يهوي
لمن بعده فالعن ذوي الطعن
والعدوي

فمن قال: لا قد كذب الذكر
والمروى
فلولا هم ما جاءنا [شركم]
يحوي] (4)

بما أنقذونا من ضلال ومن هو
بها عمل الأختيار في المصير والبدو

وكن طالباً للعلم بالجد واجتهد
ولا سيما علم الشريعة والذي
فكم ساد فرع بالعلوم ولم يكن
وحط بو السادات عن رتب سمت
فقير التقى والعلم من كل ما يرى
وعلم بلا تقوى يضاهيه الذي يرى
اتضع ترتفع بالمرء (1) كالماء
وصفه

وأشجاره في غاية الحسن ثمرها
وأشجار كالأكام قلت ثمارها
فعظم أخي أصحاب خير الورى فهم
فمنهم علي والشهيد بداره
فأدناهم يا صاح عدل وسيد
على فضلهم دل الكتاب وسنة
فزدهم إلهي رفعة وكرامة
رواه رجال صادقون أئمة
فأربعة منهم مذاهيبهم جرى

ويقول فيها أيضاً:

1) هذا الشطر لم استطع قراءته جيداً، وحننته هكذا.

2) كلمة لم أستطع قراءتها.

3) كلمة لم أستطع قراءتها.

4) في الأصل: "شركك الحاوي"، وهو لا يناسب القافية، فأصلحته بما تراه.

- 25- فَلَا تَفْتَخِرْ بِالْأَصْلِ كَالْجِدِّ يَا فَتَى إِذَا كُنْتَ مِنْ لَائِلِ اللَّهِ يَرْعَوِي
 26- فَإِنَّ شَرِيفَ الْأَصْلِ مَنْ لَازَمَ التَّقَى وَقَابَلَ ذَنْبًا قَدْ مَضَى مِنْهُ بِالْمَحْوِ
 27- فَمَنْ أَبْطَأَتْ أَعْمَالُهُ بِهِ لَمْ يَكُنْ يَقْدَمُهُ نَسَبٌ كَمَا قَالَ الْمُرَوِي

وَمَا جَاءَ فِيهَا أَيْضًا:

- 39- رَأَيْتُ لِحَالِ مَنَّاكَرٍ تَفْعَلُ بِأَعْرَاسِهِمْ وَالْعِيدِ وَالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ
 40- وَفِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ تَخْرُجُ نِسْوَةٌ يُصَادِفُنَّ حَزْبًا لَيْسَ مِنْهُمْ ذُووُ الصَّحْوِ
 41- تَبَرَّجَتْ الْحَسَنَاءُ فِيهَا وَأَشْرَقَتْ تَعَشَّقُهَا تَدْعُوهُمْ لَلَّتِي تَهْوِي
 42- يَزُرْنَ قُبُورًا ظَاهِرًا وَبِاطِنٍ مَقَاصِدَ كُلِّ أَنْ يَنْلِنَ الَّذِي يَنْوِي

وختمها بقوله:

- 48- فَأَفْعَالُ أَهْلِ الْعَصْرِ أَكْثَرُهَا يَرَى ضَالًّا فَلَا تَرَكَنَّ إِلَيْهِمْ بَلِ أَنْزَوِي
 49- عَلَيْكَ يَا حَيَاءُ الْغَزَالِي وَمَدْخَلُ شُهُودٍ عَلَى [تِلْكَ] الْمَنَّاكَرِ تَحْتَوِي
 50- يَا رَبِّ وَفَقْنِي وَوَفِّقْ جَمِيعَ مَنْ دَعَا لِي وَلِلْإِخْوَانِ بِالْفَتْحِ وَالْعَفْوِ

الفرع الثالث: نصوص من فتاويه الفقهية:

[الفتوى الأولى: إقامة صلاة الجمعة في غير الجامع العتيق في البلدة الواحدة] (1)

[نص السؤال]:

((الحمد لله حقَّ حمدِه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه.

سئل عن جماعة عظيمة من المسلمين كانوا يصلون الجمعة بجامع، فأراد أكثرهم أن ينقلها إلى جامع بقرية (2)؛ لسقوط سقف الأول، ولما وقع بينهم وبين إمامه من البغض

1) ما بين المعكوفين هكذا [...] هو من زيادتي؛ لمزيد التوضيح.

2) يقصد القرية نفسها؛ بدليل ما جاء في الجواب.

والكراهة. فهل تصحُّ صلاتهم للجمعة بالجامع الذي يريدون نقلها إليه؟
[جواب الشيخ محمد العالم عنه]

الجواب: أنها تصحُّ عند الإمام يحيى بن عمر⁽¹⁾، وهو خلاف المشهور، ولكن جرى بمذهبه العمل؛ كما نقله

غير واحد، منهم: الدسوقي⁽²⁾. وما جرى به العمل يُقدّم على المشهور؛ كما للعلامة التسوي⁽³⁾ وغيره. وقد بسط الكلام على المقام: العلامة الرهوني⁽⁴⁾، والعلامة [گنون]⁽⁵⁾، فليراجعهما من ارتاب.⁽⁶⁾

وبالجملة: فهل يشترط اتحاد جامع الجمعة؟، وعليه: فلا تصحُّ إلا في القديم، أو لا يشترط اتحاده؟؛ بل يجوز تعدد جوامعها، وهو للإمام يحيى، وقد جرى به العمل. وعليه: فتصحُّ الجمعة للجماعة المسؤول عنهم إن نقلوها للجامع المؤسس بمدرسة سيدي يوسف - قدس سره -.

والأولى للجماعة أن تتفق كلمتهم، وأن يصلُّوها بالمسجد العتيق، وإن يعرضوا عما وقع بينهم وبين إمامه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾⁽⁷⁾. ولكن إن لم يتحدوا جاز لهم تعدد الجمعة. انتهى، والله ورسوله أعلم.

1 أبو زكرياء، يحيى بن عمر بن يوسف الكاظمي. نشأ بقرطبة، ودرس فيها على ابن حبيب وغيره، ثم استوطن القيروان، وقرأ على سخون، وبعد من كبار تلامذته، وسمع بالحجاز من أبي مصعب الزهري تلميذ مالك. يعد في كبار علماء المالكية، وتفقه به خلق كبير. [ت: 289هـ] بسوسة تونس. انظر ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض (357/4).

2 انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير على مختصر خليل (1/374). وهو: محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي. مصري مالكي. [ت: 1230هـ]. ترجمته في: شجرة النور الزكية. (1/362)

3 أبو الحسن علي بن عبد السلام التسوي المغربي المالكي. [ت: 1258هـ]. ترجمته في: شجرة النور (1/397). وانظر كلام التسوي في: البهجة في شرح التحفة. (1/469)

4 أبو عبد الله؛ محمد بن أحمد الرهوني. مغربي مالكي. [ت: 1230هـ]. ترجمته في: شجرة النور. (1/378)

5 في الأصل: كالنون!، والصواب ما أثبتته بكاف معقودة، وربما كتبت: (قنون)، أو: (جنون). وهو: أبو عبد الله؛ محمد بن المدني بن علي گنون الفاسي، من أشهر علماء المغرب في القرن الثالث عشر. [ت: 1302هـ = 1885م]. ترجمته في: الفكر السامي للنجوي (2/361)، والأعلام للزركلي (7/94-95).

6 انظر: حاشية الرهوني على شرح الزرقاني على خليل، وبهامشه: حاشية قنون على شرح الزرقاني على خليل (2/149-151).

7 سورة الحجرات، من الآية: 10.

قاله مُمْلِيه: محمد بن أحمد العالم - غفر الله له، وللوالدين، ولجميع المسلمين بِمَنِّه وكرمه -
((آمين))

[الفتوى الثانية: تحبب المريض مرضاً غير مخوف؛ صحيح إذا استكمل الشروط]
[نص السؤال]

((سَادَتِي الْعُلَمَاءُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَمَتَّعَ الْمُسْلِمِينَ بِطَوْلِ حَيَاتِكُمْ -: مَا قَوْلُكُمْ فِي عَقْدِ حَبْسٍ صُورَتَهُ مَا لَهَا: حَبَسَ سَيِّدِي فَلَانَ عَلَى وُلْدِيهِ: فَلَانَ وَفُلَانَ - جَمِيعَ وَكَامِلِ كَذَا، إِخْلُجْ، ثُمَّ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، ثُمَّ إِلَى آخِرِ (1) الْعَقْبِ، وَأَذِنَ لهُمَا فِي الْقَبُولِ وَالْحُوزِ، فَحَازَاهُ بِالْمُعَايَنَةِ، وَبِمِلْكِيَّةِ الْمُحْبَسِ لِمَا حَبَسَهُ؛ إِلَّا أَنَّ شَهِيدَهُ ذَكَرَا فِيهِ فِي تَضْمِينِ الْإِشْهَادِ بَعْدَ قَوْلِهِ: "وَعَرَفَهُمْ" عَدَّ الْمُحْبَسِ بِحَالٍ تَأَلَّمَ خَفِيفٌ. فَهَلْ هَذَا التَّأَلُّمُ الْخَفِيفُ الَّذِي شَهِدَا بِهِ؛ حَكْمُهُ حَكْمُ الصَّحِيحِ، وَيَصِحُّ فِيهِ حُوزُ الْمُحْبَسِ عَلَيْهِمْ لِلْحَبْسِ، وَيَعْمَلُ بِهِ شَرْعاً؟ أَفِيدُوا الْجَوَابَ تَوَجُّراً وَتُرْحَمُوا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ))

[نص جواب الشيخ محمد العالم]

((الْحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.))

وبعد: فالوقفُ المسؤُولُ عنه أعلاه صحيحٌ يعمل به شرعاً؛ حيث أوقفه الواقف في مرضه الخفيف، ولم يمت منه.

وبالجملة: فتبرعاتُ المريضِ المسؤُولِ عنها صحيحةٌ لإوارث وغيره؛ لا سيما إن طال مرضه، وتجاوز العام، فحكمه حكمُ الصحيح عند السادة الحنفية أيضاً⁽²⁾. وفي جواب المجيبين أعلاه وأمامه⁽³⁾ كفاية، والله ورسوله أعلم. قاله مُمْلِيه: محمد بن أحمد العالم - غفر

1 في الأصل: (ثم وثم اخرج العقب). ويظهر أن "ثم" الثانية تكرار، وأن "اخرج" اختصاراً: إلى آخر.
2 قال الكاساني الحنفي في: بدائع الصنائع: (4/514) ((وكذلك صاحب الفالج والسل والتقرس ونحوها؛ إذا طال به ذلك فهو في حكم الصحيح؛ لأن ذلك إذا طال لا يخاف منه الموت غالباً، فلم يكن مرض الموت)).
3 يقصد: جواب الشيخ: محمد بن محمد العربي اللبني، أحد علماء مسلاته في عصره، وموثقيها. وقفت له على عدة فتاوى بخطه، ومن الطريف في فتاويه التي وقفت عليها: أن أغلبها مبدل بفتوى لابنه الشيخ الطيب العربي في الوثيقة نفسها، أو العكس. [ت: 1368هـ = 1949م]. وجوابه في هذه المسألة مسطر في الوثيقة فوق جواب الشيخ محمد العالم.

ويقصد بالمجيب الثاني هنا: الشيخ "محمد الجعراي" بن محمد صريهيد القصباتي. ينتمي إلى قبيلة "الجعارين". أحد المفتين بمدينة مسلاته، وكان والده من قبله مفتياً. [ت: 1928م = 1347هـ]. وجوابه في هذه الوثيقة مكتوب أمام جواب الشيخ العالم.

اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ - آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ (().

[الفتوى الثالثة: تنزيل جد لابن ابنه منزلة ابنه أن لو كان حياً]

[نص عقد التنزيل]:

((الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. الشيخ الفاضل سيدي: محمد بن سيدي محمد بن سيدي عبد القادر العالم؛ قد أشهدنا على نفسه بعد وفاة أكبر أبنائه المسمى "محمد" باسم أبيه - أنه قد أنزل ابن المتوفى المذكور، المسمى "محمد الشيباني" منزلة أبيه بعد وفاة جدّه الموصي؛ بحيث يأخذ من متروكه - جليلاً كان أو حقيراً، قليلاً أو كثيراً؛ من كل ما يطلق عليه اسم مال - مثل نصيب ابن من أبنائه الأحياء عند وفاة الموصي. أوصى له بما ذكر؛ وصية صحيحة، تُنفذ بعد وفاة الموصي؛ كسائر وصايا المسلمين، فمن سعى في تغييرها فالله حسبه ومجازيه، وولي الانتقام منه.

يشهد على الموصي بما ذكر عارفاً له، وهو بآتم حال وأتمه في أول جمادى الأولى سنة عشرين وثلاث مئة وألف -: عبد ربه: محمد بن أحمد العالم - غفر الله له، ولوالديه والمسلمين، آمين -، وعثمان بن محمد العالم - عفا الله عنهم آمين - (1).

الحمد لله: وبمثلهم في الإسهاد على الشيخ المومئ عليه أعلاه؛ سواء بسواء، وهو بالصحة، وجواز الأمر؛ بتاريخ أعلاه وعامه؛ عبده: محمد بن محمد بن أبي فارس - عفي عنهم آمين - (2).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أشهدنا الموصي له المذكور عقب وفاة جدّه الموصي المزبور - أنه قد قبل الوصية المرسومة أعلاه لنفسه؛ قبولاً تاماً.

يشهد عليه بالقبول مع بلوغه، وعقله، وجواز أمره في اليوم السادس من ربيع الثاني سنة: 1324هـ؛ أربعة وعشرين وثلاث مئة وألف - عبد ربه: محمد بن أحمد العالم - كان الله للجميع آمين -.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فالقبول المنسوب إليّ أعلاه صحيح.

1) هذه الجملة كتبها عثمان المذكور بخطه فيما يبدو؛ لأنه يُغايِر خطَّ الشيخ محمد العالم.

2) هذه الجملة كتبها محمد المذكور بخطه فيما يبدو.

قاله: محمد الشيباني ابن محمد المذكور - غفر الله له، ولوالديه، والمسلمين، آمين-). (1)

[نص فتوى الشيخ محمد العالم في حكم هذا التنزيل]

((الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فقد سألتني الموصي له أعلاه: هل يصح هذا الإنزال عند السادة الحنفيّة، والسادة المالكية؟

فأجبت: بأنه يصح عند جميع الأئمة، فالوصية لولد الولد مع وجود ولد الموصي؛ وصية لغير وارث، لا تبطل عند جميع العلماء، وقد صرح بذلك في "رحمة الأمة"، فقال: وهي مستحبة لغير وارث بالإجماع. وقال الزهري وأهل الظاهر: إن الوصية واجبة للأقارب الذين لا يرثون الميِّت؛ سواء كانوا عصبةً، أو ذوي رحم؛ إن كان هناك وارث غيرهم، انتهى (2). ومثله في ميزان الإمام الشعراي. (3)

وفي التوسلي على العاصمية ما نصّه: تنبيهات: الأول: مسألة التنزيل، وهي: أن ينزل الإنسان أولاد ولده الميِّت منزلة أبيهم جارية مجرى الوصية، وتُقسم بين المنزّلين؛ للذكر مثل حظ الأنثيين، كما أفتى به أبو عبد الله المنصوري، والشيخ "التاودي"، وغيرهما. انتهى. (4)

وفي الفتاوى الكاملية لشيخنا العلامة سيدي محمد بن مصطفى - رحمه الله تعالى -: سئلتُ عمّ مات عن ابنين وزوجة، وأوصى حال حياته لزيد بنصيب ابن لو كان. فهل تصح هذه الوصية؟

فالجواب: نعم. قال في الإسعاف: ولو ترك امرأةً وابناً، وأوصى بنصيب ابن لو كان؛ فهو وما لو أوصى بمثل نصيب سواء اه. وقد نصوا على أنه إذا أوصى بمثل نصيب ابن صحّت الوصية، فهذه كذلك. انتهى من غير تصرف. (5)

وأصرحُ منه قوله: سئلتُ فيمن له أبناءٌ ثلاثة، وقد أوصى لابن ابنه بمثل نصيب ابن من أبنائه، فماذا ينوبه؟ فالجواب: أنه ينوبه من التركة الربع؛ كما في التنقيح، والله تعالى

1 هذا الإقرار كتبه الموصي له بخطه.

2 رحمة الأمة في اختلاف الأئمة لمحمد بن عبد الرحمن الدمشقي (ص/255). وانظر مذهب الظاهريّة في: المحلّي بالآثار لابن حزم (353/8).

3 انظر: الميزان للشعراي (164/3).

4 البهجة في شرح التحفة للتوسلي (514/2).

5 الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسيّة لمحمد كامل بن مصطفى الطرابلسي (ص/288-289).

أعلم. انتهى⁽¹⁾. وبه تعلم صحة ما قلته في صدر الجواب.

قاله قصيرُ الباع في العلم والاطّلاع: محمد بن أحمد العالم - غفر الله له، ولوالديه،
والمسلمين - آمين)).
الحاتمة:

في ختام هذا البحث أذكر أهمّ النتائج التي توصلت إليها، وبعض التوصيات:
أولاً: النتائج:

يعدُّ الشيخ محمد العالم أحد الأعلام الكبار في زمنه في القطر الليبي، وقد تميّز بكثرة
المصنّفات - مقارنةً بأقرانه - والعناية الخاصة بنظم العلوم؛ حيث نظم في علم العقيدة،
والنحو، ونظم في الآداب والنصائح، ومحاربة العوائد المنكرة. ولا أستبعد أن يكون له
أنظامٌ أخرى لم تصلنا في علوم أخرى.

للشيخ - رحمه الله - اهتمامٌ خاصٌ بالجانب التربوي؛ فوجه الطلاب إلى العناية بالقرآن
حفظاً وسلوكاً، وكان يلزم طلبته بحفظ وترداد نظم "فضل قارئ القرآن"، وحذّر في نظم
آخر طلبته من التعالي والتفاخر والعجب، والسكوت عن العوائد السيئة في المجتمع.

كان الشيخ - رحمه الله - مرجعاً للفتوى في بلده مسلاته، وله أثرٌ ظاهرٌ في نشر العلوم
إبان تدرّسه في زاوية يوسف الجعراني، وزاوية الدوكالي، فقرأ عليه الطلبة النجباء،
وختموا عليه مختصر الشيخ خليل في الفقه، وألفية ابن مالك في النحو والصرف، وكان
يعنى بتدريس العوام، وتبسيط العلوم لهم.

كان الشيخ من أنصار "الإفتاء الجماعي"، والتشاور بين أهل العلم في النوازل قبل
الفصل فيها، وكان أحد رواد "خلوة سيدي خلفته" في مسلاته، التي كان يجتمع فيها
المشايخ يوم الخميس من كل أسبوع (يوم سوق المدينة الشعبي)، فيقصدهم الناس للإفتاء،
ويجيئون في هذه النوازل بعد التشاور فيها. كما أن أغلب فتاوى الشيخ محمد العالم التي
وقفت عليها؛ كان جوابه فيها ضمن عددٍ من المُجيبين في النازلة الواحدة.

ثانياً: التوصيات:

أوجه أقلام الباحثين ممن لهم عنايةٌ بجمع التراث إلى البحث عن تراث الشيخ محمد العالم

(1) الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية (ص/291).

عند أحفاده، وأقاربه من أسرة (آل العالم) (1)، وعند غيرهم ممن يُظنُّ وجوده عندهم. وأما فتاويه فإنها في الغالب تكون تعليقاً على بعض العقود والوثائق للناس الذين سألوه، وطلبوا منه الفتوى في ذلك الوقت، وهذا يستدعي التفتيش عند العائلات التي تملك مثل هذه الوثائق.

بعض تراث الشيخ يصلح لتسجيله في بحث جامعي (ماجستير، أو دكتوراه)؛ تحقيقاً، أو شرحاً.

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.



(1) حاولت التواصل مع حفيده الشيخ: عبد الوهاب، ولم يتيسر اللقاء بيننا حتى الآن؛ لظروف خاصة بالشيخ.

ورقة الغلاف لنظم التوحيد (عطيّة الإله)

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وبعد فالقول المنسوب له
 اعلاه هو صحيح فالله صمد لا يشاء له الهة ولا ولد له ولا ولد له

بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على محمد وآله وصحبه
 أما بعد فهذه قصيدة مائة بيت للنظم في حقه واحكام
 علميه للشيخ النجاشي والعالم العلامة الكبير
 محمد ابي احمد التستري بالكراتية افاضه الله
 عليه من رحمته الواسعة واستغفر له
 وهي مائة بيت كما تراها هنا والله
 يدعيه شوقا بربها

- 1 اذ استنقح حوى حوى نكر ما كفى انال الحمد بالهجم والعبوي
- 2 الم تراه المرأين في قدره اذا فابد الاتذال بالرب والعبوي
- 3 عذوبت لطي المرأ نور حبه ولكن اخوا انا كما قال ذو الفقري
- 4 فكله عامة الابما ينفع العيني بدنيار اخرى لا تضاهي ذوي الغري
- 5 وكمر طابا للعلم بالجد واجتهد فحاصه كل الكمال له بحوي
- 6 ولا سيما علم التفسير في الذي منه كل علم نيل كافر في النحوي
- 7 فكم ساد جرم بالعلوم ولم يكن لا بائتهم تجد يقدم منهم مروى
- 8 وهم بنوا السادات عن رب سعة لا بانهم بالجهل كما لوقع للدعوى
- 9 فقير النفس والعلم منه كل ما يرى به الفضل بينه الناس بحسب كل حوى
- 10 وعلم بلا نقون يقاربه الذي يرى فقرا منه سعة وكان لبر في الحوي
- 11 انهم تروى نفع بل الرواة كما وصفه منه الموضع الاعلى الى اسفل الجهدى
- 12 وانجاره في غلابة الشبه كمرها كثر عظيم طيب الطعم مشهور
- 13 وانجارك لا تكم فلتة كمرها وتجد اعوانا لغيره الذي يروى
- 14 وينظم اهل اصحاب خبر العري بهم لسان جميع الخلق مندهم عارى
- 15 فحسبهم على والشهد يدركهم فبعضهم كفو الذي في لظي يروى
- 16 ولذنبهم يا صاح عدل وسيد لهم بعده فلقه دور الطعم والعدوى
- 17 علمهم من القسوس ستة جسمه فال لا في كسب الذكر والراوى
- 18 وزدهم المهي روضة وكرامة فلو لاهم ماها فاناسر عدا الخاوى



قبر الشيخ محمد العالم بمحاذاة جدار زاويته من الجهة الشرقية

فهرس المصادر والمراجع

- الأعلام نَحِيرُ الدِّينِ الزَّرْكَلِيِّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط: الخامسة عشرة، 2002 م.
- أعلام ليبيّا للطاهر أحمد الزاوي [ت: 1986م]، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، ط الثالثة، 2004م.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكاساني، ت: 587هـ، تح: علي معوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية (بيضون)، بيروت، ط الثانية.
- البهجة في شرح التحفة لعلّي بن عبد السلام التُّسُولِيِّ، ت: 1258هـ، تح: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1418هـ = 1998م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ليعاض بن موسى اليحصبي، ت: 544هـ، تح: محمد بن تاويت الطنجي وآخرين، وزارة الأوقاف المغربية، ط الثانية، 1403هـ = 1983م.

- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير لمحمد بن عرفة الدسوقي، ت: 1230هـ، مطبعة عيسى الحلبي القاهرة، د ت.
- حاشية الرهوني على شرح الزرقاني على خليل محمد الرهوني، ت: 1230هـ، وبهامشه: حاشية محمد بن المدني على گنون، دار الفكر، بيروت؛ مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر سنة: 1306هـ.
- حكم البسملة في الصلاة لأحمد بن محمد العالم، ت: 1967هـ، تح: عبد السلام محمد الشريف العالم، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 1993م.
- رحمة الأمة في اختلاف الأئمة لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدمشقي (من علماء القرن الثامن)، تح: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة أمير دولة قطر، 1401هـ = 1981م.
- شجرة النور شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، د ت.
- الشيخ محمد أحمد العالم؛ حياته وآثاره العلمية، وهو بحث منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس الغرب (مجلة سنوية)، العدد 12، 1995م.
- الفتاوى الكاملة في الحوادث الطرابلسية على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان لمحمد كامل بن مصطفى الطرابلسي، القاهرة، 1313هـ = 1895م.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجري، ت: 1376هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1416هـ = 1995م.
- لسان العرب لمحمد بن منظور، ت: 711هـ، دار صادر، بيروت، ط الثالثة، 1414هـ.
- المحل بالآثار لعلي بن حزم الظاهري، ت: 456هـ، دار الفكر، بيروت، د ت.
- مسلاته في العهد العثماني الثاني 1835-1911م لغيث عبد الله العربي، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ليبيا، ط الأولى، 2010م.
- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، د ت.
- مناقب علماء مسلاته الأخيار وطيب سيرهم من الأخبار، لنصر الدين البشير العربي، دار الحكمة، طرابلس الغرب، ط الأولى، 1441هـ - 2020م.

- المنهَل العَذْب في تاريخ طرابلس الغرب للنائب الأنصاري [أحمد بن الحسين، تُوِّفِي نَحْو: 1330هـ]، مكتبةُ الفرَجاني، طرابلس، د.ت.
- من فتاوى الشيخ محمد الشوماني المسلاّتي اللّواتي، بحثٌ قيّد النّشر في مجلّة الشيخ الطاهر الزاوي، من إعداد: عصام علي الخمري.
- الميزان لعبد الوهّاب الشّعْراني، تح: عبد الرحمن عميرة، دار عالم الكتب، د.ت.

السلوكيات التي شوهت مفهوم التصوف في المجتمع مثل (الجهل والفقر والبطالة) وسبل مواجهتها

أ.عزالدين سعيد أبراس / جامعة صبراتة/ كلية التربية زلطن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الغر الميامين. التصوف الإسلامي مادة علمية، احتوت في مضمونها المبادئ والأسس، لمجاهدة النفس وتزكيتها، وشفاء القلب وتنقيته وعبادة الله وتوحيده، ومحبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- واتباعه.

عندما تغيرت النفوس عن صفائها، وانحرفت وراء متطلباتها وشهواتها، وركنت الى الدنيا وزخارفها، خرجت فرقة عُرفت بزهداها وجهادها، لتعيد للأمة جوهر دينها، قبل انتشار الداء، وفشو البلاء؛ فبدأ هؤلاء الرجال من القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا بالإصلاح، ومحاربة اللهث وراء الترف والانحراف، واستمروا على هذا النهج عبر المراحل المختلفة في تاريخ الأمة وذلك حسب كل فترة وطبيعتها، قياما بواجب النصيحة، وحفاظا على سلامة الأمة من الضياع، وسموا فيما بعد بالصوفية، نسبة إلى الصفاء.

ألفوا كتباً عنيت بتلك التفاصيل، وقعدوا القواعد واستدلوا بالأدلة على الوجه الصحيح، بعيدا عن الانحراف والتشويه، محذرة من أهل البدع والإضلال، ففرقت بين الحق والباطل، وأهل الادعاء من أهل التحقيق، حتى تجلى الأمر واضحا لكل سائل فلا غلو ولا تفريط. وأما اليوم فإن الصوفية تمر بنحاض صعب وعسير، فقد اشتدت عليهم المعارضة، وازداد عليهم النكير، والتعدي والظلم، وتكثر الكثيرين لدورهم ومنهجهم، بدعوى انحرافهم وسلوكهم الغير سليم، مع قلة المنصفين والصادقين في التقرير والتقريب. لا بد أن نعلم ويعلم الجيل الجديد أن التصوف في ليبيا هو موروث ديني وثقافي واجتماعي، ارتبط بالهوية الليبية ارتباطا وثيقا، وخاصة في بعض المناطق في شرق البلاد وغربها وجنوبها، فقد شاع فيها التصوف منذ القرن السابع الهجري إلى يومنا هذا، كما يقول إحسان عباس: "... حال ليبيا اتخذ المساجد رباطات للعبادة وبخاصة على السواحل، ولهذا نشأ في ليبيا تيار زهدي قد يلحق بالتصوف ونشأ الإيمان بكرامات الزهاد في دور

مبكر من تاريخها" (1).

إن قضية وجود التصوف في البلاد الليبية قضية محسومة لا سبيل لنقضها أو إنكارها، وهو من المكونات البارزة للهوية الثقافية في هذه البلاد منذ مئات السنين؛ لذلك فإن مسألة إنهائه أو إقصائه - كما يحاول البعض - هي محض عبث لا جدوى منه؛ فلقد تلقاه أهل هذه البلاد وتقبلوه جيلا عن جيل. وبدلا عن محاولة هدمه والقضاء عليه وعلى أهله، فإن الأولى الذهاب إلى علاج مسائله وتوجيه سلوك أتباعه وتصحيح الانحرافات والمغالطات التي لحقت به، انطلاقا من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع لين الخطاب، وحسن آداب الحوار، فإن أغلب العلوم وقع فيها الخطأ والدس والتحريف، بعمد أو بغير عمد، ودخول من ليس منه فيه، وهذا الأمر لا يقف على التصوف وحده، فكيف يهاجم ويوصف بمثل ما يوصف به اليوم دون باقي العلوم!!

إن من أكبر الأخطاء المنهجية التي انتشرت اليوم، والتي كان التصوف من ضحاياها هي التعميم في الأحكام وعدم تحرير المسائل والموضوعات بشكل علمي دقيق، لا سيما إطلاق الحكم العام وتنزيله على كل المكونات - مع وجود اختلاف بين هذه المكونات، بسبب سلوك وانحراف بعض الأتباع!!

الإشكالية:

التصوف لم يكن بمنأى عن باقي العلوم، فقد حصل فيه ما حصل في التراث الإسلامي من دس وتدليس ودخول المدعين فيه وحديثهم عنه بلا علم ولا دراية، نخرجت سلوكيات وانحرافات عن منهج التصوف منذ القدم، إلا أن ما يواجهه التصوف اليوم من نقد وتجريح ومعاداة، فاق الحد وتجاوز المعقول، من تبيد وتكفير وتضليل، بالإضافة إلى دعوى مقاطعة أتباعه وهجرانهم، وعدم الاستماع لهم؛ الأمر الذي يجعلنا نطرح التساؤلات التالية؟

- 1- هل السلوك المنحرف أو المخالف يكون مبررا لوصف المسلم بهذه الأوصاف؟
- 2- هل التزم الطاعن والقادح في التصوف بمنهجية علمية صحيحة؟
- 3- هل السلوكيات المنحرفة تمثل كل الصوفية؟

(1) د/ احسان عباس، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا للنشر والتوزيع، ط/1، 1967، ص 243.

4- هل علماء التصوف راضون بكل تلك السلوكيات والانحرافات؟ ثانيا: أهمية الموضوع وسبب اختياره.

- 1- المساهمة في إحياء التراث الصوفي الصحيح، مع تشخيص الواقع، وتقديم الحلول، ومعالجة الخلل والتقصير.
 - 2- التصوف التقي يمثل روح الإسلام؛ لما عُرف به من نشر المحبة، والسلام، والتعايش السلمي، ونبذ العنف والتطرف والإرهاب.
 - 3- التصوف في المجتمع الليبي يمثل موروثا دينيا ثقافيا وجزءا من الهوية الليبية منذ مئات السنين.
 - 4- تعرض التصوف للتشويه والهدس، والاستغلال سياسيا واجتماعيا ودعويا من ضعاف النفوس بما يحقق مصالحهم الشخصية والدينية.
 - 5- سكوت كثير من أتباع التصوف على السلوكيات الخاطئة والتصرفات المنحرفة أمر يحتاج إلى بيان وتوجيه.
- هذا وقد قسمت البحث الى مبحثين، يحتوي كل مبحث على أربعة مطالب، وختمته بخاتمة ذكرت من خلالها النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: السلوكيات التي شوهت التصوف.

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: جهل الأتباع بالتربية والأخلاق التي قام عليها التصوف.
 - المطلب الثاني: غياب المنهج العلمي في الزوايا الصوفية اليوم.
 - المطلب الثالث: اختزال التصوف في الحضرة والسماع.
 - المطلب الرابع: المفاهيم المغلوطة عن الشيخ والأوراد وكثرة الخرافات.
- المبحث الثاني: مواجهة السلوكيات الخاطئة وتصحيحها.

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: إحياء التراث الصوفي السني الحقيقي.
- المطلب الثاني: تنقية التصوف من الداخل قبل مواجهة الخارج.

المطلب الثالث: محاربة البدع والانحرافات التي لحقت بالتصوف.

المطلب الرابع: إقامة دورات وورش عمل للتعريف بالتصوف بعيدا عن انحرافات داخل الزوايا وغيرها.

النتائج:

أولا: النتائج.

ثانيا: التوصيات.

المصادر والمراجع.

قائمة الموضوعات.

المبحث الأول: السلوكيات التي شوهت التصوف.

المطلب أولا: جهل الأتباع بالتربية والأخلاق التي قام عليها التصوف.

انتشر التصوف في أغلب المدن الليبية، انتشارا واسعا مع اختلاف طرقه، البالغ عددها ثلاث عشرة طريقة، في حين بلغ عدد الزوايا 659 زاوية⁽¹⁾ منتشرة في عموم ربوع ليبيا، وهذا العدد من الزوايا غير موجود على أرض الواقع؛ لأسباب يطول شرحها، والمقام ليس مقامها، فأصبح التصوف في ليبيا شعبيا⁽²⁾، وطبيعة هذا النوع من التصوف أن يغلب عليه سمة الصدق مع البساطة، والجهل، والالتزام بالسلوكيات والمظاهر الصوفية دون معرفة دلالاتها أو معانيها أو أهدافها.

إن المتبع للزوايا الصوفية في ليبيا خلال العقود الأخيرة، يتبين له ما قلناه من انتشار الجهل، وعدم المعرفة الجيدة بعلوم التصوف، باستثناء بعض الزوايا، وذلك للأسباب التالية:

- 1- قلة وجود الشيوخ المؤهلين والمربين، الذين أخذوا التصوف عن طريق السلوك والتربية، والاجازة المتعارف عليها بين أهل الطرق الصوفية.
- 2- عدم اهتمام المریدين بالعلم الشرعي، وحضور حلقات العلم، وتركيزهم على الحضرة

(1) مجلة الأسوة الحسنة، السنة الثامنة، العدد 42، ص:3. تم الاطلاع عليها 15 / 6 / 2022.

(2) - قسمت التصوف الى أربعة: التصوف الشعبي، والعلمي النظري، والحركي، والفلسفي، أنا ماري شبل، المستشرقة الالمانية (2003توفيت)، ترجمة، محمد اسماعيل، الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف، دار الجمل - بغداد،

والسماع بدلا عن ذلك.

- 3- كثرة عدد الزوايا التي افتتحت إداريا حتى وصلت الى 659 زاوية، دون العناية بأهداف الزاوية ودورها الديني والأخلاقي والمجتمعي والتربوي.
 - 4- انشغال كثير من المشايخ والمريدين بالبحث عن الكرامات، وخوارق العادات، والمغاللات في الرموز، ومسالك المجاذيب، دون أي جدوى تذكر.
 - 5- ترك المتصوفة الأصل وهو العلم الشرعي وانشغالهم بغيره كالتقصص والحكايات التي تروى عن الصالحين وكراماتهم وأحوالهم وكثير منها لا يصح في النقل وليس يسند عن ثقات النقلة، فكثرت فيهم الخرافة وصاروا أشبه ما يكون بالقصاصين إلى غير ذلك من ضروب الجهل، ونسوا أقوال أئمتهم من المحققين، فضيعوا البوصلة في طريقهم إلى رب العالمين، يقول سيد الطائفة الجنيد (297هـ): "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة".⁽¹⁾
- أدت هذه الأسباب وغيرها إلى انتكاسة بعض المتصوفة اليوم؛ فتركوا التصوف وتخلوا عنه، لجهلهم بأدلتهم، وعدم معرفتهم لقوة ارتباطه بالكتاب والسنة ووهن من لم يتركه منهم عن الدفاع عنه أمام المشككين والطاعنين. إن كثيرا من أتباع التصوف في ليبيا يجهلون علومه، وما قام عليه من تفصيلات عنيت بإصلاح القلوب، وتهذيب السلوك، فلا يعرفون عن كتاب الإحياء، ولا الرسالة، ولا الحكم العطائية إلا أسماءها، ولا يعرفون عن أدلة المسائل والقضايا المتعلقة بالتصوف كالأوراد والتوسل والسُّبحة والعهد، والاحتفالات الدينية، واستخدام الآلات الموسيقية في الذكر، باعتبار أنها أهم المسائل التي يكثر فيها الأخذ والرد، ولعل من أسباب ذلك كون بعضهم أميا لا اهتمام له بالعلم أصلا، والبعض الآخر لديه اقتناع مسبق فلا يحتاج إلى دليل، فأخذ بمسائل التصوف دون الاهتمام بالتفاصيل، ودون البحث عن الأدلة، وترك أمر العلم للمشايخ المربين، وهذا الأمر ظاهره حسن، لكن لا ينبغي الاتكال على ذلك فالعلم بمثل هذه المسائل فرض كفاية، لكن أن يجهل الشيخ ومريده العلوم الشرعية والأدلة المرعية، فهذه مصيبة من المصائب التي حلت بأهل التصوف لا يصلح السكوت عنها؛ لأنها كسرت شوكة الصوفية، وحجرت دعوتهم، وجعلتهم سبة على السنة الكثيرين، وهذا الحال من التقصير في الدين،

(1) الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد)، المنقذ من الضلال، ت/ عبد الحليم محمود، دار الجيل - بيروت، ط/ 1،

يلام عليه كل المسلمين، والصوفية جزء منهم، وإنما يزداد على الصوفية كونهم عرفوا بالهمة والجهاد، ومستندهم قوله تعالى { وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ سَبِيلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }⁽¹⁾ فلا عذر لجاهل في تحصيل أمور دينه وتعلم ما لا يسعه جهله مما يترتب عليه صحة عمله وإيمانه، ففضل العلم وشرفه لا يجمله مسلم.

المطلب الثاني: غياب المنهج العلمي في الزوايا الصوفية اليوم.

لم يكن للزوايا الصوفية في البلاد الليبية خلال الخمسين عاما الفارطة منهج علمي مقنن وواضح، ولم تكن هناك مواد علمية ثابتة كمقررات دراسية تدرس فيها، بحيث يمكن لكل انسان أن يطلع عليها في أي وقت، ليستفيد منها، مع قلة وجود حلقات العلم، التي كان لها - في ما سبق - الدور الأبرز في التنشئة المعرفية، ومحاربة الجهل وصوره. أدى غياب هذه المنهجية إلى ظهور آثار سيئة على المريدين في التربية والسلوك، لأن من يعلم حجة على من لم يعلم.

يقول الشيخ أحمد القطعاني: "العلم شرط من شروط الطريق للمريد، وكيف يتأتى له العلم إن لم يذهب الى مشائخ العلم ويتلقى عنهم"⁽²⁾ فإذا كان المشايخ أنفسهم غير متعلمين، ولا مزكين ولا مؤهلين، فكيف سيكون حال المريدين؟

حالمهم التذبذب بين صابر متبع، وناكر جاحد منتقم، وهذا ما حصل في الآونة الأخيرة، من طعن بعض المريدين في شيوخهم، والتعدي عليهم، ووصفهم بالمضلين وبأنهم أهل بدعة وضلال، بدعوى أنهم ليسوا أهل علم ولا معرفة، ولا اتباع ولا سنة، كل ذلك نتيجة غياب الشيخ الذي يربي سلوكهم، وينير عقولهم، وإلا كيف ينقلون عليهم!! أو أن يكونوا خصوما لهم!!

هذه ضريبة الجهل وغياب العلم، وعدم وضوح المنهج المدلل من الكتاب والسنة، وأقوال أهل العلم واستدلالاتهم، وبيان أدلة كل فعل وحكمه، حتى يستقر عند أذهان الجميع، أن علوم التصوف لا تخرج عن أصول الدين وفروعه.

إن الزوايا الصوفية في وقتنا المعاصر أقل نشاطا علميا ودعويا مما كانت عليه في السابق،

(1) سورة العنكبوت، الآية: 69

(2) القطعاني (أحمد)، الحجة، مكتبة النجاح، ط / 2، 1992، ص: 125

ولعل من أهم الأسباب الظروف السياسية التي تمر بها البلاد، وقلة الدعاة المتصوفين، وهذا الأمر هو أهم ما يفتقده التصوف في ليبيا اليوم، وهو يعتبر التحدي الأكبر أمام الصوفية الآن.

لم يعد النظام النمطي كافياً للزوايا لاستمرارها، وهي الاعتماد على الحكاية الشعبية، والقصص عن الأولياء وكراماتهم، من باب صحة الطريق وقوة البرهان، أو من باب ترغيب الناس في حبهم والتعلق بهم، أو الافتخار بالانتساب إلى إحدى هذه الطرق دون غيرها، ما لم تكن مصحوبة بما يسندها من علم وفهم وبيان.

إن غياب المنهج العلمي الصوفي عن الزوايا هو أكبر ما يهددها بالانقراض أو الإغلاق، بحجة عدم وضوح منهجها، أو أنها من التراث ولم نعد بحاجة إليها، أو عدم وجود انضباطية تحكم أتباعها ومنهجهم، مما يقوي حجة من يقول بأنه لم يعد هناك تصوف سني حقيقي؛ يقول أحد الباحثين: الصوفية... المنفردة والجوالون لا يأخذون بتقاليد السلوك المدرسية من أوردات وتكليف وإجازة، ونظم استقرارٍ وتحزب، بل نراهم يسيحون ويبحثون، ثم يبتكر كل منهم أسلوباً أو يحرّك خطاباً فيه من اللغة ما يشترك به مع الآخرين، من جهة، وفيه ما يختص به وحده دون سواه، من جهة أخرى.⁽¹⁾

وهذا الكلام فيه من الخطورة والانحراف ما لا يخفى على أحد، وهو ما يفتح الباب لكل أحد أن يقول ما يحلو له باسم التصوف، فيحكم الناس بذلك على التصوف من خلال هذه التصرفات التي لا تمت إلى التصوف بشيء. التصوف الحق يحكمه ضوابط وقواعد ذكرها العلماء في كتبهم، فلا مجاملة ولا تهاون أمام المدعين بعد اليوم، حفاظاً على ديننا وهويتنا، بعيداً عن شطحات الجاهلين، وتشويه المنحرفين.

المطلب الثالث: اختزال التصوف في الحضرة⁽¹⁾ والسماع.

الحضرة والسماع من أهم المظاهر الموجودة المعبرة عن الصوفية اليوم، حتى إذا ذكر التصوف قيل الحضرة والعكس، مع أن الحضرة والسماع جزء أو باب من أبوابه، لم تلق من الاهتمام في السابق مثل ما هو موجود الآن، وفي كفاءتها محل نزاع قائم بين المتصوفة

(1) المحجوب (عبد المنعم)، في تأويل الأثر الصوفي، صفحة ليبيا المستقبل، أرشيف الكاتب، 2022/5/8، تم

الإطلاع: 2022 / 6 / 15

(1) لمن أراد معرفة الكثير عن الحضرة الليبية بكامل تفاصيلها فينظر ما نشرته مجلة الثقافة الشعبية العدد 53، بحث قيم، د. ناصر ناجي بن جابر، فنون الحضرة الليبية الآلات والإيقاعات، ص: 149 - 155

أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم ثانياً، فالحكم على التصوف كله بناء على ما يقع في الحضرة من انحرافات وتصرفات، يُعدُّ بعداً وشططاً عن الصواب.

الحضرة - كلفظ حديث- نشأت حديثاً، باعتبارها برنامجاً وممارسة جماعية تخص أهل التصوف، كل حسب الطريقة التي ينتسب إليها، يرجع تاريخ نشأتها عند الجمهور الى زمن الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام المتصوفة، ومؤسس الطريقة القادرية، ومن المؤرخين من قال نشأت زمن الدولة العباسية⁽²⁾.

والحضرة في ليبيا: هي نوع من الإنشاد والقصائد يؤدي داخل الزوايا وخارجها من قبل الفرق الصوفية، باستخدام الآلات الموسيقية، في مجالس الذكر ترويحاً للنفوس وجلباً للعوام؛ لأن المقصود ليس الآلات، وإنما ما تستخدم له الآلات وهو مجلس الذكر والحضرة، وقد عرف هذا النوع من الفن باسم السُّلاميات، وهي تتألف من أشعار وقصائد، فيها التسييح، والابتهاال، ومدح الرسول الكريم ﷺ. يقول الدكتور عبد الله مختار السباعي، «لقد ساهمت بعض زوايا الطرق الصوفية كالعيساوية والقادرية والعروسية والرفاعية، في نشر وتعليم فنون المدائح والأذكار والابتهاالات الدينية والموشحات الشرقية، ونوبات المؤلف الأندلسية لشباب المريدين الراغبين في حفظ هذا التراث الغنائي التقليدي العريق إلى جانب تعليم العزف على بعض الآلات الموسيقية الإيقاعية والوترية والهوائية بطريقة السماع والتلقين المباشر». أي حافظة على الهوية الثقافية للمجتمع الليبي.

إن استخدام الآلات إيقاعية كان موجوداً في زمن الرسالة، كما ذكر البخاري في قصة دخول الصحابي الجليل أبي بكر الصديق على ابنته -عائشة- ورأى جارتين تغنيان وتضربان بالدف، فقال: مزامير شيطان في بيت رسول الله، فرد عليه الرسول ﷺ دعهما يا أبا بكر فإن اليوم عيد⁽¹⁾، وكذلك قصة المرأة التي جاءت إلى الرسول الكريم فقالت إني نذرت أن أضرب عليك بالدف (الطار) فأذن لها. وقصة الحبشة ولعبهم ورقصهم داخل المسجد، تم سرد هذه الأحاديث رداً على من ينكر استخدام بعض الآلات مطلقاً، أو اللعب داخل المسجد، حتى نضع القاري في وجهة النظر لم يقم لهم دليل وإن كان فهمهم لنص هو محل النظر والخطأ والمقام ليس مقام تفصيل.

(2) بن جابر (ناصر ناجي)، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 53، ربيع 2021، تم الاطلاع عليه 15 / 6 / 2022

(1) البخاري (أبو عبد الله اسماعيل) كتاب العيدين، باب: الحراب والدرق يوم العيد، رقم الحديث: 226

فالحضرة تشمل قصائد وأذكاراً، وتنقسم حسب محتواها وموضوعاتها إلى: (قصائد
 تعبدية وتوحيدية) (وقصائد مواعظ وتذكرة) (وقصائد ذكر وهيام).
 الحضرة في ليبيا فيها كل ما ذكر، لكنها انحرفت عن آدابها وشروطها، إلى رقص
 وتصفيق وهو ولعب، مع أن الرقص بالثنائي عند الجمهور محرم، وبغيره مكروه، فإدخاله في
 العبادة والذكر، هو ادخال غير مشروع بمشروع⁽¹⁾، لذلك نبه المشايخ تلاميذهم وحذروهم
 من الوقوع في مثل ذلك، يقول الشيخ عبد السلام الاسمر في وصيته الكبرى: "إخواني
 من رقص فيها بغير جذب فهو من قلال الأدب، ومن صفتق فيها متعمدا وركض فلعهدنا
 وعهود مشايخنا قد نقض، ومن اهتز فيها بغير حاله كشف الله حاله"⁽²⁾
 نقلا عن الفقيه المالكي ابن الحاج⁽³⁾ - رحمه الله تعالى - في كتابه:

ليس التصوف لبس الصوف ترقرعه ولا بكاءك إن غنى المغنونا
 ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا ارتعاش كأن قد صرت مجنونا
 بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتبج الحق والقرآن والدينا
 وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر محزونا

إن الاهتمام بالحضرة واقامتها كل اسبوع، يعتبر مخالفاً لما قرره علماء التصوف
 وحذروا منه؛ يقول الجنيد: "السماع فتنة (امتحان وابتلاء) لمن طلبه، وترويح لمن صادفه،
 ويقول أيضا السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء: الزمان والمكان والإخوان"⁽¹⁾. فقوله لمن
 صادفه، أي لا يكون محل بحث واهتمام من المريد، لما فيه من الانشغال، وتعلق النفس
 بشهوة الفرح والغناء.

ويضيف الاستاذ أبو علي الدقاق: "السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، وهو
 مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا حياة قلوبهم"⁽²⁾.

(1) البوطي (محمد سعيد رمضان)، فقه السيرة، دار السلام، ط / 23، 2012، ص: 302

(2) الأسمر (عبد السلام الفيتوري)، الوصية الكبرى، ط / 1، 1976، ص: 50

(3) ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي) ت 737هـ الناشر: دار التراث، 23/4

(1) القشيري (أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ت / هاني محمد حامد، مكتبة

الفجر الجديد، ط / 2013، ص: 340

(2) الرسالة القشيرية، ص: 340

فعلماء التصوف لم يتركوا هذا الأمر دون ضوابط، بل حذروا من السماع وخطورة تعلق النفس به؛ لما فيه من لذة معنوية، وشهوة نفسية، وما زاد عليه في زماننا من رقص وتصفيق وصراخ، وهو من رعونات النفس، وقلة الأدب، يقول العز بن عبد السلام: (وأما الرقص والتصفيق نخفة ورعونة مشابهة لروعة الاناث، لا يفعلها الا راعن ومتصنع كذاب) (3) وهذا رأي الجمهور مثل ابن حجر الهيتمي في كتابه كف الرعاع (4)، وابن عابدين في حاشيته مفرقا بين الوجد القاهر والتواجد المصطنع (5)، الذي إن حصل كان لصاحبه عذر كما يقول الشعراوي: "إذا كان التمايل صناعيا كان نفاقا وإذا كان التمايل طبيعيا كان وجدا لا سيطرة للإنسان عليه والذكر راحة نفسية" (6)، وهذا ما حصل للعز بن عبد السلام هاجت نفسه مرة فقام يقفز (7)؛ وذلك لغلبان الوجد عليه، وهو الذي نص على تحريمه كما ذكرت.

فإذا قسنا ما هو موجود الآن بكلام العلماء؛ ندرك جيدا حجم المخالفات والانحرافات عند من يقوم بالحضرة اليوم، دون مراعاة شروط الذكر وآدابه، وضوابط الحلقات وتنظيمها، فأصبحت مسرحا للفن والرقص والتصفيق والصراخ، لا يقبلون فيها تغييرا ولا اصلاحا، ويبررونها باسم التصوف والوجد والهيام، وبحث عن التجلي والغياب، بأفعال وتصرفات بعيدة عن منهج الاسلام.

إن الحضرة بهذا التصور لا يمكن أن تكون حلقة ذكر؛ لما فيها من تصرفات وسلوكيات خاطئة، وممارسات غير صحيحة، مع انتقاد كثير من المشايخ لها، فدعوى الرقص وهز الرأس واستدعاء الوجد والهيام بنوع من الاختيار، ليس لصاحبه كمال وجد، اذ لو كان صادقا لكان واجدا (1)، فالأولى جعلها من قبيل الفن الشعبي، والموروث الثقافي، فنرفع بذلك الحرج والضيق، ونسمي الأمور بمسمياتها ونضع الأفعال في موضعها الصحيح،

(3) العز (أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام)، قواعد الأحكام في مصالح خير الأمم، ت/ طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، 1991م، 2 / 220

(4) الهيثمي (ابن حجر)، كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع، (899 - 974 هـ) تحقيق /عبد الحميد الأزهرى، انظر ص: 17- 18 - 28 - 29 - 30.

(5) ابن عابدين (محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين)، رد المختار على الدر المختار، الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط / 2، 1966، 6 / 349-350

(6) الباز (محمد)، محاكمة الشعراوي، مكتبة مدبولي، ط/1، 1997م، ص: 23

(7) البوطي (محمد سعيد رمضان)، فقه السيرة، ط/ 2012، 23، ص: 304

(1) الرسالة القشيرية، ص: 61

ونغلق الباب أمام الطاعنين والقادحين.

فالمطلوب من الجميع هو الالتزام بأحكام الدين، والتفريق بين المباح والمحظور، فالحضرة الحقيقية هي حضور القلب مع الله، في كل الحركات والسكات، مصداقا لقوله -صلى الله عليه وسلم-: "كأنك تراه" الذي هو مقام الاحسان، فيحصل عندك الحضور والسكون، واصلاح الظاهر والباطن في مراقبة علام الغيوب عز وجل.

المطلب الرابع: المفاهيم المغلوطة عن الشيخ وكثرة انحرافات.

الشيخ أو المعلم شرط وجوب في الطريقة⁽²⁾، فلا تصح المشيخة من جاهل أو غير عالم، فالمرابي إنسان مر بتربية وعناية وتعليم عن شيخ قبله، حتى يكون قادرا على أن يقود غيره، بعد أخذ الطريق والتربية عنه مصداقا لقوله تعالى: { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ }⁽¹⁾ أي تتبع خطى السابقين، حتى نضمن الوصول سالمين لرضى رب العالمين، قال ابن عاشر⁽²⁾:

يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك
يذكره الله إذا رآه ويوصل العبد إلى مولاه

فالشيخ المُسند هو مفتاح الطريق، وهو من يأخذ بيد المرید ليلسك به الطريق، فيجب في حقه الحب والتقدير والاحترام، مع وجوب الصحبة وحسن الاعتقاد⁽³⁾، فمن لا شيخ له فشيخه الشيطان، ومن صفات الشيخ كما يقول الامام الرازي⁽⁴⁾: (الإخلاص، والصدق، والسلوك) أي لا بد أن يكون الإخلاص سره، والصدق شعاره، والسلوك منهجه وطريقه، فيكون عارفا بمسالك الطريق، خبيرا بمراحلها ومنازلها، مدركا لمتالفها ومهالكها.

والشيوخ ثلاثة: شيخ التلقين، وشيخ انحرقة، وشيخ الصحبة والافتداء، وهو الذي

(2) القطعاني (أحمد) الحجة، مكتبة النجاح، ط 2 / 1992، ص: 128-129، المنقذ من الضلال، لحجة الاسلام

الغزالي، د/ عبد الحلیم محمود، دار الجليل - بيروت 2003، ص: 156

(1) - سورة لقمان، الآية: 15

(2) - ابن عاشر (عبد الواحد)، متن ابن عاشر، المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الهدى-

الجزائر، 2000، ص: 24

(3) - المحجوبي (خالد ابراهيم) الصوفية والتصوف في ليبيا، ص: 58

(4) - الغزالي، المنقذ من الضلال، 156، القشيري، الرسالة، ص: 381

عليه الاعتماد، وينقسم الأخير إلى شيخ مُرب ومُرق وخاصة عند السادة الشاذلية⁽⁵⁾ وعامة الطرق الصوفية تعتمد منهج الوعظ، والتأثير بذكر كرامات الشيخ، وتقديسه، والارتباط به، والتعصب له، واعطائه من المكانة قدرا لا يصل اليه غيره، قال مصطفى أبو رمان: "ما أحوجنا في واقعنا المعاصر إلى من يقوم بالتربية والتزكية، ويعمل على إصلاح المجتمعات، والتصوف مرشح للقيام بهذا الدور، لكن مشايخ الطرق الصوفية متفاوتون في أهليتهم وقدراتهم، وثمة فروق واضحة بين شيوخ تلك الطرق"⁽¹⁾.

ومن أهم هذه الفروق التورث أو التنصيب الإداري، وهو من آفات التصوف المعاصر، الذي جعل بعض الناس شيوخا للطرق الصوفية وهم ليسوا أهلا للتربية والتزكية، فبالعوض المشيخة بغير جدارة واستحقاق، وهو ما أضعف التصوف وأتباعه، وهذا ما حصل في ليبيا خلال العقود الأخيرة، فقد كانت رغبة الدولة في نشر الزوايا ودعمها، ففتحت قرابة 659 زاوية منتشرة في عموم ربوع ليبيا، دون الالتفات إلى قدرة المشايخ العلمية وكفاءتهم، والاعتناء بالمريدين ومتابعهم، فحصل فيها الكثير من الإهمال والتسيب، والإغلاق والتخريب، فلم يكن هذا الرقم موجودا فعليا على أرض الواقع، وبقيت الزوايا العريقة تؤدي دورها التقليدي المعتاد.

ومن خلال الزيارات الميدانية تظهر عيوب بعض المشايخ قبل المريدين، من التعالي والغرور، ودعوى البركة والسر، والتكلف في إظهار الورع، فلم يسلموا من الوقوع في حظوظ النفوس وآفاتهما، مع أن دورهم هو تزكية النفس وتهذيبها، وتجريدها من أهوائها، والسلوك بها سبيل الزاهدين المحبتين، الطامعين فيما عند رب العالمين.

لإعادة التصوف إلى صفائه، والمصدقية في مشايخه وطرقه، لا بد من تصحيح المسار، وتقديم شخصيات تشربت التصوف علما وتربية وسلوكا، بعيدا عن المجاملات والمزايدات، التي كان التصوف أول ضحاياها في البلاد.

(5) الحجّة، ص: 109

(1) موقع عربي 21، تم الاطلاع عليه يوم الإثنين، 11 يوليو 2022 / 11 ذو الحجّة 1443.

المبحث الثاني: مواجهة السلوكيات الخاطئة وتصحيحها. المطلب الأول: إحياء التراث الصوفي السني الحقيقي.

ما أحوجنا اليوم لإعادة منهج السادة الصوفية، الذي يتسم بالتربية والأخلاق، والسمو بالنفس إلى معالي الأمور، في ظل تفشي سوء الأخلاق، والبداية تكون بتصحيح الاعتقاد، والبحث عن العلم ومطالعة كتب القوم، وصحبة الأخيار، يقول الأستاذ أبو علي الدقاق: "تجب البداية بتصحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى، صاف عن الظنون والشبه، خال من الضلال والبدع، صادر عن البراهين والحجج"⁽¹⁾. فالتصوف عقيدة وعبادة وسلوك، وهو العلم الجامع لأحكام الدين، ولا يمكن تحصيله إلا بالقراءة والتلقي وصحبة عالم خبير بمنازل السائرين، وهذا هو المسلك السليم، لمن أراد أن يكون له دور في إحياء التصوف وخدمته، يقول أبو حامد الغزالي: عندما هممت أن اطرق باب التصوف، أول ما بدأت به هو العلم قبل العمل، فبدأت بقراءة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"الحارث المحاسب" و"متفرقات عن" "الجنيد ت 297هـ" و"الشيلي ت 334هـ"⁽²⁾.

الفكر الصوفي لن يتطور إلا بإحياء علومه، وتزكية نفوس أتباعه، وتصحيح المفاهيم وتحريها، والعودة إلى منابع الدين من القرآن والسنة، مسترشدين بفهم السابقين، محذرين من كل الأقوال والأفعال التي ليس لها دليل؛ فتنقية التصوف مما علق به من إضافات، بعيدا عن الانحرافات والخرافات، هو التصوف الحق الذي أسس على نهج والكتاب والسنة.

إن ما يميز التصوف في ليبيا هو أن أصوله سنية، وأعلامه من مشاهير المتصوفة في العالم الإسلامي⁽¹⁾، وأن التصوف الفلسفي لم يجد أرضاً خصبة في هذه البلاد، فالحياة في ليبيا غلبت عليها البداوة، واعتمادهم على الترحال مما جعله بمنأى عن إقامة العلماء، فأخذت الزوايا على عاتقها - خلال العهد العثماني الذي استمر لمدة أربعة قرون - مهمة تعليم أصول اللغة العربية، وأصول الدين الإسلامي، وتحفيظ القرآن الكريم، إلى جانب أنها كانت ترشد إلى إتباع النهج الديني القويم، كما قامت الزوايا بتحفيظ ونشر الابتهاالات

(1) الرسالة القشيرية، ص: 378

(2) المنقذ من الضلال، ص: 84-85

(1) يشير أحد الباحثين إلى أن أبا مدين الغوث (595) استطاع أن يأخذ من معين التصوف السني عن الشيخ =عبدالقادر الجيلاني، وهو إمام أجمع أئمة الإسلام من بعده على فضله، وصحة عقيدته، وشيوع كراماته، كما أخذ أبو مدين عن علي بن حرزهم، عن صالح بن حرزهم، عن الغزالي (505هـ)، وهو علم سني صوفي مشهور

الدينية، والأوراد، والأذكار، وقصائد المديح النبوي، ونوبات المؤلف الأندلسي.

التصوف المعتدل أو العليّ يركز على دور الزوايا والمساجد، وما تقوم به من أجل النهوض بالفرد والمجتمع، وكيفية التوافق بين البناء العليّ والصفاء الروحيّ، من منابع التصوف وكتبه ورموزه، دون الإغراق في الانتماء لطريقة صوفية معينة، بعيداً عن الشطح والرمزيات الصوفية.

ومن أشهر معاقل الصوفية العلية في العالم الإسلاميّ الأزهر الشريف بمصر، وجامع الزيتونة بتونس، وما تقوم به منارة الأسمري رفقة الجامعة الأسمرية في ليبيا، وبعض الزوايا في الشرق والجنوب والغرب، بجهود جبارة في محاولة استكمال المشوار، والمحافظة على علم وتراث السابقين، رغم التحديات والصعوبات التي يواجهونها، فزادهم المعاند إصراراً، والمشكك حجة وبرهاناً، فظل شعاعهم نوراً يستنير به الطلاب، وشذا تنتعش به الأرواح، وخطواتهم نحو الإصلاح ناجحة بإذن الله.

المطلب الثاني: تنقية التصوف من الداخل قبل مواجهة الخارج.

أصبحنا اليوم - أكثر من أي وقت مضى - في أمس الحاجة إلى تنقية الزوايا الصوفية من ما لحق بها من شوائب، وتقديمها بعيدة عن كل الانحرافات والبدع، والعودة بها إلى منبعها الصافي النقي، بإقامة الحجّة والبيّنة على المدّعين، والمطالبة بتعليم السالكين والمريدين، وإصلاح القصور والخلل؛ فهذه من الأولويات الواجبة التي ينبغي أن يقوم بها كل صوفي، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (1)، فالتغيير نحو تركية النفس وتهذيبها، وتصحيح الأخطاء وتصويبها، وهو من التخلية والتحلية التي هي من مبادئ التصوف، والمقصود به فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة (2).

إن غربة التصوف وما لحق به وتصفيته مما أضيف إليه وتصحيح المفاهيم التي انتشرت عنه، واجب على العارفين والمهتمين من البُحاث والمتخصصين؛ ليخرج للناس طاهراً نقياً، دواءً للنفوس الشاردة، وشفاءاً للقلوب المريضة، ومعالجاً للأخلاق والسلوكيات المنحرفة، بما يعزز إسهامه في حياة المسلمين، الأمر الذي يستوجب وجود قيادة صوفية مؤهلة، لحمل رسالة التنوير، وإصلاح القلوب والعقول، قيادة حقيقية وليست شكلية أو

(1) سورة الرعد، الآية: 11

(2) الرسالة القشيرية، ص: 67

صورية.

يقول الدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي "كان أبي -رحمه الله- يجزم بأن التصوف النقي هو جوهر الاسلام ولبابه، ويقول أيضا أن التصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذا من كتاب الله وسنة رسوله"⁽³⁾ ذلك لأن هدف التصوف هو إخلاص العبادة لله وإقامة شعائره على الوجه الأكمل.

إذا لم ينهض أهل التصوف لتنقية أنفسهم ومحاربة البدع التي لحقت بهم، فإن دورهم في المجتمع سيظل ضعيفا، ونشاطهم الدعوي سيظل محصورا، وستظل صورة التصوف مشوهة لدى أتباعه قبل أعدائه، فإصلاح الداخل وتنقيته، يأتي في الأولوية قبل محاوره الآخر ودعوته؛ لأن الله يقول: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ }⁽¹⁾ فأهل الدار أولى بما فيها، ولا بد لأهل التصوف أن يحيا حقيقته، ويبينوا للناس أدلته ومنهجه، بحيث لا يمثله إلا أهل التربية والسلوك، حتى لا يبقى عذر لمن جهل علومه، وينبغي أن يكون ذلك سائرا بالتوازي مع انتقاد كل سلوك منحرف، وتصحيح كل خطأ مقترف، فإذا ما ظهرت مخالفات وانحرافات بعد ذلك من أحد المتصوفة، كان اللوم على أصحابها دون غيرهم، جاء عن عمر ابن الخطاب: "من وضع نفسه موضع الشبهات فلا يلومن إلا نفسه" . تطهير الداخل يبدأ من اصلاح النفس وتهذيبها، ومحاربة السلوكيات الخاطئة وإنكارها، وذلكم التطهير هو بعينه ما يسميه العلماء بالتخليه ويأمرون بها أتباعهم ليتمكن بعدها تحليتها بمكارم الأخلاق، وذلك من أجل التحقق بحقيقة أن تكون خير داع الى منهجك، وسلوكك، وأن تضمن النجاح لدعوتك، ويكون التوفيق حليفك.

المطلب الثالث: محاربة البدع والانحرافات التي لحقت بالتصوف.

لن يصلح أمر التصوف إلا بالرجوع إلى ما بدأ منه، وما أسس عليه من أدلة الكتاب والسنة، فالسادة الصوفية من أشد الناس محاربة للبدع، يقول أحمد الرفاعي - مؤسس الطريقة الرفاعية-: (طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة)⁽²⁾ من خلال ذلك أصبحت هناك ضرورة ملحة لمراجعات نقدية وشرعية لسلوك أهل الطرق الصوفية المعاصرة والوقوف على ما فيها من مخالفات

(3) البوطي (محمد سعيد رمضان)، هذا والدي، دار الفكر دمشق (2009)، ص: 106

(1) سورة البقرة، الآية: 32

(2) أبو اليزيد (جودة محمد المهدي)، أعلام الصوفية، دار غريب، القاهرة، ط / 1، 1998، ص: 423

شرعية وبدع دخيلة على أن يكون ذلك بإنصافٍ وتوازنٍ، بقصد الإصلاح لا الهدم ولا الإلغاء.

تظهر بعض الممارسات من الغلو والتطرف والانحراف عن منهج الكتاب والسنة، وهي لا تمثل كل الصوفية ولا منهجهم؛ وإنما تمثل أصحابها وأهواءهم، إذ لو حكمنا على كل التصوف من خلال أفرادهم، فإننا سنحكم على الإسلام بالخطأ والفساد كذلك من خلال أفرادهم، وهذا منهج خاطئ في الحكم على الناس، ورميهم بالضلال لمجرد رؤية فعل منهم لا يروق لنا!!

لحق بالتصوف كثير من البدع، والانحرافات التي كان لها الأثر السيء على التصوف والصوفية أنفسهم، وذلك كله منشؤه غياب العلم والمعرفة، والشيخ الربانيين والعارفين، فمن بدع المشايخ: التعظيم والمبالغة في تقديسهم يخرجهم عن مظنة الخطأ والتقصير، حتى وصل الأمر ببعضهم أن جعل رضا الشيخ طريق النجاة وطريق العطاء، وغضبه سبب سخط الله وعقابه، فادعى بعض هؤلاء لأنفسهم البركة والبرهان والمدد الإلهي، فتلاعبوا بالمريدين وضعاف العقول، واستغلوهم في قضاء مصالحهم الدنيوية، فضلا عن ما لحق بالحضرة والسماع من تواجد بلا وجد، ورقص وطرب بلا حال ولا قصد، كثر فيها الصياح والتصفيق، وهز البدن والرؤوس، بعيدة عن الخشوع والحضور، واستحضار معاني الذكر بقلب خاشع مُنيب؛ بل أصبحت الحضرة فنا من الفنون، بعيدة عن الذكر والحضور، متعتها جسدية، لإرضاء شهوة نفسية، بعيدة عن أعرافها ووصايا أصحابها.

هناك أمر وجب التنبيه عليه، وهو ليس كل ما يتهم به الصوفية بالانحراف والبدع كذلك؛ بل هناك مسائل هي محل اختلاف بين الفقهاء ولم يتم فيها الفصل إلى الآن؛ لأن تقييمها وتصنيفها يختلف باختلاف الأدلة، ومن أهم تلك المسائل: التوسل والاستغاثة وزيارة القبور، والاحتفال بالمولد النبوي، وهذه لا تعتبر من البدع أو الانحرافات عند الصوفية؛ لأن لها مستندا فقهيا تستند عليه، وهي من مسائل الفروع التي لا يضر الاختلاف حولها، وهو منهج السلف في التعامل مع مسائل الخلاف، وهذا بخلاف ما نراه من بعض الشخصيات التي تخالف السلف في منهجهم، فتحكم على غيرها بالانحراف والغلو والتشدد والتكفير، إذا خالفه فيما يراه؛ وهذا يعد مجانبة الإنصاف والتوازن في الكثير من النقد الموجه للصوفية المعاصرة.

إن هذا المنهج الخطير الذي لا يعترف بالمخالف، ولا يقر بتصنيف الفقهاء للمسائل،

ولا يفرق بين الأصول والفروع، ويصف غيره بما يريد من مسميات على أقل الأسباب؛ هو من أكبر البدع التي يجب أن تحارب، ويتصدى لها كل طلبة العلم، ووسائل الأعلام المختلفة، فضلا عن المؤسسات العلمية والثقافية، حفاظا على الأمن الفكري، وسلامة المجتمع من التشطي والاختلاف.

رابعا: اقامة دورات وورش عمل لتعريف بالتصوف بعيدا عن انحرافات داخل الزوايا وغيرها.

عرف التصوف قديما من خلال الزوايا التي كانت بمثابة المنارات والجامعات العلمية، ومؤسسات المجتمع المدني في عصرنا الحاضر؛ لما هناك من تشابه في المجالات والخدمات، من تقديم المأوى لطلاب، ونشر العلم، وتخرىج كبار العلماء، وتوفير الثياب والزاد للمسافرين وعابري السبيل.

إن حركة الزوايا ونشاطها سابقا كان من أسباب نشر التصوف والتعريف به، بل كانت حلقة وصل بين المجتمع والناس، فانتشر التصوف وأحبته الناس مع عدم علمهم بمنهجه ومدلوله بشكل موسع، كما أن الزوايا لعبت دورا اجتماعيا وسياسيا ودعويا كبيرا في افريقيا في نشر الاسلام، مثل الطريقة السنوسية والتيجانية وغيرها.

إن ضبابية صورة التصوف في المجتمع الليبي اليوم لم تأت صدفة أو عبثا؛ بل جاءت نتيجة غياب دور المشايخ والمريدين والزوايا والطرق الصوفية والجامعات والكليات للتعريف بالتصوف ودراسته، وبيان مادته ومحتواه بصورة علمية ميسرة، بعيدا عن الشطحات وانحرافات والفلسفات التي تفتقر الى الدليل والبرهان، وما يدرس في الجامعات اليوم لا يمكن أن يكون كافيا شافيا في تناول أغلب موضوعات التصوف. لذلك ظل التصوف العلمي النظري غائبا مفقودا في اغلب الزوايا والطرق، وساد التصوف الشعبي الذي امتزج بالعادات والتقاليد، وساد في الكليات التصوف الفلسفي الذي زاد من عداوة الناس للتصوف، وتصديق استمداده من فلسفيات غريبة، بعيدة عن تعاليم الإسلام وأحكامه.

تقع على المشايخ والمريدين والزوايا والطرق الصوفية والجامعات والكليات مسؤولية إحياء التصوف السني الحقيقي على قدر الجهد والسعة، وذلك بالمحاضرات التوعوية، والندوات العلمية، مستغلين المزارات الموسمية، واللقاءات والمناسبات الدينية، وبإنشاء ورش عمل داخل الكليات، وتفعيل دور مؤسسات المجتمع المدني، فما كانت تقوم به

الزوايا في الماضي يمكن أن تقوم به الزوايا اليوم.

إضافة إلى ما سبق بيانه، ينبغي التوجه إلى التصوف الحركي، باعتبار أنه يقوم على الأنشطة الدعوية المؤسسية؛ فالتصوف لم ينفصل عن حياة الناس يوماً؛ ولم يكن مذهباً فقهياً يختلف مع غيره، ولا مدرسة عقديّة مستقلة بفهمها، بل هو منهج يمر به كل سالك إلى الله -عز وجل- على اختلاف مشاربهم وتعدد مدارسهم الفقهية، وهذا ما يجعل التصوف حلقة وصل بين الجميع إذا ما قدم صافياً نقياً عن كل المخالفات.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نستخلص عدة نتائج وتوصيات على النحو التالي:

أولاً النتائج:

- 1- يعتقد الباحث أن التصوف في ليبيا سيشهد انحساراً ملحوظاً، ما لم يقدم أصحابه منهجاً شرعياً مقبولاً بعيداً عن الإفراط والتفريط.
- 2- الخلاف في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره وقدره وحقه.
- 3- ما وقع من انحرافات في سلوك التصوف من أسبابه تقصير أهله ودخول الأدياء وقلة الإنكار على الانحرافات وغياب الدعوة إلى تصحيح تلك الأخطاء.
- 4- الحملة التي شنت على المتصوفة اليوم مبررها السلوكيات الخاطئة والتصرفات المنحرفة.
- 5- الدعوة إلى إحياء التراث الصوفي السني الحقيقي أصبحت ضرورة ملحة.
- 6- الحضرة الصوفية الليبية أصبحت أقرب ما تكون للفن الشعبي والموروث الثقافي وأبعد ما تكون عن شعائر الدين.
- 7- الدعوة إلى محاربة التصوف وإقصائه لا يمكن أن تغير من واقع التصوف بشيء؛ ما لم تكن مصحوبة بالاعتراف به أولاً ثم ذكر أوجه إصلاحه ثانياً.
- 8- ضرورة إعادة مشيخة الطرق الصوفية إلى نظامها المعهود من تربية وسلوك وإذن، بعيداً عن التنصيب الإداري والتوريث الأسري.

ثانياً: التوصيات.

- 1- تبني الزوايا الصوفية العريقة والجامعات الإسلامية في ليبيا فكرة إعداد دعاة متصوفين بعد إخضاعهم لدورات علمية مكثفة.

- 2- التركيز على وسائل الإعلام المختلفة في التعريف بالتصوف ودوره وأصوله وما قدمه للمجتمع الليبي خلال القرون الماضية.
- 3- انشاء جسم يضم كل الطرق الصوفية تحت مسمى واحد ووضع منهج موحد يكون موجودا في كل زاوية يتناول أهم المسائل التي تكثُر الحاجة إليها.
- 4- استغلال الصحوة الصوفية الموجودة الآن بشكل جيد وإعادة ترتيب البيت الصوفي.
- 5- دعوة مشايخ الطرق الصوفية إلى تحسين وضعهم المعرفي، والرقى بأدائهم التربوي.

المصادر والمراجع:

- 1- الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف، أنا ماري شيميل، المستشرقة الالمانية (2003)، ترجمة، محمد اسماعيل، دار الجمل - بغداد، 2006.
- 2- أعلام الصوفية، أبو اليزيد (جودة محمد المهدي)، دار غريب، القاهرة، ط1/1998م.
- 3- محاكمة الشعراوي، محمد الباز، مكتبة مدبولي، ط/1، 1997 م.
- 4- الحجة، أحمد القطعاني، مكتبة النجاح، ط / 2، 1992.
- 5- الرسالة القشيرية في علم التصوف القشيري، أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن، تح: هاني محمد حامد، مكتبة الفجر الجديد، ط / 2013.
- 6- المدخل، ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي)، ت (737هـ) الناشر: دار التراث.
- 7- المنتقد من الضلال، محمد حامد محمد بن محمد الغزالي، تح: عبد الحلیم محمود، دار الجليل-بيروت، ط / 1، 2003م.
- 8- الوصية الكبرى، عبد السلام الفيتوري الاسمر، ط / 1، 1976.
- 9- تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا، د/ احسان عباس للنشر والتوزيع، ط/1، 1967.
- 10- رد المختار على الدر المختار، حمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين، الناشر: مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ط / 2، 1966.
- 11- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام، ط / 23، 2012.
- 12- قواعد الأحكام في مصالح خير الأمام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تح: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة

- 1991 م.
- 13- كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع، ابن حجر الهيثمي، (899 - 974هـ) تح: عبد الحميد الأزهري.
- 14- متن ابن عاشر، المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الهدى- الجزائر، 2000.
- 15- هذا والدي، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي، دار الفكر، دمشق (2009).
- ثانيا: المجلات العلمية والمواقع الإلكترونية.
- 1- المحجوب (عبد المنعم)، تأويل في الأثر الصوفي، صفحة ليبيا المستقبل، أرشيف الكاتب، 2022/5/8.
- 2- مجلة الأسوة الحسنة، السنة الثامنة، العدد 42.
- 3- مجلة الثقافة الشعبية العدد 53، ربيع 2021، د. ناصر ناجي بن جابر، فنون الحضرة الليبية الآلات والإيقاعات.
- 4- موقع عربي 21، 11 يوليو 2022 / 11 ذو الحجة 1443.

الإعلام الجديد والحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي "دراسة تحليلية من المستوى الثاني"

د. خالد سالم عبد الإله/جامعة درنة/قسم الإعلام

ملخص البحث:

مع ظهور وسائل الإعلام الجديد والتي هي سبب في العولمة وإحدى نتائجها في آن واحد، تجلّى للجميع حقيقة ما لهذا النوع من الإعلام من مكانة في الشأن الديني تفوق أهمية في العديد من الأحيان المؤسسات الدينية المحلية في حد ذاتها، إذ يمكن النظر إليه (الإعلام الجديد) باعتباره أهم ما يمكن توظيفه اليوم لتعزيز الهوية الدينية وتقديم القيم والمبادئ الإسلامية في قالب تفاعلي يتفوق على شكل واسلوب الدعوة والخطاب الديني النمطي، ويسهم في اعتزاز هذا الجيل بدينه وأخلاقه ومعتقداته وشعائره وحضارته الإسلامية.

كان يفترض بمجتمع مسلم بالكامل كالمجتمع الليبي الاستفادة من الإعلام الجديد اعتماداً على مزايا الإسلام وصلاحيته للعالمية وتطابقه للفكرة الإنسانية التي طالما دعت إليها العولمة ولو ظاهرياً، إلا أن مسألة تهمين وحماية الهوية الدينية للمجتمع الليبي والترويج لها عبر وسائل الإعلام الجديد لازالت محدودة لمشاكل عديدة تعترض طريقها، مما ينجي المخاوف عن وجود حالة ضعف أو فراغ في تماسك الهوية الدينية لهذا المجتمع قد تمكن من إعادة إنتاج جيل كامل مختطف عقائدياً وثقافياً واجتماعياً.

استناداً على ما سبق، هدفت هذه الدراسة إلى بيان طبيعة العلاقة بين العولمة ومسألة بناء وتشكيل الهوية الدينية، وذلك اعتماداً على قراءة تحليلية لأثر الإعلام الجديد على الهوية الدينية الليبية، ووظفت الدراسة المنهج الاستنباطي، وهو المنهج الذي ينتقل فيه الاستنتاج من الكل إلى الجزء ويبدأ الاستنباط من القواعد الكلية، ومن ثم يستنبط منها القواعد التي يتم تطبيقها، بالإضافة إلى الاعتماد على اقتراضات نظرية الغرس الثقافي.

ومن المأمول أن تصل نتائج الدراسة الحالية إلى تقديم فهم حقيقي لأثر الإعلام الجديد بكافة وسائله على الهوية الدينية الليبية، ومن ثم فهم دور هذه الوسائل في تشكيل وبناء الهوية الدينية لفئات المجتمع المذكور.

الكلمات المفتاحية:

(الإعلام، الهوية، الجديد، ليبيا، الليبي، المجتمع)

1. مقدمة:

إن المسار التاريخي يُخبرنا بوضوح أن هناك حالة من النزاع المعهود بين الهويات والثقافات المتعددة في كل الأزمنة والعصور القديمة والحديثة، إذ تسعى هذه الهويات أو الثقافات في العادة بقصد أو بغير قصد لمحو أو الهيمنة على الأخرى أو الأخرى مجتمعة، ولا يستثنى من ذلك بالطبع الهوية الإسلامية التي تأخذ اليوم موقف أشبه بموقف الدفاع فقط في مواجهة الهويات المتنافسة في سياق عالمي متغير.

إن ما سبق هو إقرار بنزاع هويات وأديان وثقافات معهودة - كما أسلفنا- في مجتمعات مرتبطة بحدود، وهو توصيف مقتضب لهذا النزاع في واقع فعلي، إلا أن ذلك قد يأخذنا للتساؤل عن طبيعة هذا النزاع نفسه مع تلاشي الحدود بين المجتمعات بسبب العولمة، وعن نهجه وطابعه في واقع افتراضي نشأ مع ظهور مواقع التواصل الاجتماعي، نحن نتحدث هنا عن افاق وابعاد وأدوات وأساليب جديدة يُدار بها هذا النزاع الأزلي بين الهويات الدينية والثقافية والاجتماعية.

يمكن القول إن بداية دخول الهوية الدينية الليبية إلى مرحلة الخطر كان أولاً عبر وسائل الإعلام التقليدي في التسعينيات من القرن الماضي، حين تبنت هذه الوسائل أفكاراً جديدة تتماشى مع المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي فرضها عصر العولمة، وظهر ذلك وقتها في تقليد الشباب لموضة الغرب، وسماع الموسيقى الغربية، ومشاهدة الأفلام الأجنبية، وانتشار الكثير من التقاليع الجديدة في الملبس واللغة والسلوك، بالإضافة إلى تبني بعض هؤلاء الشباب لأفكار متطرفة أو متشددة دفعت باتجاهها وسائل الإعلام التقليدي نفسها عبر أشرطة (الكاسيت) وتسجيلات (الفيديو) المحلية أو القادمة من خارج الوطن لقادة ودعاة التطرف كردة فعل بأسفة على ما أحدثته تلك العولمة لا تمت للإسلام والاعتدال الديني الذي عهدناه في مجتمعنا بصلة، ولعل أبرزها ما ظهر في أحداث درنة وبنغازي عام 1996م.

وبالرغم من الحداثة التي طرأت على وسائل الإعلام التقليدي، وظهر ما يُعرف بالإعلام الجديد، والإيجابيات التي انعكست على المجتمعات في كافة نواحي الحياة لا سيما في المجال الاقتصادي، إلا أن هناك العديد من الدراسات¹ التي رصدت سلبيات رافقت

1. انظر على سبيل المثال:

هذه الحداثة وثورة المعلومات التي تضخمت خلال السنوات القليلة الماضية، لعل أهمها ضعف الضوابط الضرورية لضمان عدم المساس بالقيم الدينية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات، وشبه انعدام السيطرة على نشر العنف والتطرف والإرهاب في مضامين ومحتوى الإعلام الجديد.

2. مشكلة الدراسة:

تزامن التراجع في دور مؤسسات التنشئة الدينية النمطية المعتادة في ليبيا كالمساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس القرآنية وابتعادها عن الواقع الحقيقي للحياة ومجاراته وعن معطيات التغيير في العالم، مع انتشار الإنترنت وبداية ظهور وسائل الإعلام الجديد بأدواته ولغته، مما ساهم في فض الاحتكار المؤسسي في تنشئة الأجيال وصناعة وبناء هويتهم الدينية، إذ أضحت وسائل الإعلام الجديد شريكاً أساسياً لتلك المؤسسات ولاعباً جديداً أدخل تحولات على الحالة الدينية في بلادنا اليوم لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكارها أو تجاهلها.

وحري بنا هنا التطرق أيضاً إلى محاولات عولمة العولمة العالم العربي والإسلامي، وتجريد شعوب هذه البلدان من أي هوية دينية أو ثقافية قد تقف عائقاً أمام نجاح تلك المحاولات، فالعولمة ليست سعياً لخلق عالم واحد كما يظن البعض، بل هي مشروع لإنتاج نظام متشابك لعوالم متصلة ومرتبطة فيما بينها¹. ولذلك فالعولمة الدينية لا تنتج ديناً عالمياً، ولكنها تنتج كوكباً تختلط فيه الأديان تتعايش أو تتصارع، فلم تعد العولمة تحدياً اقتصادياً أو سياسياً أو تقنياً فقط ولكنها بالإضافة إلى ذلك تمثل تحدياً للتعليم والتربية والثقافة واللغة والدين.

ومن هذا المنطلق دول العالم العربي والإسلامي اليوم أكثر من أي وقت آخر بحاجة

- عبد الرازق بلعقروز، (2014)، الحداثة الفاتمة ومظاهر انفصال الإعلام المعاصر عن القيمة، مجلة إسلامية المعرفة، جامعة سطيف، الجزائر، العدد 81 لسنة 2015م، ص 133-162، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://citj.org/index.php/citj/article/view/657>

- الذهب عفان، (2021)، الإعلام الجديد ومدى تأثيره في المجتمع، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية: <https://democraticac.de/?p=77309>.

1. أبو بكر رفيق، (2007)، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي، مجلة دراسات، الجامعة الإسلامية العالمية، شيتاغونغ، المجلد 4 ديسمبر 2007م. ص ص 5-16.

إلى الاهتمام بالهوية الدينية وارتباطها بوسائل الإعلام الجديد من زاوية بحثية لأمرين مهمين: الأول حماية شعوبها وتحصين أبنائها من مخاطر العولمة والسلبيات التي قد تأتي من الاستخدام الكثيف غير الرشيد وغير العقلاني في أغلب الأحيان لوسائل الإعلام الجديد من قبل فئة الشباب¹، خاصة في تلك الدول، حيث وجد في هذه الوسائل بديلاً سهلاً ومتاحاً، ووسيلة لتفريغ شحناتهم وطاقاتهم بحرية ودون قيود.

والثاني: حاجة بلداننا إلى فهم كيفية توظيف واستثمار وسائل الإعلام الجديد (باعتبارها واقعاً لا مفر منه اليوم) في تعزيز وتقوية الهوية الدينية انطلاقاً من مسؤولياتها اتجاه غرس الاعتزاز بالعتيدة الإسلامية الصحيحة وتعريف النشء بموروث هذه الأمة وخصوصياتها والقيم والمبادئ الإسلامية السامية التي ارتضتها.

ليبيا إحدى هذه الدول الإسلامية المشار إليها سلفاً، هذا بالإضافة إلى كونها الأكثر احتياجاً من بين هذه الدول اليوم للاستفادة من الإعلام الجديد ووسائله المتعددة؛ لتخطي هذه المرحلة الصعبة من الصراعات الداخلية التي برز فيها التطرف الديني كأحد أسوأ ادواتها، الأمر الذي قد يعزى إلى غياب أو ضعف الهوية الدينية في المجتمع الليبي وخاصة بين فئة الشباب الأكثر استخداماً لوسائل الإعلام الجديد وكذلك الأكثر استقطاباً من قبل الجماعات المتطرفة في هذا المجتمع، كما أن استثمار الدولة الليبية لوسائل الإعلام الجديد في الشأن الديني قد يسهم في رأب الصدع، ومؤازرة مساعي المصالحة الوطنية الشاملة بين اقليتها واقليمها، بما يدعم جهود السلام والتعايش السلمي بين مواطنيه.

بناءً على هذا الفهم، تأتي أهمية البحث والتحليل لدور وسائل الإعلام الجديد، وتأثيرها على الهوية الدينية، ومعالجة سلبياتها، علاوة على أهمية بيان كيفية الاستفادة من هذه الوسائل في معركة الحرب على التطرف، ومن هنا تذهب الدراسة الحالية إلى الكشف عن دور وسائل الإعلام الجديد في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، وبطبيعة الحال يرتبط هذا الدور بوسائل الإعلام التقليدي باعتباره نقطة البداية لذلك الدور، وبالعولمة باعتبارها الفكر المنشئ لتلك الوسائل والداعم الرئيس لها.

1. داليا أشرف، (2017)، التفاعلية والهوية الثقافية لدى الشباب المصري - رؤية تحليلية، مجلة الإعلام العربي والمجتمع، الجامعة الأمريكية، القاهرة، العدد 32 خريف 2021م، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.arabmediasociety.com/interactivity-new-media-and-cultural-identity>

3. أهمية الدراسة:

1.3 تتبع أهمية الدراسة الحالية من ندرة الدراسات والأبحاث العلمية (حسب علم الباحث) التي حاولت الكشف عن الدور المحتمل للإعلام الجديد في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، ومن ثم تُعد هذه الدراسة إضافة قيمة للمكتبة العربية والإسلامية.

2.3 بيان الدور الجوهرى للإعلام الجديد في الشأن الدينى من شأنه أن يفيد القائمين على إدارة مؤسسات التنشئة الدينية في فهم عناصر عملية بناء وتشكيل الهوية الدينية في عصر التكنولوجيا والمعلومات.

3.3 تربط الدراسة بين الدين كمكون من مكونات الهوية وبين الإعلام والعولمة كمؤثرات على هذه الهوية، وهي محاولة علمية متواضعة للربط بين عدة مجالات مستقلة يمكن أن يستفيد كلُّ منها من الآخر.

4.3 ما يتوقع أن تُسفر عنه الدراسة من نتائج وما يُصاغ بناءً عليها من توصيات من شأنها أن تكون مؤشرات ودلائل لتعزيز أوجه القوة في توظيف الإعلام في الشأن الدينى لصالح جهود الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، ومعالجة أوجه الضعف والقصور فيها إن وجدت.

4. أهداف الدراسة:

1.4 رصد مدى تأثير العولمة على الهوية الدينية في عصر المعلومات والتكنولوجيا الحديثة.

2.4 الكشف عن دور الإعلام الجديد في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، وطبيعة وحدود وأهمية هذا الدور، وأهم التحديات والمشاكل التي قد تواجه القائمين على تنفيذه.

3.4 التعرف على أهمية الربط بين مجال الإعلام الجديد ومجال الدين وانعكاس ذلك على واقع المجتمع الليبي، وعلى جهود مؤسساته لتحقيق الأمن والاستقرار والتعايش السلمي بين أفرادِهِ.

4.4 محاولة التوصل إلى وضع صيغة من الوصف التحليلي للعلاقة ذات الطبيعة المتعددة بين الدين كمكون من مكونات الهوية وبين الإعلام الجديد والعولمة كمؤثرات على هذه الهوية.

5. تساؤلات الدراسة:

1.5 ما مدى تأثير العولمة على الهوية الدينية؟ وما مدى حاجة هذه التأثير لمزيد من البحث والتحليل؟

2.5 ما مدى قدرة الإعلام الجديد بوسائله المتعددة على الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي؟

3.5 ما أهمية الربط بين مجال الإعلام الجديد ومجال الدين؟ وما مدى انعكاس ذلك على واقع المجتمع الليبي؟

4.5 ما العوائق التي تحول دون قيام الإعلام الجديد بدوره في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي على أكل وجه؟

6. منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة الحالية على توظيف المنهج الاستنباطي، وهو المنهج الذي يتم فيه دراسة مشكلة بشكل كلي انطلاقاً من المسلمات أو النظريات أو المعارف العامة، وبعد ذلك الانتقال للجزئيات، من خلال الاستنتاجات¹، أي إنه دراسة تبدأ بالعام ثم تنتقل للخاص في مراحلها التالية، حيث أنه في إطار هذا المنهج سيتم دراسة الإعلام الجديد والعولمة كمتغيرات وتأثيرها في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، ثم تعميم ذلك على المجتمعات التي تواجه نفس المتغيرات تجاه هويتها الدينية، وبالإضافة إلى المنهج الاستنباطي، فقد تم الاعتماد في هذه الدراسة كذلك على افتراضات نظرية الغرس الثقافي، والتي يمكن تحديدها على النحو التالي:

- يعد التلفزيون وسيلة غرس فريدة ومتميزة: لأنه على المستوى الاجتماعي يكون الواقع لجميع الفئات والطبقات والأعمار من منظور واحد، كما أنه وسيلة أساسية تنقل المعايير السائدة والصور الذهنية ويتميز بقدرته على توحيد الأنماط الثقافية.
- يحدث التعرض المتكرر للتلفزيون نوع من التجانس بين مختلف الجماعات الاجتماعية مما يؤدي إلى ذوبان الاختلافات الاجتماعية بغض النظر عن مستويات تفضيلهم وذلك نتيجة التشابه والتوحد في الأفكار والعناصر الدرامية التي

1. موقع مبعث للدراسات والاستشارات الأكاديمية، (2017)، المنهج الاستنباطي، تم الاطلاع على هذا المقال على

موقع: <https://mobt3ath.com/dets.php.page=465&title>

يعرضها التلفزيون بشكل عام.

- الأكثر تعرضاً للتلفزيون كثيفو المشاهدة يدركون ويفهمون الواقع الاجتماعي بطريقة تتوافق مع الصورة التي يعرضها التلفزيون لهذا الواقع.
- الواقع المتجسد في الرسائل التلفزيونية يختلف عن الواقع الذي يعيشه الأفراد ولكن التعرض المستمر لها يؤدي إلى تبنيها والتسليم بأنها تعكس واقع المجتمع.
- التلفزيون كوسيلة ثقافية وبصفتها المهيمنة، يزرع واقعاً اجتماعياً غالباً ما يتعارض مع الواقع الموضوعي أو الفعلي، خاصة مع كثافة التعرض له، والتي تخلق حالة من الخوف غير الحقيقي لدى المشاهدين من العالم الخارجي، وترفع من مستوى عدم الثقة نحو الآخرين.

وبالرغم من أن الدراسة الحالية تهتم بالبحث والتحليل لدور وسائل الإعلام الجديد وليس التلفزيون، إلا أن العديد من الدراسات الحديثة¹ التي اختبرت علاقة نظرية الغرس الثقافي بوسائل الإعلام الجديد، انتهت جميعها إلى ثبوت صحة توظيف النظرية مع البيئة الاتصالية المتغيرة لوسائل الإعلام الجديد.

7. التعريفات الإجرائية في الدراسة:

1.7 الإعلام الجديد: هو كل أنواع الإعلام الذي يقدم في شكل رقمي وتفاعلي، ويعتمد على اندماج النص والصورة والفيديو والصوت، فضلاً عن استخدام الكمبيوتر كآلية رئيسية له في عملية الإنتاج والعرض، أما التفاعلية فهي تمثل الفارق الرئيس الذي يميزه وهي أهم سماته².

ويقصد بالإعلام الجديد في هذه الدراسة كل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة المرتبطة بأجهزة الكمبيوتر والاجهزة الذكية والانترنت ولها استخدام شعبي واسع النطاق كمواقع التواصل الاجتماعي.

2.7 الهوية الدينية: هي الشعور بالانتماء الجماعي لدين ما وأهمية عضوية هذه المجموعة من

1. سماح محمد محمدي، (2020)، اندماج الشباب والمراهقين في شبكات التواصل الاجتماعي وتأثيره على إدراكهم للواقع: دراسة حالة على قضية البناء وراجح في إطار نظرية الغرس الثقافي، مجلة البحوث الإعلامية، كلية الإعلام بجامعة الأزهر، القاهرة، المجلد 54 يوليو 2020م، ص 1295 - 1388.

2. عباس مصطفى صادق، (2008)، الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات، دار الشروق للنشر: الاردن.

حيث ارتباطها بمفهوم الفرد الذاتي¹، والهوية الدينية ليست بالضرورة التدين، على الرغم من أن هذان المصطلحان يشتركان في قواسم مشتركة، إلا أن التدين يشير إلى قيمة عضوية المجموعة الدينية وكذلك المشاركة في المناسبات الدينية والاحتفالات الدينية، من ناحية أخرى، تشير الهوية الدينية على وجه التحديد إلى عضوية المجموعة الدينية بغض النظر عن النشاط الديني أو المشاركة.

ويقصد بالهوية الدينية في هذه الدراسة الهوية الإسلامية للمجتمع الليبي، وهي مجموع السمات والصفات والسلوكيات التي تميز الفرد المسلم في المجتمع الليبي عن غيره من الأفراد في المجتمعات الأخرى مثل الإيمان بعقيدة هذه الأمة، والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية، والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والمحافظة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، والاعتزاز برموز الهوية الإسلامية، كالتاريخ الهجري، والأخلاق والقيم الإسلامية النبيلة، والفخر بالدين الذي جاء خاتماً للرسالات كلها.

3.7 العولمة: يمكن تعريف العولمة على أنها "صياغة إيديولوجية للحضارة الغربية من فكر وثقافة واقتصاد وسياسة للسيطرة على العالم أجمع باستخدام الوسائل الإعلامية، والشركات الرأسمالية الكبرى لتطبيق هذه الحضارة وتعميمها على العالم"².

ويقصد بالعولمة في هذه الدراسة العملية التي تسعى في جوهرها إلى انسلاخ المجتمع الليبي عن قيمه ومبادئه وانتمائه للأمة الإسلامية، وإلغاء شخصيته وكيانه وذوبانه في الآخر، مما قد يكون سبباً في تفكيك بنائه وتماسكه وتمهيش دور المؤسسات الدينية النمطية، وانتشار السلوكيات غير الاخلاقية مثل الجنس والعنف والتطرف والانحراف والشذوذ.

1. Arweck, E. & Nesbitt, E. (2010) Young People's Identity Formation in Mixed-Faith Families: Continuity or Discontinuity of Religious Traditions?, Journal of Contemporary Religion, 25:1, 67-87, DOI: 10.1080/13537900903416820.

2. مبارك عامر بقنه، (2016)، مفهوم العولمة ونشأتها، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <http://www.saaaid.net/Doat/mubarak/5.htm>

8. الدراسات السابقة:

1.8 باديس لونيس، (2014)، الإعلام الجديد والهوية - دراسة نظرية في جدلية العلاقة والتأثير¹.

هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على مقاربات الحتميات الثلاث: التكنولوجية والاجتماعية والقيمية، وتفسيراتها للعلاقة بين تكنولوجيا الاتصال الحديثة (الإعلام الجديد في هذه الحالة) والهوية، بالإضافة إلى التعرف على أهم تطبيقات الإعلام الجديد المتمثلة في المدونات الإلكترونية وشبكات التواصل الاجتماعي ومواقع نشر الصور والفيديوهات ومواقع الويكي، ومناقشة تأثيراتها الإيجابية والسلبية على الهوية وتحليل التوجهات المختلفة في هذا الشأن.

وتوصلت الدراسة إلى أن الإعلام الجديد، الذي يشهد قيام مجتمعات افتراضية متعددة ومتنوعة، قد أحدث نقلة نوعية في أساليب حياة الأفراد وطرق تفكيرهم وتواصلهم، وهو ما أثر في تمثيلاتهم لذواتهم وهوياتهم، ورغم بعض التأثيرات السلبية إلا أنه يسهم بشكل إيجابي في الإعلاء من أصوات الهويات المحلية.

2.8 دراسة عبد الرازق بلعقروز، (2014)، الحداثة الفائقة ومظاهر انفصال الإعلام المعاصر عن القيمة².

هدفت الدراسة إلى رصد مظاهر انفصال الإعلام المعاصر عن القيمة الهادية والسامية بالمفهوم والرؤية الإسلامية الكلية للوجود التي تجعل التركيز مقصداً من مقاصد هذه الرؤية، واعتمدت الدراسة على أدوات التحليل المعرفي والمساءلة الأخلاقية.

خلصت الدراسة إلى أن الإعلام المعاصر ليس مجرد صور أو معلومات يتم تداولها، إنما هو رؤية للعالم، ونمط إدراكي للوجود، ومن علامات ذلك، انتشار النمط الاستهلاكي وهيمنة التصنع، والانجذاب نحو دائرة الحياة المادية، وتحول المعرفة إلى أدوات، للغزو

1. باديس لونيس، (2014)، الإعلام الجديد والهوية - دراسة نظرية في جدلية العلاقة والتأثير، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة باتنة، الجزائر، العدد 31 ديسمبر 2014م، ص 265 - 294، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.academia.edu/pdf>.

2. عبد الرازق بلعقروز، (2014)، الحداثة الفائقة ومظاهر انفصال الإعلام المعاصر عن القيمة، مجلة إسلامية المعرفة، جامعة سطيف، الجزائر، العدد 81 لسنة 2015م، ص 133-162، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://citj.org/index.php/citj/article/view/657/477>.

الناغم للعقول والنفوس، أما المساءلة الأخلاقية فتبين مدى انفصال الإعلام المعاصر عن قيم الفطرة الإيمانية الهادية، وحجم الإفقار المعنوي الذي تبثه بين أفراد الجمهور، وهذا يستلزم إنشاء شكل جديد من الأخلاق تحقق التحرر من هذه الإمبريالية الإعلامية، وتعلي من قيم الوجود الأخلاقي للإنسان بدلاً من الوجود الطبيعي الذي أمسك بالحياة من كل جوانبها.

3.8 دراسة حمد راشد محمد، (2017)، إسهام الإعلام الجديد في تعزيز قيم الهوية الوطنية في المجتمع البحريني: تحليل مضمون¹.

هدفت الدراسة إلى الكشف عن اتجاهات مضمون الإعلام الجديد نحو قيم الهوية الوطنية، وتكون مجتمع الدراسة من الإعلام الجديد في مملكة البحرين، بينما تشكلت العينة من حسابات كل من هيئة شؤون الإعلام على تويتر، وجمعية المنبر الوطني الإسلامي على تويتر، وجمعية تجمع الفاتح للوحدة الوطنية على فيسبوك، وجمعية الوفاق الوطني الإسلامية (المنحلة) على فيسبوك.

وظفت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي باستخدام أداة تحليل المضمون، وأظهرت النتائج أن المؤسسات الممثلة للتيارات السياسية المختلفة تختار توقيت وتكرار النشر على حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي وفقاً لاعتباراتها الخاصة بالدرجة الأولى، تليها الاعتبارات الوطنية، ما عدا الهيئات الحكومية التي تلتزم بتكثيف النشر بالمناسبات والفعاليات الوطنية، وتميل وسائل الإعلام الجديد بصفة عامة إلى تعزيز القيم ذات الاتجاهات الإيجابية في الهوية الوطنية البحرينية، وبينما تركز جمعية تجمع الوحدة الوطنية وهيئة شؤون الإعلام على العناصر الإيجابية في قيم الهوية الوطنية البحرينية، تركز جمعية الوفاق على الاتجاهات السلبية في هذه القيم.

1. حمد راشد محمد، (2017)، إسهام الإعلام الجديد في تعزيز قيم الهوية الوطنية في المجتمع البحريني: تحليل مضمون، (رسالة ماجستير منشورة)، الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/206/6/1/102221>

4.8 دراسة مصطفى جمال بن طيفور، (2017)، الإعلام الجديد والهيمنة الثقافية الناعمة - دراسة تحليلية لواقع الهوية اللغوية والدينية عبر موقع التواصل الاجتماعي - الفيس بوك¹.

هدفت الدراسة إلى تحديد مكانة ودور مواقع التواصل الاجتماعي في الحياة اليومية للشباب الجامعي والوقوف على الإشباع المحققة جراء هذا الاستخدام، والتعرف على واقع اللغة العربية وواقع الدين الإسلامي بين صفحات مواقع التواصل الاجتماعي.

تنتمي الدراسة إلى الدراسات الوصفية، واعتمدت على منهج المسح الاجتماعي لإجراء الدراسة الميدانية على مجتمع البحث والمتمثل في جميع كليات جامعة مستغانم وجامعة وهران، وتم تحديد خصائصه والتي تتميز بالاختلاف من حيث المستوى التعليمي (ليسانس، ماجستير، دكتوراه)، والتخصصات الموجودة داخل الجامعة، والتميز بين الجنسين (ذكور وإناث)، خلال العام الجامعي 2015م / 2016م، وقد بلغ العدد الإجمالي لعينة الدراسة 283 مفردة.

توصلت الدراسة لعدد من النتائج كان أهمها أن أغلبية أفراد العينة يوافقون على أن استخدامهم المفرط لموقع الفيس بوك يؤدي بهم إلى تضييع أداء الصلوات المفروضة في وقتها مما يوحى بشدة تعلق المستخدمين بالموقع إلى حد الإدمان على حساب مسؤولياتهم الدينية نتيجة المتعة التي يشعرون بها أثناء الاستخدام، ولم تظهر أي أدلة تشير إلى أن أفراد عينة الدراسة يستخدمون الموقع في التسويق للحملات التي تدعو إلى الإرهاب أو الجنس، وظهر من النتائج أن الفيس بوك يعمل على غرس الكثير من القيم الدينية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواضع والعمل التطوعي، واحترام ومحبة الآخرين عبر الموقع، والمحافظة على نظافة المحيط.

أهم ما يميز الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة:

استفاد الباحث من الدراسات السابقة في بناء الإطار المنهجي للدراسة الحالية والاستناد إلى نتائجها كأساس للارتكاز عليها في مراحل دراسته المختلفة، وبالرغم من

1. مصطفى جمال بن طيفور، (2017)، الإعلام الجديد والهيمنة الثقافية الناعمة - دراسة تحليلية لواقع الهوية اللغوية والدينية عبر موقع التواصل الاجتماعي، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 6، العدد 1 يونيو 2017م، ص 9 - 24، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://search.emarefa.net/detail/BIM-830347>.

التقارب والتشابه بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة في عدة جوانب، إلا انه يمكن القول إن الدراسة الحالية تميزت عن سابقتها فيما يلي:

- تناولت الدراسات السابقة فحص العلاقة بين وسائل الإعلام الجديد وهوية المجتمعات بشكل عام أو بالتركيز على الهوية الوطنية والهوية الثقافية بشكل خاص، بينما تحاول الدراسة الحالية الكشف عن طبيعة العلاقة بين الإعلام الجديد والهوية الدينية على وجه الخصوص.

- تجمع الدراسة الحالية لأول مرة (حسب علم الباحث) بين الكشف عن دور الإعلام الجديد في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، وبين العولمة كأداة هدم لهذه الهوية معاً في دراسة واحدة.

- لم تقدم الدراسات السابقة بشكل مباشر توضيحاً لطبيعة العلاقة بين الإعلام الجديد كمجال مستقل وبين الدين كمجال مستقل آخر.

المحور الأول: العولمة والهوية الدينية:

يمكن القول إن انهيار جدار برلين في نوفمبر 1989م، وتفكك الاتحاد السوفيتي وسقوط النظام الاشتراكي والذي كان يتقاسم الهيمنة مع الولايات المتحدة يعد انتصاراً للنظام الرأسمالي الليبرالي، الأمر الذي أسهم في ظهور نظام عالمي جديد يتبنى ايدولوجية النظام الرأسمالي الليبرالي الغربي تحت مسمى العولمة.

وقد تعددت وكثرت تعريفات العولمة بحيث قد لا يجد الباحث في هذا الشأن تعريفاً جامعاً مانعاً يحوي جميع التعريفات وذلك لغموض مفهوم العولمة، ولاختلافات وجهة الباحثين، فتجد الاقتصاديين يعرفونها على أنها "التعاون الاقتصادي المتنامي لمجموع دول العالم والذي يحتمه ازدياد حجم التعامل بالسلع والخدمات وتنوعها عبر الحدود، إضافة إلى رؤوس الأموال الدولية والانتشار المتسارع للتقنية في أرجاء العالم كله"¹.

ويعرفها السياسيون على أنها "العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه، وهو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع"².

1. مبارك عامر بقنه، (2016)، مفهوم العولمة ونشأتها، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<http://www.saaaid.net/Doat/mubarak/5.htm>

2. المرجع نفسه.

بينما يعرفها الاجتماعيون على انها "زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات"¹.

في حين تجمع الهوية دائماً بين ثلاثة عناصر، العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى²، وأهم عناصر الهوية الدين حيث في الحروب تذوب الهويات متعددة العناصر، وتصبح الهوية الأكثر معنى بالنسبة للصراع هي السائدة، وغالباً ما تتحدد هذه الهوية دائماً بالدين، لذلك ظهر لدينا مسمى الهوية الدينية للتعبير عن مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص والمميزات التي نتصل بشيء مقدس والتي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى.

وأبرز ما يمكن الاستشهاد به هنا في محاولة الربط بين الهوية الدينية والعملة هو ما ذكره صراحةً عالم الاجتماع الإنجليزي المعاصر ستيفن هونت في كتابه (الدين في المجتمع الغربي) "أن لا قيمة لأي مناقشة حول الدين في أي مجتمع معين أو في أي منطقة سياسية جغرافية في العالم بما فيها المجتمعات الصناعية في أوروبا وأمريكا ما لم تتم في إطار عولمي"³.

ولا مناص من القول إنه بفضل التغيرات السريعة في التكنولوجيا وزيادة تنقل السلع والخدمات ورأس المال والعمالة، قد غيرت العملة خلال العقود الماضية الاقتصادات والمجتمعات والبيئة الطبيعية، وجعلت عالمنا أكثر ترابطاً من أي وقت مضى، هذه التغيرات المنسوبة للتطور أو العملة أو الاثنين معاً ينظر إليها من وجهات نظر مختلفة ومتباينة بين مؤيد ومطمئن لها ومعارض حذر وقلق بشأنها.

ويمكن أن نرصد اتجاهين في محاولة بيان ذلك، الاتجاه الأول يرى أن العملة حققت زيادة في انتشار التكنولوجيا عبر الحدود، فقد اتاحت للبلدان الحصول على المعرفة الأجنبية بسهولة أكبر، وعملت على تعزيز المنافسة الدولية نتيجة إلى زيادة أعداد الأسواق الدولية في العالم الاقتصادي، مما يعزز الحوافز الدافعة للشركات كي تبتكر وتعتمد التكنولوجيات الأجنبية، كما أدت العملة الاقتصادية إلى تقديم منتجات موحدة عالمياً، ومقدمة

1. المرجع نفسه.

2. محمود سمير المنير، (2000)، العملة وعالم بلا هوية، المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع.

3. دين محمد ميرا صاحب، (2007)، تأثير العملة على دراسة الدين تحليل وتقييم، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 25، جامعة قطر، ص 88.

ومنخفضة السعر من قبل العديد من الشركات حول العالم، وأصبحت العديد من الدول قادرة بفضل العولمة على تصدير ثقافتها عبر الحدود إلى دول أخرى، مما ساهم في تبادل الثقافات بين دول العالم أجمع.

ونتيجة لذلك أصبح هناك ما يُسمى بالثقافة العالمية الموحدة، الاتجاه الثاني يرى أن العولمة شر مطلق وما هي إلا وسيلة اتخذتها القوى الكبرى للهيمنة على الشعوب الأخرى، وشكل جديد من أشكال الاستعمار الذي خلع أرويته القديمة، وهي تسعى إلى ترويض ثقافة الاستهلاك والتبعية وإلى مسح الشخصية الوطنية بسبب تفوق الغرب التقني الكبير على كل مجتمعات العالم لا سيما بعد الطفرة التي حدثت في تكنولوجيا الاتصال.

لكن يبقى السؤال الأهم من استعراض إيجابيات وسلبيات العولمة هو هل تُخدم العولمة الجميع؟، المجتمعات العربية على وجه الخصوص هل استفادت من العولمة؟ أو هل لها أن تستفيد منها؟

في واقع الامر، أسهم التحالف بين وسائل الإعلام والعولمة في تعميق الهوة بين البلدان العربية ودول الغرب في اغلب المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية، وتفاقم مع الوقت عجز هذه البلدان عن المشاركة والاستفادة من الفرص المتاحة من هذا التحالف، ويكفي أن نذكر هنا أن الولايات المتحدة وحدها تمتلك أكثر من نصف المساحة الإعلامية والمعلوماتية في العالم.

وفضلاً عن ذلك، أخذت العولمة تتجه نحو حلحلة المشاكل الاقتصادية للدول الكبرى على حساب دول العالم الثالث، وهذا بدوره أدى إلى ازدياد الأغنياء غنى والفقراء فقراً في هذه الدول، وتشجيع التبعية والبطالة والنهب المستمر لخيرات الدول العربية عن طريق الشركات متعددة الجنسيات¹، وقد سعت دول كبرى مثل امريكا من خلال العولمة إلى تعميم الثقافة الأمريكية على العالم، عبر الإيحاء بأن هناك عوامل سلبية في ثقافات البلدان الأخرى، مثل انها ثقافات نخبة وصفوة، وثقافات مكبلة بالقيود ذات توجهات دينية، وتستخدم لغة لا تفهمها غير فئة قليلة من الصفوة أو من رجال الدين، ومن ثم فهي لا

1. لطفي دنبري، محمد أمين شيايب، (2019)، تأثيرات العولمة على المجتمع العربي وتحدي المواجهة، مجلة العلوم =الإنسانية، مجلد 30، العدد 3 ديسمبر 2019م، ص 445- 459، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/23/30/3/104430>

تلبية احتياجات الإنسان المعاصر.

بهذا التماهي الذي يصب لمصلحة الدول العظمى وهيمنتها وتدعو إليه العولمة، فإن موارد ولغة وثقافة وديانة المجتمعات العربية في خطر محقق كون ليس لهذه المجتمعات أي دور يُذكر في التأثير على مجرى هذه العملية، ومن الطبيعي أن تكون هذه المجتمعات الأقل تمتعاً بمزايا العولمة، ذلك لأن شعوبها تعيش على برامج الدولة الوطنية وما تبقى من مقدراتها الاقتصادية وما تؤمن به من مبادئ وقيم إسلامية، وبفضلها يمكن ضمان ولو الحد الأدنى من المساواة والعدالة الاجتماعية بين أفرادها.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فإن جل ما استفادته المجتمعات العربية المسلمة من العولمة هو في حقيقته لا يخرج عن كونه مظاهر وقشور زائفة دفعها بشكل متزايد نحو التخبط والضياع والفوضى، وبالتالي نحو زيادة الاعتماد في معالجة مشاكلها على التدخلات الخارجية، مما أدى إلى ذوبان الشخصية الوطنية والدينية وانهيارها امام منافذ الاختراق والتغريب بسبب عدم وجود استراتيجية مدروسة لدى العرب والمسلمين عموماً للاستفادة من الانفتاح على الثقافة الغربية وتطويرها العلمي والتكنولوجي.

وقد أشار الدكتور خالد روشه إلى أن أبرز المظاهر التي تدل على أزمة الهوية لدى الشباب المسلم هي الانبهار الشديد بالتقدم الغربي على مستوى التكنولوجيا والحضارة المادية، والتطلع لمشابهة الغربيين والأمريكيين وغيرهم من الشعوب المتقدمة مع الشعور بالدونية والانكسار تجاه تلك الشعوب، والتحرر من القيم المقيدة للسلوك الإباحي تشبهاً بالتحرر الغربي الجنسي والسلوكي، بالإضافة إلى ضعف الولاء والانتماء للتشكيل الإسلامي القيمي والمبادئ والمعيشي¹.

هذا تماماً ما قد نبه إليه ابن خلدون حين قال "المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده"²، وإزاء هذه الغفلة من المجتمعات العربية المسلمة قادت السيطرة الغربية على العالم إلى ترسيخ التبعية والقيم الغربية الحديثة، وبدأت بالثقافة والتعليم، من خلال فرض رؤاها الثقافية لتفريخ عقول مقولبة لا تعرف العيش إلا في ظل

1. خالد روشه، (2008)، أزمة الهوية الإسلامية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://almoslim.net/node/103661>

2. خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز، (2007)، العولمة وأثرها على الهوية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://www.alukah.net/culture/0/188391-2/>

منظومة الحداثة الغربية، وقد أفضى هذا الاختراق الثقافي إلى استيراد أدوات المجتمع الغربي الفكرية والمعرفية دون النظر إلى البيئة الحضارية الإسلامية وبنيتها الثقافية والمجتمعية والعقدية ورؤيتها التوحيدية، وشجع على تكوين فئاعة لدى فريق من المسلمين أن طريق الغرب ومبادئه مخلص لحالة التراجع الحضاري والجمود الفكري والتقليد في المجتمع الإسلامي.

بناءً على هذا الفهم، تؤدي العولمة إلى عزل وضعف المسلمين عن القضايا الإسلامية، ونشر العنف والريزية في المجتمع، بالإضافة إلى إضاعة أوقات الشباب في الأمور التافهة، ونشر الثقافة الاستهلاكية التي تؤدي إلى نشر الشهوات، وتشويه الأعراف والتقاليد الإسلامية، واستخدام وسائل العولمة في مجال الاتصالات والإعلام لإثارة الشهوات، وإشاعة الشذوذ، والتخلي عن كل القيم الأخلاقية والإسلامية الرفيعة.

إن الإشكالية الأعظم فيما سبق تمثل في إن ثقافة العولمة التي تتحدى وتنتصرع مع الهوية الإسلامية هي ذات خصائص معينة تجعلها تتميز بالقوة والدعم الذين تفتقدهما الثقافة الإسلامية في هذا العصر، فهي ثقافة يصاحبها في الغالب خطاب تقني وعملي، فهي تُنقل عبر الوسائل الاتصالية الحديثة المعتمدة على شبكة الانترنت واسعة الانتشار والتي توفر الكثير من المعلومات وفي جميع المجالات، والتي يمكن الوصول إليها بسهولة وبسرعة وبذلك يتم توفير الوقت والجهد والمال.

ويلاحظ من خلال القراءة الأولية ان التأثير السلبي للعولمة يأتي من خلال أدوات عديدة أهمها وسائل الإعلام بشكلها التقليدي كالصحف والراديو والتلفزيون، بالإضافة إلى الانتشار الكبير لوسائل الإعلام الجديد، كمواقع التواصل الاجتماعي وما تقدمه من مضامين تتعد تماماً عن القيم والعادات والتقاليد التي تتميز بها المجتمعات العربية المسلمة، لذلك سنتناول المحاور التالية مناقشة وسائل الإعلام التقليدي ووسائل الإعلام الجديد وعلاقتها بالهوية الدينية للمجتمع الليبي.

المحور الثاني: الإعلام التقليدي والهوية الدينية للمجتمع الليبي:

تطورت وسائل الإعلام عبر مراحل مختلفة، بدايةً من المرحلة البدائية تعتمد على وسائل قديمة مثل دقات الطبول والنقش على الاحجار والاشجار والمعابد، وانتهت هذه المرحلة بظهور آلات الطباعة التي أسهمت في توضيح المعارف والمعلومات للأفراد عن

طريق الصحف والمجلات والكتب والدوريات المختلفة، ثم تلى ذلك ظهور وكالات الانباء العالمية والاقليمية والمحلية في العديد من الدول، وخاصةً الدول الكبرى، ووظفت بذلك وسائل الإعلام السمعية والبصرية مثل الإذاعة والتلفزيون في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والرياضية والثقافية والدينية وفي مختلف أنحاء العالم¹.

هذا النظام الإعلامي الذي يعد تطوراً استراتيجياً في الأدوات المستخدمة للسيطرة على العالم والمجتمعات الآمنة، هو تغير كامل اطل بأدواته ونزعاته وأهدافه عندما عجز واحد من أعلى أبراج الإرسال التلفزيوني في ميدان الكساندر بلاس في شرق برلين من الصمود طويلاً أمام أطباق التلفزيون الصغيرة التي انتشرت سريعاً في شرق أوروبا، إذ كان برج بلاس يستهدف بالدرجة الأولى صد التيار التلفزيوني القادم من غرب ألمانيا المسنود بالسي إن إن C.N.N ومحطات تلفزيونية غربية أسست لنظام إعلامي عالمي.

إن النقاش هنا يدور حول ما يمكن تسميته بالعملة الإعلامية والتي تعني سيادة قيم ومفاهيم ومقومات الدولة القوية والفعالة عبر وسائل الإعلام²، وللعولة الإعلامية جذور قديمة مرتبطة بالإعلام التقليدي وبتغطية الأخبار العالمية، وقد بدأت في منتصف القرن التاسع عشر عندما أنشأ شارل هافاس وكالة هافاس Havas للأخبار في فرنسا عام 1832م، فمنذ ذلك الوقت أصبح للإعلام دور فاعل على صعيد المجتمع الدولي.

بينما في البلدان العربية قد أشار البعض إلى مسألة مهمة تتعلق بهذا الدور الفاعل الذي حظيت به وسائل الإعلام على المستوى الدولي، فمع تزايد نفوذ وكالات الإعلام الغربية، فقدت الكثير من وسائل الإعلام في الدول العربية استقلالها الفكري³، مما أسقطها في نخب التبعية الإعلامية، والعجز عن الدفاع عن قضاياها وعن التنافس ومواجهة التحديات المطروحة على الساحة الدولية، مما نتج عنه تشويه لصورة هذه البلدان في مخيلة الرأي العام العالمي، وعرضها للسخرية والاستهزاء الذي يتجاوز أحياناً الخطوط الحمراء ليمس بالمقدسات والرموز الدينية، ولعل خير شاهد على ذلك نشر صحيفة فرنسية عام 2020م رسوم مسيئة للنبي محمد ﷺ.

1. محمد زكرياء خيف، (2017)، دور الإعلام الرياضي في نشر الثقافة الرياضية لدى الشباب الجزائري "دراسة ميدانية على عينة من شباب مدينة أم البواقي"، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي.

2. رزان صلاح، (2021)، ما هي العملة، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://mawdoo3.com/>.

3. بوزة باية، (2014)، الفجوة الإعلامية العربية: أسبابها وسبل تقليصها، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/450/8/2/66978>

يظهر كل ذلك في وقت أضحت فيه وسائل الإعلام، ومنها التلفاز بمثابة الناقل الأساسي للثقافة والهوية الدينية في عصرنا الحديث، فالتلفاز اليوم ينافس المدرسة والأسرة في عملية التنشئة الدينية وبناء الهوية الدينية حيث يكاد يجمع الباحثون على أهمية الدور التربوي وكذلك الديني الذي يؤديه في حياة الأفراد.

ووفقاً لما توصلت إليه نتائج دراسة محمد بكير عام 2018م¹ فإن القنوات الفضائية الدينية جاءت من أهم المصادر التي يعتمد عليها المراهقون السعوديون في الحصول على المعلومات الدينية المختلفة، يليها في الترتيب كل من المسجد، الكتب الدينية، الأسرة، المدرسة، الإنترنت، الراديو، الصحافة، الأصدقاء، إذ تملك وسائل الإعلام التقليدية الآليات المعاصرة والكيفيات الممكنة لنشر ثقافة التسامح والاعتدال الديني بين أفراد المجتمع، ولإيصال الفكرة أو المضمون الذي يعزز من الهوية الدينية لأفراده في إطار إعلامي دعوي يحاكي المشاعر ويناغم الأفكار وفق ضوابط واستراتيجيات هادفة.

وتأسيساً على ذلك فإن وسائل الإعلام التقليدية قد تكون أداة المجتمع لنشر الوعي الديني الحقيقي بين أفرادهم لفهم جوهر الدين الإسلامي وروحه وفلسفته التي تقوم على السماحة والتسامح وقبول الآخر والوسطية، ولترسيخ قيم العدالة والإنصاف والعمل والبناء التي دعا إليها الإسلام، ووسيلة من وسائل المجتمع لمواجهة التيارات التي تستهدف جرف الهوية الدينية لأفراده ومحو سماتها لصالح مشاريعها المنحرفة أو المتطرفة، وذلك من خلال الحفاظ ودعم الهوية الدينية لأفراد المجتمع المسلم بالمعارف والمفاهيم الصحيحة والقوية للإسلام، وتصحيح المفاهيم الخاطئة والمنحرفة عن الدين الإسلامي التي حقن بها الغرب شبابنا أو التي صدرتها الجماعات المتطرفة لهذه الفئة.

هذا لا يعني أن الباحثين لا يجمعون أيضاً دون ريب على جملة من الآثار السلبية التي تحدثها وسائل الإعلام التقليدية على التنشئة الدينية، فوسائل الإعلام التقليدية الغربية ساعدت على نشر وترويج الثقافة المبتدلة، وتقديم مواد إعلامية تافهة وسطحية تعتمد على إثارة الغرائز، الأمر الذي أصاب القيم الأخلاقية في مجتمعاتنا المسلمة بالتدني

1. محمد محمد عبده بكير، (2018)، دور القنوات الفضائية الدينية في تشكيل معارف المراهقين السعوديين ومدركاتهم حول القضايا الدينية، المجلة العربية للبحوث والاتصال، العدد 20، مارس 2018م، ص 64 - 95، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: https://jkom.journals.ekb.eg/article_108489_pdf.

والانحطاط¹.

فقد كثرت وسائل الإعلام التقليدية في عصرنا الحالي وتنوعت أساليبها من مرئي ومسموع ومقروء وغير ذلك، وأصبح الإسلام في العصر الحديث يواجه غزواً رهيباً ومخططاً له من قبل الدول الغربية عبر الجرائد والمجلات والكتب والمسرحيات والإذاعات المسموعة والمرئية والأفلام السينمائية التي تدفع باتجاه الانحراف الأخلاقي والديني والقيمي.

فوسائل الإعلام الغربية كما أشار الدكتور إسماعيل شليبي ليست مشروعات اقتصادية عديمة الأخلاق فقط، وإنما تحولت إلى أداة استعمارية للغزو الثقافي والتبشير ونشر الإباحية في العالم الإسلامي، حيث يتم تزيين الحرام والترويج له والدعوة إلى تقليده، باعتباره معبراً عن المدنية والتحضّر².

في السياق نفسه تؤكد إحدى الدراسات العلمية إن استقبال البرامج والمواد التي تبث من المحطات الغربية سوف يلعب دوراً خطيراً في التأثير على العادات والتقاليد والثقافة العربية والإسلامية بل يمكن أن تحوّلها في بعض شرائح المجتمع³، إن هذه القنوات والمحطات الغربية على اختلاف أيديولوجياتها تذهب في كثير من الأحيان في نشراتها الإخبارية وبرامجها الحوارية إلى الإيحاء والتلميح إلى أن كل أعمال القتل والتدمير والتخريب التي ترتكبها الجماعات المتطرفة تدخل في إطار التعاليم الإسلامية، لقد تعمدت الصحافة والإذاعات المسموعة والمرئية والسينما الغربية إثارة الشك والريبة والخوف في نفوس غير المسلمين ولدى المسلمين أنفسهم من كل ما له صلة بالإسلام.

وتظهر محاولات اختراقات العولمة لميادين الحياة الدينية ليس فقط من قبل وسائل إعلام غربية دولية، إذ تتم في كثير من الأحيان من قبل قنوات عربية باسم الاجتهاد وحرية التفكير وحقوق الانسان ومحاربة الجمود، وتمتع هذه القنوات بقوة وقدرة كبيرة على

1. رضا عبد الواحد امين، (2007)، اتجاهات النخبة الدينية نحو واقع ومستقبل الفضائيات الإسلامية، ورقة مقدمة إلى فعاليات مؤتمر الفضائيات العربية والهوية الثقافية، جامعة الشارقة: الإمارات العربية المتحدة.

2. موقع صحيفة الخليج، (2015)، الإعلام في الإسلام.. دعوة إلى الخير، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://www.alkhaleej.aeb1>

3. عفاف عبد الحكيم، (2018)، دور الإعلام الإسلامي، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://www.alzakiya.com/5620/1180>

الانتشار والتأثير على قاعدة عريضة من أفراد المجتمع العربي المسلم.

فلأسف أن وسائل إعلامنا العربية، وخاصةً القنوات الفضائية، تغزو البيوت ببرامج سيئة تعتمد على الاثارة والتشويق، وإغراق المشاهد بالإعلانات، أو بالبرامج والأفلام المستوردة أو المقلدة، فضلاً عن برامج التسلية والمسابقات واستهلاك الوقت، والتي لا هم لها سوى استدراج المشاهد للمزيد من الاستهلاك عبر الإعلانات التجارية أو تسطيح مستواه الأخلاقي والفكري¹، لتكون بذلك شريكة لوسائل الإعلام الغربية في نشر العادات السيئة والثقافات الدخيلة، والترويج للعنف والانحلال الأخلاقي، وفي ضرب الهوية الدينية للمجتمع العربي المسلم.

كما أن من الظواهر الدينية الاجتماعية السلبية التي نراها في العالم الإسلامي اليوم، وخاصةً في بلداننا العربية، والتي تستغل العاطفة الدينية تارة، وتارة أخرى الإشكالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهذه البلدان، هي ظاهرة التطرف التي يمكن أن تُعزى إلى أسباب تتعلق بغياب المرجعية الفكرية والأخلاقية وضعف الهوية الدينية نتيجة العولمة والحدثة²، فضلاً عن الكثير من المعاناة والأزمات والظروف الحياتية القاسية وحالة الاحباط النفسي وفقدان الأمل التي يعيشها الشباب العربي المسلم في وقتنا الحالي، إذ إن الحديث عن التطرف يفترض من الوهلة الأولى وجود فرد مهياً لهذا التطرف من جهة، ومجتمع يعاني من هذه الظاهرة من جهة أخرى، وأطراف (من ضمنها وسائل الإعلام) عاجزة عن تأدية دورها على الوجه الأكمل من جهة ثالثة.

وربما نستشهد هنا بما قاله الدكتور شوقي علام، مفتي الديار المصرية، في إحدى المقابلات التلفزيونية "إن مكافحة التطرف لا تقف عند حدود المؤسسات الدينية.. ولكن تشمل كل مؤسسات المجتمع"³.

وقد ارتبطت في كثير من الأحيان حرية التعبير في وسائل الإعلام بمفهوم الحرية الدينية التي ينادي بها الغرب، مما عرض هذه الحرية لخطر الاستخدام الاستغلالي من

1. نجلاء إسماعيل احمد، (2018)، الإعلام الديني والتعددية الثقافية، الاردن: دار المعزز للنشر والتوزيع.

2. علاء ناجي، (2017)، بناء الهوية الدينية لدى أفراد المجتمع العراقي "دراسة سوسيولوجية دينية تحليلية"، تم الاطلاع

على هذه الدراسة على موقع: <https://annabaa.org/arabic/studies/10644>.

3. رضا خليل، (2021)، المفتي: خطر التطرف يهدد الأمن والنظام العام في المجتمع ويتوغل بأساليب ملتوية، تم

الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://m.akhbarelyom.com/news/3494619/1/>.

قبل وسائل الإعلام لهدم عناصر الهوية الدينية ومقوماتها عن طريق التحريض الطائفي والفئوي والمذهبي، الأمر الذي ساهم في تأجيج الصراع الديني بين بعض الجماعات المتطرفة وإشعال نيران الفتنة في عدد من البلدان العربية والإسلامية، لأن هذه الوسائل الإعلامية المنحازة لانتماءاتها الفكرية والأيدولوجية تسعى في الغالب إلى اختزال الهوية الدينية في انتماء واحد يقوم على المذهبية والتعصب، ثم يتطور إلى العنف والقتل.

في ليبيا على سبيل المثال لعب الإعلام التقليدي منذ عام 2011م دوراً سلبياً عبر إثارة الفتنة والنعرات المذهبية وتشجيع خطاب الكراهية وخلق دافع ديني لإشعال الحرب والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد، الأمر الذي قد يترك أثراً سلبياً على إمكانية بناء هوية دينية موحدة للبراعم والناشئة في المجتمع الليبي في ظل غياب استراتيجية شاملة للإعلام الليبي بجميع وسائله المتعددة يراعى فيها الثوابت الإسلامية ومصصلحة الوطن العليا.

ليس الأمر كذلك فحسب فالإعلام التقليدي الليبي تم استدراجه في كثير من الأحيان لطرح قضايا شكلية لا تتعلق بجوهر الدين من بعض التيارات الدينية في إطار أهدافها لبناء وعي وهوية دينية تتسق مع مصالحها وتوجهاتها السياسية المتعارضة مع مصالح المجتمع الليبي وأولوياته ومتطلبات التنمية والأمن القومي لليبيا.

فبعد سقوط نظام القذافي عام 2011م واجهت وسائل الإعلام الليبية والصحافيون الليبيون أشكالاً جديدة من التبعية والرقابة يمارسها الليبراليون والميليشيات والفصائل المسلحة والمجموعات الإسلامية المتطرفة¹، ولذلك عجزت هذه الوسائل إلى يومنا هذا على دعم وتعزيز هوية دينية متفق عليها بين القائمين عليها أو الداعمين لها، بعد أن تم تعكير مضامين وسائل الإعلام التقليدية الليبية بأمر داعية للانحلال الأخلاقي تحت شعارات الحرية الغربية أو للتطرف جالبة للتعصب والتشدد الأعمى.

ربما هذا ما دفع اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان في ليبيا لأن تبدي قلقها عام 2017م إزاء تصاعد خطاب التحريض على الكراهية والعنف والاقصاء والعزل والتهميش والتشدد والتطرف الديني والفكري والتعصب القبلي والجهوي عبر وسائل الاعلام، وتحذيرها للمنابر الإعلامية والأطراف التي تبني هذا النهج من مغبة الاستمرار في التحريض على العنف والكراهية والتمييز وانتهاك حقوق الإنسان، ودعوتها لوسائل الإعلام والصحفيين

1. فاطمة العيساوي، (2013)، الإعلام الانتقالي في ليبيا هل تحرر أخيراً؟، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://carnegieendowment.org/sada/51772>

والإعلاميين لتبني خطاب معتدل وخطاب وطني جامع مبني على قيم التسامح والتصالح والعفو والتوافق والسلام والاستقرار¹.

وفي الوقت الذي لم يعد تأثير الإعلام التقليدي يختلف ألوانه وأشكاله المقروءة والمسموعة والمرئية على أفكار الناس بحاجة إلى المزيد من الأدلة والبراهين، فإنه ينبغي على المؤسسات الإعلامية الليبية الحكومية وغير الحكومية التنسيق مع باقي مؤسسات التنشئة الدينية الأخرى كالأسرة والمدرسة والمسجد والهيئة العامة للأوقاف والشؤون الإسلامية وغيرها من المؤسسات التي لا يمكن لها أن تعمل في منأى عنها للحفاظ على الهوية الدينية للمواطن في المجتمع الليبي.

في عصرنا الحالي يوظف الإعلام (خاصةً في الدول المتقدمة) كل وسائل تكنولوجيا الاتصال الحديثة لبلوغ أهدافه في التأثير على الجمهور واجتذابه وكسبه، وبالرغم من الانتقادات العديدة² التي وجهت لمثل هذه الوسائل الاتصالية الحديثة مثل مواقع التواصل الاجتماعي وأثرها السلبي على الهوية الدينية وخلقها هوية موازية تعرف باسم (الهوية الافتراضية) وهي مزيج من مكونات الهوية الاجتماعية والدينية الأصلية للأفراد وهوية أخرى تشبع رغبات وحاجات الأفراد النفسية والاجتماعية وتقمصهم لذوات متعددة، مع ذلك فإن ثمت من ينظر إلى تأثير توظيف هذه الوسائل على الهوية الدينية للأفراد من منظور إيجابي.

مع ذلك، لا بد من الإقرار بمسألة أساسية وجوهرية في هذا الشأن، وهي أنه لا يخفى على أحد تفوق الغرب في مجال تكنولوجيا الاتصالات والإعلام في مقابل تأخر الدول العربية في هذا الإطار، هذه الهيمنة الغربية على الإعلام بصفة عامة قد تدفعنا في التفكير أكثر في المضامين التي يتم تقديمها وتناقلها عبر وسائل التواصل الاجتماعي ومدى ملائمتها لتعزيز الهوية الدينية للأفراد في مجتمعاتنا ذات الطبيعة والأفكار والمفاهيم والاعتقادات الإسلامية التي تختلف عن نظيراتها في المجتمعات الغربية، وهل لهذه الهيمنة الغربية على وسائل الإعلام الجديد ولهذا التفاوت في حجم تدفق المضامين الإعلامية لصالح الدول المتقدمة أثر على مساعي الحفاظ على هويتنا الإسلامية؟، وهذا ما سيتم طرحه

1. موقع وكالة الأنباء الليبية، (2017)، اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان تبدي قلقها من تصاعد الكراهية والعنف والتشدد

الفكري والتطرف الديني، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://lana.gov.ly/post.php?lang>

2. باديس لويس، (2014)، الإعلام الجديد والهوية "دراسة نظرية جدلية العلاقة والتأثير"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، العدد 31 ديسمبر 2014، الجزائر: جامعة باتمة.

ومناقشته ضمن المحور الثالث في هذه الدراسة.

المحور الثالث: الإعلام الجديد والهوية الدينية للمجتمع الليبي:

الهوية الدينية للمجتمع الليبي هي الهوية الإسلامية التي أصبحت الممثلة لأصالة ثقافته، وتعكس عاداته وتقاليده، وأعرافه وأدائه وفنونه، ونظرة أفراده للكون والذات وللآخر، وتصوراتهم لمكانة الإنسان في هذا الكون، وحكمة هذا الوجود ونهايته، ومعايير المقبول والمرفوض، والحلال والحرام.

وتعتمد هذه الهوية في جوهرها على الدين الإسلامي كنظام حياة شامل وصالح لمعالجة كل قضايا المجتمع، إذ لم تُترك صغيرة ولا كبيرة من الأمور الدينية والدينية في هذا الدين إلا بينها ووضع لها القواعد والأسس التي تحكمها وتنظمها، سواء كانت ظاهرة دينية أم ظاهرة دنيوية اجتماعية، فكل شيء فيه موضح ومفصل تفصيلاً عاماً تارة وتفصيلاً دقيقاً تارة أخرى مصداقاً لقوله تعالى {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} ¹.

ولما كان لما تقدمه وسائل الإعلام غالباً اثر على تشكيل تصورات الناس وتكوين الوعي الاجتماعي والثقافي والديني في دواخلهم والذي يعزز فيما بعد من خلال الوقت والتجارب، كان لظهور الانترنت أثر كبير على المجتمعات العربية والإسلامية، إذا ما نظرنا إلى الوقت الذي كان يتطلبه وصول معلومة من مكان إلى مكان آخر مقارنةً بالوقت الحالي، ناهيك عن سمة التفاعلية للإعلام الجديد حيث يتبادل المرسل والمتلقي الأدوار، وممارسة الاتصال ثنائية الاتجاه وتبادلية، مما أدى إلى تحويل المتلقي السلبي إلى عنصر فعال ونشط بشكل يؤثر في محتوى الرسالة الاتصالية ويحفز على مشاركة المتلقي فيها، بالإضافة إلى سمة اللاتزامنية والتي تتيح إمكانية التفاعل مع العملية الاتصالية في الوقت المناسب للفرد سواءً كان مستقبلاً أو مرسلًا.

بالطبع كان للمزايما والخصائص التي أتاحها ظهور الإعلام الجديد انعكاس إيجابي على انتشار الهويات الدينية وشيوعها والتعريف بها عالمياً، إذ أضحت الفرصة متاحة لأي دين للانتشار خارج حدوده الوطنية ونطاقه الجغرافي بما في ذلك الدين الإسلامي، كما ساعدت مواقع التواصل الاجتماعي مختلف الأمم في الدخول في مناقشات على شبكة الانترنت

1. سورة يس: الآية 12.

للتعبير والتفاوض بشأن هوياتها الدينية بما فيها الهوية الإسلامية¹.

وفضلاً عن ذلك، شكل استخدام الأفراد لمواقع التواصل الاجتماعي كإحدى وسائل الإعلام الجديد بديلاً مثالياً ومناسباً لهم عن احتكار الإعلام الدولي التقليدي للمعلومة والذي كان وما يزال غير منصف في تناوله للقضايا الدينية واستغلالها لتضليل الرأي العام العالمي، خاصةً عندما يتعلق الأمر بالهوية الإسلامية أو الدين الإسلامي، حيث وفرت هذه الوسائل لهم مساحة غير محدودة ورخيصة التكلفة لتصحيح الأخبار المغلوطة والدفاع عن دياناتهم وهوياتهم، وللتعريف بقضايا إخوانهم وحشد التعاطف معها ومساندتها.

على سبيل المثال أشار دوغلاس شيلر إلى الدور الإيجابي لمواقع التواصل الاجتماعي في تشكيل جماعات تناضل لأجل هويتها، ونخص هذا الدور في النقاط التالية²:

- الربط بين أعضاء جماعة معينة وتشجيع النقاش وحل المشاكل المشتركة.
- تنظيم المعلومات ووسائل الاتصال ذات الأهمية الخاصة لحاجات الجماعات، ولمواجهة مشاكلها بناء على جدول زمني.
- مشاركة قاعدة عريضة من المواطنين، بمن فيهم نشطاء المجتمع والقادة، والجهات الراعية لأنشطتهم، ومقدمو الخدمات، وذلك بشكل مستمر.
- العمل على إدماج جميع أعضاء الجماعة.
- توفير الخدمات الأساسية.
- دعم الثقافة المحلية.

يُضاف إلى كل خصائص وسمات وسائل الإعلام الجديد السابق تزايد عدد مستخدمي الإنترنت في كل دولة من دول العالم بطريقة غير مسبوق، نتيجة توفر إمكانيات

1. Mohammed el-Nawawy and Sahar Khamis. (2010). Collective Identity in The Virtual Islamic Public Sphere, Contemporary Discourses in Two Islamic Websites, The International Communication Gazette, Vol. 72, <http://www.chatislamonline.org/chat>.

2. محمد بنهال، (2010)، الإعلام الجديد ورهان تطوير الممارسة السياسية: تحليل لأهم النظريات والاتجاهات العالمية والعربية، مجلة المستقبل العربي، العدد 396، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.maghress.com/alittihad/119653>.

الاتصال ورخص تكلفتها نسبياً، مما أدى بالتالي إلى تجاوز الحدود الجغرافية وسقوط الحواجز الثقافية بين أطراف عملية الاتصال المحلية أو الدولية.

وكان يفترض بالمسلمين الاستفادة كغيرهم من المزايا التي وفرتها وسائل الإعلام الجديد كمواقع التواصل الاجتماعي اعتماداً على مزايا الدين الإسلامي نفسه وصالحيته للعالمية وتطابقه مع فكرة الجمع بين الإنسانية التي طالما نادى بها هذه الوسائل ولو ظاهرياً، فالهوية الإسلامية هوية مستوفية لكل مقومات الهوية الذاتية المستقلة كالعقيدة والتاريخ واللغة.

لكن الذي يبدو جلياً أن الأمر لا يتعلق فقط بتطور الوسائل الإعلامية التي يمكن أن يملكها المسلمون لتوظيفها في سبيل الحفاظ على هويتهم الدينية وترسيخها من خلال زيادة عدد الرسائل الإعلامية، إنما يتعلق أيضاً بمضامين تلك الرسائل التي تقدمها الدول العربية والإسلامية على المستوى المحلي والعالمي، فإذا كانت وسائل الإعلام العربية والإسلامية قد تطورت واستفادت من تقنيات هذا العصر، فإن رسائلها الإعلامية التي تقدمها ما زالت عموماً تعاني من الاعتماد على المباشرة الفجة والتسطيح والدعاية لشخص المسؤولين وصرف الناس عن قضايا دينهم وعن التهديدات التي تواجه بلدانهم وهويتهم الثقافية والدينية، كما أن بعضها (الرسائل الإعلامية العربية) لا تعدو عن كونها نسخاً ونقلاً لرسائل الإعلام الغربي أو تقليداً مكرراً لها.

وربما هذا ما دفع مفتي الديار المصرية الدكتور أحمد الطيب إلى اعتبار أن تجديد الفكر الإسلامي (وليس الوسائل فقط) ضرورة عصرية¹، وعلى ذلك فإن الهوية الإسلامية كذلك قابلة لأن تخضع بين فترة وأخرى لعمليات إصلاح وتجديد لتصفية وإزالة ما علق بها من فهم خاطئ وجمود ونمطية، إذ ليس كافياً للدول العربية والإسلامية أن تطور وسائط الاتصال الحديثة الخاصة بها من الجانب التقني، وتحصل على تلك التكنولوجيا بالشراء دون أن تحسن استخدامها وتقوم بتقديم رسائل ناجحة عبر تلك الوسائل، وتستغلها أفضل استغلال لتحقيق الأهداف المتوخاة من وجود هذه الوسائل، من دعاية إيجابية محقة لهويتها الدينية، إلى تثقيف الجمهور وتوعيته حول الإسلام ورسالته.

على سبيل المثال أشارت نتائج دراسة حردان هادي للمواقع الإسلامية على شبكة

1. محمد عمر احمد أبو عنزة، (2011)، واقع إشكالية الهوية العربية بين الأطروحات القومية والإسلامية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الاردن: جامعة الشرق الاوسط، ص 104، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

https://meu.edu.jo/libraryTheses/586a0560e8962_1.pdf

الإنترنت عام 2014م أن هذه المواقع لم تستفد من إمكانيات الإنترنت فيما يتعلق بتوظيف الوسائط المتعددة في عرض قضاياها للجمهور، حيث لم تطور من إمكانياتها الإلكترونية في ظل التطور الإعلامي التكنولوجي الذي شهدته المواقع الإلكترونية الأخرى، وبقيت تستخدم النصوص نفسها المستخدمة في الصحف الورقية مع بعض الصور دون الاستفادة من تقنيات المجال الإلكتروني¹.

ولذلك كان لوسائل الإعلام الجديد أثر سلبي على الهوية الدينية للمجتمعات المسلمة أكثر من أثرها الإيجابي في هذا الشأن، ومع أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال انكار أن تحويل الانتباه إلى مواضيع إيجابية تتعلق بالهوية الإسلامية والحصول على تغطية إعلامية كافية عنها على مواقع التواصل الاجتماعي يمكن أن يكون عاملاً هاماً ومؤثراً في دعم الهوية الدينية للبلدان المسلمة، وقد تعمل أيضاً على إثارة الأسئلة والاستفسارات لمعرفة المزيد عنها.

فالإعلام الجديد يعمل أو يُفترض أن يعمل على إحداث التقارب بين الشعوب من خلال تعريفها ببعضها وإظهار ما يميزها بطريقة تدفع باتجاه تعزيز الود والمحبة والاحترام لا الخلاف والعداء، فبالرغم من الاختلاف بين هذه الشعوب في اللون والجنس واللغة والثقافة والدين، فإنه يمكن للإعلام الجديد تحقيق التفاعل والتقارب والسلام بينها من خلال تبادل الأفكار والمعلومات والتفاعل مع ما يتم تقديمه من مضامين محلية ودولية.

وهذا ما أكده الباحث الشرعي المغربي، المتخصص في العقائد والأديان، الدكتور حمزة النهيري بقوله "إن منصات التواصل الاجتماعي لعبت دوراً بارزاً في نشر المعرفة بشكل عام، وقد كان للفكر الديني نصيب من هذا العالم حيث نشط المفكرون والدعاة في الكتابة ونشر الآراء في المجال الديني بمكوناته العقدية والفقهية المختلفة، وهو ما ساهم في تشكيل الوعي الديني لدى فئة عريضة من المجتمع"².

فعلى سبيل المثال نجحت وسائل الإعلام الجديد من خلال تسليطها الضوء على

1. حردان هادي صايل، (2014)، المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت - دراسة تحليلية لمضمون المواقع الإلكترونية المهمة بقضايا الإسلام والمسلمين، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

https://sjocs.journals.ekb.eg/article_89016_1cdb99ba1.pdf

2. بسام ناصر، (2020)، وسائل التواصل الاجتماعي.. هل أنضجت الوعي الديني أم أفسدته؟، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://arabi21.com/story/1337349/>.

موجة الغضب التي اجتاحت الشارع العربي بسبب نشر إحدى الصحف الفرنسية الساخرة رسوم مسيئة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عام 2020م، في تعبئة الرأي العام العالمي والضغط على فرنسا للاعتذار والرجوع عن موقفها وبيان قوة الهوية الدينية في تجميع المسلمين ضد أي مساس بنبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم أو مقدساتهم.

وساعدت وسائل الإعلام الجديد الشيشانيون في التأثير على الرأي العام المحلي والعالمي، ومخاطبة الملايين من مستخدميهم، وإيصال صوتهم إلى كل من يساند قضيتهم، وذلك عندما أسس الشيشانيون مواقع بلغات متعددة لحماية هويتهم الإسلامية ولفضح الممارسات والانتهاكات الروسية بالصوت والصورة في القوقاز¹.

كذلك نجحت الحملات التي أطلقها المسلمون في الولايات المتحدة على مواقع التواصل الاجتماعي في أكتوبر 2010م في إجبار الإذاعة الأمريكية العامة إن بي آر NPR على فصل المحلل الإخباري لديها خوان ويليامز من العمل بسبب تصريحاته التي أساء فيها للهوية الإسلامية وأثار الشك والريبة في مكوناتها بقوله: "حين أصعد على متن طائرة.. إن رأيت أشخاصاً يرتدون ملابس إسلامية أفكر أنهم يعرفون عن أنفسهم أولاً وبشكل رئيس كمسلمين، فأقلق وأتوتر"².

في ليبيا أيضاً لعبت مواقع التواصل الاجتماعي دوراً مهماً في التصدي لمحاولة جرف الهوية الدينية للمجتمع من قبل المتطرفين تارة ومن قبل العلمانيين تارة أخرى، فعلى سبيل المثال عندما حاول تنظيم داعش في مدينة درنة فرض النقاب الأسود على النساء كافة، ظهر هاشتاق #نشمل* _ولا_ نتخمر والذي تم تداوله بين نساء المدينة على الفيس بوك في محاولة للرد على أفكار التنظيم المنحرفة وسعيه إلى محو الهوية الدينية للمجتمع الليبي واستبدالها بهوية هجينة ودخيلة وغريبة على مدننا وبلادنا.

بالمثل تمكن رواد مواقع التواصل الاجتماعي في ليبيا من التصدي لحملة قام بها مجموعة من الشباب المنحرف عن الدين والذين قاموا ببث مقاطع فيديو على موقع الفيس

1. علي الوحيشي، (2018)، أثر الإعلام الجديد على الهوية الثقافية والخصوصية الإسلامية، مجلة علوم الانسان والمجتمع، المجلد السابع، العدد 27 لسنة 2018م، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/116/7/4/64227%20%D8%B5%20904>

2. وكالة الانباء القرآنية الدولية، (2010)، إعفاء مذبح أمريكي بسبب تصريحات مسيئة للمسلمين، <https://iqna.ir/ar/news/2017575>

* الشمال أو الجرد هو رداء ولباس تقليدي شعبي كان يرتديه النساء في الشرق الليبي عند الخروج من المنزل.

بوك تدعو للإلحاد واللا دينية والعلمانية في شهر نوفمبر 2021م، الاستنكار والاستهجان والرفض والغضب الذي أظهره رواد مواقع التواصل الاجتماعي في ليبيا اتجاه ما حدث من إساءة لدينهم ولهويتهم الإسلامية لم ينتج عنه فقط اعتقال هؤلاء الشباب من قبل جهاز الأمن الداخلي الليبي، بل دفع أيضاً ما يسمى بحركة تنوير، وهي حركة مدنية تدعو للمساواة بين الجنسين، وإلى إعادة صياغة العقل الليبي استناداً على أفكار علمانية، إلى إعلانها حل نفسها بعد هروب مؤسسها إلى الخارج خوفاً على أنفسهم من هذا السخط والغضب الجماهيري العارم على مواقع التواصل الاجتماعي¹.

لكن ذلك ليس حال الإعلام الجديد دائماً بأن يتم توظيف وسائله لصالح الهوية الدينية في المجتمعات العربية والإسلامية، ففي بعض الحالات تُستغل المواقع الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي كالفيس بوك أو تويتر من قبل الحركات والجماعات الإسلامية في العالم العربي لتعبئة الرأي العام تجاه بعض القضايا السياسية والدينية بما يخدم المصالح الضيقة والمحدودة لهذه الحركات.

أسهمت على سبيل المثال وسائل الإعلام الجديد في التحريض على العنف الديني وتفاقم الأزمة في مصر حين قامت الجبهة السلفية بمصر في صفحتها على الفيس بوك بنشر موضوعات تدور حول الأوضاع السياسية والتحريض على القيام بثورة ضد 30 يونيو وتبرير ذلك بالقول: "أن الفوضى خير من الاستبداد العلماني الذي لا يأتي استقراره إلا بنشر الكفر والحرب على الدين وقتل المؤمنين"²، موضوعات كهذه فيها الكثير من الانفعالية وردة الفعل من الممكن أن تشكل تهديد على الهوية الدينية المتماسكة للمجتمع المصري.

كذلك قد يتم الهيمنة على وسائل الإعلام الجديد من قبل الفئة العمرية الأكثر استخداماً لمواقع التواصل الاجتماعي والتي في الغالب إعمارها تقل عن 30 عاماً، لنشر الدعوة الإسلامية بشكل أكثر سرعة وأكثر شمولية، بالاعتماد على نصوص قرآنية قصيرة وأحاديث قليلة ومتكررة، والاكتفاء بها لتفسير قضايا وتبرير سلوكيات وأفكار عدة، إلا أن الموضوعات التي تقدمها هذه الفئة غالباً ما تكون ذات طبيعة انفعالية وسياسية أكثر منها

1. خالد محمود، (2022)، الحرب على العلمانيين... الدين في خدمة "الدينية"، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع:

<https://raseef22.net/article/1087126>

2. عكاشة بن المصطفى، (2019)، الإسلاميون والتواصل الاجتماعي: المؤثرات الثقافية، تم الاطلاع على هذا المقال

على موقع: <https://www.almesbar.net>

دراسات ونقاشات داعمة للهوية الدينية، كما أن الرد يكون -غالباً- ذا طابع انفعالي، ومشحوناً بأفكار مسبقة حول الدين الإسلامي، مما يعني أن هذه الفئة تحصل على تكوين مقتضب ومبسط وسهل ومشتت، لأنها تكتفي بهذه الثقافة الدينية المحدودة في نقاشاتها وحواراتها¹.

في المجتمع الليبي تظهر هذه الفئة والممارسات جلية على مواقع التواصل الاجتماعي قبيل المناسبات الدينية حيث يتم إثارة مسائل خلافية مثل الكيفية التي يتم بها إخراج زكاة الفطر وحكم الاحتفال بالمولد النبوي وحكم صيام يوم عرفة منفرداً إذا وافق يوم السبت وغيرها، ويتم تداولها من قبل الفئة المذكورة والتي تحاول جاهدة سحب المشروعية من العلماء التقليديين ومن المؤسسات الدينية التقليدية المتعارف عليها، وتستبدلها بإنتاج محرف ليس فيه أي تجديد أو تعمق، وبإعادة قراءة التاريخ الإسلامي والنصوص الإسلامية من قرآن وسنة حسب ما تراه مناسباً لمعتقداتها وأفكارها، وليس كما ينبغي قراءتها، وترفض بشدة القراءات الأخرى.

وبذلك فإن وسائل الإعلام الجديد قد تزيد من حدة الخلاف والتحريض على العنف والكرهية بين أفراد المجتمع الليبي، وهذا ما يعرض السلم والأمن الاجتماعي في البلاد للخطر، خاصة في ظل غياب الجانب الرقابي تحت غطاء حرية التعبير، وربما هذا ما حذر منه الدكتور علي ونيس بقوله "إن تداول عامة المسلمين لكثير من المنشورات الدينية التي تتضمن أفكاراً منحرفة، ومعلومات غير صحيحة، وأحاديث ضعيفة وموضوعة، وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى تشويه صورة الدين، وعدم وصول الشريعة بعقائدها وأحكامها إلى المدعوين والمعنيين بصورة سليمة وصحيحة"².

ومع تزايد قيام مجتمعات افتراضية على الانترنت، وازدياد استعمال شبكات التواصل الاجتماعي في العالم العربي، حيث هناك أكثر من 82 مليون مستخدم عربي لموقع الفيسبوك و6 ملايين مستخدم عربي لتويتر، ويمثل العرب اليوم ما نسبته 22% من مستخدمي هذه الوسائل، لعله من المفيد أن نؤكد هنا على أن التحكم بوعي المجتمعات، وتبديل ثوابت وقيم وهويات أفرادها عبر الانترنت يتعلق في الأساس بكون الهوية

1. المرجع السابق.

2. بسام ناصر، (2020)، وسائل التواصل الاجتماعي.. هل أنضجت الوعي الديني أم أفسدته؟، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://arabi21.com/story/1337349/>.

الافتراضية قابلة للتغير والتبدل في أي لحظة بحسب اختيارات الفرد نفسه، أو بحسب اختيارات أطراف أخرى.

وقد نوه البعض¹ إلى خطر ما يسمى بالهوية الافتراضية التي يكتسبها الأفراد مستخدمو وسائل الإعلام الجديد (مواقع التواصل الاجتماعي) نتيجة تواجدهم المستمر على الأنترنت على الهوية الدينية في البلدان المسلمة، ذلك لأنها (الهوية الافتراضية) هوية هجين تجمع بين الثقافة المحلية من لغة ودين وموروث ثقافي وشعبي، وثقافة اجنبية (متطرفة / علمانية) بكل مكوناتها، وهذا ما يهدد في الأخير هوية الفرد الاصلية.

لذلك نجد أن الكثير من مواقع التواصل الاجتماعي كانت سبباً في تجنيد الشباب الليبي المسلم ليكونوا وقوداً للحرب وللإرهاب، وأن الجماعات المتطرفة في ليبيا استغلت حالة الفقر والبطالة وغياب الرقابة والتوجيه لضرب الهوية الدينية للمجتمع الليبي والتشكيك في قيمه وعقيدته والتزامه الديني، وكل ذلك انعكس سلباً بلا شك على جهود التنمية البشرية والاقتصادية والاجتماعية في بلادنا، وأعاق تقدمها، بل وخلق الحجج الواهية للتدخل الخارجي للحرب على الإرهاب.

إن استخدام وسائل الإعلام الجديد للتقنيات العالية والأساليب الفنية المتطورة وتوظيف كل ذلك من قبل الجماعات المتطرفة أو التيارات العلمانية ساعد في تعميق الثقة بين المرسل (الجماعات المتطرفة والتيارات العلمانية) والمتلقي (الشباب الليبي المسلم) والسيطرة الإعلامية على مشاعره واستقطاب أحاسيسه حتى تتمكن هذه الجماعات والتيارات من تفكيك عقله وإعادة بنائه وفق ما تتطلبه افكارها واستراتيجيتها واهدافها، حتى إن بعضها نجح في تعبئة بعض الشباب الليبي ضد قيمهم وتراثهم بعد أن استنزفت كل مشاعر الولاء لديهم.

9. نتائج الدراسة:

1.9 تأثير العولمة على الهوية الدينية للمجتمعات المسلمة (بما فيها المجتمع الليبي) لم يعد بحاجة إلى المزيد من الأدلة والبراهين، على اعتبار أن العولمة هي غريبة المنشأ والفكر والتوجه،

1. باديس لوئيس، (2014)، الإعلام الجديد والهوية "دراسة نظرية جدلية العلاقة والتأثير"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، العدد 31 ديسمبر 2014، الجزائر: جامعة باتنة، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

https://www.researchgate.net/publication/335790675_alalam_aljdyd_walhwyt

والمجتمعات الغربية يستحيل إقامة علاقة طبيعية بينها وبين القيم الأخلاقية والتي هي إحدى أهم ركائز الهوية الإسلامية.

2.9 أن العولمة نفسها هي إحدى وسائل التمرد على الهوية الدينية والأخلاق، وبالتالي فإن الأخلاق والقيم لا تعني للعولمة في شيء، ناهيك عن أن العولمة تستهدف هدمها وتحقيق مصالح الدول الغربية وتنفيذ خططها.

3.9 رفض أو قبول العولمة الإعلامية بالنسبة للمجتمعات العربية بما فيها المجتمع الليبي ليس خياراً متاحاً، إنما المتاح فقط هو كيفية التعامل مع هذه العولمة بما يخدم مصالح هذا المجتمع ويحصر هويته الثقافية والدينية، ويوطد روح الوطنية بين أفرادها ويوحد رؤى وجهود مؤسساته، ويحسن من قدرته على المنافسة دولياً.

4.9 أسهمت وسائل الإعلام التقليدي في بادئ الأمر في نشر الوعي الديني وفي نقل المعرفة والمعلومات الدينية للأفراد في المجتمعات العربية والتي من ضمنها المجتمع الليبي مما ساهم في ترسيخ الهوية الدينية وتقويتها، إلا أن الأمر اختلف كلياً مع ظهور الإذاعات والقنوات الفضائية الإقليمية والعالمية، وسعي العولمة الإعلامية الغربية في ظل عجز وسائل الإعلام المحلية العربية إلى جرف الهوية الدينية للمجتمعات المسلمة واستبدالها بثقافة وهوية مبتدلة بدعوى المدنية والتحضر.

5.9 يؤدي الإعلام الجديد دوراً عظيماً في تعزيز الهوية الدينية للمجتمع الليبي، ويستند في ذلك على قدرة هذا النوع من الإعلام على توفير مساحة غير محدودة لتبادل المعلومات والأفكار وطرح القضايا الدينية، والربط بين أصحاب القضية الواحدة، ودعم النقاش وتشجيع المشاركة والتفاعل، وإتاحة الفرصة للمؤسسات الدينية والأفراد الفاعلين للمشاركة في تعريف أفراد هذا المجتمع بتعاليم دينهم وبأصول عقيدتهم وكشف وفضح أي انحرافات عنها أو سلوكيات منافية لها، والتحشيد ضدها وضد أي مساس بالهوية الإسلامية أو أحد مكوناتها.

6.9 شكلت وسائل الإعلام الجديد أيضاً أداة للخصم المتطرف دينياً وعلماً لضرب الهوية الدينية للمجتمع الليبي من خلال توظيفها كمنبر لبث الأفكار والمعتقدات المتطرفة والمنحرفة المنافية للاعتدال الديني، وللتحريض ضد الإسلام ومبادئه السامية، وتعزيز الخلاف والكراهية والعنف بين أفراد المجتمع المسلم الواحد، كل ذلك يتم في غياب الرقابة الأسرية والمجتمعية، وقصور المؤسسات الدينية عن أداء دورها المناط بها.

7.9 العلاقة بين الإعلام الجديد ومجال الدين علاقة اعتماد متبادلة، ويمكن إيجاز طبيعة هذه العلاقة في أن الدين نصاً وخطاباً وممارسة يمثل المضمون للرسالة الإعلامية المقدمة من قبل الإعلام الجديد مع مضامين أخرى عديدة، بينما يتيح الإعلام الجديد في عصرنا الحالي ميزة التفاعل مع الأخبار والأحداث والمعلومات المقدمة له، ويعزز ذلك بلا شك قوة مؤسسات وأفراد أي مجتمع في إدارة صراع الهوية الدينية في عصر العولمة من خلال توظيفهم لهذه الخصائص لبيان التهديدات التي تحيط بديانتهم وهويتهم ولحشد معتنقيها للتصدي لها.

8.9 أهم ما يعيق الإعلام الجديد للقيام بدوره في الحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي، هو غياب التنسيق بين الأشخاص الفاعلين والمؤثرين على وسائل التواصل الاجتماعي وباقي المؤسسات الأخرى في المجتمع كالمؤسسات الدينية والتربوية، وانعدام الرقابة والإرشاد والتوجيه الاسري والمجتمعي للمضامين التي تقدم من خلال هذه الوسائل، بالإضافة إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار الأمني والصراع الفكري والعسكري اليوم في ليبيا، واستغلال كل طرف من أطراف النزاع وسائل الإعلام الجديد من أجل حسم المعركة لصالحه.

10. التوصيات:

1.10 لا سبيل للتصدي إلى حتمية العولمة إلا بتبني برامج إعلامية شاملة تهدف إلى تنمية الوعي بالعقيدة والتاريخ الإسلامي، مع التركيز على الاعتزاز بديننا، والافتخار بتاريخنا ولغتنا العربية وحضارتنا، والتصدي لما يطرح عبر وسائل الإعلام الجديد من مغالطات وأفكار مغرضة للتأثير السلبي على الشباب.

2.10 تأهيل القائمين على تقديم البرامج والمضامين الدينية والتربوية في الإذاعات المحلية والقنوات الفضائية الليبية وتدريبهم وزيادة قدراتهم على عرض مكونات الهوية الإسلامية للمجتمع الليبي بشكل متحرر من التبعية للغرب ومميز ومشوق ومقنع وجذاب.

3.10 الاهتمام بإمداد الإعلام الجديد على المستوى المحلي والدولي بالموضوعات والأخبار والمعلومات التي من شأنها تثقيف الناس دينياً وزيادة معرفتهم بالإسلام ورسالته وقيمه ومبادئه، وبما يعكس صورة إيجابية عن الهوية الدينية للمجتمع الليبي المسلم في

أذهان مستخدمي وسائل الإعلام الجديد.

4.10 ضرورة استحداث إدارة أو مكتب في المؤسسات الدينية والتربوية الليبية يعمل على التنسيق بين هذه المؤسسات وبين الأشخاص الفاعلين والمؤثرين على وسائل الإعلام الجديد (مواقع التواصل الاجتماعي) لضمان العمل على تنفيذ رؤى واستراتيجية شاملة للحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الليبي وحمايتها.

5.10 لا بد من الاعتراف بحقيقة أن هناك فئات متطرفة (إرهابيين أو علمانيين) في كل دين، والدين الإسلامي ليس استثناء، هذه الفئات يتوجب رصدها باستمرار والاستعداد لمواجهةها فكرياً في ميادين وساحات جديدة خلقها الإعلام الجديد أبرزها مواقع التواصل الاجتماعي، إلى جانب تشجيع الشباب الليبي المسلم على طرح أفكارهم وآرائهم بعيداً عن هيمنة الحكومات وسيطرتها وفي بيئة تتسم بحرية الرأي التعبير والمصادقية والشفافية.

6.10 التأكيد على دور الأسرة والمدرسة والمسجد في ترسيخ الهوية الدينية للأفراد، والتوعية بأهمية أن يؤدي هذا الدور بمحاذاة استخدامهم لوسائل الإعلام الجديد.

7.10 الاستفادة من العلاقة المتبادلة بين الإعلام الجديد والدين في النهوض بالاثنين معاً بما يخدم صالح الأمة الإسلامية ويدعم قضاياها ويُحصن هويتها.

المراجع:

1. أبو بكر رفيق، (2007)، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي، مجلة دراسات، الجامعة الإسلامية العالمية، شيتاغونغ، المجلد 4 ديسمبر 2007م. ص 5-16.

2. باديس لونيس، (2014)، الإعلام الجديد والهوية - دراسة نظرية في جدلية العلاقة والتأثير-، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة باتنة، الجزائر، العدد 31 ديسمبر 2014م، ص 265 - 294، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.academia.edu/pdf>

3. بسام ناصر، (2020)، وسائل التواصل الاجتماعي.. هل أنضجت الوعي الديني أم أفسدته؟، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://arabi21.com/story/1337349/>

4. بوزة باية، (2014)، الفجوة الإعلامية العربية: أسبابها وسبل تقليصها، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/450/8/2/66978>
5. حردان هادي صايل، (2014)، المواقع الاسلامية على شبكة الإنترنت - دراسة تحليلية لمضمون المواقع الإلكترونية المهمة بقضايا الإسلام والمسلمين، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: https://sjocs.journals.ekb.eg/article_89016_1cdb99ba1.pdf
6. حمد راشد محمد، (2017)، إسهام الإعلام الجديد في تعزيز قيم الهوية الوطنية في المجتمع البحريني: تحليل مضمون، (رسالة ماجستير منشورة)، الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/206/6/1/102221>
7. خالد بن عبد الله بن عبد العزيز، (2007)، العولمة وأثرها على الهوية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://www.alukah.net/culture/0/188391-2/>
8. خالد روشه، (2008)، أزمة الهوية الإسلامية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://almoslim.net/node/103661>
9. خالد محمود، (2022)، الحرب على العلمانيين... الدين في خدمة "الديببة"، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://raseef22.net/article/1087126>
10. داليا أشرف، (2017)، التفاعلية والهوية الثقافية لدى الشباب المصري - رؤية تحليلية، مجلة الإعلام العربي والمجتمع، الجامعة الأمريكية، القاهرة، العدد 32 خريف 2021م، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.arabmediasociety.com/interactivity-new-media-and-cultural-identity>
11. دين محمد ميرا صاحب، (2007)، تأثير العولمة على دراسة الدين تحليل وتقييم، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 25، جامعة قطر، ص 88.
12. الذهب عفان، (2021)، الإعلام الجديد ومدى تأثيره في المجتمع، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية: <https://democraticac.de/773>

13. رزان صلاح، (2021)، ما هي العولمة، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://mawdoo3.com/>
14. رضا خليل، (2021)، المفتي: خطر التطرف يهدد الأمن والنظام العام في المجتمع ويتوغل بأساليب ملتوية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://m.akhbarelyom.com/news/3494619/1/>
15. رضا عبد الواحد امين، (2007)، اتجاهات النخبة الدينية نحو واقع ومستقبل الفضائيات الإسلامية، ورقة مقدمة إلى فعاليات مؤتمر الفضائيات العربية والهوية الثقافية، جامعة الشارقة: الإمارات العربية المتحدة.
16. سماح محمد محمدي، (2020)، اندماج الشباب والمراهقين في شبكات التواصل الاجتماعي وتأثيره على إدراكهم للواقع: دراسة حالة على قضية البناء وراجح في إطار نظرية الغرس الثقافي، مجلة البحوث الإعلامية، كلية الإعلام بجامعة الأزهر، القاهرة، المجلد 54 يوليو 2020م، ص 1295 - 1388.
17. عباس مصطفى صادق، (2008)، الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات، دار الشروق للنشر: الاردن.
18. عبد الرازق بلعقروز، (2014)، الحداثة الفائقة ومظاهر انفصال الإعلام المعاصر عن القيمة، مجلة إسلامية المعرفة، جامعة سطيف، الجزائر، العدد 81 لسنة 2015م، ص 133-162، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://citj.org/index.php/citj/article/view/657/477>.
19. عفاف عبد الحكيم، (2018)، دور الإعلام الإسلامي، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://www.alzakiya.com/5620/1180>
20. عكاشة بن المصطفى، (2019)، الإسلاميون والتواصل الاجتماعي: المؤثرات الثقافية، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://www.almesbar.net>
21. علاء ناجي، (2017)، بناء الهوية الدينية لدى افراد المجتمع العراقي "دراسة سوسيولوجية دينية تحليلية"، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://annabaa.org/arabic/studies/10644>
22. علي الوحيشي، (2018)، أثر الإعلام الجديد على الهوية الثقافية والخصوصية الإسلامية، مجلة علوم الانسان والمجتمع، المجلد السابع، العدد 27 لسنة 2018م، تم

الاطلاع على هذه الدراسة على موقع:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/116/7/4/64227%20%D8%B5%20904>

23. فاطمة العيساوي، (2013)، الإعلام الانتقالي في ليبيا هل تحرر أخيراً؟، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://carnegieendowment.org/sada/51772>

24. لطفي دنبري، محمد أمين شياب، (2019)، تأثيرات العولمة على المجتمع العربي وتحدي المواجهة، مجلة العلوم الانسانية، مجلد 30، العدد 3 ديسمبر 2019م، ص 445-459، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/23/30/3/104430>

25. مبارك عامر بقرنه، (2016)، مفهوم العولمة ونشأتها، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <http://www.saaaid.net/Doat/mubarak/5.htm>

26. محمد بنهال، (2010)، الإعلام الجديد ورهان تطوير الممارسة السياسية: تحليل لأهم النظريات والاتجاهات العالمية والعربية، مجلة المستقبل العربي، العدد 396، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://www.maghress.com/alittihad/119653>

27. محمد زكرياء خيف، (2017)، دور الإعلام الرياضي في نشر الثقافة الرياضية لدى الشباب الجزائري "دراسة ميدانية على عينة من شباب مدينة أم البواقي"، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي.

28. محمد عمر أحمد أبو عنزة، (2011)، واقع إشكالية الهوية العربية بين الأطروحات القومية والإسلامية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الأردن: جامعة الشرق الاوسط، ص 104، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: https://meu.edu.jo/libraryTheses/586a0560e8962_1.pdf

29. محمد محمد عبده بكير، (2018)، دور القنوات الفضائية الدينية في تشكيل معارف المراهقين السعوديين ومدركاتهم حول القضايا الدينية، المجلة العربية للبحوث والاتصال، العدد 20، مارس 2018م، ص 64 - 95، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: https://jkom.journals.ekb.eg/article_108489_pdf

30. محمود سمير المنير، (2000)، العولة وعالم بلا هوية، المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع.
31. مصطفى جمال بن طيفور، (2017)، الإعلام الجديد والهيمنة الثقافية الناعمة - دراسة تحليلية لواقع الهوية اللغوية والدينية عبر موقع التواصل الاجتماعي، مجلة الحوار الثقافي، مجلد 6، العدد 1 يونيو 2017م، ص ص 9 - 24، تم الاطلاع على هذه الدراسة على موقع: <https://search.emarefa.net/detail/-830347>.
32. موقع صحيفة الخليج، (2015)، الإعلام في الإسلام.. دعوة إلى الخير، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://www.alkhaleej.aeB1>
33. موقع مبعث للدراسات والاستشارات الاكاديمية، (2017)، المنهج الاستنباطي، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://mobt3ath.com/dets.php.page=465&title>
34. موقع وكالة الانباء الليبية، (2017)، اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان تبدي قلقها من تصاعد الكراهية والعنف والتشدد الفكري والتطرف الديني، تم الاطلاع على هذا المقال على موقع: <https://lana.gov.ly/post.php>
35. نجلاء إسماعيل احمد، (2018)، الإعلام الديني والتعددية الثقافية، الاردن: دار المعزز للنشر والتوزيع.
36. وكالة الانباء القرآنية الدولية، (2010)، إعفاء مذيع أمريكي بسبب تصريحات مسيئة للمسلمين، <https://iqna.ir/ar/news/2017575>
37. Arweck, E. & Nesbitt, E. (2010) Young People's Identity Formation in Mixed-Faith Families: Continuity or Discontinuity of Religious Traditions?, Journal of Contemporary Religion, 25:1, 67-87, DOI: 10.1080/13537900903416820.
38. Mohammed el-Nawawy and Sahar Khamis. (2010). Collective Identity in The Virtual Islamic Public Sphere, Contemporary Discourses in Two Islamic Websites, The International Communication Gazette, Vol. 72, <http://www.chatislamonline.org/chat>.

أدبيات تحفيظ القرآن الكريم في الزوايا الليبية " زوايا مدينة زليتن في القرن العشرين أمموذجا "

د. أبوبكر محمد سويسبي / الجامعة الأسمرية / كلية اللغة العربية

المقدمة

قبل البدء في عرض نقاط البحث وقضاياها البحثية تتوقف عند الدلالة المعرفية لمصطلح - الأدبيات- قصدا إلى تحديد المقصدية منه، وتعليلًا لاختياره في العنوان، والغايات التي يتغياها البحث من خلال هذا الاختيار بأبعاده الفلسفية والمنهجية، ونتائج التحليلية.

إن مصطلح الأدبيات هنا يقع في الإطار المعرفي الذي تحدده الدراسات العلمية المعنية بالإنتاج الفكري والدلالات المعرفية، التي تحمل في طياتها بعدا جامعا، ينطلق من الخواص المعرفية لتلك الموضوعات والفنون، ويتم إليها الاحتكام والاحتجاج لكونها مكونا أيديولوجيا استقر في أوساط المعرفة الإنسانية، لما يمكن من الاطلاع على جوانب محددة في بنيتها الأدبية والمنهجية، وما من شأنه السعي نحو التمثيل الأمثل والتصور الأبين للفكرة البحثية، فالمصطلح العلمي يضمن الاطلاع على النتائج المسبقة، ويحدد وجهة مسار الأفكار المستجدة، فيتمكن الباحث من مقارنة ملاحقة كافة الرؤى ذات الصلة بأجزاء الموضوع ومتعلقاته، لهذا كان تفعيل مصطلح الأدبيات بوصفه مجموع المبادئ الأساسية لموضوع تحفيظ القرآن الكريم في الزوايا الليبية، فهي -الأدبيات- الجانب النظري التراثي لمبادئ هذا المجال المعرفي، وهي الأطر العلمية والعملية والخبرات والإشكالات والتجارب الفاعلة في عملية تحفيظ القرآن الكريم في ليبيا.

هذه التجارب عبارة عن مسح للأساليب والنظريات ذات الصلة، بما يوفر رؤية عامة وواسعة على الرؤية الحالية القائمة الآن، ومن ثم تحليل ما حوته بشكل نقدي، فلا تكتفي الأدبيات بمجرد المسح وشمولية التلخيص بل تردفه بالتوليف والتحليل والتأويل النقدي، الذي يمنح التعليل لما هو قائم، ومدى فاعليته في بابه، فيصدر النظر عن رؤية واضحة عن حالة المعرفة حول الفكرة والموضوع.¹

ثم إن هذه الأدبيات تجاوزت قيمتها الكونية المدى الأخلاقي الذي تقف عنده

1 . ينظر: موقع - المنتديات- شبكة المعلومات العربية - مكتبك

الأدبيات الخاصة بممارسة نشاط حوارى أو مبنى أو تقى...، فهى تتعدى البعد الدلالى إلى الضابط المعيارى الجمعى للأمة، فتعدو الأدبيات مجموعة قواعد تفرض احترامها من قبل الجماعة،¹ وهذا الشأن هو المدرك فى جملة المبادئ والأسس المتعلقة بتحفيظ القرآن الكريم فى الزوايا الليبية، وهذا الوجوب الإلزامى مبعثه ليس عاملاً سلطوياً أو تشريعياً، بل فرضته فلسفة الفكرة العلمية المطروحة للبحث، واقترضه المنهج العلمى لتلك الفكرة، إنه يصدر من حاصل المقاربات والخبرات المشفوعة بالرغبة فى الإنجاز والتميز.

وأشير إلى أن الجانب التاريخى والتوثيقى لأدبيات الزوايا القرآنية فى ليبيا شأنه شأن الثقافة الليبية فى مجملها، التى لم تحظ بالدراسة المؤطرة لجوانبها وطبيعتها المنهجية والمعرفية، وهذا الشأن يواجه كل باحث فى موضوعات الزوايا الليبية، من حيث قلة المصادر التى يتم الانطلاق منها للعرض والتحليل، والسبب - فى تقديرى - طبيعة السلطة السياسية التى سيطرت على ليبيا فى حقبة الوجود الأجنبى، وخلق حالة من عدم الاستقرار السياسى والثقافى، والسعى لطمس الهوية الليبية، وطمس الحد الكافى من الوعى بقيمة الانتماء وضرورة الحفاظ على الموروث الحضارى، ومن هذا متعلقات زوايا التحفيظ.² لذلك فإن معظم ما يرد فى هذه الورقة البحثية من أدبيات هى نتاج تجربة شخصية مرت بها فى التحاقى بزوايا السبعة عام 1972. تلتها تجربة أخرى فى زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر عام 1982، مع معايشة لهذا السياق المعرفى مع المنتسبين لغيرهما من الزوايا الليبية، من خلال العلاقات والمواقف المتعلقة بحفظ وتحفيظ القرآن الكريم.

هذا ولتقديم هذه الورقة وعرضها اتبعت هذه الخطاطة البحثية للإحاطة بأطراف الموضوع، بيانها كالتالى:

المبحث الأول / الأنساق المنهجية لتمكين الحفظ لدى النشء

المطلب الأول/ المقاربات السمعية لبرامج الحفظ

المطلب الثانى/ المقاربات الشفهية والأداء الصوتى.

المبحث الثانى/ قواعد التربية الروحية وهىئة الهوية الليبية

1 . ينظر: موقع المنارة. للاستشارات. شبكة المعلومات العربية.

2 . ينظر: رأفت غنيمى الشيخ تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة.. دار التنمية للنشر والتوزيع. طرابلس.

1972. ص أ.

المطلب الأول/ مسالك النصح والترشيد.

المطلب الثاني/ خواص الهوية اللببية

المبحث الثالث/ متعلقات حفزية- الماهية والوظيفة-

المطلب الأول/ متعلقات ضبطية

المطلب الثاني/ متعلقات تقنية

المطلب الثالث/ متعلقات رمزية

الخاتمة: وهي لرصد جملة الملاحظات التي أثبت التاريخ نجاحها فغدت طابعا خاصا بالهوية الدينية اللببية، من حقه العرض والمناقشة والتأكيد على ترسيخه في مثل هذا المحفل العلمي.

المبحث الأول / الأنساق المنهجية لتمكين الحفظ لدى النشء

تأتي الأنساق المنهجية دالة على مجموع الطرائق والأساليب التي تم تفعيلها من قبل منتسبي ورواد الزوايا اللببية في تثبيت الحفظ القرآني في ذاكرة الناشئة، تثبيتا غدا سمة على تميز هذا الأداء الاستذكاري القوي أمام القرناء والنظراء، ومن جهة أخرى أسهم بفاعلية عالية في تجسيد وتقوية لحة الانتماء والمواطنة اللببية من خلال التأكيد على الهوية الدينية فيها.

فهذه الأنساق هي مخرجات التجربة والممارسة المستدامة لعملية التحفيظ التي شهدتها الزوايا اللببية، إذ لولا المنهج التجريبي لما تحولت هذه الأساليب والطرائق إلى أنساق متبعة ذات نتائج يقينية، ومخرجات علمية عالية الجودة، فطرق التدريس التي غدت أنساقا منهجية في الزوايا اللببية هي ما تؤكد المناهج العلمية الحديثة والمعاصرة في اختيار المسالك والمناهج التوصيلية في العملية التعليمية، "فهي المنهج الذي يسلكه المعلم لتوصيل ما جاء في المنهاج الدراسي من معارف ومعلومات ونشاطات في سهولة ويسر"¹، فالمعلم هو من يوجد النسق التعليمي الملائم لهذا الموقف أو ذلك، والنسق هو دلالة مكون تركيبي من أجزاء وعناصر تؤدي غاية واحدة من حصيلة تفاعل هذه الجزئيات مكونات النسق، إنه الاختيار المؤسس على الملاحظة الناجعة بين الأساليب والمناهج الملائمة لطبيعة وغاية الزوايا القرآنية وإن أنجح الطرق التعليمية تلك التي تتمكن من الإنجاز الفعلي للأهداف المرصودة من

1 . أفنان دروزة. النظرية في التدريس. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن. 2000. ص 176.

العملية التعليمية بجودة عالية، مع الربط بين النظري والعملي، وتفسير النتائج المتوصل إليها،¹ فطرق التدريس تشمل زوايا مثلث التعليم، وهي المدخلات المعرفية التي يقوم المعلم بإعدادها، ثم الخطوات العملية الإجرائية التي تراعي الطبيعة العلمية والأهداف التعليمية والاستراتيجيات المفعلة، ثم المخرجات وهي ما تعرف بحصول المتغيرات الإدراكية في المجال المعرفي والعاطفي والسلوكي لدى المتعلمين وهو ما يسمى بالتعلم، وفي هذا المقام هي تحصيل جودة الحفظ وتمكين النشء من هذا المدرك المعرفي، إذا هي "نظام متكامل من العلاقات والتفاعلات له مدخلاته وخطواته وعملياته ومخرجاته"².

المطلب الأول: المقاربات السمعية لبرامج الحفظ.

لحاسة السمع دور مهم في تحصيل المعلومات البيئية المحيطة بالفرد، وتحديد الأطر للموجودات والمفاهيم للمدركات، وتمثل القيمة الكبيرة لحاسة السمع في الاكتساب المعرفي والتغير الإدراكي نلاحظ اعتماد الطفل في أولى مراحل الإدراك على السمع، وهذا ما دلت عليه الصياغة اللفظية للنصوص القرآنية التي عاجلت حاسة السمع مع الحواس الأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾³ وقوله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾⁴، وعلى كل فالاهتمام بالمدرك السمعي من أهم المتطلبات الأساسية لعملية التعلم.

وفي ملاحظة التوظيف السمعي في الزوايا اللببية نرى أنه يتوافق مع المنجزات العلمية المعاصرة، المؤكدة على تقدم السمع على غيره من الحواس في العملية الإدراكية، فالزوايا اللببية أدركت بوضوح هذه القيمة، وتم تفعيلها في تحفيظ القرآن الكريم للنشئة تفعيلاً سمعياً متعددًا، فهناك إدراجات لحاسة السمع داخل عملية الحفظ تمثلت في الآتي:

1. السمع الأولي: فأولى بدايات التحفيظ لا يمكن أن تتعدى البرنامج السمعي من قبل المقرئ، فيستنطق الطفل -الذي يكون في الغالب قد تعدى السنة الخامسة - لمكونات اللفظ من حروف على اختلاف هيئاتها، وذلك من خلال عدة معالجات سمعية، بيانها كالتالي:

1 . ينظر: محسن عطية. الكافي في تدريس اللغة العربية. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن. 2006. ص 65.

2 . سهيلة محسن الفتلاوي. المدخل إلى التدريس. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن. ص 13.

3 . الإسراء. الآية: 36.

4 . النحل. من الآية: 78.

- المعالجة النطقية للحرف، وتسمى في أدبيات الزوايا- محل الدراسة- بـ "الألف المطلق"، وهو أن يسمع التلميذ من الشيخ - ويطلق عليه "الفتي"- نمط الصوت المنطوق المحدد لمكونات كل حرف من حروف الهجاء، فيتم تعيين البناء الصوتي لكل منها، نقلا سماعيا مجردا من أي ملحقات أخرى، وهذه المعالجة الصوتية هي أولى معالجات وحدة الحروف الهجائية، ولا تزال المعالجة النطقية قائمة مع التلميذ حتى يحفظها.

- المعالجة الصورية للحرف، فالحروف هي لها رسوم وصور خارج الذهن، تدرك هيئاتها من خلالها وتتمايز بها أشكالها عن بعضها، هذا النمط يكتسب سماعا من الشيخ وهي مرحلة تعقب مرحلة "الألف المطلق"، وتسمى في أدبيات الزوايا بـ "ألف لاشي عليه" أو "لا شأن عليه"، وتنطق بمد اللام المكسورة "ألف لاشي عليه" وبها يتم رسم كافة حروف الهجاء رسما لغويا، فتوضع لكل حرف لوحة ذهنية تحدد صورة الحرف ومشمولاته الشكلية في حفظ التلميذ، هذه المعالجة وسيلتها الإدراكية هي السمع، وغايتها الحفظ والتحصيل في المدرك المعرفي للتلميذ تحصيليا شديدا الوثوق والرسوخ، ولتحقيق ذلك نرى من أدبيات هذه المعالجة الابتداء بتخفيف التلميذ النطق الأحادي لمنطوقات أصوات الحروف، بأن يعرض التلميذ الحروف مفردة أولا، ثم يتطور حفظ المفردات إلى مزدوجات، ألف باء/ تاء ثاء/ جيم حاء/ خاء دال/ وتنطق أليف، بي/ تي ثي/ وهكذا، فيحفظها التلميذ على الطريقتين.

- المعالجة الإعرابية للحرف، وهي المرحلة التي يتحدد فيها كيفية منطوق حركة الإعراب للحروف، وتعد هذه المعالجة إضافة نوعية للمعالجة الأولى المجردة للحرف، فيتم - سماعا- إسقاط الحركات الإعرابية على مجموع حروف الهجاء إسقاطا نطقيا بعد سماع الإسقاط من المقرئ، فيضاف للحرف التي تم حفظها مجردة وحفظها مصورة حفظها مضافة إلى حركات الإعراب الأربع، ويبدو أن الزوايا اللببية عامة ومنها زوايا زليتن كانت على مذهب الكوفيين في استخدام المصطلحات النحوية، فيستعملون في تخفيف التشكل الصوتي للحرف إبان وقوع الحركة عليه مصطلح النصب وهو المرادف لمصطلح الفتح، ومصطلح الخفض في مقابل الكسر، ومصطلح الرفع في مقابل الضم ومصطلح الجزم في مقابل السكون، إضافة إلى أن الترتيب السائد للحروف الهجائية حتى سبعينيات القرن العشرين هو ترتيب المغاربة في تسلسل الحروف ورسمها أيضا .

2. السمع الإملائي الخاص: وهذا يكون في مرحلة إملاء الآيات ليكتب التلميذ لوحه، وقيدنا الإملاء بالخصوص لكونه موجها لتلميذ مخصوص، والسمع الإملائي عامة يقع ويتم فيما يسمى في أدبيات الزوايا بـ "الملة" بتفخيم الميم، وهي مرحلة تعقب المعالجات الحرفية، وتعقب معالجات أخرى كالرشم، وتسمى - الرشيمة - وهي الكتابة بمؤخرة القلم للتلميذ المبتدئ من أجل تمرين حركة يده على تعرجات الحروف ورسومها الخاصة بها، فيبدأ المبتدئ بالجر فوق الرشيمة مدكاً إياها بالصمغ، ولا تسمح أدبيات التحفيظ بأن يستقبل التلميذ أي كلمة إلا من خلال التلقي السمعي من الشيخ سماعاً مباشراً بلا واسطة، فتمنع كافة الوسائل النقلية الأخرى للكلمات منعاً مغلظاً، فالنقل البصري من المكتوب لا يسلم من التصحيف والتحريف، أما المنقول تواتراً سماعاً فيؤدي من الدقة الحفظ وسلامته ما لا يؤديه المكتوب، وبخاصة في مقام نطق صفات الحروف ومخارجها، لذلك فإن العلماء القدماء عابوا على الذين يحصلون علومهم من الكتاب مباشرة...، وفي ذلك يقول الشاعر:

العِلْمُ ليس ما حوى القِمَطْرُ لكن العِلْمُ ما حوى الصدرُ

ومنه أيضاً:

عَلِمِي معي حيثما يَمَّتْ يصحبي قلبي وعاءٌ له لا بطنَ صندوق
إن كنتُ في البيت كان العلم فيه معي أو كنتُ في السوق كان العلم في السوق¹

وذلك حرصاً على سلامة النقل للنص القرآني، نقلاً يتوافق بدقة مع خواصه النصية أولاً والنطقية ثانياً.

وفي تأكيد أساس النقل السمعي والتلقي عن شيخ، ومجانبة النقل البصري يقول أبو حيان الأندلسي:

يَظُنُّ العُمُرُ أن الكُتُبَ تهدي أخوا فهم لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها غوامضَ حيرت عقل الحليم
إذا رُمّت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم

1 . ملاحح التعليم في الزوايا والكتاتيب اللبية. عبد الحميد الهرامة. ضمن أعمال ندوة: الكتاتيب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999. ص 20.

وتلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من توما الحكيم¹

فلا مجال مع المشافهة لتعدد وجوه النطق، التي تبقى محتملة الحدوث مع الوسائل الأخرى، كوسيلة النقل البصري مثلا، وكذلك لعدم توفر وسائل النقل الأخرى على خاصية قوة التثبيت الذهني؛ لكون النقل السمعي هو محصلة تفاعل بين المرسل والمتلقي، من شأن هذا التفاعل العمل على الاستدكار الرصين لمروره بعمليات ذهنية متعددة لدى كل من الشيخ والتلميذ، فالشيخ له مرحلة التحضير والتهيؤ النطقي، تليها مرحلة النطق المشروط بالمجاهرة الظاهرة في الأداء، ثم مرحلة العود على مشتملات المنطوق الكلي بالتجزئة المقدرة من المرسل - الشيخ - لتلك المشتملات ومتعلقاتها الرسومية والنطقية...، وجميع هذه الخطوات الإملائية يتلقاها التلميذ سمعا.

أما التلميذ فتفاعله يتم من خلال التهيؤ الذهني للاستقبال، ثم من خلال وقع الأصوات على منصة الذاكرة ووقوع المؤثر في سطحها، ثم تكراره للمسموع تكرارا يوافق خصائص المنطوق من جميع الوجوه سوى مستوى درجة الصوت، وذلك لكون هذا التكرير يعد مبتدأ برنامج التحفيظ لدى التلميذ، فهو الوجود الأولي للملفوظ في ذهنه؛ لذلك كانت الأدبيات تقتضي أن يتم التردد للمسموع ترديدا تخفض درجة صوته عن صوت " الملة"، تحصيلا للمفارقة بين النمطين، وكأنه شيء من كسر للمسار المألوف الذي تمثله ملة الشيخ؛ لتتحقق المغايرة والمفاجأة، هذه المخالفة من شأنها أن تخت اللفظ في الذاكرة بقدر يفوق كثيرا ما يفعله التردد المماثل.

3. السمع الإملائي غير المخصوص، وهو ما يتم تحصيله وإدراكه إدراكا عارضا؛ وذلك من خلال تلقي وسماع نصوص موجهة لآخرين، فيوفر نظام " الملة" مزايا حفظية مقصودة وأخرى عارضة، حيث تحتم أدبيات التحفيظ أن تتم " الملة" في حلقة تجمع الشيخ بتلاميذه، تسمى " حلقة التكتيب"، وهذا النظام يمنح التلميذ فرصة السماع المتكرر والمتنوع للآيات القرآنية المتعددة، وحال التلميذ مع هذه المسموعات في الحلقة إما أن يكون قد سبق إدراكه لها، أو أنها تعد مسموعات مستجدة، فإن كانت الأولى فيغدو السماع الآتي سمعا آخر يضاف إلى المسموعات الأولى، ويكون هذا السماع عامل تثبيت وتقوية للمحفوظ،

1 . أبو حيان الأندلسي. ديوان أبو حيان. تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي. مطبعة العاني. بغداد. ط1. 1969. ص 202.

ومعاودة السمع لما تم سماعه تحصل بسماعه من الشيخ مرة بعد مرة، والسماع من الشيخ يمثل منتهى سبيل الحفظ، ففي كل مرة ترسيخ وتوثيق للحفظ، واطمئنان على سلامة المحفوظ، وإن كانت المسموعات مستجدة فهي بمثابة تهيئة مسبقة لما سيتم استقباله لاحقاً، وأنه اكتسب مراناً على ما ينتظره من نصوص ورسوم، وقد أدرك شيئاً من مكون حفظها ولو إدراكاً جزئياً، فحلقة "الملة" بمثابة عملية استذكار مستدام لمجموع ما حفظ، وهي عملية استباق لما سيلحق، وحال اعتبار كونها استذكراً للمحفوظ فإنها تتمثل المحفوظ بعناصره الثلاثة، فهو استذكار لحفظ النص، وحفظ الرسم، وحفظ الصوت.

المطلب الثاني/ المقاربات الشفهية والأداء الصوتي.

تتضمن أدبيات التحفيظ جملة من المقاربات الشفهية التي تسعى لتحصيل حفظ مكين رصين، من خلال الجمع بين توالي النطق للمسموعات التي تحولت الآن إلى منطوقات، وبين الجانب الأدائي والأفعال الإجرائية الصوتية لتلك المنطوقات، فتمثلت مكونات هذه المقاربات التي تشمل كل أنماط التلفظ بالنصوص القرآنية من قبل التلميذ، في مختلف المقامات، وتعد المشافهة مبدأً فاعلاً في العملية الإدراكية المعرفية، "إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعلماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً"¹، فهناك جملة من المقامات التي تتحدد في كونها تصدر عن الطالب، وإن كانت تباين في أغراضها ووظيفتها، وهي كالاتي:

- مقامات تهجي الحروف

وهو الذي عرضناه في أنماط السمع الثلاثة، فهذه أول مقامات النطق والتهجي للتلميذ، فلم يسبق له أن قارب شيئاً من متعلقات الحفظ مقارنة شفوية، وهذه المقامات لا تخضع لعامل السن، بل لعامل التحصيل المعرفي، فتجد في هذه الحلقة مختلف الأعمار ممن يتفوقون جميعاً في مدى المحصل المعرفي لديهم، ولا يمارسون أي مشافهة أخرى إلا بعد إنجاز مشافهة هذه المقامات الثلاثة.

- مقام قراءة اللوح، تعد هذه الخطوة من أهم الخطوات التحفيزية؛ لكونها القاعدة المؤسسة لنتائج الحفظ لدى الطالب، وبقدر وضوحها وصحة مشافهتها وسلامة أدائها يكون

1 . عبد الرحمن بن خلدون. مقدمة ابن خلدون. دار الكتاب العربي. بيروت د.ت. ص 170.

الحفظ المكين المشفوع بصحة الأداء، ولا تتم هذه المقاربة النطقية إلا بعد فحص اللوح- وهو المقدار الذي يكتب كل يوم من الآيات- يسمى هذا المقدار في أدبيات التحفيظ بـ" اللوح"، وينسب إطلاقه للطالب، فيقال: هات لوحك..، وصححت لوحك..، واعرض لوحك..، وهكذا، فبعد فحص اللوح ومراجعته من قبل الشيخ، وتسمى هذه المراجعة في أدبيات الزوايا بـ" التصحيح"، وتمنع قراءة اللوح قبل التصحيح منعا مغلظا، ومن أدبيات الزوايا اللبية عامة أنها لم تستعمل القراطيس والورق في التحفيظ، بل اقتصر على الألواح، وذلك راجع في تقديري لأمرين:

أن الكتابة في اللوح تمنح الطالب مجالا أوسع من التعايش والملاصقة الذهنية والحسية مع النص المكتوب، فهناك مجموعة من المباشرات الإجرائية التي لا تتوفر إلا في استعمال اللوح، بدءا من مباشرة كتابتها بعد التلقي، ثم مباشرة الشيخ لتصحيحها والتأكد من سلامة النص والرسم، ثم مباشرة قراءتها على الشيخ عقب التصحيح، ثم مباشرة الانفراد بترديدها عديد المرات لتحقيق الحفظ، ثم عرضها للتأكد من سلامة الحفظ، ثم محوها من اللوح، مجموع هذا المباشرات والإجراءات مهم وفاعل في تحصيل الحفظ المكين.

هناك علاقة تاريخية وارتباط وجودي بين اللوح وحفظ الكتب السماوية، فقد كان اللوح حرزا حافظا لها، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾¹، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾²، وقال أيضا: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾³.

- مقام تشويط اللوح، ويعني تكرير قراءة "اللوح" مرات عديدة، طلبا لتحقيق الرسوخ والوثوق في الذهن، ومنعا للتفوت، والتشويط له متعلق بصوري، ومتعلق تأطيري، ومتعلق مكاني، ومتعلق زماني، فمن حيث التعلق الصوري يجب أن يتصف "التشويط" بالتتابع والموالاتة بين أشواطه بلا فاصل يسير، وجرت أدبيات التشويط أن تبلغ صورة عدده إلى العشرات والمائة وما قاربها، إذ ليس الغرض من التشويط حصول الحفظ وتحققه فحسب، بل المراد منه تحصيل الوثوق وعدم التفوت مع الزمن، إذ الحفظ قد يحصل بمجرد تكريره مرات معدودة، ولكن يبقى مدى صموده مع الزمن محل العناية، من هنا ظهر مصطلح

1 . البروج. الآية: 22.

2 . الأعراف. الآية: 154.

3 . الأعراف. من الآية: 145

"التشويط" في أدبيات التحفيظ بما يحمل من دلالة التوالي دون فصل ولو يسيرا، ويستعان على التأكد من حصول الكم الهائل للتكرير من خلال رسم شرطة على اللوح عقب كل شوط، اطمئنانا على حصول الكم المطمئن للوثوق والرسوخ.

أما المتعلق التأتيري، فهو يعني بالمستهدف من تشويط اللوح، أي الإطار والمجال الذي تتم فيه حركة التشويط، إن عملية التشويط بأشواطها المتعددة هي عملية تشويط واحدة، هذه العملية الواحدة تستهدف وجها واحدا من وجهي اللوح، وهذا الوجه المستهدف هو الوجه المكتوب أولا منهما، ويسمى في الأدبيات بـ "القديم" والوجه الذي كُتب لاحقا يسمى بـ "الجديد" فالوجه الواحد مؤسس على التقسيم المحدد للطلاب من قبل الشيخ، من تقسيمات الحزب، وهي: خروبة، ثمن، ربع.

أما المتعلق المكاني للتشويط فليست كل الأمكنة صالحة للتشويط، فأماكن الصدارة في الزاوية، وما جاور محل جلوس الشيخ، وما كان واقعا في دائرة حركة الطلاب، كل هذه لا تعد أماكن مناسبة لتحصيل تشويط الجيد ومستوفي الإفادة، فهو يشبه عملية اختلاء بالذاكرة وتفريغها من كل المشغلات عن عملية التثبيت، وعلى الطالب ألا يعرضها لما قد يذهب بصفائها، وعليه تفريغها، فيختار أطراف المكان، بعدا عن المشغلات الذهنية؛ لكونها أدعى لتمكين الحفظ.

أما المتعلق الزماني فإن أدبيات الزوايا حددت ثلاثة أزمنة للتشويط خاصة، عند الفجر، وقد يسبق التشويط الفجر، وهي فترة زمنية بها من الصفاء المطلوب للحفظ القدر الوافي، ناهيك عن بركة البكور وفضله، وبعد الظهر، وأخرى عقب العشاء، هذه المتعلقة الزمنية ليست خالصة لتشويط اللوح، بل بها أعمال وأدبيات حفظية أخرى، ولتشويط اللوح أيضا نصيب منها، وتسمى أزمنة التشويط هذه في الأدبيات بإفطار اللوح، وغدائه، وعشائه، توصيفا لضرورتها وحاجة الحفظ القوي إليها، قياسا على احتياج الإنسان الفاعل في الحياة لمواعيد القوت اليومي.

مقام الاختبار والتقييم

تضم أدبيات التقييم جملة من الاختبارات التي تأخذ نمطا تصاعديا في التنقل من البسيط إلى المركب، تبتدئ هذه التقييمات من أول اختبار للحفظ - بعد اختبار الحروف بهياتها الثلاث - وهي كما يلي:

- استظهار اللوح، وتسمى - عريضة اللوح - ويكون الاستظهار لجهة القديم كما ذكرنا، وهذا يقع عادة مع شروق الشمس من كل صباح، فإن اجتاز الطالب الاختبار أمره الشيخ بمحو لوحه، وإن لم يتمكن بقي لليوم التالي، وتطلق على هذه الحالة - التسبيخ - ويناله من اللوم والعتاب ما يكون حاثا على البذل وعدم معاودة الحدث مرة أخرى.

- استظهار المحايّات، بعد عريضة اللوح يكون شأن الطالب كل يوم بين أمرين، إما أن ينصرف للمحايّة - مكان محو اللوح بالماء وطلية بالطين لطمس المكتوب ولتنعيم اللوح استعدادا للكتابة عليه - وإما أن يمسك الطالب من قبل الشيخ، وتوجه إليه عدة أثمان عشوائيا من آخر ما محاه في الأسابيع الثلاثة الأخيرة تقريبا، حتى يطمئن الشيخ على جدية الطالب ومتابعته لمحياته، فهي أساس الحفظ، فإن سلمت من الضعف كان الحفظ المكين مؤكدا بإذن الله تعالى، والمحايات مقدار ثابت من الأحزاب لا تتعدى الحزبين أو ثلاثة، وما زاد عليها يتحول إلى السور المستهدفة مراجعتها في زمن التلاوة الدوري.

- الاستظهار الدوري، ويتم بعرض مجمل الحفظ على الشيخ عرضا متتاليا، في كل يوم يسمع أحزابا محددة، وتسمى هذه العملية الاستظهارية - التتبع -، ويقع في فترة المراجعة اليومية - التلاوة - وهي ما بين المغرب والعشاء، وأيضا في ليلة التعيم، ويأخذ التتبع أكثر من طريقة، فهناك الأداء الفردي وهو الذي يختار فيه الشيخ طالبا محمدا يتولى التتبع لمجموع حفظه خلال أيام عدة، فإذا انتهى منه اختار غيره، وأحيانا يختار مجموعة من الطلاب كل منهم يعرض جزءا محمدا من حفظه ثم الذي يليه، وهذه الطريقة أيسر على الطالب لمحدودية المقدار المطلوب منه كل يوم، وتؤدي هذه العملية في هيئة الدوران في بيت الصلاة أو صحن الزاوية، حيث يدور الشيخ معهم زاجرا لمن تقاعس، ومنبهاً ومنشطاً لأدائهم، وفي هذا التحول من الجزء في المحايات إلى الكل موافق لما تمت الإشارة إليه في المصنفات المتعلقة بكيفية تحقق التحصيل المعرفي لدى الطالب، فقبول العلم عموما ومنه تحصيل الحفظ ينشأ تدريجيا، ويكون هذا الشأن أول الأمر عصيا عن الإدراك بالجملة، ثم لا يزال استعداده يتدرج قليلا قليلا في تحصيل فروع المعارف والانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل¹.

1 . ينظر: مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. ص 533.

- التعميمة، وموعدها ليلة الخميس، أي يوم الأربعاء من كل أسبوع من بعد العشاء وحتى ثلثي الليل وزيادة، وتقابلها في الزمن ما يعرف بـ السَّروة-، وهي الاستيقاظ قبل الفجر لمراجعة واستذكار السور، فأحياناً يقوم الشيخ بهذه المهمة، وأحياناً يوزعها بالتناوب على الطلبة، كلُّ له يوم يستعد فيه للقيام بذلك، هذا وتمثل -التعميمة- استظهاراً لمجمل الحفظ في جلسة واحدة، ويصل مقدار المتلوِّ فيها إلى ثلث ونصف القرآن الكريم، وتبتدئ في هيئة دوران الطلاب كالتلاوة اليومية، وبعد استطالة الزمن وحصول الإعياء يجلس الطلاب بإشارة من الشيخ، ومما يحصل في - التعميمة- حلقة الاختبار والمنافسة والتحدي، وتنطق - الحلقة- وهنا يسكت الشيخ الطلبة، ويتم السكوت بقول الشيخ لكلمة "أس" باستطالة وتمطيط السين، وبهذه الكلمة هي إشارة للسكوت في كل المواضع سواء كما الحال هنا، أو لدى الانصراف ويسمى "التسريحة" أو غير ذلك، فيتم اختيار ما دق وتشابه من الأثمان والآيات، ويتصدر الشيخ الحلقة ويبدأ في اختيار من يشك في حفظه، كي ويلام الطالب إذا لم يتقن المطلوب منه، ويُخرج أمام زملائه، فيكون هذا رادعاً لعدم تكراره، يبذل مزيد من الجهد لاحقاً، ثم في الحلقة ما يسمى - التمشيش- وهي عملية تعمية وإبهام لما خفي نظمه وتشابه مع سواه، وفيها يتنافس الطلاب لإظهار قدراتهم الحفظية، فن تجاوز هذه الأحاجي والمضايق اللفظية ارتفع قدره أمام كل المنتسبين للزاوية وطارت بخبره الركب، ومن كان غير ذلك تعهد حفظه بتكثيف المراجعة لعدم تكرار الحدث معه في التعميمة القادمة.

المبحث الثاني: قواعد التربية الروحية ومظاهر الهوية الليبية

المطلب الأول: مسالك النصح والترشيد.

لم يكن الشيخ في الزاوية مقصوداً دوره على تحفيظ سور القرآن الكريم، وأن يقضي معهم فترة زمنية تماثل المحاضرة العلمية ثم ينصرف عنهم، غير مبال بما يصدر عنهم من سلوكيات وممارسات، بل كان له دور يضاها التحفيظ وزيادة، وهو العناية بالتربية الذاتية، وصقل مجامع الروح بالحاسن من القول والفعل، وتبصير الطلاب بما ينبغي وما لا ينبغي من السلوك والخلق، ولكثرة أنماط هذه المسالك أسوق مجموعة من الأمثلة الدالة على ما تم عرضه في الشواهد التالية:

مثال: التنظيم والتهديب

فمثلا في حال -الملة- تحدد دائرة الملة- حلقة الملة- اتساعا وضيقا وفق رسم هندسي ملائم للعدد المملى عليهم، ثم مراعاة التراتبية في أخذ الملة، فلا يصح أن تأخذ الملة مرتين وآخر ينتظر، ثم وضع اللوح في الحجر بشكل يلائم قدسية القرآن الكريم، ثم تحديد أركان من الحلقة لكل فئة من الطلاب، فالمبتدئون لهم ركنهم الأقرب إلى الشيخ، يليهم الأواسط، وهم من تجاوزوا المبتدئين وانخرطوا في المتقدمين، ثم المتقدمون، وكثير من هؤلاء لا يحتاج للملة إلا حال الاستغلاق عليه، فهو يكتب عن ظهر قلب، ويعبرون عن هذا -يكتب من راسه- إضافة إلى موضع الدواة من اللوح، وكيفية اجتماع الأصابع على القلم بصورة صحيحة، ففي هذا تمرين على التنظيم في الحياة عموما.

مثال: الجانب التعبدي

فمثلا: أداء الصلاة لوقتها، لم يكن الشيخ يكتفي بالبيان القولي لفرضية الصلاة ووجوب أدائها في وقتها، بل كان يأتي للخلاوي قبل الفجر ليوظ الطلبة مناديا على كل منهم باسمه، استعدادا لاستقبال يوم من أيام الحفظ، فهذا دور مواز للتحفيظ، يقوم به الشيخ، شعورا منه بفاعلية هذه الخصلة المحمودة، وأثرها الفاعل في تحقق الحفظ الجيد والأتم.

مثال: روحانية الأقوال والأفعال

كانت أقوال الطالب محر اعتناء الشيخ، توجيهها وتصويبها، وفق التأسي والاقْتداء بأخيار الأمة وسلفها الصالح، فكثيرا ما يتم تصحيح جهة القول أو الفعل للطلاب، وتذكيرهم بالقصص التي حوت أحوالا من الجلد والصبر، وصورا لآتهام النفس بالتقصير، وصورا لصفاء السريرة وإخلاص العمل لله تعالى، والحذر من العجب والكبر والبطر، والتنبيه على مآلاتها السيئة، فكانت حركات الطلاب ترصد من الشيخ وتوجه الاتجاه الروحي السليم القائم على الإخلاص واستحضار عظمة الله والتسليم له سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: مظاهر الهوية الليبية

تبقى الهوية الليبية بمشتملاتها الشكلية المتعددة موجودة في منتسبي زوايا التحفيظ، ويمكننا ملاحقة هذه المظاهر والوقوف على أنماطها من خلال التقسيمات التالية:

ملح القراءة والرواية، تعد قراءة الإمام نافع المدني برواية الإمام قالون ورسم الداني

هي المفعلة والمختارة في جميع زوايا مدينة زليتن، وهذا الاختيار تابع للوجود المكاني والجغرافي، فالمغرب العربي يقرءون على الإمام نافع وإن اختلفت الرواية من قالون إلى ورش في كل قطر منها، وأصل هذا الاختيار المكاني تابع لسيادة المذهب المالكي في أقطار المغرب العربي، والإمام مالك حفظ القرآن على نافع المدني، فكان يقرأ بقراءته، ويرى أن نافعاً هو إمام الناس في القراءة¹، وتمت الإشادة والتميز بقراءة الإمام نافع فقراءته امتازت باعتبارها سنة من السنن الشرعية، قال ابن الجزري: "قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم"² وكما هو الحال لدى الإمام مالك في تجليل قراءة الإمام نافع نرى ذلك لدى تلاميذه، ينقل عن ابن سخون فيما يجب أن يلتزم به المعلمون والمحفظون قوله: "ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة، وهي قراءة نافع"³

ملح الزي والمقتنيات، التزم منتسبو الزوايا باللباس الليبي التقليدي الموروث عن أسلافهم، فكانت الزوايا لا تعرف سوى هذا الزي على من يترددون عليها، وهو الثوب الليبي الذي يعد شارة على الهوية الليبية، وأكثر ما يتم التأكيد عليه هو غطاء الرأس، بل يتقدم العمر لدى الصبيان لا يكتفون بلبس القرمز - الشنة - أو الطاقية - المعرقة - وقبلها - طاقية الرفاية - بل لا بد من تغطية الرأس - بطرف الجرد، أو العباة - ويعدون سقوط الطرف عن الرأس أمراً يُخل بالمروءة والحياء، فلم تبههم ما أخذ في الانتشار مع حقبة الحملات الصليبية على ليبيا وما جاورها من شمال أفريقيا من ملبوسات الغرب الدخيلة، هذه القداسة المكانية تعدت المكان لتلازم منتسبي الزوايا في كل تنقلاتهم وأحوالهم، فقد تجد في المجتمع من استهوته تلك الملبوسات الدخيلة، ولكنه من غير رواد الزوايا، فهذا الاعتزاز بالهوية الليبية تم اقترانه بتقديس الزوايا من أن ينال من حرمتها وتقديرها أي متعلق دخيل، أو أن يتعلق بأحد طلابها ومشائخها متعلق يمت لسوى الهوية الليبية، سواء من الزي أو من المقتنيات، فلم تعرف الزوايا في الطعام سوى القوت المحلي، وفي الأثاث والمقتنيات سوى المصنوعات المحلية من سعفيات ونفاريات وصخريات...

ملح الإباء والقداء، هذه الزوايا بأديباتها التحفيضية للقرآن الكريم لم تقف مكتوفة

1 . ينظر: على أبوراس. لمحات عن الكتايب القرآنية في مدينة بني وليد. ضمن أعمال ندوة: الكتايب والزوايا وأعلام

تحفيظ القرآن الكريم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999. ص 158.

2 . محمد بن الجزري. غاية النهاية في طبقات القراء... القاهرة. ط 1. 1351 هـ ص 158.

3 . محمد بن سخون. كتاب آداب المعلمين. تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتب الشارقة. تونس. 1972. ص

الأيدي لدى تطاول المتطاولين واعتداء المعتدين، بل تحولت بأدبياتها التحفيزية للنص القرآني، وبمنتسبها شيوخا وطلابا ومريدين إلى رباطات وخطوط مواجهة ورفض لألوان البغي والعدوان، وهذا الملمح هو في الحقيقة ملمح للهوية الليبية، التي يحفل تاريخها بسجل مشرف للدفاع ومواجهة أعتى القوات غير المتكافئة في التجهيز والعتاد، مع أسوأ ظروف العيش، ومع هذا لم يثنهم كل هذا العوز عن فداء الوطن بأرواحهم التي لم يكونوا يملكون غيرها في الدفاع عن هوية وطنهم.

المبحث الثالث: متعلقات حَفْظِيَّة- الماهية والوظيفة-

نشير هنا إلى ما يعد من المواد الساندة لعملية التحفيز، سواء ما تعلق بالنص القرآني مباشرة، أو ما تعلق بالوسائل المباشرة والمساندة لعملية التحفيز، أو ما كانت رموزا تحمل دلالات وانتماءات تربوية أو اجتماعية أو فكرية، وقيمتها وقيمة عرضها تكمن في كون مجموع هذه اللزوميات أسهمت بشكل أو بآخر في رسم الهوية الدينية للمجتمع الليبي عموما، وفي تحقيق خاصية الحفظ لدى النشء في الإطار الخاص، وتبعا لطبيعة تلك المتعلقات ووظيفتها المنهجية تم توزيعها في المطلبين الآتيين:

1- متعلقات ضبطية، وهي تلك الفنون والضوابط العاملة على تمكين عملية الحفظ، من خلال محاصرة مواطن التشابه والإشكال الحفظي في منظومات لغوية وأصباح ورسومات ورققيات، تعمل جميعها على ضبط التداخل والتشابه بين الآيات المتحددة في الموضوع، والمتباينة صياغة أو إعرابا أو رسما، وقد شاعت عدة منظومات ضبطية، منها:

- منظومة محمد بن إبراهيم الدنفاسي، وموضوعها التشابه اللفظي وتمليز حركات الإعراب في القرآن الكريم، والتباين في رسم الكلمات وأنواع الألفات والمدود، وقد طبعت المنظومة على الآلة الكاتبة من قبل إدارة المعهد الأسمرى الديني سنة 1983م¹، وهي بسيطة النظم ولا تخلو من ألفاظ عامية، وتشير الأبحاث العلمية أن كلمة -الدنفاسي- تعني ابن الفاسي، فلفظ-دن- يعني-ابن- باللغة الهاوسية، مما يدل

1 . ينظر: علي أوبراس. لمحات عن الكاتيب القرآنية في مدينة بني وليد.. ضمن أعمال ندوة: الكاتيب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999. ص 162.

على أصوله المغربية.¹

- منظومة الألف المخصص، وهي مجهولة المؤلف تتداول في الزوايا التي تعتمد رسم الداني، ومنها زوايا زليتن، وموضوعها حصر ألف المخصص في القرآن الكريم، وهي الألف المحذوفة التي خصها أبو عمرو الداني بعلامة الخاء المقلوبة، " وقد رحمت اللجنة التي شكلت لمراجعة مصحف الجماهيرية أن شكل المخصص من وضع ليبي صميم"²
- منظومة اللؤلؤ المنظوم في رسم المخصص المعلوم، للشيخ محمد الهادي انديشة، حصر فيها الألف المحذوفة المرسومة بالمخصص، وهي مطبوعة ملحقه بديوانه.³
- التنزيل، وهو مصطلح ضبطي يعتمد الأرقام الحسائية ووضعها على ما تماثل في الرسم القرآني، من جمع أو فصل وغير ذلك من أديبات الرسم، أو في حركات الإعراب، أو في البناء اللفظي أو البناء الصرفي، فيتم تنزيل الرقم الجامع للمتماثل من ذلك، ويسمى - الأخوات- أي أخوات تلك الكلمة المماثلة لها في منحى من المناحي المذكورة، وفي حال التفرد وعدم وجود النظير للمفردة يرسم حرف الغين- غ- على اللفظة أو الهيئة غير المتكررة في القرآن الكريم كله، وتسمى - الغريات-
- متعلقات رمزية، وهو جملة من الأحداث تحمل في طياتها دلالات ورموز انتمائية للمكان، وأخرى تربوية واجتماعية وسلوكية، منها:
- رمي اللوح، وهو مصطلح يتعلق باللوح الذي رافق صاحبه السنين الطويلة، وكانت العلاقة بينهما علاقة تحذٍ ومغالبة، فلا يزال اللوح يمثل خط التحدي للطالب، لكونه مطالباً بمغالبته والتمكن من مضمونه تمكن الجاد الصبور على استعصائه على الانقياد للذهن إلا بعد جلدٍ وأناة وصبر وعزم لا يلين، فبعد الختمة الأولى للقرآن وتسمى - الشقة- وهي المبدوءة بالفاتحة ثم الناس فصعوداً حتى البقرة، ثم الختمة الأولى وهي التي تلي الشقة، وتسمى - أخت الشقة- وتختلف في مبتدئها عن الشقة، حيث تبدأ من الفاتحة بالبقرة إلى الناس، - وتليها الختمة الثانية فالثالثة...، وتسمى كل منها- قلم- بالقاف العامية، قلم ثاني، قلم ثالث...

1 . المصدر نفسه.

2 . المصدر نفسه. ص 164.

3 . ينظر: محمد الهادي انديشة . ديوان ينبوع الجمال.. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس. ط1. 1981.

فمصطلح الرمي يشير لما كانت عليه العلاقة بين الطالب واللوح، علاق مؤسسة على البذل اللامتناهي، والمجاهدة النفسية المدعومة بالأناة والمصابرة، فمن أجل تمثُّل أمثل لهذه الدلالات ومدى المكابدة بين الطالب واللوح تم التعبير بهذا المصطلح، إشارة إلى نيل الطالب حاجته من اللوح، وهو الحفظ الراضح، بعد أن أدى دوره بجلد فأنجز فرمى اللوح، رمى استيفاءً لبغيته منه، وهو الحفظ الأكمل، فحركة الرمي انعكاس لحصول الصورة المثلى من الحفظ، وتحقيقها تحقق اليقين الثابت في الطالب، فلم تعد به حاجة للوح مطلقاً، اعتماداً على مقدار البذل السابق، والعكس صحيح فعدم حصول الصورة المثلى للحفظ لا يستقيم معها رمي اللوح.

- الأربعاء، وهي قيمة مالية بسيطة جداً، أو عوض عرضي من طعام، وشاع أن اقتصر في زوايا زليتن على -بيضة- وتنطق -لربحاً-، يعطيها الطالب للشيخ يوم الأربعاء من كل أسبوع، يتسوق بها يوم الخميس، وهو يوم عطلة الأسبوع، هذه رمزية تربوية تكافلية لمن أوقف حياته على تحفيظ الصبيان كتاب الله تعالى، من شأنها أن تنمي في النشء روح البذل وتفقد من حولهم، وبالأخص من قدم عملاً نفعياً ليس للفرد فقط بل للأمة بأسرها، ثم إنها لم تحدد بقيمة دفعا للخرج، بل بقيت مطلقة غير مقيدة صونا لنفوس المعوزين والفقراء من الامتهان والابتذال، فالمزية فيها تتمثل في الحفاظ على حبل الكرامة والمروءة قائماً في المجتمع، وهذا حاصل من عدم تحديد القيمة، وعدم اللجاجة في المطالبة.

- الزردة، وزمنها بعد رمي اللوح، وهي حفل بتخرُّج حافظ جديد، يكون عادة بإعداد وليمة وذبح المتيسر من الماشية، وتقدم للشيخ والطلاب والمنتسبين للزواية جميعاً، وبهذه المناسبة يمنح الطلبة عطلة لمدة يوم أو يومين، يختم الحفل بالدعاء للطلاب بالثبات والتوفيق، وهناك الأهازيج والأناشيد التي نطلق استبشاراً بقرب هذا الحفل، فعند بلوغ الطالب نهايات الأحزاب من سورة آل عمران والبقرة يبدأ الطلبة في إنشاد تلك المقطوعات الشعرية حثاً لأسرة الطالب للاستعداد للحفل، فيقولون لدى وصول الطالب ثمن " لتبلون":

-لتبلون.. وتي الزردة يا حنه- وأيضا: في ثمن "سارعوا": -سارعوا.. وتو الكبش الدارعو- هذا وترمز الزردة إلى إذكاء روح التنافس والإقبال على الزوايا وتعزيز علاقة المنتسبين بالزوايا حاضنة القرآن الكريم، وقطع الطريق على المتربصين

والساعين للاستمالة النشء وصرف وجهتهم عنها، فالسياق الزمني آنذاك تظهر فيه محاولات الإغراء والصرف إلى المدارس الغربية المستحدثة بمناهجها المغيرة.

فكانت الزردة بذلا سخيا لتأليف قلوب الناشئة، وغرس أسس المحبة لكتابهم وقرآنهم، من خلال الابتهاج بمن يوفق لحفظه عن ظهر قلب، فليس الأمر واقفا عند تحصيل النفع الحسي من هذه الوليمة، وما حوت من طيب الطعام، بل في رمزيتها إلى تفعيل الهمة الذاتية والوازع الأدبي نحو الانتماء والعقيدة، وشخذ العزيمة لدى النشء ودفعهم للمساهمة في الذود عن انتمائهم لهويتهم بما يلائم اختصاصهم، وهو إنجاز الصورة المثلى في تحفيظ القرآن الكريم.

الخلاصة:

تم رصد مجموعة من النتائج والملاحظات، أقدمها في هذا المؤتمر لعل الانتباه لفاعليتها المتقدمة يحث القائمين على هذا المجال بملازمتها والاعتكاف عليها، لنجاعة نتائجها، وهذا سرد لأهمها:

- كانت الأنساق المنهجية التي تم تفعيلها من قبل منتسبي ورواد الزوايا اللبية في تثبيت الحفظ القرآني أدبيات خاصة، حين غدت سمة على تميز هذا الأداء الاستذكاري القوي أمام القرناء والنظراء في العالم، ومن جهة أخرى فإن هذه الأدبيات أسهمت بفاعلية عالية في تجسيد وتقوية لحة الهوية الدينية أولا، والمواطنة اللبية ثانيا.
- العناية بالتوظيف السمعي في الزوايا اللبية يتوافق مع المنجزات العلمية المعاصرة، المؤكدة على تقدم السمع على غيره من الحواس في العملية الإدراكية، والزوايا اللبية قد أدركت هذه القيمة وتم تفعيلها في تحفيظ القرآن الكريم للناشئة، تفعيلا سمعيا متعددًا، فهناك إدراجات متعددة المراحل، مثلت في مجموعها قاعدة حفظية مهمة.
- لا تسمح أدبيات التحفيظ في الزوايا اللبية بأن يستقبل الطالب المنجز الحفظي إلا من خلال التلقي السمعي المباشر، فتمنع كافة الوسائل النقلية الأخرى للكلمات منعا مغلظا.
- المقامات الأدائية على اختلاف أنماطها السمعية والنطقية، الأولية منها والمتقدمة، جميعها لا تؤسس وفق عامل السن، بل وفق عامل التحصيل

المعرفي، فتجد في هذه الحلقة مختلف الأعمار ممن يتفوقون جميعا في مدى المحصل المعرفي لديهم، ولا يمارسون أي مقارنة حفظية أخرى إلا بعد إنجاز التي هم فيها.

- إن مجموع قواعد التربية الروحية وملاحم الهوية الليبية التي تم رصدها تم تأويل الدور الذي تنجزه وتضطلع به في المحافظة على الانتماء الوطني وترسيخ الهوية الدينية الليبية.
- تم رصد وتأويل جملة من المتعلقات ذات الصلة على أنحاء متنوعة بعملية التحفيظ، وتبين أن هذه المتعلقات لا يتوقف دورها ووظيفتها على المظهر السطحي لها، بل إنها تحمل في طياتها ما يمنح الهوية الدينية الليبية عمقا في تأصيلها لدى الذات المتلقية.

المصادر والمراجع

- * القرآن الكريم. رواية الإمام قالون عن الإمام نافع المدني.
- أبو حيان الأندلسي ديوان أبو حيان. تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي. مطبعة العاني. بغداد. ط 1. 1969.
- أفنان دروزة. النظرية في التدريس. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن. 2000.
- رأفت غنيمي الشيخ تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة. دار التنمية للنشر والتوزيع. طرابلس. 1972.
- سهيلة محسن الفتلاوي. المدخل إلى التدريس. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن.
- ملاحم التعليم في الزوايا والكتاتيب الليبية. عبد الحميد الهرامة. ضمن أعمال ندوة: الكتاتيب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999.
- عبد الرحمن بن خلدون. مقدمة ابن خلدون. دار الكتاب العربي. بيروت د ت.
- على أبوراس. لمحات عن الكتاتيب القرآنية في مدينة بني وليد. ضمن أعمال ندوة: الكتاتيب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999.

- محسن عطية. الكافي في تدريس اللغة العربية. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان الأردن. 2006.
- محمد بن الجزري. غاية النهاية في طبقات القراء. القاهرة. ط 1. 1351 هـ.
- محمد بن سحنون. كتاب آداب المعلمين. تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتب الشرقية. تونس. 1972.
- محمد الهادي انديشة. ديوان ينبوع الجمال. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس. ط 1. 1981.

جهود علماء زليتن في خدمة المذهب المالكي

د. محمد شعبان مفتاح الوليد/الجامعة الأسمرية الإسلامية.

مقدمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا ونبينا محمد القائل (العلماء ورثة الأنبياء) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، قال الله تعالى (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)¹.

وبعد: فإن دور علماء بلادنا وبخاصة في القرنين الأخيرين دور كبير في المحافظة على الدين الإسلامي ونشره والدفاع عنه من خلال تخصصاتهم في علوم الشريعة على المذهب المالكي، وهو حفاظ على هوية هذا المجتمع وموروثه الثقافي، في سماحة ووسطية، وقيامهم بتعليم الناس هذا الموروث هو جهاد في سبيل العلم الذي تبني به الشعوب والأمم، وإن جهود علماء بلادنا في نشر العلم وخدمته قديما وحديثا لا تخفى على أحد، رغم الظروف التي مرت بها البلاد عبر تاريخها المليء بالتقلبات غالبا.

وفي هذا البحث سأحدث عن الجهود القديمة والحديثة لبعض العلماء من منطقة زليتن خلال المائتي سنة، والتي تكاد تكون خافية عن الكثير من الناس، حيث تشتهر منطقة زليتن بكثرة العلماء والمفتين وحفظ القرآن الكريم، والقضاة، قديما وحديثا، وذلك لعدة أسباب منها وجود عدد من زوايا ومنارات العلم والقرآن، مثل منارة الشيخ عبد السلام الأسمر، ومنارة المشايخ الستة، ومنارة الشيخ أحمد الباز، ومنارة المشايخ أولاد سليمان السبعة الفواتير. ومنارة الشيخ محمد الفطيسي، ومنارة الشيخ مفتاح الصفراني، وغيرها من المنارات القديمة والحديثة.

وقد اشتهر جماعة من علماءها في الفقه وأصوله والفرائض، والحديث والتفسير واللغة وغير ذلك من العلوم، وقد كان لبعضهم جهود في تدريس الفقه المالكي، ول بعضهم مؤلفات ومختصرات وفتاوى وبحوث، ونقل عن بعضهم فتاوى مدونة، كلها خدمت الفقه المالكي خدمة عظيمة، وحافظت على هوية هذه البلاد عبر قرون كانت مليئة بأحداث غير مستقرة.

وفي هذا البحث سأقدم إن شاء الله تعالى نماذج لجهودهم من بعض مؤلفاتهم

1 سورة التوبة: 122.

وفتاواهم وجهودهم في التدريس، أو ما دونّ عنهم في الفقه والفتاوى، وسيرتهم العلمية والتعليمية والدعوية الحافلة بجهود كبيرة في خدمة ديننا الحنيف: تدريساً وإفتاءً وقضاءً وتأليفاً، وبخاصة بعد إنشاء وبناء الزوايا والروابط والمنارات العلمية في مدن وقرى بلادنا الليبية من صدر الإسلام في القرون الأولى وإلى الآن..

وقد اخترت من محاور المؤتمر المحور الثاني:

المذهب المالكي في بلادنا وجهود الليبيين في الحفاظ عليه.

فقرة: د. جهود العلماء الليبيين في نشر المذهب المالكي وتعميقه وإثراء آرائه.

وقد جعلت عنوان البحث: جهود مشايخ وعلماء مدينة زليتن خلال المائتي عام الأخيرة في نشر وخدمة المذهب المالكي تأليفاً وتدريساً وإفتاءً.

الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي، والشيخ مفتاح بلعيد بن زاهية، والشيخ علي عبد الله جوان، والشيخ محمد فتح الله باني رحمهم الله - نموذجاً..

وقد قدمت للبحث بمقدمة بينت فيها سبب اختياري للموضوع، وبعض الصعوبات التي واجهتني عند إعداد البحث، وجعلت للبحث خاتمة بينت فيها أهم النتائج وبعض التوصيات.

سبب اختيار الموضوع:

إسهاماً مني لنشر سيرة وعلم وآثار علمائنا الذين جهل كثير من الناس علمهم وقدرهم وفضلهم ومكانتهم، حتى تجرأ بعض المنتسبين لطلب العلم أو الالتزام الديني وقالوا (ليبيا ليس فيها علماء) وهم الذين غالباً ما يكونون قد انبهروا ببعض علماء ودعاة العصر الذين ظهرت صورتهم ومكانتهم عبر وسائل الإعلام، وإن بعضهم جعل من نفسه ومريديه قضاة يحكمون على العلماء والدعاة والمصلحين بالجرحة، ويطعنون فيمن لا يتوافق مع آرائهم ومناهجهم وفتاواهم.

وإن المتتبع لجهود علماء بلادنا رغم التعميم والتقصير الإعلامي في نشر جهودهم - وما قدموه للبلد من خدمة في الجانب الديني تعليمياً وإفتاءً وقضاءً وغير ذلك، عبر قرون من الزمن مضت، حيث كان الشيخ بصفة عامة سواء كان محفظاً لكتاب الله أو مدرساً لعلوم الشريعة، أو إماماً لمسجد، كانوا قدوة الناس وقبلتهم في تقديم الاستشارات العلمية

والاجتماعية وغير ذلك بل حتى الرقية والتطبيب.

وفي جانب التأليف ترك بعضهم تأليف كثيرة لكنها إما ضاعت بسبب إهمال تلاميذهم ومن ورثهم، أو بسبب الاستعمار والحروب.

وفي جانب التدريس كانت الزوايا والمنارات العلمية تشع نورا بدروسهم وفتاواهم.. كانت جهودهم ترسيخا للوسطية والهوية الدينية والوطنية، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

الصعوبات التي واجهت البحث:

الصعوبات كثيرة كم أهمها شح مصادر السيرة والتراجم، فكثير من علمائنا لم يدونوا سيرتهم، ولم يفعل ذلك أيضا تلاميذهم ولا ذووهم، وحتى من دون لعلمائهم، أوله علم بمن سبق من علمائهم أحيانا يضمنون بالسيرة ولا يتعاونون.

كذلك ضيق الوقت وكثرة الالتزامات بالأعمال والنشاطات الثقافية والاجتماعية، وكذلك تناقص الصحة عافانا الله والمسلمين، كل ذلك أثر على عملية البحث وإخراجه بالمظهر المتوقع والمراد له. واضطرتني ذلك إلى استبدال بعض أسماء المشايخ بغيرها؛ لأنني لم أحصل على ما أستكمل به البحث حول سيرتهم وآثارهم. وحسبي أنني بذلت جهدي وحاولت الإسهام بأداء حق علمائنا ومشايخنا وإبراز دورهم وآثارهم وما أثرهم. وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول في سيرة وآثار فضيلة الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي رحمه الله.

المبحث الثاني في سيرة وآثار فضيلة الشيخ مفتاح عبد الله بن زاهية رحمه الله.

المبحث الثالث في سيرة وآثار فضيلة الشيخ علي عبد الله جوان رحمه الله.

وأسأل الله تعالى التوفيق في هذا البحث وأن ينفع به وأن يجزي بالخير كل من

تعاون معي فيه، والقائمين على هذا المؤتمر العلمي..

كما أتقدم بالشكر للأساتذة القائمين على هذا المؤتمر: الأستاذ الدكتور عمر مولود عبد

الحמיד الرئيس الفخري للمؤتمر، والأستاذ الدكتور حسين عكاش رئيس المؤتمر وعميد كلية

الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية، والأساتذة باللجنة التحضيرية واللجنة العلمية.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول في سيرة وآثار فضيلة الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي - رحمه الله -
المطلب الأول في التعريف بالشيخ أبو زيد مفتاح القذافي العزامي¹.

هو الشيخ الجليل أبو زيد مفتاح القذافي مفتاح أبو زيد العزامي. فقيه زمانه وعالم عصره. ابن سليمة عبدالنور مفتاح العزامي من بيت العمور. هو من قبيلة العمائم الشهيرة بزليتن التي يرجع جذورها إلى بني سليم العربية. التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستوطنت كثير من بطونها في أرجاء ليبيا.

ولد الشيخ أبو زيد في منطقة كادوش بزليتن عام 1290 هـ 1872 م تقريباً. حفظ القرآن في زاوية السبعة وكذلك بالزاوية المدنية بزليتن.

هو أصغر ابنين لوالديهم، والأكبر منه يدعى القذافي محمد. كانت أسرة الشيخ ميسورة الحال مادياً مما أتاح له فرصة مواصلة تعليمه داخل وخارج البلاد حيث بدأ رحلته مع العلم مبكراً منطلقاً من مسقط رأسه، أيضاً أتاح له يسره الماديّ العزوف عن تقلد أية وظيفة رسمية قد تكبله بقيودها سيما في زمن الاحتلال الإيطالي البغيض رغم إلحاح الكثيرين عليه من أصدقائه وأقاربه وهذا مكنه من المساهمة بفاعلية ومشاركة أبناء بلده جميع همومهم واهتماماتهم الوطنية والاجتماعية، فقد كان في مقدمة صفوف من تصدوا للاحتلال الإيطالي من أبناء هذا الوطن البررة المخلصين مجاهداً بالبندقية والكلمة والمال ذوداً عن حياض الوطن وحرمة العقيدة، ولعل من أسباب عزوفه عن الوظائف الرسمية أنه لا يريد بأي وجه التعامل مع المحتلين لكي لا يكون للدخلاء وعملائهم أي سلطان عليه وقد قيل إنه كان يرى تقلد الوظائف في عهد الاحتلال أمراً مخالفاً لتعاليم الإسلام وتآباه النفوس الحرة الأبية، ويذكر أن العزامي - رحمه الله - كان جاراً وصديقاً للمجاهد الشهيد شرف الدين أحد أبناء بيت الفراجنة العمائم بوادي المالحة والذي أعدمته سلطات الاحتلال الإيطالي الباغية - بمساعدة من عملائها الخونة - وقيل إنها مثلت بجثته الطاهرة إذ أبقته معلقة مدة لإرهاب المواطنين، وقد روى كثير من الناس بطولة هذا

1 تحصلت على ترجمة الشيخ أبي زيد مفتاح العزامي من بعض المصادر منها: بعض الوثائق من الأستاذ مفتاح العزامي عضو هيئة التدريس بكلية التربية بالجامعة الأسمرية زليتن، ومن مقال بقلم الأستاذ عمر المجذوب. نشر بصحيفة الشمس الليبية رقم العدد 1490. بتاريخ (1428) 1999م تقريباً. ومن تفريغ للترجمة من اللقاء الذي أجراه الأستاذ أحمد البربار في إذاعة نور الإيمان الدعوية الثقافية المسموعة زليتن 105.7. مع محمد البكوش حفيد الشيخ رحمه الله في برنامج علماء ومشايخ زليتن. وبحث الحياة الثقافية بمدينة زليتن. من إعداد الأستاذ فتحي سالم الزريقاني. 2014م.

الرجل وشهامته ووطنيته. لقد كان الشيخ أبوزيد العزامي محل تقدير واحترام الجميع من أهل بلده باعتباره أحد أبرز وجوه مجتمعه وأعان بلاده دائماً، له مكان الصدارة سيما في مجالس توثيق المعاملات وفض المنازعات وإصلاح ذات البين والتوفيق بين المتنازعين ولا زالت آثاره باقية حتى يومنا هذا عند العديد من الأسر والعائلات في شكل وثائق عرفية وفتاوى شرعية، وهو من الثقات المشهود لهم بالورع والتقوى في هذا المقام، وتحظى وثائقه باحترام وتقدير الدوائر الرسمية عند الاحتجاج بها.

حياته العلمية:

شد الشيخ الرحال إلى الأزهر الشريف بمصر وهو صغير السن في بداية شبابه، حيث رحل إليها عن طريق البحر بسفينة من ميناء قصر أحمد بمصراتة عام 1902م وانتسب إلى رواق المغاربة بالأزهر يدرس العلوم الشرعية واللغة العربية حتى سنة 1914م، وكان من زملائه ورفقائه في الأزهر الشيخ محمد البكوش رحمه الله. وقد كان عمه الشيخ محمد العزامي يعينه في تكاليف هذه الرحلة العلمية حيث كان يرسل له المال لكي لا يحتاج في غربته، وبعد أعوام من الجد والاجتهاد نال الشيخ أعلى الدرجات العلمية في الأزهر وقد أجاز من قبل لجنة علمية مكونة من مشايخ من الأزهر الشريف ونص الإجازة: بعد نص المقدمة.. وكان ممن هاجر لمصرنا وعكف على اقتطاف ثمرات العلوم العلمية من رياض دروس أزهرينا الشريف ولدنا الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي الزيتيني العمامي الطرابلسي المغربي، وبعدها حن إلى الأوطان، وطلب الأهل والإخوان، وقد أجزناه فيما تلقاه عنا من العلوم فأجبناه وبذلك كله أجزناه، إفتاء وتدريساً ووصيناه بالتقوى فإنها هي السبب الأقوى، وسألناه ألا ينسانا من صالح الدعوات في أماكن الإجابات، ونسأل الله أن يوفقنا وإياه لطاعته والعمل بسنة نبيه محمد خاتم أنبيائه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأحزابه وسلم تسليماً كثيراً آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين... كاتب الحروف الشيخ أحمد محمد عمر المالكي العدوي الأزهري. وكان من ضمن الموقعين على هذه الإجازة الشيخ: إبراهيم أبو النصر الشافعي والشيخ: محمد المغراوي والشيخ: محمد المالكي الأزهري والشيخ: محمد إبراهيم قنديل الشافعي الأزهري والشيخ: محمد راجح الحنفي الأزهري والشيخ: عبد السلام محمد عليش الأزهري عفا عنهم آمين. أهـ.

وكان من ضمن زملاء الشيخ في الأزهر الشيخ: محمد أبو الأسعاد العالم الذي كان فيما بعد مفتي ليبيا زمن المملكة الليبية وكان الشيخ أبو الأسعاد أحد الموقعين على دستور

ليبيا عام 1951م. وقد دامت الصلة بينهما حتى بعد رجوعهما لليبيا وكان الشيخ أبو الأسعاد يرسل الشيخ العزامي في بعض ما يُشكل عليه من مسائل وأحكام.

ثم رجع الشيخ العزامي إلى وطنه ليبيا، حيث كان الغزو الإيطالي الصليبي في أوج اعتدائه على ليبيا وغزوه لها، فقام الشيخ بالواجب الذي ينتظره في بلاده من مقاومة الاستعمار والجهاد في سبيل الله.

شيوخه وتلاميذه ومعاصروه:

لم تذكر مصادر سيرة الشيخ -رحمه الله- شيوخه الذين تلقى عنهم بداية تعليمه وقد يعتبر ذلك تقصيراً من أسرته وتلاميذه، وأمّا دراسته في الأزهر الشريف فقد نثله على عدد من المشايخ منهم محمد الخطاب وحسن السقا ومحمد الصعيدي أخذ عنهم علوماً ومعارف كثيرة في الفقه وأصوله واللغة العربية والنحو والبلاغة والأدب، وقد كان له نبوغ واضح في علوم الفرائض والنحو والبلاغة.

ومن أشهر تلاميذه الذين درسوا عليه الشريعة الإسلامية وعلوم اللغة: المشايخ عبد الله بن فائد وعبد النور بص والمهدي المحجوب ومحمد عقيل البكوش وغيرهم، تلقوا عنه العلم في زاوية السبعة والأسمرى وغيرها.

ومن أشهر معاصريه: الشيخ محمد محمد البكوش -رحمه الله- الذي تولّى القضاء في تلك الفترة، وسجلت له في التاريخ مواقف مشرفة ضد المحتلين الإيطاليين وخصوصاً رأيه بتحريم التجنس بالجنسية الإيطالية، التي فرضها الإيطاليون على الليبيين، ومن معاصريه كذلك ممن كانت له معهم علاقة حميمة شاعر الوطن الشيخ أحمد الشارف -رحمه الله-، صاحب القصائد الوطنية التي كانت وستظل تلهب المشاعر وتذكي الحماس وتستنهض الهمم لمقارعة الأعداء والقبول بتحديهم. ومن معاصريه كذلك العلامة العلم: منصور سالم أبو زبيدة اليعقوبي الفيتوري -رحمه الله- وعبد الرحمن بن حكومة -رحمه الله-، ومحمد بن محسن -رحمه الله-، والشيخ الجليل أحمد الصاري -رحمه الله- أحد أبرز أعلام عصره في زليتن الذي كانت تربطه علاقة قوية بالشيخ الطاهر أحمد الزاوي رحمهم الله جميعاً بوسع رحمته ومغفرته.

آثاره العلمية:

ولما رجع الشيخ من مصر إلى مدينته زليتن جلس للناس يفتيهم في أمور دينهم، وقد

درس عليه مجموعة من طلبة العلم آنذاك من أمثال الشيخ: محمد بن عقيل البكوش والشيخ عبد النور بص وغيرهم.

وكان خطيباً في بعض المساجد مثل مسجد الشيخ صالح المضوي وبعض المساجد الأخرى في منطقة ماجر، وتولى تدريس العلم في مسجد الشيخ عبد السلام الأسمر، وزاوية السبعة وغيرها، وكان له شأن كبير في فض المنازعات والخصومات بين الناس، وكان الشيخ -رحمه الله- دقيقاً جداً في كتابة عقود البيع والتوثيقات الأخرى وكان الناس تحترمه وتجله لعله وأمانته، وكان من أبرز مآثره أنه كان يحرض الناس على الاحتلال الإيطالي، ويفتخرون بأن قتال المحتل الغاصب واجب على كل مسلم قادر على الجهاد.

وتؤكد بعض المصادر وخاصة الشفوية أن الشيخ العزامي خلف مكتبة كبيرة في مختلف العلوم إلا أنها تعرضت للحرق والسراقات في زمن الاحتلال الإيطالي لليبيا ومنها مخطوطات ألفها في فروع كثيرة من العلم، وتذكر أيضاً أنه أهدى ما تبقى من مكتبته ومؤلفاته إلى بعض الزوايا العلمية مثل الزاوية الأسمرية أو زاوية أولاد سليمان السبعة أو غيرها، ونأمل من ذوي الشيخ وتلاميذه والباحث وطلبة العلم البحث عن آثار الشيخ من مخطوطات وفتاوى، لتخرج للناس علماً ينتفع به فيكون صدقة جارية له ولن نشره.

ولقد كان الشيخ العزامي - رحمه الله - يوثق فتاواه أحياناً، ويقدم المشورة والنصح ويوثق بين المتعاملين ويرشد الناس بدون مقابل متطوعاً طلباً لثواب الله وأجره.

وعندما كلف الشيخ أبو الأسعاد العالم مفتياً للبلاد طلب أن يكلف معه الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي مساعداً له، إلا أن الشيخ العزامي رفض العمل بدار الإفتاء، وأبدى استعداداً بالتعاون مع المفتي في تقديم الاستشارات إذا استشكل عليه أمر أو مسألة، وذلك لأن الشيخ أبا الإسعاد العالم كان يعلم غزارة علم العزامي واجتهاده وحفظه لمسائل العلم على المذهب المالكي رحمهما الله تعالى.

وفاته:

بعد تلك الرحلة الحافلة بالأحداث الجسام والزخرة بالعطاء للوطن والأمة بلا حدود وفي شهر رجب المحرم من العام 1377 هـ الموافق 1957 م انتقل الشيخ أبو زيد العزامي إلى جوار ربه عن عمر يناهز السابعة والسبعين عاماً، ودفن بمقبرة أولاد سليمان الفواتير السبعة، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وجعل ما قدمه من علم صدقة جارية إلى يوم الدين.

المطلب الثاني: نموذج من آثاره العلمية.

سئل الشيخ -رحمه الله- عن حكم راعي غنم ضاع منه بعضها هل عليه ضمانها،
وأجاب الشيخ -رحمه الله- مستدلاً على طريقة للملكية بنصوص الفقهاء وكتبهم.

نص المسألة:

سؤال ما قولكم أهل العلم رحمكم الله ومتع المسلمين بطول حياتكم في راع غنم لأناس
مخصوصة ذهب بها إلى بر سرت يتبع الخصب والكلاً فضاعت منها (نعجتان وحولي وعنز)
ولما فقدها صار يبحث عنها ويسأل عليها ولم يجد لها أثر ولا خبر ولما رجع إلى البلد أراد
ربها تضمينه والحال أنه لم يفرض ولم يتعد وصف جهده وغيرته في التفتيش والبحث عنها
فهل سادتي له تضمينه او ليس له تضمينه؟ بأنه لم يفرض ولم يتعد؟ أجيئنا بالنصوص
الشرعية وأجرمكم على الله والسلام عليكم.

أجاب الشيخ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم
سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه والتابعين.

والجواب عن السؤال المذكور والله الموفق بمنه للصواب: الأصل في الأجير من حيث
هو راعياً أو غيره أنه أمين لا ضمان عليه قال بن سلمون: لا ضمان على الراعي فيما تلف
من الغنم وغيرها إذا لم يتعد ولا فرط وأقصى ما عليه فيما ظل وهلك اليمين أنه ما فرط
ولا تعدى وإن شرط عليه الضمان فلا يلزمه وفسخت الاجارة وردت إلى أجرة المثل
فيما رعى، والحكم في ذلك واحد كانت الغنم لواحد أو لجماعة اهـ¹.

قال ابن عاصم في التحفة:

والأمناء في الذي يلونا ليسوا لشيء منه يضمنونا

إلى أن قال:

ومثله الراعي كذا ذو الشركة في حالة البضاعة المشتركة²

1 ينظر فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك للشيخ عليش -رحمه الله-: 368/4.

2 ينظر تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام لابن أبي عاصم: ص 93. تحقيق محمد عبد السلام محمد. دار الآفاق العلمية،
الطبعة الأولى 2011.

التسولي: الراعي غير المشترك وهو الراعي الخاص لواحد أو لجماعة فإنه لا ضمان عليه فيما ادعى تلفه بغير نقد ولا يغرّم وهو محمول على عدم التعدي والتفريط (خ) وهو أمين ولو شرط عليه إثباته إن لم يأت بسيمة الميت إن¹.

الدسوقي: قوله (ولو شرط) يعني أن الضمان ساقط عنه ولو شرط عليه إن لم يأت بسمة ما مات منها كان ضامنا ولم يأت بها، فهذا الشرط لا يلزم الوفاء به اهـ².

ولعل في هذا القدر كفاية والمسألة مشهورة وفي دواوين الفقهاء مسطورة ومن ارتاب فليراجع. والله أعلم... كتبه مسؤولا عنه العبد الفقير لمولاه الراعي عفوه ومغفرته أبو زيد بن مفتاح العزّامي وفقه الله³.

المبحث الثاني: بحث في فتاوى فضيلة الشيخ مفتاح بن زاهية - رحمه الله -

المطلب الأول: التعريف بالشيخ مفتاح بن زاهية رحمه الله⁴.

اسمه ومولده:

هو الشيخ مفتاح عبد الله بلعيد عبد الله علي محمد عبد الله أحمد بن زاهية. ولد رحمه الله بزيتن سنة 1265هـ. له أخوان غير شقيقين علي وخليفة. مات أبوهم وهم صغار فكفلهم جدهم الشيخ بلعيد بن زاهية - رحمه الله - وقد كان قاضيا شرعيا بالمحكمة.

طلبه للعلم:

أخذ الشيخ مفتاح مبادئ العلم عن علماء بلده، فحفظ القرآن الكريم صغيرا، وحفظ المتون العلمية للفقهاء وغيره، ثم رحل إلى الأزهر لطلب العلم، وأخذ عن جماعة من علماء الأزهر منهم: علامة زمانه الشيخ عليش والشيخ محمد الإنبائي والشيخ أحمد الرفاعي وغيرهم.

تزوج الشيخ مفتاح وأنجب ابناً أسماه (الطيب) وقد استشهد - رحمه الله - في معركة

1 ينظر البهجة شرح التحفة: 466/2. لأبي الحسن التسولي. تحقيق محمد شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1418هـ. 1998م.

2 ينظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير. ومواهب الجليل: 555/7.

3 تحصلت على الفتوى من الأستاذ الفاضل مفتاح العزّامي عضو هيئة التدريس بكلية التربية بالجامعة الأسمرية زيتن. فجزاه الله خيرا وبارك فيه وجعل ذلك في ميزان حسناته وحسنات الشيخ ومن تسبب فيها.

4 ترجمته من كتاب أعلام ليبيا. للشيخ الطاهر ازواوي: 344. ومن خلال مقابلات شخصية مع بعض أحفاد الشيخ وتلاميذ تلاميذه.

المرقب ضد الطليان المحتلين، يذكر بعض الناس والخبر مشتهر أن الشيخ مفتاح لم يصلّ جنازة علي ابنه حتى تأكد أنه قتل مقبلا وليس مدبرا، فرحمه الله رحمة واسعة وكتبه في الشهداء.

قيامه بدوره في نشر العلم والدعوة:

بعد أن بقي في الأزهر نحو ست سنوات يطلب العلم رجع إلى بلده، وأسس زاوية من ماله الخاص لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الشرعية وإقامة الصلوات الخمسة بها، ووقف هو وإخوته بعض أملاكه من الأراضي والبيوت والمحلات التجارية عليها وعلى الطلبة الوافدين، وبعد إتمام بنائها اشتغل بالتدريس فيها، وتحفيظ القرآن الكريم، ومعه بعض مشايخ البلد، وقد انتفع به أناس كثيرون، وكان الشيخ مفتاح يؤم المصلين في أوقات الصلاة بها.

المهام التي تولاهها:

وُلِّيَ الشيخ مفتاح -رحمه الله- القضاء الشرعي بزليتن. وتولى الإفتاء للناس فيما يحتاجون فيه إلى توضيح للحكم الشرعي، وكان يبين لهم الأحكام عند الخصومة على الحقوق المالية والاجتماعية كل ذلك حسب لوجه الله تعالى، يقول الشيخ طاهر الزاوي -رحمه الله- : كان وقورا مهابا، لازم التدريس حتى وفاته، وقد جمع فتاويه في نحو ثلاث كراسات ما زالت مخطوطة.

واستمرت الزاوية إلى مجيء المخطط العمراني بزليتن وأزيلت في سنة 1979م تقريبا، ولم تبني من جديد لأخذ المخطط العمراني لمكانها وحلت محلها طرق ومباني أخرى، كما حدث ذلك لبعض المساجد والزوايا بزليتن وغيرها، وهو خطأ كبير يتحمله القائمون بالتخطيط، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وكان للزاوية نظار يقومون بالإشراف عليها منهم مصطفى بن زاهية، ومن قبله أحد أفراد عائلته.

وقد درّس وعلم بالزاوية العديد من المشايخ منهم الشيخ محمد عبد القادر الفطيسي -رحمه الله-. وطلب العلم فيها طلبة كثيرون من منطقة زليتن وغيرها، منهم من صار عالما من علماء البلاد مثل: الشيخ بشير الصاري، والشيخ إبراهيم نديشة، والشيخ مفتاح دعوب وغيرهم رحمهم الله جميعا.

ولقد أسهمت الزاوية بشكل فعال في القضاء على الجهل وتعليم الناس، إذ درّس فيها

الشيخ مفتاح بن زاوية قرابة نصف قرن مختلف العلوم الشرعية واللغوية فضلاً عن تحفيظ وتدريس القرآن الكريم.

قال الدرارجي: ولما كانت الزاوية قائمة إلى مطلع الثمانينيات من هذا القرن فمن البديهي أن نجد من يصفها بدقة، سيما طلابها الذين مازالوا يتذكرون مسجدتها وخلابها وجميع مرافقها بدقة.

قال واصفوها: الزاوية مربعة الشكل تقريباً طول ضلعها لا يتعدى عشرين متراً، لها مدخل رئيس ينصف ضلعها الشمالي متوج بعقد على شكل حدوة الفرس، والمدخل يقود إلى مجاز يفتح على صحن مكشوف مستطيل الشكل، وفي نهاية الصحن من الجهة الجنوبية مسجد صغير يتكون من ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة وثلاث بلاطات عمودية عليه، إذ يضم أربعة أعمدة حجرية تعلوها عقود لتساعد في رفع سقف المسجد المعمول بشكل مستوي من جذوع النخيل وجريدها. والمسجد يتصل بصالة كبيرة عن طريق باب فتح في جدار المؤخرة مقابل المحراب. وقد احتلت الصالة معظم الجناح الغربي وهي مخصصة لتدريس أو تحفيظ القرآن الكريم وإيداع ألواح الكتابة فيها بيد أن المدخل الرئيس للصالة يفتح على الصحن بعقدين متجاورين، وفي هذا الجناح أيضاً خلوة بالإضافة إلى الميضاة والحمام.

وإذا كانت صالة القرآن قد شغلت معظم الجناح الغربي فإن الخلاوي قد شغلت الجناح الشرقي كله، حيث قسمت إلى مجموعتين متناظرتين بينهما باحة صغيرة، علماً بأن مجموع الخلاوي في هذه الزاوية عشرة. وخلف الخلاوي أي في نهاية الجناح الشرقي مكان معزول مخصص لربط الحيوانات وهو على شكل مظلة صغيرة، وبجانب المظلة مدخل جانبي صغير يقود إلى خارج الزاوية.

أما الميضاة فتقع بجوار المجاز على يمين الداخل إلى الزاوية من مدخلها الرئيس وفيها دكة رتبت عليها مجموعة من الأواني الخزفية تملأ بالماء عن طريق بئر حفر بالقرب منها. وبجانب الميضاة حمام صغير عند الزاوية الشمالية الغربية.

وكما هو الحال في جميع الأبنية المتخلفة من العصر العثماني في مدينة زليتن فإن جميع جدران هذه الزاوية مبنية بطريقة ضرب الباب، أما السقوف فقد شيدت بالجريد الذي

يرصف عادة فوق عوارض من جذوع النخيل¹.

مؤلفاته:

ترك الشيخ مفتاح بن زاهية -رحمه الله- مكتبة كبيرة فيها كتب من تأليفه وكتب أخرى انتقلت إلى أحفاده لبناته، وبعضها استلمها بعض الباحثين ولم يعيدوها. ولم يبق منها شيء مع كل أسف. إلا مخطوط الفتاوى الذي بين يدي، وهي مشتملة على نحو سبعين صفحة من صفحات الكراسات الكبيرة، وبها أكثر من مائتي مسألة في المعاملات المالية والزواج والطلاق والأحوال الشخصية، والقضاء، والوقف والميراث، وغيرها من الموضوعات، على أصول المذهب المالكي، ويستدل الشيخ -رحمه الله- في أجوبته بأقوال علماء المذهب المالكي مع عزوها إلى مصادرهما من كتب الفقه وكتب الأحكام مثل تبصرة ابن فرحون والتحفة لابن عاصم وغيرها، ينقل في دقة وإتقان، وقد كتبها الشيخ -رحمه الله- إما بخط يده أو بإملائه على تلاميذه وجلسائه منهم فضيلة الشيخ محمد منصور البكوش -رحمه الله-، كما يفيد ذلك كتابة الاسم بعد تحرير الفتوى أحياناً.

وأعمل حالياً على تحقيقها لغرض طباعتها ونشرها لتعم الفائدة بها طلبة العلم والعلماء والمفتين، أسأل الله التوفيق والسداد والقبول.

مآثره، ووفاته:

اشتهر الشيخ مفتاح بن زاهية بإقباله على العلم وتدرسه وتحفيظ كتاب الله تعالى، وبالزهد والورع، ذكر الشيخ علي حسين القبي -حفظه الله- أن الشيخ مفتاح بن زاهية إذا مر بأرض حبس ضرب حذاءه بالأرض عند خروجه منها ورعاً وحذراً أن يكون قد علق به شيء من تراب الحبس وغباره.

قال الشيخ طاهر الزاوي رحمه الله: كان رحمه الله رجلاً فاضلاً عالماً تقياً ورعاً، وكان وقوراً مهاباً، لازم تدريس العلم والإفتاء إلى أن توفي سنة 1352هـ. الموافق سنة 1933م تقريباً. رحمه الله تعالى رحمة واسعة وحشره في زمرة العلماء العاملين، وجعل ما قدم صدقة جارية له إلى يوم الدين، وجمعنا به في دار كرامته، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد

1 ينظر كتاب: زليتن دراسة في العمارة الإسلامية. تأليف دكتور سعيد الدراجي. ص 159. منشورات القيادة الشعبية سابقاً زليتن. الطبعة الأولى. 2003م.

وعلى آله وصحبه أجمعين..

المطلب الثاني: آثاره العلمية: نموذج من فتاواه.

قد اخترت بعض المسائل التي أفق فيها الشيخ رحمه الله نموذجاً على جهوده وعلمه واجتهاده. وقد أفق فيها الشيخ على المشهور من المذهب مستدلاً بأقوال سادة علماء المذهب، كما يتضح ذلك في أجوبته. وهذا الأسلوب كان معروفاً عند علمائنا، فلا تكون الفتوى مجردة من العزو للعلماء ومصادرهما.

ولضيق الوقت؛ ولأن المسائل تحتاج عزو الأقوال وتخريجها من مصادرهما ومقارنتها، اقتصرنا على مسألة واحدة.

نص المسألة:

رجلٌ باع لزوجته قطعة أرض في حال مرضه الخفيف فهل يصح بيعه المذكور أم لا؟.. أجيبوا.

الجواب: الحمد لله وحده وبعد:

فالجواب والله الموفق للصواب أن بيع الزوج المذكور لزوجته المسفورة إن لم يكن في ذلك محاباة ولا تولى؛ صحيح؛ لأن صاحب المرض الخفيف حكمه حكم الصحيح فله التصرف حتى بغير المعاوضة المالية والمدار كما في ابن سلمون كونه غير مخوف، وأما الشهادة بأنه مات بمرض حدث بعده فلا يحتاج إليها على المذهب إلا على قول ابن عرفة الذي يقول: إن غير المخوف إذا عقبه الموت يصير مخوفاً واعتمده ابن رحال في شرحه، وهو مردود بأن المرض الخفيف لا يحصل منه الموت إلا بزيادته وبها صار مخوفاً، فهو كمرضٍ طراً. اهـ. على أن لصاحب المخوف التصرف بالمالية.

قال الأمير: عطفاً على من يحجر عليه (وعلى ذي مرض يميت عادةً في غير نفقة ودواء ومعاوضة بلا محاباة) اهـ. وفي ابن سلمون: وبيع المريض وشراؤه جائز ما لم يجابي، فيكون ذلك قرينة بغير الوارث إلا أن يخبر ذلك الوارث فيكون هبة مفتقرة للحيازة، والمرض المعتبر هو الذي يخاف من الموت، والمزمن المريض به كصحيح، ومراعات فعل المريض في المحاباة يوم الفعل لا يوم الحكم انتهى بجمده. وفي التسولي: أن المشتري في المحاباة يكون له من المبيع بقدر ما يبيع من الثمن ويبطل الزائد في الوارث ويكون للأجنبي منه ما

حملة الثلث هذا كله إذا لم يحزه حتى مات كما مر، وأما إن حاز المشتري في الصحة حوزاً تاماً فيختص به على الراجح¹ أهـ. والله أعلم.

يفيد جواب الشيخ -رحمه الله- في هذه المسألة: أنه إذا كان المرض الخفيف غير المخوف على صاحبه فإن صاحبه يصنع في ماله ما يشاء وإذا كان المرض المخوف عليه لم يجز لصاحبه شيء إلا في ثلثه كما في الموطأ².

المبحث الثاني: بحث في سيرة فضيلة الشيخ علي عبد الله جوان وآثاره.

المطلب الأول: التعريف بالشيخ علي عبد الله جوان -رحمه الله-.

هو الشيخ علي عبد الله جوان العالم الفقيه التقي المتواضع هو من مواليد زليتن عام 1935م حفظ القرآن صغيراً على يد عمه الشيخ مختار جوان -رحمه الله- وتفقه بجماعة من مشايخ وعلماء الزاوية الأسمرية من أبرزهم الشيخ منصور أبو زبيدة -رحمه الله- والشيخ الطيب المصري -رحمه الله- والشيخ أحمد المبسوط -رحمه الله- والشيخ عبد الله السميعي -رحمه الله- وغيرهم. كان يفتي الناس حسبة، وبخاصة في النزاعات بين الناس في الأمور الاجتماعية والمعاملات المالية، وإشكاليات العقارات والأراضي، وكانت له إفادات وفتاوى مكتوبة أحياناً، طبع بعضها في تعليقات على بعض الفتاوى في كتاب عن فضيلة الشيخ محمد مفتاح قريو وآثاره³، الكتاب جمع وتأليف الدكتور جمعة الزريقي حفظه الله وجزاه خيراً. وكذا إذا تكنا مع فضيلة الشيخ محمد سالم الشويرف وحيء بذكر الشيخ علي جوان قال الشيخ محمد الشويرف: (الشيخ علي جوان عالم)، وقد كانا زميلين في الدراسة تربطها علاقة مودة وأخوة وزيارات، وكان الشيخ علي جوان يرسل أحياناً بعض المستفتين له في مسائل الطلاق إلى الشيخ محمد الشويرف، ولما توفي الشيخ الشويرف قام الشيخ علي جوان بتغسيله مع بعض تلامذة الشيخ محمد، وقام الشيخ علي كذلك بإمامة الناس في صلاة الجنازة على الشيخ محمد، رحمهما الله رحمة واسعة وجمعنا بهما في ظلّه ودار كرامته. وهذه سيرة الشيخ علي جوان كتبها بخط يده، يقول الشيخ علي -رحمه الله-:

1 ينظر ضوء الشموع شرح المجموع في الفقه المالكي للإمام محمد بن الأمير المالكي: 299/3. دار الأزهرية للتراث. دار

يوسف بن تاشفين. والهجة شرح التحفة لأبي الحسن التسولي: 134/2.

2 ينظر الموطأ: 764/2. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث.

3 ينظر الصفحات من الجزء الأول: 145، 261 وغيرها..

نبذة عما مضى من عمري.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه والتابعين أما بعد: فقد طلب مني بعض أصدقائي - أصلح الله لي ولهم الحال - أن أكتب لهم نبذة عن سالف عمري. فأجبتة شاكرًا له على ذلك.

الاسم واللقب: علي بن عبد الله بن عبد القادر بن إبراهيم بن عبد الرحمن الحبتي الملقب بجوان من نسل أحمد بن الشيخ عمران بن الشيخ عبد السلام الأسمري بن سليم الفيتوري الحازمي الذي يرتقي نسبه إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، وابن فاطمة الزهراء بضعة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ووالدتي فاطمة بنت عمر بن مبارك الفيتوري الوجاج من نسل الحسن السبط - رضي الله تعالى عنه -.

تاريخ الميلاد: ولدت سنة 1935م بمدينة زليتن في جوار زاوية الشيخ عبد السلام الأسمري من جهة الجنوب.

تجنيد والدي: جندت إيطاليا والدي بالقهر والجبر في الحرب العالمية الثانية وعندما انهزمت إيطاليا أسر مع من أسر من الليبيين من قبل الإنجليز في مصر، وبقي في الأسر أربع سنوات.

كفالة والدي وتربيتها لي: - بقيت في كفالة والدي وحضانتها تنفق علي من كسب يدها بغزل الصوف ونسجه ثم بيع المنسوج حتى أفرج عن والدي بإطلاق سراحه من الأسر سنة 1944م.

الدراسة: عندما كان والدي في الأسر كان يرسل أقاربه يحثهم على تنسيبي إلى زاوية الشيخ عبد السلام الأسمري - رضي الله عنه - لقراءة القرآن الكريم، وكان شقيق والدي الشيخ مختار جوان مقرئ القرآن للطلبة الكبار بالزاوية فحملني معه للزاوية وكتب لي أ، ب، ... إلخ واستمرت في قراءة القرآن مع كبار الطلبة حتى حفظت القرآن وكتبته من حفظي مرة واحدة وكتبته في المرة الثانية حتى سورة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأعظم السلام. قرأته برواية قلون عن نافع برسم الداني - رضي الله عن الجميع - . وأديت الامتحان في القرآن الكريم شفويًا على عمي الشيخ مختار جوان - رحمه الله تعالى - وكان ممن امتحن معي من الطلبة الشيخ سليمان الأجهري والشيخ عمر ديهوم -

رحمهم الله تعالى-، وكان الامتحان بعد صلاة المغرب في ليلة الخميس غالباً يمتحن الطالب في أربعة أثمان من كل ربع ثمن. ثم انتقلت إلى تعليم السنة حسب التعبير المتعارف آن ذاك وسجلت السنة الأولى الابتدائية سنة 1371هـ 1951م وكانت مدة الدراسة كل السنة ماعدا شهر رمضان فإنه إجازة، ومدة هذه المرحلة ثلاث سنوات قرية وتحصلت على الشهادة الابتدائية وانتقلت إلى المرحلة التي تليها (الأهلية) وأتمت السنة الأولى بها وبعد ذلك ضمت إدارة التعليم بالزاوية إلى إدارة التعليم بالمعهد الديني بالبيضاء وكان منهجه الدراسي مثل منهج الأزهر الشريف حرسه الله تعالى وكان يحتوي على مرحلتين : ابتدائية وثانوية ومدة الدراسة في الابتدائية أربع سنوات ومدته في الثانوية خمس سنوات . ونسبت مع مثلي من أصدقائي إلى السنة الرابعة الابتدائية ونلت الشهادة الابتدائية ثم الثانوية ثم التحقت بالجامعة الإسلامية بالبيضاء وسجلت في السنة الأولى بكلية الشريعة ومدة الدراسة بها أربع سنوات وتخرجت فيها ونلت منها الشهادة العالمية سنة 1966م.

التعيين: بعد أن تخرجت عينت مدرسا بالجامعة الإسلامية واشتركت في الدراسات العليا بالجامعة في شعبة الفقه المقارن بمدينة الجعوب وقت بالتدريس بمعهد الجعوب الديني وفي سنة 1968م تحصلت على شهادة الماجستير في الفقه المقارن ثم عينت محاضراً بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في البيضاء. وبعد مدة ألغيت الجامعة الإسلامية، وضمت لجامعة بنغازي (قاريونس) وسميت كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية وأصبحت كلياتها أقساماً: قسم أصول الدين، قسم الشريعة والقانون، قسم اللغة العربية، ثم عميداً للكلية ثم وكيلاً لها ثم رئيساً لقسم الشريعة والقانون بها حتى 1979م، ثم ألغيت هذه الكلية وضم قسم الشريعة والقانون إلى كلية القانون وقسم أصول الدين واللغة العربية إلى كلية الآداب. ثم انتقلت إلى كلية التربية بجامعة طرابلس بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية وأستاذاً بقسم الدراسات العليا ومشرفاً ومناقشاً لبعض رسائل الماجستير، وشاركت في التدريس بالمعهد العالي لتكوين المعلمين بزليتن وكلية الآداب التابعة لجامعة المرقب بالخمس واستمرت على ذلك حتى سنة 1995م.

وبعد سنة 1995م تقاعدت اختياراً حسب الظاهر واضطراً حسب الواقع الذي أقاسيه من آلام المرض المزمن الذي لازمني منذ 28/04/1966م حيث عجزت عن مواصلة التدريس رغم حرصي الشديد على مواصلة الاستمرار في هذه الوظيفة الشريفة العظيمة النفع للمعلم والمتعلم مع مصارعة الأمراض التي لا علاج لها إلا الصبر عليها، والحمد

لله على كل حال أسأله سبحانه وتعالى السلامة من غضبه وعقابه وأرجو منه العفو والمغفرة والموت على الإيمان التام بحق خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام آمين.

بعض مشايخي الذين تلقيت عليهم العلم في مختلف المراحل النظامية وهم:

1 - الشيخ أبو بكر حمير: درست عنه النحو من كتاب شذور الذهب، والفقہ من أقرب المسالك الشرح الكبير.

2 - الشيخ محمد بن حسين الكبير: المنطق كتاب الدمنهوري، والنحو كتاب (شرح ابن عقيل - والصرف كتاب: الزنجاني).

3 - الشيخ سالم بن عيسى: الفقه (الصفتي) والنحو (تنقيح الأزهرية).

4- الشيخ عمران الهادي بن رابعة: النحو (الآجرومية شرح خالد الأزهرية) - والفرائض (الشنشوري) والمعلقات السبع (الزوزني).

5 - الشيخ مخزوم الشحومي: النحو (قطر الندى).

6- الشيخ عبد الله حمودة: التوحيد (السوسية).

7- الشيخ أحمد أبو عزة: البلاغة (رسالة البيان في المجاز والكتابة للدردير).

8- الشيخ أحمد كامل الزنتاني: المواريث (السط).

9- الشيخ أحمد الكيلاني: الفقه (أقرب المسالك).

10- الشيخ محمد المدني الشويرف: الحديث (شرح الزبيدي).

11- الشيخ عثمان المرازقي: أصول الفقه (الأسنوي على المنهاج - الفروق للقرافي).

12- الشيخ عبد الحميد عبد الشافي: آيات الأحكام (السايس) والحديث (سبل السلام للصنعاني).

13- الشيخ جهلان: الفقه (شرح خليل للدردير والخرشي).

14- الشيخ حسين حامد حسان: الفقه العام (المنهاج للشافعية).

15- الشيخ العقبي: الفقه (شرح خليل للخرشي).

16- الشيخ أحمد المبسوط: فن التجويد (شرح الجزرية).

17- الشيخ الطيب المصراطي: مبادئ علم الفلك (شرح السوسي الصغير).

18- الشيخ عبد الله السميحي: النحو (شرح ابن عقيل). وغيرهم كثير...

الشهادات:

1- الابتدائية القديمة من زاوية الشيخ عبد السلام الأسمري.

2- الإبتدائية على النظام الجديد بالمعهد الأسمرى.

3- الثانوية الدينية بالمعهد المذكور.

4- العالمية بكلية الشريعة في الجامعة الإسلامية بالبيضاء بتقدير ممتاز.

5 - ماجستير بالجغوب الدراسات العليا بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالبيضاء جامعة

السيد محمد بن علي السنوسي عام 1967م. والسلام¹.

المطلب الثاني: آثاره العلمية نموذج من فتاواه² - رحمه الله.

كنت قد أعددت خمسة فتاوى، كنموذج لفتاوى الشيخ - رحمه الله-، ولكن لضيق الوقت اكتفيت بواحدة، لأن تحقيق كل فتوى بعزو الأقوال إلى مصادرها والتعليق عليها ومقارنتها مع المذاهب يحتاج وقتاً ومساحة من البحث.

وقد أخذ الشيخ - رحمه الله- في الفتوى بالآراء المشتهرة والمعتمدة في المذهب المالكي، واستدل بأقوال كبار علماء المذهب وكتبهم..

السؤال: هو وثيقة تنازل يسأل صاحبها هل هذه الوثيقة صحيحة مستوفاة للشروط الشرعية ومعمول بها شرعاً أم لا؟

نص الوثيقة بعد سطر الافتتاح: وبعد فقد حضر لدينا السيد الحاج ... من محلة ... والحامل للبطاقة الشخصية رقم ... وذلك بقصد الإشهاد على نفسه طائعا مختاراً ودون ضغط أو إكراه من أي أحد وهو يتمتع بكامل قواه العقلية والشرعية أنه تنازل لزوجته ... عن كامل نصيبه وقدره النصف بعد خروج الخمس لأخته ... وهو القبلي المتميز له مع أخيه المرحوم الحاج ... من السانية الكائنة ... بالمحلة المذكورة التي بها سكناهم بما اشتمل عليه هذا النصيب من أشجار ومنزل جديد وغير ذلك ويجدها على الإشاعة إملاء قبلة ص وشرقاً س وبحراع وغرباً الطريق المعبد تنازلاً صحيحاً وتسليماً حقيقياً صريحاً جائزاً

1- السيرة مكتوبة بخط الشيخ: علي عبد الله جوان رحمه الله بتاريخ الخميس الموافق 25- 04- 2002م، وأوردتها بصيغته بتصرف قليل. وقد زودني بها الأستاذ عبد الرحمن محمد جوان -حفظه الله- وقد ضمنها في كتابه الذي هو طور الإعداد جمع فيه سير وتراحم علماء ومشايخ الزاوية الأسمرية، وفقه الله وجزاه خيراً. ووجدتها كذلك مختصرة في صفحة رابطة علماء ليبيا. وكنت أيام طلي العلم ألتقي بالشيخ علي - رحمه الله- وأسأله وأخذ عنه بعض فتاوى النوازل والمعاملات المالية وغيرها، وقد جلست معه العديد من المرات وسمعت منه بعض سير مشايخ وعلماء زليتين والزاوية الأسمرية وطريقة الدراسة القديمة نظام الحلقات، وإجازات المشايخ للطلبة فيما يدرسونه عنهم من كتب العلم حيث يمتحن الطالب في الكتاب كما عبر الشيخ عن ذلك بقوله (من الجلدة إلى الجلدة) فإذا نجح فيه أجاز في تدرسه له. رحم الله الشيخ رحمة واسعة وجزاه خيراً.

2- الفتوى زودني بها الأستاذ عبد الرحمن محمد جوان حفظه الله وجزاه خيراً.

ناجزين بجميع ما لذلك من الحدود والحقوق والطرق وحظ ماء الشرب وكل ما يعد وينسب لذلك شرعا، وكما تنازل لها عن نصفه في المنزل القديم الملاصق للطريق المعبد من شرقه بعد خروج نحسه لأخته المذكورة في الموضوع المذكور المحدود أعلاه عن طيب من نفسه ورضا خاطره شهد عليه بذلك من سمع منه وعرفه وهو بحال الكمال حرر بتاريخ 12/2/1993م عبده صالح علي صالح اليعقوبي الفيتوري - توقيع المتنازل ... بصمة ... المذكور - نعم وقد استثنى المتنازل المذكور أعلاه من المنزل الحديث البناء المربوعة التي تفتح شرقا في الركن القبلي ليستغلها ويسكن فيها حتى نهاية عمره فإذا مات لحقت بالذي تنازل عنه للمتنازل لها زوجته المذكورة وجرت مجراه صح من كاتبه صالح المذكور وبمثله أحمد منصور شكشك الفيتوري الحمد لله وبمثله فقد حضرت المرأة المسماة ... زوج المتنازل المذكور وأذن لها زوجها المذكور في القبول والحوز فقبلت منه على الفور وحازت بالتطوف على الأرض المحدودة أعلاه وتكسير أغصان الشجر وتلقيط الحجر وحثي التراب وإمالة الأذى والدخول والخروج وفتح الأبواب وغلقها والخلو من شواغل المتنازل معاينة شهوده شهد عليهما بذلك من أشهدوه به وبمعاينة الحوز من سمع منهما وعرفهما وهما بحال الكمال حرر بتاريخ أعلاه عبده صالح علي صالح اليعقوبي الفيتوري وبين أسطره ما أوله الأذى وآخره شواغل المتنازل صح من صالح المذكور وبمثله سالم الكشر)) انتهى نص الوثيقة، وعلى ظهرها ما نصه بخط الشيخ علي عبد الله جوان: (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين أما بعد فالتنازل المحرر بباطنه ظاهره التبرع ويؤيده صدوره من زوج لزوجته وهو صحيح معمول بظاهره شرعا لاشتماله على المطلوب فيه شرعا من الأركان والشروط والحوز المعين وخلو الربع من شواغل المتنازل والإشهاد على ذلك . قال الشيخ خليل - رحمه الله تعالى - في مختصره في باب الهبة والصدقة والعمرى: ((وصحت في كل مملوك ينقل))¹ اهـ وقال أيضا: (وحيز وإن بلا إذن وأجبر عليه وبطلت إن تأخر لدين محيط)². اهـ. قال شارحه العلامة الخرشني: قال ابن عبد السلام القبول والحيازة معتبران إلا أن القبول ركن والحيازة شرط. أهـ قال محشيه العلامة العدوي: قوله والحيازة شرط: أي شرط في الصحة على

1 ينظر مواهب الجليل شرح مختصر خليل: 3/8. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرعي (المتوفى: 954هـ) تحقيق: زكريا عميرات. دار عالم الكتب. 1423هـ - 2003م.

2 : ينظر مواهب الجليل: 11/8.

تقدير وجود مانع. اه وقال صاحب الرسالة: ولا تتم هبة ولا صدقة ولا حبس إلا بالحوز. اه وقال العلامة ابن عاصم في تحفته:

صدقة تجوز إلا مع مرض موت وبالدين المحيط تعترض

وقال: وَلِلْمُعَيَّنِينَ بِالْحَوْزِ تَصِحُّ وَجَبْرُهُ مَهْمَا أَبَاهُ مُتَّصِحٌ

وقال: وَإِنْ يَكُنْ مَوْضِعَ سُكَّاهُ يَهَبُ فَإِنَّ الْإِخْلَاءَ لَهُ حُكْمٌ وَجَبَ إِخْلَافٌ¹

والله ورسوله أعلم، وكتب ذلك عبد ربه تعالى علي عبد الله جوان -توقيع- حرر

بتاريخ 1996/5/7م - توقيع -).

الخاتمة:

من خلال عملية البحث ففي سيرة علماء البلاد يتبين التالي:

- أن بلادنا زاخرة وزاهرة بأعداد كبيرة من العلماء الذي نبغوا في علوم شتى خدموا بعلمهم الإسلام والمسلمين والبشرية كلها، وذلك يفند دعوى المغرضين الذين يقولون إن ليبيا ليس لها علماء.

- إن إظهار جهود علمائنا ونشر آثارهم العلمية والتربوية يسهم في بناء أجيال ثابتة على هويتها الدينية والوطنية، وتحصينهم من ثقافات ترد من خارج البلاد وقد يتبناها بعض من في داخل البلاد، تحمل النشء على معادات المجتمع وتفسيق المخالف وتضليله، وهذا منهج يقود إلى التشدد والتعصب ومعاداة المخالف وتشتيت المجتمع ونشر العداوة والبغضاء فيه.

- من خلال تتبع سير وتراجم علمائنا رحمهم الله نجد أنهم كانوا يقومون بدور كبير في التعليم والخطابة والوعظ والإفتاء، وفي التحكيم وفض النزاعات، والإصلاح بين الناس، وفي ذلك تذكير وتوجيه لعلماء هذا الزمن وطلبة العلم والدعاة أن يقوموا كذلك بدورهم كأسلافهم، فالمجتمع بحاجة إلى العالم القدوة المرابي الذي يفرع إليه الناس في نوائب دهرهم، وفيما يقع بينهم من مشكلات الحياة ونوازل الأمور، ويحتاجون إلى المصلحين الذين يقومون بالمصالحة الاجتماعية والوطنية.

1 ينظر شرح الخرشبي على خليل: 105/7. وبهامشه حاشية الشيخ علي العدوي. دار الفكر. ومواهب الجليل: 11/8. وتحفة الحكام في نكت العقود والأحكام لأبي بكر محمد بن عاصم الأندلسي: ص 87. تحقيق محمد عبد السلام محمد. دار الآفاق العربية. القاهرة. الطبعة الأولى: 2011م.

- لقد حوى المجتمع الليبي علماء على المذهب المالكي وهو الغالب، وعلى المذهب الحنفي، وعلى الفقه المقارن، وكذلك في جانب العقيدة في باب التأويل والإثبات في آيات وأحاديث الصفات، اجتمعت المدارس والمنهجيات، وإن كان الغالب هو العقيدة الأشعرية، وهذا لا يتعارض مع من يرى الإثبات أو التفويض وهو رأي الإمام مالك رحمه الله. ولم يكن الناس يعادي بعضهم بعضا بسبب الخلافات فيما تقدم، بل كانوا متعاونين متراحمين متآلفين.

وأختم البحث بتوصياتي التالية:

- بإقامة المؤتمرات العلمية عن الهوية الدينية والوطنية على نطاق أوسع وتكون فيها محاور تشمل جوانب أكثر ليشارك فيها أكثر عددا من الباحثات بتخصصاتهم المختلفة: العلمية الشرعية والتاريخية والاجتماعية، لإثراء البحوث التي يعود نفعها على المجتمع بكافة أطرافه.

- أوصي بإقامة ندوات علمية، وورش عمل، تقوم على نشر العلم والثقافة في أفراد المجتمع وبخاصة الشباب، وتنشئتهم على الوسطية والاعتدال ومراعاة الخلاف الذي هو من أصول الإمام مالك - رحمه الله -، وعدم التعصب.

أكرر شكري للسادة الأساتذة المشرفين على المؤتمر والمقيمين له:

الأستاذ الدكتور عمر مولود عبد الحميد الرئيس الفخري للمؤتمر. والأستاذ الدكتور حسين عكاش رئيس المؤتمر وعميد كلية الدعوة وأصول الدين والأساتذة الفضلاء اللجنة التحضيرية واللجنة العلمية. وفقهم الله لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وجزاهم خيرا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث.
- البهجة شرح التحفة. لأبي الحسن التسولي. تحقيق محمد شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1418هـ. 1998م.
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير. دار الفكر.
- تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام لابن أبي عاصم. تحقيق محمد عبد السلام محمد.

- دار الآفاق العلمية. الطبعة الأولى 2011.
- زليتن دراسة في العمارة الإسلامية. تأليف دكتور سعيد الدراجي. منشورات القيادة الشعبية سابقا زليتن. الطبعة الأولى. 2003م.
- ضوء الشموع شرح المجموع في الفقه المالكي للإمام محمد بن الأمير المالكي: 299/3. دار الأزهريّة للتراث. دار يوسف بن تاشفين.
- شرح انحرشي على خليل: 105/7. وبهامشه حاشية الشيخ علي العدوي. دار الفكر.
- فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك للشيخ عليش رحمه الله.
- مواهب الجليل شرح مختصر خليل. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرعيني (المتوفى: 954هـ) تحقيق: زكريا عميرات. دار عالم الكتب. 1423هـ - 2003م.
- مخطوط فتاوى الشيخ مفتاح بن زاهية. ومعلومات شفوية زودني بها السيد بلعيد بن زاهية.
- بحث الحياة الثقافية بمدينة زليتن. من إعداد الأستاذ فتحي سالم الزريقاني. 2014م.
- كتاب الشيخ محمد مفتاح قريو وآثاره، جمع وتأليف الدكتور جمعة الزريقي.
- تسجيلات إذاعة نور الإيمان المسموعة: برنامج علماء ومشايخ زليتن. مفرغة.
- وثائق عن سيرة وفتاوى الشيخ علي عبد الله جوان. زودني بها الأستاذ عبد الرحمن جوان.
- وثائق عن سيرة وفتاوى الشيخ أبو زيد مفتاح العزامي. زودني بها الأستاذ مفتاح العزامي.
- صفحة رابطة علماء ليبيا.
- وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دور الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية والانتماء

أ.د: الخضر عبد الباقي محمد/ مدير المركز النيجيري للبحوث العربية/نيجيريا

ملخص البحث

تعرض الكثير من الدول والمجتمعات المعاصرة لتحديات حقيقية وجودية في مكوناتها الأساسية وهو الهوية الوطنية بسبب العولمة وتدايعاتها المتواصلة وباتت المخاوف مرتفعة بل تزايد القلق لدى أوساط مجتمعية عدة بسبب الطعنات الموجهة ضد مكونات هويتها الوطنية والتي استهدفت إضعاف قيم الانتماء للوطن وتحطيم الشعور بالانتماء للدولة الوطنية، وتشير الهوية الوطنية بمفهومها العام إلى مجموعة من القيم والأخلاق التي تعكس أفعالاً وسلوكيات تهدف نحو تعزيز الاستقرار في الوطن والدفاع عنه والتقيد بنظامه واحترام قوانينه، وفق مبدأ أخلاقي ضمن نسيج مجتمعي متماسك، قائم على التعاون والمحبة واحترام العادات والتقاليد. شهدت بعض البلدان العربية والإسلامية خلال العقدين الماضيين تحولات سياسية عرفت بثورات الربيع العربي وصاحبها تغييرات هيكلية في أبنيتها المجتمعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن الثقافية الأمر الذي ترك انعكاسات جد خطيرة باتت مهددة لاستقرارها السياسي وتماسكها الاجتماعي وأصبحت وحدتها الوطنية مهددة بالتشظي وغابت هويته الوطنية إذ عملت الميليشيات بمختلف مسمياتها على تفتيت الهوية الجامعة لمكونات تلك البلدان تحت عناوين هويات فرعية ووظفت في الترويح لذلك خطابات العنف والكراهية والتخوين والتخويف والترويع وبث الرعب في قلوب المواطنين شركاء الوطن الواحد بهدف وتم تسخير وسائل الإعلام لتكون أخطر سلاح يوجه إلى المجتمع لترير تلك الأجندات المشبوهة.

ونظراً لمحورية الإعلام بوسائله المتطورة وما تملكه من قوة مؤثرة في عملية دعم الجهود الرامية لتشكيل الوعي ولبناء الاتجاه الإيجابي عن الهوية الوطنية والحرص على التمسك بقيم الانتماء لدى الأفراد، تنطلق هذه الورقة العلمية لتناول ما يمكن أن يقوم به الإعلام في مجال تعزيز الهوية الوطنية وتشكيل الوعي لدعم قيم الانتماء لدى المواطنين لخدمة جهود التنمية واستقرار الأوطان. وتتكون هذه الورقة من مقدمة ومحورين وخاتمة تتناول المقدمة أهمية الوعي المجتمعي بمهددات الهوية الوطنية وفي المحور الأول: مدخل نظري عام عن الهوية الوطنية وقيم الانتماء، يتناول المفاهيم الأساسية والمهددات المعاصرة للهوية

بالإضافة لمؤشرات جهود الحفاظ على الأوطان وحماية هوياتها المجتمعية. بينما يعرض المحور الثاني لمحددات دور الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية مبرزاً أساليبه ووسائله، وفي الخاتمة أهم النتائج والتوصيات.

المحور الأول: مدخل نظري: الهوية الوطنية وقيم الانتماء الهوية والدلالة المفهومية:

تشير كلمة الهوية في بعدها الفلسفي إلى حقيقة الشيء أو العلامة التي تميزه عن غيره، وهي بذلك تكون بمثابة بطاقة أو أداة تعريفية يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة الشخصية أيضاً، وهي تعني في سياقها الدلالي الاجتماعي الإحساس العميق والمستمر للإنسان بنفسه وماضيه وحاضره ومستقبله والمستمد من مشاعره ومعتقداته وأفكاره، كما يمكن تعريفها من الناحية الانثروثقافية بأنها الشعور بمجموعة من السمات الثقافية للجماعة، والميل إلى ربط الشخص بالبيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وبالتالي تميزه عن غيره من الجماعات والمجتمعات الأخرى¹

أما الهوية الوطنية فيمكن القول إنه نتاج اجتماعي ثقافي تاريخي عام وتمثل علاقة متكاملة، تغطي مدى واسعاً للتصنيف والتنظير، وتعطي الناس شعوراً بأنهم مرتبطون ببعضهم برابط محدد وتتجاوز أحياناً كل الولاءات الطبقية، ويؤدي الشعور بالانتماء إلى تدعيم فكرة الكيان السياسي والاجتماعي والجغرافي للوطن، وبالتالي يحرك المشاعر والعواطف والأحاسيس نحوه، ويجعل من الفرد قادراً على تحريك مكائمه الشخصية وهويته، وهو ما يعطي دلالات وتفسيرات عميقة لبطولات الدفاع عن الوطن وعن مقدساته ومكتسباته والافتخار بالهوية الوطنية للجماعة والانتماء إليها والتغني به.²

ومن الجدير بالذكر والإشارة إليه أن الهوية الوطنية (National identity) التي هي مجموعة من الصفات والسمات المجتمعية تختلف من مكان لآخر، لأن لكل مجتمع سماته وخصائصه التي يميز بها مما يجعل من هويته الوطنية مختلفة عن باقي المجتمعات، ولكن الثابت هو أن الهوية الوطنية تعكس روح الانتماء لدى أبناء الوطن الواحد ويرتفع شأن الأمة وتزدهر عليها، ومن دون الهوية الوطنية تفقد أمة معنى الاستقرار، وهناك بعض

1- عبد الوهاب المسيري (2010) "الهوية والحركة الإسلامية"، حوار سوزان حرفي، (دمشق: دار الفكر ص 147).

2- غسان منير سنو، على أحمد الطراح (2002) الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام: دراسات في إجراءات

تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية العالمية، بيروت: دار النهضة العربية ص 20

الخصائص والسمات التي تقوم بالتحكم بالهوية الوطنية، ولكن قد تختلف تلك الخصائص من مجتمع لآخر، ومن هذه الخصائص التي تتحكم بالهوية الوطنية مثل: اللغة والأخلاق والعادات والموروثات التاريخية وغيرها.

وهناك علاقة طردية بين الهوية الوطنية والشعور بالانتماء إذ إن كلا منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فالإنسان عندما يعرف أن هويته ترتبط بهوية المجتمع الذي يوجد فيه فإن هذا يجعله يتمسك ويرتبط بمجتمعه، ولا شك أن الهوية في أساسها دعوة إلى حماية الإنسان وصيانه بتحقيق إنسانيته ضد كل أشكال المسخ والإقصاء، وتحقيق الأمل في العيش المشترك بين بني الإنسان.

ومن المؤكدات على ما تعنيه عبارة الهوية الوطنية أنها لا تشير فقط إلى الانتماء للأرض بقدر ما تؤكد الالتزام الأخلاقي بمجموعة من القيم والأخلاق التي تعكس أفعالاً تعزز الاستقرار في الوطن والدفاع عنه والتقيّد بنظامه واحترام قوانينه، وتعني كذلك الانتظام في المجتمع وفق مبدأ أخلاقي ضمن نسيج مجتمعي متماسك، قائم على التعاون والمحبة واحترام العادات والتقاليد والأسرة والبيئة، والتمسك بالقيم الدينية السائدة واحترام الرأي الآخر ومعتقدده ووجهة نظره ما لم تمس القيم والنظام العام وسيادة الوطن.¹

وتسعى المجتمعات المعاصرة على تدعيم ملامح هويتها الوطنية عبر عدة مؤسسات لترسيخ مجموعة من المفاهيم والمعاني ذات الأبعاد القيمية لإعلاء شأن الوطن في وجدان أبنائها ومن أبرز تلك المؤسسات وأهمها مؤسسة الأسرة والمؤسسات التعليمية ودور العبادة بأنواعها علاوة على مؤسسات الإعلام والثقافة، وكلها جهات تتولى المسؤوليات المنوطة بها في تنشئة أفراد المجتمع وتعليمها بطرق مختلفة مستهدفة البناء المعرفي والسلوكي ومشخصاته التي تترجم الهوية الوطنية وتحفظها وتنقلها للأجيال، فأبي تقصير أو خلل لواحدة من تلك المؤسسات بدورها تجاه المحافظة على الهوية الوطنية يحدث خللاً في تركيبة هوية الأبناء والأفراد في المجتمع وفي مستوى درجة الاعتزاز والشعور بالانتماء إلى أوطانهم.

1- مركز دراسات الوحدة العربية (2013) الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، سلسلة كتب المستقبل العربي (68)، (القاهرة، تشرين الثاني/ نوفمبر ص306).

المحور الثاني: دور الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية

تأتي أهمية الإعلام ضمن العديد من المداخل والمقاربات في التعاطي المجتمعي للحفاظ على أمنها ووحدتها وهويتها من منطلق المسؤولية الاجتماعية، وتكريسا لدور مختلف المؤسسات الرسمية والأهلية، في طرح القضايا الوطنية، وإلقاء الضوء على أهميتها والتوعية بأن يتحمل كل صاحب فكر ورأي مسؤوليته تجاه بلده وأبناء وطنه للحفاظ على السياج الجامع لهم، والدور المأمول من وسائل الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية والثقافية في ظل التحديات التي تواجهه، وهي لا تتعلق بالجوانب التقنية بقدر ما تتعلق بالمضمون القادر على أن يحتفظ بمشاهديه، والعمل من خلال هدف كبير واضح، وهو تعزيز الخصوصية الثقافية للمجتمعات المعاصرة.

تحديات البيئة الاتصالية والحفاظ على الهوية الوطنية:

من الملاحظات الجديرة بالذكر أن وسائل الإعلام كانت تخدم الهوية الوطنية في السابق بصورة أفضل أكثر من الفترة الحالية وذلك قبل دخول المتغيرات المتلاحقة على البيئة الاتصالية وعلى وجه الخصوص القنوات التلفزيونية التي لم تعد تهتم كثيراً بما يخدم الهوية الوطنية بعد أن حولت بعض هذه القنوات الوطنية نظام عملها إلى المبدأ التجاري وإنتاج ما يجلب الإعلانات، حيث بدأت سباقات حامية في عرض المسلسلات المدبلجة، والبرامج المستنسخة، ولم يعد للبرامج المحلية التي تخدم الهوية الوطنية نصيب كبير في الدورات البرمجية، اللهم الا باستثناء التجارب المتميزة لبعض القنوات الفضائية والجهات الإعلامية المحلية.¹

من غير المقبول أن يتوقف الأمر على تشخيص وتحليل أزمة الهوية الوطنية في الإعلام المحلي، ولكن يتعين أن تكون هناك مبادرات تقودها جهات وهيئات مجتمعية في هذا المجال سواء هيئات ومجالس متخصصة في مجال الإعلام أو الثقافة لتقديم تصورات لإنتاج ثقافي وإعلامي يصب في خدمة الهوية الوطنية. ومن أجل ضمان الإقبال والتأثير لتلك الإنتاجات الهادفة لخدمة الهوية الوطنية، يجب أن يكون المنتج قادراً على جذب الجماهير، لأن ما كان يصلح قبل عقود من برامج تراثية ومحلية قد لا يصلح عرضه هو نفسه

1- غسان منير سنو، على أحمد الطراح، (2002) الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام: دراسات في إجراءات

تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية العالمية، بيروت: دار النهضة العربية، ص15

كمنتج اليوم.. وإلا قد ينصرف الجمهور عن وسائل الإعلام المحلية ويتجه إلا الفضاء العالمي الذي فيه كثير من البرامج التي تجذب المشاهدين. إن تحقيق التوافق بين منتج إعلامي يخدم الهوية الوطنية، وبين مبدأ الربحية التجارية أمر ممكن ولكن تحقيقه يحتاج إلى إبداع وعزيمة، من أجل الموازنة بين منتج يخدم الهوية وفي نفس الوقت ربحي يحقق مردوداً مادياً لمواكبة التحديات التي أفرزتها البيئة الاتصالية الجديدة بسبب تداعيات العولمة وإجراءاتها القاسية.¹

مقترحات على المؤسسات الإعلامية:

في إطار السعي لتصحيح الوضع غير المرضي لوسائل الإعلام المحلية في تعاطيها مع قضايا الهوية الوطنية وجهود الحفاظ عليها تؤكد مجدداً أن هناك حاجة ملحة لعمل برامجي واسع النطاق من هذا النوع وفي شتى المجالات الإعلامية، ليس فقط في الأعمال التلفزيونية والسينمائية، وإنما أيضاً في الإعلام المطبوع والإلكتروني، والرقمي. إن أي عمل أو منتج إعلامي وطني يخدم الهوية ينبغي ألا يكون خالياً من القيم المرتكزات التي يتعين على القائمين على إنتاج البرامج النظر إليها بعين الاعتبار، لتنمية مجموعة من هذه القيم عند وضع الخطط البرمجية.

قيم الهوية الوطنية:

هناك قيم يفترض أن تتوفر في الرسائل الثقافية والإعلامية على اختلاف أشكالها وأنواعها والتي يجب أن تتضمنها وتكون منهجاً لكل مؤسسة إعلامية وطنية، تنطلق منها في عملها الإعلامي الوطني ومن بينها:²

1. قيمة الاتحاد والتماسك المجتمعي وهي ذلك الرباط المقدس الذي يربط بين مختلف مكونات البلد الواحد والتي شكلت بفضل هذا الرباط بناءً حضارياً راسخ الأركان وشاخ البنيان.
2. قيمة الولاء والانتماء للوطن: ترسيخ قيمة المواطنة الصالحة بأن يكون كل فرد من

1 - الخضر عبد الباقي محمد (1999) الحركات الإسلامية في عصر العولمة ط 1 القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية ص 99

2- حميد فاضل حسن، (2007) الهوية العراقية وبناء الدولة، مجلة العلوم السياسية، السنة الثامنة عشرة، العدد (34)، كانون الثاني- حزيران ص154.

- أفراد المجتمع له دور مؤثر وإيجابي في المجتمع.
3. قيمة الاعتزاز والمحافظة على التراث الوطني المادي والمعنوي ومنها تعزيز مكانة اللغة العربية، وقيمة المحافظة على التراثين المادي والمعنوي. وكذلك
4. قيمة إبراز المنجزات المحلية، والموازنة ما بين قيم العولمة والانفتاح والمحافظة. وعلى المؤسسات الثقافية والإعلامية الوطنية أن تعمل على بلورة هذه القيم وغيرها من القيم الوطنية وأن تجعلها أساس العمل الإعلامي المقدم للجمهور.. فمن خلالها تستطيع أن ترتقي بالممارسات الإعلامية وتضطلع بمسئولياتها الوطنية والمجتمعية يخدم الهوية الوطنية.

الإعلام والتميز والهوية؟

الحديث عن الإعلام كمنظومة تعمل في إطار باقي منظومات المجتمع، حديث له وجاهته وحجته، وليس من باب نفض الأيدي من الأدوار والاستحقاقات الوطنية التي يجب أن يتحملها الجميع تجاه وطنه، والإلقاء بكامل المسؤولية عليه، ولكن لأن وسائل الإعلام أصبحت أكثر مؤسسات التنشئة الاجتماعية تأثيراً ونفاذاً في حياة الأفراد ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه ينفذ بشكل يتعاضم يوماً بعد يوم في التفاعل مع مختلف المنظومات، سواء كانت المنظومة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، وسواء على المستوى الداخلي أو من خلال هذا المدير الذي لا يتوقف من الرسائل الإعلامية عبر السماوات المفتوحة، والتي فرضتها طبيعة العصر، التي أزال الحدود الإعلامية بين الدول بشكل بات الحديث معه عن السيادة الإعلامية للدولة جزءاً من التراث، لا تعبيراً عن الواقع الذي لم يعد بمقدور أحد أن يتحكم أو يجد من فيض الرسائل الإعلامية المحيطة به، والتي تحاصر الفرد حتى الاختناق، بغتها وسمينها¹.

ومعروف أن الأمم الحية والتي تتميز عن غيرها في منظومتها القيمية وإيقاع حياتها، وتحرص على الحفاظ على جوهر وجودها وما يميز أبنائها مع الانفتاح على كافة التيارات الفكرية والثقافية بعيداً عن التقوقع والانكفاء على الذات، تدرك دائماً أن سر وجودها

1- مركز دراسات الوحدة العربية، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، سلسلة كتب المستقبل العربي (68)،

القاهرة، تشرين الثاني/ نوفمبر 2013)، ص 24-25.

ومبعث قوتها في الحفاظ على هويتها؛ ذلك أن المنظومة الإعلامية لا يمكن أن تعمل بمعزل عن المنظومة الثقافية للمجتمع، كما أن وسائل الإعلام هي المرآة التي ترى الشعوب وجهها الحضاري من خلالها؛ ومن أراد أن يتعرف على ما يشغل فكر شعب من الشعوب وما يفكر فيه، وكذلك ما يسوده من قيم، ما عليه إلا أن يتفحص ما يكتب ويذاع عبر وسائله الإعلامية، سواء كانت وسائل حكومية أو حتى في الأنظمة التجارية المغرقة في الرغبة في الربح، إلا أن بعد المسؤولية الاجتماعية لوسائل الإعلام في ممارستها، يظل شاخصاً مهماً كانت السياسة الإعلامية التي تنتهجها.

على ضوء ما سبق عرضه نجد أن العمل في إطار تعزيز الهوية الوطنية هو الذي يعطي التميز للرسالة الإعلامية، وما يربط الفرد بوسيلة إعلامية هو أن يرى نفسه وقضاياها وما يشغله من خلالها، وهو ما ينعكس على حالة الرضى بين وسائل الإعلام وبين أفراد المجتمع، كما أن مشاركة وسائل الإعلام في التعامل مع التحديات التي تواجه المجتمع، والقضايا الواجب علاجها، وتعظيم دورها في ذلك، هو ما يجعل المواطن ينظر إليها باعتباره مواطناً صالحاً، ويعمق شعوره بأنها تسعى إلى ما فيه الخير له ولغيره، كأداة للتثوير وبث رسائل ومضامين معززة لروح الاندماج والوحدة، لا أن تكون تلك الوسائل معول هدم وبث للفرقة والانقسام؛ وعندما تغلب وسائل الإعلام مصالح الوطن وصالح المواطن على بقية المصالح، تبني بذلك جداراً من الثقة بينها وبين أبنائه.

مقترحات في منهجية العمل والتناول والعرض:

في تقديري أن هناك أدواراً أساسية يجب أن تتحملها وسائل الإعلام، لتساهم في تعزيز الهوية الوطنية بشكل متكامل ومتناسق مع باقي المؤسسات:

1. منها تناول القضايا الحقيقية التي تهم المواطن وتشغل فكره، وتساهم معه في وضع الحلول الناجعة لها، مثل قضايا العنف والتنشئة الاجتماعية السليمة، والانحرافات السلوكية لدى بعض الشباب، والسلوكيات الغريبة عن المجتمع والتي تحتاج إلى تناولها بصدق وموضوعية ومهنية، عبر مشاركة مجتمعية تنكأ الجرح لتعرف كيف تصف العلاج.

2. ربط تعزيز الهوية الوطنية بتعزيز الهوية الثقافية الكاملة المتكاملة، والتي لا تكون بغير تمكين اللغة العربية باعتبارها الوعاء الحافظ لها، لأن اللغة هي الشفرة التي تميز

المجتمعات بعضها عن بعض، ليس فقط في التواصل، ولكن في الإبداع والفكر، ولا يمكن أن يفهم معنى الوطنية بحق من يدير ظهره للغته الأم أو يرى أنها تعيقه عن الإبداع والتقدم، بل إن أي أمة لم تحقق إنجازا قط على سلم الحضارة الإنسانية بعيدا عن لغتها الأم.

3. تعزيز الهوية الوطنية عبر وسائل الإعلام، لن يأتي إلا من خلال تقديم برامج بعيدة عن النسخ أو التعريب أو التقليد للبرامج الأجنبية، ولكن تقديم واقعنا الثقافي الثري والتميز، من خلال إبداع وطني خالص، فضلا عن أعمال درامية كاشفة عن رحلة الجهد والعرق التي مر بها اتحادنا، وسيرة قادته، والمخلصين من أبنائه، من خلال رؤية حية يحفظها الأبناء، باعتبار أن الدراما هي الذاكرة المرئية لتاريخ الأمم، ومن خلال تحمل وسائل الإعلام لمسئوليتها الاجتماعية، وأمانة الكلمة وخطورتها، ودورها في نشر الوعي بين أبناء الوطن بالتحديات التي تواجه مسيرته المظفرة، عبر غرس قيم الوفاء له، والذود عن كل حبة رمل من رماله، وبذل النفس والمال دونه، باعتبار ذلك أحد أهم وظائف الإعلام، بعيدا عن الإغراق في وظائف الترفيه على حساب باقي الوظائف.

4. اعتبار تعزيز الهوية الوطنية يجب أن لا تعتبره وسائل الإعلام وظيفة موسمية، ترتبط بمناسبات وطنية ينشط فيها الحديث عن حب الوطن ثم تعود أدراجها، ولكن ينبغي أن تنبع من رؤية استراتيجية توضع الخطط البرمجية على أساسها، وتتعلق منها كافة القوالب والأشكال والبرامج، من خلال ربط المواطن بواقعه، وتحفيز الانتماء الوطني، وتحقيق الإنجازات، واستنفار الطاقات، وإلقاء الضوء على الكفاءات الوطنية، ورعاية الموهوبين، وتنمية التفكير المبدع في كافة المجالات، وتقديم النموذج والقدوة والمسؤولية والمهنية في التعاطي مع القضايا عبر تجارب واقعية، فضلا عن تعريف الأجيال بتاريخ وطنهم والوفاء لاتحاده وما بذل من أجله..

5. أهمية الانفتاح على كافة الثقافات، والاستفادة من علوم العصر ومعارفه الحضارية المتطورة، وأن نتعامل مع الغير على قدم المساواة، أخذا وعطاء.. عندئذ يكون إعلامنا بحق قد قام بالدور المأمول في تعزيز الهوية الوطنية.

6. بقدر ما يؤثر الإعلام في الهوية الوطنية، ما يجعل العلاقة بينهما علاقة تفاعلية يتأثر

خلالها كل طرف بالآخر ويؤثر فيه. إلى العمل من أجل بلورة هوية وطنية جامعة شاملة تضم بين طياتها مكونات المجتمع كافة، حيث بذلت وسائل الإعلام في هذه المرحلة جهوداً كبيراً لتعزيز هوية وطنية الاماراتية تستطيع أن تكون عاملاً مهماً يسهم بشكل فاعل في انطلاق مسيرة دولة الاتحاد لكي تحقق أهدافها المنشودة. ولم يتوقف دور الإعلام عند المساهمة في بلورة الهوية الوطنية الإماراتية وإنما استمرت جهوده من أجل تعزيز هذه الهوية لدى مختلف الأجيال، حيث عمل دائماً على ربط المواطن بواقعه، تسليط الضوء على الإنجازات والإسهام في مواجهة التحديات،

7. حاجة الوطن إلى إعلام يكشف الحقائق ويقوم بطرح المشاكل بكل شجاعة وجرأة، وليسوا في حاجة إلى إعلام التملق والتسبيح والمدح وثقافة "كل شيء بخير وعلى أحسن ما يرام"؟ بل هي قبل كل شيء مؤسسة اجتماعية، لها رسالة ومسؤولية كبيرة جدا في التنشئة الاجتماعية والتوعية والتثقيف والمواطنة.
8. العمل على توطین وظائف الإعلام في البلد، لإنجاح عملية الإحلال والتوطين والهوية الوطنية في المنظومة الإعلامية.
9. وضع استراتيجية واضحة المعالم لمعرفة ماذا تريد السلطة بالضبط من وسائل الإعلام؟ وماذا تريد المؤسسة الإعلامية بالتحديد؟ وماذا يريد الصحفي من مهنته ومؤسسته؟ وماذا يريد المشرع من القوانين والتشريعات؟ وماذا تريد جمعية الصحفيين من المهنة ومن المنظومة الإعلامية ككل؟.

الخاتمة:

تناولت هذه الورقة العلمية موضوع دور الإعلام في تعزيز الهوية الوطنية والانتماء لبلورة محورية الإعلام بوسائله المتطورة وما تملكه من قوة مؤثرة في عملية دعم الجهود الرامية لتشكيل الوعي وبناء الاتجاه الإيجابي عن الهوية الوطنية لتعزيز الحرص على التمسك بقيم الانتماء لدى الأفراد، تناولت بالتحليل ما يمكن أن يقوم به الإعلام في مجال تعزيز الهوية الوطنية وتشكيل الوعي لدعم قيم الانتماء لدى المواطنين في خدمة جهود التنمية واستقرار الأوطان. وتكون الهيكل العام للورقة من مقدمة ومحورين وخاتمة تناولت المقدمة أهمية الوعي المجتمعي بمهددات الهوية الوطنية وفي المحور الأول: مدخل نظري للإطار المفهومي للهوية الوطنية وقيم الانتماء، وعرض المحور الثاني لمرتكزات دور الإعلام في تعزيز

الهوية الوطنية مبرزاً أساليبه ووسائله، ومن أهم ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات التالي:

- أن الهوية الوطنية نتاج اجتماعي ثقافي تاريخي عام تبلور في علاقة متكاملة، تعطي الناس شعوراً بالترابط وتتجاوز كل الولاءات الطبقية، وهي عامل أساسي لتدعيم فكرة الكيان السياسي والاجتماعي والجغرافي للوطن.
- أن الهوية الوطنية (National identity) التي تمثل مجموعة من الصفات والسمات المجتمعية تختلف من مكان لآخر طبقاً لاختلاف الموروث الثقافي والتاريخي والديني والاجتماعي والحضاري.
- أن المتغيرات المتلاحقة على البيئة الاتصالية قد أثرت سلباً على وسائل الإعلام المحلية خاصة القنوات التلفزيونية في الاهتمام بما يخدم الهوية الوطنية بسبب طغيان المبدأ التجاري وإنتاج ما يجلب الإعلانات.

من التوصيات:

- نوصي بأن تكون هناك مبادرات تقودها جهات وهيئات مجتمعية من هيئات ومجالس متخصصة في مجال الإعلام أو الثقافة لتقديم تصورات لإنتاج ثقافي وإعلامي يصب في خدمة الهوية الوطنية.
- نوصي بضرورة الأخذ بكافة متطلبات الجودة والتنافس من أجل ضمان الإقبال والتأثير للإنتاجات الهادفة لخدمة الهوية الوطنية.
- نقترح تضمين مجموعة قيم ومرتكبات عند وضع الخطط البرمجية لتتوفر في الرسائل الثقافية والإعلامية على اختلاف أشكالها وأنواعها والتي منها: قيمة الاتحاد والتماسك المجتمعي / قيمة الولاء والانتماء للوطن / ترسيخ قيمة المواطنة الصالحة بأن يكون كل فرد من أفراد المجتمع له دور مؤثر وإيجابي في المجتمع. / قيمة الاعتزاز والمحافظة على التراث الوطني المادي والمعنوي / وأخيراً قيمة إبراز المنجزات المحلية، والموازنة ما بين قيم العولمة والانفتاح والمحافظة.

المراجع:

- 1- حميد فاضل حسن، (2007) الهوية العراقية وبناء الدولة، مجلة العلوم السياسية، السنة الثامنة عشرة، العدد (34)، كانون الثاني- حزيران.
- 2- انخضر عبد الباقي محمد (1999) الحركات الإسلامية في عصر العولمة، ط 1، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية.
- 3- عبد الوهاب المسيري (2010) "الهوية والحركة الإسلامية"، حوار سوزان حربي، (دمشق: دار الفكر).
- 4- غسان منير سنو، على أحمد الطراح (2002) الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام: دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية العالمية، بيروت: دار النهضة العربية.
- 5- مركز دراسات الوحدة العربية، (2013) الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، سلسلة كتب المستقبل العربي (68)، (القاهرة، تشرين الثاني/ نوفمبر).

دور الشيخ أحمد الزوي في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية

د. الطاهر العياشي أبونوار/جامعة طرابلس/ كلية العلوم الشرعية – تاجوراء

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..
فقد اطلعت على الإعلان الذي نشرته كلية الدعوة وأصول الدين، بالجامعة الأسمرية،
لانعقاد المؤتمر الدولي الأول للهوية الدينية الليبية، تحت شعار: الهوية الدينية دعامة أساسية
للوحدة الوطنية، فاستخرت الله وعزمت الأمر على اختيار عالم من علماء ليبيا، وإبراز جهوده
في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية، والذي كان بعنوان: (دور الشيخ أحمد الزوي - رحمه
الله - في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية).

أهداف البحث:

- 1- إبراز شخصية علمية ليبية مالكية.
- 2- بيان جهود عالم من علماء ليبيا في الحفاظ على الموروث العلمي الليبي.
- 3- لفت أنظار الباحث إلى القيمة العلمية التي كتبها الشيخ أحمد الزوي، وإجراء الدراسات
العلمية حولها.

خطة البحث:

- جاءت في تمهيد، وأربعة مطالب، وخاتمة.
- التمهيد: تناولت فيه سيرة الشيخ أحمد الزوي، وذكر مؤلفاته.
- المطلب الأول: دوره في الحفاظ على قراءة الإمام نافع، ونشرها.
- المطلب الثاني: دوره في الحفاظ على العقيدة الأشعرية ونشرها.
- المطلب الثالث: دوره في الحفاظ على المذهب المالكي ونشره.
- المطلب الرابع: دوره في الحفاظ على التصوف السنوي ونشره.
- الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

تمهيد

ترجمة الشيخ أحمد شهاب الدين الزوي، وذكر مصنفاته

• اسمه ولقبه:

هو أحمد شهاب الدين بن أحمد نورالدين الزوي لقباً، الحسيني الإدريسي نسباً، القادري مشرباً، المالكي مذهباً، الأشعري معتقداً، الزيتيني أصلاً، الفزاني بلدةً، الطرابلسي مولداً ومنشأً وداراً¹.

• مولده، ونشأته، ووفاته:

ولد الشيخ - رحمه الله تعالى - سنة 1391 هـ الموافق: شهر 9/1971².

نشأ الشيخ - رحمه الله تعالى - في مدينة طرابلس الغرب، وقرأ القرآن برواية الإمام قالون على مجموعة من المشايخ منهم: الشيخ محمد علي الخازمي، والشيخ صبري المهدي الهنشيري³، ثم درس الدراسة المنتظمة الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس طرابلس، ثم درس العلوم الشرعية والقانونية في جامعة القرويين بـ"فاس"، وتخرج فيها بتقدير ممتاز.

• وفاته:

سافر الشيخ - رحمه الله تعالى - إلى مدينة "إربد" في المملكة العربية الأردنية في رحلة علمية لأجل استلام مخطوط لتحقيقه، وفي أثناء هذا السفر تعرض الشيخ - رحمه الله - لحادث سير توفي على إثره يوم الأربعاء 14 جمادى الأولى 1418 هـ، الموافق 9/17/1997 م، وصلى عليه الجنازة شيخه في الطريقة القادرية الشيخ العربي بن عبد النور العالم⁴ في مسجد سيدي

1- ينظر: المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة، ص: (3)، ملاحظة: هذا الكتاب للشيخ أحمد شهاب الدين الزوي، طبع في حياته، بإشراف زاوية سيدي نصر القادرية، بجانب مسجد سيدي نصر أو ما يسمى بمسجد القصر، بالقرب من جنة العريف طرابلس. وينظر: فيض السلام على عقيدة العوام، لأحمد شهاب الدين الزوي، نشر: مؤسسة كلام للبحوث والإعلام، ص: (6).

2- كل المصادر التي ترجمت للشيخ لم تذكر سنة ولادته، فتواصلت مع اثنين من تلاميذه فأخذت منهما سنة ولادته، وهما: د / الصادق محمد سلامة، عضو هيئة تدريس بجامعة طرابلس / كلية التربية / قصر بن عشير، وقد أجازته الشيخ في كل كتبه ومروياته. والشيخ: محمد عثمان السوسي، من سكان مدينة طرابلس، وقد أجازته الشيخ في الطريقة القادرية، وهو خليفة الشيخ في الطريقة.

3- أحد مدرسي القرآن الكريم، بجامع ميزران- طرابلس- ليبيا.

4- هو الشيخ العربي بن عبد النور العالم، أصله من مدينة زيتن، ولد في مدينة طرابلس الغرب سنة 1903 م، قرأ القرآن في الجامع الكبير (المعروف بجامع سيدي الصيد، الكائن بشط الهنشير) على يدي والده، ثم على يدي الفقيه عزوز، ثم انتقل إلى مسجد أحمد باشا لدراسة العلوم الشرعية واللغوية، من شيوخه: الشيخ عبد الرحمن البوصيري. ومن زملائه: الشيخ عمر

نصر، يوم الإثنين 22/9/1997م ودفن بجواره.

• شيوخه وتلاميذه:

- شيوخه: درس الشيخ - رحمه الله - على عدد كبير من العلماء، وكلهم شهدوا له بالنباهة والفتنة والذكاء والصدق، وأثنوا عليه، فمنهم على سبيل الذكر لا الحصر:
- العلامة المحدث أبو الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري، حيث قال في إجازته للشيخ أحمد - رحمه الله - "العلامة الباحثة الشيخ أحمد شهاب الدين الزوي القادري"¹.
- العلامة المحدث أبو العلاء إدريس بن محمد العراقي الحسيني، قال في إجازته للشيخ أحمد - رحمه الله -: "العلامة الأسعد والمتفني الأتقي سيدي شهاب الدين الزوي القادري"².
- العلامة الكبير شيخ الأصوليين سيدي أحمد بن عبد القادر الحبابي قال: "الأستاذ الشريف الداعي إلى الله سيدي أحمد شهاب الدين".
- العلامة سيدي إدريس بن محمد عزوزي الجرنائي، قال: "الأستاذ العلامة السيد أحمد شهاب الزوي"³.

ويلاحظ أن أغلب العلماء الذين درس عليهم الشيخ أحمد - رحمه الله - هم من بلاد المغرب؛ لأنه سافر بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية إلى هناك، فدرس العلوم الشرعية والأكاديمية فيها.

تلاميذه:

- درس على الشيخ - رحمه الله - عدد كبير من طلاب العلم في شتى العلوم، مثل: علم التوحيد، والتجويد، والفقه، والنحو، والفرائض، والحديث، والتصوف.
- والملاحظ أن أغلب التلاميذ الذين درسوا على الشيخ - رحمه الله - وقع لهم فتح من الله وقبول عند الناس، فنفع الله بهم البلاد والعباد، وقد تواصلت مع بعض منهم، وهم:
- 1- الدكتور: الصادق محمد سلامة، قال: "كان اتصالي بالشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - صيف سنة 1995، بعد رجوعه من دراسته بجامعة القرويين بالمغرب، وكان قد شرع في تدريس

الجنزوري، توفي شهر 8 / 1998م. مصدر الترجمة: حفيد الشيخ، حسن كامل بالنور، مشافهة مساء يوم السبت 24 ذي

الحجة 1443هـ، الموافق 23/7/2022.

1- ينظر: فيض السلام ص 6، والمرشدة اللطيفة ص 4.

2- ينظر: فيض السلام ص 8

3- المصدر السابق، ص 8

بعض العلوم الشرعية واللغوية بزواية سيدي نصر القادرية، ونلت شرف الجلوس عنده طيلة تدريسه لهذه العلوم، فدرسنا عليه تفسير القرآن، والأربعين النووية، ومصطلح الحديث "البيقونية"، والفقه والتصوف من متن ابن عاشر، وعقيدة المرزوقي وعقيدة الشرنوبلي، وعلم الفرائض (منظومته المسماة رائدة الفرائض)، إضافة إلى ذلك فقد جلست إليه في تدريسه لموطأ الإمام مالك - رحمه الله -¹

2- الدكتور: علي البهلول علي، الشاعر المعروف، عضو هيئة تدريس بجامعة طرابلس، كلية التربية، سوق الجمعة، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، قال لي شخصياً: أول من علمني نظم الشعر الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله -، وقد أجازته الشيخ بخط يده في منظومته المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة، ومنظومته أحكام الشفعة عند السادة المالكية.²

3- الشيخ القارئ: محمد محمود الجمالي، محفظ قرآن وداعية مشهور في دولة كندا، وقد أجازته الشيخ بالسند العالي المتصل في رواية الإمام قالون عن شيخه الإمام نافع - رحمهما الله -.

4- الشيخ القارئ: داوود عياد حمزة، إمام ومحفظ قرآن بمسجد أبي غرارة، في منطقة سيدي خليفة بطرابلس، تابع الهيئة العامة للأوقاف، وقد أجازته الشيخ - رحمه الله - في كتاب حاشية الصفتي في الفقه المالكي.³

5- الشيخ الفاضل خليفة الشيخ الزوي في الطريقة القادرية: محمد عثمان السوسي، وقد أجازته الشيخ - رحمه الله - في الطريقة القادرية بسندها المتصل إلى سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني - قدس الله روحه - بأورادها وتسايحها.⁴

• مؤلفاته:

الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - لم يعيش طويلاً، توفي في ريعان شبابه عن عمر 26 سنة، لكن الله سبحانه وتعالى، بارك له في وقته وعلمه، فألف مجموعة من المؤلفات بين نظم ونثر تربو على أربعين مؤلفاً، فهناك بعض كتبه ومنظوماته طبعت ورأت النور، وبعضها الآخر - بل أغلبها - باقية في حوزة أحد إخوته لم تطبع، وسأبدأ بذكر الكتب.

1- أخذت هذه المعلومات من الدكتور الصادق سلامة، يوم 17 ذي الحجة 1443 الموافق 2022/7/16.

2- ينظر: صور من هذه الإجازات في الملاحق، رقم (10).

3- ينظر: صورة من هذه الإجازة في الملاحق، رقم (1).

4- ينظر: صورة من هذه الإجازة في الملاحق، صورة رقم: 3.

أولاً: المطبوعة:

- 1- فيض السلام على عقيدة العوام: هذا الكتاب طبع مرتين، الطبعة الأولى: طبع بمصر القاهرة، دار الاتحاد الأخوي للطباعة، وهي طبعة خاصة بزاوية سيدي نصر. والطبعة الثانية: طبع في عمان، دار النور المبين، بوكالة مؤسسة كلام للبحوث والإعلام سنة 2016
- 2- المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة: طبع مرة واحدة في الشركة العامة للورق والطباعة.
- 3- فيض العادل في أدلة السادل: طبع مرة واحدة في دار الاتحاد الأخوي للطباعة، القاهرة، مصر، وهي طبعة خاصة بزاوية سيدي نصر.
- 4- متن رائدة الفرائض في علم المواريث، طبع مرة واحدة في الشركة العامة للورق والطباعة.
- 5- فيض المنان على نصيحة الإخوان وشدة الخلان، المشهورة بلامية ابن الوردي، طبع مرة واحدة في دار الاتحاد الأخوي للطباعة، القاهرة، مصر، وهي طبعة خاصة بزاوية سيدي نصر.
- 6- سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني، طبع مرة واحدة في الشركة العامة للورق والطباعة، سبها، ليبيا، سنة 1999م.

ثانياً: الكتب التي لم تطبع:

- 1- انخارق الحارق في الرد على الزنديق المارق.
- 2- إنارة الدراري فيما علا من سند البخاري.
- 3- شرح المرشد المعين بالأدلة، في ثلاثة أجزاء.
- 4- شرح لامية ابن العجم.
- 5- الثبت القادري.
- 6- التحفة القادرية في شرح العقيدة الجيلانية.
- 7- فيض الوهاب على ملحة الإعراب.
- 8- النعم الربانية في ترجمتي الذاتية.
- 9- فيض المالك في مناقب الإمام مالك.
- 10- السلسبيل العذب في التعريف بالشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية في طرابلس الغرب.
- 11- طبقات القادرية الكبرى.

- 12- الفيض الرباني في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني. شرح الأربعين النووية.
- 13- شرح المنظومة البيقونية.
- 14- المنهل الروي في أسانيد الزوي.
- 15- صفع القفا لمن كفر والذي المصطفى واقتدى على الصوفية أرباب الصفا.
- 16- التحفة الحديثية في الحديث المسلسل بالأولية.
- 17- جواهر القصر في ترجمة سيدي نصر.
- 18- فيض الرحمن في علوم القرآن.
- 19- كشف الغامض على رائدة الفرائض.
- 20- هبة المعطي في مراتب ووقوف الهبطي.
- 21- إعلام الجاهل المغرور بما لا أصل له في القبور.
- 22- إفشاء السر المصون بأنباء محنتي في المعتقلات والسجون.
- 23- إتحاف الفضلاء بتراجم من أجازوني من العلماء.
- 24- إضاءة الشموع في بيان الحديث الموضوع.
- 25- النفحات الزكية في الكليات الحديثية.
- 26- إضاءة الظلمة الخالكة في إبطال حديث المشابكة.
- 27- تحذير الغيبي من حديث سحر النبي - صلى الله عليه وسلم.

المنظومات التي لم تطبع:

- 1- الألفية في المنح الصوفية والملح الأدبية.
- 2- منظومة في أحكام الشفعة عند السادة المالكية.¹
- 3- منظومة في علم الأصول.
- 4- منظومة السلاسل القادرية
- 5- منظومة في المناكحات عند المالكية.
- 6- منظومة في أحكام الوقف عند المالكية.
- 7- منظومة في آداب المرید.

1- تحصلت على نسخة منها، طبعها أحد الطلبة للشيخ ولكنها لم تنشر، وعليها إجازة بخط الشيخ - رحمه الله - لأحد تلاميذه، وهي مئة بيت.

8- منظومة في وجوه النصب عند النحويين.

المطلب الأول: دور الشيخ أحمد الزوي في الحفاظ على قراءة الإمام نافع ونشرها

قرأ الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- القرآن في طرابلس الغرب، ومعلوم أن القراءة المنتشرة في القطر الليبي هي قراءة الإمام نافع براوييه قالون وورش، فرواية الإمام قالون يُقرأ بها في أغلب المدن الليبية شرقاً وغرباً، وأما رواية الإمام ورش فأكثر انتشارها في مدينة غدامس.

حفظ الشيخ أحمد الزوي القرآن كاملاً برواية الإمام قالون على يد الشيخ محمد علي الخازمي، والشيخ صبري المهدي الهنشيري، بزواية ميزران العامرة بطرابلس¹. ثم لما سافر الشيخ -رحمه الله- إلى بلاد المغرب، قرأ القرآن كاملاً برواية الإمام ورش، بدار القرآن بفاس، على يد الشيخ القارئ "مكي بن كيران". حافظ الشيخ -رحمه الله- على قراءة الإمام نافع، وقام بنشرها، وكان حافظ القرآن يترددون عليه في زاوية سيدي نصر القادرية، وقرؤوا عليه القرآن كاملاً برواية الإمام قالون عن شيخه الإمام نافع المدني.

ومما حظي به الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- السند العالي المتصل إلى حضرة النبي -صلى الله عليه وسلم- في رواية الإمام قالون عن شيخه الإمام نافع، وهو من أعلى الأسانيد في العالم الإسلامي؛ لأن أغلب الأسانيد في رواية الإمام قالون فوق الثلاثين واسطة، والسند الذي تحصل عليه الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- ستة وعشرون واسطة فقط.

وقد أعطى الشيخ -رحمه الله- هذا السند مجموعة من تلاميذه، منهم: الشيخ القارئ المحفظ محمد محمود الجمالي، والشيخ المحفظ عبد الباسط حسين كريعات². أما رواية الإمام ورش، فبعد البحث والسؤال لم أجد أحداً قرأ على الشيخ -رحمه الله- أو أجازها فيها.

المطلب الثاني: دور الشيخ أحمد الزوي في الحفاظ على العقيدة الأشعرية ونشرها

كان الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- على عقيدة أهل السنة والجماعة "العقيدة الأشعرية"

1- ينظر: فيض العادل ص: 6، ورائدة الفرائض في علم المواثيق، لأحمد شهاب الدين الزوي، منشورات زاوية سيدي نصر القادرية، الشركة العامة للورق والطباعة، سبها، ص: 2.

2- بفضل الله وكرمه أخذت هذا السند عن الشيخ محمد محمود الجمالي عن الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله-، ينظر: صورة من السند في الملاحق، صورة رقم 1.

وكان يصرح بذلك ويفتخر، فقد عرّف بنفسه في مقدمة كتبه فقال: "وبعد، يقول: أحمد بن أحمد الزوي القادري مشرباً، الأشعري اعتقاداً، المالكي مذهباً"¹ وكذلك صرح بعقيدته في مقدمة منظومته المسماة "المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة"، فقال:

يقول راجي عفورب غافر *** شهاب الدين أحمد بن القادري
نجل الزوي المالكي مذهبا *** الأشعري الحسيني نسبا

بل كان الشيخ -رحمه الله- يشجع طلابه على دراسة الكتب التي تقرر عقيدة السادة الأشاعرة، فقال في أبيات له:

إن رمت عقد الأشعري المرتضى فعليك نظم عقيدة² المرزوقي³
فهي التي فيها النجاة ومنتها ونور بدا من شمسه بشروق⁴

ومن جهود الشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- في الحفاظ على العقيدة الأشعرية ونشرها، أنه كان يدرس كتاب عقيدة العوام في زاوية سيدي نصر القادرية⁵. وكذلك من جهود الشيخ -رحمه الله- في الحفاظ على العقيدة الأشعرية ونشرها، قام بشرح كتاب عقيدة العوام للمرزوقي، في كتاب سماه "فيض السلام على عقيدة العوام"، فقال: "لما كانت المنظومة المسماة بـ "عقيدة العوام" للإمام العالم العلامة أبي الفوز سيدي أحمد بن محمد بن رمضان المرزوقي الأشعري المالكي الحسيني، من المتون المقررة على طلبة زاوية سيدي نصر القادرية - أدام الله عزها - استشرت سماحة شيخنا وسندنا ووسيلتنا إلى الله تعالى، إمام

1- فيض السلام ص14

2- هي التي تسمى بعقيدة العوام.

3- هو الشيخ أحمد بن السيد رمضان منصور، المالكي المرزوقي الحسيني، من شيوخه: الشيخ الكبير السيد إبراهيم العبيدي، قرأ عليه القراءات العشر، ومن تلاميذه: الشيخ أحمد دهان، والشيخ طاهر التكري، من مؤلفاته: عقيدة العوام، والفوائد المرزوقية شرح الآجرومية، توفي بمكة عام 1262 هـ، ودفن في مقبرة المعلاة. إمتاع الفضلاء بتراجم القراء بعد القرن الثامن الهجري، ت: إلياس أحمد البرماوي، ن: دار الندوة العالمية للطباعة، ط: الأولى 1421 هـ، 2000 م (24/2).

4- فيض السلام ص15.

5- زاوية سيدي نصر القادرية، الملاصقة لمسجد سيدي نصر أو ما يعرف الآن بسجد القصر، الكائن بجنة العريف بطرابلس، وهذه الزاوية بناها الشيخ من حرماه وعلى نفقته، وكان يدرس فيها القرآن والعلوم الشرعية واللغوية. مصدر هذه المعلومات أحد تلاميذ الشيخ وخليفته في الطريقة القادرية: الشيخ محمد عثمان السوسي، مساء يوم الثلاثاء 20 ذي الحجة 1443 هـ، الموافق 19/7/2022 م.

المالكية، وناصر لواء القادرية، سيدي محمد العربي بن ولي الله سيدي محمد بن إبراهيم القادري¹، الذي قلت في حقه:

يا شيخني العربي يا علم الهدى من نسل طه سيد الأكوان
لك سيدي في المجد أعلى رتبة ما نالها في عصرنا من ثان
وبك اهتدينا في ظلام حالك لما رأينا نورك الرباني
فلولاك لم نعرف علوما وحكمة وآداب أهل الفضل والإيمان
فامن علينا شيخنا من فيضكم من نور جدكم الولي الداني
أعني به المشهور في كل الملا فحل الفحول العارف الجيلاني

في وضع شرح بسيط يحل ألفاظ هذه العقيدة الأشعرية المباركة التي قلت فيها:

إن رمت عقد الأشعري المرتضى فعليك نظم عقيدة المرزوقي
فهي التي فيها النجاة ومنتها ونور بدا من شمسه بشروق

فأذن - حفظه الله - بهذا الشرح، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجه الكريم، وأن ينفع به كما نفع بأصله، وسميته (فيض السلام على عقيدة العوام)²

• وصف موجز لكتاب (فيض السلام على عقيدة العوام)

هذا الكتاب هو شرح موجز لعقيدة العوام للمرزوقي، شرحه الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - وجاءت فكرة شرح هذا العقيدة عندما كان الشيخ - رحمه الله - يدرسها لتلاميذه في زاوية سيدي نصر القادرية، فاستشار شيخه محمد العربي بنور فأذن له بشرحها، فقام الشيخ - رحمه الله - بشرح ألفاظها وفك عباراتها بأسلوب سهل ميسر.

1- ولد الشيخ سنة 1903 م في طرابلس الغرب، وأصله من مدينة زيتن، قرأ القرآن بالجامع الكبير، المعروف بجامع (سيدي الصيد) بشط الهنشير بطرابلس، على يد والده ثم على الفقيه عزوز، ثم انتقل لجامع أحمد باشا لدراسة العلوم الشرعية واللغوية، من شيوخه: الشيخ عبد الرحمن البوصيري، ومن زملائه: الشيخ عمر الجنزوري، توفي شهر 11/1998 م. مصدر الترجمة حفيد الشيخ / حسن كامل بنور، مشافهة مساء يوم السبت 24 ذي الحجة 1443هـ، الموافق 23/7/2022 م.

2- فيض السلام ص 14-15

• منهج الشيخ - رحمه الله - في شرح هذه العقيدة.

استدل الشيخ - رحمه الله - بالأحاديث النبوية في شرحه لهذه المنظومة المباركة، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، عندما جاء في شرح البيت الثاني من هذه المنظومة:

فالحمد لله القديم الأول الآخر الباقي بلا تحول

قال - رحمه الله -: حمد الناظم - رحمه الله تعالى - المنعم سبحانه على نظم عقيدته هذه؛ لأن الشرع الشريف ندب حمد الله على كل نعمة أنعم بها على عباده، ولقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع"¹⁻²

ويذكر الشيخ - رحمه الله - إجماع العلماء في المسائل المجمع عليها، فعندما جاء في شرح صفات الله تعالى في قول الناظم:

وبعد فاعلم بوجوب المعرفة من واجب لله عشرين صفة

قال الشيخ - رحمه الله -: ولا يقلد؛ لأن التقليد في علم التوحيد لا يجوز بالإجماع، خلافاً للفقهاء، قال شيخ شيوخنا سيدي علي سيالة³ - رحمه الله تعالى -:

وقلد الأئمة تسلم من كل غمة
وذا في الفقه والأحكام لا في التوحيد بالتزام⁴

ويذكر الشيخ - رحمه الله - أحياناً آراء العلماء في المسائل المختلف فيها، ويرجح بين هذه الآراء صراحة، فمثلاً عندما جاء في قول الناظم في ذكر أعمام النبي - صلى الله عليه وسلم -:

حمزة عمه وعباس كذا عمته صفية ذات احتذا

قال الشيخ - رحمه الله -: أعمام النبي - صلى الله عليه وسلم - اثنا عشر، منهم من مات في

1- المصدر السابق ص 19

2- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (458هـ) ت: محمد عبد القادر عطاء، ن: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة 1424هـ - الموافق 2003م، باب ما يستدل به على وجوب التعمير في خطبة الجمعة، رقم الحديث: 5768 (3/ 295)

3- هو الشيخ علي أمين بن محمد بن محمود سيالة، ولد بطرابلس الغرب سنة 1277هـ - 1860م، أخذ عن الشيخ محمد كامل بن مصطفى، والشيخ عبد الرحمن البوصيري، والشيخ الأمين العالم، وأخذ عنه: الشيخ أبو بكر بن لطيف، وغيره، من مؤلفاته: ريحانة الأرواح في مدح خير الملاح، والدروس الأساسية للناشئة الإسلامية، توفي سنة 1376هـ - 1956م. ينظر: مقدمة ريحانة الأرواح، للشيخ علي سيالة، إعداد وترتيب: محمد الأمين الجعفري، مسجد مصعب ابن عمير، طرابلس، ليبيا.

4- فيض السلام ص 23

الفترة، وعدددهم ثمانية، ... ثم قال: واثنان من أعمامه -صلى الله عليه وسلم- أدركا الإسلام:
الأول: أبوطالب، اختلف فيه هل مات كافراً أم لا؟

فمن العلماء من يقول مات مؤمناً بشهادة أخيه العباس¹، وبما كان ينشده من شعره²،
ومنهم من قال: إنه بعد ما توفي على الكفر أحياه الله تعالى وآمن بنبيه -صلى الله عليه وسلم-،
وألف الشيخ دحلان³ كتاباً بين فيه نجاة أبي طالب سماه "أسنى المطالب في نجاة أبي طالب"،
ونحن نعتقد نجاته وموته على الإسلام، كما قال به جماعة من العلماء⁴، والأولياء⁵.

المطلب الثالث: دور الشيخ أحمد الزوي في الحفاظ على المذهب المالكي ونشره

المذهب المالكي هو المذهب السائد في القطر الليبي، وقد ورث علماء البلاد هذا المذهب
كأبنا عن كبر، والشيخ أحمد الزوي -رحمه الله- لم يشد ولم يخرج عن هذه السلسلة والسند
المتصل إلى الإمام مالك إمام دار الهجرة -رضي الله عنه- فكان الشيخ أحمد -رحمه الله-

1- يقصد بذلك ما جاء في سيرة ابن هشام "فلما تقارب من أبي طالب الموت قال: نظر العباس إليه يحرك شفثيه، قال: فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال يا بن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقوها، قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لم أسمع". سيرة ابن هشام، لعبد الملك ابن هشام، المتوفى سنة (213هـ) ت، مصطفى عبد القادر عطا، ن: مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط: الثانية 1375هـ-1955م، (1/ 418). وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقال: "هذا إسناد منقطع، ولم يكن أسلم العباس في ذلك الوقت". دلائل النبوة، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (458هـ)، ن: دار الكتب العلمية، بيروت. ط: الأولى 1405هـ (2/ 346).

2- من الشعر الذي كان ينسب لأبي طالب:

وزير موسى والمسيح ابن مريم	ليعلم الناس أن محمداً
فكل بأمر الله يهدي ويعصم	أتانا بهدي مثل ما أتيا به
بصدق حديث لا حديث المبرجم	وإنكم تتلون في كتابكم
بفضلك إلا أرجعوا بالترك	وإنك ما تأتيت منها عصابة

المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المتوفى (405هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ن: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى 1411هـ-1990م، (2/ 680). ومن شعره أيضاً:
وشق له اسماً من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد
أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (1/ 160).

3- أحمد بن زيني دحلان، فقيه مكّي مؤرخ، ولد بمكة وتولى فيها الإفتاء والتدريس، من مؤلفاته: (الفتوحات الإسلامية) و (رسالة في الرد على الوهابية) توفي بالمدينة سنة (1304هـ). الأعلام، لخير الدين محمود الزركلي، المتوفى (1396هـ) ن: دار الملايين، ط: الخامسة عشر، 2002 م (1/ 129).

4- ينظر: خاتم النبیین -صلى الله عليه وسلم- لمحمد بن أحمد، المعروف (بأبي زهرة) المتوفى (1394هـ)، ن "دار الفكر العربي، القاهرة 1425هـ (1/ 392)

5- فيض السلام: ص (52- 53)

على مذهب الإمام مالك، بل كان يفتخر بذلك، فعندما عرّف بنفسه في منظومته رائدة الفرائض في علم المواريث قال:

يقول راجي رحمة المنان شهاب الدين أحمد الفزاني
نجل الزوي القادري مشربا المالكي الحسيني نسباً¹

وكذلك عندما جاء في مقدمة كتابه (فيض العادل في أدلة السادل) قال: "وبعد: فيقول العبد الفقير أحمد بن أحمد الزوي، القادري مشربا، الأشعري اعتقادا، المالكي مذهبا..."².
ومن حفاظ الشيخ -رحمه الله- على هذا المورث العلبي ونشره في البلاد، أنه كان يدرّس الفقه المالكي في زاويته كل يوم اثنين من كل أسبوع، فدرّس متن ابن عاشر، وحاشية الصفقي.³
ومن جهود الشيخ -رحمه الله- في الحفاظ على المذهب المالكي ونشره في البلاد، أنه ألف مجموعة من الكتب والرسائل والمنظومات على مشهور مذهب الإمام مالك -رضي الله عنه- منها:

1- رسالة صغيرة الحجم عظيمة الفائدة في مسألة السدل في الصلاة سمّاها: "فيض العادل في أدلة السادل"، بين فيها أن مشهور المذهب هو السدل، فقال: "اعلم -فقهننا الله تعالى وإياك في دينه- أن إرسال اليمين هو المشهور في مذهب الإمام مالك بن أنس -رضي الله عنه- والدليل هو عمل أهل المدينة، والأحاديث والآثار الدالة على ذلك"⁴

ذكر الشيخ -رحمه الله- في هذه الرسالة الأحاديث والآثار التي تبين وتؤكد سنية السدل في الصلاة، وعلّق على الأحاديث والآثار التي تبين سنية القبض، وعقد فصلا لذلك سمّاها: "فصل في الطعن في أدلة القبض"، وطبعت هذه الرسالة في خمس عشرة صفحة.

2- منظومة تتكون من مئة وخمسين بيتا في بيان أحكام زيارة الأولياء والصالحين، سمّاها: "المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة"، بين فيها بعض الأحكام على مذهب الإمام مالك -رضي الله عنه-، فمثلا عندما جاء في الكلام على النهي عن التمسح بالقبور وتقبيلاها قال:

1- متن رائدة الفرائض، ص 16.

2- فيض العادل في أدلة السادل، لأحمد شهاب الدين الزوي، طبعة خاصة بزاوية سيدي نصر، ط: دار الإتحاد الأخوي للطباعة، القاهرة، ص 31.

3- وقد أجاز بعض تلاميذه في حاشية الصفقي، ينظر: صورة من هذه الإجازة في الملاحق، صورة رقم: 2.

4- فيض العادل ص 33

ولا تضع يديك فوق القبر أو تمسح الضريح خذ بالأمر
ولا تقبل يا أخي الضريحا وإن شفا بسره الجريحا
كراهة التقبيل قد رآها إمامنا مالك وارتضاها

ثم قال:

والمالكيون العظام كرهوا للمصحف التقبيل فيما حرروا
هذا هو الوارد في المشهور فكيف بالتقبيل للقبور¹

ولعل الشيخ يقصد بذلك قول الباجي: "ووجدت لابن وهب عن مالك أن المسلم على النبي - صلى الله عليه وسلم - يدنو فيسلم، ولا يمس القبر بيده"²
"وروى ابن وهب في المختصر قال: سئل مالك من أين يقف من أراد التسليم؟ فقال: من عند الزاوية التي تلي القبلة مما يلي المنبر، ويستقبل القبلة، ولا أحب أن يمس القبر"³.
"قال مالك: ولا يمس القبر بيده"⁴.

وإذا كان هذا هو الحال بقبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فباقي القبور من باب أولى.

3- منظومة في أحكام الشفعة، تكون من مئة بيت، سماها: "أحكام الشفعة عند السادة المالكية"⁵ قال في أولها:

يقول راجي عفو رب مالك شهاب الدين بن الزوي المالكي
الأشعري القادري مشرباً الفزانيّ الحسنيّ نسباً
بسم الإله أبتدئ نظامي أحمد ربي على الإسلام

1- المرشدة اللطيفة، لأحمد شهاب الدين الزوي، ط: الشركة العامة للورق والطباعة، سبها، ص 23

2- المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان الباجي، المتوفى (474هـ)، ن: مطبعة السعادة، مصر، ط: الأولى 1332هـ، (1/296).

3- التوضيح في شرح المختصر لابن الحاجب، لخليل بن إسحاق المالكي، المتوفى (776هـ) ت: أحمد عبد الكريم نجيب، ن: مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط: الأولى 1429هـ-2008م (2/10)

4- إرشاد السالك إلى أفعال المناسك، لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكي، المتوفى (799هـ) ت: محمد أبو الأجنان، ن: مكتبة العبيكان، (2/756).

5- هذه المنظومة لم تنشر، وتحصلت على نسخة منها من أحد تلاميذ الشيخ - رحمه الله - وهو فضيلة الدكتور: علي البهلول، أستاذ الأدب والعروض بكلية التربية / طرابلس، وقد أجازه الشيخ بخط يده، وهناك صورة لهذه الإجازة في الملاحق في نهاية البحث، صورة رقم: 5.

...إلى أن قال:

نظمته وفقاً لنحاه المالكي الحبر وانتقاه
فاصغ له تحظى أخي بالرفعة فقد حوى دقائقاً في الشفعة

نظم الشيخ هذه المنظومة على مشهور مذهب السادة المالكية، كما صرح في البيت السابق،
فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، عندما تكلم على شفعة غير المسلم قال:
ولم نفرق بين عبد مسلم وكافر في شفعة فلتعلم

توضيح المسألة:

اختلف العلماء هل للذمي حق الشفعة؟

ذهب السادة الأحناف¹، والمالكية²، والشافعية³، إلى أن الشفعة تكون للذمي على المسلم؛ لعموم الأحاديث الواردة في الشفعة، منها حديث جابر -رضي الله عنه- قال: "قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالشفعة في كل شركة لم تقسم ربعة، أو حائط، لا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه، فإن شاء أخذ، وإن شاء ترك، فإن باع ولم يؤذنه فهو أحق له"⁴. فهو لم يفرق بين مسلم وغير مسلم؛ ولأن الشفعة شرعت لرفع الضرر في المال؛ ولذلك يستوي في المسلم والكافر، كالرد بالعيب.
وذهب الحنابلة⁵ إلى أنه لا شفعة للذمي على المسلم، لحديث أنس -رضي الله عنه- أن

1- ينظر: تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، لعثمان بن علي الزيلعي الحنفي، المتوفى (743هـ) ن: المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ط: الأولى 1313هـ، (5/239).

2- ينظر: المعونة على مذهب عالم المدينة، لأبي محمد عبد الوهاب البغدادي، المتوفى (422هـ) ت: حميش عبد الحق، ن: المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة، (1/1281).

3- أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لتركيا محمد الأنصاري، المتوفى (926هـ) ن: دار الكتاب الإسلامي، (2/364).

4- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، المتوفى (261هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ن: دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب: الشفعة، رقم الحديث: (1607). (3/1229).

5- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، لعلاء الدين أبو الحسن، علي بن سليمان المرادوي، المتوفى (885هـ)، ن: دار إحياء التراث العربي، ط: الثانية. (6/312).

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "لا شفعة للنصراني"¹؛ ولأن الشفعة شرعت للإرفاق ولم يقر بها، فلا يكون من أهلها، ولما في أخذه بها من تسلطه على المسلم.

وبعد بيان هذه المسألة، تبين أن الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - نظم هذه المنظومة على مذهب السادة المالكية - رحمهم الله جميعاً -.

المطلب الرابع: دور الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - في الحفاظ على التصوف السني ونشره.
حافظ الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - على موروث وثقافة البلاد اللبية، فكان أشعري العقيدة، مالكي المذهب، صوفي المشرب...

كان على عقد الأشعري وفقه مالك وعلى طريقة جنيد السالك.

أخذ الطريقة القادرية على شيخه، الشيخ: العربي بنور²، وأسس زاويته التي بناها من حر ماله، بجانب مسجد القصر، أو مسجد سيدي نصر، وسماها زاوية سيدي نصر القادرية.

والتصوف الذي كان يمثله الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - هو التصوف السني، القائم على العلم والتقوى، البعيد عن الخزعبلات والانحرافات، وخير دليل على ذلك، تلك الدروس العلمية التي كان يلقيها في زاويته³.

ومن جهود الشيخ أحمد - رحمه الله - في الحفاظ على التصوف السني ونشره، أنه كان يذهب لختم الزوايا في المولد النبوي الشريف في مدينة طرابلس، وكان يلقي الدروس والمواعظ، وينبّه على بعض الأخطاء والمآخذ التي تحدث داخل الزوايا.

ومما يؤكد أن الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - أنه كان على التصوف السني القائم على العلم والتقوى البعيد كل البعد عن الانحرافات، بل كان ينبّه ويحذر منها: فعلى سبيل الذكر لا الحصر، عندما تكلم عن زيارة القبور في منظومته: (المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة)، نهى وحذر من الطواف على القبور والأضرحة فقال:

1- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (457هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، ن: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الثالثة 1424هـ - 2003م، باب: رواية أفاظ المنكرة يذكرها بعض الفقهاء في مسائل الشفعة. = رقم الحديث: (11092)، قال المؤلف: قال أبو أحمد: أحاديث نائل - أحد رواة الحديث - مظلمة جداً، وخاصة إذا روى عن الثوري.

2- هناك صورة لسنده في الطريقة القادرية في الملاحق، صورة: 3.

3- ينظر: صورة من الجدول الدراسي للدروس العلمية، التي كان يلقيها في زاويته، الملاحق، صورة رقم: 4.

واحذر منحت نفحة الألفاف أن تفعلن بدعة الطواف
ففعلهها في شرعنا محذور لا يرتضيها عالم مبرور
فلا تطف كسائر الجهال على القبور واتبع أقوال
فإن أهل الحق كالصوفية يتبعون السنة العلية

وكذلك حذر من النذر لغير الله - تعالى - فقال:

وإن نذرت فانذرن لله لا للولي العابد الأواه
فقصد غير الله بالنذور شرك عظيم حاك في الصدور
فقل نذرت النذر للإله بمسجد أو بالضريح الزاهي
ولا تقل نذرت له لذا الولي وإنما نذرت للرب العلي¹

ومن جهود الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - في الحفاظ على التصوف السني ونشره، أنه ألف كتاباً في ترجمة شيخ الطريقة القادرية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني - قدس الله سره - سماه: (سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني).

• وصف موجز لهذا الكتاب: طبع هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه - رحمه الله - سنة 1999م، وجاء في 135 صفحة، ويعد مصدراً نفيساً يرجع إليه في ترجمة شيخ الطريقة القادرية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني - قدس الله روحه -، حيث تحدث فيه عن رحلاته العلية وتصدره للتدريس والإفتاء وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته وكراماته وغير ذلك.

وفي خاتمة الكتاب وضح الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - ما ينبغي أن يكون عليه مشايخ الطرق الصوفية: "يشترط السادة الصوفية في شيخ الطريقة - مربّي المريدين - أن يكون عالماً من علماء الشريعة، عاملاً بمنهج الشرع الشريف، مطلعاً على مصطلحات الصوفية، وقد أشرت إلى صفة شيخ الطريقة في منظومة المرشدة اللطيفة بقولي:

واعرف رحمت وصف الصالحين وما عليه حال الواصلين
صفتهم تقوى الإله والهدى وبالاتباع للبشير أحمدا
والعلم بالشرع الشريف الطاهر وبكلام الأوليا الأكابر

وصفة المربي في الطريقة الجمع بين الشرع والحقيقة
وغير ذا من الصفات الجملة وذكرها في كتب الأئمة¹⁻²

ومن جهود الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - في الحفاظ على التصوف السني ونشره، أنه أجاز بالسند المتصل مجموعة من تلاميذه في الطريقة القادرية، منهم: فضيلة الشيخ: محمد عثمان السوسي³.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه الذين اجتبي،
وبعد،

فأذكر هنا بعض النتائج التي توصلت إليها بعد هذه الدراسة البحثية، وهي:

- 1- الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - له جهود كبيرة في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية ونشرها، ونشاطه العلمي من تدريس وتأليف خير دليل على ذلك.
- 2- مؤلفات الشيخ أحمد الزوي - رحمه الله - في الفقه المالكي أغلبها كانت على مشهور المذهب.
- 3- أغلب مؤلفات الشيخ مازالت مخطوطة لم تر النور بعد.

كما يوصي الباحث القراء والباحث بتوصيات منها:

- 1- تبين من خلال هذا البحث، أنه ليس هناك دراسة علمية أكاديمية عن الشيخ أحمد الزوي ومؤلفاته، وهو موضوع خصص لعنوان رسالة أو أطروحة جامعية (ماجستير أو دكتوراه)
- 2- أوصي طلبة العلم أن يعتنوا بمنظومات الشيخ، وذلك بإجراء الدراسات حولها شرحاً وتعليقاً.
- 3- بناء على النتيجة الثالثة من النتائج السابقة، أوصي طلبة العلم أن يبحثوا بكل جدية، ويخرجوا لنا مؤلفات الشيخ - رحمه الله - لكي تعم الفائدة.

رحم الله الشيخ شهاب الدين أحمد الزوي رحمة واسعة، ونفعنا بعلومه ونقوله وأسراره.
وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

1- المرشدة اللطيفة، ص: 32.

2- سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني، لسيدي أحمد شهاب الدين الزوي، منشورات زاوية سيدي نصر القادرية- طرابلس - ليبيا- دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى 1999م. ص: 126.

3- ينظر: صورة من هذه الإجازة في الملاحق، صورة رقم: 3.

الملاحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إجارة في رواية الإمام قالون

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه
والتابعين ، وارض عنا معهم يا رب العالمين ، وبعد ، فإن تلميدنا النجيب ، اللوذعي الأريب ،
فضيلة الشيخ المحنّد الأبر - حفظه الله تعالى وقع به العباد- أمين- سيدي:

الطاهر العياشي بن نواراة الزليطني

قد أخذ القرآن عني - من أوله إلى آخره- عرضا وسماعا ، وقد أتقنه كتابة وحفظا ، أصولا وفرشا ،
برواية الإمام عيسى بن مينا الملقب بقالون رضي الله عنه . وقد أجزته بما أجازني به مشائخي: سيدي
الشيخ أبو عجيله علي عثقة الزليطني، والشيخ مصطفى أحمد قشّش المصري، والشيخ علي سالم التير
الرحيبي، والشيخ الأمين محمد قتيوة الطرابلسي، وغيرهم. ورغبة منا في بقاء الإسناد والتصال الأولن بالأوآخر
فقد أجزته في هذه الرواية- قراءة وإقراء- كما أجازني بها سيدي الشيخ المحدث أحمد شهاب الدين بن أحمد نور
الدين لزوي الحسني عن شيخه سيدي أبو العلاء إريس بن محمد بن العابد العراقي الحسيني عن شيخه سيدي
محمد عبدالحق بن محمد عبدالكبير الكتاني الحسني عن سيدي أحمد بن صالح السويدي البغدادي الشافعي عن
سيدي محمد مرتضى الزبيدي الحسيني عن أبي البهاء عز الدين إبراهيم بن عبدالله الميداني دمشقي عن أحمد
بن عبدالمعتمدمنهور عن أبي حامد محمد بن محمد البديري الحسيني الشافعي المصري عن برهان الدين
إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم المدني الشافعي عن محمد شريف بن يوسف الكردي الكوراني عن
محمد بن علي الحكمي اليماني عن شيخ الإسلام زكرياء بن محمد الأنصاري عن أبي العباس أحمد النويري عن
شمس الدين محمد بن محمد الجزري عن شمس الدين محمد بن محمد ابن اللبان عن أبي الحسن علي بن شجاع
العباسي المعروف بالكمال الضريير عن أبي محمد القاسم بن فيره الشاطبي عن أبي الحسن علي بن هذيل عن
أبي داود سليمان ابن نجاح القرطبي عن الحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني عن أحمد بن عمر بن محمد
الجيزي عن محمد بن أحمد بن منير عن عبد الله ابن عيسى المدني عن قالسون عيسى بن مينا عن نافع بن
عبد الرحمن المدني عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر النوسي عن أبي
بن كعب عن سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ
عن رب العزة جل جلاله.



محمد محمود الجمالي الورقلي
أمضاه بيانه القافية

و الحمد لله رب العالمين



ليلة 27 من رجب الحرام 1427هـ.
الموافق الأحد 20 . 8 . 2006 م

صورة رقم (1)

بسم الله الرحمن الرحيم
 وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم
 وقد أجزت أخى فى الامتحان العسير المخلص الورع
 سيدى محمد بن عثمان السورى حفظه الله تعالى
 فى الطريقة القادرية بجميع ما لديه من الاسانيد
 المشهورة بحضرة غوث الاعلام والقطب الزعيم
 الهيك النوران سيدى عبد القادر الجيلانى
 رضى الله تعالى عنه وأرضاه ونصايه ورجاؤه
 حوصياً اليه ونفسى بتقوى الله تعالى وطاعته
 واتباع الشرح الشريف والتسليم وعدم الريب عنه
 كما أوصيه بأن يخضعى بدوامه الصالحة فى خلواته
 أعاننا الله تعالى وأجابه على طاعته واجتنبه بعينته
 وختم لنا بالحسن وزيادة له ما سيج حبيب
 وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم
 والحمد لله رب العالمين
 كتبه بينانه الفانية
 حرم فى مسجدة الجمعة خادم العلم الشريف بزوجة سيدى
 نصر القادرية مطر أملى
 3- ربيع الثور 1417 هـ احمد شهاب الدين الزوى القادري
 مشور

صورة رقم (3)

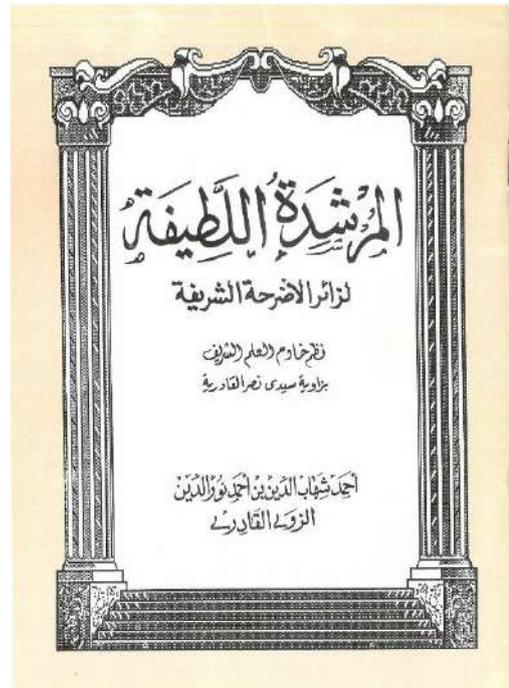
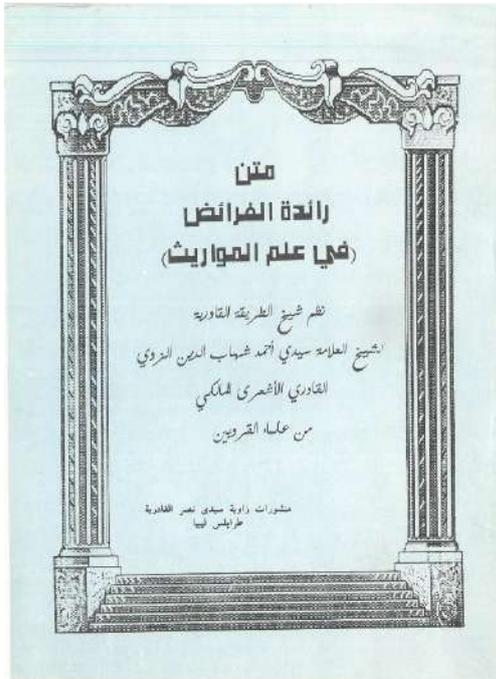
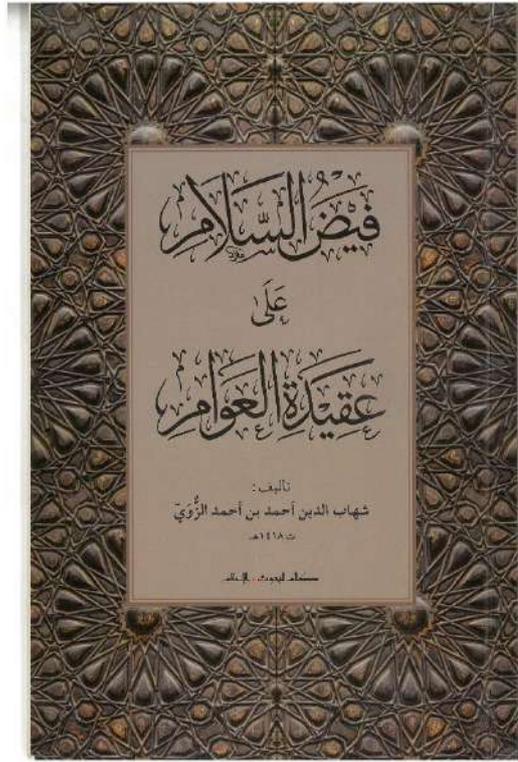
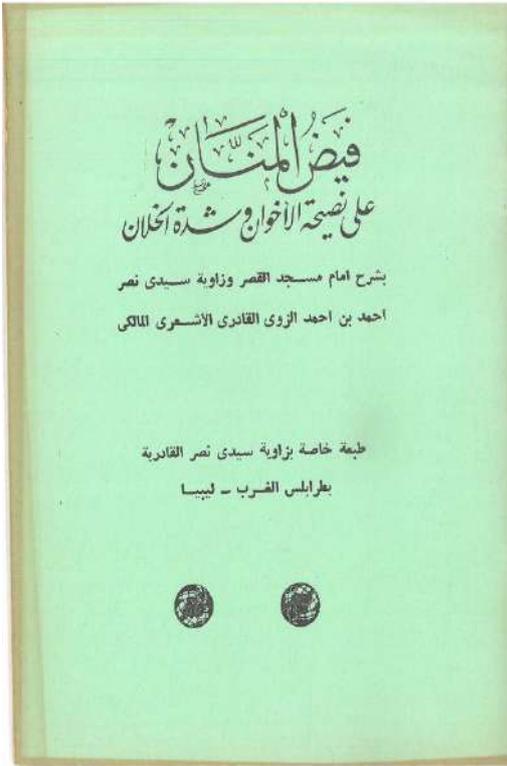
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله
 أما جد فإن أخى فى الامتحان العسير المخلص الورع
 داود بن عباد بن محمد بن صبيح بن سالم حوزة حفظه الله تعالى بارك
 فيه وجعله من عباده الصالحين قرأ علينا شرح سيدى احمد بن زكريا
 على بيتين الصياوية فوجدت فى الشرح الصفتى عرضاً وصحاً ما لم يروى
 سيدى نصر القادرية وأنشأ فى غايته فى غايته فى غايته فى غايته
 واربعاً وثلاثين من هجرة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه
 وآل الله تعالى ان ينفذ ما علمه وينفع به العباد اجمعين
 والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه
 كتبه بينانه الفانية خادم العلم الشريف بزوجة سيدى نصر
 القادرية احمد شهاب الدين بن الشيخ احمد نور الدين الزوى القادري
 الأشمى الكائن فى الغزالي ثم الطرابلسى عن الله تعالى لعلوا لاهيه وآله
 وأتباعه اجمعين
 فاتح شعبان 1415 هـ
 1/1/1995

صورة رقم (2)

***** الخاتمة *****
 244. قاسان التوفيق والهيمنة * لي ولكم من صاحب النبأية
 245. وهاهنا انفتحت بنا المنظرنة * بصيصة واحبحة ففوهة
 246. آياتها ليلى الفى وعلت * يقضل رضى فى الغلابة كملت
 247. نطقها مخلصنا فى * من غير فضا الفخر والشايع
 248. وائلى لي بالفخر والفاخر * قلست غير عاجز وقاصير
 249. والحنس فى على الختام * وأفضل السلاة والسلام
 250. على النبى مخلص وآله * وصحبه والمقضى بهاليه
 بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
 أما بعد فإن أخى فى الامتحان العسير المخلص الورع
 بن الحسن حفظه الله تعالى بن عباد الصالحين ورضاه والماجى روحى
 كثر عنا منظرنا السوسية بالمرشدة الاطرية عرضاً وصحاً ما لم يروى
 عرضاً علينا من حافظته وكان أولاً من حفظها است تلايمنا
 أجزته فى روايتها عنى وأسال الله تعالى ان يبارك فيه وينفعه
 بها علم انه علم كل شىء قد يبرر والله تعالى على سيدنا محمد وآله
 وصحبه وسلم
 كتبه بينانه احقر خلق الله تعالى
 تلام العلم الشريف بزوجة سيدى نصر
 القادرية احمد شهاب الدين الزوى القادري
 1416 هـ
 15/5/1995 م
 حرم فى مسجدة الجمعة

جدول الدراسة لطلبة زاوية
 سيدى نصر القادرية
 « طلبة الفصل الأول »

اليوم	من المغرب إلى العشاء	بعد العشاء
السبت	التفسير	علوم القرآن
الاحد	الحديث	مصطلح الحديث
الاثنين	الفقه	الأدب
الثلاثاء	التوحيد	التجويد
الاربعاء	النحو	اللغة
الخميس	التهوف	



المعاصرة

- 196 * وقد كلف النظم بالفسان * محمد اللبسي ربا الفسان
- 197 * أياكمه قد وقله الى مانه * أوجوبها حذري مع خيرة
- 198 * واظها ربلي ولا تخشون * من طمسي امانا الجلائبي
- 199 * وهل ربي دائما ولسم * على الذي الصحنس الكسبي
- 200 * ياله وصيه ذري العبي * ربا بجهيم أمل القبل والنفسا

بسم الله الرحمن الرحيم
 اللهم صل على سيدي محمد وولي آل محمد وعلوهم
 فقد مرضت على أبي في الله تعالى السيد الجليل العبد
 الشيخ القائل بن علي بن محمد حفظه الله تعالى
 منظومته في الكلام الشفعية من حافظته
 وهذا جزئته في رد بيتها عن
 والحمد لله رب العالمين
 شاهم العلم الشريف
 كزاد سيدي نصر القادري
 آية شهاب الدين الزوي القادري
 نشر

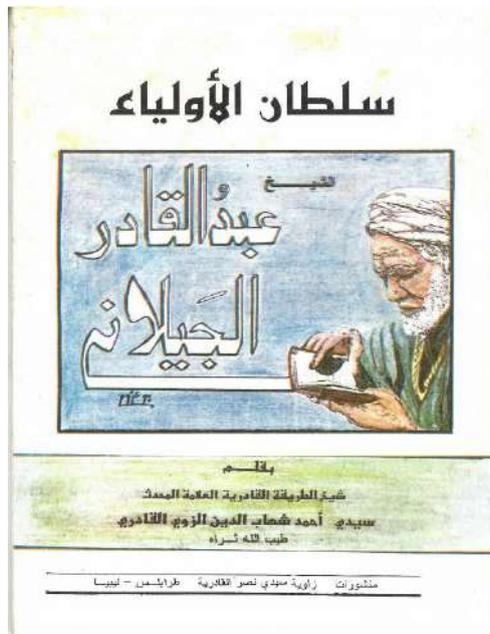
" أحكام الشفعية عند السادة الجليلية "

تأليف خدام العلم الشريفه بزاوية سيدي نصر القادري رحمه
 أحمد شهاب الدين بن أحمد بن الدين السوي القادري

- شور
- 71 * يقول راجح غيرت ماله * شهاب الدين ابن الزوي العاكس
 - 72 * الاخرين القادري حيا * العزاس الحسنسي سيمسا
 - 73 * سم الاله أيدي ندامس * أحمدوهي غني الانسلاوي
 - 74 * ثم الشانه والناسم الترفندقا * غي الياسي المصليسي محمد
 - 75 * زلمه وصيه الاخير * والعلما الاطمنل الاخيرين
 - 76 * وجد حذا لفظا الذي امطل * بنفحة الامام من غير غمك
 - 77 * بامه وقفا لسا جساء * الداعي الجبر والتجساء
 - 78 * مبرحه تحق اش بالرحمة * قد جوي دافقا من الشفعية
- وليس ههنا العفعية
- 79 * ام بان الشفعية المنبسة * طيبة في الفرعية البهسية
 - 80 * ففحة صفة الحدكار * ولا جاع من ذوق الاخيرين
- الحكمة من طهرمة الشفعية
- 81 * وشرعا باجراح لرحم التمسير * من التمسير بجهنم قد طمس
- أركان الشفعية
- 82 * أظها أجمه تكبير * لقا الشفيع ايمسا الميمسج
 - 83 * نالها الشفيعه بالشي * كذا مذكوبه لافتمسج
- مصرف الشفيع
- 84 * ورفا الشفيع بالخير الذي * بمعمل الشفيعه بالحق الذي
 - 85 * لأحدن تسيب من قانا * ماركه ليمسا ناسا
 - 86 * من ماله جدير قد القلا * البهرا واليهيبهما قسلا

صورة رقم (11)

صورة رقم (10)



فهرس المصادر والمراجع

- 1- إرشاد السالك إلى أفعال المناسك، لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكي، المتوفى (799هـ) ت: محمد أبو الأجفان، ن: مكتبة العبيكان
- 2- أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لذكريا محمد الأنصاري، المتوفى (926هـ) ن: دار الكتاب الإسلامي
- 3- الأعلام، لخير الدين محمود للزركلي، المتوفى (1396هـ) ن: دار الملايين، ط: الخامسة عشرة، 2002م
- 4- إمتاع الفضلاء بتراجم القراء بعد القرن الثامن الهجري، ت: إلياس أحمد البرماوي، ن: دار الندوة العالمية للطباعة، ط: الأولى 1421هـ، 2000م.
- 5- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، لعلاء الدين أبو الحسن، علي بن سليمان المرداوي، المتوفى (885هـ)، ن: دار إحياء التراث العربي، ط: الثانية.
- 6- تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، لعثمان بن علي الزيلعي الحنفي، المتوفى (743هـ) ن: المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ط: الأولى 1313هـ
- 7- التوضيح في شرح المختصر لابن الحاجب، لخليل بن إسحاق المالكي، المتوفى (776هـ) ت: أحمد عبد الكريم نجيب، ن: مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط: الأولى 1429هـ - 2008م
- 8- خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - لمحمد بن أحمد، المعروف (بأبي زهرة) المتوفى (1394هـ)، ن "دار الفكر العربي، القاهرة 1425هـ
- 9- دلائل النبوة، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (458هـ)، ن: دار الكتب العلمية، بيروت. ط: الأولى 1405هـ
- 10- ريحانة الأرواح، للشيخ علي سيالة، إعداد وترتيب: محمد الأمين الجعفري، مسجد مصعب ابن عمير، طرابلس، ليبيا
- 11- سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني، لسيدي أحمد شهاب الدين الزوي، منشورات سيدي نصر القادرية- طرابلس - ليبيا- دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى 1999م.
- 12- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (458هـ) ت: محمد عبد القادر عطا، ن: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة 1424هـ- الموافق 2003م.

- 13- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى (457هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، ن: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الثالثة 1424هـ - 2003م
- 14- سيرة ابن هشام، لعبد الملك ابن هشام، المتوفى سنة (213هـ) ت، مصطفى عبد القادر عطا، ن: مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط: الثانية 1375هـ - 195م.
- 15- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، المتوفى (261هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ن: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 16- فيض السلام على عقيدة العوام، لأحمد شهاب الدين الزوي، نشر: مؤسسة كلام للبحوث والإعلام.
- 17- فيض العادل في أدلة السادل، لأحمد شهاب الدين الزوي، طبعة خاصة بزاوية سيدي نصر، ط: دار الإتحاد الأخوي للطباعة، القاهرة
- 18- المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة، لأحمد شهاب الدين الزوي، منشورات: زاوية سيدي نصر القادرية.
- 19- المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المتوفى (405هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ن: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى 1411هـ - 1990م
- 20- المعونة على مذهب عالم المدينة، لأبي محمد عبد الوهاب البغدادي، المتوفى (422هـ) ت: حميش عبد الحق، ن: المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة
- 21- المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان الباجي، المتوفى (474هـ)، ن: مطبعة السعادة، مصر، ط: الأولى 1332هـ.

دور رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات اللبية " دراسة ميدانية "

د: مصطفى خليفة إبراهيم/جامعة الزيتونة/كلية التربية

مقدمة

الصوفية هي التي أنعشت عاطفة الحب الإلهي حيث كانت تدرس العقيدة الإسلامية غير مبتورة الصلة بالقلب والفؤاد فربطت قلوب الناس ربطاً بديعاً محكماً برب السموات والأرض، ثم خرج من رحم التصوف الإسلامي قيادات ونماذج رفيعة الفكر ثرية المحتوى والمضمون صدقوا ما وعاهدوا الله عليه وكانوا بإيمانهم وسلوكهم وثباتهم وبذلهم شرفاً - أي شرف للحياة - وللشعوب المستضعفة، وللإنسان في كل مكان⁽¹⁾ ومنه دورهم الاجتماعي الذي يتمثل في الوفاق بين الناس، والصلح الاجتماعي طريقاً لمجتمع تسوده المحبة والتآلف والتنمية؛ ومن ثم فإن التصوف الإسلامي يخاطب وجدان البشر ويهتم بتهديب سلوكهم، وترقيق مشاعرهم، وترقية أرواحهم، فالتصوف يحقق التوازن النفسي، والاعتدال، فيقي بذلك الفرد من القلق، والخوف والاهتزاز، لأن كل شيء من حولنا يهتز ويخور، والقيم الأخلاقية أخذة في الاضمحلال⁽²⁾ ما ترتب عليها المشاجرات التي تحدث بين العائلات والأفراد، وقد تصل إلى الإعاقة الجسدية، أو الموت للفرد، وربما قد يولد ثقافة العنف والعنف المضاد، وهذا يتطلب دور رجال التصوف الديني في المجتمع لحل تلك الخلافات حيث أصبح للنموذج الصوفي دور ومجال في حياتنا ليعبر عن الجانب الآخر من القضية وردة فعل مضاد لثقافة العنف وأهمية التصالح والصلح بين العائلات لأن رجال التصوف الديني همهم أن يكون مجتمعهم الإسلامي غير ممزق ولا مفتت وفي جسدهم عرق ينبض بالحياة وجوارحهم تشتغل من حسهم الوطني والديني .

قد بينت نتائج دراسة أجريت أن للزوايا الصوفية بناء وتنظيماً اجتماعياً متكاملًا ومتسانداً وظيفياً حيث إنه يتكون من شيخ بوصفه قائداً للجماعة الصوفية، وقاعدة عريضة من المريدين، يرتبط هذا البناء بشبكة من العلاقات الاجتماعية، والشعائرية وكذلك العلاقات

(1) انظر جمال حماد، التصوف حياة وسلوك وجهاد وكفاح، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي، سبتمبر 1995،

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا، ص 485، 484.

(2) انظر محمد علي المصليحي، التصوف الإسلامي ضرورته ودوره، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي سبتمبر 1995م،

المرجع نفسه، ص 308.

الاقتصادية فإن لها دوراً فعالاً ووسيلة ناجحة في الضبط الاجتماعي يلجأ إليها أفراد المجتمع أكثر من لجوئهم إلى المؤسسات الرسمية⁽¹⁾.

وتعد الطرق الصوفية أحد المنابر العلمية للتعليم في حياة أفراد المجتمع الليبي عبر التاريخ فالشواهد التاريخية لأماكن تعلم أبناء هذا الوطن في العشرينات، والخمسينات من القرن الماضي خير دليل على ذلك فانتشر التعليم في كل مدن ليبيا فقد زودت أبناء هذا الوطن بطرق تعلم الدين الإسلامي، بل ساعدت هذه الطرق الصوفية ورجالها في الدفاع عن الوطن ضد المحتل الأجنبي في تلك الفترة بكل أشكاله وملمت الصفوف في وحدة الوطن، في فترة الاستقلال وانطلقت من مبادئ الدين الإسلامي التي تعزز وحدة الوطن والأخوة ونزع الخلافات، والفتن، وجعلت هذا الوطن سفينة نجاة لأفراد المجتمع من الحروب، والنزاعات بدءاً من دور رجال التصوف في الإصلاح الاجتماعي بين الأفراد، والعائلات، والقبائل الليبية، فهم يمثلون دعامة الإصلاح الاجتماعي لرفع هموم الوطن، والمواطن من أجل مجتمع تسوده المحبة، والتآلف انطلاقاً من التدين الذي يهذب النفوس والضمائر لما فيه خير الأسرة، والمجتمع جميعاً.

وفي هذا السياق تعد هذه الدراسة من الدراسات النادرة في حقل علم الاجتماع الديني التي تحاول التعرف على دور رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية ولعل الشواهد كثيرة يتناولها الليبيون بالمفخرة والامتنان لهؤلاء الرجال في حلهم لعديد المنازعات، والمشاكل في المجتمع، وفي كل مدينة ليبية فهناك مئات القضايا التي تم الفصل فيها بطرق عرفية بين الأفراد، والعائلات الليبية بفضل رجال التصوف الديني أو ما يسمى لجان الصلح الاجتماعي، أو لجان فض النزاعات، وقد صعب على الباحث عرضها في هذه الدراسة وذلك حفاظاً على سريتها وخصوصية الموضوعات التي تناولتها.

الأطر المنهجية والنظرية للدراسة:

أولاً: الأطر المنهجية.

- مشكلة الدراسة:

يعد رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي، أو الصلح الاجتماعي ذوي أهمية في إرساء السلم الاجتماعي بين الأفراد والعائلات الليبية وحيث إن رجال التصوف

(1) انظر احمد محمد أحمد المعرفي، الدور الاجتماعي للطرق الصوفية دراسة سوسيوأنثروبولوجية للزوايا الصوفية بمنطقة تهرونة، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم تهرونة، جامعة المرقب، 2007، رسالة ماجستير غير منشورة، ص 167.

الديني يحظون باحترام وتقدير عالٍ في مجال التصالح بين الأفراد، وكل الأطراف المتنازعة تستجيب لأفكارهم في الصلح انطلاقاً من أنهم يتحركون من حسهم الديني، والوطني في الملمة العائلات المتنازعة، والصلح بينها، وقد تحتكم إليهم أغلب العائلات الليبية بعيداً عن القانون أو بعد عجز القانون عن حلها، فإن الدراسة تنطلق من السؤال التالي: ما دور رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية من وجهة نظر بعض الأفراد الليبيين؟ - أهمية الدراسة:

تعد هذه الدراسة من الدراسات ذات الأهمية في مجال علم الاجتماع الديني لأنها تناول التعرف على دور رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية من وجهة نظر آراء بعض الأفراد الليبيين، ومدى إسهام هؤلاء الرجال في بناء ثقافة السلم الاجتماعي في المجتمع، وتوطيد علاقات المحبة والتآلف بين الأفراد بالمجتمع وبناء شراكة بين المؤسسات الرسمية، والأهلية، حيث تعد نخبة الزوايا الصوفية أحد الدعامات الأساسية في التنشئة الاجتماعية الدينية، والضبط الاجتماعي، وسلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي قد تهدد نسيجه الاجتماعي، ومن ثم هي تمثل مؤسسة أهلية لها دورها الخدمي مثلها مثل المؤسسات الأهلية الأخرى التي ترعى المجتمع وتخدمه.

لذلك سوف تساهم هذه الدراسة في دعم استقرار المجتمع من خلال جهود رجال التصوف في الإصلاح الاجتماعي وملجأ الناس لهم كلما استوجب ذلك على نطاق الأفراد، والأسر، والعائلات، والقبائل في حل المنازعات، والخلافات عندما يعجز رجال القانون عن حل تلك المشكلات الاجتماعية، كما تعد هذه الدراسة إثراء للمكتبة العلمية في مجال علم الاجتماع الديني، وإبراز الدور الاجتماعي لرجال التصوف في المجتمع الليبي.

- أهداف الدراسة:

1. التعرف على مدى إسهام رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية بمجتمع الدراسة.
2. التعرف على أيهما أكثر تأثيراً في حل المنازعات بين العائلات الليبية رجال التصوف الديني، أم رجال القانون.
3. التعرف على الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية.

- تساؤلات الدراسة:

1. ما مدى إسهام رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية مجتمع الدراسة؟
2. من هو أكثر تأثيراً في حل المنازعات بين العائلات الليبية رجال التصوف الديني، أم رجال القانون؟
3. ما هي الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الإصلاح الاجتماعي بين العائلات الليبية؟

- مفاهيم الدراسة:

* الدور: عبارة عن نمط منظم من المعايير يختص بسلوك فرد يقوم بوظيفة داخل جماعة ويعرفه "لينتون" بأنه: "الجانب الديناميكي لمركز الفرد ومكانته في الجماعة واجتماعياً هو النشاط الاجتماعي الذي تقوم به حركة اجتماعية معينة داخل المجتمع، ويظهر داخل الجماعات الرسمية، وغير الرسمية فجوه هذه العملية هو معرفة الوظائف الاجتماعية، والاقتصادية، والتعاون من أجل المحافظة على مصالح الجماعات، والمجتمع، والدور الاجتماعي يشكل التوقعات المشتركة لأفراد الجماعة عن طريق أسلوب تفكير الفرد وسلوكه المطلوب منه في مركز ما".⁽¹⁾

ونقصد بالدور إجرائياً في هذه الدراسة هي الوظيفة الاجتماعية التي يقوم بها رجال التصوف الديني في المجتمع، والمنحصر في سلسلة من الأفعال الخيرة، والجهود من أجل تحقيق هدف معين.

* رجال التصوف: "التصوف ظاهرة إنسانية وتجربة دينية روحية يعيشها الإنسان في تسام، معتمداً على المجاهدات الروحية بهدف الوصول إلى أعلى الدرجات، وهو منهج تربوي على طريقة تتم به مكارم الأخلاق وتتجلى أنواره في قلوب سالكيه".⁽²⁾

(1) محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 8.

(2) عبد المحمود الحفيان الجليلي، التصوف الإسلامي المصطلح المفهوم، أسرار للطباعة، ط 1، 2004، ص 132.

ونقصد برجال التصوف في هذه الدراسة هم الأفراد الذين يحملون فكر التصوف في مجتمع الدراسة، ولهم دور اجتماعي في السلم الاجتماعي.

* الإصلاح الاجتماعي: هي الطرق والوسائل التي يستخدمها رجال التصوف الديني في المساعدة في حل المنازعات والخلافات بين الأفراد، والعائلات اللببية للتسوية الودية بينهم، وتوفير الأمن، والسلم الاجتماعي بين أفراد المجتمع نتيجة ما يحظون به من احترام وتقدير.

* العائلات اللببية: هم الأفراد والعائلات اللببية التي حدثت بينها خلافات، ومنازعات بأسباب مختلفة وسببت في عدم استقرارهم أمنياً وهذا يؤثر عليهم ويتطلب محاولة حل هذه الخلافات بطرق سلمية تحت أيدي شخصيات معروفة دينية تحمل فكر التصوف، ويشهد لها بكل العديد من القضايا.

- منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة الراهنة على منهج المسح الاجتماعي عن طريق العينة باعتباره من أنسب المناهج.

- نوع العينة:

تم الاعتماد على العينة العمدية من بعض الأفراد بمنطقة الدراسة بعدد "34" فرد.

- نوع الدراسة:

تعد هذه الدراسة من الدراسات الوصفية التحليلية.

- وسيلة الدراسة:

تم الاعتماد على صحيفة الاستبيان لجمع البيانات من عينة الدراسة.

- مجالات الدراسة:

* المجال البشري: يمثل المجال البشري في الأفراد اللبيين الذين يقطنون منطقة ترهونة ولديهم خلفية عن دور رجال التصوف الديني في حل العديد من القضايا.

* المجال المكاني: تم إجراء الدراسة في منطقة ترهونة التي توجد بها العديد من الزوايا الصوفية التي بلغت (51) زاوية صوفية.

* المجال الزمني: تم إجراء الدراسة في الفترة 2022-6-18، 2022-6-25.

- الأساليب الإحصائية المستخدمة في الدراسة: هي الجداول التكرارية والنسب المئوية.
ثانياً: الأطر النظرية.

التصوف في الفكر الاجتماعي:

يعد "الدين ظاهرة اجتماعية تمثل لأفراد المجتمع عقيدة لا نسق فكري وشعائر مميزة، والنظم الدينية من الظواهر المهمة والأساسية في حياة المجتمعات البشرية فكل مجتمع إنساني يحتوي على نظم اجتماعية أساسية تحدد هيكله الخارجي، وعلاقات، وممارسات، وتفاعلات أعضائه، وكل ما من شأنه أن يسهم في تماسكه وديمومته، واستقراره".⁽¹⁾

ومع أن لكل نظام اجتماعي وظائفه الخاصة والعامة إلا أن كل واحد يعتمد على الآخر، ويرتبط معه بعلاقات قائمة على التأثير المتبادل، ويرتبط بعلاقة تبادلية مع النظم الأخرى من حيث تركيزه على أشكال مختلفة من الحياة البشرية، فهو يتطرق للعلاقة بين الخالق، والمخلوق، ويسعى الإنسان للبحث عن اليقين في الطبيعة وينشر أسباب وجوده ومعرفة أسرار الحياة الغامضة، وقد تأثر بظروف الحياة الاجتماعية والطبيعية وخضع للعديد من الرموز الدينية.⁽²⁾

وقد نظر "دور كأم" إلى الدين باعتباره فاعلية اجتماعية تهدف إلى تقوية التماسك الاجتماعي لأن الفرد يشعر بالمشاركة الروحية مع بقية أفراد مجتمعه وبين أنه نظام موحد للمعتقدات، والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدسة، وأن وظيفة المعتقدات، والممارسات السائدة في المجتمع هي التوحيد بين أولئك الذين يؤمنون بها وأن العلاقة بين الدين، والسلوك الاجتماعي علاقة وثيقة جداً، لأن الدين نظام سلوكي يقوم على معتقدات تمثل العلاقة بين أفراد المجتمع وما يعتبرونه، ويحتوي طقوساً، وممارسات مقدمة ترتبط بعدة وظائف تنقسم إلى ظاهرة وكامنة، فالأولى تتمثل في العبارة، والأخرى تتمثل في إشباع الحاجات الإنسانية، والاجتماعية، وهذا ما أكده "روبرت ميرتون" في عرضه للاتجاه الوظيفي عن الوظائف الكامنة التي تشير إلى نتائج تحقق نفس الغرض، ولكنها غير مقصودة، والوظائف الظاهرة التي تشير إلى الموضوعية، وتسهم في التوافق والتكيف في المجتمع، وأن التمييز بينها

(1) محمد أحمد المعرفي، الدور الاجتماعي للطرق الصوفية مرجع سابق ص 64.

(2) انظر محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط 1، 1995، ص 50، 51.

يساعد على تفسير الكثير من العادات الاجتماعية، والتعرف على الممارسات الدينية، والصوفية منها، وما تؤديه من دور اجتماعي متعدد الأبعاد من دينية، وثقافية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية.⁽¹⁾

الدور الاجتماعي لرجال التصوف في المجتمع:

يمثل دور رجال التصوف دوراً حيوياً في مسرح الحياة الاجتماعية بالمجتمع وفض وحل الكثير من القضايا والنزاعات التي عجز رجال القانون والمؤسسات الرسمية عن حلها بين الأفراد، والعائلات، بل وحتى القبائل، وليس هذا فقط، بل يمتد دورهم إلى إقامة وتشديد الزوايا لتعليم وتحفيظ أبناء هذه الأمة القرآن الكريم تهذيب سلوكهم بالاستقامة، ومجاهدة النفس، والتخلي عن الصفات المذمومة، والتخلي بالأخلاق الحميدة، وخلق إنتاج اجتماعي معافي من الأمراض العضوية، والسيكولوجية، والاجتماعية، ويمكن استعراض دور رجال التصوف في المجتمع بالآتي:

1- التنشئة الاجتماعية:

"التنشئة الاجتماعية عملية قائمة أساساً على ترويض، وتعليم الفرد آداب السلوك الاجتماعي ليتواءم مع قواعد المجتمع ومعايير"⁽²⁾. وتعتبر" الجماعة الصوفية من الهيئات الاجتماعية التي تشارك في عملية التنشئة الاجتماعية التي تحتوي على مجموعة من الأنماط السلوكية التي تساعد الفرد على التواءم والتكيف مع البيئة الاجتماعية ليصبح عضواً صالحاً ومتعاوناً، وله دوره في هذه الجماعة، والمجتمع قاطبة، فدور رجال التصوف في مجال التنشئة الاجتماعية دور عميق، لأنه مرتبط بجوانب نفسية، وروحية للفرد من حيث تهذيب الشخصية البشرية من جميع جوانبها حتى تبلغ الغاية في تحقيق واستكمال كفاءتها"⁽³⁾.

2- الضبط الاجتماعي:

يعد الضبط الاجتماعي، وحل الخلافات، والمنازعات بين الأفراد والعائلات، وحتى القبائل من أبرز الأدوار الذي يقوم به رجال الطرق الصوفية، ويشهد لهم به في الكثير من المجتمعات العربية العشائرية وخاصة المجتمع الليبي، فهم يحضون باحترام وسماع

(1) انظر منال عبد الحميد، التصوف في مصر والمغرب، الاسكندرية، منشأة المعارف، 1987، ص 95.

(2) فاروق أحمد مصطفى، البناء الاجتماعي للطريقة الشاذلية بمصر، دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1974، ص 187.

(3) محمد محمد المعرفي، الدور الاجتماعي للطرق الصوفية، مرجع سابق، ص 82.

كلمتهم في الوسط الاجتماعي وكلها حل رجال من أهل التصوف في فض نزاع بين أطراف متنازعين كلما كان مستجاباً من الطرفين فيما يأمر به هؤلاء الرجال.

إن رجال الطرق الصوفية لهم دور فعال في الفصل بين الأفراد في حل النزاع والخلافات، وفي تدعيم المبادئ والقيم الدينية، والدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة السامية، فهم يدعون إلى إقامة السلام وتحقيق الأمن والقضاء على التباغض، وحل العديد من المشكلات الاجتماعية، وهذا يعمل على مساعدة المجتمع على دفع عملية الحياة، إلى التسامح، والتقدم، ومقاومة الانحراف، وإيقاظ الضمير، وتدعيم القيم الاجتماعية الإيجابية وترسيخها⁽¹⁾ ومن ثم نلتمس على مستوى الواقع الاجتماعي أن رجال التصوف لهم نظرة عالية في المجتمع ويحضون بكل تقدير واحترام وقبول في مطالبهم بشأن طرق حل الخلافات بين الأفراد والأزواج وكل القضايا التي تحدث في المجتمع، وعلى المجتمع ومؤسساته المختلفة أن تعترف بالدور الاجتماعي وحتى الاقتصادي، والسياسي في حل رجال التصوف للعديد من المشكلات التي تحدث في المجتمع وأنها أصبحت مثل المؤسسات الأهلية التي تقدم خدماتها لأفراد المجتمع وأن يشيد المجتمع بها في المحافل الاجتماعية وكذلك العلمية لما لها من دور فعال في الإصلاح الاجتماعي.

وهناك من الباحثين من تحدث عن دور "القيم، والأعراف، والعادات داخل المجتمع الليبي بأنها فرضت نوع من النظام الاجتماعي يسمى (الميعاد) - لقاء مشترك - غايته العمل على تجنب النزاع بين أفراد المجتمع، كما أنه أصبح أسلوباً ضرورياً فرضته تلك القيم الأخلاقية لتسوية الخلافات الاجتماعية والنزاعات التي تحدث بين الأفراد، والأسر في نسيج المجتمع الواحد، (فالميعاد) عبارة عن فريق عمل اجتماعي يتكون من عدد من أفراد المجتمع مما يتمتعون بفطنة وذكاء، ومكانة اجتماعية مرموقة، تظهر بشكل اجتماعي لغرض حل الخلافات القائمة، وعادة يترأسها أكبر الأفراد سناً، أو مما يتمتعون بمكانة اجتماعية مقبولة بين الجميع، حيث تجتمع في مكان معلوم، ومحدد، وتدعوا المتنازعين سواء كانوا أهل النزاع، أو من ينوب عنهم، ويتم وضع حلول جذرية ونهائية لفظ هذا النزاع ويدفع طرفا النزاع اجتماعياً إلى قبوله"⁽²⁾، ويظهر هذا الدور في رجال التصوف

(3) نفس المرجع، ص 83.

(2) سالم محمد الهريشي، ملاح التغيير الاجتماعي في المجتمع الليبي، ص 90-91.

الديني لما فعلوه في الماضي والحاضر من حل كثير من القضايا في المجتمع الليبي التي صعبت على رجال القانون حلها، أو حلها ودياً واجتماعياً قبل أن تصل الى أيدي القانون والقضاة، ومن ثمّ هذا الدور الذي قام به رجال التصوف الديني قد عاجل العديد من القضايا حتى في المجتمعات العربية التي تؤمن بدور القيم والأعراف والعادات الاجتماعية في حل العديد من مشاكلها على أيدي مشايخ القبائل، أو العائلات، أو ممن يملكون فكر التصوف في علاج بعض المشكلات العربية الاسلامية.

فقد أظهرت نتائج دراسة أجريت أن أغلب أفراد القبيلة يتقيدون بالعرف، ومعاييرهم ويحترمون أحكامه ومواثيقه وهو يسري على الجميع.⁽¹⁾

وفي دراسة أخرى أجريت قد بينت نتائجها أن العرف لا يزال له الدور الأقوى في الضبط الاجتماعي فيما يخص فض المنازعات في مجتمع البيضاء، كما أن غالبية مجتمع الدراسة لا يزال يفضل الحلول العرفية تميزها بسهولة الإجراءات مقارنة بوسائل الضبط الرسمي لاقتناعهم بأنها أكثر عدالة، وهو ما تفضله السلطات الليبية الرسمية ذاتها، ويعد ذلك نوعاً من التوفيق بين وسائل الضبط الاجتماعي الرسمية، والعرفية يسير معاً جنباً إلى جنب على طريق حل المنازعات التي تنشأ بين أفراد المجتمع الواحد ليتحقق بذلك نوع من التعامل بينهم مما يشجع معه الأمن والعدل، والسلام الاجتماعي كما أظهرت نتائج الدراسة أيضاً أن للعرف مزايا كثيرة كسرعة إنهاء المشاكل والمصالحة بين الأطراف المتنازعة وضع تفاهم المشاكل، وتقريب وجهات النظر والسعي بين الناس بالخير واجبارهم على التسامح في كثير من المشاكل.⁽²⁾

دور لجان الصلح الاجتماعي في إرساء ثقافة السلم والأمن الاجتماعي:

"الصلح في الإسلام هو إنهاء وإزالة الخصومات والخلافات بين الناس بهدف التضامن، والمسامحة، وقد يتطلب توسط مجموعة من المصلحين للإصلاح بين المتخاصمين،

(1) عبد الكريم علي مصطفى علي، مشروع الجبل الأخضر الزراعي وأثره على الجوانب السوسيو ثقافية بمنطقة الوسيطة بالجمهورية الليبية "دراسة ميدانية في الانثروبولوجيا الثقافية"، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة 2011، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص 229.

(2) جمال أحمد البكري عقل، العرف في مجتمع البيضاء بالجبل الأخضر بالجمهورية الليبية "دراسة انثروبولوجية ميدانية" معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة، 2007، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص 267، 266.

وفقاً لما أمر به الشرع الحنيف بهدف إزالة الخصومات، وتسوية الخلافات ليسود بين الناس روح الحب، والعفو، والتسامح، وغالباً ما يكون أهل الصلح من ذوي الثقة والجاه في المجتمع، وهدفهم هو الحفاظ على نسيج المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي قد تطله بالهلاك والفوضى".⁽¹⁾

إن مقاصد الصلح وإصلاح ذات البين، والتحكيم الودي ورد المظالم والحقوق إلى أهلها، سواء كانت مادية أو معنوية، يعد من أهم مقاصد لجان الصلح ولا بأس من العفو، والتنازل عن الحق كله أو جزء منه عن طيب خاطر ونفس راضية، وهو من معالم الأخوة في الله وأنه من الأخلاق التي حثنا الله ورسوله عليها، فالصلح والإصلاح هو استئصال داء النزاع قبل أن يستفحل، كما أن من أهمية التحكيم الودي هو الحد من زيادة المنازعات، وتقطع أوصال الأرحام، والأخوة، والود بين الناس، والحد منه، والإصلاح الاجتماعي هو صيانة المجتمع من عوامل التمزق، والخلاف، والفتن، وسلوك العنف، والعنف المضاد، وتشيع فيه كل عوامل التلاحم، والترابط والامن والطمأنينة والمحبة والتجانس الاجتماعي، ولا بد من ترجيح العقل ونبد العنف، واستيعاب الخصم ورأب الصدع، وإحلال الوثام محل الخصام.

إن المصالحة والوثام الوطني لا يتحقق إلا بالمصالحة مع النفس، والآخرين، والرغبة الصادقة لتحقيق السلام الاجتماعي بين الأطراف كافة في المدن، والمجتمع بعامه، وعودة الأمن شرط أساس لمواجهة كل التحديات والأزمات التي يمر بها المجتمع، ونشر ثقافة التسامح، والسلم وتجاوز السلوكيات ذات العنف، والعنف المضاد لأن المصالحة الوطنية تمثل هماً وطنياً ينبغي كل واحد في المجتمع أن يتنازل عن هذه السلوكيات لتحقيق الوفاق الوطني، ودعم مسيرة المجتمع نحو مستقبل أفضل ودرء شبح العنف، والاحتقان في المجتمع، كما يعد قبول اعتذار المعتذر خلق كريم، ومروءة وشهامة، يدل على علو صاحبها ولنا في دور أهل العلم، والدين، والمروءة، والوجاهة في ذلك ألا تنكسر خواطرهم، وتسود الدنيا في وجوههم فهم الذين يستشعرون وخز الضمير ويتحركون من حسهم الديني والوطني، فالمجتمع الليبي ملئ بالكوادر العلمية، والدينية التي تحظى باحترام كلمتها في الوسط

(1) حسين حسين شحاتة، الصلح والتحكيم الودي في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط1،

الاجتماعي، وتكاد تكتسب صفة الإجماع ويمثل الخروج عنها جريمة لا تغتفر ومنها ما يسمى (بالجاهة) فتلك الكوادر تمثل العقل، والحكمة، والنضج الفكري، والاجتماعي، وخلوص النية، والعدالة، والخبرة الكافية، في الإصلاح وقوة الشخصية، والتأثير، وسعة الصدر، والصبر، فالدور الاجتماعي الذي يلعبه مشايخ المساجد، والقيادات الاجتماعية الدينية ورواد المؤسسات الدينية في وزارة الأوقاف يعد دوراً هاماً وحيوياً في حل العديد من المشكلات الاجتماعية في المجتمع، ومحاربة كل أنواع الأمراض الاجتماعية، ويتجلى دورهم تدعيم روابط المحبة والتألف، والتسامح، فالتسامح يعد خطأ حضارياً، ومبدأ من مبادئ التشريع الإسلامي، والإجماع البشري، فرضتها تحولات الحياة، وعلاقات الناس، فهو لا يعني القبول بالظلم الاجتماعي بقدر ما يزيد المسامح قدراً من الاحترام، والتقدير لقبوله ثقافة التسامح، وإشاعتها في المجتمع، لذلك فإن لجان الصلح الاجتماعي من رجال التصوف الديني، والمشايخ وكبار السن الذين يحظون بالقبول، والتقدير الاجتماعي، والديني في المجتمع الليبي عادة ما يجدون استجابة للفرقاء، والمعنفين في قبول التسامح، والصلح الاجتماعي.⁽¹⁾

نبذة عن منطقة ترهونة:

تقع منطقة ترهونة في الشمال الغربي من ليبيا على حافة السلسلة الجبلية التي تفصل بين الهضبة والصحراء، وتبعد عن ساحل البحر المتوسط حوالي 20 كم، وعن مدينة طرابلس 90 كم، كما تعتبر منطقة ترهونة أحد مناطق ليبيا المهمة في خصوبة تربتها ونتاجها الزراعي، ويبلغ عدد سكانها الليبيين (230960) نسمة، حسب إحصاءات مصلحة الأحوال المدنية بالمنطقة، منهم الذكور عدد (109865) والإناث (121095) وعدد الأسر يبلغ (50387)، وتنقسم إلى عدة فروع بلدية، كالفرع البلدي سوق الأحد، وسيدي الصيد، والداون، وسوق الجمعة، وترهونة المركز، وتوزع عليها مجموعة من زوايا الطرق الصوفية التي يبلغ عددها (51) زاوية صوفية تمارس دورها في تعليم القرآن الكريم للطلاب، وإقامة الاحتفالات بالمناسبات الدينية، وينتسب إليها العديد من الأفراد الذين

(1) انظر مصطفى خليفة ابراهيم مظاهر العنف في المجتمع الليبي، أعمال المؤتمر الدولي الخامس لعلوم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة الزقازيق، 28 - 29 نوفمبر 2012 بعنوان الفكر والممارسة لحماية الأسرة العربية من العنف الأسري ص 824.

يمارسون شعائرهم الدينية، ويمارسون دورهم الاجتماعي في الصلح بين الناس وحل العديد من القضايا الاجتماعية في المنطقة.

الدراسة الميدانية:

جدول (1) يبين أفراد عينة الدراسة حسب العمر

النسبة %	التكرار	الفئة العمرية
21%	7	من 25 فأقل
15%	5	35 - 26
32%	11	45 - 36
32%	11	46 فأكثر
100%	34	المجموع

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (1) أن توزيع أفراد عينة الدراسة حسب العمر فكانت من 25 فأقل قد بلغت (21%) ونسبة (15%) للفئة من 26 - 35، وتساوت نسبة الفئتان من 36 - 45، و46 فأكثر حيث بلغت (32%).

ويتضح أن أغلب أفراد عينة الدراسة أعمارهم هم من فئة "36" فأكثر.

جدول (2) يبين أفراد عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي

النسبة %	التكرار	المستوى التعليمي
35%	12	تعليم أساسي فأقل
47%	16	تعليم متوسط
18%	6	تعليم جامعي فما فوق
100%	34	المجموع

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (2) أن توزيع أفراد عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي كانت كالتالي، تعليم أساسي فأقل بلغت نسبتهم (35%) ونسبة (47%) تعليم متوسط، ونسبة (18%) تعليم جامعي فما فوق.

ويتضح أن أغلب أفراد مجتمع الدراسة هم من فئة التعليم المتوسط.

جدول (3) يبين أفراد عينة الدراسة حسب المهنة

النسبة %	التكرار	المهنة
21%	7	عمل حر
79%	27	موظف
100%	34	المجموع

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (3) أن توزيع أفراد عينة الدراسة حسب المهنة وكانت كالتالي، عمل حر بلغت نسبتهم (21%) ونسبة (79%) موظفون. ويتضح أن أغلب أفراد مجتمع الدراسة هم من الموظفين.

جدول (4) يبين أفراد عينة الدراسة حسب الخلفية الحضرية

النسبة %	التكرار	الخلفية الحضرية
18%	6	سكن داخل المدينة
82%	28	سكن خارج المدينة
100%	34	المجموع

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (4) أن توزيع أفراد عينة الدراسة حسب الخلفية الحضرية كانت كالتالي، سكن داخل المدينة بلغت نسبتهم (18%) ونسبة (82%) سكن خارج المدينة.

ويتضح أن أغلب أفراد مجتمع الدراسة هم من يسكنون خارج المدينة.

جدول (5) يبين رأي أفراد عينة الدراسة حسب أعداد الزوايا الصوفية بالمنطقة

عدد الزوايا الصوفية	التكرار	النسبة %
كثيرة جداً	25	74%
قليلة	9	26%
لا توجد	0	0
المجموع	34	100%

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (5) عن رأي أفراد عينة الدراسة حسب أعداد الزوايا الصوفية بالمنطقة كانت كالتالي، أن من أجابوا بفقرة كثيرة جداً بلغت نسبتهم (74%) ونسبة (26%) أجابوا بفقرة قليلة.

ويتضح أن الزوايا الصوفية بالمنطقة كثيرة جداً، وهذا يؤكد وجود أعداد من رجال الدين يسعون لفعل الخير، وسلامة مجتمعهم من التصدع الاجتماعي.

جدول (6) يبين رأي أفراد عينة الدراسة حول مدى استجابة الناس لرجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي

نعم		لا		المجموع	
ك	%	ك	%	ك	%
26	76%	8	24%	34	100%

يحظى رجال التصوف الديني باحترام واستجابة الناس لاقتراحاتهم في الصلح الاجتماعي

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (6) عن رأي أفراد عينة الدراسة حول مدى استجابة الناس لرجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي كانت كالتالي، أن من أجابوا ب نعم بلغت نسبتهم (76%) ونسبة (24%) أجابوا ب لا.

ونستنتج من ذلك أن المجتمع يعول على دور رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي.

جدول (7) يبين رأي أفراد عينة الدراسة حول مدى إسهام مشايخ رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين الأفراد والعائلات والقبائل في المجتمع الليبي

المجموع		لا أوافق		أوافق بشدة		أوافق		هناك من يرى أن مشايخ رجال التصوف الديني ساهموا في الصلح الاجتماعي بين الأفراد والعائلات والقبائل في المجتمع الليبي، إلى أي حد توافق على هذا الرأي
%	ك	%	ك	%	ك	%	ك	
%100	34	%3	1	%59	20	%38	13	

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (7) عن رأي أفراد عينة الدراسة حول مدى مساهمة مشايخ رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين الأفراد والعائلات والقبائل في المجتمع الليبي كانت كالتالي، أن من أجابوا بـ أوافق بلغت نسبتهم (38%) ونسبة (59%) أجابوا بأوافق بشدة، ونسبة (3%) أجابوا بـ لا أوافق.

ونستنتج من ذلك قوة تأثير مشايخ رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي في مجتمع الدراسة والمجتمع الليبي.

جدول (8) يبين رأي أفراد عينة الدراسة عن مدى عدد من القضايا والنزاعات بين العائلات التي فصل فيها رجال التصوف الديني أكثر من رجال القانون بالمحاكم

المجموع		نادراً		قليلاً		كثيراً		هناك العديد من القضايا والنزاعات بين العائلات الليبية فصل فيها رجال التصوف الديني أكثر من رجال القانون
%	ك	%	ك	%	ك	%	ك	
%100	34	%0	0	%38	13	%62	21	

يتضح من البيانات الواردة من الجدول رقم (8) عن رأي أفراد عينة الدراسة عن عدد من القضايا والنزاعات بين العائلات التي فصل فيها رجال التصوف الديني أكثر من رجال القانون بالحكم كانت كالتالي، أن من أجابوا بـ كثيراً بلغت نسبتهم (62%) ونسبة (38%) أجابوا بـ قليلاً.

ونستنتج من ذلك أن هناك العديد من القضايا التي فصل فيها رجال التصوف الديني بعد أن صعبت حلها بالطرق القانونية، وبالتالي دورهم فعال، ومستجاب اجتماعياً في الصلح الاجتماعي.

جدول (9) يبين رأي أفراد عينة الدراسة عن أهمية دور رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي في المجتمع

المجموع		غير مهم		مهم جداً		مهم		هل ترى أن رجال التصوف الديني دورهم مهم في الصلح الاجتماعي في المجتمع؟
%	ك	%	ك	%	ك	%	ك	
%100	34	%0	0	%56	19	%44	15	

يتضح من البيانات الواردة بالجدول رقم (9) حول رأي أفراد عينة الدراسة عن أهمية دور رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بالمجتمع فوجد نسبة الذين أجابوا بهمهم قد بلغت (44%)، ونسبة (56%) أجابوا بهمهم جداً ونستنتج تأثر مجتمع الدراسة بأهمية دور رجال التصوف الديني في معالجة قضايا وهموم المجتمع بالطرق التقليدية بعيداً عن القانون أو عندما يصعب حلها بالطرق القانونية.

جدول (10) يبين رأي أفراد عينة الدراسة عن دور مشايخ رجال التصوف الديني في فض النزاعات بين العائلات الليبية في مناطقهم

المجموع		نادراً		قليلاً		كثيراً		مشايخ وأعيان رجال التصوف الديني فضوا كثيراً من النزاعات بين العائلات الليبية في مناطقهم
%	ك	%	ك	%	ك	%	ك	
%100	34	%3	1	%32	11	%65	22	

يتضح من البيانات الواردة بالجدول رقم (10) حول رأي أفراد عينة الدراسة عن دور رجال التصوف الديني في فض النزاعات في منطقة الدراسة فنجد نسبة الذين أجابوا بكثير قد بلغت (65%)، ونسبة (32%) أجابوا بقليل، ونسبة (3%) أجابوا بنادر، ونستنتج من ذلك أن رجال التصوف الديني يحضون بالتقدير في منطقة الدراسة، والذي قد يكون راجعاً إلى أنه مازال مجتمعاً تقليدياً يتأثر بالنخب العلمية، أو ما يسمى "بالجاه" في حل العديد من المشكلات، والقضايا بين العائلات اللبية، والاحتكام للعرف الاجتماعي، والبعد عن الروتين القانوني في المحاكم.

جدول (11) بين رأي أفراد عينة الدراسة عن الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين العائلات اللبية

المجموع		نادراً		قليلاً		كثيراً		الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين العائلات اللبية هي:
%	ك	%	ك	%	ك	%	ك	
100%	34	6%	2	26%	9	68%	23	- التواصل مع المتنازعين أكثر من مرة وإقناعهم دينياً واجتماعياً بقبول الصلح الاجتماعي.
100%	34	12%	4	35%	12	53%	18	- كثرة الدروس الدينية في المناسبات الدينية والاجتماعية للث على التسامح والتماسك الاجتماعي بالمنطقة.
100%	34	15%	5	29%	10	56%	19	- تكوين فريق من رجال التصوف الديني من أغلب العائلات والقبائل اللبية أو ما يسمى جماعة فض النزاعات أو الجاهة للصلح الاجتماعي بين العائلات اللبية.
100%	34	-	-	24%	8	76%	26	- تعويض المتضرر في النزاع معنوياً ومادياً والإشادة بأصلته ونسبه وعائلته بالموافقة للاستجابة لطلب مشائخ رجال التصوف الديني في قبول الصلح الاجتماعي.

اصطحاب الأطراف المتنازعة معهم في زيارات متبادلة بين أسر المتنازعين وتناول وجبات طعام في كل بيت من المتنازعين متخلتاً ذلك بدروس دينية واجتماعية تجسد هذا الحديث وفكرة التسامح والتصالح والتماسك الاجتماعي والتوقيع على وثيقة الصلح الاجتماعي بين المتنازعين.	24	71%	7	21%	3	19%	34	100%
- إبلاغ المتنازعين في حالة عدم قبول الوساطة في الصلح الاجتماعي لن يكونوا طرفاً في حل نزاعاتهم مستقبلاً في داخل المنطقة وخارجها وهي وسيلة عادةً يستخدمها رجال التصوف الديني للضغط الاجتماعي لقبول الصلح الاجتماعي.	15	44%	13	38%	6	18%	34	100%

يتضح من البيانات الواردة بالجدول رقم (11) حول رأي أفراد عينة الدراسة في الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين العائلات الليبية فنجد نسبة الدين أجابوا عن فقرة التواصل مع المتنازعين أكثر من مرة وإقناعهم دينياً واجتماعياً لقبول الصلح الاجتماعي بكثيراً قد بلغت (68%)، ونسبة (26%) أجابوا بقليل، ونسبة (6%) أجابوا بنادر، أما نسبة الذين أجابوا عن فقرة كثرة الدروس الدينية في المناسبات الدينية والاجتماعية للحث على التسامح والتماسك الاجتماعي بالمنطقة بكثيراً قد بلغت (53%)، ونسبة (35%) 9 أجابوا بقليل، ونسبة (12%) أجابوا بنادراً، في حين نجد نسبة الذين أجابوا عن فقرة تكوين فرق من رجال التصوف الديني من أغلب العائلات والقبائل الليبية أو ما يسمى جماعة فض النزاعات أو الجاهة للصلح الاجتماعي بين العائلات الليبية بكثير، فقد بلغت (56%)، ونسبة (29%) أجابوا قليلاً ونسبة (15%) أجابوا بنادراً، أما

نسبة الذين أجابوا على فقرة تعويض المتضرر في النزاع معنوياً، ومادياً، والإشادة بأصالته، ونسبه، وعائلته بالموافقة للاستجابة لطلب مشايخ رجال التصوف الديني في قبول الصلح الاجتماعي بكثير فقد بلغت (76%)، ونسبة (24%) أجابوا بقليل، في حين نجد نسبة الذين أجابوا عن فقرة اصطحاب الأطراف المتنازعة معهم في زيارات متبادلة بين أسر المتنازعين وتناول وجبات طعام في كل بيت من المتنازعين متخللاً ذلك دروس دينية واجتماعية تجسد هذا الحدث وفكرة التسامح والتصالح والتماسك الاجتماعي والتوقيع على وثيقة الصلح الاجتماعي بين المتنازعين بكثير فقد بلغت (71%)، ونسبة (21%) أجابوا بقليل، ونسبة (9%) أجابوا بنادر، أما نسبة الذين أجابوا عن فقرة إبلاغ المتنازعين في حالة عدم قبول الوساطة في الصلح الاجتماعي لن يكونوا طرفاً في حل نزاعاتهم مستقبلاً في داخل المنطقة وخارجها وهي وسيلة عادة يستخدمها رجال التصوف الديني للضغط على المتنازعين لقبول فكرة الصلح الاجتماعي بكثير فقد بلغت (44%)، ونسبة (38%) أجابوا بقليل، ونسبة (01%) أجابوا بنادر، ونستنتج من ذلك اختلاف الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي وتقريب وجهات النظر بين العائلات، والافراد، والقبائل الليلية باستخدام أساليب متعددة للضغط لقبول التصالح، والتسامح بين الفرقاء حيث إن الثقافة السائدة لدى سكان هذه المنطقة التي تتكون من عدة قبائل تجسد الأعمال الخيرية، والتماسك الاجتماعي، ونبذ الخلافات ويعد التسامح فيها خطأ حضارياً نتيجة تأثير الزوايا الصوفية، ومشايخها لذلك نجد تقارب النسب المئوية بين الفقرات الذين أجابوا بكثير عن تعويض المتضرر في النزاع والإشادة بأصالته وشجاعته في قبول الصلح الاجتماعي حتى على مستوى الجرائم الكبرى والاستجابة لمشايخ رجال التصوف الديني، ثم يليها جاءت نسبة دور رجال التصوف الديني في اصطحاب العائلات المتنازعة أو الأفراد إلى زيارات متبادلة بين تلك الأسر المتنازعة وتناول وجبات الطعام عند كل منهما محلين هذا الحدث بالتمجيد والأذكار والأحاديث التي رسمها الدين الاسلامي، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وثقافة مجتمعنا التي تحث على التسامح والتصالح

التي نستمدّها من أجدادنا السابقين وتوقيع وثيقة التصالح بين المتنازعين، ثم يليها جاءت فقرة دور رجال التصوف الديني في الزيارات المتعاقبة للمتنازعين وإجبارهم على فكرة الصلح الاجتماعي استجابة لتعاليم الدين الإسلامي، والبعد الاجتماعي، والثقافي الداعم للحلول الودية بعيداً عن الضبط الرسمي، ثم يليها جاءت فقرة الذين أجابوا بكثير في أن رجال التصوف الديني يعملون على تكوين فريق من العائلات والقبائل الليبية أو ما يسمى جماعة الجاهة أو فض النزاعات لترسيخ الصلح الاجتماعي بين العائلات الليبية، وهو مبدأ جميل تحترمه كل العائلات والقبائل الليبية في نشر ثقافة التسامح والتصالح، وفي غالبته تتم الاستجابة لهذا الفريق في أي صلح اجتماعي حتى لو كان كبيراً، يليها جاءت نسبة دور رجال التصوف الديني في اغتنام المناسبات الدينية والاجتماعية في شرح قيم ومبادئ الدين الإسلامي، وحثهم على المحبة والتسامح والوئام والإشادة بتظافر جهود الناس نحو فعل الخير، وخدمة المجتمع، وإرضاء الله، والحفاظ على النسيج الاجتماعي من التمزق والانحراف، ثم يليها جاءت فقرة دور رجال التصوف الديني في إجبار الأطراف المتنازعة على الصلح الاجتماعي من خلال الضغوط الاجتماعية التي يستخدمونها بعدم الجلوس معهم في قضايا أخرى مستقبلاً سواء داخل المنطقة أو خارجها في حالة عدم الاستجابة لفكرة الصلح الاجتماعي التي يسعون لحلها بين المتنازعين. بالرغم من أن هناك نسبة لا يستهان بها في التقليل من دور هذه الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي بين العائلات الليبية.

نتائج الدراسة:

1. أظهرت نتائج الدراسة أن أغلب أفراد عينة الدراسة أعمارهم من 36 فأكثر، ومستواهم التعليمي متوسط، وأغلبهم موظفون، ويقطنون خارج المدينة، وينظرون إلى رجال التصوف الديني باعتبارهم نواة للمجتمع لفعل الخير والمساهمة في استقرار المجتمع وحل النزاعات.

2. كشفت نتائج الدراسة عن كثرة الزوايا الصوفية بالمنطقة، والتي قد تؤثر على الانتاج

الاجتماعي بحفظ القرآن وتدعيم المجتمع بالحماية من النزاعات بين العائلات، والأفراد، والتصديق، والتفكك الاجتماعي.

3. أظهرت نتائج الدراسة حول رأي أفراد عينة الدراسة أن رجال التصوف الديني فصلوا في العديد من القضايا التي عجز عنها رجال القانون، وحلوا العديد من القضايا بين العائلات الليبية ومنها قد تكون بالطرق الودية قبل أن تستفحل، أو قبل وصولها إلى أيدي القضاء، إضافة إلى تأثير مجتمع الدراسة بدور رجال التصوف الديني في معالجة العديد من القضايا بالمنطقة نتيجة ما يحظون به من تقدير واحترام وسماع كلمتهم في الصلح الاجتماعي بين العائلات الليبية وبأنه ألا تنكسر خواطرهم في طلب المصالحة.

4. أظهرت نتائج الدراسة حول رأي أفراد عينة الدراسة في الطرق التي يستخدمها رجال التصوف الديني في الصلح الاجتماعي هي: تعويض المتضرر في النزاع معنوياً، ومادياً، والإشادة بأصالته، ونسبه، وعائلته بالموافقة على قبول الصلح الاجتماعي على أيدي رجال التصوف الديني، يليها اصطحاب رجال التصوف الديني الأطراف المتنازعة إلى زيارات متبادلة بين أسر المتنازعين وتناول وجبات طعام في كل بيت من المتنازعين متخلتاً ذلك بدروس دينية واجتماعية تجدد هذا الحديث وفكرة التسامح، والتصالح، والتماسك الاجتماعي، والحممة الوطنية، وتوقيع وثيقة الصلح الاجتماعي بين المتنازعين، أضف إلى ذلك بينت نتائج الدراسة أن رجال التصوف الديني يقومون بالزيارات المتعاقبة للمتنازعين، وإجبارهم على فكرة الصلح الاجتماعي مستمدين ذلك من تعاليم الدين الإسلامي، والبعد الاجتماعي، والثقافي الداعم للحلول الودية بعيداً أحياناً عن الضبط الرسمي، معتمدين على دور جماعة فريق فض النزاعات، أو ما يسمى "الجاهة" الذي يتكون من رجال التصوف الديني من أغلب العائلات، والقبائل الليبية لفض النزاعات بين العائلات الليبية، ولممارسة الضغط الاجتماعي على المتنازعين، وإجبارهم، ودفعهم نحو الصلح الاجتماعي وأنهم لن يكونوا في وساطة أو صلح اجتماعي في المستقبل سواء داخل المنطقة، أو خارجها في حالة عدم قبول الصلح الاجتماعي الذي جاؤوا من أجله.

توصيات الدراسة:

1. حث المؤسسات الرسمية على الاعتراف بدور رجال التصوف الديني في فض العديد من النزاعات والخلافات الاجتماعية التي حدثت بين الأفراد، والعائلات الليبية، واعتبار دورها مثل دور المؤسسات الأهلية التي تقدم خدماتها للمجتمع وشراؤها.
2. تفعيل الزوايا الصوفية بالمناطق ومدّها بالأفراد الذين يحملون كتاب الله من رجال التصوف الديني لتعليم وتحفيظ كتاب الله لإنتاجنا الاجتماعي، ودعوتهم إلى نشر ثقافة التسامح، والتصالح، والحفاظ على النسيج الاجتماعي من التمزق والانحراف.
3. إنشاء مكاتب فض المنازعات بكل مدينة، وإحياء فكرة الصلح الاجتماعي بعيداً عن الإجراءات القانونية المتبعة في الضبط الرسمي من خلال دور رجال التصوف الديني.

المصادر المراجع:

أولاً: الكتب

1. حسين حسين شحاتة، الصلح والتحكيم الودي في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط 1، 2003.
2. عبد المحمود الحفيان الجليلي، التصوف الإسلامي المصطلح والمفهوم، أسرار للطباعة، ط 1، 2004.
3. سالم محمد الهرشي، ملاح التغيير الاجتماعي في المجتمع الليبي.
4. محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط 1، 1995.
5. محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.
6. منال عبد الحميد، التصوف في مصر والمغرب الاسكندرية منشأة المعارف 1987.

ثانياً: الرسائل العلمية، والمجلات، والمؤتمرات العلمية

1. محمد أحمد المعرفي، الدور الاجتماعي للطرق الصوفية، دراسة سوسيوانثروبولوجية للزوايا الصوفية بمنطقة ترهونة، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم ترهونة، جامعة المرقب، 2006 - 2007، رسالة ماجستير غير منشورة.

2. جمال أحمد البكري عقل، العرف في مجتمع البيضاء بالجبل الأخضر بالجمهورية الليبية، "دراسة انثربولوجية ميدانية"، قسم الانثربولوجيا، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 2007، رسالة دكتوراه غير منشورة.
3. جمال حماد، التصوف عبادة وسلوك وجهاد وكفاح، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي، سبتمبر 1995، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا.
4. عبد الكريم علي مصطفى علي، مشروع الجبل الأخضر الزراعي وأثره على الجوانب السوسيو ثقافية بمنطقة الوسيطة بالجمهورية الليبية، "دراسة ميدانية في الانثربولوجيا الثقافية"، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 2011، رسالة دكتوراه غير منشورة.
5. فاروق أحمد مصطفى، البناء الاجتماعي للطريقة الشاذلية بمصر، دراسة في الانثربولوجيا الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1974.
6. مصطفى خليفة ابراهيم محمد، مظاهر العنف في المجتمع الليبي، أعمال المؤتمر الدولي الخامس لقسم علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة الزقازيق، 28 - 29 نوفمبر 2012 بعنوان الفكر والممارسة لحماية الأسرة العربية من العنف الأسري.
- 7- محمد علي المصيلحي، التصوف الإسلامي ضرورته ودوره أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي سبتمبر 1995، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

الشيخ العلامة محمد الزالط "مسيرة علمية، وجهودٌ فقهية"

أحمد عثمان إحميدة/ كلية العلوم الشرعية/ مسلاته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن للعلماء في الأمة مكانة مرموقة، فهم ورثة الأنبياء، يبصرونها بدينها، ويوقعون عن الله - عز وجل - فيما يقع من نوازل في حياتها، ويجنبونها مسالك الردى والضلالة، وهم بذلك قد خدموا الشريعة، وأرسوا دعائمها، ووطدوا أركانها، فكان أن رفع العلي - جل في علاه - قدرهم، وعزز مكانتهم، حيث قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁽¹⁾.

ومن باب الوفاء لعلها لنا الفضلاء، ومشايخنا الأجلاء، رأيت أن من أعظم البر بهم، والوفاء لهم أن أخصص هذه الدراسة لتسليط الضوء، وتوضيح معالم شخصية متميزة عرفت بجهودها العلمية الجادة المتميزة، وهو أحد أعلام بلادنا، ألا وهو الشيخ العلامة، الفقيه، الفرضي، النحوي، الأديب، سيدي الشيخ محمد منصور الزالط - رحمه الله تعالى - وهو شيخي وأستاذي الذي نهلت من علمه ونالني بركة الجلوس معه، حيث إنني نلت من علمه على يديه، ولازمته في حلقاته العلمية مدة تربو على الثلاث والعشرين سنة، فتوثقت صلتني به وعرفته عن كثب، فرأيت أن من الواجب علي الوفاء بحقه، وإحياء ذكراه الطيبة، ونشر مآثره، بأن اتحف طلبة العلماء بنبذة عن حياته، وسيرته العطرة، وجهوده العلمية، في بحث وسمته بـ"الشيخ العلامة محمد الزالط، مسيرة علمية، وجهود فقهية".

أهداف البحث:

- إبراز مكانة الشيخ العلمية، والتعريف جهوده على الساحة العلمية؛ كي يتبوأ مكانته المرموقة بين أعلام بلادنا.

(1) سورة المجادلة، من الآية: 11.

- التعرف على مؤلفات الشيخ وما تحويه من مواضيع فقهية وثقافية.
 - إثارة همم طلبة العلم والباحثين لخوض غمار البحث في مثل هذه المواضيع.
- الدوافع والأسباب:

- الرغبة الصادقة في إبراز جهود الشيخ، ونشاطاته العلمية والدعوية.
 - صلتني الوثيقة بالشيخ، ومعرفتي به جعلتني أعرف عنه أشياء قد لا يعرفها غيري.
 - بيان ما تمتاز به مؤلفاته من قيمة معرفية، وفوائد علمية.
- إشكاليات البحث:

تأتي هذه الدراسة للإجابة عن إشكاليات مضمونها: ما جهود الشيخ في نشر العلم؟ وما مكانته العلمية بين علماء عصره؟ وما أهم مؤلفاته؟ وما أنشطته الدعوية والثقافية؟ وهل كان له دور في نشر الفقه المالكي تأليفاً وتدریساً؟ كل هذه التساؤلات سيجد القارئ الكريم إجابتها في ثنايا البحث، إن شاء الله تعالى.

منهج البحث وخطته:

اقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهج التاريخي عند تناول حياة الشيخ ونشأته، وطلبه للعلم، والمنهج الاستقرائي، وذلك بتتبع جهوده المبذولة في التأليف والتدريس، كل ذلك وفق خطة اشتملت على الآتي:

- مقدمة.
- المبحث الأول: في حياته ونشأته، واحتوى على أربعة مطالب:
 - المطلب الأول: اسمه - نسبه - مولده - وفاته.
 - المطلب الثاني: طلبه للعلم - شيوخه - زملاؤه - تلاميذه.
 - المطلب الثالث: مكانته العلمية - ثناء العلماء عليه - الوظائف التي تقلدها.
- المبحث الثاني: في جهود الشيخ الفقهية، واحتوى على ثلاثة مطالب:
 - المطلب الأول: جهوده في التأليف.
 - المطلب الثاني: جهوده في التدريس.
 - المطلب الثالث: جهوده الدعوية والثقافية.
- الخاتمة.

وأخيراً حسبي أني بذلت جهدي، وأفرغت وسعي، فإن كنت قد أصبت ووفيت لشيخني بعضاً من حقوقه علي، فهذا رجائي من الله، وبتوفيق منه، وإن كانت الأخرى، فقد حزت شرف المحاولة، والله من وراء القصد، وصلى الله وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: حياته ونشأته، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، نسبه، مولده، وفاته:

اسمه:

هو الشيخ الفقيه، الفرضي، اللغوي، النحوي، الأديب، محمد بن منصور الزالط، وحول اسمه تجدر الإشارة إلى أن بعضاً من الأسر تفرق في هذا الاسم بين محمد بضم الميم، كما هو متعارف عليه، ومن محمد بفتح الميم التي تُقلب ميماً ساكنة مسبوقه بهمزة وصل مكسورة فتنتطق "المحمد".

وقد نشأ الشيخ - رحمه الله تعالى - نشأة صالحة في أسرة متمسكة بدينها، محافظة على آداب شرعها في تربيته، تحب العلم، وتقدير العلماء، وقد ولد الشيخ لأب له من الأبناء اثنين هو أصغرهما.

نسبه:

أما عن نسبه فيقول الشيخ: "هذا ولما كان النسب أعظم شيء يعتز به الإنسان، وتوجب الشرائع السماوية المحافظة عليه، كما تحافظ على الدين والعرض، والنفس، والمال، فإنني أقول: أنا محمد منصور أحمد محمد عبد الرحمن محمد إبراهيم إبراهيم غيث محمد المصراتي أصلاً وموطناً"⁽¹⁾.

وعن جده غيث يقول الشيخ: "ويبدو أنه كان فلاحاً ماهراً، حيث لم تطل إقامته بالمنطقة حتى تمكن من امتلاك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، فقام باستصلاحها، وغرسها بأفضل أنواع النخيل..."⁽²⁾.

(1) السيرة الذاتية بخط يده: 2، والتاريخ الموجز الموثق لمدينة الخمس: 74.

(2) السيرة الذاتية للشيخ: 2.

مولده:

أما عن مولده - رحمه الله تعالى - فيقول الشيخ: "ولدت بمنزل والدي سنة 1352 هـ الموافق 1934م، وذلك بجوار مسجد يعرف في المنطقة بمسجد السبعة، وذلك بقبيلة الزوائد"⁽¹⁾.

وقد أشار الشيخ إلى مولده بأبيات قال فيها:

يقول من فضله اهتدى *** محمد منصور بن أحمد
شهرته بالزائط الخمسي *** وعاشر الجدود مصراتي
مولده بقرية الزوائد *** جوار السبعة بيت الوالد⁽²⁾

وفاته:

انتقل شيخنا إلى جوار ربه بعد حياة حافلة بالعلم والعمل، والجِدِّ والمثابرة، والبذل والعطاء، ليلة الإثنين التاسع والعشرين من جمادى الأولى لسنة 1443 هـ الموافق للثالث من شهر يناير لسنة 2022م، وفي يوم الإثنين وبعد صلاة الظهر أقيمت له جنازة حاشدة بمدينة الخمس، وقد شهد مراسمها، والصلاة عليها، ودفنها، جمع غفير من ذويه وأقاربه وتلاميذه، وعدد كبير من أهل العلم وعارفي فضله، رغم تفشي وباء كورونا في تلك الأيام لدرجة امتناع الناس من حضور الجماعات بالمساجد، والمناسبات العامة، وصلى عليه أحد تلاميذه البارزين المواظبين على حضور حلقاته العلمية، وهو الشيخ عمران الهدار عبد الحفيظ، ووري جسده الطاهر بمقبرة ابن جحا بمدينة الخمس، وبرحيله فقدت بلادنا خاصة وبلاد الإسلام عامة، شيخاً جليلاً فاضلاً، وعالمًا من أبرز علمائها، فرحم الله شيخنا، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء.

(1) قبيلة مشهورة بمدينة الخمس تنسب إلى الشيخ زائد بن علي بن يعقوب الينبي، البعض منها يقطن جنوب مدينة الخمس، ويطلق عليهم زوائد العرقوب، والبعض الآخر يقيم شرقها بحوالي ثلاثة عشر كيلومتراً، ويطلق عليهم زوائد بندار، الشيخ أحمد بن عمر الزائدي، إعداد: د. إبراهيم الزائدي، بحث منشور بمجلة الطاهر الزاوي، العدد 1، سنة 2017م.

(2) السيرة الذاتية للشيخ: 2

المطلب الثاني: طلبه للعلم، شيوخه، زملاؤه، تلاميذه:
طلبه للعلم:

عرف الشيخ طريقه إلى الكتاب منذ نعومة أظافره، فما إن بلغ الشيخ - رحمه الله تعالى - الست سنوات حتى أدخله والده مكتب السبعة، الذي يقع بجوار بيته، إلا أن مدة دراسته فيه لم تطل، ذلك أن المشايخ القائمين عليه توجهوا صوب مدينة بنغازي بحثاً عن لقمة العيش، عند ذلك سلمه جده أحمد - رحمه الله تعالى - إلى مكتب الشيخ محمد بن إبراهيم، وهو أيضاً لا يبعد كثيراً عن مقر سكناه، فاحتضنه الشيخ مفتاح الصديق، وكان الشيخ طيلة دراسته بالمكتب مستقلاً في خلوة لوحده، حتى اشتهرت تلك الخلوة "بخلوة محمد الزالط" إلى أن هدمت سنة 1973م⁽¹⁾.

وبعد حفظه لكتاب الله تعالى في سن مبكرة من عمره، حدث للشيخ فراغ شغله بقراءة بعض الكتب التي تتماشى مع سنه، فتولدت في نفسه الرغبة، والشوق، والهمة، للازداد من القراءة والاطلاع على معارف عديدة، منها قراءة كتب السير والتاريخ، والنوادر واللطائف، وغيرها.

وفي هذه اللطيفة التي يذكرها الشيخ في سيرته ما يبين علو الهمة عنده منذ الصغر، يقول الشيخ: "وفي سنة 1957م كان يقام مزار كبير يجتمع فيه سكان ساحل آل حامد بمنطقة البرية تعرف بـ"القبو"، فتبني الخيام وتقام الأسواق التي تباع فيها المواد الغذائية، والخضروات، وألعاب الأطفال، والحلوى، وغيرها، فناولتني والدتي نقوداً، وطلبت مني شراء الحلوى لإخوتي، فذهبت إلى السوق المقام، فوقع نظري على رجل جالس وبين يديه بعض الكتب، والتي كنت مشتاقاً لقراءتها، فعندها لم ألتفت إلى الحلوى، بل اشتريت بالنقود كتباً وازددت عليها ديناً.. وعندما رجعت إلى الوالدة قالت لي: أين الحلوى؟ فقلت لها: هذه هي الحلوى مشيراً إلى الكتب، وأتيت معها مديناً"⁽²⁾.

وفي خلال تلك المدة طرق سمع الشيخ أن الشيخ مختار يوسف الشريف يعقد كل يوم درسين، درس في العاشرة صباحاً، والدرس الآخر بعد صلاة العصر، فالتحق بحلقة الشيخ، ودرس عليه كتاب الصفتي، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح ابن عاشر "ميارة

(1) السيرة الذاتية بخط الشيخ: 3.

(2) السيرة الذاتية: 4.

الصغرى" والأجرومية، والأزهرية في النحو، والسوسي في الفلك وعلم النجوم، كان الشيخ — لشدة ولوعه بالمذاكرة والمطالعة — يقرأ سبعين صفحة ليلاً على ضوء سراج بيته، وهو المعروف بالفنار في ذلك الوقت، وأحياناً كان يقرأ على ضوء القمر، إذا نفذ الوقود من الفنار وذهب ضوءه⁽¹⁾. ثم التحق الشيخ بعد ذلك بحلقة الشيخ العلامة أحمد بن علي بن عمر الزائدي⁽²⁾، التي كانت تعقد بمسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، وعليه درس كتاب الشرح الصغير للشيخ الدردير.

وأثناء تلك الحقبة أخذ الناس يتحدثون عن المدارس، وكيفية الدراسة بها، وعن الامتحانات التي تجرى بها، وما يلي ذلك من نجاح وتحصيل للشهادات، فأخذ الشيخ يفكر في الالتحاق بالمدارس، وكان ذلك سنة 1955م، وقد يسرَّ الله — تعالى — هذا الأمر للشيخ، إذ تمَّ افتتاح معهد للمعلمين بمدينة مصراته، فشدَّ الشيخ الرحال إليه، ودخل على مدير المعهد برفقة أحد أقاربه، وأثناء الحديث مع مدير المعهد عرف أنه حامل لكتاب الله تعالى، فقال له: "أنصحك يا بني أن تتجه إلى التعليم الديني، فقد صدر مرسوم ملكي بضم كل من معهد أحمد باشا، والمعهد الأسمرى إلى المعهد الديني الأعلى بمدينة البيضاء، وستذكرني - إن شاء الله بخير"⁽³⁾، وقد أثرت كلمات مدير المعهد في نفس الشيخ، وقدر الله له أمراً آخر، فتغيرت فكرته، وتوجه في اليوم التالي إلى مدينة طرابلس، قاصداً معهد أحمد باشا، وهناك تم قبوله، وقيد بالسنة الثانية، وكانت الدراسة بالمعهد على فترتين:

- الفترة الصباحية، وفيها يجتمع جميع الطلبة، سواء طلبة القسم الداخلي أم الخارجي.
 - الفترة المسائية، وتخص طلبة القسم الداخلي، فعلى تمام الساعة الخامسة مساءً يدق الجرس، فينزل الطلبة من غرفهم مصحوبين بكتبهم إلى الفصول للمذاكرة، وعند الساعة الحادية عشر ليلاً يدق جرس النوم، فيهرع الطلبة إلى غرفهم.
- وبعد أن تحصل الشيخ - رحمه الله تعالى - على الشهادة الثانوية توجه إلى الجامعة

(1) ينظر: السيرة الذاتية للمترجم له: 5.

(2) الشيخ أحمد بن علي بن عمر الزائدي، أحد أعلام مدينة الخمس، شرع في تعلم العلوم الشرعية واللغوية بالزاوية الأسمرية حتى نال الشهادة الأهلية سنة 1951م، وفي سنة 1954م نال الشهادة العالمية من المعهد الأسمرى، وكان ترتيبه الأول، له مؤلفات منها: أجوبة مختصرة في المناسك، توفي - رحمه الله تعالى - سنة 2008م، الشيخ أحمد بن علي ابن عمر الزائدي، د. إبراهيم الزائدي، بحث منشور بمجلة الطاهر الزاوي، ع1، 2017م.

(3) السيرة الذاتية: 6.

الإسلامية بالبيضاء، وبكلية أصول الدين أخذ العلم عن ثلة من العلماء، على رأسهم الشيخ مصطفى التريكي وآخرون، حتى تخرج الشيخ في الجامعة الإسلامية سنة 1969م، بعد نياله الشهادة الجامعية في أصول الدين.

شيوخه:

أخذ الشيخ العلم عن كوكبة متميزة من العلماء، سواء كان ذلك في بداية حياته العلمية، أو بعد أن التحق بكلية أصول الدين بجامعة السيد محمد السنوسي بالبيضاء، ومن أشهر أولئك الذين أخذ عنهم وتفقه بهم⁽¹⁾:

- الشيخ أحمد بن علي بن عمر بن زايد بن إبراهيم الزائدي:

ولد في ساحل الأحامد سنة 1348هـ الموافق لسنة 1929م، حفظ القرآن الكريم بزاوية جده محمد بن إبراهيم علي يد الشيخ أحمد الفقيه، ثم أكمل حفظه على الشيخ عبد السلام محمد الأشهب، ثم التحق بالزاوية الأسمرية، وفيها تلقى علوم الشريعة، وعلوم اللغة، حتى نال الشهادة الأهلية سنة 1370هـ الموافق 1951م، ثم الشهادة العالمية من المعهد الأسمرى عام 1373هـ الموافق 1954م. وقد توفي - رحمه الله تعالى - في الخامس من شوال سنة 1429هـ الموافق 5 أكتوبر 2008م⁽²⁾.

- الشيخ خليل المزوغي:

ولد في مدينة ترهونة سنة 1922م، من قبيلة سيدي الصيد، فقد بصره في سن السابعة، ورغم ذلك التحق بالكتاب حفظ القرآن الكريم، ثم بجامع ميزران حيث تلقى علوم الفقه، واللغة، وغيرها من علوم الشريعة، وفي سنة 1943م، التحق بالدراسة بالزاوية الأسمرية، ثم إلى جامع الزيتونة، وفيها استكمل تحصيله العلمي، وفي سنة 1949م عاد إلى طرابلس فُعينَ إماماً ومدرساً بجامع الناقة، ثم مدرساً بكلية أحمد باشا، كان له نشاط كبير في مجال الوعظ والإرشاد، توفي سنة 1990م⁽³⁾.

(1) اعتمدت في هذا على ما ذكره الشيخ - رحمه الله تعالى - في سيرته الذاتية المدونة، وما ذكره لنا مشافهة في حلقة الدرس بتاريخ الجمعة 12 صفر 1441هـ الموافق 11 أكتوبر 2019م.

(2) الشيخ أحمد بن علي بن عمر الزائدي، د. إبراهيم أحمد الزائدي، بحث منشور بمجلة الطاهر الزاوي، ع1، 2017م.

(3) المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب: 100.

- الشيخ الطيب المصراطي:

هو محمد، لقب بالطيب، وكنيته أبو علي، ولد بمدينة مصراته عام 1911م، حفظ القرآن الكريم في كتّاب قريته، ثم عين مدرساً بزاوية المحجوب، ثم انتقل للتدريس بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، ثم التحق بالتدريس في الثانويات، ثم مدرساً بكلية أحمد باشا، ثم مديراً للكلية سنة 1968م، ثم عاد إلى موطنه مدينة مصراته، فأقام بها حتى وافته المنية سنة 1998م⁽¹⁾.

- الشيخ علي الغرياني:

هو علي بن علي بن بوكر بن محمد بن محمد الغرياني، من مواليد مدينة تاجوراء سنة 1888م، بدأ دراسته العلمية على يد والده الشيخ علي بوكر التاجوري، ثم أكمل تحصيله العلمي في الشريعة واللغة على يد شقيقه محمد، وفي سنة 1911م إبان الغزو الإيطالي التحق بكتّاب المجاهدين للمشاركة في معارك الجهاد، ومن أهمها معركة الهاني، ثم التحق بجامعة ميزران فاستأنف تحصيله العلمي في الشريعة واللغة على يد كبار علماء زمانه، ومنهم الشيخ عبد الرحمن البوصيري، والشيخ محمد الضاوي، ثم كرس حياته بعد ذلك للتدريس والوعظ والإرشاد في مساجد عدة بمدينة طرابلس، إلى جانب قيامه بالتدريس المنتظم للطلبة بمعهد أحمد باشا، توفي بطرابلس سنة 1395هـ الموافق 1975م⁽²⁾.

- الشيخ مختار يوسف الشريف:

ولد بسوق الخميس / الخمس سنة 1923م، ودرس بزاوية الشيخ عبدالسلام الأسمر، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم الفقه، وقام بالتدريس وعمره ثماني عشرة سنة في مساجد عدة، منها: مسجد أحمد الغريب، ومسجد محمد بن إبراهيم، ومسجد أبي عزة، ومسجد ابن حجا، ثم إماماً راتباً بمسجد أحمد الغريب، توفي سنة 1986م⁽³⁾.

زملاؤه:

تعدد زملاء الشيخ - رحمه الله تعالى - بتعدد المراحل الدراسية، فمنهم النخبة الأولى من زملاء الدراسة وهم:

(1) المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب: 159.

(2) المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب: 198.

(3) رواية عن الأستاذ حسين الراشد الشريف، بتاريخ السبت 2022/07/16م.

- الشيخ الصادق بن عبد الرحمن الغرياني:

كانت بداية دراسته بمعهد أحمد باشا، وكان زميل الشيخ بالمرحلة الثانوية، ثم التحق بجامعة محمد بن علي السنوسي بمدينة البيضاء، وبكلية الشريعة أكمل دراسته، تحصل على الماجستير في الفقه المقارن من جامعة الأزهر سنة 1974م، ثم الدكتوراه من الجامعة نفسها عام 1979م، وكان عنوان رسالته: "الحكم الشرعي بين العقل والنقل"، كما تحصل أيضاً على شهادة الدكتوراه من جامعة أكستر ببريطانيا عام 1984م، وكان عنوان رسالته: "كتاب القواعد الفقهية لولنشريسي: دراسة وتحقيق"، له العديد من المؤلفات والدراسات، تولى رئاسة دار الإفتاء الليبية منذ سنة 2011م، وحتى الآن⁽¹⁾.

- الشيخ أحمد الكوحة:

هو الشيخ أحمد محمد الكوحة يرجع نسبه إلى قبيلة أولاد مرابط بمنطقة غنيمة بقصر الأخيار، ولد عام 1359هـ الموافق 1940م، حفظ القرآن الكريم بزاوية البازة بزليتن، وتلقى العلم الشرعي في حلقات مسجد الأسمرى، ثم انتقل إلى معهد أحمد باشا الديني بطرابلس، فأكمل دراسته الابتدائية والثانوية به، وبكلية الشريعة بالجامعة السنوسية بمدينة البيضاء تحصل على الشهادة الجامعية، ثم عين في دار الإفتاء الليبية، وبعد قفلها كان قبلة الناس في الإفتاء، ثم رجع إليها بعد ثورة فبراير، وقدم جهداً عظيماً فيها، فكان يستقبل مكالمات المتصلين، ويبحث في بطون الكتب للإجابة على فتاويهم، توفي - رحمه الله تعالى - يوم الأربعاء الموافق 2018/04/04م⁽²⁾، وقد رثاه الشيخ بقصيدة، سيأتي ذكرها بتمامها عن الحديث عن شعره — رحمه الله تعالى.

- الشيخ بلعيد ميلاد القائد:

ولد الشيخ سنة 1934م، ودرس القرآن الكريم بزاوية أبو خضير بمنطقة العلووس، ثم توجه لزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، وبها أكمل حفظ كتاب الله، ثم درس علوم العربية، وأصول الدين بمعهد أحمد باشا، ثم التحق بالمعهد الديني بمدينة البيضاء حتى سنة 1969م، ثم انتقل إلى مدينة الخمس، وبمعهد أبي ذر الغفاري الديني كان أحد الأساتذة

(1) السيرة الذاتية للشيخ الزالط، ص 8، شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول الجمعة 2022/07/22م.

(2) شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول الجمعة 2022/07/22م.

حتى وفاته في سبتمبر عام 2001م، وهي السنة التي أحيل فيها للتقاعد⁽¹⁾.
- الشيخ عبد السلام محمود أبو ناجي:

ولد - رحمه الله تعالى - بقرية سيلين غرب مدينة الخمس سنة 1935م، وقرأ القرآن الكريم في أحد مساجد قريته، ثم توجه إلى مدينة مسلاته، وبزاوية الدوكالي وعلى يدي الشيخ منصور السنوسي قرأ القرآن الكريم، وفي سنة 1950م انتقل إلى زاوية البازة بزلتين - وهناك أتم حفظ القرآن الكريم، وفي سنة 1954م التحق بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، فتلقى بها علوم الشريعة، واللغة، وبها أنهى المرحلة الثانوية سنة 1961م، ثم توجه إلى جامعة محمد بن علي السنوسي، تخرج في كلية الشريعة سنة 1966م، ثم التحق بالدراسات العليا بمدينة الجغبوب، فتحصل على شهادة الماجستير في الفقه المقارن سنة 1969م، ثم أوفد للدراسة بالأزهر الشريف، فتحصل على الماجستير في أصول الفقه سنة 1972م، ثم الدكتوراه من الجامعة نفسها سنة 1976م، وقد انتقل - رحمه الله تعالى - إلى جوار ربه صبيحة يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال سنة 1438هـ الموافق 2017/07/11م⁽²⁾، وقد رثاه الشيخ - أيضاً - بقصيدة مؤثرة سيأتي ذكرها عند الكلام على شعره.

وقد تعاهد كل من الشيخ بلعيد القائد، والشيخ عبد السلام أبو ناجي، والشيخ محمد الزالط، والشيخ عبد السلام حيدر على تلقين من يموت منهم، فتوفي الشيخ عبد السلام حيدر ولقنه الشيخ محمد الزالط، ثم الشيخ بلعيد فلقنه أيضاً، ثم الشيخ عبد السلام أبو ناجي فلقنه كذلك.

وعن هذا يقول الشيخ:

ومن لقنوا حقاً: بلعيد، فحيدر *** فجاج، جميعاً بالدعاء تمتعوا⁽³⁾

يقول الشيخ: "وقد ماتوا كلهم ولقنتهم، وبقيت أنا فمن يلقني؟"⁽⁴⁾، وكان الشيخ -

(1) أفادني بها مكاتبة صهره الدكتور مفتاح غويطة، الخميس 2022/07/21م.

(2) التاريخ الموجز الموثق لمدينة الخمس: 75. العلامة الأستاذ الدكتور عبد السلام أبو ناجي وحياته العلمية، أحمد عثمان

احميدة، جمال عمران اسحيم، علي محمد افريو، بحث منشور بمجلة الشيخ الطاهر الزاوي، العدد الأول، 2017م.

(3) السيرة الذاتية للشيخ الزالط: 18.

(4) السيرة الذاتية للشيخ الزالط: 18.

رحمه الله تعالى - إذا حدثنا عن الموت، أو فقدته حبيباً يوصيني بأن ألقنه، كان ذلك عدة مرات، وفي يوم وفاته، وبعد أن وُري جسده الطاهر التراب، أتاني أحد تلاميذ الشيخ وهو الدكتور محمد علي أبوسطاش، فهمس في أذني قائلاً: لا تنس وصية الشيخ، فهناك جلست عند قبره من جهة رأسه ولقنته، فرحم الله شيخنا، وجزاه عنا كل خير.
تلاميذه:

تلمذ على يد الشيخ - رحمه الله تعالى - العديد من طلبة العلم المشهود لهم بالعلم والفضل، فكان لهم الأثر البارز في المجتمع، ومن أبرز هؤلاء:
- الشيخ العربي مفتاح فلاح:

مولده سنة 1959م بمدينة سوق الخميس/الخميس، حفظ القرآن الكريم بمدرسة أبي فارس القرآنية بساحل الخمس، ثم درس بمعهد أبي ذر الغفاري الديني، وفيه درس على الشيخ - رحمه الله تعالى - مادة الفقه والمواريث، ثم التحق بجامعة طرابلس، وفيها نال شهادة الليسانس في الدراسات الإسلامية سنة 1984م، ثم عين مدرساً بمعهد أبي ذر الغفاري الديني، واشتغل بالتدريس مدة تربو على تسع عشرة سنة، وهو خطيب مفوه اعتلى المنابر لخطبة الجمعة بمساجد عدة بمدينة الخمس وضواحيها⁽¹⁾.
- الشيخ محمد علي أبوسطاش :

ولد سنة 1973م بمدينة سوق الخميس/الخميس، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، درس بمعهد أبي ذر الغفاري الديني، ثم بمعهد المقرئ للمعلمين، وفيه تلمذ على الشيخ - رحمه الله تعالى - حيث درسه في مادتي الفقه والتفسير، واصل دراسته الجامعية بكلية الآداب، جامعة المرقب، حتى نال فيها درجة الليسانس في اللغة العربية، سنة 1997م، ونظراً لتفوقه في دراسته اختير معيداً بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وفي سنة 2002م نال درجة الماجستير في اللغة العربية من قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بكلية الآداب، جامعة المرقب، ثم أوفد للدراسة بجمهورية مصر العربية، وفي سنة 2011م تحصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية .

(1) أفادني بها مشافهة بتاريخ السبت 14/8/2022م.

- الشيخ محمود محمد الهدار:

مولده بمدينة سوق الخميس/الخميس سنة 1980م، حفظ القرآن الكريم بزاوية الشيخ محمد بن إبراهيم، ثم واصل دراسته الجامعية بالجامعة الأسمرية، ومن كلية الشريعة نال درجة الليسانس في علوم الشريعة سنة 2002م، ثم صوب التحق بالجامع الأزهر، ومن كلية الشريعة تحصل على درجة الماجستير في الفقه الإسلامي سنة 2008م، ثم عين بعدها أستاذاً بكلية العلوم الشرعية بمسلاته، ثم أوفد للدراسة بالأردن، ونال درجة الدكتوراه في الفقه وأصوله من الجامعة الأردنية سنة 2019م، وكان من ضمن الطلبة المتميزين والملازمين لحلقات الشيخ، ولجده واجتهاده رشحه الشيخ لتولي منصب رئيس فرع دار الإفتاء بمدينة الخمس، فصدر قرار من الدار بذلك، هذا إلى جانب توليه التدريس بكلية العلوم الشرعية مسلاته ومعهد الإفتاء بتاجوراء⁽¹⁾.

المطلب الثالث: مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه، والوظائف التي تقلدها:

تبوأ الشيخ - رحمه الله تعالى - مكانة علمية مرموقة، جعلته قبلة طلبة العلم، فهو كما يقال: نسيج وحده، كان - رحمه الله تعالى - راسخ القدم في كل فن، فإذا تكلم في علم الفقه قلت: إنه تخصصه، وإذا تكلم في النحو، أو البلاغة، أو الفرائض، أو علم التوحيد أو علم المنطق، أو علم الفلك، قلت في أي علم يدرسه هو تخصصه.

هذا إلى جانب ما حباه الله تعالى به من مقدرة عجيبة على قرص الشعر، وإنشاده، وحفظه، أذكر أنه في إحدى حلقات الدرس بدأ يسرد علينا قصائد من أشعار العرب من بعد صلاة العصر حتى صلاة المغرب.

والحق يقال: إنه في علم الفرائض فارس لا يشق له غبار، وخير شاهد على ذلك كتابه: (توضيح علم الميراث)، هذا إلى جانب تلك الصفات والفضائل النبيلة التي جعلته يحظى باحترام وتقدير من قبل شيوخه، وأقرانه، وتلامذه، وعامة الذين عرفوه وخالطوه، وشهادات الثناء والاعتراف بالفضل التي صدرت عن أهل العلم والفضل، التي تبرز مناقب الشيخ وتنشر مآثره، لهي خير دليل على فضله وعلو ذكره، وفيما يلي أنقل طرفاً منها:

(1) أفادني بها بتاريخ الجمعة الموافق 2002/07/02م.

يقول عنه مفتي الديار الليبية الشيخ الدكتور الصادق بن عبد الرحمن الغرياني: "كان زميلنا في سنوات الطلب منذ بداية الدراسة بمعهد أحمد باشا الديني... وكان مثلاً للمثابرة والتحصيل الدؤوب الذي لا ينقطع منذ أيامه الأولى في الصفوف الابتدائية، وكذلك في الثانوية، وكذلك في الجامعة، لا يضيع من وقته لحظة واحدة، طول الوقت مع الكتاب، وهو رجل جاد - رحمه الله - منتفع بوقته، لا يضيعه، ويعرف قيمة الوقت، وكان مثلاً للشخص الملتزم بالإجراءات المطلوبة في وقتها، فالفرع الذي يرأسه متقدم على كل الفروع الأخرى من حيث المواصلة وتقديم التقارير في وقتها..."⁽¹⁾.

ويقول عنه الشيخ الدكتور حمزة أبو فارس⁽²⁾: "غادرنا في هذا اليوم أحد علماء المنطقة، وهو الشيخ محمد الزالط، خبير في موضعين، موضوع قراءة الوثائق القديمة، الأملاك، والقسمة، وغير ذلك، والموضوع الآخر إتقانه مادة الميراث، فرحمه الله رحمة واسعة، وعوض أهله خيراً، والبلد كلها خيراً"⁽³⁾.

وقال عنه الشيخ الدكتور محمود عبد السلام بشيش⁽⁴⁾: "... الشيخ العلامة إمام الفقه، والفتوى، والفرائض، والحساب، محمد منصور الزالط، الذي بلغ بما حباه الله به من قوة الحافظة، وتوقد القريحة، والصدق في الطلب، والإخلاص لوأهب النعم، في أدب جم، وتواضع كبير، وقد أصبح في الميراث علماً، تتزاحم الركب في حلقات درسه، وتقصده العامة، لبيان ما يؤول لهم مما ورثوا فرضاً وتعصيماً، وكان ما يقرره حجة يأخذ بها القضاة، وتفصل بها المنازعات، فكان في هذا الفن قبة تهدأ في ظلها النفوس، وتطمئن قلوب الحائرين، وكمن مرة في الفقه درس بلغة السالك سرداً وتفصيلاً، بلغ عقدها،

(1) شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول، الأربعاء 2022/05/25 م.

(2) الشيخ حمزة أبو فارس أبوبكر، ولد بمدينة مسلاته سنة 1946 م، تحصل على درجة الماجستير سنة 1984 م، ثم الدكتوراه من جامعة الزيتونة سنة 2000 م، أستاذ الفقه المقارن بجامعة طرابلس، تولى وزارة الأوقاف الليبية في حكومة عبد الرحيم الكيب سنة 2011 م، له عدة مؤلفات منها: عدة البروق للونشريسي "دراسة وتحقيق"، والمواريث والوصايا في الشريعة الإسلامية، وغيرها، ينظر: موقع الشيخ على شبكة المعلومات الدولية www.himzaabufaris.ly.

(3) شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول الأربعاء 2022/05/25 م.

(4) الشيخ اللغوي النحوي الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام بشيش، تحصل على درجة الماجستير في اللغة العربية من جامعة طرابلس سنة 1988 م، ثم أوفد للدراسة بالجامع الأزهر، وفيه تحصل على درجة الدكتوراه سنة 1996 م، أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة المرقب بانخمس. أفادني بها مشافهة بتاريخ الثلاثاء 2022/07/26 م.

وفك مركبها، وبين لغتها، ومقاصدها، بأسلوب واضح، وعبارة سهلة، تتخللها الفائدة المهمة، والغريبة العجيبة...⁽¹⁾.

الوظائف التي تقلدها:

وضع الشيخ -رحمه الله تعالى - قدمه على بداية السلم الوظيفي كمدرس بوزارة التعليم، حيث تم تنسيبه بعد تخرجه في الجامعة الإسلامية للتدريس بالمعهد الديني بمدينة البيضاء مدة ثلاث سنوات، ثم انتقل بعدها إلى مدينة الخمس، فنسب بمدرسة أبي فارس القرآنية مدة سنتين، انتقل بعدها إلى معهد أبي ذر الغفاري الديني الذي يضم طلبة الإعدادية الدينية، وطلبة الثانوية الدينية، إضافة لمعهد القراءات فكلف بإدارته مدة ثماني سنين، ثم ترك الإدارة وعاد إلى التدريس بمعهد المقرئ للمعلمين بالخمس مدة تسع سنوات، وفي سنة 1993م تقاعد اختيارياً.

وبعد تقاعده تفرغ فضيلته للأعمال الحرة المتمثلة في نسخ الوثائق، والحجج القديمة، كما اعتلى عدة منابر بمساجد مدينة الخمس وضواحيها لإلقاء خطبة الجمعة، مع إمامته المصلين بمسجد بلال بن رباح بمدينة الخمس مدة طويلة، وكان يلقي الدروس بمسجد القدس وزاوية قليصة بمدينة الخمس، هذا إلى جانب حلقاته العلمية المنعقدة مساء يوم الجمعة من كل أسبوع بمسجد بلال بن رباح، ثم بمسجد ابن بجاء، إضافة إلى كونه عضواً بارزاً بلجنة فض المنازعات، وإصلاح ذات البين، مدة ثلاث وخمسين سنة، ثم أخيراً كلف برئاسة مكتب فرع دار الإفتاء بمدينة الخمس⁽²⁾.

المطلب الرابع: أخلاقه وصفاته - كراماته:

نشأ الشيخ - رحمه الله تعالى - منذ نعومة أظافره محباً للعلم، مجاً على طلبه، حافظاً لناموسه، مترفعاً عن كل ما لا يليق بأهل العلم، حتى يظن من لا يعرفه أنه معجب بنفسه، فإذا ما فاتحه في الحديث اندهش محدثه لما يجد منه من طيبة، وتواضع، وفكاهة أدبية وشعبية.

هذا، ولم يكن الشيخ -رحمه الله تعالى - يلتفت إلى الدنيا، ولا إلى مناصبها، بل

(1) أفادني بها كتابة بتاريخ الثلاثاء 2022/07/05م.

(2) للزيد راجع السيرة الذاتية للشيخ: 9، 10.

كان همه الشاغل هو طلب العلم، متمثلاً في ذلك بقولهم: "العلم لا يعطيك جله حتى تعطيه كلك"، فكان هذا ديدنه رحمه الله تعالى.

والأمر الذي يزيد الدارس لشخصية الشيخ إعجاباً، أنه لا يترك كتاباً يقع بين يديه - قديماً أو حديثاً - في أي علم كان إلا قرأه واستوعب ما يحويه، بل أحياناً تقع عينه على صحيفة ملقاة فيمد يده إليها، ويقرأ ما فيها، وقد حكى لنا في إحدى حلقات الدرس أنه كان ماراً بجانب سكنى الشيخ الراشد الشريف فوجد ورقة ملقاة على الأرض تحوي هذه الأبيات:

إذا عاش الفتى ستينَ عاماً *** فنصفُ العمرِ تمَحُّهُ الليالي
ونصفُ النصفِ يذهبُ ليسَ يدري *** لغفلته يميناً من شمالِ
وثُلثُ النصفِ آمالٌ وحرصٌ *** وشُغلٌ بالمكاسبِ والعيالِ
وباقِي العمرِ أسقامٌ وشيبٌ *** وهمُّ بارتِحالٍ وانتِقَالِ
فحبُّ المرءِ طولَ العمرِ جهلٌ *** وقسمته على هذا المِثَالِ (1)

يقول الشيخ: فأخذتها وحفظت ما فيها، وذلك سنة 1948م (2).

وبسبب تفرغ الشيخ لطلب العلم ومطالعة الكتب والاشتغال بالتدريس غالب وقته - ليلاً ونهاراً - كان بحراً في علوم عدة، قاموساً حاوياً لأغلب الفنون، غزير الحفظ، قوي القرينة، وقد لازمه حب العلم والاطلاع إلى أن توفي - رحمه الله تعالى - لا يمر يوم إلا وقد قرأ وراجع العديد من المسائل ونظر في مصادر العلم ومراجعته.

يقول عن ابنه حامد: "كلما دخلت عليه، وجدت كتاباً بين يديه، رغم انقطاع الكهرباء، وارتفاع الحرارة، وكبر سنه، فكان الكتاب لا يفارقه" (3).

هذا إلى جانب حبه لطلبته، وتقديهم في ذلك على أبنائه من صلبه، وإكرامه إياهم أفضل إكرام إذا زاروه في بيته، كان يسأل عن الغائب منهم، وينتظر المتأخر منهم عن زمن الدرس، ويطلب من زملائه الاتصال به والسؤال عن حاله، وإذا كان من الطلبة

(1) الأبيات لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

(2) ذكرنا ذلك في حلقة الدرس الأسبوعي، الجمعة 6 ربيع الآخر 1441هـ الموافق 2019/12/13م.

(3) صفحة حامد الزايط على الفيس بوك، تاريخ الدخول السبت 2022/07/30م.

البارزين المواظبين على حضور حلقاته يقول: "هذا من الأعضاء الدائمين، لا نبدأ درسنا إلا بحضوره".

كان محافظاً على زمن الحلقة لدرجة أنه إذا دخل علينا أحد العامة يستفتيه في مسألة يقول له: "هذا الوقت مخصص للطلبة لا للإجابة عن الفتوى، فإما أن تنتظر، وإما أن ترجع في وقت آخر". وكان دائماً يتعهدنا بالنصيحة، ويحثنا على طلب العلم والاستزادة منه، كان يقول لنا: "لا تجعلوا عقولكم حبيسة كتب الفقه فحسب، بل خذوا من العلوم الأخرى حظاً ونصيباً".

أما عن أدبه فقد كان الشيخ -رحمه الله تعالى - صاحب خلق رفيع، وأدب جَمٍّ، وسمت حسن، متواضع للصغير والكبير، وللعالم والأمي، وللغني والفقير، كان ذات يوم ونحن في حلقة الدرس، وبعد أن أتممنا الدرس، وهممن بالخروج من المسجد إذا بأحد المنتطعين المدعين للعلم، حديثي السن، ينادي على الشيخ قائلاً له: يا زالط - هكذا اسمه مجرداً - لقد قرب أذان المغرب، أعاد ذلك عدة مرات، والشيخ لم يلتفت إليه، ولم يرد عليه، ولا يعلم هذا المنتطع أن الوقت لا يزال متسعاً، وبإمكان الشيخ إدراك صلاة الجماعة بمكان آخر.

إذا علمت ذلك تعلم أن الشيخ -رحمه الله تعالى - قد وهبه الله - سبحانه وتعالى - هيبة العلماء ووقارهم، كما أعطاه فراسةً يتفرس بها الناس وينزلهم منازلهم، كان متواضعاً مع أهل التواضع، شديداً مع أهل الغلظة، وكنا نعرف ذلك بالحجرة التي تعلو وجهه عند غضبه من أولئك الذين لا يقدرّون العلماء ولا ينزلونهم منزلتهم دون أن يرد عليهم.

ورغم أن الشيخ -رحمه الله تعالى - يعد من أعلام بلادنا الذين يشار إليهم بالبنان، إلا أنه كان بعيداً عن الأضواء، فقد عرضت عليه قناة التناصح استضافته في حلقات مرئية؛ لعرض سيرته وحياته العلمية في برنامجها "بين يدي العلماء" فأبى ذلك، ولكن مع إلحاحنا عليه وافق أخيراً أن يكتب لنا شيئاً من سيرته العطرة في صفحات تقارب الثلاثين صفحة، كان قد أتمها قبل وفاته بثلاثة أيام، وقد جاء في مقدمتها: "... ولكن نظراً لكثرة الإلحاح

عليّ لبيتُ الطلب، وأنا على تخوف مما سأقدم عليه..."⁽¹⁾.

أما عن حبه للوطن فهو قلبه وروحه، يعيش همومه، وتؤلمه معاناته، وما آلت إليه أحوال الأمة الإسلامية من تشرد وضعف.

صلاحه:

كان معتقد الشيخ - رحمه الله تعالى - معتقد أهل السنة والجماعة، منتسب في ذلك إلى ما قرره الإمام أبو الحسن الأشعري لمذاهب السلف - رضي الله عنهم أجمعين - وله سلوك صوفي تمثل في التزامه بكتاب الله، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وترك للأهواء والبدع، وتعظيم لحرمة الله تعالى، ومداومة على الأذكار والأوراد اليومية، كما ظهرت له الكثير من الكرامات أثناء حياته، تمثلت في الرؤى والمبشرات المنامية التي رآها بنفسه، أو رآها له بعض أصدقائه.

يذكر لنا في إحدى حلقاته أنه رأى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - عدة مرات⁽²⁾، والحبيب - صلى الله عليه وسلم - يقول: "من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي"⁽³⁾.

ومن هذه الرؤى أنه رأى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وابنته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - والجميع وقوف، يقول الشيخ: "الني - صلى الله عليه وسلم - وقوفه جهة قلبي، وفاطمة عن يميني، وأنا في تلك اللحظة أصرخ بلهف وشدة وشوق: ادعولي، دعائكم مقبول، ادعولي، دعائكم مقبول، فقالت السيدة فاطمة - رضي الله عنها -: لن نخذلك، ثم تحركت جهة النبي - صلى الله عليه وسلم - واستيقظت وأنا تكاد نفسي تطير من الفرح"⁽⁴⁾.

ومن الرؤى التي رآها له أحد زملائه، يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - "رؤية رآها لي

(1) السيرة الذاتية: 1.

(2) حلقة درس الجمعة بتاريخ 20 ذو الحجة 1439 هـ الموافق 2018/08/31 م.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الرؤيا، باب: ما جاء في قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "من رآني في المنام فقد رآني"، حديث رقم: 2276، وابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام، حديث رقم: 3901.

(4) السيرة الذاتية للشيخ: 21.

شيخ مصري كان معنا في المعهد الديني، وهو عالم فاضل، حافظ لكتاب الله تعالى، وعلى جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، والسلوك الحسن، فقال لي: "يا محمد إني رأيت البارحة رؤية حسنة وسأقصها عليك كما رأيته، وأقسم بالله أنه لا يزيد فيها كلمة، ولا ينقص كلمة إلا لفظاً مترادفاً وهي: بعدما نمت قليلاً رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه جماعة من العلماء لا أعرفهم، وأنت من بينهم، فقام -صلى الله عليه وسلم- وأعطى كل واحد منهم بدلة، يقول الشيخ -رحمه الله تعالى- فلما سمعت أنا هذه الكلمة قلت له: أسالك بالله هل أعطاني أنا مثلهم أم تركني؟ فأقسم لي بالله أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يميز أحداً عن أحد⁽¹⁾.

المبحث الثاني: جهود الشيخ الفقيه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: جهوده في التأليف:

رغم انشغال الشيخ - رحمه الله تعالى - ببيان الأحكام الشرعية فيما يعرض عليه من نوازل، وقضايا فقهية، وفضّ للنزاعات، وتحكيم بين الخصوم، رغم هذا كله فقد بلغ الشيخ -رحمه الله تعالى - بما حباه الله تعالى من قوة حافظه، وتوقد في القريحة أن أصبح في علم الميراث من العلماء الذين يشار إليهم بالبنيان، وفي الفقه له من الفتاوى ما ترشد الحيران، فهو في علم الفرائض والفقه صاحب كتابي "توضيح علم الميراث"، "وسؤال وجواب"، وفي حلقات الدرس له من النكت، والدعابة، والطرائف المسلية ما يجعل الطالب حبيس درسه، لا يكل ولا يملّ، وله في هذا كتاب "عجائب المعارف، وغرائب الفنون واللطائف" وفي السيرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات - مؤرخاً وقاصاً لا تفوته الإشارة إلى ما كان وما سيكون، وله فيها كتاب "إشارات نبوية"، وهذه نبذة عن محتوى هذه المؤلفات:

1- توضيح علم الميراث:

ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى - في مقدمة كتابه الدافع لتأليفه، فقال: "من خلال ملاحظتي عند دراستي وتدريسي لهذا الفن، واطلاعي عليه اتضح لي أن أجلة العلماء المحدثين تناولت أقلامهم كافة الفنون، والعلوم الشرعية، واللسانية، والكلامية، شرحاً وتفصيلاً، وتقريباً وتوضيحاً... إلا هذا الفن، فإنه مازال لغزاً خفياً، استعصى على الكثير فهمه... كما

(1) السيرة الذاتية للشيخ: 22.

أنني لاحظت من الطلبة فتوراً متزايداً، وكلاً في عزائمهم ... عندها دبّت في نفسي بوادر الرغبة فيه" (1).

والكتاب يمتاز بسهولة أسلوبه، ووضوح عبارته، مع الإكثار فيه من ضرب الأمثلة، التي يثار حولها النقاش والجدل، كي يتسنى فهمه من الكافة، وقد جمع الكتاب مسائل علم الميراث، مع إعطائها حقها من البحث والتفصيل، إضافة إلى توضيح المسائل بالجداول التي تعين الطالب على فهم المسائل المطروحة، والجدير بالذكر تلك الإضافات التي زادها الشيخ -رحمه الله تعالى - واستدرك بها على صاحب المنظومة الرحبية، ففي بيان الإرث بالتعصيب على سبيل المثال وبعد استشهاده بأبيات من الرحبية ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى - جهات العصوبة بالنفس ودرجاتها، وقوة الاتصال بالميت، حسب ترتيبهم في الإرث فقال:

عصوبة أولها البنوة *** يليهم قد رتبوا الأبوة
جدودة ثالثة في الحكم *** مع أخوة سيان فافهم نظمي

إلى أن يقول:

فلا تؤأخذ في القصور إن بدا *** فالعبد مجبول على النقص غدا (2)

فالكتاب قيم لمن أراد تعلم هذا العلم، وعوناً لمن لعمله صلة بهذا العلم كالتقضاة والمحامين وغيرهم. ولسهولة أسلوبه، وبسط مسأله، وتذليل صعابه، والنية الخالصة لدى مؤلفه في ابتغائه بعمله رضا الله تعالى كتب الله له القبول والانتشار، حتى صار من الكتب المنهجية في العديد من جامعتنا، بل وفي الجامعات الإسلامية خارج بلادنا، حيث أخبرني أحد الثقات أن كتاب "توضيح علم الميراث" يدرّس ككتاب منهجي، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة. وبسبب هذا الرواج تمت طباعة الكتاب ثلاث مرات، ونتيجة لهذا قام أحدهم بانتحال كتاب الشيخ، ونسبه لنفسه، وأعاد طباعته بعد أن استبدل عنوانه، وسماه: "مرجع الطلاب في المواريث على المذهب المالكي"، فالله حسيبه، وللشيخ ثواب عمله عند ربه. هذا، وقد احتوى الكتاب على مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة:

(1) توضيح علم الميراث: 10.

(2) توضيح علم الميراث: 80 - 81.

- المقدمة: واشتملت على الإشارة إلى موضوع علم الميراث، وحكم تعلمه، وفضله، وشروطه، والحقوق المتعلقة بالتركة، وفوائد أخرى.
- الفصل الأول: في ذكر أسباب الميراث، وموانعه، والوارثين من الرجال والنساء، والفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، والوارثين بالتعصيب، وأحوال الجد والإخوة، والحجب.
- الفصل الثاني: يتناول قواعد الحساب، وكيفية العمل في المناسخت، والعول، وأحكام الخنثى المشكل، وميراث ذوي الأرحام، وميراث الغرقى والهدمى والحرقى.
- الفصل الثالث: ويشتمل على الوصية والتنزيل، والإرث بالرد، والإقرار بوارث.
- الفصل الرابع: يبحث في طريقة تقسيم التركات، وتحاصص الدائنين في تركة المدين، الذي لا تكفي تركته لأداء ما عليه من ديون.
- الخاتمة: وفيها خلاصة فقه الميراث.

2- كتاب سؤال وجواب:

ذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - الباعث الرئيس على تأليف الكتاب فقال: "وإني لما رأيت اهتمام الناس بالأسئلة والاستفسارات في كل ما يعينهم في شؤون الحياة كلها حتى أنه لا يكاد يمر يوم دون أن نسأل عن عدد من الأسئلة، وعاليتهم في هذا المجال فترة تزيد على الثلاثين سنة، عرفت خلالها اتجاهاتهم وميلهم، والأبواب الفقهية التي تكثر الأسئلة عنها... عندها تحركت في نفسي بوادر الرغبة في جمعها"⁽¹⁾.

وقد خرج الكتاب في جزأين محتواهما الآتي:

- الجزء الأول: وفيه وردت الأسئلة المتعلقة بأبواب العبادات، واشتملت على الآتي:
 - الأعيان الطاهرة، والأعيان النجسة.
 - أقسام المياه،
 - الوضوء.
 - التيمم وأحكامه.
 - أحكام الغسل، ومسائل متفرقة.

(1) سؤال وجواب 3/1.

- أحوال النساء وغيرها.
- علامات البلوغ.
- الأذان والإقامة.
- الصلاة وما يتعلق بها.
- حرمة المسجد وصلاة الجنازة.
- الزكاة والصوم.
- الحج والعمرة.
- أحكام الأضحية والعقيقة.
- الإيمان والندور⁽¹⁾.
- الجزء الثاني: خصص للإجابة على الأسئلة المتعلقة بالأحوال الشخصية والمعاملات، واحتوى على الآتي:
 - أحكام النكاح.
 - أحكام النشوز.
 - أحكام الخلع.
 - أحكام الطلاق.
 - أحكام الظهار.
 - أحكام العدة.
 - أحكام الرضاع.
 - أحكام النفقة.
 - أحكام الحضانة.
 - أحكام البيع.
 - البيع على الخيار.
 - العيوب التي يردُّ بها المبيع.
 - الاستحقاق في البيع.

(1) سؤال وجواب 7/1.

- البياعات الممنوعة.
- أحكام المغارسة.
- أحكام القسمة.
- أحكام الشفعة.
- أحكام اللقطة.
- أحكام الوديعة.
- عقد التبرعات (1).

3- إشارات نبوية:

لم تكن دروس الشيخ - رحمه الله تعالى - ومحاضراته مقتصرة على موضوع واحد فحسب، بل كانت تتخللها المواعظ والرقائق التي كان يشد بها انتباه الحاضرين، كي لا تصيبهم السامة والملل، وكثيراً ما كان - رحمه الله تعالى - يذكرنا بعلامات الساعة، وأهوال الآخرة، كي لا تقسى القلوب، ولا تطغى الماديات على الروحانيات، ولا يغيب سلطان العقل والضمير، ولهذا الأسباب وغيرها كان الدافع من وراء تأليف الشيخ كتابه: "إشارات نبوية" جمع فيه تلك الأحاديث الصحيحة الناطقة بالمغيبات التي لا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى - أو من ارتضاه من رسله - عليهم السلام.

وبما أن هذه الأحاديث مبعثرة في شتى المصادر، فقد قام الشيخ - رحمه الله تعالى - بجمع وانتقاء ما تعلق منها بعلامات الساعة، مقتصراً في ذلك على ما قصر متنه، وسهل لفظه، وفي هذا يقول - رحمه الله تعالى -: "وبما أنني لم أعر على كتاب مستقل جامع لهذه الدرر الحسان حسب اطلاعي المحدود، فإني رأيت من واجبي أن أعدها في كتاب مستقل للأسباب الآتية:

- توفير الوقت والجهد لكافة القراء والمتعلمين، وإراحتهم من عناء البحث والتحصيل في خضم هذه المصادر العملاقة.
- سهولة اقتناء الكتاب، ويسر الحصول عليه ثمناً وحجماً.

- تعريف الشباب ببعض المعجزات النبوية الإخبارية⁽¹⁾.

4- عجائب المعارف وغرائب الفنون واللطائف:

وإلى جانب المواعظ والرقائق تزينت حلقات درسه - رحمه الله تعالى - بتلكم الطرائف والظرائف المسلية العجيبة، التي تدل على سعة اطلاعه، فقد كان الشيخ - رحمه الله تعالى - صاحب نكتة ودعابة لا يمل الطالب من سماعها، فجاء كتابه عجائب المعارف وغرائب الفنون واللطائف، وقد احتوى على آيات قرآنية تشير في إعجازها إلى حكم إلهية خفية، وعلوم كونية، وعجائب فلكية، ووقائع وحوادث تاريخية، هذا إلى جانب القواعد اللغوية والنحوية، والحكم النثرية والشعرية، واللطائف الفكاهية، والقواعد الرياضية، وغيرها مما يريح القلوب، ويشرح الصدور، ويبعد الهموم⁽²⁾.

المطلب الثاني: جهوده في التدريس:

بعد أن تخرج الشيخ في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بمدينة البيضاء سنة 1972م، عين مدرساً بمعهد البيضاء الديني، واستمر في التدريس به حتى سنة 1972م، وقد قام بتدريس العديد من المواد الشرعية، ثم انتقل بعدها إلى مراقبة التعليم بالخميس، حيث نسب مدرساً بمدرسة أبي فارس القرآنية بساحل سوق الخميس / الخميس، وبها درس مادة التربية الإسلامية، ثم في سنة 1974م انتقل إلى معهد أبي ذر الغفاري الديني بالخميس، وبه درس العديد من المواد الشرعية من بينها الفقه، والفرائض، وقد تنوعت المؤلفات التي قام الشيخ بتدريسها منها: (الشرح الصغير للشيخ الدردير، ت: 1201هـ، وشرح الرحبية في الموارد لمحمد بن سبط المارديني، ت: 912هـ، والتحفة الخيرية على الفوائد الشنشورية لإبراهيم الباجوري، ت: 1277هـ، وبعد سنتين من البذل والعطاء كلف الشيخ - رحمه الله تعالى - بإدارة المعهد الديني، والذي كان يضم "طلبة الإعدادي الديني - طلبة الثانوي الديني - طلبة القراءات)، واستمرت إدارة الشيخ للمعهد ثماني سنوات، وكانت فترة إدارته للمعهد فترة عصية، يصفها الشيخ بقوله: "... فاللجان الثورية

(1) إشارات نبوية: 4.

(2) عجائب المعارف: 5.

تهوج وتموج في كل مكان، ومن لم يكن في صفتهم يوصف بالرجعية والعمالة والخيانة⁽¹⁾، ورغم ذلك كله فقد ضرب الشيخ المثل الرائع للرئيس والمرؤوس. وبعد هذه السنوات التي قضاها الشيخ في الإدارة رجع إلى التدريس بمعهد المعلمين بالخمس، وبه درس العديد من المواد حتى رغب في التقاعد الاختياري سنة 1993م⁽²⁾، لتبدأ مرحلة أخرى من حياة الشيخ تفرغ فيها للتأليف، ونشر العلم، إلى جانب قيامه بنسخ الوثائق القديمة، إضافة إلى رسمه للفرائض، وبيان الأحكام الشرعية للمستفتين، وفض النزاعات بين المتخاصمين.

- الحلقات الدراسية:

رغم انشغاله بأموره الخاصة - رحمه الله تعالى - وكثرة مشاغله من فض للنزاعات، ونسخ للوثائق، رغم هذا كله فقد خصص جزءاً من وقته لنشر العلم الشرعي، ففي سنة 1995م، وبعد تخفيف منابع العلم الشرعي في بلادنا بسبب إقفال المدارس القرآنية، والمعاهد الدينية، عادت المنارات الشرعية لتقوم بدورها الذي حرمت منه عقوداً من الزمن، ومن هذه المنارات منارة ابن جحا بمدينة الخمس، حيث كلف الشيخ - رحمه الله تعالى - من قبل مكتب أوقاف الخمس ومعه ثلة من المشايخ الفضلاء أبرزهم: الشيخ الدكتور عبد السلام محمود أبو ناجي، والشيخ ناجي أحمد عبد القادر، والشيخ بلعيد ميلاد القائد، - رحمهم الله تعالى - بإحياء هذه المنارة، وذلك من خلال إقامة حلقات علمية بها، فافتتح الشيخ حلقاته بحضور عدد من طلبة العلم، وكان زمن انعقادها مساء يوم الجمعة بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب، تناول فيها الشيخ مجموعة من الكتب هي:

1- الكواكب الدرية في فقه المالكية لمؤلفه محمد جمعة عبد الله، وقد انتهى الشيخ من تدريسه في يوم الجمعة 23 شوال 1418هـ الموافق 1998/02/20م⁽³⁾.

2- الشرح الصغير على أقرب المسالك للشيخ أحمد بن محمد الدردير، ت: 1201هـ، قام الشيخ بتدريسه بمسجد بلال بن رباح الكائن بالحلي الذي يقيم فيه، بدأ الشيخ في تدريسه الجمعة 1 ذو القعدة 1418هـ الموافق 1998/02/27م، وآخر درس كان

(1) السيرة الذاتية: 9.

(2) التاريخ الموجز الموثق لمدينة الخمس: 74.

(3) وفي يوم الجمعة 2 جمادى الأولى 1418هـ الموافق 1997/09/05م، التحقت بحلقة الشيخ فوجدته يشرح الأبواب الأخيرة من الكتاب.

- بتاريخ الجمعة 23 ذو القعدة 1429 هـ الموافق 2008/11/21 م، حيث وقف الشيخ على باب في الفرائض لكوننا ندرس هذا العلم في كتابه "توضيح علم الميراث".
- 3- شرح متن الرحبية في الموارث للشيخ محمد بن سبط المارديني، ت: 912 هـ، خصص لدراسته نهاية وقت الحلقة وختمها به، فبعد أن يكتب أحد الطلبة الأبيات المتعلقة بموضوع الدرس يقوم الشيخ بشرحها شرحاً وافياً، وقد استغرقت دراسته مدة تزيد على السنة.
- 4- توضيح علم الميراث، وهو كما سبقت الإشارة كتاب جمع الشيخ فيه مسائل علم الميراث، وأعطاهما حقها من البحث والدراسة، خصص له الشيخ نصف زمن الحلقة، واستغرقت دراسته عدة سنوات، وقفنا فيه على ميراث الخنثى المشكل.
- 5- كفاية الطالب الرباني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني لأبي الحسن العدوي، ت: 939 هـ، وكان ذلك بعد أن انتهى الشيخ من تدريس الشرح الصغير، فقد بدأ في تدريس الشرح المذكور بتاريخ الجمعة 30 ذو القعدة 1429 هـ الموافق 2008/11/28 م، وكان آخر درس للشيخ في هذا الكتاب الجمعة 19 شعبان 1434 هـ الموافق 28 يونيو 2013 م.
- 6- حاشية الصفتي على الجواهر الزكية لابن ترمي. ت: 979 هـ، وكانت دراسته بعد انتهاء الشيخ من تدريس شرح الرسالة، وبداية دراسته الجمعة 9 شوال 1434 هـ الموافق 2013/08/16 م، وختم الكتاب بتاريخ الجمعة 15 شعبان 1435 هـ الموافق 2014/06/13 م.
- 7- الشرح الكبير للشيخ أحمد بن محمد الدردير، ت: 1201 هـ، وقد شرع الشيخ في تدريس هذا الكتاب بعد أن أكمل تدريس حاشية الصفتي، وذلك بتاريخ الجمعة 12 شوال 1435 هـ الموافق 2014/08/08 م.
- وعند بداية الشيخ في تدريس هذا الكتاب قال هذه الكلمات التي لازلت أذكرها: "هذا الكتاب طويل، ولعل المنية تدركما ولا نكمله"، فسبحان الله! صدق الله كلمته، فتوفي قبل ختمه. رحمه الله رحمة واسعة.
- وكانت آخر حلقة جمعتنا مع الشيخ لدراسة هذا الكتاب الجمعة 11 رجب 1441 هـ

الموافق 2020/03/06م، حيث إن وباء كورونا قد انتشر، وبسببه حُظرت الاجتماعات العامة، وأوصدت المساجد في وجوه روادها، وبقي الناس مساجين بيوتهم لا يخرجون منها إلا للعلاج، أو التسوق لشراء الأشياء الأساسية، أو قضاء بعض حاجاتهم الأساسية، قبل أن يحظر التجول. وكان آخر باب تناوله الشيخ بالدراسة هو باب الإيلاء، حيث وقف على قول الشارح: "... إن وطئتُ غيرك، أو تزوجتُ عليك، فالتى أطؤها، أو أتزوجها طالق" (1).

طريقته في التدريس بالحلقات:

كان درس الشيخ يعقد مساء كل يوم جمعة من بعد صلاة العصر، ويستمر إلى قبيل أذان صلاة المغرب، يتناول الشيخ في تدريسه الطريقة القديمة، بحيث يطلب من أحد الطلبة البارزين قراءة جملة من المتن، ثم يقوم بشرحها ارتجالاً بطريقة سهلة ميسرة، يجمع في ذلك بين الفصحى والدارجة أحياناً، كي يقرب المسألة وما فيها من أحكام لعامة الحاضرين، هذا بالإضافة إلى تلك الفوائد والعجائب التي كان يلقيها أثناء شرحه للكتاب، والتي لا يميل الطالب من سماعها.

أما بالنسبة للطلبة الذين واطبوا على حضور حلقاته والتزموا بذلك، فقد أتوا من جهات عدة، وكانوا على مستويات متعددة، فمنهم المبتدئ، ومنهم الطالب الجامعي، ومنهم من هو طالب بالدراسات العليا، ومنهم من هم أساتذة في الجامعات.

وفي السنوات الأخيرة حضر مجموعة من طلبة العلم بمدينة زليتن يدعونه إلى إقامة حلقة دراسية في الفقه بمنارة حي المعلمين، فاعتذر لهم ببعده المسافة، وعدم قدرته على قيادة السيارة، فتكفّلوا بتخصيص سيارة لنقله إلى هناك وإعادته إلى بيته، فوافق الشيخ على ذلك، وكانت الحلقة تعقد كل يوم أربعاء من بعد صلاة العصر حتى أذان صلاة المغرب، أما الكتاب فكان الجزء الثاني من الشرح الصغير للشيخ الدردير، وقد واطب على حضور هذه الحلقة جماعة من الأساتذة الجامعيين، ومن طلبة العلم بمدينة زليتن، وفي مقدمتهم الدكتور فتحي الجعروود، والأستاذ ميلود التائب والأستاذ فرج شابك، وقد

(1) الشرح الكبير للشيخ الدردير 2/682.

تواصلت هذه الحلقة العلمية إلى أن تفشى وباء كورونا⁽¹⁾.

والحق يقال إن الشيخ - رحمه الله تعالى - كان في تدرسه، وفي حلقاته العلمية أستاذاً ماهراً، ومعلماً فاضلاً، امتحن التدريس العام مدة أربع وعشرين سنة، وجلس في حلقاته العلمية مدة تربو على خمس وعشرين سنة، فكان لنا نعم المعلم، كما نجلس حوله في الحلقة، ويجلس بيننا متربعاً، لا يتحرك يمناً ولا يسرة، لا يكل ولا يمل من تكلم الجلسة، ولا يغيرها حتى ينتهي الدرس، رغم تقدمه في السن، وكان إذا بدأ درسه الفقهي قلنا هو بالفقه أدري، وإذا تكلم في النحو والصرف قلنا هو بالنحو أعلم، وفي علم الفلك والتاريخ والأنساب والحساب له فيها نصيب، فنجح في نشر العلم، وتخرج على يديه الكثيرون، الذين صاروا أساتذة وعلماء، والبعض منهم تبوأ أعلى المراتب في الدولة، فكان - رحمه الله تعالى - نقطة وصل بين مشايخه الذين نتلهذ عليهم، وبين تلاميذه الذين أخذوا عنه، فرحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جناته.

المطلب الثالث: جهوده الدعوية والثقافية:

امتازت شخصية الشيخ - رحمه الله تعالى - بتعلقها بالشرع الحنيف، وحماسها في خدمة قضاياها، والغيرة والدفاع عن حرمانه، وهذا أمر ليس بغريب على شخص نشأ في بيت أدب وعلم، وصلاح، وأشرب قلبه محبة الدين، وأتم حفظ كتاب الله في سن مبكرة، كما كان لشيخه وأساتذته الأثر الطيب في ترسيخ هذه الميزات والمشاعر لديه، ومع كثرة مشاغله من ترجمة الحجج والوثائق القديمة ونسخها، وفض للنزاعات، مع هذا كله فقد كان للشيخ - رحمه الله تعالى - نشاط دعوي وثقافي دؤوب، يتمثل في الأمور الآتية:

- الإفتاء:

نظراً لتضلعه - رحمه الله تعالى - في الفقه المالكي، فقد تبوأ الشيخ مكانة علمية بين علماء عصره، جعلته قبلة الناس في الفتوى، يقصدونه من مدن عدة؛ لبيّن لهم الحكم الشرعي فيما يقع لهم من حوادث ونوازل، فيجيهم عن ذلك حيث كان، سواء في المسجد، أو الطريق، أو عبر الاتصالات الهاتفية، وفي الغالب الكثير أنهم كانوا يتوافدون

(1) أفادني بهذه المعلومات مشافهة الأستاذ فرج شابك بتاريخ السبت 06/08/2022م.

عليه في بيته، فكان يستقبل أسئلتهم واستفساراتهم بنفس منسرحة، وصدر رجب. وفي سنة 2013م كلف الشيخ رسمياً بتولي رئاسة مكتب الإفتاء فرع الدار بمدينة الخمس، ومنذ ذلك الحين وهو يجيب على تلك الأسئلة التي ترد إليه، ويحرفها، ويرسلها إلى دار الإفتاء دون كلل أو ملل، ورغم كونه الوحيد الذي يدير المكتب، ومع تقدمه في السن، والظروف الصحية التي يمر بها لم يمنعه ذلك عن القيام بعمله أفضل قيام، وفي هذا يقول عنه زميله في الدراسة الشيخ الدكتور الصادق بن عبد الرحمن الغرياني - أطال الله في عمره: "كان مثلاً للشخص الملتزم بالإجراءات المطلوبة في وقتها، فالفرع الذي يرأسه متقدم على كل الفروع الأخرى من حيث المواصلة، وتقديم التقارير في وقتها..."⁽¹⁾.

إلا أنه في الأشهر الأخيرة وبسبب الظروف الصحية التي مرّ بها الشيخ عرض هذا المنصب على تلميذين بارزين من تلاميذه وهما الدكتور محمود محمد الهدار، والأستاذ مفتاح محمد الخمري ليستلها هذه المهمة، ويقوما بإدارة المكتب بعده، فرفضاً في البداية، ولكن بعد إلحاح من الشيخ استجاباً لطلبه، وبتركية منه تم تكليفهما رسمياً من قبل الدار بقرار صدر بتاريخ 2022/01/09م، وهما الآن يقومان بهذه المهمة، سائرين في ذلك على نهج الشيخ رحمه الله تعالى.

- البرامج الإذاعية:

شارك الشيخ - رحمه الله تعالى - في إلقاء الأحاديث الدينية الرمضانية، بإذاعة الخمس المحلية المسموعة، كما أسهم في إعداد برنامج ديني أسبوعي يذاع عبر إذاعة الخمس المحلية. كما أن إذاعة نور الإيمان الدعوية الثقافية المسموعة بمدينة زليتن تبث درسه الفقهي الذي كان يلقيه في الحلقة العلمية التي كانت تعقد بمنارة حي المعلمين في برنامج "من دروس الشيخ الزالط".

- الوعظ والإرشاد:

كان الشيخ - رحمه الله تعالى - يعتزم شهر رمضان المعظم، حيث المساجد والجوامع تكتظُّ بالمصلين، فيقوم بوعظهم، وتذكيرهم بفضائل الشهر الكريم، مع بيان ما يحتاج إليه المسلم من فقه وأحكام تتعلق بصيام الشهر وقيامه، وقد قام الشيخ بهذا النشاط في سن

(1) شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول 2022/05/25م.

متقدمة من عمره إبان دراسته بالمرحلة الثانوية⁽¹⁾.

- التحكيم وفض المنازعات:

نظراً لما يمتاز به الشيخ - رحمه الله تعالى - من حكمة وفطنة جعلته محل ثقة الناس على مختلف مستوياتهم ومناصبهم، صار بيته مثابة وقبلة للمتنازعين والمتخاصمين، حيث كانت له مواقف في فصل الخصومات، وفض المنازعات، وإصلاح ذات البين، قوياً للحق، لا يخاف في الله لومة لائم، رضي من رضي، وغضب من غضب، وهو أحد أعضاء لجنة فض المنازعات بمدينة الخمس وضواحيها، بموجب قرار رسمي⁽²⁾، ولم يقتصر دوره على تلك الخصومات التي تحدث داخل المدينة وحسب، بل غالباً ما يرتضيه سكان المدن المجاورة حكماً، فيقضي بينهم بما وفقه الله - سبحانه وتعالى - باذلاً في ذلك قصارى جهده للتوفيق، والمصالحة، ولم الشمل.

- شعره:

بالإضافة إلى كون الشيخ فقيهاً، فقد كان شاعراً أديباً، ينشد الشعر ويحفظه، فنظمه الذي أضافه لنظم الرحبية في الميراث، وقصائده في رثاء زملائه يشهدان على براعته ومقدرته على قرض الشعر وإنشاده.

يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - : "وأخيراً حاولت استرجاع الروح الشعرية تطفلاً مني على الشعر والشعراء بعد أن خبت جذوة الحماس الشبابية..."⁽³⁾.

ومن نظمته الذي أضافه لمتن الرحبية في الميراث يقول:

رحبية قد انتهت في نظمها ❁ ❁ موجزة شيقة في لفظها

حوت من الميراث جل علمه ❁ ❁ ضمنها مختتماً بقولها

"وإن يمت قوم بهدم أو حرق" ❁ ❁ فهذه ألفاظه كما نطق

(1) السيرة الذاتية: 9.

(2) السيرة الذاتية: 9.

(3) السيرة الذاتية: 18.

وقد أضفنا ما يتم الفائدة
 أشياء كانت للتقاضي سائدة
 كالرد حكماً وذوي الأرحام
 أي إرثهم مبين الاحكام
 إقرارهم بوارث إنكار
 وصية في حكمها أسرار⁽¹⁾

ومن قصائده أيضاً رثاؤه للشيخ الدكتور عبد السلام محمود أبو ناجي - رحمه الله تعالى - والتي جاء فيها:

فقدنا عزيزاً والعزيز يؤبن
 فقدنا خليلاً عالماً بمماته
 فكنتم كبر والبدور منيرة
 وأنتم كبر في النجوم سناؤه
 وإن غبتمو عن مجلس الأئس بيننا
 فذكراكمو في ساحة العلم تطلع⁽²⁾

وفي رثائه لرفيق الدراسة أحمد الكوحة:

قضاء جاء يطوي الكون طياً
 على عجل وللدنيا قضاء

(1) توضيح علم الميراث: 251.

(2) السيرة الذاتية: 18.

مناد بالرحيل لكل حي فلي كوحنا هذا النداء
 عجاتم بالرحيل لدار عز فنعم الدار حيث لكم جزاء
 وكنتم بيننا في الكون بدر سما في العالمين له سناء⁽¹⁾

وفي رثاء صديقه الشيخ محمد الحافي يقول:

فهذا قضاء بالرحيل مقدر وأنا لكأس الموت جمعاً سنهراً
 وهذا صديق العمر لبي نداءه سراعاً لدار عرفها يتضوع
 وإني حزين من فراق أحبتي وقلبي على نار الجوى يتلوع
 فيا حافياً فالاسم أنت محمد تمتع ففي الفردوس فضل موسع
 وأنهي قريضي بالدعاء مؤمناً نخل عزيز في الجنان مودع⁽²⁾

الخاتمة:

وأخيراً هذه أهم النتائج التي توصل إليها البحث مذيلاً ببعض التوصيات إتماماً للفائدة:
 - الشيخ محمد الزالط - رحمه الله تعالى - شخصية علمية فقهية، أدى دوره على أكمل وجه، رغم صعوبة المرحلة التي عاش فيها، حيث كان له الدور البارز في تعليم الناس أمور دينهم وفق نهج المدرسة المالكية.
 - يعد الشيخ من أساطين العلم الشرعي في بلادنا، والذين ازدانت بهم مجالس العلم

(1) السيرة الذاتية: 19.

(2) السيرة الذاتية: 19.

وحلقات الدروس.

- يعتبر الشيخ موسوعة علمية في الفقه، والتوحيد، واللغة، والمنطق، والحساب، وعلم الفلك.
- وهب الله - سبحانه وتعالى - الشيخ قدرة على نظم الشعر وحفظه، فهو ينظم بعض المسائل تسهيلاً لحفظها وفهمها، كما فعل في إضافاته على نظم الرحبية في المواريث.
- يعتبر أحد رواد علم الفرائض في بلادنا، بل وفي بلاد الإسلام عامة، وكتابه توضيح علم الميراث خير دليل على ذلك.
- فتاوى الشيخ - رحمه الله تعالى - تدل على مكانته الفقهية، وإدراكه الواسع الذي يجعله في مصاف كبار علماء المذهب المالكي.

التوصيات:

- تحقيق ودراسة مؤلفات الشيخ وتدريسها في جامعاتنا لاحتوائها فوائد جمّة، وسهولتها على الطلبة المبتدئين.
- إقامة مؤتمر، أو ندوة علمية يتم خلالها إبراز شخصية هذا العلم، وتبسيط الضوء على نتاجه العلمي، وبيان جهوده في الإفتاء، وفض النزاعات، وفصل الخصومات.
- على طلبة العلم في بلادنا عموماً، وفي مدينة الخمس خاصة جمع تراث الشيخ، وتقريبه للناس فهماً ونشراً، وتفرغ محاضراته ودروسه في مؤلف كي يسهل تداولها.
- وختاماً رجائي وأملي في الله - سبحانه وتعالى - أن أكون بما جمعت وكتبت قد وفيت لشيخني وسيدي - رحمه الله تعالى - بعضاً من سوابغ أفضاله عليّ، حيث جلست سنين عدة في حلقة درسه، فاستفدت الكثير من أدبه وعلمه، فكان عليّ أن أشكر فضله، وإحسانه، وبره، وعطفه عليّ، رحم الله شيخني، وجمعني به ووالدي وجميع المسلمين في دار المقامة بفضله ومنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- 1- إشارات نبوية، محمد منصور الزالط، مطابع عصر الجماهير، الخمس، 2006م.
- 2- التاريخ الموجز الموثق لمدينة الخمس، علي مختار بن طالب، دار الفسيفساء، ط1،

- 2018م.
- 3- توضيح علم الميراث، محمد منصور الزالط، مطابع عصر الجماهير، الخمس، ط، 1993م.
- 4- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تح: مصطفى الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1999م.
- 5- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله القزويني، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1999م.
- 6- شبكة المعلومات الدولية، تاريخ الدخول 2022م.
- 7- الشرح الكبير للشيخ أحمد الدردير مع حاشية الدسوقي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998م.
- 8- عجائب المعارف وغرائب الفنون واللطائف، محمد منصور الزالط، مطابع عصر الجماهير، الخمس، ط1، 1999م.
- 9- المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب، سالم سالم شلابي، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ط1، 2006م.
- 10- السيرة الذاتية للشيخ محمد الزالط، مكانها مكتبة الشيخ بيت الأسرة.
- 11- مجلة الطاهر الزاوي للدراسات والأبحاث، العدد الأول، سنة 2017م.

تاريخ قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب

من القرن: "02هـ/08م/حتى القرن: 08هـ/14م"

أ. حنان مفتاح عمران/ الجامعة الأسمرية/ كلية اللغة العربية

المقدمة

لما كانت قراءة الإمام نافع من أهم جوانب الهوية الليبية الدينية التي توارثتها الأجيال كبراً عن كبر منذ أوائل دخولها إلى طرابلس الغرب من القرن 02هـ/08م إلى القرن 08هـ/14م، وقد تحددت هذه المدة الزمنية نسبة لأهم عوامل إرساء هذه القراءة في فترات الإسلام الأولى وذلك من أجل الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. من الإمام نافع بن أبي نعيم؟ ومن تلاميذه؟ وما منهجه؟
2. ما تاريخ قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب؟ وما أهم عوامل ظهورها؟ ومن أهم القراء هناك؟

وذلك من أجل الوصول إلى أهم نتيجتين، هما:

1. أن قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب قد أسهمت عدة ظروف في نجاحها وتمكنها في مدة الدراسة التي مهدت لبقائها إلى اليوم.
2. أن تاريخ هذا الجانب يعبر عن محاولة لتتبع ظاهرة تاريخية من الصعب الإمام بكل حذافيرها.

"تاريخ قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب من القرن: (02هـ/08م)، إلى القرن: (08هـ/14م)".

أولاً: التعريف بالإمام نافع: هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم⁽¹⁾، قيل: إن كنيته أبو رويم⁽²⁾، وقيل: أبو نعيم، وقيل: أبو الحسن، وقيل: أبو عبد الله⁽³⁾، وقيل: أبو عبد

(1) انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: طيار آلي

قولاج، سلسلة التراث الإسلامي، استانبول: 1995م، ج1، ص 241.

(2) انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، تح: إحسان

عباس، دار صادر، بيروت: 1977م، ج5، ص 368.

(3) انظر: ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي: غاية النهاية في طبقات القراء، اعتنى به: ج.

برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت: 2006، ج2، ص 288.

الرحمن⁽¹⁾، أصله من أصفهان⁽²⁾، حيث كان مولى لجعونة بن شعوب الليثي حليف بني هاشم⁽³⁾.

ولد الإمام نافع بن أبي نعيم سنة بضع وسبعين من الهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان⁽⁴⁾، ووصف بأنه كان أسود شديد السواد⁽⁵⁾، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة⁽⁶⁾.

نشأ الإمام نافع وتعلّم بالمدينة المنورة، على يد جماعة من التابعين، وقد أكد ذلك بنفسه، حيث قال: «قرأت على سبعين من التابعين»⁽⁷⁾، ويأتي في مقدمة شيوخه:

1. مسلم بن جندب الهذلي^(*) (ت بعد: 110هـ/728م)ه⁽⁸⁾.

2. عبدالرحمن بن هرمز^(9*) (ت: 117هـ/735م)⁽¹⁰⁾.

(1) البستي، أبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان: مشاهير علماء الأمصار، وضع حواشيه وعلق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت: 1995م، ص 70.

(2) انظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف، تح: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط/4، د.ت، ص 528.

(3) انظر: البستي، مصدر سابق، ص 170.

(4) انظر: علي بن أمير المالكي: قرّة العيون بتلخيص أصول رواية قالون من طريق الشاطبية، دار الكتب الوطنية، بنغازي: 2012م، ص 12.

(5) انظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج 5، ص 368.

(6) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 2، ص 288.

(7) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1992م، ج 29، ص 282.

(*) مسلم بن جندب الهذلي، الإمام أبو عبد الله المدني المقرئ، القاص، مولى هذيل، قرأ على عبد الله بن عياش، وقرأ عليه نافع، وكان من فصحاء زمانه، خرج له الترمذي، وتوفي في ما بعد سنة: 110هـ/728م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 184.

(8) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2: 1982م، ج 7، ص 336.

(**) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، أبو داود، المدني، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ويقال: مولى محمد بن ربيعة، وهو في الطبقة الثانية من أهل المدينة، كثير الحديث عن التابعين، وكان يكتب المصاحف، توفي سنة: 117هـ/735م، على الإجماع، وقيل: بل: 110هـ/728م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 180.

(9) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 2، ص 289.

(10) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 7، ص 336.

3. أبو جعفر يزيد بن القعقاع⁽¹⁾.
4. شيبه بن نصاح⁽²⁾.
5. يزيد بن رومان⁽³⁾ (ت 130هـ/747م)⁽⁴⁾.
- وقال عن ذلك ابن الجزري: «وقد تواتر عندنا أنه قرأ على الخمسة»⁽⁵⁾، (أي: على الخمسة هؤلاء)، ومن غير هؤلاء كان من شيوخه الزهري، وغيرهم⁽⁶⁾.
- ومع أن الإمام نافع قد أخذ القراءة في سنة: (95هـ/713م)⁽⁷⁾، إلا أن زمن تصدره للإقراء قد اختلفت المصادر في تحديده؛ وفي ذلك يقول الليث بن سعد⁽⁸⁾ (ت 175هـ/791م): «حجبت سنة مائة وثلاثة عشر، وإمام الناس في القراءة نافع بن أبي نعيم»⁽⁸⁾.
- في حين وردت أيضاً رواية ضعيفة عن الأصمعي⁽⁹⁾ (ت 215هـ/830م) أنه روى عن فلان، قال: «أدركت المدينة سنة مائة، ونافع رئيس في القراءة»⁽⁹⁾.

(1) انظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري: الطبقات الكبير، تح: علي محمد عمر، مكتبة الحانجي، القاهرة: 2001م، ج7، ص 578.

(•) يزيد بن رومان: أبو روح، المدني، القارئ، مولى آل الزبير بن العوام أحد شيوخ نافع، أخذ القراءة عن ابن عياش، وهو ثقة ثبت، قليل الحديث، فكان فقيهاً، مقرئاً، محدثاً، توفي سنة 130هـ/747م، وقيل: غير ذلك، انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج1، ص 179.

(3) انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص 289.

(4) المصدر والصفحة السابقان.

(5) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 289.

(7) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص 337.

(••) الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث، إمام أهل مصر في الفقه والحديث، مولى قيس بن رفاع، وأصله من أصبهان، من شيوخه الزهري، عاصر مالك، ثقة حنفي المذهب، وتولى قضاء مصر، حج سنة: 113هـ/731م، وتوفي سنة: 175هـ/791م. انظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 127، 128.

(8) ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق: 1988م، ج2، ص 313.

(•••) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعي، يرجع نسبه إلى مضر، الأصمعي، البصري، اللغوي، الإخباري، العلامة، الحافظ، صدوق، له تواليف فقد أكثرها، توفي سنة: 215هـ/830م. انظر: الذهبي:

سير أعلام النبلاء، ج10، ص 175، 181.

(9) الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج1، ص 243.

أما الذهبي⁽¹⁾ فقد علق على ذلك قائلاً: «لعله أقرأ في حدود سنة مائة وعشرين للهجرة، مع وجود أكبر مشايخه»، وفي هذا نظر؛ لأن بقاءه مدة خمس وعشرين سنة بعد حفظه للقرآن، وأخذه له دون أن يقوم بالإقراء ليس أمراً هيناً. ولما كانت رواية الأصمعي ضعيفة، فإنه يؤخذ بقول الليث الذهاب إلى أن أقرب مدة تصدر فيها للإقراء كانت في حدود: 113هـ/731م أو ما قبلها بقليل، أو أن تفسير ذلك يؤول إلى أنه كان مقرئاً في بادئ الأمر، ثم أصبح رئيس القراء في المسجد النبوي في تلك المدة.

أما عن منزلته، فقد أصبح إمام أهل المدينة في القراءة، ثم صار أحد القراء السبعة⁽²⁾. وعلى الرغم من روايته للحديث فقد قال عنه أحمد بن حنبل: كان يؤخذ عنه القرآن وليس في الحديث بشيء⁽³⁾، وقد أجمع علماء الإسلام حول قراءته بأنه ثقة⁽⁴⁾، وصدوق⁽⁵⁾، وليس به بأس⁽⁶⁾.

توفي الإمام نافع - رحمه الله - بالمدينة المنورة⁽⁷⁾ سنة: (169هـ/785م)⁽⁸⁾، وقيل: غير ذلك⁽⁹⁾.

- تلاميذه ورواته: ذكر الذهبي⁽¹⁰⁾ أن الإمام نافع قد أقرأ الناس دهرًا طويلاً؛ لذا فقد نثله على يده وروى عنه القراءة كثير من الناس، منهم من كان من أهل المدينة المنورة، وآخرون كانوا من خارجها.

ومن أهم قراء المدينة المنورة وعلمائها الذين أخذوا القراءة عن الإمام نافع: عيسى

(1) سير أعلام النبلاء، ج7، ص337.

(2) انظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج5، ص368.

(3) المزي، مصدر سابق، ج29، ص282.

(4) ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص288.

(5) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص337.

(6) انظر: المزي، مصدر سابق، ج29، ص282.

(7) انظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج5، ص368.

(8) انظر: البستي، مصدر سابق، ص170، وانظر: ابن كثير، أبا الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تح: رياض عبد الحميد

مراد ومحمد حسان عبده، دار ابن كثير، دمشق، ط2، ج10، ص417، وانظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج2،

ص291، وانظر: فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، تر: السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف،

القاهرة، ط3، دت، ج2، ص32.

(9) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، محج، ص291.

(10) انظر: معرفة القراء الكبار، ج1، ص242.

بن وردان(*) (ت 160هـ/776م). ومالك بن أنس، وإسماعيل بن جعفر(**) (ت 180هـ/796م)⁽¹⁾.

ومن أهم القراء الآخذين عن الإمام نافع: من خارج المدينة المنورة: أبو عمرو بن العلاء، والأصمعي من أهل البصرة⁽²⁾.

والوليد بن مسلم(*) (195هـ: 810م) من أهل الشام⁽³⁾. والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب(**) (ت 197هـ: 812م) من أهل مصر⁽⁴⁾.

ومن أهل المغرب والأندلس كردم بن خالد المغربي(***) (لم يذكر له سنة وفاة)⁽⁵⁾

(*) عيسى بن وردان، أبو الحارث المدني الحذاء، مقررٌ حاذق، وراوٍ محقق ضابط، روى عن عدة شيوخ، منهم: نافع الذي شاركه في الإسناد، توفي في حدود سنة: 160هـ/776م، انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 247. (***) إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، أبو إسحاق، قارئ أهل المدينة، عرض على شيبه بن نصاح وعلى نافع بن أبي نعيم، ثقة، توفي في بغداد سنة: 180هـ/796م، انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 294.

(1) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 2، ص 289.

(2) انظر: ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق: الفهرست، قابله على أصوله، أيمن فؤاد، الفرقان للتراث الإسلامي، لندن: 2009م، ج 1، ص 72.

(*) الوليد بن مسلم أبو العبدوس، وقيل: أبو البشر الدمشقي، عالم أهل الشام، روى القراءة عن نافع وعن غيره، توفي سنة: 195هـ/810م. انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 2، ص 313.

(3) انظر: أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، حجة القراءات، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5، 1997م، ص 51.

(***) عبد الله بن وهب بن مسلم، أبو محمد الفهري مولا هم المصري، أحد الأئمة الأعلام، ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن نافع، وروى القراءة عنه أحمد بن صالح، توفي سنة: 197هـ/812م، انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 1، ص 413.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 289.

(***) كردم بن خالد المغربي التونسي، أبو خالد، وقيل: كردم بن خليل، أبو خليل، قدم المدينة وعرض على نافع، وكان زاهداً، عابداً، فاضلاً، روى عنه أحمد بن جبير الأنطاكي، انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 2، ص: 30.

(5) انظر: ابن الجاهد: كتاب السبعة في القراءات، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1972م، ص 64، وانظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 2، ص 30، وللمزيد انظر: هند شليبي، القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف

القرن: (05) هـ، دار العربية للكتاب، د.م، 1983م، ص 217، 218.

والغازي بن قيس الأندلسي (••••) (ت: 199هـ/814م)⁽¹⁾.
إلا أن أهم من أخذ عن الإمام نافع وروى عنه هما: قالون، وورش، يقول
الشاطبي⁽²⁾ في ذلك:

وأما الكريم السر في الطيب نافع فذاك الذي اختار المدينة منزلاً
وقالون عيسى ثم عثمان ورشهم بصحبته المجد الرفيع تأثلاً

وقالون هو: عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى، أبو موسى الزريقي⁽³⁾، مولى بني
زهرة، قارئ أهل المدينة ونحوهم في زمانه⁽⁴⁾، وأحد القراء السبعة⁽⁵⁾، وكان ربيباً للإمام
نافع الذي لقبه بقالون لجودة قراءته⁽⁶⁾، فلم يزل يقرأ عليه حتى مهر وحذق، ولم يكتفِ
بذلك، بل عرض القرآن على عيسى بن وردان الحذاء أيضاً⁽⁷⁾. أما عن مدة قراءته فيروى
أنه قد قيل له: «كم قرأت على نافع؟ فقال: ما لا أحصيه كثرة، إلا أنني جالسته بعد الفراغ
عشرين سنة»⁽⁸⁾.

ولتصدره للإقراء قصة رواها قالون، حيث قال: إن نافعاً قال له: كم تقرأ علي؟
اجلس إلى أسطوانة؛ حتى أرسل إليك من يقرأ عليك⁽⁹⁾، فتبتل لإقراء القرآن والعربية،
وطال عمره، وبعد صبيته، وبذلك انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة ورحل إليه

(••••) الغازي بن قيس الأندلسي، وقيل: غازي، أبو محمد، إمام جليل، وثقة ضابط، كان مؤدباً بقرطبة، ثم حج،
وأخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن نافع بن أبي نعيم، وضبط عنه اختياره، وأخذ الموطأ عن الإمام مالك، وهو أول
من أدخل قراءة نافع وموطأ مالك إلى الأندلس، توفي سنة: 199هـ/814م. انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 2،
ص: 3.

(1) انظر: المصدر نفسه، ص 289.

(2) القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيبي: حرز الأمازي ووجه التهاني في القراءات السبع، تصحيح: محمد تميم
الزعيبي، مكتبة دار الهدى، السعودية، ط 5، 2010م، ص 3.

(3) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 1، ص: 326.

(4) انظر: الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: طبقات القراء، تح: أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث
والدراسات الإسلامية، الرياض: 1997م، ج 1، ص 174.

(5) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، ج 3، ص 97.

(6) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 10، ص 327.

(7) انظر: الذهبي: طبقات القراء، ج 1، ص 174.

(8) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 542.

(9) الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 327.

الناس⁽¹⁾؛ فكان ثبناً حجة في القراءة⁽²⁾، ومن أخذ عنه أحمد بن صالح المصري^(*) (ت: 248هـ/862م)، وأحمد بن يزيد الحلواني^(**) (ت: 250هـ/864م)، وأبو نشيط محمد بن هارون^(***) (ت: 258هـ/871م)، وغيرهم⁽³⁾.

توفي قالون بالمدينة سنة: 220هـ/835م⁽⁴⁾، بعد أن طال عمره في تدعيم قراءة أهل المدينة المنورة وترسيخها، الأمر الذي جعل من قراءة نافع متجذرة؛ لصحة أصولها واهتمام رواتها.

ومن رواة الإمام نافع أيضاً ورش، وهو عثمان بن سعيد بن عبدالله بن عمرو بن سليمان⁽⁵⁾، مولى لآل الزبير بن العوام⁽⁶⁾، كنيته: أبو عمر، وقيل: أبو القاسم، وأشهرها أبو سعيد⁽⁷⁾، ولقبه ورش، وكان الإمام نافع قد لقبه به، وقيل: بل كان لقبه الورشان، ثم خفف فقيل ورش⁽⁸⁾، شيخ القراءة بمصر ويقال: بل إن أصله من أفريقية⁽⁹⁾. ولد ورش سنة: 728/110م، ورحل إلى الإمام نافع بالمدينة المنورة، فعرض عليه

(1) الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 327.

(2) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، ج 3، ص 97.

(*) أحمد بن صالح المصري، الإمام أبو جعفر الطبري ثم المصري، الحافظ، المقرئ، أحد الأعلام، أخذ القراءة عن قالون وعن ورش، وهو حجة ثقة، توفي سنة: 248هـ/862م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 377، 383.

(**) أحمد بن يزيد الحلواني، الإمام أبو الحسن الحلواني المقرئ، من كبار المجتهدين الأعلام، قرأ على قالون وغيره، كان كثير الترحال، تصدّر للإقراء بالري، توفي سنة: 250هـ/864م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 437، وانظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج 1، ص 113.

(***) أبو نشيط محمد بن هارون، المروزي البغدادي، أبو جعفر، قرأ على قالون، صدوق، ثقة، ومحقق مشهور، توفي سنة: 258هـ/871م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 438، وانظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ج 1، ص 113.

(3) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 543.

(4) انظر: ابن كثير، مصدر سابق، ج 11، ص 79.

(5) انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 323.

(6) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، ج 2، ص 457.

(7) انظر: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تخ: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، دم، 1967م، ج 1، ص 485.

(8) انظر: الحموي، شهاب الدين ياقوت أبو عبدالله ياقوت البغدادي: معجم الأدباء، مراجعة وزارة المعارف العمومية، دار المأمون، دم، د.ط، دت، ج 12، ص 117، 118.

(9) انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 323.

القرآن عدة ختمات سنة: 155هـ/771م، وعاد على إثرها إلى بلاده⁽¹⁾. ونظراً لبراعته في العربية ومعرفته بالتجويد انتهت إليه رئاسة الإقراء في الديار المصرية، لا ينازعه فيها أحد⁽²⁾، وممن أخذ عنه وقرأ عليه داوود بن أبي طيبة^(*) (ت: 223هـ/837م)، وأبو يعقوب الأزرق^(**) (ت: 240هـ/854م)، وأحمد بن صالح، وغيرهم⁽³⁾.

كان ورش حجة في القراءة وثقة⁽⁴⁾، مع أن له اختياراً في القراءة، مخالفاً فيه لإمامه نافع. أما وفاته فقد كانت بمصر سنة: (197هـ/812م)⁽⁵⁾.

- منهج الإمام نافع، ودوره في نشوء المدرسة القرآنية بالمدينة المنورة: اتسم منهج الإمام نافع في القراءة بالثبوت، وقد أكد نافع ذلك بقوله: «أدركت عدة من التابعين، فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم، فأخذته، وما شذ فيه واحد تركته، حتى ألفت هذه القراءة»⁽⁶⁾؛ لذلك فقد أجمع المسلمون على تواتر قراءة الإمام نافع وثبوتها عن رسول الله ﷺ، بطريق القطع واليقين⁽⁷⁾، غير أن منهجه في الإقراء قد اتسم بتسهيل القرآن لمن قرأ عليه⁽⁸⁾.

ومن الجدير بالذكر أن سبب اشتهاره ضمن القراء السبعة الذين لا تزال قراءاتهم إلى اليوم، هو أن الرواة عن القراء كانوا في القرنين: (02-03هـ: 08-09م) كُثُرًا، في العدد، كُثُرًا في الاختلاف، فأراد الناس في القرن: (04هـ: 10م) أن يقتصروا على القراءات التي توافق المصحف؛ حتى يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، مع كون الإمام مشهوراً

(1) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، ج2، ص 457.

(2) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، ج2، ص 457.

(*) داوود بن أبي طيبة: هارون بن يزيد، الإمام أبو سليمان العدوي العمري، مولا هم المصري، قرأ على ورش وغيره، توفي سنة: 223هـ/837م. انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج1، ص 375.

(**) أبو يعقوب الأزرق: هو أبو يعقوب يوسف بن عمرو بن يسار المدني ثم المصري، المقرئ الأزرق، قرأ على ورش وغيره، وأقرأ أهل مصر والمغرب على قراءته، توفي سنة: 240هـ/854م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، ج1، ص 374.

(3) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 446، 447.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص 447.

(5) انظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ج1، ص 113.

(6) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 289.

(7) انظر: عبدالفتاح القاضي: القراءات في نظر المستشرقين والمصلحين، ص 78.

(8) انظر: الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 290.

بالثقة والأمانة وإجماع أهل مصره على عدالته، ولم تخرج قراءته عن خط المصحف العثماني⁽¹⁾، وبذلك كان الإمام نافع إمام أهل المدينة من الأئمة الذين توافرت فيهم تلك الشروط⁽²⁾، ممن عرفوا بالقراء السبعة^(*).

وأول من اقتصر على هؤلاء السبعة من القراء أبو بكر بن مجاهد^(**)، (ت324هـ/935م)، الذي بتصنيفه لكتاب السبعة تأسست مع الوقت مدرسة قرآنية للمدينة المنورة، مؤسسها الإمام نافع؛ لأن من جاء بعد ابن مجاهد تابعه على ما جاء به إلى الآن، على الرغم من انتشار قراءة نافع قبل هذا التصنيف.

ثانياً: تاريخ قراءة نافع في طرابلس الغرب وأهم عوامل ازدهارها: يذكر ابن الفرضي⁽³⁾ عن أهل إفريقية أن: «الغالب على قراءتهم حرف^(***) حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا خواص»، ويقصد بذلك خواص العلماء، في بداية دخولها إلى بلاد المغرب الإسلامي في القرن: (02هـ/08م)، لكن مع مرور الوقت تم استحسانها وانشاق لها الجميع⁽⁴⁾.

وفي القرن: (03هـ/09م)، توجه الناس بصورة غير مباشرة إلى الاهتمام بقراءة الإمام نافع، وذلك بسبب ميل الفقهاء لمذهب الإمام مالك، والدليل على ذلك الإمام

(1) انظر: ابن أبي طالب، مكي حموش القيسي: الإبانة عن معاني القراءات، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلي، دار نهضة مصر، القاهرة، دت، ص86، وانظر: خالد عبد الرحمن العك: تاريخ توثيق القرآن الكريم، دار الفكر، دمشق، ط2، 1406هـ، ص89.

(2) انظر: ابن أبي طالب، مصدر سابق، ص86، 87.

(*) القراء السبعة: نافع بن أبي نعيم إمام أهل المدينة، وعبد الله بن كثير إمام أهل مكة، وأبو بكر عاصم بن أبي النجود إمام أهل الكوفة، وكذلك حمزة بن حبيب الزيات إمام أهل الكوفة، وعلي بن حمزة الكسائي إمام أهل الكوفة، وأبو عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة، وعبد الله بن عامر اليحصبي، إمام أهل الشام. انظر: ابن مجاهد، مصدر سابق، ص53، 86.

(**) أبو بكر بن مجاهد: أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد شيخ عصره البغدادي العطشي، المقرئ، الأستاذ، مصنف كتاب السبعة في القراءات، وهو حجة ثقة، انتهت إليه رئاسة الإقراء ببغداد، توفي سنة: 324هـ/935م. انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج2، ص533، 538.

(3) عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر: تاريخ علماء الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب النصري، القاهرة، ط2، 189م، ج2، ص799.

(***) ويقصد بكلمة حرف هنا: اختيار حمزة في القراءة، ولا يمكن أنه قد جعلها من الأحرف السبعة في القراءة، إنما اختيار حمزة، أو اختيار نافع إلى غيرهم من القراء السبعة.

(4) انظر: هند شلي، مرجع سابق، ص223.

سخنون، الذي كان مقصداً لطلبة العلم ليس من أهل طرابلس الغرب فقط، بل من بقية بلاد المغرب والأندلس أيضاً، فلفت من خلالها الناس -بحكم مكانته العلمية- إلى كل ما هو مدني، حتى قيل عنه: «أخذ سخنون بمذهب أهل المدينة في كل شيء»⁽¹⁾. ويكفي من تأثير الإمام سخنون في أهل طرابلس الغرب إقامته بينهم بعض الوقت⁽²⁾، ورحلة بعضهم إليه؛ إضافة إلى توليه القضاء في إفريقية، وتبعية قضاء طرابلس الغرب إليه⁽³⁾.

ومن أهم أعمال الإمام سخنون التي أثرت في المدرسة القرآنية في طرابلس الغرب اعتمادُه لقراءة الإمام نافع، كما جاء في نص عنه: «ويلزمه أن يعلمهم [أي: المعلم] ما علم من القراءة الحسنة، وهو مقراً نافع»⁽⁴⁾؛ ولا بد أن نتوقف هنا عند لفظة (الحسنة)، فالإمام سخنون يرى أن قراءة نافع هي أحسن القراءات وأجودها، وينصح الآخرين بتعلمها وإتقانها؛ لأنها قراءة إمام أهل المدينة مالك بن أنس.

ومن الأمور التي كان لها أثر واضح في طرابلس الغرب في هذا الجانب تبعيتها السياسية لإفريقية في تلك المدة، حيث كان لقيام قاضي القيروان ابن طالب بالإفتاء للمقريء ابن برغوث⁽⁵⁾، بأن لا يقرئ الناس بقراءة نافع⁽⁶⁾، مما جعل هذه الفتوى تنطبق حتى على طرابلس الغرب لتبعيةها السياسية لأفريقية في ذلك الوقت.

أيضاً لا ننسى رحلات المغاربة إلى تلميز الإمام نافع، وأعني به الإمام ورشا الذي كان إمام الديار المصرية في عهده تقريباً في المدة من: (155هـ/771م-197هـ/812م)⁽⁶⁾، وما كان لها من أثر كبير في إنجاح مدرسة المدينة القرآنية في

(1) القاضي عياض، أبو الفضل: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد بن تاويت

الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط2، 1983م.

(2) انظر: أحمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية،

كلية التربية، 1971م، ص 126.

(3) انظر: الأنصاري، أحمد بن الحسين النائب: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، مكتبة

الفرجاني، القاهرة، 1999م، ص 73.

(4) ابن سخنون: كتاب آداب المعلمين، مراجعة: محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية، تونس، ط2،

1972م، ص 102.

(5) ابن برغوث: أبو عبد الله محمد بن برغوث القروي، مقريء متصدر بجامعة القيروان، أخذ القراءة عرضاً على أبي يحيى

تلميذ نافع، ومن أسد بن الفرات، توفي سنة: 272هـ/885م. انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 93.

(6) انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج4، ص 313.

(6) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 446، 447.

طرابلس الغرب خاصة وبلاد إفريقية عامة⁽¹⁾، وفي المقابل قدوم بعض القراء المصريين إلى طرابلس الغرب ونزولهم بها كان له الدور الفاعل في تأكيد قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب، وخير مثال على ذلك نزول القارئ المصري إبراهيم بن داوود بن يعقوب^(**) (ت 298هـ/910م) في طرابلس الغرب، وتوليه للقضاء بها، فكان يجمع بين الإقراء برواية الإمام نافع، والقضاء على مذهب الإمام مالك، الأمر الذي ترك أثراً واضحاً في ساكني البلاد، ويمكن تفسير ذلك التأثير بأنه بعد وفاة الإمام نافع سنة: (169هـ/785م) أصبحت مصر عن طريق الإمام ورش محط جذب أنظار طلاب الأماكن المجاورة، ممن استيسروا القدوم إليها.

وما زاد من أهمية الموقف أن أئمة المالكية في مصر كانوا يجمعون بين الأمرين: (الإمام نافع قراءة، والإمام مالك فقها وإفتاءً)، فالعالم عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العتقي^(*) (ت 231هـ، 845م)، يعد من أعلام مدرسة الإمام نافع القرآنية، ومن أئمة الفقه المالكي فيها.

وبذلك لم يأت القرن: (4هـ/10م)، الذي تم فيه تسبيح القراءات لابن مجاهد^(*) (ت 324هـ/935)⁽²⁾ إلا وقراءة الإمام نافع بن أبي نعيم هي المعتمدة في طرابلس الغرب. ومن أهم الأسباب الخاصة التي جعلت من قراء طرابلس الغرب بخاصة، والمغرب الإسلامي عامة يعتمدون هذه القراءة في مساجدهم وصلواتهم وكتابتهم ما يلي:

1. اقتناعهم بمكانة مدرسة المدينة المنورة ومكانة مشايخها، من أمثال الإمام مالك

(1) انظر: بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن: (4هـ/10م)، دار المدار

الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 237.

(**) إبراهيم بن داوود بن يعقوب: أصله من مصر، نزل طرابلس وولي قضاءها، وكان ثقة، سمع من الوقار وغيره، توفي سنة 298هـ/910م. انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 4، ص 419.

(*) عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة، أبو الأزهر، العتقي، المصري، صاحب الإمام مالك، راوٍ مشهور بالقراءة، متصدر، ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن ورش، توفي سنة: 231هـ/845م. انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 351.

(**) ابن مجاهد: أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، شيخ عصره، أبو بكر البغدادي، مصنف كتاب السبعة، أخذ عن ابن عبدوس وغيره، تصدر للإقراء، وازدحم عليه أهل الأداء، وذاع صيته، ورحل إليه من الأقطار، توفي سنة: 324هـ/935م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 2، ص 533، 538.

(2) انظر: ابن مجاهد، مصدر سابق، ص 17، 18.

بن أنس والإمام نافع بن أبي نعيم، وهو ما نستشفه مما وصّحه الإمام مالك في قوله: «فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحلّ الحلال، وحرمّ الحرام؛ إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده - صلوات الله عليه ورحمته وبركاته -، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما عملوا أنفدوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك...»، إلى أن قال: «فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الورثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها»⁽¹⁾.

2. وما يؤكد هذا النص أن مدرسة المدينة المنورة فقهاً وقراءةً تعدّ الركيزة الأولى في إرساء دعائم العلم والمعرفة، فهي مدرسة اعتمدت على القرآن والسنة في حلّ الحلال، وتحريم الحرام، وهو ما جعل قلوب طلاب العلم وأفتدتهم تهوي إليها؛ للاستزادة من علمها ونشره.

3. حرصهم على استمرار التجاوب بين القراءة والمذهب المدنيّين، انبثاقاً من العلاقة الوثقى بينهما، ويؤيد ذلك احتياط بعض الأئمة في تقرير مذهب الإمام نافع في قراءة البسملة في فاتحة الكتاب، وفي الفصل بين السور، وهو أمر تتحكم فيه الرواية، ولا مجال فيه للاجتهاد الفقهي، فحافظوا على ذلك في الأداء، ونبهوا على أن ذلك لا يشمل حال الصلاة المفروضة؛ لأن مذهب أهل المدينة ترك التسمية فيها⁽²⁾، وفي ذلك يقول الإمام أبو عمرو الداني⁽³⁾ (ت 444هـ/1052م):

أزيد في الأداء أو في العرض ***** ولا أزيد في صلاة الفرض

(1) انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 1، ص 42، 43.

(2) انظر: عبد الهادي حميتو: قراءة الإمام نافع عند المغاربة في رواية إلى سعيد ورش، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2003م، ج 1، ص 161.

(*) أبو عمرو الداني: عثمان بن سعيد بن عمر، أبو عمرو الداني الأموي، مولاهم القرطبي المعروف في زمانه بـابن الصيرفي، الإمام العلامة الحافظ، شيخ المقرئين، مالكي المذهب، أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، وكذلك الحديث ورجاله، من كتبه: كتاب جامع البيان، وكتاب: التلخيص في قراءة ورش، توفي سنة:

444هـ/1052م. انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 447، 449.

(3) الأرجوزة المنبّهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات والديانات بالتجويد والدلالات، تخ: محمد الجزائري، دار المغني، الرياض، 1999م، ص 207.

وذلك ما أكدّه المقدسي⁽¹⁾ في قوله: «وأما القراءات في جميع الإقليم [أي: المغرب الإسلامي]، فقراءة نافع حسب»، فسّر بأن ذلك كان مواجهة لبني عبّيد، واتجاههم الشيعي⁽²⁾، حيث إن فقهاء المالكية عملوا على نشر قراءة المدينة المنورة، إضافة إلى الجانب الفقهي (•).

وفي هذه المرحلة كان لمدرسة المدينة المنورة في إفريقية دور مؤثر في طرابلس الغرب عن طريق الأعلام الذين تصدروا للإقراء فيها، من أمثال أبي عبد الله محمد بن عمر بن خيرون الأندلسي (••) (ت 306هـ/918م)، الذي بفضلته انتشرت القراءات بإفريقية، وفي ذلك يقول ابن الجزري (3): «ولم يكن يقرأ لنافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون القيروان اجتمع عليه الناس، ورحل إليه القراء من الآفاق...»، ويتفق هذا النص مع ما أورده ابن الفرضي من أن قراءة نافع هي لخواص الناس من العلماء وطلاب العلم والمقرئين، وحينما قدم ابن خيرون القيروان عمم هذه القراءة وجمع طلاب العلم عليها.

وبفضل هذه الجهود تأسست مدرسة إفريقية للقراءات، من أعلامها علماء مالكيون من أمثال الفقيه القارئ: ابن أبي زيد القيرواني، وغيره⁽⁴⁾؛ لذا -وجريا على ذلك- فإن جلّ فقهاء طرابلس الغرب قد اقتدوا بشيوخهم في التمسك بمدرسة المدينة المنورة فقها وقراءة.

(1) البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991م، ص 238.

(2) انظر: بشير رمضان التليسي، مرجع سابق، ص 446.

(•) لم تدل المصادر التي اطلعت عليها على وجود قراءة خاصة اعتمدها الدولة العبيدية، أو أنها منعت من قراءة نافع، إلا أنه بحكم اتباع أغلب المالكية لقراءة نافع ومعاداتهم للدولة العبيدية، فقد تعرضوا للمضايقات؛ حتى ترك بعضهم جانب القراءات، خوفاً من أن يتخذوا قراء من قبل العبيدين، مثل ما فعل أبو الحسن القاسبي. انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج5، ص 252، 253، وانظر: ابن خلدون: عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، 2004م، ج2، ص 173، 174، وانظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 501، وانظر: هند شلبي، مرجع سابق، ص 312، 317.

(••) محمد بن عمر بن خيرون الأندلسي، الإمام المعافري المغربي، شيخ الإقراء بالقيروان، قرأ على شيوخ مصر، وحذق في قراءة ورش، وله مسجد بالقيروان، روى القراءة عنه عامة شيوخ المغرب الإسلامي، وكان صادقا فاضلا، إماما في القراءة شديد الأخذ، وبفضلته انتشرت قراءة نافع في إفريقية، توفي سنة: 306هـ/918م. انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج2، ص 561.

(3) غاية النهاية، ج2، ص 191.

(4) انظر: الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مكتبة الخالجي، مصر، ط2،

1968م، ج3، ص 109، 118، وانظر: هند شلبي، مرجع سابق، ص 304، 305.

وحرصاً منهم على التمسك بهذه المدرسة في ظل تحدي العبيدين الشيعة المنتشر حينها، ومن خلال تتبعها لأهم تراجم علماء طرابلس الغرب استطاعت الباحثة أن نتعرف على أهم القراء الطرابلسيين المؤسسين لقراءة الإمام نافع ممن لهم اتصال بقراء مدرسة المدينة المنورة بإفريقية^(*)، وهم على النحو التالي:

1. القاضي أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن: (المعروف بالقطان)⁽¹⁾، ذكر أن له اتصالاً بمحمد بن سحنون^(*) (ت 255هـ/868م)، ومحمد بن عامر الأندلسي^(**) (ت 255هـ/868م)، وكلاهما من أتباع قراءة الإمام نافع، ولهما اهتمام بالقرآن الكريم وعلومه⁽²⁾.

2. أبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي^(***) (ت 383هـ/994م)، وكما هو واضح من لقبه يرجع إلى مدينة زويلة^(****) القاطنة وسط فزان^(*****)، وأحياناً يسمونه بالسرتي؛ نسبة إلى مدينة سرت، التابعة لولاية طرابلس الغرب، حيث كان له اتصال بشيوخ إفريقية

(*) اهتمام أغلب المصادر بالحديث عن الفقهاء دون القراء: وجدت الباحثة أن أغلب فقهاء المالكية في إفريقية من أتباع قراءة الإمام نافع، ويتبع بعض سير الفقهاء الطرابلسيين وجدنا لبعضهم اهتماماً بالقرآن والقراءات، خاصة من اتصل بفقهاء إفريقية من المالكية، ويبدو أنه قد أخذ عنهم قراءة نافع أيضاً، ومن ثم حدث التوسع في انتشارها.

(1) انظر: الدباغ، مصدر سابق، ج 2، ص 335، 339.

(*) ابن سحنون: أبو عبد الله محمد بن سحنون، من الحفاظ المتقدمين في مذهب مالك، سمع من أبيه وغيره، غزير التأليف، توفي سنة: 255هـ/868م. انظر: الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد، قضاة قرطبة، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 2، 1989م، ص 9.

(**) محمد بن عامر الأندلسي: أبو عبد الله القيسي، سمع من سحنون وغيره، ثقة، سمع منه الناس، توفي بالقيروان سنة: 255هـ/868م. انظر: ابن الفرضي، مصدر سابق، ج 2، ص 636.

(2) انظر: ابن مخلوف، محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج 1، ص 122.

(***) أبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي، من أهل العلم والقرآن، سمع من ابن اللباد وغيره بإفريقية، توفي بالقيروان سنة: 383هـ/994م. انظر: الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط 4، 2004م، ص 328، وانظر: الهادي روشو: طبقات القراء والمقرئين بإفريقية وتونس من الفتح الإسلامي إلى نهاية عام: 1436هـ/2015م، دار سحنون، تونس، 2018م، ص 113.

(****) زويلة: مدينة من بلاد فزان، في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس، فتحها عقبة بن نافع سنة: 22هـ/642م. انظر: الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، ص 17.

(*****): فزان: مجموعة واحات واقعة جنوب طرابلس الغرب، فتحها العرب بقيادة عقبة بن نافع سنة 49هـ/669م. انظر: الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 248.

من أمثال ابن اللباد^(١) (ت 333هـ/944م)، الذي له دراية بعلم القراءات وخاصة قراءة نافع⁽²⁾، حتى وصف أبو عبد الله عندها بأنه من أهل العلم والقرآن؛ لجمعه بين الفقه والقراءة⁽³⁾. ومن بين المؤثرات أيضا مدرسة المدينة المنورة في مصر التي كان لمرور المغاربة بها دور بارز في تقوية وجودها في طرابلس الغرب، ومن أهم قرائها الذي أدى دورا بارزا في مجال التعليم القرآني المقرئ أبو الطيب: عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الحلبي، المصري: (ت 389هـ/998م)، المقرئ المحقق، مؤلف كتاب الإرشاد في القراءات، وهو شيخ لكثير من أئمة وقراء المغرب الإسلامي ولأهل طرابلس الغرب عموما أمثال القارئ أحمد بن نفيس، كما كان ولده طاهر بن غلبون: (ت 399هـ/1008م)، أحد الحذاق المحققين، خاصة في قراءة نافع، التي أجاد في رواياتها، سواء عن الإمام ورش، أم الإمام قالون، أم عن الشاميين⁽³⁾.

ومن نعت بالمؤدب في هذه المدة أيضا يوسف بن أبي النجم الإطرابلسي^(٤): (ت 305هـ/917م)⁽⁴⁾، وهو من أتباع قراءة الإمام نافع المنتشرة في هذه المنطقة عموما. وبالاطلاع على أعلام مدرسة المدينة المنورة القرآنية في طرابلس الغرب خلال القرنين:

(05-06هـ/11-12م)، نلاحظ أنها لا تزال مستمرة في تدعيم أركانها وتعدد علمائها. ونظرا لأن طرابلس الغرب حلقة وصل بين بلاد المشرق وبلاد المغرب الإسلامي، فقد استفادت من تلك الميزة، عن طريق مرور العلماء المغاربة بها خلال رحلتهم إلى الحجاز وإلى مصر، منهم على سبيل المثال:

(•) ابن اللباد: أبو بكر محمد بن محمد بن اللباد، من أهم شيوخه ابن أبي طالب، له كثير من الكتب، فقيه، إمام، عالم في مذهب مالك، ولا نظير له في علوم القرآن وقراءته، توفي سنة: 333هـ/944م: انظر: الدباغ، مصدر سابق، ج 3، ص 21، 26.

(1) هند شلبي، مرجع سابق، ص 297.

(2) انظر: الدباغ، مصدر سابق، ج 3، ص 105.

(3) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 2، ص 698، وانظر: السيوطي، مصدر سابق، ج 1، ص 490، 494.

(••) يوسف بن أبي النجم الإطرابلسي المؤدب: شيخ عابد، مشهور بالإجابة، توفي سنة: 305هـ/917م: انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 421، 422.

(4) انظر: المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1994م، ج 2، ص 133.

1. أبو الحسن القاسبي، الذي كان له اهتمام بالقرآن الكريم وعلومه، وكان مبتعداً عن الاستقراء للسلطان، كما فعل بعض أصحابه⁽¹⁾، ويأتي تأثيره في طلاب وعلماء طرابلس الغرب من خلال توليه للقضاء فيها⁽²⁾، كان يفتي على مذهب الإمام مالك، ويقرأ على قراءة الإمام نافع، فقلده في ذلك خلق كثير من أولي العلم والمعرفة.
2. أبو عبد الله محمد بن سفيان الهواري^(*) (ت 415هـ، 1024م) من قراء تونس، قام برحلة إلى مصر⁽³⁾، ومرّ بطرابلس الغرب، وكان له بها لقاءات علمية حافلة.
3. أبو محمد مكي بن أبي طالب^(*) (ت 437هـ، 1045م)، الأندلسي القيرواني، قرأ القراءات، له رحلة إلى مصر، أخذ من خلالها القراءات عن شيوخها، وتوقف في طرابلس الغرب، وأخذ عنه طلبة العلم القراءة والفقهاء.
4. أبو عمرو الداني الأندلسي من أعلام القرن: (05هـ، 11م)، رحل إلى مصر، وأخذ عن قراءها⁽⁴⁾، وهو إمام مشهور، وقارئ معروف؛ ولشهرته لا تزال القراء إلى يومنا هذا يعتمدون أسلوبه في القراءة والإتيان وروايته للقرآن^(**)، فأثر في عموم قراء طرابلس حين مروره بها وإقامته فيها لمدة.

(1) انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج 1، ص 501.

(2) انظر: التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد: رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م، ص 257.
 (*) الإمام أبو عبد الله محمد بن سفيان الهواري القيرواني المقرئ، مصنف كتاب الهادي في القراءات، أخذ القراءات عن أبي الطيب ابن غلبون وغيره، وتفقه على أبي الحسن القاسبي، قال عنه أبو عمرو الداني: ذا فهم وحفظ وعفاف، توفي سنة: 415هـ، 1024م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 1، ص 727.

(3) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 2، ص 130.

(*) أبو محمد مكي بن أبي طالب، واسم أبيه حموش، الإمام القيسي، المغربي، القيرواني، ثم الأندلسي، القرطبي، المقرئ، له رحلة إلى الحج، أخذ عن محمد بن أبي زيد، والقاسبي، وأخذ القراءات عن شيوخ مصر من أمثال ابن غلبون، كثير التصانيف فيها، جلس للإقراء بجامع قرطبة، وكان خيراً متديناً، توفي سنة: 437هـ، 1045م. انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 2، ص 752.

(4) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 447.

(**) مصحف الجماهيرية، برواية الإمام قالون عن نافع، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط 2، 1989م،

5. الإمام القارئ الشاطبي (*** (ت 590هـ، 1193م) الذي رحل من الأندلس إلى الحج، ثم أقام بمصر للإقراء وتأثر به خلق كثير⁽¹⁾، فله تأثير في عموم قراء طرابلس الغرب سواءً من خلال من احتك به منهم عن طريق إهداء مؤلفاته إليهم.

أما عن قراء طرابلس الغرب في هذه المدة ممن ذكرتهم المصادر، فأشهرهم:

1. أبو مسلم مؤمن بن فرج الهواري الإطرابلسي، الذي كان يقرئ بمسجد معروف باسمه في طرابلس الغرب⁽²⁾، مسجد الهواري الذي لم أجد له أثراً في مدينة طرابلس القديمة، وذلك يعود لقدمه أو انهياره حين تجديد المدينة المستمر.

2. أحمد بن سعيد بن أحمد بن نفيس، من قراء طرابلس الغرب الذين عرفوا في القرن: (05هـ، 11م)، وقد ذاع صيته، حتى انتهى إليه علو الإسناد بالديار المصرية⁽³⁾.

والملاحظ على هذه المدة الزمنية من الدراسة أن القرن: (06هـ: 12م)، وما تضمنه من عزلة سياسية^(*)، قد كان له أثر بالغ في عدم التدوين لأهم قراء هذه المدة بطرابلس الغرب، ولا يزال البحث جارياً عن مخطوطات هذه المرحلة الزمنية؛ عليها تبنينا الطريق في أمور كثيرة.

وفي القرنين: (07-08هـ: 13-14م) تؤكد الباحثة استمرار بقاء هذه القراءة في طرابلس الغرب من خلال ما جاء عن تراجم لبعض قرائها من أمثال:

1. أبو محمد عبدالسلام بن عبد الغالب المصري، من قراء القرن: (07هـ: 13م)، عالم بالقراءات حسن الضبط لها⁽⁴⁾.

(*** الشاطبي: القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد، الإمام أبو محمد الشاطبي، المقرئ، الكفيف، أحد الأعلام، أخذ القراءات عن شيوخ الأندلس، له رحلة إلى الحج، ثم استوطن مصر، وتصدر للإقراء بها، من تصانيفه: قصيدة حرز الأماني في القراءات السبع، توفي سنة: 590هـ، 1193م. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 3، ص 1110، 1112.

(1) المصدر والصفحة نفسهما.

(2) انظر: التجاني، مصدر سابق، ص 265.

(3) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج 2، ص 794.

(*) يقصد بالعزلة السياسية تلك التي وقعت فيها طرابلس الغرب بعد هجرة القبائل العربية إليها: "قبائل بني هلال، وبني سليم، ومغامرات قراقوش، وابن غانية". انظر تفاصيل ذلك لدى: إحسان عباس، ليبيا منذ الفتح حتى مطلع القرن: 09هـ، دار ليبيا، بنغازي، 1967م، ص 218.

(4) انظر: الأنصاري، أحمد بك النائب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس د.ت، ص 145.

2. علي بن عبد الحميد العوسجي^(*)، (عاش في أواخر القرن: 8/هـ 14م)، وما عرف عنه أنه كان مؤدب صبيان، ويحفظ القرآن بالقراءات السبع⁽¹⁾، ويظهر من خلال لقبه العوسجي أنه من بلدة عوسجة^(**)، وهي بلدة من ضواحي مدينة الزاوية^(***) غرب طرابلس، فهو أصيل هذه المنطقة، ومعلم ومؤثر فيها.

وما يؤكد تفاعل طرابلس الغرب مع مدرسة المدينة القرآنية في هذه المدة وجود المدارس بها، التي أسهمت في ازدهار الحياة الثقافية فيها بعامتها⁽²⁾، وعلم القراءات بخاصة، وأن هذا العلم كان من مبادئ العلوم الدينية التي عملت الوسائط الثقافية على نشرها، ووجود بعض العلماء دليل على العمومية، وأن (عمل المدنية) قد أخذ بها في سائر العلوم الدينية.

ولعل من المفيد لهذه الدراسة أن تترجم لأهم قراء هذه البلاد ممن أثروا الحياة العلمية فيها، فمن أشهرهم:

1. أحمد بن سعيد بن أحمد بن نفيس، الإمام أبو العباس، الإطرابلسي الأصل⁽³⁾، ثم المصري⁽⁴⁾، وهو إمام ثقة، انتهى إليه علو الإسناد في الديار المصرية⁽⁵⁾، مع كثرة القراء بها⁽⁶⁾، وقصد من الآفاق⁽⁷⁾.

(*) علي بن عبد الحميد العوسجي: شيخ، عالم، مؤدب صبيان، ولد في: 775هـ/1373م، حفظ القرآن بالروايات بالقراءات السبع، وعمر طويلاً. انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 261، 262.

(1) المرجع والصفحة نفسهما.

(**) عوسجة: قرية من قرى مدينة الزاوية، وضاحية تلصقها من الشمال. انظر: الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، ص 230، 231.

(***) الزاوية: من أكبر مدن طرابلس الغرب، كانت تعرف بزاوية أولاد سنان، أو الزاوية الغربية عند القرون الماضية، وفي القرن: 6هـ/12م كانت ذات شأن اقتصادي كبير. انظر: الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، ص 150.

(2) انظر: إحسان عباس، مرجع سابق، ص 218.

(3) انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج 2، ص 794.

(4) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، مج 5، ص 225.

(5) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج 1، ص 56.

(6) انظر: مصطفى الجوزو: أعلام الثقافة ومقاومة الاحتلال بين طرابلس الغرب والمشرق العربي، ندوة دور طرابلس الغرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية العالمية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، تونس، 2009م، ص 57.

(7) انظر: ابن العماد، مصدر سابق، مج 5، ص 225.

ومن شيوخه الذين قرأ عليهم أبو أحمد عبد الله بن الحسين السامري^(*)،
(ت 386هـ/996م)، وأبو الطيب عبد المنعم بن غلبون⁽¹⁾ وغيرهم.
أما عن تلاميذه فقد أخذ عنه الكثير، منهم: محمد بن عتيق القيرواني^(**)،
(ت 512هـ/1118م)، وأبو القاسم الهذلي^(***)، (ت 465هـ/1072م)، وغيرهم⁽²⁾.
وقد أثنى عليه العلماء بأنه كان صحيح الرواية، خاصة وأنه تولى تربيته وتعليمه أبو
الطيب بن غلبون⁽³⁾.

أما عن وفاته فقد اختلف في السنة التي توفي فيها، حيث ذكر ابن الجزري⁽⁴⁾ بأنها
كانت في سنة: 445هـ/1053م، إلا أن ما أشارت إليه عدة مصادر أنها كانت في سنة:
453هـ/1061م⁽⁵⁾، وفيما يتعلق بمكان وفاته فلم تشر المصادر إلى ذلك، وربما كان ذلك
بمصر؛ لقضاء معظم مدة حياته فيها.

2. أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي⁽⁶⁾، الصوفي، (والمسراتي نسبة إلى مدينة
مصراته^(*) الحالية، وهي مدينة تقع شرق طرابلس، وتعد منها)، كان قد درس على عدة

(*) أبو أحمد عبد الله بن الحسين السامري، الإمام البغدادي المقرئ، اللغوي، مسند القراء بالديار المصرية، مشهور،
ضابط، ثقة، إلا أن ضبطه قلّ في آخر أيامه، توفي سنة: 386هـ/996م. انظر: الذهبي، طبقات القراء، ج1، ص
414، 415.

(1) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 419، 420.

(**) محمد بن عتيق القيرواني، أبو عبد الله التميمي، القيرواني، المقرئ المتكلم الأشعري، ويعرف بابن كدية، أخذ
القراءات بمصر عن أبي العباس بن نفيس، توفي ببغداد سنة: 512هـ/1118م. انظر: الذهبي: طبقات القراء، ج1،
ص 651.

(***) أبو القاسم الهذلي: يوسف بن علي بن جبارة، الإمام المغربي البسكري، رحل من بسكرة إلى بلاد ما وراء النهر
للأخذ عن الشيوخ والقراء، إلا أن العلماء قد ذكروا له أغاليل كثيرة في مصنفاته، توفي سنة: 465هـ/1072م.
انظر: الذهبي، طبقات القراء، ج1، ص 651.

(2) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج2، ص 794.

(3) الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج2، ص 794.

(4) غاية النهاية، ج1، ص 56.

(5) انظر: الذهبي: طبقات القراء، ج1، ص 634، وانظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 56.

(6) انظر: أحمد بك الأنصاري: المنهل العذب، ص 145.

(*) مصراته: من مدن طرابلس الغرب، تقع في شرقها، وكلمة مصراته كلمة بربرية تطلق على قبيلة بربرية من قبائل
هواره التي سكنت هذه المنطقة، وكانت قد كتبت مسراتة ومصراطة ومصراته، والأرجح الثالثة. انظر: الطاهر أحمد
الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 316، 317.

شيوخ، منهم: شيخه أبو يوسف الدهماني^(**)، (ت 621هـ/1224م)، وشيخ زمانه أبو زكرياء يحيى بن محمد البرقي^(*)، (ت: بعد 647هـ/1249م)، الذي درس على يديه علم القراءات السبع والحديث والفقهاء⁽¹⁾.

أما عن تلاميذه فهم أكثر ممن تخرجوا على يديه، وأصبحوا شيوخاً أجلاء⁽²⁾، نشروا الإقراء والفقهاء في هذه البلاد.

لقد كان الشيخ عبد السلام من أجل المشايخ قدراً، تقيّاً فاضلاً، صوفياً، ثقة فيما رواه⁽³⁾، كما كان من أهل العلم والمعرفة بالقراءات، حسن الضبط لها، حيث أخذها عنه كثير من الناس⁽⁴⁾، انتشروا فيما بعد في آفاق البلاد الطرابلسية تدريجاً وإفتاءً.

أما عن التأليف فقد كان له فيه نشاط ملحوظ، منها: رسائل في التصوف، تناقلها عنه معاصروه⁽⁵⁾، كما ألف الوجيز في الفقه^(**)، وهو تأليف حسن، وفيه فقه كثير، وإن عدّ عليه فيه بعض المآخذ^(*)، وشرح أسماء الله الحسنى شرحاً حسناً، وله: الزهر الأنيق في قصة سيدنا يوسف الصديق⁽⁶⁾.

ولقد أشارت المصادر بأن الشيخ عبد السلام كانت وفاته بالقيروان سنة:

(**) أبو يوسف الدهماني: يعقوب بن ثابت، الفقيه العابد، توفي سنة: 621هـ/1224م. انظر: الدباغ، مصدر سابق، ج 3، ص 213، 229.

(*) أبو زكريا يحيى بن محمد البرقي، الإمام، الفقيه، العالم، الفاضل، الورع، الزاهد، امتحن باستدعائه لحاضرة تونس، ثم رجع للمهدية، التي توفي بها في خلافة أبي عبد الله محمد المنتصر، الذي يوبع له بالخلافة سنة: 647هـ/1249م. انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 419.

(1) انظر: الأنصاري: المنهل العذب، ص 145.

(2) انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 226.

(3) انظر: الأنصاري: المنهل العذب، ص 146.

(4) انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 226.

(5) انظر: علي مصطفى المصراحي: أعلام من طرابلس، دار الفكر، طرابلس، ط 2، 1972م، ص 129.

(**) الوجيز في الفقه: هو مجلد ضخم مبثوث الأول والآخر، وهو بين الخط، ويظهر أن الذي ينقص النسخة من أولها وآخرها قليل. انظر: الهامش عند: محمد مختار السنوسي: خلال جزولة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1379هـ، ج 2، ص 74.

(*) وذلك ما كان من الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي الذي اتهم الشيخ عبد السلام بضعف ما ينقله من مسائل عن كتاب ابن سحنون، وقد فسّر بعضهم أن الشيخ لا يضعّف بذلك، إنما كان ذلك من باب الخطأ، وينبه عليه. انظر: الأنصاري: المنهل العذب، ص 147.

(6) انظر: الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، ص 226.

646هـ/1248م، حيث شيعه عدد كبير من تلاميذه، من القراء وغيرهم⁽¹⁾. ومن خلال هذا العرض ترى الباحثة أنه قد كان لإطلاق لفظة شيخ على الفقهاء والقراء والعلماء بطرابلس الغرب بشكل عام تأثير جلي، تشابهت من خلاله الصورة على من أرّخ لهم، إلا أن لهذا العلم أصلاً في المنطقة، إضافة إلى أخذه الانطباع ذاته في اتباع قراءة نافع أسوة بالمغرب الإسلامي بشكل عام.

الخلاصة:

في ختام هذه الدراسة وصلت الباحثة إلى عدة نتائج، أهمها:

1. أن توجه الناس في بلاد المغرب بعامة وطرابلس بخاصة لقراءة الإمام نافع كان منذ وقت مبكر، وذلك بسبب تمسك الفقهاء المغاربة بمذهب مالك، الأمر الذي جعلهم يهتمون بكل ما هو مدني.

2. أن ظهور التشيع في بلاد المغرب الإسلامي عامة في القرن: (04هـ/10م)، قد دفع المجتمع الطرابلسي إلى التمسك بكل ما هو مدني بما في ذلك قراءة الإمام نافع.

3. أن الرحلات العلمية بين المشرق أسهمت مع مرور الوقت في اعتماد قراءة نافع.

4. أن لطرابلس الغرب قراءاً مشهورين أمثال ابن نفيس الذي انتهى إليه علو الإسناد

في الديار المصرية.

5. أن وجود قراءة الإمام نافع في طرابلس الغرب لم يكن أقل من وجودها في

المناطق الأخرى.

التوصيات:

توصي الباحثة طلاب الدراسات العليا بدراسة تاريخ الهوية الدينية للبلاد الليبية؛ لكونه

حقلاً حيويًا يفيد المكتبة الليبية.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

* مصحف الجماهيرية، برواية الإمام قالون عن نافع، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،

طرابلس، ط/2: 1989م.

1. الأنصاري، أحمد بن الحسين النائب: (ت 1336هـ، 1981م): المنهل العذب في تاريخ

(1) انظر: علي مصطفى المصري، مرجع سابق، ص 162.

- طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت.
2. نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، دار الفرجاني، القاهرة: 1994م.
3. البستي، أبو حاتم محمد بن أحمد بن حيان: (ت 354هـ/965م): مشاهير علماء الأنصار، وضع حواشيه وعلق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت: 1995م.
4. التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد: (كان حياً في: 707هـ/965م): رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس: 1981م.
5. ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي: (ت 833هـ/1429م): غاية النهاية في طبقات القراء، اعتنى به: ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت: 2006م.
6. النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
7. الحموي، ياقوت الرومي: (ت 626هـ/1228م): معجم الأدباء، إرشاد الأريب في معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1993م.
8. الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد: (ت 361هـ/971م): قضاة قرطبة، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط/2: 1989م.
9. ابن خلدون، عبد الرحمن: (ت 808هـ/105م): مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد درويش، دار البلخي، دمشق: 2004م.
10. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: (ت 681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت: 1977م.
11. الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد: (ت 444هـ/1052م): الأحرف السبعة للقرآن، تح: عبد المهيمن طحان، دار المنارة، السعودية: 1997م.
12. الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: (ت 696هـ/1296م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مكتبة الخانجي، مصر، ط/2: 1968م.
13. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: (ت 748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ومأمون صاغر جي، مؤسسة

- الرسالة، بيروت، ط/2: 1982م.
14. طبقات القراء، تح: أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1997م.
15. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: طيار آتي قولاج، سلسلة التراث الإسلامي، استانبول: 1995م.
16. الرعيني، القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد: (ت 590هـ/1193م): حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، تصحيح: محمد تميم الزغبي، مكتبة دار الهدى، السعودية، ط/5: 2010م.
17. أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة: (ت في القرن 05هـ/11م): حجة القراءات، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/5: 1997م.
18. ابن سخون، محمد: (ت 256هـ/869م): كتاب آداب المعلمين، مراجعة: محمد العروسي، المطوى، دار الكتب الشرقية، تونس، ط/2: 1972م.
19. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري: (ت 230هـ/846م): الطبقات الكبير، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2001م.
20. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: (ت 911هـ/1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، د.م: 1967م.
21. ابن أبي طالب، مكي حموش القيسي: (ت 437هـ/1045م): الإبانة عن معاني القراءات، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
22. ابن العماد، أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي: (ت 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق: 1988م.
23. ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر: (ت 403هـ/10113م): تاريخ علماء الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط/2: 1989م.
24. القاضي عياض، أبو الفضل: (ت 455هـ/1149م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف

- والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط/2: 1983م.
25. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: (ت 276هـ/889م): المعارف، تح: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط/4، د.ت.
26. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: (ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، تح: رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق، ط/2: 2010م.
- 27: المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: (ت بعد 449هـ/1057م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط/2: 1994م.
28. ابن مجاهد: (ت 324هـ/945م): كتاب السبعة في القراءات، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة: 1972م.
29. ابن مخلوف، محمد بن محمد: (ت 1360هـ/1941م): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت: 2003م.
30. المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف: (ت 742هـ/1341م): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشير عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1992م.
31. المقدسي، البشاري: (ت 380هـ/990م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط/3: 1991م.
32. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق: (ت 380هـ/990م): الفهرست، قابله على أصوله، أيمن فؤاد سيد، الفرقان للتراث الإسلامي، لندن: 2009م.
- ثانيا: المراجع:
33. إحسان عباس: ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن: 09هـ، دار ليبيا، بنغازي: 1967م.
34. بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن: 04هـ/10م، دار المدار الإسلامي، بيروت: 2003م.
35. خالد عبد الرحمن العك: تاريخ توثيق القرآن الكريم، دار الفكر، دمشق، ط/2: 1406هـ.
36. الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط/3: 2004م.

37. معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس: 1986م.
38. معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، 1968م.
39. عبد الهادي حميتو: قراءة الإمام نافع عند المغاربة من رواة أبي سعيد ورش، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية: 2003م.
40. علي مصطفى المصراي: أعلام من طرابلس، دار الفكر، د.م، ط/2: 1972م.
41. الهادي روشو: طبقات القراء والمقرئين بإفريقية وتونس من الفتح الإسلامي إلى نهاية عام: 1436هـ/2015م، دار سخنون، تونس: 2018م.
42. هند شلبي: القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف القرن: 05هـ، الدار العربية للكتاب، د.م: 1983م.
- ثالثا: المراجع المترجمة:
43. فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، نز: محمود فهمي حجازي، دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض: 1991م.
- رابعا: الندوات:
44. مصطفى الجوزو: أعلام الثقافة ومقاومة الاحتلال بين طرابلس الغرب والمشرق العربي، مدوة دور طرابلس في نشر الثقافة العربية الإسلامية العالمية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، تونس: 2009م.

إسهامات الشيخ عثمان بن علي الحضيري وجهوده في المذهب المالكي كتاب نبراس الظلام أنموذجا (ت: 1113هـ)

د. عبد السلام سالم حمزة/جامعة سبها/كلية الآداب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واستنَّ بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد: فهذه دراسة لشرح منظومة في الفقه، شارحه من علماء فزان. سبب اختيار الموضوع.

أما عن سبب اختيار دراسة شرح هذه المنظومة، موضوعا للدراسة؛ أن شارحها من علماء فزان وهو ابن عالم كبير فوالده الشيخ علي الحضيري شارح المختصر، اخترتها محاولا إظهار إسهامات ابنه الشيخ عثمان بن علي الحضيري وجهوده في المذهب المالكي، وهذا خدمة للإسلام والمسلمين، وإكراما لناظمها وشارحها وإظهارا لفضلهما، ومن الأسباب أيضا المشاركة بها في المؤتمر. إشكالية البحث.

تكمن مشكلة البحث في أنه يتناول مخطوطة يجب تحقيقها وإخراجها للقراء، وهناك أسئلة منها: هل أجاد الشيخ شرح المنظومة؟ وعلى من اعتمد الشيخ في بيانها؟ وما هو أسلوبه في الشرح، وكيف أسهم في إثراء المذهب من خلال شرحه هذا؟. الهدف من الدراسة/ تهدف الدراسة إلى بيان منهج شارح المنظومة، والتعريف به. المنهج المتبع/ سلكت في البحث المنهج الوصفي التحليلي. خطة البحث.

جاءت خطة البحث في ملخص فمقدمة، ثم المبحث الأول: الشيخ عثمان الحضيري وحياته العلمية. وفيه مطلبان: المطلب الأول: التعريف بالشيخ عثمان الحضيري. والمطلب الثاني: حياته العلمية. ثم المبحث الثاني: منهجه في كتاب نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام. وفيه مطلبان: المطلب الأول: التعريف بالناظم، ومنظومته. والمطلب الثاني: منهج كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام. ثم الخاتمة. والفهارس.

المبحث الأول: الشيخ عثمان الحضيري وحياته العلمية.

سيكون الكلام بحول الله تعالى وقوته القوية في هذا المبحث على التعريف بالشيخ عثمان الحضيري، صاحب كتاب نبراس الظلام، وكذا الكلام على حياته العلمية التي كانت سببا في كتاباته وفتاويه، وجعلت هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عثمان الحضيري.

في هذا المطلب سأعرف باختصار شديد بالشيخ اسمه ونسبه وأسرته، وكذا حياته العلمية، والتي من ضمنها شيوخه وتلاميذه، رحلاته، ومصنفاته.
أولا - اسمه ونسبه.

هو أبو عمر عثمان بن علي بن أبي بكر بن محمد حضيري بن عبدالله بن إبراهيم محمد الناعم⁽¹⁾، كان يلقب -رحمه الله- بنبراس الظلام؛ نسبة لكتاب ألفه لقب به، تميزا له عن غيره من العلماء الذين اشتهروا بالعلم والتأليف ممن تسمى باسم عثمان، من ذريته. كالشيخ عثمان بن عمر صاحب أم الأغاز، والشيخ عثمان العالم بن محمد، كما لقب بالرحالة لكثرة رحلاته في طلب العلم، ونشره⁽²⁾.
ثانيا - نسبه وأصله وتاريخ ميلاده.

ولد - رحمه الله - في النصف الثاني من القرن الحادي عشر سنة (1050هـ) بلدة الجديد سبها فزان مقر إقامة أسرته. ووالده الشيخ علي الحضيري شارح المختصر الخليلي صاحب التأليف المفيدة، والفتاوى العديدة، توفي - رحمه الله - سنة (1061هـ) وولده عثمان لم يتجاوز الأحد عشرة عاما، وكان أصغر إخوته رحمهم الله جميعا⁽³⁾.

أشار والده - رحمه الله - في قصيدته المنظومة في مناسك الحج التي نظمها في المواجهة الشريفة في الروضة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لأصله فقال - رحمه الله:

(1) المسك والريحان، ص 130

(2) المصدر السابق نفسه

(3) أنظر ترجمة الشيخ علي الحضيري، مخطوط، بدون ت، عثمان بن علي الحضيري، لوحة رقم 3-4

فَاغْفِرْ لَنَاظِمَهَا عَلِيٌّ لَوْ جَنَى
 أَبُونَا أَبُو بَكْرٍ الْحَضِيرِي جَدُّنَا
 بَزَاوِيَةَ الْأَجْدَادِ نَاعِمٌ أَصْلُنَا
 عَلِيٌّ نَفْسَهُ فَالْعَفْوُ مِنْكَ جَمِيلٌ
 وَفَزَانُ وَطَنِي بِالْجَدِيدِ نَزِيلٌ
 وَجَدِّي مِنَ الْأُمَّمِ النَّبِيِّ رَسُولٌ (1)

فقد ذكر أن أصل آله ومقدمهم يرجع إلى ناعم يشير به لنعيمة وهي أرض بالساقية الحمراء بالمغرب في ذلك الوقت وهي الآن يقع جزء منها في المغرب وجزء منها في موريتانية، بعد أن كانت إقليمًا واحدًا.

ففي قوله: بزاوية الأجداد ناعم أصلنا، إشارة فيه إلى موطن أجداده، وإلى أصل مقدمهم فموطن أجداده أرض نعيمة بالساقية الحمراء بالمغرب وأصلهم من قبائل الزوايا، وقبائل الزوايا هم في اصطلاح الموريتانيين مجموعة من القبائل المهتمة بالعلم والدين، يمتازون بدراسة العلوم الشرعية واللغة العربية، وإقامة شعائر الدين الإسلامي (2)، سموا بالزوايا، لملازمتهم للزوايا، جمع زاوية ويسمون بالمرابطين، لملازمتهم مواطن العبادة التي هي الربط، جمع رباط، ومن ثم أصبح علماء علي هذه القبائل كما يطلق عليهم اسم الطلبة؛ لطلبهم العلم واشتغالهم به (3).

المطلب الثاني: حياته العلمية.

سأختصرها في ذكر شيوخه ورحلاته وتلاميذه.

أولا - رحلاته.

لقب الشيخ عثمان بالرحالة لكثرة ترحاله وسفره وانقطاعه الفترات والسنين الطوال عن بلده لقصد التعليم وتحصيله والالتقاء بأهل الصلاح والانتفاع بصحبتهم. ومن أوائل الرحلات التي استفاد منها تلك الرحلة التي خرج فيها من بلده مع شيخه محمد الصالح إلى طرابلس الغرب، حيث التقوا بالعلماء واستفادوا منهم وأفادوهم.

(1) منظومة مناسك الحج، مخطوط، علي بن أبي بكر الحضيري، لوحة رقم 2

(2) ينظر إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين، باب بن الشيخ سيدي الشنقيطي، تحقيق الطيب بن عمر بن الحسين

الجكني، طب: 1: 1418 هـ 1997 م، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ص 23

(3) المصدر السابق.

ومن العلماء الذين التقى بهم إبان إقامته في طرابلس الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن ناصر الدرعي الرحالة (ت 1085هـ) هذا الشيخ كان له أثر في حياة الشيخ عثمان فقد أخذ عنه العلم وصحبه فترة من الزمن في رحلاته إلى مصر وأرض الحجاز للحج، وقد كان الشيخ ابن ناصر رحمه الله فقيها صوفيا اشتهر بالفتوى له كتاب في مجلدين في الفتاوى مطبوع طبعة حجرية، أكثر من النقل عنه الشيخ عبدالسلام التاجوري في كتابه تذييل المعيار⁽¹⁾، كما سافر الشيخ عثمان إلى أرض المغرب و السودان و برنوح (برنو)⁽²⁾.

وقد طاب له المقام في (أقدز) مدرسا هناك ومفتيا ومؤلفا حيث كان مقيما فيها سنة (1079هـ)⁽³⁾، ولا محالة أن في هذه الرحلات والإقامات من الفوائد الشيء الكثير فقد التقى فيها بالعلماء والصلحاء يأخذ عنهم ويناقشهم وينظرهم وينهل من معينهم أدبا وسلوكا⁽⁴⁾.

وهكذا فقد قضى الشيخ نصف عمره في طلب العلا رحالة في طول البلاد وعرضها، فإذا كان تاريخ ولادته (1050هـ) وتاريخ وجوده في أقدز (1079هـ) وتاريخ إقامته (1111هـ) في طرابلس وتاريخ وفاته 1113هـ يكون قد قضى من عمره النصف في الترحال في طلب العلم.
ثانيا - شيوخه، وتلاميذه.

فأما مشايخه الذين أخذ عليهم (وهم لا شك كثير) فمنهم:

1. الشيخ محمد الصالح بن حامد الحضيري ولد في بلدة الجديد بسبها تلقى علومه علي الشيخ علي بن أبي بكر الحضيري وغيره ارتحل إلي طرابلس و التقى فيها بعدة علماء كابن مقبل الكبير و ابن الإمام و أحمد المكني⁽⁵⁾.
2. أبو عبد الله محمد بن داود العناني ذكره الشيخ أحمد الدردير في تراجمه⁽⁶⁾.

(1) فتاوى العلامة محمد بن محمد بن مقبل الكبير جمع وتحقيق د. جمعة الزريقي دار الإفتاء الليبية ط: 1، 2013م.

(2) المسك والريحان، ص (142-143).

(3) المصدر نفسه، ص (143).

(4) المصدر نفسه، ص (142-143).

(5) المصدر نفسه، ص (130-142-143).

(6) المصدر نفسه، ص (130).

3. أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي⁽¹⁾.
 4. الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشبي⁽²⁾، التقى به الشيخ عثمان في مصر وأخذ عليه وقد ذكره في الفتوى (رقم 24) بقوله وزاد شيخنا الخرشبي أن ظاهر قول مالك في العتبية ضعيف.

ومن تلاميذه: الشيخ الطاهر بن الحسن بن علي بن أبي بكر⁽³⁾. والشيخ الشريف الحسن بن فائز بن علي بن فائز⁽⁴⁾.

ثالثا - وفاته ومؤلفاته.

توفي - رحمه الله - بعد عمر حافل قضاه رحالة في سبيل العلم تعلمًا وتعليمًا، وتأليفًا وإفتاءً، في مسقط رأسه ليلة السبت بعد غروب الشمس في الخامس والعشرين من محرم، فاتح عام ثلاثة عشر ومئة وألف (1113هـ/1701م) رحمه الله وأسكنه فسيح جناته آمين⁽⁵⁾.

وقد ترك الشيخ جملة من المؤلفات، منها: في مجال العقيدة له شرح على العقيدة الصغرى في التوحيد للشيخ⁽⁶⁾ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) الشهيرة بأمر البراهين، وله شرح على منظومة لوالده في التوحيد.

وفي مجال الفقه له شرح لمنظومة لشيخه الإمام الدرعي. التي معنا هنا، وله براهين الصديق في مورثات الرزق، وهو نظم بلغ عدد أبياته (68) بيتًا. ثم شرحها. وفي علم الفلك له شرح على رجز الإمام أبي مقرع في علم الفلك⁽⁷⁾. ومنظومة في علم الفلك⁽⁸⁾. وغيرها من الفتاوي والرسائل.

(1) سبقت ترجمته.

(2) المسك والريحان، ص (143).

(3) المصدر السابق.

(4) شجرة النور الزكية، ص (317).

(5) المصدر السابق.

(6) المسك والريحان، ص (134).

(7) المرجع السابق.

(8) المرجع السابق.

المبحث الثاني: منهجه في كتاب نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام.

لا شك أن للشيخ منهجا سار عليه في شرحه لأبيات هذه المنظومة، وعليه سينصب الكلام على منهجه فيه، من وجوه مختلفة، وذلك بعد التعريف بالناظم ورفع الجهالة عنه، ومن هنا جاء هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالناظم، ومنظومته.

اسم ناظم قواعد الإسلام هو الشيخ أبو عبد الله إمام محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي الشهير ببن ناصر نسبة إلى جده المذكور، ويرجع نسبه إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب، وقيل: إلى غيره، ولد في شهر رمضان عام 1011هـ، وتوفي في صفر الخير عام 1085هـ، من شيوخه والده الشيخ محمد بن ناصر، ومن أشهر شيوخه الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف بن أحمد الدرعي (1045هـ)⁽¹⁾.

وقد سمي نظمه هذا بـ(مُسَاعِدَةُ الْإِخْوَانِ فِي الْمَفْرُوضِ وَالْمَسْنُونِ عَلَى الْأَعْيَانِ) وهي منظومة في قواعد الإسلام، وتعرف بالمنظومة الدرعية⁽²⁾. وهي عبارة عن نظم للقواعد الخمس التي جاءت في حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- مرفوعا: بني الإسلام على خمس... الحديث⁽³⁾، نظمها في ثلاثة وثلاثين بيتا من بحر الرجز، وهي مختصرة اختصارا شديدا. نص منظومة قواعد الإسلام المسماة: (مُسَاعِدَةُ الْإِخْوَانِ فِي الْمَفْرُوضِ وَالْمَسْنُونِ عَلَى الْأَعْيَانِ)⁽⁴⁾، لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا عَطْرًا	ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مَضْرَا
مُحَمَّدٍ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ	وَاللهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْكُبْرَا
عَلَى الْمَكْلُوفِ شَرْعًا فَرَضَ مَعْرِفَةَ	الْمَوْلَى إِرسَالَهُ طَرًّا بِمَا يَسْرَا*
مِنْ وَاجِبٍ وَهُوَ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ وَضِدُّ	دُثْمٌ مَا جَازَ عَقْلًا غَيْرَ مَا ذُكْرَا*

(1) انظر طبقات الحضيكي، ص (319 - 321) وكتاب شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف، ص (453/1). الأعلام للزركلي (63/7 - 64).

(2) مناسك الحج لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، ص (247).

(3) انظر كتاب فزان ومراكها الحضارية عبر العصور، لأبي بكر عثمان القاضي، ص (121).

(4) الأبيات التي في نهايتها نجمة (*) من إضافة الشارح.

باب التوحيد

إِعْلَمَ بِأَنَّ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُنَا رَبَّ وَمَا إِنَّ لَهُ شِبْهًا وَلَا نَظَرَ
 لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا وَلَيْسَ لَهُ فَاعْلَمْ شَرِيكَ لَا عُونَ وَلَا وُزَرَ
 مُنْزَهُ عَنِ صِفَاتِ النَّقْصِ مُتَّصِفٌ مِنَ الْكَمَالِ بِمَا الْعُقُولُ قَدْ بَهَرَ
 وَأَنَّ أَحْمَدَ خَيْرَ الْخَلْقِ أَرْسَلَهُ فَبَلَغَ الْوَحْيَ صَادِقًا بِمَا أَمَرَ

باب فرائض الوضوء

وَجْهٌ وَرِجْلٌ وَرَأْسٌ نِيَّةٌ فُورٌ وَدَلْكٌ وَمَاءٌ مُطْلَقٌ طَهْرًا

باب سنن الوضوء

يَدٌ وَأَنْفٌ فَمِ أذُنٌ وَعَرْفَتَهَا رَأْسٌ وَتَرْتِيبٌ مَا مِنْ وَاجِبٍ غَيْرًا

باب فرائض الغسل

عَمِّمْ بِمُطْلَقِ مَاءٍ نَاقِيًا وَبِدَلِكِ بَوْلَاءٍ وَكُنْ مُخْلًا شَعْرًا

باب سنن الغسل

غَسَلِ الْيَدَيْنِ وَتَشَاقِ وَمُضْمَضَةً كَذَلِكَ مُسْحُ الصِّمَاحَيْنِ كَمَا سَطْرًا

باب فرائض التيمم

ضَرْبَةٌ أُولَى وَوَجْهٌ نِيَّةٌ وَيَدٌ وَالْفُورِ زِدْ وَصَعِيدًا طَيِّبًا طَهْرًا

باب سنن التيمم

تَجْدِيدُ ضَرْبٍ وَتَرْتِيبٌ وَمَسْحُ يَدٍ مِنْ كُوعِهَا لِمِرَافِقِ فَعِ الْخَبْرًا

باب فرائض الصلاة

إِنِ قِيَامًا بِإِحْرَامٍ وَفَاتِحَةً وَأَخْفِضْ بَرَفِجٍ وَرَتِّبْ سَاكًا حَذْرًا
 وَاجْلِسْ وَسَلِّمْ وَكُنْ بِالسِّتْرِ مُعْتَدِلًا مُسْتَقْلًا ذَا طَهَارَتَيْنِ مُعْتَبَرًا

باب سنن الصلاة

سِرٌّ وَجَهْرٌ وَسُورَةٌ وَوَقْفَتُهَا وَتَشَهُدٌ وَجُلُوسٌ أَوَّلًا ظَهْرًا
وَمَا مِنْ الثَّانِي يُقَدِّمُ السَّلَامُ وَجَهْرٌ بِالسَّلَامِ وَسُتْرَةٌ كَمَا أَثَرًا
كُلٌّ تَسْمِيْعَةٌ بَدَتْ وَتَكْبِيْرَةٌ إِلَّا الَّتِي أَوَّلًا بِهَا الْفَتْحُ جَارًا
وَزَائِدٌ عَلَى الْأَطْمِئْتَانِ إِنْصَاتُ مَوْءُودٍ وَرَدٌّ سَلَامِهِ لِمَنْ بَدَرَا

باب سجود السهو

لِلنَّقْصِ أَوْ مَعَ زَائِدِ السُّجُودِ أْتَى قَبْلَ السَّلَامِ وَبَعْدُ لِلْمَزِيدِ جَرَى
فِي صُورَةٍ جَلْسَةٍ تَكْبِيْرَتَيْنِ تَشَهُدٌ يَهْدِيْنِ تَسْمِيْعَتَيْنِ كَالْجَهَارِ يَرَى

باب شروط الزكاة

تَمَامُ مِلْكٍ وَحَوْلٍ وَالنِّصَابُ وَأَنْ لَا يَنْقُصَ الدِّينُ جُزْءًا إِذَا اِعْتَبِرَا

باب فرائض الصوم

مَعْرِفَةُ الشَّهْرِ وَالنِّيَّةُ عَدُّ لَهُ تَرْكُ شَهْوَةِ الْأَجْوَفَيْنِ مُرَدِّجَرًا

باب سنن الصوم

أَعْجَلُ بِفِطْرِ تَمْرٍ أَوْ بِمَا أَتَى عَنِ الرَّسُولِ وَكُنْ مَوْخِرًا سَحْرًا

باب الحج وسننه

أَحْرَمَ وَطْفٌ وَاسْعٌ وَاقْفًا وَسَنٌ لَهُ تَلْبِيَةٌ لِبَسِهِ غُسْلٌ قَدْ اِبْتَدَرَا
وَسَوْقٌ هَدْيٍ رُكُوعٌ ثُمَّ مَشْيٌ طَوًّا فِ الدَّعَا وَتَقْبِيلُ أَخِي الْحَجْرَا
وَرَمْلٌ وَرُكُوعٌ بِالدَّعَا وَتَقْبِيلٌ صَعُودٌ وَالْإِسْرَاعُ السَّعَاةَ مَرَا
ثُمَّ مَبِيْتُ مَنَى وَاجْتِمَاعٌ فِي عَرَفَاتٍ وَالدَّعَا وَفِي جَمْعٍ إِذَا نَفَرَا
وَمَشْعَرٌ وَجِمَارٌ وَالْحِلَاقُ وَتَرْكُ الطَّيْبِ وَالصَّيْدِ وَالْمَخِيْطِ

الخاتمة

1. قَدْ اِنْتَهَى وَلَرَبِّ الْحَمْدُ أَجْمَعُهُ ثُمَّ السَّلَامُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضْرَا
2. يَا رَبِّ فَاعْفِرْ لِقَارِئِهَا وَكَاتِبِهَا وَنَاظِمِيهَا وَحَتَّى كُلِّ مَنْ نَظَرَا

3. وَأَغْفِرُ إِلَيْهِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ مَ الْمُسْلِمَاتِ سِوَا مَنْ غَابَ أَوْ حَضَرَ

تَمَّتْ

المطلب الثاني: منهج كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام.

سيكون كلامي على منهج المصنف في كتابه من جوانب متعددة، من حيث اسمه وسبب تأليفه، واستدلاليه ومصادره، وأسلوبه في الشرح، مع تعامله مع المصطلحات، واعتراضاته ونقده، وكذا اختياراته وترجيحاته، كل ذلك باختصار. أولاً - اسم كتابه وسبب تأليفه.

1. أما عن اسم كتابه فقد سماه (نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام) والنبراس - بكسر النون - هو المصباح⁽¹⁾، فالإضافة بمعنى اللام. وهو عبارة عن شرح منظومة في قواعد الإسلام، كما مر بك.

2. سبب تأليفه له: حصر أهل العلم رحمهم الله مقاصد التأليف في سبعة مقاصد، ومن جملة ما ذكره من هذه السبعة المقاصد؛ أن يكون المقصد من التأليف شرح ما استغلق، كما هو الحال في المنظومة الدرعية، فهي منظومة احتوت على قواعد الإسلام الخمس إلا أنها جاءت مختصرة اختصاراً بلغ بها حد الإيجاز الشديد، الذي جعل منها مجموعة ألغاز، فثلاً جاء في ذكره لباب فرائض الوضوء، قال:

وجه ورجل ورأس نية***** فور وذلك وماء مطلق طهرا

جعلها كلها في بيت واحد، في حين أنك تجدها في نظم آخر في أكثر من بيت. وباب التوحيد نظمه في أربعة أبيات، وهكذا جميع الأبواب، والتي وصل عددها إلى أربعة عشر باباً، في ثلاثة وثلاثين بيتاً.

هذا الاختصار (الإلغاز) في المنظومة جعل بعض طلبة العلم يطلبون من الشيخ عثمان شرحها لهم، وقد ذكر هذا في بداية مقدمة شرحه.

ثانياً- أسلوبه في الشرح.

قدم الشيخ بمقدمة لهذا الشرح تعرض فيها لذكر بعض الملاحظات على الناظم

(1) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص (576).

ومنظومته، منها: أن الناظم اقتفى في نظمه هذا حديث بني الإسلام على خمس، كصاحب منظومة القرطبية، والتي تسمى (التذكرة القرطبية) ليحيى بن سعدون القرطبي (ت: 567هـ) بالموصل (1).

وقد علل الشيخ فعل الناظم بقوله: إن العبادة إما قولية وهي الشهادة، أو فعلية وهي نوعان: إما تركي وهو الصوم، أو فعلي وهو قسمان: بدني كالصلاة، ومالي كالزكاة، أو مركب من قول وفعل، وهو الحج (2).

وعلل أيضا سبب اقتصار الناظم على الفرائض والسنن، - حيث ذكر الدرعي ذلك في مسمة منظومته؛ فهي تسمى (مساعدة الإخوان في المفروض والمسنون على الأعيان) فقال: وسبب اقتصار الناظم على الفرائض والسنن كمتبوعه، يشير به إلى نظم التذكرة القرطبية - إن الجهل بهما هو المضر، فمن لم يعرفهما، ولم يميز بينهما، فطهارته باطلة، وشاهدته مردودة، وكذلك من لم يميز فرائض الصلاة من سننها لا تجوز إمامته، ولا تجوز شهادته، وكذلك يقال في صومه وزكاته وجه بل وفي اعتقاده، ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى (3).

وكان من أسلوب الشيخ الذي اتبعه في شرحه، ذكر ما أغفله الناظم مما ينبغي ذكره، من ذلك حكم كلمتي الشهادة، ووجوب النطق بها مرة في العمر، بنية إسقاط الواجب، وإن لم ينبو بذلك النطق الوجوب كان عاصيا، حيث قال الشيخ بعد ذكره للأحوال والمسائل التي تشارك كلمتي الشهادة: ويشاركها في الوجوب ذكرها مرة في العمر بنية إسقاط الوجوب، كالحمدلة، والصلاة على النبي ﷺ، والاستغفار للصحابة والتابعين (4).

قلت: ومن أمثلة ما زاده الشارح من الأبيات التي يراه مهمة وينبغي ذكرها في النظم

قوله ناظما على نفس الناظم:

وَفِي زَمَنِ التَّكْلِيفِ مَرَّةً أَوْجَبًا الإِلَهُ لَهُ حَمْدًا تَعَالَى الَّذِي حَبَا
وَكَلِمَةُ تَوْحِيدٍ وَحَجِّ صَلَاتِنَا عَلَيَّ الْمُصْطَفَى مِثْلَ السَّلَامِ

(1) الأعلام للزركلي (8 / 147).

(2) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (4) بتصرف.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

كَذَلِكَ لِاسْتِغْفَارٍ لِلصَّحْبِ لَهُمْ حَازَ كُلٌّ مَنصِبًا وَتَقَرَّبًا

ومن الأمثلة أيضا أنه ذكر في التتمة السادسة في موجبات الغسل، الموت، والحيض والنفاس والإسلام، مغيب حشفة البالغ في الفرج... (1)، ونظمها قائلا:
حَيْضٌ نَفَاسٌ مَنِيٌّ وَالْمَغِيبُ وَمَوْتٌ ثُمَّ إِسْلَامٌ شَخْصٌ كَانَ قَدْ كَفَرًا

وقد انتهج الشيخ طريقة التنبيه، والتنكيت، والتذليل، والتتميم، والتكميل، والتفريع والفوائد، لتناوله في شرحه لبعض المسائل التي أغفلها النظم، كما مر قبل قليل، وهذه تظهر دقة منهجيته. وقد جاء شرحه مزجيا، سالكا شرحه بكلمات النظم، بحيث تقرأ كلها كأنها في عبارة واحدة، وهذا النوع من الشروح من أصعبها، ولم يقدم عليه من متأخري المذهب إلا القليل منهم: الشيخ الدردير.
ثالثا- تعامله مع المصطلحات.

من عادة الشارح أنه يبدأ بتعرف مصطلحات الباب، لغة واصطلاحا، وهذا نهجه في جميع الأبواب الستة عشر، بل وفي كل كلمة ذكرت في المنظومة تقريبا.

فمثلا في الباب الأول وهو باب التوحيد، قال: والباب لغة ما يتوصل به من خارج إلى داخل، وعكسه، ولهذا سمي به مبتدأ كل كلام مقصود، لأنه يدخل منه إلى المقصود، ثم سمي به نفس ذلك الكلام بابا؛ للوصول منه إلى المعاني.
وقال في تعريفه اصطلاحا: ألفاظ مخصوصة دالة على معان مخصوصة.

وقال في تعريف التوحيد: لغة هو: الحكم، أو العلم بأن الشيء واحد. فيحتمل أنه على حذف مضاف أي يعلم التوحيد. وهو عرفا [أي اصطلاحا] أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته، ذاتا وصفات وأفعالا(2).

وقال في باب الحج: تقدم أن الفرض والواجب مترادفان، وهذا في غير ما نحن بصدد، أم في باب الحج ففرقوا بينهما، فجعلوا الفرائض ما ينجر بدم، والواجب ما ينجر به. والحج بفتح الحاء وكسرهما،... وهو لغة: القصد، وقد غلب على قصد الكعبة، للنسك

(1) المصدر نفسه، ص (23) بتصرف.

(2) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (4) بتصرف.

المعروف. وشرعا عبادة يلزمها الوقوف بعرفة ليلة عاشر ذي الحجة⁽¹⁾.
رابعا- اعتراضاته ونقده.

أ- اعتراضاته.

كانت للشيخ اعتراضات على الناظم وغيره، منها أنه قال: «تبع الناظم في عده الماء المطلق من فرائض الوضوء، والمذهب أنه شرط؛ لأنه خارج الماهية، والفرض ركن داخلها»⁽²⁾.

ومن اعتراضاته على غير الناظم أنه قال: قال ابن عطاء الله وما قاله سند: إن الهدي ليس من سنن الحج، بل من مستحباته، ضعيف⁽³⁾.

قال الشارح: «وقد شاهدنا شيخنا الناظم في حجتنا معه ساق هديين وكان محبا للسنة رضي الله تعالى عنه»⁽⁴⁾.

ب- نقده.

انتقد الشيخ الشارح الناظم في قوله:

وَرَمَلٌ وَرُكُوعٌ بِالِدَّعَا وَتَقْبِيلٌ صَعُودٌ وَالْإِسْرَاعَ السَّعَاةَ مَرًّا

ففي هذا البيت يذكر الناظم الرمل في الطواف، مع الدعاء ثم صلاة ركعتي الطواف بعد تمامه، بجعل المقام بينه وبين الكعبة، وبعدها تقبيل الحجر الأسود ثم التضع من ماء زمزم والاتجاه إلى الصفاء والقيام عليه.

قال: ولو قال وقيام لكان أحسن؛ لأنه لا يلزم من الصعود القيام، بخلاف عكسه، فكل قيام صعود⁽⁵⁾.

ومن ذلك أنه ذكر عدة تمتات، في معرض شرحه لباب الزكاة:

تَمَامُ مَلِكٍ وَحَوْلٍ وَالنِّصَابُ وَأَنَّ لَا يَنْقُصُ الدِّينُ جُزْءًا إِذَا اِعْتَبِرًا

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص (19).

(3) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (61).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه، ص (65).

قال الشارح في أحد هذه التتمات: بقي من شروط الوجوب الإسلام، وتركه؛ إما للعلم به أو جنوحا منه إلا الراجح من أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وأما الحرية فداخلة في تمام الملك⁽¹⁾.

وقال في تمة أخرى: سكت الناظم عن شروط إجزاء الزكاة، وهي أربعة: الشرط النية عند عزلها، والثاني: تفريقها بموضع الوجوب، والثالث: إخراجها بعد وجوبها، والرابع: دفعها للإمام إن كان عدلا في أخذها وصرفها⁽²⁾.
خامسا- اختياراته وترجيحاته.

من اختياراته وترجيحاته أنه قال - في شرح باب الغسل -، قوله: (مسح الصماخين) ... وقال سيدي زروق: والظاهر أنهما يغسلان مع الرأس، وكان بعض الفقهاء يرى إفرادهما بالغسل؛ لأنه أحوط ... وما استظهره سيدي زروق هو ظاهر قول التهذيب⁽³⁾، والأذنان من الرأس فلا ينبغي التردد في ذلك، والله أعلم⁽⁴⁾.

من اختياراته وترجيحاته أيضا أنه قال - في باب الغسل - ولا يجب تحريك الخاتم وانحرص والسوار على المشهور، وما جاء في نظم مقدمة ابن رشد ضعيف⁽⁵⁾. وله اختيارات وترجيحات في مواطن عديدة، رحمه الله تعالى.
سادسا- استدلاله ومصادره.

أ- استدلاله.

يستدل الشيخ كثيرا بآيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة وكذا أقوال كبار أئمة المذهب.

فمن استدلاله بالسنة، قوله - في باب سنن الوضوء -: غسل اليدين أولا قبل ادخالهما في الإناء، في السنة منصبة على قولنا أولا لا على أصل الغسل فإنه فرض ... وهل ثلاثا كما يشير إليه حديث ميمونة - رضي الله عنها -، أو مرة كغيرها؟

(1) المصدر نفسه، ص (49).

(2) المصدر نفسه، ص (49-50).

(3) التهذيب في اختصار المدونة، لخلف بن أبي القاسم محمد، البراذعي المالكي (1/184).

(4) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (24).

(5) المصدر نفسه، ص (24).

منها: استدلاله - في شرح باب الصيام - بحديث أصحاب السنن ومحمد بن خزيمة والحاكم أنه قال: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ، فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَلِالمَاءِ فَإِنَّهُ طَهُورٌ»⁽¹⁾.

قال: وأخرج أبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَعَلَى تَمْرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ»⁽²⁾. وقال في تنبيهه - في باب سنن الصوم - أشعر قوله (أعجل بفطر... إلخ) بتقديم الفطر على الصلاة، كما في الحديث الثاني، وفي المنتقى والموطأ خلافه⁽³⁾؛ ووفق بينهما بحمل التعجيل بالفطر، قبل الصلاة على الفطر باليسير من الطعام، وما في المنتقى والموطأ على طعام العشاء⁽⁴⁾.

ويستدل من حيث النقول بأقوال الشيخ زروق، والحطاب، والقاضي عياض، وابن رشد، وشيخه صاحب النظم، ووالده.
ب- مصادره.

أما عن مصادره التي نقل عنها وتعامل معه فهي كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مختصر خليل بن إسحاق الجندي، و متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وكتاب الإعلام بقواعد وحدود الإسلام للقاضي عياض، و مناسك الحج لخليل بن إسحاق الجندي، ومواهب الجليل على مختصر خليل للحطاب، وتهذيب المدونة للبراذعي، والتنبيه لابن بشير، وشرح مختصر خليل للشيخ سالم السنهوري، و مناسك الحج لابن الحاج، وكتاب الإكمال للقاضي عياض، والتذكرة القرطبية لسابق الدين القرطبي، ومنظومة الفتح والتيسير، لوالده الشيخ علي الحضيري، ... وغيرها.
ونقل أيضا عن كتب الصحاح كالصحيحين، والسنن الأربعة ومستدرك الحاكم، ومصنف ابن أبي شيبة، وغيره.

(1) سنن الترمذي، أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء ما يستحب عليه الإفطار، برقم (695) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(2) سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب ما يفطر عليه، برقم (2356).

(3) يشير إلى حديث الموطأ، كتاب الصيام، باب ما جاء في تعجيل الفطر، برقم (634). ولفظه: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْفِطْرَ».

(4) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (55) بتصرف.

ونقل عن بعض التفاسير منها تفسير أبي عبد الله القرطبي، المسمى الجامع لأحكام القرآن والمعروف بتفسير القرطبي.

ونقل عن كتب العقائد، منهما كتاب عقيدة أهل التوحيد، ويسمى العقيدة الكبرى، وأم البراهين، ويسمى العقيدة الصغرى، فمن هذه المصنفات ما صرح الشارح باسمه، وهناك ما ذكر مؤلفها ولم يذكر اسم الكتاب، فعلم أنه نقل عنه.
الخلاصة:

بعد هذا التطواف الشائق في رحاب هذا الشرح الممتع ظهر للباحث جملة من النتائج والتوصيات، منها الآتي:

1. أجاد الشيخ شرح المنظومة شرحا وافيا تناول فيها ضبط النص وتعريف مصطلحاته، وفك رموزه وعبارته، بشكل متقن، وسببه أن الناظم شيخه.
 2. اعتمد الشيخ في بيان أبيات المنظومة على جملة كبيرة من المصادر والمراجع، تقدم ذكرها.
 3. أسهم الشارح في إثراء المذهب، من خلال ذكر الأقوال والترجيح بينها.
 4. كان أسلوب الشيخ في الشرح طريقة الشرح المزجي، وهي من أصعب الطرق.
- توصية:

أوصي بالرجوع إلى المنظومات والمتون النافعة حفظا وتدرسا، فتلك المنظومات غالبا ما يظهر فيها إخلاص مؤلفيها، وإتقانهم لها، وتلقي العلماء لها بالقبول والتقرير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع.

1. إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين، باب بن الشيخ سيدي الشنقيطي، تحقيق الطيب بن عمر، ط: 1 1418 هـ - 1997 م، دار بن حزم، بيروت، لبنان.
2. الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (ت: 1396 هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: 15، 2002 م
3. ترجمة الشيخ علي الحضيري، مخطوط، (د. ت)، عثمان بن علي الحضيري.
4. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت: 275 هـ)،

- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
5. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَورَة، الترمذي، أبو عيسى (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط2، 1395هـ - 1975م.
6. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد ابن سالم مخلوف (ت: 1360هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ - 2003م.
7. طبقات الحضيكي.
8. فتاوى العلامة محمد بن محمد بن مقيّل الكبير جمع وتحقيق د. جمعة الزريقي دار الإفتاء الليبية ط: 1، 2013م.
9. فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور، لأبي بكر عثمان القاضي، دار المحيط العربي، بيروت/ لبنان، ط1.
10. القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: 817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، 1426هـ - 2005م.
11. مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، (مكتبة الدكتور عبد السلام سالم حمزة الحضيبي، سبها الجديد.
12. المسك والريحان فيما احتواه عن بعض علماء فزان، لأحمد الدردير الحضيبي، تحقيق: أبو بكر القاضي الحضيبي، سبها / ليبيا، ط1، 1996م.
13. مناسك الحج لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي.
14. منظومة مناسك الحج، مخطوط، علي بن أبي بكر الحضيبي.
15. الموطأ، لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: 179هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد - أبو ظبي - الإمارات، ط1، 1425هـ - 2004م.

جهود الشيخ مصطفى قشقش، في توطين رواية قالون والحفاظ عليها

د: مصطفى فرج محمد بن حميد/جامعة المرقب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أهمية الموضوع، ودواعي اختياره:

تزخر ليبيا بكوكبة كبيرة من القراء منذ زمن، مما كان لهم السبق في تحفيظ القرآن وتعليمه، ومنذ أن دخلت رواية الإمام قالون عن نافع لليبيا حرص علماءنا القراء على توطين هذه الرواية والحفاظ عليها، ومن جملة هؤلاء المقرئ الليبي الشيخ الجليل: مصطفى أحمد قشقش -رحمه الله-، وإدراكاً مني لمكانة هذا العلم في عنايته برواية قالون كان لزاماً عليّ الكشف عن الجهد الذي بذله، وذلك من خلال تتبع مسيرته القرآنية؛ ليتبوا مكانه الطبيعي المرموق بين جملة أعلام البلاد الليبية والعربية.

إلى جانب ذلك، فقد كنت أحد طلابه، وقرأت عليه نصف القرآن تلقيناً وكتابةً ضبطاً ورسمًا برواية قالون، فوفاء لشيخنا آثرت أن أكتب عن حياته ومسيرته القرآنية وجهوده في توطين رواية قالون.

الهدف من البحث: إن غايتي من إعداد ورقات هذا البحث هو إلقاء الضوء على الجهود القرآنية لأحد القراء الليبيين، ألا وهو: الشيخ مصطفى قشقش -رحمه الله-، فالجانب الذي تأتي هذه الورقات تغطية له أو لقدّر منه، هو: جهوده في توطين رواية قالون والحفاظ عليها.

تساؤلات الدراسة: جملة من التساؤلات كانت دافعا أصيلا لهذه البحث، فالسؤال الأبرز والرئيس هو: هل يمكن رصد جهود مضمّنية للشيخ مصطفى أحمد قشقش -رحمه الله-، بذلت في توطين رواية قالون والحفاظ عليها؟ ومن هذا السؤال المحوري نتفرع عديد الأسئلة الأخرى الشارحة له، التي من شأنها الإلمام بالجوانب المختلفة للموضوع، وهي كالآتي:

1. من الشيخ مصطفى قشقش؟ وكيف كانت نشأته وحياته؟
2. ما أبرز الجهود التي بذلها الشيخ مصطفى في توطين رواية قالون والحفاظ عليها؟
مجال البحث وحدوده: يقتصر هذا البحث عن حياة الشيخ مصطفى قشقش وجهوده في توطين رواية قالون والحفاظ عليها، في مجال التدريس، وطباعة المصحف، المسابقات القرآنية، والتسجيلات القرآنية.
منهج البحث: اعتمدت في هذا البحث على ثلاثة مناهج، وذلك حسب ما تقتضيه طبيعة هذا الموضوع:
المنهج الأول المنهج التاريخي الوصفي: تظهر ملامح هذا المنهج في الجانب النظري أثناء ترجمة للشيخ.
المنهج الثاني المنهج الاستقرائي: تظهر ملامحه في الجانب التطبيقي، عند قراءة تفاصيل حياة الشيخ ومسيرته القرآنية في كتاب: "مع الناس⁽¹⁾" في أربع عشرة صفحة، قرأت هذه الصفحات قراءة متأنية، وأيضا ما سمعته عن حياة الشيخ مصطفى، عند زيارتي لأسرته وزملائه وتلاميذه وأصدقائه وجيرانه.
المنهج الثالث المنهج التحليلي: اعتمدته أثناء دراسة الجهود والإسهامات التي بذلها الشيخ -رحمه الله- في توطين رواية قالون.
بناء البحث: تقتضي طبيعة هذا البحث أن يشمل الآتي: "مقدمة، وثلاثة مطالب، وخاتمة". هذا يانها:
المقدمة: تتضمن: (أهمية الموضوع، ودواعي اختياره، والهدف من البحث، وتساؤلات الدراسة، ومجال البحث، وحدوده، والمنهج المتبع في البحث، وبناء البحث).
التمهيد: فيه: (التعريف برواية قالو، وتاريخ دخولها لليبيا).
المطلب الأول: حياة الشيخ مصطفى قشقش، نشأته وحياته.

(1) هذا الكتاب يتكون من جزأين، لمؤلفه الشيخ: "الطاهر النعاس"، من إصدارات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية: (2009م)، تناول عدة شخصيات من مشايخ وعلماء وأدباء وكُتاب، وتحدث عن حياتهم وأبرز مجهوداتهم، من بين هؤلاء: الشيخ مصطفى قشقش -رحمه الله-، وزار المؤلف: "الطاهر النعاس" الشيخ في المسجد، وسمع منه كل تفاصيل حياته، ودونها في كتابه هذا في أربعة عشر صفحة. ينظر: ص 138 - 151.

المطلب الثاني: جهود الشيخ "مصطفى" في توطين رواية قالون تعليمًا وتدريسًا.
المطلب الثالث: جهود الشيخ "مصطفى" في طباعة المصاحف برواية قالون عن
نافع، والمسابقات القرآنية، والإشراف والمراقبة على التسجيلات القرآنية.
الخاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات.
قائمة المصادر والمراجع: تشمل أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في
إعداد هذا البحث.

والله الموفق.

التمهيد: ويشمل: (التعريف برواية قالون، وتاريخ دخول رواية قالون لليبيا):
 أولاً: التعريف برواية قالون عن نافع: أبدأ بتعريف الرواية: الرواية عند القراء هي: ما ينسب إلى الراوي عن الإمام القارئ، كرواية قالون عن نافع، وحفص عن عاصم، ولو أخذ عنه بواسطة شخص أو أكثر.
 وهذا التعريف يسوقنا إلى التعريف بمصطلح "القراءة"؛ ليتضح الفرق، فالقراءة هي: ما نسب إلى أحد الأئمة من القراء العشرة، مما أجمع عليه الرواة كقراءة نافع وعاصم ونحوهما⁽¹⁾.

- قالون، من هو الإمام قالون؟: هو الإمام عيسى بن مينا بن رودان بن عيسى بن عبد الصمد بن عمر بن عبد الله الزرقي المدني، وكنيته أبو موسى، وقالون لقب له، لقبه به شيخه الإمام نافع؛ لجودة قراءته؛ لأن معنى قالون بلغة الروم (جيد)، وكان قالون ريباً للإمام نافع، وكان -رضي الله عنه- قارئ المدينة المنورة ومعلم العربية بها، وكان أصم لا يسمع البوق فإذا قرئ عليه القرآن سمعه، وقيل أصابه الصم في آخر عمره، بعد أن أخذت عنه القراءة، ولد قالون -رضي الله عنه- سنة: 120هـ، في أيام هشام بن عبد الملك، وتوفي سنة: 220هـ⁽²⁾.

سند⁽³⁾ رواية الإمام قالون: روى الإمام قالون الرواية عرضاً وسماعاً عن الإمام نافع⁽⁴⁾، وتلقى الإمام نافع القراءة عن سبعين من التابعين، من بينهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع قارئ المدينة الأولى، وشيبة بن نصاح، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وقرأ أبو جعفر على عبد الله بن عياش، وعلى عبد الله بن عباس، وعلى أبي هريرة، وهؤلاء الثلاثة قرؤوا على أبي بن كعب. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة على زيد بن ثابت، وقرأ زيد وأبي على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، كما نزل عليه⁽⁵⁾ فرواية الإمام قالون عن نافع هي رواية من روايات القرآن، متواترة

(1) ينظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري. ص 10.

(2) ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري. 1: 615.

(3) السند عند علماء القراءات: هو سلسلة الرواة الذين نقلوا القراءة، والرواية، والطريق، والوجه عن المصدر الأول.

وإن شئت قلت: هو الطريق الموصلة إلى القرآن. ينظر: لطائف الإشارات، للقسطلاني. 1: 360.

(4) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم، ويقال: أبو نعيم ويقال: أبو الحسن، وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن، أصله من أصفهان، ولد رضي الله عنه سنة: 70هـ، وتوفي بالمدينة سنة: 169هـ. ينظر: معرفة القراء

الكار على الطبقات والأعصار، للذهبي. ص 64.

(5) ينظر: مصحف الجماهيرية، جمعية الدعوة الإسلامية، صفحة التعريف بالمصحف، الصفحة: (هـ). الطبعة الثامنة:

2005م.

في جميع طبقاتها، ولا أدل على تواترها من أن الإمام نافعاً تلقاها عن سبعين من التابعين وتواترها في الأصول والفرش⁽¹⁾، وهي ضمن الروايات المتواترة المشهورة التي اهتم بها القراء وذكرها في مؤلفاتهم، منذ بدء عهد التأليف حتى يومنا هذا.

ثانياً: تاريخ دخول رواية قالون لليبياء: يعود سبب دخول رواية قالون عن نافع لبلادنا "ليبيا"، وغيرها من أقطار المغرب العربي، هو أن الإمام قالون أحد رواة نافع، ونافع "القارئ" كان شيخاً للإمام مالك⁽²⁾، وأن مالكا كان يقرأ بقراءة شيخه: "الإمام نافع"، الذي هو أحد رواة الإمام قالون، والمذهب المالكي انتشر في القرن الثالث الهجري، في هذه الأقطار انتشاراً واسعاً، فكان من الطبيعي أن تصاحب رواية الإمام قالون المذهب المالكي، فمن المرجح أنها دخلت ليبيا، تزامناً مع دخول المذهب المالكي⁽³⁾.

الطريقة التي انتشرت بها رواية قالون: منذ أن دخلت رواية قالون ليبيا، أخذ الليبيون يقرؤون القرآن الكريم بهذه الرواية قراءة حفظاً، وبأعلى درجات الرواية وهي "المشاهدة"، حيث يأخذ القارئ عن المقرئ، وتنتهي السلسلة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة والجلال⁽⁴⁾.

أما الرسم القرآني، فقد رسم برسميه المعروفين المدونين في كتب الرسم، وهما:

(1) الأصول: (أصول القراءات): ويقصد بها القواعد المطردة التي تنطبق على كل جزئيات القاعدة، والتي يكثر دورها ويتخذ حكمها مثل: الاستعاذة، البسملة، الإدغام الكبير، هاء الكفاية، المد والقصر، الهمزتين من كلمة ومن كلمتين، الإمالة، إلخ.. الفرش: هي الكلمات التي يقل دورها وتكرارها = في المصحف، ولا تحكمها قاعدة، ولا يتخذ حكمها. وتسمى أيضاً الفروع، مثل قوله عز وجل: {مَلِكٍ}، {مَالِكٍ}، {مَتَاعٍ}، {مَتَاعُ} فهذا يعد من فرش الحروف؛ لعدم اندراجه ضمن أحد أبواب الأصول. ينظر: سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي، لابن القاصح. ص 148.

(2) هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، الحميري، المدني، وُلد الإمام مالك بالمدينة المنورة سنة: 93هـ، وقيل: سنة 95هـ، فقيه، ومحدث، ثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، اشتهر بعلمه الغزير وقوة حفظه للحديث النبوي، وفي سنة: 179هـ مرض الإمام مالك اثنين وعشرين يوماً، ثم مات، وصلى عليه أمير المدينة: عبد الله بن محمد بن إبراهيم، ثم دُفن في البقيع. ينظر: طبقات الفقهاء، للشيرازي. ص 67.

(3) ينظر: شرح الدرر اللوامع مقرراً للإمام نافع، لأبي عبد الله الأنصاري الضريه. ص 11.

(4) ينظر: مصحف الجماهيرية، جمعية الدعوة الإسلامية، صفحة التعريف بالمصحف، الصفحة: (هـ)، الطبعة الثامنة:

1. رسم الامام الحافظ أبي عمرو الداني⁽¹⁾، الذي رسم به مصحف الجماهيرية، وقد ظل هذا الرسم متوارثا محفوظا في الصدور جيلا بعد جيل، إلى أن طُبِعَ في هذا المصحف سنة: 1983م.

2. رسم الإمام الخراز⁽²⁾، وبه رسمت عدة مصاحف، منها: مصحف أمانة التعليم "أول مصحف ليبي"، وهذان الرسمان معروفان في الكتايب الليبية.

وبلغ أثر انتشار هذه الرواية عند علماء المغرب العربي، حيث بنى الشيخ الطاهر بن عاشور تفسيره على هذه الرواية، ويعد أول تفسير يعتمد على رواية قالون عن نافع، حيث يقول: «وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى بن مينا المدني، الملقب بقالون؛ لأنها القراءة المدنية إماما وراويا؛ ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس. ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة.

والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي ليبيا، ورواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد والسودان»⁽³⁾.

(1) هو أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الأموي، ولد في قرطبة سنة: 371هـ، المعروف بأبن الصيرفي، عالم قراءات، ومُحدِّث، ومُفسِّر أندلسي، له عدد من المؤلفات، منها: جامع البيان في السبع، والتيسير في القراءات السبع وغيرها، توفي سنة: 444هـ. ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري: 1: 503.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله الأموي، الشَّريشي، الشَّهير بالخراز، عالم بالقراءات، من أهل فاس، أصله من شريش، له كتب منها: مورد الظمان في رسم أحرف القرآن، والدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، توفي سنة: 718هـ. ينظر: شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف. 1: 309.

(3) التحرير والتنوير، للطاهر، بن عاشور: 1: 63.

المطلب الأول: حياة الشيخ مصطفى قشقش، نشأته وحياته:

اسمه ومولده: هو مصطفى بن أحمد بن محمد بن محمد قشقش⁽¹⁾، يقول شيخنا 3 عن تاريخ ولادته: «ولدت بولاية قفصة⁽²⁾ من القطر التونسي⁽³⁾، عام: 1935م، من أبوين ليبيين من مدينة مصراتة⁽⁴⁾، وكان والدي -رحمه الله-، قد هاجر بأهله إلى القطر التونسي مع من هاجر عام: 1912م⁽⁵⁾، حيث استقر به المقام بولاية قفصة»⁽⁶⁾.

نشأته: الشيخ -رحمه الله- بدأت حياته مع القرآن، ولم يتجاوز العاشرة من عمره، إذ يقول: «وفي الخامسة من عمري ذهبت إلى الكتاب⁽⁷⁾، مع أخي محمد، وكان يكبرني بثلاث سنين، وسبقني إلى الكتاب. والطريف وما زلت أذكر أن بعض أصحابي الصغار من الجيران، اشترطوا عليّ لدخول الكتاب معهم أن أقرأ عليهم سورة "الناس" من الذاكرة، فإذا قرأتها كما هي سليمة أخذوني معهم، وإلا تركوني بعيداً عن الكتاب، نجحت في الامتحان، ودخلت معهم الكتاب بجدارة، ومنذ ذلك اليوم، وشعور التحدي

(1) نقلت اسم الشيخ من ابنه معاذ مشافهة، في لقاء جمعي معي معه يوم الجمعة: 30: ذو الحجة: 1443هـ، الموافق: 2022/7/29م، بمسجد عبد الله بن عمر بعد صلاة المغرب.

(2) قفصة: بالفتح ثم السكون، وصاد مهيمة، هي كبرى مدن الجنوب الغربي التونسي، وفيها يقع مقر ولاية قفصة، تخصصت قفصة في الصناعات الحرفية التقليدية، وقد تطورت مدينة قفصة بفضل استغلال مناجم الفوسفات الذي اكتشف بها. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي: 382/4.

(3) يقول المؤرخ التونسي محمود مقديش الصفاقسي التونسي: (ت 1228هـ: 1831م): «إن تونس -حرسها الله تعالى من كل سوء- هي الآن كرسي إفريقية ولا كرسي بها غيرها، إذ هي مقر ملكها ودار سلطانها، وجميع ما ذكر من أوصاف الحسن لغيرها من بهجة الدنيا والعلماء والصلحاء والملوك والخيرات، والمتاجر والعزة والنخوة والمراكب والأرزاق، وكل شيء يذكره اللسان في سائر البلاد، احتوت تونس في عصرنا هذا منه على الحظ الأوفر». نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: 117/1.

(4) مدينة ليبية، تقع على الساحل الغربي، شرقي العاصمة طرابلس، تتميز مصراتة بخصوبة أراضيها وأهميتها الاقتصادية، وتعد العاصمة الاقتصادية والتجارية للبلاد؛ نظراً لنشاط حركة الموانئ وازدهار الصناعة والتجارة فيها. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي، ص: 316.

(5) يعود السبب لهجرة الليبيين خارج ليبيا؛ نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصعبة التي فرضها الاحتلال الإيطالي في ذلك الوقت، ينظر: بحث هجرة بعض العلماء الليبيين إلى المشرق والمغرب في العهد الإيطالي الأسباب والتأثير. عبد الله انبية المعلول، مجلة جامعة الزيتونة. العدد الثامن: 2013م. ص 283.

(6) مع الناس، للطاهر الطاهر النعاس: 2: 139.

(7) جمع ككاتب: مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن. ينظر: معجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون. 2: 775. باب الكاف. مادة: (كتب).

ورغبة التفوق على الأقران، تدفني إلى بذل الجهد وتكريس الوقت للحفظ الجيد والقراءة الصحيحة، وكنت كلما تقدمت في الحفظ أزداد حرصاً على التلاوة المستمرة، لما حفظت وأكملت كتابة القرآن كله للمرة الأولى، ويسميا طلاب الكتاب: (الشقة)⁽¹⁾، كان عمري لا يتجاوز العاشرة، وكنت أحفظه كله عن ظهر قلب، ومن عجيب ما صادفني أيام حفظي أنني كنت أحفظ لوحياً أحياناً بمجرد أن أكل الكتابة مكتفياً لحفظه بما يميله شيعي بترديده أثناء الكتابة والتركيز الشديد على ما أسمع من نطق سليم وقراءة صحيحة، وكنت في بعض الأحيان، أبذل جهداً كبيراً في حفظ اللوح، وأضع خطوطاً عديدة أحصر بها عدد المرات التي أقرأ فيها اللوح، وعندما أفضل في حفظ لوحى ينتابني شعور بالفشل وإحساس بالخيبة وضياح الجهد، فأعمد إلى البكاء في صمت، ولشدة ما أبدو فرحاً عندما أستيقظ في الصباح القابل، وكل ما كتبت في اللوح، وعجزت عن حفظه أجده وكأنه منقوش في ذاكرتي»⁽²⁾.

أسباب ودوافع نجاح الشيخ "مصطفى -رحمه الله-" في حفظ القرآن الكريم: أما عن أسباب ودوافع نجاح الشيخ في حفظ القرآن هو والداه رحمهما الله، وشيخه علي بن شتوان⁽³⁾، كما يقول: «وكان من أهم دوافعي النفسية لإحراز التفوق في النجاح، ذلك التشجيع الذي كنت ألقاه من أبي وأبي رحمهما الله تعالى، فهما لا يفتران عن تشجيعي والدفع بي إلى الكتاب؛ حتى لا أعود على الغياب والهروب من الكتاب، كما يفعل بعض الأطفال، وكنت سمعت من أبي أنه كان يقف بالقرب من الكتاب متكئاً على سور المسجد، ويلقي السمع للطلاب الكبار، الذين يقضون بعض الليل في التلاوة من الذاكرة، فيرفع يده ويشخص ببصره، ويدعو الله في حرارة أن يرزقه ولداً يحفظ القرآن، ويتلوه تلاوة صحيحة وجيدة، فكنت دعوة والدي ڍ، وعندما دخلت الكتاب

(1) الشقة: هذه الكلمة درجت عند طلبة القرآن في الكافي؛ لأن حفظ القرآن من المرة الأولى: (الختمة الأولى) فيه

صعوبة ومشقة؛ لذلك يسمى الحفظ من الشقة الأولى، ومعناها في اللغة: شقَّ عليه الأمر يشقُّ شقاً ومشقة: إذا صعب عليه وثقل، وشقَّ عليه إذا أوقعه في المشقة. ينظر: تاج العروس، للزبيدي. 511: 25.

(2) مع الناس، للطاهر الطاهر النعاس: 2: 139.

(3) لم أهتد إلى ترجمة مشايخ الشيخ "مصطفى ڍ"، حيث بحثت في كتب التراجم الليبية وغيرها، فلم أهتد إلى ترجمتهم.

(فمن ليبيا: علي بن شتوان، وعبد الجواد البنغازي، ومحمد بن عون)، (ومن تونس: محمد بن ساسي عبد الواحد

المرغني، وإبراهيم المرغني، ومصطفى الحماي القبرواني، وعلي التركي، وعثمان العيادي).

لأول مرة، أحس والدي أن دعاءه الحار، ورغبته الملحة في ولد يحفظ القرآن بدأت تتحقق، وأن عليه أن يساعدي، ويشد من أزر؛ لتحقيق هذه الرغبة الغالية.

إن تشجيع الوالدين في هذه المرحلة من عمر الطفل لازمة ومهمة، ولقد منّ الله علي بوالدين يدركان هذا الواجب، ويريدان بكل الجهد أن أكون حافظاً لكتاب الله تعالى. أما داخل الكتاب، فقد كان التشجيع يواكب مثابرتي واجتهادي، وكنت أجد من شيعي المرحوم: علي مصطفى بن شتوان، وهو من أبناء مصراتة المهاجرين، ومن الأشراف المنتسبين إلى الدوحة النبوية كل التشجيع والتقدير⁽¹⁾.

حفظ الشيخ القرآن من الشقة الأولى، وكتبه مرتين، إذ يقول: «فقد كنت أوصل دراستي بالكتاب بعد أن حفظت القرآن كله على الشقة الأولى كما يقولون، وكتبته مرتين كاملتين، وفي المرة الثالثة وصلت سورة النحل، وعندها توقفت نهائياً، حيث اعتزم شيعي العودة إلى مصراتة، وتسلّمت الكتاب بصورة نهائية، بعد أن أتقنت الحفظ والرسم، وقد شهد شيعي بذلك»⁽²⁾.

مواصلة الدراسة لتعلم العلم الشرعي: الشيخ مصطفى -رحمه الله- لم يكتف بحفظه القرآن، بل واصل دراسته ليتعلم العلم الشرعي يقول شيخنا: «لم أتوقف عن طلب العلم، فقد تهيأت لي فرصة أخذ دروس في اللغة والفقه والتوحيد، كما حفظت بعض المتون على يد الشيخ المرحوم: محمد بن عون، وهو من تاورغاء⁽³⁾، وأحد العلماء الليبيين المهاجرين إلى القطر التونسي، وكان له دور في تعليم أبناء المهاجرين الليبيين وغيرهم، وكان هذا الشيخ الوقور أول من فتح ذهني ووجهني إلى حفظ المتون، ودراسة علوم اللغة الفقه والتوحيد، وهي العلوم الأساسية، التي لا غني عنها للإنسان المسلم، وقد أهلتني هذه الدراسة الأولية للالتحاق عام: 1951م، بفرع الزيتونة⁽⁴⁾ بمدينة قفصة

(1) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 140.

(2) المصدر نفسه: 2: 141.

(3) تاورغاء: هي مدينة ليبية تقع شمالاً، تبعد عن مصراتة أربعين كيلو متر، سكانها خليط ما بين أصول عربية وبربرية، وزنوج وهم سمر البشرية، وهم مشهورون بالشجاعة. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي. ص 79.

(4) جامع الزيتونة: أول جامعة في العالم الإسلامي، وهو جامعة وجامع بمدينة تونس. يعد ثاني الجوامع التي بنيت في "أفريقية"، بعد جامع عقبة بن نافع في القيروان، يرحّح المؤرخون أن من أمر ببنائه هو حسان بن النعمان، عام: 79هـ، وقام عبيد الله بن الحباب بإتمام عمارته في: (116هـ: 736م)، بدأ في نشر تعاليم الإسلام، وكان له دور

ثم إلى فرع القيروان⁽¹⁾، وكان بجامع الزيتونة ذلك الوقت، العديد من الفروع بكامل التراب التونسي، وعندما أكملت دراستي بفرع القيروان، التحقت بالجامع الأعظم جامع الزيتونة نفسه بمدينة تونس⁽²⁾.

دوافع وأسباب التحاق الشيخ " مصطفى -رحمه الله- بعلم القراءات: لما لعلم القراءات من أهمية وشرف وفضل؛ وذلك لتعلقه بأشرف كتاب وأحسن كلام وأصدق حديث، فكان العلماء يدفعون بطلابهم لتعلم هذا العلم (علم القراءات) وغيره من العلوم الشيخ: محمد بن ساسي المتخصص في علم القراءات دفع بتلميذه "الشيخ مصطفى" لتعلم هذا العلم، يقول شيخنا: «من أبرز المشايخ الذين تعرفت عليهم بالفرع الزيتوني بقفصة، وكان لهم فضل التوجيه، فضيلة الشيخ المرحوم: محمد بن ساسي، من منطقة الجريد مدينة توزر⁽³⁾، وكان متخصصا في علوم القراءات. ولما علم أنني أحفظ القرآن الكريم، نصحتني أن أدرس القراءات.

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة ستحوجني إلى جهد خارج جهد، ووقت دراستي العادية للمنهج المقرر بالفرع الزيتوني، فإنني حرصتُ عليها، وحالفني التوفيق في دراستها، حيث حصلت على شهادة التخصص في علوم القراءات، والمتضمنة القراءات العشر المتواترة، ودراسة علم الرسم والضبط والفواصل، وعلم التفسير واللغة

ضمخ في تفسير القرآن، وتعد جامعة الزيتونة أول جامعة أسست مدرسة فكرية في إفريقية، وكان مؤسسو تلك المدرسة، التي كانت تدعى مدرسة علي بن زياد، وكان مؤسسها أسد بن الفرات والإمام سخون صاحب المدونة، التي رتبت المذهب المالكي وأسسته، ولا تزال الجامع والجامعة ينشر تعاليمه وثقافته حتى الآن. ينظر: الموسوعة التاريخية، لعلوي بن عبد القادر السقاف وآخرون: 1: 304.

(1) القيروان: مدينة تونسية، تبعد حوالي: 160 كيلومتر عن تونس العاصمة، المعروفة بعاصمة الأغلبية، هي أول المدن الإسلامية المشيدة في بلاد المغرب، وكان لها دور استراتيجي في الفتح الإسلامي، انطلقت منها حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا. يعود تاريخ القيروان إلى عام: 50هـ: 670م، عندما قام بإنشائها عقبة بن نافع. ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي. 4: 420.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 141.

(3) توزر: بالفتح، ثم السكون، وفتح الزاي والراء، مدينة وواحة صحراوية، تقع في الجنوب الغربي لتونس، ويحدها كل من ولايتي قبلي وقفصة، أرضها سبخة، بها نخل كثير، تحدها الجزائر غربا. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي: 2: 57.

والأسانيد، واستفدت من تشجيع وتوجيه هذا الشيخ الطيب الوقور»⁽¹⁾، فحرص واهتمام الشيخ محمد ابن ساسي -رحمه الله-، كان دافعا وسببا في تعلم الشيخ مصطفى -رحمه الله- علم القراءات.

مشايخ الشيخ "مصطفى" في علم القراءات: أما بالنسبة لمشايخه في علم القراءات، كان لهم الدور المهم والأثر البالغ في توجيهه، يقول شيخنا: «وكان من ضمن مشايخي في علوم القراءات الشيخ مصطفى الحماي القيرواني، الذي كان له أبلغ الأثر في تعليمي وتوجيهي، وما زلت أحمل له أطيب الذكريات في نفسي، وهو أول من جمعت عليه القراءات السبع...، والشيخ علي التركي، وكان شيخا للقراءات بالجامع الأعظم: (الزيتونة)، وهو من سفاقس⁽²⁾، والشيخ عثمان العيادي، أمد الله في حياته، وما زلت مرتبطا به، حتى هذا الوقت: (1998م)، وأتصل به هاتفيا بين وقت وآخر بتونس، كلما أتيحت لي الفرصة، وكذلك الشيخ عبد الجواد البنغازي الليبي، الذي كان مدرسا بالزيتونة، وكنت أخذت عنه علم الرسم، وكذلك أذكر الشيخ عبد الواحد المرغني، ابن العلامة الكبير إبراهيم المرغني، صاحب التأليف وشيخ القراء بالزيتونة»⁽³⁾.

نيل الشيخ مصطفى -رحمه الله- شهادة "التحصيل العلمي"، وعودته إلى أرض الوطن: في سنة: 1958م تحصل الشيخ على شهادة التحصيل العلمي من جامع الزيتونة، وهي نهاية المرحلة الثانوية في منهج الزيتونة، يقول شيخنا: «كان حصولي على شهادة التحصيل العلمي من الزيتونة خلال شهر يوليو: 1958م كما أسلفت، وكان لزاما عليّ أن أنتظر حتى شهر أكتوبر: 1958م؛ لأدخل في امتحان التخصص في علوم القراءات، وكان هذا مواعده، في شهر أكتوبر دخلت الامتحان وبتوفيق الله نجحت، وفور الإعلان عن النتيجة، بادرت

(1) مع الناس، للطاهر النعاس. 2: 141.

(2) سفاقس: بفتح أوله وبعد الألف قاف، وآخره سين مهملة، مدينة تونسية، تقع على خليج قابس، تعد عاصمة الجنوب التونسي، ومع أنّها تقع في وسط البلاد؛ وذلك لأنّها ثاني أكبر المدن التونسية في المساحة، جلّ غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل. ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي. ص 3: 223.

(3) مع الناس، للطاهر النعاس. 2: 142.

بالرجوع إلى الوطن، ولم أنتظر حتى استلام شهادتي، وكان وصولي إلى مدينة طرابلس⁽¹⁾ أول من نوفمبر 1968م»⁽²⁾.

وقد سعى الشيخ مصطفى -رحمه الله- إلى ما يصبوا إليه، ودوافع نجاحه هو دعوة الأيوين، واهتمام أشياخه به، يضاف إلى ذلك بذل الجهد والسعي لتحقيق الهدف، وهذا وعد الله سبحانه وتعالى من يكذب ويتعب بالجزاء الحسن، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾⁽³⁾، وقال ﷺ: ﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾⁽⁴⁾. وكما قال ﷺ في الحث على الأخذ بالأسباب والتوكل على الله: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»⁽⁵⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «اعقلها وتوكل»⁽⁶⁾.

الخبرات الوظيفية: تنوعت الخبرات الوظيفية لدى الشيخ مصطفى 3، ما بين التدريس والتحكيم في المسابقات القرآنية، ومراجعة المصاحف، والمراقبة على التلاوات القرآنية المسجلة.

أما في مجال التدريس فقد بدأ الشيخ به منذ أن كان طالبا، يقول شيخنا: «وكنت أجد من شيعي المرحوم علي مصطفى بن شتوان... كل التشجيع والتقدير، الأمر الذي مكنتني من أخذ كان شيعي بن شتوان، في تحفيظ وإملاء القرآن لطلاب الكتاب، وذلك عندما تدعوه الضرورة من مرض أو سفر، إلى التخلف عن الكتاب»⁽⁷⁾.

وبعد أن نال الشيخ شهادة التحصيل العلمي من جامع الزيتونة، وشهادة التخصص

(1) طرابلس: هي عاصمة ليبيا، تقع في الشمال الغربي، تسمى طرابلس أيضا باسم طرابلس الغرب لتمييزها عن طرابلس الشام الواقعة شمال لبنان، كلمة طرابلس ينطق بها الطرابلسيون طرابلس. طرابلس - أطرابلس، بهجزة قبل الطاء، وبضم الباء واللام. وهذا هو الاسم العربي الصحيح الذي سميت به منذ: 22هـ. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي. ص 23 - 24.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس. 2: 143.

(3) الكهف، الآية: (30).

(4) النجم، الآيات: (39، 40، 41).

(5) صحيح مسلم، كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، 2: 2052. ح: 2664.

(6) سنن الترمذي، للترمذي. كتاب: صفة القيامة والزهد والورع. باب: 60. 4: 668. ح: 2517.

(7) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 140.

في علوم القراءات، عاد إلى ليبيا، فاشتغل أول وظيفة مدرس اللغة العربية والدين، يقول شيخنا: «أول وظيفة شغلها وظيفة مدرس اللغة العربية والدين بمدرسة البركة الابتدائية بمدينة بنغازي⁽¹⁾، وكان ذلك بتاريخ: 1/1/1959م، ولم يكن في حوزتي آنذاك أي شهادة»⁽²⁾.

بعدها عاد الشيخ إلى تونس، فأتى بشهادة التخرج، وعين مدرساً للقراءات، يقول شيخنا: «وعندما عدت إلى تونس سنة: 1960م، وجئت بشهادتي للمسؤولين بالجامعة الإسلامية عينت على الفور مدرساً للقراءات بمعهد القراءات، الذي كان قد أنشئ بمدينة البيضاء»⁽³⁾.

وفي العام التالي أسندت إليّ لجان التدريس، مهمة إدارة المعهد نفسه، وفي أواخر: 1962م عينت مديراً لإدارة المدارس القرآنية»⁽⁴⁾، واستمر الشيخ في إدارة المدارس القرآنية حتى عام: 1986م، وما بين: 1962م إلى: 1986م شهدت المدارس القرآنية تطوراً ملحوظاً وزاد عددها، يقول شيخنا: «شهدت المدارس القرآنية تطوراً ملحوظاً، فقد كانت في عام: 1962م ما بين: 40-50 مدرسة، ثم زاد العدد بالتدريج، حتى بلغت أكثر من أربعمئة مدرسة قرآنية، موزعة على مختلف المناطق السكنية بالبلاد»⁽⁵⁾.

وبعد هذه النهضة القرآنية، جاء الأمر بإلغاء هذه المدارس، يقول شيخنا: «بعد هذا التاريخ: (1986م) أدمج طلاب هذه المدارس القرآنية في المدارس الابتدائية، ولم يعد للقرآن مدارس خاصة، ولا إدارة خاصة، وأضحى تدريس القرآن الكريم بالمساجد، وتوالت عليه جهات، ثم آل أمره إلى الهيئة العامة للأوقاف»⁽⁶⁾.

(1) بنغازي: مدينة تقع في شمال شرق ليبيا على ساحل البحر المتوسط، وهي ثاني أكبر مدينة ليبية، تمتعت المدينة في عهد الملكية بمكانة عاصمة للبلاد إلى جانب طرابلس الغرب، حيث كانت العائلة السنوسية المالكة معتادة على الإقامة في مدينة البيضاء القريبة منها. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي. ص 63.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 143.

(3) مدينة البيضاء: تعد ثاني كبرى مدن المنطقة الشرقية، وأهمها بعد بنغازي، وفي عهد المملكة الليبية كانت مقراً للبرلمان الليبي، وعدد من الوزارات ورتاسة الوزراء، وتسمى كذلك بـ «مدينة الثلوج»: نظراً لتساقط الثلوج عليها شتاءً. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي: ص 73.

(4) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 143.

(5) المصدر نفسه: 2: 143-144.

(6) المصدر نفسه: 2: 144.

انتقل الشيخ بعدها إلى طرابلس للإقامة فيها، ودرس القرآن بمساجدها، واستمر في ذلك إلى آخر حياته.

وسأحدث عن حياته القرآنية في طرابلس لاحقاً إن شاء الله تعالى.

أعمال أخرى للشيخ: كان للشيخ -رحمه الله- أعمال أخرى، تضاف بجانب التدريس، وأهمها: رئاسة لجنة التحكيم في المسابقات القرآنية، وعضوية اللجنة الدائمة لمراجعة وإعداد المصاحف، كما كان متعاوناً مع إذاعة القرآن الكريم في مراجعة التلاوات القرآنية ومراقبتها، وكذلك جمعية الدعوة الإسلامية، يقول شيخنا: «أنا موظف وعضو باللجنة الدائمة لمراجعة وإعداد المصاحف، التي كان لها شرف إنجاز مصحف الجماهيرية، وبعض المصاحف الأخرى، والإعداد والمراجعة داخل ليبيا وخارجها، والتعاون مع إذاعة القرآن الكريم في مراجعة ومراقبة التلاوات القرآنية في بعض البرامج التعليمية، كما أتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في مراجعة ما تطبعه من مصاحف، على مختلف الروايات والتجزئة، ولي مشاركات في مسابقات حفظ القرآن الكريم، التي تنظم داخل ليبيا أو خارجها، كعضو في لجان التحكيم»⁽¹⁾.

آثاره العلمية: ما وقفت عليه من الآثار العلمية للشيخ مصطفى -رحمه الله-، عملان

اثنان، هما:

1. كتاب "التربية الإسلامية"، لمرحلي الابتدائية والاعدادية "كتاب منهجي"، ورواية قالون عن نافع كان لها حضور في الكتاب المنهجي: "التربية الإسلامية"، لمرحلي التعليم الأساسي: الابتدائية والاعدادية، فيما يتعلق بالنصوص القرآنية، بحيث تكون وفق رواية قالون عن نافع بالرسم الداني، فقد رأت وزارة التربية والتعليم، تشكيل لجنة من العلماء، لإعداد هذا الكتاب المنهجي، فكان الشيخ مصطفى -رحمه الله- أحد أعضاء اللجنة، ومعه ثلة من العلماء: (عبد الله الصويحي، ورجب فرج أبودقاقة، وعبد اللطيف امهلهل، وعبد الحميد صالح الجياش).

2. تقرّيب⁽²⁾ الشيخ لكتاب أصول رواية قالون من طريق الشاطبية، لمحمد خليل

(1) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 143.

(2) قرّظ الكتاب: وصف محاسنه ومزاياه، "قدّم تقرّيباً لكتاب تلميذه". مادة: (ق. ر. ظ). ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد، 3: 1801.

الزروق جاء فيه: «أخي الفاضل: الشيخ محمد خليل الزروق: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: فقد تتبع ما كتبتم عن أصول رواية قالون، وأعاني على ذلك وشرح صدري حسن عبارته، وصحة أحكامه، وجمال طبعه، وخلوه من الأخطاء اللغوية والإملائية، وشموله لكل مسائل الأصول المتعارف عليها، وما حوته كتب الأسلاف من العلماء المجيدين، الذين وهبوا حياتهم لخدمة كتاب الله الكريم، واستظهار مسائله، وتبيان قراءاته ورواياته، فجزاهم الله الجزاء الأوفى، ويسر سبل الرشاد لمن نهج نهجهم، وسار على دربهم، اللهم آمين.

أخي الكريم: الحق أقول: إنني سررت بما قرأت، وأحسست بانسراح كامل، وأنا أقلب صفحات المؤلف وأتبع موضوعاته، ومع ذلك فإن لكل قارئ متأمل ملاحظاته. وأبادرك القول: إنني لم أسجل ملاحظة جوهرية تتعارض مع مضمون الكتاب، ولكنها أشياء عنت فسجلتها، وبادرتك بها، وهي سهلة التدارك، إن اقتنعت بها، والله يتولانا جميعاً بلطفه، ويعيننا على خدمة كتابه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

أخوك مصطفى أحمد قشقش، طرابلس: في 14/4/2004م،⁽¹⁾.

وفاته: توفي الشيخ -رحمه الله- يوم الجمعة: الرابع عشر من شهر محرم: 1440هـ، الموافق الرابع عشر من سبتمبر 2018م، ودفن بمقبرة أولاد موسى بجنزور⁽²⁾، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

المطلب الثاني: جهود الشيخ في توطين رواية قالون تعليماً وتدریسا:

تولى الشيخ مصطفى -رحمه الله- تولى تدريس القرآن الكريم منذ أن كان طالباً، ولم ينقطع عنه إلى آخر حياته، وفي العام: 1986م الذي لم يعد فيه للمدارس القرآنية خصوصية، وأدج طلاب المدارس القرآنية مع المدارس الابتدائية، انتقل الشيخ للإقامة بمدينة طرابلس، فكانت له ثلاث محاولات لتأسيس الكتاب، فشلت المحاولتان: الأولى والثانية، ونجحت الثالثة. أما الأولى والثانية فكانت بـ"أحد أحياء مدينة طرابلس" بن عاشور" بمسجد عمورة، حيث إقامته الأولى، فلم تدم ثلاثة أشهر، ثم انقطع الطلاب عن

(1) أصول رواية قالون من طريق الشاطبية، محمد خليل الزروق، ص: 7، 8.

(2) جنزور: هي مدينة ساحلية تقع غرب ليبيا، غربي العاصمة طرابلس، وتعد بوابة طرابلس الغربية، تبعد حوالي: 12 كيلومتر غرب العاصمة الليبية طرابلس، يمتد طول ساحلها حوالي: (15) كيلومتر، وتتمتع بأشجار النخيل والزيتون، وبمناخ ساحلي مطل على البحر الأبيض المتوسط. (شبكة المعلومات الدولية. نت).

الكتاب، ونجحت المحاولة الثالثة التي كانت بمسجد عبد الله بن عمر بمنطقة قرقارش "السياحية"، أسس كتاباً سماه: أبو عمرو الداني⁽¹⁾.

وعوامل نجاحها كما أفادني أحد الطلاب مرجعها إلى الرغبة الصادقة والإلحاح الشديد من بعض سكان الحي، حيث زار بعض منهم الشيخ عدة مرات، عند مصلاه "المحراب"، حيث يمكث بعد الانتهاء من كل صلاة مدة، فطلبوا منه فتح الكتاب، استشعر الشيخ -رحمه الله- الرغبة الصادقة منهم، فوافق على فتح الكتاب وتأسيسه، وكانت ذلك يوم: 20/6/1986م، وصار المسجد قبلة لطلبة العلم والقرآن، يأتونه من كل فج عميق⁽²⁾، يقول شيخنا متحدثاً عن بداية تأسيس كتاب: (عبد الله بن عمر)، وإقبال الطلاب عليه: «وبالتحديد بعد الغارة الأمريكية الغاشمة على مدينة طرابلس وبنغازي: 1986م: إني أحفظ القرآن الكريم بهذا الكتاب، وأدرس بعض علومه منذ ذلك الوقت، لأكثر من مائتين وخمسين طالباً من مختلف الأعمار، يتوزعون ما بين ذكور وإناث، وقد أتم عدد لا بأس به من الطلاب حفظ القرآن حفظاً جيداً وكاملاً من مختلف شرائح المجتمع صغاراً وكباراً»⁽³⁾.

إدارة الحلقة، وطريقة الشيخ في تعليم القرآن: درستُ على الشيخ نصف القرآن، وعدد الطلاب حينها يزيد عن مائة وثلاثين طالباً، فكيف يا ترى أدار الشيخ حلقة القرآن الكريم بهذا العدد؟

بالنسبة لإدارة حلقة القرآن بهذا العدد الكبير، فمن الحكمة والتوفيق لدى شيخنا أنه قسّم الطلاب إلى مجموعات، وكل مجموعة في سورة وملة واحدة، يقرأ الشيخ الآية فيرد الطلاب، وهم مجموعة واحدة في نفس السورة ونفس الآية "الملة"، قراءة جماعية، ثم يبادرون بكتابتها على اللوح، وهكذا المجموعة التي تليها، وكان عدد المجموعات ست مجموعات، وعدد الطلاب لكل مجموعة ما بين عشرين إلى خمس وعشرين طالباً، وهذا التقسيم يعد خصوصية يمتاز بها كتاب مسجد عبد الله بن عمر عن غيره من الكتايب؛ لأن المعهود في

(1) نقلت هذا مشافهة من ابن الشيخ " معاذ قشقش " يوم الجمعة: 30 من ذي الحجة/1443هـ، الموافق:

2022/7/29م، بمسجد عبد الله بن عمر بعد صلاة المغرب.

(2) نقلت هذا مشافهة من: محمد الشاوش أحد طلاب الشيخ وجاره، يوم الجمعة: 30 من ذي الحجة/1443هـ، الموافق:

2022/7/29م، بمسجد عبد الله بن عمر بعد صلاة المغرب.

(3) مع الناس، للظاهر النعاس: 2: 144.

الكتابيات القرآنية، هو أن الملة ينفرد بها كل طالب لوحده، وتختلف عن غيره⁽¹⁾.

ولعل الحكمة من هذا تقسيم الطلاب، هو أن يستوعب الشيخ العدد الأكبر من الطلاب، وتعم الفائدة، ولا يُحرم أحدٌ، ممن لديهم الرغبة في حفظ القرآن، يقول شيخنا: «إني أحفظ القرآن الكريم بهذا الكتاب: كتاب مسجد عبد الله بن عمر، وأدرّس بعض علومه، منذ ذلك الوقت... لأكثر من مائتين وخمسين طالباً، من مختلف الأعمار، تتوزع ما بين ذكورا وإناثاً، وقد أتم عدد لا بأس به من الطلاب حفظ القرآن حفظاً جيداً وكاملاً من مختلف شرائح المجتمع صغاراً وكباراً، ومن لم يتيسر له الحفظ الكامل حفظ البعض من أجزائه، أو تعلم على الأقل كيف يقرأ القرآن قراءة صحيحة وسليمة من المصحف الشريف؟»⁽²⁾.

هذا بالنسبة لإدارة الشيخ للحلقة، أما الطريقة التي يراها مثالية في تدريس القرآن وتحفيظه تعتمد على ثلاثة أمور: التلقي، والمشافهة، والكتابة. أما التلقي والمشافهة فتكون على يد شيخ متقن، يقول شيخنا مستشهداً من الكتاب والسنة: «الطريقة المثلى لحفظ القرآن الكريم، بأن يتلقى من ملقن يجيد حفظ القرآن الكريم، وهي الطريقة التي جاء بها القرآن الكريم نفسه فقد جاء في سورة القيامة قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۖ إِنَّهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}»⁽³⁾، وكان الخطاب موجهاً إلى الرسول ﷺ، وبهذا التوجيه يتبين أن القرآن إنما يؤخذ بالتلقي والمشافهة، ولو كانت هناك طريقة أخرى أمثل من هذا التلقي، لجاء بها القرآن وحث عليها، وما دام الرسول ﷺ، وهو من هو في الذكاء والفتنة والاستيعاب، يتلقى القرآن الكريم عن طريق ملقن، وهو أمين الوحي سيدنا جبريل -عليه

(1) يمتاز مجلس الإملاء "القرآن" كون الطلبة يجلسون حلقة حول الشيخ، يكون هو الشيخ قطبها، يعلوهم على أريكة (تسع للجلوس والانتكاء)، يبدأ الشيخ بتلقي الطالب آية أو جزءاً منها بطريقة المشافهة من الشيخ، وفي الغالب يعتمد فيها الوقف على المتحرك؛ لتنبه الطالب على حركة الحرف الأخير، ثم يعيد الطالب على مسامع الشيخ ما سمعه منه قبل الشروع في الكتابة؛ حتى إذا اطمئن الشيخ لنطق الطالب، أردفه بذكر ما يتعلق بها من حيث الرسم مثلاً ألفها محذوفاً أو ثابتاً، أو مخصصاً على رسم الداني أو ياء معقوفة، أو مرجعة، أو همزة مسهلة أو مبدلة بو أو ياء أو غيرها، ثم يشرع الطالب في كتابتها على اللوح، حتى إذا انتهى وعاد الدور له في الحلقة سمع للشيخ الآية السابقة بنطق صحيح، فإذا اختلف النطق هنا، فبعض المشايخ يعنفون الطالب على ذلك ثم يقرؤه الآية التي تليها، فالكتابة والتلقين أمران متلازمان في هذا المجلس.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 144.

(3) القيامة، الآيات: (18، 19).

السلام-⁽¹⁾...، فأحرى بغيره أن يكون هذا المنهج المثالي؛ لتلقي القرآن وحفظه...، ومن هنا قال العلماء: إن من خاصية هذا الكتاب سهولة حفظه، وأنه يتلقى مشافهة من حافظ، قد تلقاه عن غيره وأحسن أداءه، وما نشاهده يؤيد هذا القول، إذ كثير ممن لم يتلقوه من معلم حافظ لا يحسنون النطق الصحيح به، ولو بلغوا درجة عالية في التعليم⁽²⁾.

ولعل الشيخ مصطفى يشير هنا إلى مسألة مهمة، وهي أهمية معلم القرآن، والسؤال الذي يعرض هنا، ويسأله بعض عامة الناس أحيانا هو: هل يستطيع المسلم أن يجتهد بنفسه ويحفظ كتاب الله، أو يتعلم قراءة القرآن قراءة الصحيحة، دون الحاجة إلى معلم القرآن: "الشيخ"؟ وذلك بالسماع لأشرطة الكاسيت مثلا، أو السي دي) أو نحو ذلك، للإجابة عن هذا السؤال أقول: أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليتعبد به المتعبدون، والتعبد كما يكون بفهم معانيه والعمل بها، فكذلك يكون بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه، يقول السيوطي⁽³⁾ - رحمه الله -: «ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة عن أئمة القراء المتصلة بالحضرة النبوية»⁽⁴⁾، إذن قراءة القرآن لا تتحقق إلا بالتلقي عن الشيوخ المشهود لهم بالضبط والإتقان، ويعرف عنهم ذلك بالإجازة أو الاشتهار.

وطريقة التلقي عن الشيوخ تكون بالسماع منهم أو القراءة عليهم مباشرة وهم يستمعون، فما أخطأ فيه القارئ صححوه له، فإنه علم لا يؤخذ من الكتب، بل يحتاج للقراءة على من أتقن التلاوة؛ كي يصحح لك النطق بالقراءة، والدليل على ذلك ما

(1) عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها -، قالت: أَسْرَى إِلَيَّ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- : «إِنَّ جِبْرِيْلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَأَنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي، وَأَنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي». فَبَكَيتُ، فَقَالَ: «أَمَّا تَرْضِينَ أَنْ تُكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ»، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ»، صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام: 4: 203، ح: 3624، يقول ابن حجر العسقلاني عند شرحه لهذا الحديث: «العرض، وهو بفتح العين وسكون الراء أي: يقرأ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إياه...، والمعارضة مفاعلة من الجانبيين كأن كلا منهما كان تارة يقرأ، والآخر يستمع»، فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 9: 43.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 145.

(3) هو جلال الدين عبد الرحمن بن محمد الخضير السيوطي، (القاهرة: 849هـ: 1445م - القاهرة: 911هـ:

1505م)، إمام حافظ، ومفسر، ومؤرخ، وأديب، وفقه شافعي، له نحو: 600 مصنف. ينظر: شذرات الذهب،

لابن العماد الحنبلي: 10: 74.

(4) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 1: 346.

أمر الله به نبيه بالتلقي من جبريل عن طريق السماع، فقال له: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾⁽¹⁾، يعني: استمع إلى قراءته، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، - فَبَدَأَ بِهِ -، وَسَالِمٍ، مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ»⁽²⁾، فهذا هو الأصل في قراءة القرآن الكريم أو حفظه، فقد أخذ الصحابة القرآن عن الرسول كما علمه سيدنا جبريل، ونقل إلينا القرآن بأحكامه هكذا بالتواتر، يقول السيوطي: «وأما القراءة على الشيخ: فهي المستعملة سلفاً وخلفاً»⁽³⁾ وقال أيضاً: «ومما يدل للقراءة على الشيخ، عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- على جبريل في رمضان كل عام»⁽⁴⁾،⁽⁵⁾ إذن وجود معلم حافظاً لكتاب الله، متقناً لتلاوته، يعلم القرآن لطلابه، مهم في غاية الأهمية.

هذا عن التلقين والمشاهدة. أما الكتابة فتكون على اللوح بالخبر (الصمغ) والقصبه⁽⁶⁾، ويمنع الطالب من اصطحاب المصحف أو الكتابة منه، والغاية في ذلك هو تعلم الرسم القرآني؛

(1) القيامة، الآية: 18.

(2) صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه: 5: 36. ح: 3808.

(3) الإتيان في علوم القرآن 1: 343.

(4) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: « كان النبي ^ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فرسول الله ^ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»، سنن النسائي، كتاب: فضائل القرآن، باب: عرض جبريل القرآن: 5: 7. ح: 7993.

(5) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي: 1: 344.

(6) تعد طريقة تحفيظ كتاب الله بالألواح من أشهر الطرق المتبعة في ليبيا، وتخرج عن طريقها عدد كبير من حفظة القرآن الكريم، ومن الأدوات المستخدمة في التحفيظ بهذه الطريقة، التي سميت باسمه؛ لكونه أهم الوسائل المستخدمة، وهو عبارة عن قطعة من الخشب تصنع من شجر الأرز أو البلوط، أو الزيتون وغيرها، من أنواع الأشجار المتوفرة في المنطقة، وهذا اللوح عادة ما يقص على شكل مربع أو مستطيل، وتصنع فيه لوحة بارزة، أعلاها؛ حتى يتسنى للطالب مسكه وحمله بكل سهولة، أو يقوم بثقبه في أعلاه عند منتصفه، ليدخل منه خيطاً؛ حتى يستطيع الطالب أيضاً الإمساك به وتعليقه على الحائط عند الانتهاء من الحفظ في كل يوم دراسي، واللوح عادة ما يصقل، ويلبغ قبل الشروع في الكتابة؛ حتى تسهل عملية الكتابة عليه بالقلم، ويغسل الطالب وجهي اللوح بالماء والطين «الحمي»، ويتركه يجف، وبعدها يحك الطالب اللوح للتخلص من الطين، ثم يسطره بمؤخرة القلم؛ حتى لا يتعرج في الكتابة، وكل يوم يحو الطالب الجهة التي حفظها استعداداً للكتابة عليه في اليوم التالي، ويترك الجهة الأخرى بكتابتها حتى يتم حفظها. أما الوسيلة الثانية المعتمدة في طريقة حفظ كتاب الله بالألواح فهو القلم، الذي يمثل قطعة خشبية تصنع من القصب. أما الخبر فيصنع من صوف الخراف، حيث يحرق ثم يصب عليه بعض الماء، ويسمى بالاسم المحلي «الصمغ» أو «السمق»، ويوضع ذلك المداد في قارورة صغيرة.

لما له من خصوصية، فيختلف عن الرسم الإملائي، وهذا هو المعهود في الكتايب الليبية. إذن يجتمع التلقين والمشافهة والكتابة في كتاب الشيخ "مصطفى 3، وفي مجلس واحد، وهو مجلس الإملاء أو الملة، وهو أشبه بالمجلس الحديثي المعروف عند علماء الحديث⁽¹⁾.

إلى جانب ذلك كان الشيخ حريصا على عدم التخلف عن الكتاب، يقول شيخنا: «هذا العمل يأخذ مني الكثير من وقتي واهتمامي، فأنا حريص على ألا أتخلف عن طلابي إلا لعذر قاهر»⁽²⁾.

هذا بالنسبة للذكور. أما الإناث فكان التدريس بنفس الطريقة التلقين والمشافهة والكتابة، إلا أن الكتابة على الكراسات، وبالأقلام العادية⁽³⁾، بهذا العدد الكبير، الشيخ -رحمه الله- كانت له القدرة العالية، والشخصية المتزنة المتمكنة في تعليم الطلاب وتوجيههم، مع التحلي بمكارم الأخلاق وجميل السجايا.

وقد استمر في التدريس إلى آخر حياته، فعلم الطلاب ذكورا وإناثا صغارا وكبارا القرآن برواية قالون عن نافع، وجميع الأوجه بالرسم الداني، بالإضافة لتعليم الروايات الأخرى.

فرسالة شيخنا ليست مجرد وظيفة، لكنها رسالة تربوية سامية يغرسها في قلوب طلابه وتلاميذه، حيث يرفع الله أهل العلم درجات فوق درجات.

(1) من أوجه عناية العلماء بالسنة النبوية المطهرة، عقد مجالس للإملاء، وذلك لضبطها في الكتب، كان المحدثون قديماً يتخذون مستملياً في مجالسهم العلمية، والمستملي: هو من يقوم بتبليغ كلام الشيخ للطلاب إذا كان المجلس كبيراً، والطلاب كثر. يقول السيوطي -رحمه الله-: «يستحب للمحدث العارف عقد مجلس لإملاء الحديث؛ فإنه أعلى مراتب الرواية، ويتخذ مستملياً محصلاً متيقظاً يبلغ عنه إذا كثر الجمع على عادة الحفاظ، ويستملي مرتفعاً وإلا قائماً، وعليه تبليغ لفظه على وجهه، وفائدة المستملي، تفهم السامع على بعد، وأما من لم يسمع إلا المبلغ فلا يجوز له روايته عن المملي، إلا أن يبين الحال... ويستنصت المستملي الناس بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن، ثم يبسم، ويحمد الله تعالى، ويصلي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويتحرى الأبلغ فيه، ثم يقول للمحدث من أو ما ذكرت رحمك الله؟ أو رضي عنك وما أشبهه، وكلها ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان بعض السلف يتخذ أكثر من مستملي، إذا كثر الطلاب في المجلس». ينظر: تدريب الراوي، للسيوطي: 2: 132-133-134.

(2) مع الناس، للطاهر النعاس: 2: 144.

(3) أفادني بهذا الشيخ محمد الرياني أحد تلاميذ الشيخ في مقابلة معه يوم الجمعة: 30 من ذي الحجة/1443هـ، الموافق: 2022/7/29. بعد صلاة المغرب.

مقرأة⁽¹⁾ للطلبة المتقدمين في تدريس أصول رواية الإمام قالون، ومتن الشاطبية: قرر المنهج النبوي المبارك طريقة التدرج في التعليم، عن جندب بن عبد الله، قال: «كَمَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَنَحْنُ فِتْيَانُ حَزَاوِرَةَ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازِدْنَا بِهِ إِيمَانًا»⁽²⁾، وسار الصحابة الكرام على هذا المنهج، فقد أخبر ابن عمر -رضي الله عنهما- وهو من صغار الصحابة - فقال: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنَّ أحدنا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ وَتَنْزِيلِ السُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ[ؐ]، فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ...»⁽³⁾.

لقد سلك شيخنا هذا المنهج، وهو التدرج في التعليم، فبعد أن يحفظ الطالب القرآن، بالوجه المقدم: وهو إسكان ميم الجمع وقصر المنفصل، ينتقل به إلى دراسة الوجوه الأخرى: (4) (أصول رواية قالون)، مدة الدراسة سنة كاملة، بمعدل حصتين في الأسبوع، بشرط أن يكون حافظا للقرآن، ولم تقتصر الدورة على كتاب عبد الله بن عمر، فالباب كان مفتوحا لمن يرغب أن يدرس أصول رواية قالون، فدرس عنده طلاب من كتاتيب أخرى، وبالنسبة للكتاب المقرر فهو الطريق المأمون إلى أصول رواية قالون من طريق الشاطبية، لعبد الفتاح المرصفي: (ت: 1409هـ)⁽⁵⁾، وعلى هذا أقول:

1. التزام الطالب بوجه واحد للرواية (الوجه المقدم) حتى الختم.
2. شيخنا -رحمه الله- لم يكتفِ علمه، أو يجعله حبيسا على طلابه، بل انتفع به كل طلاب القرآن.

(1) مقرأة: جمع مقارئ، مكان في مسجد أو في غيره يجتمع فيه حفاظ القرآن الكريم ليقرووه. ينظر: المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، 2: 722، مادة: (ق. ر. أ).

(2) سنن ابن ماجه، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: في الإيمان: 1: 42. ح: 61.

(3) المستدرک علی الصحیحین، کتاب: الإيمان. أما حديث معمر 1: 91. ح 101، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين".

(4) الوجه هو: ما نقل فيه التخيير عن الإمام أو عن أحد رواته. مثال ذلك: البسملة بين السورتين قراءة ابن كثير وقراءة عاصم، ورواية قالون عن نافع، مثلا البسملة بين السورتين لمن بسمل ثلاثة أوجه، ولا نقل ثلاث قراءات ولا ثلاث روايات ولا ثلاث طرق. ينظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، 2: 200.

(5) نقلت هذا مشافهة من الشيخ: مختار غراب أحد طلبة الشيخ المتقدمين. يوم الجمعة: 30 من ذي الحجة/1443هـ، الموافق: 2022/7/29م، بمسجد عبد الله بن عمر بعد صلاة العصر.

3. اعتناء الشيخ بأصول رواية قالون وطرقها وما تنفرد بها.

أبرز تلاميذه: لشيخنا طلاب كثر حفظوا القرآن الكريم على يديه، وتلقوا عنه؟

ولعل من أبرز تلاميذه: الشيخ نادر العمراني -رحمه الله-، والشيخ أشرف المزوغي، والشيخ مختار المحمودي.

ففي مجال التدريس وتعليم القرآن، كان للشيخ دور كبير وإسهامات بارزة في توطين رواية قالون والحفاظ عليها، حيث جعل مسجد عبد الله بن عمر قبلة لطلاب العلم، يأتونه من كل فج عميق، وما زال هذا المسجد يؤدي دوره على الوجه الأكمل في تعليم أبناء المسلمين.

المطلب الثالث: جهود الشيخ في: طباعة المصاحف "برواية قالون عن نافع"، والمسابقات القرآنية، والإشراف والمراقبة على التسجيلات القرآنية.

إلى جانب التدريس، كان للشيخ أعمال وإسهامات أخرى، ساعدت في توطين رواية قالون والمحافظة عليها، تمثلت في طباعة المصاحف برواية قالون عن نافع، وتحكيم المسابقات القرآنية والإشراف على التسجيلات القرآنية، ولنتحدث عن هذه الأعمال بشكل موجز:

أولاً: جهود الشيخ -رحمه الله- في طباعة المصاحف برواية قالون عن نافع: تميز أهل الديار الليبية عن باقي هذه الدول، بتواتر رواية قالون عن نافع بما اختاره الامام الحافظ أبو عمرو الداني بالرسم العثماني، التي كانت متداولة في المدينة المنورة، وتناقلها الحفاظ جيلاً عن آخر، إثر وصول الفتح الاسلامي الى ليبيا.

فدعت الحاجة إلى طباعة مصحف بما يتوافق مع الرواية المتواترة لأهل البلد (برواية قالون عن نافع)، فكلفت لجنة من الحفاظ والخبراء لبيين، لطباعة مصحف الجماهيرية، ومصحف الشيخ: صالح دخيل الجلاصي -رحمه الله-، فكان الشيخ مصطفى -رحمه الله- رئيساً للجنة.

أ. مصحف الجماهيرية برواية قالون عن نافع: صدر قرار رقم: (227)، لسنة: 1980م من أمين اللجنة الشعبية العامة للإعلام آنذاك لتشكيل لجنة من العلماء الحفظة للقرآن الكريم، والمختصين في قراءته ورسمه وضبطه وفواصله وأسباب نزوله، بالإضافة إلى بعض من علماء اللغة، يعاونهم

بعض الفنين لإعداد وكتابة المصحف الشريف، على أن يكون برواية قالون عن نافع المدني، بالرسم الداني، ومن طريق (1) محمد بن هارون المعروف بأبي نسيط.

وكان على رأس هذه اللجنة (من الحفاظ والمتخصصين)، الشيخ مصطفى أحمد قشقش، حيث شرعت اللجنة في عملها يوم الإثنين: 27، من ربيع الآخر: 1390 من وفاة الرسول، الموافق: الثاني من شهر مارس: 1982م؛ وقد عكفت اللجنة لمدة ثلاث سنوات ونصف، لإعداد المصحف تخطيطاً وكتابة ومراجعة بإشراف إذاعة القرآن الكريم، ورعاية جمعية الدعوة الإسلامية (2).

وقد استبشر حفاظ القرآن وعامة المسلمين بهذا المصحف، وصار متداولاً بين عامة المسلمين إلى يومنا هذا.

ب. مصحف الشيخ صالح دخيل الجلاصي: كُتب هذا المصحف بالخط المغربي، ووضع في آخر المصحف التعريف به، وهي كالتالي:

الرواية: من حيث الرواية مطابق تمام المطابقة لرواية قالون التي يُقرأ بها في البلاد الليبية، ويُقرأ بها كثير من أهالي الشمال الأفريقي، والمصادر التي اعتمد عليها لصحة الرواية هي:

أولاً: الاعتماد على صدور الحفظه من أبناء البلد، الذين توارثوا القرآن الكريم كإبنا عن كبار، وبالطرق المتواترة الصحيحة.

ثانياً: الاعتماد على كتب القراءات المتوافرة لدينا، على مختلف أزمنتها وأماكنها.

(1) الطريق في علم القراءات هو: ما ينسب إلى الآخذ من الراوي وإن نزل، مثل طريق الأزرق عن ورش، أو الأصهباني عن ورش. مثال ذلك: إثبات البسملة بين السورتين، فهو قراءة ابن كثير، ورواية قالون عن نافع وطريق الأصهباني عن ورش، وطريق صاحب الهادي عن أبي عمرو، وهكذا. ينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والذرة، لعبد الفتاح القاضي، ص: 10.

(2) ينظر: مصحف الجماهيرية، جمعية الدعوة الإسلامية، صفحات التعريف بالمصحف، الصفحة (ر)، الطبعة الثامنة:

ج. رسم المصحف: اعتمد فيه على نقل الحفظ، ثم على ما هو مدون بكتب فن الرسم، مثل كتاب دليل الحيران، للشيخ إبراهيم المرغني، على متن مورد الضمان، للخراز على ما ارتضاه الشيخ أبو داود سليمان ابن نجاح وغير ذلك.

د. ضبط المصحف: اعتمد على المصدر نفسه فيما يتعلق بضبط المصحف، مثل وضع الحركات على الحروف وكيفيةها، ووضع السكون، والتشديد والتنوين وغير ذلك.

ه. التجزئة: اعتمد في تجزئة المصحف من حيث الأثمان والأرباع والأحزاب على المتعارف عليه لدى حفاظ البلد.

و. الوقوف: اعتمد فيها الوقوف الهبطية، وهي للإمام محمد بن جمعه المغربي المشهور بالهبطي، وهي محفوظة لدى كثير من حفظة القرآن الكريم ببلادنا.

ز. عد الآيات: اعتمد في عد آياته على عدّ المدني الأخير، وهو العدّ المروي عن إسماعيل بن جعفر بن جمار عن شيبه بن القعقاع وهما مشايخ نافع.

ح. أسماء السور: اعتمد في أسماء السور وكونها مكية أو مدنية، على ما هو معروف بالبلد، ثم على بعض المصاحف المعتمدة والمتداولة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد عرض هذا المصحف على اللجنة الدائمة لمراجعة وإعداد المصاحف، برئاسة الشيخ مصطفى أحمد قشقش، والشيخ شكري أحمد حمادي، فأقرت هذا العمل وأذنت بنشره⁽¹⁾.

ثانيا: جهود الشيخ في إقامة المسابقات القرآنية: لا يخفى على أحد أن التنافس والتسابق في مجال القرآن الكريم، هو تنافس وتسابق في أشرف ميدان، وأعظم مجال، فهو من أجل الأعمال، وأرفع القربات، وفي ذلك فوائد عظيمة، ومنافع جلية، منها: أنها تسهم في إعداد جيل صالح مسلم متخلق بأخلاق القرآن، متزود بأدابه، مهتد بهديه، وهذا أقوى عدة للمسلمين في مواجهات تحديات اليوم والمستقبل، لاسيما أنها تستهدف أهم شريحة في المجتمع، وهم شباب وشابات الإسلام، عماد الأمة الإسلامية.

ولما للمسابقات القرآنية من أهمية رأت إدارة الشؤون القرآنية بوزارة الأوقاف ضرورة العمل لتنظيم المسابقات على مستوى المناطق، ثم على مستوى المدينة، بدأت هذه

(1) ينظر: آخر المصحف: (الصفحات الأخيرة للمصحف لم تكن مرقة أو عليها حروف).

المسابقات أول الثمانيات، ثم توقفت، وفي يوم: 15/11/1988م، بدأت فكرة المسابقات واستأنفت، وكان ذلك بإشراف ومتابعة الشيخ مصطفى (3)، ومعه من المشايخ: الشيخ محمد كريدان، والشيخ الأمين قنيوة - رحمهم الله جميعا - وغيرهم، وذلك لإعداد الشروط والضوابط لتنظيم هذه المسابقات⁽¹⁾.

بعدها أحييت النتائج على مستوى الفرع أو المكتب إلى الإدارة العامة لشؤون القرآن الكريم، لتتولى الإعداد والتجهيز للمسابقة يتنافس فيها الفائزون على مستوى ليبيا، فكانت أول مسابقة أجريت على مستوى ليبيا في شهر: 3، سنة: 1989م، بمسجد مولاي محمد بطرابلس، وكان رئيس لجنة المسابقة الشيخ مصطفى -رحمه الله-، ومن ثم بدأت المسابقات القرآنية ينتظم أمرها تبدأ على مستوى المناطق "التصيفية"، ثم على مستوى ليبيا تستضيفها من كل عام منطقة، واستمر الشيخ مصطفى رئيساً للجنة التحكيم من سنة: 1989م، إلى سنة: 2010م تقريبا.

الروايات، وجوانب المسابقة: الرواية المعتمدة في المسابقات، هي رواية قالون عن نافع بالدرجة الأولى؛ لأنها هي الرواية السائدة في البلد، وفي السنوات الأخيرة بدأت رواية حفص عن عاصم تعتمد في المسابقات.

أما عن جوانب المسابقة فتتوّعت ما بين حفظ القرآن الكريم كاملاً، وحفظ نصف القرآن، وحفظ ثلث القرآن، وحفظ ربع القرآن، وحفظ خمسة الأجزاء الأخيرة، وحفظ ثلاثة الأجزاء الأخيرة، وحفظ جزء عم. وجانب التجويد.

وقد كان الشيخ يتعامل مع المتسابق على أنه طالب في الامتحان، كما كان لدى الشيخ قدرة التركيز عالية على كل صوت يلفظ به المتسابق⁽²⁾.

ثالثاً: جهود الشيخ في الإشراف والمراقبة على التسجيلات القرآنية: لما كانت الرواية المنتشرة في بلادنا "ليبيا" هي رواية قالون عن نافع وما زالت، رأت إذاعة القرآن الكريم المسموعة الحاجة إلى تسجيل ختمات قرآنية "صوتية" برواية قالون عن نافع لقرّاء ليبيين مشهود لهم بالحفظ والأداء، فيها حفاظ القرآن وعامة الناس، فاستدعى الأمر تشكيل

(1) ينظر: كتاب تعليم القرآن الكريم في ليبيا، إعداد: محمد علي البجباح. ص: 42.

(2) أفادني بهذا الدكتور محمد البجباح، مقرر لجنة المسابقات القرآنية من سنة: (1989م إلى سنة: 2004م)، في مقابلة أجريتها معه بكلية الآداب، بجامعة طرابلس، يوم الإثنين: 3/محرم/1444هـ، الموافق: 2022/8/1م، عند الساعة العاشرة صباحاً.

لجنة ذات مرجعية علمية، تعرض عليها هذه التلاوات؛ لما لهذه اللجنة من أهمية. يقول الشيخ الدكتور أيمن اسويد⁽¹⁾، حفظه الله، مبينا أهمية اللجنة في المراقبة على التسجيلات القرآنية: «معلوم أن الصوت الحسن وحده ليس مبرراً كافياً لتسجيل تلاوة فلان أو فلان؛ فقد تكون هناك أخطاءً حفظية، وأخرى تجويدية، وثالثة تتعلق بحسن الوقف والابتداء، وكم مرّة سمعنا تلاوةً فيها حروف غير واضحة، أو أحكام منقوصة، أو تمطيّط، أو اختلاس، أمّا سوءُ الابتداء وتقطيع الكلام المتصل ببعضه ببعض فحدث ولا حرج...، وهذا أمرٌ في غاية الأهمية والخطورة؛ إذ هو متعلق بالنصّ الأقدس عند المسلمين، بالقرآن العظيم... أرى أن يتحمل مجلسنا هذا المسؤولية التصحيح والتدقيق لما يُعرض عليه من تسجيلات صوتية أو مرئية؛ لبيان الخطأ وتصحيحه، قبل انتشاره وتعميمه، ويكون ذلك بتشكيل لجنة من ثلاثة قراءٍ على الأقل تستمع للمادة القرآنية المقدمة وتُبدي ملاحظاتها عليها، وفي حال إقرار صحّة التسجيل يُعطي المجلس الجهة صاحبة التسجيل فسحاً وإذناً بجواز تداول المادة المسجّلة»⁽²⁾.

لقد رأى الشيخ مصطفى القيام بهذا العمل من الواجب الشرعي، الذي أخذه الله على أهل العلم، بقوله: {تَبَيَّنْهُ لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَ التَّوْحِيدَ} (3)، وتحمل الشيخ مسؤولية التصحيح والتدقيق لما يعرض عليه؛ وذلك لبيان الخطأ وتصحيحه قبل انتشاره، فكان الشيخ رئيس اللجنة ومعه آخرون، فأشرف وراقب على ختمتين: الأولى: للشيخ الدوكالي العالم، والثانية: للشيخ طارق دعوب، وكلاهما برواية قالون عن نافع.

وختمتان للشيخ الدوكالي: الأولى: كانت بإشراف إذاعة القرآن الكريم المسموعة بطرابلس، واللجنة هم: الشيخ مصطفى قشقش: رئيساً، والشيخ بشير مالك: عضواً، والشيخ محمد كريدان: عضواً، والشيخ أحمد عبد العزيز: عضواً. والعرض أو القراءة كان بمعدل حزب يوم بعد يوم، واستمر العرض لمدة ثلاثة أشهر تقريباً.

(1) أيمن رشدي سويد عالم في القراءات العشر، ولد في دمشق في سوريا في: 10 من ذي القعدة: 1374هـ، الموافق: 26، يونيو: 1955م، وهو مستشار في الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لرابطة العالم الإسلامي. شبكة المعلومات الدولية الانترنت.

(2) من موقع المجلس العالمي لشيخو الإقراء، التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة تحت خانة الاستشارات، استشارة (ضرورة مراقبة التسجيلات الصوتية للقرآن الكريم).

(3) آل عمران، من الآية: 187.

وختمه الشيخ طارق دعوب كانت كذلك.

الثانية: كانت برعاية جمعية الدعوة الإسلامية سجلت في لبنان، حيث مكث الشيخ الدوكالي في لبنان شهر ونصف لتسجيلها، أتى بالنسخة الأولى للشيخ مصطفى قشقش لمراجعتها وتصحيحها، كانت للشيخ مصطفى -رحمه الله- بعض الملاحظات، ورجع الشيخ الدوكالي ومعه الشيخ مصطفى، ومعه الشيخ طارق دعوب إلى لبنان لمدة أسبوع؛ لاستدراك هذه الملاحظات والأخطاء⁽¹⁾.

وبعد هذه الرحلة القصيرة في البحث أقول: لا شك أن الاشتغال بكتاب الله تعالى من أفضل الأعمال، وأكثرها ثوابا عند الله تعالى، وأن حافظ القرآن العامل به له منزلة عظيمة عند الله، كما قال النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»⁽²⁾، يقول شيخنا: «لقد أمضيت ما يقرب من خمس وخمسين سنة، وعمري الآن ثمان وستون سنة، ومنذ أن كان عمري أربع عشرة سنة وأنا أزاول واجبي في تحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين، ولم أنقطع عن هذا الواجب...، حتى عندما كنت طالبا للعلم بالزيتونة كنت أقضي العطلات في تعليم القرآن...، ومنذ تخرجي والتحاقني بالوظيفة سنة: 1959م، وحتى يومنا هذا لم أنقطع عن تعليم القرآن وتحفيظه للراغبين.. وشعوري أنني أقضي دينا في عنقي تجاه أبناء المسلمين...، وهو شعور جعلني أخلص لهذه المهنة، فلم أدخل عليها من الاهتمامات الأخرى ما ينقص من نشاطي أو يفسد من تفرغي لأدائها»⁽³⁾، وهكذا فهم شيخنا النفس ومقاومة نزواتها وأهوائها، وهذا سبيل لسعادة الإنسان، وهو في الوقت نفسه من أصعب الأشياء عليه، قال ﷺ: "المجاهد من جاهد نفسه"⁽⁴⁾.

وتحلى بالصبر في أداء رسالته، فالصبر من الأخلاق العظيمة التي من تحلى بها نال العلا، ومعلم القرآن يحتاج إلى الصبر في رسالته العظيمة، وهو من أئمة الدين الذين يحتاجون

(1) أفادني بهذا الشيخ الدوكالي العالم في اتصال هاتفي أجريته معه، يوم الثلاثاء: 4/محرم/1444هـ، الموافق: 2022/8/2م.

(2) صحيح البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه: 6: 192. ح: 5027.

(3) مع الناس، للطاهر النعاس. ص: 150.

(4) سنن الترمذي، كتاب: فضائل الجهاد، باب: فضل من مات مرابطا: 4: 165. ح: 1621، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

للصبر واليقين، وهما ركني الإمامة، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا^ط وَكَانُوا بِأَيْتِنَا يُوْقِنُونَ} (1)، وقال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» (2).

الخاتمة:

تم بعون الله وتوفيقه بلوغ هذا البحث نهايته، ومن أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث ما يلي:

أولاً: النتائج:

1. إن لعصر الشيخ مصطفى د "هجرة والديه وأهله إلى تونس، نتيجة الظروف المعيشية التي فرضها الاحتلال الإيطالي"، كان لها الأثر البالغ في تكوين شخصيته العلمية، ففاضل شيخنا د من أجل حفظ القرآن وتعلم علومه في رحاب جامع الزيتونة.

2. الشيخ مصطفى قشقش د، له دور متميز، وريادي في تعليم القرآن الكريم وعلومه.

3. للشيخ مصطفى أحمد قشقش جهود وإسهامات تذكر فتشكر في توطين رواية قالون والحفاظ عليها، تمثلت في التدريس والتعليم، ومراجعة المصاحف، والتحكيم في المسابقات، والإشراف والمراقبة على الختمات القرآنية.

ثانياً: التوصيات: الباحث وفي خاتمة هذا العمل، يوصي بالآتي:

1. إعلاء شأن معلمي القرآن الكريم، وحفظ مكانتهم بين طبقات المجتمع، بإظهارهم بما يليق بمن يدرّس كتاب الله تعالى.

2. دعوة الجامعات والمراكز البحثية، للعناية بتراث علماء ليبيا الذين هاجروا إلى تونس وغيرها بسبب الظروف التي فرضها الاحتلال الإيطالي، وإصدار موسوعة تستوعب آثارهم.

3. إقامة مزيد مثل هذه المؤتمرات والندوات، لفتح الباب أمام عديد الباحثين، للتعريف بما يمتاز به بلدنا "ليبيا" من أعلام، في جميع مناحي الثقافة العربية والإسلامية.

(1) السجدة: 24.

(2) صحيح مسلم، كتاب: الطهارة. باب: فضل الوضوء: 1: 203. ح: 223.

وفي الختام أقول: والله حسبي أني قد كرّست جهدي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ لإلقاء الضوء على جهود شيخنا، (مصطفى أحمد قشقش) في توطين رواية قالون والحفاظ عليها.

أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره على ما منّ به عليّ من إتمام هذا البحث، وما يسّر لي من جمعه، وأسأله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفّقت في إيراد المطلوب، وأن يغفر لي ما اجتهدت فيه فأخطأت، وما سبق فيه القلم فزلت، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم. اللهم آمين... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، مصحف المدينة النبوية.
- مصحف الجماهيرية برواية قالون عن نافع، جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الثامنة: 2005م.
- القرآن الكريم، مصحف صالح دخيل، أبعاد للخدمات الإعلامية المساهمة، طرابلس، الطبعة الأولى: 1984م.
- 1. أصول رواية قالون من طريق الشاطبية، لمحمد خليل الزروق، دار الساقية للنشر، بنغازي. ط/2: 2007م.
- 2. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة.
- 3. القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب، لعبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي، (المتوفى: 1403هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان. د. ط، د. ت.
- 4. الإتيقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة: 1394هـ، 1974م.
- 5. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبي الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية. د. ت، د. ط.

6. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (المتوفى: 1393هـ)، دار التونسية للنشر، تونس: 1984م.
7. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (المتوفى: 911هـ)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان. ط/3: 1409هـ: 1989م.
8. تعليم القرآن الكريم في ليبيا، إعداد: محمد علي البجراح، مراجعة: محمد الهادي كريدان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ليبيا، د. ت، د. ط.
9. سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي، لأبي القاسم (أو أبي البقاء) علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن، المعروف بابن القاصح العذري البغدادي ثم المصري الشافعي المقرئ، (المتوفى: 801هـ)، راجعه شيخ المقرئ المصرية: علي الضباع، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط/3: 1373هـ: 1954م.
10. سنن ابن ماجه، لابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى: 1430هـ: 2009م.
11. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى، لأبي عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، د. ط.
12. سنن النسائي الكبرى، لأحمد بن شعيب، أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان: بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ.
13. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن سالم مخلوف، (المتوفى: 1360هـ)، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: 1424هـ.
14. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبي الفلاح، (المتوفى: 1089هـ)، حققه: محمود الأرنؤوط، وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى: 1406هـ: 1986م.

15. شرح الدرر اللوامع: مقرأ الإمام نافع، لأبي عبد الله محمد بن علي أبي سعيد الأنصاري الضري، تحقيق: حسني محمد الزبير، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق: سوريا، ط/1: 1440هـ: 2019م.
16. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل، أبي عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى: 1422هـ.
17. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، أبي الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د. ط، د. ت.
18. طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، (المتوفى: 476هـ)، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور، (المتوفى: 711هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت: لبنان، ط/1: 1970م.
19. غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري، عني بنشره: ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان. الطبعة الأولى: 1352هـ: 1933م.
20. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت: 1379هـ.
21. لطائف الإشارات لفنون القراءات، لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني، (المتوفى: 923هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة: 1434هـ.
22. مجلة جامعة الزيتونة، تصدر عن جامعة الزيتونة، ليبيا، العدد الثامن. السنة الثانية، فصل الخريف: 2013م.
23. المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، المعروف بابن البيع، (المتوفى: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان: بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ.
24. معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (المتوفى: 626هـ)، دار صادر، بيروت. لبنان، الطبعة الثانية: 1995م.

25. معجم البلدان الليبية، للطاهر أحمد الزاوي، مكتبة النور، طرابلس ليبيا. ط/1: 1388هـ.
26. معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد عمر، (المتوفى: 1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة الأولى: 1429هـ: 2008م.
27. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة. د. ت، د. ط.
28. مع الناس، للطاهر الطاهر النعاس، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس: ليبيا، 2009م.
29. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1420هـ.
30. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (المتوفى: 748هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 1417هـ.
31. الموسوعة التاريخية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ: علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت: dorar.net.
32. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، لمحمود مقديش، تحقيق: علي الزواري محمد محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت: لبنان، الطبعة الأولى: 1988م.
33. النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن الجزري، تصحيح الشيخ علي محمد الضباع، نشر مطبعة مصطفى محمد البايي الحلبي القاهرة، د. ت، د. ط.

منهج أحمد بن محمد حمادي

في كتابه: "منة الخالق على المخلوق، في إسقاط ما عليه من الحقوق"

د. ضو عمر ضو جماعة/جامعة طرابلس/ كلية التربية – جنزور

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى ﷺ، وعلى آله وصحبه السادة الأُولَى، وبعد:

فإن تتبع كتب علماء أمتنا ودراستها وإظهارها هو في حقيقته حفاظ على تراثها وهويتها، وتخليد لتاريخها ومجدها، ومن هذا التاريخ وهذا التراث ما كتبه علماء ليبيا في كل المجالات، فقد كتب علماءها وألقوا في فروع العلم؛ إيماناً منهم بخدمة الدين العظيم، ونشر العلم والوعي والثقافة، ومن هؤلاء الأعلام الشيخ: أحمد بن محمد بن حسن بن حمادي -رحمه الله تعالى-، فقد ألف كتباً كثيرة في الفقه والتصوف، ومن هذه الكتب كتاب: (منة الخالق على المخلوق في إسقاط ما عليه من الحقوق)، فهو كتاب مهم جداً في باب، حيث بين فيه فضل الله ومنتته على خلقه في تشريع عبادات وأذكار وأوراد تسقط ما عليهم من الحقوق والواجبات، إذا فاتهم أداؤها، وقد رأيت أن أدرس منهج الشيخ في كتابه هذا؛ إبرازاً لجهود علماء ليبيا في خدمة الدين، والمحافظة على الهوية، وإحياء مؤلفاتهم، والإشادة بجهودهم.

أما إشكالية البحث فهي تكمن في: ما مدى التزام المؤلف بالمنهج العلمي في تأليف الكتب، وما أهم ما يميز هذه الرسالة من حيث فائدتها في بابها، وحاجة الناس إلى مثل هذه المؤلفات. هذا وستكون خارطة هذا البحث كالتالي:

المبحث الأول: "نشأة المؤلف، ومكانته العلمية، من خلال الإشارة إلى: اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته، ووفاته، وتوضيح مكانته العلمية، بذكر شيوخه، ومؤلفاته، وتلاميذه.

ثانياً: الحديث عن منهج المؤلف في كتابه، بالتعريف بالكتاب، وطريقته في عرض المسائل، والاستدلال بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والأئمة والعلماء، وطريقة إيراد الأحاديث، والحكم عليها، وشرح النصوص والمفردات، والمصادر التي اعتمد عليها، ثم ختمت ذلك بذكر الملاحظات على الكتاب.

والله أسأل أن يوفقني إلى كل خير، ويبعد عني كل شر، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: نشأة المؤلف ومكانته العلمية:

- اسمه، ونسبه⁽¹⁾: هو الشيخ أحمد بن محمد بن بلعيد بن محمد حمادي، أصله من قبيلة البراهمة، الكائنة بمدينة زليتن، الواقعة شرق طرابلس الغرب⁽²⁾.

- مولده، ونشأته، والزمن الذي عاش فيه: ولد بمنطقة الهنشير، إحدى مناطق سوق الجمعة بطرابلس⁽³⁾، وقد نقل الدكتور جمعة الزريقي عن ابن صاحب الترجمة الشيخ: شكري بن حمادي في مقابلة خاصة أن مولد أبيه كان سنة: 1281هـ: الموافق: 1874م⁽⁴⁾، وقد ذهب محقق كتاب المدد الفاضل، وهو من أقارب المؤلف إلى أن مولد الشيخ كان سنة: 1291هـ: 1874م، بناءً على أنه صدرت للمؤلف بطاقة سنة: 1919م، وقد ورد فيها أن عمره: (45) سنة، وأيضاً على رواية بعض معاصري الشيخ التي تقول: إنه توفي وعمره: (74) سنة، ولما كان الثابت أنه توفي سنة: 1948م فيكون تاريخ ميلاده: 1874م⁽⁵⁾، والذي أُرجمه هو التاريخ الذي ذكره الدكتور الزريقي، الذي نقله عن ابن المؤلف؛ لأن الابن هو الأقرب إلى أبيه، وهو أدرى بأبيه من أي أحد.

أما والدته فهي السيدة فاطمة بنت الشيخ محمد الزواوي، وقد تزوج من السيدة منونة بنت الحاج عبد الله أبي حفص، وقد رزق بأربعة أولاد، هم: محمد، وشكري، وخيرية، والطاهر⁽⁶⁾.

عاش الشيخ في شط الهنشير، ولم يغادره إلا لفريضة الحج، أو لزيارة أقاربه في مدينة

1. ينظر: مقدمة تحقيق حادي العقول إلى بلوغ المأمول، ومقدمة تحقيق المدد الفاضل في علم الفرائض، ومقدمة تحقيق صلوات الرب في الصلاة والسلام على أشرف العجم والعرب، وتراجم ليبيية.

2. مدينة زليتن: تقع على الساحل الغربي لليبييا، على مسافة: (150) كم تقريباً، شرقي العاصمة طرابلس، تحدها من الغرب مدينة الخمس، ومدينة مصراتة شرقاً، ومدينة بني وليد جنوباً، والبحر المتوسط شمالاً، وقد اشتهرت المدينة بكونها المركز العلمي الأبرز في البلاد لتعليم الفقه المالكي وتحفيظ القرآن الكريم، في واحدة من أهم المؤسسات التعليمية في البلاد على مر: (500) عام، وهي زاوية سيدي عبد السلام. ينظر: معجم البلدان الليبية، ص: 170.

3. سوق الجمعة: ضاحية من ضواحي طرابلس، وهي من أكبر المناطق في طرابلس. ينظر: المصدر السابق، ص: 197.

4. ينظر: مقدمة تحقيق كتاب حادي العقول إلى بلوغ المأمول، ص: 63، وقد أجرى هذه المقابلة بتاريخ: 15-1-1994م.

5. ينظر: مقدمة تحقيق المدد الفاضل، ص: 41.

6. ينظر: المصدر السابق.

زليتن، فلم تكن له أي رحلات لأي مكان لا لطلب العلم ولا لغيره.

وقد أرجع الدكتور الزريقي سبب عدم خروج الشيخ من شط الهندشير لأخذ العلم عن العلماء والمشايخ، الذين ذكرهم الشيخ وترجم لهم في كتابه الذي جعله ترجمة لشيخه الأمين الذي سنذكره من ضمن شيوخه، أرجع ذلك إلى أن منطقة الهندشير فيها كثير من الشيوخ، فاكتفى ابن حمادي بالتلقي عنهم، وربما أيضا بسبب التربية الصوفية التي تلقاها عن شيخه الأمين، فهو أن الشيخ ابن حمادي لا يستطيع مخالفة أستاذه الشيخ الأمين بحسب التربية الصوفية المعروفة، حيث إنه حفظ الصلاة المشيشية، فأخبر شيخه فنهروه عن ذلك⁽¹⁾، وقد ذكر ابن حمادي ذلك في كتابه المشار إليه⁽²⁾.

جد المؤلف هو: الشيخ حسن بن بلعيد بن حمادي، وهو من علية القوم في مدينة زليتن، حيث قام حاكم طرابلس يوسف باشا القره مانلي سنة: 1806م بتعيينه إماما لجامع أولاد ابن حمادي في قبيلة البراهمة بزليتن، وذلك من خلال كتاب رسمي مرسل إلى الشيخ، جاء فيه: "إن حامل هذا الأمر الكريم، الواجب له القبول والتعظيم، الأجل الفاضل الفقيه النبيه العدل النزيه محبنا سيدي حسن بن أبي العيد بن حمادي، قد أردنا رفع شأنه، وإعلاء مكانه، بأن أوليناه إماما في الجامع المذكور، يؤم بكم الأوقات الخمسة والجمعة، على حسب عادة الأئمة"⁽³⁾، وهذا يدل على مكانة الشيخ حسن حتى عند السلطات العليا في البلد، وأيضا على علمه وفقهه، ولا غرو في ذلك، فهو يعيش في مدينة زليتن المليئة بالمنارات العلمية والزوايا والعلماء.

أما والده فقد حفظ القرآن الكريم، ثم درس على والده وعلى شيوخ العلم ببلده زليتن، ثم أرسله أبوه إلى مدرسة أبي راوي في تاجوراء، وهي إحدى المنارات العلمية النشطة بالعلم في ذلك الوقت، وما زالت موجودة إلى الآن، وعن طريقها اتصل ببعض الشيوخ وطلبة العلم بمنطقة سوق الجمعة وشط الهندشير بطرابلس، ومن هنا تبدأ قصة وجود أسرة المؤلف في هذه المنطقة، حيث ذكر ابن المؤلف الشيخ شكري - رحمه الله - كما رواه عنه الدكتور الزريقي ونقله في مقدمة تحقيق كتاب حادي العقول: أن إمام جامع الشط بالهندشير رغب في أداء فريضة

1. ينظر: مقدمة تحقيق كتاب حادي العقول، ص: 62.

2. ينظر: المصدر السابق.

3. المصدر السابق، ص: 64، نقلا عن ابن المؤلف من خلال صورة ضوئية للأمر الصادر من يوسف باشا.

الحج، فأنا ب عنه الشيخ محمد بن الحسن والد المؤلف، وبعد إلحاح شديد وافق الشيخ محمد بعد استشارة والده، وقَبِلَ بالمهمة، ثم شاءت إرادة الله أن يتوفى إمام المسجد المذكور في الحج، وعندها أصبح والد المؤلف إماماً رسمياً ودائماً لهذا المسجد، وبني له الأهالي مسكناً بالقرية، ويعد هذا هو السبب في وجود أسرة ابن حمادي في طرابلس⁽¹⁾.

ولم يتول الشيخ أي وظيفة دينية ولا غيرها، بل كان يعمل بالتجارة في دكان صغير بمنطقة الهندشير، وأيضاً اشتغل قليلاً في زراعة الأرض، كما ذكر بنفسه في كتابه منح رب العالمين⁽²⁾.

ويعد الشيخ من منتسبي الطريقة القادرية، التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني: (ت: 561هـ)⁽³⁾، وقد أخذها عن شيخه محمد الأمين، وأيضاً ربما جمع معها الطريقة العروسية، التي يجتمع مع أحد أعلامها كل ليلة اثنين، وليلة جمعة، وهو الشيخ: محمد بن عبد المولى الهندشيري بالزاوية العروسية القريبة من جامع بيت المال⁽⁴⁾.

أ. أما العصر الذي عاش فيه صاحب الترجمة فهو عهد أواخر الدولة العثمانية، وعهد الاحتلال الإيطالي، حيث شهدت طرابلس خلالهما مرحلة صعبة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، فهي مرحلة أفول دولة ودخول استعمار بغيض، فلا استقرار سياسياً ولا أمنياً، ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك تطور اقتصادي، ولا استقرار اجتماعي، ولا انتشار علمي ولا ثقافي، ومع ذلك حرصت الزوايا العلمية المنتشرة في البلاد على تماسك هويتها الدينية والثقافية، التي كان من أشهر أعلامها الشيخ: أحمد بن حمادي، مترجمنا، فهو يعد من العلماء الذين حافظوا على هذه الهوية وذلك من خلال تدريس الطلبة، وتأليف الكتب وإقامة حلق الذكر، والعلم والدعوة.

- شيوخه: أخذ ابن حمادي العلم أولاً على والده، وعنه قال في كتابه: "منح رب العالمين

1. ينظر: المصدر السابق، ص: 65 - 66، وتراجم ليبية، ص: 130-131.

2. ينظر: تراجم ليبية، ص: 133.

3. هو الشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسيني، الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، تصدر للتدريس والإفتاء في بغداد، سنة: 528هـ، وتوفي بها. ينظر: طبقات الأولياء، ص: 264، والأعلام: 47/4.

4. ينظر: تراجم ليبية، ص: 133، ومقدمة تحقيق صلوات الرب، ص: 11، ومقدمة تحقيق الممد الفائض، ص: 74 - 75.

في ترجمة شيخنا الأمين"، عند ذكره لمشايخ صاحب الترجمة - الشيخ الأمين -: "ومن مشايخه والدي محمد بن حمادي، وكان الأستاذ يثني بالخير والعلم والورع والزهد كثيرا عليه، ويشهد له بقوة النقل والذكاء والحفظ، وقال لي مرة: قال والدك يا محمد: من نعم الله عليّ لم أخرف، فجميع حواسي سليمة حتى أسناني، وأعرف المسائل على من تلقيتها، وأين قرأتها، بحمد الله... وقد توفي وعمره نحو ست وتسعين سنة"⁽¹⁾، ثم أخذ بعد ذلك عن عدد من الشيوخ، منهم:

- الشيخ محمد الأمين بن إبراهيم بن حسن العالم: (ت: 1342هـ: 1922م)، الذي برز في علوم الفقه والتوحيد والتصوف، حيث تولى الإفتاء رسميا في منطقة الساحل سنة: (1332هـ: 1914م)، وهو الذي لقن ابن حمادي الطريقة الصوفية، ورباه عليها⁽²⁾، وقد وضع المؤلف له كتابا خاصا في ترجمته، هو الكتاب الذي سبق ذكره، وسيأتي ذكره عند سرد مؤلفاته.

- الشيخ محمد عبد المولى الهنشيري: (ت: 1345هـ: 1927م)، هو شيخ الزاوية العروسية بمحلة الهنشير، وقد ذكر المؤلف شيئا من سيرته، فقال: "كان شيخنا الشيخ محمد بن عبد المولى ممن اتفق على علمه وورعه وزهده وعبادته وسخائه وبشاشته ومرؤته وكرمه، وتسليمه للقضاء والقدر والرضا به، وبما قسمه الله تعالى، وقيامه بوظائف الدين، ووقوفه عند الحدود الشرعية، شديد التمسك بمذهب سيدنا مالك بن أنس -رضي الله عنه وأرضاه-، ولا يميل إلى القول الضعيف، ولا التلفيق، ولا تتبع الرخص؛ لغرض في النفس، ولا يحب التقليد، للخروج من الخلاف مكتفيا باجتهاد إمامه"⁽³⁾، ومما قال عنه أيضا: "كان مداوما في إعطاء الدروس للطلبة، ولم أتذكر أنه ترك الدرس مرة أبدا زمن حضوري معه، ولا فاتني درس في كتاب حضرته عليه"⁽⁴⁾، ومن هذا الكلام يُعلم شدة ملازمة المؤلف للمشايخ، والحرص على الأخذ عنهم.

- الشيخ عبد الرحمن بن محمد البوصيري الغدامسي: (ت: 1354هـ: 1935م)، من أهل العلم والتأليف، كثير الرحلات، له كتاب منشور، هو: "مبتكرات اللالي والدرر لمحاكاة بين العيني

1. مقدمة تحقيق المدد الفائض، ص: 43.

2. ينظر: مقدمة تحقيق حادي العقول، ص: 67، وما بعدها، وتراجم ليبية، ص: 122، ومقدمة تحقيق المدد الفائض، ص:

44 - 45، ومقدمة تحقيق صلوات الرب، ص: 11.

3. مقدمة تحقيق حادي العقول، ص: 69، نقلا عن كتاب: منح رب العالمين، للمؤلف ص: 46.

4. المصدر السابق، ص: 70.

وابن حجر"، توفي بطرابلس وهو من الذين رثاهم المؤلف بعد موتهم⁽¹⁾.

- الشيخ محمد الضاوي بن يوسف الصادي: أخذ عنه بعض الدروس، توفي سنة: (1330هـ: 1911م)⁽²⁾.

- الشيخ محمد بن أحمد بن إبراهيم العالم الكراتي: (ت: 1354هـ: 1935م)، ذكره المؤلف في كتابه الذي بين أيدينا: (منة الخالق)، حين الحديث عن حكم الذكر خلف الجنائز⁽³⁾.

- الشيخ محمد بن أحمد العكاري: (ت: 1312هـ: 1895م)، له عدة مؤلفات في العقيدة والتصوف والعبادات والفرائض واللغة⁽⁴⁾.

ومن خلال هذا السرد المختصر لشيخ المؤلف يتضح أنه تلقى العلم الشرعي وعلوم اللغة والتصوف عن هؤلاء الجلة، الذين جمعوا بين الفقه والتصوف، بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، ولهذا برز الشيخ في جانب التصوف، "فهو يرى التصوف في ملازمة الكتاب والسنة، وتعظيم حرمت الشرع، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمداومة على ذكر الله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والإخلاص لله تعالى في العلم والعمل وسائر الأحوال، مع التفقه في الدين، فالتقوى عنده لا تحصل إلا بالعلم، ويعده من لوازم التصوف، ويعبر عنه بالمنهاج، وبإمام العمل، وهو بهذا يعد من أنصار القول بوحدة الشريعة والطريقة"⁽⁵⁾.

- تلاميذه: لم يذكر المؤلف في كتبه أن له تلاميذ مع أنه كان يعقد دروساً منتظمة في بيته وفي عديد المساجد، وربما كان اهتمامه بالتأليف وحضور جلسات الذكر، أكثر من التدريس؛ ولهذا لم يكن له تلاميذ كثير، إذا ما استثنينا أولاده محمد: (ت: 1400هـ: 1980م)، وشكري: (ت: 1416هـ: 1996م)، والشيخ: محمد عياد الأرنؤوط: (1389هـ: 1996م).

- مؤلفاته ونشاطه العلمي: يظهر مما سنذكره من مؤلفات الشيخ أنه برز في جانب التصوف أكثر من غيره، ومع هذا فقد ألّف في الفقه والفرائض والتوحيد والتراجم والرسم القرآني، وتميز

1. ينظر: مقدمة تحقيق المدد الفائض، ص: 48.

2. ينظر: المصدر السابق، ص: 49.

3. ينظر: المصدر السابق: 50 - 51.

4. ينظر: المصدر السابق، ص: 50، وتراجم ليبية، ص: 120.

5. مقدمة تحقيق المدد الفائض، ص: 70-71.

بكثرة في المنظومات العلمية والقصائد المدحية، حيث عارض بعض القصائد المشهورة، ونحس بعضها، فكتابه حادي الأرواح خير دليل على ذلك. ومن هذه المؤلفات:

1. كتاب: "صلوات الرب في الصلاة والسلام على أشرف العجم والعرب"، مطبوع ومتداول، بتحقيق الدكتور إبراهيم الحواسي، وواضح من خلال العنوان أنه في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، حيث جاء الكتاب في ثلاثة فصول: الأول: في فضل الصلاة النبي، وما ورد فيها من الأحاديث الشريفة. والثاني: فيما قاله فيها بعض السادة العلماء نثرا ونظما. والثالث: في صيغ قائلها بعض العارفين⁽¹⁾.

2. كتاب: "أسمى الوسائل في الصلاة والسلام على أشرف الوسائل: ويقع في (100) صفحة، وهو بخط المؤلف، وانتهى من تأليفه بتاريخ: (2: ذي الحجة: 1343هـ: 1925م)، وهو ما زال مخطوطا⁽²⁾.

3. كتاب: "ورد الحبيب في الصلاة والسلام على المنبئ بالغيب"، وهو مكتوب بخط المؤلف، ويتكون من: (25) صفحة، انتهى من تأليفه سنة: (1344هـ: 1926م)⁽³⁾.

4. كتاب: "المدد الفائض في خلاصة علم الفرائض"، وهو كتاب في علم الميراث، وقد انتهى من تأليفه سنة: (1333هـ: 1915م)، وهو مطبوع بتحقيق الأستاذ: مصطفى الصادق طابله، ونال به درجة الماجستير من جامعة طرابلس، وطبع سنة: 2006م.

5. كتاب: "منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين"، وهو موجود، بخط الأستاذ: محمد بن علي أصباكة، يقع في: (88) صفحة، وهو عبارة عن ترجمة لشيخ المؤلف الشيخ: محمد الأمين بن إبراهيم العالم الذي سبقت الترجمة له⁽⁴⁾.

6. حادي العقول إلى بلوغ المأمول، يضم موضوعات مختلفة في العقيدة والتصوف والمديح الذي كان الغالب في هذا الكتاب، وقد قام بتحقيقه الدكتور جمعة الزريقي، وطبعته جمعية الدعوة الإسلامية.

1. ينظر: مقدمة تحقيق الكتاب، ص: 8.

2. ينظر: مقدمة تحقيق حادي العقول، ص: 76، ومقدمة تحقيق صلوات الرب، ص: 14.

3. ينظر: المصدران السابقان.

4. ينظر: مقدمة تحقيق حادي العقول، ص: 78 - 79، وتراجم ليبية، ص: 139 - 140.

7. "تذكرة الولدان في حذف الإشارة لكلمات القرآن"، وهو نظم من سبع وتسعين بيتا من الرجز، وهو عبارة عن توضيح للحروف المحذوفة في رسم أبي عمرو الداني، وقد نشر هذا الكتاب ابن المؤلف الشيخ: شكري بن حمادي، عن طريق مكتبة النجاح بطرابلس، ثم أعادت جمعية الدعوة الإسلامية نشره سنة: 1997م⁽¹⁾.

8. "رسالة في بيان أحكام البيوع"، نال بتحقيقها الأستاذ: أحمد سالم الخمائي درجة الماجستير من كلية التربية، بجامعة الزاوية، سنة: 1996م.

9. "وسائل القبول في الصلاة والسلام على سيدنا الرسول -ﷺ"، في خمسين صفحة، وهو مخطوط.

10. "كتاب: مناسك الحج وما يناسبه من الدعاء نظما ونثرا"، وهو صغير الحجم يقع في ست وعشرين صفحة.

11. "منة الخالق على المخلوق في إسقاط ما ذمته من سائر الحقوق"، وهو موضوع دراستنا هذه.

فهذه أهم مؤلفات الشيخ، التي يظهر من خلالها أنه كان عالما صوفيا، "وهو ينسب إلى الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله-، وهي من الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي، وقد أعطانا فكرة عن فروع هذه الزاوية في مدينة طرابلس، في كتابه منح رب العالمين ...، ولم يقتصر الشيخ أحمد بن حمادي على دراسة علم التصوف، بل عكف على دراسة بعض الكتب الفقهية، مثل: حاشية الشيخ حسن العدوي الحمزاوي، ومختصر خليل، وغيرها مما ذكره في مؤلفاته، ومن خلال تلك المؤلفات يتضح أن شيخنا لا يفتر على النظر في كتب الفقه والتأليف الكثيرة التي كانت متداولة في عصره، ويطالعها مطالعة المتمعن المدقق، ويتردد على شيخه باستمرار، ويسأله عن كل ما يعن له من أمور الفقه والتصوف، ويضع على الكتب التي يطالعها طورا، وتهميشات، وتعليقات، ولم يكتف بذلك، بل أسهم في ميدان المعارف، فقام بالتأليف، وترك لنا مجموعة من الكتب، تدل على علو شأنه، وطول باعه في المجالات التي درسها وأخذ من معينها؛ وذلك جريا على سنة العلماء العاملين من أبناء هذه البلاد"⁽²⁾.

1. ينظر: مقدمة تحقيق حادي العقول، ص: 80، ومقدمة تحقيق صلوات الرب، ص: 13.

2. تراجم لبيبة ص: 133 - 134.

- وفاته: توفي الشيخ المؤلف - رحمه الله - أحمد بن محمد بن حمادي، وهو ساجد في الركعة الأخيرة من صلاة العصر، يوم السبت: (5/ربيع الآخر: 1369هـ: 14/2/1948م)، ودفن في مقبرة الهنشير، وقد كُتب على قبره هذه الأبيات⁽¹⁾:

هذا الضريح لأحمدا مدّاح خير العالمين
لبي المهيمن ساجدا لما رأى عين اليقين
والحظ أقبل وافرا ولنعم دار المتقين

المبحث الثاني: منهج ابن حمادي في كتابه منة الخالق على المخلوق:

أولاً: التعريف بالكتاب: هذه الرسالة صغيرة الحجم، كبيرة النفع تقع، في تسع وثمانين صفحة، انتهى المؤلف من تأليفها صبيحة الأربعاء ثاني محرم الحرام، سنة: 1350هـ، وقد خرجها من المبيضة مع بعض الزيادات والتقديم والتأخير، ليلة السبت التاسع من جمادى الثانية، سنة: 1362هـ: 1/1/1943م⁽²⁾، والآن يقوم أخوان صديقان بتحقيق هذا الكتاب يسر الله لهم ذلك.

ويدور فحوى موضوعها على أحكام قضاء حقوق الله تعالى وحقوق العباد المتعلقة بذمة الإنسان حال حياته وبعد مماته، وكيف يفدي الإنسان نفسه من هذه الحقوق، وذلك من خلال أدائها في وقتها، وإذا فات وقتها فعليه قضاؤها في حياته، وبعد مماته عن طريقة الوصية، وتضمن الكتاب أحكام الصدقة على الميت والفدية والكفارات التي تبرأ بها ذمة الإنسان من الحقوق المتعلقة بها، وكيف أن الكفارة تُبرئ ما في ذمته، ولو من وارث أو وصي، وعلى إثر ذلك تكلم عن الذكر وأحكامه، وما يعرف في بلدنا: (بالتاليف) الذي يجري للميت، ثم الحديث عن الحياة البرزخية والقبر، وأحكام تكفين الميت ودفنه وزيارة المقابر، وسؤال الملكين، كل ذلك متبوعاً بالاستدلال ونقل آراء العلماء وأهل الاختصاص، وخاصة ممن برز منهم في التصوف.

ثانياً: منهجه في عرض المسائل والموضوعات: حيث يعرف بالموضوع أو المسألة التي يريد دراستها، بعد أن يضع لها عنواناً تحت تقسيم فصل أو فائدة أو تنبيه، ذاكرة فيه كل ما يلزم من

1. ينظر: المصدر السابق

2. ينظر: ص: 78، من الكتاب.

أحكام وأدلة، وغير ذلك مما يناسب المقام، فمثال ذلك: "فصل: فيما يتعلق بالميت حال الموت وبعده من قراءةٍ وصدقةٍ ودعاءٍ وتلقينٍ وزيارةٍ وتعزيةٍ، وغير ذلك" (1).

ثم بدأ بتعرف الموت حيث قال: "الموت"، وحقيقته: كيفيةٌ وجوديةٌ تضادُ الحياة، فلا يعرى الجسم الحيواني عنهما، ولا يجتمعان فيه، ويشهد لهذا قوله - تعالى -: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (2)، والخلق: الإيجاد، ويستلزم كونه موجوداً، وفي الصحيحين: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحٍ...» (3)، وتكلم عن ساعة الاحتضار، حيث وصف حال المسلم والكافر عند خروج الموت، وأورد الأحاديث التي تبين حالهما، ثم ذكر فضل تتبع الجنائز وأحكام ذلك، وأورد فيها حديثاً للبخاري، ثم أتبعه بالشرح، وذكر كلام العلماء في مسألة الذكر في تتبع الجنائز، وهكذا إلى أن وصل إلى ما بعد الدفن، حيث تكلم عن حكم الجلوس على القبر، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الفصل.

ومنهجه هنا في الغالب منهج علمي واضح، فلا يدخل تحت عنوان الفصل ما ليس منه، ولا ينقص منه شيء، لكنه في بعض الأحيان إما أن يدخل في الفصل مسائل لا علاقة لها بالعنوان، وذلك كما فعل في أول الكتاب حيث تحدث عن الوصية، وأنها مطلوبة كما في الصحيحين، وحكم من لم يوص، وأنها من خصائص الأمة، ثم جاء بكلام عن حكم تقليد الغير في مذهبه، وتكلم عن تقليد المذهب الحنفي، ثم ذكر مسألة الفتوى، وهل تكون بالمشهور أو الراجح؟ (4)، وهما مسألتان أصوليتان، لا موجب لذكرهما هنا.

ثالثاً: منهجه في الاستدلال: ويقوم هذا المنهج على الآتي:

- الاستدلال بالقرآن الكريم: يمكن القول إن ابن حمادي - رحمه الله - قد أكثر من الاستدلال بالقرآن في الأحكام التي يطلقها على المسائل المذكورة في ثنايا هذا الكتاب، حيث استدلل بالقرآن في أكثر من أحد وعشرين موضعاً، وقد يحشد في الموضع الواحد عدة آيات، وهذا يدل على اهتمامه بالمصدر الأول من مصادر أدلة الأحكام الشرعية.

1. منة الخالق، ص: 40.

2. الآية: (2)، من سورة الملك.

3. منة الخالق، ص 40.

4. ينظر: المصدر السابق، ص: 5-6.

ومن أمثلة ذلك: ذكره لثلاث آيات في مسألة (أن الذكر سبب حياة القلب)، حيث قال: "وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾⁽¹⁾ بالعلم، كان ميتاً بالمعصية، فأحييناه بالطاعة، كان ميتاً بالكفر، فأحييناه بالإيمان"⁽¹⁾، وذكر أيضاً: "وأجمع المفسرون على أن قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾⁽²⁾، على أن المراد حياة القلب، لا حياة الجسم؛ لأن من كان جسمه حياً وقلبه ميتاً فهو كالعدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾⁽³⁾،⁽⁴⁾ ويمكن القول هنا أنه جرى على منهج تفسير القرآن بالقرآن وهو من أعظم طرق التفسير كما هو معلوم.

وأيضاً استدل بسبع آيات عند كلامه عن الذكر وحكمه وصفته وفائدته وعقوبة تاركه، فهذا أيضاً يدل على اهتمامه بالاستدلال بالقرآن الكريم⁽⁵⁾.

واستعمل الشيخ أيضاً طريقاً آخر من طرق تفسير القرآن، وهو تفسيره بالسنة، كما في إيراده لحديث: "ما من مؤمن إلا وله بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكياً عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾⁽⁶⁾،⁽⁷⁾.

وأيضاً استعمل الشيخ طريق تفسير القرآن بقول الصحابي، من ذلك ما جاء في قوله: "قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾⁽⁸⁾، وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾⁽⁹⁾، لم يفرض الله فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم به في الأحوال كلها، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا

1. المصدر السابق، ص: 37.

2. من الآية: (70)، من سورة يس.

3. من الآية: (44)، من سورة الفرقان.

4. منة الخالق، ص: 37.

5. ينظر: المصدر السابق، ص: 32.

6. من الآية: (44)، من سورة الدخان.

7. منة الخالق، ص: 42.

8. من الآية: (103)، من سورة النساء.

9. من الآية: (41)، من سورة الأحزاب.

وَقُعُودًا⁽¹⁾، وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾⁽²⁾، أي: بالليل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال⁽³⁾.

وأيضاً فسره بأقوال التابعين، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾⁽⁴⁾، حيث أورد قول مجاهد: "ما مات مؤمنٌ إلا بكت عليه السماء والأرض، أربعين صباحاً، فقيل: أو تبكي؟ فقال: وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالسجود والركوع، وما للسماء لا تبكي على عبدٍ لتسيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل"⁽⁵⁾.

هذا ويلاحظ على المؤلف أنه لم يعز أي آية استدلال بها في كتابه بذكر السورة التي وردت فيها ورقها فيها.

- الاستدلال بالسنة: وذلك في عدة مسائل:

1. المسألة الأولى: الإكثار من الاستدلال بالسنة: علينا أن نجزم أن ابن حمادي قد أكثر من الاستدلال بالمصدر الثاني من مصادر التشريع، فهو لا يكاد يذكر مسألة إلا ويذكر لها من أدلة السنة ما يكفي للاستدلال لها، بل إنه استفتح أول مسألة بدأ بها كتابه بحديث جاء في الصحيحين، وأردفه بحديث ورد في صحيح مسلم.

والدليل على إكثاره من الاستدلال بالسنة أنه ذكر أكثر من سبعين حديثاً ورواية في ثنايا هذه الرسالة الصغيرة، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شدة اهتمامه بسنة المصطفى وحبها، وإقرار الأحكام وفق ما تقره السنة المطهرة، حتى إنه - رحمه الله - يحشد في الموضوع الواحد عدة أحاديث، ومن أمثلة ذلك ما ساقه في مسألة استحباب التعزية حيث أورد حديث: "من عزى بمصيبة كساه الله من حُلل الكرامة يوم القيامة"، وحديث: "من عزى مصاباً فله مثل أجره"، وحديث: "من عزى ثكلى كُسي بُردين في الجنة"⁽⁶⁾.

1. من الآية: (103)، من سورة النساء.

2. من الآية: (41)، من سورة الأحزاب.

3. منة الخالق، ص: 32.

4. من الآية: (44)، من سورة الدخان.

5. منة الخالق، ص: 51.

6. المصدر السابق، ص: 53.

- المسألة الثانية: طريقة إيراده للأحاديث، والحكم عليها: الغالب على المؤلف أنه يذكر الكتاب الذي نخرج فيه الحديث، ومثال ذلك ذكر عند الوصية، وهي أول مسألة بدأ بها كتابه، حيث صدرها بحديث ورد في الصحيحين، فقال: "الوصية مطلوبة في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما حقّ) أي: ما الحزم والاحتياط؟؛ لأنه قد يفجأ الموت ليس عنده وصية، فالذي لا يريد الوصية أصلاً أشدّ ذمّاً ممن يريدّها ويؤخرها زمنًا كثيرًا، (امرئ مسلم تمرّ عليه ثلاث ليالٍ إلا ووصيته عنده)، قال ابن عمر: فما مرّت عليّ ثلاث قطّ إلا ووصيتي عندي"⁽¹⁾، وفي الصفحة نفسها وفي المسألة ذاتها ذكر حديث مسلم، فقال: "وفي صحيح مسلم: "ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبةً عند رأسه"، وفي رواية: "ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به .. إنخ، أي: ليس من حقه أن يبيت ليلتين دون أن يكتب وصيته"⁽²⁾.

ولكن يمكن القول: إن ابن حمادي لم يلتزم بهذا المنهج في كل الكتاب، ففي بعض الأحيان لا يذكر المصدر الذي ورد فيه الحديث، وإنما اكتفى بذكر راوي الحديث فقط، مثال ذلك قوله: "ما رواه أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، ومن قالها أربعاً أعتق الله تعالى من النار"⁽³⁾، فهنا لم يخرج الحديث، وإنما اكتفى بذكر الراوي فقط.

ومن ذلك أيضاً ذكره لحديث آخر، حيث قال: "ونصّه عن أبي الدرداء رفعه: «من قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، أعتق الله ربعه من النار، ولا يقولها اثنتين إلا أعتق الله شطره من النار، وإن قالها أربعاً أعتق الله من النار»"⁽⁴⁾.

- المسألة الثالثة: الحكم على الأحاديث والآثار التي استدلت بها: لم يذكر ابن حمادي في المقدمة منهجه في هذه المسألة، ولكن من خلال تتبع الكتاب وجدت أن منهجه - في الغالب

1. المصدر السابق، ص: 3.

2. المصدر السابق.

3. المصدر السابق، ص: 23.

4. المصدر السابق، ص: 28.

- لا يبين درجة الحديث من حيث الصحة وغيرها إلا في بعض الأحيان القليلة، مع أنه استدل وأورد أحاديث كثيرة، منها الضعيف والموضوع، ومع ذلك فإنه أحياناً يطلق الحكم على بعض الأحاديث التي يوردها، من ذلك عند ذكره لحديث ما يقوله المسلم بعد عصر الجمعة: "وإن كان يوم الجمعة بعد العصر تقولها ألفاً؛ لأنها فديةٌ كما مرَّ، ثم تزيد: «عدد خلقه»، إنلخ ثلاثاً، ثم تقول: «لا إله إلا الله والله أكبر» أربعاً، وإن كان الحديث بها ضعيفاً، ونصه عن أبي الدرداء رفعه: «من قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، أعتق الله ربعه من النار، ولا يقولها اثنتين إلا أعتق الله شطره من النار، وإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار»⁽¹⁾، فهنا حكم على حديث أبي الدرداء بالضعف، وإن كان هذا الكلام جاء في نص نقله حرفياً عن غيره.

ومن ذلك أيضاً حكمه على حديث ورد في الجامع الصغير: «رُبَّ أشعثٍ أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»، ولفظ الجامع الصغير: «رُبَّ أشعثٍ أغبر ذي طمرين، تنبو عنه أعينُ النَّاسِ، لو أقسم على الله لأبر» صحيح، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ ذي طمرين لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبره»⁽²⁾. وأيضاً حكم على أثر عند طاووس بأنه صحيح، وذلك عند كلامه عن حكم تصبيح القبر، فقال: "فتصبيح قبر الميت عمل السلف سبعة أيام، والأصل فيه أثر طاووس، وهو صحيح مرفوعٌ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"⁽³⁾.

هذا والجدير بالقول هنا أن ابن حمادي لم يذكر أي مصدر رجع إليه في حكمه على الأحاديث التي أصدر الحكم عليها.

- مسألة شرح مفردات الحديث والكلام عليها: يعلق - رحمه الله - على الأحاديث التي يوردها بالشرح، ويبين بعض المفردات المشككة فيها، وهذا يدل على سعة علمه واهتمامه بالمعاني، وما تؤدي إليه في فهم معنى الحديث، مثال ذلك: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»، ووصفهما بالخفة والثقل؛ لبيان قلة العمل وكثرة الثواب، «حبيبتان»، أي: محبوبتان، والمعنى: محبوب قائلهما، «إلى الرحمن»، ومحبته تعالى للعبد إرادة إيصال الخير له والتكريم، واختيار اسمه، «الرحمن» دون بقية الأسماء إشارة إلى سعة الرحمة، فلا تستكثر هذا الثواب

1. المصدر السابق.

2. المصدر السابق، ص: 67.

3. المصدر السابق، ص: 83.

العظيمَ على هذا اللفظ القليل؛ لأنه تعالى واسعُ الرحمة، كثيرُ العطاءِ والتَّفضُّلِ والإحسان، «سبحان الله وبحمده»، أي: أُسبِحُ الله، أي: أُنزِّهه عن كلِّ نقصٍ، وكَمالِ خاطرٍ بالبال، متلبِّساً بحمده من أجل توفيقه، «سبحان الله العظيم»⁽¹⁾.

ومن ذلك أيضاً عند الحديث عن فدية قراءة سورة الإخلاص، وتحديدًا عند ذكره لثالث نوع من أنواع فدية هذه السورة، أورد حديث: «من قرأ قل هو الله أحد مائة ألف مرة أعتقه الله من النار، وتحمل عنه التبعات». والتَّبعاتُ بكسر الموحدة: الظُّلَامَةُ⁽²⁾.

وأيضاً: "وقال: «من عرَّى ثكلى كُسي بُردين في الجنة»، والثكلى: فاقدةُ الولد، والبُردين بالضم: ثوبٌ مخطَّط، والمراد: يُكسى من ثياب الجنة الفاضلة»⁽³⁾.

- مسألة إيراد الروايات والألفاظ المتعددة والموضحة للحديث: كثيراً ما يورد المؤلف روايات متعددة للحديث الواحد، مثال ذلك ذكره لفدية التسبيح بقوله: "وفديةُ التسبيح، أي: قول «سبحان الله وبحمده»، ألف مرة، فمن قال ذلك في يومٍ ألف مرة فقد اشترى نفسه من النار"، وفي رواية: «من الله، وكان آخر يومه عتيق الله»، وفي رواية: «غفرتُ ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»، والعدد في هذه الرواية مائة مرة فقط⁽⁴⁾.

ومن ذلك أيضاً قوله: "وبقي على الناظم فديةٌ جارٍ بها العمل واردة في الحديث الشريف، قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد»، زاد في رواية: «يُحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير، في كل يومٍ مائة مرة كانت له عدلٌ عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة»، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا رجلٌ عمل أكثر منه»، رواه البخاري ومسلم، وفي لفظ: «من قالها عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفسٍ من ولد إسماعيل»⁽⁵⁾.

والواضح أن في ذكر المؤلف لمختلف روايات هذه الأحاديث هدفاً، هو أن هذه الروايات فيها بيان بعضها لبعض.

1. المصدر السابق، ص: 20.

2. المصدر السابق، ص: 19.

3. المصدر السابق، ص: 53.

4. المصدر السابق، ص: 21.

5. المصدر السابق، ص: 22-23.

- المصادر التي اعتمد عليها ومنهج في النقل: اعتمد المؤلف في كتابه هذا على عدة مصادر، تنوعت بين كتب فقهية وحديثية، وتفسير القرآن، وكتب في العقيدة والتصوف وغيرها. أما منهجه في النقل عن هذه المصادر فمرة يوثق النقل، ومرة لا يوثق، وأحياناً ينقل من المصدر مباشرة، وأحياناً ينقل عنه بواسطة، ومن هذه المصادر:

- القرآن الكريم، وكتب التفسير، مثل: كتاب حاشية الصاوي على الجلالين.

- كتب العقيدة والتصوف: منها: كتاب ضوء البدور فيما ينفع الأحياء وأهل القبور، وموضوع هذا الكتاب قريب جداً من كتاب المؤلف: (منة الخالق)، وكتاب أم البراهين، وكتاب إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة، وهذا الكتاب نقل عنه كثيراً، وغالباً ما يوثق نقله منه، وفي بعض الأحيان يترك ذلك.

ومن كتب التصوف: كتاب الصلوات الكبرى، للشيخ عبد القادر الجيلاني، وكتاب الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، وكثيراً ما ينقل عنه.

- كتب الحديث: صحيحاً البخاري ومسلم، والجامع الصغير للسيوطي، وموطأ مالك، ومسند الإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، وغيرها من كتب السنة.

- كتب الفقه: أكثر كتابٍ نقل عنه المؤلف هو كتاب حاشية ابن حمدون على ميارة، وهو للطالب ابن حمدون بن الحاج، ونقل عن حاشية الصفتي، وغير ذلك من الكتب والمراجع.

- الملاحظات والمآخذ على الكتاب: يُعد كتاب: (منة الخالق) كتاباً عظيم النفع في بابه، ولكن لا يوجد كلام أو كتاب إلا ويؤخذ منهما ويرد، إلا القرآن الكريم، فهو كلام الله، والكاتب نفسه عندما يرجع إلى ما كتبه نجده يزيد ويحذف مما كتبه، بل إن المؤلف نفسه في كتابه هذا ذكر في آخر الكتاب أنه خرّجه من المبيضة مع بعض الزيادة والتقديم والتأخير بعد اثنتي عشرة سنة من تأليفه. ومما يلاحظ على هذا الكتاب ما يلي:

1. الاستدلال بالأحاديث الضعيفة دون بيان ذلك في الغالب.
2. ترك الحكم على الأحاديث والآثار التي اعتمد عليها.
3. في بعض الأحيان يترك توثيق ما ينقله عن الكتب والمصادر.
4. تكراره لبعض المسائل أكثر من مرة دون فائدة تذكر، وهذا الملحوظ يعد شبه ظاهرة في كتابه.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- حادي العقول إلى بلوغ المأمول: لأحمد محمد بن حمادي، تحقيق: جمعة محمود الزريقي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس: 1998م، الطبعة: الأولى.
- المدد الفائض في خلاصة علم الفرائض: لأحمد بن محمد بن حمادي، تحقيق: مصطفى الصادق طابلة، دار الخمس للطباعة والنشر، الخمس، الطبعة: الأولى، سنة: 1426هـ: 2006م.
- تراجم ليبية: (دراسة في حياة وآثار بعض الفقهاء والأعلام من ليبيا قديما وحديثا): لجمعة محمود الزريقي، مطابع العدل، الطبعة: الأولى: 1998م.
- صلوات الرب في الصلاة والسلام على أشرف العجم والعرب: لأحمد بن محمد حمادي، تحقيق: إبراهيم عمر الحواسي، مركز البحوث والدراسات برابطة علماء ليبيا، الطبعة: الأولى: 1438هـ: 2017م.
- منة الخالق على المخلوق في إسقاط ما بذمته من سائر الحقوق: لأحمد بن محمد حمادي، مخطوط.
- معجم البلدان الليبية: لطاهر أحمد الزاوي، مكتبة النور، طرابلس: ليبيا، الطبعة: الأولى: 1388هـ: 1968م.
- طبقات الأولياء: لابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي الشافعي، تحقيق: نور الدين شرييه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية: 1415هـ: 1994م.
- الأعلام: لخير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الخامسة: 2002م.

الشيخ عبد الله القراضي
تصوفه، ودوره في تعليم القرآن الكريم
"ت: 1421هـ/2000م"

د. إبراهيم عمر علي الحواسي / الجامعة المفتوحة / قسم الدراسات الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق الأنسان، علمه القرآن، اللهم صل بكل صلاة، وسلم بكل سلام، وبارك بكل بركة، على حبيبك سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم إلى يوم الدين، واجزه يا مولانا عنا ما هو أهله وأنت أهله.

وبعد: فيطيب لي أن أشارك في المؤتمر الذي يعتني بالهوية الليبية، في وقتٍ يسعى فيه بعض النابتة الذين وقعوا تحت تأثير مذاهب وافدة، ومناهج مخالفة، وأفكار متطرفة، كان من شأنها غرس الفرقة بين أبناء الوطن، فحدث نفور وخلاف وجدال بين الإخوة في البيت الواحد، وبين الجيران، والأقارب، والأصدقاء والزملاء، مما كان له تأثير في تفكك النسيج الاجتماعي، وترسخ الفرقة، فما تمر علينا مناسبة دينية إلا ويرفعون عقيرتهم بعرض القول المخلف لما كان عليه الناس، ولما تربو عليه، وما سمعوه من شيوخهم وفقهائهم، والأدهى من ذلك، هو تشبثهم بالقول والمذهب الذي يقولون به، ويوجبون على الناس الأخذ بقولهم وفهمهم، ويرمون من خالفهم بالفسق والبدعة، والبعد عن السنة، ولا يتسع صدرهم للمخالف؛ بل يروجون لأن ما يأخذون به هو الحق الذي لا يقبل الخطأ، وقول غيرهم الخطأ الذي لا يقبل الصواب، وفي بعض الأحيان يصل بهم إلى تكفير المخالف، ووصول بهم الحال إلى استحلال الدماء المعصومة، فانطبق عليهم ما وصف به النبي -صلى الله عليه وسلم- الخوارج فيما جاء في الصحيح من حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حَدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يَجَاوِزُ إِيمَانَهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيُّمَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾، فوصفهم بأنهم صغار في العمر - وذلك يدل على عدم النضج والتهور - والعقول الضعيفة الطائشة التي لا تقدر الأمور، وتتهور في

(1) الحديث: أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من رأى بالقرآن أو تأكل به أو نفر به، حديث [5057].

ارتكاب المخالفات وتعتقد أنها على حق، ولا تحسن التصرف، وليس لها حكمة الشيوخ، ولا فهم العقلاء، يحتجون بخير ما يستدل به الناس، وهو القرآن والسنة، وهم بفهمهم المعوج، وسلوكهم المنحرف، بما لبس عليهم الشيطان - بأنهم هم الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، وأهل السنة والجماعة، وأصحاب الحق الوحيد - فمروا من الدين وخرجوا عنه، بسبب عدم تغلغ الإيمان في قلوبهم، وتمكنه من نفوسهم، وانعدام فهمهم للنصوص الدين، وصدق فيهم قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8]. فكان من أبرز ما أحدثوه في الأمة توسعهم في مسألة اتهام الناس بالشرك - في مسائل فرعية يسع الناس خلافهم فيها - فأصبحت سبباً في استباحة الدماء، واستحلال الأموال والفروج، والخروج على أنظمة الحكم. والمعاناة من هذه النابتة ابتليت بها جميع الدول الإسلامية، فكانوا سبباً في تفكك الأسر، وجلب الحروب على دولهم من قبل الغرب، الذي استغلهم في تبرير دخوله لأوطانهم، ونهبه لخيراتهم، بحجة محاربة الإرهاب، رغم أنه من كان يمدهم بالمال ويعينهم على محاربة حكوماتهم، ويوفر لهم اللجوء السياسي حماية لهم.

وقد كان شيخنا الفاضل عبد الله القراضي -رحمه الله- في زمن ظهورهم في حقبة التسعينيات يحذر منهم في دروسه وخطبه؛ بل سمعت منه في بعض الخطب يقول: «لو تمكنا منكم فسوف يذبحونكم»، وكنت في ذلك الوقت أستعظم وأستغرب ذلك، وأرجع عدواته لهم للصراع القديم الحديث بين السلفية والصوفية، ولكن بعد ظهور الجماعات المتطرفة، مثل جماعة (داعش) شاهدناهم يقومون بحز رؤوس مخالفينهم، من الناس عامة، ومن أهل العلم خاصة، وكل من ظنوا أنه يخالفهم في معتقداتهم ومنهجهم، فتحقق ما أخبر عنهم الشيخ -رحمه الله-.

لذا فإنَّ (المؤتمر الدولي الأول للهوية الدينية الليبية) الذي تشرف على تنظيمه كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية ورابطة علماء ليبيا، محاولة لدراسة هذه الظاهرة، والخروج بحلول ناجعة، تعود بالأمة إلى التمسك بثوابتها، والسير على منهج العلماء الربانيين من فقهاء المذاهب المتبعة، وتوحيد الصف في محاربة المذاهب الهدامة، من الدعوة للعلمانية، وحملات التنصير، والترويج للإلحاد - الذي كثر عن أنيابه من خلال طرح تساؤلات تشكك الشباب في دينهم، وتهدم عقيدتهم، وما تروج له بعض المؤسسات العالمية والدول الأوروبية من مخالفة السنن الكونية في الدعوة لإباحة فاحشة قوم لوط (المثلية)، وما يطرحه القرآنيون من الطعن

في السنة، كل هذه الحروب تحتاج منا إلى تفرغ كبير، وتحشيد للطاقات، حتى نتمكن من الحفاظ على ديننا وهويتنا.

ومن العلماء الربانيين الذين تشرفت بالتعلم عليه، الشيخ الفاضل عبد الله القراضي -رحمه الله- الذي كان له إسهامات في مجال التعليم، والتربية الصوفية، والدعوة الإسلامية، وتعليم القرآن الكريم.

وعقدت العزم على المشاركة في المحور الرابع من المؤتمر بعنوان (دور التصوف والطرق الصوفية في المجتمع الليبي) من خلال الدور الريادي لرجال التصوف في تحفيظ القرآن الكريم وتدریس علومه. بورقة بحث بعنوان (الشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- تصوفه ودوره في تعليم القرآن الكريم) وتمثلت خطة البحث إجمالاً في: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

• أسباب اختيار الموضوع:

الدور الذي قام به الشيخ -رحمه الله- عبد الله القراضي -رحمه الله- في التربية الصوفية من خلال الطريقة الخليلية.

1. عنايته الكبيرة بتعليم القرآن الكريم وحرصه على نشره بين أبناء المسلمين.
2. نشاطه في مجال الدعوة الإسلامية في بلدان إفريقيا من خلال جمعية الدعوة الإسلامية.
3. تمكن الشيخ من الفقه، ودوره في تقديم الدروس الوعظية والفتاوى الفقهية.
4. مواجهته لموجة التطرف والغلو، وتحذيره الناس منهم.
5. علاقته المباشرة به، وثنائيه على يديه، والقيام بواجب التعريف به.

• أهمية البحث:

من التوفيق الإلهي أنّ هذه الدراسة تعد الأوسع في تناول الدور الذي قام به الشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- في مجالي التصوف وتعليم القرآن الكريم، كما تسلط الضوء على بعض الجنود المجهولين، الذين كان إخلاصهم لدينهم، ورغبتهم في نيل رضی ربهم، هو الدافع لهم فيما يقومون به من أعمال جليّة، ومجهودات كبيرة، كما تؤرخ هذه الدراسة لأول من قام بالتوسع في نشر رواية (حفص) في مدينة طرابلس وضواحيها.

• إشكالية البحث:

يتضمن البحث عن عدة تساؤلات، تكمن إجابتها في التعريف بالشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- وطريقته الصوفية، ومنهجه في التصوف، والدور الكبير في تعليمه للقرآن الكريم ونشره، والرواية التي اعتمدها، والطريقة والأسلوب الذي سلكه في تعليم القرآن الكريم.

• منهجية البحث:

1. استعنت في بحثي هذا بعدة مناهج، منها: المنهج التاريخي، والمنهج التحليلي، والمنهج الوصفي.
 2. توثيق المعلومات من مصادرها الأصلية، أو الفرعية.
 3. تخرج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.
 4. الترجمة للأعلام الواردة في صلب البحث.
 5. ختمت البحث بالنتائج والتوصيات التي وصلت إليها.
 6. ذيلت البحث بملحقٍ به بعض الوثائق المهمة والصور.
 7. وضعت قائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.
- هيكلية البحث: أسست بناء البحث على النحو التالي:

مقدمة: تتضمن أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وإشكالية البحث، ومنهجيته، وهيكلية تقسيماته، ومصادره.

تمهيد: تناولت فيه حياته وجهوده: (مولده - نشأته - دراسته - شيوخه - صفته وأخلاقه - وظائفه - وفاته).

المبحث الأول: طريقة الشيخ عبد الله القراضي رَحِمَهُ اللهُ الصوفية ومنهجه في التصوف.

المطلب الأول: طريقته الصوفية.

المطلب الثاني: منهجه في التصوف:

المبحث الثاني: دور الشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- في تعليم القرآن الكريم ومنهجه.

المطلب الأول: دور الشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- في تعليم القرآن الكريم.

المطلب الثاني: منهجه في تعليم القرآن الكريم.

الخاتمة: وبها النتائج والتوصيات.

تمهيد

الشيخ عبد الله القراضي حياته، وجهوده:

يلزم -قبل الشروع في البحث- أن أذكر بأنه سبق وأن قدمت دراسة عن حياة الشيخ عبد الله القراضي من خلال البحث الذي شاركت به في المؤتمر الدولي الأول (الجهود الليبية في تفسير القرآن وعلومه) الذي نظمته كلية أصول الدين بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية بمدينة البيضاء بدولة ليبيا في المدة من 20 - 22 ربيع الأول 1443هـ/ 26 - 28 أكتوبر 2021م) حيث شاركت بورقة بحثية بعنوان (الشيخ عبد الله القراضي - رحمه الله - ومنهجه في التفسير: "سورة الأعراف أنموذجاً").

لذا فإني سأوجز ترجمته قدر الإمكان:

- مولده ونشأته.

هو الشيخ عبد الله بن علي بن عبد الله بن موسى بن محمد أبو صبيح القراضي، وجد القراضية سيدي مخلوف دفين المنطقة⁽¹⁾، ويرجع نسب قبيلة القراضية إلى سيدي غريب صهر الصوفي الشهير سيدي أبو مدين شعيب⁽²⁾، ولد في سانية قصر الدجاج بقرية سيدي خليفة بمدينة صرمان سنة (1931م)⁽³⁾.

- دراسته:

التحق بكتاب قرينه لحفظ القرآن الكريم، ثم انتظم بالدراسة في المدرسة الابتدائية بصرمان، وتحول لاستكمال دراسته بمدينة الزاوية الغربية، ثم عين مدرساً بمدينة سرت سنة (1950م) فدرس بها لمدة سنة، ثم عاد فدرس بصرمان، وبوعيسى، ثم نُقل للتدريس بمدينة مزدة، وبعدها نقل للتدريس بمدن الجنوب: ودان، وبراك الشاطيء، ومرزق، وسبها، واستقر أخيراً في سنة (1962م) بمدينة طرابلس، ثم تحول للتوجيه التربوي إلى حين تقاعده⁽⁴⁾، وانتسب للجامعة الإسلامية بالقسم العام الذي أنشأ بمدينة طرابلس تبعاً للجامعة، وتخرج به في

(1) ينظر: معجم سكان ليبيا، لخليفة محمد التليسي، ص 303.

(2) ينظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا، للقطعاني 192/4، ومن أعلام صرمان، للقراضي 154/1.

(3) ينظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا، لأحمد القطعاني 192/4، ومن أعلام صرمان، للقراضي 154/1، ورواية شفوية من

نجله محمد الأمير عبد الله القراضي، بغوط الشعال طرابلس بتاريخ 2021/6/21م.

(4) ينظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا، للقطعاني 192/4، ومن أعلام صرمان، للقراضي 154/1.

سنة (1394هـ=1974م)⁽¹⁾، وكان الأول على دفعته.

• شيوخه:

من أبرز الشيوخ الذين تأثر بهم في بداية حياته الشيخ محمد الأمير⁽²⁾، فأخذ عنه الفقه، وقد سمي نجله الأكبر عليه، كما تأثر بالعالم الرباني الشيخ علي الغرياني⁽³⁾، فأخذ عنه الفقه ولازمه وكان يثني عليه كثيراً، وأخذ عن الشيخ عمر الجنزوري⁽⁴⁾، وحضر دروس الشيخ محمود المسلاتي⁽⁵⁾، والشيخ أبوبكر بن لطيف⁽⁶⁾.

- (1) صورة من الشهادة الكترونية (اليسانس شريعة) الصادرة من جامعة قارونس كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بتاريخ 5 جمادى الثاني 1394 هجرية الموافق 25 يونيو 1974 م. انظر: صورة رقم (1) في الملحق.
- (2) المعلومات التي تحصلت عليها شحيحة، فما توفر لدي بأنه من قبيلة الأبنات من مدينة الزاوية، صدمته سيارة تقودها امرأة إيطالية سنة (1964م) وما زال البحث مستمراً. ورواية شفوية من نجل الشيخ الأكبر محمد الأمير القراضي.
- (3) الشيخ علي الغرياني التاجوري، ولد في تاجوراء سنة (1888م) حفظ القرآن على والده، وأخذ العلم عن الشيخ عبد الرحمن البوصيري، والشيخ مختار الشكشوكي، والشيخ محمد الضاوي، والتقى بالشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي صاحب زاد المسلم عند مروره بمدينة طرابلس فأجازه، لبث مدرساً لأكثر من ستين سنة ألحق الآباء بالأبناء، كان يقيم في جامع ميزران، مات سنة (1395هـ=1975م). ينظر ترجمته في: أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، للشيخ أحمد القطعاني 150/2، وجوانب من تاريخ الحياة التعليمية في مدينة طرابلس، للشيخ أحمد محمد الخليلي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (2) سنة 1985م، ص 234.
- (4) الشيخ عمر العربي عمر الجنزوري الزنتاني، ولد بجنزور سنة (1329هـ=1911م) حفظ القرآن بزاوية عمورة، وأخذ على الشيخ إبراهيم باكير، والشيخ مختار الشكشوكي، والشيخ علي النجار، والشيخ أبوبكر بالطيف، والشيخ علي الغرياني وغيرهم، درس بمعهد مالك بن أنس، ومدرسة عثمان الساقلي، وجامع الناقة، وجامع درغوت وغيرها، تلمذ عليه الكثير من طلبة العلم من أشهرهم الشيخ عبد السلام خليل، والشيخ عبد اللطيف الشويرف، والشاعر عبد المولى البغدادي وغيرهم، مات سنة (1406هـ=1986م). ينظر ترجمته في: جوانب من تاريخ الحياة التعليمية في مدينة طرابلس، للشيخ أحمد محمد الخليلي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (2) سنة 1985م، ص 241، وورقات مطوية في تراجم أعلام المسابقة القرآنية، لابن سعيدان، ص 32.
- (5) الشيخ محمود عمر محمد المسلاتي، ولد سنة (1892م) ودرس بكلية أحمد باشا بطرابلس، تولى القضاء والتدريس، كما كان له نشاط لمقاومة الاحتلال الإيطالي، مات سنة (1406هـ=1986م). ينظر ترجمته في: مشايخ وعلماء طرابلس في الأزهر الشريف، لمحمد الباهي، ص 252، وجوانب من تاريخ الحياة التعليمية في مدينة طرابلس، للشيخ أحمد محمد الخليلي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (2) سنة 1985م، ص 237.
- (6) الشيخ أبوبكر محمد أحمد بن الطيف، ولد بطرابلس سنة (1883م) أخذ عن الشيخ عبد الرحمن البوصيري، والشيخ محمد الأمين العالم، والشيخ علي النجار وغيرهم، (1379هـ=1960م) ينظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا، للقطعاني 332/3، وجوانب من تاريخ الحياة التعليمية في مدينة طرابلس، للشيخ أحمد محمد الخليلي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (2) سنة 1985م، ص 234، وورقات مطوية، لابن سعيدان، ص 32.

• تلاميذه:

تخرج بالشيخ الكثير من الطلاب ذكوراً وإناثاً، الذين نثلهذوا على يديه في حفظ كتاب الله تعالى، وقد ختم عليه القرآن من الذكور (87) طالباً، ومن الإناث (44) (1) طالبة، وقد دفع بهم لتعليم أبناء المسلمين القرآن في مساجد طرابلس وضواحيها، ومنهم من اكتفى بالحفظ فقط، وقد برز طلابه في التفوق والحصول على الترتيب في المسابقات التي كانت تقام سواءً على مستوى المحلي أو العالمي، كما كان لطلابه المشاركة في إمامة المصلين في دول العالم مبتعثين من قبَلِ جمعية الدعوة الإسلامية لصلاة التراويح خلال شهر رمضان.

• صفته وأخلاقه:

كان -رحمه الله- ربعة متوسط الطول، معتدل الخلق، قوي البنية، آدم يميل لونه للسمر، مدور الوجه، كث اللحية، أبيض الشعر، ولباسه العمة والجبّة في يوم الجمعة والمناسبات، والزي اللبّي في سائر الأوقات.

كان يتصف بالجود والكرم، يفتح بيته للغريب وطلبة العلم، لا يقبل شيئاً دون ثمن مهما كان قليلاً، خاشعاً مخبتاً، مداوماً على الحج والعمرة، تبرع بقطعة أرض بجوار بيته أقيم عليها مسجد (الرحمة) الذي تولى الإشراف عليه والعناية به، كما باع مزرعة له في مدينة (بوعيسى) لأجل بناء المسجد، وتبرع بمكتبته الخاصة التي تحوي أمهات المصادر والمراجع في العلوم الشرعية وأوقفها على المسجد.

وكان رَحْمَةً اللَّهِ صلباً في الدفاع عن رأيه وقناعاته، ويغلب على طبعه الهدوء والسكينة، والرفق واللين هو منهجه وشعاره في كل أمره؛ ولكنه شديد على أصحاب التعصب المذهبي، ومن أخذوا بمنهج الغلو والتطرف

وكان -رحمه الله- يطيل صلاته خاصةً في كهولته، ويقرأ القرآن في كل أحيانه مرتلاً من غير هزيمة سواءً في الصلاة أو خارجها، وعندما كان يدرس في بيته ويحين وقت العشاء يطلب من أحد الطلاب رفع الآذان، كما كان يصلي التراويح ختمةً كاملةً لوحده، وكان في السبعينيات يحج كل عام، ويعتمر كل رمضان.

(1) فضيلة الشيخ عبد الله القراضي ودوره في تحفيظ القرآن الكريم، إعداد الدكتور موسى عبد الله أبو ذينة، ص 26، (مخطوط).

وكان محباً ومعظماً لشيخه سواء الذين أخذ عنهم التصوف، أو الذين درس عليهم العلم، فكان يذكرهم باحترام وإجلالٍ، ويذكر مآثرهم وقصصهم، ويترحم عليهم.

وكان - رحمه الله - رفيقاً في نصحه لا يواجه المخطئ بالنصيحة مباشرة؛ وإنما يخاطب غيره، أو يخاطب الجميع، ويشارك تلاميذه أفراحهم وأحزانهم، ويقدم لهم النصح والمشورة أو الفتوى فيما يهمهم.

ومن خلاله الحميدة نكران الذات والتواضع، فكان يردد: (إني والله لأرجو أن أدخل الجنة بفضل دعوة أحدكم أو شفاعته، وليس بعلمي) ويقول: (أنا خدام) وعندما يعرفنا بأحد تلاميذه، لا يقول هذا تلميذي؛ بل يقول: (هذا الذي درسي).

• وظائفه:

تولى الشيخ عبد الله القراضي عدة وظائف كلها تصب في مجال التعليم والدعوة منها:

أولاً: التعليم: مارس التعليم في المدارس تعليم الإلزامي منذ تعيينه مدرساً، فدرس فور تخرجه في مدينة سرت، وفي الزاوية وصرمان، وبوعيسى ومزدة، ومدن الجنوب: مرزق وسبها وبراك الشاطي، وودان، وكان سبب نقله إلى مدن الجنوب هو اعتراضه على الانتخابات، ثم استقر أخيراً بالعاصمة طرابلس⁽¹⁾.

ثانياً: التوجيه التربوي: تحول للتوجيه التربوي بعد انتقاله إلى مدينة طرابلس، فدخل في سنة (1964م) امتحان الدرجة الرابعة بإشراف نقابة المعلمين، وكان ترتيبه الأول، ومنح العشر الأوائل إجازة التوجيه التربوي، وبقي موجهاً في مدارس مدينة طرابلس إلى حين تقاعده، وخلال ذلك شارك في لجان تعديل المناهج والإشراف على دورات تأهيل المعلمين.

ثالثاً: الوعظ: كان الشيخ واعظاً بحاله قبل مقاله، وقد تولى الوعظ في جهتين هما:

أ- واعظاً بالقوات المسلحة فترة السبعينيات من القرن المنصرم، فكان يقوم بإلقاء محاضرات على طلاب الكلية العسكرية.

ب- واعظاً بالهيئة العامة للأوقاف بإلقاء درس أسبوعي بمسجد الرحمة بين الأذان والإقامة من عصر يوم الخميس من كل أسبوع، وكان يتناول فيه شرح كتاب (الفقه الواضح) للدكتور

(1) انظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا (موسوعة القطعاني) 192/4، ومن أعلام صرمان، للقراضي 155/1.

محمد بكر إسماعيل، الذي يقوم منهجه على تيسير الفقه والبعد عن الغلو، مع تناول المسائل الفقهية الحديثة بأسلوب ميسر، وهو ما لقي قبولاً عنده.

ت- وكان مقصد الناس في الفتوى، فيأتون إليه إما عند وجوده بحلقة القرآن في المسجد، أو بيته، فيفتيهم في دينهم، ويرشدهم لما يصلح أمرهم، وكان يأخذ بالرخصة والتيسير في الفتوى خاصة في مسائل الطلاق، كما يأتونه لفض النزاعات والخصومات بينهم، ويستنيرون برأيه عند مشورته في شؤونهم الخاصة، فكان رَحْمَةُ اللَّهِ لا يرد أحداً، ولا يتضجر منهم، فكان صدره يسعهم جميعاً.

ومنهجه في الفتوى مبني على الرفق والتيسير وعدم التقيد بمذهب إن كان في المسألة رأي فيه يسر ومخرج لصاحب الفتوى.

رابعاً: تعليم القرآن الكريم: عكف الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ على تعليم القرآن أولاً في بيته، ثم في تحفيظ القرآن في المسجد، وكان له حلقتين، واحدة لتعليم البنات من الساعة الثالثة إلى صلاة العصر، والأخرى ما بين صلاة المغرب إلى صلاة العشاء لتدريس الذكور، وقد استمر على ذلك إلى حين وفاته.

خامساً: الخطابة: تولى الشيخ الخطابة بمسجد الرحمة منذ افتتاحه سنة (1980م) إلى وفاته سنة (2000م) ومنهجه في الخطبة⁽¹⁾ يقوم على تفسير كتاب الله، فبدأ من سورة الفاتحة وتوقف في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة ياسين: آية 44]، ويتلخص منهجه في التفسير على النحو التالي:

1. التزم في افتتاح خطبته بحديث خطبة الحاجة، فيبدأ بقوله: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنُصِّحَ الْأُمَّةَ، وَكُشِفَ

(1) وقع الشيخ القطعاني في وهم وتوارد على متابعته كل من ترجم للشيخ من بعده، فذكر بأن الشيخ كان يعقد درساً في التفسير عقب صلاة الجمعة، والصواب في خطبة الجمعة، وقد تبعه القراضي أيضاً، وكاتب مقال في صحيفة الدعوة الإسلامية. انظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا (موسوعة القطعاني) 194/4، ومن أعلام صرمان، للقراضي 158/1، وصحيفة الدعوة الإسلامية، الصادرة بطرابلس - ليبيا، العدد [1492] بتاريخ (الأحد 9 من ربيع الآخر 1443هـ الموافق 14 نوفمبر 2021م) ص (9) إعداد: محمد علي أبو القاسم.

1. الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد»⁽¹⁾.
2. الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- فاختر الصلاة الديمومية، وهي إحدى صيغ الصلاة التي يلتزم بها في أورادهم أتباع الطريقة الخليلية، وصيغتها: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولنا محمد وعلى آله وصحبه، عدد ما في علم الله، صلاةً دائمةً بدوام ملك الله».
3. يقرأ الآيات التي يريد أن يفسرها، وفي بعض الأحيان يقرأ بعض الآيات التي سبق له تفسيرها.
4. يتناول أسماء السورة إذا كان في بدايتها.
5. يذكر كون السورة مكية أو مدنية.
6. يعرج في بداية السورة على الاختلاف في عد الآيات بين العد: المدني، والشامي، والكوفي، والبصري.
7. يذكر في بعض الأحيان سبب نزول الآيات.
8. يبين باختصار المعنى اللغوي لبعض الكلمات.
9. يبين إعراب بعض الكلمات أثناء تفسيره.
10. يذكر اختلاف القراءات السبعية وتوجيهها، وبيان اختلاف المعنى باختلاف القراءة.
11. يفسر القرآن بالقرآن إذا كان للقصة أو المسألة ذكر وبيان في سورة أخرى.
12. يتناول الجانب الفقهي، ويذكر خلاف العلماء في المسألة، ويبيد القول الذي يرحمه في المسألة.
13. يذكر بعض الإسرائيليات، وينقضها بشدة، ويحذر الناس منها.
14. يهتم بآيات التوحيد والعقيدة، ويدعو للتدبر في ملكوت الله وآياته الكونية.
15. لا يلتزم في خطبته بالفصحى، ويتكلم بالعامية في بعض الأحيان إذا لزم الأمر حتى يفهم الحضور.
16. لا يعتني بتخريج الأحاديث، وغالباً ما يذكرها بالمعنى.
17. كثيراً ما يسقط الآيات على حال المسلمين من الفرقة والتخلف، وأن ما يقع عليهم من ذل وهوان بسبب ابتعادهم عن كتاب ربهم، وعدم التزامهم بأوامره، واجتناب نواهيه.

(1) خطبة الحاجة وردت من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أخرجهما: النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، ما يستحب من الكلام عند الحاجة، حديث [10253] 182/9، وابن ماجه في سننه، أبواب النكاح، باب خطبة النكاح، حديث [1985] 509/1، والدارمي في مسنده، كتاب، باب في خطبة النكاح، حديث [2231] 411/2،

18. يعتني بقضية المسلمين الكبرى؛ ألا وهي قضية فلسطين، ويشير إلى أخلاق اليهود وجرائمهم وتعنتهم.

19. يوظف الآيات للواقع المعاش، ومدى انطباق النص القرآني على حياة المسلمين.

20. يواكب الأحداث سواءً أكانت سياسية، أم اجتماعية، أو دينية، ويشير إليها إما من خلال النص القرآني، أو في الخطبة الثانية، مثل: الاحتفال بالمولد النبوي⁽¹⁾، وسلمان رشدي وكتابه آيات شيطانية⁽²⁾، وإجلاء القوات البريطانية ومساهمة بريطانيا في دعم الكيان الصهيوني⁽³⁾، وهجوم أمريكا على بنما واعتقال رئيسها ودعم أمريكا للصهاينة⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

سادساً: الدعوة الإسلامية: الشيخ عبد الله القراضي من الأعضاء المؤسسين لجمعية الدعوة الإسلامية سنة (1972م) وكان نائباً لأمين الجمعية الشيخ محمود صبحي⁽⁶⁾، كما كان مشرفاً ومفتشاً على مكاتب الجمعية والمراكز الإسلامية بالساحة الإفريقية، فزار كثيراً من البلدان الإفريقية التي كان للجمعية نشاط فيها، كما حضر اللقاءات والمؤتمرات والندوات التي أقامتها الجمعية سواء داخل ليبيا أو خارجها⁽⁷⁾، وكان على تواصل مع الدعاة والشيخوخ في هذه البلدان حتى بعد استقالته من العمل في الجمعية سنة (1980م) أذكر أنه حضر أحد الأفارقة ويبدو أنه من أهل العلم - وقد نسيت اسمه وبلده - وطلب مني زيارة الشيخ، وبما أنني كنت أسكن بجوار بيت الشيخ، فقد تشرفت بحضور هذا اللقاء، فوجدت الشيخ يسأله عن الكثير من الشيخوخ في بلده، ويناقش معه بعض المشاكل التي تعترض الدعاة في بلده.

وأختم بقصة تبين فيها منهج الشيخ في الدعوة، فبعد استقالته من جمعية الدعوة الإسلامية

(1) ينظر خطبة الجمعة بتاريخ 13/1989، 10م.

(2) ينظر: خطبة الجمعة بتاريخ 31/3/1989م.

(3) ينظر: خطبة الجمعة بتاريخ 31/3/1989م.

(4) ينظر: خطبة الجمعة بتاريخ 22/12/1989م.

(5) انظر: بحث بعنوان (الشيخ عبد الله القراضي - رحمه الله - ومنهجه في التفسير سورة الأعراف أتمودجاً) مقدم للمؤتمر العلمي

الدولي الأول بعنوان (الجهود الليبية في تفسير القرآن وعلومه) نظمتها كلية أصول الدين بجامعة السيد محمد بن علي

السوسني - البيضاء - ليبيا في الفترة (20 - 22 ربيع الأول 1443هـ / 26 - 28 أكتوبر 2021م) ص 16 - 18.

(6) الشيخ محمود محمد صبحي، ولد بمدينة طرابلس سنة (1920م) وحفظ القرآن الكريم بجامع ميزران، ثم سافر إلى مصر

فتخرج بالجامع الأزهر سنة (1949م) ودرس بعد عودته بمعهد المعلمين بالظهرة، ثم أصبح مديراً له، كان حنفي

المذهب، ترأس جمعية الدعوة الإسلامية إلى حين استقالته سنة (1980م) بعدها تفرغ لرعاية وقف جده التوغار من

مسجد ومدرسة إلى حين وفاته سنة (1434هـ=2013م). ينظر ترجمته في: جمهرة أعلام الأزهر الشريف، لأسامة السيد

76/9، ومشايخ وعلماء طرابلس في الأزهر الشريف، لمحمد الباهي، ص 257، وأوبة المهاجر وتوبة المهاجر، للشيخ أحمد

القطعاني 219/1.

(7) انظر: صورة رقم (2) في الملحق آخر البحث.

حضر إليه الحاج محمد القاضي السوكي -رحمه الله- وهو من الناس الأفاضل الذين يكون مودة واحتراماً للشيخ، وكان برفقته شاب، فطلب من الشيخ أن يتوسط لهذا الشاب في العمل بجمعية الدعوة الإسلامية، فأجابه الشيخ بقوله: (إن كان يريد الوظيفة فهي متوفرة في كل مكان، وإن كان يريد الدعوة فنحن في بلدنا في أمس الحاجة إليها).

• وفاته:

أصيب بجلطة للمرة الثانية، بقي يعاني منها أكثر من شهر، ثم توفي في يوم الخميس (21 صفر 1421هـ الموافق 2000/5/25م)⁽¹⁾، وصلى عليه الشيخ محمود صبحي بن عبد السلام ودفن في فناء بيته الملاصق للمسجد، ثم في سنة (2012م) نقل جثمانه الطاهر إلى مقبرة سيدي مخلوف بمسقط رأسه بمدينة صرمان بناءً على رغبة أهله بعد محاولة هجوم بعض المتطرفين لنبشه. غفر الله له وأسكنه الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

المبحث الأول: طريقة الشيخ عبد الله القراضي الصوفية ومنهجه في التصوف.
المطلب الأول: طريقته الصوفية.

يعد الشيخ عبد الله من أوائل الليبيين الذين قاموا على نشر الطريقة الخليلية⁽²⁾ في طرابلس، حيث سلك على يديه الكثير من المريدين والمريدات، وقد أخذ الطريقة الخليلية على يد شيخه الشيخ بسيوني بن محمد البدوي⁽³⁾، الذي أعير إلى ليبيا في حقبة الستينيات والسبعينيات من

(1) وقع خطأ في تعيين تاريخ الوفاة فجاء بتاريخ (1999/5/25م) في مقال الأستاذ محمود سويبي الجواد بعنوان (خادم القرآن الكريم الشيخ عبد الله القراضي) بمجلة الأسوة الحسنة، السنة السادسة، العدد [17] الأحد غرة ذي الحجة الموافق (2003/02/02م) ص (6).

(2) تنسب الطريقة الخليلية للشيخ محمد بن خليل بن إبراهيم بن إسماعيل، الذي ينتهي نسبه لسيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ولد بقرية (القضابة) من محافظة الغربية، ثم ارتحل به والده صغيراً واستقر في كفر النحال بالزقازيق، حفظ القرآن في الكاب على طريقة التلقين دون أن يتعلم الكتابة، وأخذ الطريقة البيومية على الشيخ الشناوي يوسف، ومات سنة (1338هـ = 1920م). ينظر: المري، محمد محمد أبو خليل، بلاط، بلاط، ص 10، والسيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، المطبعة الوطنية، المنصورة، ط 1 (1339هـ) ص 47، والشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، الدكتور سيد عبد الحكيم، ص 27.

(3) هو الشيخ بسيوني بن محمد البدوي، ولد في طنطا سنة (1921م) وحصل على العالمية من الأزهر سنة (1950م) ودرّس بالمعصر الغربية، ثم أعير للتدريس بليبيا سنة (1961م) فاستقر بينغازي أربع سنوات، ثم رجع إلى مصر، وعاد لليبيا سنة (1971م) إلى أن توفي سنة (1394هـ = 1974م) ويعد أول من نشر الطريقة الخليلية في ليبيا. ينظر: جمهرة أعلام الأزهر الشريف، لأسامة السيد محمود الأزهرى، 274/6، والشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، للدكتور سيد عبد الحكيم، ص 254، والإسلام والمسلمون في ليبيا، للقطعي 3/339.

القرن المنصرم، ثم جددها على شيخ شيخه عبد الرؤوف الحلواني⁽¹⁾.

• أصول الطريقة الخليلية:

تميزت الطريقة الخليلية بمجاهدة النفس، وخلو القلب من مشاغل الدنيا، والمداومة على الطاعة⁽²⁾، ولم تلزم أتباعها بكثرة الأوراد وحفظها وترديدتها⁽³⁾؛ وإنما بالمقدور عليه من أنواع العبادات فكانت أصولها التي حثت أتباعها على الالتزام بها تنوعت بين العبادة والمعاملة وهي:

أولاً: ذكر الله تعالى:

ذكر الله هو الغاية العظمى للهريد؛ لأن بالذكر تنجلي الهموم، وتطهر النفوس من أدرانها، وتسمو إلى عليائها، فكان منهج الذكر في الطريقة الخليلية يقوم على الذكر الكثير مع ملاحظة المعنى عند الذكر، وكانت لبعض الأسماء عناية خاصة في الذكر، وهي ما يوجد عند الكثير من الطرق وهذه الأسماء هي: (لا إله إلا الله، الله - هو - حي - واحد - عزيز - ودود - حق - قهار - قيوم - وهاب - مهيمن - باسط)⁽⁴⁾، ويذكر كل اسم مائة ألف مرة، ثم ينتقل إلى الاسم الذي يليه، مع تحقيق حروف كل اسم، والتأني وعدم السرعة التي تحرف الاسم، والخشوع والتأمل في معنى الاسم المذكور، وتخصيص وقت الليل للذكر⁽⁵⁾، لتفرغه وعدم انشغاله بهوم الحياة، ويحثون على ملازمة الذكر كل ليلة وعدم تركه مهما كانت الظروف؛ حتى تبقى الصلة موجودة، وآثار الذكر متجددة⁽⁶⁾، كما لا يرتبط الذكر بالطهارة؛ وإنما يذكر المرید على جميع الحالات كما كان يفعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمََ فَمَا رَوَتْهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَذْكُرُ اللهُ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»⁽⁷⁾.

ثانياً: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- لها فضل كبير، وأجر عظيم، ومن ميزتها أن

(1) هو الشيخ عبد الرؤوف بن أحمد الحلواني الخليلي، ولد سنة (1881م) يعد من خلفاء الطريقة، ومات سنة

(1395هـ=1975م). ينظر: الشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، للدكتور سيد عبد الحكيم، ص261.

(2) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 153.

(3) ينظر: المناقب الخليلية، محمد لطفي حسن خشبة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، بلاط، بلاط، ص

86.

(4) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 155، والمناقب الخليلية، محمد لطفي حسن خشبة، ص86، وكتاب المرئي، محمد محمد أبو خليل، ص 105.

(5) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 154.

(6) ينظر: الشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، للدكتور سيد عبد الحكيم، ص 109.

(7) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، حديث [373].

المولى عز وجل أخبر عن ذاته تفضلاً منه وتكريماً لمصطفاه - أنه يصلي هو وملائكته، وأنه طلب من المؤمنين أن يصلوا ويسلموا - كذلك على نبيه المختار وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾ الأحزاب: 56 (1)، من أصول الطريقة كثرة الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بأي صيغة، ولكن اختصت بصيغتين هما:

- قصيرة: (اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدنا محمدٍ عددَ ما في علمِ الله، صلاةً دائمةً بدوامِ ملكِ الله).
- طويلة: (اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه عددَ حروفِ القرآنِ حرفاً حرفاً، وعددِ كلِّ حرفِ ألفاً ألفاً، وعددِ صفوفِ الملائكةِ صففاً صففاً، وعددِ كلِّ صفِّ ألفاً ألفاً، وعددِ الرمالِ ذرةً ذرةً، وعددِ كلِّ ذرةٍ ألفَ ألفِ مرَّةٍ، عددَ ما أحاطَ به علمك، وجرى به قلبك، ونفذَ به حكمك في بركٍ وبحركٍ وسائرِ خلقك، عددَ ما أحاطَ به علمك القديم من الواجبِ والجائزِ والمستحيلِ، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه مثل ذلك) (2).

ثالثاً: الاستغفار:

الاستغفار له مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة، حث المولى عباده على الاستغفار من الذنوب التي لا يخلو منها إنسان، ومن التقصير في جانب حق الرحمن، فقال تعالى على لسان سيدنا نوح وهو ينصح قومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [سورة نوح: 10] وقال: ﴿وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [سورة هود: 52]، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ سورة النصر: 3.

فكان ورد الاستغفار في الطريقة الخليلية من أهم الأوراد التي ينشغل بها المرید في نهاره، ويتأتى الاستغفار بأي صيغة، ومن الصيغ التي يلتزمون بها: (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحق القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة والنجاة من النار، إنه هو التواب

(1) ينظر: المناقب الخليلية، محمد لطفي حسن خشبة، ص 115.

(2) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 170، والشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، للدكتور سيد عبد الحكيم، ص 111 - 112.

(الرحيم)⁽¹⁾، وصيغة أخرى هي: (أستغفر الله العظيم التواب الرحيم الذي لا إله إلا هو الحق القيوم بديع السماوات والأرض وما بينهما، وأتوب إليه من جميع جرمي وإسرافي على نفسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

هذه الأصول والأسس التي تقوم عليها الطريقة الخليلية؛ ولكن وجدت الشيخ عبد الله القراضي -رحمه الله- ما أضافه وحث عليه أيضاً شيئين اثنين هما:

الأول: قراءة القرآن الكريم:

حث الشيخ مردييه على تلاوة كتاب الله تعالى، وأكد على قراءته بالأحكام الصحيحة، لهذا فبعد أن كان يجتمع عنده المریدون في بيته للذكر، خصص لهم وقت ما بين المغرب والعشاء لتلاوة كتاب الله تعالى وتعلم أحكامه، فكان في بدايته يهتم بالتلقين وضبط الأحكام، ثم توسع في تحفيظ القرآن الكريم مما سأتكلم عنه بتوسع في المبحث الثاني بعون الله تعالى.

والآخر: مساعدة الفقراء والمحتاجين:

فكان الشيخ يغرس في نفوس المریدين حب العمل التطوعي، وتقديم يد المساعدة للمحتاجين على قدر الطاقة، وبذل الوسع في تخفيف معاناة الناس، كل في مجال عمله وتخصصه.

• **سنده في الطريقة الخليلية:**

أخذ الشيخ الطريقة الخليلية عن الشيخ بسيوني بن محمد البدوي، كما جدد الأخذ عن شيخ شيخه الشيخ عبد الرؤوف الحلواني، ثم بسند المتصل. عن الشيخ محمد أبو خليل شيخ الطريقة الخليلية، ثم بسند المتصل إلى أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن سيدنا ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد المرسلين وإمام المتقين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين⁽²⁾.

المطلب الثاني: منهجه في التصوف.

من المآخذ على المتصوفة هو تصدر كثير من الشيوخ لهداية المریدين وإرشادهم من غير أن يكون لهم رصيد من علوم الشريعة، أو فهم لمبادئ الفقه اليسيرة، فيقعون في مخالفات شرعية، ويكونون قدوة لمریديهم في الحياد عن الطريق الصحيح، والمنهج السديد.

(1) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 174.

(2) ينظر: السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، ص 151 - 153.

كما يؤخذ على بعض المريدين الغلو في تعظيم وتقديس مشايخهم، ونسبة كثير من التهويلات والخرفات لهم، والتي أغلبها تتعارض مع العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، فأضروا بالتصوف وجعلوا الناس ينصرفون عنه، ويرمون أتباعه بالبدع والخرفات، كما كانوا سبباً في اتهام أهل التصوف بالجهل والكسل والتواكل، والبعد عن المشاركة في عمارة البلاد، والدفع بعجلة التقدم لأوطانهم ومجتمعاتهم.

وما يميز الشيخ عبد الله القراضي عن كثير من مشايخ الطرق الصوفية جمعه بين الفقه والتصوف، وبين الحقيقة والشريعة، فكان تصوفه منضبطاً بأحكام الشرع، وكان ملجأً للناس في الفتوى وبيان أحكام الشرع، فضلاً عن إرشادهم ودلهم على الطريق التي توصلهم إلى الله تعالى. فكان المريدون يجتمعون في بيته للذكر، وفي تربيته للمريدين له منهج، ويمثل منهجه في حث المريدين على حفظ القرآن الكريم، وملازمة الذكر، وكثرة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- والاستغفار على قدر الطاقة، وبما لا يؤثر في دراسة الطالب منهم، أو العامل، أو الموظف، ويغرس فيهم معنى الانكسار والتجرد، والنحول والبعد عن الشهرة والظهور، ويحثهم على خدمة الناس في مجال حياتهم، وكان المريد المحبوب لديه هو من يسارع في خدمة إخوانه، ويعين الناس على قضاء حوائجهم، كما كان يحثهم على الاستقامة، ويقول: (نحن طلاب استقامة، لا طلاب كرامة).

وكان يسرد حكايات العارفين والصالحين كي نفتدي بهم ونسير على منهجهم، وكان يبحث على العلم فكان يعقد بعد مجلس الذكر درساً في الفقه يشرح فيه كتاب فقه السنة، أما في باقي الأيام فكان درسه إما في كتاب (نيل الأوطار) للشوكاني، أو كتاب (تفسير الجواهر) للشيخ طنطاوي جوهرى.

وقد عكف الشيخ على دراسة كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ دراسةً واعيةً لمدة ست سنوات، نخرج منه بفوائد لخصها في عشر خصال محمودة، وعشر خصال مذمومة على النحو الآتي:

أولاً: الخصال المحمودة:

(الندم على الذنب، الصبر على البلاء، الرضا بالقضاء، الشكر على النعماء، اعتدال الخوف والرجاء، الزهد في الدنيا، الإخلاص في العمل، حسن الخلق مع الخلق، حب الله تعالى، الخشوع لله تعالى).

ثانياً: الخصال المذمومة:

(الكبر، العجب، الرياء، شره الطعام، شره الوقاع، حب المال، حب الجاه، الحسد، البخل، شدة الغضب).

ومن القصائد الصوفية الشهيرة التي كان يطرب عند إنشادها من بعض الطلاب هي قصيدة:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السادات والسلطين والأمرأ
للشيخ أبي مدين (ت 594هـ)⁽¹⁾ التي بين فيها حال الصوفي من الأدب عند صحبته
للشيوخ العارفين، والأولياء الصالحين، وهضم النفس، والإقرار بالذنب، ونكران الذات، ولزوم
الصمت، ومراقبة الشيخ العارف، والتعلم من حاله قبل مقاله، فكانت هذه القصيدة بحق منهج
سلوك وتربية، ولشدة إعجاب الشيخ بصاحب القصيدة سمي أحد أولاده (أبو مدين).

المبحث الثاني: دور الشيخ عبد الله القراضي في تعليم القرآن الكريم ومنهجه.

• المطلب الأول: دور الشيخ عبد الله القراضي في تعليم القرآن الكريم.

قبل أن أذكر دور الشيخ عبد الله القراضي في تعليم القرآن الكريم، أود أن أقدم لمحةً بشكلٍ موجزٍ

عن تدريس القرآن الكريم في ليبيا.

كانت الزوايا الصوفية والكتاتيب ملجأً للبيين في تعليم أبنائهم القرآن الكريم ومبادئ الشريعة الإسلامية، وكانت هذه الزوايا والكتاتيب لها دور كبير في التصدي للتغريب والتنصير الذي يسعى له المحتل الإيطالي، وكانت الطريقة التي سلكها معلمو القرآن الكريم هي الطريقة التقليدية القديمة - التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في العلم الإسلامي من القراءة في الألواح الخشبية، ومحو الكتابة بالطين بعد حفظها وعرضها على الشيخ، وكانت هذه الطريقة تقوم على الفروق الفردية، فما تدخل لأحد الكتاتيب إلا وتجد الطلبة لهم دوي كدوي النحل يترنمون بتلاوة القرآن الكريم، كل واحد في ثمنه وسورته، فيأتي الطفل في بدايته للكتاب فيتعلم الحروف والحركات أولاً، ثم يبدأ المعلم في تعليمه قصار السور، حتى إذا ظهرت عليه ملامح المهارة في القراءة والكتابة انطلق في حفظ الأثمان التي يكتبها في لوحه من خلال ما يمليه عليه شيخه، وهكذا يستمر كل طالب على حدة في كتابته وحفظه حتى يختم القرآن الكريم، ثم يعيد الكتابة والحفظ للقلم الثاني والثالث حتى يستظهر حفظ القرآن حفظاً جيداً.

(1) هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي الأندلسي، ولد بـ (منتجوب) من أعمال إشبيلية، يعدُّ من أعلام صوفية المغرب، جمع بين الشريعة والحقيقة، ومن حفاظ الحديث، كانت له رحلة إلى المشرق لطلب العلم، مات بـ (تلمسان) سنة (594هـ). ينظر ترجمته في: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمخوف، 1/136، ومعجم المؤلفين، لكحالة،

وكان الأطفال خلال حفظهم للقرآن الكريم متفرغين له، يدرسونه صباحاً ومساءً، لا يتوقفون إلا في يومي الخميس والجمعة.

ولم يكن معلمو القرآن الكريم يخلطون في تدريسهم شيئاً من علوم الشريعة، إلا ما يتعلق بأحكام الطهارة والصلاة الضرورية للطفل، أو من بعض الشيوخ الذين يلزمون الطالب المتقدم أثناء كتابته للقلم الثاني أو الثالث كتابة بعض آيات من (نظم المرشد المعين) فيقوم الطلبة بعرض ما حفظوه من الآيات على الشيخ كما يعرضون القرآن الكريم، وقد ذكر ابن خلدون هذه الطريقة في المقدمة فقال: «اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القول من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه ما يحصل من ملكات»⁽¹⁾.

والشيخ عبد الله القراضي لم يسلك في تعليمه القرآن الطريقة التقليدية القديمة، وإنما سار في تعليمه على الطريقة الحديثة، وقد مرّ بمرحلتين في تعليم القرآن الكريم:

المرحلة الأولى: تعليم التلاوة وأحكام التجويد:

كانت هذه المرحلة في بداية السبعينيات، حيث كان المريدون يجتمعون في بيته للذكر فقط، ثم في سنة (1974م) زار الشيخ الصومال في مهمة عمل من قبل جمعية الدعوة الإسلامية فوجد طلاباً فقراء يفتشون الأرض ويلتحفون السماء، يتعلمون القرآن على ضوء النار المشتعل في الحطب، ولا يوجد عندهم أقل وسائل المعيشة من فصول مجهزة وإنارة، ومع ذلك يقبلون على حفظه، فترك هذا المشهد أثراً بليغاً في نفسه فعزم بعد عودته على تخصيص وقت ما بين المغرب والعشاء لتلاوة القرآن الكريم وتعليمه للمسلمين⁽²⁾، فكان يعرض من حفظه حزباً من القرآن، ثم يتناوب الحضور قراءة حزب، وكان يتابعهم في تصويب الأخطاء وما يقعون فيه من لحن، كما كان رَحْمَةُ اللَّهِ يستوقفهم في استنباط أحكام التجويد، ويفسر بعض الآيات، ويشرح بعض الأحكام الفقهية، ويسأل عن إعراب كلمة، واستمر الحال حتى الانتقال بالحلقة إلى المسجد عندما قارب اكتماله.

المرحلة الثانية: تعليم الأحكام مع الحفظ:

عندما انتقل الشيخ إلى المسجد في صيف سنة (1979م) قرر مؤتمر نقابة معلمي بلدية

(1) ينظر: المقدمة ابن خلدون، الدار التونسية للنشر، ط بلا (1984م) ص 700.

(2) ينظر: فضيلة الشيخ عبد الله القراضي ودوره في تحفيظ القرآن الكريم، إعداد الدكتور موسى عبد الله أبو ذينة، ص 9، (مخطوط).

طرابلس اشتراط حفظ جزء (عمّ) لطلاب الشهادة الإعدادية، فبدأ الشيخ في تحفيظ القرآن الكريم وأقبل الطلاب على الدراسة بالمسجد، وانطلقت رحلته مع أهل القرآن فكان المسجد يعج بالطلاب ذكورا وإناثاً لتعلم وحفظ كتاب الله، وعندما زاد عدد الطلاب ألحق المرآب الذي بالجانب الأيسر للمسجد وبنى فيه أربعة فصول استغلها في تحفيظ القرآن الكريم، فلا يدخل أحدٌ للمسجد في أي وقت من الأوقات إلا ويجده عامراً بطلبة القرآن الكريم، وفي سنة (1988م) تأسست شعبة تحفيظ القرآن الكريم وكانت تابعة لـ (التعبئة الجماهيرية) تولى رئاستها، فكان له كبير الأثر في التوسع في تأسيس مراكز التحفيظ، والدفع بالنشء لتعلم وحفظ كتاب الله في ربوع البلاد.

وكان له طموح كبير في تأسيس منارة لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية، فسعى مع أهل الخير لشراء قطعة أرض مقابلة للباب الغربي للمسجد وشرع في بناءها ولكن قدر الله أن يموت قبل اكتمالها.

وبالعودة إلى (نقابة معلمي بلدية طرابلس) ودورها في نشر مراكز التحفيظ، أودُّ أن أذكر بأنها أسهمت مساهمة كبيرة في تعليم القرآن الكريم بالطريقة الحديثة، وذلك من خلال ما قدمته لمراكز التحفيظ، وما ألزمت به المعلمين من منهج وأسلوب وطريقة حديثة في تعليم القرآن الكريم يتضح ذلك جلياً، ويمكن أن أوجز دورها في النقاط التالية:

1. تزويد مراكز التحفيظ بالسبورات والطباشير.
2. توزيع أجزاء القرآن الكريم مجاناً على الطلاب.
3. إعداد بطاقة تحضير للدرس للمعلم.
4. إعداد بطاقة كشف الحضور للطلاب تملأ من قبل المعلم.
5. إعداد صحيفة لكل طالب يدون فيها المعلم تقدير الطالب من حفظ السورة في كل خانة⁽¹⁾.
6. توزيع الصحف على الطلاب نهاية كل أسبوع حتى يطلع عليها أولياء الأمور.
7. إجراء امتحان في نهاية كل جزء.
8. لا يسمح للطلاب بالانتقال إلى الجزء الذي يليه إلا بعد النجاح في الامتحان.
9. دفع رسوم (10) عشرة دنانير في دورة.
10. الطالب الذي يتعثّر في اجتياز الامتحان يعيد الجزء ويعفى من دفع الرسوم.

(1) انظر: صورة (4) و (5) في الملحق.

11. مدة الدورة (5) خمسة أشهر.

• اعتماده رواية حفص في تعليم القرآن الكريم:

في بداية حياته حفظ الشيخ القرآن على رواية أهل البلد رواية قالون عن نافع المدني، وهي الرواية الشائعة في البلاد الليبية، عدا غدامس والجنوب فانتشرت فيهم رواية ورش عن نافع المدني، وكانت أغلب الكُتّيب على لا تولى أحكام التجويد عناية كبيرة، فتجد فقهاء كبار وعلماء أجلاء لا يلتزمون في قراءتهم بأحكام التجويد، ومما أذكره أن الشيخ ذكر بأنه تحول إلى رواية حفص على يد مدرسين مصريين كانا يدرسان معه ولم يذكر اسمهما، ومما يذكر في بعض التراجم التي ترجمت للشيخ بأنه درس رواية حفص وأحكام التجويد على الشيخ المقرئ محمد صديق المنشاوي⁽¹⁾، ففي ظني أنه غير صحيح، وليس عليه دليل، فالشيخ المنشاوي لم يحضر إلى ليبيا إلا في شهر رمضان عندما يكون ضيفاً على الملك فيفتح قصر الملك للعامة فيدخلون يستمعون للقراء المجودين، وهذه الفترة لا تسمح للشيخ المنشاوي بتعليم الناس، كما لم يذكر من ترجم للشيخ المنشاوي أن لديه طلاباً وتلاميذ من المصريين فضلاً عن غيرهم.

يعد الشيخ عبد الله القراضي من الذين أسهموا في نشر رواية حفص في نطاق بلدية حي الأندلس وضواحيها جنزور والسواني والنجيلة، وحسب ظني أن اختياره لرواية حفص كان لأسباب منها:

1. عنايته بها بعد تحوله من رواية قالون.
2. قرب رواية حفص للرسم الإملائي.
3. خلوها من باب الهمز وأحكامه.
4. انتشارها في العالم الإسلامي.
5. كثرة المصاحف المطبوعة بها خاصة فترة السبعينيات من القرن المنصرم.
6. كتابة النصوص القرآنية في المناهج المدرسية بها.

وإن كان بعض المعترضين على الشيخ يعدونه خالف رواية أهل البلد، ولكن صاروا بعد ذلك يحتاجون إليه في ترشيح بعض تلاميذه وتلاميذ تلاميذه لمسابقات عالمية لا يقرأ فيها إلا

(1) ينظر: الإسلام والمسلمون في ليبيا (موسوعة القطعاني) 192/4 للقطعاني، ومن أعلام صرمان، للقراضي 155/1، فضيلة الشيخ عبد الله القراضي ودوره في تحفيظ القرآن الكريم، إعداد الدكتور موسى عبد الله أبو ذينة رَحْمَةُ اللَّهِ، ص 8، (مخطوط)، وصحيفة الدعوة الإسلامية، الصادرة بطرابلس - ليبيا، العدد [1492] بتاريخ (الأحد 9 من ربيع الآخر 1443هـ الموافق 14 نوفمبر 2021م) ص (9) إعداد: محمد علي أبو القاسم.

برواية حفص، مثل مسابقة السعودية والأردن، وهم:

1. محمد عبد الله الحلام شارك في مسابقة السعودية سنة (1995).
2. خالد الفيتوري الهرامة شارك في المسابقة الأردن سنة (1999م).
3. خالد محمد سويسي شارك في المسابقة الأردن سنة (2000م).
4. يوسف محمد سويسي، شارك في مسابقة الأردن سنة (2001م).

كما ترشح بعضهم في لجان تحكيم المسابقات القرآنية في بعض مراكز التحفيظ، عندما انتشرت رواية حفص في مدينة طرابلس وضواحيها، وشارك بعض الطلاب في المسابقات القرآنية التي تقيمها بعض مراكز التحفيظ، وأثبت طلابه الذين درسوا رواية حفص جدارتهم وتميزهم بحصولهم على الترتيب المتقدمة، مما فتح المجال أمامهم، وقلت موجة المعارضة للرواية.

وكان لرئاسته لشعبة تحفيظ القرآن الكريم دور كبير في انتشار تعليم القرآن الكريم على أوسع نطاق، فاتخذ من قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»⁽¹⁾، منهجاً سار عليه فكان لا يشترط في تكليف معلم القرآن أن يكون يحفظه كاملاً له؛ بل يكفي حتى بأقل من ربع ياسين لمن كان قراءته سليمة، ويشترط عليه عدم التوقف عن الحفظ، خاصة في الأماكن البعيدة التي تفتقر لمعلم قرآن من أهل المنطقة، وهذا كان سبباً من الأسباب التي تنافس فيها معلمو القرآن على إجراء المقابلة، فكان يسميها مقابلة ولا يسميها امتحان، وكان بمجرد أن يحضر المعلم الذي يرغب في تعليم القرآن الكريم في منطقة من المناطق النائية إلا ويجري له امتحان على الفور، وهو يقول: لو انتظرنا حتى يحفظ هذا القرآن كاملاً لخسرنا كثيراً من أبناء المسلمين لم يتعلموا القرآن الكريم، فإدام هذا المعلم قادر على تعليم الأجزاء الأخيرة وهو قد حفظ ربع القرآن أو نصفه فيكفيه في إيصال رسالة الإسلام وتبليغها لأبناء المسلمين.

ويبدو أن هذا المبدأ الذي سار عليه نتيجة من نتائج عمله في حقل الدعوة في جمعية الدعوة الإسلامية، ووقوفه على حال المسلمين خاصة في الدول الفقيرة ذات الأقلية المسلمة من دول إفريقيا، فكان في تجواله في تلك الدول يستشعر الخطر المحدق بالمسلمين من خلال جهلهم بدينهم أولاً، وما تقوم به جماعات التنصير ثانياً، ومحاربة الحكومات وتضييقهم عليهم ثالثاً.

(1) طرف حديث أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدَّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث [3461].

• المطلب الثاني: منهجه في تعليم القرآن الكريم.

بما أنَّ الشيخ من الرعيل الأول في مجال التعليم، ومن الموجهين القدامى فكان يأخذ بالطريقة الحديثة في تعليم القرآن وحفظه، حيث يتم تدريس الطلاب من خلال الكتابة على السبورة والحفظ من المصحف، والكتابة في الكراسات، والتلقين الجماعي، وعدم مراعاة الفروق الفردية في الحفظ، بحيث يسير الطلاب في حفظهم مع بعض⁽¹⁾، وهذه الطريقة من عيوبها لا تمكن الطلاب المتفوقين من الانطلاق بسرعة في حفظ القرآن الكريم، وتجعلهم مكبلين في سيرهم مع الطلاب الضعاف، كما أنَّ الطالب الضعيف في بعض الأحيان ينتقل به المعلم إلى سورة جديدة وهو لم يتقن ويحفظ السورة التي قبلها مما يؤثر في إتقانه وضبطه، ومن خلال تلهذي عليه يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. قراءة ربع حزب على الطلبة من المصحف.
 2. تلقين الطلبة تلقيناً جماعياً.
 3. يقوم الطلاب بعرضه خلال أسبوعين عرضاً فردياً.
 4. عندما زاد عدد الطلاب صار التسميع بالمجموعات كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة مع بعض.
 5. خلال تسميع يتناوب الطلاب كتابة الربع على السبورة، ويقوم الشيخ بتصويب أخطاء الكتابة، مما يفيد في اكتساب مهارة الكتابة بالرسم القرآني.
 6. تخصيص ما بين الأذان والإقامة لقراءة حزب من القرآن قراءة جماعية.
 7. تخصيص يومي الخميس والجمعة للمراجعة الفردية.
 8. شرح معاني بعض الكلمات.
 9. الوقوف على إعراب بعض الكلمات والجمل.
 10. تناول بعض الأحكام الفقهية من خلال النصوص القرآنية المحفوظة.
- والعنصر المميز أيضاً في تكوينه هو التربية الصوفية التي كان يتعامل بها مع طلابه،

(1) طريقة تعليم القرآن من المصحف انتشرت انتشاراً واسعاً في الدول العربية والإسلامية بعد تراجع الكتايب والحفظ بالطريقة التقليدية، وقد دأب الكثير من الذين صنفوا في تعليم حفظ القرآن الكريم على ذكر الطرق الناجعة، وهي وإن كانت متباينة فيما بينها؛ إلا أنها تنفق في الاعتماد على الطريقة الحديثة من الكتابة على السبورة والكراسة والقراءة من المصحف والتلقين الجماعي، وقد تناول الدكتور موسى حريز الطرق الحديثة في تعليم القرآن الكريم بتوسع كبير. انظر: أسرار الذاكرة في حفظ القرآن الكريم، للدكتور موسى بن إبراهيم حريزي، ص 209 - 235.

وأود إضافة: أنَّ تقنية المعلومات وقنوات التواصل من خلال شبكة المعلومات دخلت أيضاً في مجال تعليم القرآن الكريم، حيث صار بعض الناس يعتمدون على الحاسوب، ويستمعون لمقاطع مرئية عبر (اليوتيوب) أو عبر منصات التواصل من خلال روابط يقدمها معلم القرآن للراغب في تعلمه، وبذلك يمكن للطلاب أن يدرس ويتواصل مع المعلم صوتاً وصورةً ويسمع الأستاذ ويستمتع إليه ويلقنه؛ بل ويجيزه في روايات القرآن الكريم، وهذا كله من فضل الله في تسخير هذه التقنية لخدمة كتابه.

والمعروف أن الجانب التربوي، والتوجيه السلوكي، وتزكية النفس وتطهيرها من أدرانها وتخليصها من حظوظها، والرفع من مكانتها بالإخلاص والصدق، والعبادة والذكر، والتخلي بمكارم الصفات، والتخلي عن أراذل الأخلاق، كل هذا كان من شأن الطرق الصوفية المبنية على الكتاب والسنة، والبعيدة عن الضلالات والبدع. فحقيقةً كان موفقاً في مراحل حياته التي غرس فيها النبات الطيب الذي أتى ثماره.

ومن خلال النظر في منهجه ممكن أن أوجزه في مبادئ وثوابت سار عليها وحث تلاميذه على الالتزام بها وهي:

1. الإخلاص والصدق في تعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم، فكان عندما يمشي في الشارع ويلتقي ببعض الأطفال ينصحبهم ويحثهم للانتساب للفصول القرآنية.
 2. الالتزام وعدم الغياب عن حلقة القرآن إلا لظرفٍ قاهرٍ.
 3. الحرص على معاملة طلبة القرآن بالرفق واللين، والتحذير من استعمال الشدة والضرب التي تكون سبباً من أسباب انقطاع الطلاب عن حفظ القرآن الكريم.
- ومنهج الرفق واللين في التعليم كان هو الأساس الذي ارتضاه في تدريسه للطلاب، وكان كثيراً ما يستشهد بالحديث الشريف الذي ورد فيه قوله: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يَنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»⁽¹⁾، وأذكر مثالين على ذلك:
- الأول: كان في حلقة القرآن التي يقيمها في بيته، ويتناوب الحضور قراءة حزبٍ من القرآن، فكان عندما يخطئ أحدهم يطلب منه تكرار الآية حتى يصحح الخطأ بنفسه، فإذا كرر نفس الخطأ فإنه يهمس بصوت خافت للقارئ لتصحيح الخطأ.
- الثاني: شاهدني الشيخ -رحمه الله- في يوم من الأيام أضرب أحد الأطفال، فأخذ بيدي بعد صلاة العشاء وقال لي: «لا تضرب الأطفال حتى لا تنفرهم من الدراسة في المسجد وتكون من الذين يصدون عن سبيل الله»، فكان يحذر من القسوة والشدة على الطلاب؛ كي لا ينفروا من حلقات الدرس.

ورغبةً منه في تعلق الطلاب بالمسجد وحفظ القرآن فقد كان يقوم برحلة في الربيع (زردة)⁽²⁾ سنوية خارج المدينة في البساتين يروح فيها عليهم، ويبعث النشاط في نفوسهم؛ بل

(1) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه من حديث السيدة عائشة، باب فضل الرفق، حديث [2594].

(2) انظر: صورة (2) و (3) في الملحق.

ويشاركهم ألعابهم.

وبما أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كان يأخذ في كل شؤونه بمبدأ الرفق واليسير فقد توسع في تعيين مدرسي القرآن الكريم، فكان يسمح لمن يحفظ نصف القرآن أو ربعه، أو حتى أربعة أجزاء ونجح في المقابلة أن يُمكن من تعليم المسلمين خاصة في الضواحي والمدن البعيدة التي يتعذر وجود من يحفظ القرآن كاملاً، وهذا جلب له النقد والاعتراض.

ما جرت عليه العادة في المساجد والكتاتيب تعطيل الدراسة يومي الخميس والجمعة، لكنه يخصص هذين اليومين للمراجعة، حيث يجتمع كل الطلاب من جميع الفصول ويتناوبون تسميع القرآن الكريم، فكان في سائر الأيام يوزع على الطلاب الشاي وخبز الشعير أو الكعك؛ ولكن في يومي المراجعة يوزع عليهم (البقلاوة).

كما كان يدفع بطلابه لكسر حاجز الخوف والرهبة وذلك بإمامة الناس في صلاة القيام، وكان مسجد الرحمة من المساجد التي يتم فيها ختم القرآن بطريقة ربما لا توجد في مسجد آخر، حيث يوزع القرآن الكريم على ستين طالباً يتناوبون على ترتيله في صلاة التراويح.

خاتمة: من خلال هذا البحث المتواضع يمكن أن أجمل النتائج والتوصيات التي توصلت إليها باختصار:

أولاً: النتائج:

1. الشيخ عبد الله القراضي إلى جانب كونه شيخ لطريقة الخليلية، فقد كان فقهياً متمكناً من علوم الشريعة.
2. عمل في حقل الدعوة من خلال جمعية الدعوة الإسلامية.
3. عمل بجهد كبير في تعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم.
4. يعد من أول من قام بنشر رواية حفص بمدينة طرابلس وضواحيها.
5. كان يأخذ بالطريقة الحديثة في تعليم القرآن الكريم.

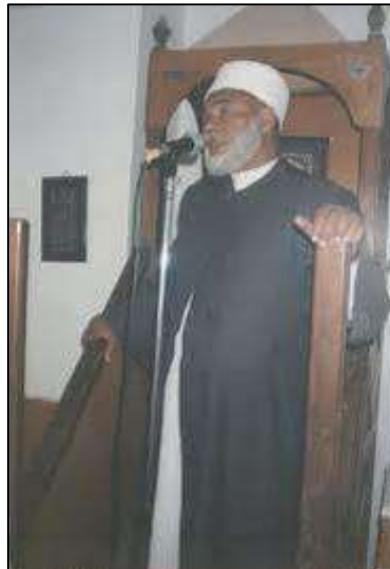
ثانياً: التوصيات:

1. كتابة أبحاث علمية تغطي حياة الشيخ، وجهوده.
2. نشر مقاطع صوتية في موضوعات متعددة من خلال تسجيلاته الصوتية.
3. العمل على وضع تراجم لمعالي القرآن الكريم.

الملاحق



(1) صورة الشهادة العلمية



الشيخ عبد الله القراضي في كهولته في بداية السبعينيات.



(2) صورة تجمع الملائم المسلم محمد علي كلاي بأعضاء وموظفي جمعية الدعوة الإسلامية ويظهر على اليمين الشيخ محمود صبحي رَحْمَةُ اللَّهِ وَعَلَى الْيَسَارِ الشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَاضِي رَحْمَةُ اللَّهِ.



(2) صورة لطلاب المسجد في رحلة سنة (1980م) ويظهر الشيخ عبد الله القراضي رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَسَارِ



(3) الشيخ القراضي مع طلبة الدفعة الثانية من الذين ختموا القرآن الكريم في رحلة لغابة جدآيم سنة (1993م)

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم الكوفي، مصحف المدينة النبوية، (وورد بخط عثمان طه).
2. أسرار الذاكرة في حفظ القرآن الكريم، د: موسى بن إبراهيم حريزي، نشر جمعية التراث، القرارة - ولاية غرداية - الجزائر، ط 1 (1425 = 2004م).
3. الإسلام والمسلمون في ليبيا، المعروفة بـ(موسوعة القطعاني)، للشيخ أحمد سالم القطعاني، دار غريب، القاهرة - مصر، ط 1 (2011م).
4. أوبة المهاجر وتوبة المهاجر، للشيخ أحمد سالم القطعاني، دار بشرى وكلثوم، ط 1 (1442هـ=221م).
5. جمهرة أعلام الأزهر الشريف، أسامة السيد محمود الأزهرى، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية - مصر، ط بلا (1440هـ = 2019م).
6. رواية شفوية من نجل الشيخ محمد الأمير القراضي.
7. سكان ليبيا، هنريكو أغسطيني، ترجمة خليفة محمد التليسي، دار الكتاب العربي، لا ط، لا ت.
8. سنن ابن ماجه، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، تحقيق: جمعية المكنز الإسلامي، إشراف: الدكتور أحمد معبد عبد الكريم، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، ط 1 (1437هـ = 2016م).
9. السنن الكبرى، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 1 (1421هـ = 2001م).
10. السيرة الخليلية، للشيخ عبد السلام الحلواني، المطبعة الوطنية، المنصورة، ط 1 (1339هـ).
11. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف، علق عليه: عبد المجيد الخليالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1 (1424هـ = 2003م).
12. الشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب، الدكتور سيد عبد الحكيم، بلا مكان، بلا ط، (1417هـ = 1996م).
13. صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة الصفا، القاهرة - مصر،

- ط 1 (1423هـ = 2003م).
 14. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به: محمد بن عيادي بن عبد الحلیم، مكتبة الصفا، القاهرة - مصر، ط 1 (1424هـ = 2004م).
 15. فضيلة الشيخ عبد الله القراضي رَحِمَهُ اللهُ ودوره في تحفيظ القرآن الكريم، إعداد: د موسى عبد الله أبو ذينة رَحِمَهُ اللهُ، (مخطوط).
 16. المريني، محمد محمد أبو خليل، بلا ط، بلا ت.
 17. مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا، العدد (2) سنة [1985م].
 18. مشايخ وعلماء طرابلس في الأزهر الشريف، لمحمد الباهي، دار الرسالة، طرابلس - ليبيا، ط 1 (2017م).
 19. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط بلا، ت بلا.
 20. معجم سكان ليبيا، لخليفة محمد التليسي، دار الربان، طرابلس - ليبيا، ط بلا (1991م).
 21. المقدمة ابن خلدون، الدار التونسية للنشر، ط بلا (1984م).
 22. المناقب الخليلية، محمد لطفي خشبة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، بلا ط، بلا ت.
 23. من أعلام صرمان، للدكتور الطاهر القراضي، بلا ت، بلا ط، بلا م.
 24. ورقات مطوية في تراجم أعلام المسابقة القرآنية، خالد محمد بن سعيدان، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، ط 1 (1438هـ = 2017م).

الخطاب الديني في مدرسة الشيخ محمد مفتاح احمدودة "مقاصد ومآلات"

د. عبد المطلب الأمين الزائدي/جامعة المرقب

المقدمة

تعد الخاصية التحويلية للخطاب الديني من أهم سماته، فالدين صالح لكل زمان ومكان، ولطالما ارتبط الخطاب الديني وتأسس بالشخصيات المرتبطة به، فإذا كانت تعيش الحال وتنظر في المآل بفقته مقاصدي شرعي سليم، فإنّ هذا الخطاب يكون حيويًا، ويسهم في تجديد الدين إسهامًا ينأى بخطابه الديني عن الجمود والتحجر، أو الإفراط والتفريط.

ومن خلال سيرة الشيخ أو المؤسس للخطاب الديني في المدرسة الدينية تتجلى مشاركته وما أخذه ومدى تأثيره بالبيئة العلمية والتركيبة الاجتماعية وهويتها، ثم بعد ذلك كيف تطور ذلك الخطاب الديني إلى مدرسة، ومنها إلى مدارس وفروع متعددة في أوساط اجتماعية مختلفة، في ربوع البلاد وغيرها على مدى سنين طويلة، عليه فلا بد لهذا الخطاب الديني أن تكون له أطر وقواعد شرعية ينبني عليها، تأسس هذه الأطر والقواعد على القواعد والمبادئ الشرعية المقاصدية والتنزيلية العامة للدين الإسلامي الحنيف.

من هو الشيخ محمد مفتاح احمدودة؟، وما الأطر العامة للخطاب الديني في مدرسته؟ وما هي أنواعه؟، وماهي الأسس المقاصدية والتنزيلية للخطاب الديني لمدرسته؟.

وفي هذه الورقة يحاول الباحث تسليط الضوء للإجابة على هذه الأسئلة في النقاط الآتية:

شخصية الشيخ محمد مفتاح احمدودة رحمته والأطر العامة للخطاب الديني في مدرسته.

ترجمة الشيخ رحمته وإجازاته في الطرق الصوفية.

التراتب الإداري لمدرسته والمدارس التابعة له.

تأسيس الاختصاصات الإدارية.

الأطر العامة للخطاب الديني في مدرسته.

الخطاب الديني العقدي والتأسيس المقاصدي التنزيلي له.

الخطاب الديني الفقهي والتأسيس المقاصدي التنزيلي له.

الخطاب الديني الصوفي والتأسيس المقاصدي التنزيلي له.

شخصية الشيخ محمد مفتاح احمدودة، والأطر العامة لخطابه الديني، -ترجمة الشيخ رحمته.

ولد رحمته سنة 1929م، من أبوين كريمين من ذرية سيدي عبد السلام الأسمر رحمته الفيتوري الشريف الحسيني الذي يتصل نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فهو الشيخ الفقيه المرّيّ الصوفي، محمد بن مفتاح بن محمد بن أحمد بن محمد الربيع بن علي بن أحمد بن احمدودة بن إبراهيم بن عمر بن عمران بن عبد السلام الأسمر الفيتوري رحمته، نشأ في أسرة عريقة مكونة من ابنين (محمد وإبراهيم) وبنيتين، عاش في بيئة عربية ليبية أصيلة، مليئة بالقيم والأخلاق الفاضلة، في بيت مشهود له بالعلم والصلاح والتقوى، اشتغل مع والده قصاباً، وبنّاءً، وحلاقاً، وخبّازاً، قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد والتربية والسلوك، وكان يتقن هذه المهن والحرف، درس العلوم الشرعية منذ نعومة أظفاره على يد والده الشيخ مفتاح احمدودة، كما درس في زاوية جده سيدي عبد السلام الأسمر رحمته، حيث كان بيته مجاوراً للزاوية، فقرأ القرآن وتفقه في علوم الشريعة على ثلة من الفقهاء والمشايخ بأسانيدهم المتصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم الشيخ منصور سالم أبوزبيدة⁽¹⁾ والشيخ عبد الله بن عبد السلام احمدودة⁽²⁾، وغيرهما⁽³⁾. ثم بعد أن تلمذ في التزكية والسلوك على يد والده رحمته وأجازه في الطريقة السلامية⁽⁴⁾،

(1) هو الشيخ المرّيّ العلامة الفقيه، منصور سالم أبوزبيدة الفيتوري، ولد عام 1874م، تعلم مبادئ القراءة والكتابة بمسجد التير، بمنطقة إزدو زليتين، ثم تلقى تعاليمه الأولي على يد خاله الشيخ عمران علي الظفير، ثم انتقل إلى زاوية السبعة الفواتير، وحفظ فيها القرآن الكريم، ثم تنقل في تحصيل العلوم الشرعية، وسافر إلى تونس ليحط الرحال في جامع الزيتونة المعمور (أدام الله عمرانه)، وبلاد المغرب الأقصى، مكث في رحلته 15 عاماً، ثم رجع إلى بلاده قبيل الاحتلال الإيطالي، وتولى التدريس في زاوية السبعة الفواتير، ثم أخرج من بلده إلى أعماق الصحراء الليبية؛ لمواقفه النضالية ضد الاحتلال الإيطالي، إلا أنه تمكن من العودة إلى مدينة زليتين، وأمضى بقية حياته في التدريس بزاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر رحمته، توفي رحمته يوم 15/10/1967م، ودفن في مقبرة السبعة الفواتير، ينظر: كتاب الإفهام في تراجم من نسب لمدينة زليتين من الأعلام، مرجع سابق، ص 208.

(2) هو الشيخ الفقيه والمرّيّ الصوفي عبد الله بن عبد السلام احمدودة، من أحفاد الشيخ عبد السلام الأسمر، ولد بمدينة زليتين عام 1892م، التحق بالزاوية الأسمرية وحفظ القرآن الكريم بها، وأخذ العلم الشرعي عن بعض مشايخها، منهم الشيخ أحمد مفتاح المحجوب، والشيخ منصور سالم أبوزبيدة تولى التدريس بالزاوية الأسمرية حتى عام 1957م توفي يوم 7/4/1969م ودفن في مقبرة سيدي عبد السلام الأسمر رحمته، ينظر: كتاب الإفهام في تراجم من نسب لمدينة زليتين من الأعلام، إدريس مفتاح احمدودة، الطبعة الأولى، 2021م، مكتبة بن احمدودة، زليتين، ليبيا، ص 108.

(3) هذا على سبيل المثال فقد عاش الشيخ رحمته فترة عصيبة طريداً من بلده ومسقط رأسه، ولقلة التدوين في هذه = الفترة بالعموم، وما مرّت به الزاوية الأسمرية من حرق للوثائق مرات عديدة، جعل جمع المعلومات عن تلاميذها شبه مستحيل.

(4) الطريقة السلامية، نسبة إلى سيدي عبد السلام الأسمر، فشتهرت به، وهذا معهود عند أهل الطرق الصوفية أنها تشتهر بأعلامها.

نتلمذ على الشيخ محمد الدوفاني⁽¹⁾ فأجازته وأذن له بالإرشاد والتربية في الطريقة العروسية⁽²⁾، ثم رحل وارتحل فأجيز في طرق عديدة منها: العيساوية، والشاذلية، والبدوية، والقادرية، والرفاعية، إرشاداً وتزكيةً، وارثاً محمدياً شعراني التأسيس جنيدي المشرب، ثم بعد أن ألمّ به المرض وأقعده، وشعر بأنّ الرحيل قد آن وقته، أوعز إلى الحاضرين وسلّم أسانيده إلى ابنه الوحيد الشيخ محمد مشيخة عموم الطريقة العروسية السلامية والطريقة الشاذلية والطريقة العيساوية، وسلّم إلى ابن أخيه الشيخ حسين بن إبراهيم مشيخة عموم الطريقة القادرية والبدوية، وشهد على ذلك الحاضرون وهو في حالة شرعية صحيحة، توفي مساء يوم الإثنين الموافق 2007/1/16م، عن عمر ناهز الثمانين عاماً، وكان مدفنه في مقبرة سيدي عبد السلام الأسمر^{رحمته} بمدينة زليتن.

إجازاته في الطرق الصوفية:

تحصّل الشيخ على إجازات عديدة بأسانيدها المتصلة في علم التصوّف والسلوك، فمن ذلك: *الطريقة السلامية: وهي أول طريقة أخذها الشيخ بالإذن من والده وشيخه مفتاح احمده، الذي أخذها عن والده وشيخه محمد أحمد احمده، بالسند المتّصل إلى سيدي عبد السلام الأسمر^{رحمته} ومنه إلى سيدنا رسول الله ﷺ إلى جبريل^{عليه السلام} إلى رب العزة.

وصدرت له إجازة تحمل رقم (1) صادرة من إدارة الأوقاف العامّة بزليتن الخاصة بزواية سيدي عبد السلام الأسمر عام 1957م.

*الطريقة العروسية: وهي ثاني طريقة للشيخ، فقد أخذها على يد شيخه العام محمد الدوفاني،

(1) هو المرّبي والمجاهد الصوفي، محمد بن محمد أحمد الدوفاني، أحد أحفاد الشيخ عبد السلام الأسمر، ولد بزليتن، عام 1882م، ونشأ فيها، درس في زاوية جده القرآن الكريم، وعلوم الشريعة واللغة العربية، نتلمذ على والده الشيخ محمد بن أحمد الدوفاني، والشيخ محمد القط الورفلي، وغيرهما من علماء عصره، اختير وكيلاً لوقف الزاوية الأسمرية عام 1906م، ومع بداية الغزو الإيطالي لليبيّا، تصدر حركة الجهاد ولم يدخر جهداً في مقارعتة حتى أصبح مطلوباً لدى الحكومة الإيطالية، مما اضطره إلى مغادرة البلاد مهاجراً بأسرته إلى بلاد الشام، سنة 1913م، حيث أقام بمدينة عنتاب شمالي حلب، وأسندت إليه مهمة مختار المهاجرين الليبيين هناك، إلى أن سمح له بالعودة عام 1922م، وفي عام 1929م أخذ الطريقة العروسية الشاذلية على يد الشيخ المرّبي عبد الله بن فضل الفيتوري، وأصبح بتلك الإجازة شيخاً لهذه الطريقة على عموم ليبيّا، فأخذ في الإشراف على الزاوية العروسية منذ عام 1931م، وأمضى بقية حياته في الوعظ والإرشاد، ومجالس الذكر، إلى أن توفي يوم الخميس 20 شعبان، 1388هـ = 1969/1/9م، ودفن في مقبرة سيدي عبد السلام الأسمر^{رحمته}، ينظر: كتاب الإفهام في تراجم من نسب لمدينة زليتن من الأعلام، مرجع سابق، ص 186.

(2) الطريقة العروسية، لكونها عروس الطرق الصوفية وليس نسبة إلى سيدي أحمد بن عروس^{رحمته}، كما يظن الغالب من الناس، فقد كان الشيخ^{رحمته} يؤكّد على ذلك استناداً إلى قول الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في عدة مشايخه المسماة بالسلسلة الذهبية: (....وهي عروس الطرق الزكية....).

الذي أخذها عن شيخه عبد الله بن فضل⁽¹⁾، بالسند المتّصل إلى سيدي أحمد بن عروس رحمته الله ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة.

وصدرت له إجازة تحمل رقم (7) صادرة من إدارة الأوقاف العامة بزليتن الخاصة بزواية سيدي عبد السلام الأسمر بتاريخ 22 ربيع الأول 1386هـ الموافق 10 مايو 1966م ومصدقة بمحكمة زليتن الشرعية.

*الطريقة الشاذلية⁽²⁾: وهي ثالث طريقة للشيخ، فقد أخذها على يد الشيخ العربي الحضيري⁽³⁾ الذي أخذها عن الشيخ محمد الأمين المغربي⁽⁴⁾، بالسند المتّصل إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمته الله ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة جل جلاله.

كما أنّ له إجازة شيخ عام في هذه الطريقة تحمل رقم (1) صدرت له عن الشيخ العربي الحضيري رحمته الله بالجديد سبها بتاريخ 21 ربيع الآخر 1398هـ الموافق 30 مارس 1978م ومصدقة من الهيئة العامة للأوقاف سبها.

*الطريقة القادرية⁽⁵⁾: هي رابع طريقة للشيخ، وله سند فيها صحيح، فقد أخذها عن الشيخ

(1) واسمه عبد الله أبوراوي بن عبد الله بن فضل، من مدينة العجيلات، غربي مدينة طرابلس، عاش حياته وتربى بين جدران الزاوية العروسية التي أسسها والده رحمته الله عام 1906م، كان والده من المجاهدين إبان فترة الغزو الإيطالي لليبيا، حتى نفي إلى جزيرة بونزا الإيطالية، وتوفي هناك سنة 1946م، وقد شب ابنه عبد الله من بعده بصفات الخلق الحسن والزهد والعبادة، فأضاف إلى زاوية والده مسجداً كبيراً، عكف فيه إلى أن وافته المنية في يوم 20/11/1973م، ودفن ببلدة العجيلات. ينظر: المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب، سالم سالم شلابي، الطبعة الثانية، 2021م مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ص 189.

(2) الطريقة الشاذلية، نسبة إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمته الله.

(3) ولد في سنة 1880م، بمدينة سبها، بمنطقة الجديد، حفظ القرآن الكريم على الشيخ محمد بن عبد السلام بن محمد، سَلِم مشيخة عموم الطريقة الشاذلية إلى الشيخ محمد مفتاح احمودة ليكون شيخاً عاماً للطريقة الشاذلية داخل البلاد وخارجها وذلك يوم الخميس الثاني من ربيع الآخر سنة 1398 هجري الموافق 30 مارس 1978 ميلادي، انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة 1984م عن عمر يناهز 104 سنة، هذه المعلومات مصدرها الأستاذ محمد أبو الأسعد الصادق، حيث كان أحد الحضور مع بعض المشايخ في تسليم الإجازة الشاذلية للشيخ، ينظر أيضاً: الطريقة الشاذلية العظمية الإرشاد والإمداد والجهاد، تأليف مجموعة من الباحثين، مركز نجيبويه، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1443هـ، 2022م، ص 397.

(4) هو الشيخ محمد الأمين بن زين العابدين القلبي الحسيني الإدريسي نسباً، والقلاقة بيت علم وصلاح بشنقيط، ولد سنة 1279هـ 1863م، بمنطقة كوش في الحوض الشرقي، تلقى معارفه على والده، وكان من أكابر العلماء والسيوخ، ثم رحل إلى ولانة المشهورة بكثرة علمائها، وطلب العلم في تنبكت، ثم انتقل إلى الشيخ الجليل عالي بن آفه، فلازمه برسم التربية والسلوك، حتى وفاته، ثم انتهت إليه الخلافة في الطريقة الشاذلية العظمية ينظر: الطريقة الشاذلية العظمية الإرشاد والإمداد والجهاد، تأليف مجموعة من الباحثين، مرجع سابق ص 370.

(5) الطريقة القادرية، نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني رحمته الله.

الصادق الحبيب الهمامي⁽¹⁾ الذي أخذها على يد شيخه وأستاذه سيدي إبراهيم بن أحمد الشريف⁽²⁾ بالسند المتّصل إلى سيدي عبد القادر الجيلاني رحمته الله ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة.

وله إجازة شيخ عام فيها برقم (1) صدرت له عن الشيخ الصادق الحبيب الهمامي رحمته الله بقابس تونس، بتاريخ 20 شعبان 1398 هـ الموافق 25 جويلية 1978م، ومصدقة من المحكمة الابتدائية بقابس الداخلة في نطاقها.

* الطريقة الأحمدية البدوية⁽³⁾: وهي خامس طريقة للشيخ، وله فيها سند صحيح موصول، فقد أخذها عن الشيخ العام أحمد محمد كامل البهي⁽⁴⁾، عن والده محمد كامل البهي⁽⁵⁾، بالسند المتّصل إلى سيدي أحمد البدوي رحمته الله ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة.

وله إجازة فيها برقم (1) صدرت له عن الشيخ العام أحمد كامل البهي، بطنطا مصر بتاريخ 17 ذو الحجة 1402 هـ - 4 أكتوبر 1982م مصدقة وموقّعة من سكرتير الأوقاف بطنطا مصر.

(1) ولد في شهر أبريل من عام 1941م، في مدينة مدينين التونسية، اشتغل كاتباً في المحكمة الابتدائية بقابس إلى أن وصل مرتبة رئيس كتاب، تلمذ على الشيخ محمود الفيتوري، عام 1948م بالزاوية العروسية بمنزل قابس -إحدى مدارس الشيخ في تونس- إلى سنة 1959م حين وافى شيخه الأجل وأشار إليه شيخه المذكور بالذهاب إلى الشيخ الشاذلي خلاص رحمته الله والحاج جلول الجزيري رحمته الله ولا زهما حتى وفاتهما. وفي سنة 1973م عين إماماً ومقدماً بالزاوية القادرية، وقتها تعرّف والتقى بالشيخ عبد السلام بن عمار بن الحاج لطيف، ثم بعد ذلك تعرف على الشيخ إبراهيم بن الحسين الشريف في جمنة بوعبد الله سوق الأحد من ولاية قبلي بالجزائر، وأجازه في الطريقة القادرية، بعد أن أجاز قبله الشيخ الجيلاني الشريف بسيدي بوزيد وهو حفيد سيدي إبراهيم بن أحمد رحمته الله دفين نفطة، وفي زيارة الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر رحمته الله في 5 أكتوبر 1962م تعرّف على الشيخ محمد مفتاح حمودة رحمته الله الذي أجازه في الطريقة العروسية السلامية بتاريخ 20 مارس 1977م، يقول الشيخ الصادق حفظه الله وقد أخذ عني الشيخ سيدي محمد مفتاح حمودة الطريقة القادرية بطلب منه وأجزت له فيها إجازة عموم ليعطيها لمن أراد الدخول فيها في القطر الليبي. والحمد لله الذي ربط بيننا في الطريقتين العروسية والقادرية وكنا لحة واحدة. ترجمة الشيخ المذكور كتبها بخطه وأرسلها إلى الشيخ العام محمد محمد مفتاح حمودة، بتاريخ 1-8-2022م.

(2) هو الشيخ إبراهيم بن أحمد بن محمد الغماري الشريف الحسني، جزائري الأصل، من قبيلة البوازيد العربية، بين فواغلة وبسكرة، ولد بنفطة عام 1229هـ، 1813م كفله جده من أمه الولي الصالح ضيف الله، بعد أن تركه والده صغيراً، وعندما كبر تلمذ على الشيخ أبي بكر الشريف، دفين زاوية توزر القادرية، أسس زاوية نفطة عام 1251هـ، 1835م، كما أنشأ زاوية المنعة بباتنة عام 1280هـ، 1863م، والمعروفة بزاوية بلعباس وغيرها توفي عام 1292هـ، 1875م، بنفطة وضرجه مشهور بناحية رأس العين. ينظر دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية، عاشوري قمعون، مقال في مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، جوان 2006م ص 71.

(3) الطريقة الأحمدية البدوية، نسبة إلى سيدي أحمد البدوي رحمته الله.

(4) أحمد محمد كامل البهي رحمته الله، لم أعر له على ترجمة فيما اطّلت.

(5) محمد كامل البهي رحمته الله، لم أعر له على ترجمة فيما اطّلت.

*الطريقة العيساوية⁽¹⁾: وهي سادس طريقة للشيخ، وله فيها سند، فقد تسلمها من الشيخ محمد الخلف الحضيري⁽²⁾، بمدينة سبها، الذي أخذها عن الشيخ إدريس بن الكامل⁽³⁾، بمقام سيدي محمد بن عيسى رحمته الله إلى جبريل رحمته الله إلى رب العزة.

وله فيها إجازة برقم (1) صدرت من الشيخ العام إدريس بن الكامل بمقام سيدي محمد بن عيسى رحمته الله، بمكاس المغرب، بتاريخ 7 ذي القعدة 1404 هـ الموافق 18 ديسمبر 1984 م ومصدقة من الأوقاف المغربية.

*الطريقة الرواسية الرفاعية⁽⁴⁾:

وهي سابع طريقة للشيخ رحمته الله وله فيها سند صحيح، فقد أخذها عن شيخه عبد السلام أحمد على الشيشي⁽⁵⁾، الذي أخذها عن الشيخ الفاضل ناصر الدين عبد اللطيف بن ناصر الخطيب⁽⁶⁾ بالأردن، بالسند المتصل إلى سيدي أحمد الرفاعي رحمته الله، وهكذا تتصل السلسلة بسندها

(1) الطريقة العيساوية، نسبة إلى سيدي محمد بن عيسى رحمته الله.

(2) ولد في مدينة سبها بمنطقة الجديد عام 1916 م، حفظ القرآن الكريم وتعلم أصول الفقه والعبادات على مشايخ = المنطقة، كان كثير السفر والترحال وأهم محطاته الأولى بالجنوب الليبي قرى وادي الشاطئ ومناطق أوباري والقطرون ومناطق شمال تشاد التي أقام فيها لسنوات عديدة، وتعرف على حياتهم عن قرب، حيث تعلم لغتهم وأتقنها ليكون لهم مرشداً ومحفظاً، ثم رحل إلى تونس التي تعتبر مكتبته لاقتناء الكتب والتحاو مع علماء جامعة الزيتونة في أصول الفقه المالكي وغيره من العلوم، وكان حريصاً على دراسة علم التصوف واقتناء الكتب المتعلقة به، ثم في المغرب كانت رحلته الأخيرة والتي تواصل فيها مع جذور تاريخ عائلة الحضيري، حيث قام بجولة إلى صحراء المغرب، ومن خلال زيارته إلى المغرب كلفه الشيخ العام محمد مفتاح أحمودة بتسلم إجازة الطريقة العيساوية من الشيخ إدريس بن الكامل بمقام سيدي محمد بن عيسى بمدينة مكاس المغربية، ليتولى بعد ذلك تسليمها له، انتقل إلى رحمة الله يوم 24 يوليو من العام 1993 م.

(3) ولد في مكاس سنة 1963 م، في أسرة كريمة معروفة بالصلاح والتقوى، درس القرآن الكريم على الشيخ سيدي بن عيسى أحد فقهاء مكاس، وانتظم في المدارس النظامية، تحصيل على الشهادة الثانوية في مدارس مكاس، وجالس علماء الزوايا العيساوية وسمع منهم وروى عنهم وتعلم على أيديهم وحضر في الفقه المالكي على العلامة الشيخ محمد العرايشي بن كحلوم، تلمذ على والده الشيخ الكامل وأخذ عنه وعمره أربعة عشر عاماً، وبعد وفاة والده تلمذ على عمه الشيخ محمد الهاشمي، فلازمه وصحبه حتى وفاته في سفره في سياحات في المغرب وغيرها، وفي زيارة له لليبيا التقى ببعض الزوايا وأنكر عليهم نسبتهم إلى هذه الطريق وتغيير الأوراد والأذكار والمنهج المتبع في هذه الطريقة، ينظر: أعلام الطريقة العيساوية، أحمد القطعاني، الطبعة الأولى، 1441 هـ، 2019 م، دار بشرى وكنثوم، ص 294، واطلعت على مقطع مصور له على شبكة الإنترنت في الآونة الأخيرة أكد فيه تسليمه لمشيخة عموم الطريقة العيساوية في ليبيا للشيخ محمد الخلف رحمته الله ثم سلم المذكور للشيخ محمد مفتاح احمودة رحمته الله، ثم سلمها لولده محمد محمد احمودة، وذكر كذلك الزوايا التابعة لمشيخة عموم الطريقة العيساوية في ليبيا، ينظر الرابط: <https://www.facebook.com/100012496124429/videos/826303341686165>

(4) الرواسية، نسبة إلى الشيخ الرواس: بهاء الدين محمد مهدي الرفاعي، والرفاعية نسبة إلى سيدي أحمد الرفاعي رحمته الله.

(5) عبد السلام أحمد على الشيشي رحمته الله، لم أعثر له على ترجمة فيما اطلعت.

(6) ناصر الدين عبد اللطيف بن ناصر الخطيب رحمته الله، ولد في القدس عام 1955 م، أسماء والده تيمناً على جده، بناصر الخطيب الذي كان يعمل بالدولة العثمانية (تحصيل دار)، مؤسس الزاوية الرواسية الرفاعية في جبل الزهور عمان عام 1973 م،

من شيخ إلى شيخ إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام إلى رب العزة.

التراتب الإداري لمدرسته رحمه الله والمدارس التابعة لها.

رتب الشيخ مدرسته والمدارس التابعة لها، ترتيباً إدارياً سليماً بحيث لم يكن بدءاً من المدارس الصوفية القديمة، والتصوف الطريقي، تتكون من مجموعة من المسؤولين، وهم: الشيخ أو المقدم والنقيب، والشاوش الأول، والشاوش الثاني، والشاوش الثالث، إضافة إلى المنتسبين والمريدين لهذه المدرسة، تتولى هذه المجموعة إدارة الزاوية والمدرسة كل حسب اختصاصه (كما سيأتي) في نسق سليم ومنهج قويم.

وعلى هذه التراتبية فإن الشيخ العام، وضع لمدرسته⁽¹⁾ هذا النسق، وأكد عليه تأكيداً جازماً فرسم لمدرسته هذا النظام، إلا أن المريدين والمنتسبين لمدرسته لهم وضعهم الخاص، على اعتبار أنهم سيتخرجون في مدرسته، ويرجعون إلى مناطقهم، حاملين معهم رؤية الشيخ ورسالته وأهدافه وخطابه الديني، فعمد إلى إعدادهم وبنائهم بناءً عقلياً وشرعياً سليماً يؤهلهم كقادة ومقدمين، من مشايخ أو نقباء أو شواش، كل حسب إمكانياته وقدراته.

وهذه التراتبية التي يمكن أن يقال إنها إدارية تنظيمية لمدرسته، تستقي أصولها وقواعدها من القرآن الكريم والسنة النبوية وعمل الصحابة رضوان الله عليهم.

فعمد على بناء من يرى فيهم -أنهم يندرون قومهم إذا رجعوا إليهم- بناءً سليماً، وترك للبنية والتركيب الاجتماعية على اختلافها، اختيار من يرونهم قدوة يقتدى بهم كمشايخ ومقدمين، لهم مكنة القيادة والإدارة لمدارسهم بين أهلهم وذويهم في ربوع هذه البلاد وغيرها، وليس هذا فحسب، بل جعل لهذه المجموعة من المسؤولين "المقدم (شيخ الزاوية)، والنقيب، والشاوش الأول" اجتماعاً دورياً معه (في آخر أيامه) وحدد لكل منهم مهمته وخطابه الديني،

انتقل إلى الأردن بعد حرب 67، توفي رحمه الله ودفن بمسجد ودار الامام الرواس في الاردن بالعاصمة عمان عام 2012م. ينظر: التقريب في سيرة ناصر الدين الخطيب، محمد أبو عوض، دار الكتب العلمية ص71، وأيضاً: كتاب أسرار الطريق الصوفي مجتمع التصوف والزوايا والحضرات في الأردن، محمد أبو رمان، مؤسسة فريدريش آيبرت مكتب العراق والأردن، ط2، 2020م، ص 122.

(1) لم يسعف الباحث جمع المعلومات عن مكان ومبنى الزاوية التي كان الشيخ رحمه الله يديرها، قبل أن تزال ويحال الأمر إلى منزل أسرته الكائن بقربها، إلا أن السماع تطرق إلى الباحث بروايات سماعية من الشيخ رحمه الله ومن غيره، أن مكانها هو زاوية الإمام الفقيه سيدي سالم السنهوري، والتي أصبح مع الأسف الشديد موقف للسيارات، ولعل هذا من مساعي المعارضين لمدرسة الشيخ رحمه الله ودعوته إلى الله ﷻ، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ومما نقل بالسماع أن أحد رفقاء الشيخ رحمه الله وأصدقائه، وهو الحاج مفتاح الحبيبي رحمه الله كان يقول: عندما يعتريه المرض، فإني أجلس في مكان الزاوية فأشفي ببركة هذا المكان، والله تعالى جعل للأماكن والأوقات فضائل وخصوصيات ونفحات، وهو على كل شيء قدير.

إذ كان كثير السفر والتعهد لمدارسه بالوعظ والإرشاد (حال صحته)، فقد أسس رحمته قبل وفاته 130 مدرسة أو زاوية، فيها 122 مدرسة في ليبيا موزعة على شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها، وأما في دولة تونس فقد كانت هناك ثماني مدارس تابعة لمدرسته.

تأسيس الاختصاصات الإدارية.

* شيخ الزاوية (المقدم)⁽¹⁾: هو إمام مقدّم على تلاميذه، يتولى وضع آية وخطة العمل بالخطاب الديني في مدرسته، وفق توجيهات شيخه العام، ناظراً ومرفقاً في أحوال التلاميذ والمريدين له صلاحية تلقين المريدين الأوراد والأذكار وإجازتهم بها وكالة⁽²⁾ عن شيخه العام كما هو معهود في أسانيد المكتوبة، وهو إمامهم في الصلاة، يقرأ بهم الوظائف والأذكار والدعاء.

* أما النقيب: فهو نائب المقدّم أو الشيخ في حال غيابه، إلا في تلقين المريدين، إضافة إلى أنه من يتولى مهمة العمل بالخطاب الديني في مدرسته، من تعليم المريدين والمنتسبين فروضهم العينية وهو من يتولى ترتيب الموالد النبوية، والاحتفال بالمناسبات الدينية، والقصائد وتنظيمها.

* والشاوش الأول⁽³⁾: هو أمين سر المدرسة، ومهمته خدمة الزاوية وممتلكاتها، وخدمة المريدين

(1) جمعها مقادير هو سالك صوفي ما بين درجة المريد ومرتبة الشيخ في التصوف الطريقي، والمقدّم رتبة من المراتب الصوفية. والمقدم هو من له الإذن في تلقين الأوراد وكالة عن شيخه، وهو تحت مسؤولية الشيخ العام، للتفصيل ينظر بغية المستفيد

لشرح منية المريد، محمد العربي السائح العمري دار الجليل بيروت، لبنان، ص 285.

(2) صورة التوكيل بالإجازة: أن ينصب الشيخ من ينوب عنه في منح الإجازة للطلبة، فيروي المجازون عن الشيخ الموكل مباشرة، وهذا النوع من الإجازة أضافه إلى أنواع الإجازة الإمام الزركشي (ت 794) في النكت، وألحقها السخاوي (ت 902) بالإجازة المعلقة بمشيئة الغير. ولم يختلف من أورد هذه الصورة على جوازها، ذلك أن المحدثين قاسوا بعض مسائل الإجازة بالوكالة، فلا مانع إذاً من التوكيل بالإجازة، وكما جاز التوكيل في الأمور المادية كالبيع والشراء، يجوز في الأمور المعنوية كالإجازة، وكذلك القياس على المكاتب، فإنه يجوز فيها أن يأمر غيره بالكتابة نيابة عنه، فكذلك يجوز أن يأمر غيره بالإجازة نيابة عنه. فتراتب الوكالة عند الزركشي: مرتبة أعلى، وصورتها: أن يوكله بإجازة شخص معين أو أشخاص معينين، مرتبة أدنى: وصورتها أن يوكله بإجازة من يطلب منه الإجازة. ومن عمل بالوكالة: إبراهيم بن خلف بن منصور الغساني (ت 620)، والخليفة الناصر لدين الله أحمد بن الحسن بن يوسف العباسي (ت 622)، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852). فالتوكيل بالإجازة تجري عليه أحكام الوكالة، فيجوز للموكل عزل الوكيل متى أراد، وكذلك تبطل الوكالة بموت الموكل إجماعاً.

(3) يقول الشيخ أبو المكارم عبدالكبير الكافي في كتابه نجوم المهتدين في خاتمة آداب الاجتماع على الذكر، وشروطه "الرابع خديم يقوم بوظائف القوم يسقي لهم الماء لوضوئهم ولشربهم، ويقوم بالمصباح ويصلح شأنها طوال الليل، ويخدم السماط (الجماعة من الناس، كما في لسان العرب، 322/7 والمراد بساط الأكل) ويصلح النعال، ولا يكون الخديم إلا من عينه القدوة لذلك ممن فيه أهلية، فإذا عين خديماً فقد فاز بالسيادة، لقوله ﷺ: "سيد القوم خادمهم"، (أورده أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة عن عقبة بن عامر مرفوعاً) وينبغي أن يحفظ الجمع حقه، ويوجبوا له واجبه، فقد أثبت له صاحب

والمنتسبين، إضافة إلى الصلاة على النبي ﷺ تنبيهاً، وتعشيقاً.

* الشاوش الثاني (شاوش الصف): وهو من يتولى تنظيم المريدين والمنتسبين وصفوفهم في مجالس الذكر، وغيرها، إضافة إلى خدمة المريدين والمنتسبين، والصلاة على النبي ﷺ، تنبيهاً وتعشيقاً بالترتيب مع الشاوش الأول والشاوش الثالث.

* الشاوش الثالث: وهو مكلف بخدمة المريدين والمنتسبين بالتنسيق مع الشاوش الآخرين.

* المنتسبين والمريدين: وهم تلاميذ المدرسة وطلابها بمختلف أعمارهم، فالتلاميذ ليس لهم علاقة إلا بأنفسهم أو الواجبات المكلفين بها، فلا يتدخلون في أعمال المسؤولين عليهم إلا إذا طلب منهم ذلك.

كما وضع ﷺ نظاماً للاجتماع الأسبوعي، في يومي الأحد والخميس ليلاً، أو الاثنين والجمعة عصرًا، ويخصص الاجتماع الأول (الأحد ليلاً، أو الاثنين عصرًا)، للدروس والتعليم، أما الاجتماع الثاني (الخميس ليلاً، أو الجمعة عصرًا)، فغالباً ما يخصص لمجالس الذكر والوظائف والإنشاد والحضرة، إضافة إلى الاجتماعات الأخرى حسب المناسبات الدينية والاجتماعية.

وفي الدروس والتعليم فإنه اعتمد ﷺ جملة من الكتب في العقيدة والفقہ والتصوف، مع مراعاة الترتيب والتدرج في خطابها الديني، من أهمها: عقيدة الامام السنوسي وشروحها، متن ابن عاشر وشروحه، وكتب الإمام الشعرائي كالأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، إضافة إلى الحكم العطائية وشروحها، وكتب الإمام زروق، ووصايا الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، وغيرها.

ومن أشهر التلاميذ والمقدمين الذين لا يسع المقام حصرهم:

1- الشيخ رمضان بن مسعود ﷺ⁽¹⁾.

النبوة السيادة، نجوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتأخرين، أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكافي، تحقيق عدنان عبد الله زهار، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2007م، 1428هـ، ص 134 .

(1) شيخ الزاوية الشاذلية والعروسية بأولاد مرابط بمنطقة غنيمية، ولد سنة 1950م بمنطقة غنيمية الخمس، تلقى تعليمه بمسجد القرية (مسجد أبو سناق العتيق) على الشيخ الفقيه إسماعيل عمار، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية والإعدادية، ثم بمعهد المعلمين الخاص (شعبة اللغة العربية والدين) معهد أحمد النائب بترهونة، حيث تخرج منه سنة 1974م وكان ترتيبه الرابع على الجمهورية الليبية في ذلك الوقت، وفي السنة نفسها عين مدرساً لمادتي التربية الإسلامية واللغة العربية بمدرسة المهدي بن بركة بمنطقة غنيمية، ثم انتقل للعمل بمدرسة الانتصار سنة 1987م ولم يمكث بها طويلاً حتى انتقل للعمل بمكتب

- 2- الشيخ عبد الرحمن بلال⁽¹⁾.
- 3- الشيخ الصادق الهمامي التونسي حفظه الله⁽²⁾.
- 4- الشيخ ميلاد امبيص⁽³⁾.
- 5- الشيخ يوسف الفيتوري عبد الرحمن⁽⁴⁾.

التفتيش التربوي بالنخس، موجهاً لمادتي التربية الإسلامية واللغة العربية واستمر في عمله = إلى حين تقاعده. وكانت له بصمة واضحة في مجال عمله حيث كُلف بوضع أسئلة مادة اللغة العربية لامتحان شهادة إتمام مرحلة التعلم الاساسي في السنوات 1990، 1993، 2006، 2008. وبتاريخ 5/1/1985م وبناءً على رغبة الأهالي المجاورين لمسجد أبو شناق بقرية أولاد مرابط بغنيمة، تقرر تكليفه للقيام بخطابة الجمعة والعدين، وبتاريخ 21-12-2006م، تم تعيينه مأذوناً شرعياً لحلقة غنيمة. ولما يتمتع به من شعبية وقبول من الجميع، أسهم في حل النزاعات في المنطقة والمناطق الأخرى ساعياً بين الناس بالإصلاح. وبتاريخ 21 من ذي القعدة 1441=2020/7/12م، انتقل إلى رحمة الله الواسعة ووري جثمانه الطاهر بمقبرة المسجد الذي كان إماماً فيه، كتبها الاستاذ محمد محمد المجيرى، نشرها في صفحة الشيخ الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي على الرابط: <https://.facebook.com/profile.php?id=100039912345645&sk=about>

(1) ولد بمنطقة اوباري في الجنوب الليبي سنة 1926م، حفظ القرآن في كاتيب منطقته، كان كثير الترحال ليعلم القرآن الكريم في مناطق عدة أهمها: أوباري والشاطئ ودرج قرية ماترس، إلى أن استقر في منطقة سيناون معلماً للقرآن الكريم، ثم رجع إلى منطقته معلماً وخطيباً، حيث التقى آن ذاك بالشيخ العام محمد مفتاح أحمودة رحمته الله سنة 1974م حيث أجازته شيخاً ومقدماً بالزاوية العروسية في منطقته، فكان بعدها مرافقاً لشيخه في زلتي وفي قلعة سوف الجين ببلدة ورفلة وغيرها، انتقل إلى رحمة الله تعالى في 22 يناير 1994م، عن عمر يناهز 93 سنة، قضاها في تعليم كتاب الله وإرشاد الناس وهدايتهم، دفن رحمته الله في مقبرة سيدي منيدر بطرابلس.

(2) وهو تلميذ الشيخ رحمته الله في الزاوية العروسية بقابس، وشيخه في الطريقة القادرية كما مر.

(3) هو الشيخ ميلاد محمد امبيص ولد سنة 1943م، بمنطقة غنيمة بأولاد مرابط، تلقى تعليمه في منطقته وفي منطقة مصراته، تدرج في وظيفة التعليم في منطقته وتولى إدارة مدارس عديدة، أجبر في الطريقة العروسية والشاذلية بتاريخ 2/8/1982م، وعين مقدماً في زاوية أولاد امرابط بغنيمة والتي كان أشهر تلاميذها الشيخ رمضان مسعود رحمته الله، ثم استقر به المقام في مدينة طرابلس، فعين مقدماً في زاوية الشيخة سلمة العمورية، التقى بالناظر الشيخ سالم احمودة سنة 1959م، وتعارفا بمعية شيخه الشيخ محمد مفتاح احمودة رحمته الله، وكانت تربطه به علاقة قوية وصدافة متينة حتى وفاته، توفي الشيخ ميلاد رحمته الله في منزله بطرابلس، يوم 6/4/2021م. هكذا نقلت من ولده محمد ومن صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي.

(4) ولد سنة 1934م، ببلدة شحات في الشرق الليبي، عمل في الشرطة في مجال التحقيق، نال احترام الناس، وذكره كانت مشرفة وكان متعلقاً ومحباً للسادة الفواتير، وهذا حال أبوه الفيتوري، حين سمي بذلك، وكذلك كان جده = الطيب بن عبد الرحمن، ومن هؤلاء الفواتير الشيخ المرحوم حمد الفيتوري حفيد الشيخ عمران بن بركة الفيتوري، كان رحمته الله كثير المطالعة، صافي الذهن والقلب ذي فراسة وحسن تدبير ذي رأي صائب، حيث كان يأتيه الناس للمشاورة في شؤونهم الخاصة والعامة. وفي عام 1993م سحب الشيخ الفاضل محمد مفتاح حمودة رحمته الله، وكان قد زاره الشيخ رحمته الله في بلدة شحات حين اجتماع مع الشيخ حمد بن بركة، فكان مجلساً مباركاً حصل له فيه الإذن لطريق التركية والسلوك، زار شيخه رحمته الله في بلدة زلتي مرات عديدة ونضجت العلاقة بينهما في صحبة طيبة مثمرة، توفي رحمته الله قبيل عيد الأضحى بمخسة أيام في بيته بتاريخ 23/9/1999م. هكذا نقلت من الشيخ العام محمد محمد مفتاح احمودة حفظه الله ورعاه بتصرف بسيط.

الأطر العامة للخطاب الديني في مدرسته.

معلوم أنّ الأطر والقواعد التي ترسم معالم الخطاب الديني للمدارس الدينية تتحدد بالمسيرة العلمية والعملية لمؤسسيها، فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب العملي لمسيرة المؤسس العملية فلا يمكن أن تُتأسس المدرسة على الجانب النظري دون العملي، وعند النظر من قرب في سيرة الشيخ في تأسيس الخطاب الديني لمدرسته يتبين أنه يتّسم بالعملية أكثر من التأسيس النظري الخالي من العمل.

عليه فإنّ الخطاب الديني للشيخ رحمته الله في مدرسته تأسس على ثلاثة أنواع:

الخطاب الديني العقدي.

الخطاب الديني الفقهي.

الخطاب الديني الصوفي.

وقبل الذهاب إلى التأسيس المقاصدي وآلاته التنزيلية ومآلات هذا النوع والتدرج لهذا الهرم الثلاثي من أنواع الخطاب الديني، لا بد من التعرّيج البسيط على كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة للتعرف عليه وعلى مكوناته، وما هي مقاصده وأدواته التنزيلية.

الخطاب الديني العقدي.

أسس الشيخ رحمته الله الخطاب العقدي لهذه المدرسة على عقيدة أهل السنة والجماعة وأرسى دعائم هذا الخطاب الأساسية على أمور عدة، منها:

1- ترسيخ العقيدة الإسلامية الأشعرية الصحيحة السليمة، من خلال الدروس والمواظع والإرشادات والخطب التي كان يلقيها حلاً وترحالاً، إضافة إلى البناء العقلي السليم لتلاميذه ومدارسهم الذي هو مناط التكليف والخطاب.

2- تقريره لمختصر مفيد في ست وستين عقيدة، فيما يجب على المسلم اعتقاده في خالقه والرسول والملائكة عليهم السلام، وغير ذلك من الضروريات التي لا يستقيم إيمان عبدٍ مسلمٍ إلا بها.

3- تبنيه للمدرسة الأشعرية العقدية في تنزيه الباري عز وجلّ برأيها في مسألة التأويل ومسألة التفويض (الإقرار والإمرار)، فمن شاء أن يؤول تأويل أهل العلم من هذا الفن، ومن شاء أقرّ وأمرّ المشتبهات في مسائل الأسماء والصفات، والنصوص الشرعية، كقوله تعالى: ﴿الرحمنُ﴾

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿١﴾ وغير ذلك من النصوص الشرعية.

كما اتم هذا الخطاب العقدي بالموضوعية دون التنظير فقط، فلم يكن هذا الخطاب العقدي مما يتعسر على شرائح المجتمع وعامة الناس فهمه واستيعابه وحفظه، إذ لم يتكلف الخوض في المدارس الكلامية والفروق العقدية التي تستصعب حتى على طلبته والمتخصصين فيه، رغم تجرّره في هذا العلم وإتقانه له، إلا أنه رَحِمَهُ اللهُ أَخَذَ تلاميذه باليسير والرفق في ما يجب عليهم تجاه عقيدتهم وإيمانهم بخالقهم دون إفراط أو تفريط.

إضافة إلى هذا التأسيس فقد كان يحض على حفظ هذا المختصر ويطلب من تلاميذه أن يأمروا أولادهم وأزواجهم بحفظه قبل فهمه فهماً سليماً، وليس هذا فحسب فقد وجه الشيخ من يريد الاستزادة أن يقرأ رسائل وعقائد الإمام السنوسي وغيرها من كتب العقائد السننية الخالية من التجسيم والتشبيه.

كما كان كثيراً ما يحث تلاميذه على الإيمان الصحيح والعقيدة الصحيحة والتحلي بهما ظاهراً وباطناً، والتأكيد على شعب الإيمان والتخلق بها، وما ينبي الإيمان الصحيح الراجح، وذلك مسموع ومشاهد من جلسائه وتلاميذه، أذكر مرة عندما سأل أحد جلساء عند دخوله في مجلسه، وقال له: من جاء معك: فقال الجليس: معي الله، فغضب الشيخ من هذا الكلام غضباً شديداً، ونهره وطلب منه التوبة إلى الله من هذا الأمر، وأمره بالتخلي عن هذا التجسيم، حرصاً منه على العقيدة الصحيحة والإيمان السليم.

ومن دقيق المسائل العقدية التي كان حريصاً عليها، تأكيده على شعب الإيمان بما فيها من توكل على الله وتسليم الأمور له تأكيداً جازماً، وكان يتعهد تلاميذه بذلك، ويحثهم على ترك ما وجد من عبارات تداولتها الأعراف وألسنة الناس من ألفاظ لا تليق بالإنسان المسلم الذي يؤمن بالله، أذكر ذات مرة أنه سأل شخصاً من جلسائه وكان قد تغيب عن مجلسه فترة: ما سبب هذا الغياب -سؤال أب حنون لابنه-، فقال الجليس: كنت منشغلاً في طلب الرزق لأهلي وأولادي، فسأله الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مستشرفاً لاعتقاده: وإذا مت من لهم من بعدك (سؤال للتحقق من توكله على الله حالاً ومآلاً)، فقال الجليس: لهم الله، فغضب غضباً شديداً، وقال له: وهل أنت في حياتك تتشارك مع الله في رزقهم والعياذ بالله، ونهاه عن هذا القول والاعتقاد، وأمره بالتوبة إلى الله منه، إلى غير ذلك من الالفاظ التي تداولتها ألسنة الناس

(1) سورة طه الآية 5.

ويظنون أنها على شيء، والتي كان حريصاً على التخلي والتبرؤ منها.

التأسيس المقاصدي التنزيلي للخطاب العقدي.

تعد مقاصد العقيدة، هي جوهر الدين، بل تشكّل ركيزة أساسية يمكن أن يقوم عليها أساس النظر المقاصدي عموماً؛ لأن بنية العبادات تُتقوم بأصول العقائد، وأي خلل فيها يترتب عنه الخسارة في الدنيا والآخرة، فالتأسيس لهذا المنهج، يتم ببيان ما تحققه من مصالح وما تدرؤه من مفساد، وبالإشارة إلى ما ينتج عن سوء فهمها من مفساد، لا يقاس ضررها بما ينتج عن سوء فهم الأحكام الفقهية، "أما مجال العقائد (علم التوحيد وعلم الكلام) فقد خلا تقريباً من النظر المقاصدي، وكأن عقائد الإسلام ليس لها مقصد ولا غرض ولا ثمرة ترتجى، وأنّ على المكلف أن يعتقد ما يعتقد ويصدق عليها قلبه ليس إلا، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فإنه قد يهون، ولكن الذي حصل ونتج عن تغييب مقاصد العقائد هو اتخاذ مقاصد غير مقاصدها، تم تنفيذها من الخصوم المناوئين، والردّ عليها بما يضاده"⁽¹⁾.

ويمكن القول: إنّ الظاهر يتعلّق بالمعرفة اللغوية للنصّ إجمالاً والعقدية بشكل خاص، والمعنى يتعلّق بالمعرفة المقصدية من النص، باستجلاء علته وسببه، والحكمة المقصودة منه، وهذا ما بينه الشاطبي أحسن بيان بقوله: "فالمراد بالظاهر هو المفهوم العربي، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه"⁽²⁾.

وعند إمعان النظر في الخطاب الديني العقدي، يتضح أنّ المراد منه بيان ما يرتبط بجوانب التوحيد والإيمان والتسليم لله ﷻ في الحكم والقدر والشرع، وبتنزيل هذه المعاني على مفهوم مقاصد الشريعة، نستطيع أن نستوعب المراد من هذا المركب الإضافي، بأنه جميع الأوامر والنواهي التي تقوم على أساس إيماني وتوحيدي، لها من المعاني والحكم والمقاصد ما يرسخ منهج الاعتقاد العملي، ولا يكفي فيها الاعتقاد القلبي الذي لا يصحبه عمل، فأول ما نلاحظه في الخطاب القرآني في أمور الإيمانيات والغيبات هو التوجه العملي، فما اختار الله ﷻ أن يُخبر عباده بشيء من الغيب إلا لوجود أثرٍ للعلم بذلك الغيب على سلوك المؤمن ومزاجه وطريقة

(1) البحث في مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله. د. أحمد الريسوني، بحث قدمه لندوة مقاصد الشريعة التي نظمتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن. 1-5 مارس 2005م. في موضوع "مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله".

منشور بموقع <http://abohosamsaef.yoo7.com> :

(2) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، الطبعة السابعة، 2005م، ص 678

تناوله ومعالجته للأمور.

عليه فإن التأسيس المقاصدي العقدي هو المنطلقات التي تحدد زاوية فهم واستيعاب الأوامر المتعلقة بالإيمان بالله وبرسوله وملائكته وكتبه وبالقدر خيره وشره، وبالإيمان بالغيب، إيماناً مطلقاً يقوم على أساس فهم المعاني والحكم الملحوظة للشارع فيها، فخطاب الشارع المؤسس لقضايا الإيمان والتوحيد والغيب والرسالات السماوية، هو خطاب يقوم على العقل، ويبني على التعليل، ويؤسس لمنهج فكري، يكون فيه مبدأ فهم المعاني البوصلة التي تقيم للعقيدة الصحيحة وزنها وميزانها السليم.

وكان لهذه المدرسة - مدرسة الشيخ محمد مفتاح احمدودة رَحِمَهُ اللهُ بِخَطابها الديني العقدي، الدور الكبير في وضع لبنات مقاصدية ترتبط بجوانب التوحيد والإيمان، انطلاقاً مما تأسس في عقيدة أهل السنة والجماعة، والسواد الأعظم لهذه الأمة المحمدية، فذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، مذهب سني موروث يضرب بجذوره إلى عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم، وفتاويهم واجتهاداتهم التي نشأت على أساس النظر السليم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم انتقل إلى التابعين ومنهم إلى أتباع التابعين إلى يوم الناس هذا.

ومن اللبنة الأساسية لهذا النظر المقاصدي التنزيلي المآلي - على سبيل المثال لا الحصر حرصه على اتباع المنهج القويم في نبد البدع والضلالات والاعتقادات التي لا تؤسس عقيدة نقيّة صافية، إضافة إلى إصلاح الاعتقاد وتنقية القلوب وتصفيتها، الأيلين إلى إصلاح الحال والمآل واكتساب المنهج الصحيح للتصور والتصديق بالدليل والحجة والبرهان ونبد التقليد في العقائد.

هذه أهم القضايا التي ركز عليها في خطابه العقدي، هي التي شكلت لبنات منهجية اعتنى بها تلاميذه من بعده فأصبحوا قياماً بهذا المنهج أمناء على استمرار العقيدة السنية، بما كانوا يبدونه من نفور من الابتداع، وما كانوا يعاملون به مظهري البدع ودعاتها من كراهية وإقصاء لأفعالهم، وقد أودوا في سبيل ذلك في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، وأدوا في سبيل ذلك الثمن من سلامتهم ومن حياتهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، في كل الفترات التي كان يتغلب فيها المدّ الخارجي والداخلي المتطرف أو المغالي.

وبهذا فإن ما قام به الخطاب العقدي للشيخ على مستوى حفظ وتبيين أسس المنهج العقدي السليم يجد عمقه في البلاد كلها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حيث استطاع في هذه

البلاد أن يرسخ عقيدة تقوم على أساس سليم، شكلت في معالمها ركائز قام عليها التلاميذ والأمناء من بعده، تكونت من مجموع تناولهم كتقواعد يبنى عليها هذا العلم ويؤسس عليها في هذه البلاد وغيرها.

الخطاب الديني الفقهي.

وبعد هذا البناء العقدي السليم المتمثل في خطابه العقدي الأشعري وترسيخ قيمه وأدواته، يأتي دور النوع الثاني من أنواع الخطاب الديني للشيخ وهو الخطاب المتعلق بفقهاء الناس في أمور دينها ودنياها، فقد رسم الشيخ معالم هذا النوع وقعد له تقييداً رصيناً من خلال أمور عدة منها:

1- تأكيده على فقه الواقع الذي يحاكي هوية البلاد الفقهية المالكية، وواقعها وأعرافها، من خلال بناء الملكة الفقهية الصحيحة لهؤلاء النفر الذين معه، وبنائهم بناءً فقهياً سليماً يستشرف الحال والمآل بما يحقق لهم ولأهلهم وذويهم - إذا رجعوا إليهم - فقهاً يتماشى مع أعرافهم وواقعهم المعاش في أنحاء البلاد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، ولم يحملهم ﷺ على الفتوى بما في مدينته من واقع وأعراف، وإلا لشق عليهم ذلك.

2- أمّا فيما يتعلق بالمدارس التابعة لمدرسته، فقد حرص ﷺ على أن يقوم بهذه المهمة نوابه من المقدمين والمشايخ والنقباء، ووضع مختصراً فقهياً يدرس في أيام الاجتماعات، يتسم بالاختصار غير الخلل، والضروري من علوم الدين فيما يتعلق بالطهارة والصلاة وغيرها من الثوابت الفقهية في المذهب المالكي السائد في هذه البلاد، وهذا المختصر الفقهي يمكن أن يحقق المطلوب لعوام الناس من غير طلبة العلم والمتخصصين، من كبار السن والأمين والأطفال والنساء وغيرهم.

إضافة إلى تأكيده وحرصه على طلب العلم الشرعي الصحيح، فكثيراً ما كان يحض تلاميذه على طلبه، وعنايته بحفظ كتاب الله، ويشجعهم على طلب العلم ويدعمهم، أذكر أنه عندما قيل له: أن فلاناً ذهب إلى الكلية ليدرس علوم الدين والشريعة، كيف استبشر وجهه وفرح بذلك فرحاً شديداً عملاً بقوله ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (1).

ومن الأمور التي كان الشيخ يؤسس عليها خطابه الديني في طلب العلم وزيارة أهله، التي

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (71)، ومسلم برقم (1037).

لابد أن تكون خالصة لله تعالى، ولكي تكون خالصة لله لابد لها من شروط ذكرها الشيخ منها: أن ينوي الزائر-ومحل هذه النية القلب تشيخ⁽¹⁾ ما يريد تعلمه من أمور الدين، فهذا عرف العلم وأهله، حتى يكون لها نوراً متصلاً وسنداً مباركاً؛ فالإسناد من الدين⁽²⁾، وكذا كان الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم.

فالتشيخ لابد أن يكون في جميع أمور الدين والدنيا، وكذا الأخلاق والآداب والمعاملات. ولكي يكون العلم بالتشيخ كاملاً ونافعاً، يتطلب فيه:

1-الأدب والكتمان⁽³⁾.

2-السؤال، فالحياء في هذا الموضوع كبر، فقد كان ﷺ كثيراً ما يقول: لا ينال العلم مستحي أو متكبر.

3-العلم يحتاج إلى العمل والتطبيق والممارسة، خاصة في التعبّد والتعاملات.

4-العلم يحتاج إلى الشكر والثناء القلبي واللساني، كقول المتلقي أفادكم الله.

5-العلم يحتاج إلى التواضع بعد التعلم.

التأسيس المقاصدي التنزيلي للخطاب الديني الفقهي.

أسس الشيخ ﷺ خطابه الديني الفقهي على جملة من القواعد الشرعية والمقاصدية، والتي تستقي أصولها وجذورها من الدين الإسلامي الحنيف، ولعل من أهم هذه الأسس المقاصدية

(1) هذه العبارة كان الشيخ ﷺ كثيراً ما يستعملها، فالتشيخ باللغة العامية أن تكون المعلومة مشيخة أي معروضة على الشيخ أو أن لها أصلاً من الشرع حرصاً منه على إسناد الأمر إلى أهله، والتثبت في أمور الدين.

(2) قول منسوب لعبد الله بن المبارك ﷺ كان يقول: "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء بما شاء"، الإمداد في معرفة علوم الإسناد، ثبت حافظ الحجاز الامام جمال الدين عبد الله بن سالم البصري المكي، دار التوحيد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006 م، ص 52.

(3) الكتمان المراد في هذا المقام هو النهي عن إفشاء كل ما يعلم إلى كل أحد، ولم يكن أهلاً للانتفاع به، ومراعاة عقول المخاطبين أصل في التعليم فلا بد " أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخط عليه عقله... وقال ﷺ: " ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم" وقال عيسى عليه السلام " لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير" فإن الحكمة خير من الجواهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ قال: "من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار" فقال: أترك الجلام واذهب، فإن جاء من يفقه وكتمته فلياجمني، فقد قال الله تعالى: {تختمت فمهم} [سورة النساء:5]. تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، فكثيراً ما كان يحض الشيخ ﷺ في هذا الأمر على التثبت، بقوله: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم. ينظر: وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته، لابن خلدون، ضمن مجموع يحتوي على أربع رسائل في أصول التعلم والتعليم، إحياء سند العلم، اعتناء أحمد حسين الأزهرى، دار الاحسان، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2017م، ص 84، بتصرف.

التنزيلية لهذا النوع من الخطاب هو فقه الواقع وفقه الأولويات.

فقه الأولويات هو موضوع في غاية الأهمية؛ لأنه يعالج قضية اختلال النسب واضطراب الموازين من الوجهة الشرعية في تقدير الأمور والأفكار والأعمال، وتقديم بعضها على بعض، وأياها يجب أن يُقدّم، وأياها ينبغي أن يؤخّر، في سلم الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية والأمر الحياتية.

فأولوية العلم مقدمة على العمل؛ لأنّ العلم هو الذي يدلّنا على العمل ويرشدنا ماذا نعمل وكيف نعمل، وقبل ذلك يرشدنا العلم إلى تصويب النية لله تعالى، فالعمل المتعدي النفع للناس له أولوية على العمل القاصر النفع، ودرء المفسدات أولى من جلب المنافع، والعمل الدائم له أولوية على العمل المتقطع، وعمل القلب مقدّم على عمل الجوارح؛ لأنّ الله لا ينظر إلى الصور والأجساد وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال.

كما أنّ فقه الأولويات يرتبط بفقه المراحل ويرتبط بفقه الموازنات وفقه الواقع، فهو جامع ومرتبطة بغيره، لذلك فقد قعد الشيخ لهذا الفقه تعميماً سليماً وأسّس خطابه الديني عليه كأحد الأسس والقواعد المقاصدية والتنزيلية، التي يصعب حصرها في خطابه الديني.

فمن فقه أولويات الشيخ في خطابه الديني الفقهي، تأكّده على الترتيب الصحيح لمفهوم السلوك، في قوله في الحديث المرفوع: "الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي"⁽¹⁾، عملاً بقوله تعالى: {بح حم حج خم سج سح سخ سم ص صخ صه ضح ضد ضغ ضم ط ظ عم عج غم} ⁽²⁾. فراتب السلوك عند الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هي الإسلام والإيمان والإحسان، وكأنّ الاستشهاد بحديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام في هذا المقام.

واهتمامه وتأكّده على هذه التراتيب وتأصيلها يعدّ من أهمّ فقه الأولويات.

ومن أسس فقه الأولويات لدى الشيخ في خطابه الديني -إضافة إلى ما سبق- أنه يراعي هذا الأمر في جميع النواحي، فلا بد لهذا الفقه أن يعمل في علاقة المريدين والتلاميذ فيما بينهم، وفيما بينهم وبين القائمين على شؤونهم من مقدّمين أو مشايخ أو مسؤولين، ناهيك عن

(1) حديث: "الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي، والمعرفة رأس مالي" هكذا أورده العجلوني وقال فيه: لم أر

من ذكره فضلاً عن بيان حاله نعم، ذكر بعضهم أنه رآه في بعض كتب الصوفية، فليراجع، الحديث = (1532)،

كشف الخلفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني ت 1162هـ، الطبعة

الثانية، 1351هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (4/2)

(2) سورة البقرة، الآية 189.

المسؤولين أنفسهم في المدارس التابعة له، فهم القدوة والإسوة الحسنة لتلاميذهم.
الخطاب الديني الصوفي.

أسم خطابه الصوفي التربوي في جانب التزكية والسلوك بعدة سمات تجعل من هذا الخطاب حيويًا ذا فاعلية إصلاحية، يؤتي ثماره حالًا ومآلاً، ولعلّ هذا الأمر يعزى إلى الوراثة المصطفوية⁽¹⁾، فلا يتأتى هذا الأمر إلا من وارث محمدي ذي مشرب صافٍ، صحيح الإسناد والاتصال بمشكاة النبوة بعيد كلّ البعد عمّا يشوبه ممّا قد يعكّر صفوه من الدجل والخرافات والمطامع الدنيوية وغيرها.

ومن خلال التنوع الذي مرّ ذكره من أسانيد التصوف، فإنّ حصيلة هذه الأسانيد واتصالها بمشكاة النبوة حريّ بأن يتنوع هذا النوع من الخطاب الديني تبعاً لهذه المشارب والمآخذ النقيّة، "فالمعتبر في الأسانيد الحديثية العلو ليقلّ الخطأ، وفي الأسانيد الصوفيّة النزول لتعمّ البركة بكثرة الرجال، كذا ذكره جماعة من مشايخنا"⁽²⁾، وعند تسليط الضوء على إحدى رسائل الشيخ - كعينة - على الخطاب الديني الصوفي السنّي والتي كانت تقريباً بين عامي 1975-1976م، والتأسيس السليم لهذا المشرب الصافي، يتبين لنا عمقه وجذوره، والتي قال في مستهلّها: إلى المنتسبين والمريدين ومن يهّمه الأمر "الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾"⁽³⁾.

(1) وقد دل قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" على الإرثين الحسي والمعنوي. ينظر شرح منازل السائرين، زين الدين عبد الرؤوف

المناوني، تحقيق: د. محمد عبد القادر نصّار، الطبعة الأولى، 2016م، القاهرة، مصر، ص 10.

(2) النخبة النهائية شرح المنظومة البيقونية، محمد بن خليفة بن حمد النهاني، الطبعة الأولى، 1415هـ، 1995م، دار الوعي

الإسلامي، مصر ص 55.

(3) سورة الكهف، الآية 17.

أما بعد، فإنّ طريق القوم علم⁽¹⁾ وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وهي بيعة⁽²⁾ وعهد لله ورسوله ﷺ من جميع المنتسبين والمريدين، تلك التي بايعها الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله ﷺ على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا في معروف، فمن اتبع وحافظ على عهده فأجره على الله، ومن أخطأ أو خالف وعوقب في الدنيا فربما كان كفارة له، وإن ستره الله إلى يوم القيامة فأمره متروك لمشيئته تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فهو شديد العقاب، غفور رحيم⁽³⁾.

كما أنّ العهد الذي أخذه الله على جميع الأرواح، حين خلقها وناداهها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾⁽⁴⁾. وحقيقة الطريق هي المجاهدة⁽⁵⁾ والسعي الحثيث للوصول إلى معرفة الله الذي قال في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁶⁾.

(1) "وإنما شرطنا العلم؛ لأن الغرض من البيعة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإرشاده إلى تحصيل السكينة الباطنة، وإزالة الرذائل واكتساب المحامد ثم امتثال المرشد به في كل ذلك؛ فمن لم يكن عالماً كيف يتصور منه هذا؟... إن بعض الجهال في هذا الزمان يقولون: "إن للشيخة والمريديّة لا يشترط العلم الشرعي؛ بل هذا العلم مضرّ لعلم الدراويش" ويظنون أنّ الطريقة خلاف للشيعة، مع أنّ الصوفية الصافية حرروا وصرحوا في كتبهم مثل "قوت القلوب"، و"العوارف"، و"إحياء العلوم"... على أنّ علم الشريعة شرط للطريقة". ينظر: القول الجميل في بيان سواء السبيل، شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت 1170هـ)، تحقيق د. محمد عبد القادر نصّار، وأحمد إبراهيم عبد الحميد، الطبعة الأولى، الدار الجردية، القاهرة مصر، 2010م، ص 35.

(2) البيعة لغة: هي الطاعة والمعاقدة والمعاهدة، ينظر: أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ). تحقيق: عبد الرحيم محمود، الطبعة الأولى، مطبعة أورفاند بالقاهرة، 1953م، ص 57، ولسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، (630-711هـ)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م مادة (بيع) 26/8. وأما في الاصطلاح الشرعي: فهي العهد على الطاعة. والمبايعون ثلاثة: الرسل، والشيوخ الورثة، والسلاطين. والمبايع في هؤلاء الثلاثة على الحقيقة هو الله تعالى، وهؤلاء شهود الله تعالى على بيعة هؤلاء الأتباع، وعلى هؤلاء الثلاثة شروط يجمعها القيام بأمر الله تعالى، وعلى الأتباع الذين بايعوهم شروط يجمعها المتابعة فيما مروا به، ينظر: العهد والبيعة عند السادة الصوفية، فلاح حسن الجبوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2006م ص 12.

(3) شاهده من السنة ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- وكان شهد بدمراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة، أنّ رسول الله ﷺ قال -وحوله عصابة من أصحابه-: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان يفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك"، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم الحديث: 18.

(4) سورة الأعراف، الآية 172

(5) شواهد: قوله تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اَلْبِسُوْا زِيْنَةَ الْجَنَّةِ﴾ [سورة العنكبوت: 69]. وقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ كَلٰمُكُمْ بِذٰلِكَ لَعْنَةُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَلْبَسُوْا لِبَاسَ الْحَبَشَةِ اُوْىٰٓءُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَلْبَسُوْا لِبَاسَ الْحَبَشَةِ﴾ [سورة العنكبوت: 6]. يقول بن عجيبة: "لا بد للريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق... فن أشرفت بدايته أشرفت نهايته" يقاظ المهم في شرح الحكم، (370/2).

(6) سورة المائدة، الآية 35.

والوسيلة هنا هي الطريقة⁽¹⁾، التي لا تكون إلا بمصاحبة شيخ متخصص مربٍ⁽²⁾ قد فرغ من تربية نفسه ليرشد تلاميذه ومريديه ويبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، وللشيخ أو الأستاذ المشار إليه شروط كثيرة⁽³⁾ لا بد منها أهمها:

- 1- أن يكون قد فرغ من قلبه حبّ الدنيا، واتجه بظاهره وباطنه إلى الله تعالى⁽⁴⁾.
- 2- أن يكون متخلّقاً بأخلاق وصفات النبوة، متجنباً كلّ ما من شأنه إغضاب الله تعالى، متبرئاً من الكبر والحسد والبغض والرياء والنفاق، إلى غير ذلك من الصفات المذمومة.
- 3- أن يكون له سند شرعي⁽⁵⁾ يؤهّله ويمكّنه ويجيزه في تلقين الطريق والعهد للمنتسبين والمريدين وهذا السند الشرعي لا يكون صحيحاً ومعتبراً إلا إذا كان الشيخ قد تخرج أيضاً على يد أستاذ مؤهّل وهكذا تتصل سلسلة الأساتذة والشيخوخ حتى تصل إلى الأستاذ والمعلّم الأكبر سيدنا محمد ﷺ إلى جبريل ﷺ إلى رب العزة ﷻ وتقدست ذاته وصفاته.

وعلى ذلك فإذا لم يكن الشيخ حائزاً على هذا السند الشرعي فلا يعتدّ به، ولا يعتبر مؤهّلاً للإرشاد وتربية غيره، وإن ادعى ذلك فهو أقرب إلى الزندقة، حيث قال العالمون بالشرعية

(1) "فلا يمكن كون المراد منها الإيمان؛ لأنّ الله تعالى خاطب للمؤمنين، وكذلك لا يمكن كون المراد منها العمل الصالح من التقوى؛ فإن التقوى عبارة عن الامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي؛ ولأنّ قاعدة العطف تقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وكذلك لا يمكن كون المراد منها الجهاد، بالدلائل المذكورة، لكونه داخلياً في التقوى، فتعيّن المراد بالوسيلة الإرادة والبيعة من المرشد". ينظر: القول الجميل في بيان سواء السبيل، مرجع سابق، ص 39.

(2) قال الطيبي: فقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخاً له، يرشده إلى زوال تلك الصفات التي = تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه! ليصح حضوره وخشوعه في سائر العبادات، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا شك أنّ علاج أمراض الباطن واجب. فيجب على كل من غلبت عليه الأمراض أن يطلب شيخاً يخرج منه كل ورطة! وإن لم يجده في بلده أو إقليمه، وجب السفر إليه، حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، الدار التقوى دمشق سوريا، 1438هـ، 2017م، ص 55.

(3) هذه الشروط وغيرها مبثوثة في كتب القوم كقواعد الشعراي وغيره، ينظر: حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ص 41 وما بعدها.

(4) شاهده قوله ﷺ: "العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان ودخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم" أخرجه الديلمي (4210)، والرافعي (445/2). والمراد به العلماء بالله كما قال الامام الغزالي في الإحياء.

(5) السند عند أهل الطرائق، يفيد معرفة الاتصال التربوي، الذي لا بد فيه من اتصال بين شيخ وآخر، كما هو عند رجال سند الحديث لأجل ثبوت عدم الانقطاع. "فكل من ليس له نسب صحيح بطريق القوم فهو عند أهله لقيط، إذ لا بد له منه في الطريق وكل من ليس له شيخ فالشيطان شيخه" ينظر: الألفية الوافية للسادة الصوفية، مصطفى بن كمال الدين البركي الصديقي، ت 1162هـ، تحقيق: عمرو يوسف مصطفى الجندي، الطبعة الأولى 2017م، دار الاحسان، القاهرة، مصر، ص 218.

والحقيقة اتفاقاً: إن كل حقيقة تردّها الشريعة فهي زندقة (1).
 4- وأن يكون الأستاذ كذلك عالماً بالأمر التي تصحّ بها العبادات والفروض العينية (2)، عارفاً بما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقّ الله تعالى وملائكته ورسوله ذا عقيدة صحيحة، سالماً من كل الشوائب والتهم الفاسدة والتصورات الباطلة المخالفة لما أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ.
 وعليه أودّ النصيحة والإرشاد إلى جميع المريدين والمنتسبين، وكل من يهتمّ بهذه الطريقة الربانية أن لا ينحرفوا بها عن حقيقتها، وأن لا يحدثوا فيها أموراً غريبة ما أنزل الله بها من سلطان، من أجل نيل أغراض دنيوية، كجمع المال أو إظهار بعض الخوارق كتداول السموم واستعمال السيوف والسكاكين، إلى غير ذلك مما لا يجوز إظهاره إلا للرد على المعاندين والمتكبرين والجاحدين والحاقدين على هذه الطريقة والمنتسبين إليها، وبإذن من الشيخ والأستاذ المختصّ.

والإفانّ هذه الأعمال قد تنقلب إلى استدراج شيطاني (3) يؤدي بصاحبه إلى سوء الخاتمة والعياذ بالله من ذلك.

فليتبع كل مرید ومنتسب أقوال مشايخ وأعلام الصوفية، وليلتزم بالوصايا والأسس التي وضعوها فهم الذين أوصلوها بين أيدينا، وهم الذين قاموا بها وخدموها وعملوا بها وتلقوها من شيخ إلى شيخ إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل ﷺ إلى رب العزة ﷻ.

هذا ويجب أن تكون اللقاءات والاجتماعات كلّها في الأماكن المخصّصة كالزوايا، ويجب في هذه الحالات عدم التداول، والاشتغال بالأمر المتعلقة بالدنيا (4)، وترك كلّ ما عدا ذكر

(1) قال الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ: كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، ينظر: الفتح الرباني والفيض الرحاني،

للشيخ عبد القادري الجيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983م، ص 29.

(2) ويجب على المرید بعد صدق عزمه ونيّته، أن يحصل من علم الشرع بالحفظ أو بالسؤال ما يؤدي به فرضه، فإن اختلفت عليه فتاوى الفقهاء أخذ بالأحوط، ويقصد أبداً الخروج من الخلاف، ويحذر الرخص فإنها للضعفاء وأهل الحوائج والأشغال، وأهل الطريق لا شغل لهم سوى القيام بحقه ﷺ حدائق الحقائق، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي، الطبعة الأولى، 1323هـ، 2002م، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص 182.

(3) هو الإهانة بالنظر إلى المآل، والدنو إلى عذاب الله بالإهمال قليلاً قليلاً، وأن يرفعه الشيطان إلى مكان عال ثم يسقط من ذلك المكان حتى يهلك هلاكاً" ينظر: التعريفات، علي بن محمد بن علي (ت 816هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ص 33.

(4) إشارة منه ﷺ إلى كلام الامام الشعراني في قواعده، "...ومن شأنه ترغيب إخوانه المترددين إلى الزاوية في ذكر الله تعالى ... ولا يتخذوا جلوسهم في الزاوية للغو والغفلة وذكر تواريج الناس، فإن إبليس بالمرصاد لمثل هؤلاء، فيحضرون على نية مجالسة الشيخ أو غيره، ويعصون الله في بيته، فليكن الفقير رحمة على إخوانه ويجب كثرة الإخوان في الذكر محبة في الله ﷻ

الله والعبادة والدروس والمواعظ، وتلاوة الوظائف والأوراد، أي أن يكون الاجتماع لله والافتراق عليه⁽¹⁾.

ويجب أن يكون المسؤول (المقدم) عن هذه الاجتماعات مجازاً في ذلك، ومكلفاً من شيخه في تلقين⁽²⁾ المريدين والمنتسبين، وتلاوة الأذكار والوظائف، وتبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم.

هذا كله للحفاظ على مكانة الطريقة واجتماعاتها التي تدعو إلى الخير، حتى لا يندس في صفوفها من يكيد لها للنيل منها ومن سلامة مبادئها السامية.

هذا ما أوصانا به أسيادنا وأساتذتنا السابقون رضي الله عنهم جميعاً، والخير كله في الاتباع والشر كله في الخلف والابتداع، فلنكن عاقدين العزم دائماً على التوبة، وأن نؤدي ما في ذمنا من حقوق، ولا نعود إلى المعاصي، ولنكن متخلقين بخلق كريم وسيرة حسنة، وأن نحب غيرنا ما نحب لأنفسنا ونجادل بالتي هي أحسن، ونحمل الأذى ونعرض عن الجاهلين، ممثلين لقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾⁽³⁾، فهذه نصيحة للجميع وهي أساس العمل بطريقتنا وكل من يخالف أو يسيء التصرف أو يتعاطى غير ما جاء ذكره آنفاً فإنه يتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه وحده أمام الله والقانون والمجتمع، والله يهدينا وإياكم إلى سبيل الرشاد.

التأسيس المقاصدي التنزيلي للخطاب الديني الصوفي.

يعد تقصيد الخطاب الديني الصوفي والتأسيس له مدخلاً مهماً لاستثماره والعناية به من جهة ودليلاً على أصوله وجذوره الشرعية من جهة أخرى، وذلك من خلال تفكيكه والنظر في أصوله وقواعده الشرعية ومقاصده ومآلاته، فالأمور بمقاصدها⁽⁴⁾، والنظر في المآلات

لاحقاً في المشيخة، كما يقع فيه بعضهم، ينظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، للإمام عبد الوهاب الشعرائي، تحقيق

طه عبد الباقي سرور، والسيد محمد عيد الشافعي، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، ص 89

(1) كما كان ﷺ يقول: فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

(2) جاء في مختصر البوسعيدي لأحكام الامام البرزلي (ما زال مخطوطاً) ما نصه: والذي يفعله أهل العصر أن يذكر شروط التوبة، ويأخذ يده في يده ويعاهده الله تعالى على اتباع الطاعة واجتناب المعصية ثم يتلو عليه: { نَحْنُ نَخْتَمُ فِي نَبِيِّ هَجْهِمْ } سورة الفتح 10، فهذا كله مأخوذ من بيعة الصحابة رضي الله عنهم، تنقيح روضة الأزهار ومنية السادة الأبرار، في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر، اختصره محمد بن محمد بن عمر مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ص 224.

(3) سورة الفرقان، الآية 63.

(4) الأصل في هذه القاعدة الفقهية، قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات" صحيح البخاري، (3/1) حديث رقم 1، ينظر: الأشباه والنظائر، عبد الرحمن ابن أبي بكر، ص 8.

معتبر مقصوداً شرعاً⁽¹⁾، وليس المجال يسمح بوضع الضوابط التأسيسية المقاصدية للخطاب الديني الصوفي فالخطاب الديني الصوفي استغلّ كغيره من أنواع الخطاب الديني. ومن المنطلقات الأساسية للنظر المقاصدي في الخطاب الصوفي التربوي، هي العناية بالأخلاق فمقاصد الشريعة في الأغلب الأعمّ أنّها "توجيهات أخلاقية ومضامين قيمية، غايتها توجيه إرادة المكلفين نحو العمل بالأحكام الشرعية، دون أن تتخلل هذه الممارسة نوازع النفس، ومطالب الأهواء"⁽²⁾، كما هو واضح من النصوص الشرعية "فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه، بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلّة والصغار بين يديه، وتذكير له.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾⁽⁴⁾، ثم إنّ لها مقاصدا تابعة، كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكد الدنيا⁽⁵⁾.

عليه فإنّ مقاصد الشريعة للتصوّف والأخلاق هي جملة من الغايات التي يبتغيها المتصوّف من تصوّفه، الدائرة في نطاق التخلية والتحلية، وتزكية النفس وتهذيبها.

أمّا التأسيس المقاصدي التنزيلي للخطاب الصوفي فهو: مراعاة المقاصد الشرعية العامة والخاصة، للخطاب التربوي في الحال والمآل، وبناءه على الأصول الشرعية والقواعد والمبادئ للشريعة الإسلامية؛ حتى يؤتي ثماره وتنتجها التي هي بناء الإنسان على قدم الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن دقيق المسائل التي بنى عليها الشيخ التأسيس المقاصدي التنزيلي المبني على النتائج والمآلات، إضافة إلى التأسيس والتقعيد المؤسساتي أو الطريقي لمنهج الزوايا والمدارس في رسالته السابقة؛ عنايته رحمته بدقيق المسائل المتعلقة بالمقاصد والمآلات في التصوّف، فمن ذلك النهي

(1) الموافقات، مرجع سابق، (177/5).

(2) استثمار الخطاب الصوفي في بناء المقاصد-الشاطبي نموذجاً- طارق العلي، بحث منشور في مجلة قوت القلوب، العدد الأول، 2012م ص 104.

(3) سورة طه الآية، 14.

(4) سورة العنكبوت، الآية 45.

(5) الموافقات، مرجع سابق، 172/4.

الشديد في مسألة اتخاذ المسيحة في الأعناق، كما يفعل في بعض الطرق⁽¹⁾، وليس المراد بالنهي عن اتخاذها لكونها آلة للتعبّد والعدّ، وإنّما الأمر بصيانتها من كلّ ما فيه امتهان لها، وحفظها وتعطيرها، والنهي الشديد عن اتخاذها في الأعناق في الرقاب أو إظهارها أمام الناس، إعمالاً للمأل المترتب.

قال المناوي: نعم، محل ندب اتخاذها فيمن يعدّها للذكر بالجمعيّة والحضور، ومشاركة القلب للسان في الذكر، والمبالغة في إخفاء ذلك، أمّا ما ألفه الغفلة البظلة، من إمساك سبحة يغلب على حبّاتها الزينة، وغلو الثمن ويمسكها من غير حضور في ذلك ولا فكر، ويتحدّث ويسمع الأخبار ويحكّيها وهو يحرك حبّاتها بيده، مع اشتغال قلبه ولسانه بالأمر الدنيوية فهو مذموم مكروه من أقبح القبائح⁽²⁾.

وقال ابن الحاج: ومن هذا الباب أيضاً ما يفعله بعضهم من تعليق السبحة في عنقه... وإظهار السبحة والتزين بها لا مدخل لهما في ذلك، بل للشهرة والبدعة لغير ضرورة شرعية⁽³⁾. وغير ذلك من المسائل التي يصعب حصرها في هذا المقام، عليه فإنّ الخطاب الديني الصوفي التربوي للشيخ رحمه الله قد أسهم كغيره من أنواع الخطاب الديني في تأسيس التصوف السليم المؤسس على مقاصد الشريعة ومبادئها وأصولها العامة والخاصة، التنزيلية منها أو التي تراعي المآلات والنتائج المترتبة.

الخاتمة.

ختاماً فإنّ أهمّ النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة هي:

- إنّ النظر المقاصدي للخطاب الديني - فردياً كان أو مؤسسياً - ضرورة لفقّه الواقع، يتأسس

(1) وأما جعلها في الأعناق فوق الثياب ظاهراً فهو جار على طريقة أهل الزي والشهرة كالقلندرية ومن يشاكلهم من طوائف الصوفية، حسبما صرح أبو الفضل العقباني في جواب له على المسلسل بالمسيحة من طريق القاضي عياض بسنده في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة أن بعضهم دخل على سخون وفي عنقه تسبيح يسبح به، قال: وأنت تعلم من سخون علماً وورعاً، ينظر: بغية المستفيد لشرح منية المريد، مرجع سابق، ص 326 وما بعدها، وأيضاً مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة، يحيى بن أحمد بن عبد الله المغيلي، على موقع الالوكة.

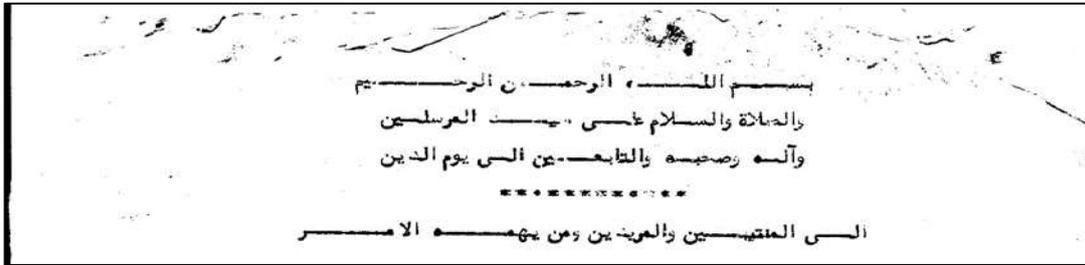
https://www.alukah.net/Manu/Files/Manuscript_6586/elmkhtot.pdf

(2) فيض القدير شرح الجامع الصغير: زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري (ت 1031هـ) المكتبة التجارية الكبرى، مصر الطبعة الأولى 1356هـ، (355/4)

(3) المدخل أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت 737هـ) دار التراث، (197/3).

- بمؤسسيها، ويرتبط بالمسيرة العلمية والعملية للمؤسس أو الشيخ.
- تأسست مسيرة الشيخ رحمته الله العطرة بالعديد من الأصول والقواعد والمقاصد الشرعية العامة والخاصة، إضافة إلى الإيمان الصحيح الراجح، والتصوف السليم، ورغم ندرة التدوين، وما يتسم به من نحول عن الشهرة أو أن يعرفه الناس، محافظاً على الإخلاص في الدعوة إلى الله رحمته الله دفن وجوده في أرض النحول، ليمتّ نتاجه العملي والعلمي فيمن يتولّى الخلافة والمسير من بعده.
 - تأسست مدرسة الشيخ رحمته الله بأسس مقاصدية تنزيلية في مراحل مختلفة، على مدى سنين طويلة جعلت من خطابها الديني يميز عن غيرها من المدارس والزوايا في هذه البلاد.
 - إنّ التنوع في الخطاب الديني لهذه المدرسة المبني على الهرم الثلاثي (الإسلام-الإيمان-الإحسان)، جعل لهذا الخطاب الديني مآلات ونتائج شرعية محمودة، ومقصودة شرعاً.
 - اتّسم فقه الدعوة إلى الله رحمته الله في مدرسة الشيخ رحمته الله بسلمات عديدة، من خلال إرسائه لدعائم وقواعد القدوة الحسنة عقيدةً وفقهاً وسلوكاً، في مدرسته والمدارس التابعة لها، من سنّ الترايب الإدارية والقواعد العامة والخاصة بنظم هذه المدارس والزوايا، شاء الله رحمته الله لها أن تستمرّ وتدوم معه وبعد وفاته رحمته الله طيلة هذه السنوات وهذه الظروف.

ملحق



السلام عليك

الحمد لله ، وحمد ، ويستغفره وتوب اليه ، ويعوذ به من شرر أنفسنا وسيئات أعمالنا ، " من يهتدي الله
فهو المهدى ، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشدا " .
أما بعد ،،،

فإن طريق النجوم غم واقرار بالناس بعمل الجوارح ، وهي بيعة وعهد لله ورسوله من جميع المنتسبين
والمريدين لكلك التي بايعها الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم غنى أن لا يشركوا
بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولا . هم ولا يأتوا بجهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم لا يحصروا
في معروف . فمن اتبع ولتزم ونافظ على عهد . فأجره على الله ، ومن أخطأ أو خالف وعقب به في الدنيا
فرحاً كان كفارة له ، وإن ستره الله الى يوم القيامة فأمره متروك لمشيئته تعالى ، إن شاء عذبه ، وإن شاء
غفر له فهو شديد العقاب ، غفور رحيم .

كما أن العهد تجديد للعهد القديم الذي أخذ . الله على جميع الازواج حين خلقها وفاداهما
" أأستبركم " " قالوا بلى " .

وحقيقة الطريق هو المجاهدة والسعى الحثيث للوصول الى معرفة الله تعالى الذي قال في كتابه
العزيب " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة " . والوسيلة هنا هي الطريقة التي لا تكون
الا صاحبة شيخ متخصص مربي قد فرغ من تربية نفسه لمرشد تلاميذه ومريديه ويصبرهم أمر دينهم
ردنياهم . وللشيخ أو الاستاذ المشار اليه شروط كثيرة لا بد منها أهمها :-

* أن يكون قد فرغ من قلبه حب الدنيا واتجه بظاهره وباطنه الى الله تعالى .
* وأن يكون متخلقا بأخلاق وصفات النبوة ، متجنباً كل ما من شأنه انخراط الله تعالى ، متورثاً
من الكبر والحسد والبغض والرياسة والفتاق الى غير ذلك من الصفات الذميمة .

* وأن يكون له سند شرعي يؤمله وينكبه ويجيزه في تلقين الطريق والعهد للمعتسبين والمريدين .
وهذا السند الشرعي لا يكون صحيحاً ومعتبراً الا اذا كان الشيخ نفسه قد تخرج أيضاً على يد استاذ مؤهل .
وهكذا تتصل سلسلة الاساتذة والشيوخ حتى تصل الى الاستاذ والمعلم الاكبر سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم الى جبريل عليه السلام الى رب العزة جل جلاله وتقدست ذاته وأسماؤه وصفاته .

وعلى ذلك فما لم يكن الشيخ حائزاً على هذا السند الشرعي ، فلا يعتد به ولا يعتبر مؤهلاً لارشاد
وتربية غيره ، وإن ادعى ذلك فهو أقرب الى الزندقة ، حيث قال العالمون بالشريعة والحقيقة : إتفاقاً أن كل
حقيقة ترد لها الشريعة فهي زندقة " .

* وأن يكون الاستاذ كذلك عالماً بالامور التي تصح بها العبادات والفروض العينية ، عارفاً بما يجب
وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى وملائكته ورسوله ، بما عقيدة صحيحة ، سالماً من كل الشركائيب
والتهميم الفاسدة والتصورات الباطلة المخالفة لأمربه الله ورسوله .

وطيه أورد العصبة والارشاد الى جميع المریدين والفتسبين وكل من يهتم بؤذه
الطريقة الربانية أن لا يدعرفوا بها عن حقيقتها وأن لا يحدثوا فيها أمرًا غريبة ما أنزل الله بها
من سلطان، من أجل نيل أغراض نبوية كجمع المال أو اظهار بعض الخوارق كتناول السموم واستعمال
السيوف والسناكسين الى غير ذلك مما لا يجوز اظهاره الا للرد على المعاندين والمتكبرين والجاحدين
والحاقدین على هذه الطريقة والفتسبين اليهما بواذن من الشيخ والاستاذ المختص •
والا فان هذه الاعمال قد تنقلب الى استدراج شيطاني يؤدي بصاحبه الى سوء الخاتمة، نعوذ
بالله من ذلك •

فليتح كل مرید ومفتسب أقوال مشايخ وأعلام الصوفية السابقين رضوان الله عليهم، وليلتزم بالربايا
والاسس التي وضعوها عنهم الذين أوصلوها بين أيدينا وهم الذين قاموا بها وخذوها وعصوا بها وطقوها
من شيخ الى شيخ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم •
هذا ويجب أن تكون اللقاءات والاجتماعات كلها في الامكن المخصصة كالزوايا ويجب في هذه الحالات
عدم تداول واشتغال الامر المتعلقة بالدينا، وترك كل ما عدا ذكر الله والعبادة والدروس والمواعظ وتلاوة
الوظائف والاوراد بأي أن يكون الاجتماع لله والافتراق عليه •
ويجب أن يكون المسئول عن هذه الاجتماعات مجازاله فسي ذلك ومكلفا من طرف شيخه في تلغين
المریدين والفتسبين وتلاوة الاذكار والوظائف وتصير الناس أمور دينهم ودينهم •
هذا كله للحفاظ على مكانة الطريقة واجتماعاتها التي تدعو للخير حتى لا يندس بين صفوفها من
يكيد لها لليل منها ومن سلامة أهدافها ومبادئها السامية •
هذا ما أوصانا به أشياخنا وأساتذتنا السابقين رضی الله عنهم جميعا بالخير كله في الاتباع
والشركه في الخلف والابتداع •

فلكن عاقدين العزم دائما على التوبة وأن نودی ما في ذمنا من حقون ولا نعود الى المعاصي
ونفسنا نجيبون خلق كريم وسيرة حسنة وأن نحب لغيرنا ما نحبنا لفسلنا ونجادل بالتي هي أحسن
نتحمل الاذى ونعرض عن الجاهلين، متمثلين قول الله تعالى "وعاد الرحمن الذين يمشون على الارض
هولًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا" صدق الله العظيم
هذه نصيحة للجميع بوهي أساس العمل لطريقتنا وكل من يخالف أو يسمي التصرف أو يتعاطى غير
ما جاء ذكره آفا فانه يتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه وحده أمام الله والقانون والمجتمع ••

" والله يهدينا واياكم الى سبيل الرشاد "

والسلام

||
الشيخ محمد مفتاح حمودة
الشيخ العماد

قائمة المصادر والمراجع.

- 1- القرآن الكريم.
- 2- كتاب الإفهام في تراجم من نسب لمدينة زليتن من الأعلام، إدريس مفتاح احمدودة، الطبعة الأولى 2021م، مكتبة بن احمدودة، زليتن، ليبيا.
- 3- المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب، سالم سالم شلابي، الطبعة الثانية، 2021م مكتبة طرابلس العلمية العالمية.
- 4- الطريقة الشاذلية الغطفية الإرشاد والإمداد والجهاد، تأليف مجموعة من الباحثين، مركز نجيبويه، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1443هـ، 2022م.
- 5- دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية، عاشوري قمعون، مقال في مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، جوان 2006م.
- 6- أعلام الطريقة العيساوية، أحمد القطعاني، الطبعة الأولى، 1441هـ، 2019م، دار بشرى وكثوم.
- 7- مقطع مصور على شبكة الإنترنت
<https://www.facebook.com/100012496124429/videos/826303341686165/>
- 8- التقريب في سيرة ناصر الدين الخطيب، محمد أبو عوض، دار الكتب العلمية.
- 9- كتاب أسرار الطريق الصوفي مجتمع التصوف والزوايا والحضرات في الأردن، محمد أبو رمان مؤسسة فريدريش آيبرت، مكتب العراق والأردن، ط2، 2020م.
- 10- بغية المستفيد لشرح منية المرید، محمد العربي السائح العمري، دار الجليل بيروت، لبنان.
- 11- نجوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتأخرين، أبو المكارم عبد الكبير ابن محمد الكثاني، تحقيق عدنان عبد الله زهار، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2007م.
- 12- البحث في مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله. د. أحمد الريسوني، بحث قدمه لندوة مقاصد الشريعة التي نظمتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن. 1-5 مارس 2005م. في موضوع "مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله." منشور بموقع: <http://abohosamsaef.yoo7.com>
- 13- الموافقات أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، الطبعة السابعة، 2005م.

- 14- الإمداد في معرفة علوم الإسناد، ثبت حافظ الحجاز الامام جمال الدين عبد الله بن سالم البصري المكي، دار التوحيد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م.
- 15- وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته، لابن خلدون، ضمن مجموع يحتوي على أربع رسائل في أصول التعلم والتعليم، إحياء سند العلم، اعتناء أحمد حسين الأزهرى، دار الاحسان، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، 2017م.
- 16- كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني ت 1162هـ، الطبعة الثانية، 1351هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- 17- شرح منازل السائرين، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد عبد القادر نصّار، الطبعة الأولى، 2016م، القاهرة، مصر.
- 18- النخبة النبهانية شرح المنظومة البيقونية، محمد بن خليفة بن حمد النبهاني، الطبعة الأولى 1415هـ، 1995م، دار الوعي الإسلامي، مصر.
- 19- القول الجميل في بيان سواء السبيل، شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت 1170هـ) تحقيق د. محمد عبد القادر نصّار، وأحمد إبراهيم عبد الحميد، الطبعة الأولى، الدار الجودية، القاهرة مصر، 2010م.
- 20- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ). تحقيق: عبد الرحيم محمود، الطبعة الأولى، مطبعة أورفاند بالقاهرة، 1953م.
- 21- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، (630-711هـ)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م.
- 22- العهد والبيعة عند السادة الصوفية، فلاح حسن الجبوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 2006م.
- 23- إيقاظ الهمم في شرح الحكم.
- 24- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، الدار التقوى دمشق سوريا، 1438هـ، 2017م.
- 25- الألفية الوفية للسادة الصوفية، مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي، ت 1162هـ، تحقيق: عمرو يوسف الجندي، الطبعة الأولى، 2017م، دار الاحسان، القاهرة، مصر.

- 26- الفتح الرباني والفيض الرحماني، للشيخ عبد القادري الجيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1983م.
- 27- حدائق الحقائق، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي، الطبعة الأولى، 1323هـ، 2002م دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- 28- التعريفات، علي بن محمد بن علي (ت 816هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى 1985م دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 29- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، لعبد الوهاب الشعراني، تحقيق طه عبد الباقي سرور، والسيد محمد عيد الشافعي، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.
- 30- تنقيح روضة الأزهار ومنية السادة الأبرار، في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر رحمته الله، اختصره محمد بن محمد بن عمر مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.
- 31- استثمار الخطاب الصوفي في بناء المقاصد-الشاطبي نموذجاً-طارق العلي، بحث منشور في مجلة قوت القلوب، العدد الأول، 2012م.
- 32- مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة، يحيى بن أحمد بن عبد الله المغيلي، على موقع الألوكة
https://www.alukah.net/Manu/Files/Manuscript_6586/elmkhtot.pdf
- 33- فيض القدير شرح الجامع الصغير: زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري (ت 1031هـ) المكتبة التجارية الكبرى، مصر الطبعة الأولى 1356هـ.
- 34- المدخل أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت 737هـ) دار التراث.

المنهج الدعوي للحركة السنوسية في ليبيا، الإمام محمد بن علي السنوسي "أموذجا"

أ. مروة مخزوم يحيى / الجامعة الأسمرية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فإن من فطرة الله - تعالى - أنه يبعث للأمة من مدة لأخرى من يجدد لها دينها؛ وذلك لقوله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"⁽¹⁾، فكان من هؤلاء الدعاة المجددين الإمام الداعية: محمد بن علي السنوسي، الذي درس واقع الأمة، وأعد العدة، فتبحر في علوم عدة، وانطلق لنشر الدعوة، فكان عالي المهمة، مخلص النية في نشر الدعوة الإسلامية، فأحبه الخواص والعوام، بحيث انتشرت دعوته بين المشرق والمغرب، وقد وجدت حضنها الدافئ في ليبيا الحبيبة، فتغلغت في المجتمع الليبي، وجمعت على العقيدة السليمة، وسارت به على طريق الإحسان، فحافظت على الهوية الدينية في ليبيا، المتمثلة في الأشعرية عقيدة، والمالكية فقها، والتصوف منهاجا وسلوكا؛ فكانت خير مثال للحركات التجديدية التي غيرت واقع المسلمين بفضل مؤسسها؛ لذا سنكشف اللثام عنها؛ للإفادة منها، وسنبين دور التصوف في نجاحها.

المطلب الأول: "نشأة الحركة السنوسية":

أولاً: الأوضاع المختلفة في ليبيا قبل ظهور الحركة: استطاع العهد العثماني بسط سيطرته على ليبيا بعد الهجوم الصليبي عليها، وكان ذلك سنة: 1551هـ⁽²⁾، وقد مثلت عهود العهد العثماني الأول مرحلة نموها وازدهارها في ليبيا؛ بحيث استطاع العثمانيون الأوائل بسبب قوتهم العسكرية صد الهجوم الصليبي العنيف ضد ليبيا، فكان اهتمامهم بالجانب العسكري أكثر من المدني؛ إذ لم تهتم السلطات بالإصلاحات الداخلية كثيراً؛ وهو ما أدى إلى تدهور أحوال البلاد، وظهور الفتن والفوضى خاصة أواخر القرن: (16) وأوائل القرن:

(1) أخرجه أبو داود في سننه: (ك: الملاحم، ب: ما يذكر في القرن المائة: 178/4، الحديث: 4193)، وصححه الحاكم في المستدرک: (ك: الملاحم، 567/4، الحديث: 8592).

(2) ينظر: رابحة خضير، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني: 1555م، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، م: 6، ع: 2، المؤتمر السنوي الأول لكلية التربية الأساسية: 2007م، كلية الآداب، جامعة الموصل: 120.

(17)، الأمر الذي أدى إلى ضعف الدولة العثمانية⁽¹⁾.

وبسبب هذه الفوضى استطاع أحمد القره مانلي الاستيلاء على الحكم في ليبيا سنة: 1711هـ⁽²⁾، وقد اهتم الحكم القره مانلي بالمحافظة على الوحدة الليبية بدمج أقاليم برقة وطرابلس وفزان؛ وهو ما أكسب ليبيا في عهده دولة قوية مستقلة عن الدولة العثمانية، ولكنها لم تستقر طويلا، وذلك بعد أن هاجمت بعض الأساطيل الغربية المدن الليبية بحجة مكافحة القرصنة، بالإضافة إلى تأجج الصراع الأسري على السلطة؛ وقد أدى إلى نشوب الحروب الأهلية، وبعد أن شعر العثمانيون بانهيار الدولة القره مانلية في ليبيا، وأن الدول الاستعمارية بدأت تمد أطماعها عليها، استطاعوا العودة إلى الحكم مرة أخرى⁽³⁾، وبالرغم من الدور التي كانت تقوم به السلطات العثمانية في التصدي للخطر الصليبي، فإن بعض الثغرات التي تعاني منها السلطات العثمانية أدت إلى ظهور الثورات المحلية؛ لذلك تدهورت الأوضاع في تلك المدة؛ فأدى هذا إلى حدوث شرخ اجتماعي بين قبائل المجتمع الليبي⁽⁴⁾، وفي خضم هذه الأحداث المتسارعة ظهرت الحركة السنوسية في ليبيا⁽⁵⁾.

ثانيا: سيرة الإمام السنوسي: هو الإمام محمد بن علي السنوسي، ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن طريق الأدارسة الحسينيين الذين حكموا المغرب؛ لقب بالسنوسي نسبة إلى قبيلة من البربر تسمى سنوسة، ولد بضاحية ميثا، بمستغانم بالجزائر يوم الاثنين: 12 ربيع الأول، عام: 1202هـ، نشأ الإمام في أسرة علم، فكان أبوه من أهل العلم، وقد توفي أبوه وهو لم يتجاوز السنتين، فكفلته عمته، وقد عرفت بتبحرها في العلوم، فحرصت على تعليمه منذ صغره، وخاصة علم العقائد، حفظ القرآن الكريم مبكرا، وهو لم يتجاوز السابعة؛ وبذلك تكون عمته فاطمة هي أستاذه الأول، ثم توفيت وهو في العاشرة من عمره؛ فكفله ابن عم له يسمى الشارف، وكان أيضا من أهل العلم، فدرس عليه

(1) ينظر: عبد الرحمن الدرسي: الانتفاضات الوطنية ضد الوجود العثماني في ليبيا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة قارونس، د ت، 4.

(2) ينظر: إسماعيل ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط/1: 1997م: 144، 145.

(3) ينظر: شوقي الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو، القاهرة، د ط، د ت: 148.

(4) ينظر: محمود السيد: تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، د ط: 60.

(5) ينظر: دلا رداوي: الحركة السنوسية، ودورها في محاربة الاحتلال الإيطالي في ليبيا: 1911 - 1932م، رسالة ماجستير في تخصص تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة محمد بو مضياف، الجزائر: 2016م: 5 - 11.

التصوف والفقهاء والحديث، ثم أخذ العلم عن كبار علماء مستغانم ومازونة، ومنهم الشيخ: محي الدين بن شهلة، والشيخ: عبد القادر بن عمور، والشيخ: محمد بن عبد القادر، والشيخ: محمد بن القندور، وإلى جانب تعلمه كان مهتما بالفروسية منذ صغره؛ وهذا ما أكسبه الشجاعة منذ صغره، فانعكس ذلك على شخصيته، فكان مجاهدا شجاعا في كبره⁽¹⁾.

ثم توفي السيد الشارف والإمام في سن الثامنة عشرة، بعدها عزم على السفر لطلب العلم، وكان ذلك عام: 1220هـ؛ فانتقل إلى فأس للدراسة في جامع القرويين، واستمر مدة في فأس، وكانت حينها موطن العلماء، وملتقى الطلاب؛ فأخذ العلم عن كبار علمائها، ومنهم: محمد الفيلاي، وأبو بكر الإدريسي، وحمودة وحمدون بن الحاج، والكيراني والمعواني، وابن منصور، والدرقاوي، والتيجاني وغيرهم⁽²⁾.

وفي هذه المرحلة تبلورت شخصيته الفكرية الإصلاحية؛ فبرز في شخصيته جانبان، هما: الجانب الصوفي التربوي الذي ازداد تعرفا عليه في فأس، بحيث كانت ميدانا خصبا للتصوف، وقد نشأ السنوسي في بيئة صوفية في موطنه الأول مستغانم؛ فتناسب التصوف مع طبيعة شخصيته التي امتازت بالعمق الفكري، وقيل: إنه التقى بالشيخ التيجاني وأخذ عنه الطريقة. أما الجانب الثاني: فهو اهتمامه بالدراسة الفقهية، فقد كان على المذهب المالكي؛ فأخذ فقه المالكية عن كبار شيوخ المالكية من المشاركة والمغاربة؛ منهم: محمد المعداني، ومحمد الناصري، وهذا ما أكسبه التوازن بينهما، فتميز فقهه بطابع الصوفية؛ وهو ما جعله متميزا عن غيره، بعيدا عن الغلو في الظاهر والجمود⁽³⁾.

وبعد أن أعد نفسه بالعلم والتعلم، وأخذ الإجازة من شيوخه، عمل في الدعوة والتعليم، فعين مدرسا بالجامع الكبير بفأس، واجتهد في نشر الدعوة والعلم بين الناس؛ لذلك اكتسب شهرة بين التلاميذ وعامة الناس، حتى شعرت السلطة بخطورة وجوده خوفا منهم بأن يدخل ميدان السلطة؛ وقد دفعه ذلك إلى أن يغادر فأس سنة: 1235هـ، وأخذ ينتقل بين مناطق وقرى الجزائر، يُعَلِّمُ ويقوم بالتدريس، ثم عاد إلى مستغانم، فتزوج من إحدى بنات عمومته، ولم يبق ذلك الزواج طويلا؛ لأنه عزم على الارتحال إلى مكة، وقد رفضت ذلك زوجته، وقبل أن ينتقل إلى مكة سافر إلى القسطنطينية وقام ببناء زاوية

(1) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، د ط: 1948م: 14، 15.

(2) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها، ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان، بيروت، ط/1، 1967م:

(3) ينظر: المرجع نفسه: 48 - 51.

يلقي فيها الخطب والدروس، ثم عزم على الانتقال إلى مكة، وفي رحلته بها مر بتونس وطرابلس⁽¹⁾، وقد ذكر أحمد الشارف أنه مر ببلدة زليتن، وبها التقى مع أحد مريديه، وهو عمران بن بركة، وهذا دليل على أن زليتن كانت مقصد العلماء والصالحين منذ القدم، ثم مرّ بينغازي والجبل الأخضر، حتى وصل إلى القاهرة عام: 1239هـ⁽²⁾.

وفي رحلته التي استمرت حوالي أربع سنوات، انطلقاً من فأس، عايش فيها أحوال المسلمين، كما ازداد قرباً ومعرفة بالطرق الصوفية في المناطق التي زارها، بوصفها موطناً لأهل التصوف، وهذا ما أشبع شخصيته بالمنهج الصوفي الذي سنبرز كيف استفاد منه في نشر دعوته لاحقاً، واستفاد السنوسي من بقاءه في كل منطقة يقطنها، فأخذ من علماء الأزهر في تلك المدة؛ منهم: العطار، والقويسي، والصاوي، والتونسي، ثم درس في الأزهر؛ ويلاحظ أن السنوسي كان مهتماً بالجانب الصوفي، هذا ما جعله لا يبقى طويلاً في القاهرة.

انتقل بعدها إلى الحجاز، وكان ذلك عام: 1240هـ فنزل بمكة، وكان مهتماً بتتبع العلماء؛ الذين برزوا في مكة؛ ليأخذ من علمهم، وما يميز مكة آنذاك أنها كانت تجمع بين كثير من التيارات الفكرية المختلفة، ففهم الصوفي، وفهم المالكي، وفهم الوهابي؛ وغيرهم⁽³⁾، الأمر الذي أتاح للإمام التعمق في أفكار تلك التيارات والمذاهب، وقد أخذ عن جمع كبير من العلماء؛ منهم: أبو سليمان العجمي، وأبو حفص العطار، وأحمد ابن إدريس؛ وقد تأثر بالأخير تأثراً كبيراً، سنبرزه لاحقاً، ثم عزم بعدها على نشر دعوته في مكة؛ وذلك بإقامة أول زاوية له في الحجاز، وهي زاوية أبي قبيس، التي استطاع من خلالها نشر دعوته، فالتف حوله الطلاب وعامة الناس؛ وظل مدة يلقي الدروس والخطب فيها، إلى أن عزم على ترك الحجاز، قاصداً المغرب⁽⁴⁾.

بعد ذلك غادر الإمام الحجاز إلى مصر، ومنها إلى ليبيا، ثم إلى تونس، قاصداً الجزائر، ولكن الاستعمار الفرنسي حال بينه وبين الوصول إلى بلاده، فعاد إلى طرابلس، ومنها إلى برقة؛ لنشر دعوته، وبعد أن تمكن من تثبيت دعائم دعوته في برقة، وترك خلفه دعاة مخلصين ممن نهلوا على يديه لإكمال مسيرته عاد إلى الحجاز؛ ليكمل مسيرته الدعوية، فظل

(1) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 14 - 16.

(2) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 59.

(3) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، 67.

(4) ينظر: المرجع نفسه، 71.

مدة فيها يلتقي بوفود الحجاج فيتعرف عليهم، ويدعوهم إلى تطبيق الإسلام الصحيح؛ حتى تمكن من تأسيس عدة زوايا في جدة والطائف والمدينة المنورة وغيرها، ثم عاد من مكة إلى برقة بعدما اصطدم فكره مع غيره ممن عاصروه في مكة.

وقد مر بمصر، ومكث مدة فيها ينشر دعوته، قبل أن يستقر في الجبل الأخضر، ثم انتقل إلى الجغبوب، وفي المدة التي عاش فيها الإمام تزوج أربع زوجات، وقد عاش له من الأبناء: محمد المهدي ومحمد الشريف، وبعد أن استقر به الحال في الجغبوب، استمر الإمام حاملاً هم الدعوة حتى في أيامه الأخيرة، فبعث لإحضار أولاده إلى الجغبوب؛ لإكمال مسيرته الدعوية، وبعد أن وصلاً إلى ليبيا من سفر طويل، سلم لهما رسالة الدعوة؛ ليكتملا مسيرة والدهما في التوجيه والإرشاد والإصلاح، بعد ذلك اشتد عليه المرض إلى أن وفاه الأجل المحتوم، فانتقلت روحه الطاهرة راضية مرضية إلى المولى - عز وجل -، وكان ذلك يوم الأربعاء سنة: 1273هـ⁽¹⁾.

ثالثاً: أسباب اختياره برقة والجغبوب مركزاً لدعوته: كان سكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي، اتضحت صورته منذ الفتح، ومنذ الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ حكم القبيلة في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية؛ بحيث تكون القبيلة أساساً لتطبيق النظام ومساعدة الحكم، وقد كانت القبائل في برقة تعيش حياة غير مستقرة؛ فتوافرت في برقة الظروف الملائمة لظهور الحركة المتمثلة في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، فكانت برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة، كما أن برقة تتكون من قبائل عربية بدوية، يغلب عليها طابع الترابط، تجمعهم الأعراف والتقاليد؛ وكذلك فإن الجو كان خصبا من حيث إن المناطق الريفية كانت بعيدة عن سيطرة المدن فلا يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية؛ وهو ما يخلق جواً مناسباً لانتشار الحركة بسهولة؛ وكذلك طبيعة التكوين القبلي ساعد على وجود بنية اقتصادية رصينة، فكانت هذه من العوامل التي أدت إلى نشأة الحركة في برقة؛ أما من الناحية الدينية فهي موضع اهتمام السنوسي، ولعل من أكثر العوامل التي جعلت السنوسي ينشر دعوته في برقة؛ هو أن برقة كانت تعاني من ضعف كبير في

(1) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 119-124، وينظر: ميلود ميسوم: محمد بن علي السنوسي: منابع علمه، ومنهج طريقته، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، ع: 20، 2018م، 141.

الجانب الديني؛ فقد وصل الأمر بأهلها إلى انتهاك حرمة أركان الإسلام، وتمثل ذلك في عدة مظاهر، منها:

- كانت قبائل برقة ترى عدم ضرورة صيام رمضان، إذ يكلف ثلاثين شابا قويا، فيصومون يوما واحدا، ويرون بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة.
- كثرة الدجالين الذين يدعون لأنفسهم الولاية، فتبعهم عوام الناس فضلوا.
- اتخذت بعض القبائل مواقع برقة؛ لتأدية فريضة الحج بدلا من الحج إلى بيت الله.
- انتشر الجهل بين أبناء القبائل، فكان لا يوجد أحد منهم يعرف القراءة والكتابة.
- غياب كثير من شعائر الدين⁽¹⁾.

هذا وقد ظل السنوسي خمس سنوات في برقة ينشر دعوته، وبعدما أسس دعوته في برقة والتف حوله الناس، واتبعوا دعوته انتقل إلى الحجاز لنشر دعوته، فكث فيها حوالي ثماني سنوات، ينشر دعوته بإنشاء الزوايا التي كانت مركزا لنشر دعوته أينما اتجه؛ ثم قرر الرجوع إلى برقة، بعد أن ألح عليه أهل برقة بالرجوع، يذكر أنه طيلة المدة التي كان فيها في الحجاز لم ينقطع عن الاتصال بمريديه ومن كلفهم بإكمال مسيرته، وحين عاد إلى برقة أشرف على متابعة نشاط حركته، ثم عزم على الخروج إلى الجغبوب، وقد رحح المؤرخون عدة أسباب لاختياره الجغبوب مقرا آخر لنشر حركته، منها:

- كانت الجغبوب حينها تعاني من النزاعات الاجتماعية؛ وهو ما جعل السنوسي يفكر في الإصلاح بين قبائل الجغبوب.
- كانت بعيدة عن قبضة السلطات؛ وهذا ساعده على نشر حركته بشكل أسهل.
- كما كانت مقرا تمر من خلاله القوافل التي تربط بين الجزائر وطرابلس وتشاد وبرقة ومصر؛ ما يساعد على انتشار دعوته بين شتى الأقطار.
- كذلك كانت مركزا يلجأ إليه النازحون للهروب من الخلافات والنزاعات في المدن؛ فاحتضنتهم السنوسية، وكانت زواياها موطناً لهم⁽²⁾.

(1) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 25-27، وينظر: علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا: محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس، مكتبة الصحابة، الشارقة، مكتبة التابعين، القاهرة، ط/1، 2001م: 57 - 60.

(2) ينظر: علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مرجع سابق: 70/1، 71.

المطلب الثاني: "البعث الدعوي للحركة السنوسية":

تميز السنوسي بشخصيته الدعوية منذ الصغر؛ وقد نتج عن ذلك نشأة حركته الدعوية المتميزة، ومع ذلك فإن السنوسي لم يضع مفاهيم صريحة لدعوته؛ وذلك لأن علم الدعوة من العلوم الحديثة، من حيث التأصيل والتأطير؛ لذا حاولت الاجتهاد بتتبع أقوال السنوسي؛ وكذلك أقوال الباحثين المتعلقة بالدعوة، ثم استنباط محاور الدعوة وما يتعلق بها عنده؛ على النحو التالي:

أولاً: مفهوم الدعوة عند الإمام السنوسي: يتجلى مفهوم الدعوة عند السنوسي في الجمع بين التنظير والتطبيق: أما التنظير فيتمثل في جانب التبليغ، وأما التطبيق فيتمثل في جانب العمل، وذلك بنشر العلوم الشرعية أولاً، ثم العمل بكل العلوم الشرعية⁽¹⁾ عامة، وبعلم التصوف خاصة؛ فهو يرى أن الاقتصار على التبليغ ونشر العلم في المجالس والحلقات فقط لا يكفي، وإنما لا بد من العمل وتوظيف العلوم الشرعية؛ لإصلاح المجتمعات الإسلامية بالقضاء على مظاهر البدع والفساد والفتنة فيها؛ وكذلك دعوة غير المسلمين للإسلام؛ يقول فؤاد شكري: "كان يميل إلى الانزواء والانفراد، يمضي وقته في التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام، وكان وهو في هذه السن شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الأمة الإسلامية، وتوحيد الصفوف في العالم الإسلامي؛ للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة"⁽²⁾.

ثم ذكر موقفاً له، بقوله: "إنه حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالسا فوق كتيب من الرمال، تبدو عليه دلائل التفكير العميق، فلما استوضحوه السبب في ذلك، كان جوابه: "إنه إنما يفكر في حال العالم الإسلامي؛ الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له، على الرغم من وجود سلاطينه وأمراءه ومشايخ طرده وعلمائه، فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين، وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي، يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة، ونحو غرض واحد، والسبب في ذلك هو انعدام الغيرة على الدين لدى العلماء والشيوخ، وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم، قد فرقههم شيعاً، وجماعات؛ فأصبحوا

(1) ينظر: أبو الفتح البياتوني: المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، 1995م، 14.

(2) محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 12.

لا يُعَنون بنشر العلم والمعرفة، ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد، وجمع الكلمة، زد على هذا أن على هؤلاء العلماء، والشيخ واجبا عظيما في حق الملة الإسلامية؛ إذ إن الشعوب المجاورة في السودان، والصحراء من أفريقيا الغربية لا تزال تعبد الأوثان، ومع هذا بدلا من وعظ هذه الشعوب الوثنية، وإرشادهم إلى الدين القويم ما زالوا يفضلون القبوع في كل مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم⁽¹⁾.

ثم إن رسائله الدعوية التي كان يرسلها لمشايخ الزوايا تبين حرصه على الجمع بين التبليغ والتطبيق؛ منها قوله: "والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد بالقول، والعمل"⁽²⁾، وعند الحديث عن مفهوم الدعوة عنده لا يمكن أن نغفل عن أن دعوته قامت على الجمع بين الشريعة والحقيقة، - أي: علم الظاهر والباطن - ، فحرص على إحياء علم التصوف السني، وتطبيقه بتربية النفوس، وعلاجها من المهلكات كالغيبة، والنميمة، هذا ما نلتمسه في كثير من رسائله، ومنها: "فإننا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله، قال تعالى: في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾"⁽³⁾، والطاعة هي امثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وأداء زكاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى من الكذب، والغيبة، والنميمة، وأكل أموال الناس بالباطل، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق، وشهادة الزور، وغير ذلك مما حرم الله، ورسوله..."⁽⁴⁾.

ثانيا: أصول الدعوة عند الإمام السنوسي:

- القرآن الكريم والسنة النبوية: إن السنوسي كغيره من علماء التصوف السني اعتمد على القرآن الكريم والسنة الشريفة في بناء منهجه الدعوي؛ فذكر أقوالا كثيرة لعلماء التصوف تبين ذلك؛ منها: قول الجنيد: "الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول -صلى

(1) محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 12.

(2) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية ونشأتها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 158.

(3) النساء، من الآية: 59.

(4) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية ونشأتها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 158.

الله عليه وسلم -" (1)، ونقل أيضا قول التستري: "بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، ورسوله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، أداء الحقوق" (2).
 شدد السنوسي على ضرورة الاقتداء، والتمسك بالكتاب والسنة، وألف كتابا سماه: "إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن"، بين فيه رأيه في ضرورة الرجوع إليهما، تحدث في الباب الأول عن وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وبين أن دلالة الكتاب والسنة واحدة، وذكر أدلة وجوب اتباعهما، كذلك بين في هذا الباب العلاقة بين الكتاب والسنة (3).
 كما أن رسائله التي كان يرسلها لشتى الأقطار خير دليل على اعتماده على القرآن والسنة في الدعوة إلى الله، من ذلك إحدى الرسائل التي أرسلها إلى أهل وجنقة بتشاد، فبعد البسمة والسلام والسؤال عن أحوالهم، قال: "فالقصد المطلوب، والأمر المرغوب هو السؤال عنكم، وعن كلية أحوالكم، جعلها الله جارية على منهاج كتابه، وسنة نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم.

وثانيا: فإننا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله - تعالى -، ورسوله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (4)؛ وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (6) (7).

- أقوال السلف: إن الباحث في مؤلفات الإمام يتبين له أنه اعتمد في بناء منهجه الدعوي على علماء السلف، بعد أخذه من علمهم على مشايخه، فيستشهد بكلامهم تارة، ويتبع أفعالهم تارة أخرى، بخاصة علماء التصوف، فقد تأثر بهم تأثرا كبيرا، ولزم مسلكتهم، فاهتم بدراسة كتبهم والتبحر في طرقهم، واهتدى بنهجهم، حتى أسس طريقة

- (1) الأصبهاني: حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 4، 1405هـ، 257/10، ومحمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، المطبعة الثعلبية، الجزائر، 1914م، د ط، 7، 108.
 (2) الأصبهاني: حلية الأولياء، مرجع سابق: 10/190، ومحمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، مرجع سابق: 108.
 (3) ينظر: محمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، مرجع سابق: 31.
 (4) محمد، الآية: 33.
 (5) النساء، الآية: 80.
 (6) النساء، الآية: 69.
 (7) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية ونشأتها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، 158.

له في العبادة والذكر، متبعا منهجهم، وهي الطريقة السنوسية، فتبعه من سار على منهجه؛ يقول في مقدمة كتاب: "المنهل الراوي الرائق" عن علماء التصوف داعيا اقتفاء أثرهم: "ولكنهم لعظيم فضلهم؛ ولعلو مكانتهم، وجزالة قدرهم، وشغوف استكانتهم، لا يستطيع ردهم، ولا يخيب قصدهم، فكان كالمسوخ لذلك الخطب الهائل لعاري الأهلية ذي الجليل العاقل تمثلا بما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رياح"⁽¹⁾

وقد سماهم أهل الله في كتابه الإيقاظ، وبين طريقتهم في الوصول إلى الله، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام: على حسب مراتب اليقين⁽²⁾؛ كما نقل كثيرا من أقوالهم، التي هي خلاصة تجاربهم في كتبه؛ منها قول أبي العباس ابن عطاء الله: "من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب - صلى الله عليه وسلم - في أفعاله، وأمره، وأقواله، وأخلاقه"⁽³⁾، وكذلك دافع عنهم في بعض المسائل التي اشتهر بها أهل التصوف حكم تلبيس الخرقه، وتلقين الذكر⁽⁴⁾، ومسائل أخرى كثيرة يطول ذكرها في هذا المقام.

- العقل: إن السنوسي من أكثر العلماء الذين اهتموا بتوظيف ملكة العقل، تلك اللطيفة المدركة للعلوم، المسؤولة عن الفهم والإدراك⁽⁵⁾؛ فلولا العقل لما استطعنا تحقيق اليقين والإيمان، فهو مناط الفهم والتدبير والتفكير، فالإمام مع تمسكه بالاعتداء بالسلف ومنهجهم، إلا أنه نادى بالاجتهاد وتحرير العقول من التقليد المطلق؛ لذا نجده قد خالف مذهبه (المالكي) في كثير من المسائل، منها: حكم القنوت، وحكم تطويل الصلاة...⁽⁶⁾؛ وقد أقام الحجّة النقليّة، والعقلية في المسائل، التي خالف فيها المذهب، وقد أسهب في ذلك في كتابه: "المسائل العشر". أما المسائل التي خالف فيها المذهب فقد جمعها في كتابه: "بغية المقاصد في خلاصة المراصد"⁽⁷⁾، وبين في كتابه: "إيقاظ الوسنان" مفهوم الاجتهاد،

- (1) محمد السنوسي: المنهل الراوي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، دار التوفيقية، المسيلة، ط: 1، 2011م، 6.
- (2) ينظر: محمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، مرجع سابق: 105.
- (3) الأصبهاني: حلية الأولياء، مرجع سابق: 302/10، ومحمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، مرجع سابق: 105.
- (4) ينظر: محمد السنوسي: المنهل الراوي في أسانيد العلوم وأصول الطرق، مرجع سابق: 154-157.
- (5) ينظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المنهاج، جدة، ط: 1، 2011م، 5/15.
- (6) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 151.
- (7) ينظر: محمد السنوسي: شفاء الصدر بأري المسائل العشر من درر الفقه المالكي، ت: محمد الجزائري، دار الإمام مالك، الجزائر، ط: 1، 2001م، 41، 90؛ وينظر: يوسف أبو عليقة، وعبد الرحمن بن محمود: التجديد في فكر الإمام محمد بن علي

وأنواعه، وشروطه؛ بحيث لا بد في الاجتهاد أن لا يخالف الكتاب والسنة، بعيدا عن الاجتهاد بالرأي والهوى⁽¹⁾؛ يقول في ذلك: "فإن القول بالرأي الغير المبني على أصل حرام بل من أكبر الكبائر"⁽²⁾.

ثالثا: وسائل الدعوة وأساليبها عند الإمام السنوسي:

- وسائل الدعوة: تنقسم وسائل الدعوة إلى قسمين: وسائل معنوية؛ كالعلوم الشرعية، وغيرها؛ وأخرى مادية؛ كالمساجد، والمدارس، والكتب، والرسائل قديما؛ والراديو، والتلفاز⁽³⁾، وشبكة الانترنت حديثا؛ أما العلوم الشرعية فهي إحدى الوسائل التي لا يمكن للداعية أن ينشر دعوته إلا من خلالها؛ فإذا لم يؤسس الداعية نفسه عليها بالنبوغ في العلوم الشرعية لا يستطيع تحقيق الأهداف المناسبة لدعوته، من هنا جاء اهتمام الدعاة بالإعداد العلمي؛ ومنهم الداعية الإمام السنوسي، فقد أعد نفسه بالتبحر في شتى العلوم؛ لتكون دعوته على بينة وبصيرة اتباعا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁴⁾؛ وقد يغلب على الداعية استعمال علم معين من العلوم الشرعية في الدعوة، كما فعل السنوسي باعتماده على علم التصوف في جميع مجالات دعوته حتى في فتاويه، فإذا ما أفتى في مسألة ما كثيرا ما جمع بين الحقيقة والشريعة، فيضيف لفتاويه جانبا صوفيا؛ كي يضيف لها بعدا روحيا، يترك أثرا في نفوس المخاطبين؛ يقول بعد ذكر الأحكام الظاهرة للصلاة: "فاعلم أن هذه الصلاة المذكورة كما تشمل الأقوال، والأفعال القلبية السابق وصفها، كذلك تشمل الأفعال، والأحوال القلبية الآتي ذكرها من الخشوع، والسكينة، والخضوع، والوقار..."⁽⁵⁾، وقد بين أن السبيل لمعرفة الله، والوصول إليه هو التصوف⁽⁶⁾؛ وكذلك من الوسائل التي استخدمها في الدعوة: الطريقة؛ وهي طريقة يمتاز بها أهل التصوف عن غيرهم في الذكر والعبادة،

السنوسي، جامعة الجبل الغربي، كلية العلوم مزدة، المؤتمر السنوي بمركز البحوث، جامعة ملايا- ماليزيا، 2014م، 17،

(1) ينظر: محمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، مرجع سابق: 49 - 63.

(2) المرجع نفسه: 61.

(3) ينظر: أبو الفتح البيانوني: المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق: 301، 309.

(4) يوسف، الآية: 108.

(5) محمد السنوسي: بغية المقاصد في خلاصة المراصد، ت: أحمد الطنطاوي، هدية العارفين، د ت، ط، 58، 59.

(6) ينظر: محمد السنوسي: بغية المقاصد في خلاصة المراصد، مرجع سابق: 118.

وفي معالجة النفوس؛ هذا فيما يتعلق بالوسائل المعنوية⁽¹⁾. أما ما يتعلق بالوسائل المادية فهو أيضا اتباع طريق أهل التصوف باستخدامه الزوايا في نشر دعوته في شتى البقاع⁽²⁾، وسنتحدث عنها بشيء من التفصيل في المطلب القادم. وتأسيسا على ما تقدم نستنتج أن الإمام اعتمد اعتمادا كبيرا على التصوف في نشر دعوته، بل إن دعوته قامت على التصوف كما سنبين لاحقا؛ وكذلك من الوسائل المادية التي استعملها في نشر دعوته هي: الرسائل، التي كان يرسلها لتلاميذه ومشايخ الزوايا وغيرهم لنشر دعوته، وهي من الوسائل التي استخدمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في نشر الدعوة.

- أساليب الدعوة: إن الداعية الحكيم من يستطيع إتقان أساليب الدعوة المختلفة؛ ليحقق الأهداف المرجوة من الدعوة؛ وقد استخدم الأمام أساليب كثيرة مراعى في ذلك حال المدعو، وطبيعة الموضوع الذي يدعو إليه؛ ومن أبرز الأساليب التي ميزت دعوته ما يلي:

أ. أسلوب الحكمة والرفق واللين: بالنظر إلى دعوة السنوسي يلاحظ أنه اعتمد على المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، فكثيرا ما يغلب على دعوته جانب اللين والنصح والرفق والحكمة، ولعل ذلك كان أحد أسباب نجاح دعوته وانتشارها، فأمعن في إحدى رسائله التي أرسلها إلى شيخ زاوية المدينة، يقول فيها: "وحسنوا أخلاقكم، ولينوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽⁴⁾، ... وقال - صلى الله عليه وسلم - : "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس"⁽⁵⁾، وعليكم بالمناصحة، والمذاكرة، وإرشاد عباد الله إليه، والمدارسة، والاجتماع، والتحابب، والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا وعلى البر أعوانا"⁽⁶⁾.

ب. أسلوب ضرب الأمثال: يعد أسلوب ضرب الأمثال من الأساليب المستخدمة

(1) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية ونشأتها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 143.

(2) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة: 47، 48.

(3) البقرة، من الآية: 83.

(4) النحل، من الآية: 125.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک، (ك: الرقائق، 4 / 348، رقم الحديث: 7873).

(6) علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مرجع سابق: 1 / 146.

في القرآن الكريم، وكذلك السنة الشريفة؛ لما له من تأثير في العواطف، وفي السلوك الإنسانية، وفي غرس القيم الإنسانية في نفوس المسلمين⁽¹⁾؛ فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁽²⁾، وقد تنبه السنوسي على أهمية هذا الأسلوب فاستخدمه كثيرا في دعوته، ومن ذلك حديثه عندما أراد بناء زاوية الجغبوب، فقال: "الطير له عقل أم لا، فقالوا: لا، فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شاخ، حتى لا يلحقه ذئب، ولا ثعلب، ولا غيرهما، وقال: اليربوع له عقل، فقالوا: لا، فقال: هو يجعل في حجره طرباقة، وهي النافقاء، فإذا دخل عليه الحنش خرج منها، وقال: "تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا"، وأشار بإصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب"⁽³⁾، بهذا المثال استطاع السنوسي أن يركز على بعض الحقائق؛ لترسيخها في النفوس، والتحذير من الخطر الداهم على بلادهم⁽⁴⁾.

ج. الأسلوب القصصي: يعد الأسلوب القصصي من أقوى الأساليب الدعوية تأثيراً؛ لأن النفس البشرية مجبولة على محبة القصص، والميل إليها، وربطها بالواقع⁽⁵⁾؛ لذا استخدم السنوسي هذا الأسلوب في دعوته كثيرا، منها ما كان على سبيل الاستشهاد؛ كذكره قصة تلبيس الخرقه عند الصوفية بالرجوع بها إلى تأصيلها⁽⁶⁾.

د. أسلوب الحوار والمناظرة: من أكثر الأشياء التي يجب على الدعاة التركيز عليها هو الاستفادة من الدعاة السابقين في التعامل مع المخالف، خاصة إذا كانت التيارات المخالفة تحاول تشويه طريق الإسلام الصحيح؛ لما في هذا الأمر من خطر على وحدة الأمة وعقيدها؛ لذا حاولت البحث جاهدة للاستفادة من منهج الإمام في التعامل مع المخالف؛ لأنه يعد مثالا للداعية الناجح؛ فقد شهدت كل المجتمعات التي قطنها وحدة وقوة بمجرد انتشار فكره ودعوته بها، وقد تبين لي أنه كان كثيرا ما يبتعد عن الجدل والمواجهة مع المخالف، فقد صرف جل جهده الفكري في دعوة غير المسلمين، وكذلك تصحيح وتجديد

(1) ينظر: عبد الحميد هنداوي: منهج الدعوة في واقعا المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط/1، 2006م، 106.

(2) البقرة، من الآية: 17.

(3) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية، مرجع سابق: 154.

(4) ينظر: المرجع نفسه: 153، 154.

(5) ينظر: عزيز العنزي: البصيرة في الدعوة إلى الله، دار الإمام مالك، أبوظبي، ط: 1، 2005، 138.

(6) ينظر: محمد السنوسي: المنهال الراوي في أسانيد العلوم وأصول الطرق، مرجع سابق: 154-157.

عقيدة عوام الناس من الباطل إلى الحق، كما فعل في برقة، فنجده عندما مرّ بمصر وأقام بها قليلاً، لم يمكث هناك طويلاً؛ وذلك لاصطدام فكره مع فكر علماء مصر تلك المدة؛ بحيث غلب عليهم التقليد والجمود؛ فترك مصر ذاهباً إلى الحجاز، وكذلك الحال عندما كان في الحجاز⁽¹⁾، فلم يرد شيء عن مناظراته معهم، مع الرغم من اختلافه عنهم.

كما يتضح هذا من خلال رسائله، فقد سئل مرة عن خلاف بعض العلماء في عصمة الأنبياء، قال: "إنكم تعلمون أن مادة الخصام ليس من دأبنا، وقد علمتم أن شأننا هو امثال قوله -صلى الله عليه وسلم-: "من ترك الجدل وهو مبطل بنى الله له بيتاً في الجنة..."⁽²⁾، ثم قال: وأما الخوض والجدال في الأمور الاعتقادية، فهو الطامة الكبرى، والداهية الغرى"⁽³⁾.

ومع ذلك فإن الإمام دعي ذات مرات للمناظرة فقبل، وكان قوي الحجّة، راسخ القواعد⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: "دور التصوف في نجاح الحركة":

كان للتصوف دور كبير في نجاح السنوسية وانتشارها؛ وكان لبروز التصوف في شخصية الإمام عدة عوامل، وهي تعد من أهم أسباب نجاح دعوته، وانتشارها، وهذه العوامل هي:

أولاً: نشأة الإمام في بيئة صوفية: نشأ الإمام في أسرة علم، وتربى في بيئة صوفية؛ تعلم التصوف منذ صغره على يد عمته، وكذلك تعلمه على يد السيد محمد السنوسي؛ فنشأته على علم التصوف أدت إلى انعكاسها على شخصيته، فأصبح يحب العزلة والخلوة، والتدبر في ملكوت الله، وكان يؤثر حب الله، ويراقبه، ولا يأنس بأحد غير الله، ويقضي وقته مستغرقاً في الذكر والعبادة؛ فعاش الإمام التصوف، وتأثر به الأمر الذي جعله يبحث عن شيوخ التصوف أينما حلوا؛ ليتعمق في هذا العلم، فعندما رحل إلى فأس أخذ عن جمع كبير من علماء التصوف؛ منهم: العربي بن أحمد الدرقاوي من شيوخ الطريقة الشاذلية، وابن ناصر، والعرائشي، والتيجاني وغيرهم...، وعرف باهتمامه بالطرق الصوفية

(1) ينظر: أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها، ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 74.

(2) أخرجه الترمذي في سننه: (ك: البر والصلة، ب: ما جاء في المرء، 358/4، الحديث: 1993).

(3) يوسف أبو عليقة، وعبد الرحمن بن محمود: التجديد في فكر الإمام محمد بن علي السنوسي، مرجع سابق: 15.

(4) ينظر: علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مرجع سابق: 180/1.

ودراستها⁽¹⁾، وألف كتابه المعروف في الطرق: المنهاج الراوي في أسانيد العلوم وأصول الطرق.

إن اهتمام السنوسي بعلم التصوف جعله يجب الاستقرار في البيئة الصوفية؛ لذلك نجده لم يبق طويلاً بمصر؛ لعدم اهتمام علماء مصر بالتصوف آنذاك، أما عندما رحل إلى الحجاز فلازم الإمام أحمد بن إدريس الصوفي، وفي تلك المدة تشبعت شخصيته بعلم التصوف، فانعكس ذلك على دعوته ومؤلفاته⁽²⁾، بحيث جمع بين الحقيقة والشريعة.

ثانياً: اهتمام الإمام السنوسي بالدفاع عن التصوف والرد على أدعياءه: ذكرنا سابقاً أن الأمام من العلماء الذين يكرهون الجدل والمناظرات، لكن اهتمامه بعلم التصوف جعله يسعى في الرد على دخلائه وتنقيحه من الشوائب دون غيره من العلوم؛ لأنه يعلم أن استعادة التصوف السني هو المنهج الذي ينبغي الأمة من الفتن، والشهوات التي تؤدي إلى الهلاك.

تلهذ السنوسي على يد كوكبة من علماء الطرق الصوفية، وكان مهتماً بالطرق الصوفية خلال أسفاره؛ فكان خبيراً بهذه الطرق، وكان حريصاً على انتقاد انحرافات بعض الطرق منها: الطريقة الصديقية⁽³⁾؛ حيث قال: "دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة؛ وذلك لقلّة معرفتهم بالأحوال، واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدّبوا بمن يروضهم، ويخرجهم من الرعونات..."⁽⁴⁾.

أما فيما يخص انتقاده لدخلاء التصوف؛ فله عبارات كثيرة، منها: "ومنها ما كثر به تبجح كثير من بعض المتنكسين من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين من الإعجاب بأعمالهم، والتمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد..."⁽⁵⁾.

وقد انعكس هذا الاهتمام على منهجه الصوفي، بحيث كان منهجاً صوفياً نقياً، مأخوذاً عن منهج علماء السلف، خالياً من تشوهات أدعياء التصوف وأعدائه، فساعد هذا في نجاح دعوته.

(1) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 11، 14، 20.

(2) ينظر: المرجع نفسه: 16، 20.

(3) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها، ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 143.

(4) المرجع نفسه.

(5) محمد السنوسي: بغية المقاصد في خلاصة المرصد، مرجع سابق: 6.

ثالثاً: الزوايا الصوفية، ودورها في نجاح الحركة:

- تعريف الزاوية: تعددت تعريفات الزاوية من قبل الباحثين والمؤرخين، لكنها تتفق في المعنى مع اختلاف ألفاظها، منها ما يلي: هي مؤسسة يقوم بتأسيسها شخص ذو شأن روحي، وشخصية دينية معروفة بالفضيلة - بمبادرة منه - مشهور بالتقوى، والصلاح، والعبادة، يتولى مهمة الوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه من أتباع، ومريدين، وقد يضاف إلى ذلك ضريح مؤسسها، الذي تسمى باسمه غالباً؛ فالزاوية ذات تأسيس صوفي، تُفتح بناءً على أمرٍ من شيخ الطريقة لتلاميذه؛ ليقوم بها التلاميذ والمريدين بعدة وظائف، كالعبادة والتعليم⁽¹⁾.

أما في ما يخص الزوايا السنوسية فهي تختلف عن غيرها من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها، ورسالتها، وكانت تبني في الدواخل؛ وذلك لحرص الإمام علي الابتعاد عن نفوذ السلطة⁽²⁾.

- وظائف الزوايا السنوسية في ليبيا: استطاعت الحركة السنوسية التغلغل في المجتمع الليبي والتأثير به في جميع جوانبه، وذلك من خلال الزوايا؛ فالزوايا تعد ركيزة نظام الحركة السنوسية، وهي التطبيق العملي لأفكار السنوسي التي دعا إليها، حيث حققت مجموعة من الأهداف الدعوية المختلفة، بحيث لم تقتصر على العبادة فقط؛ يقول السنوسي: "رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القرآن، ودرس العلم، ودلالة الخلق على دينهم، وعودتهم إلى ربهم، وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الشجر، ويكثر بها السكان؛ لكثرة الثمار، وتنتشر العمارة، وتوسع الإدارة"⁽³⁾؛ فللزوايا أهداف كثيرة أبرزها:

الأول: استطاع الإمام السنوسي من خلال الزوايا نشر العقيدة السليمة، المتمثلة في توحيد الله والقضاء على مظاهر الشرك والبدع، فقد اشتهر مجتمع برقة قبل مجيئه بالضلال والجهل، فجمعهم على وحدة كلمة التوحيد، واتباع منهج القرآن الكريم، والسنة الشريفة، كما أن دعوته إلى تصحيح العقيدة تخطت حدود المسلمين، فأدخل كثيراً من العجم

(1) ينظر: العماري الطيب: الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر التحول من الديني إلى الدنيوي ومن القدسي إلى السياسي: دراسة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع: 15، جوان/ 2014م: 128، 129.

(2) ينظر: محمد شكري: السنوسية دين ودولة، مرجع سابق: 48، وينظر: علي الصلاحي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مرجع سابق: 96.

(3) أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها، ونموها في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: 237.

والعرب في الإسلام.

الثاني: الدعوة إلى الإصلاح التربوي؛ وذلك من خلال ترويض النفوس على الفضائل، ونبذ الرذائل.

الثالث: الاهتمام بعلم التصوف خاصة، وتنقيته من الأفكار الخاطئة التي دخلت عليه من خلال أدياء التصوف.

الرابع: كما لها دور تعليمي؛ فهي تمثل مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وأصول الدين، والتصوف، والفقه، وعلوم اللغة العربية، وغيرها من العلوم الشرعية، كما تحتوي الزوايا على مكاتب كبيرة مختلفة تجمع شتى العلوم.

الخامس: كذلك لها دور اجتماعي كبير؛ وذلك من خلال ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة، ومصالحة بينها، وتشجيعها على الاستقرار، فبحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزوايتها الخاصة بها، وعدم البعد عنها، فمرور الزمن تعودت القبيلة على حياة الاستقرار، والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك طريقاً، كما كان لهذه الزوايا دور في فض النزاعات، والمشاكل.

السادس: كذلك لها دور اقتصادي؛ وذلك من خلال تطوير الحركة الزراعية والتجارية؛ فعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالسلع، وكانت تقوم بتقديم مساعدات، وتسهيلات لإراحة المسافرين التجار؛ مما شجع على التبادل التجاري.

السابع: كما لها دور معماري؛ وذلك من خلال تدريب تلاميذها على إتقان الحرف، والصناعات: كصناعة البارود والأسلحة، وكذلك من خلال عملية البناء والإعمار، التي يقوم بها تلاميذ الزوايا بأمر من شيوخهم في مختلف مواقع الزوايا.

الثامن: كما تميزت بدورها الجهادي؛ وذلك من خلال دعم الحركة الجهادية ضد الغزو الفرنسي، وقد توارث السنوسيون المنهج الجهادي للحركة، فاستطاعوا طرد الغزو الإيطالي من ليبيا⁽¹⁾.

(1) ينظر: محمود السيد: تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، د. ط، 64-67، وينظر: علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مرجع سابق: 1/ 102، 103.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد البحث والدراسة في المنهج الدعوي لمؤسس الحركة السنوسية، توصلت إلى ما يلي:

أولاً: النتائج:

- يتجلى مفهوم الدعوة عند الإمام السنوسي في الجمع بين التنظير والتطبيق.
- اعتمد الإمام في أصوله الدعوية على: القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأقوال السلف، والعقل.
- ابتعد عن أسلوب الجدل والمناظرات؛ وركز اهتمامه على القضايا التي تجمع الأمة وتلم شملها.
- استخدم وسائل دعوية معنوية، وأخرى مادية؛ أما المعنوية فتمثل في نشر العلوم الشرعية، بخاصة علم التصوف، وأما المادية؛ فتمثل في إنشاء الزوايا لنشر دعوته، وكذلك الرسائل الدعوية التي كان يرسلها لشتى الأقطار.
- استخدم أساليباً دعوية مختلفة، تختلف باختلاف حال المدعو والموضوع الذي يدعو إليه؛ كالقصة، وضرب الأمثال؛ وقد تميزت دعوته بالرفق واللين والحكمة.
- من أبرز أسباب نجاح دعوته: علم التصوف؛ لذلك دافع عنه في مواطن مختلفة.
- حققت الزوايا السنوسية أهدافاً كثيرة منها: العقديّة، والأخلاقية، والاقتصادية، والاجتماعية، والجهادية.

ثانياً: التوصيات: تتمثل في الآتي:

- الإفادة من منهج الإمام في الدعوة والإرشاد.
- توظيف علم التصوف في الدعوة إلى الله؛ لكونه سبباً من أسباب نجاح الحركة السنوسية.
- الاهتمام بمؤلفات الإمام بالبحث والدراسة والتحقيق.
- إقامة الندوات والمؤتمرات؛ التي تعنى بدراسة شخصية الإمام، ومنهجه في الدعوة والإصلاح خاصة في ما يتعلق بالجانب الاجتماعي؛ الذي نعاني من فساد اليوم.
- وفي الختام أسأل الله -تعالى- التوفيق والسداد، وأعوذ به من الغفلة والخطأ، وأسأله أن يجمع شمل الأمة على كلمة التوحيد، وعلى منهج الإحسان، وأن يرزقنا من ذريتنا من يحمل هم الدعوة الإسلامية كالإمام السنوسي -رحمة الله عليه-.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1. أبو الفتح البيانوني: المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، 1995م.
- 2. أبو داود السجستاني: سنن أبي داود، ت: محمد عبد الحميد، دار الفكر، د. ط، د ت.
- 3. أحمد الدجاني: الحركة السنوسية: نشأتها، ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان-بيروت، ط: 1، 1967م.
- 4. إسماعيل ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: 1، 1997م.
- 5. الأصهباني: حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 4، 1405هـ.
- 6. دلا رداوي: الحركة السنوسية ودورها في محاربة الاحتلال الإيطالي في ليبيا: 1911م - 1932م، رسالة ماجستير في تخصص تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة محمد بو مضياف، الجزائر: 2016م.
- 7. رابحة خضير، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني: 1555م، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المؤتمر السنوي الأول لكلية التربية الأساسية، م: 6، ع: 2، 2007م، كلية الآداب، جامعة الموصل.
- 8. شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير، في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو، القاهرة، د ط، د ت.
- 9. عبد الحميد هندراوي، منهج الدعوة في واقعا المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط/1، 2006م.
- 10. عبد الرحمن الدرسي: الانتفاضات الوطنية ضد الوجود العثماني في ليبيا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة قاريونس، د ت.
- 11. عزيز العنزي: البصيرة في الدعوة إلى الله، دار الإمام مالك، أبوظبي، ط/1: 2005م.
- 12. علي الصلابي: الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس، مكتبة الصحابة، الشارقة، مكتبة التابعين، القاهرة، ط/1، 2001م.
- 13. العماري الطيب: الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر التحول من الديني إلى الدنيوي ومن القدسي إلى السياسي، دراسة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع: 15، جوان/2014م.
- 14. الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المنهاج، جدة، ط/1، 2011م.
- 15. محمد الترمذي: سنن الترمذي، تح: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث، بيروت، د ط، د ت.

16. محمد السنوسي: المنهل الراوي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، دار التوفيقية، المسيلة، ط/1، 2011م.
17. محمد السنوسي: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1914م، د ط.
18. محمد السنوسي: بغية المقاصد في خلاصة المراصد، ت: أحمد الطنطاوي، هدية العارفين، د ت، ت ط.
19. محمد السنوسي: شفاء الصدر بأري المسائل العشر من درر الفقه المالكي، ت: محمد الجزائري، دار الإمام مالك، الجزائر، ط/1، 2001م.
20. محمد شكري: السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، د ط، 1948م.
21. محمد النيسابوري (الحاكم): المستدرك على الصحيحين، ت: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1990م.
22. محمود السيد: تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، د ط.
23. ميلود ميسوم: محمد بن علي السنوسي منابع علمه ومنهج طريقته، جامعة حسيبة بن بو علي بالشلف، الجزائر، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، ع: 20، 2018م.
24. يوسف أبو عليقة، وعبد الرحمن بن محمود: التجديد في فكر الإمام محمد بن علي محمد السنوسي، جامعة الجبل الغربي، كلية العلوم مزدة، المؤتمر السنوي بمركز البحوث، جامعة ملايا، ماليزيا: 2014م.

الآداب والأخلاق الإسلامية من كتاب الشذرات الشذية على الدرر السنية للشيخ الطيب المصراقي

د. مصطفى فرج زايد/ الجامعة الأسمرية/ كلية الدعوة وأصول الدين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فهذه مشاركة في المؤتمر الدولي الأول للهوية الدينية الليبية تحت شعار: (الهوية الدينية دعامة أساسية للوحدة الوطنية)، الذي تنظمه وتشرف عليه كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية بالاشتراك مع رابطة علماء ليبيا الذي سيعقد في الفترة من 10 إلى 12 سبتمبر 2022 ميلادي، وكان عنوان هذه المشاركة: "الآداب والأخلاق الإسلامية من كتاب الشذرات الشذية على الدرر السنية، للشيخ الطيب المصراقي". يدخل العنوان ضمن المحور الثاني من محاور هذا المؤتمر والمتعلق بالمذهب في بلادنا وجهود الليبيين في الحفاظ عليه، الفقرة (ب): أعلام ليبيا من المالكية، وأشهر مؤلفاتهم الفقهية والأصولية في المذهب، قديما وحديثا، وأثر ذلك في الحركة العلمية تساؤلات الدراسة: إن أهم التساؤلات هو: ما أثر جهود الشيخ الطيب المصراقي في إثراء الحركة العلمية من خلال كتابه الشذرات الشذية؟ بالإضافة إلى تساؤلات أخرى سنجيب عنها لاحقا في نتائج هذا البحث.

أهدافها: الهدف من الدراسة هو إبراز جهود علماء بلادنا ومواقفهم في الحفاظ على الهوية الدينية الليبية، وأيضا التعرف على إسهامات علماء بلادنا في تأليف الكتب فيما يتعلق بالمذهب المالكي بالإضافة إلى الإجابة عن التساؤلات السابقة، التي سنقف على إجابة لها ضمن النتائج التي حققها من هذه الدراسة.

أهميتها: إن هذه الدراسة التي هي جزء من كتاب الشذرات الشذية للشيخ الطيب المصراقي، الذي تناول فيه عديد من الجوانب الفقهية والسلوكية والأخلاقية وفق المذهب المالكي، وسيكون الحديث عن الآداب والأخلاق والسلوك المهم في حياتنا الاجتماعية من أجل الحفاظ على الهوية في مجتمعنا، وهي تعد ركيزة مهمة لسالك المذهب المالكي سواء من جانبه الفقهي أو العقدي أو جانب الإحسان (التصوف)، فهذه الأمور الثلاث (الآداب والأخلاق والسلوك) لها أثر كبير في تغيير حياة المجتمع إذا ما أخذت بعين الاعتبار من

قبل المربّين وغرسها في أذهان النشء.

أما حدود الدراسة فسيتم الاقتصار على الآداب والأخلاق والسلوك التي ذكرها الشيخ الطيب المصراي في كتابه الشذرات الشذية.

المنهج المتبع في هذه الدراسة: هو المنهج الاستقرائي حيث قمت بقراءة الآداب والأخلاق التي وردت في كتاب الشذرات الشذية وجمعها وترتيبها وفق عناوين واضحة للقارئ والمستفيد، وقت بالرجوع إلى المصادر والمراجع التي أشار إليها المؤلف لمزيد من التوثيق والفائدة؛ لأنّ الكتاب هو عبارة عن مخطوط مكتوب بالآلة الكاتبة، ولم يتم تحقيق هذا الجزء منه إلى الآن، بداية من الصفحة 165 إلى الصفحة 180، وقد قام الباحث فيما سبق بتحقيق ما يتعلق بكتاب الطهارة والصلاة من الكتاب، كما قام الدكتور علي معتوق شرف الدين بتحقيق ما يتعلق بأبواب الفقه الأخرى (الزكاة، الصوم، الحج الجهاد، النذور، الأيمان، أحكام الزواج والطلاق، البيوع)، والذي سيقوم به الباحث في هذه الدراسة هو عبارة عن دراسة الآداب والأخلاق المطلوبة شرعا وأثرها في المجتمع، وليس تحقيقا لهذا الجانب.

الدراسات السابقة: لا توجد دراسة لهذا الجانب من كتاب الشذرات الشذية فيما سبق على حدّ علمي، إلا ما استثنيت من دراسة الباحث ودراسة الدكتور شرف الدين. الخطة الدراسية:

أمّا عن خطة البحث فقد رسمت وفق ما يلي:

المقدمة: تشمل إشكالية البحث وأهدافه وأهميته والمنهج المتبع وحدود الدراسة والدراسات السابقة.

المبحث الأول: التعريف بالكتاب ومؤلفه.

المطلب الأول: كتاب الشذرات الشذية.

ذكر الشيخ المصراي أنه فرغ صبيحة يوم الثلاثاء لعشرين خلت من شهر ربيع الآخر من عام ستة وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، والموافق لعشرين خلت من شهر إبريل من سنة ستّ وسبعين وتسعمائة وألف لمولد المسيح - عليه السلام -.

وقد حوى على كثير من المسائل الفقهية والآداب الإسلامية، وكتب بأسلوب سهل وواضح وبذلك يستفيد منه قارئه استفادة كبيرة، وقد توسّع الشّارح في توضيح بعض المسائل المهمة، التي تهّم عصره في تلك الفترة، لكي ينظر القارئ إليها بعين الاعتبار.

ومما زاد في قيمة كتاب الشذرات الشذية هو أخذه من مصادر ومراجع متنوعة، فهو يمتاز بكثرة النقول من كتب علماء المذهب المالكي، ومن أبرز الكتب التي اعتمد عليها: متن العزية للشيخ أبي الحسن على الرسالة، وشرح عبد الباقي الزرقاني عليها، وحاشية العدوي على هذا الشرح، وشرح الزرقاني عليه مع حاشية العدوي، وأقرب المسالك، للدردير، وحاشية الصاوي المسماة ببلغة السالك لأقرب المسالك، وشرح مختصر خليل، المسمى بمواهب الجليل، للخطاب، وشرح المواق، على مختصر خليل المسمى بالتاج والإكليل، و متن الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني، وشرح أبي الحسن على الرسالة، وشرح النفراوي عليها، وشرح أحمد الصديق عليها، المسمى مسالك الدلالة على مسائل متن الرسالة، وشرح ميارة الصغير على متن ابن عاشر، المسمى بالدر الثمين والمورد المعين، على نظم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، لابن ميارة، وحاشية على مختصر الدر الثمين، لابن حمدون، وتفسير القرطبي وتفسير الجلالين، وحاشية الصاوي عليه، وشرح الموطأ، لمحمد الزرقاني، والترغيب والترهيب من الحديث الشريف، لزيكي الدين عبد العظيم المنذري، وتعليقات مصطفى عمارة عليه، والتاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، لمنصور علي ناصف، وفتاوى قرّة العين لإمام الحرمين، وكتاب المسائل العشر، المسمى بغية المقاصد في خلاصة المرصد، لمحمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، ومناسك محمد عابد، على مناسك والده حسين بن إبراهيم، ويليهما الرسالة المسماة بالقول الفصل في تأييد سنة السدل على مذهب الإمام مالك بن أنس، وإحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، و متن ابن عاشر، و متن الجوهرة للقاني، و متن الرحبية، و شرح السبط عليها، و تعليم المتعلم، بالإضافة إلى مصادر أخرى ذكرت أثناء الشرح، وقد ذكر هذه المصادر والمراجع الشيخ الطيب المصراتي - رحمه الله - عند بداية شرحه لنظم الدرر السنية للشيخ أحمد البهلول الطرابلسي في الفقه المالكي، ونظم البهلول يتكون من ثمانمائة بيت تتعلّق بأحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والأيمان والندور والجهاد وأحكام الزواج والطلاق والمعاملات والموارث، والتصوّف والأخلاق والآداب الإسلامية.

وقد سار الشيخ وفق منهجية محددة؛ حيث جمع أقوال العلماء ولم يقتصر فيه على أقوال علماء المالكية؛ بل تعرض فيه لذكر المذاهب الأخرى، وبشكل عام فإن هذا الكتاب يحوي قيمة علمية كبيرة.

وقد تتبع الشيخ الطيب نظم البهلول وشرحه وبين المقصود منه بأسلوب سهل قريب

التناول مع الاختصار غير المخل مراعيًا فيه الظروف الحاضرة حيث الرغبة في علوم الدين بصفة عامة والفقه بصفة خاصة فاختصر واقتصر على ما لا بد منه من الشروط والقيود، وأشار إلى أنه وضع كتابه ليكون بذلك مصنفًا يرجع إليه من أراد شيئًا من مسأله، وأنه أراد من شرحه أن يوضح الإشكاليات التي تنتج عن تفسير بعض الألفاظ الغامضة، لهذا ذكر في مقدمته ما يفيد ذلك عندما قال: (المهم في هذا التعليق هو تحليل ألفاظ المتن وبيان معاني ما جاء فيه بأسلوب بسيط ميسر مع عدم التعرض لما يتصل بالمتن من الجوانب الأخرى غير الجانب الفقهي من النحو والصرف وفقه اللغة وأحكام العروض وما إلى ذلك طلبًا للاختصار واقتصارًا على ما لا بد منه رعاية لمقتضى الحال)¹.

والشيخ ضمن منهجه المتبع هو تقديم اجتهادات المالكية، بداية من الإمام مالك رحمته الله وبقية علماء المذهب المالكي بعده.

المطلب الثاني: التعريف بالشيخ الطيب المصري - رحمه الله تعالى -.

قد يسأل سائل عن دورنا نحن عند فقد العلماء من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فننا من يفرط في الثناء والرثاء والحزن والتأسف على موتهم فقط، ومنا من يقول عند موتهم: قد ضاع الدين والدنيا بفقدهم، وهذا ليس صحيحًا، ولا يوفي حقهم ولا حق الأمة الإسلامية اتجاههم.

صحيح نحن نتألم عند فقد العلماء مخافة أن يعم الجهل والتشكيك واللبس بين الناس، وخاصة عندما يكون هذا العالم معروفًا لدينا؛ لمسنا علمه وعاصرناه واستفدنا من علمه.

إنه ينبغي علينا نحن أن نترحم عليهم أولًا وأن لا نبخس حقهم فيما قدّموه، هذا أقل ما يقال في حقهم، يقول القاضي عياض - رحمه الله تعالى - (ما لكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا، ثم تذكروننا فلا تترحمون علينا)².

إذن فينبغي علينا اليوم أن نرثيهم، ونجمع علومهم لكي يستفيد منها الآخرون، ونذكرهم بخير وفي هذا يقول السخاوي: (من ورّخ مؤمنًا فكأنما أحياه).

وكما نعلم أنّ سبب فقد العلم هو موت العلماء الذين رحلوا بخير ما عندهم، فإذا رحل

1- الصفحات الأولى من شرحه لنظم البهلول، حيث وضع مقدمة بين فيها منهجه والمصادر المعتمد عليها.

2- يراجع: الألوكة، المجلس العلمي، دورنا عند موت العلماء، 2012/4/14 ميلادي.

العلماء واتخذ الناس رؤساء جهّالاً وسألوهم وأخذوا بفتواهم ضلّوا وأضلّوا.
والحقيقة أنّ الموت الحقيقي للعلماء عندما يموت من يخلفهم من طلابهم، وكما قيل:
((لا يزال الناس بخير ما بقي الأوّل حتى يتعلّم الآخر، فإذا هلك الأوّل قبل أن يتعلّم
الآخر هلك الناس))¹.

التعريف بالشيخ المصري - رحمه الله:-

هو الطيب بن عثمان المشهور بابن طاهر، يرجع نسبه للشيخ عبد السلام الأسمر بن
سليم، بن حميدة بن عمران بن محيا بن سليمان الفيتوري الذي يرجع نسبه لسيدى الحسين
بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ².
ولد - رحمه الله تعالى - بقرية الطواهر بمدينة مصراته عام ستة وثلاثين وثلاثمائة
وألف هجرية والموافق لعام سبعة عشر وتسعمائة وألف ميلادية³.

نشأ الشيخ نشأةً صالحةً؛ حيث تربي على حب العلم وطلبه وتحصيله، فعندما بلغ
سن السابعة من عمره أخذه أبوه إلى الكّتاب كعادة أهل بلاده لتعلم القرآن وحفظه،
فحفظ القرآن في زاوية البي على الشيخ المنتصر، ثم انتقل إلى زاوية عبد السلام الأسمر
بمدينة زليتن لدراسة العلوم الشرعية⁴.

كان الشيخ من الوعاظ البارزين؛ حيث عين مدرساً بزاوية المحجوب بمدينة مصراته،
ثم عين مدرساً بزاوية الأسمرى، ثم نقل إلى معهد أحمد باشا بطرابلس مدرساً، ثم عين
مديراً لإدارة المساجد بالبيضاء⁵.

شارك في الدروس الحسنية التي كانت تعقد برعاية الملك الحسن، وكان يحضرها
بنفسه كلّ رمضان اجتمع بعلماء من المغرب الأقصى منهم: الشيخ محمد الطنجي، والشيخ
قدور الورطاس، والشيخ محمد برادة، والشيخ محمد المعمرى، والشيخ مختار السويسي وغيرهم
كثير⁶، ثم سافر إلى تونس صحبة مجموعة من طلبة الجامعة الإسلامية، واجتمع بعدد من

1 تفسير البغوي: 327/4.

2 يراجع: فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر ص 249.

3 المرجع السابق.

4 ينظر: فتح العلي الأكبر ص 250.

5 المرجع السابق.

6 ينظر: فتح العلي الأكبر ص 256.

العلماء الأفاضل منهم : الشيخ مصطفى بن حميدة والشيخ الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة سابقاً وصاحب التآليف المشهورة، والشيخ البشير النيفر وهو من مشاهير العلماء، والشيخ محمد الزغواني من كبار العلماء ذوي النقل والبحث، والشيخ الفاضل بن عاشور¹.

كما عين الشيخ خطيباً بمسجد أبي رقية بمدينة طرابلس، وبعد هذه الرحلة الطويلة من العطاء رجع إلى مدينة مصراته، ولازم التدريس بمسجد الطواهر قرب بيته، وكانت له دروس دائمة بمسجد الشيخ أحمد زروق كل جمعة².

إن أثر هذه المسيرة العلمية كان سببه تلقية العلم عن كثير من العلماء منهم بمدينة مصراته أمثال: الشيخ محمد بن عامر، والشيخ علي بن حسين المنتصر، والشيخ إبراهيم السني المنتصر المصراطي وغيرهم³، ومنهم بزواية الشيخ الأسمرى بزليتن مثل: الشيخ أحمد المبسوط، والشيخ رحومة الصاري والشيخ منصور أبو زبيدة، والشيخ عمران العلوص، والشيخ عبد السلام بن رحاب، والشيخ محمد بن رحاب، والشيخ عبد الله طليبة، والشيخ محمد قريو، والشيخ فرج عبد السلام حرير الفيتوري⁴ ومن مشايخه بمدينة طرابلس الشيخ عمر العربي الجنزوري، وبمدينة سرت الشيخ علي الزين المصراطي⁵.

ومن تدارس معهم أو كان جلوسه معهم ، فمنهم في مصراته : الشيخ رمضان أبو تركية، ورمضان بلبلو، وعبد الرحمن بن نصر، والسنوسي بن عبد العالي، وعبد الرحمن بن حقيق، وعبد الله الدلفاق وخليفة الهشي، ومحمد المغراوي، ومحمد مفتاح قريو، هؤلاء من تقدّموا وكانوا كبار السن وقت ذلك⁶ ومن المعاصرين له أيضاً في مصراته: مفتاح اللبيدي، ومصطفى التريكي، وكمال المنتصر، ومصطفى المجعي، وفي زليتن: علي الشويطر، وأحمد جوان، وأحمد الصاري، وأحمد الكيلاني، وطاهر أبي زبيدة وسليمان الزويبي، وعمر بن غويلة، ومحمد غريبي، وأحمد بن حامد، ومحمد بن محسن، وعبد الرحمن بن حكومة، ومنصور الشويرف، ومحمد المدني، ومحمد الشويرف، ومن قصر خيار حسين بن عبد الله،

1 المرجع السابق 255.

2 رواية الأستاذ محمد المحروق أحد تلاميذ الشيخ.

3 ينظر: فتح العلي الأكبر ص 253.

4 المرجع السابق.

5 نفسه.

6 تراجم ليبية دراسة في حياة آثار بعض الفقهاء والأعلام من ليبيا قديماً وحديثاً ص 234، لجمعة محمد الزريقي، وكتاب:

ومضات من تاريخ الفكر والثقافة في ليبيا ص 145، لمصطفى عبد الرحيم محمد أبو عجيبة.

ومحمد بن حسين بن عبد الله، ومحمد ابن حسين اشفلو، ومحمد بن رحاب، وفي بنغازي: محمد الصفراني، والشيخ الكوافي، وعبد الحميد الذيباني، ومحمد الحامي، ومحمد بن يعقوب ومنصور المحجوب، وفي طرابلس: علي سيالة، ومحمد سالم المفتي، وأبو الأسعاد العالم المفتي ومحمد بن عليوة، وعمر التومي بالهندشير، وعلي مصطفى المصري، ومصطفى بعيو، وإبراهيم رفيده.

أمّا ما يتعلّق بتلاميذه، فممن درس عليه في زاوية الأسمريّ علي حسين القبيّ زقلام، ومحمد المحروق المصري، وسالم علي إدراه، ومفتاح اللافي شاذي، وعلي عبد السلام النعاس، والمهدي الشوماني، وعلي إجان، وأحمد قدور، وعبد الناصر مخلوف، وابنيه المهدي بن جابر، وعاشور أحمد المبسوط وبشير بن زاهية، وغيرهم كثير¹. وقد كان الشيخ -رحمه الله- كما أخبر عنه تلاميذه ذا ثقافة وبلاغة عالية متواضعا ومثلاً للفقهاء الواعين لعلوم الإسلام، مهتماً ببعض القضايا المطروحة في وقته، متابعا لكافة الأحداث على الساحة الدولية والمحلية².

تميّز بطلاقة لسانه، واسترسال كلامه، وقوة بيانه، من خلال موهبة الخطابة التي حباه الله بها فهو يستطيع ببراعته الفذة، أن يخاطب الجميع عامةً أو متخصصين في آن واحد، وبلغة بسيطة فصيحة وبأسلوب خطابي قل نظيره، وهنا تكمن موهبته وخصوصيته³. وكان متواضعا يظهر تعامله مع الناس العامة والخاصة، كثير التبسم في وجوه الناس، وكان يقبل الحوار والمناقشة من الجميع، يرجع في بعض آرائه إذا تبين له غير ذلك، وقد كان -رحمه الله- وفي الآونة الأخيرة بالذات من عمره كثير التأثر والبكاء في درسه، خصوصاً إذا ما سرد السيرة النبوية العطرة⁴.

كان أيضا لا يحابي العامة فيما ألفوه من سيئ العادات وقبيح البدع والمنكرات؛ فقد أخذ على عاتقه محاربة الظواهر الاجتماعية السيئة، سواء فيما يتعلق بالعادات، أو ما يتصل بالعقائد والعبادات فكان دائماً يحذرهم من انحرافات والأوهام، والبدع والمحدثات، وما يتعلق بالسلوكيات الاجتماعية المخالفة كالإسراف في الأفراح، وما يقع في المآثم من البدع

1 رواية الشيخ علي حسين القبيّ زقلام حفظه الله تعالى، أحد الطلاب الذين درسوا على الشيخ، وأحد المشايخ في مدينة زليتن.

2 رواية الشيخ محمد محمد المحروق أحد تلاميذ الشيخ.

3 ينظر: ومضات من تاريخ الفكر والثقافة في ليبيا 2/153-155.

4 المرجع السابق.

والمفكرات¹.

وكان - رحمه الله - وسطي الفكر، معتدل المنهج، لا ينجح إلى التشديد كما لا يروج للتميع والتساهل والحيل، وكان مالكي المذهب، غير متعصب، وقد يفتي في بعض المسائل بخلاف المذهب متى ترخّ لديه الدليل².

آثاره العلمية كثيرة، ولكنها بقيت في طي الغفلة والنسيان، ولم تظهر إلا على استحياء في بعض الرسائل العلمية وبعض المؤتمرات، منها: الإسلام عقيدة وسلوك، بستان الأدباء في الخطابة والإنشاء، تحفة الشباب في بيان الخطأ من الصواب، التربية الإسلامية، الحلل السندسية على المنظومة الفطيسية، حلية البصائر على عقيدة الأكبر دراسة عن السيد جمال الدين الأفغاني، الدروس التوحيدية للناشئة الإسلامية، ديوان شعر الرحلة البرقاوية، الرحلة الحجازية، الرحلة الطلابية إلى البلاد التونسية الرحلة إلى المغرب الأقصى، الروض العاطر في حياة أبي علي بن طاهر، كتاب فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة عبد السلام الأسمر، مشاكلنا الاجتماعية وحلولها من هدي الرسول، النزهة الربيعية نظم أمّ البراهين، إضافة إلى مقالاته الكثيرة التي كان ينشرها في مجلة الهدي الإسلامي³.

وقد قال شيخنا الأستاذ مصطفى أبو عجيبة - رحمه الله - رئيس مكتبة أحمد زروق سابقاً: (والأكثر من هذا وذاك توفيق الله له للتخلي بمكرمة عظيمة، هي وصيته بتحييس مكتبته على مكتبة أحمد زروق، وقد أحضرها بعض أقربائه إلى مكتبة الزروق وكان ذلك في ليلة القدر عام 1419هـ⁴

توفي - رحمه الله تعالى - بمدينة مصراته، سنة - 1419هـ - 1998م، بعد رجوعه من موسم الحج، حيث مرض مرضاً أقعده عن الحركة حتى توفي⁵.

المبحث الثاني: الآداب والأخلاق الإسلامية من خلال كتاب الشذرات الشذية.

إنّ الإسلام دين يدعو إلى الآداب الكاملة والأخلاق الفاضلة، وليس مقصوداً على العبادات كما يتصور بعضهم؛ وإنما هو شامل لكل مناحي الحياة من عقائد وعبادات

1 ينظر: ومضات من تاريخ الفكر والثقافة في ليبيا 153/2-155.

2 المرجع السابق.

3 نفسه.

4 أشار في كتابه أنه الدكتور محمد محمد بن طاهر.

5 ينظر: ومضات من تاريخ الفكر والثقافة في ليبيا 153/2-155.

ومعاملات وسلوك وأخلاق؛ لأنه دين كامل يشمل جميع الحركات والسكنات، والإسلام أيضاً دين يدعو إلى التمسك بكل هذه التعاليم السامية التي دعا لها، وينبذ التعلق بما تعود عليه بعضهم من عادات أخذوها عن غيرهم ونسبوها للإسلام ولا صلة له بها، وهذا يدل على جهلهم بالإسلام وتعاليمه¹.

المطلب الأول: آداب الأكل والشرب.

الأدب الأول:

يُسْنُ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْمِيَ اللَّهَ، فيقول: بسم الله، أو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم²، وقد طلب من المسلم ذلك حتى يبارك الله تعالى له في طعامه وشرابه، فيحصل له النفع ويصرف عنه الضر، ومن الضر كيد الشيطان ووساوسه؛ ولأن هذا الأمر فيه اقتداء بالرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- وهو أمر مطلوب من كل مسلم مستحب فعله، كما يستحب أن يجهر المسلم بالبسملة لكي يتأسي به من حوله ممن نسيها أو غفل عنها أو جهلها، فيتعلّمها الجاهل ويتذكرها الناسي، فيحصل الأجر والثواب للجميع.

وقد بين المؤلف أن المسلم إذا نسي البسملة أول شربه أو أكله يذكرها خلال ذلك؛ أي في أثناء تناوله للشراب أو الطعام، اقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- من حديث أمية بن مخشبي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يأكل ولم يسم، فلما كان في آخر لقمة قال: بسم الله أوله وآخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا سَمِيَ قَاءَ الشَّيْطَانُ مَا أَكَلَ»³.

الأدب الثاني:

حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، فبين المؤلف أن من جملة الآداب أن يحمّد الأكل والشارب عند الانتهاء من ذلك، فعن أبي أمامة قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا شَبِعَ مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفُورٍ وَلَا مُودَعٍ». وَقَالَ أَحْمَدُ: وَلَا مَكْفِيٍّ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ⁴. وفي رواية: كان رسول الله -صلى الله

1 ينظر: كتاب: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 165. مخطوط آله كاتبة.

2 ينظر: الشذرات الشذية، ص 165.

3 السنن الكبرى للنسائي، باب: ما يقول إذا نسي التسمية ثم ذكر، رقم: 10041، 114/9.

4 السنن الكبرى، للنسائي، باب: القول بعد الشبع، رقم: 6868، 309/6.

عليه وسلم- إذا رفعت المائدة قال: "الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا"¹. ومن حديث أنس بن مالك، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فِيحَمَدُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فِيحَمَدُهُ عَلَيْهَا"².

ثم بين الشيخ المصري أن من الآداب عند الأكل مع الجماعة وأراد أن يترك الأكل أن يكون نطقه بالحمد سرا لئلا يخجل غيره فيترك الأكل قبل أن يشبع³.

الأدب الثالث:

تناول الطعام والشراب باليد اليمنى، لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك وأمره به، قال -عليه الصلاة والسلام- "إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ"⁴. ففي فعل ذلك اقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي حديث آخر ما يدل على نهى الأكل والشرب بالشمال وكذلك النهي عن الأخذ والإعطاء بها، ففي حديث القاسم ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر حدثه عن سالم عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لَا يَأْكُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشِمَالِهِ وَلَا يَشْرَبَنَّ بِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا"، قال وكان نافع يزيد فيها ولا يأخذ بها ولا يعطي بها⁵.

ومن آداب الطعام والشراب عدم تناوله وهو ساخن؛ لأن ذلك يضر بالفم والمعدة، ولا يتم تذوقه وهو ساخن، فمن الأدب أن يتركه حتى يبرد ثم يأكله⁶.

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكره الكي، والطعام الحار، ويقول: "عليكم بالبارد فإنه ذو بركة ألا وإن الحار لا بركة له"⁷، ويقول: إنه آخر الدواء، فكأنه كان يكره البداية به.

1 أخرجه أبو داود، باب: ما يقول الرجل إذا طعم، رقم 3849، 393/2.

2 أخرجه مسلم، باب: استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم 4915، 273/13.

3 ينظر: كتاب: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166. مخطوط آله كاتبة.

4 أخرجه مسلم، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم 3764، 295/10، من حديث أبي بكر بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر.

5 أخرجه مسلم، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم 3765، 296/10.

6 ينظر: كتاب: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166. مخطوط آله كاتبة.

7 ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني، 621/8.

قال ابن القيم¹: (كراهته له لا تقتضي المنع عنه والثناء على تاركه في خبر السبعين ألفاً؛ إنما يدل على أن تركه أفضل وكان يكره أكل الطعام الحار ويقول عليكم بالبارد فإنه ذو بركة، ألا وإن الحار لا بركة له، لا زيادة في الخير ولا نمو ولا يستمرئ به الأكل ولا يلتذ)². وما رواه البيهقي من حديث أبي هريرة، قال الحافظ العراقي: بسند صحيح قال: أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - يوماً بطعام ساخن فقال: ما دخل بطني طعام ساخن منذ كذا وكذا قبل يوم³.

ثم بين المؤلف أن من آداب الأكل أن تاكل مما يليك إذا كنت مع غير أهلِكَ من زوجة وأولاد ونحوهم، وألا تترك يدك تتجول في الإناء هنا وهناك⁴. في الحديث عن وهب بن كيسان سمعه من عمر بن أبي سلمة قال: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: "يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِمِائِنِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"⁵. علق الشيخ الطيب المصري على ذلك فقال: (ولا ينبغي أن تأكل من غير ما يليك؛ لأن ذلك ينسبك للشرة وقلة الأدب وهو مذموم)⁶. وقال: (وهذا القيد إذا كان الطعام صنفاً واحداً، أما إذا تعدد الطعام وكان ألواناً مختلفة فلا مانع من أن تأكل من عدة مواضع)⁷. وكذلك إذا أكل مع أهله الأولاد والزوجة فلا بأس إذا تجوّلت يده في الطعام، وقد ذكر الشيخ أحمد البهلول الطرابلسي⁸ في منظومته المسماة: (الدرر السنوية):

1 زاد المعاد (4/ 58).

2 أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أنس (8/ 252)، وانظر الإصابة (1/ 332)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (4606)، والضعيفة (1598): ضعيف جداً.

3 أخرجه ابن ماجة (4150)، والبيهقي في السنن (7/ 280).

4 ينظر: كتاب: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166. مخطوط آلة كاتبة.

5 أخرجه مسلم، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم 3767، 298/10.

6 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166.

7 المرجع السابق.

8 هو أحمد بن حسين بن أحمد البهلول الطرابلسي المولد والنشأة، الغرياني الأصل. توفي - رحمه الله تعالى - بطرابلس ليلة

السبت الثاني من رجب من عام ثلاثة عشر ومائة وألف للهجرة الكريمة سنة 1113هـ، ودفن بمقبرة سيدي منيذر.

من مؤلفاته: منظومة في العقائد سماها درة العقائد، بعنوان (اختصار درة العقائد)، بمكتبة أبي القاسم محمد كرو

بتونس، منظومة فقهية في المذهب الحنفي سماها المعينة، منها نسخة بمركز جهاد الليبيين بطرابلس تحمل عنوان معينة

الصبيان، اختصار العزية نظماً في الفقه المالكي، وغيرها كثير. راجع تاريخ وفاته هدية العارفين 166/5، ومعجم

المؤلفين 125/1، والمنهل العذب، ص 288، ونفحات النسرین ص 138

... .. ثم كلا مما يليه إلا مع الأهل فلا¹

أما الأولاد في حق أبيهم فيجب عليهم التأدب في حضرة الوالد عند الأكل معه، ويلزمهم ألا يمدوا أيديهم إلى غير جهتهم².

وقد بين الشيخ الطيب المصري أن كون الطعام صنفا واحدا، أما إذا تعدد الطعام وكان ألوانا مختلفة فلا مانع من أن تأكل من عدة مواضع؛ ففي الحديث عن عكرّاش بن ذؤيب قال أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بجفنة³ كثيرة الثريد⁴ والودك⁵ فأقبلنا نأكل منها نخبط يدي في نواحيها فقال: "يا عكرّاش كل من موضع واحد فإنه طعام واحد". ثم أتينا بطبق فيه ألوان من الرطب فجالت يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الطبق وقال: "يا عكرّاش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد"⁶.

ومن آداب الطعام أن يقدم الطعام الطيب كاللبن والفاكهة، وقد جمع بعضهم ذلك في قوله:

قدم على الطعام توتا خوفا والتين والمشمش والبطيخا
وبعده الإجاص تمر ورطب ومثله الرمان أيضا والعنب
ومعه الخيار والجميز⁷ قثاء⁸ وتفاح كذا الموز⁹

ثم ذكر الشيخ المصري -رحمه الله- أن من آداب الطعام أن لا يؤدّم الطعام ولا يوصف بما لا يليق، اقتداء بهدي النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- كما في مسند أبي عوانة،

1 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166.

2 المرج السابق.

3 (بجفنة) في المنجد الجفنة القصعة الكبيرة.

4 يتكون من الخبز المفتت والمغموس في مرق اللحم.

5 الودك: دسم اللحم والشحم.

6 أخرجه ابن ماجه في سننه، باب: الأكل مما يليك، رقم 3399 و3274، 10/129.

7 أحد أنواع النباتات التي تتبع جنس التين من الفصيلة التوتية، شجرة الجميز دائمة الخضرة كبيرة الحجم، تتميز بأخشابها الصلبة والطويلة.

8 نبات ثماره تشبه الخيار، ولكنه أطول منه. وبعضهم يطلق على الخيار القثاء. مختار الصحاح.

9 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 166. مخطوط آلة كاتبة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: مَا عَابَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَعَامًا قَطُّ، إِلَّا أَعْجَبُهُ أَكَلَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْجِبْهُ تَرَكَهُ¹.

ومن الآداب: مضغ الطعام جيّداً ليسهل هضمه على المعدة وأن يصغر اللقمة حتى لا تملأ فمه، فيكون منظره غير حسن².

ومن الآداب: أن يختم الأكل بالحلوى كالمربّجات من العسل والسكر وغيرها من أنواع الحلوى³.

ومن الآداب: أن يلتقط ما يسقط منه ولا يتركه⁴، وقد جاء في الحديث: عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى وَلْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ وَلَا يَمْسَحَ يَدُهُ بِالْمُنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبِرَّةُ⁵.

ومن الآداب المطلوبة: أن يعجل في تناول العشاء ويبكر أيضا بتناول طعام الغذاء، وأن لا يدخل طعاما على طعام قبل أن يهضم الأول؛ لما يسببه من ارتباك المعدة، وهو بدوره يؤدي إلى المرض والتعب⁶.

ومن الآداب: تخليل الأسنان وإزالة ما علق بها من بقايا الطعام حتى لا يؤدي إلى تسوسها وإضعافها أو خروج رائحة كريهة من الفم بسبب الفضلات المتبقية؛ لذا يستحب المضمضة عقب الأكل والأفضل أن يستخدم السواك أو ما يتاح من وسائل تنظيف الأسنان، ويمنع أيضا بلع ما علق بين الأسنان إذا كان متغيرا عن حالة الطعام خوف المرض أو الضرر⁷.

ومن الآداب: أن لا يتنفس في الإناء الذي يشرب منه ولا ينفخ فيه؛ لأنه قد يسقط شيئا من ريقه في الإناء وهذا أمر مستقذر من الناس وغير حسن⁸.

1 مسند أبي عوانة، رقم: 8442، 213/5، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني، المتوفى: 316 هـ، المحقق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1998 م.

2 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 167.

3 المرجع السابق.

4 نفسه.

5 أخرجه مسلم، باب: استحباب لعق الأصابع والقصعة، رقم 3793، 329/10.

6 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 167. مخطوط آلة كاتبة.

7 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 169.

8 المرجع السابق.

ومن الآداب: أن يشرب جالسا وأن لا يكون في نفس واحد، وأن يغسل اليدين ولا سيمًا إذا كان بهما شيء من الوسخ، ووضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، وأن يجلس على ركبتيه، فيأكل وهو جالس على الأرض، وأن ينوي بأكله التقوي على الطاعة¹.

المطلب الثاني: آداب اللباس.

بين هنا حكم لبس الحرير، وبين أنه ليس من الأدب لبس الحرير للرجال البالغين، وأنه لا ينبغي لولي أمر الصبي أن يلبسه الحرير خوفا من أن يتعوده، وكذلك يحرم التختم بخاتم الذهب، ويكره التختم بخاتم الحديد أو النحاس ولو لامرأة².

ومن الآداب المطلوبة أن يلبس نعله في رجله اليمنى أولا ثم يلبس نعل رجله اليسرى؛ لأنه من باب الأمور الشريفة التي يجب فيها التيامن، كما أنه إذا أراد أن يخلع نعله، فليبدأ برجله اليسرى³.

المطلب الثالث: اللعب المحرم، وحكم التصوير.

ذكر الشيخ أنواع من اللعب المحرم، كالتي جعلت للهو والغش وحلف الأيمان الحائثة، والدعوة إلى البغضاء والشحناء والنزاع والخصام الذي يؤدي إلى العواقب الوخيمة في كثير من الأحيان لاسيما إذا كانت كلعب القمار والمراهنة، فبين الشيخ أنه من الأدب ترك اللعب بالمقامرة والنرد والمراهنة؛ لأنها محرمة ولا تجوز مطلقا⁴. وبين أن من الآداب الإسلامية المطلوبة ترك التصوير لكل ما له روح من الإنسان والحيوان⁵.

المطلب الرابع: السلام والتحية.

بين أن السلام وهو التحية التي شرعها الله بين عباده المؤمنين⁶، قال تعالى: ﴿وَأِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾⁷، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

1 نفسه.

2 نفسه.

3 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 169.

4 المرجع السابق، 170.

5 نفسه.

6 نفسه.

7 من سورة النساء: 86.

لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تَوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»¹.

ثم بين أن البداءة بالسلام سنة وأن رده واجب على المشهور في المذهب، والبدء بالسلام سنة عين على المنفرد وسنة كفاية على الجماعة، والرد فرض عين على المنفرد، وفرض كفاية على الجماعة بمعنى أن المنفرد لا بد أن يرد السلام وإلا أثم، وأن الجماعة إذا رد أحدهم كفى عن البقية، وإن تركوا جميعاً أثموا كلهم².

ومن الآداب أن يسلم الداخل إلى مكان على من كان فيه، وأن يسلم المار على الجالس والراكب على الماشي، والصغير على الكبير³.

ثم بين الشيخ أن هناك أقواماً لا ينبغي السلام عليهم زجراً لهم ولأمثالهم، وعدم الاهتمام بهم إعلاناً لحربهم، ومن هؤلاء أهل الأهواء، والمراد بهم المعتزلة والروافض والخوارج ومن على شاكلتهم، زاد الفقهاء عليهم أهل المعاصي والمخالفات كشارب الخمر فلا يسلم عليهم ما داموا كذلك⁴.

وكذلك لا يسلم على من كان مشغولاً بباطل كمن يلعب الورق أو غيره من أنواع اللهو واللعب، وكذلك لا يسلم على الجالسين معهم والمتفرجين عليهم؛ لأنهم شاركوهم في ذلك إشعاراً لهم بأنهم لا يستحقون التكريم والتسليم والتحية والأمان ما داموا مقيمين على لهوهم ولعبهم، فترك تحيتهم ولا نسلم عليهم حتى ينزجروا هم وغيرهم⁵.

ثم ذكر النهي عن بدء أهل الكفر بالسلام، وأن الرد عليهم إذا سلّموا بلفظ: عليكم، بغير واو وبين أن السلام على الكفار مكروه كراهة تحريم، وأن الكفار هم أولى بعدم الرد عليهم أو السلام عليهم وكذلك أهل المعاصي المصرون عليها؛ لأن في السلام عليهم اهتمام بهم وتحية وتعظيم وتكريم وهم ليسوا من أهل ذلك كله⁶، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-

1 أخرجه ابن ماجه، باب: في الأيمان، رقم: 71،

2 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 170.

3 المرجع السابق.

4 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 170.

5 المرجع السابق.

6 ينظر: الأقوال الفقهية في كتب الفقه المالكي منها: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، باب: الجهاد، 174/2 شرح

مختصر خليل للخرشي، أحكام الجهاد، 110/3.

: «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام»¹

قال النووي: (اختلف العلماء في ردّ السلام على الكفار وابتدائهم به، فذهبنا² تحريم ابتدائهم به ووجوب ردّه عليهم بأن يقول وعليكم أو عليكم فقط، ودليلنا في الابتداء قوله -صلى الله عليه وسلم- "لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام"، وفي الردّ قوله -صلى الله عليه وسلم- "فقولوا وعليكم" وبهذا الذي ذكرناه عن مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف، وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، روي ذلك عن ابن عباس، الصواب تحريم ابتدائهم، وحكى القاضي عن جماعة أنه يجوز ابتدائهم به للضرورة والحاجة أو سبب، وهو قول علقمة والنخعي، وعن الأوزاعي أنه قال: إن سلّمت فقد سلّم الصالحون وإن تركت فقد ترك الصالحون، وقالت طائفة من العلماء: لا يردّ عليهم السلام ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك، ويجوز الابتداء بالسلام على جمع فيهم مسلمون وكفار أو مسلم وكفار، ويقصد المسلمين للحديث السابق أنه -صلى الله عليه وسلم- سلّم على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كلّ، وهذا من عظيم خلقه -صلى الله عليه وسلم- وكمال حلمه، وفيه حثّ على الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما لم تدع حاجة إلى المخاشنة... والله أعلم)³.

ثم بين أنه يكره السلام على المصلّي في حال صلاته، ومن يقضي الحاجة الإنسانية، ومن كان في حالة جماع لزوجته، والمؤذّن حال الأذان، والمقيم للصلاة، وعلى الشابة من النساء خوف الافتتان بكلامها والاستماع إليها ومكالمتها، وأما إذا كانت متجالّة ومأمونة الفتنة فيسلّم عليها⁴.

ولا يسلّم على مشغول بجمرك؛ ولا على مجنون، وفاقد عقله، ولا على صبي لا يفقه المعاني ولا يفهم السلام وردّه، أمّا إذا كان يفهم فيسلّم عليه ليعلم الأدب والأخلاق الطيبة⁵.

1 أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النبي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم: (5626).

2 أي مذهب النووي، وهو مذهب الشافعية.

3 ينظر شرح النووي على مسلم، باب: النبي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، 14/145.

4 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 171.

5 المرجع السابق.

وقد نظمها الشيخ أحمد البهلول بقوله:

ردّ السلام واجب إلّا على	من بصلاة أو بأكل شغلا
أو شرب أو قراءة أو أدعية	أو ذُكر أو في خطبة أو تلبية
أو في قضاء حاجة الإنسان	أو في إقامة أو الأذان
أو سلم الطفل أو السكران	أو شابة يخشى بها افتتان
أو فاسق أو ناعس أو نائم	أو حالة الجماع أو تحاكم
أو كان في الحمام أو مجنونا	فواحد من بعده عشرون ¹

المطلب الخامس: الاستئذان.

من الآداب الإسلامية المطلوبة الاستئذان، قال الشيخ الطيب المصري: (الاستئذان هو طلب الإذن للدخول في البيوت ونحوها، وهو من الآداب الإسلامية التي شرعت لحفظ الأعراض وصون كرامة الآخرين وعدم الاطلاع على العورات)².

بين أنّ حكم الاستئذان واجب واستدلّ بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾³، ويدخل ضمن هذه الآداب الاستئذان في بيوت المحارم وغيرها، وسواء المحارم: الأمّ أو الخالة أو البنت أو من غيرهن، وسواء كان من الرجال أو النساء، واستثنى من ذلك الزوجة والأمة فليس الاستئذان واجب في حقهما وإن كان مطلوباً وحسناً، وأنّ الاستئذان في البيوت السكنية سواء كانت مفتوحة أو مغلقة، وأنّه يلحق بها توابعها ومرافقها وبساتينها التي تكون خارجها⁴.

أمّا ما يتعلق بالأماكن العامة فلا يجب فيها الاستئذان، كالفنادق والحمامات والمتاجر والمصانع ودور القضاء والنيابة والشرطة، ومما هو مفتوح للخاص والعام...

ثم ذكر صفة الاستئذان بقوله: (بأن يقدم السلام أولاً، فيقول: السلام عليكم، ثم يقول: أأدخل ثلاث مرات، فالأولى لإسماع أهل المحلّ، والثانية ليصلحوا من شؤونهم

1 نفسه.

2 نفسه، ص 173.

3 من سورة النور: 27.

4 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 173.

ويستروا ما لا ينبغي النظر إليه، والثالثة للإذن في الدخول، فإن أذن له دخل وإلا رجع، ولا يزيد إذا تبين له أنهم لم يسمعوا ذلك وهي السنة¹، ففي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ جَالِسًا بِالْمَدِينَةِ فِي مَجْلِسِ الْأَنْصَارِ فَأَتَانَا أَبُو مُوسَى فَرَعًا أَوْ مَذْعُورًا، قُلْنَا: مَا شَأْنُكَ، قَالَ: إِنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنْ أَتِيَهُ، فَأَتَيْتُ بَابَهُ فَسَلَّمْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يَرِدْ عَلَيَّ، فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُكَ فَسَلَّمْتُ عَلَيَّ بِأَبْكَ ثَلَاثًا فَلَمْ يَرِدُوا عَلَيَّ فَرَجَعْتُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ فَلْيَرْجِعْ، فَقَالَ عُمَرُ: أَقِمَّ عَلَيْهِ الْبَيْتَةَ وَالْأُجْعَتَكَ، فَقَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ لَا يَقُومُ مَعَهُ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: قُلْتُ أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ، قَالَ فَادْهَبْ بِهِ، فَقَمْتُ مَعَهُ فَذَهَبْتُ إِلَى عُمَرَ فَشَهِدْتُ². وفي حديث آخر³ عن ربي بن حراش، قال: نا رجل، من بني عامر، أنه استأذن على النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو في بيته فقال: أألج؟ فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لخادمه: "أخرج إلى هذا فعله الاستئذان، وقل له: قل: السلام عليكم أدخل؟" فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن له النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فدخل، فقال: بما جئنا يا محمد؟ قال: «جئنا بالخير، أن تعبدوا الله، وتدعوا عبادة اللات والعزى، وأن تصلوا في الليل والنهار خمس صلوات، وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم» فقال الرجل: ما بقي من العلم شيء لا تعلمه، فقال: "لقد علم الله خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁴، فالشاهد من ذلك كيف علم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صفة الاستئذان لذلك الأعرابي.

ومن الآداب المطلوبة فيما يتعلق بالاستئذان مما ذكره الشيخ الطيب المصري في تعليقه على نظم أحمد البهلول الطرابلسي، أن تُعرّف باسمك إذا قيل: من الطارق؟، فإذا قال لك صاحب البيت من ذا الذي يطلب الدخول؟ أن لا تقول أنا، وإنما الأدب في ذلك أن تجيب باسمك المعلوم أو كنيته أو لقبك، بحيث تكون مفهوماً عند صاحب

1 المرجع السابق.

2 أخرجه مسلم، باب: الاستئذان، رقم 4006، 103/10.

3 أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، رقم: 936، 411/2.

4 من سورة لقمان: 34.

البيت، فتقول: فلان بن فلان، وهذا هو السنة¹، ففي الحديث الشريف عن جابر، قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي دِينٍ كَانَ عَلَى أَبِي، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: «أَنَا أَنَا» كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ².

ثم نبه الشيخ المصري على بعض التنبيهات المتعلقة بالاستئذان، منها:

1- إن الاستئذان المذكور يطلب من غير العبيد³ والصبيان في كل وقت. أما العبيد والصبيان فإنه يطلب منهم في ثلاثة أوقات، ذكرت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ اسْتَأْذَانُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁴، فبينت الآية هذه الأوقات الثلاثة، في الصباح عند الانتباه من النوم وإصلاح الملابس وتنظيم العمل، وعند القيلولة والراحة وسط النهار، وعند الاستعداد للنوم بالليل بعد صلاة العشاء⁵.

2- يقوم مقام قولك: أَدْخُلْ، التنحنح ونقر الباب ودقّه. ويقوم مقام قول صاحب البيت: ادخل، أو تفضل، إذن امرأته أو غلامه، إذا كان مميزاً، لجريان العادة بذلك وضرورات الناس في هذا الشأن⁶.

3- من آداب المستأذن أن لا يقابل الباب بوجهه؛ وإنما يقف جهة اليمين أو جهة اليسار؛ لئلا يطّلع على ما لا ينبغي الاطلاع عليه⁷، فعن عبد الله بن بسر -رضي الله عنه- قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ. ثُمَّ يَقُولُ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوْرِيَوْمِئِذٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا سِتُورٌ"⁸.

4- من الآداب المطلوبة أيضاً أن لا يطّلع على بيوت غيره، من نحو: شبّاك أو ثقب باب،

1 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص174.

2 أخرجه الترمذي، باب: ما جاء في التسليم قبل الاستئذان، رقم 2711، 65/5. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

3 أي: المملوك، الرقيق، وهو غير موجود اليوم.

4 من سورة النور: 58.

5 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص174.

6 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص174.

7 المرجع السابق.

8 أخرجه أبو داود، باب: كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان، رقم 5186، 348/4.

أو ثغرة أو مرتفع أو شجرة أو غير ذلك¹، فلا يجوز الاطلاع على عورات الناس وانتهاك حرمتهم والتعدي على كرامتهم، ففي الحديث الشريف وعيد شديد وتحذير ممن يقع منه ذلك، فعن سهل بن سعد الأنصاري أن رجلاً أطلع من حجر في باب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مدرى رجل به رأسه فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : لو أعلم أنك تنظر طعنت به في عينك؛ إنما جعل الله الأذن من أجل البصر²، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من أطلع في بيت قوم بغير إذنيهم فقد حل لهم أن يفتقوا عينه"³، وعنه أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لو أن رجلاً أطلع عليك بغير إذن خذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح"⁴.

المطلب السادس: المصاحفة، والمعانقة.

بين الشيخ -رحمه الله تعالى- في هذا المبحث الآداب المتعلقة بالمصاحفة، وأن المصاحفة جائزة وهي وضع الكف على الكف عند اللقاء، والمشهور أنها مندوبة ومرغب فيها، وأنه ينبغي أن يترك المتصالحان كفيهما ولا يسرعا باختطافهما؛ لأنه أبلغ في المودة والحب⁵، ففي الموطأ عن مالك، عن عطاء بن أبي مسلم عبد الله الخراساني قال: قال رسول الله ؟: "تصاحفوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء"⁶، وعن ابن مسعود يقول علمي النبي -صلى الله عليه وسلم- التَّشَهُدُ وَكَفِّي بَيْنَ كَفِّيهِ. وقال كعب بن مالك: «دخلت المسجد، فإذا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحفني وهنأني»⁷، وعن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «ما من مسلمين يلتقيان فيتصاحفان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»⁸.

ثم بين الشيخ الفرق بين المصاحفة المشروعة وغير المشروعة: فالمصاحفة المشروعة، وهي مصاحفة الرجل لثله، والمرأة لثله، أما غير المشروعة، وهي مصاحفة الرجل لامرأة

1 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 174.

2 أخرجه مسلم، باب: تحريم النظر في بيت غيره، 4041، 11/113.

3 أخرجه مسلم، باب: تحريم النظر في بيت غيره، 4016، 11/115.

4 أخرجه مسلم، باب: تحريم النظر في بيت غيره، 4017، 11/116.

5 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 175.

6 أخرجه مالك في الموطأ، باب: ما جاء في المهاجرة، 2663، 2/368.

7 أخرجه البخاري، باب: في التشهد، رقم 5910، 8/59.

8 أخرجه أبو داود، باب: في المصاحفة، رقم 5212، 4/354.

أجنبية¹، ولو متجالاة، وكذلك مصافحة المرأة لرجل أجنبي²، ولو كبير سن³.

قال الشيخ الطيب المصراقي - رحمه الله - : (وهذه مصيبة عمّت بها البلوى الآن بين الناس؛ حيث يصافح الرجال النساء الأجنبية⁴ والعكس أيضا ولا يرون في ذلك بأسا، ولا ترى منهم من يمتنع من ذلك أو يجعل ساترا كمنديل ونحوه، وتكاد تكون من ضرورات الحياة اليوم⁵، لا سيما بين الأقارب والجيران كامرأة الأخ وابنة العمّ والعمّة وابنة الخال والخالة، وامرأة الصديق ونحوهم، وهذا في الشابات وصغار السنّ والعجائز وكبيرات السنّ كذلك، ولا فرق في الأمر بين عجائز وشيوخ وفتيان وفتيات)⁶.

ثم أشار إلى بعض المنكرات في المصافحة عند بعض القبائل البدوية؛ حيث تتمّ المصافحة مع التقبيل للأيدي وهي قريبة من الأفواه، بين الرجال والنساء، وخاصة في المناسبات كالأعياد وعند الرجوع من الأسفار، ولا تجد من العلماء من ينكر ذلك مع أنّ عواقبه سيئة⁷.

ثم بين أنّه لا تجوز مصافحة أهل البدع ك (الخوارج، والمعتزلة)، ولا الكافر ك (اليهودي والنصراني، والمجوسي)؛ وذلك للأمر بهجرهم ومجانبتهم، والمصافحة عنوان المحبة والمودة.

وبين الشيخ أنّ المعانقة وهي وضع العنق عند اللقاء مكروهة، ولا ينبغي فعلها، وهو ما ارتضاه الإمام مالك - رحمه الله -، ولم يكن عمل أهل المدينة؛ وإنما يكره مالك المعانقة؛ لأنّه لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنّه فعلها إلاّ مع جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولم يصحبها العمل من الصحابة بعده؛ ولأنّ النفوس تنفر عنها؛ ولأنّها لا تكون إلاّ لوداع⁸.

وقد اختلف الناس في المعانقة، فكرهها مالك، في المشهور عنه⁹، وأجازها غيره، بل هو في رسالته لهارون أن يعانق قريبه حين يقدم من سفره، لكن قال الشيخ أبو محمد:

1 أي: ليست من المحارم، كالأم والبنت والأخت والعمّة والخالة...

2 أي: ليس من المحارم، كالأب والابن والأخ والعم والخال...

3 الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، ص 174 و 175.

4 غير المحارم.

5 يقصد الشيخ هذه المصيبة أيام الثمانينات والتسعينات. أما اليوم فالمصيبة أدهى وأمر وخاصة في ظل التطور التكنولوجي اليوم.

6 الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، 175.

7 الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، 175.

8 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، 175.

9 الذخيرة" 13 / 297.

وقيل: لم تثبت هذه الرسالة لمالك¹، وفي "المعونة": كره المعانقة؛ لأنها لم ترد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عن السلف، مع أنها من أخلاق العامة، إلا أن يكون ذلك من طول اشتياق، وقدم من غيبة أو مع الأهل وشبه ذلك².

وعن عائشة - رضي الله عنها -، قالت: «قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيتي فأتاه ففرع الباب، فقام إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عزيانا يجر ثوبه والله ما رأيته عزيانا قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبله»³.

قال الشيخ المصري: (والمعانقة مطلوبة عند القدوم من السفر، كما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - مع جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه -)⁴، وعن رجل، من عنزة، أنه قال لأبي ذر حين سير من الشام، قال: إني أريد أن أسألك عن حديث من حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: إذن أخبرك به إلا أن يكون سرا. فقلت: إنه ليس بسرا، هل كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصاحفكم إذا لقيتموه؟ فقال: «ما لقيته قط إلا صاحفني، وبعث إلي يوما ولست في البيت، فلما جئت أخبرت برسوله فأتيته وهو على سرير له، فالتزمني، فكانت أجود وأجود»⁵.

ثم بين الشيخ أنه لا يندب للمرء أن يقبل يد غيره؛ بل هو مكروه، ولو كان ذلك لقادم أو غلام صغير السن، واستثنى بعضهم من ترجى بركته ك (الوالد، والشيخ ونحوهما)، وأن حكم غير اليد من الأعضاء والرأس والكتف والقدم حكم اليد نهيا وطلبا⁶.

المطلب السابع: تشميت العاطس.

بين أن من الآداب الإسلامية والأخلاق الطيبة المرغّب فيها شرعا تشميت العاطس، وهو قول السامع لمن عطس وحمد الله تعالى: (برحمك الله)، وأنه واجب على من سمع ذلك، وهل التشميت واجب وجوبا عينيا أو كفاءيا؟ فالملشهور أنه واجب

1 المصدر السابق 13 / 299.

2 "المعونة" 2 / 575، وينظر: التوضيح شرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، 110/29.

3 أخرجه الترمذي، باب: ما جاء في المعانقة والقبلة، رقم: 2732، 76/5. وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هذا الوجه.

4 الشذرات الشذية، للطيب المصري، 175.

5 مسند أحمد، حديث أبي ذر، رقم: 21476، 378/25.

6 ينظر: الشذرات الشذية، للطيب المصري، 175.

كفائي، أي فرض كفاية إذا كانوا جماعة، وإلا كان فرض عين، وقيل: إنه سنة عين، وقيل: سنة كفاية، والمشهور ما ذكرنا. كما أنه لا يجب تسميت العاطس إلا إذا حمد الله تعالى¹.

ثم بين أن المشمت يقول له: (يرحمك الله) بالإفراد لورود النص، ويرد العاطس بقوله: يهديكم الله ويصلح بالكم أو يغفر الله لنا ولكم أو يجمع بينهما وهو أولى².

ثم ذكر أنه إذا زاد العاطس على ثلاث مرّات فإن المشمت لا يزيد في تسميته على المرّة الثالثة وليقل له: (كأنك مذنوك، أي: مزكوم)، كما في الحديث الشريف عن مالك عن عبد الله ابن أبي بكر عن أبيه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنْ عَطَسَ فَشَمْتَهُ، ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَشَمْتَهُ، ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَشَمْتَهُ، ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَقُلْ إِنَّكَ مَذْنُوكٌ»³.

ثم بين أنه ينبغي الاختصار في الحمد على ما ورد وهو: (الحمد لله رب العالمين ولا يزيد عليه شيئاً). كما يطلب الإفراد في قول المشمت: (يرحمك الله، ولو كان عظيماً وذا مكانة⁴).

كما يطلب الجمع في الردّ بقولنا: (يهديكم الله ويصلح بالكم)، وينبغي للعاطس الجهر بالحمد إلا إذا كان في صلاة فيكون ذلك سرا.

ويندب للعاطس أن يغطي وجهه حال عطاسه ويخفض صوته به لما ورد عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: «أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِثَوْبِهِ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ»⁵.

1 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 176. مخطوط آلة كاتبة. وفي الحديث عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلَانِ فَشَمَّتْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يَشْمِتِ الْآخَرَ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يَشْمِتْهُ عَطَسَ فَلَانَ فَشَمْتَهُ وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تَشْمِتْنِي. قَالَ: «إِنَّ هَذَا حَمْدُ اللَّهِ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ». أخرجه مسلم باب: النبي عن الشحاء والتهاجر، رقم 5309، 267/14.

2 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 176. مخطوط آلة كاتبة. ومن النصوص الواردة في ذلك: عن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الْعَاطِسُ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَيَقُولُ الَّذِي يَشْمِتُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَيَقُولُ لَهُ: يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِالْكُمْ». السنن الكبرى للنسائي، باب: ما يقول إذا عطس رقم: 9970، 90/9.

3 أخرجه مالك في الموطأ، باب: التسميت في العطاس، رقم 1769، 491/5.

4 الشذرات الشذية، للطيب المصري، ص 177. مخطوط آلة كاتبة.

5 أخرجه الترمذي، باب: ما جاء في خفض الصوت وتخفيف الوجه، رقم: 2745، 86/5. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وفي تسميت العاطس قال الشيخ أحمد البهلول:

وواجب كفاية تسميت من عطس إن حمد ربه علن
يرحمك الله وردّه ندب يهديكم الله وغفران طلب
ولا تزد على الثلاث إن يزد عطاسه إذ هو مضمونك¹ وجد

المطلب الثامن: تحريم الهجران، والتناجي.

تكلم الشيخ الطيب المصراي - رحمه الله - في هذا الباب عن تحريم الهجران والتناجي²،
تبعاً للناظم: أحمد البهلول الذي قال:

ولا يحل لامرئ أن يهجر
إلا إذا كان لأمر ديني
وبسلامه على من هجرا
فوق ثلاث لأخ مستكبرا
كالهجر للتأديب والتلين
يخرج من هجرانه مستنكرا³

علق الشيخ المصراي على أنه يحرم هجر المسلم لأخيه المسلم وهو عدم مكالمته والحديث معه
سواء كان قريبا له كوالديه وأولاده وإخوانه أو بعيدا عنه كجيرانه ومعارفه أكثر من ثلاثة
أيام بلياليها والسبب في الحرمة لما يترتب على القطيعة من الحقد والبغض الذي يكون سببا
في عدم المودة والمحبة التي يأمر بها الإسلام⁴.

وقد جاء الوعيد الشديد في هذا كما في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "تَفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنِينَ وَيَوْمَ
الْخَمِيسِ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيَقَالُ:
أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا"⁵.

وقد بين الشيخ المصراي أن محل تحريم الهجران المذكور ما لم يكن لسبب ديني
ومشروع أو كان قصد التأديب. مثل: أن يؤدّب الزوج زوجته كما جاء في القرآن الكريم:

1 أي: المزكوم.

2 الشذرات الشذية، للطيب المصراي، ص 177. مخطوط آلة كاتبة.

3 الشذرات الشذية، للطيب المصراي، ص 177.

4 المرجع السابق.

5 أخرجه مسلم، باب: النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم 4652، 429/12.

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾¹ فيجوز ذلك²، كما يجوز للوالد أن يهجر ولده قصد تأديبه، والشيخ يجوز له أن يهجر تلميذه كذلك كما يجوز هجران أهل المعاصي المجاهرين بمعاصيهم³.

ثم بين الشارح تبعاً للناظم أن البداءة بالسلام تخرج صاحبها من الهجران إذا نوى بها ذلك، وأن الهجران المحرم فوق ثلاث ليال، أما أقل من ذلك فلا شيء عليه؛ فعن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام⁴.

وذكر أيضاً أن من الآداب الواجبة على المسلم أن يترك مخالطة أهل البدع والكبائر؛ لما يلحقه من الإثم بسكوته عليهم وموالاتهم؛ ولما يترتب عليه من افتتان الجهال بقولهم: إن فلانا يجلس معهم ويخالطهم وهم على ما هم عليه من القبائح ولا سيما إذا كان المخالط من أهل العلم والمعرفة ومن يقتدى به في ذلك⁵.

ومحل هجران أهل البدع والكبائر إذا كان لا يخاف من مكرمهم وظلمهم، وإلا فلا يهجرهم ويكتفي بالسلام عليهم إن أبعد عنه الخطر، وإلا خالطهم بقدر الحاجة⁶.

وتم ذكر الشيخ هنا تحريم التناجي، وهو أن يتناجى اثنان ويتساراً بحديث وكلام دون أن يشترك معهما ثالث في ذلك، وهذا إذا كانا يظنان أنه يتأذى من ذلك ويعتقد أن الحديث بينهما في شأنه وإذا لم يأذن لهما في ذلك وإلا جاز⁷. والسبب في منع التناجي وتحريمه؛ لما يسبب في إدخال الضيق والأذى النفسي على أخيهما الثالث؛ ولما ينشأ عنه من البغض والكراهية. ومثل الاثنان الجماعة إذا تناجوا وتركوا واحداً دون إذنه، أما إن أذن أو تركوا أكثر من واحد فإنه يجوز.

وقد حرم الله سبحانه وتعالى التناجي في القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى

1 من سورة النساء: 34.

2 الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، ص 177.

3 المرجع السابق.

4 أخرجه مسلم، باب: النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم 4652، 429/12.

5 الشذرات الشذية، للطيب المصراقي، ص 178.

6 المرجع السابق.

7 نفسه.

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ¹، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزَنُ"².

وذكر أن مثل التناجي أن يتكلم اثنان بلغة لا يعرفها الثالث، وهذا قد يحصل، فيتكلم اثنان بلغة الإنجليزية أو فرنسية أو أمازيغية أو غيرها، والثالث لا يعرفها، فيؤدّي إلى حزن ثالثهما وتغير حاله وهذا لا يجوز، وهو من التناجي المحرّم³.

ثم انتقل للحديث عن الخلوة، وهو خلوة الرجل بامرأة أجنبية، أي: ليست من محارمه، وبين أنه يحرم عليه ذلك؛ لأنّ الإنسان لا يأمن على نفسه الأمانة بالسوء من الوقوع في الزنا، والإنسان لا يأمن على نفسه من الشيطان ومكره، فجعل الشارع لذلك حداً، فحرم الخلوة بالأجنبية.

ثم قال الشيخ المصري -رحمه الله-: (وأمام هذا الاحتياط الشرعي فلا ينظر إلى العادات وما عليه كثير من الناس من التساهلات التي تؤدّي في كثير من الأحيان إلى العواقب الوخيمة؛ ذلك أنّ بعض الناس جرياً على عادة قومه وأهل بلده لا يرى بأساً ولا يتورّع أن يحتلّي بامرأة أخيه أو ابنة عمه أو ابنة خاله أو ابنة خالته أو امرأة جاره أو صديقه، وقد يحمل إحداهن في سيارته ويقطع بها المسافات في وحدة بينهما، وقد يدخل أحدهم بيت أخيه أو خاله أو عمه أو صديقه أو جاره فلا يجد فيه إلا امرأته وحدها فتدعوه إلى الجلوس فيجلس ويتناول الطعام والشراب ويتبادل الحديث معها في جلسة ودّية كما يقولون، وهذا أمر مألوف بينهم مشهور في مجتمعهم ولا سيّما أهل البادية والقرى والقبائل، وسرى ذلك حتى في المدن الآن بموجب المدنية والحضارة المزيّفة، وكم كان مثل هذه العادات المخالفة للشرع من مآسي وعواقب وخيمة أورثت الفتن والقتل والعار والشنار والسمعة الفاسدة وسقوط الشرف والمروءة والقضاء على بعض البيوت والأسر والعائلات نتيجة عدم التقيد بتعاليم الإسلام والأخذ باحتياطاته وتوصياته الحكيمة التي تضمن السلامة والعزة والشرف والكرامة والأمن والاطمئنان للناس أجمعين لو كانوا يفقهون)⁴. ثم ذكر أنه لا يجوز للرجل أن ينظر أو يلحظ إلى المرأة الأجنبية من غير محارمه

1 من سورة المجادلة: 9.

2 أخرجه مسلم، باب: تحريم مناجاة الاثنین دون الثالث بغير إذنه، رقم 4054، 170/11.

3 الشذرات الشدية، للطيب المصري، ص 178.

4 الشذرات الشدية، للطيب المصري، ص 179.

عمدا وقصدا بعد النظرة الأولى التي لا تقصد عادة فإنها لا شيء فيها.

وخالف الشيخ الناظم في إطلاقه في حرمة النظر سواء كان ذلك لوجهها وكفيها أو الباقي من جسمها، وأنه ليس كذلك؛ بل النظر إلى الوجه والكفين يجوز لغير قصد اللذة، أمّا النظر إلى عورتها وهي ما عدا وجهها وكفيها فإنه يحرم مطلقا سواء كانت مخشّية الفتنة أم لا، ومن هنا أوجب الإسلام على المرأة ستر جميع بدنّها إلا وجهها وكفيها كما هو معلوم.

وعلق الشيخ أنّ مما عمّت به البلوى تساهل الناس من الجنسين في هذا الأمر، فتخرج بعض النساء إلى الأسواق سافرات، يلبسن الثياب الرقيقة أو الضيقة، عاريات الشعر.

الخاتمة والتوصيات:

من خلال ما تقدّم أخلص إلى النتائج والتوصيات الآتية:

- أ. عاش الشيخ الطيب المصري - رحمه الله - حياة حافلةً بالعلم وطلبه وتحصيله.
 - ب. نهلند الشيخ على مشايخ وعلماء كبار بداية من مدينة مصراته ثم زليتن وطرابلس.
 - ج. الشيخ كان معروفا بالتفاني والصبر والتواضع والجلوس مع العوام لحلّ مشاكلهم ولاستماع إليهم.
 - د. أسلوبه بديع وطريقته في الوعظ ومخاطبة الناس قلّ نظيرها، فهو يستطيع أن يخاطب الخواص والعوام في آن واحد وفق منهج سهل.
 - هـ. جمع الشيخ في هذا الشرح المسمى بالشذرات الشذية، أهم الأخلاق والآداب الإسلامية التي ينبغي التنبه لها والحرص على الالتزام بها.
 - و. خلف الشيخ المصري - رحمه الله - مكتبة كبيرة تحوي كتبا قيّمة، أوصى أن توقف على زاوية أحمد زروق بمدينة مصراته وتمّ له ذلك.
- أمّا التوصيات: فأوصي نفسي وغيري من طلبة العلم بأن يحرصوا على الاعتناء بتراث الشيخ وأن يقوموا بتحقيق ما بقي منه، فهو من فروض الكفاية في حقنا.
- كما أوصي بطباعة ونشر ما تمّ تحقيقه من تراث الشيخ، وأن تقوم المكتبات العلمية ودور النشر بتبني هذه الفكرة؛ لأنّ فيها إبراز لعلماء المالكية في البلاد الليبية.

والله الموفق والمستعان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم.

-التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف بالأمير (ت: 1182هـ)، ت: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى 1432هـ - 2011م.

-التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، الشافعي المصري (المتوفى: 804هـ)، تحقيق: دار الفلاح، الناشر: دار النوادر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.

-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

-حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230هـ)، دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

-سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي.

-سنن أبي داود، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

-سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية 1395هـ - 1975م.

-السنن الكبرى، النسائي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى: 1421هـ - 2001م. -شرح مختصر خليل للخرشي، الخرشبي المالكي (المتوفى: 1101هـ)، دار الفكر للطباعة - بيروت الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

-مسند ابن أبي شيبة، (المتوفى: 235هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي دار الوطن - الرياض، الطبعة: الأولى، 1997م.

- مسند أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني، المتوفى: 316 هـ، المحقق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1998م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثانية، 1392.
- موطأ الإمام مالك، تأليف: مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبغي، دار إحياء التراث العربي - مصر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

الأسرة الحطّابية: أصولها، وجهودها في الفقه المالكي

الباحثان: د. عادل سالم الصغير، د. محمد عبد القادر أبو غندورة/جامعة عمر المختار

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فإنّ هذه الورقة تتحدث عن علماء الأسرة الحطّابية المنتسبين إلى المذهب المالكي، وتذكر جهودهم، ومؤلفاتهم، ورحلاتهم العلمية، ومشايخهم، وتلامذتهم، وذلك ضمن المدة الزمنية الممتدة خلال القرن العاشر الهجري.

ويأتي اختيار هذه الأسرة من أجل إبراز جهود العلماء الليبيين في خدمة المذهب المالكي، الذي كان لبعضهم سبق الفضل في إدخال الموطأ، بل المذهب المالكي إلى المغرب الإسلامي، فقد كان لأبي الحسن علي بن زياد الأطرابلسي: (ت: 183هـ) دور ريادي ومحوري، وأثر مخلص، وتاريخي في ذلك.

وإذا درسنا سيرته، علمنا أنّ مالكية المغرب الإسلامي عيالٌ عليه في فقه مالك، فهو صاحب اليد الطولى، والفضل الأسبق في إدخال موطأ الإمام مالك إلى المغرب العربي وشمال إفريقيا، وعلى يد تلامذته من بعده كسحنون وأسد ابن الفرات انتشر المذهب المالكي، وهو الذي قد قيل فيه: "إنّه فسّر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه"⁽¹⁾.

ثم تأتي الأسرة الحطّابية، وهي من الأسر التي استقرت بطرابلس ثم بمكة، وقد اختلف العلماء في أصلهم، فمنهم من رجّح أن تكون أصولهم من الأندلس⁽²⁾، ومنهم من يرى أنّهم من المغرب⁽³⁾، ويمكن أن تكون أصولهم من برقة، وأنّ استقرارهم بطرابلس وتركهم برقة كان لسببين:

الأول: الازدهار العلمي والاستقرار السياسي قبل القرن العاشر، الذي كانت تتمتع به

1. المالكي: أبو بكر عبد الله بن محمد: (1994م): رياض النفوس في طبقات علماء قبروان وإفريقية وزهادهم ونسألكهم

وسير أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ط/ 3، تحقيق: بشير البكوش، ومحمد العروسي: (ج: 1 / ص: 234)

2. أبو فارس: حمزة: (2001م): أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات ELGA مالطا. (ص: 94).

3. الحطّاب: محمد بن محمد بن عبد الرحمن: (2007م): تحرير المقالة شرح نظم نظائر الرسالة، ط1، دار ابن حزم، بيروت

- لبنان، اعتنى به: أبو الفضل الدمياطي أحمد بن علي: (ص: 7).

طرابلس وقربها من القيروان، "ومعلومٌ أنّ طرابلس وما يحيط بها كانت مرتبطة بالقيروان ومحيطها، حيث كان يطلق عليها إفريقية"⁽¹⁾، فقد كانت العلاقة العلمية، والتبادل المعرفي بينهما غزيراً، وليس أدل على ذلك من سفر ابن زياد بعد أن رجع لبلاده إلى تونس، حيث تلمذ له جماعة، منهم: سخون، والبهلول بن راشد، وأسد ابن الفرات، كما أن سخون حين رجع من المدينة مرّ بطرابلس، فأسمع بها مدونته⁽²⁾.

وقد رصد الشيخ حمزة أبو فارس هذا التفاعل، مطيلاً النفس في ذكر التبادل العلمي والمعرفي بين طرابلس والقيروان، مبرزاً دور الطرابلسيين علماء ومعلمين، فمن كلامه: "العلاقة بين طرابلس والقيروان وطيدة قديمة، يمثلها ثلّة من العلماء الذين لا تستطيع أن تقول: إنهم طرابلسيون دون أن تنسبهم للقيروان، ولا العكس؛ لكثرة الرحلات والسفر، بل لتغير الإقامة إلى الوفاة، فهذا سخون يدرّس بطرابلس أثناء مروره بها قافلاً إلى بلاده، وهذا محمد بن معاوية الطرابلسي يروي عنه أهل القيروان الموطأ، وموسى بن عبد الرحمن الطرابلسي المعروف بالقطان يروي عن سخون، ويسمع منه ابن مسرور، وأبو العرب، وأبو القاسم زياد بن يونس، وابن أبي زيد يروي عن أبي العرب، وابن المنمر الطرابلسي يرحل إلى القيروان؛ ليسمع من ابن أبي زياد والقاسمي"⁽³⁾.

أما الثاني: فإنّ برقة كانت تعيش حالة من عدم الاستقرار السياسي، وانتشار قطاع الطرق، الأمر الذي دفع علماءها إلى الهجرة إلى القيروان وطرابلس ومصر؛ حتى حدث لبس عند المؤرخين في نسبة العلماء البرقاويين، فتراهم يلقبونهم بالطرابلسيين أو بالمصريين، كالإمام محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي: (ت: 249هـ) شارح مختصر عبد الحكم الصغير، فقد روى بمصر عن ابن عبد الحكم، وأشهب، وحبيب كاتب مالك، فترى كتاب الطبقات تنسبه إلى مصر⁽⁴⁾، ويقولون: أما البرقي فهو؛ لأنه كان يتاجر إلى برقة!! في حين أنّ الأقرب - والله أعلم - أنّ نسبة البرقي إليه نسبة مولدٍ ومسقط رأس، وذلك كما

1. أبو فارس: حمزة: (2013م): دور ليبيا في نشر المذهب المالكي حتى القرن الخامس الهجري، الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك، الجامعة الأسمرية الإسلامية (ص: 1078).

2. أبو فارس: حمزة (2013م)، مصدر سابق: (1079).

3. أبو فارس: حمزة (2001م)، مصدر سابق (ص: 32).

4. مخلوف: محمد بن محمد بن عمر (2003م): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (ص: 100).

يقول الحافظ ابن ماكولا: "أما البرقي بسكون الراء، فهو أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي صاحب التاريخ، منسوب إلى برقة، بلد بعد الإسكندرية إذا توجه الإنسان إلى الغرب"⁽¹⁾.

ومما يرحح قول ابن ماكولا أنّ علماء برقة قد عرف عنهم دخول مصر كثيراً والإقامة بها، كالإمام رافع ابن تميم بن حيون اللخمي البرقي، فقد حدث عن نفسه قائلاً: "ولدت ببرقة، وانتقلت إلى الإسكندرية في صغري مع أهلي، وقرأت الفقه على خلف بن سلامة السالمي، والكلام على أبي المطرز، وسمعت الحديث عن أبي العباس الرازي"⁽²⁾.

مشكلة البحث: تبحث الورقة عن جهود الأسرة الحطّابية في فقه مالك: مؤلفاتهم ومشايخهم وتلامذتهم، ورحلاتهم العلمية، والأثر العظيم لمؤلفاتهم، وثناء العلماء عليهم، ومن أبرز علماء هذه الأسرة: محمد الحطّاب (الكبير): أبو عبد الله الطرابلسي، (ت: 945هـ)، ومحمد بن محمد الحطّاب (الصغير)، (ت: 954هـ): صاحب المواهب، وابنه أبو زكريا يحيى بن محمد الحطّاب: (ت: 996هـ).

كما أننا سنتحدث عن اختلاف العلماء في أصول الأسرة الحطّابية، بين الأندلس، والمغرب، وبرقة.

أهمية البحث: تأتي هذه الورقة ضمن الإسهامات العلمية الحديثة، التي سلطت الضوء على الجهود الليبية، وطلاب العلم والعلماء الليبيين في حفظ فقه الإمام مالك وتدوينه وتقعيده، وعلى تفاعل طلاب العلم والعلماء الليبيين مع الحواضر الثقافية القريبة والبعيدة، فقد سجّلت كتب الطبقات والتراجم والرحلات، اتصال العلماء الليبيين بالأندلس والقيروان وفاس، ومصر والمدينة المنورة ومكة والشام.

لقد سمع الليبيون من الإمام مالك دونما واسطة، بل كان لهم الفضل على المغرب الإسلامي كلّ، كونهم أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى المغرب الإسلامي، ولم يقنع

1. ابن ماكولا: علي بن هبة الله بن علي بن جعفر: الإكمال في رفع الارياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، (480/1).

2. السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد: (1993م): معجم السّفَر، لاط، دار الفكر: بيروت - لبنان، تحقيق: عبد الله عمر البارودي (ص: 91، 92).

الليبيون بذلك، فقد ارتحلوا أيضاً إلى القيروان للأخذ من الجيل الثاني من أئمة المالكية، فسمعوا من سخون، بل إنَّ سخون مرَّ بهم، فأسمع الليبيين مدونته بالبيضاء أو أجدابيا ثم طرابلس، ولعل أهل ليبيا أول من سمعها منه قبل أن يهذبها.

منهج البحث: سنعمد في كتابة هذا البحث على المنهج التكاملي؛ للاستفادة من مختلف مناهج البحث في إنجاز هذا البحث بكل دقة وموضوعية، حيث سنستعمل المنهج الاستقرائي التحليلي في جمع المادة العلمية من مظانها وتحليلها، والمنهج النقلي في نقل النصوص وعزوها إلى مصادرها.

وحيث إنَّ هناك خلافاً بين العلماء في أصول الأسرة الخطابية؛ فإننا سنستعمل منهج المقارنة بين هذه الآراء والاطلاع على ما احتجَّ به كلَّ اتجاه؛ لحسم الخلاف في المسألة. ولا شك أنَّ هذا يتطلب التأكّد من صحّة ما ورد من أدلّة في هذا البحث باستعمال المنهج النقدي في تخرّج الأحاديث، وهو منهج علماء الحديث في نقد السند والمتن؛ لبيان الحديث الصحيح من الضعيف والموضوع.

خطة البحث:

المقدمة: تحتوي على: "سبب اختيار الموضوع، ومشكلة البحث، وأهمية البحث، ومنهج البحث".

المبحث الأوّل: "الحياة العلمية والاجتماعية للأسرة الخطابية": يشمل المطالب الآتية:

الحياة السياسية والعلمية في القرن العاشر	المطلب الأوّل
أصول الأسرة الخطابية	المطلب الثاني
الأسرة الخطابية (أعلامها وإسهاماتها)	المبحث الثاني
أعلام الأسرة الخطابية	المطلب الأوّل
مؤلفات الأسرة الخطابية	المطلب الثاني
الخاتمة: تحتوي على: "أبرز النتائج وما تخض عنها من توصيات".	

المبحث الأول: "أصول الأسرة الخطّابية"

يتضمن هذا المبحث الحديث عن الحالة السياسية والعلمية في القرن العاشر الهجري، الذي عاش فيه الخطاب الكبير والصغير والحفيد، ورأينا أن نفتح هذا المبحث بالحديث عن الحالة السياسية والعلمية بطرابلس الغرب - حيث عاش آل الخطاب -؛ كي تنتقل منه إلى الحديث عن أصول الأسرة الخطّابية، فما الذي دفع المحققين والبُحّاث إلى الاختلاف في أصولهم؟ وهل للوضع العلمي والسياسي بمسقط رأسهم أثرٌ في هجرتهم من بلادهم؟

المطلب الأول: الحياة السياسية والعلمية في القرن العاشر:

الإنسان - كما قيل - ابن بيئته، فالبيئة لها أثرٌ كبيرٌ في تشكيل أهلها، لكن العلماء المصلحين هم المصححون لهذه البيئة، متى ما كانت غير ملائمة، وإذا علمنا أنّ الأسرة الخطّابية كانت ممتدة في القرن العاشر الهجري، فإنّ هذا القرن كان سياسياً غير ملائمٍ لأنّ يكون بيئةً علميةً حاضنةً للعلم وأهله.

فعلى الصعيد السياسي مثلاً - ونحن هنا سنسوق الأحداث على سبيل الاختصار تحاشياً للإطالة - بعد سقوط دولة الموحدين، تفتت المغرب العربي، وتشظى دويلات صغيرة، الأمر الذي جرّأ عليهم الإسبان والإيطاليين وسائر النصارى، يقول الشيخ محمد بن غلبون الطرابلسي: "وأخذ صاحب جنوة طرابلس سنة ست عشرة وتسعمئة، وأخذ حلق الوادي صاحب صقلية، ومكثت طرابلس تحت يد النصارى ثلاثة وأربعين عاماً، وقيل: خمساً وأربعين سنة"⁽¹⁾.

وإذا تأملنا هذه المدة التي استولى فيها النصارى على طرابلس، نجد أنّها تستغرق جل حياة الأسرة الخطّابية، ومرحلة عطائها العلمي، فلا بد أن يكون لهذه المرحلة أثرٌ عليهم، خصوصاً إذا علمنا ما قام به هؤلاء الغزاة من فظاعات بحق المسلمين، فحين تمكنوا من احتلال المدينة دخلوا الجامع الكبير، وقتلوا أكثر من ألفي نفس، وأعملوا السلب والنهب، وأحرقوا المساجد، ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلاً، وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة، وصارت المدينة للنصارى.

1. غلبون: أبو عبد الله محمد بن خليل الطرابلسي: (1349هـ): التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، لاط، المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة، اعتنى به: الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي: (ص: 92).

وهكذا استتب الأمر بالمدينة للنصارى، حتى توجه جماعة من أهل تاجوراء إلى السلطان سليمان الأول، فاستعمل عليهم مراداً، وقدموا به لبلدهم ودانوا له، وباعه أهل غريان سنة: (952هـ) فلم يزل يوالي الغزوة على طرابلس ويضيق على من بها من الروم، إلى أن جاءت سنة: (958هـ) فحاصرها براً وبحراً ودخلها⁽¹⁾.

أما بالنسبة للحياة العلمية في طرابلس، فإنّ هذه المدينة كانت معبراً بين الشرق والغرب، وكانت سبيلاً للمشاركة الذين يريدون التوجه إلى المغرب أو بلاد الأندلس، كما كانت بطبيعة الحال معبراً وسبيلاً للمغاربة والأندلسيين الذين يريدون التوجه إلى المشرق، ومن هنا كانت طرابلس محطاً مهماً وموقفاً طيباً يأخذ ويعطي، يستقبل ويودّع، مرّت بها الجيوش الإسلامية والقوافل العربية وركاب الحجّ وطلاب العلم، ومن زار هذا القطر ولزمه مدة من الزمان الإمامان شمس الدين اللقاني، وأخوه ناصر الدين، فقد جاء في ترجمة الإمام عبد الكريم البرموني المصراقي: "أول مشايخي الشمس اللقاني، لازمته بزاوية الشيخ أحمد زروق، إلى أن انتقل لبلده لقانة، وأخذت عن أخيه الناصر..."⁽²⁾، فكانت مدينة عامرة بالعلم وأهل الصلاح وأصحاب الأحوال الروحانية من أهل التصوف وغيرهم. هكذا كانت طرابلس قبل القرن العاشر الذي عرف احتلال الإسبان لهذه المدينة الجميلة، التي قال عنها التجاني في رحلته: "ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء، وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار، رافعين أصواتهم بالدعاء"⁽³⁾.

لكن طرابلس في المئة العاشرة التي وقعت تحت وطأة النصارى وفرسان القديس يوحنا شهدت ظلمات سياسية وتقهرراً علمياً، وهذه الحالة من التقهقر العلمي في المئة العاشرة لم تكن خاصة بطرابلس فحسب، بل شملت أقطاراً واسعة من البلاد الإسلامية، ومع ذلك شهدت طرابلس في هذه المئة حضور جملة من العلماء البارعين، والصلحاء المرين، والفقهاء والمفسرين، فمن هؤلاء العلماء:

1. غلبون: (1349هـ)، مصدر سابق: (ص: 93، 94).

2. مخلوف: (2003م)، مصدر سابق: (ص: 406).

3. التجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: (1981م): رحلة التجاني، لاط، الدار العربية للكتب، تونس، قدم له:

حسن حسني عبد الوهاب: (ص: 237).

- محمد بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد الخطّاب الرعيني المالكي الطرابلسي، (ت: 945هـ)، ولد في طرابلس سنة: (861هـ)، ونشأ بها، وحفظ القرآن والرأية والخزانية في الرسم والضبط، ثم الرسالة، وتفقه فيها يسيراً على محمد القاسبي، وسافر إلى مكة سنة: (877هـ)، فحج، ثم رجع مع والديه وإخوته، فأقاموا بالقاهرة سنتين، وفي عام: (881هـ) توفي والداه بالطاعون، وعاد إلى مكة سنة: (884هـ)، فحج وزار المدينة⁽¹⁾.

- محمد بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد الخطّاب الكبير، أخو الذي قبله، ولد في سنة ست وخمسين (856هـ) وله فضيلة تامة مع الصلاح والخير⁽²⁾.

- محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين بن محمد الخطّاب الصغير، (ت: 954هـ)، ولد بطرابلس عام: (902هـ)، أخذ الفقه عن والده، وللخطّاب الصغير مؤلفات عظيمة⁽³⁾.
عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التاجوري، (ت: 960هـ)، علامة الزمان في علم الميقات، رحل إلى المغرب، وأخذ عن شيوخها، ودخل بلاد الروم، ورحل إلى مكة وأقام بها زمناً، ثم رحل إلى مصر، حيث أخذ الفقه عن محمد شمس الدين اللقاني، وأخذ عن محمد ناصر الدين اللقاني، وعنه أخذ القرافي، وعلي ابن المرحل، وأبو العباس بن حميدة، وأبو العباس أحمد التنبكتي⁽⁴⁾.

- محمد بن علي الخروبي، (ت: 963هـ) العالم الفقيه الصوفي المفسر، هو أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، كان من أهل الحديث والفقه والتصوف، ولد بطرابلس الغرب، أخذ عن أساتذة عصره كالشيخ أحمد زروق، وأبي عبد الله محمد الزيوني، وأبيه الشيخ علي الخروبي، والشيخ محمد الخطّاب الصغير، وغيرهم، وعنه أخذ جماعة من أهل الجزائر وفاس، ارتحل إلى الجزائر، وجلس هناك للتدريس، وأخذ عنه جماعة من أهل العلم، وأقام بها إلى أن مات رحمه الله.

1. انظر: السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لاط، دار الجليل بيروت: لبنان (288/7).

2. انظر: السخاوي، مصدر سابق (289/7).

3. انظر: الشريف، ناصر الدين محمد (1999م)، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ط1، دار البيارق، الأردن (144).

4. انظر: الأنصاري، أحمد بك التائب (1899م)، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لاط، مكتبة الفرجاني، ليبيا (197).

وله رحلة أيضا إلى المغرب الأقصى، ومن أهم مؤلفاته: تفسير كبير، يجمع بين الحقيقة والإشارة، اسمه: "رياض الأزهار وكنز الأسرار"⁽¹⁾.

- عبد السلام الأسمر الفيتوري، (ت: 981هـ)، هو ابن سليم بن محمد بن سالم الخزومي القرشي، العالم العابد، أخذ عن عمه أحمد بن محمد الفيتوري، وعنه حفظ القرآن، وأخذ عنه مبادئ الفقه والنحو والتوحيد والمنطق، ثم قرأ على الشيخ عبد الرحمن المسلاتي، والأستاذ الشيخ زروق، وغيرهم، وعلى الشيخ الدوكالي أخذ التصوف، وقرأ عليه المختصر والرسالة، ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد.

وأخذ عنه كثير من العلماء منهم: عبد الحميد اليربوعي، والشيخ محمد بن علي السملقي، والشيخ عبد الحميد ضوء الهلال، والشيخ إبراهيم بن علي العوسجي، وغيرهم، رحل إلى تونس وطرابلس، ثم رجع إلى زليتن وأقام بها⁽²⁾.

- بركات بن محمد بن عبد الرحمن الخطّاب الطرابلسي، (ت: 982هـ)، كان رجلاً فقيهاً صالحاً، وهو العالم العلامة المفتي المعمر، أخذ عن والده وغيره، وأخذ عنه جماعة منهم: ابن أخيه يحيى بن محمد الخطّاب، له شرح على خليل في أربعة أسفار، سماه: "المنهج الجليل في شرح مختصر خليل"⁽³⁾.

- يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطّاب أبو زكريا، خاتمة علماء الحجاز المالكية، الإمام العالم العمدة الفاضل المعروف بالصّلاح والدين المتين، له تأليف في الفقه والحساب والمناسك والعروض وغيرها، توفي بطرابلس بعد ثلاث وتسعين وتسعمئة⁽⁴⁾، وضرّحه داخل الثغر بجوار جامع محمود⁽⁵⁾.

وبالرغم من الاحتلال الهمجي لطرابلس، وبالرغم من التنكيل بأهلها إلا أن علماءها كوّنوا بتاجوراء مدرسة علمية، أنجبت علماء كبار كالحطّاب الصغير، فهو ابن الخطّاب الكبير، الذي توفي بتاجوراء مرحلة احتلال الجنويين لطرابلس، فالحياة العلمية ظلت

1. انظر: مخلوف (2003م) مصدر سابق (ص411)، والزّاوي، الطّاهر أحمد (2004م) أعلام ليبيا، ط3، دار المدار الإسلامي (ص343).

2. انظر: الشريف (1999م)، مصدر سابق (ص: 162).

3. انظر: المصري، علي مصطفى (1986م): أعلام من طرابلس، ط/4، الدار الجماهيرية، مصراتة - ليبيا (ص: 132).

4. التنبكي: أبو العباس أحمد بابا بن أحمد: (2000م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط/2، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، اعتنى به: عبد الحميد عبد الله الهرامة (ص: 639).

5. الأنصاري: (1988م)، مصدر سابق (ص: 222).

مزدهرةً مستمرةً تأخرت بعض الشيء نظراً لظروف الاستعمار وانقطاع الرحالة المغريين والقيروانيين إلا ما ندر تقريباً عن تاجوراء، الأمر الذي دفع بكثير من علماء طرابلس للرحلة إلى مصر والحجاز.

المطلب الثاني: أصول الأسرة الخطّابية

يضيع نسب كثيرٍ من العلماء، وتغيب الإشارة إلى أصولهم في كتب الطبقات، وينسبون إلى البلاد التي استقروا بها آخر أعمارهم، أو التي دفنوا بها، فصاروا لا يعرفون إلا بها، وهذا الأمر بالنسبة لليبيين لحق كبار علمائهم، كعلي بن زياد الطرابلسي⁽¹⁾، وهو من أوائل طلاب العلم والفقهاء والحديث في الغرب الإسلامي، الذين ضربوا آباط الإبل إلى بلاد المشرق قصد الاستفادة من أعلامه الكبار من أمثال الإمام مالك، وسفيان الثوري، والليث ابن سعد، وابن لهيعة، وغيرهم من الشواخ، وهو الذي قال فيه سخنون: "ما أنجبت إفريقية مثل علي بن زياد"⁽²⁾.

رحل إلى الحجاز مبكراً، واتصل بعلمائها شاباً، ليستزيد من علومهم، ويوثق سنده المعرفي بهم وبإجازاتهم، كما عدّ في الطليعة من أعلام الغرب الإسلامي الذين لازموا إمام المذهب المالكي، وصاحبوه وأخذوا العلم عنه، وتحملوا موطأه وفتاويه، ورووا عنه ذلك برواية متميزة، وأدخلوه صحيحاً موثقاً إلى ديار الغرب الإسلامي قاطبةً طرابلس وتونس والجزائر والمغرب والأندلس⁽³⁾.

وموطأ ابن زياد أول كتاب ظهر بعد القرآن في المغرب العربي، بل هو الأساس الذي قام عليه مذهب الإمام مالك، وهو أول وأقدم مخطوط ليبي موجود اليوم في المكتبات التونسية⁽⁴⁾.

وقد ذكر ابن زياد عند بعض من ألفوا في الطبقات دون أي ذكر لأصوله الطرابلسية،

1. الدمشقي: ناصر الدين محمد بن أبي بكر، (2006م): إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك، ط1، المكتبة

الإسلامية، القاهرة: مصر، تحقيق: نشأت بن كمال المصري: (455).

2. عياض: القاضي عياض بن موسى السبتي، (1983م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،

ط2، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية: (82/3).

3. جبران: محمد مسعود، (2010م): علي بن زياد الطرابلسي ودوره في نشر المذهب المالكي، ط1، منشورات جمعية

الدعوة الإسلامية: (ص18-19).

4. الشريف: (1999م) مصدر سابق: (ص3).

بل مكتفين بالذكر، إنه تونسي، كما صنع صاحب شجرة النور الزكية، حين ذكره ولم يشر أي إشارة إلى أصوله الطرابلسية، فاكتفى بالقول: "أبو الحسن علي بن زياد التونسي..."⁽¹⁾، فغلبت هذه النسبة على ابن زياد في أغلب كتب الرجال، وكذلك من قبله صنع ناصر الدين الدمشقي، صاحب كتاب: "إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك"، حيث يقول في ترجمته لابن زياد: "علي بن زياد العبسي التونسي، أبو الحسن"، إلا أنه أشار إلى طرابلس مسقط رأسه⁽²⁾.

فإذا كان هذا هو الحال مع ابن زياد صاحب الفضل بعد الله ﷺ على المغرب العربي كله، فكيف الحال بمن هم دونه، خصوصاً في مراحل التفهقر العلمي التي مرت بالأمة الإسلامية في القرنين: العاشر والحادي عشر للهجرة.

إنّ الكتب التي ترجمت للأسرة الخطابية لم تسعفنا بترجمة وافية شاملة، تدل دلالة صريحة، وتبين بياناً شافياً بما لا يدع مجالاً للشك أصول الأسرة الخطابية، فنجد أغلب البحوث والمحققين ترددوا فيهم بين المغرب والأندلس.

فعند قراءة كتاب الخطّاب "تحرير الكلام في مسائل الالتزام" ترى تردداً لدى المحقق في تعريفه بالإمام تحت المبحث الذي خصصه للحديث عن نسبه، فيقول: "المغربي الأصل، ينحدر من أصل أندلسي"⁽³⁾، ثم عند الحديث عن عصره يؤكد على أصوله المغربية، دون أي ذكر لأندلسيته⁽⁴⁾.

ومن أكد على الأصول الأندلسية الشيخ حمزة أبو فارس، حيث يرى أن أصولهم أندلسية، بينما محقق كتاب "تحرير المقالة" يرى أن أصوله مغربية، أي: الخطّاب الصغير، ومولده بمكة، ووفاته بطرابلس⁽⁵⁾.

هذا التردد في أصول الأسرة الخطابية غير المغمورة، هو ما دفعنا لتخصيص هذا

1. مخلوف: (2003م) مصدر سابق: (ص91).

2. الدمشقي (2006م) مصدر سابق (ص455).

3. الخطّاب: أبو عبد الله محمد بن محمد، (1984م): تحرير الكلام في مسائل الالتزام، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان، تحقيق: عبد السلام محمد الشريف (ص: 7).

4. الخطّاب: (1984م)، مصدر سابق (ص: 25).

5. الخطّاب: (2007م)، مصدر سابق (ص: 7).

المطلب للحديث عن الأصول الخطابية، ولأن نقدم اقتراحاً لأن يكون أصله من برقة! وهذا الاقتراح نفترضه لسببين: الأول الحياة العلمية المزدهرة التي كانت تعيشها برقة قبل القرن السادس هجري، واتصالها العلمي والتجاري بالأندلس. والثاني: التردّي السياسي والمعرفي الذي مرّت به برقة بعد المئة الخامسة، الأمر الذي دفع كثيراً من علماءها للرحيل عنها، وسنفضل هذين السببين بناءً على شهادة الرّحالة والعلماء الذين مرّوا ببرقة.

أولاً: الحياة العلمية ببرقة: يرحّح كثيرٌ من البّحث أن يكون المذهب السائد في ليبيا قبل المذهب المالكي هو المذهب الكوفي، ولكنهم يذكرون ذلك دون ذكر كيفية دخوله البلاد ولا من أدخله، يقول القاضي عياض في ترتيب المدارك: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد، وابن أشرس، والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثيرٌ من الناس، ولم يزل يفتشوا إلى أن جاء سخون، فغلب في أيامه، وفضّ حلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا"⁽¹⁾.

لذلك سنقتصر في الحديث عن الحياة العلمية ببرقة على المرحلة التي دخل فيها المذهب المالكي إلى ليبيا، دون الحديث عن المدة السابقة التي يرى القاضي عياض أن المذهب السائد فيها كان مذهب الكوفيين.

إنّ التأسيس الإسلامي لبرقة الذي جعلها حاضرة علمية رفيعة اتّصلت بمعظم أقطار المشرق الإسلامي ومغربه، فقد كانت حلقة الوصل بينهما، كان عقب استشهاد زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه، حيث وجّه عبد الملك بن مروان عوضاً عنه حسان بن النّعمان، فتوجّه حسان إلى إفريقية بجيش، يقال: إنّه لم يدخلها جيشٌ للمسلمين أضخّم منه، وأقام بجيشه ببرقة، وبني بها القصور المعروفة به إلى الآن⁽²⁾.

واستمرت برقة بعد ذلك عامرة بالبنيان الكثير، أهلةً بالمسلمين وأهل الكتاب جميعاً، يقول العياشي في رحلته: "وفي أجدايا آثار عمارة كثيرة، وآبارٌ عظيمةٌ منقورة في الحجر،

1- عياض: القاضي عياض بن موسى السبتي، (1983م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط/2، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية: (1/25، 26).

2- انظر: التّجاني: (1981م)، مصدر سابق (ص: 58، 59).

وبنيان هائل بالحجر منحوت، وهناك رسمٌ مسجدٍ قديم، ووجدنا في بعض حجراته تاريخ بنيانه منقوش سنة: (300هـ)"⁽¹⁾.

أما عن وجود أهل الكتاب ببرقة أثناء حكم المسلمين، فإنّ العياشي يذكر رواية المحييج من رأوا هذه القرى وأهلها، وسمعوا عن ملكتهم وجندها، فيقول: "... واليهودية قرى كثيرة متقاربة، فيها آثار بناءٍ خالٍ متراكم، يدلّ على أنّها كانت عمارة كبيرة، واشتهر على السنة الحجاج أنّها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخليل، قلت: وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقهاء أنّه قال: دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب، وساق الحكاية إنلخ، ولعل تلك المدينة هي هذه! إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينةً تسمى اليهودية غيرها..."⁽²⁾.

كلّ هذه الأخبار تدلّ على أنّ برقة من بعد الفتح الإسلامي حتى هجرة الهلاليين إليها؛ كانت تشكل مدرسة علمية، يوجد بها عديد العلماء، وقد ثبت عند المؤرخين أنّ سخون بعد رجوعه من الحجاز قد سمع منه أهل برقة مدونته، ولعلمهم قد كانوا أول من سمعها منه، قبل أن يهذبها، ولا شكّ أبداً في سماعهم المدونة منه، لكن الخلاف: هل أسمعهم مدونته بجوار ضريح الصّحابي رويغ الأنصاري حيث تقع مدينة البيضاء الآن؟ أو كان سماعهم إيّاها بمدينة أجدابيا كما هو مشتهر عند كثير من الباحث والمحققين؟

فالعيّاشي يذكر أنّ شيخه محمد بن مساهل أخبره عن بعض المشايخ أنّ سخون جلس بإجدابية ثلاث سنين، وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه، ثمّ يذكر أنّ بعض العلماء يقول: إنّها ليست إجدابية، بل هي مدينة بالجلب الأخضر بالجانب البحري، فقال: "وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنّه رآها، وأنّ رسومها تدلّ على عمارة قوية، وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير، وقال لي: إنّ بها قبراً مشهوراً يُزار...، فقلت له الغالب أنّه قبر صحابي، فقد نصّ المؤرخون على أنّ رويغ بن ثابت الأنصاري قد توفي ببرقة، وقتل ببرقة أيضاً زهير بن قيس البلوي، وما ذاك إلاّ قبر أحدهما"⁽³⁾.

ثمّ يرجع العياشي بعد ذلك من الحجاز إلى مصراته؛ ليلتقي بابن غلبون بها، فأخبره أنّه

1 العياشي: أبو سالم عبد الله بن محمد (2006م): الرحلة العياشية، ط1، دار السويدي، أبو ظبي-الإمارات، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي: (ص: 199).

2 العياشي: (2006م)، مصدر سابق (ص: 197).

3. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص: 199).

ذهب إلى برقة - أي: الجبل الأخضر - مرة أخرى، وتأمّل قبر الصحابي روفع بن ثابت الأنصاري، وعليه كتابات وأمارات تدل على ذلك، فيقول العياشي معلقاً على ذلك، ومبيناً أنه بجوار هذا الضريح قد جلس سخنون ثلاث سنين يسمع الناس مدونته، يقول: "فإن صحّ أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور، فتلك المدينة هي مدينة برقة المشهورة لإجدابية، والأمر في ذلك قريب، فإن بين المدينتين نحواً من خمسة أيام، فكلاهما يصحّ أن يُقال بينها وبين كلٍّ من مصر وإفريقية شهر، إذ بذلك يعرفها الفقهاء، إلا أن التي بالجبل الأخضر أقرب إلى مسمى المدينة؛ لما بإزائها من المياه والأماكن المنخبة والمزارع الكثيرة والغياض الملتفة من أنواع الأشجار، بخلاف إجدابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة"⁽¹⁾.

فمرور الإمام سخنون وجلوسه ببرقة ثلاث سنين، وهي مدة ليست بالقصيرة، لا بد أنه خلالها قد نثله على يديه كثير من أهلها، وتحملوا عنه مدونته، ولعلّ الإمام عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة بن أسعد البرقي قاضي برقة، لعله ممن سمع من سخنون، إذ هو من علماء المئة الثانية، وهو قاضي برقة من المالكية، وقد كان حياً وقت جلوس سخنون ببرقة، ولم تسعفنا التراجم بتاريخ وفاته، غير أنها ذكرته في علماء المئة الثانية⁽²⁾.

هذا ومن أشهر علماء هذا القطر الإسلامي:

- عبد الرحمن بن عمرو البرقي أبو الفياض، (ت: 245هـ) من أصحاب ابن وهب، يحدث عنه، وعن أشهب بن عبد العزيز، توفي بمصر، أخذ الناس عنه بمصر كثيراً، له سماع ومجالس رواها عن أشهب حملت عنه⁽³⁾.

- محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن أبي زرعة البرقي (ت/249هـ)، كان من أصحاب الحديث والفهم، والرواية أغلب عليه، من بيت علم، له تواليف في مختصر ابن عبد الحكم، زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار، وكتاب في التاريخ، وفي الطبقات، وفي رجال الموطأ وفي غريبه، يروي عن أشهب، وابن بكير، وحبيب كاتب مالك، ونعيم بن حماد، وابن هشام، ويحيى بن معين، وإدريس ابن يحيى الخولاني، وسعيد بن منصور وغيرهم، وروى عنه خلق كثير منهم: أبو حاتم الرازي، وعبيد الله ابن يحيى، وقاسم بن

1. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص: 200).

2. الشريف: (1999م) مصدر سابق (ص: 43).

3. عياض: (1983م)، مصدر سابق (154/4-155).

أصبغ وغيرهم⁽¹⁾.

- أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي (ت/270هـ)، الحافظ المتقن المحدث، سمع من عمرو بن أبي سلمة وطبقته كأخيه، يروي عن الحميدي، وقد روى عنه أيضاً، وسمع من أبي حفص ابن غالب، وابن غالب الصفار، والقاضي أسلم، وهؤلاء من الأندلسيين، وهذا دليل على الاتصال البرقي الأندلسي، وله مصنف في معرفة الصحابة، رواه عنه أحمد بن علي المدائني، كان من الحفاظ المتقنين، حدث بالمغازي عن عبد الملك بن هشام، وحدث عن عمر بن أبي سلمة، وسعيد بن أبي مرجم، وأسد ابن موسى، وأبي صالح كاتب الليث وغيرهم، كان ثقة ثبتاً⁽²⁾.

- عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي، (ت/286هـ)، الراوية الثقة، روى عن عبد الملك بن هشام المغازي، وروى عنه ابن الورد، ومحمد بن بسطام⁽³⁾.

- أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي، (ت/291هـ)، يروي عن أبيه، وله كتاب مختصر على مذهب مالك، وبعض الناس يضيف إليه زيادة اختلاف فقهاء الأمصار في مختصر ابن عبد الحكم، يروي عن ابن بكير وغيره، ويقال: إنه روى عنه النسائي⁽⁴⁾.

- محمد بن إسحاق الجبلي قاضي برقة (ت/341هـ)، قاوم العبيديين، وكان له موقف مشهور في مواجهتهم، وقد علّقوه من يديه على عمود خشبي، فمات من شدة الحر والعطش⁽⁵⁾.

- أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي (ت/384هـ) من الفقهاء المشهورين، من أصحاب أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن الفاسي، كان واسع الرواية، سمع من شيخه، ومن هبة الله ابن أبي عقبة، وأبي القاسم بن خيزران، وتميم بن أبي العرب، وأبي عبد الله بن الناظور، وأبي محمد البادسي، وغيرهم من أهل إفريقية، ورحل إلى مصر

1. عياض (1983م)، مصدر سابق (180/4-181).

2. عياض (1983م)، مصدر سابق (182/4).

3. عياض (1983م)، مصدر سابق (180/4-181).

4. عياض (1983م)، مصدر سابق (182/4-183).

5. الزاوي (2004م)، مصدر سابق (ص 327).

والحجاز، فسمع عن جماعة كثيرة⁽¹⁾.

- إبراهيم بن محمد بن جعفر بن هارون بن محمد الأزدي، الأطرابلسي البرقي، قدم الأندلس، روى عنه أبو إسحاق بن سنظير، قال ابن شكوال: "وقرأت بخطه قال: ولد بأطرابلس، وسكن برقة، وهو سائح، ذكر أنّ سنّه ابن إحدى وأربعين سنة، ذكر ذلك في النصف من صفر إحدى وتسعين وثلاثمائة"⁽²⁾.

هؤلاء الأعلام كانوا بعضاً من علماء برقة قبل مرحلة التردّي التي عرفتها بعد هجرة المهلبين إليها، حيث كانت برقة حلقة الوصل بين المشرق الإسلامي ومغربه، فلا بدّ أنّه من حيث هذا الموقع كانت على اتصال بكلّ أقطار المغرب الإسلامي حتّى الأندلس، وكلّ أمصار المشرق الإسلامي، ولعلّ أكثر اتصال علماء برقة كان بمصر، حتّى اختلط على المترجمين فظنّوهم من المصريين، كما مرّ عند الحديث عن أبي زرعة البرقي وغيره كثير.

فمن علماء برقة الذين تجشّموا عناء الرحلة، ومشقّة السفر، في سبيل طلب العلم، حتّى ترى أسماءهم قد نسبت إلى الأقطار التي زاروها، فتعلّموا فيها، أو علّموا أهلها وأسمعوهم: الإمام إسماعيل ابن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي، (ت: 445هـ) فقد جاء في ترجمته: "أديب من أهل القيروان، سكن المهديّة، ودخل الأندلس، وزار مصر"⁽³⁾.

كذلك الإمام محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني الأندلسي، (ت: 460هـ)، الإمام الفقيه المتفنن في العلوم، الأديب الكاتب البليغ، الحامل لواء المنثور والمنظوم، له تأليف تدل على نبل وذكاء وفضل، منها: "أعلام الكلام"، وكتاب: "أبكار الأفكار"، رحل لصقلية ثم الأندلس⁽⁴⁾.

ثانياً: التّفهّر السّيّاسي، والتّرديّ العلمي ببرقة:

يذكر العياشي الوضع الأمني السيء الذي كانت تعاني منه أطراف برقة، فبعد اجتيازه

1. عياض: (1983م) مصدر سابق (7/99-100).

2. ابن شكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود (2008م): كتاب الصلّة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، تح:

شريف أبو العلا العدوي (1/122).

3. الشريف (1999م) مصدر سابق (ص88).

4. مخلوف (2003م) مصدر سابق (ص163).

سرت ونزوله بمزارع أولاد سيدي ناصر، وهم فقراء مرابطون أهل ديانة، ذكر أنهم أضرّ بهم جور الأعراب من أهل سرت وبرقة، فقلّما يسلم لهم وقت من هؤلاء أو من هؤلاء. ثم يقول: "وبهذا السبب خلت أرض برقة كلّها، وهي مسافة شهرين، وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية، لا تكاد تسير فيها بريداً ليس فيه أثر بناءٍ ورسوم عمارة داثرة، وقد جاء الإسلام وغالبها عامر"⁽¹⁾، ويرجح العياشي أنّ خرابها كان بسبب هجرة الهلاليين إليها، فقد استولوا على القرى، فأفسدوها وخلت البلاد يومئذٍ.

بقيت برقة على هذه الحالة، بل ازداد وضعها سوءاً وتردياً، حتّى إنّ الرّحالة التّجاني يروي من أمرها عجباً، فقد ازداد وضعها بؤساً وألماً، حيث شهدت مجاعةً عامّةً، حتّى أكل الناس موتاهم! فيقول: "وتواتر لدينا الخبر أيضاً عن جذبِ برقة وفتنة أهلها... ووصل إلينا بشهادة عدول من أهل طرابلس أنّ ركباً فيه نيف على سبعمائة نسمة جاء برقة، وأنّه لم يخلص منه حاشا مئة أو نحوها، وأنّ سبب ذلك كلّهم لم يجدوا ما يقتاتون به حاشا لحوم الحيّات فعدا عليهم سمّهم فأهلكهم، وصحّ لدينا من هؤلاء الذين خلصوا منه أنّهم كانوا يمرّون في كثيرٍ من أرضها بالأحياء، والخيام فيها مضروبة، وجميع من في تلك الخيام موتى من رجال ونساءٍ وأطفال، إلى غير ذلك مما يحكونه من بيعٍ من بقي في تلك الأحياء من الأحياء للناس وأكلهم للحومهم..."⁽²⁾.

ظلت برقة على هذه الحالة حتّى شهدت تحسناً قليلاً في أطرافها كبنغازي وأجدايا ودرنة ما عدا الجبل الأخضر، وكان ذلك في مطلع القرن الحادي عشر للهجرة، فيصف العياشي مدينة درنة قائلاً: "ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى... وكانت خاليةً منذ أزمان إلى أن عمّرها الأندلس قرب الأربعين والألف"⁽³⁾، فانتشرت الحياة بشكل كبير في هذه المدينة، وربطت برقة بطرابلس والإسكندرية وبر الروم وغيرها، يقول العياشي: "ومرسى هذه المدينة عجيبة، تنزل بها السفن الجائئة من الإسكندرية وطرابلس ومن بر الروم، سيّما جزيرة كندية، فإنّ بينها وبين درنة مسافة يومٍ في البحر؛ لأنّها في مقابلتها، والمعاش في هذه المدينة متيسرٌ

1. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص 197).

2. التجاني: (1981م) مصدر سابق (ص 191-193).

3. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص 205).

كثيراً، لجمعها بين البادية والحاضرة"⁽¹⁾.

وكذلك الحال بالنسبة لبنغازي، التي شهدت استقراراً سياسياً بعد خضوعها لحاكم طرابلس، فقد شهدت هذه المدينة انتعاشاً اقتصادياً كبيراً، حيث أصبحت مركزاً تجارياً، تصبّ في مرساها أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر، الذي لا أخصب منه، ولا أكثر إداماً في البلاد منه، وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائها من البلد، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم⁽²⁾.

هذا بالنسبة للأوضاع الاقتصادية والأمنية. أما الوضع العلمي في برقة فقد تغير كثيراً، فبعد غياب شبه تام في كتب الطبقات لعلماء برقة عقب المئة السادسة أو السابعة، عادت برقة بقوة، ساحة علمية مؤثرة، على مستويين: محلي، وقاري، وكان ذلك في القرن الثالث عشر للهجرة، وهو زمن الطريقة السنوسية في برقة، التي أسسها الإمام المجدد: محمد بن علي السنوسي (ت/1276هـ).

وقد جاء في ترجمته في شجرة النور: "صاحب الجبل الأخضر الشهير الذكر، الرفيع القدر، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم سيد الأولين والآخرين، الفقيه الحافظ العامل المحدث الجامع الولي، الواصل شهرته شرقاً وغرباً تغني عن التعريف به، له صيت عظيم في جميع الجهات، وذكر جميل وكرامات، متين الدين، أتباعه يعدون بعشرات الملايين، منتشرون باليمن والحجاز والشام والسودان ومصر وصحراء إفريقيا والجهات الغربية..."⁽³⁾.

المبحث الثاني: "الأسرة الخطّابية: أعلامها، وإسهاماتها":

يتناول هذا المبحث الحديث عن أعلام الأسرة الخطّابية، نشأتهم، ورحلاتهم، ومشايخهم وتلامذتهم، وما تركوه من إرث علمي للأمة الإسلامية، كما يتحدث عن أبرز مؤلفاتهم، ورأي العلماء فيها، وثناؤهم عليها.

المطلب الأول: أعلام الأسرة الخطّابية:

الأسرة الخطّابية هي من الأسر الليبية ذائعة الصيت، التي كان لها دور كبير، وأثر جميل، وأصبح حسن في الفقه الإسلامي، تشهد لهم بذلك سيرتهم في كتب التراجم، فقد

1. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص 205).

2. العياشي: (2006م) مصدر سابق (ص: 201).

3. مخلوف: (2003م) مصدر سابق (ص: 399-402).

شهد لهم من عاصرهم، ومن نثلند على يديهم، بل شهد لهم مشايخهم بالفضل والصلاح والتقوى، وتبقى الشهادة الحقيقية، والإثبات القوي الذي يدلنا على مكانة هذه الأسرة هي مؤلفاتها، التي تلقتها الأمة بالاستحسان والقبول، فطارت إلى الآفاق الإسلامية قاطبةً، إذ يُعدّ شرح الخطّاب على مختصر خليل من أعظم الكتب في الفقه المالكي والإسلامي، لا يستغني عنه أي باحث.

وهنا سنقوم بذكر أبرز هؤلاء الأعلام الأجلاء من هذا البيت الذي عرف أهله بالديانة والعلم، حيث سنقتصر في هذا المطلب على ذكر الأعلام ونشأتهم ورحلاتهم وتلامذتهم، دون الحديث عن مؤلفاتهم التي سيكون الحديث عنها في المطلب الثاني، فنبرز علماء هذه الأسرة:

أولاً: أبو عبد الله الرّعيني، أخو الخطّاب الكبير: محمد بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد أبو عبد الله الرّعيني الأندلسي الأصل، الطرابلسي المولد، المالكي، نزيل مكة، يتميز عن شقيق له أكبر منه اسمه محمد أيضاً بالرّعيني، وذلك بالخطّاب، وإن اشتركا في لقب الخطّاب، لكن للتمييز بينهما، ويعرف في مكة بالطرابلسي.

ولد وقت صلاة الجمعة سنة: (861هـ) بطرابلس، ونشأ بها، فحفظ القرآن الكريم والرأية والخرازية في الرسم والضبط، ثم الرسالة، وتفقه فيها يسيراً على محمد الفاسي، وعلى أخيه في المختصر، ثم سافر إلى مكة مع أبويه وإخوته سنة: (877هـ)، ثم اتجه إلى المدينة، فقرأ فيها العربية على العوفي، وكذا حضر عند السراج معمر في الفقه وغيره، ثم عاد لمكة، فلازم الشيخ موسى الحاجبي، وقرأ فيها القرآن على موسى المراكشي، وأخذ عن الشهاب ابن حاتم، وكثر انتمائه لعبد المعطي، وتكرر اجتماعه بالسّخاوي، في سنة: (894هـ)، وقبلها وسمع منه، ثم جلس للإقراء في الفقه والعربية وغيرهما، وولي مشيخة رباط الموفق، وباشر التكلم في عمارة وقف الطّرحا، كلّ ذلك مع الفاقة والفقه ونعم الرّجل، هكذا وصفه شيخه السّخاوي⁽¹⁾.

ثانياً: أبو عبد الله الخطّاب الكبير: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن حسن، الشهير بالخطّاب الكبير، أندلسي الأصل، ثم طرابلسي، وبها ولد، كان مولده سنة: (856هـ)،

1 انظر: السّخاوي، مصدر سابق: (288/7).

ويخطيء كثيرٌ من البُحاث في التفريق بينه وبين أخيه، فهذا هو والد الخطّاب الصّغير، وليس أخوه الذي ورد اسمه قبله، فالسّابق لم يرجع إلى بلده بعد أن تركها عام: (877هـ)، بخلاف الخطّاب الكبير، فقد رجع إلى ليبيا كما أثبت ذلك السّخاوي في الصّوء اللامع، بقوله: "وعاد الأخ - أي: الخطّاب الكبير - بعد حجّه فيها إلى بلاده، وهو - أي: الرّعيني - إلى المدينة"⁽¹⁾، وقد اتفقت كتب التراجم على أنّ مولد الخطّاب الصّغير كان ببلاده ليبيا.

تفقه الخطّاب الكبير أيضاً على محمد الفاسي وأخيه في المختصر، وحضر عند السّراج المعمر في الفقه والعربية، وسافر الخطّاب الكبير إلى مكّة مع أبويه وإخوته عام: (877هـ) وهو ابن أحد وعشرين عاماً، وقد قرأ في ليبيا على كبار مشايخها وأعلامها، بل أعلام الأئمة الإسلامية قاطبة، كالإمام زروق، فهو الذي صنع شخصية التّصوف فيه، وكان راويةً لكرامات الإمام زروق، جاء في الفوائد الجمّة: "كلم السيّد الحبيب مولانا المصطفى رحمته الله سيدي أحمد زروق مشافهةً في الروضة الشّريفة في قصة يطول ذكرها، قيل ذلك عن العالم الشّيخ سيدي بركات الخطّاب، ووقعت القضية بمحضر والده سيدي محمد الخطّاب الكبير الإمام الشّهير، وكان تلميذاً للإمام زروق..."⁽²⁾.

كان كثير العبادة، شديد الورع، زاهداً عالماً عارفاً بالله تعالى، له تطلّع في علم التفسير، وأكثر كلامه فيه بالمواهب الرّبانية، والحقائق العرفانية، والنّكت الصّوفية⁽³⁾، ولعلّ تفسير تلميذه الخروبي مليءٌ بعبارات الشّيخ، حيث إنّ تفسيره يجمع بين الحقيقة والإشارة، وكان الخطّاب الكبير يستعمل السّماع ويجلس له، ومع أهله وفي محلّه، ويقال بمحضره كلام الوفائية، ومقطعات الشّشتري والبراوي، وكلام أبي المواهب، وينشد في مجلسه كلام ابن الفارض وأمثاله، فيزيل ما في كلامهم من الإشكال، وينفي ما فيه من الإيهام، ويشرحه على طريق جامع للشريعة والحقيقة، فلا يجد في كلامه ما يردّه عليه المعترض⁽⁴⁾، وأخذ أيضاً عن السنهوري، وعبد المعطي بن خصيب، والعُلبي، ومحمد بن أحمد السّخاوي قاضي المدينة، والحافظ أبي الخير السّخاوي، والشّمس المراغي وغيرهم، وعنه أخذ ولده: محمد،

1 السخاوي: مصدر سابق (288/7).

2 التّنارقي: أبو زيد عبد الرّحمن (2007م): الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأئمة. ط1، دار الكتب العلمية بيروت، تح: يزيد الرّاضي (ص98).

3 الأنصاري: (1899م) مصدر سابق (ص191).

4 الأنصاري: (1899م) مصدر سابق (ص192).

وبركات⁽¹⁾.

من أشهر تلامذته ولداه: محمد، وبركات، والإمام محمد الخروبي وقد أثنى عليه ثناءً بالغاً بقوله: "ربّانا أحسن تربية، وأدبنا أحسن تأديب، واجتهد في تعليمنا، وكان يقوم بشؤوننا، وكان يتحفنا بخدمة الصّالحين وموالاتة الفقراء، ويقول: من خدم شيخاً كبيراً لكبر سنّه؛ قيض الله له من يخدمه في آخر عمره، وأنا وجدنا بركة ذلك، وثمرة خدمتنا لأولياء الله ولعبيد الله، فوقّ الله لنا الميالك، وأمال إلينا قلوب الرّجال، فكنا إذا أمرنا أطعنا، وإذا أردنا أعطينا، وإذا استشفعنا قبلنا"⁽²⁾.

كان الإمام الخطّاب الكبير مهاباً وقوراً صموتاً دايماً الذّكر، ملازماً للخلوّة، إلّا إذا خرج للتفسير أو تقرير كلام أهل التّصوف، وإظهار معاني حقائقهم، وشرح ما أشكل من عباراتهم، وبيان ما غمض من إشاراتهم، وكان محباً للنبي ﷺ، دائم الاهتداء به، شديد الاقتداء به في الأقوال والأفعال والأحوال، في العادات والعبادات، حتّى كان يقتدي برسول الله ﷺ في لباسه وعمامته ومشيته وجلوسه وأكله وشربه وفي جميع شؤونه، وكان يحض أصحابه على ذلك، ويعلمهم عمامة رسول الله ﷺ ومشيته وجلوسه، وأكله وشربه وجميع أفعاله ويقول: "الخير كلّ في ذلك"⁽³⁾، توفي -رحمه الله- بطرابلس، وضريحه بزاويته الكائنة بمدينة تاجوراء.

ثالثاً: أبو عبد الله الخطّاب الصّغير: محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسن الرّعيني، المعروف بالخطّاب، أبو عبد الله شمس الدين، ولد ليلة الأحد ثامن عشر من شهر رمضان عام: (902هـ)، إنه الإمام العلامة المحقق البارع، الحافظ الحجّة الثّقة النّظار، الورع الصّالح، الأبرع الجليل، كان من سادات العلماء وسراتهم، جامعاً فنون العلم، متقناً محصلاً، متفنناً عارفاً بالتفسير ووجوهه، محققاً في الفقه وأصوله، عارفاً بمسائله، مقتدراً على استنباطه، يقيس على المنصوص غيره، حافظاً كبيراً للحديث وعلومه، محيطاً باللّغة وغريبها، عالماً بالنحو والتّصريف، فرضياً حسابياً معدلاً محققاً لها، له الإمامة المطلقة في ذلك، جامعاً لسائر الفنون بالجملة، فهو آخر الأئمة المتصرفين في الفنون التّصريف التّام بالحجاز، وآخر أئمة المالكية بها⁽⁴⁾.
نشأ الخطّاب في بيت علم وبيئة وفضل، حفظ كتاب الله، وتلقى الفقه على والده

1 التنبكي: أحمد بابا (2000م): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. لاط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، تحقيق: محمد مطيع (224/2).

2. الأنصاري: (1899م)، مصدر سابق (ص: 191).

3. الأنصاري: (1899م)، مصدر سابق (ص: 191).

4. انظر: التنبكي: (2000م)، مصدر سابق (ص: 592).

الحطّاب الكبير وأعلام زمانه، كان شعله لا يهدأ، ولا يمل من الاطلاع والبحث، وبجانب هذا كله كان رجل فكر واستنباط واستقصاء، كان ينظر في كثير من المسائل الدينية، فلا يجد فيها نصّاً، ولا يدور حولها كلام من الفقهاء، فيجمعها في كتاب لم يسبق إليه، وكثيراً ما استدرك على خليل وشراح خليل وشراح ابن عرفة وابن الحاجب الأصولي، واستدراكه تدل على عقلية ناضجة لا تقلد ولا تتكرر، ينظر في الفلك ويدرسه، ويؤلف بحثاً قيماً في كيفية إخراج مواقيت الصلاة بلا آلة كالساعة والمزولة والاصطرلاب، وهو بحث غريب وظريف في آن واحد لم يسبق إليه أيضاً.

وقد جاء في ترجمته عند الشيخ التنبكتي، وهو من تلاميذ ابنه يحيى الحطّاب: "له تآليف بارعة تدل على إمامته وسعة علمه وحفظه، وسيلان ذهنه وقوة إدراكه، وجودة نظره وحسن اطلاعه، يستدرك فيها على الأئمة الفحول كابن عبد السلام، وخليل وابن عرفة فمن فوقهم، وفي الحديث على الحفاظ كابن حجر السخاوي والسيوطي، وناهيك به في درجته"⁽¹⁾، وحينما ذهب للحج وظهر للناس هناك علمه وفضله، تولى رئاسة المذهب المالكي بالمحجاز، ورئاسة المذهب مركزاً يدل على مكانته في العلم، وطول باعه في البحث، وشهرته الفائقة⁽²⁾.

وقد تتلمذ الحطّاب، وأخذ الفقه وغيره عن جماعة كآبيه الحطّاب الكبير، والعلامة أحمد بن عبد الغفار، والعارف بالله محمد بن عراق، وروى عن الحفاظ الشيخ عبد القادر النويري، وابن عمه المحب أحمد بن أبي القاسم النويري، والبرهان القلقشندي، والعز بن عبد العزيز بن فهد، والجمال الصّاني، وعبد الرحمن القابوني، وغيرهم، وقد أجازوه⁽³⁾، كما حضر بعض دروس شيخ المالكية في زمانه الشيخ علي نور الدين السنهوري، وأخذ عن الشيخ عبد المعطي بن خصيب التونسي⁽⁴⁾. أما تلامذتهم فمنهم عبد الرحمن التاجوري، والشيخ

1. التنبكتي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 592).

2. المصري: (1986م)، مصدر سابق (ص: 113-116).

3. التنبكتي: (2000م)، مصدر سابق: (592-593).

4. القرافي: بدر الدين محمد بن يحيى، (2004م): توشيح الديباج وحلية الابتهاج. ط1، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، تح: علي عمر:

(ص: 216).

علي الفيشي⁽¹⁾، وولده الشيخ يحيى الحطّاب، والشيخ محمد الفلاني وغيرهم⁽²⁾.

كان الحطّاب كأبيه متصوّفاً، صاحب حال وطريقة، فقد أخذ والده الطّريقة عن أشياخ عظام، منهم: الولي العارف القطب أحمد الدّهمني الطّرابلسي، وهو عنده العمدة، ومنهم: العلامة العالم بعلم الشّريعة، الماهر في علم الحقيقة، المتضلع من المعقول والمنقول، سيّد إفريقية وعالمها: أبو عبد الله البكي التونسي⁽³⁾. والاتجاه الصّوفي يبدو واضحاً عند الحطّاب من كلامه في كتابه: "تحرير المقالة"، أثناء تعريفه بالإمام ابن أبي زيد القيرواني: "... الشيخ العلامة الهمام، قدوة الأنام، ملك زمانه، وفريد عصره وأوانه، العارف بالله ﷻ، المتبركُ به أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، أعاد الله علينا من بركاته وبركات علومه"⁽⁴⁾، فالتبرك بالأحياء فضلاً عن الأموات شائع عند أهل التّصوف، وهو من أعظم ما تنكره عليهم بعض المدارس الأخرى. أمّا اتّجاهه العقدي فقد كان أشعرياً، فالحطّاب وإن لم يؤلف في علم الكلام كتاباً، إلّا أنّه انتقد الإمام ابن أبي زيد القيرواني، حين قال: "وإنه فوق عرشه المجيد بذاته"، فقال: "ووجه الإشكال في ذلك أنّ ظاهر كلامه يقتضي أنّه أثبت لله ﷻ جهة، وهو ﷻ منزّه عن الجهة، وأجيب بأنّ هذا لا يلزم؛ لأنّ لفظ الفوقية ورد في القرآن الكريم، وفي كلام السلف، ولكن يتعين صرف اللفظ عن ظاهره الذي هو الجهة؛ لاستلزامه المحال؛ لأنّ لازم الجهة التحيز، ويلزم على ذلك الجسمية وتوابعها، وذلك محال على الله ﷻ، ولا يقول به أحد من أهل السنّة ولا من السلف الصّالح، فيتعين صرف الفوقية عن المعنى المستلزم للمحال"⁽⁵⁾. عاد الشّيخ الحطّاب إلى طرابلس بعد أن مكث في مصر طالباً وعالمياً، وفي الحجاز رئيساً للمذهب، وظلّ يكتب، ويدرس ويبحث، وفي ليلة التاسع من ربيع الثاني عام: (945هـ: 1547م) فاضت روحه إلى بارئها، وما تجاوز الثانية والخمسين من عمره، وبجانبه أوراق ومحابر وتفسير لم يتم⁽⁶⁾.

رابعاً: بركات بن محمد الحطّاب: هو بركات بن محمد بن عبد الرحمن الحطّاب،

1. القراني: (2004م)، مصدر سابق: (ص: 592).

2. التنبكتي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 592).

3. الأنصاري: (1899م)، مصدر سابق: (ص: 192).

4. الحطّاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 15).

5. الحطّاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 25، 26).

6. انظر: المصراحي: (1986م)، مصدر سابق: (ص: 117).

الطرابلسي الأصل، المكي المولد، الفقيه الصالح، العالم العلامة، المفتي المعمر، أخذ عن والده وغيره، يقول التنبكتي: "لقيه والدي وغيره من أصحابنا، وأجازهم، وألف: "المنهج الجليل في شرح مختصر خليل" في أسفار أربعة، توفي بعد الثمانين والتسعمئة عن عمر عالٍ، أخذ عنه ابن أخيه العالم يحيى الخطّاب"⁽¹⁾.

خامساً: يحيى بن محمد الخطّاب: ترجم له تلميذه أحمد بن بابا التنبكتي، فقال: "يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطّاب المكي، فقيها وعالمها، شيخنا بالإجازة، الفقيه العالم العلامة المتفنن المؤلف الصالح، آخر فقهاء الحجاز من المالكية، له تأليف في الفقه والمناسك والحساب والعروض وغيرها، ولقيه جماعة من أصحابنا بمكة، وأجازني مكاتبة، ثم عمم، وكتب إليّ بخطّه..."⁽²⁾.

فيحيى الخطّاب هو خاتمة علماء الحجاز من المالكية، العالم العامل، العمدة الفاضل، المعروف بالصّلاح والدين المتين، أخذ عن والده وعمّه بركات وغيرهما، وأخذ عنه أبو مسعود القسطلاني المكي، والشيخ أحمد بابا إجازةً عامّة وغيرهما، له كما سبق تأليف في الفقه والحساب والمناسك، وفي خصوص نوازل الحبس⁽³⁾، توفي بعد (993هـ: 1585م)، بطرابلس، وضريحه داخل الثغر بجوار: (جامع محمود)⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: "مؤلفات الأسرة الخطّابية":

يرتكز هذا المطلب على ثلاثة محاور مهمة، يتكئ الأول منها على الآتي: حيث نبتدي بذكر الوصف العام للمنهجية الخطّابية في التأليف، ثم ذكر السند الفقهي للأسرة الخطّابية، ثم نختتمه بذكر أبرز مؤلفات الأسرة الخطّابية.

أولاً: الوصف العام للمنهجية الخطّابية في التأليف: امتازت ثقافة الأسرة الخطّابية بالأصالة والتّجديد، والعمق والتّبحر، مع كثرة تنوعها، ووفرة مصادرها، وغزارة النّصوص المقتبسة، والأقوال المجموعة فيها، والاجتهادات الفقهية التي احتوتها، والرّدود

1. التنبكتي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 150).

2. التنبكتي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 639).

3. مخلوف: (2003م)، مصدر سابق: (ص: 404).

4. الأنصاري: (1899م)، مصدر سابق: (ص: 222).

التي اشتملت عليها، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مؤلفات الخطّاب الصّغير، مثل كتابه: "تحرير الكلام في مسائل الالتزام"، فهو مؤلف لم يسبق إليه الخطّاب الصغير، مؤلف جديد في نوعه، فريد في بابه أصيلاً في مناه، دليل على أنّ الخطّاب الصغير كان إماماً مجدداً، يقول عن كتابه: "ولم يكن له في كتب أهل المذهب باب، ولا فصل مقرر، ولا علمت فيه مصنفاً يؤخذ حكمه منه ويحرر، بل مسائله متفرقة في الكتب والأبواب، كثيرة التشعب والاضطراد، وليس الحكم به على الإطلاق بصواب، بل منه ما يقضى به على الشخص ويحكم، ومنه ما يؤمر به المكلف فقط، ولا يقضى عليه ولا يلزم، ومنه باطل لا يؤمر ملتزمه بالوفاء به، بل يحرم ذلك عليه ويأثم"⁽¹⁾. ومما يميز به هذا الكتاب مع كونه يجمع موضوعاً مهماً وجديداً ومتشعباً في الفقه الإسلامي، فإنه تميز ببسر الأسلوب، وسهولة العبارة، وبعده عن التكلّف، حتى أصبح مفهوماً لدى العام والخاص.

ومن كتب الخطّاب الصّغير أيضاً كتابه: "تحرير المقالة"، الذي يعدّ دليلاً وافياً على الموسوعية الفقهية والعقدية والحديثية لهذه الأسرة، وقد اخترنا الحديث عن هذا الكتاب دون غيره؛ لأننا لم نطلع على دراسة سابقة لهذا الكتاب، على غرار: "شرحه لتحليل"، و"تحرير الكلام في مسائل الالتزام".

فقد تميّز - تحرير المقالة - بالمقارنة بين أقوال المتقدمين والمتأخرين من المالكية، وشرح أقوالهم، وبيان أدلتهم، كما جمع الخطّاب فيها الإشكالات والانتقادات التي وجهت لأبي زيد القيرواني، ونظمها في أبيات، وهي ثمانية مواضع:

وقوله بذاته المجيدُ	وجر مد فوقه مزيدُ
وغسل ميتٍ، ثم قل تيممُ	وجبته وسمنه يا عالمُ
عقيقة، وقل زكاة الفطرِ	وأُمَّ ناسٍ من الذّكرِ ⁽²⁾

ومما تميّزت به هذه الرسالة اللطيفة إعادة صياغة الخطّاب لأبيات ابن غازي، التي شرح فيها رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهي قوله:

بأدر ببأسٍ وممنوع المرض	وموقنٍ آخر وراج إن عرض
-------------------------	------------------------

1. الخطّاب: (1984م)، مصدر سابق: (ص: 66).

2. الخطّاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 29، 30).

ووسطن عادم المناول كالشاك والخائف ثم الجاهل
 يذكر الخطاب اعتراضات الفقهاء على هذه الآيات، وما تضمنته من أحكام، ثم
 يقول: "فلو قال:

بأدر ببأسٍ وممنوع المرض
 ووسطن عادم المناول
 وموقنٍ آخر وراج إن عرض
 كالشاك والخائف ثم الجاهل⁽¹⁾
 كما احتوت هذه الرسالة الفقهية على مجموعة من المسائل التي ضعف فيها أبو زيد
 القيرواني مذهب ابن القاسم في بعض مسائله، وانتصار الخطاب لابن القاسم فيها⁽²⁾، كما
 تضمنت ذكر الإمام الخطاب لمجموعة من المسائل التي خالف فيها أبو زيد القيرواني مشهور
 المذهب، ونظمها في قوله:

وخالف المشهور في مسائل	وفي غسل مستحاضة يا سائل
وفي أقل الطهر والتيمم	وفي نجاسة القليل فاعلم
وقبر مشرك وتخليل جعل	بالرجل مع تقديمها لمغتسل
تقديم فذ قل ووقت العصر	جنازة قراءة بالظهر
رفع اليدين ثم غائبة السفر	مكاتب أو من يقيم بالحضر
وفي القنوت ثم في التنقل	صلاة محرم وفي التفاضل
وغسل طفلة وفي عاج ذكر	وبيع زيت ثم إطعام شهر
زور قسامة وذكر الفائنة	وفي ثلاث قبل هذا ثابتة ⁽³⁾

ومما تميزت به هذه الرسالة ما قام به الإمام الخطاب من جمع المسائل التي ذكر فيها
 ابن أبي زيد الخلاف دون أن يبين الراجح، ونظمها في قوله:

وأطلق الخلاف في مواضع	في مس فرج مرة يا سامع
إزالة ورفع إحرام ذكر	تسمية وركعتا فجر شهر
إقامة دنية تلاعن	إحداد زوج كفنها يباين
وبيع كلب قد تلا السلم	قراءة الظهر وقذف محترم

1. الخطاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 34-36).

2. انظر: الخطاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 40-42).

3. الخطاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 42).

نقض مودّع وزيد فرض
 صلاة جزء ميت وحض
 وقيمة للماء خز قد ظهر
 مع لبس صماء وخلف في
 الكبر⁽¹⁾

وقد بين الخطاب أنه لا ينبغي أن يُعدّ في هذه المسائل التي بين فيها المصنف الرَّاجح، ثم ذكر الخلاف.

كما لم تخلُ هذه الرسالة من بعض المباحث العقديّة، التي فصل فيها الإمام الخطاب طريق أهل السنّة في التعامل مع نصوص الصّفات الخبرية، فبين أنّ لأهل السنّة فيها طريقين: إحداهما: التّفويض في المعنى المراد بذلك إلى الله ﷻ، وهي طريقة السّلف، وإليها يشير الإمام مالك ﷺ لما سئل عن قوله ﷻ: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»⁽²⁾، قيل له: كيف استوى؟ فقال: "الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقال للسائل: إنّي أخاف أن تكون ضالًّا! وأمر به فأخرج"⁽³⁾. والطريقة الثّانية: هي طريقة الخلف أن تُحمل الفوقية على معاني تليق به ﷻ، وهي الاستيلاء بالقهر والغلبة⁽⁴⁾.

ثانيًا: السند الفقهي للأسرة الخطّابية: جاء في كتاب: (الفوائد الجمة في إسناد علوم الأئمة) ذكّر الإمام الخطّاب الصّغير للسند الفقهي الذي أخذه عن والده، فيقول: "أخذت الفقه عن جماعة، منهم سيدي والدي: محمد بن عبد الرحمن الخطّاب رحمه الله، وهو أخذ الفقه عن جماعة، منهم الشيخ العلامة العارف بالله: أبو زكريا يحيى بن أحمد بن عبد السلام المعروف بالعلمي، والعلامة قاضي القضاة بالمدينة: محمد بن أحمد بن موسى السّخاوي، وهما أخذًا الفقه عن جماعة، منهم العلامة المحقق قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان البساطي شارح (المختصر)، وأخذ الثّاني أيضًا عن أبي القاسم محمد بن محمد بن علي النّويري، وحضر الوالد بعض دروس الشيخ الإمام العلامة شيخ المالكية في زمنه: نور الدّين أبي الحسن علي بن عبد الله بن علي السّنهوري، وهو أخذ الفقه عن الإمام العلامة: زين الدين طاهر بن محمد بن علي النّويري، وأخذ البساطي الفقه عن العلامة قاضي القضاة

1. الخطّاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 65).

2. سورة طه، الآية: (5).

3. ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله (1387هـ): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لاط، تح: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب: (151/7).

4. انظر: الخطّاب: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 26).

أبي البقاء بهرام الشّارح، والعلامة المؤرخ قاضي القضاة: أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

وأخذ الشيخ بهرام الفقه عن الشيخ العلامة ولي الله تعالى: خليل بن إسحاق صاحب (المختصر)، وهو أخذ عن الشيخ العالم العامل: أبي محمد عبد الله بن سليمان المنوفي، وهو أخذ الفقه عن جماعة منهم شيخ المالكية زين الدين: محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشّهير بالقويح، وهو أخذ الفقه عن جماعة منهم: يحيى بن الفرّج بن زيتون ومحمد بن عبد الرحمن قاضي تونس أخذ عن ابن حبيش وابن الدّارس.

وأخذ القاضي عبد الرحمن بن خلدون عن جماعة منهم، قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السّلام الهواري، وأخذ أبو القاسم النّويري والد الشّيخ طاهر النّويري عن جماعة منهم البدر حسين بن علي البوصيري، عن جماعة منهم الشّيخ خليل بن إسحاق والشّيخ أحمد بن عمر بن هلال الربيعي، وأخذ الشّيخ أحمد بن عمر ابن هلال عن قاضي القضاة نحر الدين المخلطة، وتفقه نحر الدين عن جماعة، منهم: أبو حفص عمر بن فراخ الإسكندراني، وتفقه ابن فراخ على جماعة، منهم: أبو محمد أحمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، وتفقه ابن عطاء الله على جماعة منهم أبو بكر الطرطوشي، وتفقه الطرطوشي على جماعة منهم أبو اليد الباجي.

(ح) وأخذ السّيد الوالد أيضاً عن الشيخ ابن المعطي بن الخطيب التّونسي، وهو أخذ عن قاضي الجماعة بتونس أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله القلشاني، عن الشّيخ: أحمد عن الشّيخ زروق، وهو أخذ عن الشّيخ أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، وعن الشّيخ أحمد حلولو.

والأول منهما أخذ عن الآبي عن ابن عرفة، وهو أخذ عن ابن عبد السّلام، وأخذ ابن عبد السّلام عن جماعة، منهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون، وأخذ ابن هارون عن أبي القاسم أحمد بن يزيد ابن بقي، وأخذ ابن بقي عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق، وأخذ محمد بن عبد الرحمن عن أبي عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطّلاع، وأخذ أبو عبد الله مولى ابن الطّلاع والقاضي أبو الوليد الباجي عن أبي محمد مكّي بن أبي طالب محمد بن مختار القيسي، وتفقه مكّي عن جماعة منهم الشّيخ الإمام القدوة الورع الزّاهد حافظ مذهب مالك وشارح أقواله: محمد بن أبي عبد الله بن زيد القيرواني، وهو تفقه بجماعة منهم الإمام

الزاهد: أبو بكر محمد ابن اللباد، وهو تفقه على جماعة، منهم الإمام القدوة الزاهد مجاب الدعوة: أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف البلوي الإفريقي صاحب كتاب: (خلاف ابن القاسم وأشهب).

وهو تفقه بجماعة منهم الإمام الحجّة الزاهد: أبو سعيد عبد السلام المدعو سخنون، والعلامة القدوة: أبو مروان عبد الملك بن حبيب، وهما تفقها بجماعة منهم الإمامان الفقيه القدوة: أبو عبد الله عبد الرحمن ابن القاسم بن خالد العتقي، والعلامة الزاهد: أبو عمر أشهب بن عبد العزيز، واسمه مسكين، وهما تفقها بالإمام المجتهد إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر ابن الحارث المدني، وهو تفقه بجماعة من علماء التابعين، منهم ربيعة بن عبد الرحمن ونافع، وتفقه ربيعة عن أنس، وتفقه نافع عن ابن عمر، وكلاهما ممن أخذ سيّد المرسلين وإمام المتقين أبي القاسم مولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر الأنبياء" (1).

ثالثاً: أبرز مؤلفات الأسرة الخطابية:

أولاً: الخطّاب الكبير: لم يكن الإمام محمد بن عبد الرحمن، المعروف بالخطّاب الكبير من المكثرين في التأليف، فلم تصل إلينا تأليفه، ما عدا شرحاً واحداً على مختصر خليل، حيث كان عادة الفقهاء في ذلك الزمان شرح خليل، فقلما تجد فقيهاً بعد خليل لم يتم بشرح مختصره، وقد ذكر شرح الخطّاب الكبير مختصر خليل صاحب الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأئمة (2).

ثانياً: الخطّاب الصّغير: يعد الخطّاب الصّغير من المكثرين في التأليف، وقد وصلت إلينا الكثير من مؤلفاته منها:

1. شرح على مختصر خليل.
2. شرح قرّة العين في الأصول لإمام الحرمين.
3. تحرير الكلام في مسائل الالتزام.

1. التمارني: (2007م)، مصدر سابق: (ص: 254-260).

2. التمارني (2007م) مصدر سابق (ص 136)

4. هداية السالك المحتاج لبيان فعل المعتمر والحاج.
 5. تحرير المقالة.
 6. تفرّج القلوب بانخصال المكفرة لما تقدم وتأخر من الذنوب.
 7. البشارة الهنيئة بأنّ الطّاعون لا يدخل مكّة والمدينة.
 8. القول المتين بأنّ الطّاعون لا يدخل البلد الأمين.
 9. عمدة الراوين في أحكام الطّواعين.
 10. مقدمة بسط فيها مسائل الآجرومية.
 11. ثلاث رسائل في استخراج أقوات الصّلاة بالأعمال الفلكية من غير آلة من الآلات.
 12. تفضيل النبي الأمين على الملائكة والأنبياء والمرسلين.
 13. مؤلف في استقبال عين الكعبة وجهتها والفرق بين العين والجهة.
 14. مختصر إعراب الألفية لخالد الأزهري.
- وله عدّة تآليف لم تكتمل منها:
1. تفسير القرآن وصل فيه لسورة الأعراب.
 2. حاشية على البيضاوي.
 3. شرح قواعد عياض.
 4. تعليق على ابن الحاجب يتضمن ما أطلقه من الخلاف والتنبيه على ما خالف فيه المشهور والمذهب.
 5. تعليق على ما في كلام بهرام في شروحه الثلاثة مما فيه الإشكال ومخالفة المنقول.
 6. تعليق على الجواهر وصل فيه إلى شروط الصّلاة.
 7. تعليق على ابن عرفة.
 8. حاشية على توضيح النحو.
 9. شرح على مختصر الحوفي.

10. تعليق على جميع المواضع التي غلط فيها صاحب القاموس صاحب الصحاح.
11. حاشية على الشامل وصل فيها إلى شروط الصلاة.
12. حاشية على الإرشاد.
13. تأليف في القراءات.
14. حاشية على قطر الندى⁽¹⁾.

ثالثاً: بركات الخطّاب: ذكر صاحب نيل الابتهاج مؤلفاً وحيداً لبركات، مع أنّه كان من المعمرين، فلم يذكر إلاّ شرحاً واحداً مختصر خليل سماه: "المنهج الجليل في شرح مختصر خليل"⁽²⁾، وذلك جرياً على عادة الفقهاء في شرح مختصر خليل.

رابعاً: يحيى الخطّاب: للإمام يحيى الخطّاب فضل جليل على الأمة الإسلامية، فهو الذي أظهر شرح والده الخطّاب الصغير لمختصر خليل، حيث تركه والده مسوّدَةً بيضها ولده يحيى الخطّاب في أربعة أسفارٍ كبار، وفيه دليلٌ على جودة تصرفاته، وكثرة اطلاعه وحسن فهمه⁽³⁾. ومن مؤلفات يحيى الخطّاب:

1. إرشاد السالك المحتاج لبيان أفعال المعتمر والحاج.
2. أجوبة في الوقف، بخط مغربي في المكتبة الوطنية بتونس⁽⁴⁾.

الخاتمة:

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وقائدنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

أمّا بعد: فهذا البحث جهد المقل، فما كان فيه من صواب وسداد فن الله، وما كان فيها من خطأ فمن أنفسنا، وقد حاولنا في هذه الورقة الإمام بالأسرة الخطّابية: جهودها وأصولها وأعلامها، وبيان مذهبهم وسندهم الفقهي، مع ذكر رحلاتهم ومشايخهم وتلامذتهم، وقد ابتعدنا فيها عن الترجمة لأي علم من الأعلام ممن ورد ذكر اسمه في متن

1. التنبكي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 592-594)، القرافي: (2004م)، مصدر سابق: (ص: 218).
2. التنبكي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 150).
3. انظر: التنبكي: (2000م)، مصدر سابق: (ص: 592)، القرافي: (2004م)، مصدر سابق: (ص: 218).
4. الشّريف: (1999م)، مصدر سابق: (ص: 174).

البحث؛ وذلك لكثرة من وردت أسماؤهم في بحثنا، نخشينا أن نزهق البحث هوامش وترجمةً، فنبتعد بذلك عن أصل عنواننا.

ولعل من أهم النتائج التي توصلنا إليها ما يأتي:

- يظهر أن لليبيين إسهامات كبيرة في الحفاظ على الهوية المالكية بالقطر الليبي، الذي كان له فضل كبير على المغرب الإسلامي في إدخال موطأ الإمام مالك للمغرب الإسلامي وتفسيره لهم، على يد أبي الحسن علي بن زياد الأطرابلسي: (ت: 183هـ)، وتلامذته من بعده كسحنون وأسد ابن الفرات.

- كان للأسرة الحطّابية الليبية دور كبير في الفقه المالكي، حيث انتهت إليها رياسة المذهب المالكي بالحجاز، وكان من أبرز أفرادها الإمام الحطّاب الصّغير شارح المختصر.

- تردد بعض البُحاث في نسبة أصول الأسرة الحطّابية إلى الأندلس أو المغرب، إلا أن هناك احتمالاً آخر يتبناه هذا البحث، كونهم من برقة مولداً ونشأة، وترجع أصولهم إلى الأندلس، وقد رحلوا واستقروا في طرابلس؛ لسبيين:

الأول: الازدهار العلمي والاستقرار السياسي قبل القرن العاشر الذي كانت تتمتع به طرابلس وقربها من القيروان.

الثاني: أنّ برقة كانت تعيش حالة من عدم الاستقرار السياسي، وانتشار لقطاع الطرق، الأمر الذي دفع علماءها للهجرة إلى القيروان وطرابلس ومصر.

- من أبرز علماء الأسرة الحطّابية: محمد الحطّاب (الكبير)، أبو عبد الله الطّرابلسي: (ت: 945هـ)، ومحمد بن محمد الحطّاب (الصّغير): (ت: 954هـ)، صاحب المواهب، وابنه أبو زكريا يحيى بن محمد الحطّاب: (ت: 996هـ).

- سجّلت كتب الطبقات والتراجم والرحلات اتصال العلماء الليبيين بالأندلس والقيروان وفاس، ومصر والمدينة المنورة ومكة والشّام.

- كانت طرابلس -قبل القرن العاشر ترواح تحت الاحتلال الإسباني-، وكانت معبراً مهماً بين الشرق والغرب، وسبيلاً ميسراً للمشاركة الذين يريدون التوجه إلى المغرب أو الأندلس، كما كانت بطبيعة الحال معبراً وسبيلاً للمغاربة والأندلسيين، الذين يريدون التوجه

إلى المشرق، فكانت مدينةً عامرةً بالعلم وأهل الصّلاح وأصحاب الأحوال الروحانية من أهل التّصوف.

- بالرغم من الاحتلال الهمجي لطرابلس، والتنكيل بأهلها، فإن علماءها كوّنوا مدرسة علمية بتاجوراء أنجبت علماء كبار كالحطّاب الصّغير ابن الحطّاب الكبير، الذي توفي بتاجوراء مدة احتلال الجنويين لطرابلس.

- انقطاع الرّحالة المغربيين والقيروانيين، إلّا ما ندر تقريباً عن تاجوراء، الأمر الذي دفع كثيراً من علماء طرابلس للرحلة إلى مصر والحجاز.

- يرحّج كثيرٌ من البُحاث أن يكون المذهب السائد في ليبيا قبل المذهب المالكي هو المذهب الكوفي، كما ذهب إلى ذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك.

- إنّ التأسيس الإسلامي لبرقة جعلها حاضرة عليمّة رفيعة، اتّصلت بمعظم أقطار المشرق الإسلامي ومغربيه، واستمرت برقة بعد ذلك عامرة بالبنيان الكثير، أهلةً بالمسلمين وأهل الكتاب جميعاً.

- شكّلت برقة من بعد الفتح الإسلامي حتى هجرة الهلاليين إليها مدرسة علمية، يوجد بها عديد العلماء، وعلى رأسهم الإمام سخون، الذي سمع منه أهل برقة مدونته بعد رجوعه من الحجاز.

- من أبرز علماء الأسرة الحطّابية: أبو عبد الله الرّعيني، أخو الحطّاب الكبير، وأبو عبد الله الحطّاب الكبير، وأبو عبد الله الحطّاب الصّغير، وبركات بن محمد الحطّاب، ويحيى بن محمد الحطّاب.

- من أشهر علماء برقة: عبد الرحمن بن عمرو البرقي، أبو الفياض: (ت: 245هـ)، ومحمد بن عبد الله بن عبد الرّحيم بن سعيد بن أبي زرعة البرقي، (ت: 249هـ)، وأحمد بن عبد الله بن عبد الرّحيم بن أبي زرعة البرقي: (ت: 270هـ)، الحافظ المتقن المحدث، وعبد الرّحيم بن عبد الله بن عبد الرّحيم البرقي: (ت: 286هـ)، الرّواية الثّقة، وأبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرّحيم البرقي: (ت: 29هـ)، يروي عن أبيه، وله كتاب مختصر على مذهب مالك، ومحمد بن إسحاق الجبلي قاضي برقة: (ت: 341هـ)، وأبو العبّاس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي: (ت: 384هـ)، من الفقهاء المشهورين، من أصحاب أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن الفاسي، كان واسع الرّواية، وإبراهيم بن محمد بن جعفر بن

هارون بن محمد الأزدي الأذربلي البرقي، والإمام محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني الأندلسي: (ت: 460هـ)، الإمام الفقيه المتفنن في العلوم، الأديب الكاتب البليغ، الحامل لواء المنثور والمنظوم.

- بعد غيابٍ شبه تامٍ في كتب الطبقات لعلماء برقة عقب المئة السادسة أو السابعة عادت برقة بقوة، ساحةً علمية مؤثرة في مستويين: محليّ وقاريّ، وكان ذلك في القرن الثالث عشر للهجرة، وهو زمن الطريقة السنوسية في برقة، التي أسسها الإمام المجدد: محمد بن علي السنوسي: (ت: 1276هـ)، الذي يعد أتباعه بعشرات الملايين، منتشرون بين اليمن والحجاز والشام والسودان ومصر وصحراء إفريقيا والجهات الغربية.

- تركت الأسرة الخطابية ثروة رصينة من كتب التراث الإسلامي، وكان لها سندها الفقهي الذي ينتهي إلى كبار الفقهاء من الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء الأمة الإسلامية.

هذا وقد تخضت عن هذه النتائج عديد التوصيات نوردتها في الآتي:

1. الدعوة إلى إقامة مؤتمرات أو ندوات علمية، تهدف لتقنين الفقه المالكي؛ للاستفادة من هذا التراث الزاخر في حياتنا المدنية والعملية.
 2. حث الطلاب والباحثين على التأليف في المدرسة المالكية الليبية، والعمل على نشر مصنفاتها، وتحقيق ما تركته لنا من موروث فقهي رصين.
 3. العودة للعمل بالمذهب المالكي، والابتداء من حيث انتهى الآباء والأجداد في إحياء هذا المذهب والاعتزاز به وغرسه في قلوب ونفوس أبنائنا؛ لعصمتهم من التشتت، وتقليد المذاهب الأخرى، والانزلاق إلى ميادين التطرف والغلو والتشدد.
- المصادر والمراجع، مرتبة حسب ألقاب المؤلفين:

1. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك بن مسعود: (2008م): كتاب الصلاة، ط/1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، تح: شريف أبي العلا العدوي.
2. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: (1387هـ): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. لاط، ت: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب.

3. ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن علي بن جعفر: الإكمال في رفع الارياب عن المؤلف

- والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، د ط، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.
4. أبو فارس، حمزة: (2001م): أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات: ELGA مالطا.
5. أبو فارس، حمزة: (2013م): دور ليبيا في نشر المذهب المالكي حتى القرن الخامس الهجري، الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك، الجامعة الأسمرية الإسلامية.
6. الأنصاري، أحمد بك التائب: (1899م)، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د ط، مكتبة الفرجاني، طرابلس - ليبيا.
7. التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: (1981م) رحلة التجاني، د ط، الدار العربية للكتب - تونس، قدم له: حسن حسني عبد الوهاب.
8. التمارتي، أبو زيد عبد الرحمن: (2007م): الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة. ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، تح: اليزيد الراضي.
9. التنبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد: (2000م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط/2، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، اعتنى به: عبد الحميد عبد الله الهرامة.
10. التنبكتي، أحمد بابا: (2000م): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. د ط، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، تحقيق: محمد مطيع.
11. جبران، محمد مسعود: (2010م): علي بن زياد الطرابلسي، ودوره في نشر المذهب المالكي، ط/1، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية.
12. الخطّاب، أبو عبد الله محمد بن محمد: (1984م): تحرير الكلام في مسائل الالتزام، ط/1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، تحقيق: عبد السلام محمد الشريف.
13. الخطّاب، محمد بن محمد بن عبد الرحمن: (2007م): تحرير المقالة شرح نظم نظائر الرسالة، ط/1، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، اعتنى به: أبو الفضل الدميّاطي أحمد بن علي.
14. الدمشقي، ناصر الدين محمد بن أبي بكر: (2006م): إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك، ط/1، المكتبة الإسلامية، القاهرة - مصر، تحقيق: نشأت بن كمال

المصري.

15. الزاوي، الطاهر أحمد: (2004م): أعلام ليبيا، ط/3، دار المدار الإسلامي. 16.
- السّخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، د ط، دار الجيل بيروت-لبنان.
16. السّلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد: (1993م): معجم السّفَر. د ط، دار الفكر، بيروت -لبنان، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
17. الشريف، ناصر الدين محمد: (1999م): الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ط/1، دار البيارق، عمان - الأردن.
18. العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد: (2006م): الرّحلة العياشية. ط/1، دار السّويدي، أبو ظبي - الإمارات، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي.
19. عياض، القاضي عياض بن موسى السبتي: (1983م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط/2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
20. غلبون، أبو عبد الله محمد بن خليل الطرابلسي: (1349هـ): التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، د ط، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، اعنتى به: الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي.
21. القرافي، بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر: (2004م): توشيح الدّيباج وحلية الابتهاج. ط/1، مكتبة الثقافة الدّينية، القاهرة - مصر، تح: علي عمر.
22. المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: (1994م): رياض النفوس في طبقات علماء قيروان وإفريقية وزهادهم ونسآكهم وسير أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ط/3، تن: بشير البكوش، ومحمد العروسي.
23. مخلوف، محمد بن محمد بن عمر: (2003م): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
24. المصراتي، علي مصطفى: (1986م): أعلام من طرابلس، ط/4، الدار الجماهيرية، مصراتة -ليبيا.

الشيخ زروق ودوره في التقعيد لعلم السلوك

"كتاب قواعد التصوف أنموذجا"

أ. عبد الله مصطفى حديد/الجامعة الأسمرية/كلية الدعوة وأصول الدين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،، فإنه لا بد لأي علم من أصول يستند عليها وقواعد تحصر تطبيقاته العملية، والمتبع لتاريخ العلوم الشرعية يجد أنها مرت في تطورها بالعديد من المراحل حتى تبلورت وتميزت عن غيرها من العلوم، وكان من هذه المراحل مرحلة التقعيد. وهذا أمر ينطبق على علم السلوك الذي يستمد أصوله من (الإحسان) الذي هو أمر من أمور الدين الوارد ذكره في حديث جبريل عليه السلام، والتقعيد في علم السلوك إذا ذكر يذكر معه الشيخ أحمد زروق الذي أفرد له كتابا بعنوان: (قواعد التصوف)، وبذلك يستبين دور الشيخ زروق في التقعيد لعلم السلوك، ومن خلال هذا الدور يستبين دور المدرسة المالكية في تطوير هذا العلم، لذلك كان عنوان هذه الورقة: الشيخ زروق ودوره في التقعيد لعلم السلوك (كتاب قواعد التصوف أنموذجا)

حيث تهدف هذه الورقة إلى إبراز دور المدرسة المالكية في علم التربية والسلوك وهو هدف من أهداف هذا المؤتمر، وسينتج الباحث في هذه الورقة المنهج الوصفي، واقتضت طبيعة الموضوع ان يقسمه الباحث على النحو الآتي:

المطلب الأول التعريف بالشيخ زروق.

المطلب الثاني: دور الشيخ زروق في التقعيد لعلم السلوك (نماذج وتطبيقات من كتاب قواعد التصوف)

المطلب الأول: التعريف بالشيخ زروق

إن المتبع لأي شخصية من الشخصيات التي كان له دور فعال في المجتمع لا يمكن الإحاطة بسيرته الذاتية في مثل هذا البحث، لكن عادة ما تكون السيرة الذاتية هي المفتاح

لفهم الشخصية، إذ تساعد دراستها وتساعد على فهم مجالات حياته، وبذلك سنتناول شيئاً من سيرة المؤلف الشيخ: أحمد زروق في الآتي:

اسمه، ونسبه، ومولده

أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق: فقيه محدث صوفي. والبرانس التي ينتمي إليها قبيلة بربرية تعيش في المنطقة بين فاس وتازو. يقول الشيخ زروق في كاشه: "أن والده سماه محمدا فلما توفي الوالد نقلته جدته إلى اسم أبيه احمد فجمع الله لي بين الاسمين الشريفين واخترت اسم احمد لثلاثة أوجه: لألفي به وجريانه علي عند جدتي التي كنت أسكن إليها، قويت ذلك لأنه لم يتغير في السنة العامة، هو الاسم الذي بشر به عيسى عليه السلام"⁽¹⁾، ولد الشيخ زروق في يوم الخميس 22/محرم/846هـ، توفيت أمه يوم ثالث ولادته، وتوفي أبوه يوم الخامس⁽²⁾.

وأصل الشيخ من "أهل فاس (بالمغرب) تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، وتوفي في تكرين (من قرى مسراتة، من أعمال طرابلس الغرب) له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف"⁽³⁾

حياته العلمية:

كانت بداية حياته العلمية من داخل بيته وهو ابن خمس سنين مع جدته المعلمة والكافلة، فكانت تعلمه التوحيد والتوكل والإيمان والديانة بطريقة عجيبة، وكانت تردد على مسامعه كل يوم هذه العبارة (لا بد من تعلم القراءة للدين والصناعة للمعاش)⁽⁴⁾ ولما بلغ السادسة عشر من عمره وملك زمام أمره قرر أن يغير مجرى حياته شرع في طلب العلم فانتظم في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية معا، فتتلمذ على أشهر علماء وفقهاء فاس وما حولها من البلاد، فدرس مختلف العلوم، وكان زروق نفورا بهؤلاء الأساتذة فسجلهم في (كاشه) وكان اتجاهه للفقهاء والحديث هو الأغلب، في تلك المرحلة في تلك

1 - الكاش ص 12، احمد زروق والزروقية، ص 23.

2 - الكاش ص 11.

3 - الإعلام، (1/ 91)

4 - الكاش ص 13.

المرحلة، وقد أخذ العلم عن أئمة من أهل المشرق والمغرب منهم حلولو، والرصاع، والسنوسي، والشيخ الجزولي، والثعالبي، والخروبي، والشيخ نور الدين السنهوري، وشمس الدين الجوجري⁽¹⁾.

وقد تلمذ على يديه كثيرون، منهم: الخطاب الكبير، والخروبي الصغير، وشمس الدين اللقاني، والزين طاهر القسنطيني، وأبو الحسن البكري، وغيرهم⁽²⁾.

وفي كفاشه سرد الشيخ زروق أشهر الكتب التي قرأها في مصر، وأهمها: الأحكام الصغرى، لابن عبد الحق، والرسالة القشيرية، للقشيري، وكتب ابن عطاء الله السكندري، وصحيح البخاري، للبخاري، وكتب ابن أبي جمرة، وكتب السهروردي، وكتب المحاسبي، وقوت القلوب، لأبي طالب المكي، وإحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي⁽³⁾. وكانت علاقة زروق بأساتذته علاقة قريبة حتى أنه كان يزورهم في البيت بين الحين والآخر ويتناقش معهم في أمور الدين⁽⁴⁾ وفاته ومدفنه:

لقد ربح الشيخ أحمد زروق حياته في طلب العلم ' وتأليف الكتب حتى وفاه الأجل المحتوم عن عمر ناهز أربع وخمسون عاما وذلك في صفر، سنة: تسع وتسعين وثمانمائة للهجرة، بمدينة مصراتة التي كانت آنذاك من عمل طرابلس الغرب⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: دوره في التقعيد لعلم السلوك (نماذج من كتاب قواعد التصوف)

لتقعيد العلم أهمية كبيرة وهذا ما بينه الشيخ زروق بقوله: "ضبط العلم بقواعده مهم، لأنها تضبط مسائله، وتفهم معانيه، وتدرك مبانيه، وينتفي الغلط من دعواه، وتهدى المتبصر فيه، وتعين المتذكر عليه، وتقيم حجة المناظر، وتوضح المحجة للناظر، وتبين الحق لأهله، والباطل في محله. واستخراجها من فروعها عند تحققها، أمكن لمريدها لكن بعد الأفهام

1- ينظر: الكاش، لأحمد زروق: 38، وشجرة النور الزكية، لمخلوف: 267، والأعلام، للزركلي: 91/1، ومقدمة: "عدة المرید"، للغرياني: 11، 12.

2- ينظر: نيل الابتهاج، للتبكي: 277/2، وشجرة النور الزكية، لمخلوف: 126، 130، 267، ومقدمة: "عدة المرید"، للغرياني: 12.

3- ينظر: الكاش، لأحمد زروق: 38، 39.

4 - ينظر: أحمد زروق والزروقية، ص 23.

5- ينظر: شجرة النور الزكية، لمخلوف: 268.

مانع من ذلك، فلذلك اهتم بها المتأخر والمتقدم. والله سبحانه أعلم⁽¹⁾، وهذه الأهمية نجد آثارها في تطبيقات هذا العلم وهذا ما بينه الشيخ زروق في قوله: "يعتبر الفرع بأصله وقاعدته، فإن وافق قبل، وإلا رد على مدعيه إن تأهل، أو تأول عليه إن قبل، أو سلم له إن كملت مرتبته علماً وديانةً، ثم هو غير قادح في الأصل، لأن فساد الفاسد إليه يعود، ولا يقدر في صالح الصالح شيئاً، فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين، وكالمطعون عليهم من المتفقهين، يرد قولهم، ويتجنب فعلهم، ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له وظهورهم فيه والله أعلم"⁽²⁾، ومن هنا ندرك أهمية ما قدمه الشيخ زروق لعلم السلوك، وبيان هذا الدور سيقوم الباحث بعرضه من خلال ما قام به الشيخ من تحديد المبادئ العشرة لعلم السلوك، وهذا ما يظهر من خلال تتبع كتاب قواعد التصوف، والباحث في ذلك لما يقم بتحليل النصوص وإنما عنون لها وبين دور الشيخ في التععيد من خلال عرضها.

تحديد المبادئ العشرة لعلم السلوك

من أهم الأمور التي ينبغي أن يتأسس عليها التأصيل لأي علم تحديد المبادئ العشرة لهذا العلم، وهذا ما أشار إليه الشيخ زروق في أول قاعدة حيث قال: "الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته وفائدته بشعور ذهني مكتسب أو بديهي، ليرجع إليه في أفراد ما وقع عليه ردًا وقبولًا وتأصيلًا وتفصيلًا، فلزم تقديم ذلك على الخوض فيه إعلامًا به وتحضيضًا عليه، وإيماءً لمادته فافهم"⁽³⁾، فتصور الماهية دلالة على التعريف وما يتبعه من موضوع العلم ونسبته وفضله وما إلى غير ذلك من المبادئ

أولاً: حده (تعريفه)

عرف الشيخ زروق التصوف بأنه " صدق التوجه إلى الله تعالى"⁽⁴⁾، وميزة هذا التعريف أنه جامع لمعاني التصوف فقد بين رحمه الله أن تعريفات التصوف بلغت ألفي تعريف، ألا أن مرجعها كلها إلى هذا التعريف، وهي كلها وجوه فيه، وهذا التحديد لمفهوم التصوف يعد أساساً للتععيد لعلم السلوك تجمع وتشمل كلياته وجزئياته، ويحكم إليه

1 - قواعد التصوف ص 37.

2 - قواعد التصوف ص 37.

3 - قواعد التصوف ص 21.

4 - قواعد التصوف ص 21.

عند الاختلاف، كما مر آنفاً في بيان أهمية معرفة ماهية الشيء وفائدته.

وهذا مفيد أيضاً في إدراك حقيقة التصوف والتأصيل له كعلم وهذا ما أشار إليه الشيخ عندما علل وجود الاختلاف في تحديد حقيقة التصوف وكثرة تعريفاته ببعده إدراك جملة حقيقته حيث تناول كل واحد من أصحاب هذه التعريفات التصوف من جهة معينة، لذلك انتج الشيخ في تعريف التصوف إلى أن يرجعه إلى أصل واحد بعد النظر في كل تعريفاته، وقد استفاد ذلك من خلال تتبعه لهذه التعريفات في كتاب الحلية لأبي نعيم، قال -رحمه الله- "الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثرت دلّ على بعد إدراك جملتها، ثمّ هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله واعتبار كلّ واحد على حسب مناله منه، علماً أو عملاً أو حالاً أو ذوقاً أو غير ذلك، والاختلاف في التصوف من ذلك، فمن ثمّ ألحق الحافظ أبو نعيم -رحمه الله- بغالب أهل حلّيته عند تحليته كلّ شخص قولاً من أقواله يناسب حاله قائلاً وقيل إنّ التصوف كذا، فأشعر أن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كلّ أحد صدق توجهه"⁽¹⁾.

هذا ولم يكتف الشيخ زروق بتعريف التصوف بل بين ضوابطه في القاعدة الرابعة حيث بين مفهوم المعنى الذي تأسس عليه هذا التعريف فقال: "صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى، وبما يرضاه ولا يصح، مشروط بدون شرطه"⁽²⁾.

التأصيل لحقيقة التصوف وبيان مشروعيته

من الأمور التي أصل لها الشيخ وقعد في إطار التعريف بحقيقة التصوف بيان أصل هذه الحقيقة والاستدلال على مشروعيتها من السنة النبوية حتى يدفع أية معارضة وهذا الأمر جاء في القاعدة الخامسة حيث قال: "إسناد الشيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يدفع قول المنكر لحقيقته، لأن ظهور الحق في الحقيقة يمنع من ثبوت معارضتها، فأصل التصوف مقام الإحسان، الذي فسره رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (بأن تعبد الله

1 - قواعد التصوف ص 21، 22.

2 - قواعد التصوف ص 22.

كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك⁽¹⁾. لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة وعليه دائرة، إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة به فكان الحض عليها حضاً على عينه، كما دار الفقه على مقام الإسلام والأصول على مقام الإيمان. فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه عليه السلام جبريل ليتعلمه الصحابة -رضي الله عنهم-⁽²⁾.

تصحيح مفهوم التصوف:

من القواعد التي وضعها الشيخ -رحمه الله- في بيان لحقيقة التصوف تلك القاعدة التي بين فيها شمولية مفهوم التصوف وعدم حصره في الفقر وغيره من أمور الفقدان حيث بين أن المحورية في حقيقته هو صدق التوجه وهذا ما جاء في القاعدة الثامنة حيث قال: "حكم التابع حكم المتبوع فيما تبعه فيه وإن كان المتبوع أفضل، وقد كان أهل الصفة فقراء في أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله. ثم كان منهم الغني والأمير والمتسبب والفقير لكنهم شكروا عليها حين وجدت، كما صبروا عليها حين فقدت، فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به من أنهم يدعونهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان، بل بإرادة وجه الملك الديان وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى وبحسبه فلا يختص التصوف بفقر ولا غنى إذا كان صاحبه يريد وجه الله"⁽³⁾.

ثانياً: موضوعه:

حدد الشيخ -رحمه الله- موضوع التصوف في الإحسان الوارد ذكره في حديث جبريل عليه السلام وقد اعتمد في ذلك على ربط صدق التوجه بالإحسان في القاعدة الخامسة، ومع أنه لم يصرح بالموضوع إلا أن كون الإحسان موضوعاً للتصوف يفهم من القاعدة السادسة آنفة الذكر التي ذكر فيها لفظ الموضوع في موضعين رابطاً الموضوع بالحقيقة التي هي صدق التوجه، يفهم من كلامه أن موضوع علم السلوك هو الإحسان. وفي إطار هذا الموضوع بين أن التصوف نوعان فقال: "تنوع الفرع بتنوع أصله، وقد تقدم أن أصل التصوف في مقام الإحسان، وهو متنوع إلى نوعين: أحدهما: بدل من الآخر، هما أن تعبد الله كأنك تراه، وإلا فإنه يراك. فالأول رتبة العارف، والثاني: رتبة

1 - صحيح مسلم، كتاب: الأيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم: 8 ، (36/1)

2 - قواعد التصوف ص 23.

3 - قواعد التصوف ص 24، 25.

من دونه. وعلى الأول يحوم الشاذلية ومن نحا نحوهم، وعن الثاني يحوم الغزالي ومن نحا نحوه، والأول أقرب، لأن غرس شجرتها مشير لقصد ثمرتها ومبناها على الأصول التي قد تحصل لكل مؤمن وجودها. فالطباع مساعدة عليها، والشريعة قائمة فيها، إذ مطلوبها تقوية اليقين وتحقيقه بأعمال المتقين" (1)

ثالثاً: ثمرته، فائدته (مقاصده):

من المبادئ العشرة لأي علم بيان فائدته وإيضاح مقاصده حتى يتسنى لمن يريد الخوض فيه معرفة أهميته فيكون ذلك حافزاً له، ومعيناً على انتظام جزئيات العلم في سلك واحد، قال الشيخ: "العلم بفائدة الشيء ونتيجته باعث على التهمم به، والأخذ في طلبه لتعلق النفس بما يفيدها إن وافقها، وإلا فعلى العكس" (2)، وهذا وقد بين الشيخ فائدة علم السلوك عندما قال: "فائدة الشيء ما قصد له وجوده، وفائدته حقيقته في ابتدائه أو انتهائه أو فيهما، كالتصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله عما سواه" (3)، وقال في موضع آخر: "الفقه مقصود لإثبات الحكم في العموم، فداره على إثبات ما يسقط به الحرج، والتصوف مرصده طلب الكمال. ومرجه لتحقيق الأكل حكماً وحكمة والأصول شرط في النفي والإثبات فدارها على التحقيق. وقد علم كل أناس" (4)

رابعاً: نسبته إلى غيره من العلوم الشرعية:

نسبة التصوف إلى غيره من العلوم الشرعية تتأسس على نسبة علاقة هذه العلوم بعضها ببعض، ونجد أن الشيخ زروق يتكلم في قواعده عن ثلاثة علوم هي: علم الأصول ويقصد به علم العقائد، ومرجه إلى الإيمان المذكور في حديث جبريل، وعلم الفقه ومرجه إلى الإسلام، وعلم التصوف ومرجه إلى الإحسان، وبذلك بين الشيخ نسبة علم السلوك بغيره من العلوم، ثم فصل بعض العلاقات الأخرى بين علم السلوك وهذه العلوم، ومن ذلك بيان التلازم بين هذه العلوم في قوله: "فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا

1 - قواعد التصوف ص 49، 50.

2 - قواعد التصوف ص 26، 27.

3 - قواعد التصوف ص 26.

4 - قواعد التصوف ص 35.

بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، ولا وجود لها إلاّ فيها كما لا حياة لها إلاّ بها فافهم⁽¹⁾، وفي إطار هذه العلاقة بين في موضع آخر أهمية التصوف لعلم الفقه ومن يتصدر له فقال: "لما كان الفقه في علمه لا يصح التصوف بدونه، كان التزامه صدق القصد به، محصلا له. فمن ثم كان الفقيه الصوفي تام الحال، بخلاف الصوفي الذي لا فقه له، كفى الفقه عن التصوف، ولم يكف التصوف عنه".⁽²⁾

كما بين أن هذه العلاقة هي علاقة تكاملية أيضا، فقال: "الاشتراك في الأصل يقضي بالاشتراك في الحكم، والفقه والتصوف شقيقتان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله"⁽³⁾.

خامسا: فضله

بيان فضل العلم من المبادئ العشرة وقد بين الشيخ زروق هذا الفضل مؤكدا على أنه فضل ذاتي لا مكتسب لكون التصوف متفرعا عن الإحسان، كما بين وجوها أخرى لهذا الفضل فقال: "شرف الشيء إما أن يكون بذاته، فيتجرد طلبه لذاته، وإما أن يكون لمنفعته، فيطلب من حيث يتوصل منه إليها به، وإما أن يكون لمتعلقه فيكون الفائدة في الوصلة بمتعلقه، فمن ثم قيل «علم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعمل بلا علم جناية»، والعقل أفضل من علم به، والعلم به تعالى أفضل العلوم لأنه أجل العلوم. وعلم يراد لذاته أفضل لكون خاصيته في ذاته، كعلم الهيبة والأنس ونحو ذلك، فمن لم يظهر له نتيجة علمه في عمله فعلمه عليه لا له. وربما شهد بخروجه منه إن كان علمه مشروطا بعمله ولو في باب كماله، فافهم وتأمل ذلك.⁽⁴⁾ وقال في موضع آخر: "وقد صح أن شرف الشيء بشرف متعلقه، ولا أشرف من متعلق علم التصوف، لأن مبدأه خشية الله التي هي نتيجة معرفته ومقدمة إتباع أمره، وغايته أفراد القلب له تعالى، فلذلك قال الجنيد -رضي الله عنه-: «لو

1 - قواعد التصوف ص 22.

2 - قواعد التصوف ص 128.

3 - قواعد التصوف ص 29.

4 - قواعد التصوف ص 26.

علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه». انتهى، وهو واضح. (1)

سادسا: واضعه

لم بتكلم الشيخ زروق عن واضع علم التصوف وإنما تكلم عن قواعد علم السلوك التي يتأسس عليها، فأشار إلى أن كتابه هذا هو أول تصنيف يستقل بقواعد التصوف، مع الإشارة إلى أن هذه القواعد قد تناولها من قبله القشيري والسلمي إلا أنها جاءت في سياق كلام عام، ومن هنا يفهم أن أول من قنن لهذا العلم هو الشيخ زروق - رحمه الله - وله تعليل لعدم تقنين السابقين للتصوف في قواعد وأصول، وتعاملهم معه في إطار علم الفقه، حيث قال: "لما كانت دلالة التصوف بجملة على التوجه إلى الله من حيث يرضى، كفت أوائله مع التزام واتباع الفقه، فكان الاعتناء بعمله، أكثر من علمه، ومن ثم لم تدون قواعده، ولم تمهد أصوله، وإن أشار إليها أئمتنا كالسلمي في فصوله، والقشيري في رسالته" (2).

سابعا: اسمه.

تناول الشيخ زروق هذا المبدأ في أكثر من قاعدة فبين أصالة اسم التصوف لغة وشرعا، ومن هنا بين علمية مصطلح التصوف، فقد بين أن مصطلح التصوف مصطلح أصيل يعبر عن الحقيقة والموضوع ودلالته اللغوية سليمة، وفائدة هذا هو رد إي إنكار لهذا العلم أو الطعن في اصطلاحه، قال في القاعدة السادسة: "الاصطلاح للشيء مما يدل على معناه ويشعر بحقيقته ويناسب موضوعه ويعين مدلوله من غير لبس ولا إخلال بقاعدة شرعية ولا عرفية، ولا رفع موضوع أصلي ولا عرفي ولا معارضة فرع حكيم ولا مناقضة وجه حكيم مع إعراب لفظه وتحقيق ضبطه لا وجه لإنكاره، واسم التصوف من ذلك لأنه عربي مفهوم تام التركيب غير موهوم ولا ملتبس ولا مبهم، بل اشتقاقه مشعر بمعناه كالفقه لأحكام الإيمان وتحقيق المعنى، فاللازم فيها لازم فيه لاستوائهما في الأصل والنقل" (3).

ولبيان أصل اشتقاق لفظ التصوف اعتمد الشيخ زروق على الربط بين المشتق

1 - قواعد التصوف ص 26، 27.

2 - قواعد التصوف ص 38.

3 - قواعد التصوف ص 23.

والمشتق منه، فبعد أن عدد الأقوال الخمسة في ذلك رجع القول الخامس في كون أن التصوف منقول من الصفة، ولم يعتمد على لفظ الصفة بعينه وإنما اعتمد على صفات أهل الصفة التي تفيد صدق توجههم حيث قال: "الخامس: أنه منقول من الصفة لأنَّ صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾⁽¹⁾. وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كلُّ قول فيه"⁽²⁾، وبذلك ربط الشيخ زروق اللفظ بالمعنى وأعطى البعد الاصطلاحي له دون إهمال الاشتقاق اللغوي، فهو مشتق من لفظ الصفة وإنما الاشتقاق اعتمد أصلاً على السمة الأساسية لأهل الصفة وهي صدق التوجه التي تعني التصوف.

ثامناً: مادته (استمداده).

بين الشيخ مصادر التصوف وأنه يعتمد في مادته من الكتاب والسنة فقال: "مادة الشيء مستفادة من أصوله، ثم قد يشارك الغير في مادته، ويخالفه في وجه استمداده. كالفقه والتصوف والأصول، أصولها: الكتاب والسنة، وقضايا العقل المسلمة بالكتاب والسنة. لكن الفقيه ينظر من حيث ثبوت الحكم الظاهر، للعمل الظاهر، بقاعدته المقتضية له. والصوفي ينظر من حيث الحقيقة في عين التحقيق، ولا نظر فيه للفقيه حتى يصل ظاهره بباطنه. والأصولي يعتبر حكم النفي والإثبات من غير زائد"⁽³⁾، وفي كلامه ما يفيد أن الأصول لهذه العلوم واحدة إلا أن منهجية الاستمداد وطريقته تختلف من علم إلى علم، كما بين في قاعدة أخرى بشيء من التفصيل مصادر استمداد علم السلوك ومنهجية تحصيلها، في كونها وجدانية تعتمد في تحصيلها على العمل بالعلم، فقال: "طلب الشيء من وجهه وقصده من مظانه أقرب لتحصيله، وقد تبث أن دقائق علوم الصوفية مُنح إلهية، ومواهب اختصاصية، لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك وهو ثلاثة: أولها: العمل بما علم قدر الاستطاعة، الثاني: اللجأ إلى الله في الفتح على قدر المهمة، الثالث: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة ليجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح.

وقد أشار الجنيد -رحمه الله- لذلك بقوله: «ما أخذنا التصوف عن القليل والقال

1 - الكهف: 28.

2 - قواعد التصوف ص 24.

3 - قواعد التصوف ص 34، 35.

والمراء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال»، أو كما قال: وفي الخبر عنه عليه -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)، وقال أبو سليمان الداراني -رضي الله عنه-: (إذا اعتقدت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما) انتهى" (1).

تاسعا: حكمه.

بين الشيخ زروق حكم التصوف في كونه خاصا في الخصوص وعلل ذلك لأن موضوعه متعلق بعلاقة العبد بربه، مع التأكيد على ضرورة علاقة التلازم بين الفقه والتصوف، فقال: "حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين، ورفع مناره، وإظهار كلمته. وحكم التصوف خاص في الخصوص، لأنه معاملة بين العبد وربّه من غير زائد على ذلك. فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه، والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به إن كان أعلى منه مرتبة فهو أسلم وأعم منه مصلحة" (2)، وفي موضوع آخر بين حكم التصوف مشيرا إلى وجوب تعلم المرء علم حاله، فقال: "لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. قال الشافعي إجماعا لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (العلم إمام العمل، والعمل تابعه)، فلزم كل أحد تعلم علم حاله، حسب وسعه بوجه إجمالي يبرأه من الجهل بأصل حكمه إذ لا يلزمه تتبع مسأله، بل عند النازلة والحالة ما يتعلق بها. وما وراء ذلك من فروض الكفاية الذي يحمله من قام به، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجة فلا عذر في طلبه، فافهم" (3)، وفي هذا بيان للواجب العيني والواجب الكفائي في علم التصوف.

كما بين حكم تعليمه وبذله فقال: "أهلية الشيء تقضي بلزوم بذله لمن تأهل له، إذ يقدره حق قدره ويضعه في محله، ومن ليس بأهل فقد يضيعه، وهو الغالب أو يكون حاملا له على طلب نوعه، وهو النادر، فمن ثم اختلف الصوفية في بذل علمهم لغير أهله، فن قائل: لا يبذل إلا لأهله، وهو مذهب الثوري وغيره، ومن قائل يبذل لأهله وغير

1 - قواعد التصوف ص 30.

2 - قواعد التصوف ص 32.

3 - قواعد التصوف ص 62.

أهله، والعلم أحمى جانباً من أن يصل إلى غير أهله، وهو مذهب الجنيد - رحمه الله -⁽¹⁾، هذا وقد بين ضابط الأهلية والاستحقاق فقال: "وحدة الاستحقاق مستفادة من شاهد الحال، وقد يشتبه الأمر فيكون التمسك بالحدز أولى لعارض الحال، وقد يتجاذب الأمر من يستحقه ومن لا، فيكون المنع لأحد الطرفين دون الآخر"⁽²⁾، وبين في موضع آخر ضابطاً آخر وهو ما يعم ويخص فقال: "في كل علم ما يخص ويعم، فليس التصوف بأولى من غيره في عمومته وخصومه، بل يلزم بذل أحكام الله المتعلقة بالمعاملات من كل، عموماً وما وراء ذلك على حسب قابله لا على قدر قائله، لحديث (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)⁽³⁾، وقيل للجنيد رحمه الله يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا فقال: (الجواب على قدر السائل)"⁽⁴⁾

هذا ونجد مع بيان الحكم بيان البعد المقاصدي لحكم تعلم العلوم الشرعية وأثره في حكم تعلم علم السلوك، وكأن الشيخ يريد أن يربط بين تعلم التصوف وبين مقاصد الشريعة وفي كلامه بيان لمكانه هذا العلم فقال في القاعد: "الضروري: ما لا يؤمن الهلاك بفقده، والحاجي: ما أدى فقده لخلل غير مستهلك، والتكميلي: ما كان وجوده أولى من فقده، وذلك يجري في كل شيء يكتسب، فوجبت مراعاة المراتب بتقديم كل على بعده، فضروري العلم ما لا يؤمن الهلاك مع جهله، وهذا هو المتعين بالوجوب على صاحبه، وحاجيه ما كان فقد نقصاً لصاحبه وهو فرض الكفاية منه، وتكميليه ما كان وجوده زيادة في فضيلته كمنطق وفصاحة، وشعر ونحوها"⁽⁵⁾

شروط تعلم التصوف:

مع بيان حكم تعلم علم السلوك بين الشيخ زروق مجموعة من الشروط التي ينبغي مراعاتها في تحصيل هذا العلم وفي الخوض فيه ومن ذلك:

- إنما العلم بالتعلم: بين الشيخ زروق أن من علم التصوف ما تناوله الإشارة ولا

1 - قواعد التصوف ص 27.

2 - قواعد التصوف ص 27، 28

3 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم: 127 (37/1).

4 - قواعد التصوف ص 28

5 - قواعد التصوف ص 61، 62.

تحتمله العبارة، مؤكداً على ضرورة الأخذ بمبدأ أن العلم بالتعلم فقال: "لا علم إلا بتعلم عن الشارع، أو من ناب منابه فيما أتى به، إذ قال -عليه السلام-: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن طلب الخير يؤتته، ومن يتق الشر يوقه)⁽¹⁾. وما تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول، ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الأحكام، ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة، وإن كان مما تناوله الإشارة. ومنه ما لا تفهمه الضمائر، وإن أشارت إليه الحقائق، مع وضوحه عند مشاهدته وتحقيقه عند متلقيه، وقولنا فيه فهم تجوز ما لإثبات أصله لا غير. فاعرف ما أشرنا إليه، وبالله التوفيق.⁽²⁾

- التقيد بالمنهج العام لعلم التصوف: فصل الشيخ رحمه الله ضابط ومنهج هذا العلم وعالج إشكالية الظاهر والباطن وما ترتب عليها من مشكلات في التحصيل فقال: "أصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة، مأخوذ من الكتاب والسنة، مدحاً للممدوح، وذماً للمذموم، ووصفاً للأمر به. ثم للناس في أخذها ثلاث مسالك، أولها: قوم تعلقوا بالظاهر، مع قطع النظر عن المعنى جملة. وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية، لا عبرة بهم، الثاني: قوم نظروا لنفس المعنى جمعاً بين الحقائق، فتأولوا ما يؤول، وعدلوا ما يعدل، وهؤلاء أهل التحقق من أصحاب المعاني والفقهاء، الثالث: قوم أثبتوا المعاني، وحققوا المباني، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى، وهم الصوفية المحققون، والأئمة المدققون، لا الباطنية الذين حملوا الكل عن الإشارة. فهم لم يثبتوا معنى ولا عبارة، نخرجوا عن الملة، ورفضوا الدين كله، نسأل الله العافية بمنه في الدنيا والآخرة.⁽³⁾

- لا تصوف إلا بفقه وإيمان: يقول -رحمه الله-: "فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف

1 - البيهقي / شعب الإيمان، 236/13.

2 - قواعد التصوف ص 31، 32.

3 - قواعد التصوف ص 61

أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة لها إلا بها فافهم" (1)

- أن يؤخذ من أهله المحققين العاملين: ومن الشروط في التصوف أيضا أن يؤخذ من أهله وهذا ما بينه الشيخ زروق في قوله: "وقد صح أن العمل شرط كمال العلم، فيهما وفي غيرهما، ولا شرط صحة فيه، إذ لا ينتفي بانتفائه بل قد يكون دونه، لأن العلم إمام العمل فهو سابق وجوده حكما وحكمة، بل لو شرط الاتصال لبطل أخذه، كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان، وذلك غير سائغ شرعا ولا محمود في الملة، بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه وما نفاه عن من لم يخشاه، ... فلزم استفادة العلم من كل محق فيه محقق له ليس ضرر علمه في وجه إلقائه كعدم اتصافه" (2)

هذا وقد فصل في موضع آخر ممن يؤخذ هذا العلم: "إنما يؤخذ علم كل شيء من أربابه، فلا يعتمد صوفي في الفقه، إلا أن يعرف قيامه عليه، ولا فقيه في التصوف، إلا أن يعرف تحقيقه له، ولا محدث فيهما، إلا أن يعلم قيامه بهما. فلزم طلب الفقه من قبل الفقهاء لمريد التصوف. وإنما يرجع لأهل الطريقة، فيما يختص بصلاح باطنه من ذلك، ومن غيره" (3)

- الأخذ بشروط تحصيل العلم شرط في الوصول لحقيقته: بين أن من شروط التحصيل ان يلتزم الطالب بمراحل التحصيل ومراتبه فقال: "لكل شيء وجه، فطالب العلم في بدايته شرطه الاستماع والقبول، ثم التصور والتفهم، ثم التعليل والاستدلال، ثم العمل والنشر، ومتى قدم رتبة عن محلها حرم الوصول لحقيقة العلم من وجهها. فعالم بغير تحصيل ضحكة، ومحصل دون تقوى لا عبرة به، وصورة

1 - قواعد التصوف ص 22.

2 - قواعد التصوف ص 29.

3 - قواعد التصوف ص 52

لا يصحبها الفهم لا يفيدها غيره، وعلم عربي عن الحجّة لا ينشرح به الصدر، وما لم ينتج فهو عقيم، والمذاكرة حياته لكن بشرط الإنصاف والتواضع وهو قبول الحق بحسن الخلق، ومتى كثر العدد انتفيا، فاقتصر ولا تنتصر، واطلب ولا تقصر، وبالله التوفيق" (1).

- اعتبار تقديم المجمل من العلم على الدقيق منه: قال -رحمه الله-: "اعتبار المهم وتقديمه أبدا شأن الصديقين في كل شيء، فكل من طلب من علوم القوم رقيقتها قبل علمه بجملة الأحكام العبودية منها وعدل عن جلي الأحكام إلى غامضها فهو مخدوع بهواه، لا سيما إن لم يحكم الظواهر الفقهية للعبادات، ويحقق الفارق بين البدعة والسنة في الأحوال، ويطلب نفسه بالتجلي قبل التجلي، أو يدعي لها ذلك" (2).

- ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين: يقول -رحمه الله- مبينا ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين: "اعتبار النسب في الموانع يقضي بتخصيص الحكم عن عمومهم، ومن ذلك وجود الغيرة على علوم القوم من الإنكار، وحماية عقول العوام من التعلق بما يخص منها حامل على وجود القصد بتخصيصها، هذا مع كثرة ما يخص منها، ومداخل الغلط فيه علما أو عملا، أو دعوى أو غير ذلك، فافهم. وأعط كل ذي حكم حقه، فالأعمال للعامة والأحوال للمريدين والفوائد للعبادين والحقائق للعارفين والعبارات قوت لعائلة المستمعين وليس لك إلا ما أنت له آكل" (3).

- مراعاة النضج العقلي للسائل: وذلك بإجابة السائل بما يقتضيه حاله حتى تحصل فائدة العلم، يقول -رحمه الله-: "إتيان الشيء من بابه أمكن من تحصيله، فمن ثم

1 - قواعد التصوف ص 33.

2 - قواعد التصوف ص 28

3 - قواعد التصوف ص 29

قيل: (العامي يسأل ليعمل، فحقه أن يذكر النازلة)، والطالب يسأل ليعلم، فحقه أن يسأل عن مسألة بمسألة أخرى، وعلى العالم أن يبين بيانا يمنع السائل من التأويل" (1).

- إلحاق الفرع بالأصل: قال لبيان ذلك: "المتكلم في فن من فنون العلم، إن لم يلحق فرعه بأصله ويحقق أصله من فرعه، ويصل معقوله بمنقوله، وينسب منقوله لمعانيه، ويعرض ما فهم منه على ما علم من استنباط أهله، فسكوته عنه أولى من كلامه فيه، إذ خطؤه أقرب من إصابته، وضلاله أسرع من هدايته، إلا أن يقتصر على مجرد النقل المحرر من الإيهام والإيهام. فرب حامل فقه غير فقيه فيسلم له نقله لا قوله. وبالله سبحانه التوفيق" (2)

عاشرا: مسأله.

من المبادئ العشرة لأي علم ذكر مسأله وفي قواعد التصوف ذكر الشيخ زروق الكثير من التطبيقات حيث إن القاعدة هي كلية تدرج تحتها تطبيقات ومسائل، وفي هذا المحور سيتم اختيار مجموعة من القواعد ذات الصبغة التطبيقية في صياغتها دون التصرف فيها أثناء عرضها، مع العنونة لفكرتها لبيان البعد التطبيقي لها، ومن هذا القواعد ما يلي:

لا يجوز لأحد أن يتعدى ما انتهى إليه من العلم الصحيح

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "لا يجوز لأحد أن يتعدى ما انتهى إليه من العلم الصحيح، بالوجه الواضح لما لا علم له به ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (3) فالمنكر بعلم كالأخذ به، والمتعصب بالباطل كالمنكر لما هو به جاهل، فقد أنكر موسى - عليه السلام - على الخضر - عليه السلام - ولم يكن منكرا في حق واحد منهما، إذ كل على حكمه" (4).

تحديد ما لم يرد في الشرع تحديده ابتداء في الدين إن عارض أصلا شرعيا

1 - قواعد التصوف ص 62، 63.

2 - قواعد التصوف ص 37

3 - الإسراء: 36.

4 - قواعد التصوف ص 63، 64.

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "تحديد ما لم يرد في الشرع تحديده، ولا أشارت النصوص الشرعية بأمر لا يمكن تركه ما حدد منه، ابتداء في الدين، ولا سيما إن عارض أصلاً شرعياً كصيام يومه لفوات ورد ليلته الذي لم يجعل له الشارع كفارة إلا الإتيان به، قبل صلاة الصبح، أو زوال اليوم. وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة، وتوقيت ورد الصلاة ونحوها، مما لم يرد من الشارع نص فيه، لا ما ورد فيه نص أو أشار إليه، كصلاة الرواتب، وأذكار ما بعد الصلاة، وقراءة القرآن، وصيام النقل، ونحوه مما يكره ترك معتاده ويمنع الاعتداد فيه"⁽¹⁾.

جواز الأخذ بما اتضح معناه من الأذكار والأدعية وإن لم يصح رواية

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "بساط الشريعة، قاض بجواز الأخذ بما اتضح معناه من الأذكار والأدعية، وإن لم يصح رواية، كما نبه ابن العربي في السراج وغيره. وجاءت أحاديث في تأثير الدعاء الجاري على لسان العبد، والمنبعث من همته"⁽²⁾.

اعتبار النسب الحكيمة جار في الأمور الحكيمة

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "اعتبار النسب الحكيمة جار في الأمور الحكيمة، على وجه نسبتها منها، فن ثم اعتبر العدد في الذكر، إذ مرجع الوجود إليه باعتبار جواهره وأعراضه. فإذا وافقتا النسبة محلها، وقع التأثير حسب القسمة الأزلية. ولعقد الأعداد وجه في الشرع إذ قال -صلى الله عليه وسلم- لنساء من المؤمنات: (واعقدن بالأصابع فإنهن مسؤولات مستنطقات)⁽³⁾، وأقر بعض أزواجه على تسبيحها في نوى كان بين يديها، وكان لأبي هريرة خيط قد ربط فيه خمسمائة عقدة يسبح فيها، قيل: والسبحة أعون على الذكر وأدعى للدوام، وأجمع للفكر، وأقرب للحضور، وأعظم للثواب، إذ له ثواب أعدادها وما تعطلت فيه لضرورة أو تعطل منها لغلط ونحوه، لتعيينها وفي تحصيل ثواب ذكر جامع لعدد"⁽⁴⁾.

1 - قواعد التصوف ص 70.

2 - قواعد التصوف ص 75.

3 - أبو داود/ سنن أبي داود / كتاب الصلاة / باب التسييح بالحصى / حديث رقم 1500 / (1 / 348)

4 - قواعد التصوف ص 86، 87.

مراعاة الشروط في مشروطها لازم لمريدها

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "مراعاة الشروط في مشروطها لازم لمريدها، وإلا لم يصح وجوده له، وإن قامت صورته، وشروط الذكر التي تتعين عند الجمع له ثلاث: أولها: خلو الوقت عن واجب أو مندوب متأكد يلزم من عمله الإخلال به كأن يسهر فينام عن الصلاة، أو يتثاقل فيها، أو يفطر في ورده، أو يضر بأهله، إلى غير ذلك. ثانيهما: خلوه عن محرم أو مكروه يقترن به كإسراع النساء أو حضورهن أو يتقي من الأحداث، أو قصد طعام لا قربة فيه، أو داخلته شبهة ولو قلت، أو فراش محرم كحريم ونحوه، أو ذكر مساويء الناس، أو الاشتغال بالأراجيف إلى غير ذلك. ثالثهما: التزام أدب الذكر من كونه شرعياً أو في معناه، بحيث يكون بما صح واتضح وذكره على وجه السكينة، وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لا مع رقص وصياح ونحوه، فإنه من فعل المجانين كما أشار مالك -رحمه الله-، لما سئل عنهم فقال: (أجانبين هم). وغاية كلامه الاستقباح بوجه يكون المنع فيه أخرى" (1).

كمال العبادة بإقامة حدودها الظاهرة والباطنة ومن غير غلو ولا تفريط

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "كمال العبادة بحفظها والمحافظة عليها، وذلك بإقامة حدودها الظاهرة والباطنة ومن غير غلو ولا تفريط فلفظ مضجع، والغالي مبتدع، سيما إن اعتقد القربة في زيادته، فمن ثم قيل: الوسوسة بدعة، وأصلها جهل بالسنة، أو خيال في العقل يدفعها دوام ذكر (سبحان الملك الخلاق). ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (2). مع كل ورد والتزام التلهي" (3).

الأجر على قدر الاتباع لا على قدر المشقة و (خير دينكم أيسره)

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "الأجر على قدر الاتباع، لا على قدر المشقة لفضل الإيمان والمعرفة والذكر والتلاوة على ما هو أشرف منها بكثير من الحركات الجسمانية. وقوله عليه الصلاة والسلام: (أجرك على قدر نصبك) إخبار خاص في خاص لا يلزم عمومه،

1 - قواعد التصوف ص 84، 85.

2 - فاطر: 16، 17.

3 - قواعد التصوف ص 66

سيما وما خير في أمرين إلا اختار أيسرهما مع قوله: (إن أعلمكم بالله وأتقاكم لله أنا) (1) ... إلى غير ذلك" (2).

أصل كل خير وشر: اللقمة والخلطة

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "أصل كل خير وشر اللقمة والخلطة، فكل ما شئت، فثله تفعل واصحب من شئت فأنت على دينه. قيل: وما أكل بالغلظة استعمل فيها" (3).

ما ركب في الطباع معين للنفس على ما تريد حسب قواها

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "ما ركب في الطباع معين للنفس على ما تريد حسب قواها. فلذا قيل: إذا علم الصغير ما تميل إليه نفسه من المباحات، خرج إماما فيها. وإذا انتحل المرید ما ترجه حقيقته من الأذكار والأوراد، كان معيناً على مقصده بدوامه. فإنه ما قصر جسد عن مهمته ويعين الله العبد على قدر نيته. ما دخل بانبطاط كان أدعى للدوام" (4).

ضرورة الأخذ بما يلائم الطباع في السلوك

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "مدار الأصولي على تحلية الإيمان بالإيقان وتحقيق اليقين، حتى يكون في معد العيان، بأن ينشأ عن تحققه، تمكن الحقيقة من نفسه، حتى يقدم ويحجم لما قام به من الحقيقة من غير توقف ولا تكلف، ويكون سلوكه فيما يحقق لما تحقق وبذلك ينشرح صدره أولاً وآخرأ فيصل في أقرب مدة، إذ من سار إلى الله من حيث طبعه، كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بالبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده عن طبعه" (5).

التدرج في تمرين النفس أسهل لتحصيل المراد منها

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "تمرين النفس في أخذ الشيء وتركه وسوقها بالتدرج، أسهل لتحصيل المراد منها. فلذلك قيل: ترك الذنوب أيسر من طلب التوبة، ومن ترك

1 - مالك / الموطأ / كتاب الصيام / باب ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم / جزء من حديث 14، ص 277، 278.

2 - قواعد التصوف ص 68، 69.

3 - قواعد التصوف ص 66

4 - قواعد التصوف ص 70.

5 - قواعد التصوف ص 58

شهوته سبع مرات كلها عرضت له تركها لم يبتل بها، والله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت لأجله" (1).

استواء الفعل والترك في المنفعة يقضي بترجيح الترك لأنه أسلم

بين الشيخ زروق ذلك بقوله: "استواء الفعل والترك في المنفعة يقضي بترجيح الترك، لأنه الأصل لاستصحابه السلامة، فمن ثم فضل الصمت عن الكلام حيث لا مرجح له، وترك الدنيا أخذها، والعزلة الصحبة سيما في زمان لا يأمن فيه الرجل جليسه والجوع والشعب إلى غير ذلك مما هو فقد في الحال فائدة في المال. ومنه ترك الشهوات عند قوم ما لم تعتقد القربة في ذلك، فلا يصح إلا بنية صالحة تحوله للندب، إذ قد أذن الله فيه، فليس أحد الجانبين بأولى من غيره في أخذه وتركه إلا بمرجح" (2).

الخاتمة:

في ختام هذه الورقة نورد أهم نتائجها فيما يلي:

- 1- كان للشيخ زروق دور كبير في التقعيد لعلم السلوك، وهذا واضح بين في كتاب قواعد التصوف، مما أحدث نقلة نوعية لهذا العلم حيث ضبطت مسأله، واتضحت مناهجه.
- 2- إن هذا الدور الذي قام به الشيخ زروق هو نتاج منهج تعليمي تميز به، ومن هنا يبرز دور علماء التصوف في خدمة العلم في شتى مجالاته.
- 3- إن صنعة التقعيد كانت من مزايا الشيخ فقد كان من الواضح انتهاج منهج الأصوليين في كتاب قواعد التصوف، وهذا ما يظهر في الجمع بين علمي الفقه والتصوف، وهذا من الأمور التي أكد عليها الشيخ في أكثر من موضع.
- 4- جمع الشيخ زروق في تقعيده لعلم السلوك بين منهجين قلما نجد الجمع بينهما وهما تصحيح المفاهيم وتعديل السلوك، فتجد أنه يؤصل للقاعدة نظريا ثم يبين تطبيقاتها في الواقع، ويكون بذلك قد أسس لمبدأ تربوي مهم وهو ضرورة أن

1 - قواعد التصوف ص 74.

2 - قواعد التصوف ص 72، 73.

يرتبط السلوك بالمفهوم وينضبط بالحكم الشرعي، وبهذا جمع بين الظاهر والباطن، وأعطى للسلوك مفهوماً آخر في كونه يجمع أمور الدين الثلاث الإيمان والإسلام والإحسان الوارد ذكرها في حديث جبريل المشهور.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- الأربعون على مذهب المتحققين من الصوفية لأبي نعيم الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1، 1414 هـ - 1993 م
- 2- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط7، 1323 هـ
- 3- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422 هـ
- 4- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي ت 1396هـ، ط15، دار العلم للملايين 2002م.
- 5- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد مخلوف ت 1360هـ، تحقيق: علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 1428هـ - 2007م.
- 6- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجِردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند،

- ط 1، 1423 هـ - 2003 م
- 7- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د، ت)
- 8- الطريقة الصوفية فضلها وأهميتها وفوائدها، محمد حبيب الفندي، دار الرضوان، حلب سوريا، (د، ت)
- 9- عدة المرید الصادق: الشيخ زروق، تحقيق: الصادق عبد الرحمن الغرياني، ط 1، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس - ليبيا 1996م.
- 10- الكُاش: أحمد زروق، تحقيق: علي فهمي خشم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس - ليبيا.
- 11- قواعد التصوف: أحمد زروق، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- 12- نيل الابتهاج بتطريز الديباج: لأحمد بابا التنبكتي ت 963هـ، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس، ط 1، 1989م.

جهود الشيخ أحمد زروق في نشر المذهب المالكي من خلال كتابه: "مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي، لابن عسكر"

أ: إمام عبد السلام دعبوش/جامعة المرقب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن من أجل النعم وأعظمها، أن أرسل الله تعالى أفضل الأنبياء وأكرم الخلق، محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- إلى هذه الأمة خاصة، وإلى الناس كافة، فكان رحمة للناس، علمهم كل خير، وحذرهم من كل شر، ربى صحابته تربية إسلامية، فكانوا للأحكام فاهمين، وللهدى متبعين، وكان مرجعهم الكتاب والسنة يستنبطون منهما الأحكام، ويرجعون إليهما عند التنازع، وهم بذلك قد خلفوا كما هائلاً من الأحكام الشرعية استنبطوها من هذين المصدرين.

ولما كانت معرفة هذه الأحكام من أدلتها التفصيلية من اختصاصات علم الفقه، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريقه، فكان للفقه من الأهمية بمكان، وقد حث الله - سبحانه -
وتعالى - على التفقه في الدين فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽¹⁾، وقال -صلى الله عليه وسلم-: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"⁽²⁾، فالفقه خير كله، حيث إنه الطريق لمعرفة الدين الذي نتعبده الله تعالى به، وقد أنعم الله تعالى على هذه الأمة الكريمة؛ بأن قيض لها نخبة ممتازة وصفوة مختارة، نذرت أعمارها لخدمة هذا الدين الحنيف، وشمرت عن ساعد الجد، خلفت لهذه الأمة كما هائلاً من المؤلفات الفقهية على مرّ السنين، وتنوّعت أساليبهم في هذه المصنّفات.

ومن هؤلاء الصفوة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- أحد المحققين الجامعين للحقيقة والشرع⁽³⁾، خلف ميراثاً كبيراً من المؤلفات والرسائل في مختلف فنون الفقه والحديث

(1) سورة التوبة، الآية (123).

(2) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (24/1)، مسلم في الصحيح، كتاب

الزكاة، باب النهي عن المسألة، (718/2).

(3) ينظر الفكر السامي (264/2).

والتصوف، ومن هذه المؤلفات: مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. الذي هو دراسة موضوع هذا البحث.

وسبب اختياري لهذا الموضوع: القيمة العلمية الجليلة لكتاب السداد الفهمي المتمثلة في سوق الأدلة الشرعية على المسائل الفقهية، مع سهولة في العبارة، ودقة في التوضيح، والمكانة المرموقة التي يتحلّى بها الشيخ زروق.

- إبراز هذا الكتاب -المختصر مع الشرح- وإظهاره؛ لأنه لم يحظ باهتمام الدارسين والبحّاث.

وأهمية البحث تكمن في:

- كتاب الإرشاد لابن عسكر حوى كلّ أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والجنایات. ممّا جعل شرح الشيخ زروق عليه موسوعة علمية، ومرجعاً للفقهاء يستقون منه وينقلون عنه كالحطّاب والسنهوري والحضيري في شروحيهم لمختصر خليل.

- تسليط الضوء على كتابين من أهمّ كتب المالكية هما: الإرشاد لابن عسكر، وشرحه مفتاح السداد الفهمي للشيخ زروق.

- إبراز قيمة المختصرات العلمية وجودة إقبال الشروح عليها.

أهداف البحث:

لقد رأيت أنّ دراسة كتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي تحقّق جملاً من الأهداف والفوائد منها:

- الوقوف على الآليات والطرق والمنهجية التي اعتمد عليها الشيخ زروق في شرحه لكتاب الإرشاد.

- إظهار مدى تجرّد الشارح للدليل الشرعي، وعدم تعصّبه للمذهب الذي انتسب إليه.

- توضيح اختيارات الشيخ زروق، واستدلالاته التي اعتمد عليها.

- بيان أهمية النقل والأمانة عند الشيخ زروق في هذا الشرح.

- تحديد اعتراضات الشيخ زروق في شرحه على مختصر ابن عسكر (الإرشاد).

إشكالية البحث:

أولاً: مشكلة البحث:

يرى الباحث أن الإشكالية في هذا البحث يمكن حصرها من خلال طرح التساؤلات الآتية:

أسئلة البحث:

1- ماهي الضوابط المعتمدة في شرح الإرشاد؛ متمثلة في اللغة من حيث السهولة، واعتماد الدليل، والنقد؟

2 - ماهي المنهجية التي سار عليها الشيخ زروق في شرحه؟

3 - ما مدى دقة المصطلحات التي نبه عليها الشيخ زروق في مقدمة كتابه والتزامه بها؟

4 - ماهي المسائل الفقهية التي اختارها الشيخ زروق وروحها في كتابه؟

5- هل المسائل الفقهية التي اختارها الشيخ زروق في أبواب الكتاب لها أثر في القضايا المعاصرة؟

منهجية البحث:

تتلخص المنهجية البحثية التي سلكتها في إعداد هذا البحث في المنهج الاستقرائي القائم على التتبع لأبواب كتاب شرح الإرشاد، والمنهج التحليلي القائم على تحليل وتوجيه أقوال الشيخ زروق في كتابه، والمنهج التطبيقي القائم على إيراد التطبيقات.

خطة البحث:

وقد جاءت خطة البحث، في مقدمة، ومبحثين، على النحو التالي:

المبحث الأول: في التعريف بالشيخ، وذلك بذكر الآتي:

المطلب الأول: اسمه، ومولده، ولقبه، ونشأته.

المطلب الثاني: مسيرته العلمية والتعليمية.

المطلب الثالث: شيوخه، وتلاميذه

المطلب الرابع: آثاره العلمية، وثناء العلماء عليه.

المبحث الثاني: في التعريف بكتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. ومنهج الشيخ في شرحه، وفيه خمسة مطالب:
المطلب الأول: كتاب (مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي) وقيّمته العلميّة.

المطلب الثاني: منهج المؤلف واصطلاحاته.

المطلب الثالث: ترجيحات المؤلف واختياراته.

المطلب الرابع: مصادره التي اعتمد عليها في النقولات.

المطلب الخامس: تقييم الكتاب.

جعلت في نهاية البحث خاتمة، ذكرت فيها أهمّ النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث وكذلك وضع فهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للمحتويات. والله أسأله التوفيق والسداد، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: في التعريف بالشيخ، وذلك بذكر الآتي:

المطلب الأول: اسمه، ومولده، ولقبه، ونشأته⁽¹⁾.

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسي نسباً وقبيلةً، الفاسي مولداً ونشأةً المصراطي داراً ومستقراً. اشتهر بزروق، وهو أحد كبار فقهاء الصوفية المشهورين في العالم الإسلامي⁽²⁾.

مولده: ولد الشيخ زروق -رحمه الله- يوم الخميس 22/محرم/846هـ الموافق 1442/6/7م، ومكان ولادته بقرية (فاس) بالمغرب⁽³⁾.

لقبه:

(زروق) قال الشيخ: إنما جاءني من جهة الجد، فقد كان أزرق العينين، واكتسب ذلك من أمه.

(1) تنبيه: لن أطيل في ترجمة الشيخ زروق؛ لأنها في كتب التراجم غنية، ولب البحث في المبحث الثاني.

(2) ينظر شذرات الذهب (363/7)، نيل الابتهاج (130)، شجرة النور (276/1).

(3) ينظر الكاش للشيخ زروق (11).

نشأته:

عاش الشيخ زروق يتيماً في كنف جدته لأبيه، فكفلته وربته تربية حسنة، وكانت تكنى أم البنين واسمها فاطمة، وهي ذات صلاح ودين، يقول الشيخ زروق في ترجمته⁽¹⁾ لنفسه: وعلمتني الصلاة وأمرتني بها، وأدخلتني الكتاب، وكانت تعلمني التوحيد، والتوكل، والإخلاص، وتحديثي بحديث الصالحين والأولياء، وتقص علي سيرة النبي ﷺ، وكانت تردد علي مسامعه: "لا بد من تعلم القراءة للدين، والصناعة للمعاش".

سيرة الشيخ زروق بين أقرانه في الكتاب كان تلميذاً هادئاً مهذباً مواظباً على الدرس، لا كعادة الأطفال من الكسل والسفه، وعدم الاهتمام بمذاكرة الدروس، وكان له أقارب من الأسرة يعينون الجدة على تربيته والاهتمام به، والحرص على تلقيه أصول السلوك، وطرق التصرف في الحياة والمجتمع.

أتم حفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، وبعد وفاة جدته كان لزاماً عليه أن يشتغل ويتكسب لذيائه ومعاشه، وأخذاً لنصيحتها فامتن صناعة الخرازة فترة من الزمن ثم تركها.

المطلب الثاني: مسيرته العلمية والتعليمية.

بدأ حياته العلمية وهو في سن السادسة عشرة، فقرأ رسالة ابن أبي زيد على الشيخين علي السطحي وعبد الله الفخار قراءة بحث وتحقيق، وقرأ بعضاً من كتب العقيدة على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الآبي، وسمع منه البخاري، وتفقه عليه في الأحكام الصغرى لعبد الحق، وجامع الترمذي⁽²⁾.

التحق بالمدرسة العنانية لطلب العلم وقصد جامع القرويين بفاس، فدرس بعض أمهات كتب الفقه المالكي، وعلوم القرآن، والحديث والتوحيد والتصوف، والعربية. بعد سنوات من طلب العلم بمدينة فاس بالمغرب تآقت نفسه إلى الالتقاء بعلماء المشرق، فغادرها قاصداً أداء فريضة الحج، وفي الطريق التقى كثيراً من فقهاء تونس

(1) المصدر السابق (14، 13).

(2) ينظر نيل الابتهاج (131).

والقيروان، وطرابلس، حتى وصل القاهرة نخالط مشاهير علمائها في ذلك العصر، وعند رجوعه من الحج أقام بمصر عاما نثلمذ على كثير من الشيوخ في الفقه والحديث والتصوف.

ومن الكتب التي قرأها في الحديث والفقه:

- رسالة ابن أبي زيد.
- شمائل الترمذي.
- الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي.
- صحيح البخاري.
- المدخل لابن الحاج.

وقرأ في التصوف:

- الرسالة القشيرية.
- إحياء علوم الدين.
- قوت القلوب.
- الحكم العطائية.
- لطائف المنن.

وفي سنة (877هـ) غادر الشيخ زروق مصر متوجهاً إلى المغرب، ولم يستقر بها لجنوة حصلت بينه وبين علمائها، فغادرها إلى مصر مرة ثانية، وعقدت له الدروس، فكان يحضر حلقاته زهاء ستة آلاف طالب، وجدّد صلته بمشايقه وعلى رأسهم العلامة عبد الرحمن السخاوي، وأبو العباس الحضرمي⁽¹⁾.

وبعد هذا كلفه غادر الشيخ زروق مصر متوجهاً نحو ليبيا، واستقر به المقام بمدينة أوجلة لعدة أيام، ثم غادرها إلى مدينة مصراتة، وألقى عصا التسيار فيها، ولقي من أهلها كلّ تقدير واحترام وعطف حنان واجتمع حوله الناس للاستفادة من علمه

(1) ينظر عدة المرید الصادق لزروق (8) ، دوحة الناشر للشفاوني(49) ، ذكريات مشاهير رجال المغرب لكونون(19).

وتوجيهاته، وأسس بها زاوية مباركة تؤتي أكلها إلى يومنا هذا، ولم يزل بهذه المدينة يدرّس ويفتي ويعلم ويؤلف، وداعية إلى الخير والإصلاح، متمسكا بالسنة قولاً وعملاً واعتقاداً إلى أن توفاه الله في صفر سنة (899هـ) عن عمر يناهز الأربعة والخمسين عاماً⁽¹⁾.

المطلب الثالث: شيوخه، وتلاميذه.

أولاً: شيوخه:

كما أسلفنا آنفاً أنّ نشأة الشيخ زروق بفاس التي كانت قبلة العلماء وطلبة العلم، وكثرة رحلاته العلمية أمران هيناً له لقاء كثير من الشيوخ والأخذ والتلذذ عليهم.

فمن شيوخه المغاربة:

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي ت (849هـ).
- أحمد بن محمد الفشتالي ت (856هـ).
- أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي ت (866هـ).
- إبراهيم بن محمد بن علي التازي ت (866هـ).

ومن شيوخه المشاركة:

- شمس الدين الجوجري ت (889هـ).
- نور الدين السنهوري ت (889هـ).
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت (902هـ).
- أحمد بن عقبة الحضرمي ت (895هـ).

ثانياً: تلاميذه:

- أخذ العلم عن الشيخ زروق الجمّ الغفير من طلبة العلم من مصر وليبيا وفاس بالمغرب، ومن أشهرهم:
- شمس الدين اللقاني ت (935هـ).

(1) ينظر نيل الابتهاج (132).

- ناصر الدين اللقاني ت (958هـ).
 - محمد بن عبد الرحمن الرعيني المشهور بالحطّاب، صاحب كتاب مواهب الجليل شرح مختصر خليل ت (945هـ).
 - عبد الوهاب الشعراني ت (973هـ)⁽¹⁾.
- المطلب الرابع: آثاره العلمية، وثناء العلماء عليه.

أولاً: آثاره العلمية:

ذكر الباحث فيما سبق؛ أنّ الشيخ زروق كان يقضي جلّ وقته في التدريس والتأليف، فلا غرابة أن تكون له غزارة مؤلفات، بعضها يحوي مجلّدات، وبعضها عبارة عن كتب ورسائل صغيرة، من أهمها:

- تفسير للقرآن الكريم.
- شرح القرطبيّة.
- شرح مواضع من مختصر خليل.
- شرح الحكم العطائيّة.
- قواعد التصوف.
- عدة المرید الصادق.
- تعليق على مواضع من صحيح البخاري.
- حاشية على صحيح مسلم.
- شرح الأربعين حديثاً.
- شرح أسماء الله الحسنى.
- الأنس في شرح عيوب النفس.
- الأصول في الفصول.

ثانياً: ثناء العلماء عليه:

(1) ينظر أحمد زروق، آراؤه الإصلاحية (73)، الضوء اللامع (103/2)، نيل الابتهاج (568) شذرات الذهب (59/8)، شجرة النور (270)، توشيح الديباج للقرافي (201).

أثنى العلماء على الشيخ زروق، ووصفوه بأنه من أهل العلم، والعمل، والزهد، والجِدِّ، والمثابرة، وجيد التصانيف، وصفه أقرانه، وشيوخه، وتلاميذه، وإليك نبذاً منها:

قال عنه ابن غلبون في التذكار⁽¹⁾: "كان زاهداً فاضلاً، منقطعاً إلى الله، عارفاً به دالاً عليه، له همّة عالية، تخرّج عليه جماعة، وانتفع الناس به شرقاً وغرباً".

وقال عنه الحجوي: "كان من الطبقة العالية في المؤلفين، بل والمصنفين والمرشدين، ذاباً عن السنّة قوَّالاً للحقّ، وهو آخر المحقّقين الجامعين بين الفقه والتصوّف"⁽²⁾.

وقال عنه صاحب نيل الابتهاج⁽³⁾: "وبالجملة فقدرة فوق ما يذكر، ومن تفرّغ فذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلداً، وهو آخر أئمة الصوفيّة الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة".

ومن يرى بعين الإنصاف والحقيقة يستطع أن يقول أنّ التربية الحسنة، والبيئة التي نشأ فيها الشيخ زروق كانتا وراء هذه المكانة التي تبوأها زروق بين علماء عصره. فرحم الله الشيخ زروق وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

المبحث الثاني: في التعريف بكتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. ومنهج الشيخ في شرحه، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: كتاب (مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي) وقيّمته العلمية.

يعتبر كتاب الشيخ زروق "مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي" من أنفع الكتب التي كان لها الأثر الكبير في أن يكون لهذا الشرح قيمة علمية، وذلك لما تتضمنه هذه النقاط:

- كتاب شرح الإرشاد تناول جميع أبواب الفقه؛ من عبادات ومعاملات وجنایات بالشرح والتوضيح الأمر الذي جعله مرجعاً لجميع الدارسين.

(1) (171).

(2) الفكر السامي (2/264).

(3) (112).

- انتهج الشيخ زروق في شرحه عبارة سهلة ميسرة، وأسلوباً بديعاً محكماً، هجر فيه التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ركّز في شرحه على أهمّ المسائل والفروع الفقهيّة.
- جمع الكتاب أقوال الفقهاء المتقدّمين والمتأخّرين، مبيناً ما اشتهر منها.
- احتجّاه بأدلة الشرع من القرآن والسنة، منبّها على صحّة الحديث وضعفه، مسنداً له، ممّا يعين الدارس على الرجوع إليها في مظانها.
- فهذه النقاط وغيرها جعلت من هذا الكتاب قيمة علميّة لدى الفقهاء المتأخّرين، فأصبح مرجعاً لهم يستقون منه في كتبهم، ويستشهدون به، وينقلون عنه، منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ الخطّاب في كتابه مواهب الجليل⁽¹⁾، فقد نقل عن الشيخ زروق من كتابه شرح الإرشاد أكثر من مائة نقل. وكذلك الشيخ الزرقاني عند شرحه لمختصر خليل⁽²⁾، نقل عنه في مواضع كثيرة، وأيضاً الخرشى عند شرحه للمختصر⁽³⁾، والعدوي في شرحه كفاية الطالب الرباني⁽⁴⁾، والدسوقي في حاشيته على الشرح الكبير للدردير⁽⁵⁾، والشيخ عيش في فتح العلي المالك⁽⁶⁾، والشيخ الكشناوي في كتابه أسهل المسالك⁽⁷⁾، وغيرهم كثير، فهؤلاء الفقهاء الأجلّاء نقلوا واستشهدوا بكتاب شرح الإرشاد لما رأوا فيه من قيمة علمية تلقّاهم الفقهاء وطلبة العلم بالقبول والاهتمام.

المطلب الثاني: منهج المؤلف واصطلاحاته.

أولاً: منهجه:

- من خلال النظر والبحث في كتاب شرح الإرشاد تبين لي ما يلي:

(1) ينظر (373/1، 415، 499، 502)، (132/2، 153، 163، 169، 191)، (132/3، 143، 147،

166)، (417/5)، (116/6، 154، 414).

(2) ينظر (258/2)، (314/3).

(3) ينظر (110/3)، (134/6).

(4) ينظر (473/1، 523، 528).

(5) ينظر (234/1).

(6) ينظر (171/1).

(7) ينظر (155/1، 190).

1 - يبتدئ الشيخ زروق بإيراد نصّ ابن عسکر المراد شرحه، وإن كانت فيه أكثر من رواية نصّ عليها، ثم يذكر غالباً المشهور في المذهب. ومن ذلك: قال ابن عسکر في الإرشاد: "والإقامة أكد، فيقيم القاضي والمنفرد، ويوتر كلماتها إلا التكبير⁽¹⁾".

يقول الشيخ زروق شارحاً: "يعني أنّ الإقامة أكد في الحكم من الأذان؛ لأنّها للفظ والجماعة، وقال ابن كنانة وغيره: من تركها عمداً بطلت صلاته، والمشهور خلافه كالساهي عنها⁽²⁾".

2 - كثيراً ما يستدرك على ابن عسکر في "الإرشاد" وينتقده في بعض المواضع بقلم علمي سيّال نقداً بناءً ينمّ عن قبوله للرأي المخالف، يعتذر للمصنّف قوله أحياناً، ويرجّح قوله أحياناً أخرى بعبارات العالم القدوة السّمح، لا فظاظه في القول ولا تعنيف، فنراه يكثر من عبارات ملؤها اللطف والتهذيب كقوله: "لم يستوعب الشروط"، "فالمذهب أنّه ليس بواجب"، "المشهور خلافه"، "وما ذكره خلاف المشهور"، "وقوله المشهور والظاهر نفيه"، "وكون الأشهر كذا، لم أقف عليه لغيره"، "وهذا لم أقف عليه لغيره".

وأحياناً يكون نقده له في جانب الأسلوب والصياغة فيقول مثلاً: "ولو اكتفى بكذا لكان له وجه"، "فحكي المصنّف قولين وهي ثلاثة"، "وظاهر كلامه كذا والمعتبر كذا"، "وما ذكره هنا أوجه"، "وظاهر كلامه كذا فتأمله"، "وقد ذكر كذا ولم يذكر كذا". وقد نصّ على ذلك عند قول ابن عسکر: "بشرط إمكان متابعة المشي به، وستره محلّ الفرض، ولبسه بعد كمال الطهارة بالماء" بقوله: ذكر فيه شروط المسح ولم يستوعبها⁽³⁾.

3 - يشرح المصطلحات الفقهيّة شرحاً لغويّاً، ويستشهد على ذلك بكتب اللغويين أمثال الخليل بن أحمد والجوهري⁽⁴⁾.

(1) الإرشاد لابن عسکر (13).

(2) شرح الإرشاد (275/1).

(3) المصدر السابق (216/1)، وينظر (155، 238).

(4) ينظر شرح الإرشاد (71/1، 256).

4 - يشرح النص مبيناً ما فيه من أقوال داخل المذهب غالباً، وأحياناً ينصّ على الخلاف خارج المذهب.

وقد نص على ذلك عند قول ابن عسكرك: "ويجب الإنصات لها" فقال: "الإنصات في خطبة الجمعة واجب على كلّ من شهدها، سمعها أو لم يسمعها، قال الباجي: وبه قال أبو حنيفة"⁽¹⁾.

5 - يعزو الأقوال إلى أصحابها غالباً؛ لأنّ الشيخ زروق اعتمد جانب النقل في شرحه لمختصر ابن عسكرك فقال في خطبة شرح الإرشاد: "وقد أضربت في ذلك عن البحث والتأصيل، واعتمدت جانب النقل والتحصيل؛ لكونه أسلم من الاعتراض، وأقرب لتناول الأغراض"⁽²⁾.

6 - اعتمد الشيخ زروق في شرحه على النقل من كتب متأخري المذهب؛ لما تميّزت به من جمع للأقوال، وتحرير للمسائل والفروع، وفي هذا يقول: "واعتمدت غيره؛ لكونه أخصر أو أوفر ككتاب شيخنا الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي على ابن الحاجب؛ لكونه صحيح النقل، معتبر اللفظ دون الأصل وكذا القاضي أبو العباس أحمد القلشاني على الرسالة؛ لأنه المتيسر عندي في الوقت مع صحّة نقله غالباً وكثرة فروعه، وربما ذكرت نصّ الرسالة مع وجوده في المدونة؛ لقرب التناول، وسهولة النظر في المسألة بعينها"⁽³⁾.

7 - التوسّط في عرض المسائل والفروع الفقهية، حيث إن هذه السمة تكاد لا تخلو منها مسألة ذكرها في شرحه، وشرح المختصرات الفقهية صناعة لا يستطيعها إلا أهل العلم الكبار؛ لأنّ المختصرات كالألغاز يراد فكّها، فما بالك إذا كان الشرح مختصراً ومتوسّطاً كشرح الإرشاد للشيخ زروق، فإنّه يراعي في هذا الشرح دقّة العبارة، وجودة السبك، وحسن تنسيقه بين الروايات، وتجنّب التكرار، والاقتصار على الشاهد في استدلالاته، وعدم التوسّع في إيراد الفروع الفقهية.

(1) ينظر المصدر السابق (1/448، 89، 113، 120، 140، 172، 175).

(2) المصدر السابق (1/44).

(3) المصدر السابق (1/44).

8 - يستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وغالبا ما يقوم بتخريج الحديث، ويحكم عليه بالصحة والضعف، فراه قد استدل بأحاديث في الصحيحين، وفي السنن، وفي غيرها من كتب الحديث⁽¹⁾. وقد نص على ذلك عند قول المصنف: "المسكرات والميتات كلها نجسة إلا دواب الماء" بقوله: "ودواب الماء كلها طاهرة حية وميتة لقوله عليه الصلاة والسلام: هو الطهور ماؤه الحل ميتته" خرجه مالك وغيره⁽²⁾.

9 - استشهاده بالقواعد الفقهية أحيانا كقاعدة انقلاب الأعيان، سد الذرائع، مراعاة الخلاف، من ملك أن يملك. وقد نص على ذلك عند قول ابن عسكرك: "وفي مائع ينجس، ولا يطهر بغسله"⁽³⁾. بقوله: "واستخف بعض المتأخرين الخبز بزيل للضرورة، ورعيا للخلاف في انقلاب الأعيان"⁽⁴⁾.

10 - كثيرا ما كان يطرح الشيخ زروق في عرضه للمسائل الفقهية تساؤلا ثم يجيب عنه، وهذا أسلوب عليّ تربوي رصين من لفت النظر وجذب الانتباه، وهذا الأسلوب ليس غريبا عن مربّ وعالم مثل الشيخ زروق -رحمه الله-.

ثانياً: اصطلاحاته:

ذكر الشيخ زروق في شرح الإرشاد مصطلحات لم يشر إليها في بداية كتابه لا تصريحاً ولا تلميحاً، وهي عبارة عن ذكر بعض الرموز على هيئة حروف أبجدية.

1 - (ص): يشير به إلى المصنف، أو نصّ الإرشاد.

2 - (ش): ويشير به إلى الشارح أو شرح النصّ.

3 - (خ): يشير به إلى الشيخ خليل.

4 - (س): يشير به إلى ابن عبد السلام.

5 - (ع): يشير به إلى ابن عرفة.

6 - (م): يشير به إلى بهرام الدميري.

وكذلك يذكر بعض الفقهاء بشهرتهم، أو بكناهم. مما يوجب اللبس من خلال تشابه

(1) ينظر شرح الإرشاد (2/ 498، 444، 464، 302، 500).

(2) المصدر السابق (89/1).

(3) الإرشاد (5).

(4) ينظر شرح الإرشاد (114/1).

الألقاب أو الأسماء وبين الباحث بعض هذا المصطلحات:

- 1 - القاضي: ويراد به القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي.
- 2 - الشيخ: ويراد به ابن أبي زيد، أو الشيخ خليل، والسياق هو الذي يحدّد المقصود.
- 3 - محمد: ويراد به ابن المواز.
- 4 - علي: ويراد به ابن زياد.
- 5 - عيسى: ويراد به ابن دينار.
- 6 - الجلاب: ويراد به كتاب التفرّيع لابن الجلاب.
- 7 - المدوّنة، فيها: ويراد بهما مدوّنة سخون، أو تهذيب البراذعي.

المطلب الثالث: ترجيحات المؤلف واختياراته:

من خلال تتبعي لكتاب شرح الإرشاد للشيخ زروق تبين للباحث أنّ الشيخ لا يربّح بين أقوال الفقهاء إلّا نادراً، والسبب في ذلك - والله أعلم - أنّ الشيخ يكثر ويذكر جميع أقوال الفقهاء في المسألة، ثم يذكر المشهور في معظم المسائل التي تناولها بالشرح، فكأنّه لا يريد أن يخالف ما اشتهر بين الأئمة من ترجيح يخالف ما اشتهر بينهم، ولم أظفر بترجيح للشيخ إلّا في مواضع قليلة. واصطلاحاته في الترجيح: "وهذا أقرب للفهم وأونس للنفس"، "وهو الصحيح". مثال ذلك عند قول ابن عسّكر في الإرشاد⁽¹⁾: "ومسّ الذكر بباطن الكف والأصابع" ذكر أقوال الفقهاء في المسألة ثم استدل بقول النبي ﷺ: "من مسّ ذكره فليتوضأ" وعلّق عليه بأنّه أصل الباب مستشهداً بقول البخاري: "أصحّ شيء في الباب" ثم قال: "فأعمله الشافعي على إطلاقه، وقيدته مالك بما يمسّ مساً... وأخذ أبو حنيفة بحديث طلق بن علي ﷺ قلت: الرجل يمسّ ذكره هل عليه وضوء؟ قال: لا، وهل هو إلّا بضعة منك"، ثم قال الشيخ زروق: وقال ابن المديني: "هو أصحّ من حديث بسرة" المتقدّم. ثم نقل عن العراقيين أنّهم جمعوا بين الحديثين بقولهم: إذا استوى مع سائر البضع في الإحساس كان له حكمها، وإذا وجد منه ما لم يوجد منها فليس كذلك، فيكون له حكم

يخصه، فاعتبروا اللذة. يقول الشيخ زروق: وهذا أقرب للفهم وأونس للنفس⁽¹⁾.
ومن أمثلة ترجيحه واختياره أيضاً: عند قول ابن عسكر في الإرشاد⁽²⁾: "فبيع
الجنس بطيب بعضه ولو في أصل واحد إن كان متلاحقاً، لا بطيب مبكرة" فذكر قول ابن
أبي زيد في الرسالة: "ويجوز بيعه إذا بدا صلاح بعضه، وإن نخله من نخيل كثيرة" ثم قال:
والصحيح: أن اتحاد الملك لا يعتبر في ذلك، ولا يعطي المبكر حكم المتلاحق، ولا غير
الجنس حكم غيره فيه"⁽³⁾.

المطلب الرابع: مصادره التي اعتمد عليها في النقوليات:

بما أن الشيخ زروق أكثر من النقل والاقْتباس؛ فيلزم من ذلك أن تكون مصادره
كثيرة، ونقولياته غالباً ما تكون عن مؤلفات متأخري المذهب؛ لما احتوته من جمع
للأقوال، وتحرير للمسائل والفروع، مع اعتماده في شرحه على أقوال إمام المذهب،
فجعلها أساس نقله، ثم أقوال أكابر أصحابه وتلاميذه، ثم أقوال من جاء بعدهم من
فقهاء المالكية المتقدمين والمتأخرين.

إنّ المتأمل في كتاب شرح الإرشاد وكثرة نقولاته، ليعرف مدى اتساع معرفة
الشيخ زروق بالكتب واطلاعه عليها، فهو عند الاستدلال يستدل بأمّهات الكتب في كل
الفنون، وأحياناً يذكرها بأسمائها، وأخرى بذكر مؤلفيها، باقة كبيرة جمعها في كتابه، مما أعطى
هذا الكتاب قيمة علمية رفيعة، والباحث بصدد ترجمة أهم المصادر، وترتيبها، مع الإشارة
لمكان ورودها.

أولاً: القرآن الكريم⁽⁴⁾.

ثانياً: الحديث الشريف، ويشمل الآتي:

1 - الموطأ: للإمام مالك بن أنس (ت 197هـ)⁽⁵⁾.

(1) ينظر شرح الإرشاد (1/176).

(2) (84).

(3) ينظر شرح الإرشاد (3/116).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (1/309).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (1/159)، (2/412)، (2/490).

- 2 - صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ) (1).
- 3 - صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261هـ) (2).
- 4 - سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت 275هـ) (3).
- 5 - سنن الترمذي: للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت 279هـ) (4).
- 6 - سنن النسائي: للإمام أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت 303هـ) (5).
- 7 - الاستذكار للإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت 463هـ) (6).
- 8 - المعلم بفوائد مسلم: للإمام محمد بن علي بن عمر المازري (ت 536هـ) (7).
- 9 - عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي: للإمام القاضي أبي بكر بن العربي (ت 543هـ) (8).
- 10 - إكمال المعلم بفوائد مسلم: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ) (9).

ثالثا: الفقه:

- 1 - مختصر ابن عبد الحكم: للإمام عبد الله بن الحكم بن أعين (ت 214هـ) (10).
- 2 - الواضحة في السنن والفقه: للإمام عبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238هـ) (11).
- 3 - المدونة: وهي عبارة عن سماعات الإمام مالك، سمعها منه سخنون التنوخي (ت 240هـ) (12).

(1) انظر زروق، شرح الإرشاد (35/3)، (50/3)، (54/3).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (185/1)، (444/2)، (55/3).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (132/1)، (196/1).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (123/1)، (132/1)، (196/1).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (40/3).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (200/1).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (479/2).

(8) انظر: زروق، شرح الإرشاد (162/1)، (203/1)، (447/2).

(9) انظر: زروق، شرح الإرشاد (92/1)، (296/2)، (409/2).

(10) انظر: زروق، شرح الإرشاد (314/2)، (404/2).

(11) انظر: زروق، شرح الإرشاد (340/2)، (394/2).

(12) انظر: زروق، شرح الإرشاد (278/1)، (415/2).

- 4 - العتبية: للإمام محمد بن أحمد العتبي (ت 255هـ) (1).
- 5 - المجموعة: للإمام محمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت 260هـ) (2).
- 6 - الموازية: للإمام محمد بن إبراهيم المواز (ت 269هـ) (3).
- 7 - المبسوط: للقاضي إسماعيل بن إسحاق (ت 282هـ) (4).
- 8 - التفريع: للإمام عبيد الله بن الحسن بن الجلاب (ت 378هـ) (5).
- 9 - الرسالة: للإمام ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ) (6).
- 10 - النوادر والزيادات: لابن أبي زيد (7).
- 11 - التلقين: للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت 422هـ) (8).
- 12 - المعونة: للقاضي عبد الوهاب (9).
- 13 - الإشراف على نكث مسائل الخلاف: للقاضي عبد الوهاب (10).
- 14 - تهذيب المدونة: للإمام خلف بن أبي القاسم البرادعي (ت 438هـ) (11).
- 15 - الكافي في فقه المدينة: للإمام ابن عبد البر (ت 463هـ) (12).
- 16 - النكث والفروق: للإمام بن هارون الضقلي (ت 466هـ) (13).
- 17 - المقدمات الممهديات: للإمام أبي الوليد ابن رشد (ت 520هـ) (14).

(1) انظر: زروق، شرح الإرشاد (127/1)، (364/2).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (334/2)، (364/2).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (243/1).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (291/1)، (488/2).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (312/2)، (473/2).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (19/1)، (416/2).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (385/2)، (479/2).

(8) انظر: زروق، شرح الإرشاد (217/1)، (375/2).

(9) انظر: زروق، شرح الإرشاد (13/1).

(10) انظر: زروق، شرح الإرشاد (2445).

(11) انظر: زروق، شرح الإرشاد (262/1)، (420/2).

(12) انظر: زروق، شرح الإرشاد (330/2)، (362/2).

(13) انظر: زروق، شرح الإرشاد (178/1)، (389/2).

(14) انظر: زروق، شرح الإرشاد (165/1)، (435/2).

18 - البيان والتحصيل: لابن رشد (ت 590هـ) (1).

19 - شرح التلقين: للإمام محمد بن علي المازري (ت 536هـ) (2).

20 - التنبيهات: للقاضي عياض (ت 544هـ) (3).

21 - الذخيرة: للإمام القرافي (ت 684هـ) (4).

22 - التنبيه لابن بشير (ت 526هـ) (5).

23 - التوضيح للشيخ خليل (ت 767هـ) (6).

24 - الزاهي لابن شعبان (ت 355هـ) (7).

المطلب الخامس: تقييم الكتاب:

بعد هذه الرحلة العطرة بين دفتي كتاب شرح الإرشاد؛ يودّ الباحث أن يذكر ما رآه

في حق هذا الكتاب الفريد، من مزايا تميّز بها عن غيره:

1 - النقل من المصادر الأصلية.

2 - عزو الأقوال لأصحابها غالباً، والدقّة في النقل.

3 - سهولة الأسلوب، ووضوح العبارة.

4 - ظهور شخصية المؤلف، من خلال تعقّباته لابن عسكرك، وهذ السمة تكاد تكون

منعدمة عند بعض المؤلفين.

5 - يعتبر مرجعاً لدى طلبة العلم في الفقه المالكي.

(1) انظر: زروق، شرح الإرشاد (95/1)، (290/2).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (191/1).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (301/2).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (131/1)، (340/2).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (186/1).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (186/1).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (303/2)، (352/2).

ملحوظات على كتاب الإرشاد:

- 1 - التركيز على ذكر أقوال فقهاء المالكية؛ أي: داخل المذهب، وعدم الخروج على نطاق المذهب إلا في بعض المسائل.
- 2 - عدم الاهتمام بذكر أسباب الاختلاف.
- 3 - عدم ربط المسائل والفروع الفقهية بالقواعد الفقهية.
- 4 - عدم الالتزام بمنهج معين في ذكره للكتب ومؤلفيها.
- 5 - عند سرده للأقوال لا يذكر القول الراجح غالباً.

وأخيراً بعد هذا التطواف مع كتاب الشيخ زروق أجد نفسي مع قامة من قامات الفقه المالكيّ الأجلاء الذين وهبهم الله قدرة على استيعاب آراء الآخرين، ومرونة في التعامل، يصحب ذلك سعة الأفق، وعمق فهم وكثرة اطلاع، بعيدا عن التعصب للرأي، مع نظرة نقدية فاحصة تكشف عن أمانة علمية، وحرية في التفكير.

الخاتمة:

بعد هذا التجوال الطويل في أمهات مصنفات الفقه الإسلامي، وبعد هذا الجهد المتواضع يتعين على الباحث إجمال تلك النتائج التي استنتجها من خلال هذه الدراسة.

أولاً: لقد يسّر المولى - عز وجل - أن يعيش الباحث في رحاب فقيه من فقهاء المسلمين، كان له دور بارز في إثراء الفقه الإسلامي عامة، والفقه المالكي خاصة، فقيه قضى عمره في الجهاد في طلب العلم والمعرفة حتى صار من كبار فقهاء المالكية، المعول عليهم، فكثرت تلاميذه، واستبقوا نحوه لأخذ العلم بين يديه، كما ألفت مصنفات أفاد بها الإسلام والمسلمين، ونهج في تصنيفها منهجاً مميّزاً يمتاز بالدقة والشمولية، الأمر الذي جعل منها مرجعاً أساسياً مهماً في الفقه المالكيّ المدلل، نظراً لشمولها معظم المسائل والأحكام الفقهية في عبارة موجزة وأسلوب سلس، واحتوائها الاستدلالات على فروع ومسائل المذهب المالكيّ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على براعة الشيخ زروق الفائقة، وعلى ملكته الفقهية، وإحاطته بكتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - وهي اليوم محطّ أقلام الباحثين، ومثار أبحاثهم واهتماماتهم.

ثانياً: حاول الباحث في المبحث الأول من هذا البحث إبراز شخصية الشيخ زروق؛

من مولده، ونشأته وطلبه للعلم، وتلاميذه، وشيوخه، وثناء العلماء عليه، ومكانته بين العلماء، ومؤلفاته، وكذلك الحديث عن مؤلفه "شرح الإرشاد" وأهميته، وثناء العلماء عليه، ومكانته بين الشروح، ومصادره.

ثالثاً: في المبحث الثاني، وهو لبُّ البحث (دراسة كتاب الإرشاد) استنتج الباحث

ما يلي:

أ - في معظم المسائل الفقهية التي وردت في الشرح يتضح أنّ الشيخ زرّوق غالباً ما يوافق إمام مذهبه وأحياناً يوافق مذهب الجمهور.

ب - الملكة النقدية عند الشيخ زرّوق، تتمثل في نقده لبعض الأقوال وتضعيفها، وكذلك في نقده لعبارة ابن عسكراً، فكثيراً ما يعقب على نصّ ابن عسكراً بقوله: لو قال كذا لكان أحسن.

ج - روح اليسر موافقاً للشريعة في شرح كتابه.

د - قبول الشيخ زرّوق للرأي الآخر، مما يثري حرية الفكر، وتبادل الأفكار.

وأخيراً ورغم هذا الجهد المبذول فإنّي لا أدعي الاستقصاء والاستيفاء، وإنّما هذا كلّه بحسب ما اقتضاه جهدي القاصر، وفهمي الفاتر، اللذان يستحيا من تسميتهما جهداً وفهماً، وحسي أنّي لم أدخر وسعاً في دراسة كتاب مهم من كتب الفقه الإسلامي، وما توفّيقني إلا بالله، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 1089هـ، دار الكتب العلمية بيروت، ط، بلا.

- ابن فرحون، إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون الجنان ط 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 2 (طرابلس: دار الكاتب، 2000م).

- إدريس عزوزي، الشيخ أحمد زروق وآراؤه الإصلاحية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1998م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، ط 1 (بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ).
- المحجوبي، محمد بن الحسن المحجوبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م).
- السخاوي، شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط 1 (بيروت: دار الجيل، 1992م).
- الشيخ زروق، الكاش، ت د، علي فهمي خشم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان.
- الشيخ زروق، عدة المرید الصادق، ت: الشيخ الصادق الغرياني، مكتبة طرابلس العلمية، ط 1، 1996م.
- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ط (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- بدر الدين القرافي، توشيح الديباج وولية الابتهاج، ت: أحمد الشثيوي، دار الغرب الإسلامي ط 1 1983م.
- شهاب الدين ابن عسکر، الإرشاد، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.
- كنون، ذكريات مشاهير المغرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ط، بلا.
- محمد بن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تعليق الشيخ الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية، ط، بلا، 1349هـ.
- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، دار الفكر، ط، بلا، ت، بلا.
- مسعود حامد بشر، رسالة علمية في شرح الإرشاد، جامعة المرقب.
- مصطفى محمد المعرش، رسالة علمية في شرح الإرشاد، جامعة المرقب.

دور أصول الفقه المالكي في دعم الهوية الوطنية "عمل أهل المدينة أنموذجاً"

د. الطاهر محمد الحاج محمد/جامعة طرابلس/ كلية القانون

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد...

فمع منتصف القرن الثاني الهجري بدأ يستقر الفقه الإسلامي على أربعة مذاهب فقهية، الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، إلى جانب بعض المذاهب الفقهية الأخرى التي اندثرت فيما بعد لعدة أسباب، وقد اختص كل مذهب من هذه المذاهب الأربعة بإقليم جغرافي من العالم الإسلامي، بحيث ساد العمل فيه بأحكام ذلك المذهب، إلا أنه بين الحين والآخر كانت تظهر بعض التيارات الفقهية والعقدية المنحرفة عن أصول وقواعد الفقه والعقيدة، ما يؤثر سلباً في استقرار الفقه في ذلك الإقليم، وأحياناً استقرار الإقليم برمته؛ لما تسببه تلك التيارات من فُرقة بين أبنائه، خاصة وأن تلك المذاهب الأربعة قد اتصلت بشكل وثيق بهوية الأقاليم الذي انتشرت فيها، وأصبح لأعراف تلك الأقاليم اعتبار مهم في أصول تلك المذاهب وأحكامها.

وفي ليبيا انتشر المذهب المالكي في غالبية البلاد، وأصبح هذا المذهب جزءاً من هويته، ومن ثم فالمساس به مساس بهوية البلاد، ولا يخفى الأثر السيء لذلك، فقد تسببت التيارات الفقهية الدخيلة في التشويش على العامة أحكام دينها، وعملت على تشويه رموزها الدينية، ونزع ثقة الناس بهم، وإحداث فوضى فقهية، وزعم أن الهوية الليبية بها الكثير من المخالفات الشرعية، وألا علاقة بين الفقه وهوية الشعوب؛ بل الفقه كتاب وسنة فقط.

وحسب اطلاعي المتواضع على المؤلفات الحديثة لم أجد من يدرس الأصل المالكي "عمل أهل المدينة" من زاوية أثره وتأثيره بالهوية، بما تتضمنه من أعراف وعادات وتقاليد، إلا مرجعاً واحداً، سأذكره - بعون الله - في ثنايا البحث، واقتصرت بقية المصادر على دراسته دراسة أصولية محضة، وهذا في حد ذاته شكل صعوبة في دراسة هذا الموضوع من هذه الزاوية.

ولأن "عمل أهل المدينة" أصل مالكي، فقد اكتفيت بالرجوع إلى المراجع المالكية، خاصة المراجع القديمة.

أيضاً فقد استعنت ببعض الرموز تسهيلاً واختصاراً، وهذه الرموز هي: ص: صفحة، ط: الطبعة، ب. ت: بدون تاريخ نشر، ب. ط: بدون طبعة. وختاماً، قسمت البحث إلى قسمين كما يلي:

المبحث الأول: دلالة مصطلح "عمل أهل المدينة" وعلاقته بالعرف.
المبحث الثاني: علاقة عمل أهل المدينة بقاعدة قول المجتهد دليل العامي وأثره في منهجية الفتوى.

المبحث الأول: دلالة مصطلح عمل أهل المدينة وعلاقته بالعرف

سنناقش في هذا المبحث دلالة مصطلح "عمل أهل المدينة"، وما قد تحمله هذه الدلالة من معانٍ تنسق بالهوية، كما سنتطرق للأدلة التي ساقها المالكية للدلالة على حجية هذا الأصل، ثم نتحدث عن علاقته بالعرف، كون الأخير من أهم مظاهر الهوية.

المطلب الأول: دلالة المصطلح وحجيته

• دلالة مصطلح عمل أهل المدينة:

تعددت المصطلحات الدالة على عمل أهل المدينة، وكل هذه المصطلحات كانت محل استعمال من قبل الإمام مالك - رحمه الله -، وهي في مجملها متشابهة في ألفاظها ومعانيها، وهذه المصطلحات تعتبر بمثابة الأساس الذي يقوم عليه "عمل أهل المدينة" كأصل من أصول الفقه المالكي، وقد أورد القاضي عياض هذه المصطلحات في رواية عن الإمام مالك - رحمه الله - يبين فيها قصده من هذه المصطلحات، نذكرها ثم نبين ما ظهر لنا من معانٍ متصلة بعنوان البحث، (قال ابن أبي أويس قيل لمالك ما قولك في الكتاب الأمر المجتمع عليه عندنا وبيلدنا وأدركت أهل العلم وسمعت بعض أهل العلم، فقال أما أكثر ما في الكتاب فرأي فلعمري ما هو برأيي ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم وهم الذين كانوا يتقون الله فكثير علي فقلت رأيي، وذلك إذا كان رأيهم مثل رأي الصحابة أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك. فهذا وراثه توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا وما كان أرى فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة

وما كان فيه الأثر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعمل لم يختلفوا فيه. وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم. كذلك ما قلت فيه ببلدنا وما قلت فيه بعض أهل العلم، فهو شيء استحسنته من قول العلماء وأما ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موضع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم وإن لم أسمع ذلك عينه فنسبت الرأي إليّ بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم والمقتدى بهم، والأمر بالمعمول به عندنا، من لدن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والأئمة الراشدين مع من لقيت فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم⁽¹⁾

ففي قول الإمام: (فقلت رأي... فهذا وراثته توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا) دلالة على تقيّد الإمام بأقوال من سبقه من الفقهاء، فهذه الأقوال ونظراً إلى استقرارها في مجتمع المدينة غدت عرفاً تعارفه والتزمه أهلها من العلماء والعامّة، إضافة إلى تسلسلها عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم عن الصحابة (رضي الله عنهم)، ومن ثم فالقول بخلافها زعزعة لاستقرار الفتوى بالمدينة، وفي هذا زعزعة لاستقرار معاملات الناس وأعرافهم، وإلى جانب ذلك مخالفة لما تواتر عن سلفه من العلماء والصحابة والرسول -صلى الله عليه وسلم-.

ثم قوله في مراده من "الأمر عندنا" (فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم) زيادة في تأكيد المعنى السابق من أن تواتر الأحكام والفتاوى وانتقالها عبر أجيال الفقهاء يجعلها عنصراً أصيلاً ورئيسياً في تشكيل أعراف الناس، ومن ثم هويتهم، إضافة إلى توثيق صحتها، أما الجزء الأخير من النقل المذكور عن الإمام فيتعلق بما لا نص فيه، ولا سابق قول أو عمل ممن قبله من الفقهاء والصحابة، وفي هذا لم يخرج عن منهجية الإفتاء الموروثة عن سلفه من أهل المدينة، وعليه فعمل أهل المدينة نقل وعقل، نقل عن السلف من أهل المدينة، وعقل يقوم على منهجية أهل المدينة في وضع الأحكام الفقهية.

(1) اليحصي، أبو الفضل عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط

وتصحیح: محمد سالم هاشم، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 1428هـ-

1998م، 1/ 102-103.

وقد ذهب بعض المعاصرين⁽¹⁾ إلى هذا الاستنباط، حيث ربطوا هذا الأصل بالعرف الذي يحتكم إليه الناس، ويحكمونه بينهم، وتفصيل ذلك في المطلب التالي.

• حجية المصطلح:

ليس الحديث هنا عن مذهب المؤيدين لهذا الأصل، والمعارضين له، وأدلة كل منهما، وإنما مدار الحديث عما يستفاد من أدلة المؤيدين لهذا الأصل من الدلالة على أهميته في حفظ هوية المجتمعات وخصوصيتها.

وبداية فإن عمل أهل المدينة ليس من وضع الإمام مالك-رحمه الله-؛ بل مما توارثه عن سلفه من علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم⁽²⁾، وإنما قام الإمام مالك بإخراج هذا الأصل وصقله وتهذيبه، وعليه فإن عمل أهل المدينة كأصل فقهي هو ذاته من عمل أهل المدينة.

لقد تعددت الحجج على صحة الاعتماد على "عمل أهل المدينة" كأصل للفقهاء، ولكننا نكتفي بما أحتج به الإمام مالك- رحمه الله- في رسالته إلى الليث ابن سعد-رحمه الله- وهو يقول: (فإنما الناس تبع لأهل المدينة... إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل وبأمرهم فيطيعونه... ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده فما نزل بهم مما عملوا به أنفذوه، ومالم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه... ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن...)⁽³⁾

إن هذه العبارات توضح منهجية الفتوى في المذهب المالكي، تلك المنهجية التي تجعل من استقرار معاملات الناس، وأعرافهم، وعوائدهم محل اعتبار مهم في الفتوى، فما تعارف عليه الناس يُفتي على أساسه، مالم يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، وهكذا كان الأمر في عهد الرسول-صلى الله عليه وسلم- فما تعارفه الناس مما لا يخالف أحكام الإسلام لم ينكره-صلى الله عليه وسلم-⁽⁴⁾، ونحن إذ نقول "الناس" فإننا نقصد العلماء والفضلاء من عوام

(1) الجيدي، عمر بن عبد الكريم، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما عند علماء المغرب، اللجنة المشتركة لنشر إحياء التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، المغرب، المحمدية، مطبعة فضالة، 1982م.

(2) دردور، إلياس، عمل أهل المدينة عند المالكية وعلاقته بالأدلة الكلية، لبنان، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1435هـ - 2014م، ص 19 - سيف، أحمد محمد نور، عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، الإمارات العربية المتحدة، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط2، 1421هـ - 2000م، ص 80.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 21/1.

(4) الجيدي، العرف والعمل، ص 334.

الناس، يقول ابن عبد البر: (إن مالكا -رحمه الله- إنما يحتج في موطنه وغيره بعمل أهل المدينة، يريد بذلك عمل العلماء والخيار والفضلاء، لا عمل العامة السوداء)⁽¹⁾، فأقوال العلماء والفضلاء وأعمالهم هي محل اتباع من العامة، ومع الزمن تغدو جزءاً من أعرافهم التي يحتكون إليها عند نزاعهم، ودليل ذلك الشروط التي وضعها المالكية حتى يكون العمل حجة، ومنها اتصال العمل⁽²⁾، أي تسلسله جيلاً عن جيل إلى سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يفهم من بعض المصطلحات التي كان يستعملها الإمام، كقوله: (الأمر المجتمع عليه الذي أجمعت عليه الأئمة عندنا في القديم والحديث)⁽³⁾. والشرط الآخر هو ظهور العمل وانتشاره⁽⁴⁾، أي أن يكون العمل رائجاً بين الناس، بحيث لا يخفى على أحد، والمعتمد لديهم، كلهم أو جلهم، وهذا يفهم من قول الإمام: (فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الورثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها)⁽⁵⁾. وعليه فن يأتي بأقوال وأفعال تخالف ما عليه العمل في أي بلد ما سنده؟ وقد رأينا منهجية الإمام مالك -رحمه الله-، وهي منهجية متوارثة من لدن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى مالك -رحمه الله- وفيها التزام صريح بما عليه خاصة المجتمع وعامته من قول وعمل مالم يخالف أحكام الشرع.

المطلب الثاني: علاقة عمل أهل المدينة بالعرف

في الواقع فإن كل ما سبق هو بمثابة المقدمة لما في هذا المطلب، وهنا مزيد بيان لأصل رسنخه الإمام مالك -رحمه الله- وعمل به، وتلاميذه من بعده.

(1) القرطبي، أبو عمرو، المعروف بابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، المغرب، ب. ط، 1387هـ، 222/7.

(2) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى النخعي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح: عبد الله دراز، مصر، القاهرة، دار الحديث، ب. ط، 1427هـ - 2006م، 46/3 - إسماعيل، موسى، عمل أهل المدينة وأثره في الفقه الإسلامي، الجزائر، دار التراث ناشرون، لبنان، دار ابن حزم، ط1، 1424هـ - 2004م، ص 277-279.

(3) إسماعيل، عمل أهل المدينة وأثره في الفقه الإسلامي، ص 277.

(4) المرجع السابق، ص 278.

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 21/1.

وللعرف تعاريف كثيرة، لا تختلف في معانيها، وبالمجمل يقصد به: ما اعتاده الناس وألفوه من قول أو فعل، وتوارثوه جيل عن جيل حتى أصبح مشهوراً بينهم، ومحل احتكام عند تنازعهم.

ولما جاءت الشريعة الإسلامية كانت هناك العديد من الأعراف السائدة، فأقرت الشريعة ما كان موافق لها، وألغت أو عدلت ما كان مخالفاً لها، ثم استقر الأمر على هذه الأحكام، بعضها أو جلها، حتى عرفها الناس، وانتقلت من جيل إلى جيل، لتكون في مجموعها عمل أهل المدينة، فالإمام مالك - رحمه الله - (يتحدث عن عصره، فيكون العمل الذي وصفه هو بمثابة العرف الذي يوجد في مكان ما يحكم عند ذويه)⁽¹⁾، والأقطار التي تلتزم المذهب المالكي ملتزمة بعمل أهل المدينة المنورة في الكثير من المسائل؛ باعتبار أن الفتوى به، إلى جانب أعرافها وعوائدها، والتي لا تخالف في مجملها عمل أهل المدينة، ذلك أن أحكام الفقهاء في هذه الأقطار ملتزمة بأحكام المذهب ومنهجيته، وهاتان مؤسستان على عمل أهل المدينة، وعليه فإن أعراف الناس وعاداتهم، خاصة في ليبيا، ممزوجة بالأحكام الشرعية على المذهب المالكي.

وأعراف الناس وعوائدهم الجارية (ضرورية الاعتبار شرعاً)⁽²⁾؛ لأن هذه الأعراف والعوائد كما أسلفنا تسهم في انتشار الحكم بين الناس، فيكون معلوماً لدى الكافة، ومقدوراً عليه، والعلم والقدرة شرط التكليف، ومن ثم فعدم اعتبار العرف والعادة قد يؤدي إلى التكليف بما لا يطاق، خاصة إذا كان الناس قد تعارفوا على شروط وأساليب معينة يتم من خلالها العلم بالحكم من عدمه، والقدرة على الامتثال من عدمها⁽³⁾، وعليه فإن (العمل نفسه مبني على العرف... والعرف هو السبب لقيام العمل، فكان العمل ما هو إلا العرف في شكله المتطور...)⁽⁴⁾.

(1) الجيدي، العرف والعمل، ص 326.

(2) الشاطبي، الموافقات، 462/2.

(3) المرجع السابق، 463/2.

(4) الجيدي، العرف والعمل، ص 393.

• العرف ووحدة التشريع:

إن وحدة التشريع تعتبر مبدأً أساسياً من مبادئ التشريع، ويقصد به وحدة النص التشريعي، أو الحكم التشريعي، ووحدة التشريع من سمات عدالته، فالحكم واحد وينطبق على جميع الأفراد، وهذا ما تجسده الأعراف، فتجد العرف واحداً في قطر معين، ومطبّقاً على الجميع دون تمييز، ومن ثم فانهدام هذا المبدأ يؤثر سلباً على إلزامية الأحكام؛ لشعور الناس بعدم المساواة، وهذا له أثره أيضاً على ثقة الناس بالعلماء؛ لأن ذلك يوحى باختلاف التشريع الذي سببه اختلاف الخطاب، وذلك باطل؛ لأن خطاب الشرع واحد، فإذا كان العرف واحداً، فما مبرر اختلاف الأحكام حوله؟ خاصة وأن الأحكام تدور مع الأعراف، وتغير الحكم مع ثبات العرف لا يبعد أن يكون عبثاً، والشرع الحكيم منزّه عنه، وعليه (فمالك باعتباره لهذا العمل وضع مبدأً تشريعياً عظيم الأهمية وهو: اعتبار ما اعتبره القضاء والإفتاء من الأحكام الشرعية، وجعله مرجحاً لما اشتهر من الأقوال، لأنه يتفق مع البيئة ومع ظروفها...)⁽¹⁾.

• العرف الليبي:

تعتبر ليبيا أحد أقطار المغرب العربي، وهذا الجزء من العالم الإسلامي عُرف دون غيره من الأقطار الإسلامية التي ساد فيها المذهب المالكي بتمسكه بعمل أهل المدينة، سواء على الصعيد النقلي، أو المنهجية التي اعتمدها هذا الأصل⁽²⁾، (وأصله أن يحكم أحد القضاة، أو يفتي أحد المفتين... بقول من أقوال المذهب وإن كان ضعيفاً أو مهجوراً، لأن هذا المفتي أو ذاك القاضي ما اختار هذا القول إلا لاعتبار خاص كاعتبار ظروف القضية وأحوال المتداعين والمستفتين وما يرجع إلى عوائدهم وأعرافهم، فوجد أن ذلك القول أكثر انطباقاً وأشد ملائمة للمسألة مما عداه...)⁽³⁾، ولذلك كان العمل في هذه الأقطار مرجحاً أساسياً في الإفتاء لدى العلماء، وعلماء ليبيا لم يخرجوا عن هذا المنهج في الإفتاء، ففتاوى وعمل سلفهم من علماء المذهب محل اعتبار عندهم.

وفي المجمل فللأعراف في ليبيا اتساق بالأحكام الشرعية، والمناسبات الدينية،

(1) الجدي، العرف والعمل، ص 328.

(2) كنون، عبد الله، قاعدة العمل حجة في مذهب مالك، الكويت، مجلة العربي، العدد 152، 1971م، ص 22.

(3) كنون، قاعدة العمل حجة في مذهب مالك، ص 22.

ولذلك نجد أن كل مناسبة لها عرفها الخاص بها، سواء على سبيل الممارسات التعبدية التي ترافق هذه المناسبة، كالاتحاد لمديح سيدنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في المولد النبوي الشريف، أو على سبيل الممارسات العادية أثناء هذه المناسبات، كأصناف الطعام المخصوص بمناسبة شهر رمضان، أو المولد النبوي الشريف، أو عاشوراء، أو عند الذهاب إلى الحج والعودة منه، وغيرها، ولم يُعرف عن أحد من علماء البلاد ممن يُعتدّ بعلمهم أن حرم هذه العادات؛ بل رأوها من قبيل تعظيم شعائر الله الوارد في قوله- تعالى:- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (1).

وعليه فإن الحكم على هذه العوائد والأعراف بمخالفة الشريعة لا يصدر إلا عن من لا يعترف بالعرف، ولا بمكاتبته في الشريعة الإسلامية، فحكم على أعمال متواترة قطعية شهد على جوازها علماء البلاد سلفاً وخلفاً، بناء على نصوص ظنية الدلالة والثبوت، وهذا على فرض معرفته لدلالاتها على وجه التحقيق، دون أن يعلم أنه بأحكامه هذه يخالف أصول الشريعة الإسلامية، إلى جانب مخالفته لأعراف الناس وعوائدهم، وما تلقته الأمة بالقبول مما لا يصادم أحكام الشريعة الإسلامية ويخالفها.

المبحث الثاني: علاقة عمل أهل المدينة بقاعدة قول المجتهد دليل العامي وأثره في منهجية الإفتاء

سنبحث في هذا المبحث في علاقة عمل أهل المدينة بقاعدة قول المجتهد دليل العامي، وأثره فيها، ثم نعلق على قانون دار الإفتاء الليبية ونناقش بعض فتاويها. **المطلب الأول: علاقة عمل أهل المدينة بقاعدة قول المجتهد دليل العامي**

نبدأ ببيان قاعدة "قول المجتهد دليل العامي" بشكل موجز، فقد اتفق جمهور الأصوليين على أن قول المجتهد بمثابة الدليل للعامي، وأن الأخير لا يجوز له الرجوع إلى النص التشريعي مباشرة، إلا أن يكون على سبيل التعبد، ومن ثم فإن العامي مكلف من خلال قول المجتهد، والتزامه به واجب (2).

(1) سورة الحج، الآية 30.

(2) الشاطبي، الموافقات، 4/500.

وهذه القاعدة أُسست على مقدمات، وهي أن الله - سبحانه - أمر عباده بطاعته، وطاعته تكون بالتزام أحكامه، والتزام الأحكام يكون بمعرفتها، ولأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كانت معرفة الأحكام واجبة، إذ لا يعبد الله بجهل، وهذه المعرفة لا تحصل إلا باكتساب أدوات الاجتهاد والاستنباط، وفي هذا مشقة على المكلفين، فقدراتهم الذهنية متفاوتة، إضافة إلى أن اشتغالهم جميعاً بالفقه يؤدي إلى ضياع مصالحهم ومشاكلهم الأخرى، وترك باقي التخصصات، وفي هذا إلحاق للضرر بالفرد والجماعة، ومادام الأمر كذلك اختص نفر من المسلمين بهذا العلم، ويرجع إليهم غيرهم من المكلفين لمعرفة الأحكام الشرعية⁽¹⁾.

ولا ينقض ذلك وقوع المجتهد في الخطأ، فلا بديل عنه، إضافة إلى أن وقوع غير المجتهد في الخطأ مؤكد، وأكثر خطراً، وأشد أثراً؛ لعدم امتلاكه الأهلية العلمية للاجتهاد، أما المجتهد فهو مكلف ببذل عناية، وهو يملك أدوات الاجتهاد⁽²⁾.

وكما أسلفنا فإن أعراف الناس وعوائدهم محل اعتبار ضروري عند الشارع، (فكل ما هو في الشريعة يتبع العوائد)⁽³⁾، غير أن هذه الفتوى يجب ألا تكون وفق عادة أو عرف بلد غير البلد الذي صدرت فيه، (.... بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إلى بلد آخر، عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كما فيه أفتيناهم بعادة بلدهم، ولم نعتبر عادة البلد الذي كما فيه، وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه لم نُفتيه إلا بعادة بلده دون عادة بلدنا)⁽⁴⁾، والفتوى بناء على هذا المنهج واجبة، ولا يختلف فيها العلماء⁽⁵⁾.

وتقييد العلماء للفتوى بعرف البلد الذي صدرت فيه غاية حفظ هوية ذلك البلد واستقراره على صعيد الفتوى، وعلى الصعيد الاجتماعي، فإدخال أحكام مبنية على

(1) المرجع السابق، 501-500/4، 579.

(2) الشاطبي، الموافقات، 414/4، 418 وما بعدها، أبو غرارة، ضو مفتاح - أبو راس، علي، قراءة لتفعيل دور الدين في تشكيل الهوية، بحث غير منشور، ص 11.

(3) القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس المصري المالكي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، لبنان، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط 2، 1416 هـ 1995 م، ص 218.

(4) المرجع السابق، ص 219.

(5) المرجع السابق، ص 232.

أعراف أخرى يهدد هوية المجتمع واستقراره، ويثير بين أبنائه الخلاف والعداوة، ولا يخفى ما تعانيه ليبيا من مشاكل داخل المساجد وخارجها، وسبب ذلك الفتاوى "المستوردة" من خارج البلاد، المخالفة لأصول المذهب المالكي، وفروعه، وأعراف الليبيين وعوائدهم. وهذه المنهجية في الإفتاء يمكن فهمها من الحوار الذي دار بين الإمام مالك - رحمه الله - وأبي جعفر المنصور، وكان الخليفة حينئذ، إذ طلب من الإمام وضع كتاب في الفقه ليفرضه على كافة الأمصار، فوافق الإمام على تأليف الكتاب؛ ولكنه لم يوافق على فرضه على غير أهل المدينة المنورة، قائلاً: (يا أمير لا تفعل فإن في كتابي حديث رسول الله - ص - وقول الصحابة وقول التابعين ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم ... إن أصحاب رسول الله - ص - تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رآه ... إن لأهل هذه البلاد قولاً، ولأهل المدينة قولاً، ولأهل العراق قولاً تعدوا فيه طورهم ... وإن ردهم عما اعتقدوا شديداً، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم)⁽¹⁾، لا يخفى ما في قول الإمام من اعتبار لما اعتاده الناس من أهل الأمصار الأخرى، وحرمة إجبارهم على ما عليه أهل المدينة، وكل ذلك درئاً للفتنة والشقاق، مع أنه - رحمه الله - على يقين بأن ما عليه أهل المدينة هو الحق؛ ولكن ما دامت الأقطار الأخرى لا تعمل بما يخالف صحيح الشريعة وقطعياً فلا يجب صدّهم عما هم عليه، وإجبارهم على غيره.

ويظهر لنا مما سبق أن الشريعة الإسلامية قد ضبطت العلاقة بين المفتي والمستفتي، فالمفتي لا يفتي بما يخالف أعراف الناس وعوائدهم مما لا يخالف أحكام الشريعة، والمستفتي لا يجتهد بنفسه ليعلم الحكم الشرعي؛ لأنه لا يملك أدوات الاجتهاد، ولا حتى أهلية الإفتاء؛ بل يرجع إلى أهل هذا العلم، ممن حقاً أهله، ليعلم الحكم الشرعي.

المطلب الثاني: تعليق على قانون دار الإفتاء الليبية

أصدر المجلس الوطني الانتقالي في 2012.2.20م القانون رقم 15 لسنة 2012م بشأن إنشاء دار الإفتاء⁽²⁾، ويمكن القول بأن دار الإفتاء في أي بلد إسلامي هي الجهة الحارسة والحافظة للهوية بشكل عام، وهويته الدينية بشكل خاص، وذلك من خلال ما

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 101/1-102.

(2) الجريدة الرسمية، العدد 3، السنة الأولى، ص 146-155.

تعتمده من منهجية في الإفتاء، والآراء التي تأخذ بها، باعتبار أن الفتاوى الصادرة عنها معبرة عن هوية البلد، وموجهة لسلوك أفراده.

وما يهمننا في القانون سالف الذكر هو نص المادة 11، والذي يقول: (المرجعية في الفتوى إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على المذهب السائد في البلد، وعند وقوع الاختلاف في المذهب السائد يكون الأخذ بالراجح مما عليه اختيار إمام المذهب وكبار تلاميذه المتقدمين، ويجوز استثناء في بعض القضايا الاستعانة بغير المذهب السائد عند الحاجة رفعا للخرج العام).

إن القراءة الأولية لهذا النص تفضي إلى أن به الكثير من الإبهام وعدم الوضوح، والذي لا نعلم سببه، خاصة وأن النص وضع من قبل لجنة متخصصة في الشريعة الإسلامية، وصيغ من قبل مختصين في القانون، وبشكل عام لنا عليه ملاحظتان، تتعلق الأولى بمصطلح "المذهب السائد"، وتعلق الأخرى بتأخير الرأي الراجح.

أولاً- المذهب السائد في البلد:

ليبيا ليست ككثير من البلدان العربية أو الإسلامية التي نتعد فيها المذاهب، ويكون أفرادها متقاربون من حيث العدد؛ بل إن المذهب المالكي هو المذهب الذي يتبعه غالبية الليبيين، ويتبع الباقي المذهب الإباضي، وهنا نتساءل: لماذا لم يذكر المذهب المالكي صراحة؟ خاصة وأن البلاد تعيش حالة من الفوضى في الإفتاء، بسبب التيارات الدينية الدخيلة عليها، والتي تجلب فتاويها من الخارج، وتعمل على نشرها بين الليبيين، سعياً منهم لتغيير المذهب المالكي، وإبعاد الناس عنه، وعمن يمثله من علماء البلاد، فكان الأولى ذكر المذهب المالكي صراحة، لقطع الطريق أمام كل من يسعى لترويج الفتاوى الدخيلة، أم أن هؤلاء الدخلاء هم من وضع هذا النص، على أمل أن يغيروا مذهب البلاد مع مرور الزمن؟ ثم من هو إمام المذهب، ومن هم تلاميذ المتقدمون؟ فهذا إبهام آخر، فلو أن واضح النص صرح بذكر اسم الإمام مالك - رحمه الله - لقلنا بأن المقصود بالمذهب السائد هو المذهب المالكي بقريئة ذكر اسم إمامه، ولانتهى الإشكال، أما والحال هذه فإن هذا الإبهام في النص لا يمكن تبريره، إضافة إلى أنه يفتح الباب أمام التيارات الدخيلة لنشر فتاويها، بدعوى عدم صراحة النص، وانهم لا يسلمون بأن المذهب المالكي

هو المذهب السائد في البلاد.

ثانياً- تأخير المذهب الراجح:

المعتمد في المذهب المالكي أن الإفتاء لا يكون إلا بالرأي الراجح والمشهور⁽¹⁾، وزاد متأخرو المالكية "العمل القطري"، وهو ذاته عمل أهل الأمصار، الذي اختص به مالكية المغرب العربي⁽²⁾، حيث جعلوه مصدراً للفتوى والقضاء إلى جانب الراجح والمشهور، فهو مقدّم عليهما، حيث يرجح به القول الضعيف⁽³⁾، مراعاة لعرف الناس وأحوالهم، فزادوا من تخصيص أصل المالكية المسمى "عمل أهل المدينة"، وبناء على ما سبق، فإن الفتوى تكون بناء على "العمل القطري"، فإن لم يوجد فبناء على الراجح والمشهور من المذهب المالكي، وبهذه المنهجية تكون الفتوى أكثر اتساقاً وتوافقاً مع هوية البلاد، فالمقام مقام تخصيص - كما لاحظنا، ونص المادة هنا خالف هذه المنهجية في الإفتاء عندما وضع مصطلحاً فضفاضاً "المذهب السائد في البلاد"، دون أن يحدد هذا المذهب السائد، ولا إمامه، ولا منهجية الإفتاء المعتمدة فيه، فالأولى بوضع هذا النص، والأسلم له ولأهل البلاد أن يكون أكثر تحديداً ووضوحاً.

• قراءة في بعض فتاوى دار الإفتاء الليبية:

أصدرت دار الإفتاء الليبية كتيباً تحت مسمى "صفة الصلاة وأدلتها"⁽⁴⁾، وذكُر في مقدمته ما يلي: (... فهذه رسالة مختصرة تحوى كلمات جامعة في صفة صلاة النبي - صلى الله عليه وسلم - على الصحيح من مذهب الإمام مالك - رحمه الله -، مدللة بالكتاب والسنة، وأقوال أئمة المذهب)⁽⁵⁾.

- (1) الدسوقي، شمس الدين محمد عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لأبي البركات سيدي أحمد الدردير، وبهامشه تقريرات الشيخ محمد عليش، ب. د، دار إحياء الكتب العربية، ب. ط، ب. ت، 20/1 - الخطاب، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين الرعيني، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، راجعه وخرج أحاديثه: محمد تامر، محمد عبد العظيم، مصر، القاهرة، دار الحديث، ب. ط، 1431هـ - 2010م، 64/1.
- (2) كنون، قاعدة العمل حجة في مذهب مالك، ص 21-22.
- (3) بن بيه، عبد الله بن الشيخ المحفوظ، صناعة الفتوى وفقه الأقليات، لبنان، بيروت، دار المنهاج، ط 1، 1428هـ - 2007م، ص 114.
- (4) لم تُذكر أي بيانات عن الكتيب، ويتكون من 20 صفحة.
- (5) المرجع السابق، ص 2.

سأقتصر على مسألة واحدة من المسائل المذكورة في هذا الكتيب، وهي مسألة سدل اليدين وقبضهما في الصلاة، إذ اقتصر الكتيب على الحديث عن قبض اليدين، وكأنه هو الرأي الراجح والوحيد في المذهب، أو الصحيح من المذهب كما ذكر في مقدمة الكتيب، دون الإشارة للسدل، حتى إشارة عابرة، مع أن المعتمد في المذهب هو السدل في الفريضة، والقبض في النفل إذا طال القيام⁽¹⁾، وأحد أسانيد هذا الرأي عند المالكية هو عمل أهل المدينة، وسدل اليدين في الصلاة مما اختص به المالكية دون باقي المذاهب الفقهية الأخرى⁽²⁾، ونص المدونة صريح في ذلك (قال: وقال مالك: في وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة؟ قال: لا أعرف ذلك في الفريضة وكان يكرهه ولكن في النوافل إذا طال القيام فلا بأس بذلك يعين به نفسه)⁽³⁾، وبناء على ما سبق، فهل القبض هو الصحيح من مذهب مالك؟ وبناء على نص المادة 11 من القانون المذكور والذي قيد الفتوى عند وقوع الاختلاف بالإفتاء بناء على اختيار إمام المذهب وتلاميذه المتقدمين، فهذا رأي إمام المذهب، يقول بالسدل، إلا أن الفتوى المذكورة في هذا الكتيب نجدتها تخالف كلام الإمام، هذا إن كان كاتب القانون المذكور والكتيب المذكور يقصد الإمام مالك - رحمه الله - فنص المادة 11 مبهم كما أسلفنا، ويخالف معتمد المذهب، ويخالف نص المادة 11 من القانون المذكور، وطبعاً يخالف ما عليه الفتوى والعمل في القطر الليبي، فلا وافقوا المذهب، ولا وافقوا القانون الذي هم من وضعه، ولا ما عليه عمل علماء البلاد. ولا يقول قائل بأن حديث القبض قد ذكره الإمام في الموطأ، فالإمام أدرى بما كتب في موطئه، وقد ذكر الكثير من الأحاديث وعمل بخلافها؛ لوجود دليل آخر أقوى منها، وأمثلة ذلك أكثر من أن تُحصى.

إن مناقشة مسألة سدل اليدين في الصلاة أو قبضهما، أو غيرها من المسائل الموجودة في الكتيب المذكور والمخالفة لمعتمد المذهب المالكي وقول إمامه ليست مقصودة لذاتها، وإنما

(1) الصاوي، أحمد بن محمد الصاوي المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، على الشرح الصغير، = لأحمد بن محمد بن أحمد الدردير، مصر- القاهرة، مكتبة الخالجي للنشر، الجمهورية العربية الليبية، طرابلس، دار مكتبة الفكر، ط الأخيرة، 1952م، 118/1.

(2) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مصر، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ب. ط، ب. ت، 166/1.

(3) الأصحبي، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصحبي المدني، المدونة، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، 1994م، 169/1.

المقصود هو المنهجية التي صدرت هذه الفتاوى بناء عليها، والتي تبين أنها مخالفة لقول إمام المذهب، ومعتمد مذهبه، وما عليه الفتوى والعمل في ليبيا، بل ومخالفة لنص قانون إنشاء دار الإفتاء الذي وضعته دار الإفتاء ذاتها، وفي هذا عظيم الأثر السيء على الهوية الدينية الليبية، وتوافق أبناء هذه الهوية، وفتح للمجال أمام التيارات الدينية الدخيلة التي لا تعتمد منهجاً منضبطاً للفتوى؛ بل تعتمد انتقائية لا تقوم على أي أساس، ولا يقول بها أي مذهب من المذاهب المعتمدة.

الخلاصة:

أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث، وساهمت ولو بالقليل في إثراء المكتبة المالكية خصوصاً، والفقهية عموماً، وفي دعم الهوية الدينية الليبية الوسطية المعتدلة التي ورثناها عن علماء البلاد كبراً عن كبر.

وإتماماً للفائدة ختمت البحث بنتائج وتوصيات.

أولاً- النتائج:

- العرف مرجع معتبر للأحكام الفقهية، وملزم لأبناء البلد السائد فيه، ومنه وضع الفقهاء قاعدة " المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ".
- أحكام الفقهاء عند استقرارها في أي مجتمع تتحول مع الزمن إلى عرف بين الناس، يحكم تصرفاتهم، وينظم شؤون حياتهم.
- عمل أهل المدينة عرف بدأ في صورة أحكام فقهية، صدرت زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - مروراً بالصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن وصل إلى الإمام مالك - رحمه الله - وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل، فأسهمت في تكوين الهوية الدينية والاجتماعية للمجتمع المدني.
- استقرار الناس على حال معين في أحوالهم وأفعالهم يجعل لهذه الأقوال والأفعال حجية، ومن ثم مصدراً للأحكام الفقهية، واداة لتحديد دلالة النصوص.
- ابتداء الأعراف والعوائد في صورة أحكام فقهية يجعل منها أعرافاً موافقة للشريعة الإسلامية، ثم ما استحدث من أعراف يوزن بميزان الشرع، فإن وافق الأخير كان معتبراً، وإلا رد ونهى عنه.
- باعتبار الإمام مالك - رحمه الله - لعمل أهل المدينة مصدراً للفقه فإنه يكون قد أصل لمنهجية تعتمد أعراف جميع الأمصار مصدراً للفقه، مالم تخالف صحيح وصریح

الشريعة الإسلامية.

- إدخال أحكام فقهية في بيئة غير بيئتها يسبب فتناً وشقاقاً بين المتخصصين في الشريعة الإسلامية، وبين أبناء المجتمع عموماً، وهذا يؤثر سلباً في ثقة الناس بالعلماء، وفي دور العلماء في حفظ الهوية الدينية للبلاد.
- نسبة دار الإفتاء لبلد معين يلزمها باعتبار واحترام هوية ذلك البلد، بما فيها من أعراف وعادات، فلا تخالفها بأحكام دخيلة تخالف ما اعتاده الناس من الفتاوى، وهذا مذهب المحققين من المذهب المالكي وغيره.

ثانياً: التوصيات:

- إعادة النظر في القانون 15 لسنة 2012م بشأن إنشاء دار الإفتاء الليبية، وخاصة المادة 11 منه، وتعديلها بما يوافق الهوية الدينية الليبية، وجعلها أكثر وضوحاً وصراحة.
- التواصل مع دار الإفتاء الليبية بالخصوص، وتنبيهها لآثار هذا القانون وهذه المنهجية في الإفتاء على المجتمع الليبي.
- تكثيف الندوات والمؤتمرات العلمية التي تسلط الضوء على الهوية الدينية الليبية، ومتطلبات هذه الهوية.
- الاستفادة من تجارب الدول العربية والإسلامية بخصوص آليات دعم الهوية الوطنية، وخاصة دار الإفتاء المصرية والأزهر الشريف، والمجلس الأعلى للإفتاء بالمغرب.
- العمل على نشر المذهب المالكي من خلال البرامج التلفزيونية والمطويات والكتيبات العلمية.

المصادر والمراجع

أولاً- القرآن الكريم

برواية قالون عن نافع، والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني.

ثانياً- المراجع الفقهية:

1. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مصر، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ب. ط،

- ب. ت.
2. إسماعيل، موسى، عمل أهل المدينة وأثره في الفقه الإسلامي، الجزائر، دار التراث ناشرون، لبنان، دار ابن حزم، ط1، 1424هـ - 2004م.
 3. الأصبحي، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، المدونة، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، 1994م.
 4. بن بيه، عبد الله بن الشيخ المحفوظ، صناعة الفتوى وفقه الأقليات، لبنان، بيروت، دار المنهاج، ط1، 1428هـ - 2007م.
 5. الجيدي، عمر بن عبد الكريم، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما عند علماء المغرب، اللجنة المشتركة لنشر إحياء التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، المغرب، المحمدية، مطبعة فضالة، 1982م.
 6. الخطاب، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين الرعيني، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، راجعه وخرج أحاديثه: محمد تامر، محمد عبد العظيم، مصر، القاهرة، دار الحديث، ب. ط، 1431هـ - 2010م.
 7. دردور، إلياس، عمل أهل المدينة عند المالكية وعلاقته بالأدلة الكلية، لبنان، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1435هـ - 2014م.
 8. الدسوقي، شمس الدين محمد عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لأبي البركات سيدي أحمد الدردير، وبهامشه تقارير الشيخ محمد عيش، ب. ط، د، دار إحياء الكتب العربية، ب. ط، ب. ت.
 9. سيف، أحمد محمد نور، عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، الإمارات العربية المتحدة، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط2، 1421هـ - 2000م.
 10. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح: عبد الله دراز، مصر، القاهرة، دار الحديث، ب. ط، 1427هـ - 2006م.
 11. الصاوي، أحمد بن محمد الصاوي المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، على الشرح الصغير، لأحمد بن محمد بن أحمد الدردير، مصر- القاهرة، مكتبة الخانجي للنشر، الجمهورية العربية الليبية، طرابلس، دار مكتبة الفكر، ط

الأخيرة، 1952م.

12. القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس المصري المالكي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، لبنان، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط2، 1416 هـ 1995م.
13. القرطبي، أبو عمرو، المعروف بابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، المغرب، ب. ط، 1387هـ.

14. اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 1428 هـ - 1998م.
- ثالثاً: المقالات والبحوث العلمية:

1. أبو غرارة، ضو مفتاح - أبو راس، علي، قراءة لتفعيل دور الدين في تشكيل الهوية، بحث غير منشور.
2. كنون، عبد الله، قاعدة العمل حجة في مذهب مالك، الكويت، مجلة العربي، العدد 152، 1971م.

رابعاً- الجرائد الرسمية:

1. الجريدة الرسمية، العدد 3، السنة الأولى، ص 146-155.

خامساً- الكتيّبات:

1. صفة الصلاة وأدلتها، صادر عن دار الإفتاء الليبية، لا توجد بيانات طباعة.

دور زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر في ترسيخ الهوية الفقهية المالكية في ليبيا
أ. عبد الرحمن الطيب دراه/الجامعة الأسمرية

المقدمة

تعد الزاوية الأسمرية من أكبر الصروح العلمية داخل القطر الليبي، وذلك لمسيرتها العلمية المتصاعدة، والتي لم يتخللها أي انقطاع، من يوم تأسيسها على يد الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري رحمه الله، فكانت مصبا لجميع طلاب العلوم الشرعية من داخل القطر، كما كانت قلعة من قلاع الهوية الليبية كيف لا وهي جزء من ثقافتها العريقة، وما يهم هذا البحث هو الهوية الفقهية المالكية، والتي رسختها هذه الزاوية، وذلك باستقطاب كبار علماء البلد المتخصصين في هذا المذهب، والذين بدورهم درّسوا كتبه المتنوعة، ليتخرج من بين عرصات هذه الزاوية كوكبة من التلاميذ النجباء، ليصبحوا نجوما في سماء هذه البلد، مرسخين لهويتها الدينية في قلوب الأجيال من بعدهم، لهذا جاءت فكرة هذا البحث. فإزاء هذا البحث بعنوان: "دور زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في ترسيخ

الهوية الفقهية المالكية في ليبيا".

• أهم الإشكاليات:

- 1- هل اهتم الشيخ بالمذهب المالكي في حياته.
- 2- هل درّس الشيخ الأسمر الفقه المردييه.
- 3- ما أهم الكتب المالكية التي كان يدرّسها.
- 4- هل اهتمت زاويته من بعده بترسيخ المذهب المالكي، ليكون ضمن هوية هذه البلد.

5- ما هي أهم كتب الفقه المالكي التي كانت تدرس في زاويته من بعده.

6- من هم أهم أعلام المالكية الذين درّسوا ودرّسوا في هذه الزاوية.

• منهج البحث:

سيكون السير في هذا البحث بأسلوب التبع لسيرة الشيخ الفقهية، واستقراء أهم كتب المالكية التي تعلقت بالشيخ وبالزاوية، مع ترجمة لبعض فقهاء المالكية الذين تعلقوا بالزاوية.

• خطة البحث:

• المقدمة

- المبحث الأول: أهم الكتب الفقهية المالكية التي درّست بالزاوية.
 المطلب الأول: التعريف بالشيخ الأسمر وأهم الكتب التي درّسها.
 المطلب الثاني: أهم الكتب الفقهية المالكية التي درّست فيها.
 المبحث الثاني: نماذج من مشايخ المالكية الذين علموا الفقه المالكي بها.
 المطلب الأول: التعريف بالشيخ رحومة الصباري.
 المطلب الثاني: التعريف بالشيخ منصور أبو زبيدة
 المبحث الثالث: نماذج من علماء المالكية الذين تلمذوا في هذه الزاوية.
 المطلب الأول: التعريف بالشيخ محمد قريو.
 المطلب الثاني: التعريف بالشيخ علي عبد الله جوان.

• الخاتمة.

• أهم النتائج.

• أهم التوصيات.

- المبحث الأول: أهم الكتب الفقهية المالكية التي درّست بالزاوية
 المطلب الأول: التعريف بالشيخ الأسمر وأهم الكتب التي درّسها بزوايته

• التعريف بالشيخ المؤسس:

هو عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران بن محيا بن سليمان الفيتوري الذي يرجع بنسبة إلى سيدنا الحسن بن علي - كرم الله وجهه - وابن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أجمعين¹.

1- كتب ترجمة له:

- الطبقات العروسية الشاذلية ومناقب القطب سيدي عبد السلام الأسمر¹ لأحمد حامد الشريف، مكتبة زهران ص 9.
- الإمام الفقيه عبد السلام الأسمر الفيتوري، لمحمد كامل العدوي، المكتبة المصرية، 2004، ص 61.
- "رسائل عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مردييه" لشيخ سيدي عبد السلام الفيتوري، تحقيق: الدكتور مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 1، 2003م، ص 11.

• مولده ووفاته:

ولد الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، سنة 880هـ-1475م، في مدينة زليتن.¹

وبعد عمر حافل امتد في حيز الزمان بما يناهز القرن أو يزيد قضى سيدي عبد السلام نحبه مريضاً بداء القولنج، بعد أن أشهده الله ثمار غرسه، والمتمثل في عشرات العلماء الذين تخرجوا على يديه، ومئات المريدين الذين أخذ بأيديهم إلى طريق الحق والخير. وكانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة العصر في العشر الأواخر من شهر رمضان، وبات مغسلاً في غرفته، ودفن في الغد بعد صلاة الجمعة، ودفن بزوايته المعروفة بزليتن بأرض طرابلس الغرب، وكان ذلك سنة 981هـ.²

• الكتب الفقهية التي كان يدرّسها:

من المشهور أن الشيخ-رحمه الله- كان يُعَمَلُ وقته بالذكر والعلم، وكان أكثر أوقات تدريسه للعلوم نهراً، فقد كان الوقت التي خصصه الشيخ لتدريس الفقه من بعد الظهر إلى العصر، وكان الشيخ ﷺ في هذا الوقت يدرس كتابين من أهم كتب المذهب وهما: مختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.

يقول الشيخ عبد الرحمن المكي تلميذ الشيخ في هذا الأمر: "وكان الشيخ-رحمه الله- بعد صلاة الظهر يقرئ: المختصر، والرسالة إلى أن يصلي العصر"³.

المطلب الثاني: أهم الكتب الفقهية المالكية التي درّست فيها

سيكون الكلام في هذا المطلب حول الكتب الفقهية المالكية التي تم تدريسها في هذه الزاوية من يوم تأسيسها حتى عصرنا الحاضر، من كتب فقه وأصول وفرائض.

• كتب الفقه:

- مختصر الأخضري، لعبد الرحمن بن محمد الأخضري، بشرح الشيخ صالح عبد السميع

1- ينظر: رسائل الأسمر 20، الطبقات العروسية 9.

2- ينظر: رسائل الأسمر 20، الطبقات العروسية 9.

3- تنقيح روضة الأزهار 207، المجلة الأسمرية، عدد 1، 2003م ص 474.

الآبي، المسمى: "هداية المتعبد السالك"¹.

- حاشية الصفتي²: وهي حاشية يوسف بن سعيد الصفتي، على متن عبد الباري العشماوي في العبادات، والذي أكمله وشرحه كاملاً الشيخ: أحمد بن تركي المالكي³. وقد درس هذا الكتاب مجموعة من العلماء منهم: الشيخ: أحمد المحجوب⁴. الشيخ: أحمد المبسوط⁵، الشيخ: منصور أبو زبيدة⁶، الشيخ: عبد الله حمودة⁷، الشيخ: سالم بن عيسى⁸، الشيخ: مصطفى التريكي⁹، الشيخ بشير المحجوب¹⁰، الشيخ: محمد منصور أبو زبيدة¹¹.
- نظم ابن عاشر: المسمى: المرشد المعين للضروري من أحكام الدين، لعبد الواحد بن أحمد ابن عاشر، بشرح محمد ميارة المسمى: "الدر الثمين والمورد المعين"¹².

-
- 1- قد طبع هذا الشرح عدة طبعات، ولم أقف على من درسه من الأقدمين في الزاوية؛ لأنه للبتدئين، وقد قام بتدريسه العبد الفقير لمجموعة من الطلاب في الزاوية، كما درسه بعض الزملاء منهم: الشيخ: حمزة محمد مفتاح الصوري، الشيخ: محمود على الكشر، والشيخ: عبد الرزاق محمد العيان وغيرهم.
 - 2- ينظر: الزاوية الأسمرية العلمية بزيتن ودورها التربوي في ليبيا، لرحومة بوكرحومة، مركز جهاد الليبيين، ط/1، طرابلس ليبيا، 2006. ص 98، مجلة الجامعة الأسمرية، عدد خاص، جهود العلماء الليبيين في خدمة المذهب المالكي، 2019م. ص 643.
 - 3- هذا الكتاب يعد من الأساس الذي وضعت للبتدئين في تلقي العلوم الشرعية داخل الزاوية، فأول ما يلتحق الطالب بالدرجة الأولى يدرس هذه الحاشية. لقاء مع الشيخ محمد فيخيرة، بيته، يوم الخميس، الساعة 12 ظهراً، 28/شعبان/1443هـ، موافق 31/3/2022م.
 - 4- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، سنة 2009م. ص 449.
 - 5- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 449.
 - 6- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 448.
 - 7- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 457.
 - 8- قد درس عليه هذا الكتب الشيخ القاضي: عمر محمد حميميد في زاوية الشيخ أثناء دراسة الشيخ عمر القرآن في زاوية الشيخ. لقاء مع الشيخ عمر حميميد في بيته أجرته يوم الأحد بعد صلاة العصر 18/4/2022م، 16/رمضان، وذلك بمنزله بمنطقة ماجر.
 - 9- وقد درس هذه الحاشية على الشيخ: مصطفى التريكي، الشيخ: محمد فيخيرة، وقد أخبرني الشيخ: محمد بذلك.
 - 10- قد درست عليه رحمه الله هذا الحاشية مع مجموعة من الزملاء في ملحق الزجاج بالجامع الأسمرى.
 - 11- قد درست عليه هذه الحاشية بزاوية الشيخ، وقد كان معي زميلي من تونس هو الشيخ: عمر ابن علي.
 - 12- ينظر: الزاوية الأسمرية 98، مجلة الأسمرية عدد خاص 643.

وقد درّس هذا الكتاب كل من: الشيخ: أحمد المحجوب، الشيخ: أحمد المبسوط، الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: عمران العلوص، الشيخ: محمد بن الحسين بن علي القماطي شفلو¹، الشيخ: محمد المدني الشويرف².

- الرسالة: لعبد الله ابن أبي زيد القيرواني، وقد درست الرسالة بشروح كثيرة منها:
- شرح الشيخ أحمد زروق على الرسالة، مع شرح الشيخ ابن ناجي على الرسالة أيضا³.
أ- شرح علي بن محمد بن خلف المصري، المسمى: "كفاية الطالب الرباني"، بحاشية على الصعيدي العدوي⁴ وقد كان يدرس هذا المتن مجموعة من العلماء منهم: الشيخ: أحمد المحجوب، الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: محمد السليبي، الشيخ: محمد القماطي شفلو، الشيخ: امحمد جوان⁵، الشيخ: رحومة الصاري⁶، الشيخ: عبد الله حمودة⁷. الشيخ: الطيب المصراطي⁸، الشيخ: مخزوم الشحومي⁹، الشيخ: محمد المحروق¹⁰.

- مختصر الدردير¹¹، أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، للشيخ أحمد الدردير، وبشرحه على مختصره المعروف: "بالشرح الصغير"، مع حاشية الإمام أحمد الصاوي على هذا الشرح، المسماة: "بلغة السالك"¹².

- 1- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 448-449-458.
- 2- قد درس عليه هذا الكتاب الشيخ محمد فنيخرة، أخبرني بذلك في لقاء مع الشيخ محمد فنيخرة.
- 3- المجلة الأسمرية العدد 1، سنة 2003 م ص 476.
- 4- ينظر: الزاوية الأسمرية 99.
- 5- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 448-449-456-458.
- 6- ينظر: الشيخ الفقيه الهادي بن محمد سعود المسلاقي كلمات في تأيينه وبيان فضله، لعبد السلام سعود، دار المالكية، تونس، ط 1، 2020 م، ص 51، المجلة الأسمرية عدد 11 ص 451.
- 7- وقد درس عليه هذا الكتب الشيخ: محمد منصور أبو زبيدة، والشيخ: محمد الأحوال الصفراني. لقاءات أجريتها معهما.
- 8- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 459.
- 9- وقد درسها عليه الشيخ محمد فنيخرة، لقاء أجرته معه.
- 10- وقد حضرت عليه شرح هذا الكتاب بالجامع الأسمرى قرب المحراب في كرسي المسجد-رحم الله- شيخنا: محمد المحروق رحمة واسعة.
- 11- ينظر: الزاوية الأسمرية 99.
- 12- وبعد أن دخل بعض التنظيم للجانب العلمي داخل الزاوية أصبح يقسم هذا الكتاب على ثلاثة أقسام: الأول: من بدايته حتى الجهاد، والثاني: من الجهاد حتى الخلع، والثالث: من الخلع حتى آخر الكتاب. لقاء مع الشيخ: محمد فنيخرة، وينظر: المجلة الأسمرية عدد خاص 645.

ويعد هذا الكتاب عمدة كتب المالكية في هذه الزاوية، فهو تنقيح لمختصر الشيخ خليل، لهذا تولاه علماء هذه الزاوية بالاهتمام، ومن درس هذا الكتاب في هذه الزاوية مجموعة من العلماء، منهم: الشيخ: محمد القط الورفلي¹، الشيخ: أحمد المحجوب، الشيخ: أحمد المبسوط، الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: محمد السليبي، الشيخ: رحومة الصاري، الشيخ: أبو بكر حمير، الشيخ: مفتاح اللبيدي، الشيخ: محمد القماطي شفلو، الشيخ: الطيب المصري².

- مختصر خليل، لخليل بن إسحاق الجندي، بشرح الشيخ أحمد الدردير المسمى: الشرح الكبير، مع حاشية: محمد عرفة الدسوقي³.

ومن درس هذا الكتاب ثلة من العلماء، منهم: الشيخ: عبد الحفيظ بن محسن، الشيخ: الشيخ محمد القط الورفلي⁴، الشيخ: أحمد مفتاح المحجوب، الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: رحومة الصاري، الشيخ: محمد السليبي، الشيخ: أبو بكر حمير، الشيخ: سليمان الزويبي⁵.

- نظم العاصمية: المسمى: "تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام"، للقاضي أبي بكر ابن عاصم، بشرح: علي التسولي المسمى: بالبهجة، مع حاشية محمد التاودي⁶.

وهذا الكتاب من الكتب المتقدمة التي غالباً ما تدرس لأصحاب المستويات العليا داخل الزاوية الأسمرية، وقد درس هذا الكتاب مجموعة من الشيوخ منهم: الشيخ: عبد الحفيظ بن محسن⁷، الشيخ: رحومة الصاري⁸، الشيخ: أحمد المحجوب، الشيخ: أحمد المبسوط، الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: فرج عبد السلام حرير⁹.

1- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24 سنة 2015م، ص 248.

2- ولا زال هذا الكتاب يدرس في الزاوية الأسمرية إلى اليوم، بالطريقة القديمة، كما أنه لا زال يدرس بالجامعة الأسمرية بالطريقة الأكاديمية كمنهج معتمد في كلية الشريعة والقانون. ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 448-449-451-

454-457-458، الفقيه الهادي المسلاقي 51.

3- ينظر: الزاوية الأسمرية 99، المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476.

4- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24 ص 245-248.

5- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 449-451-458.

6- ينظر: المجلة الأسمرية عدد خاص 643، الزاوية الأسمرية 99.

7- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24، ص 245.

8- ينظر: الفقيه الهادي المسلاقي 51.

9- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 448-451.

- المجموع: للشيخ محمد الأمير، وقد شرحه في كتاب: ضوء الشموع، وقد درّس هذا الكتاب في الزاوية الأسمرية الشيخ: عبد الحفيظ بن محسن، وقد أضاف له تعليقات واستدراكات مفيدة¹.

- تبصرة الحكام: لإبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون².

- الموطأ: للإمام مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله³.

• كتب القواعد والأصول الفقهية:

- الفروق: وهي كتاب في الفروق والقواعد الفقهية للشيخ: شهاب الدين القرافي، الموسم: أنوار البروق في أنواء الفروق⁴.

وهذا الكتاب من الكتب الفقهية التي تدرس في الزاوية الأسمرية للمتقدمين في المستوى الفقهي، لما فيه من بيان الفروق الفقهية بين أصول المسائل المنتشرة في كتب المالكية، ومن درّس هذا الكتاب الشيخ: منصور أبو زبيدة⁵.

- الورقات: مختصر الورقات للإمام الحرمين عبد الملك الجويني، بشرح الشيخ: محمد الخطاب، المسمى: "قرة العين"⁶.

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي اعتمدت في المنهج التعليمي الأسمري كمدخل للطلبة المبتدئين في مادة أصول الفقه، وقد درّس هذا الكتاب مجموعة من العلماء

1- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24، ص 245.

2- لم أقف على من درّس هذا الكتاب غير أن الشيخ: مصطفى عمران بن رابعة قد ذكره من ضمن المناهج التي كانت تدرس في الزاوية الأسمرية. ينظر: المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476.

3- وقد درّس هذا الكتاب كل من الشيخ: محمد المحروق، وقد تحصلت على إجازة منه في هذا الكتاب، وأيضاً: قد شرحه الشيخ: مصطفى بن رابعة وقد حضرت عليه هذه الدروس التي ألقاها رحمه الله. ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24، ص 244.

4- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 1، ص 454.

5- ينظر: ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 454. كما أن هذا الكتاب قد درس مختارات منه الشيخ: علي عبد الله ديهوم في الزاوية الأسمرية، وقد حضرت عليه بعضاً منها.

6- ينظر: ينظر: المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476، الزاوية الأسمرية 101.

- منهم: الشيخ: منصور أبو زبيدة¹، الشيخ: رحومة الصاري².
- لب الأصول: للشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، بشرحه على لبه، المسمى: غاية الوصول³.
ويعد هذا الكتاب من الكتب المهمة في أصول الفقه، فهو تنقيح لكتاب جمع الجوامع الذي يعد عصارة كتب الأصول، ولهذا كان مصب اهتمام علماء الأسمرية، وقد درسه ثلة من العلماء أهمهم: الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: أبو بكر حمير⁴. الشيخ: الطيب المصراقي⁵.
- جمع الجوامع: لتاج الدين عبد الوهاب السبكي، بشرح الشيخ: محمد المحلي، مع حاشية الشيخ: البناني على هذا الشرح⁶.
- وقد كان هذا المختصر من الكتب العليا التي لا يدرسها إلا المتقدمون من طلبة العلوم الشرعية، ولهذا لا يدرس مثل هذه الكتاب إلا كبار المشايخ بالزاوية الأسمرية، ومنهم: الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: أبو بكر حمير⁷.
- التنقيح: وهو مختصر الشيخ شهاب الدين القرافي المسمى: تنقيح الفصول، بشرح الشيخ نفسه على مختصره، مع حاشية الشيخ: محمد جعيط عليه، المسماه: منهج التحقيق والتوضيح لحل غوامض التنقيح⁸.
- منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، لشيخ عثمان ابن الحاجب، بشرح الشيخ: الإيجي، وحاشيتي الجرجاني والتفتازاني⁹.

1- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 448.

2- ينظر: الفقيه الهادي المسلاقي 51.

3- ينظر: الزاوية الأسمرية 101، لقاء مع الشيخ محمد فنيخرة.

4- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11 ص 448-454.

5- قد درس هذا الكتاب على الشيخ الطيب الشيخ محمد فنيخرة، أخبرني به الشيخ محمد فنيخرة في لقاء معه.

6- ينظر: الزاوية الأسمرية 101. المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476.

7- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 448-454.

8- لم أقف على من درس هذا الكتاب في الزاوية الأسمرية غير أن بعض المراجع تذكره من ضمن المناهج الدراسية بالزاوية،

وقد درسه الشيخ: عمر التومي الشيباني ولكن لم أقف على يد أي عالم من العلماء. ينظر: الزاوية الأسمرية 101،

المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476، المجلة الأسمرية عدد 11، ص 132.

9- أيضا: لم أجد من درس هذا الكتاب في هذه الزاوية غير أن الشيخ مصطفى برباعة قد ذكره في عداد المناهج الدراسية

في هذه الزاوية. ينظر: المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476.

• كتب الفرائض:

- الرحبية: نظم في الفرائض لشيخ: محمد بن علي الرحبي، وعليه عدة شروح وحواشي منها: أ. شرح الشيخ: محمد سبط المارديني.
 - ب. الفوائد الشنشورية شرح المنظومة الرحبية، لشيخ: عبد الله محمد الشنشوري¹.
 - ويعد هذا النظم من المتون المعتمدة في الفرائض داخل المنهج التعليمي الأسمري، ولهذا تلقاه علماءها بالشرح والتحليل، ومن أهم العلماء الذين تولوا هذه المهمة هم: الشيخ: منصور أبو زبيدة، الشيخ: عمران العلوص، الشيخ: أبو بكر حمير، الشيخ: الهادري سعود المسلاتي، الشيخ: محمد جوان، الشيخ: محمد الحسين القماطي شفلو²، الشيخ: ارحومة الصاري³.
 - الدرة البيضاء: نظم في الفرائض والحساب للشيخ عبد الرحمن الأخضرري، بشرح الشيخ نفسه على نظمه، بحاشية الشيخ: محمد الدرناوي⁴.
 - ويعد أكثر من درس هذه المنظومة في الزاوية الأسمرية هو الشيخ: منصور أبو زبيدة، فقد اعتنى بها بالغ الاعتناء شرحا وتوضيحا وتعليقا⁵.
 - مختصر الحوفي: لشيخ: أحمد الحوفي، وهو مختصر في الفرائض⁶.
- المبحث الثاني: نماذج من مشايخ المالكية الذين علموا الفقه المالكي بالأسمرية
- سيكون الكلام في هذا المبحث على شخصيتين من علماء الزاوية الأسمرية أثروا الجانب الفقهي داخل الزاوية، فدرسوا جملة من كتبه ومختصراته.

1- ينظر: الزاوية الأسمرية 105.

2- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، 448-454-455-456-460.

3- ينظر: الفقيه الهادي المسلاتي 51.

4- ينظر: الزاوية الأسمرية 106.

5- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 448-449-451.

6- لم أقف على من درس هذا المختصر في هذه الزاوية إلا أن الشيخ: مصطفى بن رابعة قد ذكره ضمن منهجية الزاوية العلمية. ينظر: المجلة الأسمرية عدد 1، ص 476.

المطلب الأول: الشيخ رحومة الصاري

• نسبه:

هو الشيخ العلامة المشارك: رحومة بن محمد بن رحومه بن محمد بن محمد بن رحومة بن محمد بن رحومة بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد الصاري، الصوفي الأشعري المالكي الأسمرى.
ولد: بقرية سيدي أحمد الباز، من مدينة زيتن، ليلة الثاني عشر من شعبان سنة 1283هـ، الموافق: 1866م¹.

• بداياته العلمية:

حفظ القرآن مبكراً: على يد عمه الشيخ: على الصاري، كما أخذ عليه مبادئ العلوم الشرعية كالفقه واللغة.

ثم تنقل بين مساجد زيتن يتلقى العلوم الشرعية المتنوعة، على شيوخها وعلمائها، ومن بين هذه الزوايا زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر.

ثم سافر إلى الحجاز سنة 1895م، وتلقى هناك علوم التصوف، والتفسير، والحديث.

ثم رجع إلى بلاده زيتن وبدأ في إلقاء العلوم الشرعية، والخطب الجمعية، كما تولى القضاء في زيتن بتكليف من الحكومة الوطنية، حتى غزو الطليان، ليبدأ في نصرة المجاهدين والتحريض على الجهاد، حتى اعتقاله سنة 1341هـ، ليبدأ في وظيفته الجديدة، وهي تدريس العلوم الشرعية داخل السجن، وتأليف المؤلفات داخل المعتقل، كما هي حياة العلماء التي لا تعرف الراحة في أي ظرف وعلى أي حال.

حتى صدر من الغزاة أمر عفو، ليضمحل هذا العفو فضيلته، ليملك مدة ثلاث سنوات في زاوية سيدي أحمد زروق يدرس العلوم الشرعية، رجع من بعدها إلى مدينته زيتن ليلتحق بالأسمرية، ليتهافت عليه الطلبة شاربين من منهله-رحمه الله.

حتى وفاته ليلة الاثنين الخامس من ربيع الأول سنة 1366هـ، الموافق: 1947/1م، على عمر يفوق الثمانين سنة رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته².

1- ينظر: المجلة السمرية عدد 1، ص 592، من أعلام الزاوية الأسمرية زيتن، لمحمد أبو بكر حمير، رابطة آل البيت = الفواتير، 2014م. ص 13،

2- ينظر: المجلة السمرية عدد 11، ص 592، المجلة السمرية عدد 24، ص 248، من أعلام الزاوية 13.

• شيوخه:

تلمذ الشيخ رحمه الله على يد مجموعة من العلماء كانوا سببا في صقل هذه الشخصية الفذة التي استفادة وأفاد، من بين أهم شيوخه:

- عمه الشيخ علي الصاري: وقد درس عليه اللغة والفقه كما بين.
- الشيخ: مفتاح بن زاهية، وقد درس عليه: شرح أبي الحسن على الرسالة، وأقرب المسالك، وشرح التاودي على العاصمة، وشيئا من مجموع الأمير.
- الشيخ: محمد بن مسعود، بجامع دغار. - الشيخ: عبد السلام كريم بالزاوية المدنية.
- الشيخ: محمد الفطيسي، بزاوية الفطيسي.
- الشيخ: عبد الحفيظ بن محسن، بزاوية الأسمر، وأخذ عنه: الشرح الكبير، والتاودي على العاصمة.
- الشيخ: محمد الجفاري، وأخذ عنه: علوم اللغة، وعلم الكلام.
- الشيخ: يونس بن محسن، وأخذ عنه: الفلك والفرائض.
- الشيخ المريني: الطاهر التباني: وأخذ عنه التصوف والتربية¹.

• تلاميذه:

- وبما أن الشيخ كان مشاركا في كثير من العلوم، مما جعل منه مقصد الجميع، دراسة وإفتاء وتربية، لهذا كثر تلاميذه الذين أخذوا عنه بزاوية الأسمر، ومنهم:
- الشيخ: الهادي سعود المسلاقي، درس عليه: شرح بن خلف على الرسالة، أقرب المسالك، البهجة شرح التحفة، الشرح الكبير على خليل، قرّة العين شرح الورقات، ابن غلبون على الرحبية، جوهرة التوحيد².
 - الشيخ: عمران العلوص، ودرس عليه: شرح خليل، تحفة الحكام، جوهرة التوحيد³.
 - الشيخ: الطيب المصراقي، وأهم ما درسه عليه: الشرح الكبير على خليل، ايساغوجي في

1- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 592، ينظر: المجلة الأسمرية عدد 24، ص 248، الإفهام في تراجم من نسب

لمدينة زيتن من الأعلام، لإدريس حمودة، دار بن حمودة، ط/1، 2021م. ص 34.

2- ينظر: الفقيه الهادي 51.

3- ينظر: المجلة السمرية عدد 11، ص 449.

المنطق، تفسير الجلالين، الجوهر المكنون في البلاغة¹.

- الشيخ: محمد جوان، وأخذ عنه: الرسالة، أقرب المسالك، شرح خليل، الخريدة في عقائد أهل السنة الأشاعرة².

• مؤلفاته الفقهية:

القيمة العلمية للشيخ رحومة-رحمه الله- جعلت من قريحته تجود من مجال الفكر إلى مجال الكتابة، ليكون نتاجها جملة من المؤلفات المختلفة، وفي أكثر من فن بين اللغوي، والفكري، والفقهية ومن أبرز مؤلفاته الفقهية: (مجموعة من الفتاوى في بعض النوازل)³.

المطلب الثاني: الشيخ منصور أبو زبيدة

• نسبه:

هو الشيخ الجليل المشارك: منصور سالم أبو زبيدة العقوبي الفيتوري الأسمرى الصوفي الأشعري المالكي.

ولد: بمنطقة ازدو بزليت، سنة 1292هـ، الموافق: 1875م، وتربى عند أخواله الظفيرات، بمنطقة إزدو⁴.

• بداياته العلمية:

بدأ حفظ القرآن الكريم بمسجد التير على يد الشيخ: أبي زيد التير، ثم أتم حفظ القرآن بزواية السبعة على يد الشيخ: محمد البكوش.

انتقل بعدها الشيخ رحمته إلى جامع الزيتونة العامر بتونس، وتلقى العلوم الشرعية على يد كبار علمائها، فقها ولغة، وتفسيرا، وعقيدة ومنطقا وغيرها.

رجع بعدها لزواية السبعة للتدريس والفتوى، حتى طلب منه إجازة معتمدة للفتوى، سافر بعدها إلى الإستانة عاصمة الخلافة تحصل منها على مجموعة من الإجازات في الفتوى

1- ينظر: نصوص السيس في السيرة الذاتية في ليبيا، الروض العاطر في تاريخ حياة أبي علي بن طاهر، لطيب بن طاهر المصراقي، نقد/ طاهر بن طاهر، منشورات جامعة مصراته، ط/1، 2013م. ص 79.

2- ينظر: المجلة السمرية عدد 11، ص 451.

3- ينظر: مؤتمر المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، جامعة المرقب كلية الشريعة، 2019م. 1183/5.

4- ينظر: المجلة السمرية عدد 11، ص 591، المجلة السمرية عدد 24، ص 254، من أعلام الزاوية 23، الإفهام 208.

والحديث. على يد الشيخ: إسماعيل الصفايحي.

عاد بعدها إلى زليتن ليبدأ في التدريس بزواية السبعة، فلم يلبث حتى وشى فيه الواشون على أنه يحرّض الناس ضد الطليان، فخرج إلى مدينة مصراتة، وبدأ التدريس بزواية سيدي: أحمد زروق وهو غير مطمئن، حتى بعث له رئيس بلدية زليتن على بن حمودة، مُطمئناً، فرجع إلى زليتن وهذه المرة إلى زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، لتبدأ رحلته التدريسية بهذه الزاوية.

كما أن الشيخ ﷺ تحصل على إجازة في التربية والسلوك، بالطريقة العروسية على يد الشيخ: عمران بن علي الظفير الفيتوري.

واستمر بالتدريس والفتوى بزواية الشيخ حتى وافته المنية في الثاني عشر من رجب سنة 1387هـ، الموافق 1967/10/15م، ودفن بمقبرة السبعة، وقد صلى عليه تلميذه الشيخ: الطيب المصراطي¹.

• شيوخه:

تتلمذ الشيخ على مجموعة من الشيوخ داخل البلد وخارجها، وكان تدقيقه العلمي بجامع الزيتونة المعمور فن أهم مشايخه هناك:

- الشيخ: عمر بن عاشور، درس عليه: قرّة العين شرح ورفقات.
- الشيخ: صالح بن الحاج أحمد العسلي الكافي، درس عليه: ميارة على ابن عاشور، الشنشورية على الرحبية.
- الشيخ: أحمد الماي: ودرس عليه: التاودي على التحفة، وشرح الإيجي على مختصر ابن الحاجب الأصولي.
- الشيخ: خليفة بن عروس، درس عليه: شرح ميارة على ابن عاشور.
- الشيخ: محمد بن يوسف التركي، درس عليه: شرح المحلي على جمع الجوامع.
- الشيخ: صالح الهواري، درس عليه: شرح الصغير للدردير، قرّة العين، شرح المحلي على جمع الجوامع، الدرّة البيضاء في الفرائض.
- الشيخ: حسن بن أحمد، درس عليه: الشرح الكبير على خليل، التاودي على التحفة.

1- ينظر: المجلة السمرية عدد 11، ص 591، المجلة السمرية عدد 24، ص 254.

- الشيخ: أحمد بن حميدة الخوججة: درس عليه: شرح المحلى على جمع الجوامع¹.
• تلاميذه:

- درس على الشيخ-رحمه الله-ثلة من طلاب العلم صاروا من علماء هذه البلد، ونشروا العلم ورسخوا تعاليم الشريعة وهوية هذا البلد الدينية، ومن أبرزهم:
- الشيخ: عبد الله حمودة، درس عليه: شرح ميارة على ابن عاشر، الشرح الكبير، الدرّة البيضاء، التاودي على العاصمية.
- الشيخ: عبد السلام بن رحاب، مما درسه عليه: الشرح الكبير، قرة العين، شرح المحلى على الجمع، السنوسية الوسطى.
- الشيخ: عمران العلوص، مما درسه عليه: الشرح الكبير، شرح التاودي، الدرّة البيضاء، جوهرة التوحيد.
- الشيخ: عبد الله محمد طليبة، مما درسه عليه: حاشية الصفتي، الرسالة، لب الأصول، جمع الجوامع، الخريدة، النسفية.
- الشيخ: محمد مختار جوان، مما درسه عليه: شرح ابن عاشر، المحلى على الجمع، الدرّة البيضاء.
- الشيخ: مصطفى التريكي، درس عليه: الفروق للقراقي، الدرّة البيضاء.
- الشيخ: على الشويطر، درس عليه التاودي على العاصمية.
- الشيخ: المدنى الشويرف، درس عليه: الشرح الكبير، الدرّة البيضاء².
- مؤلفاته الفقهية:

قد اشتهر الشيخ رحمه الله بدقة فتواه في كل البلاد، ولهذا كان مقصدا لمريدين الفتوى، وكانت بعض هؤلاء يطلبونها مكتوبة، حتى تجمعت لدى الشيخ عدد من الفتوى، وقد قام بجمع هذه الفتاوى الشيخ على ديهوم في رسالة ماجستير، بعنوان: الشيخ منصور أبو زبيدة حياته وفتاواه.

1- ينظر: الشيخ منصور أبو زبيدة حياته وفتاواه، إعداد: على عبد الله ديهوم، إشراف: عبد السلام أبو ناجي، جامعة المرقب، قسم الدراسات العليا، شعبة الإسلاميات، 2007م. ص 57، المجلة الأسمرية عدد 24، 254.

2- ينظر: المجلة الأسمرية عدد 11، ص 447، الشيخ منصور أبو زبيدة حياته وفتاواه، ص 71.

المبحث الثالث: نماذج من علماء المالكية الذين تلهذوا في هذه الزاوية
تعد الزاوية الأسمرية من أكبر الصروح العلمية التي دعمت الهوية الدينية الليبية وخاصة
من الناحية الفقهية المالكية، فقد كانت دائمة الإنتاج، وتخرج الدفعات من الطلبة الذين
تم صقلهم ليكونوا مشايخ وعلماء في مدنهم وبلدانهم لنشر الشريعة وتعليم الناس أسس
دينهم، ولهذا كان هذا المطلب محلا لذكر ترجمة لشخصيتين فقهيتين تخرجوا من هذه
الزاوية، أفادوا الناس تعليما وإفتاء.

المطلب الأول: الشيخ محمد قريو

• نسبه:

هو العلامة المشارك: محمد بن مفتاح بن محمد الملقب بقريو، بن علي بن أحمد الملقب
بالشاوش، بن يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن رضوان بن الشاوش شاه الدردفي، الصوفي
الأشعري المالكي الأسمري.

ولد قبل فجر الجمعة 26/جمادى الثاني/ 1332هـ، الموافق: 1914/5/22م، بقرية
الغيران من قرى مدينة مصراتة.

• بداياته العلمية:

في سن السابعة من عمرة أرسله والده إلى مسجد القرية الدرادفة، ليبدأ في حفظ
القرآن على يد جده من جهة أمه، الشيخ: منصور بن حامد، حتى ختم القرآن عليه، ثم
تنقل على مجموعة من المشايخ لإتمام إتقانه منهم: الشيخ: عبد الواحد الأصيفر، ثم الشيخ:
عبد الله أبو شوفة في جامع الشلتات، ثم على يد الشيخ: محمد بن منصور في زاوية سيدي
أحمد زروق.

ثم بعد ذلك بدأ الشيخ في حفظ المتون العلمية وضبطها على يد والده الشيخ: مفتاح
قريو، وفي سنة 1352هـ وعمره 19 سنة، بدأ الشيخ في طلب العلم الشرعي في زاوية
الزروق.

ثم انتقل الشيخ بعد ذلك إلى مدينة زلتن لاستكمال تحصيله العلمي في زاوية
الأسمري، فأخذ عن كبار علمائها، حتى اشتد عوده علميا، ليتحصل على الشهادة الأهلية
سنة 1358هـ، ليصبح من شيوخها الذين يجلسون لإلقاء العلوم المختلفة للطلبة.

ثم انتقل إلى زاوية سيدي أحمد الباز ودرس فيها فترة لا بأس بها، لينتقل من بعدها إلى الجامعة الإسلامية بالبيضاء سنة 1964م.

وقد ألقى الشيخ العلم في مجموعة من المنارات منها: الأسمري، والزروق، والقويري الديني، مما أدى إلى كثرة طلبته، كما أن الناس كانت تقصده للوعظ والفتوى. لتستمر مسيرته العلمية لأكثر من خمسين سنة ليرجل الشيخ بعدها ليلة الأحد 7/ربيع الثاني / 1421هـ، الموافق: 2000/7/9م، ليدفن بعد الزوال بمقبرة سيدي مبارك، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وغفر الله لنا وله آمين¹.

• شيوخه:

- والده: صحح عليه مجموعة من المتون منها: ابن عاشر، الجوهرة، وأم البراهين.
- الشيخ: رحومة الصاري: وقد أخذ عنه جملة من العلوم كالفقه والأصول، والفلك، والمنطق، والكلام.
- الشيخ: منصور أبو زبيدة: أخذ عنه جملة من العلوم: منها جمع الجوامع، والذي قام الشيخ: محمد قريو بتدريسه أيضا².

• تلاميذه:

- الشيخ: الهادي سعود المسلاقي، وقد درس عليه شرح السلم في المنطق³.
- الشيخ: الطيب المصري⁴.
- الشيخ: أحمد عمر أبو حجر، وقد درس عليه، نظم الشيخ في الفرق الكلامية⁵.
- الشيخ: مصطفى محمد قواسم، لازمه ودرس عليه كثيرا، ومن أهم ما درس عليه شرح نظمه جواهر الفقه⁶.

1- ينظر: جواهر الفقه 8، دور زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في إحياء العلوم الشرعية، لمحمد سالم العجيل،

دار الصالح، رابطة آل البيت الفواتير، ط/1، 2013م. ص79.

2- كما قرأ الشيخ قريو على علماء الزاوية الأسمرية أيضا: أقرب المسالك، وشرح مختصر خليل، أفادني بذلك الشيخ

مصطفى محمد قواسم، وينظر: جواهر الفقه: 10.

3- ينظر: الفقهية الهادي المسلاقي 53.

4- ينظر: نصوص التأسيس 79.

5- لقاء مع الشيخ أحمد أبو حجر في بيته، يوم الجمعة 2020/3/25م.

6- لقاء مع الشيخ مصطفى محمد قواسم في بيته، يوم الجمعة 2022/4/8م.

• مؤلفاته الفقهية:

- نظم عون الساعي، نظم فيه متن العشماوية في الفقه.
- حاشية هون الساعي، شرح على نظمه المذكور¹.
- جواهر الفقه، نظم أقرب المسالك، وهو مطبوع.
- مجموعة فتاوي، مطبوعة في مجلدين.
- نظم المعتمد، نظم فيه: جمع الجوامع، ولم يكمله².

المطلب الثاني: الشيخ على جوان

• نسبه:

هو الشيخ الفقيه: علي بن عبد الله بن عبد القادر بن إبراهيم بن عبد الرحمن الحبتي الملقب بجوان، من نسل سيدي أحمد بن سيدي عمران بن الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر بن سليم الحازمي الفيتوري، الذي يرجع نسبه لسيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد الشيخ رحمه الله بمنطقة الشيخ، بزليتن سنة 1935م، وعاش في كنف والدته بعد أسر والده عند انهزام الطليان في الحرب العالمية الثانية لمدة أربع سنوات.

• بداياته العلمية:

عندما كان والده في المعتقل قام عمه الشيخ مختار جوان باصطحابه معه إلى زاوية الشيخ الأسمر، وكان عمه شيخ المحفظين بها، وبدأ دراسته للقرآن على يد عمه حتى ختمه على الشقة، وأجازه عمه الشيخ: مختار جوان. لينتقل بعدها الشيخ للسنة أولى لدراسة السنة أي: العلوم الشرعية سنة 1951م، وتدرج في هذه الدراسة حتى تحصل على الشهادة الثانوية. انتقل الشيخ بعدها إلى الجامعة الإسلامية بكلية الشريعة، حتى نال الشهادة العالمية سنة 1966م، ثم التحق الشيخ بعدها بالدراسات العليا بالجغوب في تخصص الفقه المقارن، حتى تحصل على الماجستير سنة 1968م. وكان وقت دراسته بالجغوب أستاذا بمعهد الجغوب الديني.

1- ينظر: مؤتمر المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، جامعة المرقب كلية الشريعة، 2019م. 974/5.

2- ينظر: جواهر الفقه، لمحمد قريو، دار الشعب، مصراته ليبيا، ط/2، 2008، ص21.

عين بعدها الشيخ محاضرا بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في البيضاء، حتى ضمت إلى جامعة قاريونس، ثم انتقل بعدها لجامعة طرابلس كلية التربية قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، ثم مشاركا بالمعهد العالي للإعداد المعلمين بزلتين، ثم محاضرا بكلية الآداب بزلتين التابعة لجامعة المرقب.

استمر الشيخ بها حتى سنة 1995م، حتى أجبره المرض على التقاعد الاختياري، فظلَّ الشيخ بعدها ملازما للبيت، ومع ذلك لم يتوقف عن العطاء العلمي، فكان مقصدا لطلاب الفتوى من كل ليبيا، بل كان أهل الخصومات يستحكمون عنده ويرضون بأحكامه ﷺ.

استمر الشيخ على هذا النهج أكثر من عشرين سنة، حتى وافته المنية يوم الأحد 3/شوال/1436هـ، الموافق 2015/7/19م، ودفن بمقبرة جده الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، وأوصى بأن يصلى عليه تليذه الشيخ: مصطفى محمد قواسم، رحم الله شيخنا رحمة واسعة.

• شيوخه:

تلمذ الشيخ ﷺ على جمهرة من علماء الأسمرية في جميع العلوم، ومن بينها الفقه المالكي، والذي يعد ركيزة من ركائز الهوية الدينية الليبية، والذي رسخته هذه الزاوية في أرواح مريديها وطلابها الذين يريدون سلوك طريق الحق، وكان من أبرز مشايخه في هذه الزاوية:

- الشيخ: أبو بكر حمير: ودرس عليه أقرب المسالك.
- الشيخ: سالم بن عيسى، ودرس عليه حاشية الصفتي.
- الشيخ: عمران الهادي بن رابعة، ودرس عليه: الشنشوري على الرحبية في الفرائض.
- الشيخ: عبد الله حمودة، ودرس عليه السنوسية في العقائد.
- الشيخ: أحمد كامل الزنتاني، وقرأ عليه: شرح السبط المارديني على الرحبية.
- الشيخ: الطيب المصري، ودرس عليه شرح السوسي الصغير في الفلك.

• مؤلفاته الفقهية:

- مذكرة في أحكام المغارسة.
- مذكرة في أحكام الرهن.
- مذكرة في أحكام النكاح.
- مذكرة في أحكام العبادات.
- مجموعة فتاوى.
- مذكرة أصولية في أحكام النسخ.
- مذكرة أصولية في أحكام الإجماع¹.

الخاتمة.

• أهم النتائج:

- وبعد هذا السرد لمجموعة من المعلومات الموثقة لتاريخ المذهب المالكي داخل زاوية الأسمري، يمكن حصر نتائج هذا البحث في الآتي:
- 1- كان مؤسس زاوية الأسمري الشيخ سيدي عبد السلام الأسمري مالكي المذهب.
 - 2- أهتم الشيخ-رحمه الله- بتدريس المذهب المالكي في زاويته.
 - 3- أهم الكتب التي كان يدرسها كتاب الرسالة لابن بي زيد، ومختصر الإمام خليل.
 - 4- اهتمت الزاوية الأسمرية من بعده بالمذهب المالكي دون غيره من المذاهب حفظاً وتدریسا.
 - 5- المنهج الدراسي داخل الزاوية لا يدرس إلا الكتب المعتمدة داخل المذهب.
 - 6- تنوعت الكتب المالكية في زاوية الأسمري بين المتون ومنظومات مع اختلاف في شروحها أحيانا.
 - 7- زحرت الزاوية الأسمرية بكوكبة من العلماء اهتموا بهذا المذهب كهوية، مع تنوع أسلوبهم في الشرح والتبيين لكتبه.
 - 8- يعد المذهب المالكي جزءا من هوية هذه الزاوية كما أنه ركن مهم من الهوية الدينية الليبية.

1- كما أن للشيخ رحمه الله عدت مؤلفات أخرى منها: 1- ترجمة الولي الصالح سيدي عبد السلام الأسمري الفيتوري، 2- ترجمة لشيخه منصور أبو زبيدة، 3- ترجمة لشيخه أبو بكر حمير لا تزال مسودة، وكل هذه المؤلفات لا تزال مخطوطة لم تخرج ككتب باسمه رحمه الله.
كما أن الشيخ رحمه الله قد قام بتدريس نظم ابن عاشر بالزاوية الأسمرية، ترجمة ذاتية كتبها الشيخ بنفسه تحصلت عليها من ابنه الشيخ: فرج على جوان، في لقاء مع الشيخ: فرج على جوان يوم الأحد، 2022/7/31م، وينظر: الإفهام 125.

• أهم التوصيات:

- في هذه الخاتمة أحببت أن أختم هذا البحث بمجموعة من التوصيات أتمنى أن تلقى اهتمامات من قبل من يخصه هذا الأمر، وهي:
- 1- التواصل مع الجهات المختصة لإصدار نص في الدستور لحماية الهوية الدينية الليبية عامة، والمذهب المالكي خصوصا، وتجرىم من يقوم بالتعدي على هذه الهوية.
 - 2- إدخال مواد تدريسية تبين أحكام الفقه المالكي والتعريف به في جميع المؤسسات التعليمية في الدولة.
 - 3- التمسك بتدريس المتون والمنظومات الفقهية المالكية التراثية في المؤسسات التعليمية الشرعية والقانونية، وعدم استبدالها بالمؤلفات المعاصرة التي أفقدت الطالب قوة الفهم لهذا المذهب.
 - 4- دعم الدراسات والبحوث التي تدعم الهوية الدينية الليبية عموما والفقه المالكي خصوصا، ترجمة وتفرعا وتأصيلا.

المصادر والمراجع

• الكتب المطبوعة:

- 1- الإفهام في تراجم من نسب لمدينة زليتن من الأعلام، لإدريس حمودة، دار بن حمودة، ط/1، 2021م.
- 2- الإمام الفقيه عبد السلام الأسمر الفيتوري، لمحمد كامل العدوي، المكتبة المصرية، 2004.
- 3- دور زاوية الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر في إحياء العلوم الشرعية، لمحمد سالم العجيل، دار الصالح، رابطة آل البيت الفواتير، ط/1، 2013م.
- 4- رسائل عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسيني إلى مردييه، لشيخ سيدي عبد السلام الفيتوري، تحقيق: الدكتور مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 1، 2003م.
- 5- الزاوية الأسمرية العلمية بزليتن ودورها التربوي في ليبيا، لرحومة بوكر حومة، مركز جهاد الليبيين، ط/1، طرابلس ليبيا، 2006.
- 6- الشيخ الفقيه الهادي بن محمد سعود المسلاتي كلمات في تأيينه وبيان فضله، لعبد

- السلام سعود، دار المالكية، تونس، ط/1، 2020م.
- 7- الطبقات العروسية الشاذلية ومناقب القطب سيدي عبد السلام الأسمر " لأحمد حامد الشريف، مكتبة زهران.
- 8- من أعلام الزاوية الأسمرية زليتن، لمحمد أبو بكر حمير، رابطة آل البيت الفواتير، 2014م.
- 9- نصوص التأسيس في السيرة الذاتية في ليبيا، الروض العاطر في تاريخ حياة أبي علي بن طاهر، لطيب بن طاهر المصري، نقد/ طاهر بن طاهر، منشورات جامعة مصراته، ط/1، 2013م.

• المجلات:

- 1- المجلة الأسمرية، عدد/1، 2003م.
- 2- المجلة الأسمرية عدد 11، سنة 2009م.
- 3- المجلة الأسمرية عدد 24 سنة 2015م.
- 4- مجلة الجامعة الأسمرية، عدد خاص، جهود العلماء الليبيين في خدمة المذهب المالكي، 2019م.

- 5- مؤتمر المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، جامعة المرقب كلية الشريعة، 2019م.
- #### • المقابلات الشخصية:

- 1- لقاء مع الشيخ القاضي: عمر حميميد في بيته أجرته يوم الأحد بعد صلاة العصر، 16/رمضان، الموافق: 2022/4/18م وذلك بمنزله بمنطقة ماجر.
- 2- لقاء مع الشيخ محمد فينخرة، ببيته، يوم الخميس، الساعة 12 ظهراً، 28/شعبان/1443هـ، موافق 2022/3/31م.
- 3- لقاء مع الشيخ مصطفى محمد قواسم في بيته، يوم الجمعة 2022/4/8م.
- 4- لقاء مع الشيخ: أحمد أبو حجر في بيته، يوم الجمعة 2020/3/25م.
- 5- لقاء مع الشيخ: فرج علي جوان يوم الأحد، 2022/7/31م.

• رسائل الماجستير:

- 1- الشيخ: منصور أبو زبيدة حياته وفتاواه، إعداد: علي عبد الله ديهوم، تحت إشراف: عبد السلام أبو ناجي، رسالة ماجستير، نوقشت بجامعة المرقب، قسم الدراسات العليا، شعبة الإسلاميات، 2007.

الشيخ فاتح زقلام وجهوده في علم الأصول "عمل أهل المدينة أنموذجاً"

أ. أحمد عبد الحميد الضبع/جامعة طرابلس/كلية التربية

المقدمة

الحمد لله الذي وفق أهل الخير إلى الخير وأعانهم عليه، والصلاة والسلام على من أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أما بعد،،، فإن بلادنا الحبيبة ليبيا هي من بين البلدان التي اشتهر انتشار مذهب الإمام مالك -رحمه الله- بها، وذلك بعد ذهاب علي بن زياد الطرابلسي إلى مدينة رسول الله ﷺ وتلقيه العلم من إمام دار الهجرة الذي قال عنه سفيان بن عيينة فيما روي عن النبي ﷺ: "يوشك أن يضرب الناس أجداد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة"¹. قال: "إنه مالك بن أنس"². وعندما رجع علي بن زياد الطرابلسي إلى المغرب العربي كان من بين المدن التي استقر فيها مدينة طرابلس الغرب، فأخذ عنه أهل هذه البلاد العلم، كبراً عن كبر إلى وقتنا الحاضر، وكان من بين هؤلاء الذين توارثوا العلم وكانت لهم بصمة في خدمة المدرسة المالكية هو العالم الجليل الأصولي الأزهرى الأشعري سيدي الشيخ الأستاذ الدكتور فاتح محمد زقلام -رحمه الله- الذي كانت له صولة وجولة في الفنون، فألف المؤلفات، ونظم الأبيات، ونسج الممتع، وكان من بين مؤلفاته كتابه الموسوم بـ "الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها"، وهو عبارة عن رسالته في مرحلة الدكتوراه، ناقشها سنة 1979م في الأزهر الشريف، حيث تناول فيها خمسة أصول بالبحث والتدقيق، والنقد والتحليل، ونظراً لأهمية مؤلفه وتمييزه في باب اختارت أن أسلط الضوء على هذه الشخصية المتميزة، والتعريف بها وإبراز جهودها، خاصة في هذا الزمن الذي يتعرض فيها المذهب المالكي للتشويه من قبل من يزعمون بطلان الالتزام بمذهب معين، وهو ما أدى إلى اختلاط المسائل، والفوضى في الفتوى، والتخبط في فهم النصوص، فكان لزاماً علينا وضع النقاط على الحروف بإبراز علماء المدرسة المالكية وإظهار جهودهم، وما تركوه في

1 الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة (682/2) حديث 2896. قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن".

2 الترمذي، (682/2).

حياتهم من تراث أصيل متفرع من أساس متين موصول.

بناء على ذلك اخترت أن تكون الدراسة متعلقة بإبراز جهود الشيخ فاتح في أصل عمل أهل المدينة من خلال مؤلفه المذكور، حيث تدور الدراسة حول كيفية شرح الشيخ لهذا الأصل الذي اعتمده المالكية، وكان مأخذاً عليهم من قبل المذاهب الأخرى كالأحناف، والشافعية، وعن طريق هذه الدراسة سأتطرق للحديث عن المراد بعمل أهل المدينة، وبعض المسائل المتعلقة بهذا الأصل.

أسباب اختيار الموضوع:

أما عن أسباب اختيار الموضوع فيمكن ذكرها فيما يلي:

- التعريف بالشيخ وجهوده العلمية التي هي من أوكد الواجبات على تلاميذه.
- إبراز علماء ليبيا في التأصيل المالكي عامة، والشيخ خاصة.
- الرغبة الشديدة في خدمة المدرسة المالكية من خلال إبراز علمائها.
- بيان أن المدرسة المالكية في ليبيا مدرسة متأصلة لها شيوخها وتلاميذها.
- بيان أهمية الفقه المالكي، وذلك بدراسة أحد الكتب الحديثة في أصول المذهب.

أهمية الموضوع:

لا شك أن موضوع البحث له أهمية، ويمكن أن تبرز أهميته في جملة أمور، منها:

- مطارحة جديدة لمسألة قديمة تجاذبتها الأنظار قبولا ورداً.
- بيان مدى اهتمام علماء ليبيا وعنايتهم بالمذهب المالكي وأصوله.
- إبراز جهود العلماء الليبيين في الحفاظ على التراث الفقهي الذي سار عليه علماء المالكية.

المنهج المتبع:

المنهج الذي سيتبعه الباحث أثناء دراسته هو المنهج الوصفي التحليلي.

خطة البحث:

مقدمة:

المبحث الأول: التعريف بالشيخ فاتح زقلام.

اسمه ومولده، الوظائف التي شغلها، شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته، وفاته.

المبحث الثاني: المراد بأهل المدينة والمراد بعملهم، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: المراد بأهل المدينة.

المطلب الثاني: مفهوم عمل أهل المدينة.

المبحث الثالث: حجية عمل أهل المدينة، ومعارضته للأدلة الظنية، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: مناقشة أدلة حجية عمل أهل المدينة.

المطلب الثاني: عمل أهل المدينة والأدلة الظنية بين الموافقة والمعارضة.

الخاتمة.

المبحث الأول: التعريف بالشيخ فاتح زقلام

اسمه ومولده:

الشيخ العلامة الأستاذ الدكتور فاتح محمد زقلام، ولد في طرابلس الغرب، بشارع
الظل، يوم الخميس 10 جمادى الأولى 1357 هـ الموافق 7 / 7 / 1938 م.

حفظ القرآن الكريم، وتحصل على الشهادة الثانوية من معهد أحمد باشا الديني سنة
1964 م، وتحصل على شهادة العالمية (الليسانس) من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية
بالبليضاء سنة 1968 م، وتحصل على شهادة الماجستير من كلية الشريعة والقانون بالأزهر
الشريف سنة 1973 م، ونال في عام 1979 م درجة الدكتوراه في كلية الشريعة
والقانون بجامعة الأزهر الشريف مع مرتبة الشرف الأولى، وقد أشرف عليه فيها العلامة
الأصولي الشيخ المحقق الشهير عبد الغني عبد الخالق، ولكن لم يستكمل معه الإشراف
لوفاته -رحمه الله-، وأتم الإشراف عليه الدكتور السيد صالح عوض محمد النجار¹.

الوظائف التي شغلها:

عمل الشيخ فاتح معلماً بمعهد الجغبوب الديني من سنة 1968 م إلى سنة 1970 م،
وعمل مدرساً بمعهد البعوث بمدينة البليضاء بضعة أشهر، ومدرساً بالقسم العام بطرابلس،
ومعيداً بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بالجامعة الليبية من سنة 1971 م إلى

1 صاحب كتاب "الاستحسان عند علماء أصول الفقه وأثره في الفقه"، وكتاب "أثر العرف في التشريع الإسلامي" وهما
كتابان مرجعان لا يستغنى عنهما طالب في أصول الفقه.

سنة 1973م، كما عمل محاضراً مساعداً بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بمدينة البيضاء من سنة 1973م إلى سنة 1979م، وعمل أستاذاً بكلية التربية بجامعة طرابلس منذ عام 1979م إلى أن تقاعد عن العمل.

كما انتدب للتدريس بكلية الدعوة الإسلامية، وظل يعمل معها أستاذاً متعاوناً بقسم الدراسات العليا منذ سنة 1987م إلى أن أحيل على التقاعد، وأُعيد للعمل بالجامعة الإسلامية (ألساي) بالنيجر، تولى الشيخ الخطابة بجامع القبطان بطرابلس من سنة 1962م إلى سنة 1964م، كما تولى الخطابة بجامع العنقودي من سنة 1970م إلى سنة 1972م.

اشتغل الشيخ بتدريس الفقه والأصول والتوحيد والسيره والنحو والصرف والمنطق والبلاغة في المعاهد الدينية، كما اشتغل بتدريس أصول الأحكام والعقيدة وتاريخ التشريع والنحو والصرف والتدريبات اللغوية بالجامعات الليبية وكلية الدعوة الإسلامية، وقام بتدريس أصول الفقه والقواعد الفقهية وآداب البحث والمناظرة في الدراسات العليا. وقد عهد إليه رئاسة قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية التربية جامعة طرابلس 1992م، ثم عهد إليه من جديد رئاسة القسم للسنوات 1995، 1996، 1997م. وكما أشرف على عدد من الرسائل العلمية للدكتوراه والماجستير.

شيوخه:

تلقى الشيخ فاتح -رحمه الله- العلم على ثلثة من أكابر علماء البلاد، منهم: الشيخ الجليل علي الغرياني (ت 1395هـ)¹، والشيخ العلامة المهدي أبو شعالة (ت 1392هـ)²، الشيخ العلامة عمر الجنزوري (ت 1405هـ)³، والشيخ عبد السلام خليل (ت 1425هـ)⁴.

تلاميذه:

تلمذ على الشيخ فاتح ثلثة طيبة منهم: الأستاذ الدكتور مصطفى علي الجهاني،

1 شلاي، المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب، (198).

2 ابن سعيدان، ورقات مطوية، (43).

3 المصدر السابق (35).

4 شلاي، المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب (194).

الأستاذ الدكتور علي سليمان الزوي، الدكتور إبراهيم عمر الحواسي، الدكتور طارق ساسي الشيباني، الدكتور مصطفى الصادق طابله، الأستاذ الدكتور رمضان حسين الشاوش، والأستاذ شكري عبدالمجيد بالأمين، الدكتور عبد الحميد الحامي، والشيخ عصام البشير العاشق، والشيخ إبراهيم أبو عزة، والشيخ العماري عتيق، الأستاذ توفيق محمد الشيباني، والحامي الشيخ محمد عبد الله ابن عمران والعبد الفقير لرّبّه، وغيرهم كثير.

مؤلفاته:

1/ الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها، وهي رسالته للدكتوراه، وقد طبع الكتاب مرتان، حيث نشرته كلية الدعوة الإسلامية، سنة 1996م، نشرة لم تخل من أخطاء. ثم طبعته دار الفسيفساء - طرابلس، ط2، سنة 2009م.

2/ قول الصحابي، مفهومه، حجته "وهي رسالته للماجستير بكلية الشريعة والقانون بالأزهر".

3/ مذكرة في العقيدة الإسلامية، قررت ودرست لطلاب السنة الأولى بقسم اللغة العربية خلال السبعينيات وأول الثمانينيات.

4/ مذكرة في العقيدة، ألّفت لشعبة العلوم الشرعية بثانوية العلوم الشرعية.

5/ منظومة "خلاصة العقائد ودرّة عوائد الفوائد" مع شذرات من السيرة العطرة، أبياتها 2256، طبع سنة 1434هـ.

6/ صيام ستة أيام من شوال، وحكم نيابة قضاء رمضان عنه. من منشورات دار الحكمة.

7/ "سفينة الوصول" منظومة في أصول الفقه تزيد عن ألفي بيت.

8/ "تحفة الشبان" منظومة في العقيدة.

9/ إشارة النص.

10/ أصول الأحكام، طبع ط1، 2006م، دار الفسيفساء، ط2، 2020م، دار الوحدة، طرابلس - ليبيا.

11/ الموجز في أصول الأحكام، 2010م، دار الفسيفساء.

12/ خلاصة آداب البحث والمناظرة، ط1، 2009م، دار الفسيفساء، طرابلس - ليبيا.

13/ بستان المتعانت من منتقى المنوعات، ط 1، 2010م، دار الفسيفساء، طرابلس - ليبيا.

وبعد التقاعد عكف الشيخ فاتح في بيته بعيداً عن صخب الدنيا وضجيجها، زاهداً فيما في أيدي الناس، تؤانسه كتبه ويسائله تلاميذه الذين تحلقوا حوله لتلقي العلوم الشرعية عنه.
وفاته:

توفي -رحمه الله- في عام رحل فيه ثلثة من كبار علماء البلاد، فكانت وفاته يوم الاثنين 8 جمادى الأولى 1443هـ الموافق 13/ديسمبر/2021م، وقد دفن في اليوم التالي عصرًا بمقبرة "أبو شوثة" بمنطقة سوق الجمعة - طرابلس، وأمّ المصلين في صلاة الجنازة -مفتي طرابلس فضيلة الشيخ- أحمد قدور -حفظه الله-(1).
وقد رثاه الدكتور رضا محمد جبران يوم جنازته بأبيات قال فيها:

غَاضَتْ دُمُوعِي مِنْ تَوَدِيعِ أَعْلَامِ	أَفْضُ بِصَبْرِ عَلَيَّ قَلْبَ الْحُبِّ فَقَدْ
مُصِيبَةِ الْمَوْتِ فِي أَهْلِي، وَأَرْحَامِي	وَأَظْلَمَ الْكُونُ فِي عَيْنِي مَذُوقَتْ
مِنْ أَضَاءِ سَمَاءِ الْعِلْمِ قُدَّامِي	فَقَدْ لُجَعْتُ بِمَنْ زَانَتْ مَسِيرَتَهُمْ
فَفَارَقُونَا كَبَدْرٍ بَعْدَ إِتْمَامِ	هُمُ أَنْجَمٌ نَوَّرُوا الدُّنْيَا بِهَمَّتِهِمْ
فِي كُلِّ قَلْبٍ يَعِي لَوَاعَاتُ أَيَّامِ	يَا لِلْمُصِيبَةِ فِي تَشْيِيعِ مَنْ سَكَنُوا
رَجَعُ الْمُصِيبَةِ فِي تَجْدِيدِ إِيْلَامِي	فَقَدْتُ قَبْلًا أَبَا مَا زَالَ يُؤَلِّمُنِي
وَزَانَ قَوْمًا عَلَى حُبِّ وَإِكْرَامِ	عَقْدُ ثَمِينٍ بِهِ الدُّنْيَا قَدْ افْتَخَرْتُ
قَلَادَةُ الْعِلْمِ مِنْ أَبْنَاءِ زِقْلَامِ	وَقَدْ تَنَاثَرَ عَقْدُ الْعِلْمِ وَأَنْفَرَطُ
قُلْ: فَاتِحَ الْخَيْرِ مِنْ أَفْذَاذِ إِسْلَامِ	شَيْخٌ جَلِيلٌ وَقَوْرٌ طَابَ مَخْبَرُهُ
كَمَا تَضَوَّعَ مَسْكٌ بَيْنَ أَقْوَامِ	تَسَامَى قَدْرًا وَقَدْ طَابَتْ مَسِيرَتُهُ
إِلَّاكَ رَبِّي فَجُدُّ مِنْ فَضْلِ إِعْنَامِ	رُحْمَاكَ رَبِّي لِمَنْ قَدْ عَزَّ نَاصِرُهُ

1 ينظر: الصديق بشير نصر، هؤلاء حدثوني (135). وينظر: الطاهر العياشي، جهود الشيخ فاتح زقلام الأصولية والفقهية في المذهب المالكي (224)، مع معاصرة الباحث للشيخ المترجم له.

المبحث الثاني: المراد بأهل المدينة والمراد بعملهم.

المطلب الأول: المراد بأهل المدينة.

قبل الحديث عن مسألة اعتبار عمل أهل المدينة يجدر بي أن أبين المقصود بأهل المدينة المحتج بعملهم، هل هم جميع سكانها في جميع الأعصار من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا؟ أو هم مخصوصون بطائفة معينة وعصر معين لا يتجاوزونه؟ وإذا كان المقصود بهم طائفة معينة، فهل هم صحابة رسول الله ﷺ وحدهم؟ أو هم التابعون؟ أو تابعوهم؟ أو المراد بأهل المدينة الفقهاء السبعة فقط؟ حيث بين الشيخ المقصود بأهل المدينة المحتج بعملهم، ويمكن حصر المسألة في أربع نقاط، ملخصها كالآتي:

1/ كون المراد بأهل المدينة جميع سكانها في جميع الأعصار، قال الشيخ: "فغير مراد باتفاق العلماء"¹.

2/ كون المراد بأهل المدينة الفقهاء السبعة²، وقد أورد الشيخ بعض النصوص التي تنقل لنا أن الإمام مالكا يعدّ إجماع الفقهاء السبعة دون غيرهم، وقد علق على ذلك بأن هذا خطأ لم يثبت عن مالك، ولم يقل به، ولا هو مذهبه، ولا حكاه عنه أحد من أصحابه.

3/ كون المراد بأهل المدينة هم الصحابة وحدهم، وقد أسند الشيخ هذا القول إلى بعض الأصوليين، وأبطل قولهم بأن هذا لم يقل به مالك، ولا ذهب إليه.

قال الشيخ فاتح: "الذي حملهم على تكلف هذا الحمل اعتقادهم أن علة الاحتجاج بالعمل كونه مجعاً عليه... والواقع أن مردّ الاحتجاج بالعمل ليس هو الإجماع حتى يحتاج

1 الأصول التي اشتهر (146/1).

2 هم: سعيد بن المسيب، ت 94هـ على أحد الأقوال، وعروة بن الزبير، ت 94هـ على الأصح، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ت 101هـ على أحد الأقوال، وخارجة بن زيد بن ثابت، ت 99هـ، وسليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، ت 107هـ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ت 98هـ على الأصح، واختلف في السابع، فقيل: أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، ت 94 أو 104هـ، وهو قول الأكثر، وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، ت 94هـ، وقيل: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ت 106هـ. ينظر: ابن الصلاح، علوم الحديث (304)، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية (30/1).

إلى حملة على إجماع الصحابة وحدهم لتأتيه منهم بالمدينة، ولكن مرده أمر آخر¹
 4/ كون المراد بأهل المدينة هم الصحابة والتابعون وتابعوهم:
 قال الشيخ فاتح: "فالتحقيق أن المراد بأهل المدينة المحتج بعملهم هم الصحابة والتابعون
 وتابعوهم، وهذا ما رجحه المحققون من أصحاب مالك وغيرهم"².
 ودليل ترجيح الشيخ بأن المراد بأهل المدينة هم الصحابة والتابعون وتابعوهم هو: أن
 المرجوع إليه في العمل هو آخر حاله ﷺ، وأهل المدينة هم العالمون بآخر الأمرين لكونهم
 الملازمين للرسول ﷺ إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، وهذا النقل يستوي في حكمه الصحابة
 والتابعون، بل وتابعو التابعين كذلك، متى ما توفر فيهم شرط نقل التواتر³. وبهذا اتضح لنا
 أن الشيخ فاتح زقلام رجح ما رجحه المحققون من أصحاب مالك، ودعم اختياره بالدليل.

المطلب الثاني: مفهوم عمل أهل المدينة:

قسم الشيخ فاتح زقلام عمل أهل المدينة إلى ثلاثة أنواع:-

النوع الأول:

ما لم يعلم أن غيرهم خالفهم فيه، فيكون كالجماع عليه من الأمة كلها، وهذا لا نزاع
 بين العلماء في الأخذ به.

النوع الثاني:-

ما فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم، وهذا ليس حجة بالاتفاق.

النوع الثالث:

ما خالفهم فيه غيرهم، ولم يعلم اختلافهم فيه، وهذا النوع ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما طريقه النقل، ويشتمل على أمور ثلاثة:

1/ ما نقل عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو ترك شيء قام سبب وجوده، ولم
 يفعله.

2/ نقل العمل المتصل زمنًا بعد زمن من عهده ﷺ.

1 الأصول التي اشتهر (150/1).

2 الأصول التي اشتهر (151/1). قال ابن الحاجب المالكي: "إجماع أهل المدينة من الصحابة والتابعين حجة عند مالك"
 ابن الحاجب المالكي، مختصر المنتهى الأصولي بشرح العضد (339/2). وقال الإسني: "ذهب الإمام مالك إلى
 أن إجماع أهل المدينة حجة، أي إذا كانوا من الصحابة أو التابعين دون غيرهم" الإسني، نهاية السؤل (753/2).

3 الأصول التي اشتهر (194/1).

3/ نقلهم لأماكن وأعيان ومقادير لم تتغير عن حالها.
وهذا القسم حجة عند الأئمة الأربعة إلا بعض أصحاب الشافعي وأبي حنيفة.
القسم الثاني: ما طريقه الاجتهاد، ويشتمل على أمرين هما:

1/ العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وهو حجة أيضا عند مالك، وحكي كذلك عن الشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة.

2/ العمل المتأخر بالمدينة.

وهو ليس بحجة عند الأئمة الثلاثة أبي حنيفة والشافعي وأحمد، أما المالكية فاختلّفوا
على ثلاثة أوجه:-

الوجه الأول:

ليس بحجة أصلا، ولا بمرجح لأحد الاجتهادين على الآخر.

الوجه الثاني:

ليس حجة، لكنه يرحح به اجتهادهم على اجتهاد غيرهم، وترجح به الأخبار المتعارضة.

الوجه الثالث:

أنه حجة، وعليه جُل المغاربة من أصحاب مالك^{1 2}.

وقد نظر الشيخ إلى المسألة من جوانبها المتعددة، وبعد التدقيق والتحصيل، ظهر للشيخ
فاتح أن الإمام مالكا كان يرى الاحتجاج بالعمل بقسميه الثقلي والاجتهادي، "وهو الذي
رحّبه ابنُ الحاجب³ والقرافي وغيرهما من محققي المذهب".
واستدل الشيخ على ذلك بدليلين:

الأول: رسالة الإمام مالك إلى الإمام الليث بن سعد:⁴

وهي رسالة طويلة لا يسع المقام لذكرها كاملة، وسأقتصر على ذكر ما يتعلق بمسألتنا،

1 ينظر: السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (406/1).

2 ينظر إلى هذا التقسيم نقلا عن القاضي عبد الوهاب مع بعض الاختلاف: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه (530/3).

3 قال ابن الحاجب المالكي: "إجماع أهل المدينة من الصحابة والتابعين حجة عند مالك، وقيل محمول على أن روايتهم
مقدمة، وقيل على المنقولات المستمرة، كالأذان والإقامة، والصحيح التعميم" ابن الحاجب المالكي، مختصر المنتهى
الأصولي بشرح العضد (339/2).

4 وقد أشار السبكي إلى استدلال المالكية بهذا الدليل، ينظر: السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (406/1).

حيث يقول الإمام مالك: "الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا أنفدوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ: غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله وعمل بغيره، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها... إنح¹، الشاهد في هذه الرسالة هو الاستدلال باعتبار الإمام مالك للقسمين معا يمكن في موضعين:

الموضع الأول: قوله: "فإنما الناس تبع لأهل المدينة"؛ فإنه حصر تبعية الناس لأهل المدينة، ولم يذكر متعلق هذه التبعية ولم يحددها بنوع خاص من مسائل العمل، فتحمل حينئذ على عمومها، ويكون اتباع الناس لأهل المدينة عاماً فيما نقلوه وما استنبطوه مما نقلوه، إذا اتفق عليه ملوهم، ويبقى النظر بعدئذ في تأتي هذا الاتفاق وعدم تأتيه²

الموضع الثاني: قوله: "فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه فإنه لم يخصص هذا الأمر المعمول به بما كان أساسه النقل فقط، بل أطلق، فيحمل حينئذ على إطلاقه هذا هو الظاهر والله أعلم"³.

ومن ضمن ما استدل به الشيخ فاتح أيضاً ما دار بين الإمام مالك وأبي جعفر المنصور وذلك في رده على أبي جعفر عندما هم أن يكتب الموطأ بماء الذهب ويعلقه في الكعبة ويحمل الناس عليه، قال له الإمام مالك: "يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأيا هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم غير أنني لا أرى أن يعلق في الكعبة"⁴.

1 القاضي عياض، ترتيب المدارك (25/1).

2 الأصول التي اشتهر (170/1).

3 الأصول التي اشتهر (170/1).

4 ينظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك (72/2).

فالشاهد من ذلك أنه الإمام مالكا أطلق على إجماع أهل المدينة بأنه رأي، فلو لم يرد ما يشمل اجتهادهم ما ساغ له التعبير بكلمة رأي.

الدليل الثاني: فروع فقهية اعتمد فيها الإمام مالك عمل أهل المدينة الذي أساسه الاجتهاد، نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

مسألة تقسيم الزكاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِمَا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾¹.

وفي حديث الرسول ﷺ: "إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء"²

وبظاهر هذين النصين أخذ الإمام الشافعي فقال: "هي سُهْمَانُ ثمانية، لا يُصْرَفُ منها سهم إلى غيره ما وجد من أهله، فإن لم يكن مؤلفة قسم على سبعة إلا العامل فاستحب أن يعطى ثمناً"³.

بينما يرى الإمام مالك أن توزع الصدقات حسب الحاجة والعدد مستندا إلى عمل أهل المدينة، ففي الموطأ ما نصه: "قال مالك: الأمر عندنا في قسم الصدقات أن ذلك لا يكون إلا على وجه الاجتهاد من الوالي، فأبي الأصناف كانت فيه الحاجة والعدد أوثر ذلك الصنف بقدر ما يرى الوالي، وعسى أن ينتقل ذلك إلى الصنف الآخر بعد عام أو عامين أو أعوام فيؤثر أهل الحاجة والعدد حيث ما كان ذلك وعلى هذا أدركت من أرضى من أهل العلم"⁴.

من خلال ما سبق من الأدلة باعتماد الإمام مالك عمل أهل المدينة مطلقا سواء كان طريقه النقل أو الاستدلال، أفاد الشيخ فاتح بأن ما رجحه مبناه غلبة الظن الناتجة

1 سورة التوبة، الآية 60.

2 أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب يعطى من الصدقة وحد الغنى (281/1) حديث 1632.

3 الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (125/2). وفي الأم: "فقسم كل ما أخذ من مسلم على قسم الله - عز وجل - وهي سُهْمَانُ ثمانية لا يصرف منها سهم ولا شيء منه عن أهله ما كان من أهله أحد يستحقه...". الشافعي، الأم (83/2).

4 الموطأ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها، (92) حديث 607.

من تقديم الأدلة مع انضمام ترجيح بعض المحققين وجلّ المغاربة المالكية.
المبحث الثالث: حجّة عمل أهل المدينة، ومعارضته للأدلة الظنية.
المطلب الأول:

مناقشة أدلة حجّة عمل أهل المدينة

سأتناول في هذا المبحث كيفية استعراض ومناقشة الشيخ فاتح وجهة نظر
المالكية في تمسكهم بهذا الأصل واعتمادهم إياه وأدلتهم على ذلك.
قسم الشيخ فاتح أدلة مثبتة الحجية إلى قسمين:

القسم الأول: أدلة نقلية.

اكتفى فيها بذكر دليل واحد من ضمن الأدلة النقلية وهو حديث الرسول ﷺ:

"المدينة كالكبير تنفي خبثها وينصح طيبها"¹؛ لأنه المعتمد في الاستدلال في
الكتب الأصولية، وبعد أن أورد الشيخ الاعتراضات على الدليل انتهى بالحكم على
ضعف استدلال المالكية على صحة مدعاهم،² كما عقب الشيخ على الحديث بأن المراد
بتلك الآثار بيان فضل المدينة وخطورة شأنها، وقد تكون البقعة محروسة وإن كان من
يسكنها على غير الحق، ألا ترى أن مكة كانت محروسة عام الفيل، مع أن أهلها كانوا
مشركين يومئذ، ومعتمده في هذا السرخسي في الأصول³، "وتخصيص المدينة بالذكر
لإظهار شرفها لا ينافي أن غيرها كذلك، ولا يوجب انعقاد الإجماع بأهلها وحدهم،
فإن مكة أفضل منها -على مذهب الجمهور- ولا قائل بحجية إجماع أهلها"⁴.

1 أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث، (352/1) حديث 1916. مسلم: كتاب الحج،
باب المدينة تنفي شرارها (562/1) حديث 3421.

2 وقد ضعف البيضاوي وابن الحاجب الاستدلال بهذا الحديث على حجّة عمل أهل المدينة، ينظر: السبكي وولده تاج
الدين، الإبهاج في شرح المنهاج (2059/5) وينظر: ابن الحاجب المالكي، مختصر المنتهى الأصولي بشرح العضد
(339/2).

3 يقول السرخسي: "والمراد بالآثار حال المدينة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانت الهجرة فريضة كان
المسلمون يجتمعون فيها وأهل الخبث والرّدة لا يقرون فيها وقد تكون البقعة محروسة وإن كان من يسكنها على غير
الحق ألا ترى أن مكة كانت محروسة عام الفيل مع أن أهلها كانوا مشركين يومئذ". السرخسي، أصول
السرخسي (314/1).

4 الأصول التي اشتهر (186/1).

القسم الثاني: أدلة عقلية.

استعرض الشيخ أربعة من الأدلة العقلية، وناقشها مناقشة علمية دقيقة، ناظراً في المسألة من جميع زواياها المعرفية، فانتهى به النظر بعد الفحص والتدقيق إلى أنه لم يسلم للمالكية منها إلا واحدة، وهي: أن العادة قاضية بأن مثل هذا الجمع المنحصر من العلماء -الأحقين بالاجتهاد الذين شأنهم التشاور والتناظر في كل ما يعنّ لهم من وقائع- لا يجمعون إلا على راجح¹، وذلك لما توفر للمدينة المنورة من كونها مهبط الوحي، وأهلها محصورون واقفون على وجوه الأدلة من قول الرسول ﷺ وفعله وفعل أصحابه في زمانه ووجوه الترجيح، إذ لا يشك في أن أهل المدينة كانوا أعرف الناس بذلك، علاوة على أنها مسكنٌ لأكثر العلماء في كل عصر فيمتنع ظاهراً ألا يطلعوا على الحجّة الراجحة ويظفر بها غيرهم، فلو اتفق في غير المدينة ما اتفق فيها لكان له حكمها في ذلك، إذ لا خصوصية للمدينة من حيث هي، ولا مدخل للمكان في ذلك، وإن كان لها خصوصية باعتبار كونها مهبط الوحي وأهلها أدري بالسنة².

وقد عقب الشيخ بأن منطلق النزاع في الأدلة والنقاش والاعتراضات كان حول الاحتجاج بإجماع أهل المدينة، في حين أن أساس الحجية في نظره ليس هو الإجماع، وإنما مرده أحد أمرين: إما التواتر فيما طريقه النقل، وإما رجحان اجتهادهم على اجتهاد غيرهم فيما طريقه الاستدلال.

فالتعبير بـ "عمل أهل المدينة" أولى وأدق من التعبير بـ "إجماع أهل المدينة".

المطلب الثاني:

عمل أهل المدينة والأدلة الظنية بين الموافقة والمعارضة.

من أثبت حجية عمل أهل المدينة، ذكر ظنيات يمكن أن تقوى على معارضته، وهي: ظاهر الكتاب، وخبر الآحاد، والقياس، والعمل معها لا يخرج عن أحوال أربعة: فإما أن يوجد أحدهما دون الآخر، فالأمر ظاهر في الحالين، وإما أن يوجد العمل موافقاً لأحدهما، فحينئذ إما أن يكون مؤكداً، أو مرجحاً به على غيره من الاجتهادات، أما في حال مخالفة العمل لأحدهما، فإن كان العمل طريقه النقل كان مقدماً، وإن كان طريقه

1 ينظر: ابن الحاجب، مختصر المنتهى الأصولي بشرح العضد (339/2).

2 ينظر: ابن الحاجب، مختصر المنتهى الأصولي بشرح العضد (339/2).

الاجتهاد، ففيه تفصيل انتهى فيه الشيخ فاتح إلى أن الخبر أولى بالتقديم من العمل، وإن سلمنا أن هذا العمل إجماع فإنه إجماع ظني لا قطعي، وهو أقل منزلة من الإجماع العام، ولا يفيد إلا الظن، ومن ثمَّ فما نسب إلى الرسول ﷺ مضموناً أولى بالتقديم مما نسب إلى غيره، ولو كانوا أهل المدينة¹

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الرسالات، وبعد: ففي ختام هذا البحث المتعلق بجهود الشيخ فاتح زقلام في الأصول المتمثلة في عمل أهل المدينة نخلص إلى الآتي:

1/ إن للشيخ فاتح زقلام شخصية متميزة، تناولت أصل عمل أهل المدينة بكل موضوعية بعيداً عن التعصب المذهبي، والدليل على إنصاف الشيخ بيانه ضعف استدلال المالكية بالدليل النقلي حول حجية عمل أهل المدينة، فلم يمنعه انتمائه للمدرسة المالكية في أن يبدي بدلوه، وأن يبدي رأيه ولو كان مخالفاً لمذهبه.

2/ تمثلت جهود الشيخ فاتح زقلام في ترجيحه في عدة مسائل:

المسألة الأولى: المراد بأهل المدينة، حيث رجح الشيخ بأن المراد بأهل المدينة هم: الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، وليس الصحابة فقط، ولا الفقهاء السبعة فقط.

المسألة الثانية: عمل أهل المدينة، حيث ظهر للشيخ أن الإمام مالكا كان يرى الاحتجاج بالعمل بقسميه: النقلي والاستدلالي.

المسألة الثالثة: حجية عمل أهل المدينة، ذهب الشيخ أن أساس الحجية ليس هو الإجماع، وإنما مرجعها لأحد أمرين: الأول: نقلهم المتواتر فيما طريقه النقل.

الثاني: رجحان اجتهادهم على اجتهاد غيرهم، من حيث مشاهدتهم لقرائن الأحوال الدالة على مقاصد الشريعة فيما طريقه الاجتهاد.

المسألة الرابعة: تعارض عمل أهل المدينة مع الأدلة الظنية سواء كان ظاهر الكتاب أو خبر الآحاد أو القياس، فقد رأى الشيخ أن الخبر أولى بالتقديم من العمل الاجتهادي. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1 ينظر: الأصول التي اشتهر (209/1 - 210)

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.
- أبو داود، سنن أبي داود، جمعية المكنز الإسلامي، بلا ط/1421هـ.
- البخاري، صحيح البخاري، جمعية المكنز الإسلامي، بلا ط/1421هـ.
- الترمذي، سنن الترمذي، جمعية المكنز الإسلامي، بلا ط/1421هـ.
- السرخسي، أصول السرخسي، بلا ط، دار المعرفة، بيروت.
- الطاهر العياشي، جهود الشيخ فاتح زقلام الأصولية والفقهية في المذهب المالكي، مجلة الجامعة الأسمرية، عدد خاص 2019/2م.
- فاتح زقلام، الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها، ط2009/2م، دار الفسيفساء - طرابلس.
- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المحقق: عبد القادر الصحراوي، الطبعة الأولى، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب.
- مالك بن أنس، الموطأ، جمعية المكنز الإسلامي، بلا ط/1421هـ.
- مسلم، صحيح مسلم، جمعية المكنز الإسلامي، بلا ط/1421هـ.
- الصديق بشير نصر، هؤلاء حدثوني شذرات من عفو الخاطر، ط2022/1م، دار الزاوي، طرابلس - ليبيا.
- خالد بن سعيدان، ورقات مطوية في تراجم أعلام المسابقة القرآنية، ط2017/1م، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا.
- سالم سالم شلابي، المختار من أسماء وأعلام طرابلس الغرب، ط2006/1م، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام.
- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، علوم الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، ط3/1998م، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان / دار الفكر، دمشق - سورية.
- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بلا ط/2010م، دار الكتب العلمية.
- محمد الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، بلا ط/1355هـ.

- 1936م، دار الفكر.
- محمد بن إدريس الشافعي، الأم، ط 2/1393 هـ - 1973م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي، نهاية السؤل في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي ناصر الدين البيضاوي ت 685هـ، تحقيق: الدكتور شعبان محمد إسماعيل، ط 1/1420 هـ - 1999م، دار ابن حزم، بيروت - لبنان.
- تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، تحقيق: محمد عبد الرحمن مخيمر عبد الله، ط 1/1430 هـ - 2009م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: الدكتور محمد محمد تامر، ط 2/1328 هـ - 2007م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- علي بن عبد الكافي السبكي وولده تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي، تحقيق: الدكتور أحمد جمال الزمزمي والدكتور نور الدين عبد الجبار صغيري، ط 1/1424 هـ - 2004م، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة - دبي.
- أبي عمرو عثمان ابن الحاجب المالكي، مختصر المنتهى الأصولي بشرح العلامة القاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ط 1/1424 هـ - 2004م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

الإمام محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي

"سيرته ومروياته"

أ. إبراهيم محمد أبودبوس / الأكاديمية الليبية/ فرع بنغازي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا وحبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،، فإن للعلم مكانة عالية في ديننا الحنيف، فقد جاء الترغيب فيه والحث عليه لما فيه من صلاح وخير في الدارين، ومن هنا كان ساداتنا الصحابة - رضي الله عنهم - متسابقين في طلبه وينهلون من رسولنا عليه الصلاة والسلام كل ما فيه خير، فتعلموا ونقلوا هذا الفضل إلى من جاء بعدهم من التابعين الأجلاء وهم بدورهم ساروا على هذا النهج المبارك وهكذا في كل جيل، وقد تمسك أهلها بليبيا منذ دخولها إلى حاضنة الإسلام بطلب العلم وتلقيه من أهله، وقد اختاروا فيما استقر عليه أهل المدينة؛ فرحلوا إلى أئمتهم ورووا عنهم ونقلوا ما رووه إلى هذه البلاد الطيبة، وكانوا كذلك حلقة وصل إلى من جاورهم من عموم بلدان المغرب والأندلس

ولا شك أن مثل هذه المرويات التي نقلت إلى هذه البلاد ممن تلمذ على إمام دار الهجرة النبوية الإمام مالك بن أنس (179هـ) - رحمه الله - أو من غيره من أئمة أهل العلم، لها أثر قوي في تأسيس مدرسة علمية عريقة في هذه البلاد الطيبة تسير على نهج مدرسة الإمام مالك وأتباعه على مسيرة قرون من الزمن حتى يومنا هذا.

وهذا البحث المتواضع يدور حول دراسة شخصية سنية مالكية ليبية من أعلام طرابلس، وهو إمامنا محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي - رحمه الله - أحد تلاميذ الإمام مالك ورواة موطئه، وكذلك دراسة ما تركه من مرويات علمية مفيدة، وقد شملت خطة البحث على الآتي:

المقدمة.

التمهيد: الحياة العلمية بطرابلس في عصر الإمام محمد بن معاوية الحضرمي.

المبحث الأول: سيرته.

المطلب الأول: كنيته واسمه ولقبه ومولده.

- المطلب الثاني: طلبه للعلم واستقراره ووفاته.
- المطلب الثالث: مكاتته والقيمة العلمية لمروياته.
- المبحث الثاني: مروياته - جمع ودراسة -.
- المطلب الأول: ما رواه من أحاديث مرفوعة.
- المطلب الثاني: ما رواه من أقوال وأفعال للصحابة - رضي الله عنهم -.
- المطلب الثالث: ما رواه من آثار لأئمة أهل العلم.
- الخاتمة والتوصيات.
- التمهيد: الحياة العلمية بطرابلس في عصر الإمام محمد بن معاوية الحضرمي:**

من الممكن أن نقول إن ركائز الحياة العلمية بطرابلس في هذا العصر ترجع إلى:

1- التلقي من داخل البلاد والأخذ عن شيوخها، ويعتبر هذا التلقي بمنزلة المرحلة التمهيدية التأسيسية لكل طالب علم، وللأسف لم تسعفنا المصادر التي ترجمت للإمام محمد بن معاوية الحضرمي أو ممن يعد في عصره من أهل طرابلس⁽¹⁾ أي من هؤلاء الذين تلقوا عنهم داخل بلادهم، وقد جاء ما يشير إلى أن طرابلس في تلك الفترة كان بها أهل علم يؤخذ عنهم، حيث ورد في ترجمة الإمام محمد بن حبيب الطرابلسي⁽²⁾: "رجل صالح فهم سمع أبا سليمان محمد بن معاوية الطرابلسي وجماعة من أهل بلده"⁽³⁾، وقد ساهمت مثل هذه الجهود في خلق أجيال تتعلق بالعلم وما يصاحبه من ورع وزهد حتى أنهم لاقوا ثناء ممن مر عليهم⁽⁴⁾.

1 - كالإمام علي بن زياد الطرابلسي التونسي (183هـ) الذي يعد من الطبقة الأولى لرواة الإمام مالك والإمام محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي - لم يعرف تاريخ وفاته- الذي روى عن الإمام مالك أيضاً. انظر ترجمتهما: أبو الفضل عياض بن موسى السبتي اليحصبي (544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد بن تاويت الطبخي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط: الثانية، 1983م، ج3، من ص80 إلى ص84، ص323.

2 - لم يعرف تاريخ وفاته، ويقال إنه أدرك الإمام مالك. انظر ترجمته: ناصر الدين محمد الشريف، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، دار البيارق للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 1999م، ص41.

3 - ومن الملاحظ أن تخصيص اسم الإمام محمد بن معاوية الحضرمي من ضمن من أخذ عنهم الإمام محمد بن حبيب فيه إشارة إلى مكاتته. نقلا عن معجم البلدان للحموي 66/1، انظر الجواهر ص41.

4 - يقول الإمام سخون بن سعيد (240هـ) عن طرابلس: "وكان فيها رجال مديون"، ويقول: "رأيت بطرابلس رجالا ما الفضيل بن عياض أفضل منهم"، ويقول: "بإفريقية رجال بعضهم بالقيروان وتونس وأطرابلس... لو قرنا بمالك

- 2- التلقي من أهل العلم الذين يملكون على طرابلس سواء من المغاربة أثناء ذهابهم إلى المشرق وكذلك عند رجوعهم، أو من المشاركة أثناء هجرتهم من المشرق⁽¹⁾.
- 3- التلقي من قبل طلبة العلم الوافدين على أهل العلم بطرابلس أثناء مرورهم بها في ترحالهم⁽²⁾.

4- السفر للتلقي من أعلام أهل العلم خارج البلاد كالسفر إلى القيروان ومصر والحجاز والعراق⁽³⁾، مع ملاحظة تفضيل جل أهل العلم ببلدان المغرب والأندلس عموماً الأخذ بمسلك الإمام مالك في الفقه، ومن هنا كان دخول موطأ الإمام مالك وما يتبعه من أجوبة لبعض النوازل إلى عموم بلدان المغرب والأندلس، وقد تشرف الإمام علي بن زياد

بن دينار لساووه". أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (474هـ تقريباً)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثانية، 1993م، ج1، ص353، ترتيب المدارك ج4، ص51، نقلاً عن طبقات أبي العرب ص54، مقدمة موطأ الإمام مالك قطعة منه برواية ابن زياد، تح: د. محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 1980م، ص102.

1 - كالإمام أبي معمر عباد بن عبد الصمد التميمي البصري (171هـ أو 180هـ)؛ فإن الكثير أخذ عنه عند مروره بطرابلس والقيروان. انظر ترجمته: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (748هـ)، سير أعلام النبلاء للذهبي، اعتنى به: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، لبنان، ط: بلا، 2004م، ج، ص، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ)، لسان الميزان، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه: سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2002م، ج4، ص394، ص395.

2 - ومن أمثلة ذلك:

- ما نقل عن الإمام موسى بن معاوية الصمادحي (225هـ) أنه تلقى العلم في أثناء رحلته سنة 184هـ من العديد من علماء الأمصار ومنها طرابلس. رياض النفوس ج1، ص376.
- ما ذكره الإمام ابن حارث الخشني (361هـ) عند سرده لشيوخ الإمام محمد بن وضاح القرطبي (287هـ)؛ حيث أوصل شيوخه من طرابلس إلى سبعة شيوخ. نقلاً عن ورقة 116ب، 117 أ وب، 118 أ، 154ب من مخطوطة الملكية رقم (6916)، د. نوري معمر، محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس مع: بقي بن مخلد، منشورات مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط: الأولى، 1983م، ص65.
- ما ذكر أن الإمام بقي بن مخلد قد أخذ عن الإمام محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي. نقلاً عن ابن الحارث في أخبار الفقهاء والمحدثين ص54، د. حمزة بو فارس، مقال قدمه للأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك 1535هـ / 2013م بعنوان: دور ليبيا في نشر المذهب المالكي حتى القرن الخامس الهجري ص1080

3 - كما فعل الإمام علي بن زياد؛ فإنه ذهب إلى القيروان ومصر والحجاز والعراق، وكذلك كل من الإمام محمد بن معاوية الحضرمي والإمام محمد بن ربيعة الحضرمي فإنهما ذهبا إلى مصر والحجاز. ترتيب المدارك، ج3، من ص80 إلى ص84، ص323.

الطرابلسي التونسي (183هـ) بأنه أول من أدخل الموطأ لتلك المنطقة⁽¹⁾، بل أول رواية ظهرت للموطأ على الإطلاق في تلك الفترة⁽²⁾، وتبعه في ذلك العديد من رواة الموطأ من أهل بلدان المغرب والأندلس⁽³⁾.

المبحث الأول: سيرته:

المطلب الأول: كنيته واسمه ولقبه ومولده وطلبه للعلم:

- كنيته واسمه ولقبه:

هو أبو سليمان⁽⁴⁾، وقيل أبو عبدالله⁽⁵⁾ محمد بن معاوية الحضرمي⁽⁶⁾ الطرابلسي⁽⁷⁾.

مولده:

لم نتعرض المصادر التي ترجمت له أي شيء حول مولده، وبما أنه لقب بالطرابلسي وجاء عن كاتب الإمام مالك قوله له: "لم تفتني دراهمك يا مغربي"⁽⁸⁾ فهذا يشير إلى أنه من طرابلس الغرب، ولا يخفى أن عدداً ممن ترجم لأعلام المغاربة من إفريقية قد ذكروه في تراجمهم؛ وذلك لأن طرابلس الغرب كانت تتبع إفريقية آنذاك، ومن ثم فهو - على الأرجح - إما أنه قد ولد بطرابلس الغرب أو بمن جاورها من المدن أو القرى.

1 - ترتيب المدارك، ج3، ص 80، الجواهر، ص 3.

2 - ترتيب المدارك، ج3 ص 82.

3 - ومن أشهرها على الإطلاق رواية الإمام يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي (234هـ).

4 - أبو الحسن علي بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (261)، معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن القضاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، تح: أ. عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، 1985م، ج2 ص 254، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي (842هـ)، إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك، تح: أبو يعقوب نشأت، المكتبة الإسلامية، القاهرة، مصر ط: الأولى، 2005م، ص 364.

5 - رياض النفوس، ج1، ص 290، الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 2004م، ص 356.

6 - نسبة لحضرموت وهي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر فلفل أصول عائلته من هناك. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبيد الله الحموي الرومي البغدادي (626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: بلا، 1977م، ج2، ص 270.

7 - نسبة لطرابلس الغرب، وقد جاء عند البعض بالطرابلسي. ترتيب المدارك، ج3، ص 323، إتحاف السالك ص 364، أعلام ليبيا ص 356.

8 - ترتيب المدارك ج3، ص 323

طلبه للعلم:

1- طلبه للعلم داخل بلاده:

لم تسعفنا المصادر التي ذكرت الإمام محمد بن معاوية الحضرمي أي شيء حول دراسته داخل البلاد إلا ما ذكر أنه أخذ عن الإمام أبي معمر عباد بن عبد الصمد التميمي البصري⁽¹⁾⁽²⁾ الذي مر بعدة مدن من بلدان المغرب ومنها طرابلس .

2- طلبه للعلم خارج بلاده:

رحل الإمام محمد بن معاوية الحضرمي لطلب العلم كعادة غيره من طلاب العلم؛ فرحل إلى مصر والحجاز، وأخذ عن أبرز أئمة العلم آنذاك ومنهم:

1- الإمام عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري (174هـ)⁽³⁾⁽⁴⁾

2- الإمام الليث بن سعد (174هـ)⁽⁵⁾

3- الإمام مالك (179هـ)⁽⁶⁾

1 - روى عن سيدنا أنس بن مالك -رضي الله عنه - ومن ثم فهي تابعي إلا أن بعض أهل العلم تكلم فيه كقول البخاري: "عباد بن عبد الصمد روى عن أنس، منكر الحديث"، وقوله: "فيه نظر"، وقول أبي حاتم: "عباد ضعيف جدا"، وقول ابن عدي: "عامه ما يرويه في فضائل علي، وهو ضعيف غال في التشيع"، وقول أبي أحمد الحاكم: "ليس بالمتين عندهم"، وقول أبي العرب الصقلي: "يروى مناكير لا يرويه غيره عن أنس، ولكنه مشهور؛ لكثرة من أخذ عنه من أهل القيروان وأطرابلس"، وقد وهاه ابن حبان وقال عنه ابن حجر: "واه"، ذكر الذهبي أن وفاته بين 171هـ و 180هـ. سير أعلام النبلاء، لسان الميزان، ج4، ص 393، 394، 395.

2 - وفي هذا يقول الإمام أبو العرب التميمي (333هـ) فيما حكاه عنه القاضي عياض: "سمع من أبي معمر ومالك الموطأ" ويقول: "سمع من أبي معمر صاحب أنس بن مالك". ترتيب المدارك، ج3، ص 323، إتحاف السالك ص 364، الجواهر ص 41، مع العلم أننا لم نتحصل إلا على حديث واحد وسيدكر لاحقاً.

3 - انظر ترجمته: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح، شعيب الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، 1985م، ج 8، ص 11، ص 12.

4 - يقول الإمام ابن ناصر: "معدود في أصحاب مالك سمع منه ومن الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وإبراهيم بن أبي يحيى"، مع العلم أننا لم نتحصل شيئاً على ما رواه من الإمام بن لهيعة. إتحاف السالك ص 364.

5 - وفي هذا يقول القاضي عياض: "من أصحاب مالك، وله عنه سماع ثلاثة أجزاء، وله غيرها عن الليث، رواها عنه محمد بن وضاح" ترتيب المدارك، ج3، ص 323، مع العلم أننا لم نتحصل إلا على رواية واحدة وسندكرها لاحقاً.

6 - وفي هذا يقول الإمام العجلي: "روى عن مالك الموطأ"، ويقول الإمام المالكي: "سمع من مالك موطأه". الثقات، ج2، ص 254، رياض النفوس، ج1، ص 290، مع العلم أننا نتحصلنا على عدد من هذه الروايات وسندكرها لاحقاً.

ويمكن القول بأن إمامنا قد شارك بعض شيوخه في الأخذ عن بعض أئمة العلم⁽¹⁾ أو من في طبقتهم⁽²⁾، وهو كذلك مشارك لهم فيمن نتملذ عليه وعليهم⁽³⁾.

المطلب الثاني: استقراره ووفاته:

استقراره:

لم يصرح أي من المصادر التي ذكرت الإمام محمد بن معاوية الحضرمي عن مرحلة استقراره، ولكن بعد شيء من التأمل لبعض الأمور، يمكن أن نقول إنه من الراجح أنه رجع إلى طرابلس ونشر ما تلقاه عن أئمته، ومن هذه الأمور ما يلي:

1- لقب الإمام محمد بن معاوية الحضرمي بالطرابلسي نسبة لمولده ونشأته بهذه المدينة ولم يعرف له لقب غيره؛ فإن استقر في مدينة أخرى بعد رحلته لكان من المحتمل أن يلقب بلقب تلك المدينة كما حدث لغيره من أهل العلم⁽⁴⁾.

2- من بين من روى عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي الإمام حبيب بن محمد الطرابلسي، وبما أن الإمام محمد بن حبيب قد سمع من الإمام مالك، فهذا يشير إلى أن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي قد رجع إلى طرابلس وسمع منه الإمام محمد بن حبيب في بداية حياته العلمية، ثم سمع من الإمام مالك.

3- جل ما وصل إلينا من ترجمة للإمام محمد بن معاوية الحضرمي هي من كتب المغاربة⁽⁵⁾، أو من كتب استقر من المشاركة بالمغرب⁽⁶⁾؛ فلو استقر بالمشرق لما تركوا

1 - كشاركته مع الإمامين الليث ومالك في الأخذ عن الإمام عبد الله بن لهيعة الذي يعتبر أخذهما عنه من رواية الأقران عن الأقران؛ فقد ذكر الحافظ الذهبي أن الإمام عبد الله بن لهيعة من شيوخها - وإن لم يصرح به الإمام مالك - سير أعلام النبلاء، ج 8، ص 12.

2 - فقد أدرك الإمام أبا معمر الذي روى عن سيدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه -، ومن ثم فيمكن اعتباره من طبقة تابعي التابعين كالإمام الليث والإمام مالك.

3 - كالإمام محمد بن حبيب الطرابلسي فإنه أخذ عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، ثم أخذ عن الإمام مالك.

4 - كالإمام علي بن زياد فإنه لقب بالطرابلسي عند البعض؛ لأنه ولد بطرابلس ونشأ بها، ولقب بالتونسي عند البعض؛ لاستقرار بتونس والوفاء بها. ترتيب المدارك، ج 3، ص 80، الجواهر، 39، 40.

5 - كرياض النفوس للإمام أبي بكر المالكي القيرواني وترتيب المدارك للقاضي عياض السبتي.

6 - كمعرفة الثقات للإمام العجلي الكوفي.

ترجمته، أما ما جاء من ترجمة له عند بعض المشاركة فهم معتمدون في غالبها على المغاربة⁽¹⁾.

- 4- كل ما وصل إلينا من أسانيد من نثله عليه هم من المغاربة⁽²⁾
- 5- أدرج الإمام محمد بن معاوية الحضرمي في كتاب ترتيب المدارك من ضمن الطبقة الوسطى لرواة الإمام مالك من أهل إفريقية، وطرابلس كما هو معلوم تتبع إفريقية آنذاك⁽³⁾.

وبعد مرحلة التعلم جاءت مرحلة التعليم ونشر العلم، ومن أبرز من أخذوا عليه:

- 1 - الإمام محمد بن حبيب الطرابلسي⁽⁴⁾
- 2 - الإمام أبو عبد الله محمد بن وضاح القرطبي⁽⁵⁾
- 3 - الإمام أبو سهل فرات بن محمد العبدي القيرواني⁽⁶⁾
- 4 - الإمام بكر بن حماد التيهرتي⁽⁷⁾.

وفاته:

لم يشر أي مصدر من المصادر التي ترجمت له عن أي شيء يتعلق بتاريخ وفاته، وبما أنه من الطبقة الوسطى لرواة الإمام مالك⁽⁸⁾، فمن الممكن أن تكون تاريخ وفاته في الفترة

- 1 - إتحاف السالك لابن ناصر الدمشقي.
- 2 - كالإمام محمد بن حبيب الطرابلسي والإمام محمد بن وضاح القرطبي والإمام محمد بن فرات القيرواني.
- 3 - ترتيب المدارك، ج 3، ص 323، ومع هذا فالغريب أن الشيخ محمد الزرقاني وضع الإمام محمد بن معاوية الحضرمي من ضمن رواة أهل العراق للهوطاً؛ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري (1122هـ)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط: بلا، 2006م، ج 1، ص 12.
- 4 - معرفة الثقات ج 2، ص 254، الجواهر، ص 42.
- 5 - ترتيب المدارك، ج 3، ص 323، محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس مع: بقي بن مخلد، ص 334.
- 6 - رياض النفوس، ج 1، ص 290، طبقات أبو العرب 142، 143.
- 7 - معرفة الثقات، ج 1، ص 254، ترتيب المدارك، ج 3، ص 323، إتحاف السالك ص 364، الجواهر ص 4.
- 8 - حيث أدرجه القاضي عياض من ضمن الطبقة الوسطى لرواة الإمام مالك من أهل إفريقية ترتيب المدارك، ج 3، ص 323.

ما بين سنة 190هـ⁽¹⁾ إلى قبل سنة 214هـ⁽²⁾ تقريباً، وبالعموم فإنه يمكن إدراجه من أعلام المائة الثانية أو أعلام المائة الثالثة.

المطلب الثالث: مكانته والقيمة العلمية لمروياته:

قيل عنه ما يلي:

- 1- "راوية مالك والليث بن سعد"⁽³⁾.
 - 2- "رأيت محمد بن معاوية، وكان ثقة ثبتاً، وكان صاحب آداب ومعرفة بلغة العرب متقدماً في ذلك"⁽⁴⁾.
 - 3- "مشهور ثقة، وكان له سن وإدراك"⁽⁵⁾.
 - 4- "هو أعلم من محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي"⁽⁶⁾، مع العلم أن الإمام بكر بن حماد التاهرتي حكى أن الإمام سخنون قال فيه شيئاً⁽⁷⁾.
- بينما تكمن القيمة العلمية لجل مروياته في روايته للموطأ حيث يقول الإمام محمد بن معاوية الحضرمي عن روايته للموطأ: "كان بقي علي شيء من الموطأ من كتاب الصلاة، وأتيت إلى مالك وقد رحل الناس، فقال لي: من يقرأ لك؟، قلت: حبيب، وكنت قاطعته بخمسة دراهم وفي الكتاب خمس وعشرون ورقة، فقرأها لي حبيب في مجلس واحد، وقال لي حبيب: لم تغني دراهمك يا مغربي"⁽⁸⁾، وقد سميت روايته للموطأ بالجام⁽⁹⁾ أو بجامع الجام⁽¹⁰⁾ لما فيها من زيادات ليس ذلك عند غيره من أصحاب الموطأ⁽¹¹⁾،

1 - بدأ القاضي عياض الطبقة الوسطى من رواة الإمام مالك بالإمام عبد الله بن نافع الصائغ (190هـ). ترتيب المدارك، ج3، 128

2 - ذكر القاضي عياض من ضمن الطبقة الصغرى الإمام عبد الله بن عبد الحكم (214هـ) وبعد شيء من التتبع في هذه الطبقة وجد أن الإمام عبد الله بن عبد الحكم هو أكبر هذه الطبقة. ترتيب المدارك، ج3، ص363.

3 - قالها الإمام بن حارث الخشني. محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس، ص334

4 - قالها الإمام بكر بن حماد. معرفة الثقات ج2، ص254، إتحاف السالك، ص363.

5 - قالها الإمام أبو العرب رياض النفوس ج1، ص290، ترتيب المدارك ج3، ص323.

6 - قالها الإمام أبو علي البصري: ترتيب المدارك، ج3، 323، الجواهر ص41، ص42.

7 - لم يصرح ما قيل في حقه أنه في الحفظ أم في شيء آخر، ترتيب المدارك، ج3، 323.

8 - رياض النفوس، ج1، ص290، ترتيب المدارك ج3، ص323، إتحاف السالك ص365.

9 - رياض النفوس، ج1، ص190، إتحاف السالك، ص365.

10 - ترتيب المدارك، ج3، ص323، الجواهر ص41.

11 - أكد د. النيفر أن صاحب رياض النفوس قد اطلع عليها وإلا لما قال إن فيها زيادات. مقدمة الموطأ، ص82.

وبعد شيء من التتبع لبعض ما جاء في مقدمات كتب شروح الموطأ وما يتعلق بها من اختلافات وجد أن جمعا منهم لم ينص على اطلاعه على هذه الرواية⁽¹⁾، ومع هذا فقد أشار بعض أهل العلم لبعض ما جاء فيها⁽²⁾، ورغم اندثارها فإن بعض أهل العلم اهتموا بأسانيدھا وتلقوها بالإجازة فقط⁽³⁾.

المبحث الثاني: مروياته - جمع ودراسة-

المطلب الأول: ما رواه من أحاديث مرفوعة:

- ما رواه عن الإمام أبي معمر عباد بن عبد الصمد التيمي البصري:

1 - ككتاب أحاديث الموطأ للدارقطني والاستذكار لابن عبد البر وتنوير الحوالك للسيوطي مع إشارته لما اطلع عليه الغافقي والقاضي عياض من روايات ولم يذكر أيضا اطلاعهما على هذه الرواية وكذلك شرح الزرقاني وغيرهم، وفي هذا يقول الشيخ محمد مصطفى الأعظمي عن هذه الرواية: "لكنه لم يطلع عليها الجوهري أو الداني أو السيوطي أو الزرقاني"، ويقول د. النيفر عن روايات الموطأ من أهل إفريقية ومنها هذه الرواية: "وكلها اليوم أثر بعد عين غير ما وقع الظفر به من موطأ ابن زياد" ر. أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (385هـ)، أحاديث الموطأ واتفاق الرواة عن مالك واختلافهم فيها زيادة ونقصا، قدم له وعلق عليه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ط: بلا، من ص 1 إلى ص 5، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (473هـ)، الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تح: د. عبدالمعطي أمين قلعجي، دار قتيبة، دمشق، بيروت، دار الوعي، حلب، القاهرة، ط: الأولى، 1993م. ج 1 ص 168، 169، 170، 171، جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال السيوطي (911هـ)، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ص 9، ص 10، ص 11، شرح الزرقاني، من ص 12، إلى ص 18، مقدمة الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبوظبي، الإمارات، ط: الأولى، 2004م، ص 331، مقدمة الموطأ برواية ابن زياد بتحقيق د. النيفر، ص 73، ص 83.

2 - وسنذكرها لاحقا.

3 - كالشيخ محمد عبد الحلي الكافي الحسيني والشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري (1371هـ) وبعدهما الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الحلبي (1417هـ) وكل أسانيدهم بالإجازة - وفي بعضها مسلسل بالدمشقيين - إلى الإمام شمس الدين علي بن محمد بن أحمد بن طولون الصالحى الدمشقي الحنفي (953هـ) الذي ذكر سنده لهذه الرواية في كتابه الفهرست الأوسط من المرويات عن طريق مسندة الشام أم عبد الله زينب بنت الكمال أحمد بن عبد الرحيم الصالحية الدمشقية الحنفية (740هـ). محمد عبدالحلي بن عبدالكبير = الكافي الحسيني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتنى به: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثانية، 1982م، ص 475 ص 932، ص 133، مقدمة كتاب أحاديث الموطأ واتفاق الرواة عن مالك واختلافهم فيها زيادة ونقصا للدارقطني بتحقيق الكوثري، ص 2، ص 3، محمد زاهد بن الحسن الكوثري (1371هـ)، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستعيز، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة الحلبي، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط: الأولى، 1993م، ص 13، ص 29، أبو الفتوح عبدالفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة الحلبي الحنفي (1417هـ)، إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبدالفتاح، تخرىج: تلميذه محمد عبدالله آل الرشيد، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، السعودية، ط: الأولى، 1999م، ص 413، ص 414، ص 512.

1- عن محمد بن معاوية عن أبي معمر عابد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصتمت حتى تكونوا كالأوتار، ما أغنى عنكم شيئاً إلا بورع صادق" (1)

- ما رواه عن الإمام مالك بن أنس:

2- ثنا أبو سليمان محمد بن معاوية أطرابلسي مغربي ثقة، ثنا مالك بن أنس، عن عبد الله بن الفضل، عن نافع بن جبير بن مطعم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "الأيمن أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها" (2)

1 - يقول المالكي في رياض النفوس: "وبعض ما أسند إليه من الحديث عن العبدى - أبو سهل فرات بن محمد العبدى القيرواني - عن محمد بن معاوية"، وقد ذكرنا ما قيل عن الإمام أبي معمر كقول البخاري: "فيه نظر"، وقوله: "منكر الحديث" وقول أبي العرب الصقلي: "بروي مناكير، لا يرويه غيره عن أنس، ولكنه مشهور لكثرة من أخذ عنه من أهل القيروان وأطرابلس"، وبعد شيء من التتبع وجد أن البعض ذكر هذا الحديث، ولكن بشيء من الاختلاف في السند والمتن فعمل بعض الطرق يقوي بعضها بعضاً، وهي كالاتي:

-: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصتمت حتى تكونوا كالأوتار، ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تبلغوا الاستقامة"، رواه الإمام ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق بسند فيه مالك بن دينار عن أبي مسلم الخولاني عن عمر بن الخطاب عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال الإمام ابن عساكر: "مالك بن دينار لم يسمع من أبي مسلم الخولاني"، وقد ذكره كذلك الإمام ابن الأثير بقوله: وفي حديث عمر: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا"، هي جمع حنية أو حني وهما القوس.

-: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصتمت حتى تكونوا كالأوتار، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز"، ذكره صاحب الإحياء موقوفاً عن سيدنا عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- وذكره هكذا الإمام ابن الجوزي، ولكن بوضع لفظ "صتمت" مكان لفظ "صليتم" والعكس.

-: "لو صليتم حتى تكونوا كالأوتار وصتمت حتى تكونوا كالحنايا ما نفعكم ذلك إلا بنية صادقة وورع صادق"، وكذلك: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ما نفعكم ذلك حتى تجبوا آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم" وقد نسبهما الزمخشري لسيدنا أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه-. انظر: رياض النفوس، ج، ص 290، أبو حامد الغزالي (505هـ)، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2005، ص 537، علي بن الحسن بن عساكر (571هـ)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، تح: عمر بن غرامة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: 1995م، ج 23، ص 132، جار الله محمود الزمخشري (583هـ)، الفائق في غريب الحديث، تح: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، عيسى الحلبي وشركاؤه، ط: الثانية، ج 1، ص 324، ص 325، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (597هـ)، بحر الدموع، تح: قسم التحقيق بدار الصحابة، دار الصحابة للتراث، ط: الأولى، 1992م.

ص 179، المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، قدم له: علي الحلبي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط: الأولى، 1421هـ، ص 239، لسان الميزان، ص 393، ص 394، ص 395، الجواهر ص 41.

2 - رواه ابن ناصر الدين بسنده المتصل حيث قال: "أنبأنا أبو عبد الله محمد بن المحتسب، عن فاطمة ابنة سليمان، أنا أبو منصور محمد بن عبد الله البندنجي - إجازة - عن أبي منصور محمد بن عبد الملك، أنبأنا الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، أنا علي بن أبي علي البصري وأحمد بن أبي جعفر القطيعي، قالوا: ثنا الوليد بن بكر الأندلسي، أنا أبو الحسن علي

- 3- حدثني محمد بن معاوية عن مالك عن أيوب السخيتاني عن ابن سيرين أن رجلا أخبره عن عبد الله بن عباس أن رجلا جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله: إن أمة عجوز لا يستطيع أن يركبها على البعير، لا تستمسك، وإن ربطها خفت عليها الموت، أفأجج عنها، فقال: نعم.
- 4- حدثني محمد بن معاوية عن مالك عن أيوب السخيتاني عن ابن سيرين أن رجلا... فجاء ابنه إلى رسول الله فأخبره، قال: إن أبي قد كبر لا يستطيع⁽¹⁾

بن أحمد زكريا بن الخصب أطرابلسي مغربي، > أنا < أبو مسلم صالح بن أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم الحجلي أطرابلسي مغربي ثقة، ثنا حبيب بن محمد أطرابلسي رجل صالح ثقة ثنا أبو سليمان محمد بن معاوية أطرابلسي ثقة"، ومن الملاحظ أن فيه أربعة ممن تلقب بالطرابلسي فيمكن أن يقال أنه مسلسل بالطرابلسيين - وإن كان في بعض السند - وقد جاء بسند آخر في الموطأ برواية الإمام يحيى الليثي في كتاب النكاح: باب استئذان البكر والأيم في أنفسهما، رقم الحديث 1493، وأخرجه كذلك الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (261هـ)، صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: بلا، 1954م، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت رقم الحديث 1421/66 ص 1037. إتحاف السالك، ص 365، ص 366.

1 - من هامش الموطأ برواية الإمام يحيى الليثي بتحقيق الشيخ الأعظمي، نقلا عن مخطوطة قال عنها: "وفي مخطوطة الموطأ الموجودة بأنقرة، والمروزمها بق تتضمن حواش عديدة منقولة من هذه الرواية - أي رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي -"، ويقول أيضا: "بهامش هذه المخطوطة ينقل الناسخ حديثا زائدا أو اختلافا في الرواية من نسخة محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي" علما بأنه لم يذكر من الذي روى هذا الحديث عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، وقد ذكرت هذه الرواية بهامش الحديث رقم (375 / 1317) من كتاب الحج: باب الحج عن من يحج عنه، ونص الحديث: "مالك، عن ابن شهاب، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عباس؛ قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، فأجج عنه؟ قال: نعم، وذلك في حجة الوداع"، ومن الملاحظ في رواية الإمام محمد بن معاوية ما يلي:

- هناك رجل مجهول بين التابعي الجليل ابن سيرين - رحمه الله - وبين الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما، وكذلك رجل مجهول بين سيدنا عبد الله بن عباس وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت جهالة هذا الأخير لا تضر بسند الحديث، بينما في رواية الإمام يحيى بن الليثي جاء السند متصلًا ليس فيه جهالة، بل فيه زيادة وصف للصحابية السائلة، وهي امرأة من قبيلة خثعم، وكذلك ما حدث قبل سؤالها.

- ما جاء في إحدى روايتي الإمام محمد بن معاوية الحضرمي أن السائل رجل يريد أن يحج عن أمه، والرواية الثانية أن السائل رجل يريد أن يحج عن أبيه، بينما في رواية الإمام يحيى الليثي أن السائل امرأة من خثعم تريد أن تحج عن أبيها، ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها تشير إلى أن السؤال قد تكرر من أكثر من سائل في أكثر من موضع سواء في حجة الوداع أم في غير هذا الوقت. الموطأ بتحقيق الأعظمي، ج 1، ص 329-331، ج 3، ص 523.

5- حدثني محمد بن معاوية عن مالك أنه بلغه أن الحمار الذي أهدي له الصعب (1) كان.. (2) (3)

المطلب الثاني: ما رواه من أقوال وأفعال للصحابة -رضي الله عنهم:-

- 1- وحدثني محمد بن معاوية، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه كان ما لم يستسن من البدن والضحايا، وعن التي نقص عن خلقهم (4).
- 2- محمد بن معاوية: "أن عائشة أضلت بدنات لها ثلاثا (5).

1 - سيدنا الصعب بن جثامة بن قيس بن ربيعة الليثي -رضي الله عنه- حليف قريش وأمه أخت سيدنا أبي سفيان -رضي الله عنه - قال عنه عليه الصلاة والسلام يوم حنين: "لولا الصعب بن جثامة لفصحت الخليل"، وقد آخى بينه وبينه عوف بن مالك -رضي الله عنه-، اختلف في وفاته؛ فقيل في خلافة سيدنا أبي بكر وقيل في خلافة سيدنا عمر وقيل في خلافة سيدنا عثمان -رضي الله عنهم -. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: بلا، ج3، ص243، ص244.

2 - لا ندري ما مقصود المحقق من هذه النقاط المتتابعة؛ أعدم وضوح الألفاظ بعد لفظ "كان"، أم مقصوده الاختصار فقط.

3 - من هامش الموطأ بتحقيق الشيخ الأعظمي نقلا عن المخطوطة المرموز لها بالرمز (ق) علما بأنه لم يذكر من الذي روى هذا الحديث عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، وفيها أيضا: "صح لابن معاوية"، وقد ذكرت هذه الرواية بهامش الحديث رقم (371/1289) من كتاب الحج: باب ما لا يجوز للمحرم أكله من الصيد، ونص الحديث: "مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصعب بن جثامة الليثي ؛ أنه أهدى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حمارا وحشيا، وهو بالأبواء، أو بودان، فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فلما رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما في وجهي، قال: إنا لم نردده عليك، إلا أنا حرم"، ومن الملاحظ أنه لم يذكر في رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي سند الإمام مالك لهذا الحديث وإنما ذكر بلاغا فقط، بينما ذكر السند كاملا في رواية الإمام يحيى بن يحيى الليثي . الموطأ بتحقيق الشيخ الأعظمي، ج3، ص514.

4 - من هامش الموطأ بتحقيق الشيخ الأعظمي، نقلا عن المخطوطة المرموز لها ب (ق)، علما بأنه لم يذكر الذي روى هذا الأثر عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، وفي الهامش أيضا: " لابن معاوية وعليها علامة التصحيح"، وقد ذكر هذا الأثر بهامش الأثر رقم (1410) من كتاب الحج: باب العمل في الهدى حين يساق، ونص الأثر: "مالك، عن نافع؛ أن عبد الله بن عمر كان يقول: في الضحايا والبدن الثني فما فوقه" ومن الملاحظ أن رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي لهذا الأثر الذي سندها نفس سند ما في رواية الإمام يحيى بن يحيى الليثي تماما، فإنها بمفهوم المخالفة بينت معنى الثني وهو ما استسن -أي ما بلغ السنة فأكثر-، أما ما لم يستسن - أي لم يبلغ السنة ؛ فإنه لم يكن معتبرا من الضحايا أو البدن عند سيدنا عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- الموطأ بتحقيق الأعظمي، ج3، ص556.

5 - من هامش الموطأ بتحقيق الشيخ الأعظمي، نقلا عن المخطوطة المرموز لها بالرمز (ق)، علما بأنه لم يذكر الذي روى هذا الأثر عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، ولا الذي رواه عنه الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، ولعل الأقرب أنه رواه عن الإمام مالك، وقد ذكر هذا الأثر بهامش الأثر رقم (1418) من كتاب الحج: باب العمل في الهدى إذا عطب أو ضل، ونص الأثر: "مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر؛ أنه قال: من أهدى بدنة، ثم ضلت، أو ماتت، فإنها إن كانت نذرا أبدلها، وإن كانت تطوعا فإن شاء أبدلها، وإن شاء تركها"، ولعل ما في رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي تشير إلى مناسبة وسبب هذا الأثر. الموطأ بتحقيق الأعظمي، ج3، ص558.

3- حدثني محمد بن معاوية عن مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: "صلى لنا أنس بن مالك في سفر فصلى ركعتين ثم سلم (1)".

المطلب الثالث: ما رواه من آثار لبعض أئمة أهل العلم:

- ما رواه عن الإمام الليث بن سعد:

1- وحدثني محمد بن معاوية قال: سئل الليث عن رجل يشتري الجارية ويقبضها ويمسها فيجد بها عيبا قديما قال: لا يردّها، ولكن يوضع عنه بذلك قيمة العيب (2)

- ما رواه عن الإمام مالك بن أنس:

2- نا محمد بن معاوية الحضرمي قال: سئل مالك بن أنس وأنا أسمع عن الحديث الذي يذكر فيه طلب العلم فريضة على كل مسلم فقال: "ما أحسن طلب العلم، ولكن فريضة فلا" (3).

1 - من هامش موطأ الإمام مالك بتحقيق الشيخ الأعظمي ج 2، ص 134، نقلا عن المخطوطة المرموز لها بالرمز (ق)، علما بأنه لم يذكر من الذي روى هذا الأثر عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، وقد ذكر هذا الأثر بهامش الحديث رقم (94/321) من كتاب الصلاة: باب من قام بعد الإتمام أو في الركعتين، ونص الحديث: "مالك عن يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن هرمز عن عبد الله بن بحنة؛ أنه قال: صلى لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الظهر، فقام في اثنتين ولم يجلس فيهما، فلما قضى صلاته سجد بسجدين، ثم سلم بعد ذلك"، ولعل المناسبة بين هذا الحديث وما رواه الإمام محمد بن معاوية الحضرمي بداية كل منهما بـ: "صلى لنا...".

2 - ذكر الإمام ابن عبد البر أن هذا الأثر مروى عن الإمام محمد بن وضاح وهو عن الإمام محمد بن معاوية، وفي هذا يقول الإمام مالك رقم الأثر (1796): "الأمر المجتمع عليه عندنا أن من رد وليدة من عيب وجدّه بها، وقد أصابها، إنها إن كانت بكرًا فعليه ما نقص من ثمنها، وإن كانت ثيبًا فليس عليه في إصابتها إياها شيء؛ لأنه كان ضامنا لها"، يقول الإمام بن عبد البر: "الاختلاف في هذا قديم أيضا، قال الثوري: من اشترى جارية فوطئها ثم اطع على عيب، فثمنهم من يقول: يردّها ويرد العشر من ثمنها، إن كانت بكرًا وإن كانت ثيبًا فنصف العشر، ومنهم من يقول: هي له بوطئها إياها ويرد عليه فضل ما بين الصحة والداء وبه يقول الثوري، الاستذكار، ج 19، كتاب البيوع: باب العيب في الرقيق، ص 54، ص 56، رقم الأثر (28126، 28127، 28128، 18129، 28146)".

3 - روى هذا الأثر الإمام بن عبد البر بسنده حيث قال: "حدثنا عبد الوارث: نا قاسم: حدثنا بن وضاح: نا محمد بن معاوية الحضرمي" وقد ذكر الإمام ابن عبد البر رواية أخرى من طريق الإمام عبد الله بن وهب حيث قال: سئل مالك عن طلب العلم أهو فريضة على الناس؟ فقال: لا والله، ولكن يطلب منه المرء ما ينتفع به في دينه" ومن الملاحظ أن قبل سرد الإمام ابن عبد البر حديث: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" برواياته متعددة وأسانيده كثيرة، قال عنه: "هذا حديث يروى عن أنس بن مالك، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من وجوه كثيرة، كلها معلولة، لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد" وفي هذا يقول الإمام إسحاق بن راهويه: "طلب العلم واجب، ولم يصح فيه الخبر...". أبو عمر يوسف بن عبد البر التمري (473هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط: بلا، باب قوله -صلى الله عليه وسلم- "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، ج 1، أرقام الآثار: (31، 32، 34)، ص 23، ص 53، ص 54، محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس، ص 159.

- 3- قال محمد بن معاوية، قال مالك في الذي يركع مع الإمام ركعة يوم الجمعة ثم يعرف فيخرج ثم يرجع وقد ركع الإمام الركعة الآخرة ولم يدركها أنه يبني على الركعة التي صلى معه فيصلي ركعة أخرى ما لم يتكلم⁽¹⁾
- 4- يقول الإمام أبو الوليد محمد بن رشد الجدل (520هـ): "تحصيله: أن الحصون إذا لم يكن فيها إلا المقاتلة فأجاز في المدونة أن يرموا بالنار، ومنع من ذلك سخنون، وقد روى ذلك عن مالك من رواية محمد بن معاوية الحضرمي، ولا خلاف فيما سوى ذلك من تغريقهم بالماء ورميهم بالمجانيق وما أشبه ذلك"⁽²⁾
- 5- وروى محمد بن معاوية الحضرمي عن مالك أنه سئل عن رجل يسلف في الخرفان والجديان، فقال: إن كان ذلك يوجد في كل مرة فلا بأس بذلك، وإلا فلا خير فيه⁽³⁾
- 6- حدثني محمد بن معاوية الحضرمي قال: سمعت مالكا يقول في قول عمر لابن مسعود: لا تقر بها، وفيها شرط لأحد، يقول: لا تطأها، وفيها شرط لأحد⁽⁴⁾

1 - من هامش الموطأ بتحقيق الشيخ الأعظمي نقلا عن المخطوطة المرموز لها ب (ق)، وفيها: "لابن معاوية وعليها علامة التصحيح"، علما بأنه لم يذكر من الذي روى هذا الأثر عن الإمام محمد بن معاوية الحضرمي، وقد جاء هذا الأثر بهامش الأثر رقم (354) من كتاب الصلاة: باب ما جاء في من رعى يوم الجمعة ونص الأثر: "قال يحيى، قال مالك في الذي يركع ركعة مع الإمام يوم الجمعة ثم يعرف فيخرج، فيأتي وقد صلى الإمام الركعتين كتبهما أنه يبني بركة أخرى ما لم يتكلم". الموطأ بتحقيق الأعظمي، ج2، ص147.

2 - ما في المدونة: "قلت لابن القاسم: أرأيت لو كان في الحصن الذي حصره أهل الإسلام ذراري المشركين ونساؤهم وليس فيهم من أهل الإسلام أحد ترى أن ترسل عليه النار فيحرق الحصن وما فيه أو يغرقوه؟ قال: لا أقوم على حفظه وأكره هذا ولا يعجبني، قلت: أليس قد أخبرتني أن مالكا قال: لا بأس أن تحرق حصونهم ويغرقوا، قال: إنما ذلك إذا كانت خاوية ليس فيها ذراري وذلك جائز، وإن كان فيها الرجال المقاتلة فأحرقوهم، قال: لا بأس بذلك"، أما القول بالمنع للإمام سخنون فلا يوجد في المدونة، فعله في إحدى فتاويه التي نقلها عنه بعض تلاميذه، سخنون بن سعيد (240هـ)، المدونة الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 1994م، ج1، 513، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجدل القرطبي (520هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تح: أحمد الشرقاوي إقبال ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثانية، 1988م، ج3، ص30.

3 - الأصل أن السلف في الحيوان جائز، يقول الإمام مالك في موطئه من كتاب البيوع: باب ما يجوز من بيع الحيوان بعضه ببعض والسلف فيه، رقم الأثر (1907): "ومن سلف في شيء من الحيوان إلى أجل مسمى، فوصفه وحلاه ونقد ثمنه، فذلك جائز"، أما إن كان هذا الوصف غير متوفر في كل وقت، فهذا لا يجوز، يقول ابن عبد البر: "لا يجوز أن يسلم في شيء حتى يكون مأمونا لا ينقطع من أيدي الناس في وقت محله". يوسف بن عبد البر (473هـ)، الكافي في فقه أهل المدينة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 200م، كتاب البيوع: باب السلم، 337.

4 - روى هذا الحديث ابن عبد البر بسنده حيث قال: "وقد حدثني عبد الوارث عن قاسم عن ابن وضاح قال: حدثني محمد بن معاوية الحضرمي..، وقد جاء في رواية الإمام يحيى في كتاب البيوع، ما يفعل بالوليدة إذا بيعت والشرط فيها، رقم الحديث 1801: "حدثني يحيى عن مالك ابن شهاب، أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أخبره:"

الخلاصة:

- بعد شيء من التتبع لسيرة ومرويات الإمام محمد بن معاوية يمكن نقول ما يلي:
1. يعد الإمام محمد بن معاوية الحضرمي من طبقة تابعي التابعين؛ لأنه أخذ عن أخذ عن أحد صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.
 2. بروز الإمام محمد بن معاوية الحضرمي كصاحب رواية للهوطاً في فترة تأسيس المدرسة المالكية ببلدان المغرب تجعلنا نقول بأنه من مؤسسي هذه المدرسة العريقة.
 3. ظهور الإمام محمد بن معاوية الحضرمي في الساحة العلمية آنذاك، تجعلنا نؤكد ما كانت عليه طرابلس من كونها بيئة علمية أخرجت العديد من الأعلام وساهمت في تأسيس المدرسة المالكية ببلدان المغرب.
 4. الإمام محمد بن معاوية الحضرمي كغيره من الأعلام، قد ذكر بكل ما فيه ثناء، ولا يعكّر هذا إن تكلم فيه أحد فمثل هذا لا يسلم منه أحد.
 5. ما رواه الإمام محمد بن معاوية الحضرمي من أحاديث ينطبق عليه ما ينطبق على غيره من كونها إما صحيحة أو ضعيفة قد يكون لها طرق أخرى، أو بلاغ يمكن وصله أو ما يمكن إدراجه من ضمن ما يسمى بالمسلسلات، أو اختلاف في الرواية من زيادة أو نقص، وهذا كله له فوائد من حيث الترجيح أو الجمع بين الآراء الاستنباط.
 6. مرويات الإمام محمد بن معاوية الحضرمي منها ما كان مروياً عن الإمام الليث الذي اندثر مذهبه - وإن كانت قليلة جداً - فهي بمنزلة مقارنة بين آراء إمام هذا المذهب وآراء إمام مذهبنا مالك، ومنها ما كان مروياً عن الإمام مالك؛ فمنها ما كان موافقاً

أن عبد الله بن مسعود اتباع جارية من امرأته زينب الثقفية، واشترطت عليه أنك إن بعته فهي لي بالثمن التي تباعها به، فسأل عبدالله بن مسعود عن ذلك عمر بن الخطاب فقال له عمر بن الخطاب: لا تقربها وفيها شرط لأحد"، يقول ابن عبد البر: "أما ظاهر قول عمر لابن مسعود: لا تقربها فيدل على أنه أمضى شراءه لها، ونها عن مسيسها"، ويقول: "هذا هو الأظهر فيه، ويحتمل ظاهره أيضاً في قوله: لا تقربها أي تنح عنها، وافسخ البيع فيها، فهو بيع فاسد"، ولكن عن رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي: "وهذه الرواية عن مالك خلاف لمذهب مالك عند أصحابه"، وقال: "والصحيح في مذهبه عند جميع أصحابه ما ذكره أبو مصعب عنه، قال أبو مصعب: قال مالك في حديث ابن مسعود وقول عمر: لا تقربها، وفيها شرط لأحد يريد: لا تشتريها، يريد لا تشتريها"، ولعل ما في كلام الإمام مالك الآتي هو جمع بين الروايتين، رقم الأثر (1803): "قال مالك فيمن اشترى جارية على شرط أنه لا يبيعها، ولا يهبها، أو ما أشبه ذلك من الشروط؛ فإنه لا ينبغي للمشتري أن يطأها، وذلك أنه لا يجوز له أن يبيعها، ولا أن يهبها، فإذا كان لا يملك ذلك منها، فلم يملكها ملكاً تاماً؛ لأنه قد استثنى عليه فيها ما ملكه بيد غيره، فإذا دخل هذا الشرط لم يصلح، وكان يباعاً مكروهاً"، الاستدكار، ج 19، ص 68، ص 69.

لمشهور مذهبه، ومنها ما كان يخالف مشهور مذهبه، ولا شك أن مثل هذا يشير إلى تنوع الآراء الفقهية وتعددتها داخل المذهب.

7. امتازت رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي للموطأ بزيادات عن غيرها.
8. رغم اندثار رواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي للموطأ فإن تداول سند هذه الرواية ما زال متواصلاً ومستمرًا بين أهل العلم - وإن كان بالإجازة فقط -.

التوصيات:

1. تسليط النظر حول هذه الشخصية العلمية اللببية ومحاولة دراسة ما خفي منها.
2. إظهار الإمام محمد بن معاوية الحضرمي والتعريف به في المحافل العلمية كعلم من أعلام ليبيا وأحد رواة الموطأ، ومن ضمن مؤسسي المدرسة المالكية بليبيا.
3. تكثيف كل الجهود للبحث والوصول لرواية الإمام محمد بن معاوية الحضرمي للموطأ، وإظهارها في الساحة العلمية كغيرها من روايات الموطأ المتداولة بين طلاب العلم.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (606هـ)،
1. - النهاية في غريب الحديث والأثر، قدم له: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط: الأولى، 1421هـ
 - ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (597هـ).
 2. - بحر الدموع، تح: قسم التحقيق بدار الصحابة، دار الصحابة للتراث، ط: الأولى، 1992م.
 - ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ)
 3. - الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: بلا.
 4. - لسان الميزان، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه: سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2002م.
 - الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبيد الله الحموي الرومي البغدادي (626هـ)
 5. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: بلا، 1977م.

- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (385هـ) أحاديث الموطأ واتفق الرواة عن مالك واختلافهم فيها زيادة ونقصا، قدم له وعلق عليه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ويكل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقا، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، 9 درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر، القاهرة، مصر، ط: بلا
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (748هـ).
6. سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط: الثالثة، 1985م.
- ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المعروف بالجد القرطبي (520هـ)
7. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تح: أ. أحمد الشرقاوي إقبال ود. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثانية، 1988م.
- الزاوي، الطاهر أحمد الزاوي
8. أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 2004م.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري (1122هـ).
9. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط: بلا، 2006م.
- سخون، عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني (240هـ)
10. المدونة الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 1994م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (911هـ)
11. تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الشريف، ناصر الدين محمد الشريف
12. الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، دار البيارق للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 1999م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (473هـ)
13. الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ

- من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تح: د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق - بيروت، دار الوعي حلب - القاهرة، ط: الأولى، 1993م.
14. جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي
15. الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 2002م.
- العجلي، أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (261هـ)
16. - معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن القضاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، تح: أ. عبد العليم عبد العظيم البستوي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، 1985م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (571هـ)
17. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، تح: عمر بن غرامة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:، 1995م.
- عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي (544هـ).
18. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد بن تاويت الطبخي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط: الثانية، 1983م.
- أبو غدة، أبو الفتوح عبد الفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة الحلبي الحنفي (1417هـ)
19. إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح، تخرّج تلميذه: محمد عبد الله آل رشيد، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، السعودية، ط: الأولى، 1999م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (505هـ).
20. إحياء علوم الدين ومعه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخرّج ما في الإحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل العراقي (806هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2005م.
- الكتاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني.

21. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات اعتنى به: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط: الثانية، 1982م.
- الكوثري، محمد زاهد بن الحسن الكوثري (1371هـ)
22. التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط: الأولى، 1993م.
- الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث ودرب الأتراك - خلف الجامع الأزهر 1371هـ - 1952
- مالك، مالك بن أنس الأصبحي (179هـ)
23. الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس 93 - 179هـ رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، أعتنى به: أبو عمار ياسر بن عبد التواب عويس، المكتبة الإسلامية، القاهرة، مصر، ط: الأولى، 2010م.
24. موطأ الإمام مالك، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبوظبي، الإمارات، ط: الأولى، 2004م.
25. موطأ الإمام مالك قطعة منه برواية ابن زياد، تح: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 1980م.
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (474هـ تقريباً)
26. رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الثانية، 1993م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (261هـ)
27. صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: بلا، 1954م.
- ابن ناصر، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي (842هـ)
28. إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك، تح: أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، المكتبة الإسلامية، القاهرة، مصر، ط: الأولى، 2005

- د. نوري معمر

29. محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس مع: بقي بن مخلد، منشورات مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط: الأولى، 1983م.

المقالات:

- د. حمزة بو فارس.

مقال بعنوان: دور لييبا في نشر المذهب المالكي حتى القرن الخامس الهجري، قدم للأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك 1435هـ، 2013م.

عمرو النامي ومنهجه في بيان ملامح النفاق وعلاجه، من خلال كتابه:

"ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية"

د. عبد العاطي أبو العيد الخدراوي/ جامعة الزاوية/ كلية التربية - أبوعيسى

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وبعد:

فالهوية الإسلامية هي الانتماء إلى الله ورسوله، وإلى دين الإسلام وعقيدة التوحيد، التي أكمل الله لنا بها الدين، وأتمّ علينا بها النعمة، وجعلنا بها خير أمة أخرجت للناس، والحفاظ عليها مقصد مهم للمؤمن، فهويتنا هي ديننا وعقيدتنا، وسنة نبينا ﷺ ومنهجنا الإيماني.

وعليه؛ فقد جاءت هذه الدراسة لتسهم في إبراز جهود علماء الأمة، والدعاة المخلصين في الحفاظ على الهوية الدينية الخالية من مظاهر النفاق، وقد كان للدكتور عمرو خليفة النامي منهجية واضحة بينها في كتابه: "ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية"؛ لعلها تكون قدوة يقتدي بها المربون في غرس إبراز الهوية الإسلامية الصحيحة، وغرس معاني التقوى والفضيلة في النفوس فتصبح تلك المعاني سجية لهم، ومعلماً أصيلاً لشخصيتهم، ومنهاجا للحفاظ على هويتهم الدينية، وتنشئة الأجيال عليها.

خطة الدراسة:

تتكون خطة الدراسة من مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة، وصولاً إلى التوصيات والمقترحات وانتهاءً بفهرس المصادر والمراجع.

أهمية الدراسة:

دراسة الجهود الإصلاحية للعلماء والفقهاء في مجال الحفاظ على الهوية الدينية؛ لإفادة المهتمين من هذه الجهود.

مشكلة الدراسة:

الإجابة عن السؤال الرئيس: ما جهود الدكتور عمرو النامي في الحفاظ على الهوية الدينية؟ من خلال علاج ظاهرة النفاق، ووضعها في الموازين الإسلامية.

منهج الدراسة:

أما المنهج المستخدم في إعداد الدراسة؛ لتحقيق أهدافها فهو المنهج الاستقرائي الوصفي. حدود الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون حدودها مقتصرة على منهج الدكتور عمرو النامي من خلال كتابه: "ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية"، وما يتوافر للباحث من موروث ثقافي وعلبي مدون.

الخاتمة: وفيها يرصد الباحث ما توصل إليه من نتائج.

وفيما يلي أفضل القول في هذا الموضوع بشيء من الإيجاز؛ نظراً لضيق المقام، فأقول مستمداً من الله العون والسداد.

المطلب الأول: عمرو النامي، حياته ومؤلفاته:

أولاً: اسمه ونسبه:

هو عمرو خليفة سعيد النامي، باحث وأديب وناقد ومحقق وداعية ومفكر إسلامي، يرجع نسبه إلى عائلة العزّابي⁽¹⁾.

ثانياً: مولده ونشأته:

ولد الدكتور عمرو خليفة النامي في مدينة نالوت⁽²⁾ بجبل نفوسة سنة 1939م⁽³⁾، ونشأ في أسرة محافظة تحرص على العلم، وتمسك بأهداف الدين، وتعمل على تنشئة أبنائها على قيم الإسلام، والالتزام بتعاليم، تربي في أحضان الجبل الأشم، فلقد كان جبل نفوسة في صدر الإسلام معقلاً للأبطال، ومدرسة أنجبت فطاحل العلماء وأئمة الدين.

ثالثاً: طلبه للعلم:

تعلم الدكتور عمرو خليفة النامي على يد والده الحاج خليفة، ثم التحق بالكتاب لتعلم القرآن ومبادئ اللغة العربية والشريعة على يد الشيخ مسعود بن قنان، ثم دخل مدرسة نالوت

(1) - نسبة إلى نظام العزابة المعمول به في الجبل وجربة والجزائر، وللمزيد ينظر: الدكتور فرحات بن علي الجعبري نظام العزابة عند الإباضية الوهبيّة في جربة " نشر معهد الآثار بتونس 1975، المطبعة العصرية تونس.

(2) - وهي مركز محافظة نالوت في جبل نفوسة "تقع 276 كيلومتر عن العاصمة طرابلس تقع على خط عرض (31,52) درجة وعلى خط طول (10,59) درجة. وتعدّ نالوت ثالث أكبر مدن النطاق الجبلي بعد غريان وبفرن، وهي آخر هذه المدن من ناحية الغرب وترجع أهميتها قديماً وبصفة خاصة إلى موقعها على طريق القوافل بين الساحل والصحراء ولقربها من الحدود التونسية الجزائرية. ينظر: الهيئة العامة للمعلومات، مايو 2009م.

(3) - بينما أورد الدكتور خالد بن سعيد النفوسي في لقائه عبر قناة الاستقامة بعمان أن مولد الدكتور عمر خليفة النامي 1942م بناء على الاطلاع على الوثائق الشخصية كجواز السفر وبعد تقييدات الدكتور بخط يده.

ففضى بها مرحلته الابتدائية، بعدها انتقل إلى مدينة غريان حيث درس بها المرحلتين الإعدادية والثانوية، وذلك من سنة 1952 إلى 1958م، ثم توجه بعدها إلى مدينة بنغازي؛ ليلتحق بكلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية؛ فخرج فيها بعد خمس سنوات بشهادة (الليسانس آداب) ثم اختير لمواصلة دراسته خارج ليبيا فالتحق بجامعة الإسكندرية بمصر سنة 1963م تحت إشراف أستاذه الأديب والمفكر الدكتور محمد محمد حسين، الذي سبق له التدريس بكلية الآداب ببنغازي، فاضطر لقطع دراسته بمصر سنة 1965م⁽¹⁾، واتجه إلى بريطانيا سنة 1966 حيث تحصل على الدكتوراه من جامعة كامبردج⁽²⁾.

رابعا: شيوخه:

ومن الأساتذة الذين تلقى على أيديهم العلم والفكر والدعوة: العالم الداعية الشيخ علي يحيى معمر⁽³⁾، وكان الدكتور عمر خليفة النامي، يختلف إلى مجلس الشيخ علي يحيى معمر، ويسمع منه فصولا من تاريخ الفاتحين الأوائل، والمجاهدين البواسل، الذين رفعوا لواء الإسلام عاليا في هذه الربوع، ويحرك في ضميره ذكريات الرجال العظام من أسلافه الأجداد، الذين تشهد كل ذرة رمل في الجبل على مناختهم عن الإسلام.

2- والعالم المصري الأديب الداعية الدكتور محمد محمد حسين⁽⁴⁾، فكلا الرجلين كان له تأثير على ثقافته وشخصيته وتوجهاته الإسلامية، وكانا معجبين بذكاء تلميذهما وصدقه وإخلاصه وصفاء قلبه وغيرته على حرمت الدين والأمة والوطن، وجدّه واجتهاده، في تلقي العلم منهما بكل إقبال واستيعاب. فقد كان لَمَّا حَا، صافي الذهن، سريع الحفظ، نهماً في القراءة، مقبلاً على العلوم بكل طاقته، يستغرق الساعات الطوال في البحث والدراسة، دونما تعب أو ملل، وهذا شأنه في الليل والنهار، في الحضر والسفر، في السجن وقاعات الدرس، في البيت وفي

(1) - نتيجة للظروف السياسية في تلك الفترة.

(2) - دراسات في الإباضية.

(3) - علي يحيى معمر، ت 1980م 1 من علماء ليبيا المعاصرين، ولد بمدينة نالوت وفي سنة 1937 توجه إلى الجزائر وقضى سبع سنوات بمعهد الحياة الذي أنشأه رائد الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري الإمام الشيخ بيوض، ودرس به بعد التخرج، ثم عاد إلى وطنه وحمل راية الإصلاح والتنوير، فأنشأ المدارس والجمعيات. ومنها: مدرسة ابتدائية في جادو. ومعهد للمعلمين سماه. معهد الشيخ إسماعيل الجيطالي للمعلمين». ومدرسة الفتح بطرابلس، تديرها جمعية الفتح. معجم أعلام الإباضية- قسم المغرب رقم 640.

(4) - محمد محمد حسين أديب إسلامي مصري، مواليد 1912 باحث في الأدب العربي، دكتوراه في الأدب العربي من جامع القاهرة، أبرز مؤلفاته "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر" الذي رد فيه على طه حسين وغيره، و"الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها" و"اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر" و"حصوننا مهددة من الداخل". توفي 1982م

المسجد، إنه آية من آيات الله في شباب هذا العصر الذي عرف طريقه إلى الله، وسار فيه دونما تردد⁽¹⁾، يقول محمود محمد الناكوع⁽²⁾ - صديق الدكتور عمر النامي - كان الدكتور محمد محمد حسين شديد الإعجاب بذكاء عمرو النامي فاهتم به وشجعه على المضي في طريق البحث والدراسة حتى يصبح يوماً ما أستاذاً جامعياً، وجمعت بين الأستاذ وتلميذه رابطة المنطلق والتوجه الإسلامي، وتحققت فراسة أستاذه فيه، فواصل النامي دراسته، وتحصل على المراتب الأولى التي أهلته ليكون ضمن بعثة علمية للدراسات العليا بمصر⁽³⁾.

خامساً: مؤلفاته:

لقد كانت حياته حافلة بالعلم تعلماً وتعليماً، تحقيقاً وتأليفاً، حتى أصبحت مؤلفاته مرضية عند العلماء؛ لما له من مكانة علمية عالية، ولما لمصنّفاته من جودة وإتقان، فقد اهتم المترجمون له بسرد مؤلفاته وآثاره العلمية والبحث عنها، وبيان طبعاتها، وقد توسع الأستاذ سلطان بن مبارك الشيباني بن حمد الشيباني في ذلك، وأتى بما يشفي ويكفي⁽⁴⁾، فبذل جهداً مشكوراً في حصر مؤلفاته حسب زمان كتابتها، وضبط أسماؤها، فقال: لقد ترك النامي آثاراً واضحة على الساحة العلمية وخلّدت آثاره القيمة ذكره من بعده مقارنة بالزمن الذي أنجزت فيه، ولك أن تتصور إتمام قرابة 25 عملاً، خلال 15 سنة فقط، شابهها الكثير من مكدرات الصفو كالسفر والاغتراب والسجن والمضايقات، وفيما يلي أسرد أهم مؤلفاته، وهي:

1- تحقيق قناطر الخيرات⁽⁵⁾ 1385 هـ / 1965 م

2- أطروحة في الشعر الجاهلي 1387-85 هـ / 1967-65 م

- (1) - المستشار عبد الله العقيل / عمرو النامي، أستاذ الجامعة وراعي الغم! 16/ تموز/ 2020م - رابطة أدباء الشام.
 (2) - الأستاذ محمود الناكوع من مواليد مدينة الزنتان - غرب ليبيا 1939م. حصل على ليسانس الآداب من الجامعة الليبية 1963م. عمل في المجال الإعلامي الإذاعي والصحفي بليبيا ولندن. له الكثير من المقالات في كبرى الصحف والمجلات العربية - الشرق الأوسط، الحياة، القدس العربي، مجلة العالم.
 (3) - مجلة العلم - العدد 468 السبت 30/يناير 1993م 7/ شعبان 1413هـ

(4) - عمرو النامي مسيرة عطاء في دروب الخير 1428هـ / 2007م

(5) - ألفه إسماعيل بن موسى الجيطالي (أبو طاهر) ت: 750 هـ / 1349م - عالم جليل، ولد بجبل نفوسة، ونشأ بمدينة جيطال. اشتهر الجيطالي بحافظته القوية العجيبة، فكان شيخاً حافظاً، عالماً، عاملاً، محافظاً، شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تراجم المؤلفين التونسيين - محمد محفوظ ط/ 2 الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت -

لبنان

- 3- تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد⁽¹⁾ 1389 هـ / 1969 م⁽²⁾
- 4- مقالات فكرية⁽³⁾ 1389-88 هـ / 1969-68 م
- 5- تحقيق كتاب مسائل التوحيد 1390 هـ / 1970 م
- 6- مقال وصف مخطوطات إباضية 1390 هـ / 1970 م
- 7- تحقيق رسالة الزكاة 1391 هـ / 1971 م
- 8- تحقيق رسالة الحقائق 1391 هـ / 1971 م
- 9- أطروحة الدكتوراه دراسات في الإباضية⁽⁴⁾ 1391 هـ / 1971 م
- 10- تحقيق قواعد الإسلام 1391 هـ / 1971 م
- 11- تحقيق أصول الدين⁽⁵⁾ 1391 هـ / 1971 م
- 12- تحقيق أجوبة ابن خلفون⁽⁶⁾ 1391 هـ / 1971 م
- 13- تقديم لكتاب مواقف فكرية 1391 هـ / 1971 م
- 14- ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية⁽⁷⁾ 1394 هـ / 1974 م
- 15- تحقيق أجوبة علماء فزان 1396 هـ / 1976 م
- 16- تحقيق الرد على جميع المخالفين⁽⁸⁾ 1396 هـ / 1976 م
- 17- كتاب القراءة العربية لغير الناطقين بها 1397-96 هـ / 1977-76 م
- 18- ترجمة أصول الدين 1397-96 هـ / 1977-76 م
- 19- ملاح عن الحركة العلمية بوارجلان 1397 هـ / 1977 م
- 20- ديوان الشعر الشعبي 1397 هـ / 1977 م
- 21- دليل المؤلفين العرب الليبيين 1397 هـ / 1977 م

(1) - راجعها وقدم لها: الأستاذ / سلطان بن مبارك الشيباني.

(2) - تحقيق الدكتور عمرو خليفة النامي - دار الدعوة ليبيا 2018 م

(3) - سيأتي ذكرها عند الحديث عن نماذج من جهود.

4 - رسالة دكتوراه تقدم بها إلى جامعة كامبريدج البريطانية ط1/2001 م دار الغرب الإسلامي، بيروت، ترجمة ميخائيل جوري وماهر جزار

5 - لتبغورين بن عيسى المشوطي. ينظر معجم علماء الإباضية ص 321

6 - منشورات دار الفتح، بيروت

7 - ألفه في السجن 1973 م وطبع 1979 م بالكويت

8 - لأبي خزيمة وأكل التحقيق أكرم كروم. ينظر معجم علماء الإباضية ص 321

- 22- تحقيق سير مشايخ نفوسة 1400 هـ / 1980 م
 23- تقديم لكتاب ثورة أبي زيد 1400 هـ / 1980 م
 24- تحقيق العدل والإنصاف⁽¹⁾ 1400 هـ / 1980 م
 25- الديوان الشعري كلمات إلى زينب.⁽²⁾

المطلب الثاني: التعريف بكتاب ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية:

هذا الكتاب ألفه الدكتور عمرو النامي في السجن المركزي بطرابلس عندما اعتقل للمرة الثانية مع أستاذه الشيخ علي يحيى معمر وعدد من المثقفين إثر خطاب زوارة في 12/ ربيع الأول 1393 هـ الموافق 15/4/1973 م، ودامت هذه المحنة قرابة سنتين، ومن العجيب أن يلقي النامي في السجن مكتبة واسعة تضم الكتب المصادرة من العلماء والمثقفين أثناء مدهامة رجالات الأمن لهم، وقد ساعدته في إعداده لكتابة موضوع الدراسة⁽³⁾.

وقد خصص هذا الكتاب لدراسة ظاهرة واحدة، مشيراً إلى ذلك في كتابه هذا، بقوله "والذي نقصده في إطار هذا البحث هو جزئية واحدة أو مشكلة واحدة، تكون هي مدار هذه الدراسة، وهي قضية النفاق والمنافقين..."⁽⁴⁾ وعلى الرغم من ذلك فقد جاء كتابه حافلاً في عرضه لموضوع الخلاف، متسائلاً إلى أي مدى يستطيع الباحث المعاصر أن يسلم من آثار ذلك الخلاف؟ منوهاً إلى إمكانية استيعاب التجربة التاريخية للمسلمين في ماضيهم، بأنها كفيلاً أن تجنبنا الوقوع في تلك المزالق القديمة، وأن نحدد لنا- بقدر الإمكان- منهجاً سليماً في العلاج،⁽⁵⁾ مبيّناً كيفية الرد إلى الله تعالى، أي إلى كتاب الله العزيز وإلى سنة الرسول ﷺ، مستشهداً على ذلك بما نقله عن ابن القيم، في قوله: "فأهل الإيمان قد

1 - كتاب العدل والإنصاف في الفقه والاختلاف لأبي يعقوب بن يوسف الوراقلاني ت 570 هـ لم يطبع ينظر الفقه العماني والمقاصد الشرعية ص 298 ندوة تطور العلوم الفقهية بعمان المنعقدة 18-21/ مارس 2006 م

2 - اعتنى بها: علي بن ماجد السلهاني، راجعها وقدم لها: الأستاذ / سلطان بن مبارك الشيباني منشورات مكتبة خزائن الآثار

3 - عمرو النامي. مسيرة عطاء في درب الخير، سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني. ص: 99، ط/ 1/ 2008 م مكتبة الأنفال سلطنة عمان.

4 - ص: 23

5 - ص: 18

يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً...⁽¹⁾، وأن أهل الإيمان- كما يقول ابن القيم: "لا يخرجهم تنازعهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان إذا ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله كما شرطه الله عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾²...⁽³⁾ ومعنى الرد إلى الله، الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته⁽⁴⁾.

أولاً: الغرض من تأليفه:

انطلق النامي في كتابه من تمهيد ذكر فيه دوافع تأليفه لكتاب ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية حيث قال: "هذه الفصول التي أقدمها للقارئ الكريم تهدف إلى تسليط الضوء على ظاهرة النفاق كما تحددها الموازين الإسلامية، وكما كشفتها الأحداث في سيرة الرسول ﷺ مذكراً بوضوح العقيدة الإسلامية وتكامل منهجها في كشف نماذج بشرية صنفها الموازين الإسلامية حسب تجاوبها مع العقيدة الإسلامية ومتطلباتها سلباً وإيجاباً⁽⁵⁾... وأن الناس في حياتهم أمام صراع متجدد ومعركة متصلة يفرضها التفاعل بين نوازع الخير والشر وبين الحق والباطل والهدى والضلال ثلاثة أصناف: صنف آمن بالله وصدق رسوله ﷺ ولزم دينه وهو عنصر تلك الطائفة الكريمة التي وصفها الرسول - عليه الصلاة والسلام- (لا يزال طائفة من أممي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)⁽⁶⁾، وصنف أهل ضلال وعتو وكفر، كفروا بالله وحججوا بآياته وكذبوا رسوله، فهم أهل الفساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁷⁾، وصنف ثالث نسب نفسه على أهل الإسلام،

1 - إعلام الموقعين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م، 49/1.

2 - سورة النساء، الآية: 59.

3 - المصدر السابق والصفحة نفسها

4 - ينظر: ظاهر النفاق في الموازين الإسلامية ص: 19

5 - ص: 9

6 - صحيح البخاري- تحت: محمد زهير بن ناصر الناصر (9/ 101) ط/1422 هـ طوق النجاة.

7 - سورة البقرة الآية: 7

لكنه أخذ نفسه مأخذ الهزل، وسلك به مسلك الخبث والغش، فلا هو حزم أمره فكان في صف أهل الإيمان في صدق عقيدته والتزامه بأمر الله تعالى، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ونصرة دينه، ولا هو جاهر بالكفر الصريح، بل سلك سبيلاً ملتوية عرجاء، فهذا من المذبذبين المتحيرين، حسبهم على هذا الفساد والاعوجاج ما أعدده الله لهم من العذاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾⁽¹⁾، والناس لا بدّ لاحقون بهذه الأصناف كل حسب عقيدته وعمله"⁽²⁾

ثانياً: محتويات الكتاب:

جاء كتابه في سبعة فصول، استعرض في الفصل الأول منه تعريف مشكلة الدراسة، فيما خصص الفصل الثاني لبيان أصل الاصطلاح، وفي الفصل الثالث تتبع فيه كيف بدأت ظاهرة النفاق في المدينة، أما المظاهر العملية لتحركات المنافقين في المدينة فرصدها في الفصل الرابع. وفي الفصل الخامس تناول فيه ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية مفصلاً فيه موقف المنافقين من العقيدة والصلاة والنفقة والصدقات والجهاد، وخلاصة لما تقدم وإيجازاً وجمعاً للملاح العامة لهذه الظاهرة جاء ذكرها في الفصل السادس وخصص الفصل السابع للحديث عن أحكام المنافقين.

ثالثاً: تساؤلاته في الكتاب:

انطلق النامي في رصد ظاهرة النفاق وبيانها في الميزان الشرعي من تساؤلات عدة: ما هو النفاق؟ ومن هو المنافق؟ وهل هو نموذج متميز ثابت محدد المعالم؟ أم هو نتاج مواصفات تخضع للزيادة والنقصان فيكون الشخص منافقاً في حال دون الأخرى؟ ثم هل هو نموذج ارتبط وجوده بفترة نزول الوحي في المرحلة المدنية ثم انقطع أمره؟ أم هو نموذج متكرر في تاريخ البشرية؟ وماهي الصفات والمواصفات التي تجعل الشخص منافقاً عند الاتصاف بها؟ ثم ماهي أحكام المنافق في الدنيا وما هو مصيره في الآخرة؟ وماهي أخطار النفاق كظاهرة اجتماعية في المجتمع الإسلامي؟ وهل هناك من وسائل لمواجهة هذه الظاهرة وعلاجها؟

1 - سورة النساء الآية 145

2 - المصدر السابق والصفحة نفسها.

رابعاً: منهجه في تأليفه لكتابه:

وللإجابة على التساؤلات سالفة الذكر حدّد النامي لنفسه منهجاً في وضع ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية، فقد صرح تصريحاً ووضوحاً حيث قال: " الارتباط رأساً بالقرآن وهو النص الأساسي الذي يستند عليه بناء العقيدة، ثم بالبيان الصحيح الصادق لهذا النص القرآني وهو الصحيح من سنة النبي ﷺ، وعرض هذه النصوص في إطار السيرة وأحداثها وتجنب التأويل المتلوي الذي يحاول صرف النص؛ لتأييد رأي معين أو وجهة نظر معينة مسبقة⁽¹⁾، وهذا يقتضي أن نعرض إعرافاً تاماً عن التصورات التي تكونت إطار وثقافات وأحداث معينة مرتبطة بعصور معينة وتغيرات اجتماعية وسياسية معينة. وهكذا فإن ما نشرطه على أنفسنا في هذا المنهج هو الارتباط المباشر بالنص القرآني وسنة الرسول ﷺ وأحداث السيرة، وعدم الحكم على هذه النصوص بفكرة مسبقة، بل تكوين الحكم من خلال هديها وتوجيهها، ونحن نرجو أن يكون هذا المسلك منطلقاً صالحاً لعلاج مثل هذه القضايا الحيوية.. خصوصاً وأن اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية وسائر النشاطات الحضارية بين عصرنا هذا وما سبقه من العصور اختلاف ظاهر بين في كثير من المجالات... والإسلام يلزمنا الانقياد لأحكام الكتاب والسنة وتكييف حياتنا على ضوء من هديهما وتوجيههما"⁽²⁾، ويشير إلى استقراء الآيات القرآنية التي تناولت ظاهرة النفاق والمنافقين حيث قال: " أن نخص بالدراسة تلك الآيات التي عالجت بصراحة ووضوح قضية النفاق وأصحابها"⁽³⁾.

خامساً: الهدف الذي يسعى من الكتاب:

وأنا - في هذه الفصول - وفي إطار النصيحة لنفسي ولأمتي، سأحاول بيان ملامح فئة المنافقين في إطارها التاريخي، وكما نبه عليها وحذر منها الله تعالى ورسوله ﷺ، وإنما يكون هلاك المرء في كثير من الأحيان عن غفلة غالبية أو سهو محض، حتى يتنبه غافلاً ويتذكر ساه، فيصلح المرء من نفسه ما أفسدته الغفلة والسهو، أو جرت إليه الحيرة والجهل.

1 - المقدمة ص: 22

2 - المصدر السابق ص: 23

3 - المصدر السابق ص: 86

والعاقل من وعظ بغيره⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾⁽²⁾.
سادساً: مصادره:

تنوعت مصادره من حيث فنون العلم، واختلفت من حيث كثرة الرجوع إليها والنقول عنها، مع الحرص على عزو تلك النقول والأقوال إلى أصحابها، وفيما يلي أذكر أهم مصادره التي أفاد منها، وهي:

1. المقاييسات: أبو حيان التوحيدي. المتوفى: 400 هـ.
2. مالك بن أنس - أمين الخولي.
3. القاموس المحيط: الفيروز آبادي. المتوفى: 817 هـ
4. تفسير الطبري: أبو جعفر الطبري، المتوفى 310 هـ
5. تفسير ابن كثير: المتوفى: 774 هـ
6. البرهان في عوم القرآن: أبو عبد الله الزركشي المتوفى: 794 هـ
7. إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية المتوفى: 751 هـ
8. أدب الدنيا والدين: أبو الحسن الماوردي المتوفى: 450 هـ
9. الأحكام في أصول الأحكام: أبو محمد ابن حزم القرطبي المتوفى: 456 هـ
10. أحكام القرآن: أبو عبد الله محمد القرطبي المتوفى: 671 هـ
11. أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص المتوفى: 370 هـ
12. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي
13. السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري المتوفى 213 هـ
14. السيرة الحلبية: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، المتوفى: 1044 هـ
15. تفسير الكشاف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري المتوفى: 538 هـ
16. الإيمان: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية المتوفى: 728 هـ
17. زاد المعاد: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية المتوفى: 751 هـ

1 - ظاهرة النفاق ص: 14

2 - سورة لقمان الآية: 22

18. فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني المتوفى: 1250هـ
19. أسباب النزول: علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي المتوفى 468هـ.
20. الترغيب والترهيب: أبو محمد، زكي الدين المنذري المتوفى: 656 هـ
21. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري،
22. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري المتوفى: 261هـ
23. صحيح ابن خزيمة المتوفى: 311هـ
24. المعجم الأوسط: أبو القاسم الطبراني المتوفى: 360هـ
25. سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي المتوفى: 303هـ
26. سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي
27. ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان المتوفى: 354هـ
28. سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى 275هـ.
29. مسند أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل توفي 261هـ
30. لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي المتوفى: 911هـ
31. الاستيعاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر المتوفى: 463هـ
32. أسد الغابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري، ابن الأثير المتوفى: 630هـ
33. مسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري
34. اللؤلؤة والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان محمد فؤاد عبد الباقي
35. الدليل والبرهان: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن الورجلاني المتوفى 570هـ

المطلب الثالث: نماذج من منهجه في علاج ظاهرة النفاق:

الفصل الأول المشكلة والحل:

بدأ النامي عرضه لظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية، بالإجابة على تساؤل قد يستغرب القارئ وجود هذه المشكلة- النفاق- أصلاً، معللاً ذلك بأن هذا الموضوع من الواضحات عند بعض الناس وإدخال المصطلح في البحث والنقاش يتجنبه الناس؛ لأنه من الدين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يدخل ضمن إطار علاقة الإنسان بربه، وفي هذه الحالة يتوقف الناس في الخوض في مثل هذه المصطلحات، على حد قوله: "فلاحتكام

للصيغ الشرعية الدينية أمر يتجنبه الناس اليوم مدفوعين بدافعين متميزين: فهناك من يتجنبه ورعاً، وهو يتخرج من استخدام الصيغ الشرعية الدينية خشية أن يرمي امرءاً مسلماً بما هو ليس فيه فليحقه الإثم لذلك، وهناك قسم آخر من الناس - وهم الأكثر - قد نبذوا وراءهم هذه الصيغ الشرعية فلم يعد لها في مفاهيمهم غير صدى غائم مشوش؛ فهم يستخدمونها - عندما يفعلون - في غير مواضعها، ويلبسونها غير أهلها...⁽¹⁾ فالذين يتخرجون من استخدام الصيغ الشرعية الدينية ويترددون في إطلاقها والاحتكام إليها، إنما جاء هذا التردد والإجماع من قبل غيمومة هذه الاصطلاحات والتصورات في أذهانهم. حيث قال: "وأمر الدين والعقيدة ينبغي أن ينتفي عنه اللبس والغموض، وينبغي أن يكون واضحاً لدى أصحابه أشد ما يكون الوضوح؛ حتى تكون مواقفهم تبعاً لذلك محددة واضحة... ومعروف أن قوة الموقف وصراحته واندفاعه ترتبط ارتباطاً أصيلاً بوضوح الدوافع الأساسية لهذا الموقف... فلا نطمع من شخص أن يحارب عملاً أو فكراً أو واقعاً، لا يجزم هو بكونه منكرًا أو فساداً... والتنبية إلى هذه الظاهرة وخطرها أمر واجب..."⁽²⁾.

فوضوح الهدف والغاية أصدق ما يطلق على البشر الذين لم يهتدوا بهدي الله أنهم ضالون - والضال هو الضائع التائه الذي لا يعرف طريقه ووجهته - والبشر قبل إشراق نور النبوة كانوا كذلك، الأنعام أهدى سبيلاً منهم، لا يعرفون لماذا خلقوا، ولا يعلمون الوجهة التي ينبغي أن تتجه أعمالهم وأقوالهم إليها، فجاء الإسلام فعرفهم بالهدف والطريق الموصل إليه، وقال لهم أنتم مخلوقون لعبادة الله وحده، وهذا الدين أنزله الله إليكم ليدلكم كيف تعبدونه، وعرفهم بالجزاء الذي يستحقونه في حال استقامتهم، وفي حال اعوجاجهم، وعندما وضع السبيل والغاية وتحركت الأمة الإسلامية في المسار الصحيح صلح أمر الناس، وإنجابت عنهم الظلمات⁽³⁾، وهذا ما جسده عمير بن الحُمَام⁽⁴⁾ يوم بدر،

1 - ظاهرة النفاق ص: 17

2 - المصدر السابق والصفحة نفسها.

3 - نحو ثقافة إسلامية أصيلة: عمر سليمان الأشقر، ط/4، 1414 هـ - 1994 م دار النفائس للنشر، عمان - الأردن، (ص: 32)

4 - بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم - ابن الجحوح بن زيد ابن حزام الأنصاري الصحابي: شهد بدرًا واستشهد بها، وهو أول قتيل من الأنصار، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث المطليبي، فاستشهدا في وقعة بدر. تهذيب الأسماء، للنووي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (ص: 548)

حينما قال ﷺ: " قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض". فقال يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: "نعم" قال: بنح (1) فقال ﷺ: "ما يملكك على قولك بنح بنح؟" قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: "فإنك من أهلها". فأخرج تمرات من قرنه (2) فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قائلهم حتى قتل" (3)، ثم سار في ذكر الظاهرة الثانية والتي تعكس الجهل بالتصورات والمفاهيم الإسلامية، وتجسم الاستهتار الواضح بقيم هذا الدين والإعراض التام عن توجيهاته وتعليماته، حتى إن اختلاط المفاهيم لدى هذه الفئة قد يصل أحياناً إلى الوقوع في أخطاء فادحة فاحشة... وأنَّ السبب الحقيقي وراء هذه الظواهر هو الجهل بحقائق اصطلاحات الإسلام وموحياته الشرعية والدينية... وهنا يؤكد النامي أنَّ علاج الجهل بالمصطلحات الإسلامية والدينية لا يتم إلا بالعلم حيث قال: "ولا نعرف دواء للجهل غير العلم، وأن هذه الدراسة - ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية- والتي يهدف من خلالها إلى: تأصيل المفاهيم الإسلامية، وتأكيد مصطلحاتها الشرعية والدينية وترسيخها، وإظهار الشخصية الإسلامية المتميزة التي لن نتأكد ولن تصبح مؤثرة وفعالة حتى تحقق لنفسها تميزها الذي يستند في حقائقه كلها إلى عقيدتها الإسلامية ومورثاتها الأصلية أولاً" (4)، وأنَّ علاجها يكمن في تصورها الصحيح وفق إطارها التاريخي، وهذا ما أشار إليه الدكتور نوري خليل مسير العاني عند حديثه عن صراعات الهويات، أنَّ المواجهة الحديثة بين الحضارة الإسلامية والغربية الغازية المتمثلة في الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م أسهمت في ظهور تيارات بمختلف مسمياتها- العلمانية واللا دينية- في إبعاد الإسلام عن مجالي الحكم والتوجيه، حيث قال: "ولكن التراجع الحضاري الكبير الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية في كافة الميادين، فتح الباب لتيارات وثقافات أخرى غربية على حضارتنا الإسلامية، وغربية على تاريخنا ومجتمعنا الإسلامي، لتفرض نفسها على الساحة وتعرض بضاعتها على الناس، فراحت هذه الدعوات الجديدة تزاحم المشروع الحضاري الإسلامي النهضوي وتناصبه العداء، وتتهمه

1 - كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه في الخير. انظر شرح النووي 13 / 45.

2 - أي جعبة الشباب. انظر شرح النووي 13 / 46.

3 - مسلم، كتاب الإمامة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم الحديث (1898) 3 / 1510.

4 - ظاهرة النفاق ص: 18

بالرجعية في التفكير والعيش في الماضي، وبعدم صلاحية مشروعه النهضوي في ظل التطورات التي تشهدها الحياة المعاصرة، وتتهم الإسلام بعدم قدرته على مواكبة هذه التطورات، فدعت إلى إبعاد الدين الإسلامي عن مجال الحكم والتوجيه...⁽¹⁾

الفصل الثاني: أصل الاصطلاح:

بعد أن استعرض النامي في إجابته عن استغراب البعض في دراسة ظاهرة النفاق وعلاجها وفق الموازين الإسلامية، فقد سار على نهج العلماء الربانيين، الذين إذا تحدثوا عن قضية ربطوا فيها بين الواقع المشهود والحق المنشود، حتى يكون الواقع حقاً والحق واقعاً، والحق صنو الحقيقة؛ فما هو النفاق؟ فبدأ تعريفه بالمعنى اللغوي، فذكر أن النفاق مصدر من المادة نفق، والمادة عربية بلا شك. وبذلك يرد على من انحرفت عنده بوصلة التعريف وغابت عنه معاني اللغة في بيان المصطلحات حسب زعمهم، قال: "وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين من غير العرب إلى إرجاع المصطلح إلى لغات غير العربية، فهناك من اقترح أن يكون أصل المادة من الحبشية... وأغرب منه تفسير آخر، يرجع أصل الكلمة إلى مادة الإنفاق من أنفق... ويذهب إلى أن المنافقين فئة كانت تقوم بالإنفاق على المسلمين في الغزوات والمعارك ويتخلفون عن الغزو، وهذا تأويل شديد الضعف لا نستطيع أن نجد له مستنداً من أي وجه، ولا يحتاج المرء إلى مناقشته، فأصل المادتين مختلف في اللغة، فأصل الإنفاق أنفق ينفق نفقة وإنفاقاً، بينما أصل النفاق من نافع ينافق نفاقاً، والفرق بين المادتين بعيد.

أما محاولة إرجاع الاصطلاح إلى نظيره في لغة الأحباش فلا نعرف له داعياً، غير هذا التحل، الذي يحاول أن يرجع الدين الإسلامي إلى أصول مسيحية أو يهودية... وقد ذكر العلماء المسلمون عدداً من المفردات اللغوية التي وقعت في القرآن الكريم مما استجلبته اللغة العربية من اللغات المجاورة، ولم يذكروا النفاق في عداد هذه الكلمات.⁽²⁾ فقد بدر الدين الزركشي في البرهان في باب معرفة ما فيه من غير لغة العرب كلاماً من هذا، فقال: "وقال أبو عبيدة فيما حكاه ابن فارس إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فن زعم أن

1 - الهوية الإسلامية في زمن العولمة. ص: 16 ط/1 2009م مركز البحوث والدراسات الإسلامية الوقف السني العراقي

2 - المصدر السابق. ص: 27.

فيه غير العربية فقد أعظم القول ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول قال: ومعناه أتى بأمر عظيم وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها... وقال ابن عطية بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسن بتجارات وبرحلي قريش وبسفر مسافرين... فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه" (1)

فالنامي عند بيانه لأصل كلمة النفاق، أيد أنها من الأصول العربية، ولم يُسلم بما ذكره بعض المتحاملين على اللغة، وأن الدين الإسلامي بعض أصوله مسيحية أو يهودية؛ لأن الأمم لا تحيا بدون هوية، إذ الهوية بالنسبة للأمة بمثابة البصمة التي تميزها عن غيرها، وهي أيضا الثابت التي تتجدد، ولكنها لا تتغير، ولا يمكن لأمة تريد لنفسها البقاء والتميز أن تتخلى عن هويتها، فإذا حدث ذلك فعناه أن الأمة فقدت استقلالها وتميزها، وأصبحت بدون محتوى فكري، أو رصيد حضاري (2).

ثم ينتقل النامي إلى تأصيل المصطلح في إطاره الشرعي حيث قال: "وقد حرص القرآن حرصاً ظاهراً على حقيقة هذا المصطلح الجديد وعلى مدلوله أيضاً، ورسم بدقة متناهية في عدد من السور ملامح هذه الفئة من الناس الذين نجم أمرهم في المدينة المنورة، بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فمن الناس من كان يظهر الكفر مُستَكْرَهاً، وهو في الباطن مؤمن (3)... وأول ما نزل من القرآن في صفة المنافقين جاء في سورة البقرة، وهي أول ما نزل من القرآن بالمدينة، وفيها وصف لهم وبيان لبعض أحوالهم وأخلاقهم، وضرب الله الأمثال لهم ولكن لم ترد تسميتهم باسم النفاق في سورة البقرة، بل تحدثت الآيات عن صفاتهم وأحوالهم بإسهاب وبيان، وأول ما جاء ذلك - أعني تسميتهم باسم النفاق - في سورة الأنفال قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

1 - البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/1، 1376 هـ - 1957 م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 289/1.

2 - ينظر: الهوية الإسلامية د/ جاسم بن محمد المهلهل الياسين ص: 9 ط/1 2012 م مؤسسة الساحة للنشر والتوزيع - الكويت.

3 - تفسير ابن كثير (1/ 176)

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءِ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ⁽¹⁾، ثم نتابع استعمال هذا الاسم ومشتقاته في القرآن في الآيات التي عالجت هذه الظاهرة بعد ذلك⁽²⁾

الفصل الثالث: ظاهرة النفاق في المدينة:

في هذا الفصل حدد النامي مراكز القوة في المدينة حيث قال: "لقد كانت المدينة موطن قبيلتين أساسيتين، من أصل جنوبي هما الأوس والخزرج، وكان معهما وفي جوارهما مجموعات يهودية، كان هذان الحيان من الأوس والخزرج ومن دار في فلكهما، يعيشان صراعاً متصلاً، وكان هذا الصراع التقليدي بين الحيين فيما بينهما وبين جيرانهم من اليهود من العوامل الأساسية التي دفعت الكثير من كلا الجانبين إلى التطلع إلى وضع تتحقق فيه الغلبة لأحد الجانبين والاستقرار والأمن، وكانوا يتطلعون إلى منقذ يحقق ذلك.... وكان إقبال أهل المدينة على الإسلام جيداً، إذا ما قورن بالمعارضة الشديدة التي واجهته في مكة... وكانت القوى الموجودة في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها هي:

أولاً: الجماعة الإسلامية متمثلة في مجموع المهاجرين والأنصار.

ثانياً: العناصر المدنية التي لم تسلم بعد.

ثالثاً: اليهود في تجمعاتهم بالمدينة وخارجها.⁽³⁾

الفصل الخامس: ظاهرة النفاق في الموازين الإسلامية:

إن القرآن في أسلوبه ومنهجه يعالج قضية متكاملة، وهي قضية الإنسان وتبليغه رسالة الإسلام وهدى الله سبحانه، وتبصير الطريق القويم السليم بمنهج متكامل يدل على الحق ويحذر من الباطل، ويأمر بالصلاح وينهى عن الفساد، ونحن في علاجتنا لهذه المسألة نشعر أننا ننتقص من هذا المنهج القرآني ونظلمه إلى حد بعيد... ولكن عذرنا في هذا أننا نحاول تسليط الضوء على ظاهرة بعينها، ولكن لن نتضح صورة النفاق حتى تعرض إطارها الصحيح بعرض الصورة المقابلة- صورة الإيمان العميق، والإيمان والعقيدة الصادقة بكل مقوماتها وإيجابياتها، وهو أمر لا يقوم به مثل هذا البحث، وكل ما يطمح إليه هو توجيه

1 - سورة الأنفال الآية: 49

2 - ظاهرة النفاق ص: 29

3 - المصدر السابق ص: 36.

القارئ إلى استطلاع القرآن بنفسه مباشرة، وقراءة سيرة الرسول ﷺ وحديثه، فتلك هي الوسيلة المثلى لاستيعاب المنهج القرآني المتكامل، ومعرفة التصور الصحيح لمظاهر النشاط الإنساني في مختلف مجالاته، ولإدراك الحق ومعرفة الهدى الذي أكرم الله به الإنسان المسلم وكلفه بتبليغه إلى الناس⁽¹⁾.

أولاً: النفاق في العقيدة:

ويخلص النامي في عرضه لظاهرة النفاق في جانب العقيدة قائلاً: " فموقف المنافق تجاه آيات الله سبحانه وتعالى، موقف الإعراض والانصراف والصد والاستهزاء، وإذا أردنا أن نستجمع خيوط موقف المنافقين من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله ﷺ، وموقفهم تجاه آيات الله البيّنات وجدناها موقف الكفر بالله وسوء الظن به سبحانه وعدم الثقة في وعده، والإخلاف لعهد الإعراض عن حكمه وأمره، أما موقفهم حيال رسول الله ﷺ فكان موقف التكذيب والإساءة والأذى والاستهزاء، أما موقفهم من آيات الله سبحانه فهو موقف يتردد بين الأعراض عنها، والصد عن سبيلها، والكفر والاستهزاء بها... وقد جعل وضعهم هذا منهم فئة من أخطر الفئات التي حملت لواء العداوة لله ولرسوله وللمسلمين، وكانت في كل أدوارها مصدر أذى للمسلمين، ومطية من مطايا التوهين والفساد في داخل بناء الجماعة المسلمة"⁽²⁾

ثانياً: النفاق في الصلاة:

وكان من الطبيعي أن يستتبع فساد العقيدة فساد العمل، وأن ينعكس تأثير العقيدة المدخولة المهزوزة على مظاهر الحياة العملية التي يمثّلها المنافقون في سعيهم، وما يصدر عنهم من نشاط وتحركات في شتى المجالات، وفي الأفعال والطاعات، فقيامهم للصلاة ليس كقيام المؤمن المتطلع إلى مناجاة ربه، يحركه الشوق ويدفعه النشاط، ولكنه قيام المتصنع المتظاهر بما لا يريد عمله، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾⁽³⁾ وكذلك كان من حالهم عدم الاستجابة لنداء الصلاة، فالتخلف عن النداء علامة من علامات المنافقين حقيقة... فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ

1 - ظاهرة النفاق ص: 85—86

2 - المصدر السابق ص: 103

3 - سورة النساء، الآية: 142.

(من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق)، وقد وصف رسول الله ﷺ صلاة المنافقين فقال: (تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً) (1) فظهر أن صفات المنافقين إجمالاً على النحو الآتي:

1 - يدعون الإيمان، وهم كاذبون.

2 - يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم. (2)

وأوضح - النامي - أن صلاة كهذه لن يكون لها أثر في تزكية النفس وتهذيبها، فليست بالتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل على العكس من ذلك فهي تصم صاحبها بالخداع والغش الدائمين، ثم ختم النامي مظاهر المنافقين في أداء الصلاة بالحديث عن بناءهم لمسجد ضرار حيث قال: "والذي يهمننا الإشارة إليه هنا هو محاولة المنافقين تطويع العبادة ومؤسساتها لأهدافهم الخبيثة... والمسجد - الذي ينبغي أن يكون بيت الله في الأرض، ومصدر الهداية والصلاح والتقوى - جعله المنافقون وسيلة لتفريق وإضرار وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (3)، إن وسائل المنافقين في الكيد والشر لا تتوقف عند هذا الحد، بل إنها تمتد إلى جميع المجالات؛ لتلبيس على المسلمين دينهم وتفسد عليهم أمرهم، ويصل الأمر إلى اتخاذ شرائع الإسلام وشعاراته ومؤسساته منطلقاً للفساد والتضليل والتفريق، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويحرق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق.

ومساجد الضرار الكثيرة هذه ينبغي كشفها وأنزل اللافات الخادعة عنها؛ وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول

1 - أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استجاب التكبير بالعصر، 1/ 434، برقم 622.

2 - نور الإيمان وظلمات النفاق في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ط/ 1، 1419 هـ مطبعة سفير، الرياض، ص 47.

3 - سورة التوبة الآية 107

الله ﷻ بذلك البيان القوي الصريح⁽¹⁾، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ⁽¹⁰⁷⁾﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ⁽¹⁰⁸⁾﴾ أَفَنُؤَسِّسُ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أُسْسٍ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ⁽²⁾، وهكذا فإن الفيصل في أمور الإسلام ليس ما ينصب من مؤسسات وما يرفع من شعارات، وما يقام من هيئات، ما لم يكن في أهلها القائمين بها صدق العقيدة وإخلاص العمل وتحري تقوى الله عز وجل⁽³⁾.

ثالثاً: موقف المنافقين من الصدقة والنفقات:

من الأمور التي أخذها القرآن على المنافقين شُحُّهم وبخلهم الذي منعهم من تحمل نصيبهم في النفقة والصدقات، فهم قد بخلوا عن النفقة في سبيل الله، فالشح غالب على طبعهم، وقد وصفهم بذلك في سورة الأحزاب، في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا⁽¹⁸⁾﴾ أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ليس هذا فحسب، فهؤلاء لا يكتفون بالبخل بأموالهم، وتحريض غيرهم على الإمساك وعدم النفقة، بل يتجاوزون ذلك إلى السخرية من المسلمين عندما يرون منهم إقبالا على النفقة باليسير الذي في أيديهم، ويشككون في بذل ذوي السعة منهم ممن ينفق المال الكثير، فيصفونه بالرياء شغباً وحسداً وإمعاناً في الفساد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁴⁾ يلمزون المكثري في الصدقة فيقولون: قصد بنفقته الرياء، والسمة، ويلمزون المقل الفقير فيقولون: إن الله غني عن صدقة هذا⁽⁵⁾.

1 - في ظلال القرآن سيد قطب (4 / 79)

2 - سورة التوبة الآيات 107 - 108 - 109

3 - المصدر السابق والصفحة نفسها.

4 - سورة التوبة الآية 79

5 - نور الإيمان وظلمات النفاق في ضوء الكتاب والسنة (ص: 46)

رابعاً: موقف المنافقين من الجهاد:

وقد أصبح موقف التخلف عن الجهاد علامة من علامات النفاق الظاهرة تتكرر كلما عرضت غزوة أو سرية تتداخل ما بين نكوص عن الجهاد وتوهين عن المسلمين، وبين تحريض لأعداء الإسلام من يهود وغيرهم ومؤازرتهم على حرب الإسلام، وتكذيب الرسول ﷺ حيث قال: " وموقف المنافقين من الجهاد هو موقف التخلف والنكوص والتثبيط والتخذيل، وقد كان موقفهم ذاك صورة تتكرر في مراحل الصراع بين الإسلام وأعدائه، وهي من أشق وأشد المواقف على كتيبة الإسلام، وإن كانت من وجه آخر، مصدر تنقية وتصفية وتخييص، حتى تصفو الجماعة المسلمة من كل غبش وكدر وفساد" (1)، فمن صفات المنافقين وخصالهم (2): عدم الخروج للجهاد، وهذا في غالب أحوالهم، وقد يخرجون نفاقاً أو إرجافاً أو غير ذلك، وهذا في القليل النادر. قال تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (3)، إن المنافقين لا يجدون بداً من التخلف عن الجهاد وإبداء الأعذار الواهية، فبعضهم يعلل عدم خروجه للقتال بعدم تمكنه من إعداد العدة، ولكن الله يفضحهم ويبين أن سبب عدم خروجهم للقتال هو عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وتعلل بعضهم بخشية الفتنة كما زعم، قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (4).

وتقاعس بعضهم عن الخروج لبعد السفر وحصول المشقة؛ قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا نَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (5). ومن صفاتهم ترك الجهاد (6) فعن أبي هريرة، قال: قال رسول ﷺ: (من مات ولم

1 - ظاهرة النفاق ص: 119.

2 - الصحابة والمنافقون في صدر الإسلام: الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش (ص: 14) ط/1 1428هـ

3 - سورة التوبة الآية 93-94

4 - [التوبة: 49]

5 - سورة التوبة: 42

6 - صفة النفاق ونعت المنافقين لأبي نعيم تقديم وتحقيق: الدكتور عامر حسن صبري (ص: 120) ط/1، 1422هـ -

يغزو، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من نفاق⁽¹⁾ فالمنافقون هيك من البناء الفاسد الذي تجتمع فيه مقومات تكوينهم النفسي والأخلاقي، لتجعل منهم مصدر تخذيل وتعويق، فهم يخذلون غيرهم ليكونوا مثلهم، وهم إن ألجأهم الأمر إلى القتال واضطروا إليه، لم تكن منهم نكاية في العدو، ولا كان لهم القتال شأن... قد تمكن منهم الشح والجبن، فدخلوا بالمال والنفوس... وفيما تقدم يصور للقارئ موقف المنافقين من فريضة الجهاد، وهو موقف متخاذل متردد، قوامه التخلف عن الجهاد، وحجب كل ما يملك من مادية ومعنوية عن الجماعة المسلمة، في ساعات أشد ما تكون الحاجة إليها وتخذيل المسلمين، والإرجاف بهم والشغب عليهم، وإدخال الخيال والفتنة في صفوفهم، وتحريض أعدائهم عليهم، وإلقاء المودة إلى هؤلاء الأعداء، وهذه مواقف أقل ما يقال في الواحد منها أنه خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، فما بالك إذا اجتمعت في صعيد واحد⁽²⁾.

الفصل السادس: الملامح العامة لظاهرة النفاق:

وقد استدرك فيه ما يمكن إضافته حيث قال: "ولعل من المفيد أن نورد هنا المزيد من الآيات والأحاديث التي أظهرت هذه الفئة، وهذه الظاهرة مما فاتنا من إيرادها فيما تقدم من مباحث من قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فتصفهم الآية - رجالا ونساء - صنفاً واحداً، وإن أمرهم وحد، وقد ذكر المنافقات الى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة، واستدل به أنه كان للمرأة دور في حركة النفاق، كما كان لها دور في الحركة الإسلامية والحركة الجهادية معاً⁽³⁾، فقال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في صفة النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعض الشيء الواحد كما يقال: أنت مني وأنا منك، أي أمرنا واحد لا مباينة فيه⁽⁴⁾ وإن أهل النفاق رجالا ونساء،

2001م الناشر: البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان

1 - صحيح مسلم - تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي (3/ 1517)

2 - ظاهرة النفاق ص: 127.

3 - إحقاق الحق في النفاق أ/خالد بن إبراهيم جرجور، تقديم: الشيخ خليل الميس (ص: 27) مؤسسة الريان للطباعة والنشر.

4 - التفسير المنير وهبة بن مصطفى الزحيلي (10/ 294) 1418 هـ، مكان الطبع: بيروت دمشق الناشر: دار الفكر

المعاصر

يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، يأمر بعضهم بعضاً بفعل المنكر، كالكذب والخيانة، وإخلاف الوعد، ونقض العهد... وينهون عن فعل الخير والمعروف: كالجهاد، وبذل المال في سبيل الله، ويضنون بالإنفاق في وجوه البر والطاعات والإحسان إلى عبادة الله... والمنافقون هم أكثر الناس فسوقاً، وخروجاً عن طاعة الله، وانسلاخاً من الفضائل الفطرية السليمة⁽¹⁾.

وقد فصل القرآن الكريم في أوصاف المنافقين، حتى لا يغيب شأنهم عن الناس، وحتى ينتبه أهل الغفلة فيتوبوا ويرجعوا، ويحذر المؤمنون الصادقون الوقوع فيما يهلكهم ويرديهم من تلك الأوصاف القبيحة المشينة، ثم ضرب لهم الله الأمثال في كتابه "زيادة للكشف وتيما للبيان" وذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ⁽¹⁷⁾ صَمٌّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ⁽¹⁸⁾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ⁽¹⁹⁾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽²⁰⁾﴾.

الفصل السابع: أحكام المنافقين:

انطلق النامي في حكمة المنافقين من خلال تساؤلات عدة، حيث قال: "سنحاول في هذا الفصل التعرف على التدابير التي شرعها الإسلام لمعالجة ظاهرة النفاق، كيف نظر إليها، وكيف وجه أتباعه للسلوك تجاه هذه الظاهرة... وفي معرض إجابته فند القول بأن المنافقين يمثلون دور المعارضة الإسلامية، فقال: "لقد وصف أحد الكتاب الغربيين دور المنافقين بأنه دور المعارضة الإسلامية... وإذا سلمنا مع الكتاب اعتبار دورهم الذي استعرضناه فيما سبق في ثنايا البحث دور المعارضة بمعناها السياسي المعاصر فهذا غير صحيح أيضاً، فنحن إذا قبلنا ذلك، فلن نقبل الوصف الذي وصفها به، بأنها معارضة مسلمة، فقد رأينا أن اعتناقهم للإسلام ليس إلا تعوداً من السيف ورأينا صوراً من استهزائهم

1 - أسير التفسير لأسعد حومد (ص: 1303)

2 - الآيات من 17 - 20.

آيات الله تعالى، ومعصيتهم للرسول -صلى الله عليه وسلم- وعدم الاستجابة له، ورأينا ألواناً من خلفهم للعهود وسوء ظنهم بالله، ورأينا تخاذلهم عن الجهاد وموالاتهم لأعداء الله من المشركين واليهود، فصفة الإسلام لم تكن لتصدق عليهم بحال... ثم إن الأمر يختلف اختلافاً كاملاً عندما يكون معارضة لرسول مرسل من عند الله تعالى، يبلغ الوحي عن الله، ويعمل لإعلاء كلمة الله، فعندما تكون المعارضة حرباً لهذا الرسول ولدينه فمن الخطأ أن نصفها بوصف المعارضة الإسلامية، ولكننا رأينا فيما تقدم أن معارضتهم تلك -بشهادة الوحي- كانت للعقيدة نفسها، ولالدين نفسه، وللرسول نفسه، وقد كانت تمثل في صورة عمل متصل لحربه بكل الوسائل التي يمكنهم منها وضعهم الخالص داخل المجتمع الإسلامي. وهكذا فحن نجد في تسمية حركة المنافقين بالمعارضة الإسلامية تجاهلاً حقيقياً لحقيقة النفاق ودور أصحابه"⁽¹⁾.

هذا، وقد عالج الإسلام مشكلة النفاق في إطارين اثنين يخدم كلاهما الآخر ويكمله: الإطار النظري الذي حدد معالمه القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ، ثم الإطار العملي الذي يحقق الصورة العملية لتوجيهات القرآن وإرشاداته. ففي الإطار الأول كشف القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مواصفات المشكلة وأعراضها، وخدم هذا العمل في خطين اثنين: كشف دخيلة هؤلاء الناس فأراح عنهم قناع الادعاء الذي يستترون به بتظاهرهم بالإسلام- بينما يحاربون الإسلام وأهله ويكفون له، وبصر ثانياً أهل الإسلام الصادقين حتى لا يقعوا في محاذير تلك الأوصاف القبيحة.

أما عن المواقف العملية التي واجه بها المسلمون موجة النفاق، فما أرشد إليه القرآن في أول الأمر البراءة منهم وهجرهم ومقاطعتهم، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾⁽²⁾، ومن التوجيهات القرآنية التي تدل على موقف محدد ما أمر الله به تعالى المسلمين من مقاطعة مجالس المنافقين، التي يعلنون فيها كفرهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى، جاء في هذا الشأن قوله تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا

1 - ظاهرة النفاق ص: 147

2 - سورة النساء الآية 88

سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفِرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا⁽¹⁾ وإلى جانب ما تقدم، فقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بموعظة المنافقين وبالإعراض عنهم. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا⁽²⁾، وبعدم التعرض لهم بالأذى، وأن يتوكل عليه سبحانه وتعالى، ففي ذلك ما يصرف عنه شرورهم وكيدهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا⁽³⁾، ثم تدرج الأمر معهم إلى اتخاذ تدابير عملية أدت إلى حرمان من تخلف منهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وعدم المشاركة في الجهاد من الخروج إلى الجهاد مرة أخرى، السبب قعودهم وتخلفهم، وذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ⁽⁴⁾، وصحب هذا حرمانهم من استغفار الرسول لهم قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ⁽⁵⁾، وعدم الصلاة على موتاهم والوقوف على قبورهم والدعاء لهم، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ⁽⁶⁾، وعلى كثرة المصاعب والمتاعب التي سببها المنافقون في مسيرة الدولة الإسلامية، وعلى كثرة شغبهم وما نال المسلمين من كيدهم وسوء فعلهم... فإن أعنف مظاهر الضرب على أيديهم ما ورد مكن أمره عليه الصلاة والسلام منى تحريق مسد الضرار، وإحراق بيت سويلم اليهودي الذي كان مقر لقاءهم مع نفر من اليهود، وإخراج عدد من المنافقين من مسجده ﷺ⁽⁷⁾.

1 - سورة النساء الآية: 140

2 - سورة النساء الآية: 63

3 - سورة الأحزاب الآية: 48

4 - سورة التوبة الآية: 83

5 - سورة التوبة الآية: 80

6 - سورة التوبة الآية: 84

7 - ظاهرة النفاق ص: 156

وختاماً، فلقد خلصت الفصول السابقة التي استعرضها النامي، إلى ما يلي:

- 1- أن النفاق ظاهرة بشرية عامة، تبرز عندما تتوفر لها الظروف التي تنشأ فيها.
- 2- ينشأ النفاق في حقيقته عن ضعف، إما ذاتي، أو بسبب ظروف خارجية غالبية.
- 3- إن الأديان والأفكار والأنظمة والنشاطات البشرية والتصورات المرتبطة بما عدا الإسلام تمثل ركائماً جاهلياً، يقف في صف الباطل.
- 4- إن الإسلام دين الله الحق، وهو الهدى الذي أرسله الله إلى البشر، وختم به رسالاته لهم.

المصادر والمراجع:

- 1- نظام العزابة عند الإباضية الوهبيّة في جربة: الدكتور فرحات بن علي الجعبيري " نشر معهد الآثار بتونس 1975، المطبعة العصرية تونس.
- 2- عمرو النامي، أستاذ الجامعة وراعي الغنم المستشار عبد الله العقيل 16/تموز/2020م- رابطة أدباء الشام.
- 3- مجلة العلم - العدد 468 السبت، 30/يناير 1993م / شعبان 1413هـ
- 4- دراسات في الإباضية- رسالة دكتوراه — جامعة كامبريدج البريطانية ط1/2001م دار الغرب الإسلامي بيروت ترجمة ميخائيل جوري وماهر جزار.
- 5- عمرو النامي. مسيرة عطاء في درب الخير، سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني. ط/1 2008م مكتبة الأنفال سلطنة عمان.
- 6- إعلام الموقعين تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973.
- 7- ظاهر النفاق في الموازين الإسلامية، دكتور عمرو خليفة النامي ألفه في سنة 1973م وطبع بالمكتبة السلفية 1979م، الكويت.
- 8- صحيح البخاري- تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر ط/1/1422هـ طوق النجاة.
10. نحو ثقافة إسلامية أصيلة: عمر سليمان الأشقر ط/4، 1414 هـ - 1994 م دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
11. تهذيب الأسماء، للنووي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
12. الهوية الإسلامية في زمن العولمة، الدكتور نوري خليل مسير العاني، ط/1 2009م، مركز البحوث والدراسات الإسلامية الوقف السني العراقي.

13. البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم ط/1، 1376هـ - 1957م دار إحياء الكتب العربية.
14. الهوية الإسلامية د/ جاسم بن محمد المهلهل الياسين ط/1 2012م، مؤسسة السماحة للنشر والتوزيع، الكويت.
15. تفسير ابن كثير، تحقيق، سامي بن محمد سلامة ط/2 1420هـ - 1999م، دار طيبة للنشر والتوزيع.
16. نور الإيمان وظلمات النفاق في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني ط/1، 1419هـ مطبعة سفير، الرياض.
17. الصحابة والمنافقون في صدر الإسلام، الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش، ط 1428، 1هـ.
18. صفة النفاق ونعت المنافقين، لأبي نعيم، تقديم وتحقيق: الدكتور عامر حسن صبري ط/1، 1422هـ - 2001م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
19. إحقاق الحق في النفاق، خالد بن إبراهيم جرجور، تقديم، الشيخ خليل الميس، مؤسسة الريان للطباعة والنشر.
20. التفسير المنير وهبة بن مصطفى الزحيلي ط/ 1418 هـ، دار الفكر المعاصر، دمشق.
21. تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ ط/2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.